

عُرُجُ الْخَصَائِصِ الْفَاضِحَةِ وَعُرُجُ النِّقَائِصِ الْفَاضِحَةِ

كتابٌ شاملٌ لأطرافٍ متباينةٍ من فنون الأديب والحكمة
يهدف إلى تنمية الفضائل الإنسانية في النفوس

تأليف

الإمام العلامة أبي إسحاق جمال الدين

محمد بن إبراهيم بن محيي الدين

المعروف بالطواط

المتوفى ٧١٨ هـ

ضبطه وصححه دكتور محمد بن عبد الله بن عبد الله

إبراهيم بن محمد بن عبد الله بن عبد الله

Title : **ĞURAR AL-ĤAŞĀ'İŞ AL-WĀDIĤAH**
WA'URAR AL-NAQĀ'İŞ AL-FĀDIĤAH
(A book in letters and wisdom)

classification: *literature*

Author : Jamāluddīn al-Waṭwāṭ
Editor : Ibrāhīm Šamseddīn
Publisher : Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Pages : 712
Year : 2008
Printed in : Lebanon
Edition : 1st

الكتاب : غرر الخصائص الواضحة
وعرر النقااa

التصنيف : أدب
المؤلف : جمال الدين محمد بن إبراهيم الوطواط
المحقق : إبراهيم شمس الدين
الناشر : دار الكتب العلمية - بيروت
عدد الصفحات : 712
سنة الطباعة : 2008
بلد الطباعة : لبنان
الطبعة : الأولى



دار الكتب العلمية

أسسها محمد علي بيضون سنة 1971

بيروت - لبنان

Copyright



All rights reserved
Tous droits réservés



جميع حقوق الملكية الادبية والفنية محفوظة

لدار الكتب العلمية بيروت - لبنان
ويحظر طبع أو تصوير أو ترجمة أو إعادة تنضيد الكتاب كاملاً أو
مجزئاً أو تسجيله على أشرطة كاسيت أو إدخاله على الكمبيوتر
أو برمجته على اسطوانات ضوئية إلا بموافقة الناشر خطياً.

Exclusive rights by ©

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Beirut - Lebanon

No part of this publication may be translated,
reproduced, distributed in any form or by any means,
or stored in a data base or retrieval system, without the
prior written permission of the publisher.

Tous droits exclusivement réservés à ©

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Beyrouth - Liban

Toute représentation, édition, traduction ou reproduction
même partielle, par tous procédés, en tous pays, faite
sans autorisation préalable signée par l'éditeur est illicite
et exposerait le contrevenant à des poursuites
judiciaires.

الطبعة الأولى

٢٠٠٨ م - ١٤٢٩ هـ

دار الكتب العلمية

أسسها محمد علي بيضون سنة 1971

بيروت - لبنان

Mohamad Ali Baydoun Publications Dar Al-Kotob Al-ilmiyah

Aramoun, al-Quebbah,

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Bldg.

Tel : +961 5 804 810/11/12

Fax: +961 5 804 813

P.O.Box: 11-9424 Beirut-lebanon

Riyad al-Soloh Beirut 1107 2290

عربون ، القبة

مبنى دار الكتب العلمية

هاتف: +٩٦١ ٥ ٨٠٤ ٨١٠/١١/١٢

فاكس: +٩٦١ ٥ ٨٠٤ ٨١٣

ص.ب: ١١ - ٩٤٢٤ بيروت - لبنان

رياض الصلح - بيروت ١١٠٧ ٢٢٩٠

<http://www.al-ilmiyah.com>

sales@al-ilmiyah.com

info@al-ilmiyah.com

baydoun@al-ilmiyah.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تقديم

تعتبر القصة والأثر الأدبي من أقدر الأساليب على تنمية الفضائل الإنسانية في النفوس، وتمثيل الأخلاق، ورسم خَلَجَات النفوس، كما أنها إذا شُرِفَ غرضها، وبُئِلَ مقصدها، وكُرِّمَت غايتها، تهذب الطُّباع، وترقِّق القلوب، وتدفع الناس إلى الاقتداء بالمُثل العليا، من الإيمان والواجب والحق والتضحية والكرم والشرف والإيثار.

وهذا هو مقصد أبي إسحق برهان الدين الكتبي، المعروف بالطواط، في كتابه (غرر الخصائص الواضحة وُغُرر النقائص الفاضحة)، إذ يقول في مقدمته: «... فإني لَمَّا رأيت تغاير معاني الأخلاق دالاً على تباين معاني الأعراق، والنفوس تتفاوت في ميلها إلى أغراضها على حسب اختلاف جواهرها وأعراضها، خداني غرض اختلج في سرِّي، وأمل اعتلج في صدري على أن أجمع كلاماً في المحامد والمَذَام المتخلِّقة بها نفوس الحَوَاصِّ والعَوَامِّ، وأجعله كتاباً يُغني اللُّبیب عن الخليل والتَّدِيم ويُخبر بالحديث والقَدِيم...».

والحقيقة فقد وُفِّق المؤلف في غايته هذه، فهو كتاب مُمتِع، وسَمِیرٌ مُؤنس يشدُّك إليه، ويأخذ بمجامع قلبك، فلا تجد سبيلاً للخلاص من رفقته ومعاشرته، لأنه يجمع بين دَفْتِيهِ كُلِّ ما يُنَمِّي الروح، ويهذب الأخلاق، ويصقل الفكر والضمير، وكلِّ ما تعلقه النفس وتمسك به وترتاح إليه.

وهذا الكتاب شامل لأطراف متباينة من فنون الأدب والحكمة والقول، فإن المؤلف، كما صرَّح في تقديمه للكتاب، كان يهدف إلى تنمية الفضائل الإنسانية في النفوس، بعد أن فقدت في عصره الذي عاش فيه كثيراً من مقوماتها وأسس بنائها بفعل الظروف التي ساعدت على التهتك والمجون والتحلل من القيم الإسلامية

الْحَيِّرة، فضلًا عن شيوع كثير من العادات والتقاليد التي لا تُمُتُّ إلى العقيدة السَّمحاء بصلة.

وكان المؤلف يجمع ويرتّب الكثير من الأقوال والأشعار والقصص ضمن أبواب شاملة لجوامع الكَلِم، بحيث نرى الباب يبتدىء إما بذكر آيات من القرآن الكريم تتناسب وموضوع الباب، ثم يُتبعها بأحاديث للرسول ﷺ في الموضوع نفسه، ثم يُتبعهما بعد ذلك بكثير من الحِكم والقصص والأشعار والطرائف التي لا تُخالف المغزى المقصود من إثباته.

أما عملنا في هذا الكتاب:

أولاً: وضعنا ترجمة مختصرة للمؤلف.

ثانيًا: بذلنا ما أمكننا من الجهد في مقابلة ومقارنة النصوص التي أوردها المؤلف في كتابه، والتي أخذها من مصادر التراث.

ثالثًا: وضعنا في حواشي الكتاب شرحًا لِمَا في متنه من غريب اللغة أو صعب المُتَنَاول منها، استنادًا إلى المعاجم اللغوية المشهورة.

رابعًا: خرّجنا معظم الشواهد الشعرية في مَظَانِها، مع وضع البحور لكل الأشعار.

خامسًا: خرّجنا معظم الأحاديث النبوية استنادًا إلى كتب الحديث المعتبرة.

وأخيرًا نرجو أن يكون عملنا هذا خالصًا لوجه الله تعالى، والله الكمال وحده، وهو وليُّ التوفيق.

إبراهيم شمس الدين

ترجمة المؤلف^(١)

هو محمد بن إبراهيم بن يحيى بن علي الأنصاري الكتبي، جمال الدين، المعروف بالوطواط، من أهل مصر، وُلد في ذي الحجة سنة ٦٣٢ هـ - ١٢٣٥ م، كان أديبًا ماهرًا عارفًا بالكتب، وكانت حِرْفته الوراقة وبيع الكتب، وجمع مجاميع أدبية، وهو صاحب الرسائل المشهورة المعروفة بعين الفتوة ومرآة المروءة، كتب له عليها ابن النحاس، وابن عبد الظاهر، وابن النقيب، والسراج الوراق، والنصير الحمامي، والعلم العراقي، وابن العفيف، وابن دانيال، وغيرهم، وله يقول ابن دانيال وقد رمد:

ولم أقطع الوطواط بخلًا بكحله ولا أنا من يعيه يومًا تردد
ولكنه ينبو عن الشمس طرفه وكيف به لي قدرة وهو أرمد

وفيه عمل ابن عبد الظاهر التقليد المشهور الذي كتبه لابن غراب بإمرة الطيور، أوله: ﴿إِنَّكُمْ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ [النمل: الآية ٣٠]، فتلعب فيه بالوطواط تلعبًا عجيبًا.

توفي الوطواط في العشر الأخير من رمضان سنة ٧١٨ هـ - ١٣١٨ م، وله ست وسبعون سنة، وذكره السروجي في مشايخ العز ابن جماعة.

له من المصنفات:

١ - تعليقة (حواش) على الكامل في التاريخ لابن الأثير الجزري.

(١) انظر ترجمته في:

١ - الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، لابن حجر العسقلاني ٢/٢٩٨ - ٢٩٩.

٢ - آداب اللغة ٣/١٣٢.

٣ - الفهرس التمهيدي ص ٥٢٠.

٤ - هدية العارفين ٦/١٤٣.

٥ - معجم المطبوعات ١٩٢٠.

٦ - الأعلام ٥/٢٩٧.

- ٢ - الدرر والغرر. ذيل على أخبار شعراء الأندلس لابن عربي.
- ٣ - غرر الخصائص الواضحة وُغُرر النقائص الفاضحة (وهو الذي بين أيدينا).
- ٤ - فتى الفتوة ومرتأة المروءة (هكذا اسمه في هدية العارفين وفي الدرر الكامنة: عين الفتوة ومرتأة المروءة).
- ٥ - مناهج الفكر ومباهج العبر، في الكيمياء والطبيعة والحيوان والنبات، ستة مجلدات.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي جعل اللسان، عنوان عقل الإنسان، وآلة تطهر سرّ الجنان، بفصيح العبارة وصريح البيان، وصلاته وسلامه على سيدنا محمد المُجْتَبَى من سرّة عدنان، المبعوث بجوامع الكلم الشاملة لأنواع البيان، الباهرة بفصاحتها عقول ذوي الفِطْن والأذهان، والمخصوص بمحاسن الشِّيم المتممة لمكارم الأخلاق ومزايا الإحسان، والحائز في حلّبات الاصطفاء قَصَبَات الرُّهَان، وعلى آله وصَحْبِهِ فروع شجرته الباسقة الأَفْنَان، وفراقد سماء رسالته أعيان السادات وسادات الأعيان، صلاةً وسلامًا دائمين ما دام طرف القلم مُقَادًا بِعَنَانِ الْبَنَان.

وبعد؛ فإنني لما رأيت تغايّر معاني الأخلاق دالًّا على تباين مباني الأعراق، والنفوس تتفاوت في ميّلتها إلى أغراضها على حسب اختلاف جواهرها وأعراضها، حدّاني غرضُ اختلج في سرّي وأملُ اغتَلَج في صدري، على أن أجمع كلامًا في المحامد والمذام، المتخلّقة بها نفوس الخواصّ والعوام، وأجعله كتابًا يُغْنِي اللَّيِّب عن الخليل والنديم، ويُخَبِّر بالحديث والقديم، فشَمَّرت عن ساق الجدّ، وحسّرت عن ساعد الكدّ، وعمدت إلى جِسان الكُتُب، المجموعة في ضروب الأدب، فتصفّحت مضمونها، وتلمّخت فنونها، واستفتحت عيونها، واستبّخت أبقارها وعونها، وجمعت في هذا الكتاب من زواهر أسدافها^(١)، وجواهر أصدافها، مِلْجُ فكاهات جَلَّتْ عرائس المعاني في حُلُلِ موشاة، وأظهرت نفائس المحاسن في أنواع من البراعة مُعَشَّاة، وأزاهر بيان يغدو المتلفّظ بها غايات، ويروح المتحفّظ بها صاحب آيات، وجعلته شاملًا لمصائد شواردها، ناهلاً من الفضائل أعذب مواردها، محتويًا من إحراز الألفاظ على دُرَرٍ منظومة تستفتح النواظر بلمحات سلوكها، ومن أسرار المعاني على سُرُرٍ مختومة تسترّج الخواطر

(١) السُدُفَة: الظلمة، وإرسال شيء على شيء غطاءً له، يقال: أسدفت القناع: أرسلته.

بنفحات مسكها. [الطويل]

أحاديث لو صيغت لألّهت بحُسنها

عن الدُرّ أو شُمّت لأغنت عن المسك^(١)

وكسوته من الأخبار بزة رفيعة، وأبدعت فيما أودعت فيه من الفكاهات الرائقة البديعة، من نوادر مطربات، وأبيات مهذّبات، هي للأوراق شمس مشرقات، ولآلئ أنوارها بارقات، ألفاظها أرق من النسيم، وأزوق من التسليم.

مفرد^(٢): [الطويل]

كما أزهرت روضات حسن وأثمرت فأضحت وعجم الطير فيها تغرّد

وجنّبته خرافات الأخبار، ومطولات الأسمار، لئلا تسأمه عند المطالعة النفوس، ولئلا يكون ذكرها وضحا في غرر الطروس، وجعلته ستة عشر بابا، تُسفر عن وجه الإبداع نقابا، وجعلتها متضادة لتضاد الأخلاق والشيم، وتباين الأقدار والهمم. كل باب يشتمل على ثلاثة فصول، في ثلاثة معانٍ، تفكّ بلطائفها من أذهم الهم كل قلب عانٍ، وهذه الفصول قلائد أجناس، فصلت بآلئ أنواعها، ومعاهد إيناس، نُصبت أشراك النفوس برباعها، فجاءت فصولا تُعبّر عن حسان فنونها ومعانيها، وتغبرّ في وجه عائبها وشانيها، وقدمت في أبواب المحامد فصلا في مدائحها، ليتنسّم المتأمل عُرف اليمن من فواتحها، وأتبعته فصلا ثانيا في ذكر عن المتخلّقين بها من أزهار خمائل الأخبار، وأبكار عقائل الأفكار، الفائقة باختبارها دُرّ الأمثال السائرة، الرائقة في اختيارها، فهي عن غرر المفارقة سافرة، وعزّزت بثالث في ذمّ ما مدح من الأخلاق، لسبب يطرأ عليها إذ البدر يطرأ عليها الخسوف والمحاق، والشئ بالشئ يُعرف فيذكر، بعد أن كان يُجهل ويُنكر، فربّما تجاذبت الأحاديث أذيالها، فطلبت من المنمّق أشكالها؛ ولا غرو، فالحديث كما يُقال شجون، وأحسنه ما جدل جدّه برقيق الهزل مقرون، على أنني لم آل جهدا في إضافة كل شيء إلى ما يشاكله ويلائمه

(١) البيت بلا نسبة في المتحل لأبي منصور الثعالبي، ص ١٦، (الموسوعة الشعرية).

(٢) البيت لابن الرومي في ديوانه، من قصيدة مطلعها:

أبين ضلوعي جمرة تتوقّد على ما مضى أم حسرة تتجدّد

ويُضاهيه في المعنى ويساهمه، ممّا يجري في هذا الأسلوب، ولا يخرج عن المقصود والمطلوب.

ورُتبت فصول أبواب المذام على العكس من أبواب المحامد والمآثر، وأطلعت في دياجي مساويها من محاسن المُلح الأنجم الزواهر، ترتيبًا لا يرتاب في جودته أريب، وتقريبًا يؤمن به من كلّ ما يُريب، فأبوابه على اختلافها بائتلافها في الحُسن نظائر، وبعضها لبعض ضرائر، إن ازدهى الحسن بابًا منها بتقسيمه ووصفه، تنفس الآخر عن حُسن ترصيعه وطيب عُرفه.

مفرد^(١): [الكامل الأحَد]

ضدّان لما استجمعت حسنًا والصدّ يظهر حُسنه الضدّ

وسدّدته جهدي رجاء أن يُصيب صمي الآمال والأعراض، وخوفًا أن تصرفه النفوس عند النقد بالصدّ عنه والإعراض، ووسمّته بغرر الخصائص الواضحة، وغرر النقائص الفاضحة، اسمٌ يكون لحلة أدبه طرازًا معلّمًا، وبممكنون أسرارهم معلّمًا ومعلّمًا؛ إذ الكتاب لا يُعلم ما في باطنه، إلّا من سِمة عنوانه، كما أن الإنسان يعلم ما في قلبه من لفتات وجهه، وفتات لسانه. وأنا راغب لمن وقف على هذا الكتاب، من سُرّة الأعيان والكتاب، القاطفي أزهار الآداب من جنان الخواطر، العاطفي نفار الألباب في عنان النواذر أن لا يفوق لهدف الاختيار سهم الاختبار، وأن يحدّق إليه بصر الاعتقاد عند الانتقاد، فأَيّ جواد لا يَكبو، وأيّ مهتد لا ينبو، ومع هذا فإنّ لسان التقصير، عن القيام بالعدر قصير، والمصنّف وإن استعان في تنقيح ما ألف بمالك وعقيل، معرّض لطاعن وحاسد، إلّا أن يُتاح له عذر ومقيل.

مفرد^(٢): [الطويل]

وإنني لأرجو أن يُفخّم أمره من الناس حرّ شأنه الصّفح والسّتر

(١) البيت لأبي الشيص الخزاعي في ديوانه، من قصيدة مطلعها:

هل بالطلول لسايل ردّ أو هل لها بتكلّم عهد

(٢) البيت لم أجده في المصادر والمراجع التي بين يدي.

والله أسأل أن يُكسبه دلاً معشقاً، يكون به لداء القلوب محظياً، ويُكسيه حسناً ورونقاً، حتى يكون بعيون العقول مرعياً، وللأفهام مرضياً، وبه أستمعين على سبيل الرّشاد فيما نَحْوَت، فهو المُعِين بهدايته لتحقيق ما رَجَوْت.

ولمّا انتهى بنا جواد قريحتنا إلى غاية البيان عن المُراد، وحازَ قَضْبُ السَّبْقِ في مضممار النُّطق بالسَّداد، رأينا صواباً أن نعقبه بذكر مقدّمة في حضّ الإنسان على الدّأب في طلب المعالي، ليظفر بالحظّ الأوفر من الشّرف المتعالي تكون أساً لما قصدنا فيه التحرير، والتّخبير من الكشف عن ماهية الأخلاق. وحقيقة معانيها، وكيفية صورها ومبانيها، بقولٍ شافٍ، وتلخيص كافٍ، وهو مما اخترناه من كلام الحكماء الأعلام، أولي البصائر والأحلام.

قالوا: الخلق عادة للنفس يفعلها الإنسان بلا رويّة، وهي نوعان: جميلٌ محمود، وقبيحٌ مذموم؛ والأخلاق المحمودّة وإن كانت في بعض الناس غريزة، فإنّ الباقيين يمكن أن يصيروا إليها بالرياضة والألفة، ويرتقوا إليها بالتدرب والعادة، فإنّهم وإن لم يكونوا على الخير مطبوعين، صاروا به متطبّعين، والفرق بين الطبع والتطبّع أنّ الطّبع جاذبٌ منفعل، والتطبّع مجذوبٌ مفعل، تتفق نتائجهما مع التكلّف، ويفترق تأثيرهما مع الاسترسال، وقد يكون في الناس من لا يقبل طبعه العادة الحسنة ولا الأخلاق الجميلة، ونفسه مع ذلك تتشوّف إلى المنقبة، وتتأفّف من المثّلبة، لكن سلطان طبعه يأباه عليه، واستعصاؤه مع تكلّف ما نُدِبَ إليه، يختار العطل منها على التحلّي، ويستبدل الحزن على فواتها بالتسلّي، فلا ينفعه التأنيب، ولا يردعه التأديب، وسبب ذلك على ما قرّره المتكلّمون في الأخلاق، أن طبع المطبوع أمّلك للنفس التي هي محلّه لاستيطانه إيّاها، وكثرة إعانته لها، والأدب طار على المحلّ غريب فيه؛ قال الشاعر في ذلك^(١): [الوافر]

إذا كان الطّباع طِبَاعٌ سوءٌ فليس بنافع أدبُ الأديبِ

(١) البيت بلا نسبة في كتاب القوافي لأبي يعلى التتوخي، ص ٩٤. والمحاسن والأضداد للمجاهظ، ص

وقال آخر^(١): [الطويل]

وَمَنْ يَبْتَدِعْ مَا لَيْسَ مِنْ خِيَمِ نَفْسِهِ يَدْعُهُ وَيَغْلِبُهُ عَلَى النَّفْسِ خِيْمُهَا
وأما الذي يجمع الفضائل والردائل، فهو الذي تكون نفسه الناطقة متوسطة
الحال بين اللؤم والكرم، وقد تُكتسب الأخلاق من معاشرة الأخلاء، فإنَّ صلاحها
من معاشرة الكرام، وفسادها من مخالطة اللثام، وربَّ طبع كريم أفسدته معاشرة
الأشرار، وطبع لئيم أصلحته مصاحبة الأخيار.

وقد ورد عن النبي ﷺ أنه قال: «يُخْشَرُ الْمَرْءُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ، فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ
مَنْ يُخَالِلُ»^(٢). وقال علي رضي الله عنه لولده الحسن: الأخ رقعة في ثوبك، فانظر
بِمَ ترقعه. وقال بعض الحكماء في وصية لولده: يا بني احذر مقارنة ذوي الطُّباع
المردولة لئلا يسرق طباعك من طباعهم، وأنت لا تشعر؛ ثم أنشد^(٣): [الرملي]

واصحب الأخيار وارغب فيهم ربَّ مَنْ صاحبتَه مثل الجرب

فإذا كان الخليل كريم الأخلاق حسن السيرة، طاهر السريرة، فَبِهَ في محاسن
الشِّيم يُقْتَدَى، وبنجم رُشدِه في طرق المكارم يُهْتَدَى، وإذا كان سيِّء الأعمال
خبث الأقوال، كان المغتبط به كذلك؛ ومع ذلك، فواجب على العاقل اللبيب،
والفطن الأريب، أن يُجْهِد نفسه حتى يَحُوزَ الكمال بتَهذيب خلائقِه، ويكتسي حُلَّ
الجمال، بدمائه شمائله، وحميد طرائقه، ويكذِّ في الهواجر، ويسهر الليالي، إلى
أن يرتقي شرفات المجد والمعالي، فقد قيل: من شَمَّرَ عن ساق الجدِّ، وَجَدَ
مفتاح الجدِّ. وَمِنْ كلام الثعالبي: لا يحصل بَرْدُ العيش إلا بحر النَّصَب. والله دَرَّ
الوزير أبي القاسم الحسين بن علي المغربي، حيث قال^(٤): [مجزوء الوافر]

سَأَعْرِضُ كُلَّ مَنْزِلَةٍ يَعْرِضُ دُونَهَا الْعَطْبُ

(١) البيت لكثير غزوة في ديوانه، من قصيدة مطلعها:

عَفَتْ غِيَقَةٌ مِنْ أَهْلِهَا فَحَرِيْمُهَا فَبِرْقَةٌ جِسْمِي قَاعِهَا فَصَرِيْمُهَا

والبيت بلا نسبة في لسان العرب (خيم)، وتاج العروس (خيم).

(٢) أخرجه أبو داود في الأدب باب ١٦، والترمذي في الزهد باب ٤٥، وأحمد في المسند ٣٠٣/٢، ٣٣٤.

(٣) البيت لمسكين الدارمي في ديوانه ص ٢٢، من قصيدة مطلعها:

أنا مسكين لمن يعرفني لوني السمرة ألوان العرب

(٤) الأبيات في معجم الأدباء، لياقوت الحموي، في ترجمة الوزير المغربي.

فإن أسلم رجعت وقد ظفرت وأنجح الطلب
وإن أعطب فلا عجب لكل منية سبب

وقال عمرو بن العاص: المرء حيث يجعل نفسه إن رفعها ارتفعت، وإن وضعها اتضعت. وقال الشاعر^(١): [الطويل]

وما الحُرُّ إلا حيث يجعل نفسه ففي صالح الأعمال نفسك فاجعل
وقال بعض الحكماء: النفس عروف غروف، نفور ألوف، متى رددتها ارتدعت، ومتى حملتها حملت، وإن أهملتها فسدت. وقال الشاعر^(٢):
[الطويل]

صبرت على اللذات حتى تولت وألزمت نفسي هجرها فاستمرت
وجرعتها المكروه حتى تجردت ولو حملته جملة لاشمأزت
وما النفس إلا حيث يجعلها الفتى فإن أطمعت تافت وإلا تسلفت
وكانت على الآمال نفسي عزيزة فلما رأث عزمي على التُّرك ولت
وقال آخر^(٣): [الكامل]

والنفس راغبة إذا رغبت لها وإذا ثردت إلى قليل تقنع
وقالوا: الفخر بالنفس والأفعال، لا بالأعمال والأحوال. وقالوا: الشرف
بالهمم العالية، لا بالرؤم البالية. وقال عامر بن الطفيل^(٤): [الطويل]

وإني وإن كنت ابن فارس عامر وفي السر منها والصريح المهذب
فما سودتني عامر عن ورائة أبى الله أن أسمو بأم ولا أب
ولكنني أحمي جماها وأتقي أذاها وأرمي من رماها بمقنب

(١) البيت للمقنع الكندي في ديوانه، من قصيدة مطلعها:

ولا تجعل الأرض العريض محلها عليك سبيلاً وعثة المتنقل

(٢) الأبيات لم أجدها في المصادر والمراجع التي بين يدي.

(٣) البيت لأبي ذؤيب الهذلي في الدرر ١٠٢/٣، وشرح أشعار الهذليين ٧/١، وشرح اختيارات المفضل ص ١٦٩٣.

(٤) الأبيات لعامر بن الطفيل في الحيوان ٩٥/٢، وخزانة الأدب ٣٤٣/٨، ٣٤٤، والشعر والشعراء ص ٣٤٣.

وقال أبو الطيّب المتنبّي^(١): [الخفيف]

لا بقومي شُرُفْتُ بل شُرُفُوا بي وبجَدِّي فخرت لا بجوددي
وقالوا: كُنْ عصامياً لا عظامياً، ومعناه لا تفتخر بشرف آبائك، ولكن بما
يؤثر من أنبائك، وعصام المشار إليه كان رجلاً سوقة، ثم صار حاجباً للنعمان بن
المنذر، فسُئِلَ عن سبب وصوله إلى هذه المنزلة العالية، والرتبة الحالية، فقال^(٢):
[الرجز]

نفس عصام سوّدت عصاما وعلمّته الكرّ والإقداما
وصيّرته ملكاً هماما

وقالوا: شرف الأعراق يحتاج إلى شرف الأخلاق، ولا حمّد لمن شُرف نسبه
وسُخف أدبه.

يُحكى في هذا أن رجلاً من بني هاشم تخطّى رقاب الناس في مجلس
أحمد بن أبي دؤاد، فقال له أحمد: يا بنيّ الأدب ميراث الأشراف، ولست أرى
عندك من سلفك ميراً، فاستحسن كلامه من حضر مجلسه. شاعر^(٣): [الكامل]

وإذا افتخرت بأعظم مقبورة فالناس بين مُكذّبٍ ومصدّقٍ
فأقم لنفسك في انتسابك شاهداً بحديث مجدٍ للقديم محقّقٍ
آخر^(٤): [الوافر]

إذا ما الحيّ عاش بذكر ميّت فذاك الميّت حيّ وهو ميّت
ومن يك بيته بيتاً ربيعاً وهدمه فليس لذاك بيت
ابن الرومي^(٥): [الطويل]

وما الحسب الموروث لا ذرّ ذرة يفيد الفتى إلا بآخر مكتسب

(١) البيت في ديوان المتنبّي، من قصيدة مطلعها:

كم قتيل كما قُلت شهيد ببياض الطلى وورد الخدود

(٢) الرجز لعصام بن شهر في تاج العروس (شهير)، وبلا نسبة في لسان العرب (عصم)، ومقاييس اللغة
٣٣٤/٤، ١٧٥/٢.

(٣) البيتان لكشاجم في ديوانه، وهما بيتان منفردان (انظر الموسوعة الشعرية).

(٤) البيتان لم أجدهما في المصادر والمراجع التي بين يدي.

(٥) الأبيات في ديوان ابن الرومي، والبيت الأوّل هو مطلع القصيدة.

فلا تتكَلَّ إِلَّا عَلَى مَا فَعَلْتَهُ وَلَا تَحْسَبَنَّ الْمَجْدَ يُورَثُ بِالنَّسَبِ
وَلَيْسَ يَسُدُّ الْمَرْءُ إِلَّا بِنَفْسِهِ وَإِنْ عَدَّ أَبَاءَ كَرَامًا ذَوِي حَسَبِ
إِذَا الْمَرْءُ لَمْ يُثْمَرْ وَإِنْ كَانَ شَعْبُهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ اعْتَدَّهُ النَّاسُ فِي الْحَطَبِ
وَقَالَ آخِرُ يَهْجُو رَجُلًا شَرِيفًا^(١): [البسيط]

مَنْ كَانَ يَعْمرُ مَا شَادَتْ أَوَائِلُهُ فَأَنْتَ تَهْدِمُ مَا شَادُوا وَمَا سَمَكُوا
مَا كَانَ فِي الْحَقِّ أَنْ تَأْتِيَ فِعَالِهِمْ وَأَنْتَ تَحْوِي مِنَ الْمِيرَاثِ مَا تَرَكُوا
وَقَالَ آخِرُ^(٢): [الطويل]

يَزِينُ الْفَتَى أَخْلَاقَهُ وَيُشِينُهُ وَتُذَكِّرُ أَخْلَاقَ الْفَتَى وَهُوَ لَا يَدْرِي
وَقَالَ أَبُو تَمَّامٍ حَبِيبُ بْنُ أَوْسٍ الطَّائِي^(٣): [الطويل]
وَإِنِّي رَأَيْتُ الْوَسْمَ فِي خَلْقِ الْفَتَى هُوَ الْوَسْمُ لَا مَا كَانَ فِي الشَّعْرِ وَالْجِلْدِ
وَقَالَ أَبُو الطَّيِّبِ مُقْتَفِيًا أَثَرَهُ وَمَصْدَقًا فَأَخْبَرَهُ^(٤): [الطويل]

وَمَا الْحُسْنُ فِي وَجْهِ الْفَتَى شَرَفًا لَهُ إِذَا لَمْ يَكُنْ فِي فِعْلِهِ وَالْخُلَاقِ
وَقَالَ بَعْضُ مَنْ لَهُ فِي الْحِكْمَةِ فَصْلُ الْمَقَالِ، مَنِبِّهَا عَلَى مَا تُذَكِّرُ بِهِ رَتَبَةُ
الْكَمَالِ، الْإِنْسَانُ التَّامُّ مَنْ نَزَعَ نَفْسَهُ عَنِ نَفْسِهِ، رِبْقَةُ الْمَسَاوِي وَالْمَلَاوِمِ، وَبَذَّ
بِمَجْدِهِ الْمَسَاوِي وَالْمَقَاوِمِ، وَهَذَا الْحَدُّ قَلَمًا يَنْتَهِي إِلَيْهِ إِنْسَانٌ، وَإِذَا انْتَهَى الْإِنْسَانُ
إِلَى هَذَا كَانَ بِالْمَلَأَكَةِ أَشْبَهَ مِنْهُ بِالنَّاسِ؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ مُضْرُوبَ بِأَنْوَاعِ الشَّرِّ،
مُسْتَوَلٍ عَلَيْهِ وَعَلَى طَبْعِهِ ضُرُوبُ النِّقْصِ وَالْكَمَالِ، وَإِنْ كَانَ بَعِيدًا لَا يُنَالُ، فَإِنَّهُ
مُمْكِنٌ؛ وَذَلِكَ أَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا صَرَفَ عَزِيمَتَهُ وَأَعْطَى الْجَاهِدَ حَقَّهُ كَانَ مُمْكِنًا،
وَهُوَ أَنْ يَكُونَ رَاغِبًا بِجَمِيعِ مَنَاقِبِهِ وَخَصَائِصِهِ، مُتَقَيِّظًا لَصَرْفِ مَعَايِبِهِ وَنَقَائِصِهِ،
وَإِرَادَةِ طَرَائِقِهِ شَرْعًا الْمَكَارِمِ الصَّافِيَةِ، رَافِلَةً خَلَائِقَهُ فِي أَبْرَادِ الْمَحَامِدِ الصَّافِيَةِ،

(١) البيتان لسهل بن هارون في الحماسة المغربية، للجراري ص ٧٧٠.

(٢) البيت لأبي الغول الطهوي في التذكرة السعدية، ص ٢٢١.

(٣) البيت في ديوان أبي تمام، من قصيدة مطلعها:

شهدتُ لقد أقوت مغانيكم بعدي ومحت كما محت وشائع من بردٍ

(٤) البيت في ديوان المتنبي، من قصيدة مطلعها:

تذكرت ما بين العذيب وبارق مجرَّ عوالينا ومجرى السوابق

مستعملًا كل فضيلة، متجنبًا كل رذيلة، مجتهدًا في بلوغ القصوى، وقمّع النفوس
عما تُحبّ وتهوى، عاشقًا لصورة الجمال، مستلذًا بمحاسن الخلال، يرى الكمال
دون محلّه، والتّمام أقلّ أوصافه ونبله، فقد قيل: قبيح بذى العقل أن يكون
بهيمة، وقد أمكنه أن يكون إنسانًا أو إنسانًا، وقد أمكنه أن يكون ملكًا. قال
المتنبي^(١): [الوافر]

ولم أرَ في عيوب الناس شيئًا كنقص القادرين على التّمام
وقال عليّ بن مقلة^(٢): [الكامل]

وإذا رأيت فتى بأعلى قمّة في شامخ من عزّة المترفع
قالت لي النفس العروف بفضلها ما كان أولاني بهذا الموضع

والمناهج القويم الموصّل إلى الثّناء الجميل أن يستعمل الإنسان فكره وتمييزه
فيما ينتج عن الأخلاق المحمودة والمذمومة منه ومن غيره، ومن أخذ نفسه بما
استحسن منها واستملح، وصرفها عما استهجن منها واستقبح، فقد قيل له: كفاك
تهذيبيًا وتأديبيًا لنفسك، ترك ما كرهه الناس من غيرك. وقيل لعيسى عليه السلام:
من أدبك؟ قال: ما أدبني أحد رأيت جهل الجاهل فتجنّبه^(٣): [المقارب]

إذا أعجبتك خلال امرئ فكُنْه تكن مثل من يُعجِبُك
وليس على المجد والمكرّمات إذا جئتُها حاجبٌ يحجبُك

وقالوا: مَنْ نظر في عيوب الناس فأنكرها ثم رَضِيَها لنفسه، فذلك هو
الأحمق بعينه^(٤): [السريع]

لا تَلُم المرء على فعله فأنت منسوبٌ إلى مثله
من ذمّ شيئاً وأتى مثله فإنما دلّ على جهله

(١) البيت في ديوان المتنبي، من قصيدة مطلعها:

ملوكما يجلّ عن الملام ووقعُ فعاله فوق الكلام

(٢) البيتان في مرآة الجنان وعبرة اليقظان، لليافعي ص ١٥٧٣ (الموسوعة الشعرية).

(٣) البيتان لأحمد بن أبي طاهر في المنتحل للثعالبي، ص ١٩٦.

(٤) البيتان بلا نسبة في جمهرة الأمثال للعسكري ص ٤٤٩، في المثل: «تنهانا أمتنا عن الغي وتغدو مثله».

ويقال: الإنسان يضارع الملك بقوة الفكر والتمييز، ويضارع البهيمة بقوة الشهوة والغذاء، فمن صَرَفَ هِمَّتَهُ إلى رتبة الفكر والتمييز حتى يرى بهما عاقبة فعله، فحقيق أن يلحق بالملائكة فيسمى ملكاً لطهارة أخلاقه، ومن صَرَفَ هِمَّتَهُ إلى رتبة القوة الشهوانية بإيثار اللذة البدنية يأكل كما تأكل الأنعام، فحقيق أن يلحق بالبهائم، فيصير إما غمراً كثوراً، أو شرهاً كخنزير، أو ضريراً ككلب، أو حقوداً كجمل، أو متكبراً كنمر، أو رَوَّاعاً كثعلب، أو جامعاً لذلك كشیطان؛ ولقد صدق من قال^(١): [الكامل]

وإذا الفتى ساس الأمور بعلمه وأعين بالتأديب والتّهذيب
سمت الأمور به فيبرز سابقاً في كل حال مشهد ومغيب

اللّهم كما خلقت الإنسان بقدرتك في أحسن تقويم، وأعلّيته باختصاصك له ذروة التكريم، وهديته بإرادتك نجدتي الخير والشر، وصرفته بقضائك في عنائي النفع والضرر، روض اللّهم جوامح نفوسنا إلى اقتفاء أثر الأكارم، واقتناء ما يبعث على حمدها من صنوف المكارم، وذُذ اللّهم سوائم طباعنا عن مراتع الملاوم، ومرايع ما يتوجّه به علينا لوم اللّوائم، فإليك الخذلان والعون، وبيدك أزمة المكان والكون، وهذا أوان انشقاق كمائم هذا الكتاب، عمّا أكنّته من زهرات الآداب، واهتصار أفنان فنونه الدانية القُطاف، المتسقة بأنواع التحف والألطف.

الباب الأول: في الكرم، وفيه ثلاثة فصول:

الفصل الأوّل: في وصف الأخلاق الحسان، المتخلّقة بها نفوس الأعيان.

الفصل الثاني: في ذكر الصنائع والمآثر، المُفصّحة عن أحساب الأكابر.

الفصل الثالث: في ذمّ التخلّق بالإحسان، إذا لم يُوافق القلب اللسان.

الباب الثاني: في اللؤم، وفيه ثلاثة فصول:

الفصل الأوّل: في ذمّ مَنْ ليس له خلاق، وما اتّصف به من قبيح الأخلاق.

الفصل الثاني: في ذكر الفعل والصنيع، الدالّين على لؤم الوضيع.

الفصل الثالث: في أنّ مَنْ تخلّق باللؤم انتفع، وعلا على الكرام وارتفع.

(١) البيتان لم أجدهما في المصادر والمراجع التي بين يدي.

الباب الثالث: في العقل، وفيه ثلاثة فصول:

الفصل الأول: في مدح العقل وفُضله، وشرف مكتسبه ونبُله.

الفصل الثاني: في ذِكر أنواع الفعل الرّشيد، الدالّ على العقل المشيد.

الفصل الثالث: في أنّ هفوات العقال، لا يُغضى عنها ولا تُقال.

الباب الرابع: في الحمق، وفيه ثلاثة فصول:

الفصل الأول: في ذمّ الجهالة والجنون، وما اشتملا عليه من الفنون.

الفصل الثاني: في ذكر النوادر الصادرة، عن مجانين البادية والحاضرة.

الفصل الثالث: في احتجاج الأريب المتحامق، على أنّ الحمق أركى الخلائق.

الباب الخامس: في الفصاحة، وفيه ثلاثة فصول:

الفصل الأول: في أنّ الفصاحة والبيان، أزيّن ما تحلّت به الأعيان.

الفصل الثاني: فيما يتحلّى به ألباب الأدباء، من بلاغات الكتاب والخطباء.

الفصل الثالث: في أنّ معرفة حِرْفة الأدب، مانعة من ترقّي أعالي الرّتب.

الباب السادس: في العي، وفيه ثلاثة فصول:

الفصل الأول: فيما ورد عن ذوي التّباهة، في ذمّ العي والفهاهة.

الفصل الثاني: فيمن قصر باع لسانه، عن ترجمة ما في جنانه.

الفصل الثالث: في أنّ اللّسن المكثّار، لا يأمن من آفة الزّلل والعتار.

الباب السابع: في الذكاء، وفيه ثلاثة فصول:

الفصل الأول: في مدح الفِطن والأذهان، المُعظّمة من قدر المُهان.

الفصل الثاني: في ذِكر البدهاة البديعة، والأجوبة المفحمة السّريعة.

الفصل الثالث: فيمن سبق بذكائه وفُطنته، إلى ورود حياض مَنيّته.

الباب الثامن: في التغفّل، وفيه ثلاثة فصول:

الفصل الأول: في ذمّ البلادة والتغفّل، من ذوي التعالي والتنزّل.

الفصل الثاني: فيمن تأخّرت منه المعرفة، ونوادر أخبارهم المستظرفة.

الفصل الثالث: في أنّ أنواع التغفّل والبله، ستورّ على الأولياء مسبله.

الباب التاسع: في السَّخاء، وفيه ثلاثة فصول:

الفصل الأول: في أن التبرّع بالنائل، من أشرف الخلال والشمائل.

الفصل الثاني: في ذكر مَنَح الأماجد الأجواد، ومِلَح الوافدين والقصاد.

الفصل الثالث: في ذَمُّ السرف والتبذير، إذ فعلهما من سوء التدبير.

الباب العاشر: في البخل، وفيه ثلاثة فصول:

الفصل الأول: في ذَمُّ الإمساك والشحّ، وما فيهما من الشَّين والقبح.

الفصل الثاني: فيما استملح من نوادر المبخلين، من الأراذل والمبجلين.

الفصل الثالث: في مدح القصد في الإنفاق، خوف التعبير بالإملاق.

الباب الحادي عشر: في الشجاعة، وفيه ثلاثة فصول:

الفصل الأول: في مدح الشجاعة والبسالة، وما فيهما من الرِّفعة والجلالة.

الفصل الثاني: في ذكر ما وقع في الحروب، مِنْ شدائد الأزمات والكروب.

الفصل الثالث: في ذَمُّ التصدّي للهلكة، ممن لا يطيق بها ملكة.

الباب الثاني عشر: في الجبن، وفيه ثلاثة فصول:

الفصل الأول: في أَنَّ خَلَّتِي الجبن والفرار، مما يشير بني الأحرار.

الفصل الثاني: فيمن جَبُن عند اللقاء، خوف الموت ورجاء البقاء.

الفصل الثالث: فيمن لِيَمَ على الفرار والإحجام، فاعتذر بما ينفي عنه الملام.

الباب الثالث عشر: في العفو، وفيه ثلاثة فصول:

الفصل الأول: في مدح من اتَّصف بالعفو عن الذَّنْب المتعمّد والسهو.

الفصل الثاني: فيمن حلم عند الاقتدار، وقبل من المُسيء الاعتذار.

الفصل الثالث: في ذَمُّ العفو عَمَّنْ أَسَاء، وانتَهك حرَمات الرؤساء.

الباب الرابع عشر: في الانتقام، وفيه ثلاثة فصول:

الفصل الأول: في التشفّي والانتقام، مَمَّنْ أَحْضِرَ قسراً في المقام.

الفصل الثاني: في ذَكَرَ مَنْ ظَفَرَ فعاقب، بأشدَّ العقوبة وَمَنْ راقب.

الفصل الثالث: في أَنَّ الانتقام لحدود الله، خير فعلات من حكمه الله وولاه.

الباب الخامس عشر: في الأخوة، وفيه ثلاثة فصول:

الفصل الأول: في مدح اتخاذ الإخوان، فإنهم العدد والأغوان.

الفصل الثاني: فيما يدين به أهل المحبة، من شرائع العوائد المستحبة.

الفصل الثالث: في ذم الثقل والبغض، بما استحسّن من النثر والقريض.

الباب السادس عشر: في العزلة، وفيه ثلاثة فصول:

الفصل الأول: في ذم الاستئناس بالناس، لتلون الطباع وتنافي الأجناس.

الفصل الثاني: فيما يحض على الوحدة والاعتزال، من دميم الخلّاق والخلال.

الفصل الثالث: فيما يُختم به هذا الكتاب، من دعاء نرجو أن يُسمع ويُجاب.

الباب الأول

في الكرم

وفيه ثلاثة فصول:

الفصل الأول من الباب الأول

في وصف الأخلاق الحسان المتخلقة بها نفوس الأعيان

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعِ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فُضِّلَتْ: الآية ٣٤]، وقال رسول الله ﷺ: «ليس في الميزان أثقل عند الله من الخلق الحسن، وما حسن الله خلق رجل وخلقته فأدخله النار»^(١). وقال علي كرم الله وجهه: نِعْمَ الْحَسَبُ الْخُلُقُ الْحَسَنُ. وقال الحسن البصري: سَعَةُ الْأَخْلَاقِ مِثْحَةٌ مِنْ اللَّهِ، فَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بَعْدَ خَيْرٍ أَنْ يَنْحَهُ خُلُقًا حَسَنًا. وقال عليه الصلاة والسلام: «مَنْ لَانَتْ كَلِمَتُهُ، وَجِبَتْ مَحَبَّتُهُ، وَحَسُنَتْ أَحْدَوُثُهُ، وَظَمُنَتْ الْقُلُوبُ إِلَى لِقَائِهِ، وَتَنَافَسَتْ فِي مَوَدَّتِهِ»^(٢). وقالوا: أحسن الشَّيْمِ، ما تُشَام منه بارقة الكرم. وأوصى حكيم ولده، فقال: يا بني إِنَّ مَكَارِمَ أَخْلَاقِكَ، تَدُلُّ عَلَى شَرَفِكَ وَطِيبِ أَعْرَاقِكَ. سَمِعَ بَعْضُ الْأَعْرَابِ يَقُولُ لَوْلَهُ^(٣): [الرجز]

بني إِنَّ الْبَرَّ شَيْءٌ هَيِّنٌ وَجَهٌ طَلِيقٌ وَكَلَامٌ لَيِّنٌ

وفي بعض الكتب القديمة: الأخلاق الصالحة ثمرات العقول الراجحة. وقالوا: مَنْ حَسُنَتْ أَخْلَاقُهُ، دُرَّتْ أَرْزَاقُهُ. وقيل لبعض الأدباء: متى يبلغ الرجل

(١) أخرجه بنحوه الترمذي في البر باب ٦٢، وأحمد في المسند ٤٤٢/٦، ٤٤٨، ٤٥١، ٤٥٢.

(٢) أخرجه العجلوني في كشف الخفاء ٣٩٤/٢، وعلي القاري في الأسرار المرفوعة ٣٥٩

(٣) الرجز لابن عمر في عيون الأخبار لابن قتيبة ص ١٧١٦، ولسفيان بن عيينة في محاضرات الأدباء للراغب الأصبهاني ص ٨٨٧.

ذروة الكمال؟ قال: إذا اتَّقَى مَنْ خَلَقَهُ، وجَادَ بما رَزَقَهُ، واختارَ مِنْ القولِ أصدقه، وَحَسُنَ في كُلِّ الأحوالِ خَلَقَهُ، فذاك الذي أَنهَجَ إلى الكمالِ طُرُقَهُ. ويقال: إِنَّ في التوراة يقول الله تعالى: يا موسى ليكن وجهك بَسَامًا وكلامك لِيَنَّا تكن أَحَبَّ إلى الناسِ وإِلَيَّ مِمَّنْ يعطيهم الذهب والفضة. وقال ابن الرومي^(١):
[البسيط]

له محبًا جميل يستدلّ به على جميل وللبطنان ظهران
وقلّ مَنْ أضمرت خيرًا طويته إلّا وفي وجهه للخير عنوان
وما أصدق قول القائل^(٢): [الوافر]

وما اكتسب المحامد طاليوها بمثل البشر والوجه الطليق
وفي بعض الآثار المروية عن ابن عباس: أَنَّ موسى عليه السلام قال: يا ربّ أمهلت فرعون أربعمئة سنة يكذب رسلك، ويجحد آياتك؛ فأوحى الله إليه: إِنَّه كان حَسَنَ الخلق، سهل الحجاب، فأحببت أن أكافئه.

وعلى ذكر الحجاب وإن لم يكن من الباب

كانت العرب تقول: ما شيء أَضْيَعَ للملكة وأهلك للرعية من شدة الحجاب اللولي، ولا أَهْيَبَ للرعية والعُمال من سهولة الحجاب؛ لأنّ الرعية إذا وثقت من الولاية بسهولة الحجاب أَخْجَمَت عن الظلم، وإذا وثقت بشدة الحجاب تهجّمت على الظلم، وركب القويّ الضعيف، فخير خلال الولاية سهولة الحجاب.

وصف أخلاق أهل الوفاق

فلان خُلِقَ كنسيم الأسحار، على صفحات الأنوار. أخلاقٌ قد جمعت الحرية أطرافها، وفرشت المروءة أكنافها. أخلاقٌ تجمع الأهواء المتفرقة على محبته، وتؤلّف الآراء المشتتة في مودته. أخلاقٌ هي المسك لولا فأرته^(٣)، والورد

(١) البيتان في ديوان ابن الرومي، من قصيدة مطلعها:

أجنت لك الوجد أغصانًا وكثبانًا فيهنّ نوعان تفاح ورمّان

(٢) البيت لمحمد بن حازم الباهلي في ديوانه، من قصيدة مطلعها:

وغرة مزة من فعل غرّ وغرة مرتين من فعل موق

(٣) فأرة المسك: وعأوه.

لولا مرارته، والماء لولا إسرعه إلى الكدر، والروض لولا حاجته إلى المطر قد جمع شرف الأخلاق، إلى طيب الأعراق^(١): [الوافر]

له خلق على الأيام يصفو كما رقت على الزمن العقار
آخر^(٢): [الكامل]

خلق سهول المكرمات سهوله وتوغر الأيام من أوعاره
إن لاح فهو الصبح في أنواره أو فاح فهو الروض في نواره
المتبّي^(٣): [الطويل]

صفت مثل ما تصفو المدام خلاله ورقت كما رق النسيم شمائله
آخر^(٤): [البسيط]

موفق لسبيل الرشد متبع يزينه كل ما يأتي ويجتنب
تسمو إليه عيون كلما انفرجت للناس وجهة الأبواب والحجب
له خلائق بيض لا يغيرها صرف الزمان كما لا يصدأ الذهب

عيون من مكارم الأخلاق الدالة على طيب الأعراق

قال رسول الله ﷺ: «بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ»^(٥)، وهو ما أوصاه به ربه عز وجل في قوله: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: الآية ١٩٩]، فلما امتثل أمر ربه، وناطقه بشغاف قلبه، أثنى على فعله بقوله تنويعاً بفضلته الجسيم: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: الآية ٤]، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: «ألا أدلكم على خير أخلاق أهل الدنيا: مَنْ وصل مَنْ قطع، وعفا عمن

(١) البيت بلا نسبة في المحب والمحبوب للسري الرقاء ص ٨٤٤، ورواية عجز البيت فيه:

كما تصفو على الزمن العقار

(٢) البيتان للسري الرقاء في ديوانه، من قصيدة مطلعها:

ما سره أن ذاع من أسرارها ما غيب الكتمان في إضماره

(٣) البيت ليس في ديوان المتبّي، وهو للبحري في ديوانه، من قصيدة مطلعها:

هب الدار ردت رجع ما أنت قائله وأبدي الجواب الزبع عما تسائله

(٤) الأبيات بلا نسبة في الصداقة والصديق، لأبي حيان التوحيدي، ص ٩٤.

(٥) أخرجه بنحوه مالك في حسن الخلق حديث ٨، وأحمد في المسند ٣٨١/٢.

ظلمه، وأعطى مَنْ حرمه^(١). وقال الحسين بن مطير يفتخر^(٢): [الوافر]

أحبّ مكارم الأخلاق جهدي وأكره أن أعيب وأن أعابا
وأصفح عن سباب الناس حلماً وشرّ الناس مَنْ يهوى السبابا
ومَنْ هاب الرّجال تهيبوه ومَنْ حقّر الرّجال فلن يُهابا

وقال الأحنف بن قيس - واسمه الضحاك، وقيل صخر لبنيه -: ألا أدلكم على المَخمدة: الخَلْق السحيح^(٣)، والكفّ عن القبيح. وقال أكتّم بن صيفي لولده: يا بنيّ ذلّلوا أخلاقكم للمطالب، وقودوها على المحامد، وعلموها المكارم، ولا تُقيموا على خلقٍ تدمونه من غيركم، وصلّوا من رغب إليكم، وتخلّقوا بالجود يلبسكم المحبّة، ولا تعتقدوا البخل، فتتعجّلوا الفقر. وقيل لحممة بن رافع الدؤسيّ: مَنْ أكرم الناس؟ قال: مَنْ إذا قُرُبَ مَنّح، وإذا بَعُدَ مَدَح، وإذا ظَلَمَ صَفَح، وإذا ضُويقَ سَمَح. وقالوا: مِنَ الأخلاق التي تُزَيّن ولا تُشِين، وتحضّ على المكرمات، وتُعِين نشر البِشْر وتَرْك الكبر، ونصر الحرّ، وسلامة الصّدر. وقال جعفر بن محمد الصادق: خير السادة أَرْحَبهم ذراعاً عند الضّيق، وأَعْدَلهم حلماً عند الغضب، وأَبْسَطهم وجهاً عند المسألة، وأَرْحَمهم قلباً إذا سلط، وأكثرهم صفحاً إذا قدر. وقال عامر العدواني: يا معشر عدوان، الخير ألوف عروف، وإنه لن يُفارق صاحبه حتى يُفارقه، وإنني لم أكن سيّدكم حتى تعبدت لكم. وقال يزيد بن المهلب: استكثروا من الحمد، فإن الذمّ قلّما ينجو منه أحد، ومَنْ رغب في المكارم صبر على المكاره، واجتَنب المحارم. ويقال: المكارم موصولة بالمكاره، فمن أراد مكرمة احتمل مكروهاً. وقال أبو الشّيص^(٤): [الكامل]

عشق المكارم فهو معتمد لها والمكرّمات قليلة العُشاق

(١) أخرجه السيوطي في الدرّ المنثور ٣/١٥٤، وعبد الرزّاق في المصنف ٢٠٢٣٧، والمتقي الهندي في كنز العمال ٤٣٣٢١، والطبراني في المعجم الكبير ١٩/١٥٥.

(٢) الأبيات بلا نسبة في زهر الأكتّم للبيونيني، ص ٧٤٠.

(٣) سخّ الإنسان يسخّ سخاً: سمن غاية السمن، وسخّ الماء ونحوه: سال من أعلى إلى أسفل، والسخاء: الدائمة الصبّ.

(٤) الأبيات في ديوان أبي الشّيص الخزاعي، والبيت الأوّل هو مطلع القصيدة.

وأقام سوقاً للثناء ولم يكن سوق الثناء يُعدّ في الأسواق
بثّ الصنائع في البلاد فأصبحت يجبى إليه مكارم الأخلاق
وقال أبو الطيّب المتنبّي^(١): [الوافر]

تلذّله المروءة وهي تؤذي ومَنْ يعشق يلذّله الغرام
ولله درّ القائل^(٢): [الكامل]

الحمدُ شهد لا يرى مشتاره يَجْنِيهِ إِلَّا مِنْ نَقِيعِ الْحَنْظَلِ
غُلّ لحامله ويحسبه امرؤ لم يُوءَ عَاتِقَهُ خَفِيفَ الْمَحْمَلِ
وقال عليّ بن الفضل^(٣): [الرجز]

لو قَرُبَ الدُّرُّ عَلَى جَلَابِهِ ما نَجَحَ الْغَائِصُ فِي طَلَابِهِ
ولو أقام لازماً أصدافه لم تكن التَّيْجَانُ فِي حِسَابِهِ
ما لَوْلُو الْبَحْرُ وَلَا مَرَجَانُهُ إِلَّا وَرَاءَ الْهَوْلِ مِنْ عِبَابِهِ
من يعشق العُلياء يلقى عندها ما لَقِيَ الْمُحِبُّ مِنْ أَحْبَابِهِ
وقال الشاعر^(٤): [الطويل]

دعيني أنل ما لا يُنال مِنَ الْعُلا
فصعب العُلا في الصَّعب والصَّعب في السَّهْلِ
تريدين إدراك المعالي رخيصةً
ولا بدّ دون الشَّهْد من إبر النَّحْلِ

(١) البيت في ديوان المتنبّي، من قصيدة مطلعها:

فؤاد ما تسلّيه المدام
(٢) البيتان لأبي تمام في ديوانه، من قصيدة مطلعها:

ليس الوقوف بكُفٍّ شوقك فانزل
(٣) الرجز لصرد بن صربع في ديوانه، من قصيدة مطلعها:

قد رجع الحقّ إلى نصابه
(٤) البيتان للمتنبّي في ديوانه، من قصيدة مطلعها:

كدعواك كلّ يدعي صحّة العقل
ومن ذا الذي يدري بما فيه من جهل

وقال الأشعث بن قيس، واسمه معديكرب لقومه: إنما أنا رجلٌ منكم ليس لي فضلٌ عليكم، ولكني أبسط لكم وجهي، وأبذل لكم مالي، وأحفظ حريمكم، وأقضي حقوقكم، وأعود مريضكم، وأشيع جنازكم، فمن فعل مثل هذا فهو مثلي، ومن زاد عليه فهو خيرٌ مني، ومن قَصُر عنه فأنا خيرٌ منه. قيل له: وما هذا؟ قال: أحضكم على مكارم الأخلاق.

ومن روائع عادات السادات ووشائع سادات العادات

السَّخاءُ والنَّجدة والمروءة، فالسَّخاء التبرُّع بالنائل، قبل إلحاف السائل؛ والنَّجدة الذبُّ عن الجار، والإقدام عند الكريهة؛ والمروءة حفظ الرجل دينه وإحراز نفسه عن الدَّنَس، إلى غير ذلك من الأخلاق الجميلة التي هي بالمدح كفيلة، وسنذكر جملة منها فيما سيأتي.

وقيل: أسباب السُّود سبعة: العقل، والحلم، والصيانة، والصدق، والعلم، والسَّخاء، وأداء الأمانة؛ وأضيف إلى ذلك: الصبر، والتواضع، والعفاف، تلك عشرة كاملة، هي لمحاسن الشَّيْم شاملة. وقال ابن عمر: ما رأيت بعد رسول الله ﷺ في الصحابة أسود من معاوية، فقليل له: أهو خيرٌ من أبي بكر وعمر؟ قال: هما خيرٌ منه وهو أسودُ منهما لحلمه وجوده؛ فإننا معشر قريش نعدّ الحلم والجود السُّود. ويحكى أن رجلاً رأى معاوية وهو صغير يلعب مع الصبيان، فقال: إني أظنّ هذا الغلام سيسودُ قومه، قالت أمّه هند: تُكَلِّته إن كان لا يسودُ إلّا قومه. وقيل: السيّد من أورى ناره، وحمى معاره، ومنع جاره، وأدرك ثاره. وقال النبي ﷺ: «اضمنوا لي ستاً أضمن لكم الجنة: اصدقوا إذا حدثتم، وغضوا أبصاركم، وأوفوا إذا وعدتم، وأدّوا الأمانة إذا اتتمتم، واحفظوا فروجكم، وغضوا أبصاركم، وكفّوا أيديكم»^(١).

وذكر أنّ عبد الملك بن مروان دخل على معاوية وعنده عمرو بن العاص، فسلم ثم جلس، فلم يلبث أن قام، قال معاوية: ما أكمل مروءة هذا الفتى، قال عمرو: إنه أخذ بأخلاق أربعة وترك أخلاقاً أربعة، أخذ بأحسن البشر إذا لقي،

(١) أخرجه أحمد في المسند ٢٣٣/٥، ٣٢٣، والحاكم في المستدرک ٢٥٨/٤، والتبريزي في مشكاة المصابيح ٤٨٧٠، والمتقي الهندي في كنز العمال ٤٣٥٣١، ٤٣٥٣٣.

وبأحسن الحديث إذا حَدَّثَ، وبأحسن الاستماع إذا حَدَّثَ، وبأيسر المؤنة إذا حُولِفَ، وترك مزاح مَنْ لا يثق بعقله، وترك مجالسة مَنْ لا يرجع إلى دينه، وترك مخالطة لِثَامِ الناس، وترك مِنْ الكلام كُلِّ ما يُعْتَذَرُ منه. وقال هشام بن عبد الملك لخالد بن صفوان: بِمَ بلغ فيكم الأحنف ما بلغ؟ قال: إن شئت أخبرتك بخلة واحدة، وإن شئت بخلتين، وإن شئت بثلاث؛ قال: فما الخلة؟ قال: كان أقوى الناس على نفسه، قال: وما الخلتان؟ قال: كان موقى الشر ملقى الخير، قيل: فما الثلاث؟ قال: كان لا يحسد ولا يبخل ولا يبغى. وقال رجل للأحنف: بِمَ سوّدك قومك، وما أنت بأشرفهم بيتاً، ولا بأصبحهم وجهاً، ولا بأحسنهم خلقاً؟ قال: بخلاف ما فيك يا ابن أخي، قال: وما ذاك؟ قال: بتركي من أمرك ما لا يعنيني، كما عناك من أمري ما لا يعينيك.

وقال عبد الملك لبنيه: كلّمكم يترشح لهذا الأمر، ولن يصلح له إلّا مَنْ كان له سيف مسلول، ومالٌ مبذول، ولسانٌ معسول، وعدلٌ تطمئنّ إليه القلوب، وأمرٌ تستقرّ به في مضاجعها الجنوب. وقيل لقيس بن عاصم المنقري: بِمَ سُدّت قومك؟ قال: ببذل القرى، وترك المراء، ونصرة المولى. وروى عليّ رضي الله عنه قال: لَمّا أتينا بسبايا طيء كانت في النساء جارية هيفاء، سمراء كحلأ لمياء، خميصة الخصر، هضيمة الكشح، مصقولة المتن، فلَمّا رأيتها أُعْجِبْتُ بها، فلَمّا تكلّمت أنسّني بمقالها ما رأيته من جمالها، فكان من كلامها أن قالت: يا محمد هلك الوالد، وغاب الوافد، فإنّ رأيته أن تمنّ عليّ وتخلي عني ولا تشمت بي أحياء العرب، فإنني ابنة سيّد قومها، إنّ أبي كان يحمي الذمار، ويفكّ العاني، ويشبع الجائع، ويكسو العاري، ويفشي السلام، ولا يرد طالب حاجة أبداً، فقال عليه الصّلاة والسّلام: «مَنْ أبوها؟» قالوا: حاتم طيء، فقال عليه الصّلاة والسّلام: «لو كان أبوها مسلماً لترحّمتنا عليه، خلّوا عنها، فإنّ أباهما كان يحبّ مكارم الأخلاق»، ثم قال للمسلمين: «ما حازت أسنتها، وحوّته أعنتها غير التهيئة والإبضاع، فلو فعلوا لفعلت»، فقالوا: يا رسول الله أمرنا لأمرك تَبَع، فاصنع ما بدا لك، فقال: «أعليّ أصحابي، وأهلك أعدائي، وأبدل الأنصار بالمضاضة غضاضة»^(١)، وأطلقها رسول الله ﷺ فخرجت إلى أخيها عدي، وكان بدومة الجندل، فقالت: ائت هذا

(١) أخرجه الزبيدي في إتحاف السادة المتين ٩٤/٧.

الرجل قبل أن تعلقك حبائله، فإني رأيت هدياً ورأياً ستغلب به أهل الغلب، رأيت خصالاً أعجبتني، رأيتهم يحب الفقير، ويفك الأسير، ويرحم الصغير، ويعرف حق الكبير، وما رأيت أحداً أجود منه ولا أكرم ﷺ.

وقال معاوية: لا ينبغي للملك أن يكون كذاباً ولا حديداً ولا بخيلاً ولا جباناً ولا حسوداً، فإنه إن كان كذاباً ووعده بخير لم يُرَجَّ، أو أوعده بشر لم يُخَف، وإن كان حديداً مع القدرة هلكت الرعية، وإن كان بخيلاً لم يناصحه أحد، ولا تصلح الولاية إلا بالمناصحة، وإن كان جباناً اجترأ عليه عدوه وضاعت ثغوره فذل، وإن كان حسوداً لم يشرف أحداً، ولا يصلح الناس إلا بأشرافهم. ويقال: ليس للملك أن يغضب؛ لأن القدرة من وراء حاجته، وليس له أن يكذب؛ لأن أحداً يسترده حديثاً ولا أحد يُكرهه على ما يريد، وليس له أن يكون حقوداً؛ لأن خطره عظيم عن المجازاة. وقال عبد الله بن طاهر: لا ينبغي للملك أن يظلم وبه يُستدفع الظلم، ولا أن يعجل ومنه تُلتَمَس الأناة، ولا أن يبخل ومنه يتوقع الجود. وقالوا: ينبغي للملك أن يكون سخيّاً لا يبلغ التبذير، وحافظاً لا يبلغ البخل، وشجاعاً لا يبلغ التهور، ومحترساً لا يبلغ الجبن، وقائلاً لا يبلغ الهذر، وصموتاً لا يبلغ العي، وحليماً لا يبلغ العجز. وقال أسماء ابن خارجة: لا أشتام أحداً ولا أرد سائلاً، فإنما هو كريم أسد خلته، أو لثيم أستر عرضي منه.

وروى البيهقي في كتابه شعب الإيمان بإسناده عن عائشة رضي الله عنها، أنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «مكارم الأخلاق عشرة تكون في الرجل، ولا تكون في ابنه، وتكون في الابن ولا تكون في أبيه، وتكون في العبد ولا تكون في سيده، يقسمها الله لمن شاء من عباده: صدق الحديث، وصدق البأس، وأن لا يُشبع وجاره وصاحبه جائعان، وإعطاء السائل، والمواساة بالتائل، والمكافأة بالصنائع، وحفظ الأمانة، وصلة الرحم، والتذم للجار، وقزي الضيف، ورأسهن الحياء»^(١). ومن أخلاقهم: صون الوجه بقناع الحياء، وعقل اللسان عن اللجاج والمراء. الحياء دليل الدين الصحيح، وشاهد الفضل الصريح، وسمّة الصلاح الشامل، وعنوان الفلاح الكامل، من كان فيه نظم فلائد المحامد ونسق وجمع من خلال الكمال ما افترق.

(١) أخرجه المتقي الهندي في كنز العمال ٥١٢٩.

قال رسول الله ﷺ: «إن لكل شيء خُلُقًا، وخُلُقُ هذا الدِّين الحياء»^(١)، وقال رسول الله ﷺ: «الحياء من الإيمان، والإيمان في الجنة»^(٢)، وقال: «الحياء لا يأتي إلا بخير»^(٣)، وقال رسول الله ﷺ: «استَحْيُوا من الله حقَّ الحياء»، قيل: كيف ذلك يا رسول الله؟ قال: «مَنْ حفظ الرأس وما وَعَى، والبطن وما حوى، وذكر الموت والبلا، وترك زينة الحياة الدنيا، وآثر الآخرة على الأولى؛ فمن فعل ذلك فقد استَحْيَا من الله حقَّ الحياء»^(٤). فالحياء اسمٌ جامع يدخل فيه الحياء من الله تعالى؛ لأنَّ ذمَّه فوق كلِّ ذمٍّ، ومدحه فوق كلِّ مدح. وقال يزيد بن علي: إني لأستحي من الله تعالى أن أفضي إليه بشيء أخفيه من غيره. والحياء من الناس يكون بكفِّ الأذى، وترك المجاهرة بالقبيح. ويُرَوَّى عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ تقوى الله اتقاه الناس»^(٥). وقيل: هو أن يستحيي منهم في سرِّه كما يستحيي منهم في جَهْرِهِ. وقيل: من المروءة أن لا تعمل شيئًا في السرِّ يُستحيا منه في العلانية. وكان يقال: أحيوا الحياء بمجالسة مَنْ يُستحيا منه. وقال النبي ﷺ لأبي: «عليك بالحياء والأنفة، فإنك إن استَحْيَيْتَ من الغضاضة اجتنبت الخساسة»^(٦). وأما استحياء الرجل من نفسه، فهو أن لا يأتي في الخلاء إلا ما يأتي في الملا. وكان رسول الله ﷺ أشدَّ حياءً من العذراء في حُدْرِها^(٧)، وكان إذا كره شيئًا عرفناه في وجهه. وكان عثمان بن عفان قد خُصَّ من الحياء بأجلِّ السهام، ومُنِحَ منه بأوفر الأقسام، وشهد له رسول الله ﷺ بأنه تستحيي منه الملائكة الكرام. قال الإمام مالك رضي الله عنه: إنه أول من ضرب الأبنية في السفر. وقالوا: مَنْ لا يَسْتَحْيِي من نفسه، فجدِّيرٌ أن لا يستحيي من غيره. وقالوا في حدِّه: الحياء التوقي من فعل المساوىء خوف الذم. ويقال: الحياء خوف المُستحيي من تقصير يقع به من غير

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ٣٨٩/١٠، والمتقي الهندي في كنز العمال ٥٧٨٣.

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان حديث ٥٩، والترمذي حديث ٢٠٠٩، ٢٦١٥، وابن ماجه حديث ٤١٨٤، وأحمد في المسند ٩/٢، ٥٠١.

(٣) أخرجه مسلم في الإيمان حديث ٦٠، وأحمد في المسند ٤/٤٢٧.

(٤) أخرجه الترمذي حديث ٢٤٥٨، وأحمد في المسند ١/٣٨٧، والحاكم في المستدرک ٤/٣٢٣، والطبراني في المعجم الكبير ٢٤٦/٣.

(٥) الحديث لم أجده بهذا اللفظ في كتب الحديث التي بين يدي.

(٦) الحديث لم أجده.

(٧) أخرجه البخاري في الأدب باب ٧٢، ٧٧، والمناقب باب ٢٣، ومسلم في الفضائل حديث ٦٧، وابن ماجه في الزهد باب ١٧، وأحمد في المسند ٣/٧١، ٧٩، ٨٨، ٩١، ٩٢.

مَنْ هو أفضل منه . وقال عمرو بن بحر الجاحظ: الحياء لباسٌ سابغ، وحجابٌ واق، وسِتْرٌ مِنَ العيب، وأخو العفان، وحليف الدّين، ورقيبٌ مِنَ العصمة، وعين كالثّلة تذود عن الفحشاء، وتَنْهَى عن ارتكاب الأرجاس، وسببٌ إلى كلّ جميل . وقالوا: من عَفَّتْ أطرافه حَسُنَتْ أوصافه . ويقال: لا تَرْضَ قول امرئ حتى تَرْضَى فِعْله، ولا تَرْضَ فعله حتى تَرْضَى عقله، ولا تَرْضَ عقله حتى تَرْضَى حياءه، فإنَّ ابن آدم مجبولٌ على أشياء مِنْ كرم ولُؤْم، فإذا قوي الحياء قَوِيَ الكرم، وإذا ضَعُف الحياء قَوِيَ اللُّؤْم . وقال بشار بن بُرْد^(١): [الوافر]

وأعرض عن مطاعم قد أراها فأتركها وفي بطني أنطواء
فلا وأبيك ما في العيش خيرٌ ولا الدُّنيا إذا ذهب الحياء
وقال بعض الأعفَاء^(٢): [الوافر]

ورُبّ قبيحة ما حالَ بيني وبين ركوبها إلّا الحياء
فكان هو الدّواء لها ولكن إذا ذهب الحياء فلا دواء
وقالوا: لا يزال الوجه كريماً ما دام حياؤه، ولم يَزُقْ باللّجاج ماؤه . وقالوا: حياة الوجه بحيائه، كما أنَّ حياة الغرس بمائه . وقال ابن المعتز في كتاب الأدب: مَنْ كساه الأدب ثوبه، سَتَرَ عن الناس عيبه . وقالوا: فلان يتحدّر من أسارير وجهه ماء الحياة، وينير لألاء غرته حنادس الظلماء . وقال الفرزدق في عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب رضي الله تعالى عنهم^(٣): [البسيط]

يُغْضَى حياء ويغضى من مهابته فلا يكلم إلا حين يبتسم
ليلي الأخيلىة في توبة الحميري^(٤): [الكامل]

ومخرّق عنه القميص تخاله وَسَطَ البُيوت من الحياء سقيما
حتى إذا رفع اللثام رأيتَه تحت اللّواء على الخميس زعيما

(١) البيتان في ديوان بشار بن بُرْد، وهما بيتان منفردان .

(٢) البيتان لعلّي بن الجهم في ديوانه، من قصيدة مطلعها:

إذا رزق الفتى وجهًا وقاحًا تقلّب في الأمور كما يشاء

(٣) البيت في ديوان الفرزدق ١٧٩/٢، من قصيدة مطلعها:

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته والبيت يعرفه والحلّ والحرم

(٤) البيتان في ديوان ليلي الأخيلىة ص ١١٠، من قصيدة مطلعها:

لما تخايلت الحملول حَسِبْتُها دومًا بأئيلة ناعمًا مكموما

ولابن المعتز^(١): [الكامل]

ويظل صباغ الحياء بخذه تعباً يصفر تارة ويورّد
وقال آخر^(٢): [الطويل]

كريمٌ وغض الطرف بعض صفاته ويدنو وأطراف الرّماح دَوَانِ

جوامع مباح الأخلاق والشيم المتحلية بها ذوو الأصالة والكرم

مدح أعرابي رجلاً، فقال: كان والله تعب في المكارم غير ضالّ في طرقها، ولا متشاغلٌ بغيرها عنها. وقال آخر: فلان لو وجد الكرم في يد غيره لعلم أنه ضالّة له. ومدح أعرابي رجلاً، فقال: كان والله صحيح النّسب، مُحْكَم الأدب، من أيّ أقطاره أتيتُه انثنى إليك بكرم فعال، وحُسن مقال. وذكر أعرابي رجلاً، فقال: كأنّ الألسن والقلوب رِيضت له فلا تنعقد إلّا على ودّه، ولا تنطق إلّا بشنائه وحَمده. وقالوا: فلان من شجر يختلف ثمره، ومن ماءٍ لا يأتلف كدّره. وسأل يحيى بن خالد رجلاً عن أبيه الفضل، فقال: تركته وماء الحياء يتحدّر من أسارير وجهه، وسيول الجود سائلة من فروج أنامله، ولآلئ العلم منتشرة من مسارب منطقته.

نظم هذه الكلمات إبراهيم بن هلال الصابي في أبيات يمدح بها الوزير المهلب^(٣): [البسيط]

له يدّ برعت جوداً بنائلها ومنطق دَرّه في الطّرس منتثرُ
فحاتم كامن في بطن راحته وفي أناملها سحبان مستترُ
وقال زرعة بن سنان مادحاً^(٤): [الطويل]

مأثره غرّ وأيامه زهر وطلعته بدرّ وراحته بحرُ

(١) البيت في ديوان ابن المعتز، من قصيدة مطلعها:

يا من وجود بموعد من حظّه ويصدّ حين أقول أين الموعدُ

(٢) البيت لأبي الشيص الخزاعي في ديوانه، وهو مطلع القصيدة، وللراعي النميري في ديوانه، وهو أيضاً أول بيت من بيتين، والبيت الثاني:

وكالسيف إن لاينه لاين متنه وحذاه إن خاشنته خشنان

(٣) البيتان للصّابي في المتحلّ للثعالبي، ص ٩.

(٤) البيت لم أجده في المصادر والمراجع التي بين يدي.

وهذا غاية في التقسيم. وقال ديك الجنّ يفتخر بمثل ذلك^(١): [البسيط]
 إِنَّ الْعُلا شِيمِي وَالْبَاسُ مِنْ نَقْمِي والمجد خلط دمي والصدق حشو فمي
 وقال النمر بن نوار مفتخرًا^(٢): [البسيط]

لا يعلم اللامعات اللانحات ضحى ما تحت كشحي ولا يعلمن أسراري
 ولا أخوان ابن عمي في حليلته ولا البعيد نأى عني ولا جاري
 وقال آخر يفتخر بنفسه، وكان دميم الخلق، أي قصيرًا^(٣): [الطويل]
 أَلَمْ تَعْلَمِي يَا عَمْرُكَ اللَّهُ أَتُنِي كريمٌ على حين الكرام قليلُ
 إِذَا كُنْتُ فِي الْقَوْمِ الطُّوَالِ فَضْلَتُهُمْ بعارفةٍ حتى يُقال طویلُ
 فَإِنْ لَمْ يَكُنْ جَسْمِي طَوِيلًا فَإِنِّي له بِالْفِعَالِ الصَّالِحَاتِ وَصُولُ
 وقال ابن حبيب التميمي^(٤): [الطويل]

إِذَا مَا رَفِيقِي لَمْ يَكُنْ خَلْفَ نَاقَتِي له مركب فضل فلا حملت رحلي
 وَلَمْ يَكُ مِنْ زَادِي لَهُ نِصْفٌ مَزُودِي فلا كنت ذا زادٍ ولا كنت ذا رحلٍ
 شَرِيكِينَ فِيمَا نَحْنُ فِيهِ وَقَدْ أَرَى عليّ له فضلًا بما نال مِنْ فَضْلِي
 آخر^(٥): [الطويل]

وَمَا أَنَا بِالسَّاعِي بِفَضْلِ زَمَامِهَا لتشرب ماء الحَوْضِ قَبْلَ الرِّكَائِبِ
 وَمَا أَنَا بِالطَّائِي حَقِيبَةَ رَحْلِهَا لأبعثها خُفًا وَأَتْرُكُ صَاحِبِي
 إِذَا كُنْتُ رَبًّا لِلْقُلُوصِ فَلَا تَذُرْ رفيقك يمشي خلفها غير رَاكِبِ
 أَنْخُهَا وَأَزْدِفْهُ فَإِنْ حَمَلْتَكُمَا فذاك وَإِنْ كَانَ الْعِقَابُ فَعَاقِبِ

(١) البيت في ديوان ديك الجنّ الحمصي، وهو بيت منفرد.

(٢) البيتان للنمر بن توبل في ديوانه، من ثلاثة أبيات، والبيت الأول هو مطلع القصيدة.

(٣) الأبيات لبشر الفزاري في ديوانه، من قصيدة مطلعها:

وعاذلةً هبّت بليلٍ تُلومني ولم يغتمرني قبل ذاك عذولُ

(٤) الأبيات للمغيرة بن حبناء في ديوانه، من ثلاثة أبيات وهي هذه.

(٥) الأبيات لحاتم الطائي في ديوانه، من قصيدة مطلعها:

ومرقة دون السماء علوتها أقلب الطرف في فضاء سبابِ

وقال مالك بن نويرة الفزاري^(١): [البسيط]

لا يبعد الله قومًا إن سألتهم أعطوا وإن قلت يا قوم انصروا نصروا
وإن أصابهم نعماء سابغة لم يبطروها وإن فاتتهم صبروا
والكاسرون عظامًا لا جبار لها والجابرون عظامًا ليس تنكسر

وقال مروان بن أبي حفصة يمدح آل معن بن زائدة من أبيات^(٢): [الطويل]
هُم القوم إن قالوا أصابوا وإن دُعوا أجابوا وإن أعطوا أطابوا وأجزلوا
ولا يستطيع الفاعلون فعالهم ولو أحسنوا في الثائيات وأجملوا
والأسباب المانعة من السيادة سبعة:

الحدائث، والبخل، والزنا، والظلم، والحُمق، والفقر، والكذب. واعتبرت
هذه الأسباب فوجدتها قد تفرقت في الأعيان الأمثال، والسرّات الأفاضل.

أما الحدائث، فقد ساد أبو جهل وما طرّ شاربه، ودخل دار الندوة وما استوت
لحيته.

وأما البخل، فقد ساد أبو سفيان وكان أبخل من نار الحباحب، وقيل: من
أبي حباحب.

وأما الزنا، فقد ساد عامر بن الطفيل وكان أزنّى من قرد.

وأما الظلم، فقد ساد كلّيب بن وائل، وكان أظلم من حية.

وأما الحُمق، فقد ساد عُيَيْتة بن حصن، وكان أظلم من دغة.

وأما الفقر، فقد ساد أبو طالب وعتبة بن ربيعة، وكانا أفلس من ابن
المذلق.

ولا يُعرف في العرب والعجم كذاب ساد قط إلا المهلب بن أبي صفرة، فإنه
كان أكذب من فاختة، وكان إذا أخذ في الحديث يقول أصحابه: راح يكذب.

(١) الأبيات بلا نسبة في لسان العرب (دجا)، وتاج العروس (دجا).

(٢) البيتان في ديوان مروان بن أبي حفصة، من قصيدة مطلعها:

كانَ التي يوم الرحيل تعرّضت لنا من ظباء الرمل أدماء معزلة

شرح ما ذُكر من الأمثال الواقعة في هذا المثل

أما سيادة أبي جهل ودخوله دار الندوة، فكانت دار الندوة نادي سادات قريش لا يدخلها إلا مسود. وأما قولهم: أبخل من أبي حباب على أحد الروايتين، فهو رجل من العرب كان لبخله يوقد نارًا ضعيفة، فإذا أبصرها مستضيء أطفأها، وعلى الرواية الأخرى: فهي النار التي تقدحها الخيل بحوافرها، وتوصف بالبخل لقلتها وعدم الانتفاع بها. وأما قولهم: أزنى من قرد، فهو قرد بن عمرو بن معاوية الهذلي، وقيل: هو الحيوان المعروف. وأما قولهم: أظلم من حية، فلأنها لا تتخذ لنفسها بيتًا، بل كل حجر أمته هرب أهله منه وتركوه لها. وأما قولهم: أخمق من دغة، فإنها مارية بنت مغنج وهو ربيعة بن عجل، ومن حُمقها أنها تزوجت وهي صغيرة في بني العنبر بن تميم، فحملت فلما أضرب بها المخاض ظنّت أنها تريد الخلاء، فبرزت إلى بعض الغيطان فوضعت، فاستهل الوليد فانصرف إلى الرّحل تظنّ أنها أحدثت، فقالت لضرتها: يا هنتاه أيفغر الجعر فاه؟ قالت: نعم، ويدعو أباه، ثم مضت الضرة وأخذت الولد إليها وربّته، وبنو العنبر يُعيرون بذلك ويُعرفون ببني الجعراء.

وأما قولهم: أفقر من ابن المذلق، فهو رجل من بني عبد شمس بن سعد بن زيد مناة لم يكن يجد بيتة ليلة وأبوه وأجداده يُعرفوه بالإفلاس، وفي أبيه يقول الشاعر^(١): [الطويل]

فإنك إن ترجو تميمًا ونفعها كراجي الندى والعُرف عند المذلق
ويُروى بالذال المهملة.

وأما قولهم: أكذب من فاختة فلان حكاية صوتها هذا زمان الرطب تقول ذلك والطلع لم يطلع.

قال بعضهم^(٢): [مجزوء الرجز]

أكذب من فاخته تصيح عند الكزب
والنخل غير مطلع هذا أوان الرطب

(١) البيت بلا نسبة في المستقصى في أمثال العرب للزمخشري ٢٧٥/١، ومجمع الأمثال ٨٣/٢، وجمهرة الأمثال ١٠٧/٢، والذرة الفاخرة ٣٢٧/١، ٣٣٢، والمرضع ص ٢٧٧.

(٢) الرجز بلا نسبة في لسان العرب (وسط)، وتاج العروس (وسط).

وقالوا: عشر خصال في أناس أقبح منها في غيرهم: الفسق في الملوك، والكذب في القضاة، والخديعة في العلماء، والغضب في الأبرار، والغدر في الأشراف، والسفَه في الشيوخ، والمرض في الأطباء، والتَهْزِي في الفقراء، والشح في الأغنياء، والفخر في الأعزّاء.

الفصل الثاني من الباب الأوّل

في ذكر الصنائع والمآثر المفصّحة عن أحساب الأكابر

قال خالد بن صفوان: كان الأحنف بن قيس يفرّ من الشرف، والشرف يتبعه. لما تولّى عبد الله بن طاهر بن الحُسَيْن خراسان بعد موت أبيه من قِبَلِ الواثق دخل عليه عبد الله بن خلود بن سعد المعروف بأبي العُمَيْثِل بقصيدة يمدحه فيها ويهتته بالولاية، فجاء منها قوله^(١): [الكامل]

يا مَنْ يُؤمَل أن تكون خِصاله كخِصال عبد الله أنصت واسمع
اصدق وعف وبرّ وانصف واحتمل واكفّف وكافٍ ودارٍ واحلم واشجع
والطف ولين واشتدّ وارفق وأثبّد واخزم وجدّ وحامٍ واحمل وادفع
فلقد نصحتك إن قبلت نصيحتي وهديت للنهج الأسد المهيّج
آخر^(٢): [البسيط]

إن كنت ترغب في شأو الكرام فسر
في الناس بالفضل والدين الذي شرعوا
حافظ إذا غدروا واشجع إذا جيئوا
واحلم إذا جهلوا وابذل إذا منعوا

فمن مآثر ذوي الكرم في النجار^(٣) الذبّ عن النّزِيل وحفظ الجار

كما قيل: الكريم يرعى حقّ اللحظ، ويتعهد حُرمة اللفظ. وقالوا: وجه الكريم جنة، وكَنَفه جُنة. كان بعض الهاشميين إذا نزل به جار قال: يا هذا إنك قد

(١) الأبيات في ديوان أبي العميثل الأعرابي، من قصيدة مطلعها:

قالت ركعت فقلت إنّ وراءكم أنّ قد كبرتُ ومن يعمّر يركع

(٢) البيتان لم أجدهما في المصادر والمراجع التي بين يديّ.

(٣) النجار: الأصل والحسب.

اخترتني جازًا، واخترت داري دارًا، فجناية يدك عليّ دونك، فاحتكم عليّ حكم الصبي على أهله. وهذا مثلٌ تضربه العرب في التزام ما يُحكم به عليها، وذلك أنّ الصبي إذا كان عزيزًا في أهله حمّله الدّلال على طلب ما يستحيل وجوده ويصعب مرامه، فهم أبدًا يَسعون في تحصيل أغراضه وآرايه، ليظفروا برضاه ويقدموا على أتراه. وكان حارثة بن مرّ يسمّى مُجِيرًا، وذلك أنه نزل بفنائهِ جرّاد، فغدا أهل الحيّ إليه ليدفعوه عنهم، فمنعهم منه وقال لهم: ما تريدون منه؟ قالوا: نريد قتله، فإنه نزل بجوارك، فقال: أمّا إذا سمّيتموه جاري فوالله لا تَصِلُون إليه أبدًا، وطردهم عنه. وكان ثور بن شحمة العنبري يسمّى مُجير الطير، فكانت الطير لا تُصاد بأرضه ولا تضار. وحُكي أن زيادًا الأعجم وفد على المهلب فأكرمه وأنزله على أبيه، فجلسا يومًا يشربان في بستان، فغَتّت حمامة على فنن فطرب لها زياد، فقال له حبيب: إنها فاقدة إلف كنت أراه معها، فقال زياد: هو أشدّ لشوقها، ثم أنشد^(١): [الوافر]

تغثي أنت في ذممي وعهدي وذمة والدي أن لا تُضاري
وعشك أصلحيه ولا تخافي على زغب مصغرة صغار
فإنك كلما غنّيت صوتًا ذكرت أحبّتي وذكرت داري
فأما يقتلوك طلبت ثأرًا لأنك يا حمامة في جواري

فضحك حبيب، ثم قال: يا غلام هلمّ القوس، فجاء بها فنزع لها بسهم فأصابها، فوقعت ميتة، فنهض زياد مغضبًا وقال: أخفرت أبا بسطام ذمتي وقتلت جاري، وشكاه إلى المهلب فغضب على حبيب، وقال: أمّا عَلِمْتَ أنّ جار أبي لبابة جاري، وذمته ذمتي، والله لألزمَنَّك دية الحرّ وأخذ له من ماله ألف دينار، فقال فيه من أبيات ذكر القصة فيها، جاء منها قوله^(٢): [الطويل]

فلله عيّنًا مَنْ رأى كقضيّة قضى لي بها شيخ العراق المهلبُ
قضى ألف دينار لجار أجزته مِنَ الطَّيْرِ إذ يبكي شجاء ويندبُ

ولمّا وُلّي صالح بن علي مصر من قبل ابن أخيه أبي العباس السفاح خرج عليه رجاء بن رَوْح بفلسطين مع عمّه الحكم بن ضبعان، وكان على شرطة مصر،

(١) الأبيات والخبر في المستجد من فِغلات الأجواد للقاضي التنوخي، ص ٢٧٩.

(٢) انظر الحاشية السابقة.

فأرسل إليهم أبا عَوْن ومحمد بن أشعث الخزاعي بعسكر فهَزَمَا الحكم، وبلغ صالح بن عليّ أَنَّ رجاء بن رَوْح دخل مصر واستجار بمحمد بن معاوية فأجاره، فأرسل إليه فحضر، فقال: ألم أكرمك؟ ألم أشرفك؟ قال: بلى، قال: فكان جزائي منك أن أجرت عدوي؟ قال: وما ذاك أيها الأمير؟ قال: رجاء بن روح وابنه، قال: أضلّح الله الأمير اختَر واحدة من اثنتين لي فيهما براءة إما أن أُثلج صدرك بيمين أو تُرسل رجلاً من ثقاتك يفتش منازلِي، قال: وتحلف؟ قال: نعم، فأخلفه بطلاق زوجته وعتق عبده ومشيه إلى مَكّة راجلاً حافياً، فحلف له ثم انصرف إلى منزله، وأعلّم زوجته فاعتزلت عنه، وقالت له: لا تنقطع عني لئلا يشعرك، فلما عُزل صالح عن مصر ورجع إلى بغداد أظهر محمد بن معاوية طلاق زوجته، وأعتق رقيقه، ومشى إلى مَكّة كما شرط عليه.

ولما كان يوم فتح مَكّة لجأ الحارث بن هشام إلى منزل أم هانئ أخت عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه مستجيراً بها، فدخل عليها عليّ فخبّرتة الخبر، فأخذ السيف ليقتله، فقالت أم هانئ: يا ابن أمّ قد أجرتة، فلم يلتفت إلى قولها، فوثبت فقبضت على يديه، وقالت: والله لا تقتله وقد أجرتة، فلم يقدر عليّ أن يرفع قدمه عن الأرض وجعل يتفلّت منها فلا يقدر، فدخل النبي ﷺ إليها، فقالت: يا رسول الله ألا ترى أنني أجرت فلاناً، فأراد عليّ أن يقتله؟ فقال رسول الله ﷺ: «قد أجرتنا مَنْ أجرت ولا تُغضبني عليّاً، فإن الله يغضب لغضبه، أطلقني عنه»^(١)، فأطلقت عنه، فقال عليه الصلاة والسلام: «يا عليّ علّبتك امرأة»، فقال: والله يا رسول الله ما قدرت أرفع قدمي من الأرض، فضحك رسول الله ﷺ وقال: «لو أنّ طالباً ولد الناس كانوا شُجاعاً».

ومِنْ أحسن ما يُحكى في هذا الباب: أهدر المهديّ دم رجلٍ كان يسعى في فساد دولته، وجعل لمن يقتله أو يأتيه به مائة ألف درهم، فاخفى الرجل زماناً ثم ظهر مستنكراً خائفاً يترقب، فبَصُر به رجلٌ في بعض دروب بغداد فعرفه وأخذ بيده، وقال: بِغية أمير المؤمنين، فاجتمع الناس عليه وجَهِدوا على أن يُطلقوه منه

(١) أخرج الجزء الأول من الحديث: «قد أجرتنا مَنْ أجرت يا أمّ هانئ» مسلم في صلاة المسافرين حديث ٨٢، وأبو داود حديث ٢٧٦٣، وأحمد في المسند ٦/٣٤١، ٣٤٢، ٣٤٣، ٤٢٣، ٤٢٤.

فلم يقدروا، فمرَّ به وهو في تلك الحالة معن بن زائدة، فناداه: يا أبا الوليد أجزني أجارك الله، فوقف الرجل وقال للرجل الذي تعلَّق به: ما شأنك؟ قال: بغية أمير المؤمنين الذي جعل لمن يقتله أو يأتيه به مائة ألف درهم، فقال معن لبعض غلمانه: انزل عن دابَّتكَ واحمله عليها وانطلق به إلى منزلي، فقال الرجل: أتحوّل بيني وبين بغية أمير المؤمنين؟ فقال معن: اذهب إلى أمير المؤمنين وأخبره أنه عندي، فذهب الرجل وأوصل الخبر إلى المهديّ، فبعث إليه من يحضره، فركب معن وقال لمن خلفه من غلمانه في منزله: لا يخلص إلى هذا الرجل أحد وفيكم عين تطرف، فلما دخل على المهدي سلم فلم يرده عليه السلام، وقال له: أتجبر عليّ؟ قال: نعم، قال: ونعم أيضًا؟ فقال معن: يا أمير المؤمنين لقد قتلتُ في طاعتكم باليمن في يوم واحد خمسة عشر ألفًا في أيام كثيرة عُرف فيها بلائي وعنائِي، فما رأيتموني أهلاً لأن يُوهب لي رجل واحد استجار بي، فأطرق المهديّ ملياً ثم رفع رأسه وقد سُري عنه، وقال: لقد أجزنا من أجزت يا أبا الوليد، فقال معن: فإن رأى أمير المؤمنين أن يصِلَه فيكون قد أحياه وأغناه، فقال: قد أمرنا له بخمسين ألفاً، فقال: يا أمير المؤمنين إنَّ صلات الخلفاء تكون على قدر جنایات الرعية، وإن ذنب الرجل عظيم، فأجزل له الصلة، قال: قد أمرنا له بمائة ألف درهم، قال: عجلها له، فإن خير البرِّ عاجله، فعُجلت فأخذها وانصرف بها إلى الرجل، ولم ير المهدي وجهه.

والمثل المضروب في هذا الباب: جازَّ كجارٍ أبي دؤاد؛ وذلك أنَّ أبا دؤاد نزل بكعب بن مامة، وكان كعب إذا جاوره رجل قام له بما يُصلحه وأهله وحماه ممَّن يقصده، وإن هلك له شيء أخلفه عليه، وإن مات واره التراب، فجاوره أبو دؤاد الإيادي فتعلَّم منه، فكان يفعل بجاره ما فعل كعب به، فضرب به المثل ونسب كعب.

قال عليّ بن العباس بن جريج الرومي^(١): [الطويل]

هو المَرءُ أمّا ماله فمحلَّل لعافٍ وأمّا جاره فمحرَّم

(١) البيت في ديوان ابن الرومي، من قصيدة مطلعها:

خصيم الليالي والغواني مظلم وعهد الليالي والغواني مذمّم

وقال شبيب ابن البرصاء^(١): [الطويل]

وجاراتنا ما دُمنَ فينا عزيزة كأزوى ثبير لا يحلّ اصطياؤها
يكون علينا نقضها وضمائها وللجار إن كانت تريد ازدياءها

وقال مروان بن أبي حفصة^(٢): [الطويل]

هُم المانعون الجار حتى كأنما لجارهم فوق السماكين منزل
ولآخر^(٣): [البسيط]

الباذلون الندى والناس باخلة والمانعون وحق الجار يُخترم

وَمِنْ صَنِيع مَنْ زَكَتْ فِي الْكَرَمِ أُرُومُهُ صَوْنُ الْمُضِيمِ بِنَفْسِهِ مِنْ عَدُوِّ يَرُومُهُ

ورد في بعض الآثار: أن الله تعالى أوحى إلى داود عليه السلام: يا داود اسمع مني والحق أقول، مَنْ لَقِيتَني بحسنة واحدة حكمته في رحمتي، قال داود: يا رب وما تلك الحسنة؟ قال: من فرّج عن مكروب كُربتَه. وقال رسول الله ﷺ: «من فرّج عن أخيه كربة من كُرب الدنيا فرّج الله عنه كُربة من كُرب الآخرة، والله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه»^(٤).

ويقال: مِنْ كَفَّارَاتِ عِظَائِمِ الذُّنُوبِ: إِغَاثَةُ الْمَلْهُوفِ، وَالتَّنْفِيسُ عَنِ الْمَكْرُوبِ. وقيل: أَفْضَلُ الْمَعْرُوفِ إِغَاثَةُ الْمَلْهُوفِ. وَمِنْ أَمْثَالِهِمْ: رَبُّ أَخٍ لَكَ لَمْ تَلِدْهُ أُمُّكَ؛ فَمِنْ الْأَخْبَارِ فِي ذَلِكَ: مَا حُكِيَ أَنَّ حَاتِمًا الطَّائِي مَرَّ بِأَرْضٍ غَزَّةً فَنَادَاهُ أَسِيرٌ: يَا أَبَا سَفَّانَةَ^(٥) أَكَلَنِي الْقَدَّ وَالْأَسَارَ وَالْقَمَلَ، فَقَالَ: مَا أَنَا بِأَرْضٍ قَوْمِي، وَقَدْ أَخْطَأْتُ إِذْ نَوَهْتُ بِاسْمِي، وَلَا مَعِيَ مَا أَفْدِيكَ بِهِ، ثُمَّ قَالَ لِلَّذِي هُوَ فِي يَدِهِ: خَلِّ

(١) البيتان في ديوان شبيب ابن البرصاء، من قصيدة مطلعها:

يدلّ علينا الجار آخر قبيله وأحلامنا معروفة وسداؤها

(٢) البيت في ديوان مروان بن أبي حفصة، من قصيدة مطلعها:

كأنّ التي يوم الرحيل تعرّضت لنا من طباء الرمل أدماء معزل

(٣) البيت لم أجده في المصادر والمراجع التي بين يدي.

(٤) أخرجه البخاري في المظالم باب ٣، ومسلم في البرّ حديث ٥٩، والذكر حديث ٣٨، وأبو داود في الأدب باب ٣٨، ٦٠، والترمذي في الحدود باب ٣، والبرّ باب ١٩، والقرآن باب ١٠، وابن ماجه في المقدمة باب ١٧، وأحمد في المسند ٩١/٢، ٢٥٢، ٢٩٦، ٥٠٠، ٥١٤.

(٥) السفانة مشددة بنت حاتم قاله المجد.

عنه سبيله واجعلني في القَدِّ مكانه، ففعل وبعث إلى قومه فأتوه بما فدى به نفسه. وذكر أن بني كلب بن وبرة أغاروا على حيٍّ من أحياء العرب، فقتلوا منهم عشرة أنفس غيلة فاستنجدوا عليهم، وقالوا: إِمَّا الثَّارُ وَإِمَّا الدِّيَّاتِ، فسألوهم المُهْلَةَ في ذلك إلى أجل، فأجابوا فخرج بنو كلب يسألون قبائل العرب المعونة حتى قدموا أرض تميم، ففروا ماء ماء وحياً حياً، فلم يجدوا أحداً يدفع عنهم ولا يُعينهم، وكانوا زهاء مائة نفس، فمروا بعطارد بن حاجب بن زُرارة بن عديّ فسألوه ذلك، فقال: قولوا شعراً وخذوها، فلم يكن فيهم مَنْ يقول شعراً، فتركوه ومضوا، فأتوا على بني مجاشع فمروا بوادٍ قد امتلأ إِبلاً وبه صعصعة جدّ الفرزدق، وهو بفناء إبلٍ له فسألوه القِرَى، فقال: لكم البَذْلُ قبل القِرَى، ما الذي جئتم فيه؟ فأخبروه بأمرهم، فأعطاهم عشر ديات ثم أنزلهم وأضافهم، فقالوا: أرشدك الله من سيّد أرختنا من طولِ التَّعب، ولو عرفناك لقصدناك؛ وصعصعة هذا أوّل من ترك وأد البنات، وفدهنّ بماله وكفّت العرب عن وأدهنّ من بعد.

ومما يُمتزج بما ذكرناه امتزاج اللبن بالماء القراح، ويتعلّق به تعلّق الأنام بالزّاح، ما حكاه الجهشياريّ في كتاب الوزراء أنّه لما تفرّق الأمر عن مروان بن محمد الجعدي طلب عبد الحميد بن يحيى كاتبه، وكان صديقاً لعبد الله بن المقفّع، ففاجأه الطلب وهما في بيت، فقال الذين دخلوا عليهما: أيكما عبد الحميد؟ فقال كلّ واحد منهما: أنا، خوفاً أن ينال صاحبه مكروه، وخشيَ عبد الحميد أن يُسرِعوا إلى ابن المقفّع بما يكره، فقال لهم: تثبّتوا فإنّ في عبد الحميد علامات يُعرف بها، فأرسلوا إلى مرسلهم مَنْ يستوصفها منه، فأينا وجدتموها فيه فخذوه، ففعلوا فوصف له عبد الحميد بعلامات اشتمل عليها بدنه، فأخذ وحمل إلى العباس السّفّاح، فولّى عقوبته عبد الجبار بن عبد الرحمن، فكان يَحْمِي له طشتاً ويضعه على رأسه، فلم يزل يفعل به ذلك حتى مات، وقيل غير ذلك، وأنا ذاكره فيما يأتي من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى.

وقريبٌ من هذه الحكاية ما حكاه صاحب المُستجدّ قال: لما أُحرق جامع مصر ظنّ المسلمون أنّ النصارى أحرقوه، فأحرقوا لهم خاناً كانوا يبيعون فيه الزيت، فقبض السلطان على جماعة من الذين أحرقوا الخان، وكتب رقاعاً فيها القتل وفيها القطع وفيها الجلد، ونثرها عليهم، فمن وقعت في يده رقعة فعل به ما فيها، فوقع في حجر رجل رقعة فيها القتل، فلما قرأها بكى، وقال: والله لولا

أم لي ما باليت، فالتفت إليه شاب كان إلى جانبه، فقال له: في رقعتي الجلد ولا أم لي، فخذ رقعتي وادفع إليّ رقعتك، فأبى عليه فأقسم أن لا بدّ، ففعلا فقتل هذا وجُلِدَ هذا.

وحكى الزبير بن بكار في كتابه الذي سمّاه الموفقيات، قال: استشهد باليرموك الحارث بن هشام وعكرمة بن أبي جهل وسهيل بن عمرو، فأتوا بماء وهم صرعى وفيهم رمق فتدافعوه كلّما دُفِعَ إلى رجلٍ منهم قال: اسقِ فلاناً، حتى ماتوا ولم يشربوه.

مسلم بن الوليد يمدح مَنْ هذه خُلُقُه^(١): [البسيط]

يَجُودُ بِالنَّفْسِ إِنْ ضَنَّ الْجَوَادُ بِهَا وَالْجُودُ بِالنَّفْسِ أَقْصَى غَايَةِ الْجُودِ
وقال عمارة بن حمزة^(٢): [الكامل]

يَنْسَى مُضَرَّتَهُ لِنَفْعِ صَدِيقِهِ لَا خَيْرَ فِي شَرَفٍ إِذَا لَمْ يَنْفَعِ
البحري^(٣): [الطويل]

يَخُونُكَ ذُو الْقُرْبَى مَرَارًا وَرَبِّمَا
وَفَى لَكَ عِنْدَ الْعَهْدِ مَنْ لَا تَنَاسَبُهُ
وَحَسْبُ الْفَتَى مِنْ نَصَحِهِ وَوَفَائِهِ
تَمَنِّيهِ أَنْ يُؤْذَى وَيَسْلَمَ صَاحِبُهُ

آخر^(٤): [مجزوء الكامل]

قَوْمٌ إِذَا حَالَفْتَهُمْ لَمْ تَخْشَ نَائِبَةَ الصُّرُوفِ
وَإِذَا وَصَلْتَ بِحَبْلِهِمْ حَبْلًا أَمِنْتَ مِنَ الْمَخُوفِ

(١) البيت في ديوان مسلم بن الوليد (صريع الغواني)، من قصيدة مطلعها:

لا تدع بي الشوق إني غير محمود نهى النّهي عن هوى الهيف الرعايد

(٢) البيت لعمارة في محاضرات الأدباء للراغب الأصفهاني، ص ٨٦٤.

(٣) البيتان ليسا في ديوان البحري، وهما لمنصور بن إسماعيل الفقيه في ديوانه، وهما بيتان منفردان (انظر الموسوعة الشعرية).

(٤) البيتان بلا نسبة في البصائر والذخائر، لأبي حيان التوحيدي ص ٥٢٤.

وقال أبو نواس الحسن بن هانئ الحكمي يمدح الأمين بحسن العهد والتذم^(١): [الطويل]

أخذت بحبلٍ من جبال محمد أمئت به من طارق الحدثانِ
تغطيت من دهري بفضل جناحه فعيني ترى دهري وليس يراني
فلو تسأل الأيام عني لما دَرَتْ وأين مكاني ما عَرَفَنْ مكاني

ومن أمتن أسباب الحسب والديانة وفاء العهد وأداء الأمانة

قالوا: الوفاء أفضل شمائل العبد، وأوضح دلائل المجد، وأقوى أسباب الإخلاص في الود، وأحقّ الأفعال بالشكر والحمد. وقالوا: الوفاء أتم حميد الخلال، ومُنتهى غاية الكمال، تَمَسُّ الحاجة إليه، وتجب المحافظة عليه، ولقد صار رسماً دارساً، وحلّة لا تجد لها لابساً، ومَنْقبة قلّ أن تجد فيها مُستأنساً، والله دَرّ من قال^(٢): [المنسرح]

وصادق الودّ صادق الخبر مُغري برعي العهود مصطبر
هذا الذي لا أزال أسمعُه وماله في الزمان من أثرٍ
لو أنّ كُفّي بمثله ظفرت قاسمته في المتاع والعمر

وقالوا: من صَحِبَ الناس بلسانٍ صادق، وعاملهم بحُسن الخلاق، وألَزَم نفسه رَغِي العهود والمواثيق، فقد أَرْضَى المخلوق والخالق. ويقال: بالوفاء تَمْلِك القلوب، وتُستدام الإلفة بين المُحِبِّ والمُحِبُّوب. وقالوا: مَنْ تحلّى بالوفاء، وتخلّى عن الجَفَاء، فذلك من إخوانِ الصَّفَاء، ولقد أحسن مَنْ قال^(٣): [الطويل]

إذا أنت مَحَضت المودّة صافيًا ولم تَرَّ عن وصل الصديق مجافيًا
ووفيت بالعهد الذي خانته الورى ولم أرَ مخلوقًا على العهد باقيًا
فقد حَزَّت أسباب المكارم كلّها وجددت للعليا رسومًا عوافيا

(١) الأبيات في ديوان أبي نواس، من قصيدة مطلعها:

لمن طلل لم أشجّه وشجاني وهاجه الهوى أو هاجه لألوان

(٢) الأبيات لم أجدها في المصادر والمراجع التي بين يدي.

(٣) الأبيات لم أجدها.

وقالوا: الوفاء ضالة كثير ناشدها، قليل واجدها؛ كما قيل: الوفاء من شيم الكرام، والغدر من خلائق اللئام. وقالوا: إذا ترك الوفاء، نزل البلاء. ويقال: مَنْ أودع الوفاء صدور الرجال ملك أعناقهم.

ومن أمثالهم في ذلك: أوفى من السموأل، وهو السموأل بن عادياء بن حياء اليهودي صاحب قصر تيماء المسمى بالأبلق الفرد. ومن خبره: أن امرأ القيس كان قاصداً للشأم، فأودع السموأل أذراعه وكراعه، فمات امرؤ القيس بأنقرة، فقصد السموأل بعض ملوك غسان يطلب منه ما كان أودعه امرؤ القيس عنده، فأبى أن يسلمه له، فقال: إن لم تسلمه ذبحت ولدك، وكان قد أسره عند نزوله على القصر، فقال: أجلني الليلة، ثم جمع أهله واستشارهم فكل أشار إليه بأن يدفع إليه ما طلبه منه، فلما أصبح قال له: ليس إلى دفعها سبيل، فافعل ما بدا لك، فذبح الملك ولده ورحل عنه، ثم إن السموأل وافى الموسم بالأذراع فدفعها لورثة امرئ القيس. وفيه يقول الأعشى يخاطب شريح بن السموأل بن عادياء، وقيل: شريح بن حصن بن السموأل، وقيل: شريح بن عمران بن السموأل من أبيات^(١): [البسيط]

كُنْ كالسَّموأل إذ طاف الهُمَامُ به	في جحفل كسواد الليل جرّار
بالأبلق الفرد من تيماء منزله	حصن حصين وجار غير غدار
فسامه خطّتي خسف فقال له	قل ما بدا لك إني مانع جاري
فقال ثكل وغدر أنت بينهما	فاختَر وما فيهما حظ لمختار
فشك غير طويل ثم قال له	اقتل أسيرك إني مانع جاري
فقال تقدّمه إذ رام يقتله	أشرف سموأل فانظر في الدم الجاري
أأقتل ابنك صبراً أو تجيء بها	طوعاً فأنكر هذا أي إنكار
فشك أوداجه والصدر في مضض	عليه منطويّاً كاللذع بالنار
واختار أذراعه من أن يسب بها	ولم يكن عهده فيها بختار
وقال لا أشتري عازاً بمكرمة	فاختار مكرمة الدنيا على العار
والصبر منه قديماً شيمة خلق	وزنده في الوفاء الثاقب الواري

(١) الأبيات في ديوان الأعشى ص ٢٢٩، من قصيدة مطلعها:

شريح لا تتركني بعدما علقت حبالك اليوم بعد القذ أظفاري

وفي ذلك يقول السموأل مفتخرًا^(١): [الوافر]

وَفَيْتُ بِأَدْرَعِ الْكَنْدِيِّ إِنِّي إِذَا مَا خَانَ أَقْوَامِي وَفَيْتُ
وَأَوْصَى عَادِيًا يَوْمًا بِأَنْ لَا تَخْرَبَ يَا سَمَوَّالَ مَا بَنَيْتُ
بَنَى لِي عَادِيًا حَصْنًا حَصِينًا وَمَاءَ كُلَّمَا شِئْتُ اشْتَفَيْتُ
وَالْمَلِكُ هُوَ الْحَارِثُ بْنُ شَمْرِ الْغَسَانِيِّ.

وحدّث الكنديّ في كتابه أخبار الأمراء بمصر، قال: لما وُلِّيَ المطلب بن عبد الله إمارة مصر مِنْ قِبَلِ المأمون خوَّفه أهل مصر من إبراهيم بن نافع الطائي قبل الوصول إليه أنْ يثب عليه فطلبه المطلب، فلم يقدر عليه وآتهم به جماعة من قوَّاد مصر، وكان هُبَيْرَةُ بْنُ هِشَامٍ صاحب شرطة مصر يَعْرِفُ المكان الذي اختفى فيه، وكان إبراهيم بن نافع قد أودع ماله عند هبيرة بن هشام فسعى بهْبَيْرَةُ إلى المطلب، فأحضره وقال له: ادفع إليّ ما أودعه عندك إبراهيم، فقد بلغني الثقة أن ماله مُودَعٌ عندك، وإن لم تَجِئْنِي به أخذت ما فيه عيناك، فأنكر فأوجعه ضربًا وهو يزيد إنكارًا، فلمَّا طال على المطلب جحود هُبَيْرَةَ وخاف عليه التَّلف تركه، ثم لمَّا سكن عن إبراهيم الطلب أخرجته هُبَيْرَةُ من مصر سرًّا، ثم أرسل إليه ماله بعد ذلك مع التجَّار، وفيه يقول سعيد بن عنين^(٢): [الطويل]

لَعَمْرِي لَقَدْ أَوْفَى وَزَادَ وَفَاؤُهُ هُبَيْرَةُ فِي الطَّائِيِّ وَفَاءَ السَّمَوَّالِ
وَقَاهُ الْمَنَائِيَا إِذْ أَتَتْهُ بِنَفْسِهِ وَقَدْ بَرَّقَتْ فِي عَارِضٍ مَتَهَلَّلِ

أُتِيَ الْحِجَّاجُ بِقَوْمٍ مِمَّنْ خَرَجَ عَلَيْهِ، فَأَمَرَ بِهِمْ فَضُرِبَتْ أَعْنَاقُهُمْ، وَأُقِيمَتْ صَلَاةُ الْمَغْرَبِ وَقَدْ بَقِيَ مِنَ الْقَوْمِ وَاحِدٌ، فَقَالَ لِقَتِيَّةُ بْنُ مُسْلِمٍ: انصرف به معك حتى تغدو به عليّ، قال قتيبة: فخرجت والرجل معي، فلما كنَّا ببعض الطريق قال لي: هل لك في خير؟ قلت: وما ذاك؟ قال: إني والله ما خرجت على المسلمين ولا استخللت قتالهم، ولكن ابتليت بما ترى وعندي ودائع وأموال، فهل لك أن تخلّي سبيلي وتأذن لي حتى آتي أهلي وأردّ على كل ذي حقّ حقّه وأوصي، ولك

(١) الأبيات في ديوان السموأل بن عدياء، من قصيدة مطلعها:

عفا من آل فاطمة الخبيث إلى الإحرام ليس بهنّ بيت

(٢) البيتان لم أجدهما في المصادر والمراجع التي بين يدي.

عليّ أن أرجع حتى أضع يدي في يدك، قال قتيبة: فعَجِبْتُ له، وتضاحكت لقوله، قال: فمَضَيْنَا هُنَيْهَةً ثم أعاد عليّ القول، وقال: إني أعاهد الله لك على أن أعود إليك، قال قتيبة: فوالله ما ملكت حتى قلت له: اذهب، فلَمَّا تَوَارَى عني شخصه أسقط في يدي، فقلت: ماذا صنعت بنفسي، وأتيت أهلي مهمومًا مغمومًا فسألوني عن شأني فأخبرتهم، فقالوا: لقد اجترأت على الحجاج، فبِئْسَنا بأطول ليلة، فلما كان عند أذان الغداة إذا الباب يُطْرَق فخرجت فإذا بالرجل، فقلت: أرجعت! قال: سبحان الله جعلت لك عهد الله عليّ فأخونك ولا أرجع، فقلت: أما والله إن استطعت لأنفَعَنَّكَ، وانطلقت به حتى أجلسته على باب الحجاج ودخلت، فلما رأيته قال: يا قتيبة أين أسيرك؟ قلت: أصلح الله الأمير بالباب، وقد اتفق لي معه قصة عجيبة، قال: ما هي؟ فحدّثته الحديث فأذن له فدخل، ثم قال: يا قتيبة أتحب أن أهبه لك؟ قلت: نعم، قال: هو لك، فانصرف به معك، فلما خرجت به قلت له: خذ أيّ طريق شئت، فرفع طرفه إلى السماء وقال: لك الحمد يا ربّ، وما كَلَّمَنِي بكلمة، ولا قال لي أحسنت ولا أسأت، فقلت في نفسي: مجنون والله، فلما كان بعد ثلاثة أيام جاءني وقال لي: جزاك الله خيرًا أما والله ما ذهب عني ما صنعت ولكن كرهت أن أشرك مع حمد الله حمد أحد.

ولَمَّا تَفَرَّقَ الأَمْرُ عن مروان بن محمد وأيقن بزوال مُلْكِهِ وغلبة بني هاشم عليه، قال لكتابه عبد الحميد بن يحيى: إني قد احتجت أن تكون مع عدوّي، فتُظْهِرَ لهم الغدر بي، فإن إعجابهم بأدبك وحاجتهم إليك تمنعهم منك وتدعوهم إلى حُسْنِ الظَّنِّ بك، فإن استطعت أن تنفعني في حياتي، وإلا فلا تعجز عن حفظ حُرْمَتِي بعد وفاتي، فقال عبد الحميد: إنّ الذي أَمَرْتَنِي به أنفع الأمرين لك وأضرّهما بي وما عندي إلّا الوفاء حتى يفتح الله لك أو أقتل معك، ثم أنشد^(١):
[الطويل]

أَسِرَ وفاءً ثم أظهر غدرَةً فمن لي بغدرٍ يشمل الناس ظاهِرُهُ

فأمسك عنه ساعة وأعاد عليه القول ثانية، فقال: والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس، فلم يزل معه حتى قُتِلَ؛ وذلك في آخر سنة اثنتين وثلاثين ومائة وله تسع وخمسون سنة، وقُتِلَ ببُوصير قرية

(١) البيت لم أجده في المصادر والمراجع التي بين يدي.

من صعيد مصر، وهو آخر ملوك بني أمية، وكانت دولتهم^(١) ثلاثًا وتسعين سنة وأحد عشر شهرًا وأيامًا، وهرب عبد الحميد إلى قرية تُعرف بالأشمونين فاختفى بها، فدلّ عليه وحُمِلَ إلى أبي العباس السفّاح بأمان فلم يَحْطَ عنده، وقال الجهشيارى قُتِلَ، وقد ذُكِرَ آنفًا.

ومن أحسن ما تُطرب به الأسماع، ويلطف به كثيف الطّباع، ما يُحكى أنّ معاوية بن أبي سفيان تزوّج ميسون بنت بحدل ونقلها من البدو إلى الشام، وكانت كثيرة الحنين إلى أناسها والتذكر لمسقط رأسها، فأُنصت لها يومًا فسمعها تُنشد^(٢):
[الوافر]

لَبَيْتَ تَخْفِقُ الْأَرْيَاحَ فِيهِ	أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ قَضَرٍ مُنِيفٍ
وَلُبَسَ عِبَاءَةً وَتَقَرَّ عَيْنِي	أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ لُبَسِ الشُّفُوفِ
وَأَكَلَ كَسِيرَةً فِي كَسْرِ بَيْتِي	أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ أَكْلِ الرَّغِيفِ
وَأَصْوَاتِ الرِّيحِ بِكُلِّ فَجٍّ	أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ نَقْرِ الدُّفُوفِ
وَكَلْبٍ يَنْبَحُ الطَّرَاقَ دُونِي	أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ قَطِّ أُلُوفِ
وَبَكَرٍ يَتَّبِعُ الْأَطْلَالَ صَعْبٌ	أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ بَغْلِ رَدُوفِ
وَخَرَقَ مِنْ بَنِي عَمِّي نَحِيفٌ	أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ عِلْجٍ عَنِيفِ
خَشُونَةَ عَيْشَتِي فِي الْبَدْوِ أَشْهَى	إِلَى نَفْسِي مِنَ الْعَيْشِ الظَّرِيفِ
فَمَا أَبْغِي سِوَى وَطْنِي بَدِيلًا	فَحَسْبِي ذَاكَ مِنْ وَطْنٍ شَرِيفِ

فلَمَّا سَمِعَ معاوية الأبيات قال: ما رَضِيتُ بي بنت بحدل حتى جعلتني عِلْجًا عَنِيفًا، ثم طَلَّقَهَا وَرَدَّهَا إِلَى أَهْلِهَا. ويقال: مِنَ الْوَفَاءِ تَشَوَّقُ الرَّجُلُ لِإِخْوَانِهِ وَحَنِينِهِ إِلَى أَوْطَانِهِ، وَتَلَهْفُهُ عَلَى مَا مَضَى مِنْ زَمَانِهِ. وقالوا: الْكَرِيمُ يَحَنُّ إِلَى جَنَابِهِ، كَمَا يَحَنُّ الْأَسَدُ إِلَى غَابِهِ. ويقال: مِنْ عَلَامَةِ الْكَرِيمِ أَنْ تَكُونَ نَفْسُهُ إِلَى مَوْلَدِهِ تَوَاقَةً، وَإِلَى مَسْقَطِ رَأْسِهِ مَشْتَاقَةً. شاعر^(٣): [الطويل]

أَحَبَّ بِلَادَ اللَّهِ مَا بَيْنَ مَنْعَجٍ إِلَيَّ وَسَلَمَى أَنْ يَجُودَ سَحَابُهَا

(١) مَدَّةُ دَوْلَةِ بَنِي أُمَيَّةٍ.

(٢) الْأَبْيَاتُ فِي خَزَانَةِ الْأَدَبِ ٨/٥٠٣، ٥٠٤، وَالدَّرَرُ ٤/٩٠.

(٣) الْبَيْتَانِ بِلَا نِسْبَةٍ فِي رِسَائِلِ الْجَاخِظِ ص ٨٩٥، وَرَوَايَةُ الْبَيْتِ الْأَوَّلِ فِيهِ:

أَحَبَّ بِلَادَ اللَّهِ مَا بَيْنَ صَارَةٍ إِلَى غُطْفَانٍ إِذْ يَصُوبُ سَحَابُهَا

بلاد بها نيطت على تمائمي وأول أرض مسّ جلدي ترابها
وقالت الحكماء: أرض الرجل ظئره، وداره مهده، والغريب كالغرس الذي
زايل أرضه، فهو ذاوٍ لا ينمى وذابل لا ينضّر، وفطرة الرجل معجونة بحبّ
الأوطان، مجبولة على تذكّر ماضي الزّمان، وقد ذكر ابن الرّومي السبب الموجب
لحبّ الأوطان بقوله^(١): [الطويل]

وحبّ أوطان الرجال إليهم مآرب قضاهما الشباب هنالكا
إذا ذكروا أوطانهم ذكرتهم عهود الصّبا فيها فحثوا لذلكا
وقالوا: ليس في الحيوان السائح أشدّ وفاء من الفاختة، فإنها إذا مات إلفها
لا تزال تندبه، ولا تألف غيره حتى تموت.

ومن أحاسن فعلات الأشراف الاتّصاف بالعدل والإنصاف

فالعدل قوام الدنيا والدين، وسبب صلاح المخلوقين، وله وُضعت الموازين،
وهو المرغوب المألوف، المؤمن من كل مخوف، به تألفت القلوب، والتأمت
الشعوب، وظهر الصّلاح، واتّصلت أسباب النّجاح، وانعقلت عُرى اليُمْن والفلاح،
وشمل الناس التناصف، والتواصل والتعاطف، وهو مأخوذ من الاعتدال الذي هو
القوام والاستواء، المتجانبان للميل والالتواء، وهو ميزان الله في أرضه الذي يُوفي
به الحقوق، ويَرأب به الصدوع والفتوق. وحقيقته وضع الأمور في مواضعها: لا
تُوضع الشدّة مكان اللّين وبضدّ ذلك، ولا السيف مكان السوط وبالعكس من
ذلك، وإلى هذا أشار المتنبّي في قوله^(٢): [الطويل]

ووضع النّدى في موضع السيف بالعدى

مضرّ كوضع السيف في موضع النّدى

والإنصاف هو استيفاء الحقوق واستخراجها بالأيدي العادلة والسياسات
الفاضلة، وهو والعدل تَوأمان نتيجتهما علو الهمة، وبراءة الذمة باكتساب

(١) البيتان في ديوان ابن الرّومي، من قصيدة مطلعها:

أعوذ بحقوقك العزيزين أن أرى

مقرّاً بضيم يترك الوجه حالكا

(٢) البيت في ديوان المتنبّي، من قصيدة مطلعها:

لكلّ امرئٍ من دهره ما تعودا

وعادة سيف الدولة الطعن في الجدا

الفضائل، واجتناب الرذائل، فالإنصاف استثمار، والعدل استكثار، فيصير الملك بالإنصاف مستثمرًا، وبالعدل مستكثرًا، وما نقص مُلك من إنصاف، ولا جاه من إسعاف. وقد قيل: من عدل في سلطانه، استغنى عن أعوانه. وقيل: عدل السلطان أنفع للرعية من خضب الزمان. وروى الثقة بأسانيد حسنة عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «عدل ساعة خير من عبادة ستين سنة»^(١). وعن عبد الرحمن بن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ قال: «المُقسطون على منابر من لؤلؤ يوم القيامة بين يدي الرحمن بما أقسطوا في الدنيا»^(٢). وقال حكيم لبعض الملوك: أيها الملك إنما فخرك بإظهار عدلك، وإيثار فضلك، لا بجمال بزتك، وتمكن عزتك، وفراهة مركبك، وكثافة موكبك. ويقال: المُلك يبقى على العدل والكفر، ولا يبقى على الإيمان والجور، وإليه أشار الشاعر بقوله^(٣): [البسيط]

عليك بالعدل إن وليت مملكةً واحذر من الجور فيها غاية الحذر

فالمُلك يبقى على عدل الكفور ولا يبقى مع الجور في بدو ولا حضر

دخل عمر بن الخطاب على أبي بكر الصديق رضي الله عنهما فسلم فلم يردّ عليه، فقال لعبد الرحمن بن عوف: أخاف أن يكون قد وجد عليّ خليفة رسول الله ﷺ، فكلم عبد الرحمن أبا بكر في ذلك، فقال: إنه أتانى وبين يديّ خصمان قد فرغت لهما سمعي وبصري وقلبي، وعلمت أن الله سائلي عنهما وعمّا قالا وعمّا قلت. ويقال: إذا عدل السلطان في رعيته ثم جار على واحد لم يفّ عدله بجوره. ويقال: حق على من ملكه الله على بلاده، وحكمه في عباده، أن يكون لنفسه مالِكًا، وللهوى تاركًا، وللغيظ كاظمًا، وللظلم هاضمًا، وللعدل في حالتي الرضا والغضب مُظهرًا، وللحق في السرّ والعلانية مؤثرًا، وإذا كان كذلك ألزم النفوس طاعته، والقلوب محبته، وأشرق بنور عدله زمانه، وكثر على عدوه

(١) أخرجه المنذري في الترغيب والترهيب ١٦٧/٣، والمتقي الهندي في كنز العمال ١٤٦٢٣، بلفظ: «عدل يوم أفضل من عبادة ستين سنة».

(٢) أخرجه بنحوه أحمد في المسند ٢٠٣/٢، والحاكم في المستدرک ٨٨/٤، والمتقي الهندي في كنز العمال ١٤٦١٩، والبيهقي في السنن الكبرى ٨٧/١٠، ٨٨.

(٣) البيتان لم أجدهما في المصادر والمراجع التي بين يدي.

أنصاره وأعوانه، ولقد صدق من قال^(١): [الوافر]

لكل ولاية لا بدّ عزل وصرف الدّهر عقد ثم حلّ
وأحسن سيرة تبقى لوالٍ على الأيّام إحسان وعدلّ

وقال عمرو بن العاص: مَلِكٌ عادل خير من مطرٍ وابل. وكان كسرى يقيم رجلين من موابذته عن يمينه وشماله إذا أراد النظر في أمور الناس، فكان إذا زاغ حرّكاه بقضيب معهما، وقالاً له والرّعيّة يسمعون: أيّها الملك أنت مخلوق لا خالق، وعبد لا مولى، وليس بينك وبين الله قرابة، أنصف الخلق وانظر لنفسك. ويقال: إنه كتب ثلاث رِقاع في إحداها: أمسك غضبك فإنك لست بإله، وإنك ستموت ويأكل بعضك بعضاً؛ وفي الثانية: ارحم عباد الله يرحمك الله؛ وفي الثالثة: احمل عباد الله على الحق، فإنه لا يَسْعَهُمْ إلّا ذلك؛ وكان إذا جلس للناس عامّة لينظر في أمورهم قام بعض الحُجّاب على رأسه ويده الرّقاع، فإذا رآه غضب على أحد ناوله الرّقعة الأولى، فإن رآه تمادى على غضبه ناوله الثانية، فإن لم ينتهِ ناوله الثالثة. وكان عمر بن الخطّاب رضي الله عنه يأمر عُمّاله أن يوافوه في الموسم، فإذا اجتمعوا قال: يا أيّها الناس إني لم أستعمل عُمّالي عليكم ليصيبوا من أبشاركم، ولا من أعراضكم، ولا من أموالكم شيئاً، إنما استعملتهم ليحجزوا بينكم ويردّوا عليكم فئتكم، فأئكم كانت له عندي مظلمة فليقم.

وصف أعرابي أميراً عادلاً، فقال: هو عالم برعيّته عادل في أقضيّته، عارٍ من الكِبَر، قابل للعذر، سهل الحجاب، متحيّزاً إلى الصواب، رفيقٌ بالضعيف، مكرمٌ للشريف، غير مُجافٍ للقريب، ولا مُخيفٍ للغريب. وكان شمس المعالي قابوس بن وشمكير عادلاً في ملكه، كان لا يؤتى بمفسد إلّا أقام الحق عليه، ولو أنه أقرب الناس إليه.

وَقَعَ جعفر بن يحيى إلى بعض عُمّاله: أنصف مَنْ وُلّيت أمره وإلّا أنصفه منك مَنْ وُلّي أمرك. ووقع أخوه الفضل: بِشِّس الزّاد إلى المعاد التعديّ على العباد. وسأل عمر بن عبد العزيز رجاء بن حيوة عن حال رعيّته مع العَمّال، فقال: رأيت الظالم مقهوراً، والمظلوم منصوراً، والغنيّ موفوراً، والفقير مبروراً، فقال: الحمد لله

(١) البيتان لم أجدهما في المصادر والمراجع التي بين يدي.

الذي وهب لي من العدل ما تطمئن إليه قلوب رعيتي. وتعرض له متظلماً في بعض الطرق، فوقف له وأزال شكايته، فقبل له: هلاً صبرت حتى يستقر بك المنزل، فقال: الخير سريع الذهاب، وخشيت أن أفوته بنفسي وإنما هي فرصة قدمت فيها الحزم، واستصعبت الحزم. قال شاعر يمدح متولياً اتصف بهذه الخلّة من الرؤساء الجلة^(١): [السريع]

لا تقدح الظنّة في حكمه شيمته عدل وإنصاف
يمضي إذا لم تلقه شبهة وفي اعتراض الشك وقاف

ومما اتفق على مدحه الأوائل والأواخر

تواضع من حاز الفضائل والمفاخر

قالوا: ينبغي لمن عظم قدره، وامثل نهيه وأمره، وانتشر في الخافقين ذكره، أن يكون للإعجاب مطرْحاً، وعن الكبر منتبذاً ومنتزحاً، فإن همة الرجل العاقل الفاضل شريفة عليّة، وباختفار ما أوتيت من رئاسات الأعمال والأموال مليّة. قال ذو النون: من تطأطأ لقي رطباً، ومن تعالَى لقي عطباً. وقال عروة بن الزبير: التواضع من مصائد الشرف، وكلّ نعمة محسود عليها إلا التواضع. ويقال: التواضع في الشرف أشرف من الشرف.

ويقال: اسمان يتفق معناهما ويفترق لفظهما: التواضع والشرف. وكان رسول الله ﷺ يجيب دعوة الحرّ والعبد والأمة والمسكين، ويقول: «لو دُعيت إلى كراع لأجبت»^(٢)، وكان يخصف النعل، ويحلب الشاة، ويركب الحمار ردفاً، ويرفع الثوب، ويطحن مع الخادم إذا أُغيت، ويأكل معها ويحمل بضاعته من السوق ويسلم مبتدئاً ويصافح الغنيّ والفقير، ويخالط أصحابه ويحدثهم ويمازحهم ويلعب صبيانهم ويجلسهم في حجره، وما دعاه أحد من أصحابه، ولا من أهل بيته، إلا قال: لبيك، وقال: «لا تفضلوني على يونس بن متى، ولا ترفعوني فوق قدري فتقولون في ما قالت النصراني في المسيح: إنّ الله اتخذني عبداً قبل أن

(١) البيتان بلا نسبة في الإمتاع والمؤانسة لأبي حيّان التوحّيدي، ص ٢٨.

(٢) أخرجه البخاري في الهبة باب ٢، والنكاح باب ٧٣، ومسلم في النكاح حديث ١٠٤، وأحمد في المسند ٢/٤٢٤، ٤٧٩، ٤٨١، ٥١٢.

يَتَّخِذْنِي رَسُولًا»^(١)، وَكَانَ ﷺ لَا يَأْكُلُ مَتَكْنًا، وَيَأْكُلُ الْخَبِيصَ وَيَقُولُ: «إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ أَكَلْتُ كَمَا يَأْكُلُ الْعَبْدُ، وَأَجْلَسْتُ كَمَا يَجْلِسُ الْعَبْدُ»^(٢).

وَقَالَ الْبَرَاءُ بْنُ عَازِبٍ: رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ الْخَنْدَقِ يَنْقُلُ التُّرَابَ حَتَّى وَارَى التُّرَابَ صَدْرَهُ، وَكَانَ يَنْقُلُ اللَّبَنَ عَلَى عَاتِقِهِ مَعَ أَصْحَابِهِ عِنْدَ بِنَاءِ مَسْجِدِهِ بِالْمَدِينَةِ، هَذَا وَلِسَانُ فَخْرِهِ يَنْزِعُ عَنِ الْإِبَانَةِ عَنْ عَلْوِ قَدْرِهِ، فَيَقُولُ: «أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ وَمَنْ دُونَهُ تَحْتَ لَوَائِي، أَنَا أَوَّلُ مَنْ تَنْشَقُّ عَنْهُ الْأَرْضُ، لَسْتُ كَأَحَدِكُمْ إِنِّي أَظَلُّ عِنْدَ رَبِّي يَطْعُمَنِي وَيَسْقِينِي»^(٣)، شَرَفَ صَرَفَتْ أَمَانِي الْأَمَالَ عَنْ بُلُوغِ مَدَاهِ، وَتَقَطَّعَتْ دُونَهُ أَيْدِي الطَّمْعِ فَلَا تَصِلُ إِلَى عِلَالِهِ، وَلَمَّا وَلَّى أَبُو بَكْرٍ الْخِلَافَةَ، قَالَ: إِنِّي وَلَيْتَكُمْ وَلَسْتُ بِخَيْرِكُمْ، فَلَمَّا بَلَغَ كَلَامَهُ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ قَالَ: بَلَى، وَلَكِنَّ الْمُؤْمِنَ يَهْضُمُ نَفْسَهُ. وَسُئِلَ بَعْضُ التَّابِعِينَ: هَلْ رَأَيْتَ أَبَا بَكْرٍ؟ قَالَ: نَعَمْ، رَأَيْتُ مُلْكًا فِي زِيٍّ مُسْكِينٍ. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: كَانَ أَبُو بَكْرٍ كَثِيرًا مَا يَنْشُدُ^(٤): [الْبَسِيطُ]

إِذَا أُرِدْتُ شَرِيفَ النَّاسِ كُلَّهُمْ فَانْظُرْ إِلَى مُلْكٍ فِي زِيٍّ مُسْكِينٍ
ذَاكَ الَّذِي حَسُنَتْ فِي النَّاسِ قَالَتُهُ وَذَاكَ يَصْلُحُ لِلدُّنْيَا وَلِلدِّينِ
آخِرُ^(٥): [الْبَسِيطُ]

إِنَّ السَّعِيدَ الَّذِي تَمَّتْ سَعَادَتُهُ فَتَى يَفْرَمُ مِنَ الدُّنْيَا إِلَى الدِّينِ
يَصْدُ بِالْطَّرْفِ مِنْهُ عَنْ زَخَارِفِهَا فَيَغْتَدِي مُلْكًا فِي زِيٍّ مُسْكِينٍ

(١) أَخْرَجَهُ الزُّبَيْدِيُّ فِي إِتْحَافِ السَّادَةِ الْمُتَّقِينَ ٢/ ١٠٥، وَابْنُ كَثِيرٍ فِي الْبَدَايَةِ وَالنِّهَايَةِ ١/ ٢٣٧.

(٢) أَخْرَجَهُ الزُّبَيْدِيُّ فِي إِتْحَافِ السَّادَةِ الْمُتَّقِينَ ٥/ ٢١٤، وَالْمُتَّقِيُّ الْهِنْدِيُّ فِي كَنْزِ الْعَمَالِ ٨/ ٤٠٧، ٩٣/ ٤٠٧.

(٣) أَخْرَجَهُ بَنُحُوهُ أَبُو دَاوُدَ حَدِيثَ ٤٦٧٣، وَأَحْمَدُ فِي الْمُسْنَدِ ٢/ ٥٤٠.

(٤) الْبَيْتَانِ لِأَبِي الْعَتَاهِيَةِ فِي دِيْوَانِهِ، مِنْ قَصِيدَةٍ مَطْلَعُهَا:

لَتَجْدَعَنَّ الْمَنَايَا كُلَّ عَرْنِينٍ وَالسَّلْقُ يَفْنِي بِتَحْرِيكِ وَتَسْكِينٍ
وَرَوَايَةُ الْبَيْتِ الثَّانِي فِي الدِّيْوَانِ:

ذَاكَ الَّذِي عَظُمَتْ فِي اللَّهِ حُرْمَتُهُ وَذَاكَ يَصْلُحُ لِلدُّنْيَا وَلِلدِّينِ
وَهَذَا الْخَبَرُ فِيهِ شَكٌّ وَالتَّبَاسُ، فَأَبُو الْعَتَاهِيَةِ مُتَأَخِّرٌ عَنْ أَبِي بَكْرٍ الصَّدِيقِ؛ إِذْ تَوَفَّى أَبُو بَكْرٍ سَنَةَ ١٣ هـ، وَتَوَفَّى أَبُو الْعَتَاهِيَةِ سَنَةَ ٢١١ هـ، فَكَيْفَ يَتِمَثَّلُ أَبُو بَكْرٍ بِشَعْرٍ لَمْ يُقَالَ بَعْدُ؟

(٥) الْبَيْتَانِ لَمْ أَجِدْهُمَا فِي الْمَصَادِرِ وَالْمَرَاجِعِ الَّتِي بَيْنَ يَدَيَّ.

وقال المرار بن المنقذ العدوي^(١): [البسيط]

يا حبذا حين يمسي الريح باردة وادي الأضواء وفتيان بها هضمٌ
مخدّمون كرام في مجالسهم وفي الرجال إذا صاحبتهم خدّم
وما أ صاحب من قوم فأذكرهم إلا يزيدهم حباً إليّ هم

وكان رضي الله عنه إذا مُدِح قال: اللَّهُمَّ أَنْتَ أَعْلَمُ بِي مِنْ نَفْسِي وَأَنَا أَعْلَمُ
بِنَفْسِي مِنْهُمْ، اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي خَيْرًا مِمَّا يَحْسِبُونَ، واغفر لي ما لا يعلمون، ولا
تؤاخذني بما يقولون. وروي أنّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه نادى يوماً: الصلاة
جامعة، فلما اجتمع الناس صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أيّها الناس
لقد رأيتموني وأنا أُرعى على خالات لي من بني مخزوم يقبض لي القبضة من التمر
أو الزبيب، فقال عبد الرحمن بن عوف: ما أردت على أن قصرت على نفسك،
فقال: ويحك يا ابن عوف خلّوت بنفسي فقالت لي: أنت أمير المؤمنين وليس
بينك وبين الله أحد، فمن ذا أفضل منك؟ فأردت أن أعرفها قدرها. واشترى أمير
المؤمنين عليّ رضي الله عنه تمرًا بدرهم فحمله في ردائه، فسأله بعض أصحابه
حملة عنه، فقال: أبو العيال أحقّ بحمله. وحكى الشعبي قال: ركب زيد بن ثابت
فدنا منه عبد الله بن عباس فأخذ بركابه، فقال: لا تفعل يا ابن عمّ رسول الله ﷺ،
فقال: هكذا أمّرنا أن نفعل بعلمائنا، فقال زيد: أرني يدك فأخذها وقبّلها، وقال:
هكذا أمّرنا أن نفعل بأهل بيت نبينا. ودخل بعض الشعراء على الحسن بن زيد
فأنشده^(٢): [المنسرح]

الله فرد وابن زيد فرد

فقال بفيك الأثلب ألا قلت:

الله فرد وابن زيد عبد

ونزل عن سريرته وألصق خدّه بالأرض. وكان عبد الله بن عمر إذا سافر مع
قوم يحتطب لهم ويطبّخ لهم ويستقي لهم ويؤذّن لهم. وكان أبو هريرة خليفة
مروان بن الحكم على المدينة يحتطب ويأتي بالحزمة الحطب على ظهره يشقّ بها

(١) الأبيات بلا نسبة في لسان العرب (خدم)، وتهذيب اللغة ٧/ ٢٩٠، وكتاب العين ٤/ ٢٣٥.

(٢) الشطر والخبر في ربيع الأبرار للزمخشري، ص ٢٨٥٠.

السوق، ويقول: جاء الأمير جاء الأمير، حتى يعلم الناس به فينصرفون إليه في حوائجهم. البحرني مادحاً^(١): [الوافر]

دَنُوتٌ تواضعًا وعلوت قدرًا فشاناك انحدارًا وارتفاعًا
كذلك الشمس تبعد أن تُساما ويدنو الضوء منها والشعاعُ
ولآخر^(٢): [الطويل]

تواضع تكن كالنجم لاح لناظر على صفحات الماء وهو رفيعُ
ولا تُكُّ كالمدخان يعلو بنفسه إلى طبقات الجو وهو ضيعُ

كان ابن مسعود إذا مشى خلفه أحد قال: أخروا عني نعالكم، فإنها ذلة للتابع، وفتنة للمتبوع. ولما ولي علي بن عيسى الوزارة وذلك في سنة ثلاثمائة رأى الناس يمشون حوله كما كانوا يمشون حول الوزراء قبله، فالتفت إليهم وقال: إنا لا نرضى لعبيدنا أن يفعلوا هذا معنا، فكيف نكلفه قومًا أحرارًا لا إحسان لنا عليهم؟ ومنعهم من المشي في ركابه، فكأنما عناه أبو تمام حبيب بقوله^(٣):
[الكامل]

متبذل في القوم وهو مبجل متواضع في الحي وهو معظمُ

وقال الحسن: أربعة لا ينبغي لشريف أن يأنف منهن: قيامه عن مجلسه لأبيه، وخدمته لضييفه، وقيامه على فرسه، وخدمته لمن يأخذ من علمه. وقال عبد الله بن مسعود: رأس التواضع أن تبدأ بالسلام من لقيت، وأن ترضى بالدون من المجلس. وقال عبد الله بن شداد: أربعة من كُنَّ فيه فقد برىء من الكبر: من اعتقل العنز، وركب الحمار، ولبس الصوف، وأجاب دعوة الدون من الرجال.

(١) البيتان في ديوان البحرني، من قصيدة مطلعها:

فذلك أكف قوم ما استطاعوا مساعيك التي لا تُستطاعُ

(٢) البيتان لنجم الدين الغزي في نفحة الريحانة ورشحة طلاء الحانة، للمحبي، ص ٨١٠.

(٣) البيت في ديوان أبي تمام، من قصيدة مطلعها:

أرض مصردة وأخرى تشجم منها التي رزقت وأخرى تُخرمُ

ومما يدلّ على شرف الأبوّة إلزام النفس بأنواع المروّة

قال بهرام بن بهرام: المروءة اسم جامع للمحاسن كلها. وقال بعض البلغاء: المروءة جامعة لأشتات المبرّات، جالبة لأسباب المسرّات، دالة على كرم الأعراق، باعثة على مكارم الأخلاق، ناظمة لقلائد الفوائد، عاقلة لشوارد المحامد. وقال بعض الحكماء: المروءة سجيّة، جُبلت عليها النفوس الزكيّة، وشيعة طُبِعَت عليها الطُّباع الكريمة. وقالوا: أولى الناس بالمروءة، مَنْ له نبوّة النبوة.

وقد جمع الله تعالى متفرقاتها في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ﴾ [النحل: الآية ٩٠].

وجمعها النبي عليه الصّلاة والسلام على نوع آخر، فقال: «مَنْ عامل الناس فلم يظلمهم، ووعدهم فلم يخلفهم، وحدثهم فلم يكذبهم، فهو ممن كُمِلَت مروءته، وظهرت عدالته، ووجبت أخوته، وحرُمَت غيبته»^(١).

وجمعها بعضهم على نوع آخر، فقال: باب مفتوح، وخير مَمْنوح، وسير مرفوع، وطعام موضوع، ونائل مبذول، وكلام معسول، وعفاف معروف، وأذى مكفوف. وجمعها آخر فقال: مروءة الرجل صدق لسانه واحتمال عثرات إخوانه، وبذل المعروف لأهل زمانه، وكفّ الأذى عن جيرانه.

وقال أعرابي: والله لولا أنّ المروءة ثقيل محلها شديد مؤنتها ما ترك اللّثام للكرام منها شيئا. وقالوا: المروءة الظاهرة، الثياب الطاهرة؛ كما قال يزيد بن المهلب لولده: كُنْ أحسن ما تكون في الظاهر حالاً، أقلّ ما تكون في الباطن مآلاً. وقال عليه الصّلاة والسّلام: «إنّ الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده، ويكره البؤس والتبّؤس»^(٢). وقال الحسن بن علي رضي الله عنهما: إنّ الله جميل يحبّ الجمال. وقالوا: مروءة الرجل أن لا يلبس ثوب شهرة؛ كما قال بعض الظرفاء: كُلْ ما اشتتهت نفسك، والبس ما يلبسه أبناء جنسك، ولقد أحسن بعض الشعراء حيث نظم هذه الكلمات يخاطب بها إنساناً لبس ثوب شهرة، فقال^(٣):

(١) أخرجه أبو نعيم في تاريخ أصبهان، ٣٠٠/٢.

(٢) أخرجه الترمذي حديث ٢٨١٩، وأحمد في المسند ٢/٢١٣، والحاكم في المستدرک ٤/١٣٥.

(٣) البيتان بلا نسبة في بهجة المجالس، لابن عبد البر، ص ١١٧٧.

[الكامل]

إِنَّ الْعَيُونَ رَمَتْكَ إِذْ فَاجَأَتْهَا وَعَلَيْكَ مِنْ شَهْرِ الثِّيَابِ لِبَاسُ
أَمَّا الطَّعَامُ فَكُلْ لِنَفْسِكَ مَا اشْتَهَتْ واجعل لباسك ما اشتهاه الناسُ

وقالوا: التعزّي البارح خير من الزيّ الفاضح. وقال عبد الملك بن صالح:
ليس من لباس السادات ذوي المروّات ذوات الألوان، فإنها من لباس الغلمان
والنّسوان. قال الشاعر^(١): [السريع]

قل للذي يخرج عن شكله ليترقي أسباب أوعارِ
كيف ترجى أن تنال العُلا ولم تُبالِ الدهر من عارِ
من فارق المعهود من زيّه فذاك لا كاسٍ ولا عارِ

ورأى إنسان على أبي طاهر الخبز أرزي ثوبًا حسنًا فلامه في ذلك وعثقه،
فأنشد^(٢): [الطويل]

عليّ ثياب فوق قيمتها فلس وفيهنّ نفس دون قيمتها الإنسُ
فثوبك صبح تحت أذياله دجى وثوبي ليل تحت أذياله شمسُ

فكلّ من افتخر بمجده من الأكارم ومدح أسماه، ورأى اكتسائه حُلّ المكارم
أنمى لقدره وأسمى له اقتدى بالعتابي في هذا المذهب، وتختّم بفضّه المذهب،
وذلك أنه دخل على يحيى بن خالد في سمل، وكان لا يبالي ما لبس فعابه عليه،
فقال: يا أبا عليّ خزي الله من يرفعه هيّناه: جماله وماله، حتى يرفعه أكبراه: همّته
ونفسه، وأصغراه قلبه ولسانه. قال شاعر في المعنى الذي نحاه^(٣): [الكامل]

لا تنظرنّ إلى الثياب فيأئنني خلق الثياب من المروءة كاسي
وقال أبو عفّان وأجاد في النحو الذي أراد^(٤): [البسيط]

تعجّبت درّ من شيبني فقلت لها
لا تعجبي قد يلوح الفجر في السّدْفِ

(١) الأبيات لم أجدها في المصادر والمراجع التي بين يدي.

(٢) البيتان لم أجدهما في المصادر والمراجع التي بين يدي.

(٣) البيت بلا نسبة في بهجة المجالس، ص ١١٨٢.

(٤) البيتان بلا نسبة في حماسة الظرفاء، للبعدلاني الزوزني، ص ١٥.

وزادها عجباً إذ رحت في سمل

وما درت درّ أن الدرّ في الصّدفِ

ولآخر في المعنى^(١): [البسيط]

يا هذه كم يكون اللّوم والفندُ لا تُنكري رجلاً أثوابه قدُ

إن يمس منفرداً فالسيف منفرد والليث منفرد والبدر منفردُ

أو كنت أنكرت طمره وقد خلعا فالبحر من فوقه الأقذاء والزبدُ

إن كان صرف الليالي درّ بزغته فبين طمره منه ضيغم لبْدُ

ومن المروءة التطيّب، فإنه ورد عن مكحول أنه قال: مَنْ نظّف نفسه قلّ

همّه، ومن طاب ريحه زاد عقله، ومَنْ جمع بينهما ظهرت مروءته. وقيل: مِنْ

الظرف والكرم الاستقصاء في التبخر. وكان ﷺ يُعرف خروجه من منزله برائحة

المسك، وكان إذا سلك طريقاً عَرَفَ السائل عنه أين يَمّ لطيب ريحه. وكان ابن

عباس رضي الله عنهما إذا اجتاز في طريق قال الناس: لطيمة مسك أو ابن عباس؛

لطيب ريحه. قال الشاعر^(٢): [الكامل]

ويفوح مسكاً طيب ريح ثيابه وكذاك ريح الماجد الوهابِ

الفصل الثالث من الباب الأول

في ذم التخلّق بالإحسان إذا لم يوافق القلب اللسان

قال الله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ ٢ كَبُرَ مَقْتًا

عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ [الصف: الآيتان ٢، ٣]. وقال رسول الله ﷺ: «إِنَّ

ذَا الْوَجْهَيْنِ لَا يَكُونُ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا»^(٣). وقال عمر بن الخطّاب رضي الله عنه: مَنْ

تخلّق بما ليس من خُلُقهِ، فهو منافق. وقال ابن مسعود: مَنْ كان كلامه لا يوافق

فعله، فإنما يُوَيِّخُ بذلك نفسه. وقيل: ما الدخان بأدلّ على النار من ظاهر الرجل على

(١) الأبيات لجذل بن أشمط العبدي في التذكرة السعدية، للعبيدي، ص ٦٣.

(٢) البيت بلا نسبة في محاضرات الأدباء، للراغب الأصبهاني، ص ٣٥٨٠.

(٣) أخرجه بنحوه البخاري في الأدب، باب ٥٢، وأبو داود في الأدب باب ٣٤، والترمذي في البرّ باب

٧٨، والدارمي في الرقاق باب ٥١، ٥٢.

باطنه. وقال زهير بن أبي سلمى^(١): [الطويل]

ومهما تكن عند امرء من خليفة وإن خالها تُخفى على الناس تُعلم
وقال آخر^(٢): [البسيط]

كل امرئ راجع يوماً لشيمته وإن تخلّق أخلاقاً إلى حين

وقال بعض الحكماء لتلميذ له: يا مَنْ باطنه منظوراً لحقّ، وظاهره منظورٌ لخلق، حَسَنَ ما شئتَ لما شئتَ. وقالوا: ما أقبح بالإنسان أن يقول ما لا يفعل، وما أحسن الفعل ابتداءً قبل القول، فإنَّ مَنْ مات محموداً أحسن حالاً ممَّن عاش مذموماً. وقال أكثم بن صيفي: فَضَّلَ القول على الفعل دناءة، وفضل الفعل على القول مكرمة. ويقال: أحسن المقال ما صُدِّقَ بحُسنِ الفِعال. وكان رجل يُكثر الثناء على أمير المؤمنين عليّ رضي الله عنه بلسان لا يوافقه القلب، فقال له رضي الله عنه يوماً وقد ألحَّ عليه في الثناء: أنا دون ما تقول، وفوق ما في نفسك؛ فانظر إلى هذه الفراسة المفترسة لحبّات القلوب، المكشوف لها الغطاء عن خفّيات الغيوب. وقال بعض الحكماء: لأن يكون لي نصف لسان ونصف وجه على ما فيهما من قبح المنظر وسوء المخبر أحبَّ إليَّ مِنْ أن أكون ذا وجهين، وذا لسانين، وذا قولين مختلفين. وقال أرسطوطاليس: وجهك مرآة قلبك، فإنه يظهر على الوجوه ما تُضَمِّرُه القلوب. وقالوا: العيون طلائع القلوب، وقد أولع الشعراء بنظم هذا المعنى كثيراً؛ فمن ذلك قول بعضهم^(٣): [البسيط]

إنَّ العيون تُبْدي في نواظرها ما في القلوب من البغضاء والإحْن

وقال آخر^(٤): [البسيط]

تُريك أعينهم ما في صدورهم إن الصدور يؤدّي سرّها النظرُ

(١) البيت في ديوان زهير بن أبي سلمى ص ٣٢، من قصيدة مطلعها:

أَمِنْ أَمْ أَوْفَى دَمْنَةً لَمْ تَكَلِّمْ بِحَوْمَانَةِ الدَّرَاجِ فَالْمَتَشَلِّمِ

(٢) البيت لخفاف بن ثذبة في ديوانه، من قصيدة مطلعها:

يا من لقلب شديد ألهم محزون أمسى تذكّر ربّا أم هارون

(٣) البيت لم أجده في المصادر والمراجع التي بين يدي.

(٤) البيت لم أجده.

آخر^(١): [البسيط]

عيناك قد دلتا عيني منكِ على أشياء لولاهما ما كنت أدريها
تظلّ في نفسك البغضاء كامنّة والقلب يُضمرها والعين تُبديها
والعين تعرف من عيني مُحَدّثها إن كان من حزبها أو من أعاديها

ويقال: العادات قاهرات، فمن اعتاد شيئاً في السرّ فضحه في العلانية. وقالوا: حقيقة النفاق اختلاف السرّ والعلن، واختلاف القول والعمل. وقال أبو سعيد الجرجاني: لا ينبغي أن يكون حُسن القول تمهيداً لقُبْح الفعل. لام الشعبي واسمه عامر بن شراحيل عبد العزيز بن مروان على تقصير في الخطبة لما كان عاملاً على مصر، وتزكّه استعمال البلاغة مع القدرة عليها، فقال: إني لأستحيي من الله أن أقول بلساني على منبري خلاف ما أعلمه من قلبي. وكتب رجل إلى صديق له: أما بعد، فعِظْ الناس بفعلك ولا تعظهم بقولك. وأوحى الله تعالى إلى عيسى عليه الصّلاة والسّلام: يا عيسى عِظْ نفسك، فإنّ اتَّعَظْتَ فعِظْ الناس.

ومما يعاب من خلال الإنسان

أن يكون بديع مقال اللسان بعيد مجال الإحسان

قال عليه الصّلاة والسّلام: «ليس الملق من أخلاق المؤمنين»^(٢). ابن المعتز: مَنْ كَثُرَ ملقه لم يُعرف بِشره. ذمّ أعرابي قوماً، فقال: قلوبهم أَمَرٌ من الدّفل، وألستهم من العسل أحلى. وقال الشاعر^(٣): [الطويل]

إذا نصبوا للقول قالوا فأحسنوا ولكنّ حُسن القول خالفه الفِعلُ

(١) البيتان الثاني والثالث بلا نسبة في الزهرة، لابن داود الأصبهاني، ص ١٣١٢، ورواية البيت الثاني فيه:

يا صاح في قلبه البغضاء راكدةً فالنفس تكتمها والعين تُبديها

(٢) الحديث لم أجده بهذا اللفظ في كتب الحديث التي بين يدي.

(٣) البيت لعبد الله بن همام السلولي في ديوانه، من قصيدة مطلعها:

أفاطم قد طال التدلّ والمطلّ أجذك لا صرّم جلبي ولا وضلّ

وقال ابن جبير^(١): [البسيط]

الناس شبه ظروف حشوها صبر وفوق أفواهها شيءٌ مِنَ العسلِ
تحوّل ذائقها حتى إذا انكشفت له تبَيَّن ما تحويه من زَعَلٍ

وقالوا: فلان يُبدي وجهه المطابق الموافق، ويُخفي نظر المسارق المنافق.

قال شاعر^(٢): [البسيط]

يا أيها المتحلّي غير شيمته ومن شمائله التبديل والملقُ
ارجع إلى خلقك المعروف دَيْدنه إنّ التخلّق يأتي دونه الخلقُ

وقالوا: شرّ الناس مَنْ هو في الظاهر صديق موافق، وفي الباطن عدوّ منافق.

قال شاعر^(٣): [الطويل]

لعمرك ما ودّ اللسان بنافع إذا لم يكن أصل المودّة في القلبِ

وقال رجل لعلّي رضي الله تعالى عنه: علّمني السلام على الإخوان، فقال:

لا تبلغ بهم النفاق، ولا تقصر بهم عن الاستحقاق. ولقد صدق صالح بن عبد القدّوس في قوله^(٤): [الطويل]

وأكثر من تلقى يسرّك قوله ولكن قليل من يسرّك فعله
وقد كان حُسن الظنّ بعض مذهبِي فأدبني هذا الزمان وأهلُه

وقال آخر وبالع في الذمّ^(٥): [الطويل]

لم يَبَقَ في الناس إلا المكر والملقُ شكوك إذا اختبر وأزهر إذا رمقوا
فإن دعاك إلى ائتلافهم قدر فكُن جحيماً لعلّ الشوك يحترقُ

(١) البيتان لم أجدهما في المصادر والمراجع التي بين يدي.

(٢) البيتان للعرجي في العقد الفريد، لابن عبد ربّه الأندلسي، ص ١٤٠١.

(٣) البيت بلا نسبة في البيان والتبيين، للجاحظ ص ٣٠٣، ورواية العجز فيه:

إذا لم يكن أصل المودّة في الصدرِ

(٤) البيتان في ديوان صالح بن عبد القدّوس، وهما بيتان منفردان.

(٥) البيتان للإمام الشافعي في ديوانه، وهما بيتان منفردان.

آخر^(١): [مجزوء الكامل]

خلّ النفاق لأهله وعليك فانتهج الطريقا
واذهب بنفسك لن ترى إلا عدواً أو صديقا

آخر^(٢): [المتقارب]

يُبرِّك النصيحة عند اللُقا ويُبْرِّك في السرّ بري القلم
فبتّ حبالك مَنْ وصله ولا تكثرنّ عليه التَّدْم

ومما يلحق بهذا أنّ عمل الرياء سالب عن صاحبه جلباب الحياء

الرياء من الكبائر، وأخبث السرائر، شهدت بمقته الآيات والآثار، وتواردت بذهمه القصص والأخبار. قال رسول الله ﷺ: «إنّ الله لا يقبل عملاً فيه مثقال ذرة من رياء»^(٣). وأمّا الحياء: فهو من ثلاثة أوجه: من الله، ومن الناس، وحياء المرء من نفسه فإنه من استحيا من الله ولم يستحي من الناس فقد استهان بالناس، ومن استحيا من الناس ولم يستحي من الله فقد استهان بالله، ومن استحيا من الناس ولم يستحي من نفسه فليس لنفسه عنده قدر، وويل لمن أرضى الله بلسانه وأسخطه بقلبه. وكان أبو مسلم الخولاني يقول: ما علمت منذ كذا وكذا سنة عملاً أبالي أن يراه الناس إلا حاجة الرجل إلى أهله، وحاجته إلى الخلاء. وقال الحسن البصري: لأن تطلب الدنيا بأقبح ما تطلب به أحبّ من أن تطلبها بأحسن ما تطلب به الآخرة. وقال الفتح بن خاقان: كنت يوماً ألاعب المتوكّل بالزُّرد، فاستؤذن لأحمد بن أبي دؤاد فأذن له، فلما قرب منا هممت برفعها، فمنعني المتوكّل وقال: كيف أجاهر الله بشيء وأستره عن عباده. وكان الشُّبلي إذا رأى من يدّعي التّصوّف يقول: ويلكم لا تفتروا على الله كذباً فيسحتكم بعذاب، وقد خاب مَنْ افترى. وقال شاعر يذمّ المرائين منهم^(٤): [السريع]

قد لبس الصوف لترك الصّفا مشايخ العصر لشرب العصير
الرقص والتنهاد من شأنهم شرّ طويل تحت ذيل قصير

(١) البيتان لإبراهيم بن العباس في المذاكرة في ألقاب الشعراء، للشَّبابي الإربلي، ص ٢٨١.

(٢) البيت الأوّل بلا نسبة في المستطرف، للأبشيهي، ص ١٥٧.

(٣) أخرجه الزبيدي في إتحاف السادة المتّقين ٢٦٣/٨، بلفظ: «لا يقبل الله عملاً فيه مثقال ذرة من رياء».

(٤) البيتان لم أجدهما في المصادر والمراجع التي بين يدي.

آخر^(١): [مجزوء الرمل]

أظهروا للناس نُسْكَا وعلى المنقوش داروا
وله صاموا وصلّوا وله حجّوا وزاروا
إن يكن فوق الثُّرَيَّا ولهم ريش لطاروا

ولآخر يحضّ على الاعتزال عن هؤلاء^(٢): [مجزوء الكامل]

لا تصحبنّ عصابةً حلقوا الشوارب للطمع
يبكوا وجلّ بكائهم مال لفريسة لا تقغ

قال ثابت البناني: دخلت على داود الطائي، فقال لي: ما حاجتك؟ قلت: زيارتك، قال: ومن أنا حتى أزار، ليس من العباد أنا لا والله ولا من الزهاد أنا لا والله، ثم ضرب بيده على لحيته وأقبل على نفسه يوبّخها، وقال: كنت في زمن الشباب فاسقًا ثم تبت فصرت مُرائيًا، والله إنّ المُرائي لشرّ من الفاسق. ويقال: كان الناس يراؤون يفعلون لا بما يقولون، فصاروا يراؤون بما يقولون ولا يفعلون، ثم صاروا يراؤون بما لا يقولون ولا يفعلون. ذمّ البديع الهمدانيّ قاضيًا بالرياء، فقال: قد بيّض لحيته بسواد صحيفته، وأظهر ورعه ليُخفي طمعه، وقصر سباله ليظهر سرباله، وتغشى محرابه ليغطي حرابه، يبرز في ظاهر أهل السّمت، وهو في باطن أهل الصمت. شاعر^(٣): [الوافر]

تصنّع كي يقال له أمين وما معنى تصنّعه الأمانة
ولم يرد الإله به ولكن أراد به طريقًا للخيانة

آخر^(٤): [الكامل]

ودع التّواضع فاللبّاس مجوّنًا فالله يعلم ما تكنّ وتكتّم
فرثاث ثوبك لا يزيدك رفعة عند الإله وأنت عاصٍ مجرم

(١) الأبيات لمحمود الوراق في ديوانه، من قصيدة من أربعة أبيات هذه مطلعها، والبيت الرابع:
وله قاموا وقالوا وله حلّوا وساروا
(٢) البيتان بلا نسبة في أمالي ابن الشجري ص ٢٠٩٩، ومحاضرات الأدباء، للراغب الأصبهاني ص ٣٧١٧.

(٣) البيتان لم أجدهما في المصادر والمراجع التي بين يدي.

(٤) البيتان لم أجدهما.

ويقال: أربعة لا يعتدّ بهنّ: زهداً لخصي، وتوبةً لجندي، وشكوى المرأة، وتقوى الأحداث. صلى رجل صلاة خفيفة، ف قيل له: أقصرت الصلاة؟ قال: لا بل هي صلاة ليس فيها رياء. نظر أبا أمانة الباهليّ رجل في المسجد وهو ساجد ييكي، فقال: نِعَم الرجل أنت لو كان هذا في بيتك^(١).

ومن ظرف الحكايات وتُخف الفكاهات

عَمَّن كان له من الرياء غرّة فاضحة ومن عدم الحياء سمة لائحة

وفد على عمر بن عبد العزيز بلال بن أبي بردة، فجعل يصليّ ويطيل الصلاة، فقال عمر للعلاء: ترى ذلك تصنعاً؟ فقال العلاء: أنا آتيك بخبره يا أمير المؤمنين، فأتى إلى داره بين العشاءين فوجده يصليّ، فقال له: خَفَّف فَإِنَّ لِي إِلَيْكَ حاجة، فخَفَّف وسلّم وقال: ما الحاجة؟ فقال له العلاء: تعرف محليّ من أمير المؤمنين، فإن أنا أشرت بك عليه في ولاية العراق، فما تجعل لي؟ قال: لك عليّ عمالتيّ سنة، وكان مبلغ ذلك عشرين ألف درهم، فسأله العلاء أن يكتب له بذلك شرطاً على نفسه، فكتب له، فأتى العلاء بالشرط إلى عمر، فقال: إنه غرنا بالله فكدنا نغترّ، وكدنا نظته ذهباً، فلما سبكناه وجدناه خبثاً.

وأدخل على المنصور رجل أراد أن يوليه قضاء ناحية من العراق قد جعل السجود بين عينيه كركبة الجمل، فقال له المنصور: إن كنت أردت الله بهذا، فما ينبغي لنا أن نشغلك عنه، وإن كنت أردتنا فما ينبغي لنا أن ننخدع لك، ولم يولّه شيئاً. مرّ بعض المُرّاثين بابن مزداد وهو جالس على باب داره وبين عينيّ الرجل سجادة عظيمة، وكان ابن مزداد شيخاً ابن ثمانين ومقعداً من ثلاثين سنة، فقال: امرأتي طالق إن كان في إستي من القعود ما في جبهة هذا من السجود.

وضع بعض المُرّاثين بين عينيه سجادة ودلكها بنواة وشدّ عليها ثوماً ويات بها، فزاغت العصابة عن مكانها وصارت في ناحية صدغه، فاتّسم ف قيل لولده: كيف أصبح أبوك؟ قال: أصبح ممن يعبد الله على حرف. وقال ظريف من الشعراء

(١) كذا الخبر بالأصل، جعل الكاتب أبا أمانة الباهليّ مفعول به منصوب، والرجل فاعل مرفوع، وبهذا يكون القائل الرجل لأبي أمانة الباهليّ. ولعلّ السياق الصحيح للجملة هكذا: نظر أبو أمانة الباهليّ رجلاً في المسجد وهو ساجد ييكي، فقال: نِعَم الرجل أنت لو كان هذا في بيتك.

لمراءٍ يتهكّم به في معرض الوصيّة^(١): [الكامل]

شمر ثيابك واستعدّ لقبال واحكك جبينك للقاء بثوم
وامشّ الدبيب إذا مشيت لحاجة حتى تصيب وديعة لیتيم
وبلغ الرشيد قول أبي نّواس^(٢): [السيط]

يا أحمد المرتجى في كلّ نائبة قُم سيدي نعص جبار السموات
وقوله^(٣): [الطويل]

ألا فاسقني خمرًا وقل لي هي الخمر ولا تسقني سرًا إذا أمكن الجهرُ
وقوله^(٤): [السيط]

ما جاءنا أحدٌ مُدّ مات يُخبرنا في جنةٍ جسمه قد كان أو نارٍ
فقال: هذا كلام زنديق، وأمر الفضل بن الربيع بحبسه فحبسه وتناساه زمانًا،
فأظهر التوبة، وكتب إلى الفضل من الحبس بهذه الأبيات^(٥): [الخفيف]

فارعوى باطلاي وأقصر جهلي وتبدلت عفة وزهاده
بركوع أزيّنه بخشوع واصفرار مثل اصفرار الجراذه
لو تراني شبتّهني الحسن البصر ربي في حال نسكه أو قتاده
التسابيح في ذراعي والمص حف في لبتي مكان القلاذه
فإذ شئت أن ترى ظرفة تعد جبب منها مليحة مستجاده
فادع بي لا عدمت تقويم مثلي وتأمّل بعينك السجاده

(١) البيتان لم أجدّهما في المصادر والمراجع التي بين يدي.

(٢) البيت في ديوان أبي نّواس، من قصيدة مطلعها:

لا أستزيد حبيبي من مواتاتي وإن غنفت عليه في الشكايات

(٣) البيت في ديوان أبي نّواس، وهو مطلع القصيدة.

(٤) البيت في ديوان أبي نّواس، برواية:

ما جاءني أحدٌ يخبر أنّه في جنةٍ مُدّ مات أو في نارٍ
ومطلع القصيدة:

وملحة بالعدل تحسب أنّي للعدل أترك صحبة الشطار

(٥) الأبيات في ديوان أبي نّواس، من قصيدة مطلعها:

أنت يابن الربيع ألزمتني النّس لك وعودتني والخير عادة

ترء أثرًا من الصلاة بوجهي تُوقِن النفس أنها من عبادة
 لو رآها بعض المُرائين يومًا لا شترها يَعدّها للشهادة
 ولقد طال ما شقيت ولكن أدركتني على يدك السعادة
 فلما وصلت الأبيات إلى الفضل ضحك منها وكَلَّم فيه الأمين فأطلقه، ولَمَّا
 أُطلق من حبسه كتب إلى الفضل يشكره على جميل فعله.

الباب الثاني

في اللؤم

وفيه ثلاثة فصول:

الفصل الأول من هذا الباب

في ذم من ليس له خلق وما اتصف به من الأخلاق

قال الله تعالى: ﴿هَآؤِٓنِ مَّسْلَمٍ بِنَبِيٍّ ۚ مَنَاجٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝ عُنْٓلٍ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ۝﴾ [القلم: الآيات ١١ - ١٣]، هذه النقائص كلها يجمعها سوء الخلق. وقيل: إن سوء الخلق شؤم يجذب صاحبه في الدنيا إلى العار، وفي الآخرة إلى النار. وقال أبو هريرة رضي الله عنه: سألت رسول الله ﷺ عن الشؤم، فقال: «الشؤم سوء الخلق»^(١). وقال عمر بن الخطاب: إذا كان في الإنسان عشر خصال تسعة منها صالحة وواحدة هي سوء الخلق أفسدت هذه الخصلة تلك التسعة. شاعر^(٢):
[الطويل]

وكم من فتى أزرى به سوء خلقه فأصبح مذموماً قليل المحامد

وقالوا: من ساءت أخلاقه، طاب فراقه. وقالوا: سوء الخلق يدل على خبث الطبع ولؤم العنصر، ويكاد سيء الخلق أن يُعدَّ من البهائم. وقال رسول الله ﷺ: «إن الخلق السيء يفسد العمل كما يفسد الخل العسل»^(٣). ورؤي عنه ﷺ أنه قال: «إن سوء الخلق زمام من عذاب الله في أنف صاحبه، والزمام في يد شيطان يجزّه إلى النار»^(٤)، أخرجه البيهقي في شعب

(١) أخرجه أحمد في المسند ٨٥/٦، والهيتمي في مجمع الزوائد ٢٥/٨، والمنذري في الترغيب والترهيب ٤١٣/٣، والسيوطي في الدر المنثور ٧٣/٢، وأبو نعيم في حلية الأولياء ١٠٣/٦.

(٢) البيت لم أجده في المصادر والمراجع التي بين يدي.

(٣) أخرجه السيوطي في الدر المنثور ٧٣/٢، وابن كثير في تفسيره ٣٤٨/٦.

(٤) أخرجه السيوطي في الدر المنثور ٧٣/٢، بلفظ: «إن سوء الخلق يفسد العمل كما يفسد الخل» =

الإيمان. وقالوا: فلان له خلق خلق، وشأن شائن، وشيمة مشؤومة، وخيم وخيم، وطبع وطبع.

فمن مساوئ أخلاقهم الذميمة نقل الأقدام بالسعاية والنميمة

قالوا: النميمة من الخصال الذميمة، تدلّ على نفس سقيمة، وطبيعة لثيمة مشغوفة بهتك الأستار، وإفشاء الأسرار. وقال بعض الحكماء: الأشرار يتبعون مساوئ الناس ويتركون محاسنهم، كما يتبع الذباب المواضع الألّمة من الجسد ويترك الصحيحة. وقالوا: لم يَمْشِ ماشٍ شرّ من واشٍ، والساعي بالنميمة يهلك نفسه، ومَنْ سعى به ومَنْ سعى إليه، كما حُكي أنّ عمرو بن معاوية بن عمرو بن عتبة بن أبي سفيان العتبيّ رأى رجلاً يسعى برجلٍ عند صديقٍ له، فقال له: نزّه سمعك عن استماع الخنى، كما تُنزّه لسانك عن التكلّم به، فإنّ السامع شريك القائل، وإنما نظر شرّ ما في وعائه فأفرغه في وعائك، ولو ردّت كلمة ساعٍ إلى فيه لسعد رادّها كما شقي قائلها، والنّمام شرٌّ منّ الساحر، فإنّ النّمام يفسد في الساعة الواحدة ما لا يفسد الساحر في المدة الطويلة. أتى رجل عبد الله بن عباس وهو والي البصرة من قبل عليّ رضي الله عنه بنميمة، فقال له: إن شئت سألنا عمّا جئت به، فإن كنت صادقاً مقتناك، وإن كنت كاذباً عاقبناك، وإن شئت أقلناك؛ فقال: إن شئت أن تفعل فافعل. شاعر^(١): [المقارب]

توخّ من الطرق أوساطها وعدّ عن الجانب المشتبه
وسمعك صُنْ عن سماع القبيح كصَوْنِ اللّسان عن النُّطْقِ بِهِ
فإنك عند سماع الحديث شريك لقائله فانتبه

وقال أبو الأسود الدؤلي^(٢): [الكامل]

لا تقبلنّ نميمةً بلَغَتْها وتحفظنّ من الذي أنبأكها
إنّ الذي ألقي إليك نميمة سينمّ عنك بمثلها قد حاكها

= العسل.

(١) الأبيات لمحمود الوراق في ديوانه، من قصيدة من أربعة أبيات هذه أوّلها، والبيت الرابع:

فكم أزعج الحرص من طالب فوافى المنية في مطلبة

(٢) البيتان في ديوان أبي الأسود الدؤلي، من قصيدة مطلعها:

أكرم صديق أبيك حيث لقيته وأحب الكرامة من بدا فحباكها

هذا منظوم قول الناس: مَنْ نَمَ لَكَ نَمَ عَلَيْكَ. وسعى رجل برجلٍ عند عمر بن عبد العزيز، فقال له عمر: إِنْ شئتَ نظرنا في أمرك، فَإِنْ كُنتَ كاذبًا، فَأُنتَ داخلٌ تحتَ تحكّم هذه الآية: ﴿إِنْ جَاءَكَ فَاسِقٌ بِبَلٍّ فَتَيَّنُوا﴾ [الحجرات: الآية ٦]، وَإِنْ كُنتَ صادقًا فَأُنتَ من هذه الآية: ﴿هَآؤِ مَسْلَمٌ يَنِيمُ﴾ [القلم: الآية ١١]، وَإِنْ شئتَ عفونا عنك. وقال بعض الملوك لولده: لِيَكُنْ أَبْغَضَ رَعِيَّتِكَ إِلَيْكَ أَشَدَّهُمْ كَشْفًا لِمَعَايِبِ النَّاسِ، فَإِنَّ لِلنَّاسِ مَعَايِبَ وَأَنْتَ أَحَقُّ بِسِتْرِهَا، وَأَنْتَ إِنَّمَا تَحْكُمُ بِمَا ظَهَرَ لَكَ، وَاللَّهُ يَحْكُمُ فِيْمَا غَابَ عَنْكَ، وَاكْرَهُ لِلنَّاسِ مَا تَكْرَهُ لِنَفْسِكَ، وَاسْتُرْ الْعُورَةَ يَسْتُرُ اللَّهُ عَلَيْكَ مَا تَحِبُّ سِتْرَهُ، وَلَا تُضْغِ إِلَى تَصْدِيقِ سَاعٍ، فَإِنَّ السَّاعِيَ غَاشٌّ، وَإِنْ قَالَ قَوْلَ نَصِيحٍ. وقال أرسطاطاليس: النَمِيْمَةُ تَهْدِي إِلَى الْقُلُوبِ الْبَغْضَاءِ، وَمَنْ نَقَلَ إِلَيْكَ نَقْلَ عَنْكَ. وقالوا: أَشْرَ مِنَ النَمِيْمَةِ قَبُولُهَا؛ لِأَنَّ النَمِيْمَةَ دَالَّةٌ وَالْقَبُولَةَ إِجَازَةٌ، وَلَيْسَ مِنْ دَلٍّ عَلَى شَيْءٍ كَمَنْ قَبْلَهُ وَأَجَازَهُ. وقال المهدّي: مَا السَّاعِي بِأَعْظَمِ عُورَةٍ، وَلَا أَقْبَحَ حَالًا مِنْ قَابِلِ سَعَايَتِهِ، وَلَا يَخْلُو أَنْ يَكُونَ السَّاعِي حَاسِدَ نِعْمَةٍ، فَلَا يَشْفِي غِيْظَهُ أَوْ عَدُوًّا فَلَا يِعَاقِبُ لَهُ عَدُوَّهُ لَثَلًا يَشْمَتُ بِهِ. ولقد أحسن بعض الشعراء الظرفاء في قوله^(١):
[الكامل]

لَا تَسْمَعَنَّ مِنَ الْحَسُودِ مَقَالَةً لَوْ كَانَ حَقًّا مَا يَقُولُ لِمَا وَشَى

وقال آخر يذم صديقًا له نَمَامًا^(٢): [الطويل]

وَصَاحِبُ سُوءٍ وَجْهَهُ لِيْ أَوْجَهُ وَفِي فَمِهِ طَبْلٌ بِسَرِّي يَضْرِبُ
وَلَا بَدَلِي مِنْهُ فَحِينًا يَغْصَنِي وَيَنْسَاغُ لِي حِينًا وَوَجْهِي يَقْطُبُ
كَمَاءٍ بِدَرْبِ الْحَاجِّ فِي كُلِّ مَنْهَلٍ يَذْمُ عَلَيَّ مَا كَانَ مِنْهُ وَيَشْرِبُ

وقال السري الرفاء يذم نَمَامًا^(٣): [الطويل]

أَنْمَ بِمَا اسْتَوْدَعْتَهُ مِنْ زَجَاجَةٍ يَرَى الشَّيْءَ فِيْهَا ظَاهِرًا وَهُوَ بَاطِنُ

(١) البيت لم أجده في المصادر والمراجع التي بين يدي.

(٢) الأبيات لعبد الله بن المعتز في المتحل، لأبي منصور الثعالبي، ص ٢٥٩.

(٣) البيت في ديوان السري الرفاء، من قصيدة مطلعها:

رَأَيْتَكَ تَبْرِي لِلصَّدِيقِ نَوَافِدًا عَدُوَّكَ مِنْ أَوْصَابِهَا الدَّهْرَ آمَنُ

وقال ابن وكيع في المعنى^(١): [الوافر]

يَنْمَ بِسَرٍّ مُسْتَرَعِيهِ لَوْ مَا كَمَا نَمَّ الظَّلَامُ بِسَرِّ نَارِ
أَنْتُمْ مِنَ النَّصُولِ عَلَى مَشِيْبٍ وَمِنْ صَافِي الزَّجَاجِ عَلَى عَقَارِ
ولقد أحسن محمد بن شرف القيرواني في قوله يصف نَمَامًا^(٢): [البسيط]
وَنَاصِتٍ نَحْوَ أَفْوَاهِ الْوَرَى أَذْنَا كَالْقَعْبِ يَلْفِظُ مِنْهَا كُلَّ مَا سَقَطَا
يُظَلُّ بِالْقَوْلِ وَالْأَخْبَارِ مُجْتَهِدًا حَتَّى إِذَا مَا وَعَاها زَقَّ مَا لَقَطَا

والنميمة والكذب رضيعا لبان وفي مشوار الدناءة فرسا رهان

قال أبو حيان التوحيدي: الكَذِبُ شعار خلق، وأدب سيء، وعادة فاحشة، وَقَلَّ مَنْ اسْتَرْسَلَ مَعَهُ أَلَا أَلْفَهُ، وَقَلَّ مَنْ أَلْفَهُ إِلَّا أَذْلَهُ. وأوصى بعض الحكماء ولده، فقال: إِيَّاكَ وَالْكَذِبَ، فَإِنَّهُ يُزْرِي بِقَائِلِهِ وَإِنْ كَانَ شَرِيفًا فِي أَصْلِهِ، وَيَذَلُّهُ وَإِنْ كَانَ عَزِيزًا فِي أَهْلِهِ. وقالوا: ثنتان لا يجتمعان: الكذب والحياء. أرسطاطاليس: فضل الناطق على الأخرس بالنطق، وزين النطق بالصدق. وقال بزرجمهر: الكاذب والميت سواء، فإنه إذا لم يُوثَقْ بكلامه بطلت حياته. وقال معاوية يومًا للأحنف وقد حدثه: أَتَكْذِبُ؟ قال: والله ما كذبت منذ علمت أن الكذب شَيْنٌ. وقال بعض الأعراب: عَجِبْتُ مِنَ الْكَذَّابِ الْمَشِيدِ لِكَذْبِهِ، وَإِنَّمَا هُوَ يَدُلُّ النَّاسَ عَلَى عَيْبِهِ وَيَتَعَرَّضُ لِلْعِقَابِ مِنْ رَبِّهِ، فَالْأَثَامُ لَهُ عَادَةٌ، وَالْأَخْبَارُ عَنْهُ مُتَضَادَّةٌ، إِنْ قَالَ حَقًّا لَمْ يَصْدَقْ، وَإِنْ أَرَادَ خَيْرًا لَمْ يَوْفُقْ، فَهُوَ الْجَانِي عَلَى نَفْسِهِ بِفَعَالِهِ، الدَّالُّ عَلَى فَضِيحَتِهِ بِمَقَالِهِ، فَمَا صَحَّ مِنْ صَدَقَةٍ نَسَبَ إِلَى غَيْرِهِ، وَمَا صَحَّ مِنْ كَذِبٍ غَيْرِهِ نَسَبَ إِلَيْهِ. ويقال: الكذب جماع النفاق، وعماد مساوئ الأخلاق، عار لازم، وذلٌّ دائم، يخيف صاحبه من نفسه وهو آمن، ويكشف ستر الحسب عن لُؤْمِهِ الْكَامِنِ. قال الشاعر^(٣): [البسيط]

إِنْ التَّمُومُ أَعْطَى دُونَهُ خَبْرِي وَلَيْسَ لِي حِيلَةٌ فِي مَفْتَرِي الْكَذِبِ
لَا يَكْذِبُ الْمَرْءُ إِلَّا مِنْ مَهَانَتِهِ أَوْ عَادَةُ السُّوءِ أَوْ مِنْ قَلَّةِ الْأَدَبِ

(١) البيتان في ديوان ابن وكيع التنيسي، وهما بيتان منفردان.

(٢) البيتان في ديوان ابن شرف القيرواني، وهما بيتان منفردان.

(٣) البيتان بلا نسبة في التمثيل والمحاضرة، لأبي منصور الثعالبي، ص ٥٩٤.

ويكفي في ذم الكذب قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَقْرَأُ الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ [النحل: الآية ١٠٥]، وقول رسول الله ﷺ: «إِنَّ الصَّدَقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ، وَالْبَرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ، وَالْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ، وَالْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ»^(١). وقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لأن يضيعني الصدق - وقلما يفعل - أحب إلي من أن يرفعني الكذب - وقلما يفعل. وقيل: لا يجوز أن يكذب الرجل لصلاح نفسه، فإن ما عجز الصدق عن إصلاحه كان الكذب أولى بفساده. ولقد صدق من قال^(٢): [البسيط]

عَوْدَ لِسَانِكَ قَوْلَ الصَّدَقِ تَحْظَ بِهِ إِنَّ اللِّسَانَ لَمَّا عَوَّدَتْ مُغْتَاذُ

مُوَكَّلٍ بِتَقَاضِي مَا سَنَنْتَ لَهُ فِي الْخَيْرِ وَالشَّرِّ فَانْظُرْ كَيْفَ تَرْتَاذُ

ويكفي في معرفة الكذب أن من عُرف به مُتَّ إِذَا نَطَقَ، وَكُذِّبَ وَإِنْ صَدَقَ. قال رجل لأبي حنيفة: ما كذبت قط؟ فقال له أبو حنيفة: أما هذه فواحدة أشهد عليك بها. وقال الأصمعي لرجل كذاب: أصدقت قط؟ قال: نعم، قيل له: عجب! قال: خفت أن أقول لا فأصدق. وقيل لبعض الحكماء: أيما أشر الكذاب أو النمام؟ فقل: الكذاب؛ لأنه يخلق عليك، والنمام ينقل عنك. شاعر^(٣): [مجزوء الكامل]

لِي حِيلَةٌ فِيمَنْ يَنْمُو مَ وَلَيْسَ فِي الْكَذَابِ حِيلَةٌ

مَنْ كَانَ يَخْلُقُ مَا يَقُو لَ فَحِيلَتِي فِيهِ قَلِيلَةٌ

ومن ظريف أخبار الكذبة: أن رجلاً من آل الحارث بن ظالم، قال: لقد بلغني أن الحارث غضب يوماً فانتفخ في ثوبه فبدر من ثوبه أربعة أزار، ففقت أربعة أعين من عيون جلسائه. شاعر^(٤): [الوافر]

حَلَفْتُ بِرَبِّ مَكَّةَ وَالْمَصَلَى وَأَبْدَ الْوَاقِفِينَ عَلَى عِكَازِ

لَا كَذِبَ مَا يَكُونُ إِذَا تَأَلَّى وَشَدَّهَا بِأَيْمَانٍ غَلَاظِ

(١) أخرجه البخاري في الأدب باب ٦٩، ومسلم في البر حديث ١٠٣، ١٠٤، ١٠٥، وأبو داود في الأدب باب ٨٠.

(٢) البيتان بلا نسبة في لباب الآداب لأسامة بن منقذ، ص ٥٠٠.

(٣) البيتان لمحمود بن مروان بن أبي الجنوب في ربيع الأبرار، للزمخشري ص ٢٣٥٣.

(٤) البيتان لم أجدهما في المصادر والمراجع التي بين يدي.

وآفة الكذب النسيان؛ كذا ورد في النبأ المأثور والخبر المشهور. قال الشاعر^(١): [الطويل]

إذا عُرِفَ الكَذَابُ بالكذب لم يزل لدى الناس كَذَابًا وإن كان صادقًا
ومن آفة الكذاب نسيان كذبه وتلقاه ذا ذهن إذا كان حاذقًا

ومن مستقبح خلألق اللوم الصراح اللسان البذيء والوجه الوقاح

قال النبي ﷺ: «شَرُّ الناس الذين يُكْرَمُونَ اتِّقَاءَ لسانهم»^(٢). وقال أمير المؤمنين علي رضي الله عنه: ما اسْتَبَّ رجلان إلا غلب الأُمهما. وقال الأحنف بن قيس: ألا أخبركم بأدوأ الداء: الخلق الدنيء، واللسان البذيء. وقالوا: اللئيم بعد الخنى جنة، والوقاحة جنة، فوجهه صلب، ولسانه خلب. وقالوا: الفاقة خير من الصفاقة. وقال أبو حيان: إنَّ الخصم إذا كان الهوى مركبه، والعناد مطلبه، فلن يفلح معه ولو خرجت اليد بيضاء وانقلبت العصا حية. قال بعض الشعراء يهجو معاندًا^(٣): [الكامل]

تراه معدًّا للخلاف كأنه برد على أهل الصواب مُوكلٌ

وقالوا: الوقاحة في الرجل تدلّ على لُؤْمٍ نجره^(٤)، وخَساسة قدره، وقلة خيره، وكثرة شرّه. وقال الشاعر^(٥): [البسيط]

صلابة الوجه لم تغلب على أحد إلا تكمل فيه الشر واجتماعا

وقال بعضهم في ذمه أوقاحًا^(٦): [البسيط]

لو أنّ أكفانهم من حرّ أوجههم قاموا إلى الحشر فيها مثل ما رقدوا

(١) البيتان لم أجدهما.

(٢) أخرجه البخاري في الأدب باب ٣٨، والترمذي في البر باب ٥٩، بلفظ: «شَرُّ الناس مَنْ تركه الناس اتِّقَاءَ شرّه» أو «فحشه».

(٣) البيت لأمية بن أبي الصلت في ديوانه، من قصيدة مطلعها:

غذوتك مولودًا وعلتكَ يافعًا تعلُّ بما أحنى عليك وتنهلُ

(٤) النجر: الأصل.

(٥) البيت لم أجده في المصادر والمراجع التي بين يدي.

(٦) البيت لأبي بكر التميمي في الحماسة المغربية، للجرأوي، ص ٧٧١.

ولأبي العبر في مثل ذلك، وأحسن في قوله^(١): [الكامل]

يا ليت لي من جلد وجهك رقعة فأقذ منها حافراً للأشهب

أنشدنا ناصر الدين حسن الكناني عُرِفَ بابن النقيب لنفسه في أوقاح،

فقال^(٢): [الكامل]

تعالى الله خالقها وجوهاً فما أخفت من الحيوان حالا

لقد صلبت وخفت من حياء وغير خلقها حتى استحالا

وجوه لئت لي منها حذاء ولئت لبغلتني منها نعالا

وقال الناجم يهجو^(٣): [الخفيف]

لك عرض مثلّم من قوارير ووجه مللم من حديد

ليم بعضهم على الوقاحة، فقال: الوجه ذو الوقاحة من الوجوه الوقاحة،

يَفِيء على صاحبه الأنفال، ويفتح له الأقفال، ويلقطه الأرطاب، ويلقمه ما

استطاب، ويُجسّره على قول المنطيق، ويبسّر له فِغْل ما لا يطيق؛ ثم أنشد^(٤):

[الوافر]

إذا رزق الفتى وجهًا وقاحًا تقلّب في الأمور كما يشاء

وقال جعفر الصادق: إن الله يبغض السبّاب الطعان المتفحّش. قال

الشاعر^(٥): [السريع]

من لم يكن عنصره طيبًا لم يخرج الطيب من فيه

كل امرئ يشبهه فعله ويرشح الكوز بما فيه

أصل الفتى يُخْفَى ولكنّه من فعله يظهر خافيه

(١) البيت بلا نسبة في التذكرة الحمدونية، لابن حمدون، ص ١٠٧٧.

(٢) الأبيات لم أجدها في المصادر والمراجع التي بين يدي.

(٣) البيت بلا نسبة في التذكرة الحمدونية، لابن حمدون، ص ١٠٧٧.

(٤) البيت لعلي بن الجهم في ديوانه، وهو مطلع القصيدة.

(٥) البيتان الأولان لعلي بن أبي طالب في ديوانه، وهما بيتان منفردان.

جماع ما يتخلَّق به الأندال من الشِّيم والخلال

قال بعض الحكماء: أربعة من علامات اللؤم: إفشاء السرّ، واعتقاد الغدر، وغيبة الأحرار، وإساءة الجوار. وسأل عبد الملك بن مروان الحجاج بن يوسف عن خلقه فتلكأ، وأبى أن يُخبره، فأقسم عليه أن لا بدّ، فقال: حسود كنود لجوج حقود، فقال عبد الملك: ما في إبليس شرّ من هذه الخصال؛ فبلغ ذلك خالد بن صفوان، فقال: لقد انتحل الشرّ بحذافيره، ومرق من جميع خلال الخير بأسره وتأنق في ذمّ نفسه، وتجرّد في الدلالة على لؤم طبعه، وأفرط في إقامة الحجة على كفره، وخرج من الخلال الموجبة لرضا ربّه. وقال أبو تمام^(١):
[الوافر]

مُساوٍ لو قسمن على الغواني لما أمهرن إلا بالطلاق

وقال رسول الله ﷺ: «أربعة من كُنّ فيه فهو منافق: من إذا حدّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا عاهد غدر، وإذا اتّمن خان»^(٢). وقالوا: اللئيم كذوب الوعد، خؤون العهد، قليل الرفد. وقالوا: اللئيم إذا استغنى بطر، وإذا افتقر قنط، وإن قال أفحش، وإن سُئل بخل، وإن سأل ألحف، وإن أسديّ إليه صنيع أخفاه، وإن استكّتم سرّاً أفشاه، فصديقه منه على حذر، وعدوّه منه على غرر.

ومما اخترناه في غدر اللئام من دُرر الأهاجي والمذام

ذمّ أحمد بن يوسف الكاتب بني سعيد بن مسلم بن قتيبة، فقال: محاسنهم مساوئ السفلى، ومساوئهم فضائح الأمم، ألسنتهم معقودة بالعيّ، وأيديهم معقولة بالبخل، أعراضه أغراض الذمّ؛ فهم كما قيل^(٣): [البسيط]

لا يكثرون وإن طالت حياتهم ولا تبيد مخازيهم وإن بادوا

(١) البيت في ديوان أبي تمام، من قصيدة مطلعها:

دع ابن الأعمش المسكين يبكي لداؤٍ ظلّ منه في وثاق

(٢) أخرجه البخاري في الإيمان باب ٢٤، والمظالم باب ١٧، ومسلم في الإيمان حديث ١٠٦، وأبو داود في السنة باب ١٥.

(٣) البيت للطرمّاح في ديوانه، من قصيدة مطلعها:

أخبرت ضبّة تهجوني لأهجوها ولو حدوا كحداؤ القَيْن ما عادوا

وذم أعرابي قوماً، فقال: أولئك قوم سُلِخَتْ أبقافؤهم بالهجاء، وذُبِعَتْ جلودهم باللؤم؛ فلباسهم في الدنيا الملامة، وفي الآخرة الندامة. وذم أعرابي قوماً، فقال: أولئك قوم هم أقل الناس ذنباً إلى أعدائهم، وأكثرهم تجرباً على أصدقائهم، يصومون عن المعروف، ويفطرون على الفحشاء. وكان عيسى بن فرخان شاه يتيه على أبي العيناء في حال وزارته، فلما انصرف عنها لقي أبا العيناء في بعض السكك، فسلم عليه سلاماً خفياً، فقال أبو العيناء لغلامه: مَنْ هذا؟ قال: أبو موسى، فدنا منه حتى أخذ بعنان بغلته، وقال: لقد كنت أقنع بإيمائك دون بيانك، وبلحظك دون لفظك، فالحمد لله على ما آلت إليه حالك، فلئن كنت أخطأت فيك النعمة لقد أصابت فيك التهمة، ولئن كانت الدنيا أبدت قبائحها بالإقبال عليك لقد أظهرت محاسنها بالإدبار عنك، والله المنة إذ أغنانا عن الكذب عليك ونزهننا عن القول الزور فيك، فقد والله أسأت حمل التهمة وما شكرت حق المنعم، ثم أطلق يده من عنانه ورجع إلى مكانه، فقيل له: يا أبا عبد الله لقد بالغت في السب، فما كان الذنب؟ فقال: سألته حاجة أقل من قيمته، فردني عنها بأقبح من خلقته. قال بعض الأعراب: نزلت بذاك الوادي فإذا ثياب أحرار على أجسام عبيد، إقبال حظهم إدبار حظ الكرام. أخذ هذا المعنى شاعر، فقال^(١):

[الوافر]

أرى حللاً تُصان على رجال وأعراضاً تدال ولا تُصان
يقولون الزمان به فساد وهم فسدوا وما فسد الزمان

وسُئِلَ بعض البلغاء عن رجل، فقال: هو صغير القدر، قصير الشر، ضيق الصدر، لثيم النجر، عظيم الكبر، كثير الفخر. وسُئِلَ آخر عن رجل، فقال: لو قذف على الليل لؤمه، لأنطمت منه نجومه. وسُئِلَ آخر عن رجل، فقال: يكاد يُعدي بلؤمه، كل من تسمى باسمه. وقال حجاج بن هارون: والله ما له في الشرف أسباب متان، ولا في الخير عادات حسان. وذم أعرابي رجلاً فقال: هو عبد البدن، حر الثياب، عظيم الرواق، صغير الأخلاق، الدهر يرفعه، وهيمته تضعه. وذم آخر رجلاً فقال: أما الوجه قدميم، وأما الخلق فقديم، وأما الخيم فوخيم، أما العرض فزنيم، أما الحساب فلتيم. وقال الجاحظ: فلان لا تنجع فيه الرقي، ولا

(١) البيتان بلا نسبة في ديوان المعاني، لأبي هلال العسكري، ص ١٤٤٤.

تنفذ فيه الحِيل، ولا يهزه المدح، ولا يُخزنه الذم، ولا يُخجله التقرّيع، ولا يذلّه التوبيخ، ولا يرحم المظلوم، فإن استرحمته ازداد غلظة، ولا يرقّ لفقير، وإن تعرّض له قتله جوعاً. وقال آخر: فلان غثّ في دينه، قذر في دنياه، رثّ في مروءته، سمجّ في هيئته، منقطع إلى نفسه، راضٍ عن عقله، بخيل بما وسّع الله عليه، كتوم لما آتاه الله من فضله، حلاف لجوج إن سأل ألحف، وإن وعد أخلف، لا ينصف الأصاغر، ولا يعرف حقّ الأكابر. وأنشد لابن قادوس^(١):

[البسيط]

تأنست بزميم الفعل طلعتَه تأنس المقلة الرمداء بالظلم
وقالوا: فلان كالشجرة التي قلّ ورقها، وكثر شوكةا، وصعب مُرتقاها.

قال الشاعر يهجو قومًا لثامًا^(٢): [البسيط]

هم الكُشُوت فلا أصل ولا ثمر ولا نسيم ولا ظلّ ولا ورق
جفوا من اللؤم حتى لو أصابهم ضوء السُهي في ظلام الليل لا حرقوا
لو صافحوا المُزن ما ابتلت أناملهم ولو يخوضون بحر الصّين ما غرقوا
ومن محاسن التلفيق في الذم: فلان له كَيْد مخثث، وحسد نائحة، وشره قواد، وذللّ قابلة، وملق داية، وبخل كلب، وحرص نباش، ونتن جورب، ووحشة قرد.

قال ابن حجاج في مثل ذلك^(٣): [المنسرح]

نسيم حش وريح مقعدة ونفت أفعى ونتين مصلوب
وله يهجو^(٤): [الخفيف]

نعمة الله لا تُعاب ولكن ربما استقبححت على أقوام
لا يليق الغني بوجه أبي يع لى ولا نور بهجة الإسلام
وسخ الثوب والعمامة والبر ذون والوجه والقفا والغلام

(١) البيت لأبي تمام في نهاية الأرب للنويري، وليس في ديوانه.

(٢) البيت الأول بلا نسبة في مجمع الأمثال، للميداني، ص ٨٩٦، في المثل: «أذلّ من فقع بقرقة».

(٣) البيت في محاضرات الأدباء، للراغب الأصبهاني، ص ١٠٢٦.

(٤) الأبيات للعطوي في ديوانه، وهي ثلاثة أبيات منفردة.

ومن التلقيق: فلان يروغ من الحقّ روغان الثعلب، ويثمره إلى الأدناس شره الخنزير، ويستسلم إلى عدوّه استسلام الضبع، ويدبّ إلى الشرّ دبيب العقرب، وينام عن الخير نوم الفهد، ويجبن عن القرن جبن العصفور، ويخط في الجهل خبط الناقة. ابن عروس يهجو^(١): [الكامل]

كم قال منتقدوك أحمر زائف ماذا أقول وقد عصيت الناقد
ولقد عرضتك يا زنيم بدرهم فيمن يزيد فما وجدت مزياد
سافر بطرفك هل ترى لك شاكراً أو ذاكرًا أو حاسدًا أو حامدا
آخر^(٢): [الكامل]

أما الهجاء فدق عرضك دونه والمدح فيك كما علمت جليل
فاذهب فأنت طليق عرضك إنه عرض عُزّزت به وأنت ذليل

الفصل الثاني من الباب الثاني

في ذكر الفعل والصنيع الدالّين على لؤم الوضيع

قال رسول الله ﷺ: «إنّ مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى: إذا لم تستح فاصنع ما شئت»^(٣). وقال الشاعر^(٤): [الطويل]

إذا لم تَصْنُ عرضاً ولم تَخْشَ خالقاً وتستحي مخلوقاً فما شئت فاصنع

وقالوا: فلان لا يستحي من الشرّ، ولا يحبّ أن يكون من أهل الخير، فلو أفلتت كلمة سوء لم تُنسب إلّا إليه، وإن رُفِعَتْ لعنة لما وقعت إلّا عليه. وسُئِل معاوية عن السّفلة، فقال: الذي ليس له فعل موصوف، ولا نَسَبٌ معروف؛ كما قال بعض الأعراب وقد سُئِل عن رجل، فقال: عليه كل يوم قسامة من فعله تشهد عليه بلؤم أصله، وشهادات الأفعال أصدق من شهادات الرّجال. وقال بعض

(١) الأبيات لم أجدها في المصادر والمراجع التي بين يدي.

(٢) البيتان لدعبل الخزاعي في ديوانه، وهما بيتان منفردان.

(٣) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء باب ٥٤، والأدب باب ٧٨، وأبو داود في الأدب باب ٦، وابن ماجه في الزُّهد باب ١٧، ومالك في السفر حديث ٤٦، وأحمد في المسند ١٢١/٤، ١٢٢، ٢٧٣/٥.

(٤) البيت بلا نسبة في المستطرف، ص ٧٣٧.

العارفين: أفعال المرء شهود لوصفيه. وسئل محمد بن الحسن عن السفلة، فقال: مَنْ يبخل بقطعه الحجام، ويفعل في الطريق فعل الطغام. وقال الأصمعي: السفلة مَنْ لا يبالي بما قال أو قيل له. وقال يحيى بن أكثم: السفلة الذي لا يعييه ما صنع. وقال أبو مسلم: ألام الأعراض عرض لم يرتع فيه مدح ولا ذم. وسمع الأحنف رجلاً يقول: لا أبالي مُدِحت أو دُمِمت؟ فقال: يا هذا استرحت من حيث تعب الكرام.

فمن فعلات من خلع في اللوم الرسن المكافاة بالقبيح عن الفعل الحسن

مِنْ أمثال العرب في ذلك: أَكْفَر من ناشرة؛ وذلك أَنَّ همام بن مَرَّة كان قد أخذ ناشرة من أمه لما مات أبوه وضاعت بتربيته ذرعاً فرباه وأحسن إليه، فلما بلغ الحلم هجاه هجواً قبيحاً فنهاه عنه، فتركه حتى نام واغتاله. وحكى الأصمعي أَنَّ أعرابياً رَبَّى جرو ذئب وجعل يغذيه بلبن شاة له حتى كَبُر، فخرج معها يوماً للرعي كعادته فحرَّكته الطبيعة الذئبية، والنفس الذئبية على افتراس الشاة، فلما رأى الأعرابي الشاة فريسة، أنشد^(١): [الوافر]

عقرت شويهتي وفجعت قومي بشاتهم وأنت لها ربيبُ
غذيت لبانها ونشأت معها فمن أنباك أَنَّ أباك ذيبُ
إذا كان الطباع طباع سوء فليس بنافع أدبُ الأديبُ

وأغار خيثمة بن مالك الجعفي على بني القَيْن فاستاق منهم إبلاً فأطلقوا خلفه الأعتة، فلم يقدرُوا عليه ولا وصلوا إليه، فنادوه وقالوا له: إن أمامك مفازة ولا ماء معك وقد فعلت جميلاً، فانزل ولك الذمام والخباء فنزل، فلما اطمأنَّ وسكن أخذته سنة فنام، فوثبوا عليه وقتلوه.

ومما يستغرب منه ويُستعجب في هذا الباب ويُستعذب

لَمَّا حارب الحجاج عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث برز من أصحاب عبد الرحمن عبد الله بن سواد الحارثي وطلب المبارزة، فبرز إليه بعض أصحاب الحجاج فقتله عبد الله، ثم عاد فطلب المبارزة، فخرج إليه آخر فقتله، ثم عاد

(١) الأبيات لم أجدها في المصادر والمراجع التي بين يدي.

فطلب البراز فخرج إليه آخر فقتله، ثم عاد وطلب البراز فقال الحجاج للجراح بن عبد الله الحكمي: اخرج إليه، فخرج فقال له عبد الله وكان صديقاً له: ما أخرجك؟ قال: ابتليت بك، قال: فهل لك في خير؟ قال الجراح: وما هو؟ قال: أنهزم لك فترجع إلى الحجاج وقد أحسنت عنده: وأما أنا فأحتمل مقالة الناس في انهزامي حُباً لسلامتك، فإنني لا أحبّ قتل مثلك من قومي، قال: إفعل، فحمل الجراح على عبد الله فاستطرد به عبد الله وتبعه الجراح يريد قتله، فصاح بعبد الله غلام له، وكان ناحية عنه وكان معه إداوة، وقال له: يا سيدي إنّ الرجل يريد قتلك، فعطف على الجراح فضربه بعمود على رأسه فصرعه، فقال له: يا جراح بئس ما جزيتني به أردت لك العافية وتريد قتلي، انطلق فقد تركتك للصدقة التي بيني وبينك، فشتان ما بين الفعلين.

قصد أبو بكر الخوارزمي صاحب بن عباد ومدحه بقصيدة، قال فيها^(١):

[الطويل]

وما خلقت كفاك إلا لأربع عوائد لم يخلق لهنّ يدان
لشكرك أفواه وتنويل نائل وتغليب هندي وأخذ عنان

فلما بلغ إلى هذا البيت قال له: لم تذكر القلم وهو آلة الكاتب، وبه تقدّم ورأس، فقال قصيدة مدحه بها جاء منها^(٢): [مجزوء الرجز]

يدّ تراها أبداً فوق يد وتحت فم
ما خلقت بنانها إلا لسيف وقلم

فخلع عليه كل ملبوسه وخلع عليه كلّ مَنْ كان في مجلسه من الثياب موافقة للصاحب، فحصلت له مائة جبّة، فلم يُرضه ذلك وانصرف، فهجاه بقوله^(٣):
[البسيط]

لا تحمدنّ ابن عباد ولو مطرت كفاه بالجوّد حتى جازت الدّيما
لكنها خطرات من وساوسه يُعطي ويمنع لا بخلاً ولا كرماً

(١) البيتان لأبي الضياء الحمصي في يتيمة الدهر، للثعالبي، ورواية عجز البيت الأول فيه:

وما في عباد الله مثلك ثاني

(٢) البيتان لأبي الفياض سعد بن أحمد الطبري في الإعجاز والإيجاز، للثعالبي، ص ٢٢٧.

(٣) البيتان لم أجدهما في المصادر والمراجع التي بين يدي.

وَاتَّفَقَ إِنَّ مَاتَ الْخَوَارِزْمِي عَقِبَ قَوْلِهِ هَذِهِ الْأَبْيَاتُ، فَلَمَّا بَلَغَ الصَّاحِبُ مَوْتَهُ قَالَ^(١): [الطويل]

سَأَلْتُ بَرِيدًا مِنْ خِرَاسَانَ مُقْبِلًا أَمَاتَ خَوَارِزْمِيكُمْ قَالَ لِي نَعَمْ
فَقُلْتُ اكْتُبُوا بِالْجِصِّ مِنْ فَوْقَ قَبْرِهِ أَلَا لَعْنُ الرَّحْمَنِ مَنْ يَكْفُرُ النَّعْمَ

وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَى خُبَثِ نَجَارِ اللَّئِيمِ الْغَدْرِ بَمَنْ يَرْكُنُ إِلَيْهِ وَيَسْتَنِيحُ

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا جَمَعَ اللَّهُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ رَفَعَ لِكُلِّ غَادِرٍ لَوَاءً، وَقِيلَ: هَذِهِ غَدْرَةُ فَلَانٍ»^(٢). وَقَالُوا: مَنْ نَقَضَ عَهْدَهُ وَمَنَعَ رَفْدَهُ، فَلَا خَيْرَ عِنْدَهُ. وَقَالُوا: الْعَذْرُ يُضْلَحُ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْمَوَاطِنِ وَلَا عَذْرَ لَغَادِرٍ وَلَا خَائِنٍ. شَاعِرٌ^(٣):
[الكامل]

أَخْلَقَ بَمَنْ رَضِيَ الْخِيَانَةَ شِمَّةً أَنْ لَا يَرَى إِلَّا صَرِيحَ حَوَادِثٍ
مَا زَالَتْ الْآرَاءُ تَلْحَقُ بِؤْسِهَا أَبَدًا بِغَادِرِ ذَمَّةٍ أَوْ نَاكِثٍ

وَقَالُوا: الْغَدْرُ مِنْ صَغَرِ الْقَدْرِ. وَيُقَالُ: مَنْ تَعَدَّى عَلَى جَارِهِ، دَلَّ عَلَى لُؤْمٍ نَجَارِهِ. وَقَالَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: الْوَفَاءُ بِأَهْلِ الْغَدْرِ غَدْرٌ، وَالْغَدْرُ بِأَهْلِ الْغَدْرِ وَفَاءٌ. ذُكِرَ أَنَّ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مَرَّ بِإِنْسَانٍ يَطَارِدُ حَيَّةً، وَهِيَ تَقُولُ لَهُ: وَاللَّهِ لَئِنْ لَمْ تَذْهَبْ عَنِّي لَأَنْفَخَنَّ عَلَيْكَ نَفْخَةً أَقْطَعُكَ بِهَا قِطْعًا، فَمَضَى عِيسَى وَعَادَ فَوَجَدَ الْحَيَّةَ فِي جُؤْنَةِ الرَّجُلِ مَحْبُوسَةً، فَقَالَ لَهَا: وَيْحَكَ أَيْنَ مَا كُنْتَ تَقُولِينَ؟ قَالَتْ: يَا رُوحَ اللَّهِ إِنَّهُ حَلَفَ لِي وَغَدَرَ وَأَنْ سَمَّ غَدْرَهُ أَقْتُلَ لَهُ مِنْ سُمِّي. أَغْرَقَ النَّاسُ فِي الْغَدْرِ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنِ مُحَمَّدٍ بْنِ الْأَشْعَثِ بْنِ قَيْسٍ بْنِ مَعْدِيكَرِبٍ، فَإِنَّ عَبْدَ الرَّحْمَنِ غَدَرَ بِالْحِجَابِ لَمَّا وَلَّاهُ بِلَادَ خِرَاسَانَ، وَادَّعَى الْخِلَافَةَ وَقَاتَلَهُ، وَكَانَتْ بَيْنَهُمُ ثَمَانُونَ وَقَعَةً، وَكَانَ آخِرُهَا دَائِرَةُ السُّوءِ عَلَيْهِ. وَغَدَرَ مُحَمَّدُ بْنُ الْأَشْعَثِ بِأَهْلِ طَبْرِسْتَانَ، وَكَانَ عَبِيدُ اللَّهِ وَلَّاهُ إِيَّاهَا، فَصَالَحَ أَهْلَهَا عَلَى أَنْ لَا يَدْخُلَهَا ثُمَّ عَادَ إِلَيْهِمْ غَادِرًا، فَأَخَذُوا عَلَيْهِ الشُّعَابَ وَقَتَلُوا ابْنَهُ أَبَا بَكْرٍ. وَغَدَرَ الْأَشْعَثُ بْنُ قَيْسٍ بِنِي الْحَارِثِ بْنِ كَعْبٍ غَزَاهُمْ فَأَسْرَوْهُ، فَفَدَى نَفْسَهُ بِمِائَتِي بَعِيرٍ فَأَعْطَاهُمْ مِائَةَ وَبَقِيَتْ عَلَيْهِ مِائَةٌ، فَلَمْ

(١) البيتان في ديوان الصاحب بن عباد، وهما بيتان منفردان.

(٢) أخرجه البخاري في الجزية باب ٢٢، والأدب باب ٩٩، والحيل باب ٩، والفتن باب ٢١، ومسلم في الجهاد حديث ٨، ١٠ - ١٧.

(٣) البيتان بلا نسبة في نهاية الأرب، للتوحيدي، ص ٢٢٣٨.

يؤدها لهم حتى جاء الإسلام، فهدم ما كان في الجاهلية. وكان بين قيس بن معديكرب وبين مراد عهد إلى أجل، فغزاهم في آخر يوم من الأجل، وكان يوم الجمعة، فقالوا له: إنه لا يحلّ لنا أن نقاتل يوم السبت، فأخّره، فلما كان صبيحة السبت قاتلهم فقتلوه وهزموا جيشه. وغدر معديكرب بمهرة وكان بينه وبينهم عهد إلى أجل، فغزاهم ناقضاً لعهدهم، فقتلوه وفتقوا بطنه وملأوه بالحصا.

ومما ينزع لباس الحسب والصيانة رفول^(١) المرء في أطمار الخيانة

قال رسول الله ﷺ: «لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له»^(٢). وقال ﷺ: «لا تزال أمتي بخير ما لم ترّ الأمانة مغنماً، والصدقة مغرمًا»^(٣). ومن الحكايات في هذا الباب ما يُحكى أن شهر بن حوشب، وكان من أجلة القراء وأصحاب الحديث دخل على معاوية وبين يديه خرائط قد جُمِعَت لتوضع في بيت المال، فقعده على إحداها ومعاوية يراه، فلما رفعت الخرائط فُقد من عددها خريطة، فأعلم الخازن بذلك معاوية، فقال: هي محسوبة لكم ولا تسألوا عن أخذها؛ وفيه يقول الشاعر^(٤): [الطويل]

لقد باع شهر دينه بخريطة فمن يأمن القراء بعدك يا شهرُ

كان للمأمون خادم يسرق طسه الذي يتوضأ فيه، فقال له يوماً: هلاً إذا سرقت تأتيني بما تسرقه فأشتريه منك، قال: فاشترِ مني هذه، وأشار إلى التي بين يديه، قال: بكم هي؟ قال: بدينارين، قال: على أن لا تسرقها، فقال: نعم، فأعطاه دينارين ولم يعد الخادم يسرق شيئاً لِمَا رأى من حلمه عنه. وقال المنصور لعامل بلغه عنه خيانة: يا عدوّ الله وعدوّ المؤمنين وعدوّ المسلمين أكلت مال الله وخُنت خليفة الله؟ فقال: يا أمير المؤمنين نحن عيال الله وأنت خليفة المال مال الله، فمن أين نأكل إذا؟ فضحك منه، وأطلقه وأمر أن لا

(١) رَفَل يرفل رفلاً: جرّ ذَبْلَه وتبخر في سيره.

(٢) أخرجه أحمد في المسند ١٣٥/٣، ١٥٤، ٢١٠، ٢٥١.

(٣) أخرجه بنحوه الترمذي في الفتن، باب ٣٨.

(٤) البيت للحصين بن حمال في ديوانه، وهو أحد بيتين، والبيت الثاني:

أخذت به شيئاً طفيفاً وبعته من ابن جونيذ إن هذا هو الغدرُ

يولّى عملاً بعدها. سرق رجل في مجلس أنو شروان جام ذهب وهو يراه، لما فقدته الشرابيّ قال: والله لا يخرج أحد حتى يُقَتَّش؟ فقال أنو شروان: لا تتعرّض لأحد فقد أخذه مَنْ لا يردّه، ورآه مَنْ لا ينمّ عليه. وأودع بعض التجار عند قاضي معرة النعمان وديعة وغاب عنها مدّة، فلمّا جاء طالبه بها فأنكرها فتشفّع إليه برؤساء بلده في ردّها، فلم يزالوا به حتى أقرّ بها وادّعى أنها سُْرِقت من حرزه، فاستحلفه فحلف فعمل فيه ابن الدؤيرة الشاعر المعريّ أبياتاً منها^(١):
[الكامل]

لا يصدق القاضي الخؤون إذا ادّعى عدم الوديعة من حصين المودع
إن قال قد ضاعت فيصدق أنها ضاعت ولكن منك يعني لو تعي
أو قال قد وقعت فيصدق أنها وقعت ولكن منه أحسن موقع
وقال ابن حجاج^(٢): [الوافر]

وأدعوهم إلى القاضي عساهم إذا وقع الجحود يحلفوني
وأضيع ما يكون الحقّ عندي إذا عزم الغريم على اليمين
آخر^(٣): [الطويل]

إذا حلفوني بالغموس منحتهم يمينًا كسحق إلا لحمي الممزق
وإن أحلفوني بالعناق فقد د رى سحيم غلامي أنه غير معق
وإن أحلفوني بالطلاق رددتها على خير ما كانت كأن لم تطلق

وقف بعض المجان على قبر سارق، فقال: رحمك الله، فلقد كنت أحمر الإزار حاذاً السكين، إن نقت فجرذ، وإن تسلّقت فسنور، وإن استلبت فحدأة، وإن ضربت فقاض، ولكنك اليوم وقعت في زاوية سوء، وليس كل حبس تُحبس فيه إلى التناد على أموال العباد.

(١) الأبيات لابن الدويدة في نهاية الأرب، للنويري، ص ٢٢٤٨.

(٢) البيتان لم أجدهما في المصادر والمراجع التي بين يدي.

(٣) الأبيات بلا نسبة في الألكي في شرح أمالي القالي للبكري، ص ٣٠٥.

ومن الصنيع الدالّ على لؤم الأصول مَنْ كان بسيف جوره على العباد يصول

قال رسول الله ﷺ: «الظلم ظلمات يوم القيامة»^(١). وقال عليه الصلاة والسلام: «أعنتى الناس على الله، وأبغض الناس إلى الله، وأبعد الناس من الله رجلٌ ولّاه الله تعالى من أمة محمد شيئاً فلم يعدل فيهم»^(٢). وقال سفيان الثوري: «لأنّ تلقى الله تعالى بسبعين ذنباً فيما بينك وبينه أهون عليك من أن تلقاه بذنب واحد فيما بينك وبين العباد. ويقال: مَنْ طال عدوانه زال سلطانه. وقال أمير المؤمنين عليّ رضي الله عنه: يوم المظلوم على الظالم أشدّ من يوم الظالم على المظلوم. ويقال: الظلم يجلب النقم، ويسلب النعم. وقالوا: مَنْ ظلم من الملوك، فقد خرج من كرم الحرية والملك إلى ذناة العبودية والملك. ويقال: ليس شيء أسرع إلى تغيير نعمة وتعجيل نقمة من الإقامة على الظلم. وفي الخبر: «يقول الله تعالى: اشتدّ غضبي على مَنْ ظلم من لا يجد له ناصرًا غيري»^(٣). وقالت الحكماء: شرّ الملوك الأفاك السفّاك. وقال أبو منصور الثعالبي: أخلّق بالملك الظلوم أن يصير غصّة للمرائين، وعِظّة للزّاوين. وقالوا: الظلم أسرع إلى تبديل النعم، وتعجيل النقم من الطيور إلى الأوكار، ومن الماء في الانحدار. وقالوا: سبع خطوم خيرٌ من وإل ظلوم. كان زياد ابن أبيه ممّن استطال بجوره وعسفه في ولايته عراقي البصرة والكوفة، فلما ذلّ له ممّن فيهما كُبرت عليه نفسه واستقلّهما لها، فكتب إلى معاوية: إني قد ضبطت العراقيين بيميني وبقيت شمالي فارغة، فجمع له معاوية الحجاز واتّصلت ولايته بالمدينة، فاجتمع أهل المدينة في مسجد رسول الله ﷺ، فلاذوا بقبيره يسألون الله تعالى الإقالة منه، ورفع عبد الله بن عمر يديه، وقال: اللهم اكفنا شمال زياد كما كفّيتنا يمينه، فطعن فيها فشاور شريحاً في قطعها، فقال له: رزق مقسوم وأجل معلوم وإني أكره إن كانت لك مدّة أن تعيش أجذم، وإن حمّ أجلك أن تلقى الله مقطوع اليد، فإذا سألك لِمَ قطعتها؟ فتقول: بغضاً للقائك وفراً من قضائك،

(١) أخرجه مسلم في البرّ حديث ٥٦، ٥٧، والدارمي في السّير، باب ٧٢، وأحمد في المسند ٩٢/٢، ١٠٦، ١٣٦، ١٣٧، ١٥٦، ١٥٩، ١٩١، ١٩٥، ٤٣١، ٣٢٣/٣.

(٢) أخرجه بنحوه البيهقي في السنن الكبرى ٢٦/٨.

(٣) أخرجه السيوطي في الدرّ المنثور، ٣٥٣/١.

فتركها فلمّا خرج شريح من عنده لأمه الناس، فقال: إنه قد استشارني، والمستشار مؤتمن، ولولا أمانة المشورة لوددت أن الله قطع يده يومًا ورجله يومًا وسائر أعضائه يومًا يومًا، وزاره شريح بعد ذلك، فلمّا خرج من عنده قال له مسروق: كيف تركت الأمير؟ قال: تركته يأمر وينهى، فأول قوله: فإذا هو يأمر بالوصية وينهى عن البكاء عليه، ومات من تلك سنة ثلاث وخمسين في رمضان، وكان مولده عام الهجرة ودُفن في أرض الكوفة، وسنأتي على نتف من مولده ونسبه فيما يلي هذا الفصل إن شاء الله تعالى.

ومن المفرطين في العسف والعنف يوسف بن عمر الثقفي قلّدة هشام بن عبد الملك العراق، وكان شيطانًا مريدًا، وجبارًا عنيدًا، سفاكًا للدماء معروفًا بالظلم والغشم، ولمّا قلّده أمره بالقبض على خالد بن عبد الله القسريّ، فسار إليه حتى هجم عليه، وهو في قصره على حين غفلة من أمره، فأخذه ثم رقي المنبر وقال: يا أهل العراق إنّ الحجاج كان دخانًا أنا ناره، ولهبا أنا شراره، فعليكم بالطاعة العائدة بجزيل الثواب، وإياكم والمخالفة المُوْجِبة لوشك العقاب، وقد أعذر من أنذر، ثم نزل. يُحكى عنه أنّه دخل دار الضرب، فعاير درهمًا فوجده ناقصًا حبة فضرب فيها الأمناء والصنّاع عشرة آلاف سوط. وكان الفضل بن مروان وزير المعتصم ظالمًا غاشمًا متبجحًا بالظلم، متجبرًا متكبرًا، كان المعتصم يقول: الفضل بن مروان أسخط الله وأرضاني، فسُلّطني الله عليه. دخل عليه الهيثم بن فراس الشاعر متظلّمًا من بعض عمّاله، فصرف وجهه عنه ولوى عِطْفَه، فخرج من عنده وهو يُنشد^(١): [الطويل]

تجبرت يا فضل بن مروان فانتظر فقبلك كان الفضل والفضل والفضل
ثلاثة أملاك مضوا السبيلهم أبادهم التغيير والموت والقتل
فإن تك قد أصبحت في الناس ظالمًا ستودي كما أودي الثلاثة من قبل

فلما سمع الفضل أبياته، قال: ما الذي عنى بقوله؟ ف قيل: إنه أراد الفضل بن يحيى، والفضل بن سهل، والفضل بن الربيع؛ فتغير وجهه ولم يلبث إلّا أيامًا يسيرة حتى قبض عليه. وفيه يقول بعض الشعراء من أبيات هي قوافيها على ألفاظ الفضل المتفقة مبانيها، المختلفة معانيها، ولقد أبدع وأجاد

(١) البيتان الأولان في المستطرف، للأبيهي، ص ٥٠٩.

فيها^(١): [الطويل]

نصحت فأخلصت النصيحة للفضل وقلت فبيّنت المقالة للفضل
ألا إن في الفضل بن يحيى لعبرة إن اعتبر الفضل بن مروان بالفضل
وفي ابن الربيع الفضل للفضل زاجر إن ازدجر الفضل بن مروان بالفضل
وللفضل في الفضل بن سهل مواعظ إن اتعظ الفضل بن مروان بالفضل
إذا ذكروا يومًا وقد صرّت رابعًا ذكرت بقدر السّغي منك إلى الفضل
فأبق جميلًا من حديث تكونه ولا تدع المعروف والأخذ بالفضل
فإنك قد أصبحت للناس قائمًا وصرت مكان الفضل والفضل والفضل
من أبيات كثيرة أتيت منها على ما مسّت الحاجة إليه، ووقع الاختيار عليه.

وقال شاعر في نكته^(٢): [السيط]

لا تغبطنّ أبا الدنيا بمقدرة فيها وإن كان ذا عزّ وسلطان
يكفيك من غير الأيام ما صنعت حوادث الدّهر بالفضل بن مروان
إنّ اللّيالي لم تُحسن إلى أحدٍ إلّا أساءت إليه بعد إحسان

وصف بعض البلغاء عاملاً للمأمون، فقال: يا أمير المؤمنين ما ترك فضة إلّا فضّها، ولا ذهبًا إلّا ذهب به، ولا علقًا إلّا علّقه، ولا ضيعة إلّا أضاعها، ولا غلة إلّا غلّها، ولا عرضًا إلّا عرض له، ولا ماشية إلّا امتشّها، ولا جليلاً إلّا أجلاه، ولا دقيقًا إلّا دقّه، ولا رقيقًا إلّا أرقه؛ فضحك منه وصرفه عن أهل ناحيته. ووصف بعضهم عامل ولاية، فقال: والله ما الذّئب في الغنم بالقياس إليه إلّا من المصلحين، ولا السوس في الخرز من الصيف إلّا من العادلين، ولا يزدجرد الأثيم في أهل فارس بالإضافة إليه إلّا من النّبیین والصّدّيقين والشّهداء والصّالحين، ولا فرعون في بني إسرائيل إذا قابلته به إلّا من الملائكة المقرّبين. ووصف آخر عامل ولاية، فقال: كان يجبي خراج الوحش، ويأخذ جزية السمك، ويطلب زكاة الملائكة، ويلتمس جمع الريح، ويروم القبض على الماء، وحصر الحصا، وكّيل الأنهار، وتحصيل الهباء، ولّين كانت النّعمة عظمت على قوم خرج عنهم، لقد

(١) الأبيات لدعبل الخزاعي في ديوانه، من قصيدة مطلعها البيت الأول.

(٢) الأبيات بلا نسبة في البصائر والذخائر، لأبي حيان التوحّيدي، ص ٥٧٩.

جَلَّتْ المصيبة بقوم نزل فيهم . وذمَّ البديع الهمداني قاضيًا ووصفه بالظلم ، فقال :
 قاضٍ لا شاهد عنده ، أعدل من السكر والجام ، يدلي بهما إلى الحُكَّام ، ولا ولي
 أصدق لديه من الصفر الذي يرقص على الظفر ، ولا وثيقة أحب إليه من غمزات
 الخصوم على الكيس المختوم ، ولا وكيل أعزَّ عليه من المنديل والطبق ، في وقتي
 الفلق والعَسَق ، وأقسم لو أنَّ اليتيم وقع بين الأسود ، بل الحيات السود ، لكانت
 سلامته منها أيسر من سلامته من أصحابه ، ما ظنَّك برجل يعادي الله في الغلس ،
 ويبيع الدين بالثمن البخش ، ولصَّ لا ينقب إلا خزائن الأوقاف ، وكردِي لا يغير
 إلا على الضَّعاف ، وذئب لا يفترس عباد الله إلا بين الركوع والسجود ، ومحارب
 لا ينهب مال الله إلا بين العدول والشهود . قيل لبعض الأعراب : أيُّما أحبَّ
 إليك : أن تَلْقَى الله ظالمًا أو مظلومًا؟ قال : ظالمًا ، قيل له : ويحك ، ولم؟ قال :
 ما عذري إذا قال لي خلقتك سويًا قويًا لم تستعد ، وأنشد بيت زهير بن أبي
 سلمى^(١) : [الطويل]

وَمَنْ لَا يَذُّدُ عَنْ حَوْضِهِ بِسِلَاحِهِ يَهْدِمُ وَمَنْ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ يُظْلَمُ

ومن معاييب من رغب عن المكارم إلقاء الحشمة في ارتكاب المحارم

كما يُخْكَى أن نصر بن سيار مرَّ بأبي الهندي ، وكان شريفًا في قومه وهو
 يميل سكرًا ، فقال له : أفسدت شرفك ، فقال أبو الهندي : لو لم أفسد شرفي لم
 تكن أنت والي خراسان . وكان يزيد بن معاوية يلقب بالسكران لكثرة انهماكه على
 شرب الخمر ولقَّبَ أيضًا يزيد الخمر ، بلغه أن المسور بن مخزومة يرميه بشرب
 الخمر ، فكتب إلى عامله بالمدينة أن يحد المسور حدَّ القذف ، ففعل ، فقال
 المسور^(٢) : [الطويل]

أَتَشْرِبُهَا صَرْفًا تَطْنُ دَنَانَهَا أَبَا خَالِدٍ وَالْحَدَّ يَضْرِبُ مَسُورُ

وكان له قرْدٌ يُكْنَى أبا قيس يحضره مجلس شرابه ويطرح له متكأً ويسقيه
 فضلة كأسه ، واتخذ له أتانًا وحشية قد رِيضت له وذَلَّت وصنع لها سرج لجام من

(١) البيت في ديوان زهير بن أبي سلمى ، من قصيدة مطلعها :

أَمِنْ أُمِّ أَوْفَى دَمْنَةٍ لَمْ تَكَلِّمْ بِحَوْمَانَةِ الدَّرَاجِ فَالْمَتَشَلِّمِ

(٢) البيت لم أجده في المصادر والمراجع التي بين يدي .

ذهب يركبه بهما عليها ويسابق بها الخيل يوم حلبة الرهان، فجاء يوماً سابقاً وتناول القصبة التي هي الغابة ودخل الحجرة قبل مجيء الخيل، وعليه قباء وقلنسوة من الحرير الأحمر، وفيه يقول بعض شعراء الشام^(١): [الطويل]

تمسك أبا قيس بفضل زمامها فليس عليها إن سقطت ضمان
ألا من رأى القرد الذي سبقت به جياذ أمير المؤمنين أتان

وكان الوليد بن يزيد بن عبد الملك ماجناً زنديقاً مسهزناً مستخفاً مستهيناً بالخاصة والعامة، مُدْمِنًا للخمر متلاهيًا باللهو واللعب، مصرًا على ارتكاب الفواحش، مشتغلًا بخلاعته عن النظر في أمور المسلمين والقيام بحقوق الخلافة وأمور المملكة وأحوال الرعية، وفيه يقول القائل^(٢): [الوافر]

مضى الخلفاء بالأمر الحميد وأصبحت المذمة للوليد
تشاغل عن رعيته بلهو وخالف قول ذي الرأي السديد

ذكر ثقات المؤرخين أن المؤذن أذن يوماً للصلاة وهو في لهو، فأمر جارية من جواريه الفواسق أن تعتم وتتلثم وتصلّي بالناس، فخرجت على هذه الصفة وصلت بهم. وبلغ من تهكمه بالشرعية أنه كان يفطر في رمضان والشاهد عليه ما يقال إنه من شعره^(٣): [الوافر]

ألا من مبلغ الرحمن عني بأني تارك شهر الصيام
وقوله^(٤): [السريع]

يا أيها السائل عن ديننا نحن على دين أبي شاكِر
نشربها صرفًا وممزوجةً بالسخن والبارد والفاتر

وحكي أنه استدعى أشعب الطامع من المدينة وألبسه سراويل من جلد قرد له ذنب، واقترح عليه صوتًا يرقص به، فلما فعل ذلك أعطاه ألف درهم، وقيل: إنه

(١) البيتان لم أجدهما في المصادر والمراجع التي بين يدي.

(٢) البيتان ليزيد بن أبي مساحق السلمي في الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني.

(٣) البيت في ديوان الوليد بن يزيد، وهما بيتان منفردان، والبيت الثاني:

فقل لله يمنعي شرابي وقل لله يمنعي طعامي

(٤) البيتان في ديوان الوليد بن يزيد، وهما بيتان منفردان، ورواية البيت الثاني في الديوان:

نشربها صرفًا وممزوجةً بالسخن أحيانًا وبالفاتر

لَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ أَخْرَجَ لَهُ ذَكَرَهُ مَنْعُظًا، وَقَالَ لَهُ: هَلْ رَأَيْتَ مِثْلَ هَذَا؟ قَالَ: لَا، قَالَ: فَاسْجُدْ لَهُ، فَسَجَدَ؛ وَهُوَ الْقَائِلُ يَخَاطِبُ الْمَصْحَفَ وَقَدْ جَعَلَهُ هَدَفًا حِينَ تَفَاعُلَ مِنْهُ، فَخَرَجَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [إبراهيم: الآية ١٥]^(١): [الوافر]

أَتَوْعَدُ كُلَّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ فَهَا أَنَا ذَاكَ جَبَّارٍ عَنِيدٍ
إِذَا مَا جِئْتَ رَبِّكَ يَوْمَ حَشَرٍ فَقُلْ يَا رَبِّ مَرْقَنِي الْوَلِيدُ

والسبب في قوله هذا: أنه لما رأى حالته قد انحلت نظامها، ودولته مُدْبِرَةٌ وقد نفدت أيامها، فتح المصحف ينظر فيه فألاً، فخرج له: ﴿وَأَسْتَفْتَحُوا﴾ [إبراهيم: الآية ١٥].

ومن قوله يخاطب المصحف فعل من بَدَلْ وَحَرَّفَ^(٢): [الوافر]

تَخَوَّفَنِي الْحِسَابَ وَلَسْتُ أَدْرِي أَحَقُّ مَا تَقُولُ مِنَ الْحِسَابِ
فَقُلْ لِلَّهِ يَمْنَعُنِي طَعَامِي وَقُلْ لِلَّهِ يَمْنَعُنِي شَرَابِي
تَلَاعَبَ بِالنَّبُوءَةِ هَاشِمِي بَلَا وَحْيٍ أَتَاهُ وَلَا كِتَابِ

فمنعه الله طعامه وشرابه، كما أراد في مقاله، وسلط عليه مَنْ قَتَلَهُ، وهكذا عادة الله في أمثاله، فَقُتِلَ يَوْمَ الْخَمِيسِ لِلَّيْلَتَيْنِ بَقِيَّتَا مِنْ جُمَادَى الْأُولَى سَنَةِ سِتِّ وَعِشْرِينَ وَمِائَةٍ بِالْجَرَاءِ، وَهُوَ قَصْرٌ عَلَى سِتَّةِ أَمْيَالٍ مِنْ تَدْمُرَ، وَلَهُ مِنَ الْعُمُرِ اثْنَتَانِ وَأَرْبَعُونَ سَنَةً، وَقِيلَ: تَسَعُ وَثَلَاثُونَ وَأَشْهُرَ، وَكَانَتْ مَدَّةَ خِلَافَتِهِ سَنَةً وَشَهْرَيْنِ وَعِشْرِينَ يَوْمًا، وَحُمِلَ رَأْسُهُ إِلَى دِمَشْقَ وَعُلِقَ بِهَا وَقُرْنٌ بِهِ دَفٌّ وَطَنْبُورٌ، وَلَمْ يَزَلْ أَثَرُ الدَّمِ عَلَى الْجِدْرَانِ إِلَى أَنْ قَدِمَهَا الْمَأْمُونُ سَنَةَ خَمْسٍ عَشْرَةَ وَمِائَتَيْنِ، فَأَمَرَ بِحُكِّهِ.

وكان والبة بن الحباب من الخلعاء المستهزئين، وهو الذي رتب أبا نؤاس وأدبه يُحْكِي عنه أنه كشف يومًا عن فحشته فقبلها فضرط على لحيه، فقال له: ويلك ما هذا؟ فقال: أما سمعت المثل: جزاء مقبل الوجعاء ضرطة، فزاد كلامه عجبًا به.

(١) البيتان في ديوان الوليد بن يزيد، وهما بيتان منفردان، ورواية عجز البيت الثاني في الديوان:

فقل يا رب خرّقني الوليد

(٢) الأبيات في ديوان الوليد بن يزيد، وهي ثلاثة أبيات منفردة، مع اختلاف في ترتيب الأبيات.

يُخْكِ أَنْ جَمَاعَةً اجْتَمَعُوا فِي مَجْلِسِ الْمَطِيْعِ بْنِ إِيَّاسٍ يَشْرَبُونَ الْخَمْرَ، فَأَقَامُوا عَلَى ذَلِكَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، فَقَالَ لَهُمْ يَحْيَى بْنُ زِيَادٍ لَيْلَةً وَهُمْ سَكَارَى: وَيُحْكَمُ مَا صَلَّيْنَا مِنْذُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ، فَقَوْمُوا حَتَّى نَصَلِّيَ، فَقَامَ مَطِيْعٌ فَأَذَّنَ وَقَالَ لِلْقَيْنَةِ: تَقَدَّمِي وَصَلِّي بِنَا وَاقْرَئِي فِي صَلَاتِكَ^(١): [مَجْزُوءُ الرَّمْلِ]

علق القلبُ الرَّبَابَا بعدما شابت وشابا

فَتَقَدَّمْتُ وَصَلَّيْتُ وَكَانَتْ بَلَا سِرَاوِيلٍ وَعَلَيْهَا غَلَالَةٌ رَقِيقَةٌ يَظْهَرُ سَائِرُ جَسَدِهَا مِنْهَا، فَلَمَّا سَجَدْتُ انْكَشَفَ سِتْرُهَا وَبَدَا هُنَّهَا، فَوُثِبَ إِلَيْهِ مَطِيْعٌ وَقَبَّلَهُ ثُمَّ قَالَ^(٢): [الْمُقَارِبُ]

وَلَمَّا بَدَا هُنَّهَا جَائِمًا كَرَأْسٍ حَلِيقٍ وَلَمْ يَعْتَمِدْ
سَجَدْتُ عَلَيْهِ فَقَبَّلْتُهُ كَمَا يَفْعَلُ الْعَابِدُ الْمُجْتَهِدُ

فَقَطَعُوا صَلَاتَهُمْ بِالضَّحْكِ وَعَادُوا لَمَّا نُهُوا عَنْهُ. وَمِنْ أَشْعَارِهِمْ قَوْلُ أَبِي نَوَّاسٍ^(٣): [مَجْزُوءُ الرَّمْلِ]

إِنَّمَا الدُّنْيَا غَلَامٌ وَطَعَامٌ وَمَدَامٌ
فَإِذَا فَاتَكَ هَذَا فَعَلَى الدُّنْيَا السَّلَامُ

فَبُؤْسًا لَهُمْ، أَلَمْ يَعْلَمْ عَاقِلُهُمْ وَجَاهِلُهُمْ أَنَّ اللَّهَ يَرَى، وَأَنْ بِيَدِهِ نَوَاصِي مَا ذُرَأَ وَبِرَأَ، وَلَكِنْ غَرَّهُمُ الْإِمْهَالُ، حَتَّى ظَنُّوا أَنَّهُ إِمْهَالٌ، فَبَدَّلْنَا اللَّهَ مِنْ سَنَةِ الْغَفْلَةِ يَقْظَةً الطَّاعَةِ، وَأَلْهَمْنَا مِنَ الْعَمَلِ مَا نَفُوزُ بِأَجْرِهِ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ، آمِينَ.

وَمِنْ خِلَافِ الْعَرِيقِ فِي الْوَضَاعَةِ أَخَذَ النَّفْسَ بِالتَّكَبُّرِ وَالرَّقَاعَةِ

قَالَ الشَّافِعِيُّ: أَظْلَمَ النَّاسَ لِنَفْسِهِ اللَّئِيمُ إِذَا ارْتَفَعَ جَفَا أَقَارِبَهُ، وَأَنْكَرَ مَعَارِفَهُ، وَاسْتَخَفَّ بِالْأَشْرَافِ، وَتَكَبَّرَ عَلَى ذَوِي الْفَضْلِ. وَقَالَ أَبُو مُسْلِمٍ: مَا ضَاعَ إِلَّا

(١) البيت للوليد بن عقبة في ديوانه، وهو بيت منفرد.

(٢) البيتان في ديوان ابن إياس الكناني، وهما بيتان منفردان، ورواية البيتين في الديوان:

ولمَّا بَدَا فَرَجُهَا جَائِمًا كَرَأْسٍ حَلِيقٍ وَلَمْ يَعْتَمِدْ
سَجَدْتُ إِلَيْهِ وَقَبَّلْتُهُ كَمَا يَفْعَلُ السَّاجِدُ الْمُجْتَهِدُ

(٣) البيتان ليسا في ديوان أبي نَوَّاسٍ، وهما لسيف الدين المشدِّي في ديوانه، وهما بيتان منفردان. ورواية البيتين في الديوان:

إِنَّمَا الدُّنْيَا مَدَامٌ وَفَتَاةٌ وَغَلَامٌ
فَإِذَا مَا عَزَّ هَذَا فَعَلَى الدُّنْيَا السَّلَامُ

وضيع، ولا فاخر إلا لقيط، ولا تعصب إلا دخيل. وقال عمر: ما وجد أحد في نفسه كبراً إلا لمهانة يجدها في نفسه. ويقال: الإعجاب يغطي سائر المحاب، ويكفي في ذم الكبر قول الله تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [الأعراف: الآية ١٤٦]، قال ابن عُيَيْنَةَ: حرّمهم فهم القرآن. قال بعض البلغاء: الكبر من أخبث سرائر القلوب، وأعظم كبائر الذنوب، لا يرى صاحبه أبداً إلا فظاً غليظاً، ولا يرى لأحد سواه في الفضل حظاً حطيظاً، وكفى به شيمة مشؤومة، وخلة مذمومة، أهلك الأكاير حديثاً وقديماً، وعاد الكريم من الرجال ذميماً مليماً. وقال رسول الله ﷺ: «لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر»^(١). وكان يُقال: من جهل قدر نفسه فهو بقدر غيره أجهل، ومن أئف من عمل نفسه اضطر إلى عمل غيره. وقالوا: من قلّ لبه، كثر عجبه. وقال أزدشير بن بابك: ما الكبر إلا فضل حمق، لم يدر صاحبه أين يضعه فصرفه إلى الكبر. وقال الشاعر^(٢): [البيسط]

وقل لمعتصم بالتيه من حمق لو كنت تعرف ما في التيه لم تته
التيه مفسدة للدين منقصة للعقل منهكة للعرض فانتبه
آخر^(٣): [الطويل]

رأيت الفتى يزاد نقصاً وذلة إذا كان منسوباً إلى العجب والكبر
ومن ظن أن العجب من كبر همة فإني رأيت العجب من صغر القدر
وأشدد الإمام محيي الدين محمد - عُرِف بحامي رأسه - النحوي لنفسه^(٤):
[الطويل]

ومعتقذ أن الرياسة في الكبر فأصبح ممقوتاً به وهو لا يدري
يجرّد ذيول الفخر طالب رفعة ألا فاعجبوا من طالب الرفع بالجرّ

(١) أخرجه مسلم في الإيمان حديث ١٤٧، ١٤٩، وأبو داود حديث ٤٠٩١، والترمذي حديث ١٩٩٨، ١٩٩٩، وابن ماجه حديث ٥٩، ٤١٧٣، وأحمد في المسند ٣٩٩/١، ٤٥١.

(٢) البيتان بلا نسبة في المستطرف، للأبشيبي، ص ٦١٧.

(٣) البيتان لم أجدتهما في المصادر والمراجع التي بين يدي.

(٤) البيتان لم أجدتهما.

وقال معاوية: إِنَّ التواضع مع البخل والجهل، أَزَيْنَ بالرجل مِنَ الكبر مع البذل والعقل، فيا لها حسنة غَطَّتْ سَيِّئَتَيْنِ كَبِيرَتَيْنِ، ويا لها من سَيِّئة غَطَّتْ على حَسَنَتَيْنِ عَظِيمَتَيْنِ. وقالوا: مَنْ أَصَابَ حَظًّا مِنْ جَاهِ فَأَصَارَهُ إِلَى كِبَرٍ وَتَرَفٍّ أَعْلَمَ النَّاسَ أَنَّهُ دُونَ تِلْكَ الْمَنْزِلَةِ، وَمَنْ أَقَامَ عَلَى حَالِهِ أَعْلَمَهُمْ أَنَّ تِلْكَ الْمَنْزِلَةَ دُونَهُ، وَأَنَّهَا دُونَ مَا يَسْتَحِقُّ. مَرَّ الْمَهْلَبُ بْنُ أَبِي صَفْرَةَ عَلَى مَطْرَفِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ وَهُوَ يَتَبَخَّرُ فِي جَبَّةٍ خَزْ، فَقَالَ: يَا عَبْدَ اللَّهِ هَذِهِ مَشِيَّةٌ يَبْغُضُهَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ، فَقَالَ الْمَهْلَبُ: أَمَّا تَعْرِفْنِي؟ فَقَالَ لَهُ: وَمَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: أَنَا الْمَهْلَبُ، قَالَ: نَعَمْ أَعْرَفْتُكَ، أَوْلَكَ نَظْفَةً مَذْرَةً، وَأَخْرَكَ جِيْفَةً قَذْرَةً، وَأَنْتَ فِيمَا بَيْنَ هَذَا وَهَذَا تَحْمِلُ الْعَذْرَةَ. نَظَّمَ بَعْضُهُمْ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ، فَقَالَ^(١): [المنسرح]

عَجِبْتُ مِنْ مَعْجَبٍ بِصُورَتِهِ وَكَانَ بِالْأَمْسِ نَظْفَةً مَذْرَةً
وَفِي غَدٍ بَعْدَ حَسَنِ طَلْعَتِهِ يَصِيرُ فِي اللَّحْدِ جِيْفَةً قَذْرَةً
وَهُوَ عَلَى تِيهِهِ وَنَخْوَتِهِ مَا بَيْنَ جَنْبِيهِ يَحْمِلُ الْعَذْرَةَ
وَلَاخِرُ^(٢): [البسيط]

يَا مَظْهَرَ الْكِبَرِ إِعْجَابًا بِصُورَتِهِ انْظُرْ خِلَاكَ فَإِنَّ الْبَيْنَ تَشْرِيبُ
لَوْ فَكَّرَ النَّاسُ فِيمَا فِي بَطُونِهِمْ مَا اسْتَشْعَرَ الْكِبَرُ شَبَابًا وَلَا شَيْبُ
هَلْ فِي ابْنِ آدَمَ مِثْلُ الرَّأْسِ مَكْرَمَةٍ بِأَرْبَعٍ هُوَ بِالْأَقْذَارِ مَضْرُوبُ
أَنْفٌ يَسِيلُ وَأُذُنٌ رِيحُهَا سَهْكَ وَالْعَيْنُ مَرْمِصَةٌ وَالشَّغْرُ مَلْعُوبُ
يَا ابْنَ التَّرَابِ وَمَأْكُولَ التَّرَابِ غَدًا أَقْصِرْ فَإِنَّكَ مَأْكُولٌ وَمَشْرُوبُ

وَمِنْ ظَرِيفٍ مَا يُذَكِّرُ مِنْ أَخْبَارِ الْمُتَكَبِّرِينَ مَا يُحْكِي أَنَّ عُلُقَمَةَ بْنِ وَائِلٍ الْحَضْرَمِيِّ قَدِمَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فِيمَنْ وَفَدَ عَلَيْهِ مِنْ سَادَاتِ الْعَرَبِ، فَأَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَعَاوِيَةَ أَنْ يَنْتَظِقَ بِهِ إِلَى مَنْزَلِ رَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ لِيُنْزِلَهُ عِنْدَهُ، وَكَانَ مَنْزِلُهُ بِأَقْصَى الْمَدِينَةِ، قَالَ مَعَاوِيَةُ: فَخَرَجْتُ مَعَهُ وَهُوَ رَاكِبٌ نَاقَتَهُ، وَأَنَا أَمْشِي فِي سَاعَةِ قَيْظٍ يَشْوِي الْوُجُوهُ وَلَيْسَ لِي حِذَاءٌ، فَقُلْتُ لَهُ: أَرْدَفْنِي خَلْفَكَ، فَقَالَ: لَسْتُ مِنْ أَرْدَافِ الْمُلُوكِ، قُلْتُ: إِنِّي ابْنُ أَبِي سَفْيَانَ، قَالَ: قَدْ سَمِعْتُ ذَلِكَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،

(١) الأبيات لابن بسام البغدادي، وهي أبيات منفردة.

(٢) الأبيات لم أجدها في المصادر والمراجع التي بين يدي.

قال: قلت: فألق لي نعليك، قال: لا تقبلان قدميك، ولكن امش في ظل ناقتي، فكفأك ذاك شرقاً وأن الظل لك لكثير، قال معاوية: فما مر بي مثل ذلك اليوم قط، والله لخلته أنه من جهنم، ثم أدرك سلطاني فلم أواخذه، بل أجلسه معي على سريري هذا.

وحكي أن عمارة بن حمزة وكان متكبراً جداً دخل على المهدي يوماً، فلما استقر به مجلسه قام رجل كان المهدي قد أعدّه ليتهكم بعمارة، فقال: مظلوم يا أمير المؤمنين، قال: مَنْ ظلمك؟ قال: عمارة هذا غصني ضيعتي، وكانت من أحسن ضياع عمارة، فقال المهدي: قم فاجلس مع خصمك، قال: يا أمير المؤمنين ما هو لي بخصم إن كانت الضيعة له فلست أنازعه فيها، وإن كانت لي فقد وهبتها له ولا أقوم من مجلس شرفني به أمير المؤمنين، فلما خرج الرجل وانفض المجلس سأل عمارة عن صفة الرجل وما كان لباسه، وأين كان موضع جلوسه؟ فلم يعلم. وكان من ثيئه أنه إذا أخطأ يمر في خطئه تكبراً عن الرجوع ويقول: نقض وإبرام في ساعة واحدة الموت أهون منه. وقال ابن عبدوس الجهشيارى: كان عمارة أعور دميماً استعمله المنصور على الخراج وكور دجلة والأهواز وكور فارس، وقلده المهدي ذلك أيضاً. وكان عبد الدولة بن جهير وزير المستظهر بالله متكبراً كثير الكبر يكاد يعدّ كلامه عداءً، وكان إذا كلم رجلاً كلاماً يسيراً هنىء ذلك الرجل بكلامه. ومن الكبر المستبشع والثيئة المستشنع ما يحكى أن ثوابه دعا أكاراً فكلمه، فلما فرغ من كلامه دعا بماء وتمضمض به استقذاراً لمخاطبته. وأنشد لبعض المتكبرين مفتخرًا^(١): [الطويل]

أتية على جنّ البلاد وأنسها ولو لم أجد خلقاً لتهدت على نفسي
أتية فما أدري من الثيئه من أنا سوى ما يقول الناس في وفي جنسي
فإن زعموا أنني من الإنس مثلهم فما لي عيب غير أنني من الإنس

ولا بن صابر^(٢): [الخفيف]

أيها المدعي الفخار دع الفخر رلدى الكبرياء والجبروت

(١) الأبيات بلا نسبة في عيون الأخبار لابن قتيبة، ص ٧٣٦.

(٢) الأبيات في ديوان ابن صابر المنجنيقي، من قصيدة من أربعة أبيات، والبيت الرابع: وكذلك النعام يلتقم الجمر وما الجمر للنعام بقوت

نسج داود لم يفد ليلة الغا ر وكان الفخار للعنكبوت
وبقاء السمنند في لهب النار ر مزيل فضيلة الياقوت

وصف البديع الهمداني متكبراً، فقال: كأنَّ الدنيا خاتم في خنصره، وحساب خراجها في بنصره، وكأنَّ الشمس تطلع من جبينه، والغمام يندي من يمينه، وكأنَّ كسرى حامل غاشيته، وقارون وكيل نفقته. وقال آخر: كان العجب شقيقه، والبذخ رفيقه، والتفخ أليفه، والصلف حليفه. وقال جعيفران يهجو سعيد بن مسلم بن قتيبة^(١): [السريع]

أم سعيد لم ولدتيه ملوثاً بالكبر والتَّيه
ليتك إذ جئت به هكذا حين خريتيه أكلتيه
آخر^(٢): [البسيط]

كبر بلا نسب تيه بلا حسب فخر بلا أدب هذا من العجب
والهجو الفظيع القبيح قول بعض الشعراء في أبي جعفر العباس بن الحسن^(٣): [السريع]

إنَّ ابن عباس أبا جعفر يبذل للنائك أوراكه
تراه من تيه ومن نخوة كأنه ناك الذي ناكه
وليم بعض المتكبرين على الإعجاب، فقال: التواضع يُكسب المذلة، والإفراط في المؤانسة يُوجب المهانة، وأنشد^(٤): [الطويل]

ونفسك أكرمها فإنك إن تهن عليك فلن تلقى لها الدهر مكرماً
وقال في معناه صالح بن عبد القدوس^(٥): [الطويل]

إذا ما أهنت النفس لم تلق مكرماً لها بعدما عرّضتها لهوان

(١) البيتان بلا نسبة في التذكرة الحمدونية، لابن حمدون، ص ٣٠٨٦.

(٢) البيت بلا نسبة في زهر الأكم، لليوسي، ص ٦٠٩، ورواية البيت فيه:

تية بلا نسب كبر بلا حسب فخر بلا أدب هذا من العجب

(٣) البيتان لأبي محمد ابن أبي الثياب في يتيمة الدهر للثعالبي، ص ٣١٩٧.

(٤) البيت لحاتم الطائي في ديوانه، من قصيدة مطلعها:

أتعرف أطلالاً ونؤياً مهتماً كخطك في رق كتاباً منمنما

(٥) البيت في ديوان صالح بن عبد القدوس، وهو مطلع القصيدة.

آخر^(١): [الطويل]

وأكرم نفسي إنني إن أهنتها وجدك لم تكرم على أحدٍ بعدي
واعتذر متكبر عن كبره بقوله^(٢): [الطويل]

ومالي وجه في اللئام ولا يند ولكن وجهي في الكرام عريض
أهش إذا لاقيتهم وكأني إذا أنا لاقيت اللئام مريض

الفصل الثالث من الباب الثاني

في أن من تخلق باللؤم انتفع وعلا على الكرام وارتفع

قال سعيد بن المسيب: الدنيا نذلة تميل إلى الأندال، وقال: لو لم يزهدي في الدنيا إلا لأنها في يد الأندال؛ لكان ينبغي لنا ذلك لهوانها على الله. وقال الشافعي في ذم الدهر وسوء معاملته لسرته، وسقياه لهم أكواب حسراته^(٣): [الكامل]

مَحَنُ الزَّمان كثيرةٌ لا تنقضي وسروره يأتيك كالأعيادِ
ملك الأكابر فاسترق رقابهم وتراه رُقافي يد الأوغادِ
ابن الرومي^(٤): [الوافر]

رأيت الدهر يرفع كل وغدٍ ويخفض كل ذي شيم شريفه
كمثل البحر يغرق كل حيٍّ ولا ينفك يطفو فيه جيفه
أو الميزان تخفض كل وافٍ وترفع كل ذي زنة خفيفه
آخر^(٥): [الوافر]

رأيت الدهر بالأشراف يكبو ويرفع راية القوم اللئام
كأن الدهر موتور خفور يطالب حقّه عند الكرام

(١) البيت بلا نسبة في كتاب الأدكياء، لابن الجوزي، ص ٢٧٥.

(٢) البيتان للسحيمي في البيان والتبيين، للجاحظ، ٢/٢٣٧.

(٣) البيتان في ديوان الشافعي، وهما بيتان منفردان.

(٤) الأبيات في ديوان ابن الرومي، والبيت الأول هو مطلع القصيدة.

(٥) البيتان بلا نسبة في الفوائد والأخبار، لابن دريد، ص ٢٢.

وقال أسامة بن منقذ^(١): [البسيط]

شغل الزمان بأهل النقص يرفعهم
ألهاه رفع لثام الناس فهو على
حتى يثمر للوراث ما خزنوا
ذوي المكارم والإفضال مضطغن
آخر^(٢): [الكامل]

يا دهر صافيت اللثام ولم تزل
وعرفت كالميزان ترفع ناقصا
أبدأ لأبناء الكرام معاندا
أبدأ وتخفّض لا محالة زائدا
آخر^(٣): [الخفيف]

قل لدهر من المكارم عطل
كم رفيع حططته في حضيض
يا قبيح الفعال جهم المحيا
ووضيع الحقه بالثريا
آخر^(٤): [الخفيف]

عجبا للزمان يرفع حرا
فهو مثل الميزان يرفع ما خفّ
ما لديه ويمنح المال ندلا
ويهوي في الوزانة سفلا
ولقد أحسن الآخر في قوله^(٥): [الطويل]

سألت زماني وهو بالخفض مولى
فقلت له هل من طريق إلى العلا
وبالجهل محفوف وبالنقص مختص
فقال طريقان الوقاحة والنقص

ويقال: اتضاع الأعالي بارتفاع الأسافل، وإذا ارتفعت الأراذل هلكت الأفاضل. وقال قيس بن زهير: أربعة لا يُطاقون: عبدٌ ملك، ونذلٌ شبع، وأمة ورثت، وقبيحة تزوّجت. وقال أردشير: ما شيء في انتقال الدول أمر من رفع

(١) البيتان في ديوان أسامة بن منقذ، من قصيدة مطلعها:

كم تقصد الماجدين الفاضلين وكم
علم الكرماء البخل يا زمن
(٢) البيتان للسري الرقاء في ديوانه، وهما بيتان منفردان، ورواية البيت في الديوان:

يا دهر صافيت اللثام مساعدا
فغدوت كالميزان يرفع ناقصا
لهم وجائبت الكرام معاندا
فيها ويخفّض لا محالة زائدا

(٣) البيتان بلا نسبة في كتاب عقلاء المجانين، لابن حبيب النيسابوري، ص ٧٣.

(٤) البيتان بلا نسبة في البديع، لأسامة بن منقذ، ص ٣٣٥.

(٥) البيتان لم أجدتهما في المصادر والمراجع التي بين يدي.

وضيع إلى مرتبة شريف، فإنّ الوضيع إذا ارتفع تكبر، وإذا تمول استطال، وإذا تمكّن صال. وقالوا: سوء القتل ولا رياسة النذل.

ولنرجع إلى خبر أبي بكر الخوارزمي الذي ورد به شرعة الإنصاف، وحسم فيه بين العقلاء مادة الخلاف، قال: لا صغير في الولاية والعمالة، ولا كبير مع العطلة والبطالة، وإنما الولاية أنثى تصغر وتكبر بوليها، ومطية تحسن وتقبح بممتطيها، والصدر بمن يليه، والدست بمن يجلس فيه، والأعمال بالعمال، كما أن النساء بالرجال. ويؤيد هذا أنّ الرشيد بلغه أنّ موسى بن عيسى الهادي، وكان أميراً على مصر من قبله، عازم على خلعه، فقال: والله لأعزلنه بأخس من على بابي، وقال ليحيى بن خالد: اطلب لي كاتباً عفيفاً يصلح لعمل مصر واكتم خبره، فلا يشعر به موسى حتى يفجأه، فقال: قد وجدته، قال: من هو؟ قال: عمر بن مهران، وكتب له بخطه كتاباً إلى موسى بتسليم العمل إليه، فسار وليس معه غير غلام أسود اسمه أبو ذرة على بغل استأجره ومعه خرج فيه قميص ومبطنة وشاش وطيلسان وخف، فلما وصل إلى مصر نزل خاناً فأقام فيه ثلاثة أيام يبحث عن أخبار البلد وعمّن فيه من العمال، وأخبر من كان بجواره في الخان أنه قد ولي مصر واستعمل منهم كاتباً وحاجباً وصاحباً وشرطياً، وقد آخر بيت المال، وأمر من تبعه ووثق به أن يدخل معه على موسى، فإذا سمعوا حركة في دار الإمارة قبضوا على الديوان، فلما أبرم أمره بكر إلى دار الإمارة، فأذن موسى للناس إذناً عاماً، فدخل في جملة من وافق معه وموسى جالس في دسسته والقواد بين يديه وكل من قضيت حاجته ينصرف، وعمر جالس والحاجب ساعة بعد ساعة يسأله عن حاجته وهو يتغافل حتى خف الناس، فتقدم وأخرج كتاب الرشيد ودفعه لموسى فقبله ووضع على رأسه ثم فتحه وقرأه فانتقع لونه، وقال: السمع والطاعة، ثم قال: أقرئ أبا حفص السلام، وقل له: كن بموضعك حتى نتخذ لك منزلاً ونأمر الجند يستقبلونك، قال: أنا عمر بن مهران، وقد أمرني أمير المؤمنين أن أقيمك للناس وأنصف المظلوم منك، وأنا فاعل ما أمرني به أمير المؤمنين، فقال له موسى: أنت عمر بن مهران؟ قال: نعم، قال: لعن الله فرعون حيث قال: أليس لي ملك مصر، واضطرب المجلس فقبض على الديوان، فبلغ موسى الخبر فنزل عن فرشه وقال: لا إله إلا الله هكذا تقوم الساعة، ما ظننت أنّ أحداً بلغ من الحيلة والحزم ما بلغت تسلمت مني العمل وأنت في مجلسي، ثم

نهض عمر إلى الديوان ونظر فيه وأمر ونهى وعزل وولى، وكان بمصر قوم يدافعون الخراج فأحضر أشدهم مدافعة فطالبه فاستمعله، ثم طالبه الثانية فاستمعله، فلما كان في الثالثة فاستمعله فحلف أيماناً مؤكدة لا يستأديه إلا في بيت المال ببغداد، ووكل به من أشخصه إلى بغداد، فخاف الناس من مثل ذلك، فلم ينكسر من الخراج بعدها درهم.

وإنما ذكرنا هذه الحكاية لما فيها من التنبيه على أن الرتبة النفيسة إذا وليها ذو القدر الحقيق والنفس الخسيسة لا يكون ذلك قادحاً في جلالتها، ولا مغيراً لها حالتها، وإنما ذلك بحسب ما ينظر إليها الزمان، فربما نظر إليها بسعد أو نظر إليها بحرمان، فإن سعدت وليها من هو أكبر منها، وإن حرمت تولأها من يصرف السعد عنها.

ذَكَرَ مَنْ نَالَ الْمَرَاتِبَ السَّنِيَّةَ مِنْ ذَوِي الْأَعْرَاقِ الدَّنِيَّةِ

ونقتصر منهم على ذكر ثلاثة، وهم: زياد والحجاج بن يوسف وأبو مسلم، وإنما اقتصرنا على هؤلاء لأنهم أقاموا دُولَ مَنْ كانوا نوابهم من الخلفاء، فزياد لمعاوية، والحجاج لعبد الملك بن مروان، وأبو مسلم لبني العباس.

فأما زياد، فقيل فيه: زياد ابن أبيه، وقيل: زياد بن عبيد الثقفي، وقيل: زياد ابن سمية، وقيل: زياد بن أبي سفيان، وإنما قيل ابن أبيه لاختلاف الناس فيمن يُنسب إليه، وسمية كانت عند كسرى فوهبها لأبي الخير، قيل: من أقيال جُمَيْر، فدخل بها الطائف فمرض قطبُه الحارث بن كلدة طبيب العرب فنجع فيه طبه، فوهب له سمية فولدت له نفيغاً، ويكنى أبا بكرة ونافعاً، ثم كانت تحت عبد لصفية بنت عبد الله بن أسد بن علاج الثقفي، وكان يسمى عبيداً فولدت له زياداً، ويقال: إن أبا سفيان واقعها على كُرّه منها في حال سكره، وكانت بغياً فحملت منه بزياد، وقيل لعبيد: إنه لفراشك، فكان عبيد يُكنى به. وروى ابن عبد البر أن زياداً اشترى عبيداً بألف درهم، وأعتقه فكان يغبط بذلك.

وأما السبب في إضافة أبي سفيان زياداً إلى نفسه وإلحاقه به ما ذكر أن عمر بن الخطاب بعث زياداً في إصلاح فساد وقع في اليمن، فلما رجع من وجهته خطب خطبة لم يسمع الناس مثلها، فقال عمرو بن العاصي: لو كان هذا الغلام قرشياً لساق العرب بعصاه، فقال أبو سفيان: والله إنني لأعرف من وضعه في رحم أمه،

فقال له أمير المؤمنين عليّ كرّم الله وجهه: وَمَنْ هو يا أبا سفيان؟ قال: أنا، فقال له عليّ رضي الله عنه: مهلاً يا أبا سفيان، فقام وأنشد^(١): [الوافر]

أما والله لولا خوف شخص يراني يا عليّ من الأعادي
لأظهر أمره صخر بن حرب ولم تكن المقالة عن زياد
ولكنني أحاذر خيف كف لها نقم ولفتى عن بلادي
فقد طالت مجاملتي ثقيفا وتركى فيهم ثمر الفؤاد

وكانت من أبي سفيان فلتة، فذلك الذي حمل معاوية على إلحاق زياد بأبي سفيان، وذلك في سنة أربع وأربعين وشهد عنده زياد ابن أسماء، ومالك بن ربيعة، والمنذر بن الزبير على إقرار أبي سفيان بأنه ولده، وكان أبو بكر يقول: ما رأيت سمية أبا سفيان قط. ولما ألحق معاوية زياداً بأبيه دخل مروان بن الحكم عليه، فأنشده قول أخيه عبد الرحمن فيه^(٢): [الوافر]

ألا أبلغ معاوية بن صخر فقد ضاقت بما يأتي اليدان
أتغضب أن يقال أبوك عف وترضى أن يقال أبوك زاني
فاشهد أن آلك من زياد كآل الفيل من ولد الأتان
وأشهد أنها حملت زياداً وصخر من سمية غير ماني

وهذا الشعر يؤيد قول أبي بكر، ويروى أنها ليزيد بن مفرغ الحميري، وأولها^(٣): [الوافر]

ألا أبلغ معاوية بن صخر مغلغلة من الرجل اليماني
وقال يزيد^(٤): [المنسرح]

إن زياداً ونافعاً وأبا بكره عندي من أعجب العجب
هم رجال ثلاثة خلقوا في رحم أنثى وكلهم لأب
ذا قرشي كما يقول وذا مولى وهذا بزعمه عربي

(١) الأبيات لأبي سفيان بن حرب في وفيات الأعيان، لابن خلكان، في ترجمة يزيد بن مفرغ.

(٢) الأبيات ليزيد بن مفرغ في وفيات الأعيان، لابن خلكان، في ترجمته.

(٣) انظر الحاشية السابقة.

(٤) انظر الحاشية السابقة.

وهذا يشير إلى أنّ الثلاثة أولاد الحارث بن كلدة. وليزيد يهجو عباد بن زياد^(١): [الطويل]

أعباد ماللؤم عنك محوّل ولا لك أم من قريش ولا أب
وقل لعبيد الله مالك والد بحق ولا يدري امرؤ كيف ينسب

وسأل رجل الشعبي: هل تجوز الصلاة خلف ولد الزنا؟ فقال: نحن منذ ثلاثين سنة نصلي خلفه، ونرجو من الله القبول - يعني زيادًا - وقال زياد لرجل: يا ابن الزانية، فقال: أتسبني بشيء شرفت به أنت وأباؤك. قال المدائني: قدم زياد البصرة مع أخويه أبي بكرة ونافع وهو غلام، وكان يكتب بالقلمين العربي والفارسي، فاستكتبه المغيرة بن شعبة وأجرى له كل يوم درهمين: درهم عن القلم العربي ودرهم عن القلم الفارسي، ثم ترقّت به الحال وظهرت مراتبه وانتهى أمره إلى أن ادّعه معاوية أخا وولي فارس لعلي رضي الله عنه، ثم احتمل مالا وهرب إلى معاوية وجمع له معاوية العراقيين، وهو أول من جُمع له وجُمع بعده لابنه عُبيد الله، ولمصعب بن الزبير، ولمسلمة بن عبد الملك، ولعمر بن هُبيرة وليزيد بن هُبيرة، ولم يُجمع لأحد غير هؤلاء في أيّام بني أمية.

ومنهم كليب ثقيف الحجاج ذو المراء في سفك الدماء واللجاج

ولؤم الحجاج من قبل رضاعه ومكاسب آبائه. قيل: إنّ أم الحجاج واسمها الفارعة بنت مسعود الثقفية كانت قبل أن يتزوجها يوسف عند المغيرة بن شعبة، فدخل عليها يومًا حين أقبل من صلاة الغداة، وهي تتخلّل، فقال: يا فارعة لئن كان هذا التخلّل من أكل اليوم إنك لهنمه، وإن كان من أكل البارحة فإنك لقذرة، انصرفي فأنت طالق، فقالت: سخنت عينك ما هو من ذا ولا من ذاك، ولكنني استكت فتخلّلت من سواكي، فاسترجع ثم خرج فلقي يوسف بن الحكم بن عقيل، فقال: إني قد نزلت اليوم عن خير نساء بني ثقيف، وحديثه بالقصة فتزوجها فولدت له الحجاج مشوّها لا دبر له، فثُقِب دبره، وأبى أن يقبل الثدي من المراضع وأعياهم أمره، فيقال: إنّ إبليس تصوّر لهم على صورة الحارث بن كلدة وأشار

(١) البيتان في ديوان يزيد بن مفرغ الحميري، من قصيدة مطلعها:

ألا طرقتنا آخر الليل زينب سلام عليكم هل لما فات مطلب

عليهم أن يُذبح جدي أسود يولغوه دمه يومين وفي الثالث يُذبح له اثنين ويولغوه من دمه ويطلوا وجهه بما بقي منه، فإنه يقبل الثدي، ففعلوا ذلك، فأقبل على ثدي أمه فأكسبه الرضاع الأول لؤماً والرضاع بغير الطباع، فكان في كبره سفاكاً للدماء، فلما بلغ أشده صار هو وأخوه معلّمين بالطائف، وفيه يقول مالك بن الخريت يهجو الحجاج^(١): [الطويل]

فلولا بني مروان كان ابن يوسف كما كان عبداً من عبيد زياد
زمان هو العبد المقر بذله يراوح صبيان القرى ويغادي
وقال آخر يذكر تعليمه الصبيان^(٢): [المتقارب]

أينسى كليب زمان الهزال وتعليمه سورة الكوثر
رغيف له فلكة ماترى وآخر كالقمر الأزهر

هكذا رواه جميع الإخباريين، والصواب ما ذكره الحموي في كتاب البلدان له، قال: الكوثر قرية في الطائف كان الحجاج معلماً بها، وأنشد شاهداً على ذلك^(٣): [المتقارب]

أينسى كليب زمان الهزال وتعليمه صبية الكوثر
وعلى هذا يكون اسمه كليباً وهو الأولى به، وقد تقدّم منه الولوغ. وقال آخر^(٤): [المتقارب]

كليب تعاضم في أرضكم وقد كان فينا صغير الحضر
ورأيت في بعض كتب التواريخ: أن الحجاج لما احتضر قال لمنجم كان عنده: هل ترى ملكاً يموت؟ قال: نعم ولست به، إني أرى ملكاً يموت يسمى كليباً، قال: أنا والله كليب، بذلك كانت أمي تسميني.

ومما يؤيد ما ذكرنا من لؤمه ما كتب به إلى عبد الملك بن مروان لما أراد قتل أنس بن مالك رضي الله عنه: أما بعد؛ فإنك طفت لك الأمور، وعلوت فيها

(١) البيتان في الشعر والشعراء، لابن قتيبة، ص ٣٨٠، والكامل في اللغة والأدب، للمبرد، ص ٨٢٤.

(٢) البيتان في الكامل في اللغة والأدب، للمبرد، ص ٨٢٤.

(٣) انظر الحاشية السابقة.

(٤) البيت لم أجده في المصادر والمراجع التي بين يدي.

حتى تعدّيت طورك وتجاوزت قدرك، وركبت داهية دهماء أردت أن تزورني بها، فإن سَوَّغْتَكَهَا نصبت قدمًا، وإن لم أفعل رجعت القهقري فلعنك الله أخفش العينين، منقوص الجاعرتين، ممسوح الساعدين، أصك الرجلين، أراك قد نسيت ما كنت عليه أنت وآباؤك من الدّناءة واللؤم، فاذكر مكاسب آبائك بالطائف؛ إذ كانوا ينقلون الحجارة على ظهورهم، ويحفرون الآبار بأيديهم، وإيم الله يا ابن المستقرئة بعجم الزبيب لأغمرنك غمر اللّيث الثعلب، ولأركضن بك ركضة تدخل بها في جعس أمك، فإذا أتاك كتابي هذا فكنْ لأنس أطوع من عبدٍ لسيّده، وإلا أصابك مني سهم مشكل، ولكل نباٍ مستقرّ وسوف تعلمون.

وصف الحسن البصري الحجاج، فقال: أنا أخيفش أعيمش يخطر في مشيته ويصعد المنبر، فيقوم عليه حتى تفوته الصلاة، لا من الله يتقي، ولا من الناس يستحي، فوّه الله وتحته مائة ألف أو يزيدون، لا يقول له قائل: الصّلاة أيّها الرجل، هيهات دون ذلك السيف والسّوط.

وفيه يقول الأحمر بن سالم وأحسن^(١): [الطويل]

ثقيف بقايا من ثمود وما لهم أب ما جدّ من قيس عيلان ينسب
وأنت دعني يا ابن يوسف فيهم زنيم إذا ما حصلوا متذبذب

ويقال: إنّ الحجاج طلبه فهرب إلى هيت، فأخذه عامله عليها فقتله وأحرقه وذراه في الريح. وجرى بينه وبين بعض الخوارج مشاجرة، فقال له الخارجي: لو لم يكن من لؤم أبيك إلا أنه ولد مثلك لكفاه، فأمر به فقتل. وقال الحجاج يومًا لعبد الملك: لو كان رجل من ذهب لكنته، قال: وكيف ذلك؟ قال: لأنني لم تلدني أمة بيني وبين حواء إلا هاجر، فقال له عبد الملك: لولا هاجر كنت كلبًا من الكلاب.

وأول ولاية تولّاها تبالة، فلمّا رآها استقلّها فرجع عنها، فقالوا في المثل: أهون من تبالة على الحجاج. وأول أمره ومصيره إلى روح بن زنباع وتضمّن ما اتّفق من أمره معه وكيفية وصوله إلى عبد الملك في المجلدة الثالثة من التذكرة.

(١) البيتان لم أجدهما في المصادر والمراجع التي بين يدي.

وفي كتاب أخبار القدماء وذخائر الحكماء لأبي حيان التوحيدي في سبب تولية الحجاج العراق، قال العتبي: لما اشتدت شوكة أهل العراق على عبد الملك بن مروان خطب الناس، وقال: إن نيران أهل العراق قد علا لهبها، وكثر حطبها، فجمرها حاراً، وشهابها وارٍ، فهل من رجل ذي سلاح عتيد، وقلب حديد، أبعثه لها؟ فقام الحجاج وقال: أنا يا أمير المؤمنين، قال: ومن أنت؟ قال: الحجاج بن يوسف بن الحكم بن عامر، فقال له: اجلس، ثم أعاد الكلام فلم يقم أحد غير الحجاج، فقال: اجلس، ثم أعاد الكلام فلم يقم أحد غير الحجاج، فقال: كيف تصنع إن وليتك؟ قال: أخوض الغمرات، وأقتحم الهلكات، فمن نازعني حاربتة، ومن هرب مني طلبته، ومن لحقته قتلته، أخلط عجلة بتآن، وصفوا بكدر، وشدة بلين، وتبسماً بازورار، وعطاء بحرمان، ولا على أمير المؤمنين أن يجرب فإن كنت للأوصال قطعاً، وللأرواح نزاعاً، وللأموال جماعاً، وإلا فليستبدل بي؛ فقال عبد الملك: من تأدب وجد بغيته، اكتبوا له كتابه.

ومنهم ذو الأصل الدنيء والنفس الآتية

أبو مسلم صاحب الدعوة العباسية

كان أبو مسلم واسمه عبد الرحمن بن مسلم عبد العيسى بن معقل فباعه لأخيه إدريس جد أبي دلف، واسمه قاسم بن عيسى بن إدريس العجلي، وكان قهرماناً، فجلس إدريس في الكوفة، وأبو مسلم معه يخدمه، فرأى بكر بن همام من أبي موسى حذقاً وكيساً، فقال لإدريس: ما هذا الغلام؟ فقال: مملوك لي، قال: بغه لي، قال: هو لك، قال: لا بد من ثمنه، قال: هو لك بما شئت، فأعطاه أربعمئة درهم وأخذه وبعث به إلى إبراهيم بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس المنعوت بالإمام، فدفعه إبراهيم إلى موسى السراج، فسمع منه وحفظ عنه، وما زال قدره ينبل حتى أرسله إبراهيم بالدعوة لبني العباس، وذلك في سنة ثمان وعشرين ومائة، وله من العمر إحدى وعشرون سنة، وقدم إلى خراسان يدعو الناس إلى طاعتهم في أول يوم من رمضان سنة تسع وعشرين، فنزل قرية من قرى مرو ووثب دعائه، فقال الناس: رجل من بني هاشم قد ظهر له حلم ورواء ووقار وسكينة، فانطلق فتية من أهل مرو ونسأك، وكانوا يبطلون الفتنة فأتوا أبا مسلم في عسكره فسألوه عن نسبه، فقال: خبري خير لكم من نسبي، ثم سألوه عن أشياء

من الفقه، فقال: إن أمركم بالمعروف ونهيكم عن المنكر خير لكم من هذا، ونحن إلى دعوتكم أحوج منا إلى إجابة مسئلتكم فاعفونا، فقالوا: والله ما نعرف لك نسباً وما نظنك إلا تبقى قليلاً وتقتل، وكان كذلك.

ومن الدليل على لُؤم أصله ما نqm عليه به أبو جعفر المنصور، وهو أنه كتب إليه يخطب منه أمينة بنت علي بن عبد الله بن عباس، وزعم أنه ابن سليط بن عبد الله، فقال له المنصور عند تقريره بذنوبه لما أراد قتله: لقد ارتقيت لا أم لك مرتقى صعباً تقرّ على نفسك أنك دعي، ثم ترغب في بنات العباس. ونقم عليه أيضاً أنه كتب إليه أيام خلافته: عافانا الله وإياك، فبدأ بنفسه في الدعاء. ولما أراد المنصور قتله استشار مسلم بن قتيبة في ذلك، فقال: لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا، فقال: حسبك يا أبا أمية قد أصبت الغرض، ثم استدعاه ولم يأذن لأحد معه، فلما دخل عليه وأخذ مجلسه سأله أن يريه سيفه، فلما تناوله منه جعل يذكره فعلاته التي نqmها عليه وهو يعتذر عنها، ثم ركضه برجله فوثب عليه المرصدون لقتله فقتلوه، وأخرج إلى قواده وجنوده بالجوائز والخلع فقسمت بينهم، ثم رمى برأسه إليهم، ففترقوا ورجعوا قائلين: مضى مولانا بالدرّاهم إنا لله وإنا إليه راجعون؛ وذلك في سنة سبع وثلاثين ومائة. وكان مولده على رأس المائة، وفيه يقول أبو دلامة واسمه زيد بن الجون يهجو^(١): [الطويل]

أبا مجرم ما غيّر الله نعمة على عبده حتى يغيّرها العبدُ
أفي دولة المهديّ حاولت غدره ألا إن أهل الغدر أبأؤك الكرْدُ
أبا مجرم خوّفنتني بك فانتحي عليك بما خوّفنتني الأسد الورْدُ

وقد تقدّمت ترجمته وكيفية ما قتله المنصور في المجلدة الثالثة من التذكرة التوحيدية، وخطب المنصور لما قتله، فقال بعد حمد الله والثناء عليه: أيّها الناس لا تخرجوا من أنس الطاعة، إلى وحشة المعصية، ولا تسرّوا غشّ الأئمة، فإنّ أحداً لا يسرّ سريرة إلاّ ظهر ذلك عليه في فلتات لسانه وصفحة وجهه وبوادر نظره، إنا لم نبخسكم حقوقكم، ولن نبخس الذين حقّه، إنه من نازعنا عروة هذا القميص أوطأناه خبء هذا الغمد، وأنّ أبا مسلم بايع لنا على أنه من نكث بيعتنا

(١) الأبيات في ديوان أبي دلامة، وهي ثلاثة أبيات منفردة.

فقد أباح دمه لنا ثم نكث هو، فحكمنا عليه لأنفسنا حكمه على غيرنا، ولم يمنعنا رعاية الحق له من إقامة الحق عليه.

وإنما اقتصرنا على ذكر هؤلاء الثلاثة دون غيرهم لعظيم ما ارتكبه من الجرائم التي نهى الله عن فعلها، وأكد في التحذير منها، وبالف في الوعيد عليها وهي قتل النفس بغير حق، واستباحة حريم مالها التي حُرمت كحرماتها، وهذا لا يرضى فعله كفره أهل الكتاب، ولا مَنْ يعتقد أنّ إلى الله المرجع والمآب.

ومّا ينبغي أن يُلحق بهذا الفصل تسلي من خفضه الزمان من أهل الفضل بقلة الكرام وكثرة اللّثام وتقلّب الأحوال على مدى الأيام

قال رسول الله ﷺ: «الناس كإبل مائة لا يكاد يوجد فيها راحلة»^(١). وقالوا: الكرام في اللّثام، كالغزة في جبهة الفرس، أو كالرقمة في يد الدابة. ويقال: لا يكاد يوجد كريم، حتى يُخاض إليه ألف لثيم. قال السّمّوأل بن عادي اليهودي^(٢): [الطويل]

تعيّرنا أنا قليل عديدنا فقلت لها إنّ الكرام قليل
وما ضرّنا أنا قليل وجارنا عزيز وجار الأكثرين ذليل

وقال ابن المعتز: إذا خرفت الدولة وقرب زوالها، هبطت بالأخيار ورفعت درج الأشرار. وقال أبو طالب يحيى بن أبي الفرج المعروف بابن زيادة البغدادي الكاتب^(٣): [الخفيف]

باضطراب الزمان ترتفع الأنـ ذال فيه حتى يعمّ البلاء
وكذا الماء ساجياً إذا حرّك ثارت من قعره الأقذاء

(١) أخرجه ابن ماجه حديث ٣٩٩٠، وعبد الرزاق في المصنف ٢٠٤٤٧، وأبو نعيم في حلية الأولياء ٢٣١/٩.

(٢) البيتان في ديوان السّمّوأل بن عادي، من قصيدة مطلعها:

إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه فكلّ رداء يرتديه جميل

(٣) البيتان لابن زياد في معاهد التنصيص، لعبد الرحيم العباسي، ص ٨٤١.

وكانَ عليّ بن الحسين بن عليّ الوزير المغربي لمح هذا المعنى بقوله^(١):
[المتقارب]

إذا ما الأمور اضطربن اعتلى سفيه يُضام العُلا باعتلائه
كذا الماء إن حرّكته يد طفا عكر راسب في إنائه

ومِنْ أحسن ما ورد في هذا الباب ما حُكي أَنَّ المعتصم لما أراد أن يشرف
أشناس التركي عقب فتح بابك أمر أصحاب المراتب أن يترجّلوا له، فكان فيمن
ترجّل الحسين بن سهل، فرآه حاجبه يمشي ويعثر فبكى رحمةً له، فقال له: لا
يهمُّكَ ما تراه إنّ الملوك شَرَفَتنا ثم شَرُفت بنا. ولما عزل قتيبة بن مسلم وكيّفاً عن
رئاسة بني تميم قال شاعرهم^(٢): [الوافر]

فإن تَكْ قد عزلت فلا عجيب ضياء الشمس يمحوه الظلامُ
وقال آخر يسليّ معزولاً^(٣): [الكامل]

عزلوه كالذهب المصفى لا ترى حالاً مغيرةً له عن حالٍ
لم يعزلوا الأعمال عنه وإنّما عزلوا العفاف به عن الأعمال
آخر^(٤): [الكامل]

إنّ الولاية لا تتم لواحدٍ إن كنت تنكر ذافأين الأولُ
لا تجزَعَنَّ فلكل وإل معزل فكما عُزلت فعن قليل تعزلُ

ومِنْ أحسن ما قيل في تسليّ معزول قول محمد بن يزيد الأمويّ في مالك بن
طوق^(٥): [الطويل]

ليهنّيك إن أصبحت مجتمع الحمد وراعي المحامي والمعالى عن المجدِ
وإنك صُنّيت الناس فيما وليته وفرقت ما بين الغواية والرشدِ

(١) البيتان في ديوان الوزير المغربي، وهما بيتان منفردان.

(٢) البيت بلا نسبة في نفحة الريحانة، للمحيي، ص ١٠٢٢.

(٣) البيتان لابن المفجع في محاضرات الأدباء، للراغب الأصبهاني، ص ٥٥٠.

(٤) البيتان لم أجدتهما في المصادر والمراجع التي بين يدي.

(٥) الأبيات لأبي تمام في ديوان المعاني، لأبي هلال العسكري، ص ١٥٢٣، وليست في ديوانه.

فلا تحسب الأعداء عزلك مغنماً
وما كنت إلا السيف جرد في الوغى
فإن إلى الأحرار عاقبة الورد
بأحمد سلا ثم رد إلى الغمد

آخر^(١): [المنسرح]

ما اختلف الليل والنهار ولا
إلا لنقل النعيم من ملك
دارت نجوم السماء في الفلك
قد انقضى ملكه إلى ملك

علي بن الجهم^(٢): [السريع]

للدهر إدمار وإقبال
وصاحب الآثام في غفلة
وكل حال بعدها حال
وليس للأيام إغفال
كم أبليت الدنيا وكم جذدت
مني وكم تغني وتغتال
تشهد أعدائي بأنني فتى
قطاع أسياف ووصال
لا يملك الشدة عزمي ولا
يبطرنني جاة ولا مال

وقال رسول الله ﷺ: «إن حقاً على الله أن لا يرفع شيئاً من هذه الدنيا إلا وضعه، ولا يضع شيئاً إلا رفعه»^(٣). كتب مفلس على خاتمه: اصبر فالدهر دول.

راجز^(٤): [الرجز]

وإنما الدنيا دول كراحل قيل نزل
ونازل قيل رحل

وقال علي رضي الله عنه: ما قال الناس لشيء طوبى إلا وقد خبأ له الدهر يوم سوء. وقال مطرف: لا تنظروا إلى خفض عيش الملوك وطيبه، ولكن انظروا إلى سرعة ظعنهم وسوء منقلبهم. وأنشدت لابن الأعرابي^(٥): [الرملة]

رب قوم رتعوا في نعمة زمنًا والعيش ريان غدق

(١) البيتان بلا نسبة في الروض المعطار في خبر الأقطار، لابن عبد المنعم الحميري، ص ١٧٥٠.

(٢) الأبيات في ديوان علي بن الجهم، والبيت الأول هو مطلع القصيدة.

(٣) أخرجه أبو داود حديث ٤٨٠٢، والدارقطني في سننه ٣٠٣، والهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/٢٥٤.

(٤) الرجز بلا نسبة في ربيع الأبرار، للزمخشري، ص ٥٣١.

(٥) البيتان بلا نسبة في نور القبس، للحافظ اليعموري، ص ٦٢٤، وللباب الآداب، لأسامة بن منقذ، ص ٦٣٢.

سكت الدهر طويلاً عنهم ثم أبكاهم دماً حين نطق
ويقال: لا يقوم عزّ الولاية بذلّ العزل. ويقال: العزل طلاق الرجال. قال
ابن المعتز^(١): [الوافر]

وذلّ العزل يضحك كل يوم وينقر في قفا الوالي المدلّ
وله^(٢): [مجزوء الكامل]

كسم تائه بولاية وبعزله ركض البريد
سكر الولاية طيب وخمارها صعب شديد
ابن زياد^(٣): [البسيط]

لا تغبطن وزيراً للملوك وإنّ أحله الدهر منهم فوق رتبته
واعلم بأنّ له يوماً تمور به الأر ض أطرباً كما مارت لهيبته
هارون وهو أخو موسى وناصره لولا الوزارة ألم يأخذ بلحيته
ولآخر^(٤): [الوافر]

تنح عن الوزارة لا ترذها فكل الخير فيما لا تريد
ألست ترى وزيراً كل يوم يُباع متاعه فيمن يزيّد

ومن أعجب ما يُحكى في تنقل الأحوال: أنّ ثقل الفضل بن الربيع كان
يُحمل على ألف بعير، ثم رُوِي ثقله في زنبيل وفيه أدوية لعلته تُنقل من مكان إلى
مكان، ورُوِي ثقل الحسن بن سهل في زنبيل فيه نعلان وقميصان واصطرلاب، ثم

(١) البيت في ديوان ابن المعتز، من قصيدة مطلعها:

شخص ولاية كشخص عزل على دهش وعز مثل ذلّ
ورواية البيت في الديوان:

وجه العزل يضحك كل يوم ويطير في قفا الوالي المدلّ

(٢) البيت في ديوان ابن المعتز، وهما بيتان منفردان.

(٣) الأبيات لابن زيادة، يحيى بن أبي الفرج سعيد بن أبي القاسم هبة الله، في وفيات الأعيان، في ترجمته.

(٤) البيت لم أجدهما في المصادر والمراجع التي بين يدي.

رُؤْي ثقله على أَلْفٍ بعير. قال بعضهم^(١): [البسيط]

هي المقادير تجري في أعنتها فاصبر فليس لها صبر على حال
يومًا تريش خسيس الحال ترفعه إلى السماك وطورًا تخفض العالي

وتغير أبو جعفر المنصور على وزيره أبو أيوب المرزباني، فقال^(٢):

[الطويل]

ألا لَيْتَنِي لم أَلَقَ ما قد لقيته وكنت بأدنى عيشة الناس راضيا
رأيت علو المرء يدعو انحطاطه ويضحى وسيط الحال من كان ناجيا

ولهذا قيل: الفقر مع الأمن خيرٌ مِنَ الغنى مع الخوف. وقال بعضهم مسلّيًا
عن العطلة^(٣): [الطويل]

لعمرك ما طول التعطل ضائر ولا كل شغل فيه للمرء منفعة
إذا كانت الأرزاق في القرب والثوى عليك سواء فاغتنم لذّة الدعة
وإن ضقت فاصبر يفرج الله ما ترى ألا رب ضيق في عواقبه سعة

آخر^(٤): [مخلع البسيط]

كُنْ بخمول النفوس قانع لا تطلب الذكر في المجامع
فلن يزال الفتى بخير ما لم تشر نحوه الأصابع

ابن مقلة يقول عندما نُكِب^(٥): [المتقارب]

زمان يمرّ وعيش يمرّ ودهر يكرّ بما لا يسرّ
وحال يذوب وهم ينوب ودنيا تناديك أن ليس حرّ

(١) البيتان لإسحق الموصلي في ديوانه، وهما بيتان منفردان.

(٢) البيتان لأبي أيوب الموراني، سليمان بن داود، في الوافي في الوفيات، لصالح الدين الصفدي، في ترجمته.

(٣) الأبيات بلا نسبة في روضة العقلاء ونزهة الفضلاء، لابن حبان البستي، ص ٢٩٦.

(٤) البيتان لم أجدتهما في المصادر والمراجع التي بين يدي.

(٥) البيتان لم أجدتهما.

آخر^(١): [المتقارب]

وأحسن ما استشعر المسلمو ن عند التوائب حلم وصبر
ولله في كل ما يأتني وأُبلى به منه حمدٌ وشكرٌ

سمع أعرابي يقول: هذا غنيّ لولا أنه فناء، وعلا لولا أنه بلاء، وبقاء لولا أنه شفاء. وقيل لابن الجهم بعدما صودر: ما تفكر في زوال نعمتك؟ قال: لا بدّ من الزوال فلأنّ تزول وأبقى خيرٌ من أن أزول وتبقى. وقيل لأعرابي: صِفْ لنا الدهر، فقال: الدهر سلوب لما وهب، وهوب لما سلب؛ كالصبي إذا لعب.

(١) البيتان لم أجدهما في المصادر والمراجع التي بين يدي.

الباب الثالث

في العقل

وفيه ثلاثة فصول:

الفصل الأول من هذا الباب

في مدح العقل وفضله وشرف مكتسبه ونبله

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ (ق: الآية ٣٧).

سُئِلَ الحسن بن سهل: ما حدّ العقل؟ فقال: الوقوف عند الأشياء قولاً وفعلاً. وسُئِلَ آخر، فقال: الإصابة بالظنون، والتلمّح فيما كان وما يكون، ومراده في القسم الثاني التجربة. وقالوا: هو ذكّ الأشياء على ما هي عليه من حقيقة معانيها، وصحّة مبانيها. وقيل لحكيم: ما مقدار العقل؟ فقال: ما لم يُرْ كاملاً في أحد، فلا يُعرف له مقدار. وقالوا: لكلّ شيء غاية وحدّ، والعقل لا غاية له ولا حدّ، ولكن الناس يتفاوتون فيه كتفاوت الأزهار في الرائحة والطيب. واختلف الحكماء أيضاً في ماهيّته، كما اختلفوا في حدّه، فقال بعضهم: هو نور وضعه الله طبعاً، وعرّزه في القلب كالنور في العين، وهو البصر؛ فالعقل نورٌ في القلب، والبصر نور في العين، وهو ينقص ويزيد، ويذهب ويعود، وكما يدرك بالبصر شواهد الأمور، كذلك يُدرك بنور العقل كثيرٌ من المحجوب والمستور، وعمى القلب كعمى البصر، قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: الآية ٤٦]، وقال النبي ﷺ: «ليس الأعمى من عمى بصره، ولكن الأعمى من عميت بصيرته»^(١).

(١) أخرجه السيوطي في الدر المنثور ٣٦٥/٤، والمتقي الهندي في كنز العمال ١٢٢٠، والعجلوني في كشف الخفاء ٢٣٥/٢.

وقال بعض الحكماء: العقل غريزة لا يقدر أحد أن يصفها في نفسه ولا في غيره، ولا يُعرف إلا بالأقوال والأفعال الدالة عليه، وعلى كل حال فلا سبيل أن يُوصف بجسم ولا لون ولا عرض ولا طول. وقال العتبي واسمه عبد الله بن عمرو بن معاوية بن عمرو بن عتبة بن أبي سفيان: العقل عقلان: عقلٌ تفرّد الله بصنعه وهو الأصل، وعقلٌ يستفيده المرء بأدبه وهو الفرع، فإذا اجتمعا قوّى كل واحد منهما صاحبه تقوية النار في الظلمة. البصر أخذه من هذه الآيات وتُنسب إلى أمير المؤمنين عليّ كرم الله وجهه ورضي عنه^(١): [الهج]

رأيت العقل عقليْن فمطبوع ومسموع
ولا ينفع مسموع إذا لم يك مطبوع
كما لا تنفع الشمس وضوء العين ممنوع

ويُفهم من فحوى ما ذكرناه أنّ العقل في القلب، وهذا القول هو الموجود بصحة النظر، والمعلوم من جهة الأثر. قال الله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْقَى الْأَبْصَرُ وَلَكِنْ تَعْقَى الْقُلُوبُ أَلْقَى فِي الْأُصْدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج: الآية ٤٦]. ورُوي عن النبي ﷺ أنه قال: «العقل في القلب يفرق بين الحق والباطل»^(٢). وقال بعضهم: هو في الدماغ، وإليه ذهب أبو حنيفة وأصحابه. وقال عمرو بن العاصي: يثغر الغلام لسبع، ويحتلم لأربع عشرة، وينتهي طوله لإحدى وعشرين، وينتهي عقله لثمان وعشرين، ويبلغ أشده لخمس وثلاثين، وما بعد ذلك تجارب. وقال بعضهم: كل شيء مفتقرٌ إلى العقل، والعقل مفتقرٌ إلى التجارب، وقال بعضهم؛ مَنْ طال عمره نقصت قوّة بدنه وزادت قوّة عقله. وقال بعض الحكماء: أربعة تحتاج إلى أربع: الحسب إلى الأدب، والسرور إلى الأمن، والقراءة إلى المودّة، والعقل إلى التجربة. ويقال: هرم السنّ شباب العقل. وقال البستي^(٣): [الخفيف]

ما استقامت قناة رأيي إلا بعد ما عوّج المشيب قناتي

(١) الآيات في ديوان عليّ بن أبي طالب، وهي ثلاثة أبيات منفردة.

(٢) الحديث لم أجده بهذا اللفظ في كتب الحديث التي بين يدي.

(٣) البيت في زهر الآداب، للحصري القيرواني، ص ٥٣٥، والتمثيل والمحاضرة، للثعالبي، ص

ما اخترناه من محاسن الكلم وأسناها في أنّ العقل أشرف المواهب وأسماها

قال ابن عباس رضي الله عنه: دخلت على عائشة رضي الله عنها، فقلت لها: يا أم المؤمنين أرايت الرجل يقلّ قيامه ويكثر رقاذه، والآخر يكثر قيامه ويقلّ رقاذه، أيهما أحب إليك؟ قالت: سألت رسول الله ﷺ كما سألتني، فقال لي: «أحسنهما عقلاً»، قلت: يا رسول الله إنما سألتك عن عبادتهما؟ فقال: «يا عائشة إنهما لا يسألان عن عبادتهما، إنما يسألان عن عقولهما، فمن كان أعقل كان أفضل في الدنيا والآخرة»^(١). ورؤي عنه عليه الصلاة والسلام، أنّه قال: «الجنة مائة درجة: تسعة وتسعون منها لأهل العقل، وواحدة لسائر الناس»^(٢). وروى البراء بن عازب أنّ النبي ﷺ قال: «لكل شيء وثيقة ومحجة واضحة، وأوثق الناس مطية وأحسنهم دلالة ومعرفة بالحجة الواضحة أفضلهم عقلاً»^(٣). وقال بزرجمهر: الإنسان صورة فيها عقل، فإن أخطأه العقل ولزمته الصورة، فليس بإنسان. قال المتنبي^(٤): [الكامل]

لولا العقول لكان أدنى ضيغم أدنى إلى شرف من الإنسان

وقال الحسن بن علي رضي الله عنهما: إني لأعجب ممن رزق العقل كيف يسأل الله معه شيئاً آخر. وقالت عائشة رضي الله عنها: أفلح من جعل الله له عقلاً. وقال مطرف: ما أوتي العبد بعد الإيمان بالله تعالى أفضل من العقل، ويقال: ما تم دين امرئ حتى يتم عقله، وما استودع الله رجلاً عقلاً إلا استنقذه به يوماً ما. وقال الأصمعي: لو صور العقل لأضاء معه الليل، ولو صور الجهل لأظلم معه النهار. وقال بزرجمهر: العقل كالمسك إن خبأته عبق، وإن بعته نفق. وقالوا: كل شيء إذا كثر رخص إلا العقل، فإنه إذا كثر غلا، ولو بيع لما اشتراه إلا العقلاء لمعرفتهم بفضله. وقال رسول الله ﷺ: «لكل داء دواء، ودواء القلب

(١) أخرجه ابن الجوزي في الموضوعات، ١٧٦/١.

(٢) أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد ٤١٩/١٠، وأبو نعيم في حلية الأولياء ١٣٩/٤.

(٣) الحديث لم أجده بهذا اللفظ في كتب الحديث التي بين يدي.

(٤) البيت في ديوان المتنبي، من قصيدة مطلقها:

الرأي قبل شجاعة الشجعان هو أوّل وهي المحلّ الثاني

العقل؛ ولكل حرث بذر، وبذر الآخرة العقل؛ ولكل شيء فسطاط، وفسطاط الأبرار العقل^(١). ويقال: العقل وزير رشيد، وظهير سعيد، مَنْ أطاعه نجاه، ومَنْ عصاه أرداه. وقال بعضهم يصف العقل^(٢): [السريع]

لله ذرّ العقل مِنْ رائدٍ وصاحب في العُسر واليُسْرِ
وحاكمٌ يقضي على غائبٍ قضية الشاهد للأمرِ
وإن شاء في بعض أحواله أن يفصل الخير من الشرِّ
فدّ وقوي قد خصّه ربّه بخالص التقديس والطُّهرِ
آخر^(٣): [البسيط]

العقل حلّة فخر من تسربلها كانت له نسباً تُغني عن النَّسَبِ
والعقل أفضل لما في الناس كلّهم بالعقل ينجو الفتى مِنْ حومة الطلبِ

ومن قولهم في أن مَنْ وهب الله له عقلاً
كُسي من المناقب حلّة لا تبلى

قال أبو هريرة رضي الله عنه: لو ازدادت كل يوم مثقال ذرة من عقل ما باليت ما فاتني من أنواع التطوّع. وقال وهب: مثُلُ العقلاء في الدنيا مثل الليل والنهار لا تقوم الدنيا إلّا بهما، فكذلك المرء في الدنيا لا حظّ له إلّا إذا كان عاقلاً. وقيل لأنو شروان: أي الناس أولى بالسعادة؟ قال: أنقصهم ذنباً، قيل: فمن أنقصهم ذنباً؟ قال: أتمهم عقلاً. وقالوا: إذا كان العقل في النفس اللّثيمة كان بمنزلة الشجرة الكريمة في الأرض الدّميمة يُنتفع بثمرها على خبث المغرس، فاجتنِ ثمر العقل وإن أتاكَ من لثام الأنفُس؛ وإلى هذا أشار أمير المؤمنين علي رضي الله عنه في قوله لولده الحسن رضي الله عنه: خذ الحكمة أتى أتك، فإن الحكمة تكون في صدر المنافق، فلا تزال تختلج في صدره حتى تخرج فتسكن إلى صاحبها. وقال سعيد بن جبير: لم ترَ عيناى أفضل من فضل عقل يتردى به

(١) الحديث لم أجده بهذا اللفظ في كتب الحديث التي بين يدي.

(٢) الأبيات لبشر بن المعتمر في ديوانه، من قصيدة مطلعها:

أما ترى العالم ذا حشوة يقصر عنها عدو القطرِ

(٣) البيتان لم أجدهما في المصادر والمراجع التي بين يدي.

الرجل، إن انكسر جبره، وإن صرع أنعشه، وإن ذلّ أعزّه، وإن اغوجّ أقامه، وإن
عثر أقاله، وإن افتقر أغناه، وإن عرّي كساه، وإن غوى أرشده، وإن خاف أمّنه،
وإن حزن أفرحه، وإن تكلم صدّقه، وإن أقام بين ظهرائي قوم اغتبطوا به، وإن
غاب عنهم أسفوا عليه، وإن بسط يده قالوا: جواد، وإن قبضها قالوا: مقتصد،
وإن أشار قالوا: عالم، وإن صام قالوا: مجتهد، وإن أفطر قالوا: معذور. قال
الشاعر^(١): [الطويل]

وأفضل قسم الله للمرء عقله فليس من الخيرات شيء يقاربه
يزين الفتى في الناس صحة عقله وإن كان محظوراً عليه مكاسبه
وشين الفتى في الناس قلة عقله وإن كرمّت أعراقه ومناسبه
إذا أكمل الرحمن للمرء عقله فقد كملت أخلاقه ومآربه
آخر^(٢): [المنسرح]

ما وهب الله لامرئ هبةً أشرف من عقله ومن أدبه
هما حياة الفتى فإن عُدما فإن فقد الحياة أجمل به
آخر^(٣): [الطويل]

يعدّ رفيع القوم من كان عاقلاً وإن لم يكن في قومه بحسيب
وإن حلّ أرضاً عاش فيها بعقله وما عاقل في بلدة بغريب

وقال طاوس: ما قلادة نظمت من درّ وياقوت بأزین لصاحبها من العقل،
ولو ناصح المرء عقله لأراه ما يزيّنه مما يُشِينه، فالمغبون من أخطأ حظّه من
العقل.

(١) الأبيات لابن دريد في ديوانه، من خمسة أبيات هذه مطلعها، والبيت الخامس:
يعيش الفتى بالعقل في كل بلدة على العقل يجري علمه وتجارته
وكذلك الأبيات للخليل بن أحمد الفراهيدي في ديوانه، من ستة أبيات. وهي أيضاً لعليّ بن أبي
طالب في ديوانه، من ستة أبيات، والبيت السادس:
ومن كان غلاباً بعقل ونجدة فذو الجد في أمر المعيشة غالبه
(٢) البيتان بلا نسبة في نهاية الأرب، للتويري، ص ١٩٧٩.
(٣) البيتان بلا نسبة في العقد الفريد، لابن عبد ربّه، ص ٩٣٩.

ما أثبتناه من الكلام الرائع الرائق فيما يمتاز به العاقل من المائق

قال بعض أهل العلم: إِنَّ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامَ لَمَّا أَهْبَطَ إِلَى الْأَرْضِ أَنَاهُ جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ: بِالذِّينِ وَالْعَقْلِ وَحُسْنِ الْخَلْقِ، وَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ يَخِيرُكَ وَاحِدًا مِنْ هَذِهِ الثَّلَاثَةِ، فَقَالَ: يَا جَبْرِيلُ مَا رَأَيْتُ أَحْسَنَ مِنْ هَؤُلَاءِ فِي الْجَنَّةِ، ثُمَّ مَدَّ يَدَهُ إِلَى الْعَقْلِ وَقَالَ: لَذِينَكَ اصْعَدَا، قَالَ: لَا نَصْعَدُ، قَالَ: أَتَعْصِيَانِي؟ قَالَا: لَا نَعْصِيكَ، وَلَكِنَّا أُمِرْنَا أَنْ نَكُونَ مَعَ الْعَقْلِ حَيْثُ كَانَ. وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لِلْعَاقِلِ عَشْرُ خِصَالٍ يُعْرَفُ بِهَا: يَحْلُمُ عَنْ ظَلَمِهِ، وَيَتَوَاضَعُ لِمَنْ دُونَهُ، وَيَسَابِقُ إِلَى بَرٍّ مَنْ هُوَ فَوْقَهُ، وَيَنْتَهِزُ الْفُرْصَةَ إِذَا أُمِكَّتَتْهُ، لَا يَفَارِقُهُ الْخَوْفُ وَلَا يَصْحَبُهُ الْعَنْفُ يَتَدَبَّرُ ثُمَّ يَتَكَلَّمُ فَإِذَا تَكَلَّمَ غَنِمَ، وَإِذَا سَكَتَ سَلِمَ، وَإِذَا اعْتَرَضَتْ لَهُ فِتْنَةٌ اعْتَصَمَ بِاللَّهِ»^(١)، وَقَالَ أَبُو عِبَادَةَ مَادِحًا^(٢): [الطويل]

غريب السجاي ما تزال عقولنا مدلهمة في خلة من خلالة
عداه الحجى في عنفوان شبابه وأقبل كهلاً قبل حين اكتهاله

وقالوا: مِنْ علامة العاقل ثلاثة: تقوى الله، وصدق الحديث، وترك ما لا يعني. وفي حكمة داود: على العاقل أن يكون عالماً بأهل زمانه، مالِكاً للسانه، مُقْبِلاً على شأنه. وقال بعض الحكماء: أربعة دلّ على صحة العقل: حبّ العلم، وحسن الحلم، وصحة الجواب، وكثرة الصواب. وقالوا: إن أردت أن تعرف عقل الرجل في مجلس واحد، فحدّثه في خلال حديثك بما لا يكون، فإن أنكر فهو عاقل، وإن صدّق فهو أحمق. وقالوا: لا تجد العاقل يحدث مَنْ يخاف تكذيبه، ولا يسأل من يخاف منعه، ولا يعدّ بما لا يستطيع إنجازه. وقال لقمان لابنه: لا يتم عقل امرئ حتى يكون فيه عشر خصال يكون الكبر منه مأموناً، والرّشد فيه مأمولاً، وفضل ما لديه مبدولاً، لا يصيب من الدنيا إلّا القوت، التواضع أحبّ إليه من الشرف، والذلّ أحبّ إليه من العزّ، لا يسأم من طلب المعالي، ولا يتبرّم بطلب الحوائج إليه، يستكثر قليل المعروف من غيره، ويستقلّ كثيره من نفسه، وأن يرى جميع أهل الدنيا خيراً منه وأنه شراً منهم، وهذه الخصلة تشيّد مجده،

(١) أخرجه ابن عراق في تنزيه الشريعة ٢٢٥/١، بلفظ: «للعاقل خمس خصال...».

(٢) البيتان في ديوان البحري ٣، من قصيدة مطلعها:

عذيري من واشٍ بها لم أو إليه عليها ولم أخطر قلاها بباليه

وتكبت ضده، وتُعَلِّي قدره، وتُطَيِّب في العالمين ذكره. وقالوا: العاقل إذا والى بذل في المودة نصره، وإذا عادى رفع عن الظلم قدره، فيستعين مواليه بعقله، ويعتصم معاديه بعدله. وقال المهلب بن أبي صفرة، واسمه ظالم بن سراقه: يعجبني أن أرى عقل الرجل زائداً على لسانه، ولا يعجبني أن أرى لسانه زائداً على عقله. وقالوا: زيادة العقل على اللسان فضيلة، وزيادة اللسان على العقل رذيلة، والله أعلم.

شوارد مجموعة في احتياج ذوي العقل والحلم إلى اكتساب فضيلتي الأدب والعلم

أما الأدب، فقال بزرجمهر: العقل يحتاج إلى مادة الأدب، كما تحتاج الأبدان إلى قوتها من الأطعمة. وقالوا: عقلٌ بلا أدب فقرٌ، وأدبٌ بلا عقل حتف. وقالوا: عقلٌ بلا أدب كشجاع بلا سلاح. وقالوا: لا عقل إلا بأدب، ولا أدب إلا بعقل. وقال أفلاطون: عقلٌ بلا أدب كالشجرة العاقر، والعقل مع الأدب كالشجرة المثمرة. وقال بزرجمهر: الأدب صورة العقل، فحسّن صورة عقلك كيف شئت. ابن المقفع: كما أنّ الأدب لا يكمل إلا بالعقل، فكذلك لا يكمل العقل إلا بالأدب. وقالوا: احرص أنّ لا يكون أدبك أغزر من عقلك، فإنّ من زاد أدبه على عقله كان كالراعي الضعيف في الغنم الكثيرة. ويقال: أدّبوا أولادكم صغاراً تقرّ أعينكم بهم كباراً. شاعر^(١): [البسيط]

قد ينفع الأدب الأحداث في صغر وليس ينفع بعد الكبرة الأدب
إنّ الغصون إذا قوّمتها اعتدلت ولن تلين إذا قوّمتها الخشبُ

وقال عبد الملك بن مروان: لاعب ولدك سبعاً، وأدّب سبعاً، واستصحبه سبعاً، فإن أفلح فأتى حبله على غاربه، ولا عبّرة بقول من قال^(٢): [السريع]
قولا لمن ينصح ابنأله يردّد القول لتهدئته
ضيع الوقت بلا طائل فيكثر القول ويهزي به

(١) البيتان لسابق بن عبد الله البربري في ديوانه، ولصالح بن عبد القدّوس في ديوانه، وهما بيتان منفردان.

(٢) الأبيات لم أجدها في المصادر والمراجع التي بين يدي.

كله إلى الله وتدبيره ثم إلى الذهر وتجريبه
فإنما الأقدار لا بد أن تأتي بما خط وتجري به

فليس كما قال؛ فإنما الهمل في الإهمال، ولا عذر له في الإهمال، وعود
الصبا أبدًا آمنًا أن يحتاج إلى الشفيف، وطيش الشباب سريع الحراك فلا غناء له
عن التوقيف. ويُحكى أن أبا الأسود كان له ولد فترك الصلاة يومًا، ومضى يلعب
بالكلاب مع الصبيان، فكتب إلى مؤذبه رقعة وأرسلها معه مختومة، يقول فيها^(١):
[الكامل]

ترك الصلاة لأكلب يسعى بها نحو الفراش مع الغواة الأرجس
فليأتينك غاديًا بصحيفة كتبت كمثل صحيفة المتلمس
فإذا أتاك معذرًا بملامة فعظّمه موعظة اللبيب الأكيس
وإذا هممت بضربه فبدرة وإذا بلغت به ثلاثًا فاحبس
واعلم بأنك ما فعلت فنفسه مع ما تجرّعني أعزّ الأنفس

وأما العلم؛ فقدرة كبير، وفضله كثير، ويكفي في شرفه أن رسول الله ﷺ
قال: «خَيْرُ سُلَيْمَانَ بَيْنَ الْمَلِكِ وَالْمَالِ وَالْعِلْمِ، فَاخْتَارَ الْعِلْمَ فَأَعْطَى الْمَلِكَ وَالْمَالِ
لَاخْتِيَارَهُ الْعِلْمَ»^(٢). قال بعض الحكماء: إذا اجتمع العقل والعلم في رجل فقد
استطاب المَخْيَا، وسما إلى الدرجة العليا، وجمع الآخرة والدنيا. وقالوا: العلم
أفضل مكتسب، وأكرم منتسب، وأشرف ذخيرة تُقْتَنَى، وأطيب ثمرة تُجْتَنَى، وبه
يتوصل إلى معرفة الحقائق، ويتوصل إلى رضا الخالق، وهو أفضل نتائج العقل
وأعلاها، وأكرم فروعه وأزكاها، لا يضيع أبدًا صاحبه، ولا يفتقر كاسبه، ولا
يخيب طالبه، ولا تنحط مراتبه. وقال معاذ بن جبل: تعلّموا العلم فإنّ تعليمه لله
خشية، وطلبه عبادة، ومدارسته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وتعليمه لمن لا يعلمه
صدقة، وهو الأنيس في الوحشة، والصاحب في الغربة، والوزير عند الخلاء،

(١) الأبيات ليست في ديوان أبي الأسود الدؤلي، وهي لشريح بن الحارث القاضي، في ديوانه، وهي
خمس أبيات منفردة.

(٢) أخرجه المتقي الهندي في كنز العمال ٢٨٧٨٣، ٢٨٩١٠.

والقريب بين الغرباء. شاعر^(١): [البسيط]

أجل ما يُبتَغى يوماً ويُكتسب ويُجتنى من حُلا الدنيا ويُنتخبُ
علمٌ شريف عميمُ النفع قد رفعت لحامليه بأفاق العُلا رُتَبُ
إن عاشَ عاشَ جميلاً سامياً أبداً لا يُستضام ولا يُنسى فيُجتنبُ
وإن تَمَت فتشاء شائع حسن بعده رحمة ترجى وترتقبُ
آخر^(٢): [البسيط]

العلم أعلى مِنَ الأموال منزلةً لأنه حافظ والمال محفوظُ

وقالوا: العلم عزٌّ لا يبلى جديده، وكنز لا يفنى مزیده. وقال ابن المقفع: تعلّموا العلم، فإن كنتم ملوكاً فقتم، وإن كنتم أوساطاً سدتّم، وإن كنتم سوقة عشتّم. وقالوا: لو لم يكن من شرف العلم إلّا أن الملوك حُكّام على الناس، والعلماء حُكّام على الملوك لكفى بذلك شرفاً. وقال بعضهم^(٣): [الكامل]

العلم فيه جلاله ومهابة والعلم أنفع من كنوز الجواهر
تفنى الكنوز على الزّمان وصرفه والعلم يبقى باقيات الأعصر
ويحتاج طالب العلم إلى ستّة أشياء: فراغ وجدّه وجدّ وأستاذ وطول عمر
ومعونة من الله تعالى، وهذا ملاكها الذي لا بدّ منه، ولا غناء لأحد عنه.

نظم ذلك الشاعر، فقال^(٤): [الطويل]

أصخ لي فليس العلم إلا بستة سأنبئك عن مجموعها ببيان
ذكاء وحرص واجتهاد وبلغه وإرشاد إستاذ وطول زمان

وقالوا: العلم ميت يحييه الطلب، فإذا حي فهو ضعيف يقوّيه الدرس، فإذا قوي بالدرس فهو مُحْتَجِب تظهريه المناظرة، فإذا ظهر فهو عقيم نتاجه العمل.

(١) الأبيات لم أجدها في المصادر والمراجع التي بين يدي.

(٢) البيت لم أجده في المصادر والمراجع التي بين يدي.

(٣) البيتان بلا نسبة في بهجة المجالس، لابن عبد البر، ص ١٠٧٧.

(٤) البيتان لم أجدهما في المصادر والمراجع التي بين يدي.

شاعر^(١): [المنسرح]

العلم من شرطه لمن خدمه أن يجعل الناس كلهم خدَمَه
وواجب حفظه عليه كما يحفظ ما عاش ماله ودمَه
ومن حوى العلم ثم أودعه غير محب له فقد ظلمَه
وكان كالمبتنى البناء إذا تم له ما أَراده هَدَمَه

الفصل الثاني من الباب الثالث

في ذكر الفعل الرشيد الدال على العقل المشيد

قالوا: العقل أصل لكل محمود من الأخلاق، فإذا عدم الأصل فلا بقاء للفرع مع عدم الأصل. وقيل للحسن بن علي رضي الله عنهما: متى يكون العاقل عاقلًا؟ قال: إذا عقله عقله عما لا ينبغي، فهو عاقل. وقال علي بن عبيدة الزنجاني: العقل ملك والخصال الحسنة رعيته، فإذا ضعف عن القيام عليها وصل الخلل إليها. وقال بعض الحكماء: الملائكة روح وعقل، والبهائم نفس وهوى، والإنسان يجمع الكل ابتلاء، فإن غلب الروح والعقل على النفس والهوى فضل الملائكة، وإن غلبت النفس والهوى على الروح والعقل فضلت البهائم، فالعاقل من زاد عن مراتع الهوى نفسه، وكفها عن شهوات تقرب إليه رمسه. قال رسول الله ﷺ: «حبك الشيء يُعمي ويصم»^(٢). وقالوا: «الهوى خادع للألباب، صارف عن الصواب، صاحبه أعمى مبصر أصم سميع». وقالوا: الهوى أشأم دليل، وألأم خليل، وأغشم وال، وأغش موال، يكذب العيان، ويقلب الأعيان، ويجلب الهوان. وقال أبو بكر بن دريد^(٣): [الرجز]

وأفة العقل الهوى فمن علا على هواه عقله فقد نجا

(١) الأبيات للشافعي في الازدهار في ما عقده الشعراء من الأحاديث والآثار، للسيوطي، ص ٥٨، وليست في ديوانه.

(٢) أخرجه أبو داود حديث ٥١٣٠، وأحمد في المسند ١٩٤/٥، ٤٥٠/٦.

(٣) الرجز في ديوان ابن دريد، من قصيدة مطلعها:

يا ظبية أشبه شيءًا بالمها ترعى الخزامى بين أشجار النقا

وقال بعض الصالحين: الهوى مركبٌ ذميم، يسير بك في مضلّات الفتن، ومرتعٌ وخيم يقعدك في مواطن المحن، ويُعلّقك في حبال الإحن، ويقال: مَنْ كان لعنان هواه أملك كان لطرق الرّشاد أسلك، ويقال: بغلبة سلطان العقل على الهوى يُنال السّودد. وقال شاعر^(١): [الكامل]

واعلم بأنك لن تسود ولن ترى طرق الرّشاد إذا اتّبعْتَ هواك
آخر^(٢): [الطويل]

إذا أنت لم تَغصّ الهوى قاذك الهوى
إلى كلّ ما فيه عليك مقال
ويقال: عبد الهوى أذلّ من عبد الرّق. وقالوا: أعقل الناس مَنْ عصى مراده، ولم يَغطِ الهوى قياده. شاعر^(٣): [مجزوء الكامل]

إنّ الرّدى تَبَعَ الهوى وَمِنَ الهوى حلّو ومرّ
اقنع بعيشك تَرْضَه واملك هواك وأنت حرّ
وقال عليّ بن الحسين المغربي^(٤): [المجثّ]

ما للمطيع هواه من الملام ملاذ
فاختر لنفسك إمّا عرض وإمّا التذاذ

وقال الحكيم لولده: اغصّ هواك وأطع مَنْ شئت.
قال بعضهم^(٥): [الطويل]

إذا ما رأيت المرء يقتاده الهوى فقد شكّته عند ذاك ثواكله
وقد أشمّت الأعداء حقًا بنفسه وقد وجدت فيه مقالًا لا عواذله

(١) البيت لم أجده في المصادر والمراجع التي بين يدي.
(٢) البيت بلا نسبة في الفاضل في اللغة والأدب، للمبرد، ص ٢١٣؛ والكامل في اللغة والأدب، للمبرد أيضًا، ص ٦٥٧.
(٣) البيتان لم أجدهما في المصادر والمراجع التي بين يدي.
(٤) البيتان في ديوان الوزير المغربي، وهما بيتان منفردان.
(٥) البيتان بلا نسبة في التذكرة السعدية، للعبّدي، ص ٢٣.

آخر وأجاد^(١): [الطويل]

إذا ما دَعَتْكَ النَّفْسُ يَوْمًا لَشَهْوَةٍ وكان عليها للحرام طريقٌ
فخالف هواها ما استطعت فإنَّما هواها عدوٌّ والخلاف صديقٌ

وقالوا: كَمْ مِنْ عَقْلٍ أَسِيرٍ، عِنْدَ هَوَى أَمِيرٍ. شاعر: [الطويل]

وعاص الهوى المُردِّي فكم من محلَّق إلى النِّجم لما أن أطاع الهوى هوى

ولبعضهم^(٢): [الطويل]

وما يزع النفس اللّجوج عن الهوى مِنْ الناس إلا حازم الرأي كاملُهُ

وقالوا: أعدل الناس مَنْ أنصف عقله مِنْ هواه، ومنع نفسه مما يكون سببًا لبلواه، ولحظ الأشياء بعين فكره وإضماره، فعلم من ورود الأمور عاقبة إيراده وإصداره، فيحسن بأفعاله حمد الأوداء، ويأمن في ماله كَيْد الأعداء؛ كما حَكِي أن نصيبًا دخل على عبد الملك بن مروان فتغذى معه، فلما رأى عبد الملك ظُرفه وأدبه، قال له: هل لك فيما نتنادم عليه؟ قال: يا أمير المؤمنين لوني حائل، وشغري مغفل، وخلقي مشوّه، ووجهي قبيح، ولم أبلغ ما بلغت من إكرامك إياي لا لشرف أبٍ ولا كرم أم، وإنما بلغت بعقلي ولساني، فأشكك الله يا أمير المؤمنين أن لا تحول بيني وبين ما بلغت به هذه المنزلة عندك، فأعفاه، وما أحسن قول الخيزأرزي مشيرًا إلى قول نصيب^(٣): [المقارب]

أرى الكأس تُذهِب عقل الفتى فيذهل عن كلّ مستمتعٍ
ولولا ابتهاجي بكم لم أكنُ لأشرب أكثر من أربعٍ
وقالوا سرور فقلت السرور بأن تتركوني وعقلي معي

وقال آخر^(٣): [الكامل الأحذ]

رطلان لا أزداد فوقهما في الشرب إن حضروا وإن وحدي
فليغتفر لي مَنْ ينادُمني إنني أحتّ عواقب الرّشدِ
وأريد ما يقوى به بدني وأجانب الأمر الذي يردي

(١) البيتان لم أجدهما في المصادر والمراجع التي بين يدي.

(٢) البيت لم أجده في المصادر والمراجع التي بين يدي.

(٣) الأبيات لم أجدها في المصادر والمراجع التي بين يدي.

وعلى ذكر ما ينتج من شرب الخمر من زوال الذهن وذهاب العقل، فحسن قول مَنْ قال: الخمر مصباح السرور، ولكنها مفتاح الشرور، وقول أبي الفضل الميكالي^(١): [الخفيف]

عَيَّرْتَنِي تَرَكَ الْمُدَامَ وَقَالَتْ هَلْ جَفَاها مِنْ الرِّجَالِ لَبِيبُ
هِيَ تَحْتَ الظَّلَامِ نَوْرٌ وَفِي الْأَكْ بَادِ بَرْدٌ وَفِي الْخُدُودِ لَهَيْبُ
قُلْتُ يَا هَذِهِ عَدَلْتُ عَنِ النَّصْرِ حِجْ وَمَا لِلرَّشَادِ فَيْكَ نَصِيبُ
إِنَّهَا لِلسُّتُورِ هَتْكَ وَفِي الْأَلْ بَابِ فَتَكَ وَفِي الْمَعَادِ ذَنْوُ

وقال رجل لابنه وهو يتعاطى الشراب: احذره، فإنه قَيِّءٌ في شَدَقِكَ، أو سلح على عقبك، أو حَدِّ في ظَهْرِكَ. وقال الحصنكي ذَاكِرًا لهذه العيوب^(٢): [المديد]

وَنَدِيمٌ بَتَّ أَعْذَلَهُ وَيَرَى عَذْلِي مِنَ الْعَبَثِ
قُلْتُ إِنَّ الْخَمْرَ مَخْبِثَةٌ قَالَ حَاشَاهَا مِنَ الْخُبْثِ
قُلْتُ مِنْهَا الْقَيِّءُ قَالَ نَعَمْ شَرَفْتُ عَنْ مَخْرَجِ الْخُبْثِ
قُلْتُ لِلْأَزْمَاتِ تَشْرِبُهَا قَالَ طَيْبَ الْعَيْشِ فِي الرِّفْثِ

وقريبٌ من هذا ما حُكِيَ أَنَّ الْحَجَّاجَ وَفَدَ عَلَى الْوَلِيدِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ، فَلَمَّا كَانَ بَعْدَ أَيَّامٍ وَقَدْ أَخَذَا يَتَجَاذِبَانِ أَذْيَالَ الْمَذَاكِرَةِ، فَقَالَ لَهُ الْوَلِيدُ: هَلْ لَكَ فِي الشَّرَابِ؟ قَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لَيْسَ مُحْظُورًا مَدَاخِلَةَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، وَلَكِنِّي أَمْنَعُ أَهْلَ عَمَلِي مِنْهُ وَأَكْرَهُ أَنْ أَخَالَفَ قَوْلَ الْعَبْدِ الصَّالِحِ لِقَوْمِهِ، وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَخَالَفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهَا، فَاسْتَحْسَنَ ذَلِكَ مِنْهُ وَأَعْفَاهُ. وَقَالَ إِسْحَاقُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ الْمُوَصَّلِيُّ: دَخَلْتُ عَلَى الْهَادِي فَقَالَ: غَنَّنِي صَوْتًا أَطْرِبُ مِنْهُ وَلَكَ حَكْمُكَ، فَعَنَيْتَهُ^(٣): [الطويل]

وَإِنِّي لَتَعْرُونِي لَذَكَرَاكَ هَزَّةً كَمَا انْتَفَضَ الْعَصْفُورُ بَلَّهَ الْقَطْرُ

(١) الأبيات في ربيع الأبرار، للزمخشري، ص ٢٥١٦.

(٢) الأبيات للخطيب الحصفكي في وفيات الأعيان، لابن خلكان، في ترجمته.

(٣) البيت لأبي صخر الهذلي في ديوانه، من قصيدة مطلعها:

إذا قلت هذا حين أسلو يهيجني نسيم الصبا من حيث يطلع الفجرُ

فقال: أحسنت والله، وضرب بيده إلى دراعته فشقّ منها ذراعاً، فقال: زدني، فغثّيته^(١): [الطويل]

فيا حبّها زدني جوّى كلّ ليلة ويا سلوة الأحباب موعذك الحشرُ

فقال: أحسنت، ثم ضرب بيده إلى دراعته فشقّ منها ذراعاً آخر، فقال له: زدني، فغثّيته^(٢): [الطويل]

هجرْتُك حتى قيل لا يعرف الهوى وزرْتُك حتى قيل ليس له صبرُ

فقال: أحسنت، وشقّ باقي دراعته من شدة الطرب ثم رفع طرفه إليّ، وقال لي: تمّن واحتكم، فقلت: أتمنى عين مروان، قال إسحق: فرأيته وقد دارت عيناه في رأسه حتى خلتها جمرتين، ثم قال: يا ابن اللخناء، أتريد أن تشهرني بهذا المجلس وتجعلني سمرًا وحديثًا يقول الناس أطربه فوهبه عين مروان، أمّا والله لولا بادرة جهلك التي غلبت على صحة عقلك، لألحقتك بمن غبر من أهلك، ثم أطرق إطراق الأفعوان، فرأيت ملك الملك بيني وبينه ينتظر أمره فيّ، ثم رفع رأسه ودعا إبراهيم بن ذكوان وقال له: خذ بيد هذا الجاهل وأدخله بيت المال، فإن أخذ ما فيه فدعه وإياه، قال إسحق: فدخلت وأخذت ما يساوي عين مروان أضعافاً.

وما أحسن ما قال بعض البلغاء يصفُ إنساناً بصيراً بالعواقب: فلان يُعرَف من مبادئ الأحوال خواتيم الأعمال، ومن صدور الأمور إعجاز ما في الصدور. وقال آخر: فلان يرى العواقب في مرآة فكره فلا يشتبه عليه نفعه بضرّه.

نادرة: قيل لبعض المجانين: هل لك في الشراب؟ فقال: إنّ العاقل يشرب الخمر حتى يشبهه بي، فأنا إذا شربته فيمن ذا أشبهه. وأحسن منها ما يخكى: أنّ أعرابياً راود امرأة عن نفسها فأنعمت له، فلما قعد بين شعبتها قام عنها ولم يقض وطراً، ولا عفى من غرضه أثراً، فقالت له: يا هتاه ما الذي عراك وقد بلغت منك، فقال: إنّ رجلاً يبيع جنة عرضها السموات والأرض بأصبعين بين فخذيك لقليل الخبرة بالمساحة. والعاقل من اهتدى بمشورة نصحائه، وكشف لهم عن مستور أغراضه وأنحائه. قال الله تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿وَسَاوِرُهُمْ فِي الْأَرْضِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [آل عمران: الآية ١٥٩]، فهذا الخطاب لمحمد ﷺ ليعلم

(١) انظر الحاشية السابقة.

(٢) انظر الحاشية ما قبل السابقة.

أصحابه ما في المشورة من البركة لا لحاجة منه لرأيهم؛ إذ هو المؤيد في حركاته وسكناته بالوحي من ربه، والمستغني بما يلقي في روعه من الرأي المصيب عن آراء صحبه. قال الحسن البصري: إن الله عز وجل لم يأمر نبيه ﷺ لحاجة به إلى رأيهم، وإنما أراد أن يعرفهم ما بالمشورة من البركة. وقال عليه الصلاة والسلام: «المشورة حصن من الندامة وأمن من الملامة»^(١). وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: الرجال ثلاثة: رجل ينظر في الأمور قبل أن تقع فيصدرها مصادرها، ورجل متوكل لا يتأمل فإذا نزلت به نازلة شاور أصحاب الرأي وقيل قولهم، ورجل حائر بائر لا يأتى رشداً ولا يطيع مُرشداً. وقالوا: مادة العقل من العقول، كمادة الأنهار من السيول. وقال أمير المؤمنين علي كرم الله وجهه: نغم المؤازرة المشورة، وبئس الاستعداد الاستبداد. وقال حكيم لولده: يا بني إن رأيك إن احتجت إليه وجدته نائماً وجدت هواك يقظان، فأياك أن تستبد برأيك فيغلبك حينئذ هواك. وقالوا: الخطأ مع الاستشارة أحمد من الإصابة مع الاستبداد. ويقال: إذا استخار العبد ربه واستشار صديقه واجتهد رأيه فقد قضى ما عليه، ويقضى الله في أمره ما أحب. وقالوا: من استغنى برأيه فقد خاطر بنفسه. وقالوا: عليك بالمشورة فإنها تأمر بالتي هي أحسن، وتهدي للتي هي أقوم. وقالوا: لا تستبد بتدبيرك، ولا تستخف بأمرك، فمن استبد بتدبيره زل، ومن استخف بأمره ذل. وقالوا: من شاور الأخلاء أمن من كيد الأعداء. ومن أمثالهم: زاحم يعود أو دغ. وقال عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر من أبيات^(٢): [المتقارب]

وإن باب أمر عليك التوى فشاور لبيباً ولا تغصه
وإن ناصح منك يوماً دنا فلا تنأ عنه ولا تُفصه
ولآخر^(٣): [الكامل]

إنَّ اللَّبِيبَ إِذَا تَفَرَّقَ أَمْرُهُ فَتَقِ الْأُمُورَ مُنَاطِرًا وَمَشَاوِرًا
وَأَخُو التَّكْبَرِ يَسْتَبِدُّ بِرَأْيِهِ وَتَرَاهُ يَعْتَسِفُ الْأُمُورَ مَخَاطِرًا

(١) الحديث لم أجده بهذا اللفظ في كتب الحديث التي بين يدي.

(٢) البيتان من قصيدة، تُنسب لصالح بن عبد القدوس، وطرفة بن العبد، وعبد الله بن معاوية، انظر دواوينهم، ومطلع القصيدة:

إِذَا كُنْتُ فِي حَاجَةٍ مُرْسَلًا فَارْسِلْ حَكِيمًا وَلَا تُوصِهِ

(٣) البيتان لمحمود الوراق في ديوانه، وهما بيتان مفردان.

بشار بن برد^(١): [الطويل]

إذا بلغ الرأى المشورة فاستنر
ولا تجعل الشورى عليك غضاضة
وما خير كف أمسك الغلّ أختها
آخر^(٢): [الكامل]

لا تحقرن الرأى وهو موافق
فالدّر وهو أجلّ شيء يُقتنى
حكم الصواب إذا بدا من ناقص
ما حطّ رتبته هوان الغائص
آخر^(٣): [البيسط]

شاور سواك إذا نابثك نائبة
فالعين تلقى كفاحا دنا ونأى
يوما وإن كنت من أهل المشورات
ولا ترى نفسها إلا بمرآة
آخر^(٤): [المقارب]

تأنّ وشاور فإنّ الأمو
فرأيان أفضل من واحد
ر منها مضيء ومستغمض
ورأى الثلاثة لا يُنقض
قال بزرجمهر: أفره الدواب لا غنى له عن السوط، وأعقل النساء لا غنى لها
عن الزّوج، وأدهى الرجال لا غنى له عن المشورة.

فمن يُعتمد عليه في المشورة من تكون النفس بآرائه مسرورة

قالوا: لا تدخل في مشورتك بخيلاً في عطاء فيقصر بك، ولا جبائناً في
حرب فيخوّفك، ولا حريصاً في بذل فيصدّك، فإنّ البخل والجبن والحرص طبيعة
واحدة يجمعها سوء الظنّ بالله. قيل: استشار زياد رجلاً، فقال: حقّ المستشار أن
يكون ذا عقلٍ وافر، واختبار متظاهر، ولا أراني كذلك.

(١) الأبيات في ديوان بشار بن برد، من قصيدة مطلعها:

أبا مسلم ما طول عيش بدائم ولا سالم عمّا قليل بسالم

(٢) البيتان للطغرائي في ديوانه، وهما بيتان منفردان.

(٣) البيتان لفتيان الشاغوري في ديوانه، ولناصح الدين الأرجاني في ديوانه، وهما بيتان منفردان في
الديوانين.

(٤) البيتان بلا نسبة في نهاية الأرب، للنويري.

قال الشاعر^(١): [الوافر]

خصائص مَنْ تشاوره ثلاث فخذ منها جميعاً بالوثيقة
وداد خالص ووفور عقل ومعرفة بحالك في الحقيقة
فمن حصلت له هذي المعاني فتابع رأيه والزم طريقه
وقال آخر^(٢): [المتقارب]

إذا الأمر أشكل إنفاذه ولم تر منه سبيلاً نجيحاً
فشاور لأمرك في ستره أخاك اللبيب الشفيق النصيحاً
آخر^(٣): [الكامل]

وإذا الأمور عليك يوماً أشكلت فاعمد لرأي أخ نصيح مرشد
واحفظ نصيحة من بدا لك وده وبرأي أهل الخير جهدك فاهتد
آخر^(٤): [الطويل]

فما كل ذي ود بموليك نصحه ولا كل مؤث نصحه بلبيب
ولكن إذا ما استجمعا عند واحد فحق له من طاعة بنصيب

وقال الأحنف بن قيس: لا تشاور المعزول، فإن رأيه مغلول. وقالوا: لا تشاور الجائع حتى يشبع، ولا العطشان حتى يزوى، ولا الأسير حتى يُطلق، ولا المقلّ حتى يجد، ولا الراغب حتى ينجح. وقال أفلاطون: إذا استشارك عدوك فجرد له النصيحة؛ لأنه قد خرج بالاستشارة من عداوتك إلى موالاتك. ولما نوى ابن أبي مريم قاضي مروان أن يزوّج ابنه استشار جازاً له مجوسياً، فقال: سبحان الله يستفتونك وأنت تستفتيني؟ قال: لا بدّ أن تشير عليّ، فقال: إن كسرى رئيس

(١) الأبيات لأبي الفتح البستي في ديوانه، وهي ثلاثة أبيات منفردة.

(٢) البيتان لم أجدهما في المصادر والمراجع التي بين يديه.

(٣) البيتان لم أجدهما.

(٤) البيتان ينسبان لأبي الأسود الدؤلي، وابن عبد ربّه الأندلسي، وبشار بن برد. ومطلع القصيدة في ديوان أبي الأسود الدؤلي:

أمنت على السرّ امرأة غير حازم ولكته في النصح غير مُريب
ومطلع القصيدة في ديوان ابن عبد ربّه الأندلسي: قريب وهل من لا يرى بقريب
أبقتلني دائي وأنت طيببي وهما بيتان منفردان في ديوان بشار بن برد.

الفرس كان يختار المال، وقيصر رئيس الروم كان يختار الجمال، ورئيس العرب كان يختار النسب، ومحمداً نبيكم كان يختار الدين، فانظر بمن تقتدي. وقالوا: لا تشاور بخيلاً في صلة، ولا جباناً في حرب، ولا شاباً في جارية. وقال بعض الحكماء: عليكم بمشورة مَنْ حلب ضرع دهره، ومَرَّت عليه صروف خيره وشره، وبلغ من العمر أشده، ومن التجربة أورى زنده، ولذلك كانت العرب تقتدي برأي الشيوخ، وتعتمد في التَّوَّازل على مشورة الكُهول؛ لما يوجد فيهم من أصالة الرَّأي وإصابة الحدس وصحة النظر مع ما مُنِحوا مِنْ حُسْن الاختبار، وسَمَت الوقار. وقد عدل قوم عن هذا المرتع، ونزعوا غير هذا المَنزَع، فجعلوا للشباب أيسر الأقسام مِنْ تَوَقُّد الفِطْنَة، وأوفر السَّهَام من نشاط النفس وقوة المِئَة، فربما قَصُرَتْ عن مقاومتهم الكهول، ولجأت إليهم في كثير من تنقيح الفروع والاصول، لتوفر غريزة العقل فيهم، وحدة الخاطر التي تُرشدُهم إلى الصواب وتُهديهم؛ ولهذا قال الشاعر^(١): [الوافر]

رأيت العقل لم يكن انتهاياً ولا يقسم على عدد السنين
ولو أن السنين تقسَّمَتْه حوى الآباء أنصبه البنينا

وكان بعض الحكماء يقول: عليكم بآراء الأحداث ومشورة الشبان؛ لأن لهم أذهاناً تقدّ القواصل، وتحطّم الذوايل. وقالوا: آراء الشبان خَصِرَة نُضِرَة لم يهصر غصنها هرم، ولا أذوى زهرها قدم، ولا حَبَا مِنْ ذكائها بطول المدّ ضرْم؛ وقال الشاعر^(٢): [الطويل]

عليكم بآراء الشباب فإنّها نتائج ما لم يبلّه قدم العهد
فروع ذكاء تستمدّ من النُّهى بأنور في الآراء من قمر السَّعدِ
ومن أحسن ما قيل في مدح شابّ غزير العقل، كثير الفضل، طاهر الفعل
قول الشاعر^(٣): [الكامل]

أدركت ما فات الكهول من الحِجَا في عنفوان شبابك المستقبل
وإذا أمرت فلا يقال لك أنّي وإذا قضيت فلا يقال لك اعدل

(١) البيتان بلا نسبة في زهر الآداب وثمر الألباب، للحصري القيرواني، ص ٤٣٨.

(٢) البيتان لم أجدتهما في المصادر والمراجع التي بين يدي.

(٣) البيتان للبحري في ديوانه، من قصيدة مطلعها:

أكثرت في لوم المحب فأقليل وأمرت بالصبر الجميل فأجمل

وقيل: بل العاقل مَنْ أخذ بالاستبداد في الأمور، وأجراها مختاراً على حكم القضاء المقدور. قال المهلب بن أبي صفرة: لو لم يكن في الاستبداد بالرأي إلا صون السرّ وتوفير العقل؛ لوجب التمسك به. وقال بزرجمهر: أردت نصيحاً أثق به فما وجدت غير فكري، واستضأت بنور الشمس والقمر فلم أستضيء بشيء أضوأ من نور قلبي. وقال علي بن الحسين رضي الله عنهما: الفكر مرآة تُري المؤمن سيئاته فيقلع عنها، وحسناته فيُكثّر منها، فلا تقع مقرعة التقرع عليه، ولا تنظر عين العواقب شزراً إليه. وقال عبد الملك بن صالح: ما استشرت أحداً قط إلا تكبر عليّ وتصاغت له ودخلته الغرّة ودخلتني الذلّة، فعليك بالاستبداد فإن صاحبه جليل في العيون، مهيب في الصدور، وإنك متى استشرت تضعضع شأنك، ورجفت بك أركانك، وما عزّ سلطان لم يُغنه عقله عن عقول وزرائه، وآراء نصحاءه، فأياك والمشورة وإن ضاقت عليك المذاهب واشتبهت لديك المسالك؛ وأنشد^(١): [الطويل]

فما كلّ ذي لبّ بمؤتيك نصحه ولا كلّ مؤتٍ نصحه بلبيب

وقال عبد الله بن طاهر: ما حكّ ظهري مثل ظفري، ولأن أخطئ مع الاستبداد ألف خطأ أحب إليّ من أن أستشير، فألحظ بعين النقص والتقصير.

وما أصدق قول القائل^(٢): [البيسيط]

ليس احتيال ولا عقل ولا أدب يجدي عليك إذا لم يسعد القدر
ولا توان ولا عجز يضّر إذا جاء القضاء بما فيه لك الخير

وعلى المستبد أن يتروى في رأيه، فإنّ أفضل الرأى ما أجادت الفكرة نقده، وأحكمت التروية عقده. وقالوا: كل رأي لم تتمخض به الفكرة ليلة كاملة، فهو مولود لغير تمام. شاعر^(٣): [الطويل]

إذا كنت ذا رأي فكنّ ذا إناء فإنّ فساد الرأي أن تتعجلاً
وما العجز إلا أن تشاور عاجزاً وما الحزم إلا أن تهّم فتفعلاً

(١) تقدّم البيت مع تخريجه قبل قليل. (٢) البيتان للعتبي في ديوانه، وهما مطلع القصيدة.

(٣) البيتان لعيسى بن عليّ في التذكرة الحمدونية، لابن حمدون، ص ٥٦٧.

وقال شاعر في مستبَدَّ^(١): [الكامل]

ذهب الصَّواب برأيه فكأنَّما آراؤه خُلِقَتْ من التَّأييدِ
وإذا دجا خطب تبَلَّج رأيه صبحًا من التَّوفيق والتَّسديدِ

وقالوا: فلان الخير معقود في نواصي آرائه، واليُمن مُنْقَاضٌ في نواحي أنحائه،
فلان إذا أذكى سراج الفكر، أضاء ظلام الأمر. وقال ابن العميد: العاقل مَنْ
استتج في كل أمرٍ خاتمته، وعلم من كل بدء عاقبته، وطالع بقلبه من كل غصن ما
يُخْفى منه، ومِنْ كل زرعٍ ما يُخْصَد عنه. والله مَنْ قال مادحًا إصابة الرأي^(٢):
[الطويل]

وذو يقظات مستمرّ مريرها إذا الدَّهر لاقاها اضمحلت نوائبُه
بصير بأعقاب الأمور كأنَّما يخاطبه مِنْ كل أمرٍ عواقبُه
وأين يفرّ الحزم منه وإنَّما مُرائي الأمور المشكلات تجاربُه

وقال أبو عبادة البحتريّ في سليمان بن عبد الله^(٣): [البسيط]

يريك بالظنّ ما فاق اليقين به إذا تلبس دون الظنّ إيقانُ
كأنَّ آراءه والحزم يتبعها تريه كلّ خفيّ وهو إعلانُ
ما غاب عن عينه فالقلب يكلؤه وإن تَنَم عينه فالقلب يقظانُ

ومنها^(٤): [البسيط]

يرى العواقب في أثناء فكرته كأنَّ أفكاره بالغيب كُهانُ
لا فكرة منه إلَّا تحتها عمل كالدهر لا دورة إلَّا لها شأنُ

وله^(٥): [البسيط]

يريك بالظنّ ما قلّ اليقينُ به والشاهدان عليه العين والأثرُ
كأنه وزمام الدهر في يده يرى عواقب ما يأتي وما يذرُ

(١) البيتان لمحمد بن إدريس الطائي، في معجم الشعراء، للمرزباني، ص ٧١٨؛ ولأبي تمام الطائي في ربيع الأبرار، للزمخشري، وليس في ديوانه.

(٢) الأبيات لأبي تمام في ديوانه، من قصيدة مطلعها:

أهِنَّ عَوادي يوسف وصواحبُه فعزَمًا فقدَمَا أدرك السُّؤلُ صاحِبُه

(٣) الأبيات ليست في ديوان البحتري. (٤) انظر الحاشية السابقة.

(٥) البيتان ليسا في ديوان البحتري، ولم أجدهما في المصادر والمراجع التي بين يدي.

آخر^(١): [الوافر]

بديهته وفكرته سواء إذا ما ناباه الخطب الخطيرُ
واحزم ما يكون الدَّهر يومًا إذا عجز المشاور والمشيرُ

والعقل مَنْ نصب من تحيله الحبائل واقتنص بها شوارد المطالب والوسائل

قالوا: بالحيلة يستنزل الطير من جو السماء، ويستخرج الحوت من جوف الماء؛ فمن المحكي في ذلك ما ذكر أن رجلين وثبا على أحد مرازية كسرى أنوشروان فقتلاه، ولم يعرفا فخشي أن هو لم يقتلها به كان ذلك عارًا عليه وعجزًا يُنسب إليه، فقال في مجمع من الناس: إن مَنْ قتل المرزيان لعظيم القدرة، شديد البأس، ولو ظهر لجازيناه بما يستحق ورفعناه على الناس، فلما بلغهما كلامه ظهرا وأقرّا، فقال أنوشروان: إني مُجازيكما بما تستحقان، فإنه لا يكون جزاء من قتل سيده وغدر به إلا القتل، وأما رفعكما على الناس فإني أصلبكما على أطول جذع أجده، ثم أمر ففعل بهما ذلك. وأحسن منها حيلة عملت على الإسكندر فخفي عليه الصواب في التخلص منها، وهي ما حُكي عنه أنه كان لا يدخل مدينة عنوة إلا هدمها وقتل مَنْ فيها، فقدم على مدينة كان فيها مؤذّب له، فخرج إليه فأعظمه وأكرمه وأكبره، ثم قال له: ما جاء بك؟ قال: أيها الملك إن أحقّ مَنْ زَيْن لك أمرك وأعانك عليه لأنّا، وإنّ أهل هذه المدينة أبوا طاعتك وطمعوا فيك لمكاني منك، وأحب أن لا تشفعني فيهم وأن تُخالفني في كل ما أسألك فيه مِنْ أمرهم، فلما سمع الإسكندر مقالته ظنّ ذلك نصحًا له، وأن غرض المعلم وافق غرضه وسرّ بذلك، فلما رأى المعلم سروره طلب منه العهد على ذلك فعاهده، فلما استوثق منه ذلك قال: أيها الملك إني أرى من الرأي أن تهدم هذه المدينة وتقتل أهلها، فقال الإسكندر: لا سبيل إلى ذلك، ولا بدّ من مخالفتك، قال: فارتحل عنها إذا، فارتحل.

(١) البيتان لأشجع السلمي في ديوانه، من ثلاثة أبيات هذه مطلعها، والبيت الثالث:

وصدّر فيه للهّم اتّسع إذا ضاقت بما تحوي الصدور

والبيتان أيضًا لسلم الخاسر في ديوانه، من قصيدة مطلعها:

بقاء الدين والدنيا جميعًا إذا بقي الخليفة والوزير

والبيتان لعلي بن الجهم في ديوانه، من ثلاثة أبيات، والبيت الثالث نفسه عند أشجع السلمي.

أمر عمر بن الخطاب بقتل الهرمزان، فشكا العطش فأتى بإناء فيه ماء، فلما تناوله أظهر رعشة في يده يُوهَم أنها من خوف، فقال عمر: لا بأس عليك حتى تشرب، فرمى الإناء من يد فكسره فأمر عمر بقتله، قال: أو ليس قد أعطيتني الأمان؟ قال: متى؟ قال: أُلست قلت: لا بأس عليك حتى تشرب ولم أشرب، فقال عمر: قاتله الله أخذ منا الأمان ولم نشعر.

ومن ظريف الحِجَل ما حُكي أَنَّ سلمان الفارسي خطب بنتًا لعمر بن الخطاب رضي الله عنه، فأجابته إلى تزويجه فشقَّ ذلك على ولده عبد الله وشكاه إلى عمرو بن العاص، فقال له: أنا أرده عنك، فقال: إن ردَّته بما يكره غضب أمير المؤمنين، فقال لك: عليَّ أن أرده راضيًا ثم أتى سلمان فضرب بين كتفيه، وقال: هنيئًا لك أبا عبد الله هذا أمير المؤمنين يتواضع بتزويجك بنته، فالتفت إليه مغضبًا، وقال: إني متواضع والله لا أتزوجه. وأسر معاوية عمرو بن أوس الأودي، وكان من أصحاب عليٍّ يوم صفين فقدمه للقتل، فقال: لا تقتلني فإنك خالي، فقال: من أين أنا خالك ولم يكن بيننا وبين أود صهارة؟ فقال: إن أخبرتك يكن نافعي عندك؟ قال: نعم، قال: أليست أختك أم حبيبة زوجة النبي ﷺ أم المؤمنين؟ قال: بلى، قال: فأنا ابنها وأنت أخوها، فاستظرف قوله وخلَّى سبيله. وحاصر سعد بن أبي وقاص حصن تيماء فطلب من فيه الأمان فأجابهم إلى ذلك، فلما تسلَّمه قتل كلَّ من فيه إلا رجلًا واحدًا. وعزم معن بن زائدة على قتل جماعة من الأسراء، فلما مثلوا بين يديه قام أصغر القوم، وقال: أيها الأمير أتقتل أسراك وقد جاعوا وعطشوا، فأمر لهم بطعام وشراب، فلما أكلوا وشربوا قام إليه، وقال: أيها الأمير أتقتل أضيافك، فحلم عليهم وخلَّى سبيلهم. ولما قبض على ابن المقفع وكل به رجل يعذِّبه في مال طلب منه، فلما طال عليه ذلك وخشي على نفسه التلف اقترض من صاحب العذاب مائة ألف درهم، فكان بعد ذلك يرفق به خوفًا على ماله.

واقترح رجل على الأحنف بن قيس مجلسه فلطمه، فقال له: ما حملك على ما فعلت؟ فقال: لطمني رجل من تميم، فأقسمت أن أقتص من سيدهم، فقال له الأحنف: لم تبر في يمينك ولست بسيّد تميم، وإنما سيدهم حارثة بن قدامة، فذهب الرجل إليه فوجده بين قومه فلطمه فأمر بقطع يده ففُطِعت، فيقال: ما قطع يده إلا الأحنف الذي جرّاه على غيره ولم يؤذبه على فعله، وإن كانت هذه الحكاية

ليست جارية على المعهود من حلم الأحنف، فإنّ النفوس الشريفة تأبى الاسترسال في الاحتمال لما يحصل في حقّها من إهمال الجهال، كما قال أبو تمام حبيب بن أوس الطائي معتذراً عمّن أحوجه الذبّ عن سيادته إلى الخروج عن عادته^(١):
[الوافر]

إذا أحوجت ذا كرم تخطى إليك ببعض أخلاق اللئام
وما خرق اللئيم وإن تعدّى بأبلغ فيك من حقد الكرام

ولّى عبد الملك بن مروان أخاه بشراً العراق، وضّم إليه روح بن زنباع، فلما دخل العراق أغري بالشراب وثقل عليه ابن زنباع، فقال يوماً: من يحتال لي فيه؟ فقال ثمامة الباهلي: أنا، ثم صار إلى دهليز روح وكتب على حائطه^(٢):
[البسيط]

يا روح من لزنابير محرّشة إذا يقال لأهل المغرب الباغي
إنّ الخليفة قد شالت نعماته فاحتل لنفسك يا روح بن زنباع

فلما قرأه ما ظنّ إلا أن بعض الجن كتبهما، فعدا إلى بشر فاستأذنه في الرجوع إلى الشام، فامتنع بشر من الإذن له، وجعل يسأله أن يقيم فأبى فأذن له، فلما دخل على عبد الملك قال: الحمد لله على سلامتك يا أمير المؤمنين، قال: وما ذاك؟ فأخبره الخبر فقال له: سخر بك بشر وأهل العراق لما ثقلت عليهم، فاحتالوا للراحة منك. وقدم قوم غريماً لهم إلى قاضٍ وادّعوا عليه بمال، فصدّقهم فأمره القاضي أن يدفع لكل ذي حقّ حقّه، فقال: إنّ لي ريعاً وقد حان استغلاله، فإن رأوا أن يؤجلوني أياماً حتى أستغله وأؤدي إليهم حقوقهم، فلا بأس؛ فسألهم القاضي ذلك، فقالوا: والله ما نعلم له سيّداً ولا لبدّاً، فقال له القاضي: اذهب فقد فلسك غرماًؤك. وحكي أنّ رجلاً أراد الحجّ فأودع عند رجل مالا، فلما رجع طلبه منه فجحده أيّاه، فأتى إياساً القاضي فأخبره، فقال له: لا تعلم أحداً أنك جئتني وعُدّ إليّ بعد يومين، ثم دعا إياس ذلك الرجل المودع عنده، وقال له: إنه قد تحصل عندنا مال لأيتام وأريد دفعه إليك ليكون وديعةً في جِرك فحصّن بيتك

(١) البيتان ليسا في ديوان أبي تمام الطائي، والبيتان للبحتري في محاضرات الأدباء، للراغب الأصبهاني، ص ٧٧٥، وليس في ديوانه.

(٢) البيتان لم أجدهما في المصادر والمراجع التي بين يدي.

وانتخب أقوامًا ثقات يحملونه معك، فرجع الرجل وأصلح منزله ثم دعا إياس صاحب المال، وقال له: انطلق إلى صاحبك واطلب منه مالك، وقل له: إن أنت لم تردّه عليّ شكوتك للقاضي، فذهب الرجل إليه وطلب منه المال فردّه عليه، فأخبر الرجل إياسًا بذلك، فقال: ربما كانت الحيلة وسيلة إلى ذكّك المطلوب، ولم يعاود إياسًا ذلك الرجل المُودع عندما فيما وعده به.

والحازم من أضاف إلى تاج رئاسته عقودًا من جواهر سياسته

فإنهم قالوا: من طلب الرئاسة، فليصبر على مضض السياسة. ويقال: إذا صحت السياسة، ثبتت الرئاسة. وصف أنوشروان سياسته، فقال: لم أهزل في أمر ولا نهني، ولم أخلف في وعيد ولا وعد، وأعاقب للأدب لا للغضب، وأثيب للغنى لا للهوى، فأودعت قلوب الرعية هيبة لا يشينها منهم هلع، ومحبة لا يشوبها فيهم طمع، وعممت بالقول، وحذفت الفضول. وقال أردشير لأصحابه وقد سعى عنده بإنسان: إنما أملك الظواهر لا النيات، وأحكم بالعدل لا بالرضا، وأفحص عن الأعمال لا عن السرائر. ومن كلامه: لا سلطان إلا برجال، ولا رجال إلا بمال، ولا مال إلا بعمارة، ولا عمارة إلا بعدل. وقالت الحكماء: أسوس الملوك لرعيته من قاد أبدانها بقلوبها، وقلوبها بخواطرها، وخواطرها بأسبابها من الرغبة والرّهبة. وقالوا: قلوب الرعية خزائن ملكها، فما أودعها من شيء فليعلم أنه فيها. وقال بزرجمهر: العقل حديقة سياجها الشريعة، والشريعة سلطان يجب لها الطاعة، والطاعة سياسة يقوم بها المُلْك، والملك راع يعضده الجيش، والجيش أعوان يكفلهم المال، والمال رزق تجمعه الرّعية، والرّعية سواد يستعبدهم العدل، والعدل أساس به قوام العالم. وقالوا: ينبغي للملك أن يتفقد أمر رعيته في كل شهر، وأمر خاصّته في كل يوم، وأمر نفسه في كل ساعة. وقال أبو منصور الثعالبي: إذا كان الملك واضح ميسم العدل، فارش مهاد الفضل باسط جناح البرّ، منبت نور المحبّة، ممتدّ ظلّ الهيبة، مالك عنان السياسة، فقد أرخ الزمان بحسن آثاره، وشقّ على الملوك شقّ غباره. ومن كلام بعض البلغاء: خير الملوك من كفى وكفّ، وعفا وعفّ. وقال الشاعر في بعض ولاية بني مروان^(١): [الطويل]

إذا ما قضيتم ليلكم بمنامكم وأفئّيتم أيّامكم بمدم

(١) الأبيات لأبي الوفا الديماطي، في تنمّة يتيمة الدهر، للثعالبي، ٨٨/٥.

فمن ذا الذي يغشاكم في ملّةٍ ومن ذا الذي يلقاكم بسلامٍ
رضيتم من الدنيا بأيسر بلغة بلثم غلام أو بشرب مُدامٍ
ألم تعلموا أنّ اللسان مُوكَّلٌ بمدح كرام أو بذمٍ لثامٍ

ويقال: ينبغي للملك أن يعمل بخصال ثلاثة: تأخير عقوبة المُسيء، وتعجيل ثواب المُحسن، والعمل بالأناة فيما صدت له؛ فإنّ في تأخير العقوبة إمكان العفو، وفي تعجيل ثواب المُحسن المسارعة بالطاعة، وفي الأناة انفساح الرأي واتّضاح الصواب. وسأل المأمون رسول الروم لما قدم عليه عن سيرة ملكهم، فقال: بذل عرفه، وسلّ سيفه، فاجتمعت عليه القلوب رغبةً، ولجأت إليه رهبةً، سهل التّوال، حزن التّكال، فالرجاء والخوف معقودان في يده؛ قال له: فكيف حكمه؟ قال: يردع الظالم، ويخنو على المظلوم، فالرّعية اثنان: راضٍ ومغتبط؛ قال: فكيف هيئته فيهم؟ قال: يتصوّر في القلوب فتحشع له الأبصار، فقال له المأمون: لله أبوك لقد أحسنت فيما وصفت. وما أحسن قول معاوية لمسلم بن زياد لما ولّاه خراسان: إن أباك كفاك أخاه عظيمًا، وقد استكفيتك صغيرًا، فلا تتكلن على عذرٍ مني فقد اتكلت على كفاية منك، وإيّاك مني قبل أن أقول إيتاي منك، فإن الظنّ إذا أخلف مني فيك أخلف منك فيّ، وأنت في أدنى حظك فاطلب أقصاه، وقد أتعبك أبوك فلا تريح نفسك. وقال أنوشروان: الناس ثلاث طبقات، نسوسهم ثلاث سياسات: طبقة هم خاصّة الأبرار نسوسهم بالعطف واللين والإحسان، وطبقة هم خاصّة الأشرار نسوسهم بالغلظة والعنف، وطبقة هم العامّة نسوسهم بالشّدّة واللين كيلا تخرجهم الشّدّة ولا يبطرهم اللين. وقال عبد الله بن طاهر^(١): [الطويل]

إذا كنتم للناس أهل سياسة فسوسوا كرام الناس بالرفق والبذل
وسوسوا لثام الناس بالذلّ يصلّحوا على الذلّ إنّ الذلّ أوفق للذلّ

وقال معاوية بن أبي سفيان: إني لا أضع سيفي حيث يكفيني سوطي، ولا أضع سوطي حيث يكفيني لساني، ولو أنّ بيني وبين العامّة شعرة لما انقطعت؛ قيل له: وكيف ذاك؟ قال: إن جذبوها أرخيتها، وإن أرخوها مددتها. وكان زياد إذا ولّى رجلاً عملاً، قال له: خذ عهدك فاختر لنفسك إن وجدناك أمينًا ضعيفًا

(١) البيتان بلا نسبة في محاضرات الأدباء، للراغب الأصبهاني، ص ٥٠٩.

استبدلنا بك لضعفك، وسلمتك من معرفتنا أمانتك، وإن وجدناك قويًا خائنًا استعنا بقوتك، وأحسنًا على خيانتك أدبك، وإن جمعت علينا الجرمين، جمعنا عليك المضرتين، وإن وجدناك قويًا أمينًا زدنا في عملك، ورفعنا ذكرك، وأوطأنا عقبك. وقالوا: إذا كان للمحسن من الحق ما لا يقنعه، وللمسيء من أليم العذاب ما يقمعه، بذل المحسن النصيح رغبة، وانقاد المسيء إلى الحق رهبة. ولا ينبغي لأحد من الملوك أن يعدل عن قول أردشير بن بابك المستفاد منه، والمستفاض عنه، وهو قوله لبعض موابدته: اعلم أن الملك والدين أخوان تَوْأمان لا قوام لأحدهما إلَّا بالآخر؛ لأن الدين هو أمن الملك وعِماده، والملك هو قائم سيف الدين ونجاده، ولا بدّ للملك من أسّ، ولا بدّ للدين من حارس، فإن مَنْ لا حارس له ضائع، وَمَنْ لا أسّ له مهذوم. واعلم أنه يجب على الملك وعلى الرّعية أن لا يكون للفراغ عندهم موضع، فإن التضييع في فراغ الملك، وفساد الملك من فراغ الرعية. ويقال: شيثان إن صَلُح أحدهما صَلُح الآخر: السلطان والرّعية. وقال المأمون: أسّوس الملوك مَنْ ساس نفسه لرعيته فأسقط عنه مواقع حجتها، وقطع مواقع حجتها عنها. كان الرشيد في بعض غزواته، فألَح عليه الثلج ليلة، فقال له بعض أصحابه: يا أمير المؤمنين أمّا ترى ما نحن فيه من الجهد والتّصبّ ووعْثاء السفر، والرّعية قارّة وادعة نائمة، فقال: اسكت فللرّعية المنام وعلينا القيام، ولا بدّ للرّاعي من حراسة الرعية، وتحمل الأذية، وإليه أشار بعض مدّاحه^(١): [الكامل]

غَضِبْتَ لغضبتك الصّوارم والقنا لما نهضت لنصرة الإسلام
ناموا إلى كُثف بعد لك واسع وسهرت تحرس غفلة النّوام

والعاقل مَنْ شغله عيبه عن عيب مَنْ سواه

ولم يطع في جواب السّففيه أمير هواه

قال رسول الله ﷺ: «طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس، وأنفق الفضل من ماله، ورحم أهل الذّلة والمُسْكنة، وخالط أهل الفقه والحكمة»^(٢). وقال عليه

(١) البيتان للشريف الرضيّ الموسوي، في المتحل، للثعالبي، ص ٥٤٤.

(٢) أخرجه الزُّبيدي في إتحاف السادة المتّقين ٤٣٨/٧، ٤٦٥، ٥٤٨؛ والمتقي الهندي في كنز العمال ٤٣٤٤٤.

الصَّلَاة والسلام: «لا تَتَّبِعُوا عورات المسلمين، فَإِنْ مَنْ تَتَّبَعَ عورة أخيه المسلم تَتَّبِعَ الله عورته، ومن تَتَّبِعَ الله عورته يُوشِكُ أَنْ يَفْضَحَهُ وَلَوْ فِي رَحْلِهِ»^(١). وقال أکثم بن صيفي: اشْتَرَّ غَيْبَ أَخِيكَ لِمَا تَعْلَمُ مِنْ نَفْسِكَ. وقالوا: أَحْمَقُ النَّاسِ مَنْ أَنْكَرَ مِنْ غَيْرِهِ مَا هُوَ مُقِيمٌ عَلَيْهِ. قيل للربيع بن خُثَيْم: مَا لَكَ لَا تَعِيبُ أَحَدًا؟ قَالَ: لَسْتُ عَنْ نَفْسِي رَاضِيًا فَاتْفَرَّغَ لِعُيُوبِ النَّاسِ وَمَذَامِهِمْ. وقالوا: مَنْ أَسْرَعَ إِلَى النَّاسِ بِمَا يَكْرَهُونَ، قَالُوا فِيهِ مَا لَا يَعْلَمُونَ، وَمَنْ تَتَّبَعَ مَسَاوِيءَ الْعِبَادِ فَقَدْ نَحَلَهُمْ عَرَضَهُ. قَالَ الشَّاعِرُ^(٢): [البسيط]

لا تكشفن من مساوي الناس ما سَتَرُوا فيكشف الله سترًا من مساويكما
واذكر محاسن ما فيهم إذا ذكروا ولا تُعِبْ أَحَدًا مِنْهُمْ بِمَا فِيكَما

وما أحسن قول القائل^(٣): [الطويل]

إذا شئت أن تحيا سليمًا مِنَ الْأَذَى ودينك موفور وعرضك صينُ
فلا ينتطق منك اللسان بسَوْأَةٍ فللناس سوءات وللناس ألسنُ
وعينك إن أبدت إليك مساوئًا لقوم فقل يا عين للناس أعيُنُ
فعاشر بإنصاف وكُنْ متوددًا ولا تَلَقَ إِلَّا بِأَلْتِي هِيَ أَحْسَنُ

وقالوا: فلان يصم أذنه عن الفحشاء، ويُخْرِسُ لسانه عن التكلّم بها. وقال الشاعر يمدح^(٤): [الطويل]

غني عن الفحشاء أما لسانه فعف وأما طرفه فكليلُ
آخر^(٥): [الطويل]

كريم له عينان عين عن الخنا تنام وأخرى في المكارم تسهرُ

(١) أخرجه أحمد في المسند ٤/٤٢١، والهيتمي في مجمع الزوائد ٨/٩٣، والسيوطي في الدر المنثور ٩٣/٦.

(٢) البتان لمحمود الزواق في ديوانه، من ثلاثة أبيات، والبيت الثالث:

واستعجّل بالله عن كل فإن به غني لكل وثق بالله يكفيكما

(٣) الأبيات للإمام الشافعي في ديوانه، من قصيدة من أربعة أبيات.

(٤) البيت بلا نسبة في التذكرة الفخرية، لبهاء الدين الإربلي، ص ٦٤١.

(٥) البيت لم أجده في المصادر والمراجع التي بين يدي.

آخر^(١): [الطويل]

وإذا تواخاك امرؤ بقبيحه فأجبه بالإحسان والإجمال
حُكِيَّ أَنَّ رَجُلًا عَابَ رَجُلًا عِنْدَ الْمَأْمُونِ، فَقَالَ لَهُ الْمَأْمُونُ: قَدْ اسْتَدَلَّلْنَا عَلَى
كَثْرَةِ عَيْبِكَ بِمَا تَذَكَّرُ مِنْ عَيْبِ النَّاسِ؛ لِأَنَّ طَالِبَ الْعَيْبِ إِنَّمَا يَطْلُبُهَا بِقَدْرِ مَا هِيَ
فِيهِ لَا بِقَدْرِ مَا فِيهِ مِنْهَا؛ وَقَالَ الشَّاعِرُ^(٢): [الطويل]

أَرَى كُلَّ إِنْسَانٍ يَرَى عَيْنَ غَيْرِهِ وَيُغْمَى عَنِ الْعَيْنِ الَّذِي هُوَ فِيهِ
وَمَا خَيْرٌ مِنْ تَخْفَى عَلَيْهِ عَيْبُهُ وَيَبْدُلُهُ بِالْعَيْبِ عَيْنَ أَخِيهِ
وَقَالَتْ رَابِعَةُ الْعَدَوِيَّةُ: الْإِنْسَانُ إِذَا نَصَحَ اللَّهُ فِي نَفْسِهِ أَطْلَعَهُ الْجَبَّارُ عَلَى
مَسَاوِيءِ عَمَلِهِ، فَيَتَشَاغَلُ بِهَا عَنْ خَلْقِهِ.

والعاقِل من جعل إغضائه عن المساوي

حصناً إليه من ذمّ اللّثام ياوي

يقال: ربما سخط العاقل فيبيدي الرضا، ويغضي مثل جمر الغضا. وقيل
ليزرجمهر: مَنْ أَعْقَلَ النَّاسَ؟ قَالَ: مَنْ لَمْ يَجْعَلْ سَمْعَهُ غَرَضًا لِسَمَاعِ الْفَحْشَاءِ،
وَكَانَ الْغَالِبَ عَلَيْهِ التَّغَافُلُ. وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ الصَّدِيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: مَنْ أَمْتَطَى زِمَامَ
التَّغَافُلِ مَلِكُ زِمَامِ الْمَرْوَةِ. وَقَالُوا: أَشْرَفَ الْكَرَمِ تَغَافُلُكَ عَمَّا تَعْلَمُ. وَيُقَالُ:
التَّغَافُلُ مِنْ الْكِرَامِ، يَمْنَحُهُمُ الْإِجْلَالُ وَالْإِكْرَامُ. أَنَشَدَ الْبَاخِرَزِي فِي الدِّمِيَّةِ لِأَبِي
الْفَضْلِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُحَمَّدٍ الْحَيَرِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى^(٣): [الكامل]

يَا مَنْ يَعْزِضُ بِالْخَنَا مَتَوْهَمًا جَهْلِي بِهِ مَهْلًا فَإِنَّكَ جَاهِلُ
كَمْ مَرَّةً أَغْضَيْتَ مِنْكَ عَلَى قَدْزَى لَوْلَا التُّهَى لَرَأَيْتَ مَا أَنَا فَاعِلُ

(١) البيت لم أجده.

(٢) البيتان بلا نسبة في ديوان المعاني، لأبي هلال العسكري، ص ١٥٦١؛ وروضة العقلاء، لابن حبان البستي، ص ٢٤٢؛ وعقلاء المجانين لابن حبيب النيسابوري، ص ١٠٤؛ ولسعدون المجنون في فوات الوفيات، لابن شاعر الكتبي، ص ٨٥٩، في ترجمته.

(٣) البيتان لم أجدهما في المصادر والمراجع التي بين يدي.

آخر^(١): [الطويل]

ويشتمني النذل اللئيم فلا أرى كفؤاً لعرضي عرضه فأجامله
أجر له ذيلي كأني غافل أضاحكه طوراً وطوراً أخاتله
وقيل لبعضهم: مَنْ العاقل؟ قال: الفطن المتغافل. قال الشاعر^(٢):
[الكامل]

أعرض عن العوراء إن أسمعته واسكت كأنك غافل لم تسمع
ولبعضهم مغرباً بكرمه، ومعرفاً بشيئمه^(٣): [الطويل]

وإني لأغضى عن أمور كثيرة ومن دونها قطع الحبيب المواصل
وأعرض حتى يحسب الناس أنني جهلت الذي آتي ولستُ بجاهل
آخر^(٤): [الطويل]

وأغضي عن العوراء حتى يقال لي بأذنيه وقرّ عندها حين ينطق
حياء وإكراماً لعرض أصونه ولا خير في عرض يظل يمزق
آخر^(٥): [مخلع البسيط]

دعي ملاحاة مَنْ هَجاني يا نفسُ إن تغفلي تُصاني
إذا حكيت البذا عليه فما هجاني سوى لساني

وأما ما قيل في التغاضي والاحتمال والكفّ عن جواب قبيح المقال

قالوا: أغفل الناس مَنْ لم يتجاوز الصمت في عقوبة السّفية. وقال بعض الحكماء: السكوت عن السّفية جواب، والإعراض عنه عقاب. قال الشاعر^(٥):

(١) البيتان لم أجدتهما.

(٢) البيت بلا نسبة في كتاب الأمثال، لأبي عبيد بن سلام، ص ٢١٢.

(٣) البيتان لابن كناسة في ديوانه، من قصيدة مطلعها:

إذا المرء يوماً أغلق الباب مرتجاً ليستر أمراً كنت كالمتغافل

(٤) البيتان لم أجدتهما في المصادر والمراجع التي بين يدي.

(٥) البيتان للإمام الشافعي في ديوانه، وهما بيتان منفردان.

[الوافر]

إذ نطق السفيه فلا تجبه فخير من إجابته السكوت
 فإن جاوبته فرجت عنه وإن خلّيته كمدًا يموت
 وقال بعضهم^(١): [الكامل]

لا ترجعن إلى السفيه حكاية إلا جواب تحية حياكها
 فمتى تحركه تحرك جيفة تزداد نتنا ما أردت حراكها
 آخر^(٢): [الطويل]

أرى الكف عن شتم السفيه تكرّمًا أضربه من شتمه حين يشتم
 وقالوا: إذا سكّت عن الجاهل فقد أوسعته جوابًا، وأوجعته عذابًا. ويقال:
 ثلاثة لا ينتصفون من ثلاثة: حليم من أحق، وبرّ من فاجر، وشريف من ذنيء.
 شاعر^(٣): [الطويل]

إذا أنت لم تعرض عن الجهل والخنا أصبت حليمًا أو أصابك جاهل
 فأصبحت إمانا عرضك جاهل سفيه وإمانا نلت ما لا تحاول
 وقال بعض الأعراب يمدح قومه^(٤): [الطويل]

تخالهم صمًا وعميًا عن الخنا وخُرسًا عن الفحشاء عند التهاجر
 ومرضى إذا لوقوا حياءً وعقّة وعند الحفاظ كالليوث الجواذر

(١) البيتان لأبي العتاهية في الكشكول، لبهاء الدين العاملي، وليس في ديوانه، وبلا نسبة في أمالي ابن الشجري، ص ١٢٠٦.

(٢) البيت للمؤمل بن أميل المحاربي في ديوانه، من قصيدة مطلعها:

أقاتلتي هندًا وقتلي محرمًا أما فيكم يا أيها الناس مسلم

(٣) البيتان لأوس بن حجر في ديوانه، من قصيدة مطلعها:

يا راكبًا إما عرضت فبلغن يزيد بن عبد الله ما أنا قائل

ولزهر بن أبي سلمى في ديوانه، من قصيدة مطلعها:

لسلمى بشرقي القنان منازل ورسم بصحراء اللبيين حائل

ولكعب بن زهير في ديوانه، من بيتين، هما:

وليس لما لا يركب الهوى بغية وليس لرحل حطّه الله حامل

إذا أنت لم تقصر عن الجهل والخنا أصبت حليمًا أو أصابك جاهل

(٤) الأبيات ليحيى بن زياد الحارثي في ديوانه، وهي أربعة أبيات.

لهم دلّ إنصاف ولين تواضع وعفو عن الموالى وحسن تصابر
تخال بهم داء يخافون عاره وما وصمهم إلا اتقاء المعاذير

والعاقِل من قنع من الدنيا باليسير وحصل فيها من التقوى زادًا للمسير

وصف رسول الله ﷺ الدنيا، فقال: «مَنْ صَحَّ فِيهَا سَقَمَ، وَمَنْ سَقَمَ فِيهَا بَرِمَ، وَمَنْ افْتَقَرَ فِيهَا حَزَنَ، وَمَنْ اسْتَغْنَى عَنْهَا فِتَنَ، حَلَالُهَا حَسَابٌ، وَحَرَامُهَا عِقَابٌ، وَمَتَشَابَهُهَا عِتَابٌ، مَنْ طَلَبَهَا فَاتَتْهُ، وَمَنْ قَعَدَ عَنْهَا أَتَتْهُ، وَمَنْ بَصُرَ بِهَا بَصَرَتَهُ، وَمَنْ نَظَرَ إِلَيْهَا أَعْمَتْهُ»^(١). ووصف ابن السَّمَاك الدنيا، فقال: مَنْ نَالَ مِنْهَا مَاتَ فِيهَا، وَمَنْ لَمْ يَنْلَ مِنْهَا مَاتَ عَلَيْهَا. ووصف محمد بن تومر الدنيا، فقال: لحظة بين عديمين فيها شركاء متشاكسون. وقال حكيم: الدنيا تُطْلَبُ لثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ: لِلغنى وللعزّ وللراحة، فمن قنع استغنى، ومن زهد فيها عزّ، ومن قلّ سعيه استراح. وقال عيسى عليه السلام: أنا الذي كَبَيْت الدنيا على وجهها، وجلست على ظهرها، فليس لي زوج تموت ولا دار تخرب. وقال ابن السَّمَاك: مَنْ جَرَعَتْهُ الدنيا حلاوتها بَمَيْلِهِ إِلَيْهَا، جَرَعَتْهُ الْآخِرَةُ مَرَارَتَهَا بِتَجَافِيهِ عَنْهَا. وقال عليّ رضي الله عنه: الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ كَالْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ، إِنْ قَرُبْتَ مِنْ أَحَدِهِمَا بَعُدْتَ عَنِ الْآخَرِ. وَيُرْوَى عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ ضَرْتَانِ مَتَى أَرْضَيْتَ إِحْدَاهُمَا أَسْخَطْتَ الْآخَرَى، ثُمَّ قَالَ: لَا بَلْ أُخْتَانِ وَلَا يُمْكِنُ الْجَمْعُ بَيْنَ الْأَخْتَيْنِ. وقال عليه الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «لَدُنْيَاكُمْ هَذِهِ أَهْوَنُ فِي عَيْنِي مِنْ عِرَاقٍ جَرَوْ فِي يَدٍ مَجْذُومٍ»^(٢). ويقال: عَيْنُ الدَّهْرِ تَطْرَفُ بِالْمَسَاوِيءِ، وَالْخَلَائِقُ نِيَامُ بَيْنَ أَجْفَانِهَا. وقال بعض المستقلين منها، وأحسن^(٣): [المنسرح]

أفْ لَدُنْيَا لَيْسَتْ تَوَاتِينِي إِلَّا بِنَقْضِي لَهَا عَرَى دِينِي
عَيْنِي لَجَنِبِي تَدِيرُ مُقْلَتَهَا تَرِيدُ مَا سَاءَ هَالِئُ دِينِي

مرّ محمد بن واسع على قوم فسأل عنهم، فقليل له: هؤلاء الزهاد، قال: وما قدر الدنيا حتى يُزْهَدَ فِيهَا. وقال عليّ رضي الله عنه: الدنيا جيفة فمن أرادها

(١) الحديث لم أجده بهذا اللفظ في كتب الحديث التي بين يدي.

(٢) ينسب القول لعليّ بن أبي طالب، ولفظه: «والله لدنياكم أهون في عيني من عراق خنزير في يد مجذوم». انظر ربيع الأبرار، للزمخشري، ص ٥٥.

(٣) البيتان لم أجدهما في المصادر والمراجع التي بين يدي.

فليصبر على مخالطة الكلاب. وقال منصور بن عمار: الدنيا أولها بكاء، وأوسطها عناء، وآخرها فناء. وقال لقمان لابنه: يا بني بئس دنياك بأخرتك تربحهما جميعاً، ولا تبغ آخرتك بدنياك فتخسرهما جميعاً. وقال الفضيل بن عياض: لو عُرِضَت عليّ الدنيا بحذافيرها حلالاً لا أحاسب عليها في الآخرة لكنت أتقذرها كما يتقذّر أحدكم الجيفة إذا مرّ بها أن تُصيب ثوبه. وقال: جُعِلَ الخير كلّهُ في بيت، وجُعِلَ مفتاحه الزُّهد في الدنيا. وقال يوسف بن أسباط: إنّ الدنيا لم تُخْلَقْ لِيُنْظَرَ إليها، إنما خُلِقَتْ لِيُنْظَرَ بها إلى الآخرة. وقال إبراهيم بن أدهم: مساكين الأغنياء طلبوا الراحة فعدموها، ووجدوا الزهاد فلزموها.

ومن المنظوم في ذلك^(١): [البسيط]

تبّاً لطالب دنيا لا بقاء لها	كإنما هي في تصريفها حلم
صفاؤها كدّر سراًؤها ضرر	أمانها غدر أنوارها ظلم
شبابها هرم راحاتها سقم	لذاتها ندم وجدانها عدم
لا يستفيق من الإنكاد صاحبها	لو كان ما منحت ما ضمنت إرم
فخلّ عنها ولا تتركّن لزهرتها	فإنها نعيم في طيها نقم
واعمل لدار نعيم لا نفاد له	ولا يخاف به موت ولا هرم

وقال بعض الزهاد، وأحسن^(٢): [الطويل]

ومن يحمد الدنيا لشيء يسره	فسوف لعمرى عن قليل يلومها
إذا أذبرت كانت على المرء حسرة	وإن أقبلت كانت كثيراً همومها

آخر^(٣): [السريع]

يا خاطب الدنيا إلى نفسه	لنته عن خطبها تسلم
إنّ التي تخطب غرارة	قريبة العرس من المأتم

(١) الأبيات لم أجدها في المصادر والمراجع التي بين يدي.

(٢) البيتان لعلي بن أبي طالب في ديوانه، وهما بيتان منفردان.

(٣) البيتان لأبي العتاهية في ديوانه، وهما بيتان منفردان.

وقال أحمد بن عبد ربّه صاحب العقد^(١) : [الطويل]

ألا إنّما الدُّنيا غصارة أيكة إذا اخضرّ منها جانب جفّ جانبُ
هي الدار ما الآمال إلا فجائعُ عليها وما اللذات إلا مصائبُ
فكم سخنت بالأمس عينٌ قريرةٌ وقرّت عيونٌ دمعها الآن ساكبُ
فلا تكتحل عيناك منها بعبرة على ذاهبٍ منها فإنك ذاهبُ

وذُكِرت الدنيا عند الحسن البصري، فقال^(٢) : [الطويل]

ألا إنّما الدنيا كأحلام نائم وما خير عيشٍ لا يكون بدائم
تأمل إذا حاولت بالأمس لذة فأقْنَيْتَها هل أنت إلا كحالمٍ

آخر^(٣) : [الرملي]

إنما الدُّنيا كظُلّ زائلٍ طلعت شمس عليه فاضمحَلّ
كان في دارٍ سواها داره علّته بالمُنى ثم ارتحل

آخر^(٤) : [الطويل]

لعمرك ما الدُّنيا بدارٍ إقامةٍ ولكنها دارُ انتقالٍ لمن عقلُ
إذا رفعت حطّث وإن هي أحسنت أساءت وإن أعطت فأَيّامها دُولُ

آخر^(٥) : [السريع]

مَزمومةٌ بالهمّ مخطومة سَمُ زعاق سمّ أخلافها
ولم تزل تقتل الألفها أُمَّ لقتالة الألفها

(١) الأبيات في يتيمة الدهر، للثعالبي، ٩/٢.

(٢) الأبيات لابن عبد ربّه الأندلسي في ديوانه، من ثلاثة أبيات، والبيت الثالث:

وما الموت إلا شاهدٌ مثل غائب وما الناس إلا جاهلٌ مثل عالمٍ

(٣) في ديوان عليّ بن أبي طالب بيتان قريبان منهما، وهما:

إنما الدنيا كظُلّ زائلٍ أو كضيفٍ بات ليلاً فارتحل

أو كطيفٍ قد يراه نائمٌ أو كبرقٍ لاح في أفقِ الأمل

(٤) البيت الأول للخريمي في ديوانه، وهو بيت منفرد.

(٥) البيتان لكاتب البرامكة أنس بن أبي شيخ، في الوافي بالوفيات، لصلاح الدين الصفدي، في

ويقال: ليس الزَّاهِد في الدنيا مَنْ زهد فيها وقد أعرضت عنه، وانْبَتَّ منه ولم تمكَّنه من متاعها، وضائق عليه مع اتِّساعها، وهو مضطرٌّ إلى ذلك لظهور عسرته، ونفود يسرته، وإنَّما الزَّاهِد في الدنيا مَنْ أقبلت عليه، وحشدت فوائدها إليه، وحسنت له في ذاتها، وأمكَّته من لذَّتها فأعرض عنها وزهد فيها. شاعر^(١):
[الطويل]

إذا المرء لم يزهد وقد جُمِعَتْ له ضروبٌ مِنَ الدنيا فليس بزاهدٍ
ويُروى عن النبي ﷺ أنه قال: «إنَّما الزَّاهِد في الدنيا مَنْ يكون بما في يد الله أغنى منك بما في يدك»^(٢).

وما أكثر إنصاف مَنْ قال^(٣): [الطويل]

نزاع بذكر الموت في حال ذكره ونعترض الدنيا فنلهو ونلعبُ
ونحن بنُو الدنيا خلقنا لغيرها وما كان مِنْها فهو شيء محبَّبُ
وقال بعض البلغاء: صاحب الدنيا ساكن راحل، وأيامه مراحل، وأنفاسه رواحل، صاحب الدنيا بين فرحة، وترحة، وحبرة، وعبرة، صاحب الدنيا بين العسل والصاب، والصحة والأوصاب. حُكي أن سليمان بن عبد الملك قال لعمر بن عبد العزيز، وقد أعجبه سلطانه: كيف ترى ما نحن فيه؟ فقال عمر: سرورٌ لولا أنه غرور، وحرَمٌ لولا أنه عدم، ومَلِكٌ لولا أنه هلك، وحياةٌ لولا أنه موت، ونعيمٌ لولا أنه عذاب أليم؛ فظهر في وجه سليمان الكآبة من كلام عمر ولم ينتفع بنفسه بعد ذلك، وتوفي في سنة ثمان وتسعين وهو ابن خمس وأربعين سنة، وكانت ولايته سنة ست وتسعين.

(١) البيت لأبي تمام في ديوانه، من قصيدة مطلعها:

قفوا جدِّدوا من عهدكم بالمعاهد وإن هي لم تسمع لنشيدان ناشد
ورواية البيت في الديوان:

إذا المرء لم يزهد وقد صيغت له بعصفرها الدنيا فليس بزاهدٍ
(٢) الحديث لم أجده بهذا اللفظ في كتب الحديث التي بين يدي.

(٣) البيتان لمحمد بن وهب الشاعر، في الوافي بالوفيات، لصلاح الدين الصفدي، في ترجمته.

الفصل الثالث من الباب الثالث

في أنَّ هفوات العقل لا يُغضى عنها ولا تُقال

كما قيل^(١): [الكامل]

لا يحقر الرجل الرفيع دقيقة لسهو فيها للوضيع معاذر
ذو العلم يعسر أن تُقال عثاره وتُقال عثرته الجهول العائر

ولسليمان بن عبد الملك فيما قصده كلام هو التور اللائح، والهادي إلى الطريق الواضح؛ وهو قوله: السكوت عما يعينك خيرٌ من الكلام فيما يضرك، والسكوت عما لا يضرك خيرٌ من الكلام فيما لا يعينك. وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: زلة الرجل تُجبر، وزلة اللسان لا تُبقي ولا تذر. قال بعضهم^(٢): [الطويل]

يموت الفتى من عشرةٍ من لسانه وليس يموت المرء من عشرة الرجل
وقالوا: طعن اللسان أنفذ من طعن السنان، وجرح الكلام أصعب من وقع السهام. وقالوا: رُب لسان أتى على إنسان.

ذكر مَنْ أرسل سهماً من فيه فأصاب مقتل ولم يكذب يخطئه

حُكي أنَّ رجلاً من الفرس وقف إلى شيرويه لما قتل أبرويز، فقال: الحمد لله الذي قُتل أبرويز على يدك وملُكك ما كنت أحق به منه وأراحنا من عتوه وكبره وتجبره وبخله وجهله، فإنه كان يأخذ بالإخنة، ويقتل بالظنة، ويخيف البري، ويدلّ السري؛ فلما سمع شيرويه كلامه قال للحاجب: احمله إليّ، فلما مثله بين يديه قال: كم كان رزقك؟ قال: ألفين، قال: والآن؟ قال: ما زيد شيئاً، قال: فما دعاك إلى الوقوع فيه، وإنما ابتداء نِعمتك من عنده ولم ترع له ذلك، وأمر بنزع لسانه من قفاه. ولما ظهر محمد بن عبد الله بن الحسن بن حسين بالمدينة في أيام أبي جعفر المنصور دخل عليه سديف بن ميمون، فأنشده أبياتاً يحرضه فيها على

(١) البيتان لم أجدتهما في المصادر والمراجع التي بين يدي.

(٢) البيت لعلي بن أبي طالب في ديوانه، من قصيدة مطلعها:

فلا تكثرن القول في غير وقته وأدمن على الصمت المزين للعقل

إظهار الدعوة ويطعن في دولة بني العباس، يقول فيها^(١): [البيسط]

إنّا لنأمل أن تتردّ ألفتنا بعد التبعد والشّخناء والإحن
وتنقضي دولة أحكام قادتها فينا كأحكام قوم عابدي وثن
فانهض ببيعتكم نهض ببيعتنا إنّ الخلافة فيكم يا بني حسن

فبلغت المنصور الأبيات، فكتب فيه إلى عبد الصمد بن عليّ، وكان عامله على مكّة، فأخذه وقطع يديه ورجليه وجذع أنفه، فلم يمّت فدفنه حيّاً. وكان دعبل الخزاعي هجاء للملوك جسوراً على أعراضهم متحاملاً لا يبالي ما صنع حتى عُرف بذلك واشتهر، فصنع على لسانه بكر بن حماد الباهري ممّن كان دعبل يؤذيه ويهاجيه أبياتاً يهجو فيها المعتصم وذكر قوم أنّها له، وهي^(٢): [الطويل]

ملوك بني العباس في الكتب سبعة ولم يأتنا عن ثامن لهم كتب
كذلك أهل الكهف في الكهف سبعة كراماً إذا عدوا وثامنهم كلب
وما أنت عندي في الوفاء ككلبهم لأنك ذو ذنب وما أذنب الكلب

فبلغت المعتصم الأبيات فأمر بطلبه، فهرب إلى زويلة بلد السودان بناحية المغرب، فمات بها، وقيل: بالأهواز؛ وقيل لدعبل: أنت القائل هذه الأبيات؟ قال: لا والله، ولكن من حشا الله قبره نازاً - يعني إبراهيم بن المهدي - أشاط بدمي لما هجّوته بقولي فيه، وهو خليفة^(٣): [السريع]

يا معشر الأعراب لا تقنطوا خذوا عطاياكم ولا تسخطوا
فسوف نعطيكم شريجة لا تدخل الكيس ولا تُربط
والمعبدات لقوادكم وما بهذا أحد يُغبط
وهكذا يرزق أصحابه خليفة مصحفه البربط

وكان المعتصم يلقّب بالثمانيّ؛ لأنه اتّفق له عدد الثمانية في كثير من أموره، وُلِدَ في شعر شعبان وهو الثامن من شهور السنة، وهي سنة ثمان وسبعين ومائة، وهو ثامن بني العباس مولداً، وثامنهم ولايةً، وكانت خلافته ثمان سنين وثمانية

(١) الأبيات في العمدة، لابن رشيّق القيرواني، ص ١٢٦.

(٢) الأبيات ليست في ديوان دعبل الخزاعي، ولم أجدها في المصادر والمراجع التي بين يدي.

(٣) الأبيات في ديوان دعبل الخزاعي، والبيت الأول هو مطلع القصيدة.

أشهر، وعمره ثمانًا وأربعين، وغزواته وفتوحاته ثمان، وقتل ثمانية أعداء، وخلف ثمان بنين، وثمان بنات، وترك ثمانمائة ألف دينار ومثلها دراهم إلى غير ذلك من عدد الثمانية.

رجع ما انقطع: ذكر أبو القاسم الإيادي أنّ جماعة من بني أمية دخلوا على أبي العباس السفّاح، وفيهم الغمر بن هشام بن عبد الملك، فألح إليه أبو العباس بالنظر، فلما رأى الغمر ذلك منه أنشده^(١): [الخفيف]

عبد شمس أبوك وهو أبونا لا نناديك من مكان سحيق
والقرايات بيننا واشجات محكمات العُرى بعقدٍ وثيق

فأعجبه ذلك منه، وأجلسه معه على السرير وأقعد أصحابه يمينًا وشمالًا، وقال لهم: إني أريد أن أخلطكم بنفسي وأستخلصكم لها، فشكروه على ذلك، فبينما هم يتحدثون إذ دخل عليهم سديف، فأنشد السفّاح القصيدة التي أولها^(٢): [الخفيف]

عمر الدين فاستبان مليًا

حتى أتى على آخرها، فقال السفّاح: يا ابن هشام، كيف ترى شاعرنا؟ فقال قولًا معجلًا لحينه: وأرباب بني أمية إن شاعرنا لأشعر من شاعركم، وأكثر بيانًا وأفصح لسانًا، فقال السفّاح: وما قال شاعركم؟ فقال^(٣): [البسيط]

لو تحمل البخت والأفيال مثقلة أحلامهم تركت عقرى الأباهير
لا يعبثون إذا سجت جحافلهم زين المجالس فرسان المنابير

فاحمرّت عينا السفّاح وهاجت به حمة كانت فيه قد سكنت، ثم ضرب على فخذ الغمر، وقال^(١): [الكامل]

طمعت أمية أن تجاوز هاشمًا عنها ويذهب زيدها وحسيئها
كلّا وربّ محمد ومليكه حتى يبيد كفورها وحرؤنها

(١) البيتان لم أجدهما في المصادر والمراجع التي بين يدي.

(٢) الشطر لم أجده في المصادر والمراجع التي بين يدي.

(٣) البيتان لم أجدهما.

ثم قال: قوموا إلى مقصورتكم، ثم دعا بثلاثة وسبعين رجلاً من أهل خراسان، فأعطاهم الخشب وقال: اشدخوهم، فشدخوهم عن آخرهم، قال سديف: والله ما خرجت من الأنبار حتى رأيتهم معلقين بعراقيبهم قد نهشت الكلاب رؤوسهم.

ولما بنى زياد بيضاء البصرة، وهي أول بناء بُني بالبحص والآجر بالبصرة أمر أصحابه أن يسمعوا من أفواه الناس ما يقولون فيها وَيُبْلَغُوهُ وَيَأْتُوهُ بِالْقَائِلِ، فَأَتَيْتُ بِنَاسٍ قِيلَ إِنَّهُ لَمَّا رَأَاهَا تَلَا قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿أَنْتَبُتُونَ بِكُلِّ رِيحٍ مَائَةً تَقْبُتُونَ﴾ [الشعراء: الآيتان ١٢٨، ١٢٩]، فقال زياد: ما حملك على هذا؟ قال: لم يكن أيها الأمير هذا عن قصد، وإنما خطرت على قلبي فتلاها لسانني، فقال: والله لأعملن فيك بباقي الآية: ﴿وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ [الشعراء: الآية ١٣٠]، وأمر به فبنى عليه ركن من أركانها. وكان أحمد بن يوسف الكاتب كثير السقطات وكان يُجالس المأمون، وكان المأمون إذا تبخر لا يستقصي البخور، وتخرج المجرمة بما يبقى فيها، فتوضع تحت الرجل، والرجل من الجلساء إكراماً لهم واعتناء بهم، فجاءت النوبة يوماً لأحمد بن يوسف، فقال: هاتوا المردود، فسمعه المأمون فقال: ألنا يقال هذا! ونحن نجيز رجلاً واحداً من خدمنا بعشرة آلاف درهم وأكثر؟ ويحك إنما قصدنا إكرامك أن أكون أنا وأنت اقتسمنا بخوراً واحداً، ولا يأبى الكرامة إلا لئيم؛ ثم أمر المأمون أن يطرح في المجرمة ثلاث مثاقيل من العنبر، ويبخر بها أحمد ويدخل رأسه في طوقه حتى ينفذ ريحها، ففعل به ذلك وهو يستغيث فلا يُغاث حتى احترق دماغه، وقام من المجلس إلى منزله فمات من ليلته.

وممن أسقط من العقلاء في كلامه فكان سبباً مؤكداً للومه وإيلامه

ذو الرمة فإنه وصف لعبد الملك بن مروان ذكاؤه وجودة شعره، فأحب أن يراه، فأمره بإحضاره، فلما دخل عليه استنشده، فأنشده قصيدته المذهبة وافتتحها بقوله^(١): [البسيط]

ما بال عينك منها الماء ينسكب كأنه من كلام فريه ينسرب

(١) البيت في ديوان ذي الرمة، وهو مطلع القصيدة، وفي الديوان: سَرِبْ، بدل: ينسرب.

وَاتَّفَقَ أَنْ كَانَتْ عَيْنَا عَبْدِ الْمَلِكِ يَسِيلَانِ دَائِمًا، فَظَنَّ أَنَّهُ عَرَّضَ بِهِ فِغْضُوبَهُ، فَقَالَ لَهُ: مَا لَكَ يَا ابْنَ الْخَنَاءِ وَلِهَذَا السُّؤَالُ؟ ثُمَّ قَطَعَ إِشْدَادَهُ وَأَمَرَ بِإِخْرَاجِهِ، فَأَقَامَ حَتَّى أَذِنَ لِلشَّعْرَاءِ مَرَّةً ثَانِيَةً فَدَخَلَ مَعَهُمْ وَقَدْ غَيَّرَ مَا قَالَ أَوَّلًا، وَأَنْشَدَهُ: [البسيط]

مَا بَالُ عَيْنِي مِنْهَا الْمَاءُ يَنْسَكِبُ

حَتَّى انْتَهَى إِلَى قَوْلِهِ^(١): [البسيط]

كَحَلَاءٍ فِي بَرْجٍ صَفْرَاءٍ فِي نَعَجٍ كَأَنَّهَا فَضَّةٌ قَدْ مَسَّهَا ذَهَبٌ

فَأَجَازَهُ وَأَكْرَمَهُ، وَقَالَ لَهُ: لَوْ أَنَّهَا قِيلَتْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ لَسَجَدَتْ لَهَا الْعَرَبُ.

وَدَخَلَ أَبُو النِّجْمِ الشَّاعِرُ عَلَى هِشَامِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ مَعَ الشَّعْرَاءِ، فَأَنْشَدَهُ أَرْجُوزَتَهُ الَّتِي أَوَّلَهَا^(٢): [الرجز]

الْحَمْدُ لِلَّهِ الْوُحُوبِ الْمُجْزَلِ

حَتَّى انْتَهَى إِلَى قَوْلِهِ يَصِفُ الشَّمْسُ: [الرجز]

وَهِيَ عَلَى الْأَفْقِ كَعَيْنِ الْأُخُولِ

وَلَمْ يَقُلِ الْأُخُولَ وَقَطَعَ إِشْدَادَهُ وَارْتَجَّ عَلَيْهِ وَعَلِمَ أَنَّهَا زَلَّةٌ عَاقِلٌ، فَخَشِيَ أَنْ تَكُونَ غَفْلَةً جَاهِلٌ؛ لِأَنَّ هِشَامًا كَانَ أُخُولَ، فَقَالَ لَهُ هِشَامُ: وَيْلَكَ أَتَيْمَ الْبَيْتِ، وَأَمَرَ بِوَجْءِ عُنُقِهِ وَإِخْرَاجِهِ مِنَ الرَّصَافَةِ؛ وَلَمَّا مَاتَ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ وَذَلِكَ فِي النِّصْفِ مِنْ شَوَّالِ سَنَةِ سِتٍّ وَثَمَانِينَ وَكَانَ عُمُرُهُ يَوْمَئِذٍ سِتِينَ سَنَةً وَأَيَّامًا، وَقِيلَ: اثْنَيْنِ وَسِتِينَ، وَكَانَتْ مَدَّةُ خِلَافَتِهِ إِحْدَى وَعِشْرِينَ سَنَةً وَأَيَّامًا سَجَّاهُ ابْنَهُ الْوَلِيدَ، فَأَنْشَدَهُ هِشَامُ أَخُوهُ^(٣): [الطويل]

فَمَا كَانَ قَيْسُ هَلَكِهِ هَلَكَ وَاحِدٌ وَلَكِنَّهُ بُنْيَانُ قَوْمٍ تَهْدِمَا

فَلَطَمَهُ الْوَلِيدُ عَلَى فَمِهِ، وَقَالَ: اسْكُتْ يَا ابْنَ الْأَشْجَعِيَّةِ، فَإِنَّكَ أُخُولَ أَكْشَفَ تَنْطِقُ بِلِسَانِ شَيْطَانٍ.

(١) انظر الحاشية السابقة.

(٢) الرجز في ديوان أبي النجم العجلي، وهو مطلع القصيدة.

(٣) البيت لعبد بن الطيب في ديوانه، ص ٨٧، من قصيدة مطلعها:

عليك سلام الله قيس بن عاصم ورحمته ما شاء أن يترخما

ودخل جرير بن عطية الخطفي على عبد الملك بن مروان بعد ما منعه من الدُخول عليه كراهة فيه وفي شعره، فأُشْد^(١): [الوافر]

أتصحوا أم فؤادك غير صاحي عشية هم قومك بالرواح

فقال له: بل فؤادك يا ابن اللّخناء، فحصر جرير وخرج خائبًا، وفي هذه القصيدة يقول مادحًا بما لم يأت أحد بمثله^(٢): [الوافر]

ألستم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطون راح

خاصم رجلًا خالد بن أبي صفوان، وكان قد كُفَّ بصره، فترافعا إلى بلال بن أبي بردة، وكان أمير الكوفة وقاضيهما، ف قضى على خالد، ثم مرّ به مركب بلال فسأل: من هذا؟ قالوا: بلال، فقام خالد وهو يقول^(٣): [الطويل]

سحابة صيف عن قليل تقشع

فسمعه بلال، فقال له: والله لا تقشع حتى يصيبك منها شؤبوب برد، ثم أمر به فضرب مائتي سوط وأمر بحبسه، فقال له خالد: علام تفعل بي هذا ولم أجنّ جناية؟ فقال بلال: يخبرك بذلك باب مصمت وأقياد ثقال وقيم يقال له حفص، ثم ضرب الدهر ضرباته، فنكب بلال بعد ذلك وأحضره يوسف بن عمر الثقفي عامل هشام في قيوده، وكان خالد جالسًا عنده، فقال له: أيها الأمير إن بلالًا عدوّ الله ضربني وحبسني ولم أفارق جماعة، ولا خلعت يدًا من طاعة؛ ثم التفت إلى بلال وقال: الحمد لله الذي أذلّ سلطانك، وهدد أركانك، وأزال جمالك، وغير حالك، فوالله لقد كنت شديد الحجاب مستخفًا بالشريف مظهرًا للمعصية، فقال بلال: يا خالد إنما استطلت عليّ بثلاث: الأمير عليك مقبل وعني مُعرض، وأنت طليق وأنا عانٍ، وأنت في وطنك وأنا غريب، فأفحمه.

(١) البيت في ديوان جرير، وهو مطلع القصيدة.

(٢) انظر الحاشية السابقة.

(٣) صدره:

أراها وإن كانت تحبّ كأنها

والبيت للكميّ بن زيد في ديوانه، وهو مطلع القصيدة.

ومن الهفوات الجارية مجرى التطير المؤذن لفظها بالزوال والتغير

قال علوية: كنت مع المأمون لما خرج إلى الشام فدخلنا دمشق، وجعلنا نطوف فيها على قصور بني أمية، فدخلنا قصرًا من قصورها فوجدناه مفروشًا بالرخام الأخضر كله، وفيه بركة يدخلها الماء ويخرج منها فيسقي روضة قد جمعت فيها أنواع الأشجار، وفي القصر من أجناس الطيار، وما يُغني صوتها عن العود والمزمار، فاستحسن المأمون ما رأى وعزم على الصبوح، فدعى بالطعام والشراب، فأكلنا وشربنا؛ ثم قال: غثني بأطيب صوت وألذه فلم يمرّ بخاطري غير هذا الصوت^(١): [المنسرح]

لو كان حولي بنو أمية لم ينطق رجال أراهم نطقوا فنظر إليّ مغضبًا، وقال: عليك وعلى بني أمية لعنة الله، فعلمت أنني قد أخطأت، فأخذت أعتذر من هفوتي، وقلت: يا أمير المؤمنين أتلومني أن أذكر بني أمية وزرياب عبدهم كان يركب في مائتي غلام ومملوك له وملك ثلاثمائة ألف دينار إلى غير ذلك من الضياع والأثاث، وأنا عبدكم أموت جوعًا، فقال: ما وجدت شيئًا تذكرني به نفسك غير هذا، ثم سكت ساعة وقال: اعدل عن هذا وغثني بما اقترحت عليك، فلم يحضرني غير هذا الصوت^(٢): [الكامل]

الحين ساق إلى دمشق ولم أرضى دمشق لأهلها وطنا فرماني بالقدح فأخطاني، وقال: قُم إلى لعنة الله وحرّ سقره، ثم قام وركب، فكان آخر عهدي به حتى مات، ومات المأمون لثلاث عشرة ليلة خلت من رجب سنة ثمان عشرة ومائتين، وكانت خلافته منذ قُتل الأمين محمد عشرين سنة وأشهرًا، وله من العمر ثمان وأربعون سنة، ومات المعتصم أيضًا في هذا العمر، وكانت ولايته ثمان سنين وثمانية أشهر، وكذلك عمر عبد الله بن طاهر، وتوفي في ربيع الأول سنة ثلاثين ومائتين، وكانت مدة إمارته بخراسان تسع عشرة سنة؛ ولما فرغ المعتصم من بناء قصره بالميدان جلس فيه مع جمع من أعيان جلسائه وندمائهم

(١) البيت لعبيد الله بن قيس الرقيّات في ديوانه، من قصيدة مطلعها:

تمنّعتني وادكار نصر بني عمي إذا حلّ جاري الرهق

(٢) البيت لعمر بن أبي ربيعة في ديوانه، وفي الديوان: «بلدا» بدل: «وطنا»، ومطلع القصيدة:

إنّ الخليط مودعوك غدا قد أجمعوا من بينهم أفدا

سرورًا به، فما رأى الناس أحسن من ذلك اليوم، فقام إسحق بن إبراهيم الموصلي وأنشده قصيدة يهته فيها أولها^(١): [الكامل]

يا دار غيترك البلى ومحاك يا ليت شعري ما الذي أبلاك

فتطير المعتصم وتغامز الناس، وعجبوا من بادرته وهفوته مع علمه وفهمه وطول خدمته للملوك، وقام المعتصم من ذلك المجلس متطيرًا، فذكر أنه لم يعد إليه بعد.

ومن قبيح ما وقع لأبي نواس الذي أساء فيه

أدبه وخالف به مذهبه

ما حكي أن جعفر بن يحيى البرمكي بنى دارًا وتأنق فيها وانتقل إليها، فدخل عليه أبو نواس مع من دخل إليه من الشعراء لهنائها؛ فأنشده^(٢): [الطويل]

أدار البلى إن الخشوع لبادي عليك وإنني لم أخنك ودادي
فمعدرة مني إليك بأن تري رهينة أرواح وصوت غوادي
ولا أدرا الضراء عنك بحيلة فما أنا منها قائل بسعادي
فإن كنت مهجور القنا فما رُمت نذا لهجر عن قوس المنون فؤادي
فإن كنت قد بدلت بؤسا بنعمة فقد بدلت عيني قذى برقادي
وختمها بقوله^(٣): [الطويل]

سلام على الدنيا إذا ما فقدتم بني برمك من راثحين وغاد

فتطير جعفر لها وأظهر الوجوم، ثم قال: نعت إلينا أنفسنا يا أبا نواس، فلم تكن إلا مدة يسيرة حتى أوقع بهم الرشيد. وزعم بعض أهل التاريخ: إن أبا نواس قصد التشاؤم لهم لشيء كان في صدره من الممدوح؛ وسبب ذلك أن أبا نواس دخل عليه يومًا فلم يهش له ولم يُذن مجلسه وكلح في وجهه، ثم دخل مسلم بن الوليد فهش له وأدنى مجلسه وأقبل عليه، فحمل أبا نواس وأغراه الحسد فعمل

(١) البيت في ديوان إسحق الموصلي، وهو مطلع القصيدة.

(٢) الأبيات في ديوان أبي نواس، والبيت الأول مطلع القصيدة.

(٣) انظر الحاشية السابقة.

هذه القصيدة على طريق التطير، وقال المبرد في الروضة: إنَّ أبا نواس عملها في الفضل بن يحيى.

وحكى الصابي في كتاب الهفوات أنَّ شرف الملك أبا سعيد الوزير جلس يوم عيد والناس يدخلون عليه يهتؤونه ويمدحونه، فأنشده أحد الشعراء من قصيدة يعاتبه^(١): [المنسرح]

وأنت حصني الذي ألُوذ به فماله قد تهدمت شُرْفُه

فتطير من ذلك لمناسبة شرفه بشرف الملك في لقبه، ثم أنشد آخر قصيدة أولها^(٢): [البسيط]

عقد الصيام بيوم الفطر محلول فقدّم الكأس فالقنديل معزول

فازداد تطيره وعجب الحاضرون من سوء ما اتَّفَق، فلما كان السابع من شوال قُبِض عليه.

مَنْ استدرك هفوة لسانه مِنَ العقلاء

ورد بالاعتذار عنه ما نزل به مِنَ البلاء

يُحْكِي أَنَّ المنصور قال: حججت سنة إحدى وأربعين ومائة، وأنا خليفة ماشياً لنذرٍ لزماني، فانفردت عن الناس، فإذا أنا بأعمى كنت أعرفه يتردّد إلى مروان بن محمد، فسلمت عليه وأخذت بيده، فقال: مَنْ أنت؟ قلت: رفيقك إلى الشام، وأنت تريد مروان بن محمد؛ فردّ عليّ السلام وأنشد^(٣): [الكامل]

آمت نساء بني أميّة منهم وبناتهم بمضيعة أيتام

نامت جدودهم وأسقط نجمهم والنجم يسقط والجدود نيام

خلت المنابر والأسرة منهم فعليهم حتى الممات سلام

فقلت له والغضب مُسْتَوِلٌ عليّ، والرفق به مشير إليّ: كم كان مروان أعطاك؟ قال: أغناني حتى لا أسأل أحداً بعده أبداً، ملّكني الغلمان والجواري

(١) البيت لم أجده في المصادر والمراجع التي بين يدي.

(٢) البيت لم أجده.

(٣) الأبيات للكميت في البيان والتبيين، للجاحظ ٢/٢٤٢، وليست في ديوانه، وهي لأبي العباس الأعمى في الأغاني ١٥/٥٨، ومروج الذهب ٣/٢٩٥.

والمال والعقار، قلت: وأين ذاك؟ قال: بالبصرة، قال المنصور: فلولا أن حق الصحبة منعني عنه كنت هممتُ به وشفيت نفسي منه، فقلت له: أتعرفني؟ قال: ما أثبتك معرفة ولا أنكرك من سوء، قلت: أنا المنصور، فأسقط في يده ووقعت عليه الرعدة، ثم قال: يا أمير المؤمنين أقلني جُبلت القلوب على حب من أحسن إليها، فأقلته وانصرفت، ثم طلبته بعد ذلك ليسامرنى فلم أجده، فكأن البيداء أبادته، قال أبو الفرج الأصبهاني: وهذا الأعمى هو أبو العباس بن السائب بن فروخ من بني الليث، وقيل: من بني الذئيل بن بكر له في بني أمية مدائح أجزلوا له بها المنائح، فمنها قوله^(١): [الوافر]

وكل خليفة وولي عهد لكم يا آل مروان الفداء
إمارتكم شفاء حيث كنتم وبعض إمارة الأمراء داء
وكنتم تحسنون إذا ملكتم وغيركم إذا ملكوا أساؤوا
هم أرض لأرجلكم وأنتم لأيديهم وأعينهم سماء
ولّى عمر رضي الله عنه رجلاً من قريش عملاً، فبلغه عنه أنه قال^(٢):
[الخفيف]

اسقني شربة الذلديها واسق بالله مثلها ابن هشام
فعرله، فلما قدم عليه قال له: أنت القائل - وأنشده البيت -؟ قال: نعم،
والقائل بعده^(٣): [الخفيف]

عسلاً بارداً بماء سحاب إنني لا أحب شرب المدام
فقال له عمر: قاتلك الله كذا قلت، وردّه إلى عمله.
وأتى عبد الملك بمصقلة بن هبيرة الشيباني، وكان ممن أخذ مع الخوارج
فأمر بقتله، وقال: ألسن القائل^(٤): [الطويل]

ومتا سويد والبطين وقعن ومتا أمير المؤمنين شبيب

(١) الأبيات لأبي العباس الزبيري، في العقد الفريد، لابن عبد ربه، ص ٥٢٣.

(٢) الخبر والشعر في كتاب الأذكياء، لابن الجوزي، ص ٢٣٣.

(٣) انظر الحاشية السابقة.

(٤) البيت لعتبان بن أصيلة، في ديوانه، من قصيدة مطلعها:

لعمري لقد نادى شبيب وصحبه على الباب لو أن الأمير يجيب

فقال: يا أمير المؤمنين إنما قلت أمير - وفتح الراء - فاستحسن ذلك منه وأطلقه؛ فانظر إلى حذق هذا الرجل سكن جأشًا بحركة أمد غمزة من أجلها بالبركة، وذلك بفتح الراء من كلمة، وجعل الهمزة حرف النداء، والمنادى المضاف منصوب أبدًا، وقبل هذا البيت^(١): [الطويل]

ألا أبلغ أمير المؤمنين رسالةً وذو النُصح ما ترعاه منك قريب
فإنك ألا ترض بكر بن وائل يكن لك يومٌ بالعراق عصيب
فإن يك منكم كان مروان وابنه وعمرو ومنكم هاشم وحبیب
فمنا سويد... البيت.

وقال الحجاج لعبد الرحمن بن أبي بكرة: ما مالك؟ قال: لقد ختمت على ألف ألف درهم، ثم إن عبد الرحمن بن أبي بكرة شعر بزلّة لسانه وخاف عائلة الحجاج، فتداركها مسرعًا وقال: ولقد أصبحت وما أملك إلا خاتمي.

وأُتي المأمون برجل ادّعى النبوة، فقال له: ما اسمك؟ قال: أنا أحمد النبي، فقال له: لقد ادّعت زورًا، ثم أمر به ليضرب لما رأى الرجل الأعوان قد أحاطت به، قال: يا أمير المؤمنين أنا أحمد النبي، فهل تدمّه أنت؟ فتدارك المأمون ما بقي من رمق المنة بالمنة، وأورى له زند المحبة بالمحنة، وهذا الفن كثير لا يُحصى، ولا يعزّ وجوده عند الاستقصاء.

(١) انظر الحاشية السابقة.

الباب الرابع

في الحمق

وفيه ثلاثة فصول:

الفصل الأول من هذا الباب

في ذمّ الجهالة والجنون وما اشتملا عليه منّ الفنون

قال رسول الله ﷺ: «لا تزوجوا الحمقاء، فإنّ صحبتها بلاء، وفي ولدها ضياع»^(١)، وفي حديث آخر: «لا تسترضعوا الحمقاء، فإنّ لبنها يغيّر الطّباع»^(٢). وقال عمر رضي الله عنه: لم يقم جنين في بطن حمقاء تسعة أشهر إلّا خرج الولد مائقًا. حدّ الحمق: قالوا: هو قلة الإصابة، ووضع الشيء في غير الموضع الذي وُضِعَ له. وقيل: هو فقدان ما يُخَمَد منّ العاقل. وقال أبو يوسف: الناس ثلاثة: مجنون، ونصف مجنون، وعاقل؛ فأما المجنون، فأنت منه في راحة لترك الاختلاط به، وأما نصف المجنون فأنت معه في تعب لضرورتك إليك، وأما العاقل فقد كُفيت مؤنّته.

فمن قولهم في ذمّ الحمق وإظهار خافيه وأنه داء عُضال لا يمكن تلافيه

إن رسول الله ﷺ قال: «الأحمق أبغض الخلق إلى الله تعالى؛ إذ حرمه أعزّ الأشياء عليه وهو العقل»^(٣). وقيل: أوحى الله تعالى إلى موسى عليه الصّلاة والسلام: أتدري لِمَ رَزَقْتُ الأحمق؟ قال: لا يا ربّ، قال: ليعلم العاقل أنّ طلب الرزق ليس بالاجتهاد. وقيل: مَنْ لا عقل له لا دين له، وَمَنْ لا دين له لا آخرة

(١) أخرجه الشوكاني في الفوائد المجموعة ١٣، وابن عراق في تنزيه الشريعة ٢/٢١٣، والفتني في تذكرة الموضوعات ١٢٧.

(٢) أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد ٤/٢٦٢.

(٣) الحديث لم أجده بهذا اللفظ في كتب الحديث التي بين يدي.

له. وقال الشعبي: إذا أراد الله أن يُزيل عن عبد نعمته، فإن أول ما يُغَيَّر منه عقله. وقالوا: الحمق داء دواؤه الموت. وقال الشاعر^(١): [البسيط]

لكل داء دواء يستطب به إلا الحمافة أغيت مَنْ يُداويها

وقال بعض الحكماء: لو جاز لوم الأحمق على أن يعقل جاز لوم الأعمى على أن يُنصر. ورؤي أن عسى عليه السلام أتى بأحمق ليداويه، فقال: أعياني دواء الأحمق ولم يُغَيِّنِي مداواة الأكمه والأبرص. وقال الشاعر^(٢): [الخفيف]

وعلاج الأبدان أيسر خطباً حين تعتلّ مِنْ علاج العقول

وقال معلم موسى الهادي له في معرض التقرير له: يا أحمق، فهشم أنفه، فسأله أبوه المهدي عن السبب، فقال: قال لي يا أحمق، ولو قال لي يا مجنون لاحتملته. وقال الشعبي: خطب الحجاج يوم جمعة فأطال، فقام إليه رجل أعرابي، وقال: إن الوقت لا ينتظرك وإن الرب لا يعذرك، فأمر به فحبس فأتاه أهله، وقالوا: إنه مجنون، فقال الحجاج: إن أقرّ بالجنون خلّيت سبيله، فجاء إلى الرجل أهله وسألوه أن يُقرّ له بالجنون، فقال: لا والله ولا أزعّم أن الله ابتلاني وقد عافاني، فبلغ الحجاج كلامه فعظم في نفسه وأطلقه. وقال الأصمعي: قلت لغلام من أبناء العرب: أيسرك أن يكون لك مائة ألف درهم وأنت أحمق؟ قال: لا والله، قلت: ولم؟ قال: أخاف أن يجني عليّ حمقي جناية تُذهب مالي ويبقى حُمقي. وقال سعيد بن عمار: مكتوب في التوراة أن مَنْ صنع لأحمق معروفاً، فهو خطيئة مكتوبة عليه. وقيل: إذا قيل لك: إن فقيراً استغنى، أو غنياً افتقر، أو حياً مات، أو ميتاً عاش، فصّدّق؛ وإذا بلغك أن أحمق استفاد عقلاً، فلا تصدّق. وقالوا: الأحمق تتمنى أمه لو ثكلته، وتتمنى زوجته أنها عدته، ويتمنى جاره منه الوحدة، ويريد جليسه منه الوحشة.

ومما اخترناه من حكم أولى التجارب في ذمّ التعرف بمن هو للنهي محارب

قول عبد الله بن عباس رضي الله عنه: مجامعة العاقل في الغلّ والوثاق خير من مجامعة الجاهل على السندس والإستبرق. وقال الأحنف بن قيس: إني

(١) البيت بلا نسبة في المستطرف، للأبشيهي، ص ٦٩.

(٢) البيت بلا نسبة في أخبار الحمقى والمغفلين، لابن الجوزي، ص ١٨.

لأجالس الأحمق ساعة، فأثبتن ذلك في عقلي. وقال لقمان لابنه: لا تُعاشِر الأحمق وإن كان ذا جمال، فإنه كالسيف حسن مخبره قبيح أثره. وقال الجاحظ: لا تُجالس الحمقى، فإنه يعلق بك من مجالستهم يومًا من الفساد ما لا يعلق بك من مجالسة العقلاء دهرًا من الصلاح، فإنَّ الفساد أشدَّ التحامًا بالطبائع. وقال بزرجمهر: مقاساة الأحمق عذاب الروح. وقال مسلم بن قتيبة: لا تطلب حاجتك إلى أحمق، فإنه يريد أن ينفعك فيضرك، فسكوته خير من نطقه، وبُعده خير من قُرْبِهِ، وموته خير من حياته. وقالوا: العاقل مرجوٌ خيره على كل حال، والأحمق مخوف شره على كل حال. وقالوا: صُحْبة العاقل في لجج البحار وأهوال القفار ألذَّ من صحبة الجاهل بين جنات وأنهار، وألوان أطعمة وثمار. وقالوا: صُحْبة الأحمق غدر، ومجاورته خطر، والبعد عنه ظفر. وقال الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه: هجران الأحمق قُرْبَة إلى الله تعالى. وقال ابن المعتز: إنَّ الأحمق ضالٌّ مُضِلٌّ، إن أونس تكبر، وإن أوحش تكدر، وإن استنطق تجلف، وإن ترك تكلف، مجالسته تضر، وموالاته تغر، ومقارنته شقاء، ومفارقته شفاء. وقال علي بن بسام^(١): [الكامل]

لا تياسن من اللبيب وإن جفا واقطع حبالك من حبال الأحمق
فعداوة من عاقل متجمل أولى وأسلم من صداقة أخرق
وقالت الحكماء: العاقل يضلّ عقله عند مجاورة الأحمق. وقالوا: مثل الأحمق كالثوب الخلق، إن رفأته من موضع تخرق من موضع آخر. وقال مسكين الدارمي^(٢): [الرمل]

اتق الأحمق لا تصحبه إنما الأحمق كالثوب الخلق
كلما رقت منه جانبًا حرّكته الريح وهنًا فانخرق
أو كصدع في زجاج فاسد هل ترى صدع زجاج يرتشق
وإذا عاتبته كي يزعوي زاد جهلاً وتمادى في الحمق
وقالوا: الأحمق كالرمل المنهار، كلما قومت منه جانبًا انهار عليك جانب آخر.

(١) البيتان في ديوان ابن بسام البغدادي، وهما بيتان منفردان.

(٢) الأبيات في ديوان مسكين الدارمي، والبيت الأول هو مطلع القصيدة.

ما يستدلّ به من ذميم الخلاق على خافي حمق الأهوج والمائق

قالوا: مما حكمت به التجربة أنّ مَنْ طالت قامته وصَغُرَت هامته وانسدلت
لحيته، كان حقيقاً على مَنْ يراه أن يُقرّئه عن عقله السلام. ابن الرومي يهجو
اللّحي^(١): [الخفيف]

إن تُطِلْ لحية عليك وتعرض فالمخالي مخلوقة للحميرِ
علّق الله في عذاريك مخلا ة ولكنها بغير شعيرِ
لو رأى مثلها النبي لأجرى في لحي الناس سنّة التقصيرِ
وقال آخر^(٢): [السريع]

صاحبنا الخياط ذو لحية كأنها في عرضها والكمال
ملحفة للهو مضروبة ووجهه من فوقها كالخيال

في التوراة: إنّ اللّحية مخرجها من الدماغ، فمن أفرط عليه طولها قلّ
دماغه، ومن قلّ دماغه قلّ عقله، ومن قلّ عقله فهو أحمق. وقالت أعرابية
لقاضٍ قضى عليها: صَغُرَ رأسك فبُعِدَ فهمك، وانسدلت لحيتك فانشمر عقلك،
وما رأيت ميتاً يقضي بين حيين غيرك. وقال المأمون: إذا طالت اللّحية تكوسج
العقل. وقال مسلمة بن عبد الملك يوماً لجلسائه: يُعرف حمق الرجل في أربع:
طول لحيته، وبشاعة كنيته، وإفراط شهوته، ونقش خاتمه؛ فدخل عليهم رجل
طويل اللحية، فقال لهم: أما هذا فقد أتاكم بواحدة، فانظروا أين هو من
الثلاث؛ فقبل له: ما كنيته؟ قال: أبو الياقوت، قيل: فما نقش خاتمك؟ قال:
وتفقد الطير، فقال: ﴿مَا لِي لَا أَرَى الْهَذْهَدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ﴾ [النمل: الآية
٢٠]، قيل: فأَيُّ الطعام أحبّ إليك، قال: الجلنجبين، وهو الورد المربّى، فأُشِدَّ
مسلمة^(٣): [البسيط]

ما بعد كنيته وطول لحيته ونقش خاتمه شكّ لمعتبر

(١) الأبيات في ديوان ابن الرومي، والبيت الأول هو مطلع القصيدة.

(٢) البيتان لم أجدهما في المصادر والمراجع التي بين يدي.

(٣) البيت لم أجده في المصادر والمراجع التي بين يدي.

وممن شهر بالعقل النافر وعرف بالحمق الوافر

المعلّمون: قال الجاحظ: قسم الله الحمق مائة جزء، فجعل منه تسعة وتسعين جزءاً في المعلمين، والجزء الآخر في سائر الناس. وقال الشاعر^(١):
[الطويل]

كفى المرء نقصاً أن يُقال بأنه معلّم صبيان وإن كان فاضلاً
آخر^(٢): [البسيط]

وإن أحمق خلق الله كلهم من كان بالفصل والتعليم مشغلاً
الله صاغهم حمقى وكوّنهم نوكى وأوجدهم بين الورى سفلاً
ذاعت حماقتهم في الناس واشتهرت بين البرية حتى أصبحوا مثلاً
وحكى الجاحظ، قال: مررت بمعلّم شاب حسن الهيئة، فجعلت أصدّد نظري ففهم عني، وأنشدني^(٣): [مجزوء الكامل]

ما طارت تحت الخافقي من أقلّ عقلاً من معلّم
ولقد جلسنا في الصنا عة من قريب ربّ سلم
فكأنما ألقم في حجرًا، فانصرفت وتركته. وكان الجاحظ كثيرًا ما ينشد:
[الطويل]

وكيف يُزجى العقل والرأي عند من يروح على أنثى ويغدو على طفل
ومن أمثالهم: أحمق من معلّم، ومن راعي ضأن. قال المتنبي^(٤): [السريع]
يموت راعي الضأن في جهله ميتة جالينوس في طبّه
والنساء: قالوا: لا تدع أم صبيك تؤدبه، فإنه أعقل منها وإن كانت أسنّ منه،
بل أدبه بزجره وهذبه بهجره. ويقال: عقل مائة صبي بعقل معلم، وعقل مائة

(١) البيت بلا نسبة في محاضرات الأدباء، للراغب الأصبهاني، ص ١٣١.

(٢) الأبيات لم أجدها في المصادر والمراجع التي بين يدي.

(٣) البيت بلا نسبة في معاهد التنصيص، لعبد الرحيم العباسي، ص ١٨٠٢.

(٤) البيت في ديوان المتنبي، من قصيدة مطلعها:

آخر ما الملك مُعزى به هذا الذي أثر في قلبه

معلم بعقل خصي، وعقل مائة خصي بعقل امرأة. ويكفي في ذمهن قول رسول الله ﷺ: «ناقصات عقل ودين»^(١)، وقوله لما بلغه أن الفرس ملكوا عليهم بوران: «لن يفلح قوم ولّوا عليهم امرأة»^(٢).

والخصيان: قال الجاحظ: في الخصي عشر خصال متضادة: لم يخرج من ظهر مؤمن، و يخرج من ظهره مؤمن، وهو أكثر الناس غيرة وأشدّهم قادة، وهو أضعف الناس معدة وأشدهم على الطعام، وهو أسوأ الناس أدباً ويُعلمهم الأدب، وهو أغزر الناس دمةً وأفساهم قلباً، ما خلا مع رجل إلا حدّثته نفسه أنه امرأة، ولا خلا مع امرأة إلا حدّثته نفسه أنه رجل. بعض الشعراء يذمّ الخصيان^(٣):
[الخفيف]

ليس حمد الخصيان في الناس إلا شدة الصبر عند سدّ الفجّاح
معشر أشبهوا القروود ولكن خالفوها في خفة الأرواح

وقد بالغ المتنبّي في هجو كافور الإخشيدي وتعداد معايبه وأوصافه، فلا حاجة إلى ذكرها في هذا المختصر، ولا بدّ من إيراد شيء منها؛ فمن ذلك قوله^(٤): [البسيط]

من أية الطّرق يأتي نحوك الكرم أين المحاجم يا كافور والجلّم
جار الأولى ملكت كفاك قدرهم فعزّفوا بك أن الكلب فوقهم
لا شيء أقبح من حرّ له ذكر تقوده أمة ليست لها رحم
وقوله^(٥): [البسيط]

العبد ليس لحرّ صالح بأخ لو أنه في ثياب الحرّ مولود

(١) أخرجه البخاري في الحيض باب ١٦، والزكاة باب ٤٤، ومسلم في الإيمان حديث ١٣٢، وأبو داود في السنة باب ١٥، والترمذي في الإيمان باب ٦، وابن ماجه في الفتن باب ١٩، وأحمد في المسند ٦٧/٢، ٣٧٣، ٣٧٤.

(٢) أخرجه البخاري في المغازي باب ٨٢، والفتن باب ١٨، والترمذي في الفتن باب ٧٥، والنسائي في الفضاة باب ٨، وأحمد في المسند ٤٣/٥، ٥١، ٣٨، ٤٧.

(٣) البيتان لابن الرومي في ديوانه، من قصيدة مطلعها:

قل لنجح أخطأت باب النجاح بل تعاطيته بلا مفتاح
(٤) الأبيات في ديوان المتنبّي، والبيت الأول هو مطلع القصيدة.

(٥) الأبيات في ديوان المتنبّي، من قصيدة مطلعها:

عيدُ بأية حالٍ عدت يا عيدُ بما مضى أم بأمرٍ فيك تجديدُ

لا تشتتر العبد إلا والعصا معه إن العبيد لأنجاس مناكيدُ
من علم الأسود المخصي مكرمة أقومه البيض أم آباؤه الصيدُ
أم أذنه في يد النحاس دامية أم قدره وهو بالفلسين مردودُ
أولى اللثام كفاً بغير مقدرة فلا جميل ولا عفو ولا جودُ
وذاك أن الفحول البيض عاجزة عن الجميل فكيف الخصية السودُ

قتب الله الشعراء ما أقل حفاظهم وأكثر ما تتفاوت بالكذب في المدح والذم
الفاظهم، يقول هذا بعد أن قال فيه وقد وصف خيلاً أركبها إليه^(١): [الطويل]

فجاءت بنا إنسان عين زمانه وختلت بياضاً خلفها وماقيا
قواصد كافور توارك غيره ومن قصد البحر استقل السواقيا

لقد باع من الوفاء علماً خطيراً، واعتاض من الطمع شيئاً يسيراً، وحال بينه
وبين العهد الوفاء، وكان يضايق نفسه في اختيار المتاع، ويسامحها في اختيار
المُبتاع، ويخلع خلعة تساوي بدرة، على عرض يساوي نقرة، ويرف كريمة من
كرائم شعره إلى مَنْ لم تقم عنه كريمة، ولم يُعرف له قيمة، لو رأى الطمع في
بحر النار لدخله، ولو أتاه الدرهم من دُبر كلب لأخذه وما غسله؛ فلا جرم أن
الناس كما استحسنا قوله، استقبحوا فعله، وكما أعجبوا بشعره، تعجبوا من
غدره، يشكر ثم يشكو، ويمدح ثم يهجو، ويشهد ثم يجرح شهادته، ويعطي ثم
يسترجع عطيته، فكم حرّ سلبه لخواه، وكم عرض جرّد عنه كساءه، ومن صحفة
أكل منها ثم شرق فيها، ومن طوية زهداها ثم عكف عليها.

وصف بعضهم الخصيان مادحاً لهم، فقال: هُمُ الأُمْناء على الحرم، البُعْداء
عن التُّهَم، ولهم التظرف والتلطف، والوقاء وقلة الضحك، وهم طراز الملك
وجمال الدول وعنوان النعم، وكثيراً ما أدّبوا أولاد الملوك، وهذبوهم وعرفوهم
طريق السياسات ودرّبوهم.

والحاكة، يقال: الحمق عشرة أجزاء: تسعة منها في الحاكة، وواحد في
سائر الناس. وقالوا: لو أن للحائك قرناً لنطح به. وسأل رجل الأعمش عن

(١) البيتان في ديوان المتنبي، من قصيدة مطلعها:

كفى بك داء أن ترى الموت شافيا وحسب المنايا أن يكن أمانيا

الصَّلَاة خلف الحائك، فقال: لا بأس بها على غير وضوء، قيل: فما تقول في شهادته؟ قال: تُقبل مع شاهدين عدلين. وقال الحسن البصري: مَنْ نظر في طراز حائك لم يرجع إليه عقله أربعين يومًا، والسبب في زوال عقولهم ما ذكر أن مريم عليها السلام ذهبت تطلب عيسى، وكان قد ضلَّ منها، فلقيت حائكا فسألته: كيف أخذ؟ فدلَّها على غير الطريق التي سلك، فقالت: اللَّهُمَّ تَوَّهه فلا يوجد إلَّا تائهاً، وفي رواية أنها قالت: اللَّهُمَّ اجعلهم سفلة الناس وأقلهم عقلًا. قيل لرجل من الحاكّة: هل في بلدكم حائك؟ قال: لا، قيل: فمن ينسج ثيابكم؟ قال: كلُّ منا ينسج ثوبه لنفسه، قيل له: فإذا كلَّكم حاكّة. قالوا: فلان مجنون وأجنّ منه لا يكون، فلان إذا رأيته نسيت مجنون بني عامر.

طرف مما ذمَّ به أهل الجهالة المتمسكون بغري الغواية والضلالة

يُحكى أن أبا الأسود الدؤلي قال: إذا أردت أن تقهر عالمًا، فأحضره جاهلًا. وقالوا: لا معيبة أعظم من الجهل، ولا صاحب أخذل منه. وقالوا: لا مصيبة أعظم من الجهل. وقالوا: الجهل في القلب كالأكلة في الجسد. وقال بزرجمهر: العالم كبير وإن كان صغيرًا، والجاهل صغير وإن كان كبيرًا. وقال جعفر بن محمد الصادق رضي الله عنهما: الأدب عند الجاهل كالماء في أصول الحنظل، كلما ازداد ريًا ازداد مرارة. وقال وهب بن منبه: يقال إن الجاهل إذا تكلم فضحه عيبه، وإذا سكت فضحه جهله، لا علم نفسه يُغنيهِ ولا علم غيره ينفعه، إن قال لم يُحسن، وإن قيل له لم يفقه. وذمَّ أعرابي رجلًا، فقال: إن أعرضت عنه اغتم، وإن أقبلت عليه اغتر، وإن حلمت عليه جهل عليك، وإن جهلت عليه حلم منك. البشامي يهجو جاهلًا^(١): [السريع]

لنا جليسٌ تاركٌ للأدب جليسه من نوكة في تعب
مخالف يغضب حال الرضا عمدًا ويرضى عند حال الغضب
كأنه من سوء تأديبه أسلم في كتاب سوء الأدب

وقال بزرجمهر: الجاهل عدو نفسه، فكيف يكون صديق غيره؟ وسئل أبو العيْناء عن مالك بن طوق، فقال: لو كان في بني إسرائيل وقعت قصّة البقرة ما

(١) البيتان الأول والثالث لمنصور بن إسماعيل الفقيه في ديوانه، وهما بيتان منفردان، والأبيات بلا نسبة في روضة العقلاء ونزهة الفضلاء، لابن حبان البستي، ص ٢٣٧.

دُبح غيره. شاعر يهجو جاهلاً^(١): [الخفيف]

ليس يدري مَنْ الجهالة مَنْ ذا دَوْر البعر في بطون الجمالِ
آخر^(٢): [الطويل]

يظنّ بأنّ الخمل في القطف نابت وأنّ الذي في باطن التين خردلُ

وقالوا: فلان لا يعرف اليمين من الشمال، ولا الجنوب من الشمال، ولا السماء من الأرض، ولا الطول من العرض، ينظر إلى العلم نظر المغشي عليه مِنْ الموت، إن أصاب أحجم، وإن أخطأ صَمَم. وقالوا: فلان خطؤه بعد اجتهدا، وصوابه عن غير اعتماد. وقال الشاعر^(٣): [الطويل]

يصيب ولا يدري ويخطيء وما درى وكيف يكون التوك إلا كذلكا

وقالوا: الجهل رأس الفضائح ومعدن القبائح ومضمار العثار، وهو الدليل على غلظ الطبع وجمود الخاطر وفساد التركيب واعتلال الذهن وكذب النفس وخبث الطّويّة. ويقال: أشدّ حوادث الدنيا عالم يجري عليه حكم جاهل. وكانت ملوك الفرس إذا غضبت على عالم وأرادت عقوبته حبسته مع جاهل. شاعر^(٤): [الكامل]

وإذا بليت بجاهلٍ متهكّم يجد المحال مِنْ الأمور صوابا

أولّيته مني السكوت وربما كان السكوت عن الجواب جوابا

وفي منشور الحكم: مَنْ عُرِف بالجهل، فهو لكل قبيحة أهل. وقالوا: لا يرى الجاهل إلا مُفَرِّطاً أو مُفَرِّطاً، يُسيء عمدًا ويحسن غلطًا. وقيل لبزرجمهر: ما لكم لا تُعاقبون الجهال على أن يعقلوا؟ فقال: إنّنا لا نكلّف العُمى بأن يُبصروا، ولا الصّم بأن يسمعوا. وقال بعض الحكماء: عمى الجهل أشدّ من عمى العين؛ لأنّ الأعمى يتوقع أن يعثر فيما ارتفع من الأرض، أو يسقط فيما انخفض منها،

(١) البيت بلا نسبة في محاضرات الأدباء، للراغب الأصبهاني، ص ١٢.

(٢) البيت بلا نسبة في ربيع الأبرار، للزمخشري، ص ٦١٨.

(٣) البيت بلا نسبة في محاضرات الأدباء، للراغب الأصبهاني، ص ١٠٠.

(٤) البيتان للنّاشئ الأصغر، في ديوانه، من قصيدة مطلعها:

إنّي ليهجرني الصديق تجنّباً فأريه أن لهجره أسبابا

والجاهل ربما عثر فيما لا يستقيل منه، ووقع فيما لا مخرج له عنه. ابن الرومي^(١): [البسيط]

كالنور عقلاً ومثل التيس معرفة فلا يفرّق بين الحقّ والفنّد
الجهل شخصٌ يُنادى فوق هامته لا تسأل الربع ما في الربع من أحدٍ

وقالوا: الجاهل يجني على نفسه، وليس شيء أحب إليه منها. استأذن رجلٌ من ثقيف على الوليد وعنده عبد الله بن جعفر الصادق، وهما يلعبان بالشطرنج، فستر عبد الله الشطرنج، فلما دخل الرجل وسلّم سأله الوليد عن حاله فأخبره، ثم قال له: أقرأت القرآن؟ قال: لا والله يا أمير المؤمنين، شغلني عنه أمور وهنّات، قال: أرويت من الحديث شيئاً؟ قال: لا والله يا أمير المؤمنين، قال: أتعرف الفقه؟ قال: لا والله يا أمير المؤمنين، فكشف عن الشطرنج وقال: شاهك يا أبا جعفر، فقال عبد الله: لو رفعت؟ فقال: لعب فما عندك أحد.

ومن صفات مَنْ عُدم خلال النهى واعتراه في عقله اختلال فوهى

إن تكلم عجل، وإن حدّث وهل، وإن استنزل عن رأي نزل، وإن حمل على باطل فعل. ومنّ علاماته: الغضب في غير شيء، والكلام في غير نفع، وإفشاء السرّ، والثقة بكلّ أحد، وأن لا يعرف صديقه من عدوّه. ومن علاماته: العجلة والخلفة والتواني والضياح والتفريط والغفلة والسهو. ومن علاماته: إن استغنى بطر، وإن افتقر قنط، وإن فرح أشر، وإن بكى خار، وإن ضحك نهق، وإن أعطيته كفر، وإن أعطاك منّ عليك. وقالوا: منّ علامات المائق: كثرة الالتفات، وسرعة الجواب، وتحريك الرأس إذا مشى، وإذا اعتبرنا هذه الخلال الرّذلة وجدناها في كثير من الناس، فلا نكاد نعرف العاقل من كثرة الالتباس؛ كما قال عليه الصّلاة والسّلام: «ليس من أحدٍ إلّا وفيه حمقة، فيها يعيش»^(٢). وقال وهب بن منبه: خُلِق ابن آدم أحمق، ولولا ذلك لما هتأه العيش.

(١) البيتان ليسا في ديوان ابن الرومي، ولم أجدتهما في المصادر والمراجع التي بين يدي.

(٢) الحديث لم أجده بهذا اللفظ في كتب الحديث التي بين يدي، وهو من قول علي بن أبي طالب. انظر أخبار الحمقى والمغفلين، لابن الجوزي، ص ١٩.

نادرة: قيل ليهلول: عُدْ لنا المجانين، فقال: هذا يطول، ولكني أعدّ العقلاء. نظر إلى هذا المعنى بعض الشعراء، فقال وأجاد^(١): [الوافر]

وما بقيت من اللذات إلا محادثة الرجال ذوي العقول
وقد كانوا إذا ذكروا قليلاً فقد صاروا أقلّ من القليل

الفصل الثاني من الباب الرابع

في ذكر النوادر الصادرة عن مجانين البادية والحاضرة
فمن شهر منهم بالملح وعُرف واستحسن كلامه النادر واستُظرف

جعفران، واسمه جعفر، وإنما صغر للتَّحبيب، وهو القائل في نفسه^(٢):

[المجتث]

ما جعفر لأبيه ولا له بشبيه
أضحى لقوم كثير فكلهم يدعيه
هذا يقول بني وذا يخاصم فيه
والأم تضحك منهم لعلمها بأبيه

وقال: إنّ هذه الأبيات وضعها في دعبل، فيكون قوله: ما دعبل لأبيه؛ والرواية الأولى هي التي رواها أبو الفرج الأصفهاني في كتاب الأغاني، وكان جعفران متشيعاً، قيل له يوماً: اشم فاطمة وخذ درهماً، قال: لا بل أشم عائشة وأخذ نصف درهم. واستقبلته امرأة صبيحة فبدر إليها وقبلها، فأكب الناس عليه يضربونه فأنشد^(٣): [مجزوء الخفيف]

علّقوا اللحم للبزا ة على ذروتني عدن

(١) البتان للخليل بن أحمد الفراهيدي في ديوانه، وهما بيتان منفردان.

(٢) الأبيات في ديوان جعفران الموسوس، وهي أربعة أبيات منفردة.

(٣) الأبيات ليست في ديوان جعفران الموسوس، وهي لأبي بكر الشبلي في ديوانه، وهي ثلاثة أبيات منفردة، ورواية الأبيات في الديوان:

طرحوا اللحم للبزا ة على ذروتني عدن
ثم لاموا البزا إذ خلّعوا عنهم الرسن
لو أرادوا صلاحنا ستروا وجهك الحسن

ثم لاموا المحب فيه ه على خلعه الرّسن
لو أرادوا عفاfe نقبوا وجهها الحسن

ووقف على عليّ بن إسماعيل الهاشمي، فقال له: أعطني درهماً، فأمر
الغلمان بطرده فطردوه فولّى، وهو يُنشد^(١): [السريع]

قد زعم الناس ولم يكذبوا أنك من غير بني هاشم
فقال لغلمانه: ردّوه وأعطوه درهمين، فأخذهما وانصرف وهو يُنشد^(٢):
[السريع]

قد كذب الله أحاديثهم يا هاشميّ الأصل من آدم
وحكى الجاحظ قال: كان جعيفران يماشي رجلاً فدفعه الرجل على كلب،
فقال له: ما هذا؟ قال أردت أن أقرنك به، قال: فمع من أنا منذ الغداة؟ وتشاجر
رجلان في رجل ادّعياه، قال أحدهما: هو من طفاوة، وقال الآخر: هو من بني
راسب، وتحاكما إلى جعيفران، فقال: ألقوه في الماء، فإن طفا فهو من طفاوة،
وإن رسب فهو من بني راسب، قال النسابون راسب بن سعدان بطن من الأزد،
وطفاوة من ولد أعصر وهو منبه بن سعد بن قيس عيلان، وهذه الحكاية نسبها
الميدانيّ في كتاب الأمثال لهبقة الليثي المضروب به المثل في التغفل والحمق.

ومن مشاهير مجانين الكوفة البهلول ذو العقل السقيم والذهن المفلول

وُلد لإسحق بن محمد الصباح بنت، فسأه ذلك وامتنع من الطعام
والشراب، فدخل عليه بهلول وقال: أيها الأمير ما هذا الجزع والحزن جزعت
لخلق سويّ وهبه الملك العليّ، أيسرك أن يكون مكانها ابن وأنه مثلي؟ فضحك
الأمير ودعا بالطعام والشراب، وأذن للناس بالدخول عليه للهناء. ومرّ بهلول يقوم
في أصل شجرة يستظلّون بفئتها، فقال بعضهم لبعض: تعالوا حتى نسخر من
بهلول، فلما اجتمعوا إليه، قال أحدهم: يا بهلول تصعد هذه الشجرة وتأخذ من
الدّراهم عشرة؟ قال: نعم، فأعطوه الدراهم فصرّها في كمّه، ثم قال: هاتوا سلماً،

(١) البيت لجعيفران الموسوس في عقلاء المجانين، لابن حبيب النيسابوري، ص ١٧٨، وليس في ديوانه.

(٢) انظر الحاشية السابقة.

فقالوا: لم يكن في شرطنا سلم، قال: كان في شرطي دون شرطكم. وسُئِلَ عن مسألة من الفرائض وهي رجل مات وخلف ابناً وبناتاً وزوجة ولم يترك من المال شيئاً، فقال: للابن اليُثم، وللبنات الثلث، وللزوجة خراب البيت، وما بقي من الهَم فللعصبة. وحمل عليه الصبيان يوماً فألجؤوه إلى دارٍ مفتوحة فولجها فوجد فيها قومًا وبين أيديهم مائدة فيها من أنواع الأطعمة ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين، فرجع وغلق الباب ودخل وهو يقرأ فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة، وظاهره من قبله العذاب. وتبعه الصبيان يوماً آخر، فالتجأ إلى دار بعض العلوتين، فرأى رجلاً ضخماً بصفيرتين، فقال: يا ذا القرنين إنَّ يأجوج ومأجوج مُفسِدون في الأرض، فهل نجعل لك خرجاً على أن تجعل بيننا وبينهم سداً، فخرج الرجل وأغلق الباب وحماه من الصبيان. وحمل عليه الصبيان يوماً، فألجؤوه إلى مضيق، فشذ عليهم بالقصبة، وهو يقول^(١): [البسيط]

إذا تضايق أمر فانتظر فرجاً فأضيق الأمر أدناه من الفرج

وسمع البهلُولُ مجنوناً يقول يوم عيد: يا أيها الناس إني رسول الله إليكم، فلطم وجهه وقال: ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه. وقال له الرشيد يوماً: مَنْ أَحَبَّ إليك؟ قال: مَنْ أَشْبَعَ بطني، قال: إني أشبعك، فهل تحبني؟ قال له: الحب لا يكون بالنسيئة. وأحضره يوماً وأجلسه في صحن الدار وجلست أم جعفر حيث لا يراها، وعيسى بن جعفر جالس مع الرشيد، فقال له الرشيد: عدّ لنا المجانين؟ فقال: أولهم أنا، والثاني هذه - وأشار إلى أم جعفر - فقال له عيسى: يا ابن اللّخناء تقول هذا لأختي؟ قال بهلول: وأنت الثالث يا صاحب العريضة، فقال الرشيد: أخرجوه، فقال بهلول: وأنت الرابع. وقال رجل لبهلُول: قد أمر الأمير لكل مجنون بدرهمين، فقال له: امضِ وخذ نصيبك لئلا يفوتك. وقيل: أيما أفضل أبو بكر أو عليّ؟ قال: أما وأنا في كندة فعليّ، وإذا كنت في بني ضبة فأبو بكر، وكندة في الكوفة من غلاة الشيعة، وبني ضبة أهل نصب وهم أصحاب الجمل.

(١) لأبي العتاهية بيت قريب منه، وهو:

خير المذاهب في الحاجات أنجحها وأضيق الأمر أدناه من الفرج
والبيت من قصيدة مطلعها: والناس في الدين والدنيا ذو فرج
والمال ما بين موقف ومختلج

نبد مما يجلب التسلي لقلب المحزون من الفكاهات المحكية عن عليان المجنون

ذُكر أنه وصف للمأمون فأمر بإحضاره، فلما مَثَّل بين يديه ازدراه وأمر به أن يجلس في مجالس العامة، ثم قال له: ما اسمك؟ قال: عليان، فضحك منه، فقال عليان: إن تسخروا مِنَّا فإننا نسخر منكم كما تسخرون فسوف تعلمون، فهابه المأمون وعظم في عينه بها. ومرَّ به رجل وهو يأكل تمرًا والصبيان يؤذونه، فقال للرجل: انظر إلى هذا التمر مِن رحمة الله، وهؤلاء الصبيان من عذاب الله. وتولَّع الصبيان به يومًا، قال له رجل هل لك في طردهم عنك؟ قال: نعم، وأنت منهم. ورآه رجل وهو يأكل تمرًا في السوق، فقال له: يا عليان أأكل في السوق؟ قال: مَنْ جاع في السوق أكل في السوق. ورآه مَنْ لا يعرفه، فقال له: أنت مجنون؟ فقال: كل الناس مجانين، ولكن حظي أوفر. وقال له رجل: ما الذي صيرك إلى ما أرى؟ قال: محتوم القضا. وقال له مَنْ لا يعرفه: أغريب أنت؟ قال: أمَّا عن العقل فنعم، وأمَّا عن البلد فلا. وأدخل بهلول على الرشيد وعنده عليان، فكلَّمهما فأغلظا له في القول وأمر بالنطع والسيف، فقال عليان: كنَّا مجنونين فصرنا ثلاثة، فضحك الرشيد وعفا عنهما. ومات أبوه وخلف ستمائة درهم، فأخذها القاضي وحَجَّر عليه ليختبر عقله، فجاءه بعد مدَّة فقال له: إنك حجرت عليَّ لَمَّا علمت أنني مُصاب في عقلي، وأنا جائع فادفع لي مائتي درهم حتى أقعد بها في أصحاب الخلقان أبيع وأشتري، فإن رأيت مني رشدًا جنحت إلى الباقي، وإن أتلفتها كان الذي أتلفت أقلَّ مما بقي، فأعطاه مائتي درهم فأخذها ولزم الحيرة حتى أنفقها، ورأى القاضي بعد ذلك، فقال: يا عليان ما صنعت بالدرهم؟ قال: أنفقتها، فليزن القاضي أعزَّه الله من ماله مائتي درهم ويردَّها إلى الكيس، حتى يرجع المال إلى ما كان عليه.

طُرِف من لطائف أخبارهم الأنيقة

ونُتِف من لطائف نواذرهم الرشيقة

حُكي أنَّ ثمامة بن أشرس قال: بعثني الرشيد إلى دار المجانين لأصلح ما فسد من حالهم، فرأيت فيهم شأبًا حسن الزِّي، كأنه صحيح العقل، فقال لي: يا ثمامة إنك تقول إنَّ العبد لا ينفك من نعمة يجب الشكر عليها، وبلية يجب الصبر

لديها، وأنت تُبيح المطبوع، أرأيت لو سكرت ونمت وقام إليك غلامك وأولج فيك مثل ذراع البكر، فقل لي أهذه نعمة يجب الشكر عليها، أو بلية يجب الصبر لديها؟ قال ثمامة: فلم أدر بماذا أجيبه، فقال: مسألة، قلت: ما هي؟ قال: متى يجد النائم لذة النوم، إن قلت في حال نومه فمُحال، وإن قلت إذا استيقظ فبعيد أن يجد لذة شيء انقضى ومضى، فبهت لا أحير جواباً؛ فقال: مسألة أخرى، قلت: وما هي؟ قال: إنك تزعم أن لكل أمة نذيراً، فما نذير الكلاب؟ قلت: لا أدري، فقال: أما الجواب عن المسألة الأولى، فيجب أن تقول: النعم ثلاثة: نعمة يجب الشكر عليها، وبلية يجب الصبر لديها، وبلية يجب الصبر عنها؛ فهذه من القسم الثالث، وهي البلية التي يجب الصبر عنها. وأما المسألة الثانية، فالجواب عنها أنها مُحال، لأن النوم داء ولا لذة مع وجود الداء. وأما المسألة الثالثة، وأخرج من كتمه حَجراً وقال: إذا عدا عليك كلب فهذا نذيره، ورماني بالحجر فأخطأني، وأصاب الأسطوانة، فلما رآه قد أخطأني قال: فإنك النذير يا أيها الكلب الحقيق، فعلمت أنه مجنون وأن عقله مُصاب، فتركته وانصرفت وقنعت من الغنيمة بالإياب.

وكان في بني أسد مجنون يسمى لغدان، فمرّ بقوم من بني تميم الله بن ثعلبة فعبثوا به، فقال: يا بني تميم الله ما أعلم في الدنيا خيراً منكم، قالوا: وكيف ذلك؟ قال: لأن بني أسد ليس فيهم مجنون غيري، وقد قيدوني وسلسلوني، وكلّكم مجانيين وليس فيكم مقيد. وكتب بعض المجانين إلى قيساوة: كتابي إليك لثلاث ساعات من ليلة الميلاد التي صبحها يوم المهرجان ودجلة تطفح بالماء هيا هيا والحجارة لا تزداد إلا كثرة والصبيان قلّلهم الله ويدد شملهم لا يزدادون إلا وقاحة، فإن قدرت أن لا تبیت إلا وحولك حجارة فافعل، واستعمل قول الله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: الآية ٦٠].

وركب بختيشوع المتطبّب مع المأمون، فتعلّق به مجنون وقال: أيها الطبيب جسّ نبضي فجسّه، وقال له: ما تشكّي؟ قال: الشبق، فقال له: خذ مسواك أراك وأدخله من وراك، فإنه صالح لذلك؛ فرفع المجنون فخذه وضرط، وقال: خذ هذا جزاك حتى نجرّب دواك، فإن كان صالحاً لذلك شكرناك وزدناك، ولا يكون لنا طبيب سواك، فخلج بختيشوع وضحك المأمون من كلام المجنون. ووقف صباح

الموسوس على قوم فسألهم شيئاً، فردّوه فولّى وهو ينشد^(١): [السريع]

أسأت إذ أحسنت ظنّي بكم والحزم سوء الظنّ بالناس

وقال بعضهم: رأيت مجنونين يتنازعان رغيفاً يؤثر كل واحد منهما صاحبه به وهما يتقاسمان عليه، فقلت لهما وأنا أظنّ أني أربح عليهما: أنا آكله إن لم تأكله، فقال أحدهما: يا أحق إن معه أدماً لا يسوغ إلّا به، قلت: وما هو؟ قال: ضيق الخنق، ووجع العنق، فولّيت عنهما فقالا: يا مجنون لولا غضاضة الأدم لأكلناه منذ حين. وسمع أبو الصقر المجنون سقاء يصيح في يوم حرّ: هذا يوم يسقى فيه الماء، فقال وأيّ يوم يُطعم فيه الخبز. وحكى عليّ بن الجهم الشاعر، قال: مررت بمجنون والناس مجتمعون عليه يعبثون به، فلمّا رأيّ قصدني دونهم وأخذ بعنان بغلتي، ثم أنشد^(٢): [مجزوء الكامل]

لا تحفلن بمعشر الهمج الذين تراهـم
فوحقّ من أبلى بهم نفسي ومن عافاهـم
لوقيس موتاهم بهم كانوا هموموتاهـم

ثم جال بطرفه في الحلقة، رأى فيها شاباً مليح الوجه حسن الهيئة، فوثب إليه ومزّق ما كان عليه، ثم نظر إلّـي وأنشد^(٣): [مجزوء الكامل]

هذا السعيد لديهم قد صار بي أشقاهـم

ووقف بعض المجانين على باب مسجد فبال، فأرادت العامة ضربه، فقال لهم: أرايتم لو بال ههنا حمار، أكنتم ضاربيه؟ قالوا: لا، قال: فهبوني حماراً، فإنه لا عقل لي، فرّقوا له وأطلقوه. وقال المبرد: دخلت دار المجانين فوقفت تجاه مجنون وأخرجت لساني، فحوّل وجهه عني، فجئت إلى الناحية التي حوّل وجهه إليها وأخرجت لساني، فحوّل وجهه إلى ناحية أخرى فجئت إليه وفعلتُ مثل ذلك، فلمّا أضجرتّه رفع رأسه إلى السماء، وقال: انظر يا بّ من حلّوا ومن ربطوا.

(١) البيت للعباس بن الأحنف في ديوانه، من قصيدة مطلعها:

يا فوز يا منيّة عباس قلبي يفدي قلبك القاسي

(٢) الأبيات في العقد الفريد، لابن عبد ربه الأندلسي، باب شعراء المجانين.

(٣) انظر الحاشية السابقة.

ما اختير من شعرهم الرقيق الجزل المنظوم في سلكه جواهر الجدّ والهزل

حدّث ابن حبيب في كتابه الذي صنّفه في أخبار عقلاء المجانين بإسناده إلى أبي إسحاق إبراهيم الأيلي، قال: رأيت غورثاً المجنون يوماً خارجاً من الحمام والصّبّيان قيام يضربونه ويؤذونه، وهو يبكي، فقلت له: ما خبرك يا أبا محمد؟ قال: آذاني هؤلاء الصّبّيان، أما يكفيني ما أنا فيه منّ العشق والجنون؟ قلت: ما أظنّك مجنوناً، قال: بلى والله وعاشق، قلت: وهل قلت في عشقك شيئاً؟ قال: نعم، ثم أنشد^(١): [الطويل]

جنون وعشق ذا يروح وذا يغدو فهذا له حدّ وهذا له حدّ
وقد سكنا تحت الحشى وتحالفا على مُهجتي أن لا يفارقها الجهدُ
وأَيّ طبيب يستطيع بحيلةٍ يعالج من داءين ما منهما بدّ

قال الأيلي: فولّيت عنه، قال: قف واسمع ما أقول، فإنّ شرح غرامي على الخليّ يطول، فوقفت فأنشد^(٢): [الوافر]

جنون ليس يضبطه الحديد وحبّ لا يزول ولا يبيدُ
فجسمي بين ذاك وذا نحيل وقلبي بين ذاك وذا عميدُ

ثم قال: انصرف ما سمعته يكفيك. وأخذ يوماً بيد المتهم بعشقه، فقال له المعشوق رجاء الخلاص منه: كيف أصبحت؟ فقال^(٣): [الكامل الأحد]

أصبحت منك على شفا جرف متعرّضاً للموارد التّلفِ
وأراك نحوي غير ملتفتٍ منحرفاً عن غير منحرفِ
يا مَنْ أطلال بهجره أسفي أسفي عليك أشدّ من تلفي

وحُكي أيضاً أنّ هارون الرشيد مرّ بدير في ظاهر الرّقة، فلما أقبلت مواكبه أشرف أهل الدّير ينظرون إليه، وفيهم مجنون مسلسل، فلما رأى هارون رمى بنفسه بين يديه، وقال: يا أمير المؤمنين قد قلت فيك أربعة أبيات أفأنشدك إياها؟ قال:

(١) الأبيات في كتاب عقلاء المجانين، لابن حبيب النيسابوري، ص ٢٣٥.

(٢) البيتان في عقلاء المجانين، ص ٢٣٦. (٣) انظر الحاشية السابقة.

نعم، فأنشده^(١): [مجزوء الكامل]

لحظات طرفك في العدا تُغنيك عن سلّ السيوف
وغريم رأيك في النُهى يكفيك عاقبة الصُروف
وسبول كَفْكَ بالندى بحرّ يفيض على الضّعيف
وضياء وجهك في الدُّجى أبهى من البدر المُنيف

ثم قال: يا أمير المؤمنين هات أربعة آلاف درهم أشتري بها كبيسًا وتمراً، فقال هارون: تُدفع له، فحُمِلت إلى أهله. وحُكي أيضاً: قال إدريس بن إبراهيم اللخمي: سمعني مجنون أنشد في يوم غَيم^(٢): [الطويل]

أرى اليوم يوماً قد تكاثف غَيمه وإقامته فاليوم لا شك ماطرُ
فقال بديهاً من غير روية^(٣): [الطويل]

وقد حجبت فيه السحائب شمسه كما حجبت ورد الخدود المعاجرُ
ومرّ إبراهيم بن المدبر بالأهواز وقد صرف عنها، فتعرّض له ماني الموسوس واسمه محمد بن القاسم فأخذ بلجام بغلته، وقال^(٤): [الرمل]

ليت شعري أي قوم أجذبوا فأغيثوا بك من طول العجف
نظر الله إليهم دوننا وحرمنا الذنب قد سلف
يا أبا إسحاق سِرْ في دَعَةٍ وامضِ محموداً فما عنك خلف
إنما أنت سحاب هاطلٌ حيثما صرّفه الله انصرف

فأمر له بستمائة درهم.

ونظر إليه إنسان وهو يأكل تمرًا ويبلع نواه، قال له: لِمَ لا ترمي نواه؟ قال: هكذا وزن عليّ. وقيل له: في كم يصير الإنسان مجنوناً؟ فقال: على قدر الصّبيان. ومن شعره^(٥): [الخفيف]

زعموا أنّ من تشاغل بالـ ذّات يوماً عن حبّه يتسلّى

(١) الأبيات في عقلاء المجانين، ص ٢٧٤. (٢) انظر عقلاء المجانين، ص ٢٧٧.

(٣) انظر الحاشية السابقة.

(٤) الأبيات في المذكرة في ألقاب الشعراء، للنشابى الإربلي، ص ٤٢٦.

(٥) الأبيات لابن الزيات في ديوانه، من قصيدة من أربعة أبيات، مطلعها:

ليت شعري عن أملح الناس دلاً أمقيم لنا على العهد أم لا

كذبوا والذي تُساق له البُذُّ نٌ ومن دار بالطواف وصلَّى
 إنَّ نار الهوى أحرَّ من الجمِّ برَّ على قلب عاشقٍ يتقلَّى
 وأخبار ماني أحلى من مسامرة الأمانى، لكن استيفاؤها ربما يخرج عن
 الغرض، ويبدل جوهر ما شرطناه بالعرض.

وحكى المبرّد قال: خرجنا من بغداد إلى واسط، فمِلْنَا إلى دير هرقل ننظر
 إلى المجانين، فنظرنا إلى فتى منهم ناحية عنهم، فمِلْنَا إليه، وسَلَّمْنَا عليه، فلم يردَّ
 علينا السلام، فقلنا له: ما تجد؟ فقال^(١): [أحدّ الكامل]

الله يعلم أنني كَمِدتُ لا أستطيع أبث ما أجدُ
 روحان لي روحٌ تضمنها بلدٌ وأخرى حازها بلدُ
 وأرى المقيمة ليس ينفعها صبرٌ وليس يفوتها جلدُ
 وأظنّ غائبتي كشاهدتي بمكانها تجد الذي أجدُ

فقلنا له: أحسنت، فأوماً بيده إلى شيء ليرمينا به فولّينا هاربين، فقال:
 سألتكم بالله إلّا ما رجعتم حتى أنشدكم، فإن أحسنت قلتُم أحسنت، وإن أسأت
 قلتُم أسأت، قال: فرجعنا، فقلنا له: قل، فأنشدنا^(٢): [البسيط]

لَمَّا أناخوا قُبَيْل الصُّبح عَيْسَهُم ورخلوها وسارت بالدعى الإبلُ
 وقلبت من خلال السجف ناظرها ترنو إليّ ودمع العين ينهملُ
 وودّعت ببنان زانها عتم ناديت لا حملت رجلاك يا جملُ
 وَيَلي مِنَ الْبَيْنِ ويل حلّ بي وبها مَنْ نازل الْبَيْنِ جدّ الْبَيْنِ وارتحلوا
 يا حادي العيس عزّج كي نوّدعهم يا راحل العيس في تَزْحالِكَ الأجلُ
 إني على العهد لم أنقض مودّتهم يا ليت شعري لطول الدَّهر ما فعلوا

قال: فقلنا له: ماتوا، فصاح وقال: وأنا والله أموت، واستلقى على ظهره
 وتمدّد فمات، فما بَرَحْنَا حتى دفّناه رحمة الله عليه.

(١) الأبيات لشمروخ في ديوانه، وهي أربعة أبيات مفردة.

(٢) الأبيات لماني الموسوس في ديوانه، والقصيدة من ستّة أبيات، وهي هذه.

الفصل الثالث من الباب الرابع

في احتجاج الأريب المتحاقق على أن الحمق أذكى الخلائق

قال الله تعالى: ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَتَعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا أَفْعَدَتْهُمْ مِّنْ شَيْءٍ﴾ [الأحقاف: الآية ٢٦]، عبّر بالأفئدة وهي القلوب عن العقول لأنها مقرّها. وقال النبي ﷺ: «يُحَاسِبُ اللَّهُ النَّاسَ عَلَى قَدْرِ عَقُولِهِمْ»^(١)، وفي طريق آخر: «إِنَّ اللَّهَ يَحَاسِبُ كُلَّ امْرِئٍ عَلَى مَدَارِ عَقْلِهِ»^(٢). وفي بعض الآثار: ما جعل الله لرجل عقلاً وافراً إلا احتسبه عليه من رزقه، وقيل: مَنْ زِيدَ فِي عَقْلِهِ نَقَصَ مِنْ رِزْقِهِ.

ما قيل في أنّ لذادة العيش لا تحصل إلا بالجهالة والطّيش

ذُكِرَ أَنَّ بَعْضَ الْحُكَمَاءِ سُئِلَ: مَنْ أَقَرَّ النَّاسَ عَيْنًا وَأَحْسَنَهُمْ حَالًا وَأَطْيَبَهُمْ عَيْشًا وَأَنْعَمَهُمْ بَالًا؟ فَقَالَ: مَنْ كَفِيَ أَمْرَ دُنْيَاهُ وَلَوْ لَمْ يَهْتَمْ لِآخِرَتِهِ. أَخَذَهُ الْمُتَنَبِّي، فَقَالَ^(٣): [الكامل]

تصفو الحياة لجاهل أو غافل عمّا مضى فيها ولا يتوقّع
ولمن يغالط في الحقيقة نفسه ويسومها طلب المحال فتطمع
ولأبي بكر الكاتب^(٤): [السريع]

من رُزِقَ الحمق فذو نعمة آثارها واضحة ظاهرة
يحطّ ثقل الهَمّ عن نفسه والفكر في الدنيا وفي الآخرة

وقال حكيم: ثمرة الدنيا السرور، ولا سرور للعقلاء. وقال الشاعر^(٥):

[السريع]

الروح والراحة في الحمق وفي زوال العقل والخرق
فمن أراد العيش في راحة فليلزم الجهل مع الحمق

(١) الحديث لم أجده بهذا اللفظ في كتب الحديث التي بين يديّ.

(٢) الحديث لم أجده.

(٣) البيتان في ديوان المتنبي، من قصيدة مطلعها:

الحزن يقلق والتجمل يردع والدثم بينهما عصي طيع

(٤) البيتان لأبي علي كاتب بكر في محاضرات الأدباء، للراغب الأصبهاني، ص ١٠.

(٥) البيتان بلا نسبة في عقلاء المجانين، لابن حبيب النيسابوري، ص ٦١.

وَمِنْ أَمْثَالِهِمْ: مَا سُرَّ عَاقِلٌ قَطُّ. وَقَوْلُهُمْ: الْهَمُّ وَالْعَقْلُ لَا يَفْتَرِقَانِ. وَقَوْلُهُمْ: اسْتِرَاحَ مَنْ لَا عَقْلَ لَهُ. وَقَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ: الْعَاقِلُ فِي رِبْقَةٍ مَنْ عَقْلُهُ تَحْجِبُهُ عَنِ اللَّذَاتِ، وَتَصَدِّهِ عَنِ الشَّهَوَاتِ، فَمَتَى جَرَى عَلَى حُكْمِ الْبَشَرِيَّةِ، فَأَطَاعَ هَوَاهُ وَاتَّبَعَ غَرَضَهُ وَمُنَاهُ. قِيلَ: زَلَّةٌ عَاقِلٌ وَهَفْوَةٌ ذَاكِرٌ، فَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شَرِّهِمَا وَنَرْغَبُ إِلَى اللَّهِ فِي الْكَفَايَةِ مِنْهُمَا. وَقَالَ الشَّاعِرُ^(١): [الطويل]

أَرَى الْعَقْلَ بؤْسًا فِي الْمَعِيشَةِ لِلْفَتَى وَلَا عَيْشَ إِلَّا مَا حَبَاكَ بِهِ الْجَهْلُ

وَقَالُوا: الْجَاهِلُ لَا يَنَالُ أَغْرَاضَهُ وَيُظْفِرُ بِآرَابِهِ وَيُطِيعُ قَلْبَهُ وَيَجْرِي فِي عَنَانِ هَوَاهُ، وَهُوَ بَرِيءٌ مِنَ اللَّوْمِ سَلِيمٌ مِنَ الْعَيْبِ، تُغْفَرُ زَلَّاتُهُ، وَتَتَعَمَّدُ هَفْوَاتُهُ. وَقَالَ آخَرُ: الْجَاهِلُ رَخِيٌّ الذَّرْعُ، خَالِي الْبَالُ، عَازِبُ الْهَمِّ، حَسَنُ الظَّنِّ، لَا يَخْطُرُ خَوْفُ الْمَوْتِ بِفِكْرِهِ، وَلَا يَجْرِي أَلَمُ الْإِشْفَاقِ عَلَى ذِكْرِهِ. وَقَالُوا: الْجَهْلُ مَطْيَبَةُ الْمَسْرِةِ وَالْمَرَاكِحِ، وَمَسْرَحُ الْفَكَاهَةِ وَالْمَزَاحِ، وَحَلِيفُ الْهَوَى وَالتَّصَابِي، صَاحِبُهُ فِي زَمَانٍ مِنْ عَهْدَةِ اللَّوْمِ وَالْعَتَبِ، وَأَمَانٌ مِنْ قَوَارِصِ الذَّمِّ وَالسَّبِّ. وَقَالَ الشَّاعِرُ^(٢): [الخفيف]

وَرَأَيْتُ الْهَمُومَ فِي صَحَّةِ الْعَقْدِ لَمْ فِدَاوَيْتُهَا بِإِمْرَاضِ عَقْلِي

وَقَالَ الْمَغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ: مَا الْعَيْشُ إِلَّا فِي إِقَاءِ الْحَشْمَةِ.

وَمِنْ احْتِجَاجِ مَنْ أَطْلَقَ نَفْسَهُ مِنْ عِقَالِ الْعَقْلِ

وَأَلْقَى عَصَاهُ عَامِدًا فِي يَتْدَاءِ الْجَهْلِ

قَوْلُ بَعْضِهِمْ: لَمَّا كَانَ الْعَقْلُ فِي الْمَعْنَى ذَائِدًا عَنِ الْآرَابِ، وَحَائِلًا دُونَ الْأَعْرَاضِ، جَعَلَ اسْمُهُ مَأْخُودًا مِنْ لَفْظَةِ الْعَقَالِ، فَكَمَ بَيْنَ الطَّلِيقِ وَالْعَانِي وَلَيْنِ الْمَعْقُودِ مِنَ الشَّارِدِ، وَهَلْ مِنْ يَتَصَرَّفُ عَلَى اخْتِيَارِهِ وَيُجِيبُ دَاعِيَ أَهْوَائِهِ كَمَنْ يُفْسِرُ وَيُخْصِرُ، وَيُكْرَهُ وَيُجْبِرُ. وَقَالُوا: لَوْ لَمْ تَكُنْ فَضِيلَةُ الْجَهْلِ غَيْرَ الْإِقْدَامِ وَوُرُودِ الْحَمَامِ؛ إِذْ هُمَا عَيْنُ الشَّجَاعَةِ وَالْبَسَالَةِ، وَسَبَبَانِ لِتَحْصِيلِ الرِّفْعَةِ وَالْجَلَالَةِ؛ وَقَالَ

(١) البيت للبحراني في ديوانه، من قصيدة مطلعها:

ضمان على عينيك أني لا أسلو وأن فؤادي من جوى بك لا يخلو

(٢) البيت بلا نسبة في نهاية الأرب، للنويري، ص ٢٢٢٧.

شاعرهم^(١): [البسيط]

ما لي وللعقل لا استصحبته أبداً فالعقل ينزل دار الذلّ والهون
لقد تعاقلت دهرًا لا أرى فرجًا ومذ تحامقت صار الناس يدنوني
وقال يحيى بن أكثم: ما رأيت العقل قطّ إلا خادماً للجهل. وقالوا: كم
عاقل آخره عقله، وجاهل صدره جهله. وقال الشريف أبو يعلى بن الهبارية^(٢):
[الطويل]

تجاهلت لما لم أرَ العقل شافعًا وأنكرت لما كنت بالعلم ضائعًا
وما نافعي عقلي وفصلي وفطنتي إذا بتّ صفر الكفّ والبطن جائعًا
وما أحسن قول عبد الله بن المعتز في هذا المعنى مع زيادة للمصنّف: العقل
كالمرأة المصقولة يرى صاحبها فيها مساوىء الدنيا، فلا يزال في صحوه مهمومًا
متعذّر السرور حتى يشرب الخمر، فإن أكثر منها غشيه الصداً كله حتى لا تظهر
تلك المساوىء فيفرح ويمرح. والجهل كالمرأة الصديّة لا يرى صاحبها إلا مسرورًا
أبداً قبل الشرب وبعده.

من هنا للمصنّف: فالعاقل يستدعي حالة الجهل إلى نفسه لترادف الهموم
عليه في العواقب، والغرض في اكتساب المحامد والمناقب، فإذا ضاق بها ذرعًا،
ولم يستطع لردائها نزعًا، احتال على ذهابها بالشراب ليخلّ عنه عقاب الهموم
والأتراح بأيدي المسرات والأفراح. ومن مستطرف ما نظم في هذا المعنى قول أبي
معاذ بشار بن بُرْد^(٣): [الرجز]

لما رأيت الحظَّ إحطَّ الجاهل والعيش في الدنيا لغير العاقل
رحلت عيسًا من كرائم بابل فغدوت من عقلي ببعد مراحل

(١) البيتان لم أجدهما في المصادر والمراجع التي بين يدي.

(٢) البيتان في خريدة القصر، للعماد الأصبهاني، ص ٥٥٥.

(٣) الرجز في ديوان بشار بن برد، وهما بيتان منفردان، ورواية البيت الثاني في الديوان:

رحلت عيسًا من شراب بابل فبتُّ من عقلي على مراحل

وَمِنْ أَحَاسِنِ أَقْوَالِهِمْ فِي أَنَّ الْعَقْلَ طَرِيقٌ إِلَى الْعَنَا وَسَدِّ يَمْنَعُ صَاحِبَهُ مِنَ الْوُصُولِ لِلْغَنَى

رُوِيَ عَنِ الْإِمَامِ مُحَمَّدِ بْنِ الْحَنْفِيَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: وَكُلُّ اللَّهِ الْجَهْلُ بِالْغَنَى، وَالْعَقْلُ بِالْحَرَمَانِ؛ لِيَعْتَبِرَ الْعَاقِلُ، وَلِيَعْلَمَ أَنَّ لَيْسَ لَهُ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ. وَفِي مِثْلِ هَذَا يَقُولُ نَصْرُ بْنُ أَحْمَدَ الْمَعْرُوفُ بِالْخَبَزِ أَرْزِي^(١): [البسيط]

سَبَّحَانَ مَنْ قَدَّرَ الْأَشْيَاءَ مِنْزِلَهَا وَصَيَّرَ النَّاسَ مَرْفُوضًا وَمَرْمُوقًا
فَعَاقِلٌ فَطَنَ أَغْيَتَ مَذَاهِبِهِ وَأَحْمَقُ جَاهِلٌ تَلَقَّاهُ مَرْزُوقًا
هَذَا الَّذِي تَرَكَ الْأَوْهَامَ حَائِرَةً وَصَيَّرَ الْعَالَمَ النُّحْرِيرَ زَنْدِيقًا

قَالَ رَجُلٌ لِبَزْرَجْمَهْرٍ: تَعَالِ نَتَنَاظَرُ فِي الْقَدْرِ، قَالَ: وَمَا أَصْنَعُ بِالنَّظَرَةِ؟ رَأَيْتَ الظَّاهِرَ فَاسْتَدَلَلْتَ بِهِ عَلَى الْبَاطِنِ، رَأَيْتَ الْأَحْمَقَ مَرْزُوقًا، وَالْعَاقِلَ مُحْرُومًا، فَعَلِمْتَ أَنَّ التَّدْبِيرَ لَيْسَ مِنَ الْعِبَادِ. وَقِيلَ: أَعْجَبَ الْأَشْيَاءَ نَجَحَ الْجَاهِلُ، وَكَدَاءَ الْعَاقِلُ، حَتَّى قِيلَ: لَوْ جَرَتْ الْأَقْسَامُ عَلَى قَدْرِ الْعُقُولِ لَمْ تَعَشِ الْبَهَائِمُ.

قَالَ حَبِيبُ بْنُ أَوْسٍ الطَّائِي^(٢): [الطويل]

يَنَالُ الْفَتَى مِنْ عَيْشِهِ وَهُوَ جَاهِلٌ وَيَكْدِي السَّيِّئُ فِي دَهْرِهِ وَهُوَ عَالِمٌ
فَلَوْ كَانَتْ الْأَرْزَاقُ تَجْرِي عَلَى الْحُجَى هَلَكْنَ إِذَا مِنْ جَهْلِهِنَّ الْبَهَائِمُ
الْمُتَنَبِّ^(٣): [الكامل]

ذُو الْعَقْلِ يَشْقَى فِي النِّعَمِ بِفَضْلِهِ وَأَخُو الْحِمَاقَةِ فِي الشَّقَاءِ يَنْعَمُ

(١) الأبيات لعمرو القصافي، في طبقات الشعراء، لابن المعتز، ص ٧٦٠؛ وللواسطي في الأمل والمأمول، للجاحظ، ص ١٩.

(٢) البيت في ديوان أبي تمام، من قصيدة مطلعها:

ألم يأن أن تروي الظمأ الحوائم

(٣) البيت في ديوان المتنبي، من قصيدة مطلعها:

لهوى النفس سريرة لا تُعلم

ورواية البيت في الديوان:

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله

وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم

آخر^(١): [الكامل]

العقل ليس بمسعد خلقًا إذا ما عال حتى يسعد المقدورُ
وحكومة الأيام يسعد جاهل فيها ويشقى العالم النحريرُ

آخر^(٢): [الكامل]

لو كانت الأرزاق يدركها الفتى بجلادة أو قوّة وشراسٍ
لأخذت أفضلها ببارع همتي وبمنطقي وبحيلتي ومراسي
لكنها قسم وليس بمدرك ما لم يقدره إله الناسِ

حدّث ابن حبيب في كتابه عقلاء المجانين، قال: حدّث سعيد بن علي بن عطف، قال: كان عندنا رجل عاقل ظريف أديب يسمّى عامرًا، وكان مع كثرة أدبه محرومًا، فقيل لي: إنه قد تحامق، فجعلت أتطلبه حتى ظفرت به في بعض الطرق والصبيان حوله يضحكون منه، فقلت: يا عامر ما هذه الحالة؟ فأنشد عجلًا ومرتجلًا^(٣): [المنسرح]

يا عاذلي لا تلم أخا حمق يضحك منه فالحمق ألوانُ
حمقت نفسي لكبي أنال غنى فالعقل في ذا الزّمان حرمانُ

وكان الحمدوني الشاعر يتحامق فعذله بعض أصحابه على ذلك، فقال: حماقة تعولني خير من عقلٍ أغوله. ثم أنشد^(٤): [الخفيف]

عذلوني على الحمافة جهلاً وهي من عقلهم الذّ وأحلى
حمقي اليوم قائمٌ بعيالي ويموتون أن تعاقلت دلاً

ومن المنظوم في أنّ من أفعال الزمان إلباس العقلاء أسمال الحرمان

أبو يعلى بن الهبارية^(٢): [الكامل]

الجهل أروح للفتى من عقله يُمسي ويُصبح آمنًا مسرورا

(١) البيتان لم أجدهما في المصادر والمراجع التي بين يدي.

(٢) الأبيات لم أجدهما في المصادر والمراجع التي بين يدي.

(٣) انظر كتاب عقلاء المجانين، لابن حبيب النيسابوري، ص ٥٨.

(٤) البيتان للحمدوي الشاعر في ديوانه، وهما بيتان منفردان.

ترك العواقب جانباً عن فكره وسعى رواحاً في الهوى وبكورا
والعقل يعقله على حسراته ويصده فيرذه محسورا
وتراه مهتماً كثيراً غمه يحيا أسيراً أو يموت فقيراً
لما علا الجهال في أيماننا ورقوا ونالوا منزلاً وسريرا
أخفيت علمي وأطرح فضائلي عليّ أكون إذا جهلت أميراً
آخر^(١): [الكامل]

دغ عنك عقلي فالعقول مخارق لا ينفع الإنسان إلا جهله
كم عاقل أمسى عقلاً عقله دون المني وغداً فضولاً فضله
آخر^(٢): [الطويل]

ولما رأيت الدهر أحرق جاهلاً يصيب ولا يدري ويخطي ولا يدري
ينيل ويُعطي الأحق الغمر سُؤله ويقصد أبناء الفضائل بالعسر
فيمنعهم من القرى ويدودهم إذا ورد الشوكى تحامقت للدهر
عبد القاهر الجرجاني^(٣): [مخلع البسيط]

كُبر على العقل يا خليلي ومِلْ إلى الجهل مِلْ هائم
وكن حماراً تعيش بخير فالسعد في طالع البهائم
آخر^(٤): [الخفيف]

طاب عيش الرقيق في ذا الزمان والجهول الغفول والصفعان
فاغتتم حمقك الذي أنت فيه تحظ بالمكرمات والإحسان

(١) البيتان لم أجدهما.

(٢) الأبيات لم أجدها في المصادر والمراجع التي بين يدي.

(٣) البيتان في ديوان عبد القاهر الجرجاني، وهما بيتان منفردان.

(٤) البيتان لأبي الربيع محمد بن علي الصفار البلخي، في عقلاء المجانين، لابن حبيب النيسابوري،

آخر^(١): [الوافر]

إذا كان الزمان زمان حُمقٍ فإنَّ العقل حرمان وشومٌ
فَكُنْ حمقًا مع الحمقى فإنِّي أرى الدنيا بدولتهم تدومُ

آخر^(٢): [الخفيف]

إنَّ عامًا فيه تسربت خزا وتردّيت في الرجال البرودا
لزمان أبدى النُحوس إلى النا س وأخفى عن العيون السُعودا

آخر^(٣): [السريع]

قد كَسَدَ العقل وأصحابه وفتحت للجهل أبوابه
فاستعمل الحمق تَكُنْ ذا غنى فقد مضى العقل وأربابه

آخر^(٤): [الطويل]

تحامق مع الثوكى إذا ما لقيتهم ولا تَلَقَّهم بالعقل إن كنت ذا عقلٍ
وخلط إذا لاقيت يومًا مخلطًا يخلط في قول صحيح وفي فعلٍ
فلنبي رأيت المرء يشقى بعقله كما كان قبل اليوم يسعد بالعقلِ

آخر^(٥): [الطويل]

أرى زمنا نوكاه أسعد أهله ولكئما يشقى به كل عاقلٍ
مشى فوقه رجلاه والرأس تحته فكبّ الأعالي بارتفاع الأسافلِ

وقال بعض ظرفاء الأدباء، وهو أبو الحسن المائق^(٦): [الهجج]

طلبت الرزق بالحذق مِنَ الغرب إلى الشرقِ
فلم يكسبني العقل سوى البُعْد مِنَ الخَلْقِ

(١) البيتان بلا نسبة في عقلاء المجانين، ص ٦٢.

(٢) البيتان لم أجدهما في المصادر والمراجع التي بين يدي.

(٣) البيتان لم أجدهما.

(٤) الأبيات لم أجدها في المصادر والمراجع التي بين يدي.

(٥) البيتان بلا نسبة في عيون الأخبار، لابن قتيبة، ص ٨٩٦.

(٦) الأبيات لم أجدها.

فأذبرت عن العقل وأقبلت على الحمق
 فخاف الناس أشعاري وقالوا أحمق الخلق
 وجاء الأبى الجحش بما شاء من الرزق
 فمن لام على الحمق فقد حاذ عن الحق

ومما ذكر أنّ الحافظ أجدى لصاحب الحجا

وأهدى في طرق مآربه من نجوم الدجى

ما حكى أهل التجارب، فإنهم قالوا: العقل وسوء الحظ كالعلّة، والمعلول لا مفصل لأحدهما عن الآخر. وقالوا: إفراط العقل مضرّ بالجد. وقيل: استأذن العقل على الجد فحجبه، فقال: اذهب أنت بي لا أنا بك. قال شاعر^(١):
 [الخفيف]

عش بجد ولا يضرّك نوك إنما عيش من ترى بالجدود
 آخر^(٢): [البسيط]

لا تنظرن إلى عقل ولا أدب إن الجدود حديقات الحماقات
 آخر^(٣): [الكامل]

الجد أنهض بالفتى من عقله فانهض بجدك في الحوادث أو ذر
 ما أقرب الأشياء حين يسوقها قدر وأبعدها إذا لم تقدر
 آخر^(٤): [الطويل]

متى ما ترى الناس الغني وجاره فقير يقولوا عاجز وجليد
 وليس الغنى والله من حيلة الفتى ولكن أحاط قسمت وجدود

(١) البيت في أخبار أبي القاسم الزجاجي، له، ص ٩٨.

(٢) البيت لم أجده في المصادر والمراجع التي بين يدي.

(٣) البيتان للحكم بن عبدل في ديوانه، والبيت الثاني هو مطلع القصيدة.

(٤) البيتان لعبد الرحمن بن حسان الأنصاري، والبيت الأول هو مطلع القصيدة.

آخر^(١): [الكامل]

لا تنظرنَّ إلى الجهالة والحجا وانظر إلى الإدبار والإقبال
 كم من صحيح العقل أخطأ الغنى وعديم عقلٍ فازَ بالأموال
 ودَعَتْ أُم الإسكندر لولدها، فقالت: رزقك الله حظًا يخدمك به ذوو
 العقول، ولا رزقك عقلًا تخدم به ذوي الحظوظ. وخيّر رجل بين أمرين، فأبى أن
 يختار وقال: أنا بجذّي أوثقُ منّي بعقلي. ومن أمثالهم: أن تجدّ فلا تكذّ. قال أبو
 العلاء أحمد بن سليمان المعري^(٢): [الكامل]

لا تطلبنَّ بغير حظّ رتبة قلم البليغ بغير حظّ مغزلُ
 سكن السّما كان السماء كلاهما هذا له رمح وهذا أعزلُ
 وقال بعضهم^(٣): [الكامل]

قالوا أقمت وما رزقت وإنما بالسير يكتسب اللّيب ويُرزقُ
 فأجبتهم ما كل سَيْر نافع الحظّ ينفع لا الرحيل المقلقُ
 كم سيرة نفعت وأخرى مثلها ضرت ويكتتب الحريص ويخنقُ
 كالبدر يكتسب الجمال بسيره وبه إذا حرم السعادة يمحقُ

آخر^(٤): [البسيط]

لا يوجد الرزق بالإمعان في الطّلب ولا بكدّ ولا حرص ولا تعبٍ
 بل الحظوظ التي تعلو بصاحبها لا بالخطوط التي في سائر الكتبِ
 كم من غلام أديب فيصل ذكر شهيم مهيب كحدّ السيف ذي الشّطبِ
 يُمسي ويضحى من الإفلاس في تعب يقلب الكفّ بالنيران واللّهبِ
 وآخر جلف طبع لا خلاق له مذبذب العقل ثورًا مُثتن الذّنبِ
 لا يعرف الميم منّ واو إذا كتبا ولا يميّز بين التين والعنبِ
 قد أقبلت نحوه الأيام ضاحكة وأخدمته الليالي كل ذي حسبِ

(١) البيتان لم أجدهما في المصادر والمراجع التي بين يدي.

(٢) البيتان ليسا في ديوان أبي العلاء المعري، وهما لحمدون بن الحاج السلمي في ديوانه، وهما بيتان منفردان.

(٣) الأبيات لابن الهبارية في وفيات الأعيان، لابن خلكان، في ترجمته.

(٤) الأبيات لم أجدها في المصادر والمراجع التي بين يدي.

وللشافعي رضي الله عنه^(١): [الكامل]

بالجدّ يدنو كل أمرٍ شاسع والجدّ يفتح كل باب مغلقٍ
فإذا سمعت بأن مجدودًا حوى عودًا وأثمر في يديه فحقيق
وإذا سمعت بأن محرومًا أتى ماء ليشربه فغاض فصدق
لو كان بالحيل الغنى لوجدتني بنجوم أقطار السماء تعلق
لكنّ من رزق الحجا حرم الغنى ضدّان مفترقان أي تفرّق
ومنّ الدليل على القضاء وحكمه بؤس اللبيب وطيب عيش الأحمق
وأحمق خلق الله بالهّم امرؤ ذو همّة يبلى برزق ضيق
فلربّما مرّت بقلبي ضجرة فأودّ منها أنني لم أخلق

وقال: إذا أقبل جدّ المرء فالأقدار تُسعدّه، والأوطار تساعده، وإذا أدبر فالأيام تُعاديّه، والنحوس تراوحه وتغاديّه. ويُرَوّى عن النبي ﷺ أنّه قال: «إنّ السعادة لتلحظ الحجر فيدعى ربا»^(٢)، وإلى هذا أشار حبيب بن أوس في قوله^(٣): [الكامل]

وإذا تأملت الجبال وجدتها تثرى كما تثرى الرجال وتُغدّم

وقال آخر، وهو أبداع ما قيل في هذا الباب^(٤): [الكامل]

وإذا السعادة لاحظتكَ بعينها نَمّ فالمخاوف كلهنّ أمان
واصطد بها العنقاء فهي حبائل واقتدّ بها الجوزراء فهي عنان

وقال ابن نباتة^(٥): [الطويل]

ألا فأخش ما يرجى وجدّك هابطٌ ولا تخش من شيء وجدّك رافعٌ
فلا نافع إلّا مع التحس ضائر ولا ضائر إلّا مع السّعد نافعٌ

(١) الأبيات في ديوان الشافعي، مع الاختلاف في ترتيبها، ومطلع القصيدة:

فإذا سمعت بأن مجدودًا حوى عودًا فأثمر في يديه فصدق

(٢) الحديث لم أجده بهذا اللفظ في كتب الحديث التي بين يدي.

(٣) البيت ليس في ديوان أبي تمام، وهو بلا نسبة في التمثيل والمحاضرة، للثعالبي، ص ١٣١.

(٤) البيتان للقاضي الفاضل في ديوانه، وهما بيتان منفردان.

(٥) البيتان في ديوان ابن نباتة السعدي، من قصيدة مطلعها:

أسؤال هذا الدهر ما أنا قانعٌ سألتكم بالله كيف المطامعُ

آخر^(١): [الطويل]

إذا كنت مرموقاً بعين سعادة فلا تَخْشَ يوماً من رجوع الكواكبِ
 فإنَّ الذي قد قَرَّبَ الله سَعده بعيد لعمرى من صروف التَّواقِبِ
 ومن الظريف المطبوع في هذا الباب قول محمد بن شرف القيرواني^(٢):
 [الوافر]

إذا صَحِبَ الفتى جَدَّ وسعد تحامَّته المكاره والخطوبُ
 ووفاه الحبيب بغير وعدٍ طفيلياً وقاد له الرقيبُ

(١) البيتان لم أجدتهما في المصادر والمراجع التي بين يدي.

(٢) البيتان في ديوان ابن شرف القيرواني، من ثلاثة أبيات، والبيت الثالث:

وعد الناسُ ضربة غَناء وقالوا إن فسا قد فاح طيبُ

الباب الخامس

في الفصاحة

وفيه ثلاثة فصول:

الفصل الأول من هذا الباب

في أن الفصاحة والبيان أزين ما تحلّت بهما الأعيان

قال الله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ ۝ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ۝ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ۝﴾ [الرَّحْمَنُ: الآيات ١ - ٤]. وقال عليه الصلاة والسلام: «إن من البيان لسحراً»^(١).

حدّ البيان: قال الجاحظ في كتابه الذي سمّاه البيان والتبيين: البيان اسم جامع لكل كلام كشف لك عن قناع المعنى، وهتك الحجاب عن الضمير حتى يفضي السامع إلى حقيقة اللفظ، ويهجم على محصولة كائن ما كان. وقيل لجعفر بن يحيى بن خالد البرمكي: ما البيان؟ فقال: أن يكون الاسم محيطاً بمعناك كاشفاً عن معزاك. وقال آخر: خير البيان ما كان مصرّحاً عن المعنى ليسرع إلى الفهم تلقته، وموجزاً ليخفّ على اللسان تعاهده.

فما ورد عن جهابذة هذا العقيان مدح موهبتي الفصاحة والبيان

قول ابن المعتز: البيان ترجمان القلوب وصيقل العقول. وقال سهل بن هارون: البيان ترجمان اللسان، وروض القلوب. وقال بعض الأعراب لولده: عليك بالفصاحة في منطقتك، فإنها مع صواب لفظك كالريش البهتي في حسن الصورة. ويقال: من عُرف بفصاحة اللسان لحظته العيون بالوقار. وقال هشام بن

(١) أخرجه البخاري في النكاح باب ٤٧، والطب باب ٥١، ومسلم في الجمعة حيث ٤٧، وأبو داود في الأدب باب ٨٧، والترمذي في البرّ باب ٨١.

عروة: ما أحدث الناس مروءة أعجب إليّ من الفصاحة. وقال بعض البلغاء: الفصاحة أوثق شاهد عدل على اجتماع شمل الفضل، وأقوى دليل على استكمال الذكاء والتّبل، لم تزل تشيد لأهلها في ربوع المجد فخراً، وترفع لهم في مراتب العلوم ذكراً، وربما سوّدت غير مسوّد، ورفعت من الحضيض الأوهدي إلى محل النسر والفرقد. ويقال: بالفصاحة والبيان استولى يوسف عليه السلام على مصر وملك زمام الأمور، وأطلعه ملكها على الجليّ من أمره المستور، فإنّ العزيز لمّا رأى فصاحة لسانه وحُسن بيانه، أعلى مكانه وأعظم شأنه.

ومما يميّز به نوع الإنسان فصاحة المنطق وذلاقة اللسان

قال بعض الحكماء: الكلام حدّ الإنسان الحيّ الناطق. وقالوا: الصّمت منام، والكلام يقظة. وقال عبد الملك بن مروان: إنّ الكلام قاض يحكم بين الخصوم، وضياء يجلو الظلام حاجة الناس إلى موادّه كحاجتهم إلى موادّ الأغذية. وقال: حدّ الإنسان أنه ناطق، فمن كانت رتبته في النطق أبلغ كان بالإنسانية أخلق. وقال أبو الفرج الببغا في رسالة له مدح فيها الكلام: الحيوان كلّهُ متساوٍ بنعت الحركة والنموّ، فالإنسان والبهيمة باشتمال هذا الوصف عليهما سيّان، وإنما فضل العالم الإنسيّ بالنطق المترجم عن مراد العقل المظهر للحكمة من القلب إلى العقل، فإذا صحتّ بهذه القاعدة أنّ الإنسان بفضيلة النطق أشرف مصنوع وأفضل مطبوع، فقد وجب أن يكون أكمل هذا الجنس فضلاً، وأحمد هذا العالم فعلاً، ومَنْ كان قسطه بفضيلة النطق موفوراً، فمحله من ريع البلاغة معموراً. وقال أيضاً: مَنْ زعم أنّ الصمت أشرف مرتبة وأرفع منزلة من الكلام فقد حكم على الكلام بالنقصان، وأحلّ العيّ محلّ البيان، ولو كان الصّمت أفضل من الكلام لتعبّدنا الله به فيما انتدبنا له بالإلهام، وكان توحيد الله بحجج العقول في غنى عن واسطة أو رسول. وقيل لبعض الحكماء: أيّما أفضل: الصمت أو النطق؟ فقال: إنّ الله تعالى بعث أنبياءه بالنطق لبيان الحجّة، وإنك تمدح الصمت بالنطق ولا تمدح النطق بالصمت، وما عبّرت به عن شيء فهو أفضل منه. وقال مِنْ فضل الناطق على الصامت أنّ الناطق يهدي ضالاً، ويُرشد غاوياً، ويُعلّم جاهلاً. وقيل لزيد بن عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنهم: الصمت خير أم الكلام؟ فقال: لعن الله المساكنة، فما أفسدها للسان، وأجلبها للعيّ، والله للماراة أسرع في

هدم العي من السنان في نبش العرفج. وقال آخر: الصمت مفتاح السلامة، ولكنه قفل الهم. وقال الشاعر^(١): [الكامل]

خلق اللسان لنطقه وكلامه لا للسلكوت وذاك حظ الأخرس

فإذا نطقت فكن مجيباً سائلاً إن الكلام يزين رب المجلس

وقالوا: اللسان عضو إن مرنته مرن، وإن تركته حرن. وقالوا: اللسان إذا كثرت حركته، رقت عذيبته؛ كالرجل إذا عودت المشي سعت. وقال خالد بن صفوان: ما الإنسان لولا اللسان إلا صورة ممثلة، أو بهيمة مرسله، أو حالة مهملة. وقال أيضاً: لسان الفتى أوجه شفعائه، وأنفذ سلاحه على أعدائه، به يتصل الود، وينحسم الحقد. شاعر^(٢): [الكامل]

لسان الفتى نصف ونصف فؤاده ولم يبق إلا صورة اللحم والدم

وقال بعض البلغاء: مغرس الكلام القلب، وزارعه الفكر، وقيمه العقل، وزهره الإعراب، وثمره الصواب، وجانيه اللسان.

ومما شرف به اللسان من خصائص الإحسان

قالوا: اللسان جوهر الإنسان، من خصائصه أن الله رفع قدره على سائر الأعضاء فأنطقه بتوحيده، وألهمه لتمجيده؛ ومن خصائصه أنه أداة يظهر بها البيان، وظاهر يخبر عما بطن في الجنان، وحاكم يفصل بالخطاب، وناطق يرّد الجواب، وواصف تُعرف به الأشياء، وواعظ يُنهى به عن الفحشاء، وشاهد يُسأل به عن الغائب، وشافع تدرك به المطالب، وموثق يلهي خاطر ومؤنس يُزيل وحشة النافر، ومعز تسكن به غلة الخليل، ومزين يدعو إلى الجميل، وزارع ينبت الوداد، وحاصد يذهب الضغائن والأحقاد.

(١) البيتان بلا نسبة في محاضرات الأدباء، للراغب الأصبهاني، ص ١٨٣.

(٢) البيت للأعور الشني في ديوانه، من قصيدة مطلعها:

ألم تر مفتاح الفؤاد لسانه إذا هو أبدى ما يقول من الفم
والبيت لزياد الأعجم في ديوانه، من بيتين أولهما:
وكائن ترى من صامت لك مُعجب زيادته أو نقصه في التكلم

ومما ينال به الخامل أعلى الرّتب التحليّ بأنواع جواهر الأدب

الأدب نوعان: نفسيّ وكسبي، فالنفسى بتوفيق الله يهبه الله لمن يريد، وهو ما كان من محاسن الأفعال الدالّة على كرم الطّباع، والكسبيّ ما استفادته الأنفس من أحاسن الأقوال الآخذة بأعنة القلوب والأسماع، وهو الذي ترجمت عليه في هذا الموضع، ليقع ذكره في النفوس أحسن موقع لترمقه لأجله العيون بالإجلال، وتتجمل النفوس به لميلها إليه بتتابع الإدلال، وهو الظرف في اللسان، الكائن عن الاشتغال بفنون علوم الآداب الحسان؛ كالنحو واللّغة ونظم الشعر وإفشاء النثر وما يتعلّق بذلك من علم البديع والمعاني والبيان، وما ذكرناه فهو الذي نال به حماد الراوية والأصمعي وإسحق الموصلي العلّا من الخلفاء، والجوائز من الوزراء، وسمّوا تشريقاً لهم بالجلّساء والندماء. قال أكثم بن صيفي: الرجل بلا أدب شخص بغير آلة، وجسد بلا روح. وقال بزرجمهر: الأدب شريف لا ينطبع إلّا في مثله. وقال الأحنف: لكل شيء ذؤابة، وذؤابة الشرف الأدب. وقال أنوشروان: عَجِبْتُ لمن يشهره الأدب كيف تدعوه نفسه إلى مكرمة. وقال بعض الأعراب لولده: عليك بالأدب، فإنه يرفع العبد المملوك حتى يجلسه في مجالس الملوك. وقال عبد الملك لبنيه: تأذّبوا فإن كنتم ملوكاً بررتم، وإن كنتم أوساطاً فُتّتم، وإن أعوزكم المعاش عشتم، استفيدوا من الأدب ولو كلمة واحدة. وقال بعض الأعراب: تعلّموا الأدب، فإنه زيادة في الفضل، ودليل على العقل، وصاحب في الغربية، وأنيس في الوحدة، وجمال في المحافل، وسبب إلى دَرَكَ الحاجة. وقال المأمون: والله لأن أموت طالباً للأدب خير من أن أموت قانعاً بالجهل. ويقال: ذكّ قلبك بالأدب كما تُذَكّي النار بالحطب. وقال الخليل بن أحمد: مَنْ لم يكتسب بالأدب مالاً، اكتسب به جمالاً. وقال آخر: الأدب أكرم الجواهر طبيعة، يرفع الأحساب الوضيعة، ويفيد الرّغائب الجليلة، وينحج القصد والوسيلة، فألبسوه حلّة، وتزيّنوه حلية، فإنه أنفق معاش، وأجمل رياش. وقال الشعبي: الأدب للفقير مال، وللغنيّ جمال، وللحكيم كمال.

ومما ذكر أنّ التحليّ بالآداب يلحق الدنيء بدويّ الأحساب

قالوا: من قعد به نسبه، نهض به حسبه. وقالوا: مَنْ تأدّب وليس له حسب الحقّه الأدب بأهل الرّتب. وقد يُستغنى بالأدب عن الحسب؛ كما حُكي عن سيّويه

قال: تكلم رجل بين يدي المأمون فأحسن، فقال له المأمون: ابن من أنت؟ قال: ابن الأدب يا أمير المؤمنين، فقال: نعم الحسب الذي انتسبت إليه. ولهذا قيل: المرء من حيث يثبت لا من حيث ينبت، ومن حيث يوجد لا من حيث يُولد، وبآدابه لا بثيابه، وبفضيلته لا بفصيلته، وبعقله لا بعقائله، وبأنبائه لا بآبائه، وبكماله لا بجماله. قال الشاعر^(١): [المنسرح]

كن ابن من شئت واتخذ أدباً يُغنيك محموده عن النسب
إن الفتى من يقول ها أنا ذا ليس الفتى من يقول كان أبي

وقال بزرجمهر: من كثر أدبه كثر شرفه وإن كان وضيعاً، وبُعْدَ صيته وإن كان خاملاً، وساد وإن كان غريباً، وكثرت حوائج الناس إليه وإن كان فقيراً. وقالوا: من دأب في طريق الأدب أدرك حاجته، وملك ناصيته، وتبّل قدره، وتبّه ذكره. قال الشاعر^(٢): [السريع]

لكل شيء زينة في الورى وزينة المرء تمام الأدب
قد يُشرف المرء بآدابه فينا وإن كان وضيع الحسب
وما أحسن قول بعض الأعاجم يفتخر ويعتذر^(٣): [المنسرح]

مالي عقلي وهمتي حسبي ما أنا مولى ولا أنا عربي
وإذا انتمى مُنتَمٍ إلى أحدٍ فإتني منتَمٍ إلى أدبي

ويقال: حُسن الأدب يَستَرِ قبيح النَّسب. وقالوا: الفضل بالعقل والأدب، لا بالأصل والنَّسب. ويقال: الأدب يُنُوب عن الحسب، ولا ينفع حسب بلا أدب. شاعر^(٤): [السيط]

كم من خسيس وضيع القدر ليس له في العز بيت ولا ينمى إلى نسب
قد صار بالأدب المحمود ذا شرف عالٍ وذا حسب محض وذا نسب
يعلي التأدب أقواماً ويرفعهم حتى يساوا ذوي العُلْياء في الرُتب

(١) البيتان لعلّي بن أبي طالب في ديوانه، من ثلاثة أبيات، والبيت الثالث:

فليس يغني الحسب نسبته بلا لسان له ولا أدب

(٢) البيتان بلا نسبة في المستطرف، للأشبيهي، ص ١٠٦.

(٣) البيت الأول بلا نسبة في العقد الفريد، لابن عبد ربّه، ص ١٠٢٧.

(٤) الأبيات لم أجدها في المصادر والمراجع التي بين يدي.

ذِكْر مَنْ دَابَّ فِي طَلَبِ الْأَدَبِ فَنَالَ بِهِ أَعْلَى الْمَنَاصِبِ وَالرُّتَبِ

يكفي دليلاً على ما ذكرناه، وأنموذجاً لما وصفناه، حال أحمد بن أبي دؤاد في ترقّيه إلى بقاع المجد، من الحضيض الوهد. يُحكى أنه كان يختلف إلى مجلس بشر المريسّي في حالة رثّة، وهيئة رديئة وينصرف عنه في قائم الظهيرة معلّقاً محبرته متأبطاً دفتره، فيقيل عند أخ له؛ فلما وجّه المأمون المعتصم إلى مصر التمس من بشر رجلاً من أصحابه يكون في صحبة المعتصم يوليه على المظالم ويكتب إليه أخباره، فقال: يا أمير المؤمنين معنا قوم لهم فقه، ولكن لم يجمعوا إليه الأدب ومعرفة أمور السلطان، ثم وصف له أحمد ابن أبي دؤاد؛ قال إنه جمع إلى فقه أدباً وبياناً وعقلاً، فأرسل إليه وقلّده المظالم ففعل، ثم حلّ من المعتصم محلاً عظيماً لاختياره له أيام مقامه بمصر معه.

ومنهم الفضل بن سهل ذو الرئاستين، كان أهل بيته مجوساً وتجاراً وصناعاً، فيهم الدهقان وبائع الخمر، فبلغ به الأدب إلى أرفع الرتب. ذُكر عنه أنه كان يتقلّد بسيفين أحدهما أحمر الجفر مكتوب عليه: رئاسة الحرب، والآخر أسود الجفر مكتوب عليه: رئاسة التدبير، ولهذا سمّي ذو الرئاستين، وصحب الفضل المأمون في حدائته أيام أبيه الرشيد، وهو مجوسي فغلب عليه، وحمله على إثارة الأدب وطلب الحكمة، وكان الفضل يعلم أحكام النجوم، فأخبره أنه يرى في طالعه أنه يلي الخلافة سلباً، وأنّ تدبيره يبعد عنه شرقاً وغرباً، فبلغ الرشيد شأنه وخبره فهدر دمه فاستتر حيناً، ثم بدا له أن يظهر، فأتى الرشيد وهو في الحلبة، فمثل بين يديه، وهو يقول: أعوذ يا أمير المؤمنين برضاك من سخطك، وأعترف بالذنب وأسلم لله على يدك، فقال الرشيد: مَنْ هذا؟ قالوا: المجوسي الذي هدرت دمه، فقال: قد وهبناك دمك إذا سلمت له فأياك ومعاودة ما بلغنا عنك.

ومنهم محمد بن عبد الملك الزيات، قال له العلاء بن أيوب يوماً، وقد دارت بينهما محاوراة في مناظرة: ليس هذا كيل الزيت ولا عدّ الجوز، قال له: بالتجارة تعيرني قد كنت تاجرًا وكنت متأخرًا فقدّمني الله بالأدب، وأصارني بعد التجارة إلى الوزارة وليس المعيب مَنْ كان خسيساً فارتفع، وإنما هو مَنْ كان شريفاً فاتضع، ولو كنت عاملتك معاملة الفضل بن سهل وأذلتك كما أذلّك لم تُقدم عليّ بمثل هذا القول الذي لم ينفعك، فقد كنت تدخل دار الخلافة تلوذ بالجدران،

وتتبع الأفياء، ناكس الرأس، غضيض الطرف خوفاً منه، لكنني رفعتك في المجلس فوق مَنْ هو أرفع منك، وقدّمك على مَنْ هو متقدّم عليك؛ فقال له العلاء: مهلاً إنما قلت كلمة مقولة، وتمثلت بمثل مضروب لم أعتمد به، فأما قولك: إني كنت ألوذ بالجدران وأتبع الأفياء خوفاً من الفضل، فقد كان ذلك ولكنني لم أكن أراك هناك، وإنّ أولى الناس أن لا يعيّر أحداً باستخفاف الفضل لأنت. فقال ابن الزيات: هذا شرّ من ذلك ونهض من مجلسه، وقال: احجبوه عني، فكان العلاء يأتي بابه كل يوم، فيقف حتى ينصرف الناس ثم يمضي، فلما رأى ابن الزيات صبره وأدبه صالحه وخالصه.

وأراد العلاء بقوله: فإنّ أولى الناس أن لا يعيّر أحداً باستخفاف الفضل لأنت: أنّ الفضل رأى على ابن الزيات سواداً فأمر بتمزيقه عليه، وقال: لا تتشبه أصحاب السلطان وأرباب المراتب، ثم لم تطل مدة الأيام والليالي حتى قلّد ابن الزيات الوزارة، وجلس الفضل بن سهل بين يديه. وكان ابن الزيات ملياً بعلم الأدب كاتباً شاعراً لا يشقّ في شيء منها غباره، ولا تدرك آثاره.

يُحكى في سبب تقدّمه بعد أن كان يتولّى قهرمة الدار، ويُشرف على المطبخ أنه ورد على المعتصم كتاب البريد يخبر فيه أنّ بلاد الجبل نزل بها مطر عظيم كثر منه الكلا، فقال المعتصم لأحمد بن عمارة، وكان متقلّد العرض عليه: ما الكلا؟ قال: لا أدري، فقال المعتصم: إنّ الله وإنا إليه راجعون، أخليفة أُمّي وكاتب عامي؟ ثم قال: مَنْ قرأ لنا الكتاب فعزّف بمكان محمد بن عبد الملك الزيات فطلبه، فلما مثل بين يديه قال له: ما الكلا؟ قال: النبات كلّ رطبه ويابسه، فالرطب خاصة يقال له العشب، واليابس خاصة يقال له الحشيش، ثم اندفع في وصف النبات من ابتدائه إلى انتهائه، فهذا هو السبب لما ذكرناه.

ومن ممدوح أهل هذه الصناعة الآخذين بأعنة الفصاحة والبراعة

وصف مسلم بن بلال بنبي العباس، وقد سُئل عنهم فقال: أولئك قوم بنور الخلافة يشرقون، وبلسان النبوة ينطقون. ومدح خالد بن صفوان رجلاً ببراعة المنطق، فقال: كان والله جزل الألفاظ، عزيز مقال اللسان، فصيح مأخذ البيان، رقيق حواشي الكلام، بليل الريق، قليل الحركات، ساكن الإشارات. ومدح أعرابي رجلاً، يقال: فلان أخذ بزمام الكلام فقاده أسهل مقاد، وساقه أجمل مساق،

فاسترجع به القلوب الجامعة، واستصرف به الأبصار الطامحة. ووصف ابن المقفع بليغاً، فقال: ما زالت ينابيع حكمه تترقق في مغابن الآذان حتى أعشبت بها القلوب عقولاً، وقد ألمّ بهذا المعنى المتنبي في قوله^(١): [الكامل]

نطق إذا ما القول حطّ لثامه أعطى بمنطقه القلوب عقولاً
ولأبي إسحق الصابي في الوزير أبي محمد المهلبى رحمه الله تعالى^(٢):
[الكامل]

قل للوزير أبي محمد الذي قد أعجزت كل الورى أوصافه
لك في المحافل منطلق يشقى الجوى ويسوغ في أدب الأريب سلافه
فكأن لفظك لؤلؤ متنخل وكأنما آذاننا أصدافه
قيل: فلان إذا أنشأ وشى، وإذا عبر حبر، فلان إذا أنشأ انتشرت زاهرات الآداب من عذوبة لسانه، وإذا أنشد حرّك ذا الوقار طرباً بإحسانه، لله درّ فلان ما أسبغ لسانه، وأطول عنانه، وأفصح بيانه، وأجود افتنانه.

أبو عبادة البحرى يصف بليغاً^(٣): [الكامل]

حكم فسائحها خلال بنانه متدفق وقليبها في قلبه
كالرّوض مؤتلفاً بحُمْرة نوره وبياض زهرته وخضرة عشبه
وكانها في السّمع معقود بها شخص الحبيب بدا لعين محبه
ولبعض شعراء العصر^(٤): [الطويل]

مقال تفديّه أوائل وائل وتفديّه أحقاباً أعارب يعرب
هو الزّهر الغضّ الذي في كمامه أو اللؤلؤ الرّطب الذي لم يثقب

(١) البيت في ديوان المتنبي، من قصيدة مطلعها:

في الخد أن عزم الخليط رحىلا مطر تزيد به الخدود محولا

(٢) الأبيات في الإعجاز والإيجاز، للثعالبي، ص ٢٧٧.

(٣) الأبيات في ديوان البحرى، من قصيدة مطلعها:

من سائل لمعذر عن خطئه أو صافح لمقصر عن ذنبه

(٤) البيتان لبهاء الدين زهير في ديوانه، من قصيدة مطلعها:

لك الله من والٍ وليّ مقرب فكم لك من يوم أغرّ محبب

آخر^(١): [المنسرح]

قول هو الماء لذمطعمه وكل قول سواه كالزبد

وقال حسان بن ثابت رضي الله عنه^(٢): [الطويل]

إذا قال لم يترك مقالاً لقائل بملتقطات لا ترى بينها فصلاً

كفى وشفى ما في النفوس ولم يدع لذي إربة في القول جدًّا ولا هزلاً

آخر^(٣): [الطويل]

كلامٌ كوقع القطر في المحل يشتفي به من جوى في باطن القلب لاصق

الفصل الثاني من الباب الخامس

فيما يتحلّى به ألباب الأدباء من بلاغات الكتاب والخطباء

ولنورد أمام هذا الفصل نبذة يسيرة في حدّ البلاغة وأقسامها، والطريق الذي يوصل سلوكه إلى معرفة نقصها أو تمامها. قال العتابي: واسمه كلثوم بن عمرو: البلاغة إظهار ما غمض عن الخلق، وتصوير الباطل في صورة الحق. وقال عليّ بن عيسى الرماني: أبلغ الكلام ما حَسُنَ إيجازه، وكَثُرَ إعجازه، وتساوت صدوره وأعجازه. وقالوا: البلاغة إيصال المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ. وقيل لبعض البلغاء: مَن البليغ؟ قال: الذي إذا قال أسرع، وإذا أسرع أبدع، وإذا أبدع حرّك كل نفس بما أودع. وقالوا: لا يستحقّ الكلام اسم البلاغة حتى لا يكون لفظه إلى سمعك أسبق من معناه إلى قلبك. وقال عبد الحميد بن يحيى كاتب مروان الحمار: البلاغة ما رضيته الخاصة وفهمته العامة.

(١) البيت لابن نباتة السعدي في ديوانه، من قصيدة مطلعها:

نحن بقايا طعن القنا قصد وراسيات العزاء والجلد

(٢) البيتان في ديوان حسان بن ثابت، من قصيدة مطلعها:

إذا ما ابن عباس بدا لك وجهه رأيت له في كل أحواله فضلاً

(٣) البيت لم أجده في المصادر والمراجع التي بين يدي.

والعرب سباق حلبة البيان يعترف لهم بذلك فصحاء كل زمان

قال بعضهم: نحن أمراء الكلام فينا وشجت عروقه، وعلينا تدلّت غصونه، فنحن نجني منها ما اخلّولى وعذب، ونترك ما املّولح وخبث. وقال الجاحظ: ليس في الأرض كلام هو أمتع ولا أنفع، ولا آنق في الأسماع، ولا أقود للطّباع، ولا أفتق للّسان، ولا أجود تقويماً للبيان من كلام الأعراب الفصحاء العقلاء. وسُئِلَ بعض البلغاء: أيما أشرف العرب أو العجم؟ فقال: العرب أحلى وأحلّم وأعلى وأعلم وأقوى وأقوم وأنكى وأنكر وأذكى وأذكر وأعطى وأعطف وأحصى وأحصف وأبلى وأبلغ وأسمى وأسمح وأشرى للفخار وأشرف وأنقى للعار وأنف. وسأل كسرى الحارث بن كلدة لمّا وفد عليه: ما الذي يُحمد من أخلاق العرب، ويُحفظ من مذاهبهم؟ فقال لهم: أنفس سخية، وقلوب جريّة، وعقول صحيحة، وأنساب صريحة، يمرق الكلام من أفواههم مروق السّهم من الرّمية أعذب من الماء، وأرق من الهواء يطعمون الطعام، ويضربون الهام، عزّهم لا يُرام، وجارهم لا يُضام، ولا يروّع إذا نام.

فمن وشائع ألفاظهم البارعة وبدائع معانيهم الرائعة

ما يُحكى أن أعرابياً قال عند ضجره في طلب الرّزق: والله لقد تقلّبت بي الأسباب وقرعت جميع الأبواب، واضطربت غاية الاضطراب، وسافرت حتى بلغت منقطع التراب، ورضيت من الغنيمة بالإياب، فما رأيت الحرمان إلّا فائضاً، والنّجح إلّا غائضاً. واعترضت أعرابية المنصور بطريق مكّة بعد موت السّفاح، فقالت: يا أمير المؤمنين قد أحسن الله إليك في الحاليتين، وأعظم عليك النّعم في المنزلتين، سلبك خليفة الله، وأفادك خلافة الله، فاحتسب عند الله ما سلبك، واشكر له ما منحك. ووقف أعرابيّ على قوم يسألهم، فقال: يا أرباب الوجوه الصّباح، والعقول الصّحاح، والصدور الفساح، والنفوس السّماح، والألسن الفصاح، والمكارم الرياح، هل فيكم من يسمع كلامي، فيعذرني من مقامي. ووقف أعرابيّ بقوم، فقال: يا قوم أشكو إليكم زماناً كلّح لي بوجهه، وأناخ عليّ بكلّكله، بعد نعمة من البال، وثروة من المال، وغبطة من الحال، اعتورتني جديدها بنبال مصائبه، عن قسيّ نوائبه، فما تركا لي ثاغية أجتدي ضرعها، ولا راغية أرتجي نفعها، فهل فيكم مُعين على صرفه، أو معد على حيفه، فردّوا عليه ولم

ينيلوه شيئًا، فولّى عنهم وهو يقول^(١): [الرجز]

قد ضاع مَنْ يَأْمَلُ مِنْ أَمْثَالِكُمْ جودًا وليس الجود مِنْ أفعالِكُمْ
لا بَارِكَ اللهُ لَكُمْ فِي مَالِكُمْ ولا أَزاح السُّوءَ عَنْ عِيَالِكُمْ
فالموت خيرٌ من صلاح حالكم

وَمِنْ كَلَامِهِمْ فِي الْأَوْصَافِ: وصف أعرابيَّ امرأة، فقال: هي السَّقَمُ الذي لا بَرءَ منه، والبُرءُ الذي لا سَقَمَ معه، أسهل مِنَ الماءِ، وأَبْعَدُ مِنَ السَّمَاءِ. ووصف آخر امرأة، فقال: كاد الغزال يكونها؛ لولا ما نقص منه وتمّ منها. وقال آخر: سبقنا الحيّ وفيهم أدوية السَّقَامِ، فقرأن بالحدق السَّلَامَ، وخرست الألسن عن الكلام. وقال آخر: خرجت حين انحدرت النجوم وسالت أرجلها، فما زلت أصدع الليل حتى انصدع الفجر. وأرسل أعرابيّ ولده في حاجة، فرجع خائبًا فسأل عن سبب خيبته، فقال: أتيت سوق الظمأ، فبكت السماء وضحك البرق وقهقه الرعد، فخفت الهاطلة فرجعت. وصف أعرابيّ مصيبة، فقال: إنها مصيبة تركت سود الرأس بيضا، وبيض الوجوه سودا. وقيل لبعض الأعراب: هل عندكم في البادية طبيب؟ قال: كلا إن حمر الوحش لا تحتاج إلى بيطار. وقيل لأعرابيّ: كيف حالك؟ فقال: أمزق ديني بالذنوب، وأرقعه بالاستغفار. وقيل لأعرابيّ: ما لك مِنْ فلان؟ قال: وجهٌ صبيح، وصدرٌ فسيح، وقلبٌ نصيح، ونسبٌ صريح، وخلقٌ صحيح، وسعيٌ نجيح، ووعدٌ مُريح.

ملح مِنْ بدائع ألفاظ الكتاب الأفاضل الهادي

حلال سحرها بحرام سحر بابل

ولنورد أمام ذلك كلامًا في فضل الكتابة كافيًا، وللكتاب من أدواء الخمول شافيًا. قلت: الكتاب ساسة الملك وعماده، وأركان قراره وأطواده، بأقلامهم تُبَسِّط الأرزاق وتُقَبِّض الآجال، وبأحلامهم تُصان المعازل إذا عجز عن صونها الرجال. وقالوا: الكاتب مالك الملك يصرفه بقلم الإنشاء حيث شاء. وقالوا: لو أنّ في الصناعات صناعة مربوبة لكانت الكتابة بالكل صناعة. قالوا: الكتابة طب الأدب وفلك الحكمة، ولسان ناطق بالفضل، وميزان يدلّ على راحة العقل. وبالكتاب

(١) الخبر والرجز في العقد الفريد، لابن عبد ربه.

قامت السياسة، والرئاسة، وإليهم ألقى تدبير الأعنة والأزمة، وعليهم يُعتم في حصر الأموال، وانتظام شتات الأحوال. شاعر^(١): [البسيط]

قوم إذا أخذوا الأقلام عن غضبٍ ثم استمدّوا بها ماء المنيات
نالوا بها من أعاديهم وإن بُعدوا ما لا يُنال بحدّ المشرفيات
آخر^(٢): [الكامل]

قوم إذا خافوا عداوة امرئ سفكوا الدما بأسنة الأقلام
ولضربة من كاتب ببنانه أمضى وأنفذ من رقيق حُسام
قال ابن المقفع: الملوك أحوج إلى الكتاب من الكتاب للملوك. ومن فضل الكتابة أن صاحب السيف يُزاحم صاحب القلم في قلمه، ولا يزاحمه الكاتب في سيفه.

فمن موجز بلاغتهم ومعجز صياغتهم

ما كتب به للنبي ﷺ من كتاب: أما بعد، فكأننا في الثقة بك منك، وكأنك في الرقة علينا منّا؛ لأنّا لم نرجك في أمرٍ إلّا لنلناه، ولا خِفْنَاك عليه إلّا أَمِنَاهُ. ومن بليغ مكاتبتهم ما كتب به يزيد بن الوليد إلى مروان بن محمد وقد بلغه تلكؤه في بيعته: أما بعد؛ فإني أراك تقدّم رجلاً وتؤخر أخرى، فإذا أتاك كتابي هذا فاعتمد على أيّهما شئت، والسلام.

ومنها ما كتب به عبد الحميد لرجل بالوصاية على إنسان: حقّ موصل هذا الكتاب إليك كحقّه عليّ إذ رآك موضعاً لأمله، ورآني أهلاً لحاجته، وقد أنجزت حاجته، فحقّق أمله.

ومنها ما ذكر أنّ المأمون قال لعمر بن مسعدة: اكتب إلى عاملنا فلان كتاب عناية بإنسان في سطرٍ واحد، فكتب هذا كتاب واثق بمن كتب إليه معتن بمن كتب له: ولن يضيع بين الثقة، والعناية حامله.

(١) البيتان بلا نسبة في وفيات الأعيان، لابن خلكان، في ترجمة ابن الدهان الموصلي.

(٢) البيتان بلا نسبة في المحاسن والمساوى، لإبراهيم البيهقي، ص ١٦.

وَمِنْ بدائعها ما كتب به أبو بكر الخوارزمي جوابًا عن هدية: وصلت التحفة ولم يكن لها عيب إلا أنْ باذلها مُسرف في البرّ، وقابلها مقتصد في الشكر، والسرف مذموم إلا في المجد، والاقتصاد محمود إلا في الشكر والحمد.

وكتب ابن العميد إلى محمد بن يحيى يستعطفه من رسالته: وما أحسبنا اشتركنا إلا في الاسم فقط، وشتان بين محمد ومحمد، فلو كنّا السماكين لكنت الرمح وكنت الأعزل، ولو كنّا النُسرين لكنت الطائر وكنت الواقع، ولو كنّا السَّعدين لكنت السعود وكنت الذابح؛ أخذه من قول الفرزدق^(١): [الطويل]

وقد تلتقي الأسماء في الناس والكنى كثيرًا ولكن لا تُلاقِي الخلائق

وكتب أبو الفضل أحمد بن الحسين الهمداني إلى بديع الزمان يستعطف أيضًا: إني خدمت مولاي والخدمة رقّ بغير إسهاد، وناصحتُه والمناصحة للموَدّة أوثق عِماد، وناذمتُه والمُنادمة رضاعُ ثان، وطاعمتُه والمُطاعمة نسب دان، وسافرت معه والسفر والأخوة رضيعا لبان، وقمت بين يديه والقيام والصلاة شريكا عنان، وأثنت عليه والثناء من الله بمكان، وأخلصت له والإخلاص مشكور بكلّ لسان.

وكتب أبو العِيَناء إلى أبي الوليد يستجديه: مسنا وأهلنا الضرّ، وبضاعتنا الودّ والشكر، فإن لم تعطنا فلسنا ممن يلمزك في الصّدقات، فإن أعطوا منها رضوا، وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون. وأبو العِيَناء كما قال فيه محمد بن مكرم، وقد سُئِلَ عنه: مَنْ زعم أنْ عبد الحميد أكتب من أبي العِيَناء إذا أحسّ بكرم أو شرع في طمع، فقد ظلم. وبعث ملك الروم إلى المعتصم كتابًا يتوعّده فيه ويتهدّده، فأمر الكتاب أن يكتبوا جوابه، فكتبوا فلم يعجبه ممّا كتبوا شيئًا، فقال لبعضهم: اكتب بسم الله الرحمن الرحيم، أمّا بعد؛ فقد قرأت كتابك، وفهمت خطابك، والجواب ما ترى لا ما تسمع، وسيعلم الكافر لمن عُقِبى الدار.

وَمِنْ محاسن لطائفهم ما حُكي أنْ الرشيد قال ليحيى بن خالد: إني أردت أن أجعل الخاتم الذي في يد الفضل إلى جعفر، فاحتشمت منه فاكفنيه؛ فكتب يحيى إلى الفضل: قد أمر أمير المؤمنين أعلى الله قدره، وأنفذ أمره أن ينقل خاتمه من

(١) البيت في ديوان الفرزدق، من قصيدة مطلعها:

سرت ما سرت من ليلها ثم واقفت أبا قُظنٍ غير الذي للمخارق

يمينك إلى شمالك؛ فأجاب الفضل: قد سمعت ما قال أمير المؤمنين في أخي، وما انتقلت عني نعمة صارت إليه، ولا غربت عني رتبة طلعت عليه، فانظر إلى هذه المآثر والمكارم التي هي للجباه غُرر، وللثغور مباسم.

وَمِنْ مُلَحِّهِمْ مَا كَتَبَهُ أَبُو الْعَبْر، وَهُوَ أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْهَاشِمِيِّ تَقْلِيدًا لِأَبِي الْعَجَل: يَا أَبَا الْعَجَل وَقَقَّكَ اللَّهُ وَسَدَّدَكَ، وَإِلَى كُلِّ خَيْرٍ أَرْشَدَكَ، وَلَيْتَكَ خَرَجَ ضِيَاعَ الْهَوَاءِ، وَمَسَاحَةِ الْفُضَاءِ، وَكَيْلَ مَاءِ الْأَنْهَارِ، وَعَدَّ وَرَقِ الْأَشْجَارِ، وَطَرَارِ الْأَوْبَارِ، وَصَدَقَاتِ الْبُومِ، وَقَسَمِ الشُّومِ، بَيْنَ الْهِنْدِ وَالرُّومِ، وَأَجْرَيْتَ لَكَ مِنَ الْأَرْزَاقِ، مَا يَقُومُ بِأَوْدِكَ فِي الْإِنْفَاقِ، بُغْضُ أَهْلِ حِمَصٍ لِأَهْلِ الْعِرَاقِ، وَأَمَرْتِكَ أَنْ تَجْعَلَ عِيَالَكَ بَنِيْسَانِ، وَإِصْطَبْلَكَ بِهَمْدَانَ، وَمُطْبَخَكَ بِحِرَانَ، وَبَيْتَ مَالِكَ بِسَجِسْتَانَ، وَدِيْوَانَكَ بِغَانَه، وَمَجْلِسَكَ بِفَرَّغَانَه، وَخَلَعْتَ عَلَيْكَ خَفِّي حَنِينٍ، وَقَمِيصًا مِنْ شَيْنٍ، وَسِرَاطِيلَ مِنْ دَيْنٍ، وَعِمَامَةً مِنْ سَخْنَةٍ عَيْنٍ، وَحَمَلْتِكَ عَلَى حِمَارٍ مَقْطُوعِ الذَّنْبِ وَالْأَذْنَيْنِ، مَكْسُورِ الْيَدَيْنِ وَالرُّجْلَيْنِ، فَذُرْ فِي عَمَلِكَ كُلِّ يَوْمٍ مَرَّتَيْنِ، وَاحْمَدِ اللَّهَ عَلَى مَا أَلْهَمَنَا فَيْكَ، وَقَابِلْنَا بِالشُّكْرِ عَلَى مَا نُؤَلِّيكَ.

ولنذكر من كلام الخطباء ذوي البراعة واللسن

ما كان ذا لفظ بديع ومعنى حسن بعد أن نورد في شرف الخطابة والخطباء

كلامًا يمتزج بالقلوب امتزاج الماء بالصهباء

قال الله تعالى في حق داود عليه السلام مبيِّنًا عن شرف ما أُجْزِلَ لَهُ فِي الْعَطَاءِ وَأَطَابَ: ﴿وَأَتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْفُطُوبِ﴾ [ص: الآية ٢٠]. ذكر أن فصل الخطاب هو: أما بعد، في الخطبة وأنه أوَّل مَنْ قَالَهَا. وقالت العرب: إِنَّ أَوَّلَ مَنْ قَالَهَا قَسُ بْنُ سَاعِدَةَ الْإِيَادِي. وَأَوَّلَ مَنْ خَطَبَ لِقَمَانَ بَعْدَ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَبِهِ يُضْرَبُ الْمَثَلُ فِي الْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ.

وفي الحديث: «أَنْ شُعَيْبًا خَطِيبُ الْأَنْبِيَاءِ»^(١). وفي المثل: أخطب من قس هو قس بن ساعدة الإيادي، ولإياد وتميم شرف ليس لأحد من العرب؛ لأنَّ النَّبِيَّ ﷺ رَوَى كَلَامَ قَسٍ وَمَوْعِظَتَهُ بِعُكَاطٍ، وَهَذَا اسْتِنَادٌ تَعَجَّزَ عَنْهُ أَمَانِيُّ الرَّجَالِ، وَتَقَطَّعَ دُونَهُ الْأَمَالُ، وَبِذَلِكَ كَانَ خَطِيبَ الْعَرَبِ قَاطِبَةً.

(١) الحديث لم أجده بهذا اللفظ في كتب الحديث التي بين يدي.

وأما تميم، فإنَّ النبي ﷺ سأل عمرو بن الأيهم عن الزبرقان، واسمه حصين بن بدر، فأجابه بكلام مدحه فيه بما فيه، فلم يرض الزبرقان باقتصاره على ما قاله، ورأى أنَّه غَضَّ منه وأنها عثرة لا تقال، فقال في الحالة الراهنة كلامًا ذمه فيه بما فيه، فصدَّق في الأول ولم يمتن في الثاني، فعجب رسول الله ﷺ لسرعة فهمه، وتحرَّيه الصدق في مدحه وذمه، وقال في وصف كلامه ما هو به أخرى عطفًا على قوله للبيد: «إن من الشعر لحكمًا، وإنَّ من البيان لسحرا»^(١)، قال قيس بن عامر يمدح قومًا بالخطابة^(٢): [الكامل الأخذ]

خطباء حين يقوم قائلهم بيض الوجوه مصاقع لسن
وقال آخر يفتخر بقومه في المعنى^(٣): [الطويل]

وإنسي من قوم كرام أعزة لأقدامهم صيغت رؤوس المنابر
وقال أبو العباس الأعمى واسمه السائب ابن فروخ مادحًا لبني أمية بالخطابة في المعنى أيضًا^(٤): [الخفيف]

خطباء على المنابر فرسا ن عليها وقالة غير خرس
لا يُعابون صامتين وإن قا لوا أصابوا ولم يقولوا بلبس

والخطابة جزالة اللفظ وشدة المعارضة. وقال الجاحظ: رأس الخطابة الطبع وعمودها الدربة، وجناحها رواية الكلام وحليها الأعراب، وبهاؤها تخير اللفظ، والمحبة مقرونة بالإيجاز. وقال ابن أبي دؤاد: تلخيص المعاني رفق، والاستعانة بالغريب عجز، والتشادق بغض، والنظر في عيون الناس عي، ومسّ اللحية هلك، والخروج مما بُني عليه أول الكلام إسهاب.

ولرسول الله ﷺ الخطب التي حكمت فصاحتها بالعبي لقس، والفهاة لسحبان، ورجعت خاسئة عن مجاراتها في ميدان البلاغة سوابق الأذهان، غير أننا

(١) تقدم الحديث مع تخریجه.

(٢) البيت في البيان والتبيين، للجاحظ، ١/١٩٢؛ وديوان المعاني، لأبي هلال العسكري، ص ٣٠٤.

(٣) البيت للعبي في ديوانه، من قصيدة مطلعها:

رأين الغواني الشيب لاح بعارضي فأعرضن عني بالخدود التواضر

(٤) البيتان في ديوان أبي العباس الأعمى الملكي، من قصيدة مطلعها:

ليت شعري أفاح رائحة المـ سلك وما إن أخال بالخيف نفسي

نورد منها في هذا المكان قطرة من سحبها الصائب لنصيب الغرض المقصود، إصابة الهدف في السهم الصائب.

خطب عليه الصلاة والسلام، فقال: «أيها الناس إن لكم معالم فانتوها إلى معالمكم، وأن لكم نهاية فانتوها إلى نهايتكم، ألا وإن المؤمن بين مخافتين بين أجل قد قُضي لا يدري ما الله صانع فيه، وبين أجل قد بقي لا يدري ما الله قاض فيه، فليأخذ العبد من نفسه لنفسه، ومن دنياه لآخرته، ومن الشبيبة قبل الهرم، ومن الحياة قبل الموت؛ فوالذي نفس محمد بيده ما بعد الموت مستعتب، وما بعد الدنيا دار إلا الجنة أو النار»^(١)، فيا لها كلمات لو صادفت سمعاً واعياً، وقلباً لجناح الله داعياً.

وخطب أبو بكر الصديق رضي الله عنه عند موت النبي ﷺ، وقد غشي المسلمين بمصيبتهم به ما غشيهم، فقال: أيها الناس مَنْ كان يعبد محمدًا فإنَّ محمدًا قد مات، ومَنْ كان يعبد الله فإنَّ الله حيٌّ لا يموت، إنَّ الله اختار لنبيه ما عنده على ما عندكم، وقبضه إلى ثوابه، وخلف فيكم كتاب الله وسنته، فمن أخذ بهما عرف، ومن فرَّق بينهما أنكر، ثم تلا: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ [آل عمران: الآية ١٤٤] الآية، ثم قال: أشهد إنَّ الكتاب كما أنزل، وأنَّ الحديث كما حدث، وأنَّ الله حيٌّ لا يموت، وإنا لله وإنا إليه راجعون. وكان إذا فرغ من خطبته يقول: اللَّهُمَّ اجعل خير زماني آخره، وخير عملي خواتمه، وخير أيامي يوم لقائك.

وكان عمر يقول آخر خطبته: اللَّهُمَّ لا تدعني في عُمره، ولا تأخذني على غرة، ولا تجعلني من الغافلين.

وخطب علي رضي الله عنه قال: أما بعد؛ فإنَّ الدنيا قد آذنت بدواع، وأنَّ الآخرة قد أقبلت وأشرفت باطلاع، وأنَّ المضممار اليوم وغداً السباق، فاعملوا لله في الرغبة كما تعملون له في الرهبة، وأنَّ أخوف ما أخاف عليكم اتباع الهوى، وطول الأمل.

(١) انظر الخطبة والحديث عند القرطبي في تفسيره ١١٦/١٨.

وخطب معاوية رضي الله عنه في يوم شديد الحر، قال: بعد التحميد، إِنَّ الله خلقكم فلم ينسكم ووعظكم فلم يهملكم، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: الآية ١٠٢].

وخطب يزيد بن معاوية بعد موت أبيه، قال: الحمد لله ما شاء صنع، مَنْ شاء أعطى وَمَنْ شاء مَنَعَ، ومن شاء خفض وَمَنْ شاء رفع، إِنَّ أمير المؤمنين معاوية كان حبلاً من حبال الله تعالى، مَدَّهُ ما شاء أَنْ يَمُدَّهُ، ثم قطعه حين أراد قطعه، وكان دون مَنْ قبله، وخَيْر مَنْ بعده، ولا أَزْكِيه عند رَبِّه وقد صار إليه، فَإِنْ يَغْفُ عنه فبرحمته، وَإِنْ يعاقبه فبذنبه، وقد وَلَّيت الأمر بعده، ولست أعتذر من جهل ولا آسى على طلب علم، وعلى رسلكم إذا كره الله شيئاً عَسَره، وإذا أراد أمراً يَسره.

وخطب سليمان بن عبد الملك، فقال: أَلَا إِنَّمَا الدنيا دار غرور ومنزل باطل، تُضْحِكُ باكيًا، وتُبْكِي ضاحكًا، وتُخِفُ آمَنًا، وتُؤْمِنُ خائفًا، وتُفْقِرُ مثرىً، وتثري فقيرًا، اعلّموا عباد الله أن هذا القرآن يجلو كَيْدَ الشيطان كما يجلو ضوء الصبح إذا تنفّس، وظلام الليل إلى عسعس.

وخطب عمر بن عبد العزيز، فقال: أَيُّهَا النَّاسُ أَصْلَحُوا سرائركم تَصْلَحْ لَكُمْ علانيتكم، وَأَصْلَحُوا دنياكم تَصْلَحْ لَكُمْ آخرتكم، وَإِنْ امرءًا ليس بينه وبين آدم أَبٌ حَتَّى لعريق في الموتى. وكان يقول في آخر خطبته: اللَّهُمَّ إِنَّ ذُنُوبِي عَظُمَتْ عَنْ أَنْ تُخَصِّى، وهي صغيرة في جنب عفوك، فاعف عني. وخطب في زواج، فقال: الحمد لله ذي الكبرياء، وصَلَّى الله على سيدنا محمد خاتم الأنبياء، أَمَّا بعد؛ إِنَّ الرِّغْبَةَ مِنْكَ دَعَتْكَ إِلَيْنَا، والرَّهْبَةُ مِنْكَ أَجَابَتْ، وقد زَوَّجْنَاكَ على كتاب الله وستة رسوله، إِمَّا إِمْسَاكَ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيعَ بِإِحْسَانٍ.

وخطب السفاح لَمَّا قُتِلَ مروان وبُويَع، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ [إبراهيم: الآية ٢٨] الآية، ثم قال: نكص بكم يا أهل الشام آل حرب، وآل مروان، ماذا يقول زعماءكم؟ يقولون: ربنا هؤلاء أضلونا فاتهم عذاباً ضعفاً من النار، إِذَا يقول الله وفاء بما وعد لكل ضعف ولكن لا تعلمون، أَمَّا أَنَا فقد غفرتُ لكم الزَّلَّةَ، وبسطت لكم الإقالة، وعدت بفضلي على نقصكم، وبخُلْمِي على جَهْلِكُمْ، فليسكن روعكم ولتطمئن بكم داركم، ولتعظكم مصارع أولئكم فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا.

وخطب المنصور، فقال: أحمد الله وأستعينه وأتوكل عليه وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أيها الناس اتقوا الله، فقام إليه رجل وقال: أذكرك من ذكرتنا به، وأنت في ذكره يا أمير المؤمنين، فقال المنصور: مرحباً مرحباً، لقد ذكرت جلياً، وخوفت عظيماً، وأعوذ بالله أن أكون ممن إذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم، والموعظة منّا بدت، ومن عندنا خرجت - وفي رواية، قال: سمعاً وطاعة لمن سمع عن الله ودُكر به - وأعوذ بالله أن أذكر به وأنساه، لقد ضللت إذا وما أنا من المهتدين، ثم التفت إلى الرجل وقال وأما أنت يا قائلها فوالله ما الله أردت بهذا، ولكن ليقل قام فلان فقال، فعُوب فصبر، وأهون بها من قائل لو كانت وأنا أنذركم أيها الناس أختها، فإن الموعظة الحسنة علينا نزلت، وفيها ثبتت، ثم قال: رحم الله امرأً نظر في دنياه لآخرته فمشى القصد، وقال القصد وجانب الهجر، ثم أخذ بقائم سيفه وقال: إن بكم داء هذا شفاؤه وأنا زعيم لكم بشفاؤه، فليعتبر عبد قبل أن يُعتبر به، فما بعد الوعيد إلا الإيقاع، وإنما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله.

وخطب المأمون في يوم عيد، فقال: أيها الناس عظم قدر الدارين، وتباين جزاء العالمين، وطالت مدة الفريقين، الله الله إنه الجد لا اللعب، والحق لا الكذب، وما هو إلا الموت والبعث والميزان والحساب، والصراط والقصاص، والثواب والعقاب، فمن نجا يومئذ فقد فاز، ومن هوى قد خاب، الخير كله في الجنة، والشر كله في النار.

فلله هذه الكلمات ما أجلاها لصد الذنوب، وأحلاها واقعاً في القلوب، ولم تزل خلفاء بني العباس يخطبون على المنابر في الجُمع والأعياد، وآخر من فعل ذلك منهم الراضي.

خطب العمال: قال الشعبي: ما سمعت أحداً يتكلم إلا تمنّيت أن سكت مخافة أن يخطيء إلا زياداً، فإنه كان لا يزداد إكثاراً إلا ازداد حسناً، خطب، فقال: أيها الناس لا يمنعكم سوء ما تعلمون أن تنتفعوا منّا بأحسن ما تسمعون، فإن الشاعر يقول^(١): [البسيط]

اعمل بقولي ولا تنظر إلى عملي ينفعك قولي ولا يضررك تقصيري

(١) البيت للخليل بن أحمد الفراهيدي في ديوانه، وهو مطلع القصيدة. ورواية البيت في الديوان: اعمل بعلمي وإن قصرت في عملي ينفعك علمي ولا يضررك تقصيري

كذا وقعت لي هذه الحكاية، ثم وجدت بعد ذلك في بعض التعليقات هذا البيت منسوباً للخليل بن أحمد، ويجوز أن يكون الخليل أنشده متمثلاً به - والله أعلم - وقال بعد إنشاده البيت: اسمعوا قولي هذا وعُوه، فإنما علي ما حملت وعليكم ما حملتم.

وخطب مصعب بن الزبير لما قدم العراق واليا عليه من قبل أخيه عبد الله، فقال: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿طَسَدَ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾﴾ [القصص: الآيات ١ - ٣]، وأشار بيده نحو الشام والحجاز والعراق، ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ مِنْهُم طَائِفَةً مِنْهُمْ يُلْبِغُ أَبنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُمْ كَانَتْ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿١﴾﴾ [القصص: الآية ٤]، وأشار بيده نحو الشام - يريد عبد الملك بن مروان - ﴿وَرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُكَرِّرَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ [القصص: الآيتان: ٥، ٦]، وأشار نحو الحجاز - يريد أخاه عبد الله - ﴿وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَخُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ [القصص: الآية ٦]، وأشار نحو العراق - يريد أجناد عبد الملك - وكان الحجاج من الفصحاء البلغاء، قال الشعبي: كنت ممن شاهده على المنبر ما رأيت أحداً أبين من الحجاج، إن كان ليرقى المنبر فيذكر إحسانه إلى أهل العراق وصفحه عنهم وإساءتهم عليه حتى أقول في نفسي إني لأحسبه صادقاً، وإني لأظنهم كاذبين.

خطب، قال: أما بعد؛ فإن الله كتب على الدنيا الفناء وكتب على الآخرة البقاء، ولا بقاء لما كتب عليه الفناء، ولا فناء لما كتب عليه البقاء، فلا يغرنكم شاهد الدنيا عن غائب الآخرة، وأقصروا طول الأمل بقصر الأجل. قال الشعبي: كلام حكمة خرج عن قلب خرب.

وخطب سليمان بن علي بالعراق لما قتلت الأمويون، فقال: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٥٥﴾﴾ إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ ﴿١٥٦﴾﴾ [الأنبياء: الآيتان ١٥٥، ١٥٦]، قضاء مبرم وقول ﴿فَصَلِّ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِأَمْرٍ﴾ [الطارق: الآيتان ١٣، ١٤]، الحمد لله الذي صدق عبده، وأنجز وعده، و﴿بَعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [هود: الآية ٤٤] الذين اتخذوا الكعبة غرضاً، والقيء إرثاً، ﴿جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ [الحجر: الآية ٩١]، لقد جاءهم ما كانوا به يستهزون، ﴿فَكَأَنَّ مِنْ قَرِيبَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فِيهِ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَبْرِ مَعْطَلَةٍ وَفَصْرٍ مَشِيدٍ ﴿١٥٠﴾﴾

[الحج: الآية ٤٥]، ﴿ذَلِكَ يَكَا قَدَمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: الآية ١٨٢]، أمهلوا والله حتى نبذوا الكتاب والسنة واعتدوا واستكبروا ﴿وَحَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [إبراهيم: الآية ١٥]، ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [الحج: الآية ٤٤]، ﴿هَلْ يُحِشُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ سَمِعَ لَهُمْ رِكْزًا﴾ [مريم: الآية ٩٨].

وخطب داود أخوه بالمدينة، فقال: أيها الناس حتام يهتف بكم صريحا، أما أن لراقد أن ينتبه، ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: الآية ١٤]، أغركم الإمهال حتى حسبتموه الإهمال، هيهات منكم وكيف بكم والسوط والسيف مشيم؛ ثم أنشد^(١): [الكامل]

حتى تبید قبيلة وقبيلة ويعض كل مثقف بالهام
ويقمن بات الخدور حواسرا يمسحن عرض نواصي الأيتام

قال الجاحظ: داود وسليمان من أفصح خطباء بني هاشم، كانا في البيان فرسي رهان، ألا إن داود فتق لسانا، وأروق بيانا، وكان لا يتقدم في تحرير خطبة قط.

وواجب أن يكون بهذا الفصل لاحقا، ذم من ظل بمستثقل التعيير ناطقا. قال رسول الله ﷺ: «أبغضكم إلي الثرثارون المتفيهقون»^(٢). قال أبو العباس محمد بن يزيد المبرد: الثرثارون الذين يتكلمون بالكلام تكلفا وتجاوزا وخروجا عن الحد من قولهم: نهر ثرثار لكثرة مائه، والمتفيهقون تأكيد وهو مأخوذ من قولهم: فحق الغدير يفحق إذا امتلأ. وقال بشر بن المعتمر: إياك والتعيير، فإنه يسلمك إلى التعقيد، فتستهلك معانيك، ويمنعك من إصابة مراميك. وقال بعض البلغاء: أحذركم والتعمق في القول والتكلف، وعليكم بمحاسن الألفاظ والمعاني المستخفة المستملحة، فإن المعنى المليح إذا كسى لفظا حسنا وأعاره البليغ مخرجا سهلا، كان في قلب السامع أحلى ولصدره أملى. وقال بعض الحذاق: إياك والنحو بين العامة، فإنه كاللحن بين الخاصة. وما أحسن قول أبي عمرو بن العلاء في نحو هذا المعنى^(٣): [المقارب]

لعمرك ما اللحن من شيمتي ولا أنا عن خطي اللحن
ولكنني قد قسمت الكلام أخاطب كلاً بما يحسن

(١) البيتان في العقد الفريد، لابن عبد ربه.

(٢) أخرجه بنحوه الترمذي في البر باب ٧١، وأحمد في المسند ٤/١٩٣، ١٩٤.

(٣) البيتان لم أجدهما في المصادر والمراجع التي بين يدي.

وقالوا: خير الكلام ما لم يكن عاميًا سوقيًا، ولا عربيًا وحشيًا. وقال أبو الأسود الدؤلي لولده: يا بني إذا كنت في قوم فلا تكلمهم بكلام لم يبلغه سنك فيستقلوك، ولا بكلام هو دونك فيزدروك ويحتقروك.

فمن بوارد نواذر المتقعرين وشوارد بواذر المتفيهقين

ما حُكي عن أبي علقمة النحوي أنه هاج به دم فأتى بحجام، فقال: يا هذا اشدد قصب المحاجم، وأرهف ظبة المشارط، وأسرع الوضع، وعجل النزع، وليكن شرطك وخزًا، ومصك نهزًا، ولا تكرهن آتيا، ولا تردن آتيا؛ فقال له الحجام: جُعِلت فداك إن هذه الصنعة لا أحسنها، وهذه حرب لا يشب نارها ولا يشق غبارها إلا عمرو بن معديكرب، ثم تركه وانصرف ولم يحجمه. ومن أظرف ما يُنسب إليه ما يُحكي عنه أنه هاج به يومًا مرار فسقط على وجهه، وأقبل قوم يعضون إبهامه، وقوم يؤذنون في أذنه ظنًا منهم أنه مصروع، فلما أفاق من غمرات غشيته رآهم محدقين به، فقال: ما لي أراكم تتكأؤون عليّ تكأكم على ذي جنة، افرنقوا عني؛ فقال بعضهم لبعض: دعوه فإن جنيته تتكلم بالهندية.

اشترى الفضل بن الحباب جارية فوجدها ضيقة المسلك، فقال: يا جارية هل من بساق أو بزاق أو بصاق؛ لأنّ العرب تبدل السين صاذا وزايا، فقالوا: صقر وسقر وزقر؛ فقالت الجارية: الحمد لله الذي لم يُمِثني حتى رأيت حري قد صار ابن الأعرابي يقرأ عليه اللغة. وأتى رجل بعض الولاة، قال: أعز الله الأمير إن لي ابن أخ أشرا بطرا قد انضوى إلى كل سكير وخمير عمد إلى عود فنحته وإلى معي فقضبه، فطنَ وطنطن حتى فطن به، فأحب عقوبته حتى ينتهي عن ذلك، فتقدم الأمير بإحضاره، فلما مثل بين يديه قال له: يا ابن أخي ألم أطعمك ألدّ الطعام؟ ألم أسقك أطيب الشراب؟ قال: بلى يا عم، قال: ما لك والتعدي أضجعوه وجئوا عنقه، فالتفت إليه الشاب وقال: والله يا عم لوقع السياط على بدني أحب إليّ من وقع كلامك في أذني، فضحك منه الأمير وأطلقه. أنشد العجاج وأعرابي حاضر عند الوليد بن عبد الملك^(١): [الخفيف]

أَمَسَتِ الْغَانِيَاتُ تَرْمِي صَدُودًا وَأَرَانِي لِلْغَانِيَاتِ مَصِيدًا

(١) البيت لم أجده في المصادر والمراجع التي بين يدي.

فقال الأعرابي للعباس بن الوليد: تنحّ عنه لئلا تسقط عليك من فيه كلمة فتشدّخك. ومن أجل هذا النادر استثقل التعجير أهل الرشاقة في الألفاظ والحلاوة، وقادوا طباعهم إلى اللطافة والطلاوة، فقالوا: متى كان اللفظ كريماً في نفسه، متخيّراً في جنسه، وكان سليماً من التعجير والتعقيد، حبّب إلى النفوس واتّصل بالأذهان، والتحم بالعقول، وهشّت له الأسماع وارتاحت إليه القلوب، وخفّت على ألسنة الرواة حملة، وشاع في الآفاق ذكره. ومدحوا التارك للتعجير، فقالوا: فلان لم يَزُضْ بالتكليف مذهباً، ولا اتَّخذ التصنّع مركباً، وقالوا: فلان له ألفاظ لا يشوبها كدر العي، ولا يطمس رونقها التكلف، ولا يمحو طلاوتها التفيهق، أعذب من الماء، وأبعد من السماء.

الفصل الثالث من الباب الخامس

في أنّ معرفة حرفة الأدب مانعة من ترقّي أعالي الرُتب

قال رسول الله ﷺ: «ما ازداد الرجل حِذْقاً في صنعة إلّا كان ذلك نقصاً من رزقه»^(١). وقالوا: المتقدّم في الحذق، متأخر في الرزق. وقالوا: حرفة الأدب أعدى لصاحبها من الجَرَب. وقالوا: الرزق عند ذوي الأدب أروغ من ثعلب. ومن أمثال عوام بغداد: جهل يعولني خيرٌ من علم أعوله. وقال الخليل بن أحمد: إذا كثر الأدب قلّ خيره، وإذا كثر خيره كثر ضيّره. وقال أبو بكر الخوارزمي في هذا المعنى^(٢): [الهزج]

وإن سرّك حرمان به تصبح مقلّياً
فكن ذا أدب جزل وكُن مع ذاك نحوياً

(١) الحديث لم أجده بهذا اللفظ في كتب الحديث التي بين يدي.

(٢) البيتان لأبي هفان المهزبي في ديوانه، من قصيدة مطلعها:

إذا ما شئت أن تحظى وأن تلبس فوهياً
ورواية البيتين في الديوان:
وإن سرّك أن تشقى وأن تصبح مقلّياً
فكن ذا نسب ضخم وكُن مع ذاك نحوياً

ويقال: حرفة الأدب لا يسلم من حرمانها أديب. وقالوا: التأديب تعذيب. وأنشد الخليل بن أحمد^(١): [البسيط].

ما ازددت من أدب حرفاً أسر به إلا تزايدت حرفاً تحته شوم
إنّ المقدم في حذق بصنعتة أتى توجه فيها فهو محروم
وقال ابن رشيّق^(٢): [الكامل]

أشقى بجذك أن تكون أديباً أو أن يرى فيك الورى تهذيباً
إن كان مستويّاً ففعلك أعوج يوماً وإن أخطأت كنت مصيباً
كالقصّ ليس يبين معنى نقشه حتى يكون بناؤه مقلوباً
ابن طباطبا^(٣): [الطويل]

أليس عجيباً أنني مع تسبّبي وشعري ما أعطيت جدّاً ولا حدّاً
وإني إذا ما زرت قومًا مسلمًا حجبت فظنّوا أنني أبتغي رفداً
وقد طال إفلاسي وأحسب مثرىً فأصبحت لا يجدى عليّ وأستجدي
آخر^(٤): [البسيط]

قالوا أديب فأين المال قلت لهم قوسي بلا وتر سهمي بلا فوق
من لا يكون له جدّ يساعده تكون آدابه كالنفخ في البوق

ولما خلع المقتدر بُويّع عبد الله بن المعتز بن المتوكل ولقب المرتضي بالله أدركته حرفة الأدب، فلم يقيم في الخلافة غير يومين ثم اضطرب حبله، وهطل عليه طلّ الحرمان ووبله، فهرب إلى دار ابن الجصاص التاجر، فاختفى عنده ثم أخرج منها إلى القضاة والشهود العدول ميتاً بعد أيام يسيرة، وذلك في يوم

(١) البيتان في ديوان الخليل بن أحمد الفراهيدي، وهما بيتان منفردان.

(٢) الأبيات في ديوان ابن رشيّق القيرواني، وهي ثلاثة أبيات منفردة، ورواية الأبيات في الديوان:

أشقى لعقلك أن تكون أديباً لو أن يرى فيك الورى تهذيباً
ما دمت مستويّاً ففعلك كلّهُ عوجٌ وإن أخطأت كنت مُصيباً
كالنقش ليس يصح معنى ختمه حتى يكون بناؤه مقلوباً

(٣) الأبيات في ديوان ابن طباطبا العلوي، وهي ثلاثة أبيات منفردة، والبيت الثالث فيه إقواء.

(٤) البيتان لم أجدّهما في المصادر والمراجع التي بين يدي.

الخميس لليلتين خلتا من شهر ربيع الأول سنة ست وتسعين ومائتين، قال فيه ابن بسام من أبيات يرثيه بها^(١): [البسيط]

لله دَرْكٌ مِنْ مَيِّتٍ بِمُضِيْعَةٍ نَاهِيكَ فِي الْعِلْمِ وَالْأَدَابِ وَالْحَسْبِ
مَا فِيهِ لَوْلَا وَلَا لَيْتَ فَتَنْقِمَهُ وَإِنَّمَا أَدْرَكَتْهُ حَرْفَةُ الْأَدَبِ

وقال أبو عبيدة معمر بن المثنى، قال لي أبي: إذا كتبت كتابًا فألحن فيه، فَإِنَّ الصَّوَابَ حَرْفَةٌ وَالْخَطَأُ نَحْجٌ. أخذه بعض الشعراء فنظمه في قوله^(٢): [السريع]

إِنْ كُنْتُ يَوْمًا كَاتِبًا رَقْعَةً تَبْغِي بِهَا نَجْحَ وَصُولِ الطَّلَبِ
إِيَّاكَ أَنْ تَعْرِبَ أَلْفَاظَهَا فَتَكْتَسِي حَرْفَةَ أَهْلِ الْأَدَبِ

وقال أبو عبيدة: مَنْ أَرَادَ أَنْ يَأْكُلَ الْخَبْزَ بِأَدْبِهِ، فَلْتَبْكْ عَلَيْهِ الْبَوَاكِي. ولقد أجاد أبو إسحق الصابي في قوله^(٣): [البسيط]

قَدْ كُنْتُ أَعْجَبُ مِنْ مَالِي وَكَثْرَتِهِ وَكَيْفَ تَغْفُلُ عَنِّي حَرْفَةُ الْأَدَبِ
حَتَّى انْثَنْتُ وَهِيَ كَالْغَضْبِ تَلَا حِطْنِي شَزْرًا فَلَمْ تَبْقَ لِي شَيْئًا مِنَ النَّشَبِ
وَاسْتَيْقَنْتُ أَنَّهَا كَانَتْ عَلَى غُلَطٍ وَاسْتَدْرَكَتْهُ وَأَقْضَتْ بِي إِلَى الْحَرْبِ
الضَّبِّ وَالنُّونِ قَدْ يَرْجَى اجْتِمَاعَهُمَا وَلَيْسَ يُرْجَى اجْتِمَاعُ الْفَضْلِ وَالذَّهَبِ

والسبب في حرمان الأدباء موهبة الحظ وخمول النجباء

ما ذكره بعض المنصفين منهم في قوله: إِنَّ ذَا الْأَدَبِ لَا يَزَالُ مَتَسَخِّطًا عَلَى دُنْيَاهُ ذَائِمًا لِحَالِهِ؛ لَمَا يَرَى مِنْ مَيْلِ الزَّمَانِ لِلثَّامَةِ وَجَهَالِهِ، فَهُوَ لَا يَمْدَحُهُمْ لِعِلْمِهِ بِقُصُورِهِمْ عَنْ إِدْرَاكِ مَنْظُومِهِ، وَلَا يُثَابُ إِمَّا بِجَهْلِ مَمْدُوحِهِ وَإِمَّا مِنْ إِفْرَاطِ بَخْلِهِ النَّاتِجِ عَنْ لُؤْمِهِ. وقيل للحسن البصري: لِمَ صَارَتِ الْحَرْفَةُ مَقْرُونَةً بِمَنْ جَعَلَ الْعِلْمَ وَالْأَدَبَ شِعَارًا، وَالثَّرْوَةَ بِمَنْ كَسَاهُ الْجَهْلُ وَالْحَمَقُ عَارًا؟ فقال: لَيْسَ الْقَوْلُ كَمَا قُلْتُمْ، وَلَا الْأَمْرُ كَمَا زَعَمْتُمْ، وَلَكِنْ كُنْتُمْ تَطْلِبْتُمْ قَلِيلًا فِي قَلِيلٍ فَأَعْجَزَكُمْ، تَطْلِبْتُمْ الْمَالَ وَهُوَ قَلِيلٌ عِنْدَ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالْأَدَبِ وَهُمْ قَلِيلٌ، وَلَوْ نَظَرْتُمْ إِلَى مَنْ تَحَارَفَ مِنْ أَهْلِ

(١) البيتان في ديوان ابن بسام البغدادي، وهما بيتان منفردان.

(٢) البيتان لم أجدهما في المصادر والمراجع التي بين يدي.

(٣) الأبيات في التمثيل والمحاضرة، للثعالبي، ص ١٥٨.

الجهل لوجدتموهم أكثر إقتارًا، والمال عنهم أشد نفاذًا. وقال أبو الحسن عليّ المعروف بابن البغل متضجرًا من الخمول^(١): [الكامل]

الدهر ضدّ ذوي الفضائل كلهم حتى كأنّ عدوّه من يفهم
لو كنت أجهل ما علمت لسرّني جهلي كما قد ساءني ما أعلم
كالصعو يرتفع في الرّياض وإنّما حبس الهزار لأنّه يترنّم
آخر^(٢): [السريع]

يطوي لأهل الفضل دون الوريّ مصائب الدّنيا وآفاتهما
كالطّير لا يحبس من بينها إلّا التي تطرب أصواتها
الخدلجي^(٣): [الخفيف]

قل عني غناء عقلي وديني ودخولي في العلم من كلّ باب
أدركتني وذاك أعظم دائي حسنات من حرفة الآداب
آخر^(٤): [الخفيف]

قد عقلنا والعقل شرّ وثاق وصبرنا والصبر مرّ المذاق
إنّ من كان فاضلاً كان مثلي فاضلاً بعد قسمة الأرزاق

وربما أعدت حرفة الأدب أهل الوراقة فاظلتهم منها سحائب الحرمان والفاقة

قال أحمد بن عبد الله بن حبيب المعروف بأبي هفان: سألت ورّاقًا عن حاله، فقال: عَيْشِي أَضْيَقُ مِنْ مَحْبَرَةٍ، وَجَسْمِي أَدَقُّ مِنْ مَسْطَرَةٍ، وَجَاهِي أَوْهَى مِنْ الزَّجَاجِ، وَحَظِّي أَشَدُّ سَوَادًا مِنَ الْعَفْصِ إِذَا خَلَطَ بِالزَّاجِ، وَسَوْءُ حَالِي أَلْزَمَ لِي مِنَ الصَّمْغِ، وَطَعَامِي أَمَرُّ مِنَ الصَّبْرِ، وَشَرَابِي أَكْدَرُ مِنَ الْحَبْرِ، وَالْهَمُّ وَالْأَلَمُ

(١) الأبيات لناصح الدين الأرجاني في ديوانه، وهي ثلاثة أبيات منفردة.

(٢) البيتان بلا نسبة في وفيات الأعيان، لابن خلكان، في ترجمة ناصح الدين الأرجاني.

(٣) البيتان لم أجدهما في المصادر والمراجع التي بين يدي.

(٤) البيتان لابن دانيال الموصلي في معاهد التنصيص، لعبد الرحيم العباسي، ص ٢٩٢، وديوانه، وهما بيتان منفردان.

يجريان في علقه قلبي مجرى المداد في شقّ القلم؛ فقلت: يا أخي لقد عبّرت ببلاء
عن بلاء؛ فأنشد^(١): [الكامل]

المال يستر كل عيب في الفتى والمال يرفع كل وغد ساقط
فعليك بالأموال فاقصد جمعها واضرب بكتب العلم وجه الحائط
آخر^(٢): [مجزوء الكامل]

إن الوراقة والتفقه ه والتشاغل بالعلوم
أصل المذلة والإضم لاقة والمهانة والهموم
وأشدت لأبي النصر بن أبي الفتح كشاجم^(٣): [الخفيف]

غبط الناس بالكتابة قومًا حرموا حظهم بحسن الكتابة
وإذا أخطأ الكتابة حظ سقطت تاؤه فصارت كآبة

وقال إسحق بن إبراهيم بن حمدويه المعروف بالحمدوي^(٤): [البسيط]

ثنتان من أدوات العلم قد ثنتا عنان حظي عما رُمّت من نعم
وحبرت لي صحاف الحبر محبرة تذود عني سوام المال والنعم
والعلم يعلم أني حين آخذه لعصمتي نافر خلّو من العصم

سمع بعض مجان الأدباء رجلاً يقول: لا خير في علم لا يدخل مع صاحبه
الحمام، فقال: نعم، إلّا أنه متى لم يكن معه دائق يخرج به بقي رهناً. ابن صادة
الأندلسي^(٥): [الكامل]

أما الوراقة فهي أنكد حرفة أغصانها وثمارها الحرمان
شبّهت صاحبها بإبرة خائط تكسو العراة وجسمها عريان

(١) البيتان بلا نسبة في النجوم الزاهرة، لابن تغري بردي، في أحداث سنة ٨٢ هـ، سلطنة الملك الأشرف برسباني.

(٢) البيتان لم أجدهما في المصادر والمراجع التي بين يدي.

(٣) البيتان في يتيمة الدهر للثعالبي ٣٥٥/١.

(٤) الأبيات في ديوان الحمدوي، من أربعة أبيات، والبيت الرابع:

أما الدواة فأدمى جرمها جسدي وقلم الحظّ تحريف من القلم

(٥) البيتان لأبي محمد ابن سارة في المطرب في أشعار أهل المغرب، لابن دحية الكلبي، ص ١١٤.

وأنشد أبو منصور عبد الملك بن إسماعيل الثعالبي في اليتيمة لأبي حاتم
الوراق^(١): [الكامل الأحذ]

إنَّ السوراقة حرفة هزلت محرومة عيشي بها زمنُ
إن عشت عشت وليس لي أكل أو متّ متّ وليس لي كفنُ

وقال الشريف أبو يعلى بن الهبارية من قصيدته الخمسة التي أولها^(٢):
[مجزوء الرجز]

حيّ على خير العمل

يذم الوراقة:

تبألرب المحبرة يا ويله ما أدبرة
وعيشه ما أكدرة ورزقه ما أقترة

إن لم تصدقني فسل

آخر^(٣): [الرجز]

أدمى البكا عيني والماقي وظلّت ذاهمّ وذا احتراق
ما إن أرى في الأرض والآفاق أزرى ولا أشقى من الوراق
إذا بدا في القمص الأخلاق يفرح بالحبر والأوراق
كفرحة الجندي بالأرزاق

آخر^(٤): [الوافر]

هربت من الوراقة ملء شوطي فردّني الزمان إلى الوراقه
وترك المرء حرفته فرازا لأمر ليس يدره حماقه

(١) البيتان في يتيمة الدهر، للثعالبي، ٥١٠/٤، ورواية صدر البيت الأول فيه:

إن الوراقة حرفة مذمومة

(٢) الأبيات لم أجدها في المصادر والمراجع التي بين يدي.

(٣) الرجز لم أجده في المصادر والمراجع التي بين يدي.

(٤) البيتان لم أجدهما في المصادر والمراجع التي بين يدي.

السبب في حرمان ذوي التباهة فقدان أهل الفضل والوجاهة

يُزَوَّى أَنَّ عائشة بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما ذكرت يوماً قول
ليبد^(١): [الكامل]

ذهب الذين يعاش في أكنافهم وبقيت في خلف كجلد الأجر
وقالت: لله أبوه ما كان أشعره لقد صدق، قالوا: وكيف يا أم المؤمنين؟
قالت: كان أحدهم إذا علم من أخيه خلة سدها من حيث لا يعلم، ثم ذهب
أولئك وجاء قوم كان أحدهم إذا علم من أخيه خلة سدها من حيث يعلم، ثم جاء
من بعدهم قوم إذا علم أحدهم من أخيه خلة أحب أن يسأله فإذا سأله أعطاه، ثم
جاء من بعده قوم إذا علم أحدهم من أخيه خلة أحب أن يسأله فإذا سأله منعه ثم
بعد ذلك يفضح، فيقول: جاء فلان يسألني فلم أعطه، والله در القائل^(٢): [مجزوء
الرمل]

لا يغرنك اللباسُ	ليس في الأنواب ناسُ
هم وإن نالوا الثريا	بخلاء وخساسُ
كل من يدعى رئيساً	هو في الخسة رأسُ
كم يد تصلح للقط	ع فتفدى وتباسُ

آخر^(٣): [الوافر]

علام تحركي والحظ ساكنُ	وما قصرت في طلبي ولكنُ
أرى نذلاً تقدّمه المساوي	على حرّ تؤخره المحاسنُ

جحظة^(٤): [الكامل الأحذ]

لي حاجة لو أنها قضيّت	لعشت في خير وظلّ ظليل
حياة من مات وموت الذي	ليس إلى إحيائه من سبيل

(١) البيت في ديوان ليبد بن ربيعة العامري، من قصيدة مطلعها:

طرب الفؤاد وليته لم يطرب وعناه كرى خلة لم تعقب

(٢) الأبيات لفارس المعروف بطلق، في خريدة القصر، للعماد الأصبهاني، ص ٨١٢.

(٣) البيتان لفتيان الشاغوري في ديوانه، وهما بيتان منفردان.

(٤) البيتان في ديوان جحظة البرمكي، وهما بيتان منفردان.

دخل بعض الظرفاء على يحيى بن خالد بن برمك، وهو في السجن يريد زيارته، فقال له: ما تشتهي؟ فقال: أنا أرى إنساناً، فأخذ الرجل المرأة وأراه وجهه فيها، فشكر له ذلك ثم أنشده^(١): [البسيط]

ما أكثر الناس بل ما أقلهم الله يعلم أنني لم أقل فنذا
إني لأفتح عيني حين أفتحها على كثير ولكن لا أرى أحدا

وقيل لسعيد بن المسيب، وكان في عينه ماء: ألا تقدح عينيك؟ فقال: حتى أنظر بهما إلى من. ومثل ذلك ما قاله أبو العيناء معتذراً عن عماء^(٢): [مخلع البسيط]

قالوا العمى منظرٌ قبيحٌ قلت بفقددي لكم يهونُ
والله ما في الأنعام حرٌّ تأسى على فقد العيونُ

وسأل رجل من رجل حماراً عارية، فأخرج له إكافاً، وقال له: اجعله على من شئت. ومزّ رجل بصديق له فرآه واقفاً على الطريق، فقال له: ما وقوفك ههنا؟ فقال: ...^(٣). وقيل لأبي العيناء: هل بقي من يلقي؟ قال: نعم في البئر. ومزّ ببعض السكك فحبسه إنسان يريد العبث به، قال له أبو العيناء: من أنت؟ قال: ابن آدم، فأقبل يسلم عليه سلام مستوحش، وقال: عجب والله ما ظننت إلا أن هذا النسل قد انقطع، يشير إلى ضياعه من أهل زمانه.

وقال الشاعر^(٤): [الكامل]

المادحون اليوم أهل زماننا أولى من الهاجين بالحرمان
ذهب الذين يهزهم مدّاحهم هزّ الكمأة عوالي المزان
كانوا إذا مدحوا رأوا ما فيهم فالأريحية منهم بمكان

وقال بشار بن برد: لقد عشت في زمان وأدركت أقواماً لو اختلقت الدنيا ما تجملت إلا بهم، وأنا الآن في زمان ما أرى فيه عاقلاً حصيماً، ولا فاتكاً ظريفاً،

(١) البيتان لدعبل الخزاعي ولعلي بن أبي طالب في ديوانيهما، وهما فيهما بيتان منفردان.

(٢) البيتان لبشار بن برد في ديوانه، وهما بيتان منفردان.

(٣) بياض في الأصل.

(٤) الأبيات لابن الرومي في ديوانه، والبيت الأول هو مطلع القصيدة.

ولا ناسكًا عفيفًا، ولا جوادًا شريفًا، ولا خادمًا نظيفًا، ولا جليسًا خفيفًا، ولا مَنْ
يساوي على الخبرة رغيًا؛ وأنشد^(١): [الطويل]

فما النَّاسُ بالناس الذين عهدتهم ولا الدار بالدار التي كنت أعرفُ
ابن الرومي^(٢): [السريع]

أَيْسْتُ مَنْ دهري وَمِنْ أهله فليس فيهم أحدٌ يرتضى
إن رُمْتُ مدحًا لم أجد أهله أو رُمْتُ هجواً لم أجد عرضاً
وله^(٣): [الخفيف]

قيل لي لِمَ ذممت كلَّ البرايا وهَجَوْتُ الأنام هجواً قبيحاً
قلت هَبْ أنني كذبت عليهم فأروني مَنْ يستحق المديحاً
بعض العرب^(٤): [الكامل]

ذهب الذين إذا رأوني مُقْبِلًا هَشُوا إِلَيَّ ورحبوا بالمُقبِلِ
وبقيت في خلف كان حديثهم وَلَغَ الكلاب تهارشت في المنزلِ
ابن منير الطرابلسي^(٥): [الكامل]

قالوا هجرت الشعر قلت ضرورة باب الدَّواعي والبواعث مُغْلَقُ
فسد الزَّمان فلا كريم يُزْتَجى منه السَّوال ولا مליح يُغْشَقُ
ابن الهبارية^(٦): [الكامل]

خذ جملة البلوى ودَعْ تفصيلها ما في البرية كلُّها إنسانُ
وإذا البياض في الدُّسوت تفرزنت فالرأي أن تتبيذق الفرزان

(١) البيت لهدي بن الخشم في ديوانه، من قصيدة مطلعها:

ظننت به ظلًا فقصر دونه فيا ربّ مظنون به الظنّ يُخلفُ

(٢) البيتان في ديوان ابن الرومي، وهما بيتان منفردان.

(٣) البيتان لعبيد الله بن عروة في جمهرة نسب قریش وأخبارها، للزبير بن بكار، ص ٣٦٤.

(٤) البيتان لإبراهيم الغزي الشاعر، في وفيات الأعيان، لابن خلكان، في ترجمته.

(٥) البيتان لابن الهبارية في وفيات الأعيان، لابن خلكان، في ترجمته.

الباب السادس

في العي

وفيه ثلاثة فصول:

الفصل الأول من هذا الباب

فيما ورد عن ذوي النباهة في ذم العي والفهاهة

قال الله تعالى: ﴿أَوْ مَنْ يُنشِئُوا فِي الْحَلِيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ [الزخرف: الآية ١٨]، وقال الله تعالى حكاية عن فخر فرعون على موسى بالبيان في قوله: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف: الآية ٥٢]، ذكر أهل التفسير أن موسى عليه السلام لما سمع هذا القول من فرعون قال: رب اشرح لي صدري، ويسر لي أمري، واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي، فاستجاب الله دعاءه، وسمع نداءه، فقال: قد أوتيت سؤالك يا موسى، وحل الله تلك العقدة، وأطلق تلك الحبسة.

حدّ العي: قالوا: هو معنى قصير يحويه لفظ طويل. وقال أكثم بن صيفي: هو أن تتكلّم فوق ما تقتضيه حاجتك. وقالوا: العي الناطق أعبى من العي الساكت؛ لأنّ المفحم يأتي ما لا يرضاه، ويطلب فوق ما في قواه. وقالوا: العي بلاغة بعي. كما ذكر أنّ ربيعة خطب فأطال وأعجبتة نفسه، وإلى جانبه أعرابي فالتفت إليه، وقال: يا أعرابي ما تعدّون البلاغة فيكم؟ قال: قلّة الكلام مع الإصابة، قال: فما تعدّون العي؟ قال: ما كنت فيه منذ اليوم. قال الشاعر^(١):
[الكامل]

وإذا خطبت على الرجال فلا تكن هدر الكلام تقوله مُختالا
واعلم بأنّ من السكوت سلامة ومن التكلّم ما يكون خبالا

(١) البيتان لم أجدهما في المصادر والمراجع التي بين يدي.

وقال كسرى: عي الصمت خير من عي الكلام. وقال الجاحظ يذم رجلاً: العي والجبن لم أر جباناً أجراً منه، ولا جريئاً أجبن منه. نظم بعض الشعراء معناه، فقال^(١): [الخفيف]

حصر مسهب جريء جنان خير عي الرجال عي السكوت

فمما يشين حسان الصور العي في البيان والخبر

قالوا: فضل الإنسان على الحيوان بالبيان، فإذا نطق ولم يفصح عاد بهيماً. ويقال: ما لعي مروءة، ولا لمنقوص البيان بهاء، ولو حك يافوخه في عنان السماء. وقالوا: العي داء دواؤه الخرس. وتكلم رجل عند معاوية، وكان ذا عي، فقال عمرو بن العاص: سكوت الألكن نعمة، وقال معاوية: وكلام الأحمق نقمة. وقالوا: البيان بصر والعي عمى، والبيان من نتاج العلم، والعي من نتاج الجهل. يُحكى أن رجلاً قام إلى محمد بن عبد الملك الزيات، فقال له: إني مظلومك؟ فقال: هذا كلام يحتاج إلى شهود وبينة وأشياء غير ذلك، فقال الرجل: أصلحك الله الشهود هم البينة، والبينة هم الشهود وأشياء غير ذلك حصر وعي وزيادة هي نقص في القيام بحجتك، فضحك منه، وكشف ظلامته. وقيل لبزرجمهر: أي شيء أستر للعي؟ قال: عقل، قالوا: فإن لم يكن له عقل؟ قال: مال، قالوا: فإن لم يكن له مال؟ قال: فإخوان يعبرون عنه، قال: فإن لم يكن له إخوان؟ قال: يكون شيئاً صامتاً كالحجر، ولا يلحقه ضرر. وقال الشاعر^(٢): [الوافر]

وما حُسن الرجال لهم بزَيْن إذا لم يسعد الحسن البيان
كفى بالمرء عيباً أن تراه له وجهٌ وليس له لسان
آخر^(٣): [مجزوء الكامل]

والصمت أزين للفتى ما لم يكن عي يشينه
والقول ذو خطل إذا ما لم يكن لب يعينه

(١) البيت لمكي بن سودة في البيان والتبيين، للجاحظ ٢٧/١.

(٢) البيتان بلا نسبة في الكامل في اللغة والأدب، للمبرد، ص ٨٦١.

(٣) البيتان لأحيحة بن الجلاح في البيان والتبيين، للجاحظ، ٢٩/١، ٥١١.

وقال الجاحظ: لا يعاب الأخرس، ولا يُلام من استولى على بيانه العجز،
ويذم الحصر ويؤنب العي. وصف أعرابي قوماً بالعي، فقال: منهم من يقتطع
كلامه قبل أن يصل إلى لسانه، ومنهم من لا يبلغ كلامه أذن جليسه، ومنهم من
يلجُ كلامه الأذان فيحملها عباً ثقيلاً على الأذهان. قال شاعر ينزّه لسانه عن
العي^(١): [الطويل]

وما بي من عي ولا أنطق الخنى إذا جمع الأقوام في الخطب محفلُ
آخر^(٢): [الطويل]

وقلنا بلا عي وسُسنا بطاقة إذا النار يوم الحرب طال اشتعالها

ومن علامات العي الواضحة وسَمَات اللَّكْنِ الفاضحة

الاستعانة، وهو أن يرى المخاطب إذا كلّ لسانه يقول عند مقاطع كلامه
للمخاطب: استمع إليّ واسمع مني، وألست تفهم، وأفهم عني. ومنهم من يقول
في خلل كلامه: أما قلولي كذا فأعني به كذا، ولا يريد التفسير، ولكن يعيد كلامه
بصيغة أخرى تكون غير مُراداه الأول، فبيانه أبداً يقصر عن إيضاح إشكاله، وإن أتى
بأنواع الكلام وأشكاله.

وذم بعض البلغاء عيباً، فقال: قلبه ميت الفطنة، ولسانه بادي اللكنة، ولفظه
ظاهر الهجنة، شديد التعاون بين التهافت، إذ عضّته ولدغته المساجلة والمساورة
تثائب للعطاس، وتثاقل للنعاس، وتشاغل بمسح اللحية، ومسّ الجبهة، وقرع
السنن، وفتل الأصابع، فعجزه ظاهر وعيّه حاضر. شاعر في مثل ذلك^(٣):
[الطويل]

ملّي ببهر والتفات وسعلة ومسحة عنثون وفتل الأصابع
ومن علامته: التنحنح من غير داء، والثناؤب من غير ريبة، والإكباب في
الأرض من غير علة.

(١) البيت بلا نسبة في البيان والتبيين، للجاحظ، ٢٨/١.

(٢) البيت لزبان بن سيار في البيان والتبيين، للجاحظ، ٢٩/١.

(٣) البيت بلا نسبة في العقد الفريد، لابن عبد ربه، ص ٨٩٥.

وقال ابن المعتز^(١): [الكامل]

وَمِنْ الكِبَائِرِ مَقُولٌ مَتَتَعْتَ جَمَّ التَّنَحْنَحِ مَتَعِبٌ مَبْهُورٌ

وَمِنْ عِيُوبِ اللِّسَانِ الْمَزِيلَةُ لِلإِحْسَانِ الْمُزْرِيةُ بِقَدْرِ الْإِنْسَانِ

التمتمة، والفأفة، والعقلة، والحبسة، واللفف، والرثة، والغمغة،
والطمطمة، واللكنة، والغنة، واللثغة. قال الأصمعي: التمتمة إذا تفتح في التاء،
فهو متمم، وإذا تردّد في الفاء فهو فأفء؛ قال الراجز^(٢): [الرجز]

لِيسَ بِفَأَفَاءٍ وَلَا تَمْتَامٍ وَلَا كَثِيرَ الْهَجْرِ فِي الْكَلَامِ

والعقلة التواء اللسان عند الكلام، والحبسة تعذر النطق ولم يبلغ حدّ الفأفة
ولا التمتام، ويقال: إنها تُغرض أول الكلام فإذا مرّ فيه انقطعت. واللفف إدخال
بعض الكلام في بعض؛ قال الراجز^(٣): [الرجز]

كَأَنَّ فِيهِ لَفِيفًا إِنْ نَطَقْتُ مِنْ طَوْلِ تَحْبِيسٍ وَهَمْ وَأَرْقُ

والرثة أيضًا بعض الكلام ببعض دون إفادة، والغمغة أن يسمع الصوت ولا
يبين لك تقطيع الحروف ولا يفهم معناه، والطمطمة أن يكون الكلام شبيهًا بكلام
العجم وهي حميرية، وقالوا: هي إبدال الطاء بالتاء؛ لأنهما من مخرج واحد،
فيقولون: السلطان والشيطان بمعنى السلطان والشيطان، وكانت في لسان زياد بن
سلمى الأعجم، وكان خطيبًا شاعرًا كاتبًا. واللكنة هي إدخال بعض حروف العرب
في بعض حروف العجم، وتشترك فيها اللغة التركية والنبطية، وهي إبدال الهاء من
الحاء وانقلاب العين همزة، وكانت في لسان عبيد الله بن زياد وصهيب الرّومي
رضي الله عنه صاحب رسول الله ﷺ. وذُكر أنّ مولى لزياد قال: أيها الأمير اهدوا
لنا همار وهش - يريد اهدوا لنا حمار وحش - فلم يفهم زياد قوله، فقال: ما
تقول؟ وملك، فقال: اهدوا لنا أيرًا، فقال زياد: رجعنا إلى الأوّل فهو خير.
وحكى الجاحظ أن أزد انقادار الفارسي كان له كاتب جلف في لسانه لكنة، فأملى
عليه يومًا في كتاب: أنا اعتبرنا الحاصل بالهاء فوجدناه ألف كَرّ، فكتبها الكاتب

(١) البيت لبشر بن المعتمر في ديوانه، وهو بيت منفرد، والبيان والتبيين للجاحظ، ٥٧/١.

(٢) الراجز لأبي الزحف في البيان والتبيين ٥٥/١.

(٣) انظر الحاشية السابقة.

كما لفظ بها، فلما أعاد عليه ما أملاه فطن لاجتماعهما على الجهل، فقال: أنت لا تهسن أن تكتب، وأنا لا أهسن أن أُملي، فاكتب الجاصل ولا تعجم الجيم^(١).

والغنة أن يشرب الصوت الخيشوم، والخنة ضربٌ منها، والترخيم حذف بعض الكلمة لتعذر النطق به، واللثة قال الجاحظ في كتابه البيان: الحروف التي يدخلها اللثة أربعة، وهي: القاف والسين والراء واللام، فالتّي تعرض للقاف، فإنّ صاحبها يجعل القاف طاء، فإذا أراد أن يقول قلت وقال، قال: طلت وطال، بمعنى قلت وقال، ومنهم من يبذلها كافًا، فيقول: قلت وكال، بمعنى قلت وقال، وكانت في لسان أبي مسلم وعبيد الله بن زياد. وقال بعض الشعراء في أم ولد له يصفها بذلك^(٢): [الرجز]

أكثر ما أسمع منها في السحر تذكيرها الأنثى وتأنيث الذكر
والسواة السواة في ذكر القمر

لأنها كانت إذا أرادت أن تقول القمر، قالت: الكمر، والكممر جمع كمره وهي حشفة الذكر. وأما التي تعرض للسين، فإنهم يبذلونها ثاء، فيقول: بسم الله إذا أرادوا بسم الله، ويثره الله بمعنى يثّره الله، وهي مستحسنة من الجوّاري والغلمان، وأحسن ما سُمع فيها قول بعضهم^(٣): [الوافر]

وأهيف كالهلال شكوت وجدي إليه بحسنه وأطلت بثّي
وقلت له فدتك النفس صلني تخر حسن الثوب فقال بثّي

ومن قبيح الأبدال: إبدال الثاء المثلثة بالتاء المثناة، وكانت في لسان شعبة، وذلك فاشٍ في لغة أهل صعيد مصر، وما أقبحهم إذا قالوا: ثلاثة آلاف وتلاتمائة وتلاثة وتلاتين، وتلت، وفي الناس من يبذل الجيم ضادًا وهم من أهل صعيد مصر أيضًا، فإذا اجتمع لأحدهم جيم وضاد في كلمة مثل ضج وضجر، قالوا: جضّ وضجر، بجعل الجيم ضادًا والضاد جيمًا، وفي الناس من يبذل الخاء المعجمة حاء مهملة، فيقول: في خوخ حوخ وفي خلخال حلحال، وهي مُستحسنة من الغلمان والجوّاري.

(١) انظر البيان والتبيين ٨٠/١.

(٢) الرجز بلا نسبة في البيان والتبيين ٨١/١.

(٣) البيتان للرئيس أبي غالب نصر بن عيسى بن بابي الواسطي، في خريدة القصر، للعماد الأصبهاني، في ترجمته.

وأما التي تعرض في الرء، فهي أربعة أحرف؛ فمنهم من يجعلها غينًا معجمة، فإذا أرادوا أن يقولوا عمرو قال عمغ، وهي غالبية على لسان غالب أهل دمشق، والعجب أنه إذا اجتمع لهم راء مع غين في مثل رغيف نطقوا الرء غينًا وبالغين راء، فيقولون: غريف، ومنهم من يجعلها عينًا مهملة، فإذا أراد أن قول عمرو، قال: عمع، ومنهم من يجعلها ياء، فيقول: عمي، ومنهم من يجعلها زايًا، فيقول: عمز، وهي لغة خسيصة، ومنهم من يقولها بالطاء أخت الطاء، والأولى كانت في لسان محمد بن شبيب الخارجي، والثانية كانت في لسان واصل بن عطاء المعتزلي، وكان لاقتداره على الكلام يتجنب النطق بها حتى كأنها ليست من حروف المعجم.

ومن عجيب ما يُحكى عنه أنه ذكر بشار بن برد بكلام أسهب فيه وأطنب، فلم يأت بكلمة فيها راء، وهو ما لهذا الأعمى المكنى بأبي معاذ من يقتله، والله لولا أن قتله من أخلاق الغالبة لبعثت إليه من يبيع بطنه على مضجعه، يريد بقوله: الأعمى يعني الضّرير، وقال المكنى بأبي معاذ ولم يقل بشار ولا ابن برد، وقال: من أخلاق الغالبة ولم يقل المغيرة، وقال: من يبيع ولم يقل يبقر، قال: على مضجعه، ولم يقل على فراشه.

ولبعضهم فيمن يلثغ بالراء^(١): [البسيط]

ويجعل البر قمحًا في تصرفه وجانب الرء حتى احتال للشعر
ولم يقل مطرًا والقول يعجله فقال بالغيث إشفافًا من المطر

ولبعضهم فيمن يلثغ بالراء أيضًا^(٢): [الطويل]

ولثغته لو أن واصل حاضر ليسمعها ما أسقط الرء واصل

وأما التي تعرض في اللام، فإن من أهلها من يبدّلها ياء، فيقول أعتيت، بمعنى اغتلت، وبدل جمل جمى، وهي أوضعنّ لذي المروءة، وقوم يجعلون اللام كافًا وهي قبيحة، ولا حاجة بنا إلى تكملة بيان هذه الحروف.

(١) البيتان بلا نسبة في البيان والتبيين ٤٢/١.

(٢) البيت ليوسف بن هارون الرمادي في ديوانه، وهو بيت منفرد.

قال الجاحظ: وليس اللجلج والتمتام والألثغ والفأفاء وذو الحبسة وذوي اللفف والرثة في سبيل من حصر في خطبته، وعي في مناظلتها وخصومتها.

وقد يكون البليغ عيًّا عند سؤال مطلوبه كالعاشق متى رام شكوى حاله لمحبوبه

سئل محمد بن أبي دؤاد: متى يكون البليغ عيًّا؟ قال: إذا سأل ما يتمناه وشكى حبه إلى مَنْ يهواه، ثم أنشد^(١): [الطويل]

بليغٌ إذا يشكو إلى غيرها الهوى وإن هو لاقاها فغير بليغ
آخر^(٢): [البسيط]

قالت عيت عن الشكوى فقلت لها جهد الشكاية إن أعيا عن الكلام
آخر^(٣): [الطويل]

وكم من حديث قد خبأناه للقا فلما التقينا صرت أحرص أبكما
آخر^(٤): [الكامل]

عي المحب لدى الحبيب بلاغة ولربما قتل البليغ لسأله

قال بعضهم: موطنان لا أنف من العي فيهما إذا شكوت إلى محبوبي عشقي، وإذا سألت حاجةً لنفسي، فإن السائل قد يهاب المسؤول، ويتبعه مع الهيبة ذل السؤال. وسأل العتابي رجلًا حاجة فأقلل في كلامه، فقال له: ما لك من طوق في ذلك؟ فقال: كيف لا يقلل كلامي ومعني حيرة الطلب، وذل المسألة، وخوف الرد. وحكي أن الفضل بن الربيع سار بعد نكته إلى أبي عباد واسمه ثابت بن يحيى يسأله حاجة، فارتج عليه، فقال: يا أبا العباس أبهذا البيان خدمت خليفتين؟ فقال: إنا تعودنا أن نسأل ولا نسأل، فاستعبر لكلامه ورق حاله وقضى حاجته.

(١) البيت لقيس بن ذريح في ديوانه، وهو بيت منفرد.

(٢) البيت للحماني الكوفي في ديوانه، وهو مطلع القصيدة.

(٣) البيت لم أجده في المصادر والمراجع التي بين يدي.

(٤) البيت بلا نسبة في طبقات الأولياء، لابن الملن، ص ٧٩.

علي بن الجهم^(١): [الخفيف]

إنّ دون السؤال والاعتذار خطّة صعبة على الأحرار
ارض للسائل الخضوع وللقا ذف ذنباً مضاضة الأعذار

وأما ما يعتري العاشق المشوق من الأفحام

عند رؤية المعشوق

فكما قال أبو بكر الصنوبري^(٢): [الخفيف]

آية من علامة العشاق اصفرار الوجوه عند التلاقي
وانقطاع يكون من غير عي وولوع بالصمت والإطراق

آخر^(٣): [الطويل]

فما هو إلا أن أراها فجاءة فأبغت لا عرف لدي ولا نكر
وأنسي الذي قد كنت فيما أقوله كما يتناسى لبّ شاربها الخمر

عمرو بن ربيعة^(٤): [الخفيف]

ضلّ عني لشدة الوجد عقلي وجفان الذكا وعي لساني
ونسيت الذي نضمت من القو ل لديها وغاب عني بياني

آخر^(٥): [الوافر]

أفكر ما أقول إذا التقينا وأحكم دائماً حجج المقال
فأنساها إذا نحن التقينا فانطق حين أنطق بالمحال

(١) البيتان في الإعجاز والإيجاز للشعالبي، ص ٢١٨، وكتاب الزهرة، لابن داود الأصبهاني، ص ٣٢٨.

(٢) البيتان في ديوان أبي بكر الصنوبري، والبيت الأول هو مطلع القصيدة.

(٣) البيتان لأبي صخر الهذلي في نقد الشعر، لقدماء بن جعفر، ص ١٢٢.

(٤) البيتان لعمر بن أبي ربيعة في ديوانه، من قصيدة مطلعها:

صاح إن الملام في حبّ جميل كاد يقضي الغداة منك مكاني

(٥) البيتان بلا نسبة في الزهرة، لابن داود الأصبهاني، ص ٦٦، ورواية البيت الثاني فيه:

فترتعد الفرائص حين تبدو وأنطق حين أنطق بالمحال

ولبعض الصوفية^(١): [البسيط]

ينوي العتاب له من قبل رؤيته فإن رآه فدمع العين مسكوب
لا يستطيع كلامًا حين ينظره كلّ لسان وفي الأحشاء تلهيب
وقال أبو المعالي شيدله: الصبوة والشوق، والارتياح والتوق، والفراق
والتلهف، والفوت والتأسف، دواعٍ تستأثر الصبر، وتحصر عن وصفها للمحبوب
السنة الحصر.

ومما يشين البليغ بين أترابه عطل بيانه من حلى إعرابه

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: تعلّموا النحو كما تتعلّمون السنن
والفرائض. وكان أيوب السخيتاني يقول: تعلّموا النحو، فإنه جمال الوضع، وتركه
هجنة للشريف. شاعر^(٢): [الكامل]

النحو يصلح من لسان الألكن والمرء تكرمه إذا لم يلحن
فلذا أردت من العلوم أجلها فأجلها منها يقيم الألسن
لحن الشريف يحطّه عن قدره وتراه يسقط من لحاظ الأعين
وترى الدنيّ إذا تكلم معربًا نال الثباهة باللسان المعلن
ما وزّث الآباء فيما ورّثوا أبناؤهم مثل العلوم فأتقن
آخر^(١): [الكامل]

لو لم يكن في النّحو إلّا أنه يذر الضئيل من الرجال مهيبا
يخشى التكلّم حيث حلّ كأنما أضحى بأفواه الأنعام رقيباً

وقال عمر: تعلّموا العربية فإنها تقوّي العقل، وتزيد في المروءة. وقال
عبد الملك بن مروان: اللّحن في المنطق أقبح من آثار الجدرى في الوجه. وسمع
المأمون لحنًا من بعض ولده، فقال: ما على أحدكم أن يتعلّم العربية يصلح بها
لسانه، ويفوق أقرانه، ويقيم أوده، ويزين مشهده، ويقلّ حجج خصمه، بمسكتات
حكمه، أيسرّ أحدكم أن يكون كعبده أو أمته؟ فلا يزال الدهر أسير كلمته. سمع

(١) البيتان لم أجدهما في المصادر والمراجع التي بين يدي.

(٢) الأبيات بلا نسبة في التمثيل والمحاضرة، للثعالبي، ص ٢١٣.

الأعمش إنساناً يلحن، فقال: مَنْ هذا الذي يتكلم وقلبي منه يتألم. وقال الحسن البصري: ربما دعوت فلحنت، فأخاف أن لا يُستجاب لي. وفي الحديث: «إن الله لا يسمع دعاء ملحوناً»^(١)، والعلماء لا يرون الصلاة خلف اللحنة، وكيف لا يكون كذلك وأدنى حركة مغيرة للمعنى مؤدية إلى الكفر. قال سعيد بن مسلم: دخلت على الرشيد فملاً قلبي رعبه، فلما لحن خفّ عليّ أمره. يُحكى أنه لم يسمع من الحسن البصري، ولا مِنْ الشعبي، ولا مِنْ أيوب بن القرية، ولا مِنْ عبد الملك بن مروان لحن قطّ في جدّ ولا هزل. وكان سيبويه واسمه عمرو بن قنبر يختلف إلى حماد بن زيد يقرأ عليه الحديث، فكان يلحن في قراءته، فبرّذ عليه حماد، فأبرمه يوماً لحنه، فقال له: كم تلحن، أما لك مروءة؟ فحجل ووجم، فلما قام من مجلسه انقطع إلى الخليل بن أحمد فقرأ عليه النحو، فمهر فيه وفاق، وسار ذكره في الآفاق.

وهذه نبذة مستحسنة من التعريف بنوادرهم المستظرفة في التحريف

قال يوسف بن خالد لعمر بن عبيد: ما تقول في دجاجة ذُبِحَتْ مِنْ قفاها؟ قال: أحسن، قال: مِنْ قفاها؟ قال: أصلح، قال: من قفاؤها؟ قال له عمرو: ما عناك بهذا قل من قفاها، واسترح وأرخ، ؛ وكان يوسف يقول هذا أحمر من هذا، أي أشد حمرة. وكان الوليد بن عبد الملك لحنة خطب الناس يوم عيد، فقرأ في خطبته ﴿يَلْتَمِهَا كَانَتْ الْفَاضِيَةُ﴾ [الحاقة: الآية ٢٧]، وضَمّ التاء، فقال عمر بن عبد العزيز: عليك وأراحنا منك. ودخل إليه أعرابي وعنده عمر بن عبد العزيز، قال له: مَنْ أنت؟ - ووصل الهمزة - فظنّ الأعرابي أنه يقول: مَنْت، فقال: المِنّة لله ولأمير المؤمنين، قال عمر للأعرابي: إنّ أمير المؤمنين يقول لك مَنْ أنت، قال: فلان ابن فلان، قال: ما شأنك؟ - وفتح النون - قال: جدري في وجهي وفحج بساقي، قال عمرو: ويحك إنّ أمير المؤمنين يقول لك: ما شأنك - وضَمّ النون - قال: ظلمني ختني، قال: ومن ختتك؟ - وفتح النون - قال: وما سؤالك عن ذلك يا أمير المؤمنين، حجام عندنا بالبادية، قال عمر: إنّ أمير المؤمنين يقول لك: من ختتك؟ - وضَمّ النون - قال: فلان، وقيل للوليد: إنّ العرب لا تحبّ أن يتولّى عليها إلّا من يُحسِن كلامها، فجمع أهل النحو ودخل

(١) الحديث لم أجده بهذا اللفظ في كتب الحديث التي بين يدي.

بيتًا ليتعلّم فيه النحو، فأقام فيه ستة أشهر ثم خرج منه أجهل من يوم دخل، وكان يشر المريسيّ ممن شهر باللحن دعا لقوم، فقال: قضى الله لكم الحوائج على خير الوجوه وأهناها، فأنكروها عليه لحنه، فقال قاسم التمار: يصحّ هذا على قول الشاعر^(١): [المنسرح]

إنّ سليمي والله يكلّها ضنّت بشيء ما كان يرزاها
فكان احتجاج قاسم أطرف من لحن يشر. وكان خالد بن عبد الله القسريّ
لحنة، وفيه يقول ابن نوفل من أبيات^(٢): [البسيط]

واللحن الناس كل الناس قاطبةً وكان يُولّع بالتشديق والخطب
قرأ سابق الأعمى: ﴿وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا﴾ [البقرة: الآية ٢٢١]،
فقال بعض المجّان: ولا إن آمنوا. ترافع إلى زياد رجل وأخوه في ميراث، فقال:
إنّ أبوه مات وإنّ أخينا وثب على مال أبانا فأكله، فقال زياد: الذي أضعت من
نفسك أضرتّ عليك مما أضعت من مالك. وأمّا القاضي، فقال: لا رحم الله أباك
ولا جبر عظم أخيك، قم في لعنة الله وحرّ سقره. وقال رجل للأعمش: من أين
أقبلت؟ قال: من السوق، قال: وما اشتريت؟ قال: غسل، قال: هلأ زدت ألف؟
فقال له الأعمش: وهلأ زدت في ألفك ألفًا. وعكسها ما حكي أنّ رجلًا قال
لسعيد بن عبد الملك: تأمرنا بشيء، قال: نعم بتقوى الله وإسقاط الألف. ويخكي
أنّ خالد بن صفوان دخل الحمام يومًا، وفي الحمام رجل معه ابنه، فأراد الرجل
أنّ يعرف خالدًا ما عنده من البيان، فقال لولده: يا بني اغسل يداك قبل وجهك،
والتفت إلى خالد، وقال: يا أبا صفوان قد ذهب أهله، فقال خالد: هذا كلام ما
خلق الله له أهلاً قط.

الفصل الثاني من الباب السادس

في ذكر من قصّر باع لسانه عن ترجمة ما في جنانه

قيل لابن المقفع، وكان مفحمًا عن نظم الشعر: لم لا تقول الشعر؟ قال:

(١) البيت لإبراهيم بن هرمة في ديوانه، وهو مطلع القصيدة، ورواية البيت في الديوان:
إنّ سليمي والله يكلّوها ضنّت بشيء ما كان يرزوها
(٢) البيت ليحيى بن نوفل في البيان والتبيين، للجاحظ، ١١٨/١.

الذي أرضاه لا يجيء، والذي يجيء لا أرضاه^(١): [الطويل]

وزهدني في الشعر أن قريحتي بما تستجيد الناس ليس تجود

وقال ابن عبدون الكاتب^(٢): [البسيط]

قلبي من العلم مملوء جوانبه وذا اللسان قليل لا يؤاتيني

فمن ارتج عليه من خطباء المحافل وفرسان المنابر والجحافل

يزيد بن أبي سفيان: كان أبو بكر رضي الله عنه ولأه ربعاً من أرباع الشام، فلما رقى المنبر ارتج عليه فقطع الخطبة، وقال: سيجعل الله بعد عُسْر يُسْراً، وبعد عي بيئاً، وأنتم إلى أمير فعال أحوج منكم إلى أمير قوال، ثم نزل وزوي هذا الكلام لعثمان بن عفان، وعليه أكثر المؤرخين. وصعد عبد الله بن عامر منبر البصرة في يوم عيد الأضحى فحصر، فقال: لا أجمع عليكم عيًّا ولا بخلاً ادخلوا سوق الغنم، فمن أخذ شاة فهي له وعلي ثمنها. ثم صعد مرة أخرى فحصر، فالتفت يميناً وشمالاً، فرأى عتاب بن ورقاء وكان شيخاً أصلع، فقال: أما بعد يا أصلع، فوالله ما غلطني غيرك، فلعننا الله من صلعة علي به، فلما مثل بين يديه أمر أن يضرب عشرين سوطاً ومنعه من دخول المسجد الجامع بعدها. وصعد عدي بن أرطاة المنبر، فلما رأى جمع الناس ارتج عليه، فقال: الحمد لله الذي يطعم هؤلاء ويسقيهم، ثم نزل. وصعد روح بن حاتم المنبر، فلما رأى الناس قد أصغوا إليه بأسماعهم، ورمقوه بأبصارهم، قال: نكسوا رؤوسكم وغضوا أبصاركم، فإن المنبر مركب صعب، وإذا الله يسر فتح قفلاً تعسر، ثم نزل. وخطب مصعب بن حيان أخو مقاتل بن حيان خطبة نكاح فحصر، فقال: لقنوا موتاكم قول لا إله إلا الله، فقالت أم الجارية: عجل الله موتك وأراح منك، ألهذا دعوناك. وصعد وازع الإشكري المنبر يوم جمعة، فلما رأى جمع الناس هابهم فحصر، فقال: لولا أن امرأتي حملتني على إتيان الجمعة ما جمعت، وأنا أشهدكم أنها طالق ثلاثاً، ثم نزل. وخطب ثابت مولى يزيد بن المهلب فارتج عليه فنزل،

(١) البيت لابن دقيق العيد في الوافي بالوفيات، لصلاح الدين الصفدي، في ترجمة مجد الدين ابن دقيق العيد.

(٢) البيت لم أجده في المصادر والمراجع التي بين يدي.

وهو يقول^(١): [الطويل]

فإلّا أكن فيكم خطيباً فإنني بسيفي إذا جدّ الوغى لخطيب
فبلغ ذلك المهلب، فقال: لو قال هذا على المنبر لكان من أخطب الناس.
وخطب خالد بن عبد الله القصريّ فارتجّ عليه، فقال: إنّ هذا الكلام يجيء أحياناً
ويعسر أحياناً، وربما كُوبر فأبى، وُعولج فنبأ، والتأني لمجيئه خير من التعاذي
لأبيه، وتركه عند تنكره أفضل من طلبه عند تعذّره، وقد يختلط من الجريء جنانه،
وينقطع من الدّرب لسانه، وسأعود فأقول، ثم نزل. وارتجّ على أبي العباس
السفّاح فنزل ثم صعد، وقال: أيّها الناس إنّ اللسان بضعة من الإنسان يكلّ
لكلاله، ويرتجل لارتجاله، ونحن أمراء الكلام بنا تفرّعت فروع، وعلينا تهدّلت
غصونه، وإنّا لا نتكلّم هدراً ولا نسكت حصراً، بل نسكت معتبرين، وننطق
مرشدين. وذكر المسعودي أنّ المعتضد خرج يوم الفطر، وكان يوم الاثنين سنة
تسع وسبعين ومائتين، إلى مصلى أحدثه بالقرب من داره ليصليّ بالناس، فكبر في
الركعة الأولى ست تكبيرات، وفي الثانية تكبيرة واحدة، فلمّا فرغ من الصلاة صعد
المنبر فحصر، ولم يُسمع له خطبة، وفي ذلك يقول الشاعر يعتذر عنه في هذا
المقام^(٢): [الكامل]

حصر الإمام ولم يبتّن خطبة للناس في حلّ ولا إحرام
ما ذاك إلّا من حياءٍ لم يكن ما كان من عي ولا إفحام
وخطب داود بن عليّ فارتجّ عليه، فقال: اتّقوا الله وافعلوا ما أمركم به،
وانتهوا عمّا نهاكم عنه، ثم نزل؛ ولقد جمع في هذه الكلمات بين الحكمة وفصل
الخطاب، وأحسن لهم في النصيحة وأطاب. صعد بعض الخطباء المنبر فحصر بعد
الحمدلة، فكزّرها مراراً، فقال بعض من حضره: على ما أبلانا منك فإنه لا يُحمد
على المكروه غيره، ثم ولّى وهو يُنشد^(٣): [الكامل]

ختم الإله على لسان عذافر ختمًا فليس على الكلام بقادر
فإذا أراد النطق خلّت لسانه لحمًا تحرّكه لصقر نافر

(١) البيت في ديوان ثابت قطنة، وهو بيت منفرد.

(٢) البيتان لم أجدهما في المصادر والمراجع التي بين يدي.

(٣) البيتان بلا نسبة في البصائر والذخائر، لأبي حيّان التوحّيدي، ص ١١٥٣.

قال ابن ذولاق في أخبار ولاية مصر: لم يكن الناس يصلّون بالجامع العتيق صلاة العيد حتى كانت سنة ست وثلاثمائة أو ثمان صليّ فيه العيد أحمد بن عبد الملك الفهمي المعروف بابن أبي سجر صلاة عيد الفطر، ويقال: إنه خطب يومئذ في دفتر، فكان مما حُفِظَ منه أن قال: اتّقوا الله حقّ تُقَاتِهِ، ولا تموتنّ إلّا وأنتم مشركون؛ فقال فيه الشاعر^(١): [السريع]

وقام في العيد لنا خاطباً يحرض الناس على الكُفْرِ

وممن ارتجّ عليه من الأئمة في محرابه

وكان تركه للصلاة خوف الخجل أخرى به

رجل صليّ يقوم فقرأ: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [النحل: الآية ٩٨]، فارتجّ عليه فجعل يكرّرها، قال له مزيد: والله إنك لا تُحسن القرآن، فما ذنب الشيطان. وصليّ سيفويه القاص يقوم فقرأ سورة الإخلاص، فارتجّ عليه عند رأس آيتين منها، فالتفت إلى مَنْ خلفه، وقال: مَنْ أراد أن يسمع باقي السورة فليحضر مسجد بني فلان، ثم خرج وتركهم. وصلت أعرابية مع قوم فقرأ الإمام: ﴿وَأَنكِحُوا الْأَيْمَىٰ مِنكُمُ﴾ [الثور: الآية ٣٢] ثم ارتجّ عليه، فجعل يردّها مراراً، فخرجت المرأة تَغْدُو حتى لحقت بأختها، وقالت: يا أختاه لم يزل الإمام يأمرهم بنكاحنا حتى خشيت أن يقعوا عليّ. وخرج رجل من بيته مغلّساً، فمرّ بمسجد يصليّ فيه الصبح فدخل ليصليّ، فقرأ الإمام الفاتحة، وأبدأ سورة يوسف، فلما انتهى إلى قوله تعالى: ﴿فَلَنَ أُنَبِّئَنَّكَ أَتْرَاجَ الْأَرْضِ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِجِ أَيْ أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي﴾ [يوسف: الآية ٨٠]، فردّها مراراً، فقال الرجل من خلفه: فإن لم يأذن لك أبوك إلى الظهر يطول مقامي معك ويفوتني قضاء حاجتي، ثم مضى وتركه. وارتجّ على الحجاج في صلاته، فلم يجسر أحد أن يهديه لما ضلّ عنه فتلا قوله تعالى: ﴿رُدُّوْهَا عَلَيَّ﴾ [ص: الآية ٣٣] فردّت عليه، فلله دَرَه ما أحسن ما أجال فكره حتى أدرك به الفهم العازب، ولم تبطل صلاته بكلامه، بل كان من أشرف المواهب. وأحسن منها ما حُكِيَ أَنَّ المهدّي لما وُلِّي الخلافة صليّ بالناس من الغداة في داره، فارتجّ عليه، فهيب أن يُلْقَن ما نسي، فلما طال عليه انتظار من يرشده، تلا

(١) البيت لم أجده في المصادر والمراجع التي بين يدي.

قوله تعالى: ﴿الْبَيْتَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾ [هود: الآية ٧٨]، فردَّ الراشد الشارد على الناشد. اجتمع الكسائي واليزيدي عند الرشيد، فحضرت صلاة المغرب، فتقدّم الكسائي فصلّى فارتجّ عليه في سورة: ﴿قُلْ يَتَّيِبُهَا لَكُمْ فَكُونُوا أَكْفَرُونَ﴾ [الكافرون: الآية ١]، فلما سلّم قال اليزيدي: قارئ الكوفة يرتجّ عليه في سورة ﴿قُلْ يَتَّيِبُهَا لَكُمْ فَكُونُوا أَكْفَرُونَ﴾ [الكافرون: الآية ١]، فحضرت صلاة العشاء، فتقدّم اليزيدي فارتجّ عليه في سورة الفاتحة، فلما سلّم قال له^(١): [الكامل]

احفظ لسانك أن تقول فتبتلى إن البلاء موكلٌ بالنطق
حدّث أبو الحسن بن راهويه قال: صلّى يحيى بن المعلّى الكاتب، فقراً:
﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: الآية ١]، فغلط فيها وارتجّ عليه، وكان في المجلس أبو نؤاس والعباس بن الأحنف والخليع وصريع الغواني، فقال أبو نؤاس^(٢): [مجزوء الرجز]

أكثر يحيى غلطاً في قل هو الله أحد
فقال الأحنف: [مجزوء الرجز]
قام طويلاً ساكناً حتى إذا أعيأ سجد
فقال الخليع: [مجزوء الرجز]
يزحر في مخراجه زحير حُبلى لولد
فقال الصريع: [مجزوء الرجز]
كأنما لسانه شدّ بحبل من مسد
واتصلت هذه الحكاية بأبي علي بن رشيّق، فقال: [مجزوء الرجز]
ونسى الحمد فما مرّت له على خلد

(١) البيت لصالح بن عبد القدوس في ديوانه، من بيتين، أولهما:

لا تنطقن بمقالة في مجلس تخشى عواقبها وكُنْ ذا مصدق

(٢) الخبر والأبيات في بدائع البدائ، لابن ظافر الأزدي، ص ٤٥٠؛ ومحاضرات الأدباء، للراغب الأصبهاني، ص ٤٢١.

هذا ما أورده ابن رشيق في كتاب العُمدة، ثم إنني عثرت عند مطالعتي لكتاب بدائع البدائة على زيادة وجب ذكرها، وهو ما حُكي أن أبا العباس بن الحُطَيْئة لما سمع هذه، قال: [مجزوء الرجز]

ورام شيئًا غير ذا يقرؤه فما وجد

وممن أخذ العي بعنان قلمه وظهر كلف التكلف في صفحات كلمه

ما حُكي أن بعضهم كتب إلى بعض العُمال على مدينة حلب يُخبره أن سلنديين من شواني المسلمين غرقا، ما منا له: اعلم أيها الأمير أعزّه الله أن سلنديين - أي مركبين - صفقا - أي غرقا - فهلك من فيهما - أي تلفوا - فكتب إليه العامل كتابًا على الحكاية يستخف به: ورد كتابك - أي وصل - وفَضَضناه - أي فتحناه - وفهمنا ما فيه - أي علمناه - فأدّب كاتبك - أي اصفعه - واصرفه - أي اعزله - واستبدّل به - أي غيره - فإنه مائق - أي أحق - والسلام - أي قد انقضى الكتاب -.

وكتب بعض عُمال طاهر بن الحسين إليه كتابًا، وفيه: قد وجّهت إلى الأمير ثوب ديباج أحمر أحمر، فكتب طاهر إليه: قد قرأت كتابك، فعلمت أنك أحقق أحقق أحقق، فاقدم اقدم اقدم، والسلام. ومما عابه ابن الأثير كلام المترسلين القدماء، وادّعى أنه قصور وعي في صناعة الإنشاء، وهو أشبه شيء بالإقواء والإبطاء، قال في فصل من كتابه المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: إذا وردت في كلام المترسل سجعتان يدلّان على معنى واحد كانت إحداها كافية في الدلالة عليه، والأخرى من حشو الكلام الذي لا يُحتاج إليه. وقد وجدت كثيرًا من ذلك في كلام المفلقين من أهل هذا الشأن، كالصابىء وابن العميد؛ فمن ذلك قول الصابىء في تحميده: الحمد لله الذي لا تُدركه الأعين بالَحَاطِها، ولا تحدّه الألسن بالَفَاطِها، ولا تخلقه العصور بمرورها، ولا تُهرِمُه الدهور بمرورها؛ ثم انتهى إلى الصلاة على النبي ﷺ، فقال: لم يرَ للكفر أثرًا إلّا طمسه ومحاه، ولا رسماً إلّا أزاله وعفاه، فلا فرق بين مرور العصور وكرور الدهور، وكذلك لا فرق بين محو الأثر وتعفية الرسم. ومن كلامه أيضًا من كتاب: وقد علمت أن الدولة العباسية لم تزل على سالف الأيام وتعاقب الأعوام تعتلّ طورًا وتصحّ أطوارًا، وتلتاث مرة، وتستقلّ مرارًا من حيث أصلها راسخ لا يتزعزع، وبنيانها ثابت لا

يتضعضع؛ فمعلوم أنّ الاعتلال والالتياث بمعنى، والطور والمرة بمعنى، والرسوخ والثبوت بمعنى.

وله من كتاب: وصلني كتابه مفتتحاً من الاعتزاء إلى إمارة المؤمنين والتقليد لأُمور المسلمين بما إعزاه الزكية مجوّزة لاستمراره، وأرومته العلية مسوّغة لاستقراره. ومنه: فلا بدّ من اتّفاق أشراف كل قطر وأفاضله، وأعيان كل صقع وأمائله؛ فهذا السجع كلّ متساوي الألفاظ والمعاني؛ فإنّ إمارة المؤمنين وتقليد أُمور المسلمين بمعنى، وكذلك الإعراف والأرومة بمعنى، والتجويز والتسويغ بمعنى، وكذلك الأعيان والأمائل، والقطر والصقع.

ومنّ كلام ابن العميد في كتاب: وهو لا يوجّه همّته إلى أعظم مرغوب إلّا طاع ودان، ولا تمتدّ عزيمته إلى مطلوب إلّا كان واستكان، وكلّ هذه الألفاظ مستوية المعاني.

قلت: وفيما ذكرناه من هذا الفن كفاية ومقنع على أنّ الخاطر إذا انشرح انقاد، وإذا كلّّ تمتع، ورأيت صواباً إلحاق هذه الحكاية بهذا الفصل، وهي ما حكاه دعبل الخزاعي، قال: خرجت أنا ورفيقان لي من قرية تسمّى طهياثا، وهي من قرى بغداد للتنزّه فيها، فأقمنا بها يوماً، فلما أردنا الانصراف قلت لرفيقي: ليقبل كل منا في صفة يومنا شيئاً، قالوا: فابتدئ أنت، فقلت^(١): [الرجز]

نلنا لذيذ العيش في طهياثا

فقال أحدهما: [الرجز]

لما حثثنا القدح احتثاثا

وارتج على الآخر، فقال: [الرجز]

وأمر عمرو طالق ثلاثا

فقلنا له: ويحك ما ذنب المرأة؟ فقال: والله ما لها ذنب إلّا أنها قعدت على طريق القافية.

(١) الرجز في ديوان دعبل الخزاعي، وهو مطلع القصيدة، وفيه: «بطياثا» بدل: «طهياثا».

الفصل الثالث من الباب السادس

في أَنَّ اللّسن المكنار لا يأمن آفة الرّلل والعتار

قال رسول الله ﷺ لجُرَيْر بن عبد الله: «إذا قلت فأوجز، فإذا بلغت حاجتك فلا تتكلف»^(١). وقال بعض الحكماء: الإكثار يزلّ اللّسان، ويُزيل الإحسان. وقيل لعديّ بن حاتم: أي شيء أوضع للإنسان؟ قال: كثرة الكلام. وقال جعفر بن يحيى: إذا كثر الكلام اختلّ، وإذا اختلّ اعتلّ. وقال: خير الكلام ما قلّ ودلّ، ولم يطل فيمّل. وقال معاوية لعمر بن العاص: مَنْ أبلغ الناس؟ قال مَنْ ترك الفضول، واقتصر على الإيجاز. وقال خالد بن صفوان: ليس البلاغة بخفة اللّسان، ولا كثرة الهذيان، ولكنها إصابة المعنى والقصد إلى الحجة. وقال: خير الكلام ما كان عن الحصر بعيداً، وللأسماع مفيداً، وهو أن يكون لا مائلاً إلى الحصر فتضعف الحجة، ولا إلى الهدر فتتلف المُهجة. قال الشاعر^(٢): [البسيط]

للقول مستمع يزري بصاحبه منه الغلوّ وقد يزري به الحصرُ
وخير حالِ الفتى في القول أقصدها بين الطريقين لا عي ولا هذرُ

وقال: عي يذري بك، خيرٌ من هدر يأتي عليك. قال شاعر^(٣): [المتقارب]

وصمتك من غير عي اللسا ن أزيّن من هدر المنطقي

وقال عمرو بن العاص: الكلام كالدواء إن أقللت منه نفع، وإن أكثرت منه صرع. وقال لولده عبد الله: قصّر إذا قلت، واقتصر إذا أطلّت، وإياك والإكثار فإنه شين العاقل، وخين الجاهل. وقالوا: العثار مع الإكثار. وقال بزرجمهر: مَنْ ملكه طول لسانه، أهلكه فضل بيانه. ويقال: مَنْ طال لسانه بطلّ إحسانه. قال الفقيه منصور^(٤): [المتقارب]

ولا تكثرنّ فخير الكلام قليلُ الحروف كثير المعاني

(١) الحديث لم أجده بهذا اللفظ في كتب الحديث التي بين يدي.

(٢) البيتان لم أجدهما في المصادر والمراجع التي بين يدي.

(٣) البيت لم أجده في المصادر والمراجع التي بين يدي.

(٤) البيت لم أجده.

احتجاج مَنْ أمسك عن الكلام من غير خرس وخاف مِنَ الملام فحذر واحترس

قال الأحنف بن قيس: اللسان قيمة الإنسان، فمن قَوْمه زادت قيمته. وقال أكثم بن صيفي: هلك الإنسان في طول اللسان. وقال سفيان الثوري: لأن أرمي عدوي بسهمي خيرٌ له من أن أرميه بلساني؛ لأنَّ رَمِي اللسان لا يخطيء، ورمي السهم يُصيب ويخطيء. قال الشاعر^(١): [الطويل]

ورُبَّ كلام قد جرى مِنْ مَمازِحٍ فساق إليه سهم حَتَفَ معجَلُ

وقال ابن مسعود: لسانك سيف قاطع يبدأ بك، وكلامك سهم نافذ يرجع عليك، فاقصد في المقال، وإياك وما يُوغر صدور الرجال. وقال أعرابي: الكلمة أسيرة في وثاق الرجل، فإذا تكلم عاد أسيراً في وثاقها. اجتمع أربعة من الملوك على أربع كلمات تواردوا فيها موارد النصائح، وأخرجوا دُرر معانيها من بحار القرائح؛ قال كسرى: أنا على ما لم أقل أقدر مني على ردِّ ما قلت؛ وقال ملك الصين: أنا إذا تكلمت بالكلمة ملكتني، وإذا لم أتكلَّم بها ملكتها؛ وقال ملك الهند: عَجِبْتُ لِمَن يَتَكَلَّمُ بالكلمة إن ذكرت عنه ضرت وإن لم تذكر عنه لم تنفعه؛ وقال قيصر: لأنَّ أُنْدم على ما لم أقل أحبَّ إليَّ من أن أُنْدم على ما قلت؛ هذه كلمات صدرت عن صدور صافية من كَدَر الغِلِّ وغَشِّه، ليتحذر بها العاقل من لدغ الكلام ونهشه. وقالوا: مَنْ أطلق لسانه بما يحبَّ كان أكثر مقامه حيث لا يحب. وقال ﷺ: «ما أعطي العبد شراً مِنْ طلاقة اللسان»^(٢). وقال لقمان لابنه: يا بني إنَّ مِنْ الكلام ما هو أشدَّ مِنْ الحجر، وأنفذ من الأبر، وأمر من الصبر، وأحرَّ مِنْ الجمر؛ وإنَّ مِنْ القلوب مزارع فازرع فيها الكلمة الطيبة، فإن لم تنبت كلُّها نبت بعضها. وقال زياد: إنَّ الرجل ليتكلم بالكلمة يقطع بها ربة عنز فتبلغ إمامه فيسفك دمه. ويُقال حفظ اللسان راحة الإنسان. وقال صعصعة بن صوحان: طول اللسان يقصر الأجل، وخطأ القول يُصيب المقتل. ويقال: مَنْ خزن لسانه حقن دمه، ومن ملك كلامه أَمِنَ ندمه؛ فاللسان سيف مرهف لا ينبو حده، والكلام سهم مرسل لا يُمكن رده. وقال بعض الحكماء: الجاهل يستعجل بإظهار المعاني قبل

(١) البيت بلا نسبة في روضة العقلاء ونزهة الفضلاء، لابن حبان البستي، ص ٧٢.

(٢) أخرجه الزبيدي في إتحاف السادة المتقين ٤٦٧/٧، والقرطبي في تفسيره ٤٨١/١٢.

إحكامها وإخراجها، وإن لم يَحْنُ أوان تمامها، فإذا سَدَّها تَخَطَّى غرض الصواب.
وقال الخبزأرزي^(١): [الطويل]

إذا ما لسان المرء أكثر هدره فذاك لسانٌ بالبلاء مُوَكَّلُ
إذا شئت أن تخيا عزيزاً مسلماً فدبّر وميّر ما تقول وتفعلُ

ومما اخترت من كلام الحكماء الأعلام في مدح الصمت وذم الكلام
قول رسول الله ﷺ لمعاذ: «أنت سالم ما سكت، وإذا تكلمت فلك أو
عليك»^(٢).

وقال ابن مسعود: إن كان الشؤم في شيء، ففي اللسان. وقال أبو نواس^(٣):
[مجزوء الرمل]

خلّ جنبيك لزام وامنض عنه بسلام
مُتْ بداء الصمت خير لك من داء الكلام
بما استفتحت بالنط ق مغاليق الحمام
إنما السالم من أل جسم فاه بلجام

وقالوا: صمتٌ يعقب الندامة خيرٌ من نطقٍ يَسْلُب السَّلامة. وقالوا: الصمت
زين الحلم، وعَوَدة العلم، يلزمك السلامة، ويصحبك الكرامة، ويكفيك مُؤنة
الاعتذار، ويُلْيسك ثوب الوقار. وقال الشاعر^(٤): [الكامل]

الصُّمت زين والسكوت سلامة فإذا نطقت فلا تكن مكشّارا
ما إن ندمت على سكوتي مرّة ولقد ندمت على الكلام مرارا

وقالوا: لسانك كالسبع إن عقلته حرسك، وإن أرسلته افترسك. ويقال:
أخزن لسانك كما تخزن مالك، واعرفه كما تعرف ولدك، وزنه كما تزن نفقتك،
وأنفق منه بقدر، وكُنْ منه على حذر؛ فإنّ إنفاق ألف درهم في غير وجهها أيسر

(١) البيتان في ديوان الخبزأرزي، من قصيدة مطلعها:

لسان الفتى حتف الفتى حين يجهل وكل امرئ ما بين فكّيه مقتلُ

(٢) الحديث لم أجده بهذا اللفظ في كتب الحديث التي بين يدي.

(٣) الأبيات في ديوان أبي نواس، البيت الأول مطلع القصيدة.

(٤) البيتان بلا نسبة في العقد الفريد، لابن عبد ربّه، ص ١٣٦٦.

من إطلاق كلمة في غير حقها. وقال الشاعر^(١): [الكامل]

احفظ لسانك واحتفظ من شره إِنَّ اللّسان هو العدو الكاشحُ
وزن الكلام إذا نطقت بمجلسٍ فيه يلوح لك الصواب اللّائحُ
والصمت من سعد السُّعود بمطلع تخيابه والنُّطق سعد الذابحُ

وقال بعض الحكماء: عليك بالصُّمت وإن أصبت في القول وبرزت في الفضل، فإنه زينة العاقل، وجليّة الفاضل. شاعر^(٢): [الكامل]

احفظ لسانك أن تقول فتبتلى إِنَّ البلاء موكلٌ بالمنطقِ
آخر^(٣): [الكامل]

وزن الكلام إذا نطقت فإئما يبدي الرجال من الستور المنطقِ
وقالوا: رُب كلمة جلبت مقدورًا، وخربت دورًا، وعمّرت قبورًا. شاعر^(٤):
[الطويل]

إذا المرء لم يخزن عليه لسانه فليس على شيء سواه بخازنٍ
آخر^(٥): [الكامل]

احفظ لسانك أيها الإنسان لا يلدغَنَّك إنّه تُغبانُ
كَمْ في المقابر من قَتيلٍ لسانه كانت تخاف لقاءه الأقرانُ
وقالوا: كلام الرجل بيان فضله، وتُرجمان عقله؛ فاقصره على الجميل، واقتصر منه على القليل، وإياك وما يسخط سلطانك، ويوحش إخوانك؛ فمن سخط سلطانه تعرّض للمنيّة، ومن أوحش إخوانه تبرأ من الحرّيّة. شاعر^(٦): [الطويل]

يدلّ على جهل الفتى فضل نُطقه ونطق أخى العقل الرصين قليلُ
وإنّ لسان المرء ما لم يكن له حصاة على عوراته لذليلُ

(١) الأبيات لم أجدها في المصادر والمراجع التي بين يدي.

(٢) تقدّم البيت مع تخريجه قبل قليل.

(٣) البيت لم أجده في المصادر والمراجع التي بين يدي.

(٤) البيت لم أجده.

(٥) البيتان بلا نسبة في المستطرف، للأبشيبي، ص ٤٠١.

(٦) البيتان لم أجدهما في المصادر والمراجع التي بين يدي.

وما أحسن عذر من غصّ بالهلام على كثرة صمته وقلة الكلام

حيث قال^(١): [البسيط]

قالوا نراك كثير الصمت قلت لهم ما طول صمتي من عي ولا خرس
الصمت أحمد في الأشياء عاقبة وأزین الآن لي من منطلق شكس
أنشر البز فيمن ليس يعرفه وأنشر الدز للعميان في العلس

ومن الخرافات الموضوعة على ألسنة الحيوانات في مدح الصمت وذم الكلام أنه اجتمع برغوث وبعوضة، فقالت البعوضة للبرغوث: إني لأعجب من حالي وحالك أنا أفصح منك لساناً، وأرجح ميزاناً، وأوضح بياناً، وأكبر منك شباباً وأكثر طيراناً، ولي في بحر العبودية سباحة، وفي ساحته سياحة، ومع هذا كله فقد أحاط بي الفضوع، وأحرمني الجوع الهجوع، وأنت على علّاتك في جميع حالاتك، تأكلي وتشبعي، وفي نواعم الأبدان ترتعي؛ قالت: نعم، أنت بين العالم مُطَنِّطَة، وعلى رؤوسهم مُدَنِّدَة، وطول لسانك سبب حرمانك؛ وأما أنا، فالتلطّف صناعتي، والصمت بضاعتي، وإنما توصلت إلى قوتي بسكوتي.

ومما له في هذا الموضع من النفوس حسن مَوْقع

حفظ الأسرار أن تدال على الأحرار والأندال

قال الله تعالى حكايةً عن قول يعقوب ليوسف عليهما السلام حين قصّ عليه رؤياه، فعلم منها بدء أمره ومُنْتَهَاهُ: ﴿يَبْنَئُ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾ [يُوسُف: الآية ٥]. وقال رسول الله ﷺ: «استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان»^(٢). وكان عليه الصّلاة والسلام إذا أراد غزاة ورى بغيرها^(٣).

ومن أمثالهم: صدرك أوسع لسرك. ويقال: إذا انتهى السر من الجنان إلى عذبة اللسان؛ فالإذاعة مُسْتَوَلِيَة عليه، وعيون الحوادث تنظر شزراً إليه. وقال

(١) الأبيات للفضل بن الحباب بن محمد الجمحي، في معجم الأدباء، لياقوت الحموي، في ترجمته.

(٢) أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد ١٩٥/٨، والزبيدي في إتحاف السادة المتقين ٥٣/٨.

(٣) أخرجه البخاري في الجهاد باب ١٠٣، والمغازي باب ٧٩، ومسلم في التوبة حديث ٥٤.

عمرو بن العاص: الصدور خزائن الأسرار والشفاه أقفالها، والألسن مفاتيحها؛ فليحفظ كل امرئ مفتاح سرّه. وقالوا: إذا ضاق صدرك عن نَجْواك فكيف تَسْتَكْتُمهُ سِوَاكَ. وقال بعض الحكماء: سرّك مِنْ دمك، فلا تجرّه في غير أوداجك، فإنك متى تكلمت به أَرَقْتَهُ؛ وكما أنه لا خير في آنية لا تُمَسِّك ما فيها، فكذلك لا خير في لسان لا يملك سرّه. وقال آخر: كُنْ على سرّك أحرص منك على حقن دمك. وقالوا: سرّك أسيرك، فإن بذلتَه كنت أسيره. ابن نباتة السَّعْدِي^(١): [المقارب]

صُنِ السِّرَ عن كل مُسْتَخْبِرٍ وحاذِرِ فما الحزم إِلَّا الحذرُ
أسيرك سرّك إن صُنْتَه وأنتَ أسيرُ له إنْ ظَهَرَ
آخر^(٢): [الوافر]

ولا تُخْبِرْ بِسِرِّكَ بَلْ أَمِثْهُ وصيّر في حشاك له حجابا
فما أودعت مثل القلب سرّاً ولا أغلقت مثل الصّدر بابا
وقال عمرو بن العاص: ما وضعت سرّي عند أحد وأفشاه، فلمته؛ لأنّي كنت أضيق صدرًا منه حين استودعته إيّاه. وقال الشاعر^(٣): [الطويل]
إذا ضاق صدر المرء عن سرّ نفسه فصدر الذي يُسْتَدْعِ السرّ أضيقُ
إذا المرء أفشى سرّه بلسانه ولامَ عليه غيره فهو أحمقُ
وقال معاوية: الحازم مَنْ كتم سرّه عن صديقه مخافة أن تنتقل صداقته فيذيع سرّه. شاعر^(٤): [مجزوء الكامل]

احذر عدوك مرّة واحذر صديقك ألف مرّة
فلربّما انقلب الصديق قفكان أعلم بالمضرة

(١) البيتان لعلّي بن أبي طالب ولابن سينا في ديوانيهما، وهما بيتان منفردان.

(٢) البيتان بلا نسبة في الفاضل في اللغة والأدب، للمبرد، ص ١٨٠.

(٣) البيتان للعتبي في ديوانه، من قصيدة مطلعها:

ولي صاحب سرّي المكتم عنده مخاريق نيران بليل تُحرقُ
والبيتان أيضًا لعلّي بن أبي طالب في ديوانه، وهما بيتان منفردان.

(٤) البيتان لمنصور بن إسماعيل الفقيه في ديوانه، وهما بيتان منفردان.

وكان يُقال: الكاتم سره بين إحدى فضيلتين: الظفر بحاجته، أو السلامة من شرّ إذاعته. ويقال: أَصْبَرَ الناس مِنْ صَبْرٍ عَلَى كِتْمَانِ سرّه، فلم يُبْده لصديقه. وقال آخر: كِتْمَانُكَ سرّكَ يَعْقِبُكَ السَّلامَةُ، وإفْشاؤُهُ يَعْقِبُكَ النَّدَامَةُ، والصبر على كِتْمَانِ السرِّ أَيْسَرُ مِنَ النَّدَامَةِ عَلَى إفْشاؤِهِ. إبراهيم بن خفاجة^(١): [الكامل]

لا تودعن ولا الجماد سريرة فمِن الجوامد ما يشير وينطق
وإذا المحك أذاع سرّ أخ له وهو النضار فمن به يَسْتَوَثِقُ
وقال الأَخف: أدنى أخلاق الشريف كِتْمَانُ سرّه، وأعلى أخلاقه كِتْمَانُ ما أُسِرَ إليه. قال الشاعر^(٢): [الطويل]

ولست بمبدي للرجال سريرتي ولا أنا عن أسرارهم بسؤول
ولا أنا يومًا للحديث سمعته إلى ههنا من ههنا بنقُول
آخر^(٣): [المقارب]

تُبْوح بِسرّكَ ضيقًا به وتحسب كل أخ يكتُم
وكتمانك السرّ ممن تخاف ومَنْ لا تخافهم أحزم
إذا ذاع سرّكَ مِنْ مُخْبِرٍ فأنت إذا لُمْتَهُ أَلْوَمُ
وقال كعب بن زهير^(٤): [البيط]

لا تُفْشِ سرّكَ إلّا عند ذي ثقةٍ أولاً فأفضل ما استودعت أسراراً
صدرًا رحيبًا وقلبًا واسعًا صمًّا لم تَخْشَ منه لما أودعت إظهاراً

وقيل لأبي مسلم الخراساني: بأيّ شيء أدركت ما أدركت؟ قال: اتّزرت بالحزم، وارتديت بالكتمان، وحالفت الصّبر، وساعدني القدر، فأدركت مُرادِي، وحُزّت ما في نفسي؛ ثم أنشد^(٥): [البيط]

أدركت بالحزم والكتمان ما عجزت عنه ملوك بني مروان إذ حشدوا

(١) البيتان في ديوان ابن خفاجة، وهما بيتان منفردان.

(٢) البيتان لكعب بن سعد الغنوي في الأَصْمِعيّات، ص ٦٩.

(٣) الأبيات لبشار بن برد في ديوانه، وهي ثلاثة أبيات منفردة.

(٤) البيتان في ديوان كعب بن زهير، وهما بيتان منفردان.

(٥) الأبيات في وفيات الأعيان، لابن خلكان، في ترجمة أبي مسلم الخراساني، والبيت الأخير لابن=

ما زلت أسعى عليهم في دمارهم والقوم في غفلة بالشام قد رقدوا
حتى ضربتهم بالسيف فانتهبوا من نومة لم يَنمها قبلهم أحد
ومن يدع غنمًا في أرضٍ مضيعة ونام عنها تولي رعيها الأسد

وأما المزاح وما ورد فيه عمن أباحه ومن يُجافيه

فيُروى عن النبي ﷺ أنه قال: «من مَزَح استُخِفَّ به»^(١). وقال آخر: تجنَّب
شؤم الهزل ونكد المزاح، فإنَّهما بابان إذا فُتِحَا لم يُغْلَقَا إلَّا بعد عسر، وفحلان إذا
ألقِحا لم ينتجا غير ضرر. وقالوا: المزاح يضع قدر الشريف، ويذهب هنية الجليل.
وقال حكيم لولده: يا بني إِيَّاكَ والمُزاح، فإنه يُذهِب بهاء الوجه، ويَحْطُ مِنْ
المُروءة. شاعر^(٢): [الطويل]

ألا رُبَّ قول قد جرى مِنْ مُمَازِح فساق إليه الموت في طرفِ الحبلِ
وإنَّ مزاح المَرء في غير حينِه دليلٌ على فرط الحماقة والجهلِ
آخر^(٣): [الطويل]

إِيَّاكَ إِيَّاكَ المَزاح فإِنَّه يطمعُ فيك الطِّفل والرجل النَّذلا
ويذهب ماء الوجه بعد بهائه ويورث بعد العزِّ صاحبه ذُلًا
ويقال: أوكد أسباب القطيعة المُزاح، وإن كان لا غنى للنفس عنه،
فليكن بمقدار ما يحتاج إليه الطعام من الملح؛ كما قال أبو العباس البستي^(٤):
[الطويل]

أفد طبعك المكدود بالهمِّ راحةً براح وعَلَّه بشيء من المَزح
ولكن إذا أعطيته المَزح فليكن بمقدار ما تُعطي الطعام مِنْ الملح

= الرومي في ديوانه، برواية:

ومن رعى غنمًا في أرضٍ مسبعة ونام عنها تولَّى رعيها الأسدُ
ومطلع القصيدة:

حتى علوتهم بالسَّيْف فانتهبوا من بعد أن كانوا قد هَبوا كأن هجدوا

(١) أخرجه الزبيدي في إتحاف السادة المتقين ٤٥٥/٧، ٤٦٩، والعلجوني في كشف الخفاء ٣٨٨/٢.

(٢) البيتان بلا نسبة في نهاية الأرب، للنويري، ص ٢٤٢٢.

(٣) انظر الحاشية السابقة.

(٤) البيتان لأبي الفتح البستي في ديوانه، وهما بيتان منفردان.

وقال سعيد بن العاص لولده: اقتصد في مزاحك، فإن الإفراط فيه يُذهب البهاء ويُجرىء السفهاء. ويقال: المزح أوله فرح، وآخره ترح. شاعر^(١):
[الكامل]

امزح بمقدار الطلاقة واجتنب مزحاً تُضاف به إلى سوء الأدب
لا تغضبن أحداً إذا مزحته إن المزاح على مقدمة الغضب
أبو جعفر الطبري^(٢): [المجتث]

لي صاحبٌ ليس يخلو لسانه من جراح
يُجيد تمزيق عرضي على سبيل المزاح

(١) البيتان لابن الشجري، هبة الله بن علي بن محمد، في معجم الأدباء، لياقوت الحموي، في ترجمته.

(٢) البيتان للبحري في ديوانه، وهما بيتان منفردان.

الباب السابع

في الذكاء

وفيه ثلاثة فصول:

الفصل الأول من هذا الباب

في مدح الفطن والأذهان المعظمة من قدر المهان

قال ابن الأنباري في كتابه الذي سَمَّاه بالزاهر قولهم: فلان ذكي معناه كامل الفطنة ثاقبها. مِنْ قول العرب: ذكت النار تذكو إذا زاد وقودها، ويقال: مَسَكْ ذكيٌّ إذا كان طيبَ الريح. قال جميل^(١): [السيط]

صادت فؤادي بعينيها ومبتسم كأنه حين أبْدَتْه لنا بَرْدُ
عذبٌ كأنَّ ذكيَّ المسك خالطه والزَّنجبيل وماء المُرِّ والبُرْدُ

فمن انشَقَّت كرائم مَبَانِيهِ عَمَّا أَخَفَتْ مِنْ زَهْرَاتِ مَعَانِيهِ، فَعَطَفَتْ إِلَيْهِ قَلْبَ شَانِيهِ بَعْدَمَا أُنْفَ أَنْ يُدَانِيهِ سَعْدُ بْنُ ضَمْرَةَ، قَالُوا: كَانَ كَثِيرًا مَا يُغَيِّرُ عَلَى بِلَادِ النُّعْمَانِ بْنِ الْمَنْذَرِ، وَيَنْقُصُ أَطْرَافَهَا حَتَّى عِيَلَ صَبْرُهُ، وَبَدَأَ ضَرَّهُ، فَبَعَثَ إِلَيْهِ النُّعْمَانُ أَنَّ لَكَ أَلْفَ نَاقَةٍ حَمْرَاءَ عَلَى أَنْ تَدْخُلَ فِي طَاعَتِي، فَوَفَدَ عَلَيْهِ، وَكَانَ سَعْدُ بْنُ ضَمْرَةَ نَحِيفًا قَصِيرًا دَمِيمًا، وَكَانَ مَلْتَفًّا بِعِبَاءَةٍ، فَلَمَّا رَأَى النُّعْمَانُ أَزْدِرَاهُ، وَقَالَ: لِأَنَّ تَسْمَعَ بِالْمَعِيدِي خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَرَاهُ، قَالَ سَعْدُ: أَبَيْتُ اللَّعْنَ إِنَّ الرِّجَالَ لَا تُكَالُ بِالْقَفْزَانِ، وَلَا بِمَسْوُكٍ يُسْتَقَى بِهَا مِنَ الْغَدْرَانِ، وَإِنَّمَا الْمَرْءُ بِأَصْغَرِيهِ قَلْبُهُ وَلِسَانُهُ، إِنَّ نَطْقَ نَطْقِ بَيَانَ، وَإِنْ قَاتَلَ قَاتِلَ بَجْنَانَ؛ فَقَالَ لَهُ النُّعْمَانُ: أَنْتَ ضَمْرَةُ بْنُ ضَمِيرَةَ.

(١) البيتان ليسا في ديوان جميل بن معمر، ولم أجدهما في المصادر والمراجع التي بين يدي.

ونظر عمر بن الخطاب إلى الأحنف وعنده الوفد والأحنف ملتف بعباءة، فترك عمر القوم واستنطقه، فتكلم بكلامه البليغ المصيب، وذهب فيه ذلك المذهب العجيب، فلم يزل عنده في الذروة العليا إلى أن عد له من الرئاسة على تميم ما كان له ثابتاً إلى أن فارق الدنيا. قال عبد الملك بن عمير: قدم علينا الأحنف الكوفة أصلع الرأس، متراكب الأسنان، أشدق مائل الذقن، ناتئ الجبهة، جاحظ العينين، خفيف العارضين أحنف، ولكنه كان إذا تكلم جلى عن نفسه سائر العيوب.

خرج عثمان رضي الله عنه من داره، فرأى عامر بن عبد قيس على بابه، وقد ألقى رأسه بين ركبتيه، وكان عامر شيخاً دميماً أسعى فظاً، فأنكره وأنكر مكانه، فقال: يا أعرابي أين ربك؟ قال: بالمرصاد، فيقال: إن عثمان لم يفحمه أحد غيره. ونظر معاوية إلى النحار بن أوس العدوي الخطيب النسابة في عباءة في ناحية من مجلسه، فأنكر مكانه وازدراه، فتبين للنحار ذلك في وجهه، فقال: يا أمير المؤمنين إن العباءة لا تكلمك، إنما يكلمك من فيها، وكمال الرجل آدابه لا ثيابه؛ وأنشد^(١): [الكامل]

إنني وإن كنت أثوابي ملفقة ليست بخز ولا من نسج كثنان
فإن في المجد هُماتي وفي لغتي فصاحة ولساني غير لحان

وأراد بعض الأعراب مخاطبة إنسان، فازدراه الرجل لثرائه ثوبه وخسة حاله، وأبى أن يكلمه، فقال: ما لكم يا عبید الثياب، وأشباه الكلاب، حقّرتموني لأطماري، ولم تسألوني عن مكنون أخباري؛ ثم أنشد^(٢): [الكامل]

المَرءُ يُعجبني وما كَلَّمته قد قال لي هذا اللَّبيب اللُّهْذُمُ
فإذا قدحت زناده ووزنته بالنقد زاف كما يزيف الدرهم

ودخل كُثير بن عبد الرحمن، وكان يُلقب بزبّ الزباب لقصره على عبد الملك بن مروان في أول خلافته، فاقتحمته عينه ففهم عنه، فقال كثير: يا أمير

(١) البيتان لسويد بن أبي كاهل في الأشباه والنظائر، للخالدين، ص ٦٨٦، ولسويد اليشكري في ديوانه، من قصيدة مطلعها:

أبا ضبيعة لا تعجل بسيئةٍ إلى ابن عمك واذكر بإحسان

(٢) البيتان لم أجدتهما في المصادر والمراجع التي بين يدي.

المؤمنين كُلٌّ عند نفسه واسع الفناء، شامخ البناء، عالي السَّناء؛ ثم أنشد للعباس بن مرداس^(١): [الوافر]

تري الرجل النحيف فتزدرية	وفي أثوابه أسدٌ مضورٌ
ويُعجبك الطير فتبتليه	فيخلف ظنك الرجل الطيرُ
بغات الطير أطولها رقابًا	ولم تطل البزاة ولا الصقورُ
خسّاس الطير أكثرها فراخًا	وأمّ الباز مقلّاة نزورُ
ضعاف الأسد أكثرها زئيرًا	وأضرؤها اللواتي لا تزيّرُ
وقد عظم البعير بغير لبّ	فلم يستغن بالعظم البعيرُ
يُصرّفه الصغير بكلّ أرض	ويُنزله على الخسف الجريّرُ
ينوح ثم يضرب بالهراوي	ولا عُزف لديه ولا نكيرُ
فما عظم الرجال لهم بزّين	ولكن زَيْنهم كرمٌ وخيرُ

فقال عبد الملك: قاتله الله ما أطول لسانه، وأمدّ عنانه، وأجرأ جنانه؛ فقال: إني لأحسبه كما وصف نفسه، وأمر له بصيلة حسنة. وقال أبو عبيد البكري في لآله: إنّ كثيرًا كان لا يبلغ طوله شروع الإبل لقصره، وكان إذا دخل على عبد الملك يقول له حين يراه: طأطىء رأسك لثلاً يصيبه السقف، تهكمًا به؛ وفيه يقول الحرّ بن الشاعر^(٢): [الطويل]

قصيرٌ قميصٌ فاحشٌ عند بيته يعضّ قرادًا بإسته وهو قائمٌ

وكان الجاحظ واسمه عثمان بن بحر دَمِيم الصورة قبيح الوجه ناتئ العينين، يُخَكّي عنه أنّه قال: ما أخجلني أحدٌ قطّ إلا امرأة أخذت بيدي وحملتني إلى نجار، وقالت له: مثل هذا، ثم تركتني وانصرفت، فبقيت متعجبًا من أخذها لي مثلاً، فسألت الصائغ فقال: إنّ هذه المرأة سألتني أن صنع لها مثال شيطان تفرع به ولدها، فقلت لها: إني لم أرَ شيطانًا قطّ حتى أعمل مثاله، وطلبت منها مثلاً، فقالت: أنا آتيك به، فجاءتني بك. وقُرِع عليه الباب يومًا، فخرج غلامه فسُئِلَ

(١) الأبيات في ديوان العباس بن مرداس، والبيت الأول هو مطلع القصيدة، وفي الديوان: «أسدٌ مزيرٌ»، بدل: «أسدٌ مضورٌ».

(٢) البيت بلا نسبة في كتاب الحيوان للجاحظ، ٢/ ٢٨٥، ورواية البيت فيه: يكاد خليلي من تقارب شخصه يعضّ القراد بإسته وهو قائمٌ

عنه، فقال: ها هوذا يكذب على ربه، قيل له: كيف ذلك؟ قال: نظر في المرأة وجهه فقال: الحمد لله الذي خلقني فأحسن صورتي؛ إلا أنه كان إذا كتب وشى حلل الطروس بأقلامه، وإذا تكلم لفظ الدرر من منشور كلامه. وفيه يقول أحمد بن سلامة الكتبي يهجو ويذكر قبحه^(١): [الكامل]

لو يمسح الخنزير مسحًا ثانيًا ما كان إلا دون قُبْح الجاحظِ
وإذا المرأة جَلَّت عليه وجهه لم تَخُلْ مقلته بها من واعظِ
وعلى أثر قبح الصورة يقول بعض الشعراء في جحظة^(٢): [السريع]
مَنْ كان مُشتاقًا إلى منكرٍ فجحظة أنكر مِنْ منكرِ
لو عَذَّب الله به ناره أطفأها بردًا ولم تَزفرِ
وأنشد أعرابي^(٣): [السريع]

خَبَرْتُهَا أَنِّي مُحِبٌّ لَهَا فَأَقْبَلْتُ تَضْحَكُ مِنْ مَنْطِقِي
والتفتت نحو فتاة لها كَارِثَا الوَسْنَانِ فِي قَرطِقِ
قالت لها قولِي لهذا الفتى انظر إلى وجهك ثم اعشِقِ

لقي أعرابي شيخ قبيح الصورة فتاة حسناء، فعرض عليها نفسه، فأعرضت عنه، وقالت: أمخادع غائل أم ركيك هازل؟ قال: بل لبيب عال، مُحِبٌّ مائل، قالت: فما أصنع بك قبيحًا فقيرًا، شيخًا كبيرًا؟ قال: أستمح لفقرى ملوكًا فيزول، وأصبغ شئبي حلوكًا فيحول، قال: فقالت: فقبحك إلام يؤول؟ فولى عنها وهو يقول^(٤): [الكامل]

تزهى عليّ بدلها وشبابها وتقول لي يا شيخ أنت مخادعُ
قبحٌ وإفلاسٌ وشئبٌ شاسع وطمعت فينا أخلفتك مطامعُ
فأجبتها الإفلاس يُذهبه الغنى والشئب يُذهبه الخضاب اليانِعُ

(١) البيتان بلا نسبة في حماسة الظرفاء، للعبدلكاني الزوزني، ص ١٦٠.

(٢) البيتان لم أجدتهما في المصادر والمراجع التي بين يدي.

(٣) الأبيات لإسماعيل بن معمر المكي القراطيسي، في الوافي بالوفيات، لصلاح الدين الصفدي، في ترجمته.

(٤) الأبيات للعطوي في الموشى، للوشاء، ص ٢٥٥.

قالت فقبحك ليس فيه حيلة والقُبْح ليس له دواء نافع
يا صدقها ما كان أصدق حجّتي لو كان يدفع قُبْح وجهي دافع

رجعنا، قال بعضهم: كنت بفناء الكعبة إذ مرّ بنا رجل أصلع أرسح أفحج،
كأن أنفه بعرة أشدّ سوادًا من إست القدرة، عليه ثوبان قطوبان، فرأيت الناس
يهرعون إليه من كل جانب يطلبون السبق في السلام عليه، فقلت: من هذا؟ قالوا:
هذا سيّد فقهاء الحجاز عطاء بن أبي رباح. وصفه آخر، فقال: كان أعور أفضس
أشلّ أعرج، ثم عمي بعد ذلك. قال عثمان بن عطاء الخراساني: انطلقت مع أبي
نريد هشام بن عبد الملك، فلما قربنا إذا بشيخ على حمار أسود عليه قميص دنس،
وجبة دَنَسَة، وقلنسوة لاطية دنسة، وركابه من خشب؛ فضحكت منه وقلت لأبي
من هذا الأعرابي؟ قال: اسكت هذا سيّد فقهاء الحجاز عطاء بن أبي رباح؛ فلما
قرب منا نزل أبي عن بغلته ونزل هو عن حماره، فاعتنقا وتساءلا ثم عادا فركبا
وانطلقا حتى وقفا على باب هشام، فما استقرّ بهما الجلوس حتى أذن لهما، فلما
خرج أبي قلت له: حدّثني ما كان منكما؟ قال: لما قيل لهشام إن عطاء بن أبي
رباح بالباب أذن له، فوالله ما دخلت إلّا بسببه، فلما رآه هشام قال: مرحبًا مرحبًا
ههنا ههنا، ولا زال يقول له ههنا ههنا حتى أجلسه معه على سريره ومسّ بركبته
ركبته وعنده أشراف الناس يتحدثون فسكتوا، فقال له: ما حاجتك يا أبا محمد؟
قال: يا أمير المؤمنين أهل الحرمين أهل الله وجيران رسوله تُقسم عليهم أرزاقهم
وعطيّاتهم، قال: يا غلام اكتب لأهل مكّة والمدينة بعطاياهم وأرزاقهم لسنة، ثم
قال: هل من حاجة غيرها يا أبا محمد؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، أهل الحجاز
وأهل نجد هم أصل العرب وقادة الإسلام تردّ فيهم فضول صدقاتهم، قال: نعم يا
غلام اكتب بأن تردّ فيهم فضول صدقاتهم، هل من حاجة غيرها يا أبا محمد؟
قال: نعم يا أمير المؤمنين، أهل الثغور يردّون من ورائكم ويقاتلون عدوكم تجري
لهم أرزاقًا تدرّها عليهم، فإنهم إن هلكوا ضاعت الثغور، قال: نعم يا غلام،
اكتب بحمل أرزاقهم إليهم، هل من حاجة غيرها يا أبا محمد؟ قال: نعم يا أمير
المؤمنين، أهل ذمتكم لا يجبي صغارهم، ولا يتقنع كبارهم، ولا يكلفون ما لا
يطيقون، فإنّ ما تجبونه منهم معونة لكم على عدوكم، قال: نعم يا غلام اكتب
لأهل الذمة بأن لا يكلفوا ما لا يطيقون، هل من حاجة غيرها يا أبا محمد؟ قال:
نعم اتق الله في نفسك، فإنك خلقت وحدك، وتموت وحدك، وتُخشّر وحدك،

وَتَحَاسِبَ وَحْدَكَ، وَلَا وَاللَّهِ مَا مَعَكَ مَمَّنْ تَرَى أَحَدًا؛ فَأَكْبَ هَشَامُ يَنْكُثُ فِي الْأَرْضِ وَهُوَ يَبْكِي، فَقَامَ عَطَاءٌ، فَلَمَّا كُنَّا عِنْدَ الْبَابِ إِذَا رَجُلٌ قَدْ تَبِعَهُ بِكَيْسٍ لَا أَدْرِي مَا فِيهِ دَنَانِيرٌ أَمْ دَرَاهِمٌ؟ فَقَالَ: إِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَمَرَ لَكَ بِهَذَا، فَقَالَ: لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ، فَوَاللَّهِ مَا شَرِبَ عِنْدَهُ قَطْرَةَ مَاءٍ.

وَأَكْثَرُ مَا يَوْجَدُ الذِّكَاةُ الْمُفْرَطُ عِنْدَ الْفُهْيَانِ

إِنَّهُمْ غَوَّضُوا عَنِ الْبَصَرِ سُرْعَةَ الْحِفْظِ وَبَطْءَ النِّسْيَانِ

كَانَ قَتَادَةُ بْنُ دَعَامَةَ أَكْمَهُ، وَكَانَ يَقُولُ لِقَائِهِ سَعِيدُ بْنُ أَبِي عَرُوبَةَ: تَجَنَّبْ بِي الْحَلْقَ الَّتِي فِيهَا الْخَطَا، فَإِنَّهُ مَا وَصَلَ إِلَى سَمْعِي شَيْءٌ فَأَذَاهُ إِلَى قَلْبِي فَنْسِيهِ. وَمَمَّنْ وُلِدَ أَكْمَهُ بَشَارُ بْنُ بُرْدٍ، وَكَانَ رَأْسَ طَبَقَةٍ فِي الشُّعْرَاءِ الْمَوْلِدِينَ، وَهُمْ: أَشْجَعُ السَّلَمِيِّ، وَمُسْلِمُ بْنُ الْوَلِيدِ، وَأَبُو الْعَتَاهِيَةِ، وَأَبُو نَوَاسٍ وَغَيْرُهُمْ، وَقَالَ الشُّعْرُ وَلَهُ مِنَ الْعُمُرِ إِحْدَى عَشْرَةَ سَنَةً. وَمِنْهُمْ أَبُو الْعَلَاءِ أَحْمَدُ بْنُ سَلِيمَانَ الْمَعْرِي، وَمِنْ عَجِيبِ حِكَايَاتِهِ أَنَّ أَبَا زَكْرِيَّا التَّبْرِيْزِيَّ كَانَ يَقْرَأُ عَلَيْهِ، فَأَتَاهُ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ أَهْلِهِ مِنْ تَبْرِيْزٍ، فَجَاءَ حَلَقَةً أَبَا الْعَلَاءِ فَسَأَلَ عَنْهُ، فَأَخْبَرَ أَنَّهُ غَائِبٌ فِي بَعْضِ شَأْنِهِ، قَالَ لَهُ أَبُو الْعَلَاءِ: مَا تَرِيدُ بِهِ؟ قَالَ: جِئْتُ بِرِسَالَةٍ مِنْ عِنْدِ أَهْلِهِ، قَالَ: هَاتَهَا حَتَّى نَوْصِلَهَا إِلَيْهِ، قَالَ: إِنَّهَا مُشَافَهَةٌ، قَالَ: فَاسْمِعْنَاهَا وَلَا تُسْقِطْ مِنْهَا حَرْفًا، فَأَوْرَدَهَا عَلَيْهِ، فَلَمَّا جَاءَ التَّبْرِيْزِيَّ أَخْبَرَ أَنَّ رَجُلًا جَاءَ مِنْ تَبْرِيْزٍ وَمَعَهُ رِسَالَةٌ مِنْ أَهْلِكَ، قَالَ: لَيْتَكُمْ أَخَذْتُمُوهَا مِنْهُ، فَإِنِّي مَشُوقٌ لِمَا يَرِدُ مِنْ أَخْبَارِهِمْ، فَقِيلَ لَهُ: إِنَّهُ قَالَ إِنَّهَا مُشَافَهَةٌ، فَتَأَسَّفَ لَذَلِكَ، فَلَمَّا رَأَى أَبُو الْعَلَاءِ تَأَسَّفَهُ قَالَ لَهُ: لَا عَلَيْكَ إِنِّي سَمِعْتُهَا مِنْهُ وَحَفِظْتُهَا، ثُمَّ أَمْلَاهَا عَلَيْهِ، فَجَعَلَ التَّبْرِيْزِيَّ يَضْحَكُ مَرَّةً وَيَبْكِي مَرَّةً، فَسَأَلَهُ أَبُو الْعَلَاءِ عَنْ ضَحْكِهِ وَبُكَائِهِ، فَقَالَ: تَارَةً تَخْبِرُنِي بِمَا يَسْرَنِي فَأَضْحَكُ، وَتَارَةً تَخْبِرُنِي بِمَا يُخْزِنُنِي فَأَبْكِي؛ وَغَمِّي أَبُو الْعَلَاءِ وَلَهُ مِنَ الْعُمُرِ ثَلَاثُ سِنِينَ مِنْ جَدْرِي أَصَابَهُ، وَقَالَ الشُّعْرُ وَلَهُ إِحْدَى عَشْرَةَ سَنَةً. وَلِبَشَارٌ^(١): [الطويل]

وَعَيَّرَنِي الْأَعْدَاءُ وَالْعَيْنُ فِيهِمْ وَلَيْسَ بَعَارٍ أَنْ يَقَالَ ضَرِيرُ
إِذَا أَبْصَرَ الْمَرْءَ الْمَرْوَةَ وَالتُّقَى فَإِنَّ عَمَى الْعَيْنِينَ لَيْسَ يَضِيرُ
رَأَيْتُ الْعَمَى أَجْرًا وَذَخْرًا وَعَصْمَةً وَإِنِّي إِلَى تِلْكَ الثَّلَاثِ فَقِيرُ

(١) الأبيات في ديوان بشار بن برد، وهي ثلاثة أبيات منفردة.

ولعبد الله بن عباس^(١): [البسيط]

أن يأخذ الله من عينيَّ نورهما ففي فؤادي وقلبي منهما نُورُ
قلبي ذكيَّ وعقلي غير ذي دَخَلٍ وفي فمي صارمٌ بالقول مشهورُ
ولبعضهم يتوجَّع^(٢): [الوافر]

عزائي أيها العين السَّكوب وصبرك أنها نوب تنوبُ
وكنت كريمتي وجمال وجهي وكانت لي بك الدنيا تطيبُ
وإني قد ثكلتك في حياتي وفارقني من الدنيا الحبيبُ
على الدنيا السلام فما لشيخ ضريرُ العين في الدنيا نصيبُ

مَنْ اخترع مِنَ الأوائلِ حِكْمَهُ بثاقب فكره

فكانت سببًا لتنويه قدره وإبقاء ذكره

أردشير بن بابك: والمخترعات أربعة: اثنتان في صدر الإسلام، وهما الترد والشطرنج، واثنتان إسلاميتان، وهما النُحو والعروض. فأما الترد، فوضعها أردشير بن بابك، وهو أول ملوك الفرس الأخيرة، وأول مَنْ وضع الترد وضربها مثالاً للقضاء والقدر، وأنَّ الإنسان ليس له تصرّف في نفسه لا يملك لها نفعا ولا يدفع عنها ضررا ولا يقدر أن يجلب لها موتا ولا حياة ولا سعدا ولا شقاء، بل هو مصرف على حكم القضاء والقدر معرّض طوراً للنفع وطوراً للضرر، وجعلها أيضاً تمثيلاً للحظّ الذي يناله العاجز بما يجري لديه من المُلْك والحرمان الذي يُبتلى به الحازم بما دار به عليه الفلك وضعها على مثال الدنيا وأهلها، فرتب الرقعة اثني عشر بيتاً بعدد شهور السنة والبروج، وجعل القطع ثلاثين قطعة بعدد أيام كل شهر، والدرج التي هي لكل برج ثلاثين درجة، ومعناها أنَّ كل ثلاثين درجة على سبعة أيام، ومعناها الكواكب السبعة السيّارة، ثم جعل لها تشبيهاً فوضع...^(٣) وشبهها بالنير، وصوّر فيها أربعة وعشرين بيتاً بعدد ساعات الليل والنهار في كل ناحية منها

(١) البتان لم أجدهما في المصادر والمراجع التي بين يدي.

(٢) الأبيات لصالح بن عبد القدّوس في ديوانه، والبيت الأول هو مطلع القصيدة.

(٣) بياض بالأصل.

اثنا عشر بيتًا، وصيّر لها ثلاثين كلبًا تشبيهاً بأيام الشهر ودرج الفلك، ثم عمل فُصَيْن شَبَهَهما بالليل والنهار، وتوصل إلى إيصال ذلك للعقول بأن جعل اللّعب بالفُصَيْن اللذين أنزلهما منزلة الليل والنهار، فجعل لكل فُصَيْن ستة أوجه؛ كجهات الإنسان فوق وأسفل ووراء وأمام ويمين وشمال، لأنه عدّد له نصف وثلاث وسدس، وجعل في كل جهة من الفُصَيْن سبع نقط تحت الستة واحدة، وتحت الخمسة ثنتين، وتحت الأربعة ثلاثة تشبيهاً بعدد الأيام، وعدد الكواكب السيّارة وأنزلهما منزلة القضاء والقدر، ثم جعلها مِخْنَةً بين رجلين أنزلهما منزلة الليل والنهار، يشير إلى أن الإنسان لا يعلم مِنْ أين يأتيه الخير والشر؛ فكما أَنَّ الإنسان لا يعلم مما يَرِدُ أَنَّ عليه مِنْ خير أو شرّ أو نفع أو ضرر، فكذا لا يعلم ما يعطيه الفُصَان أو يسلبانه، هل يكون غالباً أو مغلوباً؟ إذ ليس له من الأمر شيء، وأشار فيها أيضاً إلى تقلّب القدر بالإنسان، فتارة يكون شريفاً، ثم يكون مشروفاً وبالعكس، أو يكون فقيراً ثم يصير غنياً وبالعكس، إلى ما لا نهاية له من تقلّب الأطوار في تغاير الأوطار. ولقد أحسن السري الرفاء في وصفها مِنْ أبيات^(١):

[الكامل]

ومحتكمان على النفوس وربما لم يحكما فيهنّ حكماً عادلا
أخوان قد وسما على متنيهما سِمة تحثّ على البليد غوائل
يلقاهما المرزوق سعداً طالعا ويراهما المحروم سعداً آفلا
فإذا هما اصطحبا على كفّ الفتى ضرّاه أو نفعاه نفعاً عاجلا

وأما الشطرنج، فإنّ الفرس لما افتخرت بوضع الترد، وكان ملك الروم يومئذ بلهيث، فوضع له رجل من الحكماء يسمّى صصة الشطرنج وضربها مثلاً على أن لا قدر، وأنّ الإنسان قادر بسعيه واجتهاده يبلغ المراتب العليّة والخطط السنيّة، وإنّ هو أهملها سارت به من الخمول إلى الحضيض، وأخرجته من رَوْض العيش الأريض، ومما جعله دليلاً على ذلك أنّ البَيْدق ينال بحركته وسّعيه منزلة الفرزان في الرياسة، وجعلها مصوِّرة تماثيل على صورة الناطق والصامت، وجعلها درجات

(١) الأبيات في ديوان السري الرفاء، من قصيدة مطلعها:

عندي إذا ما الروض أصبح ذابلاً تحف أغصن من الرّياض شمائل

ومراتب، وجعل الشاة المدبر الرئيس، والفرس والفيل مركوبان له، والفرزان وزيره، والبيادق رعاياه؛ فكما أنّ الواحد من الرّعيّة إذا أعطى الاجتهاد حقّه في تهذيب نفسه وتأديبها كان ذلك عوناً له على أن ينال رتبة الفرزان، فكذلك الفرزان إذا علت همّته وتمكّنت قدرته طمحت نفسه إلى ثيل رتبة الشاة وقتاله، وكذلك ما يليها من القطع.

ويقال في سبب وضعها أنّ بعض ملوك الهند كان له ولد يسمّى شاه أخرجه إلى بعض الحروب، فقتل فيها، فهاب الناس الملك أن يُعلّموه بموته، فوضع لهم بعض حكمائهم الشطرنج، ويبيّن لهم فيها ما خفي عنهم من مكائد الحروب وكيفية ظفر الغالب وخذلان المغلوب، ويبيّن فيها التدبير والحزم والاحتياط والمكيدة والاحتراس والتعبية والنجدة والقوّة والجلد والشجاعة والبأس؛ فمن عُدِم شيئاً من ذلك علِمَ موضع تقصيره، ومن أين أتى بسوء تدبيره؛ لأن خطأها لا يُستقال، والعجز فيها مُتلف المُهَج والأموال. واعلم أنّ في ترك الحزم ذهاب المُلك، وضعف الرأي جالب للعطب والهلك، والتقصير سبب الهزيمة والتّلاف، وعدم المعرفة بالتعبية داع إلى الانكشاف، وأمرهم أن يلعبوا بها بين يديّ الملك، فلما لعبَ بها قال الغالب للمغلوب: شاه مات، ففطن الملك للمراد، وأمر أن يعزّى بولده ثمرة الفؤاد.

ويقال: إنّ صصة لَمّا وضع الشطرنج وعرضها على الملك وأظهر له مكنون سرّها، قال له: اقترح ما تشتهي؟ قال: أن تضع حبة برّ في البيت الأول، ولا تزال تضعها حتى تنتهي إلى آخر البيوت، فما بلغ تعطيني؛ فاستخفّ الملك عقله، واحتقر ما طلبه، وقال: كنت أظنّ برجاحة عقلك وتوقّد فكرك أن تطلب شيئاً نفيساً، فقال: أيّها الملك إنك لَمّا صرفتني إلى التمتّي لم يخطر ببالي غير ذلك، ولا سبيل إلى الرجوع عنه؛ فأنعم له الملك بما سأل، وتقدّم بإحضار الحساب وأمرهم بحساب ذلك، فاعملوا في بلوغ قصده مطايا الأفكار، حتى لاح لهم نجم صدقه فعرفوه بعد الإنكار، فلم يجدوا في بلاد الدنيا من البرّ ما يفي للحكيم بمراده، ولو كانت الرّمال من أمداده. وذلك أنهم وضعوا حبة في البيت الأول، وفي الثاني حبتين، وفي الثالث أربعة، وفي الرابع ثمانية، وفي الخامس ستّة عشر وهكذا، ولولا خشية التطويل لذكرنا تضعيف عددها ونهاية مدها، ولم أهمل ذلك، فإنّي وجدت بعض الحدّاق حصرها بالأعداد الهندية ونظمها في بيت من الشعر،

ذكرت ذلك استحساناً لوجازته؛ فالييت:

ها واهبط وصغر بعده زجره وثنّ صغرا وقل ددّ زود دحا
٦١٥ ٥٥١ ٠٩ ٠٠٧٣٧ ٧٤٤ ٤٦ ١٨٤
والعدد: ٦١٥ ٠٩٥٥١ ٧ ٧٤٤٠٠٧٣ ٦ ١٨٤٤

وقال السريّ: من الأبيات التي تقدّم ذكرها في صفة الترد يصف الشطرنج،
وقد أحسن في قوله^(١): [الكامل]

وكتيبتا زيغ وروم اذكيا حربا يسل بها الذكاء مناصلا
في معرك قسم النزال بقاعه بين الكماة المعلمين منازل
لم يسفح فيه دما وكأنما رشح الدماء أعاليا وأسافلا
تبدي لعينك كلما عاينتها قرنين جالا مقدما ومخاتلا
فكأنّ ذا صاح يسير مقوماً وكان ذانشوان يخطر مائلا
فأعجب لها حرباً تشير إذا التظت فضل الرجال ولا تشير قساطلا

وقالوا: إن أصل شطرنج شش رنك، ومعناه ستّة ألوان؛ لأن شش عندهم
ستة، ورنك لون؛ فكأنهم قالوا: ستّة ألوان، فالشاه لون، والفرزان لون، والفيل
لون، والرخّ لون، والفرس لون، والبيدق لون.

وأما ما اخترع في الإسلام، فالنحو والعروض. فأما النحو؛ فإنّ علي بن أبي
طالب رضي الله عنه هو الذي ابتكره واخترعه، وقالوا في أصل وضعه له أن أبا
الأسود الدؤلي كان ليلة على سطح بيته وعنده بنت له، فرأت السماء ونجومها
وحسن تلالؤ أنوارها مع وجود الظلمة، فقالت: يا أبت ما أحسن السماء - بضم
النون - فقال: أي بُنيّة نجومها، وظنّ أنها أرادت أي شيء أحسن منها، فقالت:
يا أبت إنما أردت التعجّب من حُسْنها، فقال: قولي: ما أحسن السماء، فلما أصبح
عدا على عليّ رضي الله عنه وقال: يا أمير المؤمنين حدث في أولادنا ما لم
نعرفه، وأخبره بالقصة، فقال: هذا بمخالطة العجم، ثم أمره فاشترى صحفاً وأملأ

(١) الأبيات في ديوان السري الرقاء، من قصيدة مطلعها:

عندي إذا ما الروض أصبح ذابلا تُحفّ أغصن من الرياض شمائل

عليه بعد أيام أقسام الكلام ثلاثة: اسم وفعل وحرف جاء لمعنى، وجملة من باب التعجب، وقال: انْحُ نحو هذا، فكان ذلك أول ما أُلّف في النحو، ثم قال: تتبّع وزدّ فيه ما وقع لك، واعلم يا أبا الأسود أنّ الأشياء ثلاثة: ظاهر ومضمر وشيء ليس بظاهر ولا مضمر، قال: فجمعت منها أشياء وعرضتها عليه، فكان من ذلك حروف النصب، فذكرت منها: إنّ وأنّ وليت ولعلّ وكأّن، ولم أذكر ولكن؛ فقال لي: لم تركتها؟ فقلت: لم أحسبها منها، فقال: بل هي منها، فزدّها فيها، ثم جاء بعد أبي الأسود ميمون الأقرن، فزاد على ما أُلّفه أبو الأسود، ثم تلاه في ذلك عَنبَسَة بن معدان الذي يقال له عَنبَسَة الفيل، فزاد فيه؛ ثم جاء عبد الله بن أبي إسحق الحضرمي وأبو عمرو بن العلاء فزادا في ذلك، ثم الخليل بن أحمد وكان عليّ بن حمزة الكسائي رسم في ذلك رسوماً أخذها عنه الكوفيتون، ثم أخذ ذلك سيبويه عن الخليل وكلّ مَنْ جاء بعده، فمن بحر كتابه يغترفون، ويتقدّمه عليهم يعترفون.

وأما العروض، فأول مَنْ اخترعه وابتدعه الخليل بن أحمد، وأبوه أول مَنْ سَمّي أحمد في الإسلام، وهو أول من وضع العروض واستخرج غرائبه واستنبط عجائبه وجعله ميزاناً للشعر يُعرف به التامّ من الناقص، وصاغ له من التفاعيل ثمانية أجزاء لا يخرج شعراً موزون عنها صيرها له كالمثاقيل، وهي:

فعولن فاعلن مفاعيلن مستفعلن فاعلاتن مفاعلتن متفاعلن مفعولات

وهذه المثاقيل مُركّبة من سبب ووتد؛ فالسبب نوعان: خفيف وثقيل، فالخفيف متحرّك بعده ساكن، نحو: ما وهل؛ والثقيل متحرّكان، نحو: لم وبم، إذا سألت.

والوَتَد نوعان: مجموع ومفروق، فالمجموع متحرّكان بعدهما ساكن، نحو: دعا ورمى وسعى، والمفروق متحرّكان بينهما ساكن، نحو: كيف، وجعل البيت الشعر مثال بيت الشعر؛ لأنّ البيت من الشعر لا يقوم إلاّ بالأسباب، وهي الإطناب والأوتاد التي تُضرب في الأرض، وتُربط فيها الإطناب، فيقوم البيت، وإنما مثل بذلك لأنّ في الشعر حروفاً مضطربة يطرأ عليها الزحاف، فسُمّيت أسباباً لاضطرابها تشبيهاً بأسباب البيت الشعر، وفيه حروف ثابتة لا يطرأ عليها الزحاف، فسُمّيت أوتاداً لثباتها. وإلى ما قصده الخليل في هذا التمثيل أشار أبو العلاء المعري في

قوله^(١): [البسيط]

والحسن يظهر في شيئين رونقه بيتٌ مِنَ الشَّعْرِ أو بيت من الشَّعْرِ

وفسر الناس هذا البيت بأن بيت الشعر يحتوي على المعاني كاحتواء بيت الشعر على الصور، وسُمِّي نصف البيت الأول صدرًا، والنصف الأخير عجزًا، وآخر جزء في الصدر عروضًا، وآخر جزء في العجز ضربًا. وحصر أقسامه في خمس دوائر يستخرج منها خمسة عشر بحرًا، وهي: المختلف، والمؤتلف، والمجتلب، والمشتبه والمتفق.

فالطويل: وهو أصل دائرة المختلف مبنيٌّ على فعولن مفاعيلن ثمانية أجزاء، وسُمِّي طويلًا لأنه أكثر الشعر عدد حروف، وعدد حروفه سبعة وأربعون حرفًا، وربما كان مصرعًا، فجاء على ثمانية وأربعين حرفًا.

والمديد: وهو مبنيٌّ على فاعلاتن فاعلن ثمانية أجزاء، وإنما سُمِّي مديدًا لامتداد سببه، فصار سبب في أول جزء ابتدائه وسبب في آخره.

والبسيط: وهو مبنيٌّ على مستفعلن فاعلن ثمانية أجزاء، وإنما سُمِّي بسيطًا لانبساط الأسباب في أول أجزائه في الدائرة، وهنَّ يفككن من دائرة المختلف.

والوافر: وهو أصل دائرة المؤتلف، وهو مبنيٌّ على مفاعلتن مفاعلتن فعول ستة أجزاء، وسُمِّي بذلك لأنه استوفى عدد أجزائه في الدائرة، فهو موفور الحركات ناقص الحروف.

والكامل: وهو مبنيٌّ من متفاعلن متفاعلن ستة أجزاء، وإنما سُمِّي بذلك لكمال أجزائه وحركاته وحروفه، ولم ينقص منه شيء كما نقص من الوافر، ومنها أنه جاء على اثنين وأربعين حرفًا منها ثلاثون متحرّكات، فلما كثرت حركاته وزادت على سائر الأجناس سُمِّي كاملاً، وهما يفككان من دائرة المؤتلف.

والهزج: وهو أصل دائرة المجتلب، وهو مبنيٌّ على مفاعيلن مفاعيلن ستة أجزاء، وهو مشتق من تهزج الصوت وهو التردد؛ لأنه يتوالى في آخر كل جزء سيبان، فتواليهما هو التهزج.

(١) البيت في ديوان أبي العلاء المعري، من قصيدة مطلعها:

يا ساهر البرق أيقظ راقد السمر لعل بالجرع أعوانًا على السهر

والرَّجَز: وهو مبنيٌّ على مستفعلن مستفعلن ستّة أجزاء، سَمِيَ بذلك لأنّ في كل جزء منه سبعين، فهو سريع لاضطرابه، والرجز هو أن تتحرّك قوائم البعيرة مرّة وتسكن أخرى.

والرَّمْل: وهو مبنيٌّ على فاعلاتن فاعلاتن ستّة أجزاء، وهو مشتقٌّ من السرعة في السَّير، وهنّ يفككن من دائرة المجتلب.

والسريع: وهو أصل دائرة المشتبه، وهو مبنيٌّ على مستفعلن فاعلاتن^(١) ستّة أجزاء، وسَمِيَ بذلك لسرعته على اللسان.

والمنسرح: وهو مبنيٌّ على مستفعلن مفعولات ستّة أجزاء، سَمِيَ بذلك لانسراحه في سهولته.

والخفيف: كالرمل في السرعة، وإنما غُوِيَ بينهما في التسمية، وهو مبنيٌّ على فاعلاتن مستفعلن فاعلاتن ستّة أجزاء.

والمضارع: وهو مبنيٌّ على مفاعيلن فاعلاتن مفاعيلن ستّة أجزاء، وسَمِيَ بذلك لمضارعه الهزج، وقيل: المجتث، وقيل: المنسرح، وقيل: الخفيف، ولكل قول مِنْ هذه الأقوال حجةٌ مذكورة في كتب العروض يضيق عنها الوقت ويفوت الغرض المقصود في هذا الكتاب.

والمقتضب: وهو مبنيٌّ على مفعولات مستفعلن ستّة أجزاء، سَمِيَ بذلك لأنه اقتضب من المنسرح، وقيل: مِنْ السريع.

والمجتث: وهو مبنيٌّ على مستفعلن فاعلاتن فاعلاتن ستّة أجزاء، سَمِيَ بذلك لأنه اجتث من الخفيف، كما اقتضب المقتضب من المنسرح، وهنّ يفككن من دائرة المشتبه.

والمتقارب: وهو ربّ دائرة المتفق لا يشركه فيها غيره، وهو مبنيٌّ على فعول ثمانية أجزاء، وسَمِيَ بذلك لتقارب أوتاده من أسبابه؛ لأنه سبب ووتد، ووتد وسبب، فأساببه كأوتاده، وأوتاده كأسبابه.

(١) قوله: على مستفعلن فاعلاتن الخ... صوابه: على مستفعلن مستفعلن مفعولات، الخ... كما هو ظاهر. اهـ.

وزاد الأخفش بحرًا آخر وسمّاه الخبب، وهو مبنيٌّ على فعلن فعلن^(١) ثمانية أجزاء، وهو عند الخليل غير مستعمل، ويُسمّى المتدارك، والمخترع، وركض الخيل، وهو والمتقارب يفكّان من دائرة المتّفق.

نادرة:

حُكي أنّ الخليل كان له ولد جلف، فدخل عليه يومًا فوجد أباه قد أدخل رأسه في حبّ وهو يقطع بيت شعر، فخرج صارخًا قول: أدركوا أبي فقد جُنّ، فدخل إليه أصحابه وأعلموه بما قال ولده، فأنشد مخاطبًا له^(٢): [الكامل]

لو كنت تعلم ما أقول عذرتني أو كنت أجهل ما تقول عدلتكا
لكن جهلت مقالتي فعذلتني وعلمت أنّك جاهل فعذرتكا

ومن بديع فصاحة البلغاء وصنيع بلاغة الفصحاء في وصف ذي الذهن الوقاد والطبع السليم المنقاد

وصف بعض البلغاء ذكيًا، فقال: فلان يعلم من مفتتح الأمر خاتمته، ومن بديهته عاقبته، فلان له بصيرة حاضرة، ورؤية مستأمره، كلُّ علم في سكناته، وكلّ دهاء في حركاته، فلان له رأي كاهن، وطمّة منجم، متى حصل في عارض مشكل، وأمر معضل، دلّه فؤاده على الهداية، وأمنّه من الجهالة والغواية، فلان عنده مشكل الأمر مشكول؛ أخذه من قول حبيب^(٣): [الطويل]

يرى الحادث المستعجم الخطب معجمًا
لديه ومشكولًا إذا كان مشكلا

ولعنّان جارية الناطفي في جعفر بن يحيى^(٤): [الوافر]
بديهته وفكرته سواء إذا اشتبهت على الناس الأمور
وصدر فيه لهم اتّسع إذا ضاقت من الهمّ الصدور

(١) قوله: على فعلن، الخ... الأولى على فاعلن لأنه الأصل. اهـ. مصححه.

(٢) البيتان في ديوان الخليل بن أحمد الفراهيدي، وهما بيتان منفردان.

(٣) البيت في ديوان أبي تمام، من قصيدة مطلعها:

لهان علينا أن تقول ونفعلا وتذكر بعض الفضل عنك وتفضلا

(٤) البيتان لأشجع السلمي في ديوانه. من ثلاثة أبيات، وهي:

وصف رجل عضد الدولة، فقال له: وجهٌ فيه ألف عين، وفمٌ فيه ألف لسان، وصدرٌ فيه ألف قلب. وصف سهل بن هارون رجلاً، فقال: ما رأيت أكثر فهماً لجليل، ولا أحسن تفهماً لدقيق منه. وصف البخارزي أطروشاً يفهم ما يُكتب له على ظهر الكف، فقال: إذا خطَّ له صاحب عرض بينانه على ظهر كفِّه وقف على المراد، ورضي نيابة البنان عن الأنبوب المغموس في المداد؛ حتى كأنَّ لكل شعرة من بدنه واعياً مُضغياً بأذنه، وذاك لعمرى كالرقم على بسيط الماء بالخيال، أو كالنقش على قائم الهواء بالهباء، ومنَّ عجيب أمره أنه في الصَّمم بحيث أقول في غيره^(١): [المقارب]

وأصلخ في منفذي سمعه صَمَم من الصمم المطبق
فلو نفخ الصور في عصره لأفلت حياً ولم يصعق

وصف اليوسفي غلاماً بالذكاء، قال: كان يعرف المراد بالَّلحظ كما يعرفه باللفظ، ويُعاین في الناظر ما يجري في الخاطر، أقرب إلى داعيه من يد متعاطيه، حديد الذَّهن ثاقب الفهم، يُغنيك عند الملامة، ولا يحوجك إلى الاستزادة. قال أبو نَواس يصف نفسه في محبة مخدمه بالذكاء^(٢): [الطويل]

إذا جعل اللفظ الخفي كلامه جعلت له عيني لتفهمه أذنا
وقال الشريف ابن طباطبا يمدح صاحباً له بهذه الصفة^(٣): [الكامل]
لي صاحبٌ لا غاب عني شخصه أبداً وظلَّت ممتعاً بوداده
فَطِرُنْ بما يُوحى إليه كأنما قد نِيط هاجس فكرتي بفؤاده

=
بديهته وفكرته سواء إذا ما نابَه الخطبُ الكبيرُ
وأحزم ما يكون الدهر أياً إذا عَيَ المشاور والمثيرُ
وصدر فيه للهَم اتساع إذا ضاقت بما تحوي الصدورُ
والبيتان لسلم الخاسر في ديوانه، من قصيدة مطلعها:

بقاء الدِّين والدنيا جميعاً إذا بقي الخليفة والوزيرُ
وهما أيضاً لعلِّي بن الجهم في ديوانه، في ثلاثة أبيات، هي نفسها عند أشجع السلمي.

(١) البيتان للبخارزي في ديوانه، وهما بيتان منفردان.

(٢) البيت ليس في ديوان أبي نواس، ولم أجده في المصادر والمراجع التي بين يدي.

(٣) البيتان للشريف أبو المعمر بن طباطبا العلوي في معجم الأدباء، لياقوت الحموي، في ترجمته.

وكل الناس الأذكياء عيال على زياد ابن أبيه، حُكي عنه أنه كان يوماً جالساً في مجلس عمر، فأملى عمر على كاتبه كتاباً سرّاً، فكتب الكاتب خلافه، فقال زياد: يا أمير المؤمنين إنه كتب غير ما أُمليتَه، فتناول عمر الكتاب، فوجد الأمر كما قال زياد، فقال عمر لزياد: من أين علمت هذا؟ قال: رأيت رجع فيك وحركة قلمه، فلم أرَ بينهما اتفاقاً.

الفصل الثاني من الباب السابع

في ذكر بداهة الأذكياء البديعة وأجوبتهم المفحمة السريعة

قالوا: البديهة قدرة روحانية في حلية بشرية، كما أن الرؤية صورة بشرية في حلية روحانية. ويُقال: بالإحسان في البديهة تفاضلت العقول. ويقال: ميسور الرأي عند البديهة خيرٌ من الإطناب بعد الفكرة؛ فمن أبدع في بديهته من الفضلاء من غير ما سؤال ولا ابتلاء أبو نواس، وذلك أنه اجتمع ندماء الأمين في مجلس أنس وخلاعة وهو فيهم، فخرج عليهم الأمين في زينته مخموراً والجواري يحملنه على سرير، فلما رآه أبو نواس قال: إِنَّ آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سكينه من ربكم وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة، فلله حسن انتزاع هذا الرجل ما أبدعه وأبرعه، وفكره ما أصدعه وأسرع، لقد جاوز شأوا الاختراع في الانتزاع، وتعدى الغاية وصرف العقول لاستحسان ما أشار إليه بهذه الآية؛ لأن أبا هارون الرشيد وعمه موسى الهادي، وهو وارثهما.

وصعد سليمان بن عبد الملك يوم جمعة المنبر - ويقال: الوليد، وعليه أكثر المؤرخين - فسمع صوت ناقوس، فقال: ما هذا؟ قالوا: البيعة يا أمير المؤمنين، فأمر بهدمها، فهُدِمَتْ، فبلغ ذلك ملك الروم، فكتب إليه: إِنَّ هذه البيعة أقْرَها مَنْ كان قبلك، فإن كانوا أصابوا فقد أخطأت، وإن تكن أصبت فقد أخطؤوا؛ فسأل سليمان من خواص دولته الجواب فأغياهم، قال الفرزدق: عن إذن أمير المؤمنين، قال: قل، قال: يكتب إليه ﴿فَفَهَّمْنَهَا سُلَيْمَنٌ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء: الآية ٧٩]، فسُرَّ ذلك وأمر له بعشرة آلاف درهم. وخطب قتيبة بن مسلم على منبر خراسان عندما قدمها والياً فسقطت العصا من يده، فتطير من ذلك، فقام بعض الأعراب فمسحها وناوله إيّاها، وقال: أيها الأمير ليس كما ظن العدو وساء

الصدق، ولكنه كما قال الشاعر^(١): [الطويل]

فألقت عصاها واستقرّ بها النوى كما قرّ عينًا بالإياب المُسافرُ

فسُرِّي عنه ما كان وجده من الغمّ، وأمر له بخمسة آلاف درهم. وخرج طاهر بن الحسين لقتال عليّ بن عيسى بن ماهان وفي كمّه دراهم يفرّقها على الضعفاء، وسها أنّها في كمّه فأسبل كمّه فتبدّدت، فتغيّر لذلك وتطير منه، فأنشده شاعر كان معه^(٢): [الكامل]

هذا تفرّق جمعهم لا غيره وذهابها منه ذهاب الهَمّ
شيء يكون الهَمّ نصف حروفه لا خير في إمساكه في الكمّ

ودخل أبو الشمقمق واسمه مروان بن محمد على خالد بن يزيد بن مزيد الشيباني وقد قلّده المأمون الموصل، فلما دخل الموصل مرّ ببعض الدُروب، فاندقّ منه اللّواء في بعض أبوابها فتطير خالد من ذلك، فقال أبو الشمقمق يسألني عن الطيرة^(٣): [الكامل]

ما كان مُندقّ اللّواء لطيرة تخشى ولا سوء يكون معجلاً
لكنّ هذا الرمح أضعف متنه صغر الولاية فاستقلّ الموصلًا

فسُرِّي عنه ما كان وجده، وكتب صاحب البريد إلى المأمون ذلك، فزاده ديار ربيعة، فأعطى خالد أبا الشمقمق عشرة آلاف درهم.

ومن سُئل من الأذكياء فأجاب وأتت سرعة بديهته بالشيء العجاف

ما يُحكى أنّ المأمون دخل يوماً ديوانه، فمرّ بغلام جميل على أذنه قلم فأعجبه حسنه، فقال: مَنْ الشاب؟ فقام وقال: الناشئ في دولتك، والمؤمل لخدمتك، والمتقلّب في نِعمتك، الحسن بن رجاء؛ فاستحسن كلامه وأمر له بمائة ألف درهم. ودخل محمد بن عبد الملك بن صالح على المأمون سلّم، فقال: مَنْ أنت؟ قال: سليل نِعمتك، وابن دولتك، وغصنٌ من أغصان دوحتك؛ فأعجبه

(١) البيت لمعقر بن حمار البارقى في ديوانه، من قصيدة مطلعها:

أمن آل شعشاء الحمول البواكرُ مع الصبح قد زالت بهنّ الأباعرُ

(٢) البيتان بلا نسبة في كتاب الأذكياء، لابن الجوزي، ص ٣١٣.

(٣) البيتان في ديوان أبو الشمقمق، وهما بيتان منفردان.

وسأله عن حاجته، فقضاها له. وقال أبو عبادة البحرني: دخلت يوماً دار الفتح بن خاقان، فوجدت الشعراء في دهليز داره، وبينهم صبي صغير السن قصير القامة، فقلت: ما أنت يا غلام؟ فقال: شاعر، فتبسّمت عجباً منه؛ ثم قلت: أجز^(١):
[الخفيف]

لَيْتَ مَا بَيْنَ مَنْ أَحَبَّ وَبَيْنِي

قال: مِنْ الْبَعْدِ أَمْ مِنَ الْقَرَبِ؟ قلت: مِنَ الْقَرَبِ، فقال:

مِثْلَ مَا بَيْنَ حَاجِبِي عَيْنِي

فقلت: فَإِنْ أَرَدْنَاهُ مِنَ الْبَعْدِ، فقال:

مِثْلَ مَا بَيْنَ مُلْتَقَى الْخَافَقَيْنِ

فأخذه بيده وأوصلته إلى الفتح، وأخبرته بما دار بيني وبينه، فعجب منه وأجازه.

لَاَمَ السَّفَاحِ خَالِدُ بْنُ بَرْمَكٍ عَلَى كَثْرَةِ عَطَائِهِ وَصِلَاتِهِ، قَالَ لَهُ خَالِدٌ: لَمْ أَرْ شُكْرِي يَحِيطُ بِنِعَمِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، فَاسْتَعْنَتْ بِالسَّنَةِ النَّاسَ عَلَيْهَا. وَمِثْلُهَا مَا حُكِيَ أَنَّ الْوَائِقَ قَالَ يَوْمًا لِأَحْمَدَ بْنِ أَبِي دَاوُدَ وَقَدْ ضَجَرَ مِنْ كَثْرَةِ حَوَائِجِهِ: يَا أَحْمَدُ، قَدْ أَخْلَيْتَ بَيْوتَ الْأَمْوَالِ مِنْ إِفْرَاطِكَ فِي الطَّلَبِ لِلْأَنْدِزِينَ بِكَ، فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ نَتَائِجُ شُكْرِهَا مُتَّصِلَةٌ بِكَ، وَذَخَائِرُ أَجْرِهَا مَكْتُوبَةٌ لَكَ، وَمَا لِي مِنْ ذَلِكَ إِلَّا عَشَقُ اتِّصَالِ الْأَلْسَنِ بِخُلُودِ الْمَدْحِ فِيكَ، فَقَالَ الْوَائِقُ: وَاللَّهِ يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ مَا مَنَعْنَاكَ مَا يَزِيدُ فِي عَشْقِكَ وَيَقْوِي مِنْ هَمَّتِكَ، وَأَمْرُهُ أَنْ يَجْرِيَ عَلَى عَادَتِهِ فِي عَرْضِ حَوَائِجِهِ.

وَكَانَ الْفَضْلُ بْنُ يَحْيَى يُرْسِلُ إِلَى الْقَاسِمِ بْنِ إِسْحَاقَ الْبَصْرِيِّ مَعَ جَوَائِزِهِ رِقَاعًا مَخْتُومَةً، فِيرَدُّ الْجَوَابَ بِرِقَاعٍ مَنْشُورَةٍ، فَنَقِمَ عَلَيْهِ وَكَرِهَ ذَلِكَ مِنْهُ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ الْقَاسِمُ: رِقَاعُكَ تَشْتَمِلُ عَلَى بَرٍّ وَرِقَاعِي تَشْتَمِلُ عَلَى شُكْرٍ، فَأَنْتَ تَكْتُمُ بَرِّكَ وَأَنَا أَنْشُرُ شُكْرِي، فَكُلُّهُمَا مَتَا فَعَلَ مَا وَجِبَ عَلَيْهِ وَنَدَبَ إِلَيْهِ.

وَفَدَّ حَاجِبُ بْنُ زُرَّارَةَ عَلَى بَابِ كَسْرَى، وَكَانَ قَدْ مَنَعَ تَمِيمَ رِيفَ الْعِرَاقِ، فَقَالَ لِحَاجِبِهِ: قُلْ لِلْمَلِكِ إِنَّ بِالْبَابِ رَجُلًا مِنَ الْعَرَبِ يَرِيدُ الْوَفُودَ عَلَيْكَ وَالْمَثُولَ

(١) البيت بلا نسبة في المتنحلي للثعالبي، ص ٤٥٧.

بين يديك؛ فأعلم الحاجب كسرى بما قال فأذن له، فلما وقف بين يديه قال له: مَنْ أنت؟ قال: سيّد العرب، قال: أأست القائل للحاجب أنك رجل من العرب؟ قال: نعم، قلت ذلك قبل وصولي إليك ومثولي بين يديك، فأما وقد تشرفت بخدمتك، وحظيت برؤيتك، فقد صرت سيّد العرب؛ فقال كسرى: زه، وأمر أن يُخشى فمه جواهر ورمى إليه وسادة تكرمة له، فأخذها ووضعها على رأسه، فتغامز مَنْ كان حاضراً من المرازبة واستجهل، فقال له كسرى ليس هذا مكانها، إنما هي للجلوس عليها؛ فقال: علمت أيّها الملك ولكني لما رأيت عليها صورتك أجلبتها فوضعتها على أشرف أعضائي ليتشرف بها؛ فقال كسرى: زه، وأمر أن يسوّر فسوّر.

ورؤي كثير راكباً ومحمد بن علي الباقر رضي الله عنه يمشي معه، فقيل: أتركب ومحمد يمشي؟ فقال: هو أمرني بذلك، فطاعني له في الركوب أفضل من عصياني له في المشي.

ودخل عدي بن أرطاة على شريح القاضي، فقال: إني رجل من أهل الشام، قال: بعيد سحيق، قال: وإني قدمت بلدكم هذه، قال: خير مقدم، قال: وإني تزوّجت، قال: بالرفاء والبنين، قال: وإن امرأتي ولدت غلاماً، قال: يهنؤك الفارس، قال: وقد كنت شرطت لها صداقاً، قال: الشرط أملك، قال: وقد أردت الخروج بها إلى بلدي، قال: الرجل أحق بأهله، قال: فاقض بيننا، قال: قد فعلت، قال: بشهادة مَنْ؟ قال: بشهادة ابن أخت خالتك.

ودخل عروة بن الزبير بستاناً لعبد الملك بن مروان وقد فتحت أزهاره، وأينعت ثماره، وبسقت أشجاره، وأطردت أنهاره، وتغرّدت أطياره، فقال له عبد الملك: ما أحسن هذا البستان! فقال: أنت أحسن منه، لأنه يؤتى أكله كل عام، وأنت تؤتى أكلك كل حين. وقف المنذر على عجوز من العرب، فقال: ممّن أنت؟ قالت: من طيء، فقال: ما منع طياً أن يكون فيهم مثل حاتم؟ قالت: الذي منع الملوك أن يكون فيهم مثلك؛ فعجب من سرعة جوابها وأمر لها بصلة. وركب الرشيد وجعفر بن يحيى يسايره، فرأى الرشيد في طريقه أحماًلاً مقبلة، فسأل عنها، فقيل له: هدايا خراسان بعث بها علي بن عيسى بن ماهان، وكان الرشيد ولأه إياها بعد الفضل بن يحيى، فقال الرشيد لجعفر: أين كانت هذه أيام أخيك؟ قال: في منازل أصحابها يا أمير المؤمنين.

نادرة:

ولّى المنصور بن راشد الموصل، وضَمَّ إليه أَلْفًا مِنَ العجم، وقال له: قد ضَمَمْتُ لك أَلْفَ شيطان تَدَلُّ بهم الخلق، فلَمَّا أتى الموصل عاثوا في البلاد وقطعوا السُّبُل، فانتَهَى خبرهم إلى المنصور، فكتب إليه: أكفرت النُّعمة يا سليمان؟ فأجابه: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا﴾ [البقرة: الآية ١٠٢]، فقبل المنصور عذره وصرفهم عنه. وقال المتوكل لأبي العيْناء: ما أشدَّ ما مرَّ عليك في ذهاب بصرك؟ قال: فوت رأيتك يا أمير المؤمنين. وحُكي أن الحجاج طاف ليلة فظفر برجلين سكرانين، فقال: مَنْ أُنْتما؟ فقال أحدهما^(١): [الطويل]

أنا ابن الذي لا يُنزل الدهر قدره وإن نزلت يوماً فسوف تعودُ
تري الناس أفواجاً إلى ضوء ناره فمنهم قيامٌ حولها وقعودُ
وسأل الآخر، فقال^(٢): [المنسرح]

أنا ابن مَنْ ذلت الرقاب له ما بين مخزومها وهاشمها
تأتيه بالرغم وهي صاغرة يأخذ من مالها ومن دميها
فسأل الحجاج عن أبويهما، فإذا أبو الأول باقلاني، وأبو الآخر حَجَّام، فقال الحجاج: أطلقوهما لأدبهما لا لنسبهما، لئن أخطأ النَّسب فما أخطأ الأدب. وقد أخذ بعض الشعراء قول الثاني، فقال يمدح حَجَّامًا في معرض التهكم والاستهزاء^(٣): [المنسرح]

أبوك حرَّ التجاد عاتقه كم من كمي أدمى ومن بطلٍ
يأخذ من ماله ومن دمه لم يمس من ثائر على وجلٍ

ومن رشق من الفهماء بسهام المقال فزيرها بعارضة أحد من النَّصال

عروة بن الزبير، وذلك أنه دخل على عبد الملك بن مروان يوماً، فلَمَّا استقرَّ به المجلس تجاذب الجلساء أذيال المذاكرة، وتساقوا أكواب المحاورة، فذكر أخاه

(١) البيتان بلا نسبة في كتاب الأذكياء لابن الجوزي، ص ٢٦٢.

(٢) انظر الحاشية السابقة.

(٣) البيتان لابن كناسة في التشبيهات، لابن أبي عون، ص ٤٤٣.

عبد الله، فقال: كان أبو بكر يفعل كذا وكذا، وكان أبو بكر يقول كذا، فقال له إنسان: تُكنيه عند أمير المؤمنين لا أم لك، فقال: إليّ يقال لا أم لك، وأنا ابن عجائز الجنة؛ يعني أنّ صفية بنت عبد المطلب عمّة رسول الله ﷺ جدّته، وعائشة أم المؤمنين خالته، وأسماء ذات النطاقين أمّه.

ودخل شاب على المنصور فسأله عن والده، فقال: مرض والدي رحمه الله يوم كذا، ومات رحمه الله يوم كذا، وترك من المال رحمه الله كذا؛ فانتهره الربيع وقال: بين يدي أمير المؤمنين توالي بالدعاء لأبيك، فقال الشاب: لا ألوّمك يا ربيع لأنك لم تعرف حلاوة الآباء؛ فضحك المنصور وخجل الربيع، وذلك أن الربيع كان مولى للمنصور لا يُعرف له أب. قال أبو الفرج الأصفهاني: كان الربيع يدعي أنه ابن يونس بن أبي فروة، وبنو فروة يدفعون ذلك ويزعمون أنه لقيط وُجد منبوذاً وكفله يونس، فلما كبر وهبه يونس للمنصور قبل الخلافة، فلما وُلّي الخلافة جعله حاجباً ثم جعله وزيراً، وقال ابن عبدوس الجهشيارى: هو الربيع بن يونس بن محمد بن أبي فروة، واسم أبي فروة كيسان مولى الحارث الحفّار مولى عثمان بن عفان، وكان يونس شاطراً بالمدينة فعلق أمة قوم بالمدينة ووقع عليها، فجاءت بالربيع فاستُعبد ولم يكن ليونس مال فيبتاعه، فابتاعه زياد بن عبد الله خال أبي عبد الله السفّاح فأهداه إليه، ولم يزل يخدمه حتى مات، فخدم أبا جعفر بعده، فخصّ به واستولى على أمره لحذاقته ونباهته.

وحُكي أنّ قرشياً سأل خالد بن صفوان بن الأهمتم التميمي عن اسمه فانتسب له، فقال القرشي: إنّ اسمك لكذب ما أحد في الدنيا بخالد، وإن أباك لحجر بعيد من الرشح، وإن جدّك لأهمتم، والصحيح خير من الأهمتم، فقال له خالد: قد سألت فأجبتك، فمن أنت؟ قال: من قريش، قال: من أيّ قريش أنت؟ قال: من بني عبد الدار، قال خالد: لم تصنع شيئاً يا أخا عبد الدار، فمثلك يشتم تميماً في عزّها وشرفها، وقد هشمتك هاشم وأمتك أمية وجمحت بك جُمَح، ورضخت رأسك فهر، وخزمت أنفك مخزوم، ولوت بك لؤي، وغلبتك غالب، ونفتك مناف، وزهرت عليك زهرة، وأقصتك قصي، فجعلتك عبد دارها، ومنتهى عارها، تفتح إذا دخلوا وتُغلق إذا خرجوا؛ فخرّ الرجل ميّماً من شدّة الغيظ، فكانت امرأته تنادي في أزقة البصرة صارخة: خالد قتل بعليّ بلسانه، وأدعى أهله على خالد بديته، لأنه مات بسبب كلامه.

وافتخر قومٌ باليمن عند هشام بن عبد الملك، فقال لخالد بن صفوان: أجنبهم، فقال: ما عسى أن أقول لقوم هم بين ناسج برد، ودابغ جلد، وسائس قرد، ملكتهم امرأة، ودلّ عليهم هدهد، وغرقتهم فأرة. وقال معاوية لعقيل: ما حال عمك أبي لهب؟ قال: في النار يفترش عمّك حمالة الحطب. ودخل عقيل بعدما كُفّ بصره على معاوية يوماً، فقال له: ما بالكم تُصابون في أبصاركم يا بني هاشم؟ يعرض به ويعبد الله بن عباس، قال: كما تُصابون أنتم في بصائركم يا بني أمي. وحكي أنّ هند ابنة عتبة بن ربيعة وقفت بالموسم، وقالت: يا بني هاشم أين أبي؟ أين أخي؟ أين عمي؟ أين الذين كانت وجوههم تُضيء للشاري في الليل العاكر، ونسق بمدحهم لسان الذّاكر؟ فقال لها عقيل بن أبي طالب: إذا دخلت النار فخذني على شمالك. ودخل يزيد بن أبي مسلم على سليمان بن عبد الملك، فلمّا رآه دميماً حقيراً، قال له: لعنة الله على رجل أجرك رسنه، وولاك خيله؛ فقال: يا أمير المؤمنين رأيتني والأمر عني مُذبر، فلو رأيتني والأمر عليّ مقبل لاستعظمت مني ما استصغرت، فقال له سليمان: أترى الحجاج بلغ قعر جهنّم بعد؟ فقال: يا أمير المؤمنين يجيء الحجاج يوم القيامة بين أبيك وأخيك قابضاً على يمين أبيك وشمال أخيك فضعه حيث شئت. ودخل بعض الشعراء على أمير يريد مدحه، فقال له الأمير: ممّن أنت؟ قال: منّ تميم؟ قال: الذين يقول فيهم الشاعر^(١): [الطويل]

تميم بطرق اللؤم أهدى من القطا ولو سلكت سُبُل المكارم ضلّت

أخذت امرأة في زنا، فطيف بها على جمل، فقال لها بعض المجانّ: كيف خلفت الحاج؟ قالت: بخير، وكانت أمك في النفر الأوّل؛ وقال رجل للفرزدق: كيف عهدك بالحرّ؟ قال: منذ ماتت عجوزك؛ وقال عبد الله بن طاهر لرجل: ما بال شديقك معوجاً؟ قال: عقوبة عاقبني الله بها لكثرة ثنائي عليك بالباطل. اجتمع أبو حنيفة النعمان بن ثابت وشيطان الطاق إبراهيم بن هارون عند المهديّ بعد موت جعفر بن محمد الصادق رضي الله عنه وعن آبائه، فقال أبو حنيفة: لشيطان الطاق يعرض به مات إمامك، فقال له: أنبئني فإن إمامك من

(١) البيت للطرمّاح في ديوانه، من قصيدة مطلعها:

ألا إن سلمى عن هوانا تسلّت وبثت قوى ما بيننا وأدلت

المُنْتَظَرِينَ إلى يوم الوقت المعلوم، قال المهدي: لله دَرَكٌ لقد أجدت؛ وأمر له بعشرة آلاف درهم.

وما زح المتوكلُ أبا العَيناء، فقال: هل أبصرت طالبياً حسن الوجه؟ فقال: يا أمير المؤمنين وهل يُسأل أعمى عن مثل هذا؟ قال: إنما سألتك عما سلف إذ كنت بصيراً، قال: نعم رأيت منهم ببغداد منذ ثلاثين سنة فتى ما رأيت أجمل منه ولا ألطف شمائل، قال المتوكل: نجده كان مؤاجراً، ونجدك كنت قَوَاداً عليه؛ قال أبو العَيناء: وتفرغت لهذا يا أمير المؤمنين، أتراني كنت أدع موالِيٍّ وأقود على الغرباء؟ قال: اسكت يا مَبُون، قال: مولى القوم منهم، قال المتوكل: أردت أن أشتفي منهم، فاشتفى لهم مَنِي. وقال رجل لمغنية: أشتهي أن أقتلك، قالت: ولم؟ قال: لأنك زانية، قالت: فكلّ زانية تُقتل؟ قال: نعم، قالت: فابدأ بِمَنْ تَعُول.

لقي خالد بن صفوان الفرزدق، وكان كثيراً ما يُداعبه، وكان الفرزدق دميماً، فقال له: أبا فراس، ما أنت بالذي لَمَّا رأيته أكبرته وقَطَعَنَ أيديهنّ، فقال الفرزدق: ولا أنت أبا صفوان بالذي قالت الفتاة لأبيها في حقّه: يا أبت استأجره إن خير مَنْ استأجرت القويّ الأمين.

رأى أبو نواس غلاماً جميلاً يمشي في بعض السُّكك، فقال له: ما تصنع الحور بين الدور؟ فقال الصبي: ما يصنع الشيطان بين الحيطان. وحُسِ عمر بن العاص عن جنده العطاء، فقام إليه رجل حميري، وقال: أصلح الله الأمير إذا لم تعطنا شيئاً فاتخذ جنداً مِنْ حجارة لا يأكلون ولا يشربون، فقال له عمرو: اخسأ يا كلب، فقال الحميري: إن كنتُ كما ذكرت، فأنت إذن أمير الكلاب.

وممن تهكّم في خطابه واعتمد الهزل في جوابه

ما حُكي أنّ خالد بن الوليد لَمَّا قدم اليمامة نزل عسكره على قصرٍ من قصور الحيرة يقال له قصر بني ببيعة، فسألهم أن يبعثوا له رجلاً مِنْ عُقلائهم وذوي أنسابهم، فبعثوا إليه عبد المسيح بن ببيعة، فأقبل يدبّ في مَشْيِهِ، فقال خالد: بعثوا إلينا شيئاً لا يفهم شيئاً؛ فلمّا وصل إليه، قال: أنعم صباحاً، فقال خالد إن الله أكرمنا بتحية خیر من هذه، ثم قال له: أين أقصى أثرك؟ قال: ظهر أبي، فقال: من أين خرجت؟ قال: من بطن أمي، قال: علامَ أنت؟ قال: على الأرض، قال: فيمَ أنت؟ قال: في ثيابي، فقال له: تعقل؟ قال: نعم وأقيّد، قال: ابن كم أنت؟

قال: ابن رجل وامرأة، قال: كم أتى عليك؟ قال لو أتى علي شيء لقتلني، قال: كم سنك؟ قال: ست وثلاثون، قال خالد: ما رأيت كاليوم أسألك عن شيء وتجيبني عن غيره، قال: ما أجبتك إلا عمًا سألت، قال: كم عمرك؟ قال: ثلاثمائة وخمسون سنة؛ فجعل لا يسأله عن شيء إلا أجابه.

وقال الحجاج لرجل من الخوارج: أجمعت القرآن؟ قال: ما كان مفترقا فأجمعه، قال: أفتحفظه؟ قال: ما خشيت فراره حتى أحفظه، قال: ما تقول في أمير المؤمنين، قال: لعنه الله ولعنك معه، قال: إنك مقتول فكيف تلقى الله؟ قال: ألقاه بعلمي وتلقاه بدمي. وكان المنصور قد ألزم الناس بلبس قلانس طوال، وأن يطيلوا حمائل سيوفهم، وأن يكتبوا عليها: ﴿نَسَبُكُمْ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: الآية ١٣٧]، وذلك في سنة خمس وخمسين ومائة، وفي هذه السنة وفد الشافعي رضي الله عنه، فدخل عليه أبو دلامة واسمه زيد بن الجون في هذا الزي، فقال له: كيف أنت يا أبا دلامة؟ قال: كيف حال من صار وجهه في وسطه، وسيفه في إسته، ونبذ كتاب الله وراء ظهره؛ فضحك منه وأمر بتغيير ذلك الزي. وماتت حمادة بنت عيسى عمّة المنصور، فخرج في جنازتها، فرأى أبا دلامة واقفاً على شفير قبرها، فقال: ما أعددت لهذه الحفرة يا أبا دلامة؟ قال: عمّة أمير المؤمنين يؤتى بها الساعة فتُدفن فيها؛ فغلب المنصور الضحك حتى ستر وجهه بطرف ردائه حياء من الناس. قال فتى لأبيه: زوجني، قال: أو تحسن أن تعمل؟ قال نعم، أقيم أيري وأسدد طعني وألصق عانتي وأشدّ ضمي، فقالت أمه لأبيه: تعلم أسحن الله عينك من ابني فديته. عرض رجل يقال له أبو البقر، وكان ظريفاً مطبوعاً ماجناً على موسى بن عبد الملك، فقال: والله ما أعرف هذا؟ فقال: والله إنك لأعرف به من الترك بالبوم، والغزاة بالزوم، والعرب بالشيخ والقيصوم، ولكنك ضجرت ضجر المُحِبِّ مِنَ الرَّقِيبِ؛ فقال: أنت أبو البقر؟ قال: أنا أبو القوم الذين بين يديك؛ فضحك منه وقضى حاجته. وتعرّض أبو العير للمتوكّل والمتوكّل مشرف من قصره الجعفري، وقد جعل في رجله قلنسوتين وعلى رأسه خفاً، وجعل سراويله قميصاً، وقميصه سراويل؛ فقال المتوكّل: عليّ بهذه المثلة، فلما مثل بين يديه قال له: أنت شارب؟ قال: لا بل عنفة يا أمير المؤمنين، قال: إني أضع رجلك في الأدهم وأنفيك إلى فارس، قال: ضع رجلي في الأشهب، وانفني إلى راجل، قال: أتراني في قتلك مأثوم؟ قال: لا بل ماء بصل يا أمير المؤمنين؛ فضحك منه ووصله.

وممن ليم على قبيح فعاله فسدده بمغالطات مقاله

ما ذُكر أن رجلاً كان له أرض إلى جانب أرض لرجل آخر، فكان الرجل يضم كل سنة قطعة منها إلى أرضه، فقال له يوماً: ما هذا النقصان في أرضي والزيادة في رضك؟ قال: ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، قال: فمن أين أتيت النقص؟ قال: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ بُدِّ لَكُمْ فَسْأَلُكُمْ﴾ [المائدة: الآية ١٠١]. وسُئِلَ بعض الوعاظ: لِمَ لم تنصرف أشياء؟ فلم يفهم ما قيل له، فقال لسائله: يا هذا اُفْتَفِ آثار المُهْتَدِينَ، ولا تسأل سؤال المُلْحَدِينَ، أما سمعت قول من يُخَيِّي الموتى ويميت الأحياء: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ﴾ [المائدة: الآية ١٠١]، لقد ارتكبت بمخالفتك ذنباً عظيماً، فاستغفر الله إِنَّ الله كان غفوراً رحيمًا. وقرأ قارئ: في روضة تخبزون^(١)، فقال: ماجن خشكاًراً أم حوارى، فقال: ما أرادوا ففيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين. وقال يحيى بن أكثم لشيخ من أهل البصرة: بمن اقتديت في تحليل المتعة؟ قال: بعمر بن الخطاب، قال يحيى: كيف هذا، وعمر كان أشد الناس فيها؛ لأنّ الخبر الصحيح أتى عنه أنه صعد المنبر، فقال: الله ورسوله أحلّ لكم متعتين وإني محرّمهما عليكم وأعاقب من فعلهما، قال: فنحن نقبل شهادته ولا نقبل تحريره.

وحكي أن الفضل بن الربيع قال: كنت أقرأ كتاباً ورد عليّ وإلي جانبي رجل مني ينظر فيه، فقلت له: ما تصنع ويحك، قال: بلغني أن رسول الله ﷺ قال: «من نظر في كتاب أخيه المؤمن بغير إذنه، فكأنما تطلع في النار»^(٢)، ولنا أشياخ تقدّمونا فأردت أعرف أين مكانهم منها؛ فشغلني الضحك منه عن الإنكار عليه. ولما قتل الحجاج بن يوسف عبد الله بن الزبير ارتجّت مكّة بالبكاء، فأمر الحجاج الناس أن يجتمعوا إلى المسجد، ثم صعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، وقال: يا أهل مكّة بلغني بكاؤكم على ابن الزبير، وكان من أحبار هذه أمة حتى رغب في الخلافة، ونازع أهلها فيها، فخلع طاعة الله واستكنّ بحرم الله، ولو كان شيئاً مانعاً للعصاة لمنعت آدم عليه السلام حرمة الجنة؛ لأن الله خلقه بيده ونفخ فيه من

(١) أي جعل على الحاء نقطة وعلى الراء نقطة . اهـ.

(٢) أخرجه بنحوه أبو داود في الدعاء، باب ١؛ والحاكم في المستدرک ٤/ ٢٧٠، وابن حجر في فتح الباري ٤٧/ ١١.

روحه، وأسجد له ملائكته، وأباحه جنته، فلما أخطأ أخرجه من الجنة بخطيئته،
وآدم أكرم على الله من ابن الزبير والجنة أكبر حُرمة من الكعبة.

وجلس نحوي إلى جانب منبر واعظ، فلحن الواعظ، فقال له النحوي:
أخطأت يا لحنة، فقال الواعظ بديها: أيها المعرب في أقواله، اللأحن في
أفعاله، ما لي أراك تائها منكرا، أكل ذلك لأنك رفعت ونصبت، وخفضت
وجزمت، هلا رفعت إلى الله يدك في جميع الحاجات، ونصبت بين عينيك
ذكر الممات، وخفضت نفسك عن الشهوات، وجزمتها عن اتباع المحرمات،
أو ما علمت أنه لا يقال يوم القيامة ألا كنت فصيحاً معرباً، وإنما يقال لك:
لِمَ كنت عاصياً مذنباً، فلو كان الأمر كما زعمت لخطوب كما حكمت، لكان
هارون أحق بالرسالة من موسى؛ إذ قال الله تعالى إخباراً عنه: ﴿وَأَخِي هَارُونُ
هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا﴾ [القَصص: الآية ٣٤]، فجعل الرسالة في موسى لفصاحة
تبيانه، لا لفصاحة لسانه، فالفصاحة فصاحة الجنان، لا فصاحة اللسان؛ ثم
أنشد^(١): [المنسرح]

مجازف في الفعل ذوزلل حتى إذا جاء قوله وزنة
قال قد أعجبته لفظته تيهًا وعجبًا أخطأت يا لحنة
فقلت أخطأ الذي يقوم غداً ولا يرى في كتابه حسنة
ومن أظرف ما قيل^(٢): [السريع]

ياه على الناس بإعرايه أي فاحذروني أنني ملسن
إن كان في أقواله معرباً فإنه في فعله يلحن

نظر رجل إلى مخنث ينتف لحيته فعنفه، فقال له: أتحب أن يكون في
إستك؟ قال: لا، فقال: شيء لا تحبه أن يكون في إستك كيف أحب أن يكون في
وجهي. وقيل لمخنث: لِمَ تنتف لحيتك؟ فقال لسائله: وأنت أيضاً لِمَ لا تنتفها.
وسمع بعضهم قارئاً يقرأ: الأكراد أشد كفرةً ونفاقاً، فقال له: ويحك إنما هي
الأعراب، فقال: كلهم يقطعون الطريق عليهم لعنة الله وسخطه.

(١) الأبيات لم أجدها في المصادر والمراجع التي بين يدي.

(٢) البيتان لم أجدهما.

الفصل الثالث من الباب السابع

فيمن سبق بذكائه وفطنته إلى ورود حياض منيته

ينبغي لنا أن نذكر مقدّمة تنتج عنها حقيقة ما ترجمنا عليه، وساقنا الغرض إليه، وهي أنّ الإنسان إذا كان ذا فكرٍ ثاقب، وقريحة وقادة، ربما تشكل له فيها خيالات وهميّة، وأمور حدسيّة، تؤيّدتها إصابات اتّفاقية، خارقات للعوائد الفعلية، كالحديقة إذا زاد شعاع باصرها عن حدّ الاعتدال ربما أدركت من المراثيات ما لا يمكن العبارة عنه، فكان كالنقص والاختلال، وكذلك السمع أيضًا من شدّة حادة الحاسّة ربما عرض له طنين لكثرة ما يعي من السمعيّات؛ كما قلنا في إدراك حدة البصر من المراثيات، فتقرطس سهام تلك الخيالات الفكرية أعراض الأقدار، ولا يعلم صاحبها أنّ الله أجراها بإرادته شريك عنان عبدة لأولى البصائر والأبصار، فمن لم يجعل الله له نورًا قاذئه فرعنة طبعه إلى القول والعناد، وحسّنت له أن يتّصف بغير صفات العباد، أو يقول إنّ السعادة إذا كانت مُناطة بأفعال الإنسان في حركاته وسكناته، مساعدة له في سائر حالاته، حتى أنه إذا باشر متعسرًا تيسر أو صعبًا هان أو شديدًا لان، ربما سوّلت له خيالات شيطانية أنّ تلك الأفعال انفعلت بقدرته لا بالقدرة الإلهية، فتخرج النفس بدعاويها عن صفاتها البشرية وأطوارها الطينية، كما فعل النمرود وفرعون ومن تابعهما بتخيلاتهم الفاسدة من أصحاب المقالات، وأرباب المحالات، وكلّ منهم عبّد صنم هواه، فأضله وأغواه ورقاه بدعواه أصعب مرتقى، فهوى به إلى أسفل دركات الشقا.

فمنهم من نازع الله رداءه، فأشمت به مخالفه وأعدائه، المقنع الخراساني واسمه عطاء، وكان أعور قصارًا من أهل مَرو، وكان لا يدع القناع عن وجهه لئلا يرى قبحه، وكان يُعرف بسرعة السّحر والبيرنجيات والهندسة، وكان أصل معتقده الحلول والتناسخ؛ فادّعى الربوبية في قومه فتابعوه وقالوا بقوله، وأسقط عمن تبعه الصلاة والزكاة والصوم والحجّ.

فمن مفصل أباطيله أنه زعم أنّ الله تعالى عمّا يقول الظالمون والجاحدون علواً كبيراً حلّ في آدم، ثم من آدم في نوح، ثم إلى صورة بعد صورة من صور الأنبياء والحكماء حتى وصل إلى صورة أبي مسلم الخراساني، فحلّ فيها، ثم منه إليه فعبده قومه وقتلوا دونه، واتخذ وجهها من ذهب لئلا يرى قبح وجهه فلا يُعبّد،

ولهذا سُمِّيَ المقتنع؛ وكان ظهوره في خلافة المهديّ، وحميد بن قحطبة والي خراسان يومئذ، واشتدَّت شوكته ودامت فتنته أربع عشرة سنة، وكانت بما وراء النهر بنواحي الصغد وإيلاق وما داناها من بلاد التُّرك، ولمَّا تمادى أمره أنفذ إليه المهديّ عسكريًا فقاتله، فكانت الحرب بينه وبين جموعه سجالًا، فلمَّا أحسَّ بالغلبة صنع له أخذودًا من نار وألقى نفسه فيه، وقيل: أمر أن يُغلى له سكر وقطران ثم ألقى نفسه فيه فذاب، ولم يبق له أثر، فازداد أصحابه بذلك ضلالًا، وقالوا: قد رُفِعَ إلى السماء، وذلك في سنة ستين ومائة من الهجرة.

وممَّن كان يقول بالحلول وأجمع معاصريه على ضلالة ما يقول حسين الحلاج، وهو الحسين بن منصور ويُكنى أبا محمد وأبا عبد الله وأبا مسعود وأبا مغيث، وكان ظهوره في سنة إحدى وثلاثمائة في خلافة المقتدر؛ فمما أورده المؤرِّخون الثقة من كلامه المُتَّقد عليه قوله: أنا الحق، وقوله: ما في الجبة إلَّا الله، وقوله أيضًا^(١): [السريع]

سبحان مَنْ أظهر ناسوته سرَّ سنا لاهوته الشاقِبِ
ثم بدا متحجِّبًا ظاهرًا في صورة الأكل والشارِبِ

ومن كلامه لِمَنْ تابعه: مَنْ عَذَّبَ نفسه في الطاعة وصبر عن اللذة والشهوة وصفا حتى لا يبقى فيه شيء من البشريَّة حلَّ فيه روح الإله كما حلَّ في عيسى عليه السلام، ولا يريد إذ ذاك شيئًا إلَّا كان كما أراده، ويكون جملة فعله فعل الله؛ وكان يُظهر أنه سنِّي لمن كان من أهل السنَّة، وشيعي لمن كان من أهل الشيعة، ومعتزلي لمن كان يعتقد الاعتزال؛ وكان مع ذلك شعبذيًا يستعمل المخاريق حتى استهوى به مَنْ لا تحصيل عنده، ثم ادَّعى الربوبية وقال بالحلول وعَظَّم افتراؤه على الله، وكان يدَّعي أنه المغرق لقوم نوح، والمُهْلِك لعادٍ وشمود، وكان لا يُحسن من القرآن شيئًا، ولا من الحديث ولا من الفقه ولا من الشعر شيئًا، وكان عنوان كتبه إلى أصحابه من الهو هو ربُّ الأرباب إلى عبده فلان، وكانوا يكتبون إليه يا ذات الذَّات، يا منتهى غاية الغايات، نشهد أنك مصوّر فيما شئت من الصور، وإنك لتصوّر في صورة الحسين بن منصور الحلاج، ونحن نستجير بك

(١) البيتان في ديوان الحلاج، من ثلاثة أبيات، والبيت الثالث:

حتى لقد عاينه خلقه كلحظة الحاجب بالحاجِبِ

ونرجو رحمتك يا علّام الغيوب، فاتّصل خبره بعليّ بن عيسى الوزير، فأحضره وأحضر له الفقهاء فسألوه فلم يجدوه يعرف شيئاً، وأسقط في كلامه فأمر به فُضِرِبَ وصُلِبَ حيّاً في الجانب الشرقي ثم في الجانب الغربي ليراه الناس، ثم حُسِبَ في دار الخلافة مدّة ثم أُطلق ثم ظهر في سنة تسع وثلاثين بعد أن دخل الهند وما وراء النهر وبلاد تركستان وخراسان وسجستان وكرمان وفارس وبلاد الجبل والعراق، وكان كثير التلوّن له في كل بلد اسم وكُنية ولقب، يلبس تارة المسوح، وتارة الدّراعة، وتارة الثياب المصبغة، وتارة الفوطة والمرقعة، وتارة العباءة، وأشكل حاله على الناس فقائل: ساحر، وقائل: مشعبد، ومنهم من يثبت له الكرامات، وذلك لما يظهر عنه من خوارق العادات، فلما ظهر في المرة الثانية اختدع جماعة من أصحاب المقتدر، وكان وزيره يومئذ أحمد بن العباس فعرض حاله على الفقهاء، فأفتى بقتله خمسة وثمانون بفتاوى وافقت رأي المقتدر، وممن أفتى بقتله القاضي أبو عمر، ومحمد بن يوسف المالكي، وأبو العباس أحمد بن شريح الشافعي، وأبو بكر بن فورك، وداود الظاهري، فأمر به فُضِرِبَ مائة سوط وقُطِّعت أطرافه وصُلِبَ حيّاً، ثم ضرب عنقه من الغد ولُفّ في ردائه وأُحرق بالنفط وذرى رماده في دجلة، فلما فعل به ذلك جعل أصحابه يعدون نفوسهم برجوعه بعد أربعين يوماً، وادّعى بعض أصحابه أنه لم يُقتل لم يُضَلَب، وإنما أُلقي شبهه حالة القتل والصلب كعيسى عليه الصّلاة والسلام.

وقد حمل الغزالي إطلاقاته التي تنبو عنها مسامع العقلاء وترفضها مسامع العلماء حملاً حسناً وتأولها تأويلاً بديعاً، وقال: هذا من فرط المحبة والوجد، ذكره في كتابه المسمّى مشكاة الأنوار، والله تعالى عالم الإعلان من أمره والأسرار، وكان وقته في يوم السبت^(١) لثلاث بقين من ذي القعدة^(٢) الحرام سنة تسع وثلاثمائة.

وظهر في أيام الراضي بالله عليّ بن محمد السلمغاني المعروف بابن أبي القراق، وكان غالباً في التشيع يقول بالتناسخ والحلول، وكان ممن وافقه وخلع ربة الإسلام ابن أبي عوانة الكاتب، وابن الفرات وابنه الحسن، والحسن بن القاسم بن عبد الله بن سليمان بن وهب، فوشى بهم إلى الراضي فأحضرهم، وكان

(٢) في نسخة: الحجة.

(١) في نسخة: الثلاثاء.

الحسن بالرقّة فسألهم عمّا رموا به فأنكروه، فأمر أن يحمل ما في بيت القراقِر من الأوراق فوجدوا خطّ الحسن وابن أبي عوانة يخاطبانه بالإلهيّة، فأمر الراضي ابن أبي عوانة أن يصفع ابن أبي القراقِر، فلمّا نهض لذلك أظهر رعشة في يده ودنا إلى رأسه فقبلها، وقال: أستغفرك يا إلهي وخالقي ورازقي، فقال الراضي لابن أبي القراقِر: أليس قد أنكرت ما نُسب إليك من ادّعائك الإلهيّة؟ فقال: والله ما أمرته بذلك، فأمر الراضي بهما فضلياً حيّين أيّاماً وأحرقا وبعث إلى الحسن من قتله بالرقّة، وذلك في ذي القعدة سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة.

ومنهم من ارتقى بادّعائه النبوّة مرتقى صعباً

فصير جسمه للطير مرعى وللهمام نهباً

أول من ارتكب هذا المحذور، وامتنى فيه صهوة الغرور بعدما نسخ نور صبح الرسالة ظلام ليل الضلالة مُسَيِّلمة، وهو مُسَيِّلمة بن حبيب بن ثمامة بن أثال بن حبيب بن حنيفة بن عجل، وكان صاحب نيرنجيات، وهو أول من أدخل البيضة في القارورة. وسجاح، وهي سجاح ابنة الحارث من بني يربوع تنبأت وزعمت أنّ الوحي يأتيها وتابعتها كثير من العرب ورؤساء الجزيرة. قال ابن أبي الزّلال في كتاب أنواع الأسجاع: كان من حديث سجاح اليربوعيّة بنت سويد بن خلف بن أسامة بن العنبر بن يربوع أنه لما قبض رسول الله ﷺ واستخلف أبو بكر رضي الله عنه تنبأت سجاح وخرجت من تغلب، فتبعها منهم ناس كثير ومن النمر بن قاسط وإياد، وسارت بهم إلى بلاد بني تميم، فقالت: الإمرة منكم والملك ملككم وقد بُعِثت نبية، فقالوا لها: مُرِينَا بِأَمْرِك، فقالت: إنّ ربّ السّحاب والتراب، يأمركم أن توجّهوا الركاب، وتستعدّوا للذهاب حتى تُغيروا على الرّباب، فليس دونهم حجاب، فسارت بنو حنظلة إلى بني ضبّة، وهم من الرّباب، وسارت سجاح ومعها بنو تغلب والنمر وإياد إلى حفير تميم، ولما بلغها حديث مُسَيِّلمة بن ثمامة، قالت لهم: عليكم باليمامة، زفّوا زفيف حمامة، فإنها دار ثمامة، نلقى مسيلمة بن ثمامة، فإن كان نبياً ففي النبيّ علامة، وإن كان كذاباً فلقومه الندامة، فإنها عبرة مُدّامة لا يلحقكم بعدها ملامة؛ فخرجوا معها وتبعها عطارد بن حاجب، وعمرو بن الأهتم، والأقرع بن حابس، وشبيب بن ربعي وغيرهم من سادات العرب حتى نزلوا بالصّمان، فلما بلغ مُسَيِّلمة مسيرها إليه بمن جاء معها خافها

وهابها وأهدى لها ثم أرسل إليها يَسْتَأْمِنُهَا على نفسه، فَأَمَّنَتْهُ وَأَذْنَتْهُ فِي الْقُدُومِ عَلَيْهَا، فَجَاءَ إِلَيْهَا وَافِدًا فِي أَرْبَعِينَ مِنْ بَنِي حَنِيفَةَ، وَكَانَتْ رَاسِخَةً فِي النَّصْرَانِيَّةِ، فَقَالَ مُسَيْلِمَةُ لِأَصْحَابِهِ: اضْرِبُوا لَهَا قَبَّةً وَجَمِّروها لعلها تَذْكُرُ الْبَاهُ، ففعلوا وأرصدوا حول القَبَّةِ أَنَاسًا مِنْهُمْ لِلْحِرَاسَةِ، فَلَمَّا دَخَلَتْ عَلَيْهِ حَدَّثَتْهُ وَحَادِثَهَا، وَقَالَتْ: مَا أَوْحِيَ إِلَيْكَ؟ قَالَ: أَوْحِيَ إِلَيَّ: أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِالْحَبْلَى، أَخْرَجَ مِنْهَا نَسْمَةً تَسْعَى، مِنْ بَيْنِ صَفَاقٍ وَحَشَى، قَالَتْ: ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ: أَوْحِيَ إِلَيَّ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ النِّسَاءَ أَفْوَاجًا وَجَعَلَ الرِّجَالَ لِهِنَّ أَزْوَاجًا، فَنَوْلَجَ فِيهِنَّ غَرَامِيلُنَا إِيْلَاجًا، ثُمَّ نَخْرُجُهَا إِذَا شِئْنَا إِخْرَاجًا، فَيَنْتَجِنَ لَنَا سَخَالًا نَتَاجًا، قَالَتْ: أَشْهَدُ أَنَّكَ نَبِيٌّ، قَالَ: هَلْ لَكَ أَنْ أَتَزَوَّجَكَ فَأَذَلَ بِقَوْمِي وَقَوْمِكَ الْعَرَبُ؟ قَالَتْ: نَعَمْ، فَقَالَ^(١): [الْهَزَج]

أَلَا قَوْمِي إِلَى النَّيْكَ فَقَدْ هَيَّئْتُ لَكَ الْمَضْجَعُ
فَإِنْ شِئْتُ فِي الْبَيْتِ وَإِنْ شِئْتُ فِي الْمَخْدَعِ
وَإِنْ شِئْتُ سَلَقْنَاكَ وَإِنْ شِئْتُ عَلَى أَرْبَعِ
وَإِنْ شِئْتُ بِثَلَاثِهِ وَإِنْ شِئْتُ بِهِ أَجْمَعِ

قَالَتْ: بِهِ أَجْمَعُ، فَهُوَ لِلشَّمْلِ أَجْمَعُ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْكَ؛ قَالَ: كَذَلِكَ أَوْحِيَ إِلَيَّ، فَأَقَامْتُ عِنْدَهُ قَلِيلًا ثُمَّ انْصَرَفْتُ إِلَى قَوْمِهَا، فَقَالُوا لَهَا: مَا عِنْدَكَ؟ قَالَتْ: وَجَدْتُهُ عَلَى حَقٍّ فَتَبَعْتُهُ وَتَزَوَّجْتُهُ، قَالُوا: فَهَلْ أَصْدَقَكَ شَيْئًا؟ قَالَتْ: لَا، قَالُوا: ارْجِعِي إِلَيْهِ فَقَبِّحْ بِمِثْلِكَ أَنْ يَنْكَحَ بَغِيرَ صَدَاقٍ، فَرَجَعْتُ إِلَيْهِ فَلَمَّا رَأَاهَا قَالَ لَهَا: مَا لَكَ؟ قَالَتْ: أَصْدَقْنِي صَدَاقًا؟ قَالَ: مَنْ مُؤَذِّنُكَ؟ قَالَتْ: شَيْبُ بْنُ رَبِيعِ الرِّبَاحِيِّ، قَالَ: عَلَيَّ بِهِ؛ فَلَمَّا جَاءَ قَالَ: قَدْ وَضَعْتُ عَنْكُمْ الصَّلَاةَ الْغَدَاةَ وَصَلَاةَ الْعَتَمَةِ، وَجَعَلْتُ ذَلِكَ صَدَاقَهَا، فَنَادَى فِي أَصْحَابِكَ أَنْ مُسَيْلِمَةُ بْنُ حَبِيبٍ رَسُولُ اللَّهِ قَدْ وَضَعَ عَنْكُمْ صَلَاتَيْنِ مِمَّا أَتَاكُمْ بِهِ مُحَمَّدٌ صَلَاةَ الْفَجْرِ وَصَلَاةَ الْعِشَاءِ الْآخِرَةَ؛ فَكَانَ عَامَّةَ بَنِي تَمِيمٍ لَا يَصَلُّونَهُمَا. وَكَانَ مِمَّا شَرَعَ لَهُمْ: مَنْ أَصَابَ وَلَدًا مِنْ امْرَأَةٍ لَا يَعُودُ يَطْوُهَا إِلَّا أَنْ يَمُوتَ الْوَلَدُ، وَحَرَّمَ النِّسَاءَ عَلَى مَنْ وَلَدَ لَهُ وَلَدٌ ذَكَرٌ. وَفِيهِ وَفِي سَجَاحٍ يَقُولُ قَيْسُ بْنُ عَاصِمٍ الْمَنْقَرِيُّ^(٢): [الْبَسِيطُ]

أَضَحَّتْ نَبِيَّتُنَا أَنْشَى يُطَافُ بِهَا وَأَصْبَحَتْ أَنْبِيَاءُ النَّاسِ ذَكَرَانَا

(١) الأبيات في مجمع الأمثال، للميداني. في المثل: «أزنى من سجاح».

(٢) الأبيات في ثمار القلوب، للثعالبي، ص ٦٦٧.

فلعنة الله والأقوام كلهم على سجاح ومن بالإفك أغرانا
أعني مُسَيْلِمة الكذاب لا سقيت أصدأؤه ماء مُزْن حيثما كانا

ولما تبعته العرب وارتدت بعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد إلى اليمامة، فقاتل بني حنيفة واستشهد خلق كثير من المهاجرين والأنصار، وانهزم مسيلمة ومَنْ بَقِيَ معه فأدركه وحشي بن حرب فقتله، وأسلمت سجاح فيما بعد وحسن إسلامها، ووحشي هذا هو الذي قتل حمزة بن عبد المطلب يوم أحد، ووحشي يومئذ كافر، وقال عند قتله لمُسَيْلِمة: يا معشر العرب إن كنت قتلت بهذه الحربة أحب الخلق إلى رسول الله ﷺ، فقد قتلت بها اليوم أبغض الخلق إلى رسول الله، فهذه بتلك. وكان خروجه - لعنه الله - آخر سنة عشر من سنّي الهجرة قبل حجة الوداع، وكتب إلى رسول الله ﷺ: سلام عليك، أما بعد؛ فإنني قد أشركت في الأمر معك، وأن لنا نصف الأرض ولقريش نصفها، ولكن قریشاً قوم يعتدون - أي يجحفون -؛ فلما قُرِئ كتابه على رسول الله ﷺ كتب إليه: بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى مُسَيْلِمة الكذاب لعنه الله، السلام على من اتبع الهدى، أما بعد؛ فإن الأرض لله يورثها مَنْ يشاء مِنْ عباده، والعاقبة للمتقين؛ وكان كتاب مُسَيْلِمة بخط عمرو بن الجارود، وكتاب النبي ﷺ بخط أبي بن كعب، ذكر ذلك ابن عبدوس الجهشياري، ثم كان مِنْ أمره ما ذكرناه آنفاً.

وممن تنبأ وزعم أنّ الوحي يأتيه الأسود العنسي، واسمه عبهلة بن كعب، وكان يُلقب ذا الخمار - بالخاء المعجمة - لأنه كان يخمر وجهه أبداً، وقيل بالخاء المهملة لأنه كان له حمار يقول له اسجد فيسجد، وابرک فيبرک؛ وكان رسول الله ﷺ لما عاد من حجة الوداع توعدك، فبلغ ذلك العنسي، فادّعى النبوة، وكان عرف شيئاً مِنَ السَّعْبَةِ والنيرنجيات ويُرِي منها عجائب، فتبعته مذحج وقصد نجران، فأخرج منها عمرو بن حزم وملكها ثم قصد صنعاء وغلب على الطائف إلى عدن إلى البحرين، واستفحل أمره، فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ كتب إلى مَنْ باليمن من المسلمين: أن اقتلوا الأسود العنسي، إمّا مصادمة وإمّا غيلة، وكان باليمن قومٌ مِنَ الفرس يسمون الأبناء أسلموا مع بادام، وكان بادام عاملاً للفرس على اليمن، فلما أسلم ولّاه رسول الله ﷺ ما كان بيده وأقرّه عليها، فلما مات فرق النبي ﷺ بلاد اليمن على جماعة من أصحابه، وكان الأسود لما قتل شهر بن بادام وملك صنعاء استصفى زوجته، فأنفق الأبناء معها على قتله غيلة، وواعدتهم على ليلة

كانت عادته يشرب فيها ودلتهم على مكان ينقبونه يَصِلُون منه إليه، فوجدوه وقد سكر ونام، فوثبوا عليه، فسمع الحرس ضوضاء، فقالوا لزوجته: ما هذا؟ قالت: نزل عليه الوحي، فلما قتلوه خرجوا مظهرين شعار الإسلام، فوثب المسلمون من كل جانب وقتلوا خلقاً مَمَّن كان معه، ورجع العمال إلى أعمالهم، وكتب بذلك إلى رسول الله ﷺ فوافى الرسول المدينة، فوجد رسول الله ﷺ قد مات. قال عبد الله بن عمر: أتانا الخبر من السماء إلى رسول الله ﷺ في الليلة التي قُتِل فيها، فقال: قُتِل العنسي، فقيل: مَنْ قتله؟ قال: رجلٌ مبارك من أهل بيتٍ مبارك، قيل: مَنْ هو؟ قال: فيروز، وفي صبيحة تلك الليلة قُبِض رسول الله ﷺ، وكانت مدة العنسي مِنْ أولها إلى آخرها ثلاثة أشهر.

ومَمَّن امتطى مطا هذا الغرر، فَرَمَتَه الأيام من تغَيُّظها بالشرر، المختار بن أبي عُبَيْد الثقفي، وكان قد جمع ليطلب ثأر الحسين عليه الرحمة والرضوان، وكان المختار لا يوقف له على مذهب، كان خارجياً، ثم صار رافضياً في ظاهره، ثم تنبأ وزعم أنَّ جبريل يأتيه بالوحي، فلما بُويع عبد الله بن الزبير بالخلافة بعث أخاه مُضْعَباً إلى العراق، فقاتل المختار فقتله، وقتل معه خلق كثير مَمَّن تابعه، وذلك في سنة سبع وستين.

وتنبأ أبو الحسين المتنبّي في بادية السماوة ونواحيها وتبعه مَنْ فيها مِنْ كلب وغيرها، فخرج إليه لؤلؤ أمير حمص مِنْ قِبَل الإخشيد فقاتله وأسرّه وشرّد مَنْ كان اجتمع عليه وحبسه مدة طويلة، فاعتلّ وكاد أن يتلف، فسُئِل فيه فاستتابه وكتب عليه وثيقة أشهد عليه فيها ببطلان ما ادّعاه ورجوعه إلى الإسلام، وأن لا يعود إلى مثله.

وتنبأ حائك بالكوفة وأحلّ الخمر، فقال رجل لابن عباس ذلك، فقال: لا يُقبل منه حتى لا يبرىء الأكمه والأبرص، فأُتِيَ به إلى الكوفة، فاستتابه فأبى أن يتوب ويرجع، فأثنته أمّه تبكي، فقال لها: تنحّي رُبط على قلبك كما رُبط على قلب أم موسى، وأناه أبوه فسأله أن يرجع فقال له: تنحّي يا آزر، فأمر الوالي بقتله فُقُتِل وصُلِب.

وظهر في أيام أبي مسلم نهافرند المجوسي، وكان قد غاب عن أهله سبع سنين في الصين، فأصاب من طرفها قميصاً تحويه قبضة الرجل، فجاء مخفياً فظهر

في ناووس تجاور بلده، وادّعى أنه كان مرفوعاً في السماء وأنه نبيّ فضل به خلق كثير، وجاء بسبع صلوات وحرّم الميتة وتزويج الأم والأخت وبنات العم وبنات الأخ، وهذا مما يخالف دين المجوسية، وفرض عليهم السبع في الأموال، وحظر أن يتجاوز بالمهر أربعمئة درهم، فاجتمع موابذة المجوس إلى أبي مسلم، وقالوا: هذا أفسد علينا ديننا ودينكم، فأنفذ إليه أبو مسلم من أخذه وقتله وصلبه.

وادّعى رجل النبوة في زمن خالد بن عبد الله القسريّ، وعارض القرآن فأتى به خالد، فقال له: ما تقول؟ قال: عارضت القرآن، قال: بماذا؟ قال: يقول الله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ۝١﴾ [الكوثر: الآية ١]، وتلا السورة إلى آخرها، وقلت: إنا أعطيناك الجماهر، فصلّ لربك وهاجر، ولا تطع كل ساحر؛ فضربت رقبته وُصِّلَ فمرّ به خليفة الشاعر فضرب بيده على الخشبة، وقال: إنا أعطيناك العود، فصلّ لربك من قعود، وأنا ضامن لك أن لا تعود.

ومنهم من ادّعى أنه الإمام المنتظر فصير عبرة لمن أمعن في العواقب النظر

ظهر في شوال سنة خمس وخمسين ومائتين في قرى البصرة رجل ادّعى أنه عليّ بن محمد بن أحمد بن عيسى بن زيد بن عليّ بن أبي طالب، واستعمل الزنج الذين يعملون في السباخ وأطعمهم في مواليتهم ووعدهم أنه يملكهم ما في أيدي مواليتهم، فاجتمع له خلق كثير، وجمّ غفير، وعبر دجلة ونزل قرية تسمى الدينارية، وزعم أن سحابة أظلمته وتودّي منها: اقصد البصرة تملكها، وأنه يطّلع على ما في ضمائر أصحابه وما يفعل كل واحد منهم؛ فلما كان يوم عيد الأضحى من هذه السنة صلى بهم وخطب لهم وذكرهم ما كانوا فيه من الشقاء وسوء الحال، وأن الله أنقذهم من ذلك، وأنه يريد أن يرفع أقدارهم ويملكهم العبيد والأموال وشنّ بهم الغارات على أطراف بلاد العراق، فأجلى أهل الضياع منها، واستفحل أمره وقصد البصرة فملكها سنة تسع وخمسين، وقتل من فيها من الرجال والنساء والصّبيان، وأحرق المسجد الجامع وبنى مدينتين على شاطئ دجلة وحصّنها بالأسوار والخنادق، فانتبذت إليه العساكر من بغداد براً وبحراً، فكانت الحرب بينه وبينهم سجّالاً إلى أن كانت الدائرة عليه في صفر سنة سبعين ومائتين ونسبه الذي ادّعاه لم يكن صحيحاً، والصحيح أن اسمه عليّ بن محمد بن عبد الرحيم، ونسبه

في عبد قيس، وكان ظهوره في أيام المهدي وقتله في أيام المعتمد على يد أخيه الموفق.

وظهر في أيام خلافة المعتمد سنة ثمان وسبعين ومائتين بقرية من سواد الكوفة رجل أجمر العينين يسمّى كرميّة، فاستثقلوا هذه اللفظة فحفظوها وقالوا: قرمط، فكان يُظهر الزُّهد والتّقشّف وكثرة الصّلاح، فاجتمع إليه أهل القرية وعظّموه، فلما تمكّن منهم أعلمهم أنه الذي يشير إليه النبي ﷺ في قوله: سيخرج لكم من أهل بيتي رجل اسمه كاسمي يملأ الأرض عدلاً كما مُلئت جوراً، فلما أطاعوه أعلمهم أن الصلاة المفروضة عليهم خمسون صلاة في اليوم والليلة، فشكوا إليه كثرتها وأنها تعطلهم عن أشغالهم، فسوّفهم أياماً ثم أتاهم بكتاب يقول الفرج بن عثمان يقول فيه إنه المسيح وهو عيسى، وهو الكلمة، وهو المهديّ، وهو محمد ابن الحنفية، وهو جبريل، وذكر أنّ المسيح تصوّر له على صورة إنسان وقال له: إنك الدّاعية، وأنك الحجّة، وأنك النّاقة، وأنك الدّابة، روح القدس، وأنك يحيى بن زكريّا، وعرفه أنّ الصلاة أربع ركعات ركعتان قبل الفجر وركعتان قبل الغروب، وأن الأذان في كل صلاة أربع تكبيرات ويتشهد مرّتين، ثم يقول: أشهد أن موسى رسول الله، أشهد أن لوطاً رسول الله، أشهد أن إبراهيم رسول الله، أشهد أن موسى رسول الله، أشهد أن محمداً رسول الله، أشهد أن أحمد بن محمد ابن الحنفية رسول الله.

ومن شرائعه: أنّ الصوم يومان في السنة: يوم المهرجان ويوم النوروز، وأنّ التّبذ والخمر غير حرام، ولا غسل من جنابة، ويؤكل كل ذي ناب وذي مخلب، وأن القبلة إلى بيت المقدس، ويوم الجمعة يوم الاثنين، ويشترك في المرأة جماعة من الرّجال، فأجابه زهاء من عشرة آلاف رجل واتّخذ منهم اثني عشر نقيباً، وقال لهم: أنتم كحواري عيسى، ثم إن هذا الشقيّ المذكور اختفى، وأقام رجلاً يُعرف بأبي الفوارس واسمه خلف بن عثمان داعياً لمذهبه، فتعطل على المعتضد الخراج من سواد الكوفة، ونفضوا أيديهم من طاعته وشقّوا العصا بمخالفته، فأرسل إليهم مسكاً غلام أحمد بن محمد الطائي في عشرة آلاف فارس، فظفر بهم وقتلهم، وأخذ أبا الفوارس أسيراً وحمله إلى المعتضد فأمر به فقلّعت أضراسه وخُلِعت أعضاؤه، ثم قُطعت يداه ورجلاه وضُرب عنقه، وصُلِب بالجانب الشرقي سنة تسع وثمانين ومائتين.

وفي شهر ربيع الآخر من هذه السنة مات المعتضد، وله من العمر سبع وأربعون سنة، وكانت مدة خلافته تسع سنين وتسعة أشهر وأياماً، ثم قام فيهم آخر يسمّى عليّ بن عبد الله، فعاث في بلاد الشام عيثاً ذريعاً، وأخرب مدناً وقرى كثيرة، وكان بينه وبين طغج بن جفّ الإخشيدي صاحب مصر والشام حروب كثيرة أجلت عن قتل الأخشيد الفرغاني، فخرجت إليه الجيوش من مصر فحاربوه، فقتل في بعض الحروب على دمشق سنة تسعين ومائتين، وكان يسمّى صاحب الجمل، فقام بعده أخوه يسمّى أحمد ويلقب بذي الشامة لشامة كانت في وجهه، وأقام له داعيين سمي أحدهما المذثر، وزعم أنه المذكور في القرآن، وسمّى الآخر المطوق، فاشتدت في العناد شوكته، وسلّطت على العباد فتكته، وسار إلى دمشق، فصولح عليها بمال، فرجع عنها في سنة تسعين، وكانت عادته إذا فتح بلدًا عنوة قتل من فيها من الرجال والنساء والولدان والبهائم، فضاق المسلمون به ذرعاً، فاستغاثوا بالمكتفي فجهّز لهم جيشاً عظيماً وقدم عليهم الحسين بن حمدان، والقاسم بن عبيد الله الكاتب، وأمر الجيش بالسّمع والطاعة له، فواقعهم في شهر المحرم سنة إحدى وتسعين، فانهزم وأسلم من كان معه فقتلوا وهرب معه المذثر والمطوق، وألجأتهم الهزيمة والخوف إلى قرية من أعمال الفرات تسمّى دالية، فأنكرهم أهلها واستفصحو أحدهم عن أمرهم، فجمع في كلامه، فعوقب حتى أقرّها فأخذهم متولّياً وحملهم إلى المكتفي، وكان بالرقّة، فرحل بهم إلى بغداد، فدخلها ومن معه من الأسراء في شهر ربيع الأول وأمر ببناء دكة في المصلّى العتيق ارتفاعها عشرة أذرع، ثم أصدعوا عليها، فقطعت أيديهم وأرجلهم من خلاف، ثم ضربت رقابهم بين يديه، ثم أمر بالقرمطيّ فضرب مائتي سوط، وكويت خواصره، ثم قتل وصلب على الجسر الأعظم.

ثم ظهر فيهم رجل يسمّى زكروية بن مهرويه في سنة ثلاث وتسعين، ونعت نفسه بالمهديّ، فقطع الطريق على الحاج ونهب القوافل وقتل أهلها وسبى حريمهم، فبعث إليه من بغداد جيشاً فحاربه بذي قار، وهو موضع بين الكوفة والبصرة، فانهزم وأخذ أسيراً جريحاً في شهر ربيع الأول سنة أربع وتسعين، فحمل إلى بغداد، فمات في الطريق في شهر ربيع الآخر.

ثم ظهر فيهم رجل يسمّى علي بن شبيب، ويُعرف بالمبرقع، فحُورب وانهزم وأخذ أسيراً وأدخل بغداد على جمل وضرب عنقه.

ثم ظهر فيهم أبو سعيد الحسن بن يوسف بن كودر، كان الخيامي بالبحرين فقتله خادمان له صتليان في سنة عشرة وثلاثمائة، فقام بعده سليمان بن الحسن الجباري، فعات في البلاد وأفسد وقصد مكة شرفها الله تعالى، فدخلها يوم التروية سنة سبع عشرة وثلاثمائة في خلافة المقتدر، فقتل من وجد من الحاج في المسجد الحرام، ورمى بالقتلى في بئر زمزم وعرى الكعبة وقلع بابها وأخذ الحجر الأسود، فبقي الحجر عندهم اثنتين وعشرين سنة إلا أشهرًا، ثم رذوه مكسورًا على يد سنان بن الحسن بن سنان في ذي القعدة سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة، ونصب في مكانه يوم النحر من السنة المذكورة، وكان محكم الرائي بذل لهم فيه خمسين ألف دينار فأبوا، وكان موت سليمان في سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة.

ثم لما دخل المعز لدين الله مصر بعد أخذ جوهر مولاه لها، وذلك في سنة اثنتين وستين وثلاثمائة في أيام المطيع قصد القائم فيهم يومئذ رجل يُعرف بابن غزوان، فخرج إليه جعفر بن فلاح فالتقاء بالرملة فقاتله وهزم عسكره وقتله في سنة تسع وستين وثلاثمائة.

ثم قام فيهم رجل يسمى حسنًا ويُعرف بالأعصم، فملك الشام وأخرج منه عمال المُعِزِّ، فانهزموا بين يديه فتبعهم إلى مصر وملك الصعيد وأسفل الأرض، ووصل إلى مصر ونزل بعسكره عليها، فخرج إليهم القائد جوهر، فحاربهم فاقتتلوا قتالًا شديدًا وقتل من العسكر خلق كثير، وذلك يوم الجمعة غرة شهر ربيع الأول سنة إحدى وسبعين وثلاثمائة، ثم انصرفوا وتركوا الحرب يوم السبت ورجعوا يوم الأحد، وهم واثقون الظفر، فلما التقى الجمعان أعطى الله النصر لعساكر القائد جوهر وانكشفت القرامطة بالانهزام، وساروا إلى البحرين على نية العود إليها وإلى الشام، فوجدوا بني حمدان قد ملؤوا شعابه وأوديته ورفعوا به قواعد الدين وألويته، ولم يجمع الله للأعصم على شق عصا الإسلام شمالًا، ولم يَمُضْ له بعد في الإسلام قولًا ولا فعلًا، وتفرق أصحابه في البلاد أيدي سبا، واسترجع منه الدَّهْر ما نهب وسبي، وكانت مدة دولتهم ستًا وثمانين سنة، وهذا الذي ذكرناه يشترك في القول به أصحاب الآراء والمقالات الخابطون في عشواء الجهالات؛ كأصحاب النحل والملل المتمسكين بآرائهم مع ما فيها من الفساد والخلل؛ كالمعتزلة والحشوية وغلاة الرافضة وسائر الفرق الإسلامية، غير الفرقة الناجية، التي هي لعواطف لطف الله راجية، وكل منهم قد أضلَّه الله على علم، فنعوذ بالله من الغواية بعد الهداية، ومن الجور بعد الكور، ومن الإنكار بعد الاستبصار إنه سميع قريب تَوَّاب مُجِيب.

الباب الثامن

في التغفل

وفيه ثلاثة فصول:

الفصل الأول من هذا الباب

في ذمّ البلادة والتغفل من ذوي التعالي والتنزل

ومعنى التغفل الغلط في الوسيلة والطريق إلى المطلوب مع صحة القصد، فالمغفل مقصده صحيح، ولكن سلوكه الطريق فاسد ورميته في الوصول إلى الغرض غير صحيحة؛ كما قال بعض الحكماء: إذا فَقَدَ العالمُ الذَّهْنَ قَلَّ على الأضداد احتجاجه، وكَثُرَ إليهم احتياجه، وتعاوَرَتِ أسِنَّةُ الشُّكوكِ، واشتبهت عليه مناهج السلوك. وقالوا: التغفل تحريف الشيء عن مواضعه مع تيقن أن ذلك صواب؛ كما ذُكِرَ أَنَّ أحمد بن أبي خالد عرض القصص يوماً على المأمون وهو بين يديه، فمرّ بقصة مكتوب عليها فلان اليزيدي فصحه، وقال الثريدي، فضحك المأمون وقال يا غلام ثريدة ضخمة لأبي العباس، فإنه أصبح جائعاً، فحجل أحمد وقال: ما أنا جائع يا أمير المؤمنين، ولكن صاحب هذه الرقعة أحرق وضع على يائه ثلاث نقط، كأنافي القدر؛ فقال المأمون: عُدْ عن هذا، فَإِنَّ النقط شهود الزور والجوع اضطرَّكَ إلى ذكر الثريد؛ فلما أتى الثريد احتشم أحمد مِنْ أكله، فقال له المأمون: بحقي عليك إلا ما أكلت، فترك القصص ومال إلى الصفحة وأكل قليلاً ثم دعا بالماء فغسل يديه ورجع إلى القصص، فمرّ بقصة عليها مكتوب فلان الحمصي، فقرأها الخبيصي، فضحك المأمون وقال: يا غلام جام خبيص، فَإِنَّ غذاء أبي العباس كان أبتراً، فحجل وقال: يا أمير المؤمنين صاحب هذه الرقعة أحرق مِنَ الأوَّل فتح الميم فصارت كأنها سنتان، قال: دَغْ عنك هذا، فلولاً حمق هذا وصاحبه مُتَّ أنت جوعاً، فَأَتَيْ بِجام خبيص فَأَبَى أَنْ يَأْكُلَ مِنْ كَثْرَةِ الاستحياء، فقال له المأمون: بحقي عليك إلا ما ملت نحوه وأكلت، فانحرف إليه وأكل منه

ثم غسل يده، وانصرف إلى القصص، واحترز في قراءتها وثبتت في حروفها، فما حَرَفَ حرفًا حتى أتى على آخرها.

وقد اخترت من مدام المتغفلين مما حَسُنَ وراق دُررًا ضمنتها أصداف هذه الأوراق

ذم أبو عبيدة معمر بن المثنى كيسان مستمليه، وقد أملى عليه شيئًا، فعجز عن إدراكه، فقال: والله ما فهِم، ولو فهِم لوهِم. وقال الجاحظ: كان كيسان مستملي أبي عبيدة يكتب غير ما يسمع، ويستفتي غير ما يكتب، ويقرأ غير ما يستفتي؛ أملت عليه يومًا^(١): [مجزوء الوافر]

عَجِبْتَ لمعشر عدلوا بمعتمر أبا عمرو

فكتب أبا بشر واستفتى أبا زيد، وقرأ أبا حفص. وسأله أبو عبيدة عن رجل من شعراء العرب: ما اسمه؟ فقال: هو خدّاش أو خراش أو رياش أو خمّاش أو شيء آخر، وأظنّه قرشيًّا؛ فقال له أبو عبيدة: مِنْ أين علمت أن نسبه في قريش؟ قال: رأيت اكتناف الشينات عليه مِنْ كلِّ جانب. وذكر الجاحظ عنه أنه شهد على رجل عند بعض الوُلاة، فقال: سمعت بأذني - وأشار إلى عينه - ورأيت بعيني - وأشار إلى أذنه - أنه أمسك بتلابيب هذا الرجل - وأشار إلى كُمّه - وما زال يضرب خاصرته - وأشار إلى فكّه - فضحك الوالي، وقال: أحسبك قرأت كتاب خلق الإنسان على الأصمعي؟ قال: نعم مرتين. وذم بعض البلغاء فدمًا^(٢)، فقال: لا يَفْهم ولا يُفْهم، وينقض ما يبرم، ولا يعلم ولا يتعلّم، ويستصغر من يتعلّم. وسأل أبو عون رجلًا عن مسألة، قال: على الخبر بها سقطت، سألت عنها أبي فقال: سألت عنها جدّك، فقال: لا أدري. وقالوا: فلان يسمع غير ما يُقال، وحفظ غير ما يسمع، ويكتب غير ما يحفظ، ويقرأ غير ما يكتب. وقالوا: فلان ذو بصيرة عمياء عند تأمل الثواقب، وتجربة صمّاء عند تشابه التوائب. وقال شاعر يهجو رجلًا^(٣): [الوافر]

جهول غاص في لحم وشحم ولم ينسب إلى عقل وفهم
إذا لبس البياض فعدل جصّ وإن لبس السواد فعدل فحم

(١) البيت بلا نسبة في القسطاس في علم العروض، للزمخشري، ص ٥٥.

(٢) الفَظْم: الثقل الفهم العمي.

(٣) البيتان لم أجدتهما في المصادر والمراجع التي بين يدي.

وممن تقاصر فهمه عن إدراك الصواب البادي، فطاول بذمه لسان الحاضر والبادي أحمد بن الخصيب وزير المستنصر، ووزر أيضًا للمستعين عمل أبو العيناء كتابًا في ذمه حكى فيه أنَّ جماعة من الفضلاء اجتمعوا في مجلس، وكلُّ منهم يكره ابن الخصيب لما كان فيه من الفدامة والجهالة والتغفل، فتجاذبوا أطراف المُلح في ذمه، فقال عليّ بن بسّام: كان جهله غامرًا لعقله، وسفهة قاهرًا لحلمه، وقال لمعرة الرابض: لو كان دابةً لتقاعس في عنائه، وحرّ في ميدانه، وقال آخر: كنت إذا وقع لفظه في سمعي أحسست النقصان في عقلي، وقال بعض كتّابه: كنت أرى لم ابن الخصيب يكتب بما لا يُصيب، ولو نطق لنطق بنوك عجيب، وقال إبراهيم بن المدبر: كنت يومًا عنده فقدم الطعام وفيه هليون فأكبّ عليه، فقلت له: أراك راغبًا في الهليون؟ فقال: إنه يزيد في الباه. وسُئِلَ عنه أبو العيناء بعد هذا التصنيف، فقال: إن دنوت منه غرّك، وإن بُعدت عنه ضرّك، فحياته لا تنفع وموته لا يضّر. وقال آخر: لو غابت عنه العافية لتسيّها. وكان ابن الخصيب إذا ناظر شعب وحلب، وربما رفس من ناظره إذا أفحم عن الجواب، وخفي عنه الصواب، واستولت عليه البلادة، وعزى كلامه عن الإفادة؛ وفيه يقول محمد بن الفضل^(١):

[الكامل]

قل للخليفة يا ابن عمّ محمّد أشكل وزيرك إنه ركّالُ
قد أحجم المتظلمون مخافة منه وقالوا ما نروم مُحالُ
ما دام مطلقة علينا رجله أو دام للنزق الجّهول مقالُ
قد نال من أعراضنا بلسانه ولرجله بين الصدور مجالُ
امنعه من ركل الرجال فإن تُرد مالا فعند وزيرك الأموالُ

وحكى عنه أنه رأى جرادًا كثيرًا يطير، فقال لجلسائه: لا تغتموا إني أحسبه كأنه ميّت، وفيه يقول بعض الشعراء يهجوّه من أبيات^(٢): [الوافر]

حمار في الكتابة يدّعيها كدعوى آل حرب في زيادِ
فخلّ عن الكتابة لست منها ولو لطّخت ثوبك بالمِدادِ

(١) الأبيات لأبي العيناء في ديوانه، من خمسة أبيات، هي هذه.

(٢) البيتان بلا نسبة في العقد الفريد، لابن عبد ربّه.

وقد هجا أبو العيناء أسد بن جوهر ونحا فيه هذا المعنى، فقال^(١):

[الكامل]

تَعَسَّ الزَّمانَ لَقَدْ أَتى بِعِجابِ	ومحارِسومِ الظَّرْفِ والآدابِ
وافى بِكتابٍ لو انبسطت يدي	فيهم رَدَّدَتْهم إلى الكتابِ
جِيلٌ مِنَ الأنعامِ إِلَّا أَنهم	من بينها خُلِقُوا بلا أَذْناهِ
لا يَعرفون إذا الجريدة جُرِّدت	ما بين عيابِ إلى عتابِ
أو ما ترى أسد بن جوهر قد غدا	متشَبَّهاً لِأَجَلَةِ الكُتَّابِ
لكن يَمزِقُ ألف طومار إذا	ما اختِيجُ منه إلى جوابِ كتابِ
فإذا أتاه سائل في حاجةٍ	رَدَّ الجوابَ له بغير جوابِ
وسمعت من غث الكلام ورثه	وقبيحه بِاللَّحْنِ والإعرابِ
ثكلتك أمك هبك من بقر الفلا	ما كُنْتُ تَغْلُظُ مرَّةً بِصوابِ

ولآخر يهجو كاتب خراج^(٢): [الكامل]

لو قيل كم خَمْسٍ وخَمْسٍ لَأَزْتأى	يوماً وليلتَه يَعدُّ ويحسب
يرمي بِمقلته السماء مُفَكِّراً	ويظلّ يرسم في الترابِ وَيَكْتُبُ
ويقول معضلةً عَظِيمٌ أمرها	ولئن فهمت فإنَّ فهمي أَعْجَبُ
حتى إذا خدرت أنامل كَفِّه	عداً وكادت عَيْنُه تَتَصَوَّبُ
أوفى على نشزٍ وقال ألا اسمعوا	قد كَذَبْتُ من طربِ أَجَنٍّ وأُسلَبُ
خمسٌ وخمس سِتَّةٌ أو سبعة	قولان قالهما الخليل وثعلب
فيه خلافٌ ظاهر ومذاهب	لكن مذهبنا أَصَحُّ وأُصوبُ
وخواطر الحِساب فيها كثرةٌ	وأظنَّ قولِي فيهم لا يَكْذِبُ

وممن كان صوابه عن غير اعتماد، وخطؤه بعد تروُّ واجتهاد، شجاع بن القاسم كاتب أوتامش التركي، وكان أُمِّيًّا لا يقرأ ولا يكتب ولا يفهم ولا يفهم، وإنما علم علامات كان يكتبها في التوقيعات. قال الحسن بن المخلد: كنت يوماً عند المُستعين ومعنا أوتامش؛ إذ دخل شجاع بن القاسم وسراويله قد خرج من

(١) الأبيات في ديوان أبي العيناء، والبيت الأول هو مطلع القصيدة.

(٢) الأبيات لأبي الحسن الرازي في حماسة الظرفاء، للعبدلكاني الزوزني، ص ١٦٥.

خفه حتى وقع على قدمه وهو يسحبه ويدوسه، فقال له المستعين: وَيَحْك يا شجاع ما هذه الحالة؟ قال: الساعة يا سيدي داسني كلب فخرقت سراويله وثيابه، فضحك المستعين وقال لأوتاش: مثل هذا ينبغي أن يُستعمل في الكتاب. ومن ظريف ما يُخبر عنه أن أحمد بن عمار عمل شعراً مختلف القوافي ولا معنى له مما يليق بفهمه وعقله متعمداً ذلك ليضحك منه إخوانه ووقف إليه، وقال: أيها الوزير ليس الشعر صناعتني ولكنك أحسنت إليّ وإلى أهلي بما أوجب عليّ شكرك، فعملت أبياتاً أمدحك بها، فتفضل بسماعها؛ فقال له: أغناك شرفك عن التكبس بالشعر وإنشاده، قال: لا بد أن تتفضل وتأذن لي، فأذن له فأشُد^(١): [الطويل]

شجاع لجاج كاتب لائب معاً	كجلمود صخر حطه السيل من عل
خبيص لبيص مستمر مقوم	كثير أثير ذو شمال مهذب
بليغ لبليغ كل ما شئت قلته	لديه وإن أسكت عن الأمر يسكت
فطين لطين أمره لك زاجر	خصيف لصيف كل ذلك يعلم
أديب لبيب فيه فهم وعفة	عليم بشعري حين أنشد يشهد
كريم حلیم قابض متباسط	إذا جئته يوماً إلى البذل يسمح

فسر بذلك وشكره على إنشاده ووصله بعشرة آلاف درهم، وأجرى له ألف درهم في كل شهر. وكان محمود الوراق عني هذا المذكور بقوله من أبيات^(٢): [الكامل]

يا ناظرًا يرنو بعيني راقداً ومشاهد للأمر غير مُشاهد
أو أبا تمام بقوله^(٣): [الوافر]

ولو نشد الخليل له لعفت بلادته على فطن الخليل

أو قول هذا القائل فيه: فلان لا يتبه، ولو أدخل في الكور، ونفخ عليه إلى أن ينفخ في الصور. وحكى الجاحظ في كتاب البيان أن المأمون كان يستقل

(١) الأبيات لم أجدها في المصادر والمراجع التي بين يدي.

(٢) الأبيات في ديوان محمود الوراق، والبيت الأول هو مطلع القصيدة.

(٣) البيت في ديوان أبي تمام، من قصيدة مطلعها:

كأنني لم أبسكما دخلي ولم تريا ولوعي من ذهولي

سهل بن هارون، فدخل عليه يومًا والناس جلوس، وقد أسبلوا براقع الغفلة على وجوه الفطن، والفهم عنهم قد رحل، والتبلد فيهم قد قطن؛ فلما فرغ المأمون من كلامه أقبل سهل على الناس وقال: ما لكم تسمعون ولا تَعُون، وتفهمون ولا تُفهمون، وتشاهدون ولا تتعجبون، والله إنه ليقول ويفعل في اليوم القصير مثل ما فعله بنو مروان في الزمن الطويل، عربكم كعجمهم، وعجمكم كعبيدهم، لكن كيف يَعْرِف الدواء مَنْ لا يشعر بالداء؛ فاستحسن المأمون منه ذلك، وأنزله منزله الأولى. وكلام سهل يحتمل مدح فصاحة المأمون وذم البلادة التي أنزلت جلساءه المنزل الدون، وإثباته في حقهم بالذم أوجب علينا والزم.

الفصل الثاني من الباب الخامس

فيمن تأخرت منه المعرفة ونوادر أخبارهم المُستظرفة

وواجب أن نبدأ بأخبار مَنْ أساء في التفقد والعيادة، ولم يُحسن خطابه في السؤال ولا الإعادة. قال عامر بن شراحيل الشعبي: عيادة النوكى أشد على المريض من مرضه، فإنهم حُمى الروح وطليعة ملك الموت. دخل حمصي على عروة بن الزبير يعوده لما قطعت رجله، لألم أوجب عليه فعل ذلك من أكلة أصابتها، فقال: أقطعت رجلك؟ قال: نعم، قال: جيد، قال: أوجعك شديد؟ قال: نعم، قال: جيد؛ ثم قال: لا تغتم فإنك لو رأيت ثوابها لتمنيت أن الله قد قطع رجلك ويديك وأعمى بصرك ودق صلبك، فكان مصاب عروة بعائده المزيد في نكده أكثر من مُصابه بما قطع من رجله ويده. وأين هذا الجلف من عيسى بن طلحة بن عبيد الله، فإنه دخل على عروة هذا يعوده لما قُطعت رجله، فقال: والله ما كنا نعدك للصراع ولا للتسابق، ولكن نعدك للخير ونوالك المنساق، ولئن أعدمنا الله أقلك لقد أبقى لنا أكثرك، سمعك وبصرك ولسانك وعقلك ويديك وإحدى رجلك، فقال: يا عيسى ما عزاني أحد بمثل ما عزيتني به. ودخل آخر على مريض يشكو من رأسه، فقال لأهله: لا ضير إذا رأيتم المريض هكذا، فاغسلوا أيديكم منه. وعاد آخر مريضًا، فقال له: ما بك؟ قال: وجع الركبة، قال: إن جريًا ذكر بيتًا ذهب عني صدره، وبقي عجزه وهو^(١): [الطويل]

وليس لداء الركبتين دواء

(١) البيت بتمامه في ديوان جرير:

فقال المريض: لَئِن عَجَزَكَ ذَهَبَ كَمَا ذَهَبَ صَدْرُهُ. وعاد آخر مريضًا، فلما خرج قال لأهله: آجِرْكُمْ اللَّهُ، فقالوا: إِنَّهُ لَمْ يَمُتْ بَعْدَ، قَالَ: يَمُوتُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ. وعاد آخر مريضًا، فلما خرج قال لأهله: لَا تَفْعَلُوا فِي هَذَا كَمَا فَعَلْتُمْ بِالْآخِرِ، مَاتَ وَمَا أَعْلَمْتُمُونِي بِهِ. وعاد آخر مريضًا، فَلَمَّا خَرَجَ قَالَ لِأَهْلِهِ: أَحْسَنَ اللَّهُ عَزَاكُم، فَقَالُوا: إِنَّهُ لَمْ يَمُتْ، قَالَ: قَدْ عَرَفْتُ وَلَكِنِّي شَيْخٌ كَبِيرٌ لَا أَسْتَطِيعُ النَّهْوُضَ فِي كُلِّ وَقْتٍ، وَأَخَافُ أَنْ يَمُوتَ فَأَعْجِزَ عَنِ الْمَجِيءِ لِأَعْزِيَكُمْ بِهِ. وعاد آخر مريضًا، فقال له: مَا تَشْتَكِي؟ قَالَ: مَا تَشْتَكِي؟ قَالَ: وَجَعُ الْخَاصِرَةِ، قَالَ: وَاللَّهِ كَانَتْ عِلَّةُ أَبِي فَمَاتَ مِنْهَا، فَعَلَيْكَ بِالْوَصِيَّةِ يَا أَخِي، فَدَعَا الْمَرِيضُ وَلَدَهُ وَقَالَ: يَا بَنِي أَوْصِيكَ بِهَذَا لَا تَدْعُهُ يَدْخُلُ عَلَيَّ بَعْدَ هَذَا. وعاد آخر مريضًا، فلما رآه أَنشَدَ مَتَمَثِّلًا بِمَا أَمْلَى قَلْبُهُ الْغَبِيَّ عَلَى لِسَانِهِ الْعَبِيِّ^(١): [الوافر]

يَمُوتُ الصَّالِحُونَ وَأَنْتَ حَيٌّ تَخْطَاكَ الْمَنَايَا لَا تَمُوتُ

وذكر المسعودي أَنَّ عمرو بن العاص لما قدم مِنْ مِصرَ عَلَى معاوية أَنشده هذا البيت، فَأَجَابَهُ عمرو^(٢): [الوافر]

أَتَرْجُو أَنْ أَمُوتَ وَأَنْتَ حَيٌّ وَلَسْتُ بِمَيِّتٍ حَتَّى تَمُوتَ

دخل عبد الله بن أبي عتيق ومحمد بن عبد الرحمن بن أبي بكر على عائشة رضي الله عنها يعودانها، فقال لها: كَيْفَ حَالُكَ يَا عَمَّةُ، جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاكَ، قَالَتْ: فِي الْمَوْتِ؟ قَالَ: الْآنَ لَا جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاكَ، فَإِنِّي كُنْتُ أَظُنُّ أَنَّ فِي الْوَقْتِ فَسْحَةً.

ومِمَّنْ عُرفَ بِالتَّغَاوُلِ واشتهر، وفاق فيه أهل زمانه ومهر: أَبُو عبد الله الحسين بن عبد الله الجصاص الجوهري، كَانَ رَئِيسًا فِي الْمَتَرَفَهِيْنَ، وَرَئِيسًا لِلْمُتَجَلِّفِيْنَ، وَجَدَ الْجَدَّ فَهُوَ ذُو جَدَّةٍ وَيَسَارٍ، وَعَدِمَ الْعَقْلَ فَسَيَّانُ الْيَمِينِ وَالْيَسَارِ،

= تحني العظام الراجفات من البلى وليس لداء الركبتين طبيبٌ ومطلع القصيدة:

لَقَدْ كَانَ ظَنِّي يَا ابْنَ سَعْدٍ سَعَادَةً وَمَا الظَّنُّ إِلَّا مَخْطِئٌ وَمَصِيبٌ

(١) البيت لمعاوية بن أبي سفيان في ديوانه، وهو بيت منفرد.

(٢) البيت لم أجده في المصادر والمراجع التي بين يدي.

وكان عند المقتدر من خواصّ أحبّته، وممّن له الكلمة المطاعة في دولته، ثم نقم عليه فصادره فأخذ منه ستّة آلاف دينار وغير ذلك من مواشٍ وأثاث وعقار، ومن نفائس الأعلّاق والذخائر ما لا يوجد قليله عند عقلاء الأخائر؛ ومما يدلّ على كثرة ماله أنّ المعتضد لما عدّ نكاحه على قطر النّدى بنت أحمد بن طولون ليؤدّعه فلم يذكر له ما صرف، وكان مبلغه أربعمائة ألف دينار، فسأله ابن طولون عنه فدافعه فأبى ذلك، وقال: لا بدّ منه، فذكر له فقال له: راجع طومارك لعلك نسيت شيئاً، فراجعته فإذا فيه تكك قيمتها عشرون ألف دينار لم يدخلها في حسابه، فأطلق له الجميع، فانظر إلى مال ينفق من عرضه أربعمائة ألف دينار وعشرون ألف دينار كم يكون أصله؟

فمن ملّح أخباره وملّح آثاره ما حُكي أنّ إنساناً سُئل عن صفته، فقال: رأيته شيخاً طويلاً طويل اللّحية، خفيف العارضين، صغير الرأس تشهد صورته عليه بالنّوك. وحُكي عنه أنّه دخل عليه عليّ بن الفرات يحدثه، وهو غافل عنه ساوٍ تارة ينعس، وتارة يبهت، فقال له: كم ذا السهو والنعاس؟ فقال: يا سيّدي عندنا في المحلّة كلاب لا تدعنا ننام من كثرة صياحها وهراشها، فقال له ابن الفرات: لِمَ لا تأمر عبيدك تضربها فإنّي أحسبها جِراء، فقال: لا تقل ذلك أيّها الوزير، فإن كل كلب منها مثلي ومثلك.

نوعٌ منها لغيره: تغذّى أبو السربال عند سليمان بن عبد الملك وهو يومئذ وليّ عهد أبيه، فقدّم أمامه جدّياً، وقال: كُلْ مِنْ كَلْبِيته، فإنّها تزيد في الدّماغ؛ فقال: لو كان كما يقول الأمير لكان رأسه مثل رأس البغل. وقال بعضهم: دخلت على ابن الجصّاص يوماً والمصحف في جِجره، وقد بلّ كاغده بدموعه، وأذلّ نفسه بتضرّعه وخشوعه، فسألته: ما الذي دهاك وأزال بهاك؟ فقال: أكلت مع الجوّاري المخيض، فتعدّيت أمر الله وخالفته وكنت أعرف أنّ الله نهى عنه وحذّر منه؛ قلت: وما الذي أوصى الله به ونهى عنه وحذّر منه؟ قال: أكل المخيض مع الجوّاري، قلت: وكيف قال الله في ذلك؟ قال: ألَمْ تسمع قوله تعالى: (يسألونك عن المخيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء في المخيض ولا يقربوهنّ) وقرأهنّ بالخاء، ثم قال: يا أخي هل تعرف لي من توبة أغسل بها هذه الحوبة؟ قلت: التضرّع في الدعاء بالإقالة، والابتهاال إلى الله بصدق المقالة؛ فقام وكشف عن رأسه وحسر عن ذراعيه ورفع يديه، وقال: اللّهمّ إنّك تجد مَنْ تَرَحّمه سواي، ولا أجد

مَنْ يَعَذِّبُنِي سِوَاكَ؛ فتركته وانصرفت متعجبًا من هذه الحال مُوقِنًا أَنَّ الجَدَّ لَا يَكُونُ بِسَعْيِ الْمُحْتَالِ. وَسُمِعَ يَوْمًا يَقُولُ فِي سُجُودِهِ: سَجِدُ لَكَ بِيَاضِي وَسَوَادِي خَاضِعًا ضَارِعًا مَاضًا لِبَطْرِ أُمِّهِ، وَمَنْ أَنَا هَلْ أَنَا إِلَّا عَبْدُكَ وَابْنُ عَبْدِكَ الزَّانِي ابْنُ الزَّانِيَةِ حَتَّى لَا يُغْفَرَ لَهُ. وَمِمَّا يَشْبَهُ هَذَا الْقَوْلَ لغيره مَا حُكِيَ أَنَّ شُعَيْبًا الْعَلَانِيَّ كَانَ لَا يَصُومُ وَلَا يَصَلِّي، وَيَقُولُ: مَنْ أَنَا حَتَّى أَصُومَ وَأَصَلِّي، إِنَّمَا يَصَلِّي الْمُتَكَبِّرُونَ الَّذِينَ أُرِيدُ مِنْهُمْ التَّوَاضُعَ، وَيَصُومُ الشُّبَاعُ حَتَّى يَعْرِفُوا قَدْرَ مَا فِيهِ الْجِيَاعُ، وَكَأَنَّهُ اقْتَدَى فِي قَوْلِهِ بِمَا حُكِيَ أَنَّ الرِّسْتَمِيَّ كَانَ عِنْدَهُ قَوْمٌ مِنَ التَّجَارِ، فَحَضَرَتِ الصَّلَاةَ فَنَهَضَ لِيَصَلِّيَ فَنَهَضُوا مَعَهُ، فَقَالَ: مَا لَكُمْ وَلِهَذَا؟ وَمَا أَنْتُمْ مِنْهُ الصَّلَاةَ رُكُوعَ وَسُجُودَ، وَقِيَامَ وَقُعُودَ، وَإِنَّمَا فَرَضَ اللَّهُ هَذَا عَلَى الْمُتَجَبِّرِينَ وَالْمُتَكَبِّرِينَ وَالْمُلُوكَ الْأَعَاجِمَ مِثْلِي وَمِثْلَ ذِي الْأَوْتَادِ وَنَمْرُودَ وَأَنُوشِرَوَانَ، وَلَسْتُمْ مِنْ هَؤُلَاءِ، فَمَا لَكُمْ وَلَهَا؟ لَكِنَّهُ الْمَغْرُورُ اقْتَدَى بِهِ فِي الْقَوْلِ دُونَ الْعَمَلِ، وَحَمَلَ أَوْزَارَ الْجَهْلِ وَبِئْسَ وَاللَّهِ مَا حَمَلَ. وَأَهْدَى ابْنُ الْجِصَّاصِ إِلَى الْعَبَّاسِ بْنِ الْحَسَنِ الْوَزِيرَ نَبْقًا وَكُتِبَ مَعَهُ^(١): [الهِجْز]

تَفِيلْتُ بِأَنْ تَبْقَى فَأَهْدَيْتَ لَكَ النَّبْقَا

فَكُتِبَ لَهُ الْوَزِيرُ: مَا تَفِيلْتُ وَلَكِنْ تَبَقَّرْتُ.

ذَكَرَ مَنْ أَخْطَأَ فِي سَوَالٍ أَوْ جَوَابٍ وَظَنَّ أَنَّ كَلَامَهُ عَيْنُ الصَّوَابِ

ذَكَرَ أَنَّ إِنْسَانًا كَانَ يُكْثِرُ الْجُلُوسَ فِي حَلْقَةِ الشَّافِعِيِّ، وَكَانَ ذَا رِوَاءٍ وَهَيْئَةٍ، وَكَانَ الشَّافِعِيُّ يَجْلِسُهُ وَيُكْرِمُهُ، فَسَأَلَهُ يَوْمًا: أَيُّ وَقْتٍ يُحْرَمُ عَلَى الصَّائِمِ الْأَكْلُ؟ فَقَالَ الشَّافِعِيُّ: عِنْدَ طُلُوعِ الْفَجْرِ، قَالَ: فَإِنْ طَلَعَ الْفَجْرُ بَعْدَ طُلُوعِ الشَّمْسِ، فَقَالَ: الْآنَ يَمْدُ الشَّافِعِيُّ رِجْلَهُ، وَمَدَّهَا وَلَمْ يَحْتَشِمْ مِنْهُ. وَقَالَ الْجَا حِظُّ: دَخَلَ رَجُلٌ عَلَى الشَّعْبِيِّ وَبَيْنَ يَدَيْهِ الْفُقَهَاءُ، فَقَالَ بَعْدَمَا طَالَ جُلُوسُهُ: أَيُّهَا الشَّيْخُ إِنِّي أَجِدُ فِي قَفَايَ خَلَّةً، أَفْتَرَى أَنَّ أَحْجَمَ؟ فَقَالَ الشَّعْبِيُّ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي رَفَعَ مَنَزَلَتَنَا فَحَوَّلَنَا مِنَ الْفَقْرِ إِلَى الْحِجَامَةِ؛ وَأَكْثَرُ مَا تَقَعُ هَذِهِ النَّوَافِرُ مِنَ الْقِصَاصِ. سُئِلَ بَعْضُهُمْ عَنْ أَرْبَعِينَ مَاشِيَةً نَصَفَهَا ضَاآنٌ وَنَصَفَهَا مَعَزٌ: كَيْفَ نَخْرِجُ زَكَاتَهَا؟ فَقَالَ: يَخْرُجُ عَنْهَا رَأْسٌ نَصَفَهَا ضَاآنٌ، وَنَصَفَهَا مَعَزٌ. وَقِيلَ لِبَعْضِهِمْ: إِنَّ نَصْرَانِيًّا قَالَ: لَا

(١) البيت بلا نسبة في الموشى، للشَّافِعِيِّ، ص ٣٤٣.

إله إلا الله لا غير ما يجب له وعليه؟ قال: يؤخذ منه نصف الجزية ويؤمر بأداء نصف ما على المسلمين من الفرائض والسُنن، وإن مات دُفِن بين مقابر اليهود والنصارى؛ كما قال تعالى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ [النساء: الآية ١٤٣] فهو من المذبذبين. وأُتِي بعض القصاص بنصراني يريد أن يُسلم، فقال: قُمْ عَنِّي، أتريدون أن تُوقعوا بيني وبين عيسى ابن مريم يوم القيامة. وسُئِل بعض القصاص عن لوط عليه السلام، فقال: كان رجلاً لوطياً نعوذ بالله من فعله؛ فأنكر عليه الناس ولامه بعض أصحابه بعد انصرافهم وأعلمه أن لوطاً نبيٌّ مُرْسَل بُعِثَ إلى قوم كان ذلك القبيح فعلهم، وأن لوطاً نهاهم عنه فندم على ما قاله، فلمَّا كان في المجلس الآخر سُئِل عن فرعون، فقال: دعونا من حديث الأنبياء واسألوا الله السَّلامة قومٌ لا رأيَناهم ولا رأونا، كيف نتكلَّم في أعراضهم. وسُئِل بعضهم: ما تقول في خلق القرآن؟ فقال: دعونا من القرآن وهو مخلوق غير مخلوق. وسُئِل آخر، وكان ناصبياً عن معاوية، فقال: معاوية ليس بمخلوق؛ لأنه كاتب الوحي، والوحي ليس بمخلوق، وكاتب الوحي من الوحي. وحَكَّى سعيد بن خالد اليماني، قال: كان عندنا قاضٍ يسمَّى أبا خالد، قال في دعائه يوماً: يا ساتر عورة الكبش لِمَا علم من فضله وصلاحه، وهاتك عورة التيس لِمَا عَلِم من قدره وفجوره استر علينا وارحمنا، واهتك ستر أعدائنا؛ ف قيل له: وما فضلة الكبش؟ قال: لأنه كبش إبراهيم الذي فدى به ابنه، ولا يذبح في العقيقة غيره؛ قيل له: فما ذنب التيس؟ قال: يشرب بوله وينزو على الشاة التي لم تستحقَّ التزو، ويؤذي الناس بنتن ريحه، ويعلم الناس الزُّنا، وهو عيب على أصحاب اللُّحى. يقال: جاء فلان في لحية التيس. وقرأ قارئ في مجلس سيفويه أنَّ فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين، فقال لمن حضره: ارفعوا أيديكم وقولوا: اللَّهُمَّ اجعلنا منهم. وقال الفضل بن إسحاق الهاشمي: سمعت قاصّاً وقد قرئ في مجلسه يتجرّعه ولا يكاد يسيغه، فقال: اللَّهُمَّ اجعلنا ممن يتجرّعه ويسیغه. وكان سيفويه ممن يتلاوط، فبينما هو يقصّ على الناس إذ أقبل جماعة صبيان حسان كأنهنَّ الياقوت والمُرْجان، فقال: يا أصحابنا أقبل العدو ارفعوا أيديكم وقولوا: اللَّهُمَّ ولنا أدبارهم، وكتبهم على وجوههم، وأرنا سواتهم، ومكّن رماحنا من ظهورهم إنك على كل شيء قدير، وسيفويه - بضم الفاء وفتح الياء - هكذا ضبطه الأمير أبو نصر بن ماکولا في كتاب الإكمال.

وممن تأخّرت معرفته من الحكّام وتقدّم جهله في القضايا والأحكام

حُكي أن عاملاً لمنصور بن النعمان كتب إليه من البصرة: إني أصبت سارقاً سرق نصاباً من حرز، فما أصنع فيه؟ فكتب منصور إليه: اقطع رجله، ودعه يكذب بيديه على عياله؛ فأجابه العامل: إن الناس يُنكرون هذا لقول الله تعالى في القرآن: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [المائدة: الآية ٣٨]، فكتب إليه: إن القرآن نزل من السماء، ونحن في الأرض، والشاهد يرى ما لا يرى الغائب. وتقدّم رجل إلى بعض القضاة بخصم، فقال: إن هذا باعني ثوباً وجدت فيه عيباً وسألته أن يقلني فأبى؛ فالتفت إليه القاضي وقال: أقله عافاك الله، فإن رسول الله ﷺ قال: «قليلوا فإن الشياطين لا تقيل». وقيل لقاضي حمص: كيف تحكم على اللوطي؟ قال: بنصف حكومة الزاني، قيل له: ولم؟ قال: لأنّ الحمار لا يحمل إلا نصف ما يحمل الجمل، وهذا حكم مفهوم. وأدعت امرأة على زوجها مهراً عند بعض القضاة، فأنكر فأمر القاضي أن يُجلد حدّين، قيل له: ولم حكمت بهذا؟ قال: لأنهما زنيا إن لم يكن بينهما مهر، قيل: فلا يجب على المرأة؟ قال: بلى، إنّ النخل إذا لم يحمل رأسها أُحرق أصلها. وتقدّم جماعة إلى قراقوش، وكان عاملاً لصلاح الدين على مصر ومعهم قتيل وثور ورجل مكتوف، فقالوا: أيها الأمير إن هذا الثور صال على هذا الرجل فقتله، وهذا مالكة وهو العاقلة؛ ففكر ساعة ثم أمر بالثور أن يُشنق ويُطلق صاحبه، قيل له: ما هذا حكم الله، فقال: لو جرى هذا في زمن فرعون ما فعل غير هذا، فإنه القاتل ولا يحلّ أن أقتل غير القاتل. وهذه الحكاية ذكرها القاضي الأسعد بن مماتي في كتابه الذي وضعه وسمّاه الفاشوش في إحكام قراقوش ذكر فيه من هذه الأحكام شيئاً كثيراً، والعهدة عليه في ذلك فيما حكى، والله أعلم.

وكان نصر بن مقبل عاملاً للرّشيد على الرّقة، فأُتي برجل من الظّرفاء وُجد ينكح شاة، فقال: أيها الأمير إنها والله ملك يميني، وقد قال الله تعالى: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ [النساء: الآية ٣]، فأطلقه وأمر أن تُضرب الشاة الحدّ، فإن ماتت تُصلب، قالوا: أيها الأمير إنها بهيمة، قال: وإن كانت بهيمة، فإنّ الحدود لا تُعطّل، وإن عطّلها فيئس الوالي أنا؛ فأنتهى خبره إلى الرّشيد ولم يكن رآه قبل فدعا به، فلما مثل بين يديه قال له: ممن أنت؟ قال: مولى لكلب؛ فضحك منه

ثم قال له: كيف بصرك بالحكم؟ قال: يا أمير المؤمنين الناس والبهائم عندي فيه سواء، ولو وجب الحد على بهيمة وكانت أمي أو أختي لحدّتها ولم تأخذني في الله لومة لائم، فعزله الرشيد وأمر أن لا يُستعان به في عمل، فلم يزل معطلاً إلى أن مات. وكان الربيع بن عبد الله العامري والياً على اليمامة، فبلغه أن كلباً قتل كلباً لآخرين، فأمر أن يقتل به؛ فقال فيه بعض الشعراء^(١): [الطويل]

شهدت بأن الله حقّ لقاءه وأن الربيع العامري رقيعُ
أفاد لنا كلباً بكلب ولم يدع دماء كلاب المسلمين تضيّع
وكان أبو الضحّاك ميمون قد وُلّي القضاء ببعض الأهواز، فأُتي برجل قد سرق فحدّه ثمانين، وأُتي برجل قذف فقطع يده، فقال فيه محمد بن مساور^(٢):
[السريع]

قد ذهب العلم وأشياعه إلا أبا الضحّاك ميمونا
يقطع كفّ القاذف المفترى ويجلد السارق ثمانينا

ومن التغفل الواقع من الشعراء في مدائح السادات والكبراء

قال الخفاجي في كتاب سرّ الفصاحة: ينبغي للشاعر ذي التمييز في فنه والتبريز أن لا يعبر عن المدح بالألفاظ المستعملة في الذم، ولا يعبر في الذم بالألفاظ المستعملة في المدح، بل يستعمل في جميع الأغراض الألفاظ الثلاثة بها في موضع الجدّ ألفاظه، وفي موضع الهزل ألفاظه؛ ألا ترى أنّ الإنسان إذا مدح ذكر الرأس والهامة والكاهل، وإذا هجا ذكر الأخادع والقفا والقذال، وإن كانت معاني الجميع متقاربة، فقبيح بالشاعر وغيره أن يقول للملك: وحقّ قذالك مكان وحقّ رأسك؛ لأن الاستعمال مختلف في الألفاظ، وأن كان في المعنى غير مختلف؛ فمن السقطات المعدودة في ذلك قول أبي نواس^(٣): [مجزوء الرمل]

جاء بالأموال حتى حسبه الناس حمقا

(١) البيتان لحميد بن ثور الهلالي في ديوانه، وهما بيتان منفردان.

(٢) البيتان لم أجدتهما في المصادر والمراجع التي بين يدي.

(٣) البيت في ديوان أبي نواس، من قصيدة مطلعها:

عجباً لي كيف أبقي ولقد أثخنّت عشقا

وكقول أبي تمام^(١): [الكامل]

ما زال يهدي بالمكارم دائبًا حتى ظننا أنه مخمومٌ

وكقوله^(٢): [الخفيف]

يا أبا جعفر جُعِلَتْ فداكا فاق كل الوجوه حُسن قفاكا

إلى غير ذلك من شعر المولدين والمحدثين والعصريين؛ فالحُمق ويهدي ومحموم من الألفاظ اللائقة بالهجاء، وقد سقط المتنبي في افتتاحه قصيدة مدح بها كافورًا الإخشيدي؛ إذ قال^(٣): [الطويل]

كفى بك داء أن ترى الموت شافيًا وحسب المنايا أن تكون أمانيا

قلت: وقد أشبه ما عيب ما حُكي أنّ زبيدة ابنة جعفر بن أبي جعفر المنصور أنشدها قاصد من الأعراب، فقال^(٤): [مجزوء الكامل]

أزبيدة ابنة جعفر طوبى لسائلك المُثاب

تُعطين من رجليك ما تعطي الأكف من الرغاب

فوثب إليه خدمها وهموا بضربه، فمنعتهم من ذلك، وقالت: أراد خيرًا فأخطأ، وهو أحب إلينا ممن أراد شرًا فأصاب سمع قولهم: شمالك أندى من يمين غيرك، فظن أنه إذا قال هكذا كان أبلغ أعطوه ما أمل، وعرفوه ما جهل. وعاب الفضل بن يحيى على أبي نواس قوله في قصيدة مدحه بها^(٥): [الطويل]

سأشكو إلى الفضل بن يحيى بن خالد هواكم لعل الفضل يجمع بيننا

فقال له الفضل: ما زدت على أن جعلتني قوادًا؛ فقال: إنه جُمع تفضّل لا جُمع تواصل. وقد تابعه أبو الطيّب المتنبي في قوله من قصيدة يمدح بها سعيد بن

(١) البيت في ديوان أبي تمام، من قصيدة مطلعها:

أسقى طلولهم أجش هزيمٌ وغدت عليه نضرة ونعيمٌ

(٢) البيت في ديوان أبي تمام، من قصيدة مطلعها:

يا أبا جعفر أقرّ لك الحسب من وحلت جيوشه في ذراكا

(٣) البيت في ديوان المتنبي، وهو مطلع القصيدة.

(٤) البيتان بلا نسبة في عيار الشعر، لابن طباطبا العلوي، ص ١٤٨.

(٥) البيت في ديوان أبي نواس، من قصيدة مطلعها:

طرحتهم من الرجال ذكرًا فغمنا فلو قد شخستم صبح الموت بعضنا

كلاب^(١): [البسيط]

علَّ الأمير يرى ذلِّي فيشفع لي إلى التي صيَّرتني في الهوى مثلاً
وعِيبَ عليه أيضًا قوله من قصيدة يمدح بها سيف الدولة بن حمدان^(٢):
[الخفيف]

ليت أنا إذا ارتحلت لك الخيـ ل وأنا إذا نزلت الخيام
فإنه أنزل نفسه منزلة الأنملة، وعبر عن همته بالقللة بجعلها مركوبة، ولم
يُكفِه ذلك حتى ألبس الممدوح شعاره، وأكسبه عاره، بجعله راكبًا تارة ومركوبًا
أخرى، واتَّصف بصفات المدح التي هو بها أخرى، فأساء الأدب وأخطأ الطريق،
وعدم الرشد ويؤمن التوفيق. ودخل بعضهم على رئيس الرؤساء أبي الغنائم، فأنشده
قصيدة جاء منها^(٣): [الوافر]

فسبحان الذي أعطاك مُلكاً وعلمك الجلوس على السرير
وتمامه: [الوافر]

أتذكر إذ لباسك جلد شاة وإذ نغلاك من جلد البعير
فقال له رجل من الجلساء: أتقول مثل هذا للرئيس، لا أم لك؟ فقال: والله
ما ظننت أنني قلت عيبًا غير أنني مدحت الرئيس بما مدحت به؛ فضحك منه
ووصله، وهذان البيتان ذكرهما الجاحظ في كتاب البيان والتبيين لأعشى همدان،
وأنشد قبلهما: [الوافر]

فلست مسلمًا ما دمت حيًّا على زيد بتسليم الأمير
أمير يأكل الفالوذ سرًّا ويُطعم ضيفه خبز الشعير
وحدث أحمد بن إسماعيل بن الخصيب، قال: دخلت على سليمان بن
وهب بأبيات أعزَّيه فيها عن أمه، فأخذت في إنشادها، فقال: أنا أعزُّك الله في

(١) البيت في ديوان المتنبي، من قصيدة مطلعها:

حيًّا وأيسر ما قاسيت ما قتلا
والبين جار على ضعفي وما عدلا

(٢) البيت في ديوان المتنبي، من قصيدة مطلعها:

أين أزمعت ألهذا الهمام
نحن نبت الربى وأنت الغمام

(٣) الأبيات بلا نسبة في البيان والتبيين، للجاحظ، ٢/ ٢٨٧.

مصائب قد انثالت عليّ من كل جانب؛ قلت: وما هي، أطال الله بقاءك؟ قال:
ماتت أُمِّي وَغَيَّرَ رَسْمِي، وَرَثِي مِيتِي بِمِثْلِ هَذَا الشَّعْرِ، وَرَمِي لِي رَقْعَةٌ مَكْتُوبٌ
فِيهَا^(١): [الطويل]

لَأُمِّ سَلِيمَانَ عَلَيْنَا مَصِيبَةٌ مَجْلَلَةٌ مِثْلُ الْخُسَامِ الْبَوَاتِرِ
وَكَنتُ سِرَاجَ الْبَيْتِ يَا أُمَّ سَالِمَ فَأَضْحَى سِرَاجَ الْبَيْتِ بَيْنَ الْمَقَابِرِ
فَاشْتَغَلْتُ بِالضَّحْكَ عَنِ الْبُكَاءِ، وَالتَّسْلَى عَنِ الْعَزَاءِ، وَكَانَ الشَّعْرُ لِأَبِي أَيُّوبَ
وَاسْمُهُ صَالِحُ بْنُ شَهْرِيَّارِ بْنِ أُخْتِ أَبِي الْوَزِيرِ. وَمَدَحَ بَعْضُهُمْ أَمِيرًا، فَقَالَ^(٢):
[مجزوء الكامل]

أَنْتَ الْإِمَامُ الْأَرِيحِيُّ الْوَاسِعُ ابْنُ الْوَاسِعَةِ
فَقِيلَ لَهُ: مِنْ أَيْنَ عَرَفْتَ هَذَا؟ قَالَ: سَمِعْتُ النَّاسَ يَثْنُونَ عَلَيْكَ بِذَلِكَ.

وَمِنْ شَوَارِدِ هَذَا النَّوعِ وَأَفْرَادِهِ مَا يَفِي بِغَرَضِ الْمَتَامَلِ وَمُرَادِهِ

مَا حُكِيَ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ رَوَاحَةَ رَأَتْهُ امْرَأَتُهُ عَلَى بَطْنٍ جَارِيَةٍ لَهُ، فَخَرَجَتْ
وَشَحَذَتْ شَفْرَةً ثُمَّ دَخَلَتْ إِلَيْهِ تَرِيدُ قَتْلَهُ، فَوَجَدَتْهُ قَدْ خَرَجَ مِنْ عِنْدِهَا، فَقَالَ
لَهَا: مَهِيمٌ، فَقَالَتْ: أَمَا أَنِّي لَوْ وَجَدْتُكَ حَيْثُ كُنْتَ لَوَجَّأتُ بِهَا بَطْنُكَ؛ فَقَالَ
لَهَا: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ نَهَانَا أَنْ يَقْرَأَ أَحَدُنَا الْقُرْآنَ جَنْبًا، قَالَتْ: اقْرَأْ؛
فَأَنشَدَ^(٣): [الطويل]

أَتَانَا رَسُولُ اللَّهِ يَتْلُو كِتَابَهُ كَمَا لَاحَ مَشْهُورٌ مِنَ الصُّبْحِ سَاطِعُ
أَتَى بِالْهَدَى بَعْدَ الْعَمَى فَقَلْبُونَا بِهِ مَوْقِنَاتٌ أَنْ مَا قَالَ وَقَعُ
يَبِيتُ يَجَافِي جَنْبَهُ عَنْ فَرَاشِهِ إِذَا مَا اسْتَقَرَّتْ بِالْجُنُوبِ الْمَضَاجِعُ

(١) البيت الثاني لأبي أيوب ابن أخت أبي الوزير في ربيع الأبرار، للزمخشري، ص ١٢٧٠.

(٢) البيت لم أجده في المصادر والمراجع التي بين يدي.

(٣) الأبيات في ديوان عبد الله بن رواحة، برواية:

وفينا رسول الله يتلو كتابه إذا انشَقَّ معروفٌ من الصبح ساطعُ
أرانا الهدى بعد العمى فقلوبنا به موقنات أن ما قال واقعُ
يبيت يجافي في جنبه عن فراشه إذا استقلت الكافرين المضاجعُ
وأعلم علمًا ليس بالظن أنني إلى الله محشور هناك وراجعُ

فلما سمعت مقاله، قالت: آمنت بالله وكذبت بصري؛ فأخبر بذلك عبد الله بن رواحة رسول الله ﷺ، فضحك حتى بدت نواجذه. وأسر عتاب بن ورقاء جماعة من الخوارج فوجد فيهم امرأة، فقال: وأنت يا عدوة الله ممّن مرق من الدين، وخرج على المسلمين؟ أما سمعت قول الله تعالى^(١): [الخفيف]

كتب القتل والقتال علينا وعلى الغانيات جزّ الذبول

فقلت: حسن معرفتك بكتاب الله، دعانا إلى الخروج عليك يا عدو الله. وصعد المنبر بأصبهان فخطب، وقال في أثناء خطبته، وذلك كما قال الله في كتابه العزيز^(٢): [الخفيف]

ليس شيء على المئون بباقي غير وجه المسبّح الخلّاق

فقال له رجل: ليس هذا قول الله، إنما هو قول عدي بن زيد؛ قال: فنعم والله ما قال عدي. ومثل ذلك ما حكى أن علي بن زياد الإيادي قال في بعض خطبة: أقول لكم كما قال العبد الصالح: ما أريكم إلا ما أرى، وما أهديكم إلا سبيل الرشاد؛ فقام إليه إنسان وقال: ما هذا قول عبد صالح، إنما هو قول فرعون؛ فقال: من قال هذا فقد أحسن. وأمّ رجل من الظرفاء يقوم أيتامًا، وكانوا من التغفل بمكان، فكانوا يطعمونه الخبز والكامخ لا يزيّدونه عليهما شيئًا، فصلّى بهم يومًا الصبح؛ فقرأ في الركعة الأولى بعد الفاتحة: يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولا تطعموا أمتكم كامخًا بل لحمًا، فإن لم تجدوا لحمًا فشحمًا، فإن لم تجدوا شحمًا فبيضًا، ومن لم يفعل ذلك فقد ضلّ ضلالًا بعيدًا، وخسر خسرانًا مبينًا؛ وقرأ في الركعة الثانية: فإن لم تجدوا بيضًا فسمكًا واطبخوه سكباجًا، فإن لم تجدوا سمكًا فلبنًا ولا تحمّضوه تحميضًا، ومن يفعل ذلك فقد افترى إثمًا عظيمًا؛ فلما فرغ من صلاته جاؤوه واعتذروا إليه من التقصير في حقّه، وأنهم لم يكن عندهم علم بأن الله أنزل في الوصية بالأئمة شيئًا، وسألوه في أيّ سورة هذه الآيات؟ فقال لهم: في سورة المائدة. وكان بعض الحمقى يتعشّق جارية، فهام بها دهرًا لا يقدر على الوصول إليها، فزارته يومًا فنام وتركها، فقالت له: ويحك ما

(١) البيت لعمر بن أبي ربيعة في ديوانه، من قصيدة مطلعها:

إنّ من أكبر الكبائر عندي قتل بيضاء حرة عطبول

(٢) البيت لعدي بن زيد في ديوانه، وهو مطلع القصيدة.

دعاك إلى التَّوَم وقد ظفرت بمن تهواه؟ فقال: يا سيدتي أتناوم لعلِّي أراك أيضًا في المنام؛ كما قال الشاعر^(١): [الطويل]

وإني لأستغشي وما بي نغسة لعلّ خيالاً منك يلقى خيالها

وكتب آخر إلى محبوبته: إن رأيت أن تزورينا عصمنا الله وإياك فافعلي؛ فكتبت إليه: يا أحمق متى عصمنا لا نجتمع أبدًا. ووقع بين سليمان بن مروان الأعمش وبين زوجته وحشة، فسأل بعض أصحابه الإصلاح بينهما، فدخل إليها وقال: إن أبا محمد شيخنا وفقهنا، فلا يزهّدك فيه عموشة عينيه، وتثن إبطينه، ويخر شديقه، وحمود كفيه، وحموشة ساقيه؛ وذلك بمزأى من الأعمش ومسمع منه، فقال له الأعمش: كُفْ لا أم لك، فقد ذكرت لها من عيوبي ما لم تكن تعرفه. وذكر أنّ عبد الله بن فضلوليه، وكان عامل قزوين أنشد يومًا^(٢): [البسيط]

يوم القيامة يوم لا دواء له إلا الطلاء وإلا الطيب والطرب

فقال له من حضره: أخطأت إنما هو يوم الحجامة، فقال: اعذروني، فإني لا أعرف أيهما. باع بعض المتجلفين بستانًا، واشترى بثمانه حمارًا، فقال له صاحب له: بعت ما كان يعلفه السماء فيعوضك الشعر، واشتريت ما تعلفه الشعر فيعوضك الماء. ومن هذا الباب تجلّف أبي غبشان، وكان سادًا للكعبة، فإنه باع الكعبة بزق خمر حتى ضرب به المثل في التجلّف، ففيل أخسر صفقة من أبي غبشان، وتجلّف سلم الخاسر فإنه باع مصحفًا واشترى بثمانه طنبورًا، ففُضِرَ به المثل، ففيل: أخسر من سلم.

الفصل الثالث من الباب الثامن

في أن أنواع التغفل والبَلَه ستور على الأولياء مسبلة

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾ [الحُجَرَات: الآية ١١]، وقال ﷺ: «رُبَّ

(١) البيت لقيس بن ذريح في ديوانه، من قصيدة مطلعها:

ألا حيّ لبنى اليوم إن كنت غاديًا وألمم بها من قبل أن لا تلاقيا
ولمجنون ليلى في ديوانه، من قصيدة مطلعها:

ألا يا غراب البين ما لك كلّما تذكّرت ليلى طرت لي عن شماليا

(٢) البيت لم أجده في المصادر والمراجع التي بين يدي.

أشعث أغبر ذي طمرين لو أقسم على الله لأبره»^(١)، وقال عيسى عليه السلام للحواريتين: كونوا بلهًا كالحمّام، حلمًا كالحيّات. وقال رسول الله ﷺ: «أطلعت على الجنة فرأيت أكثر أهلها البله»^(٢). قال العلماء: هم البله في طلب الدنيا إلا كياس في طلب الآخرة.

فمنهم عليان الذي كان قلبه مع الخلق وقلبه مستغرقًا في أسرار الحق

يُحكى عنه أن رجلًا قال له: مَنْ العاقل؟ وهو يهزأ به، فقال: مَنْ حاسب نفسه وراقب ربه. وقال حفص بن عتاب قاضي الكوفة: مررت بعليان وهو جالس في السوق، فلما رأيته قال: مَنْ أراد أن يتعجل سرور الدنيا والنار في الآخرة فليتمنّ ما هذا فيه، قال ابن عتاب: والله لقد تمّنت لما سمعت كلامه أن أُمّي لم تلدني، أو أُنّي مُت قبل أن أليّ القضاء. وقال لأبي الوفاء وقد مرّ به: رأيناك أَسْمَنَ دابّتك وأهزلت دينك، أما والله إن أمامك لعقبة كؤودًا لا يجوزها إلا المخفون. وعن ابن أبي فُديك قال: رأيت عليان قد دلّى رجله في قبره، وهو يلعب بالتراب؛ فقلت له: ما تصنع ههنا؟ قال: أجالس أقوامًا لا يؤذونني إن حضرت، ولا يغبونني إن غبت؛ فقلت: قد غلا السّعر فهلّا تدعو الله فيكشف عنا الضرّ؟ فقال: والله لا أبالي ولو حبة بدينار، إنّ الله أخذ علينا العهد أن نعبده كما أمر، وأنّ عليه رزقنا كما وعد؛ ثم صفق بيديه وقام قائلاً^(٣): [البسيط]

يا من تمتّع بالدنيا وزينتها ولا تنام عن اللذات عيناه
شغلت نفسك فيما ليس تُذكره تقول لله ماذا حين تلقاه

وُروى هذه الحكاية عن بهلول الآتي ذكره. وقال الحسن بن سهل بن منصور: رأيت الصّبيان يرمون عليان بالحجارة، فأدماه حجر منهم، فقال^(٤):

(١) أخرجه ابن ماجه في الزهد باب ٤، والترمذي في المناقب باب ٥٤، وأحمد في المسند ١٤٥/٣، ٤٠٧/٥.

(٢) الحديث لم أجده بهذا اللفظ في كتب الحديث التي بين يدي.

(٣) البيتان في كتاب عقلاء المجانين، لابن حبيب النيسابوري، ص ١٣٥؛ ولبهلول المجنون في فوات الوفيات، لابن شاکر الكتبي، في ترجمته.

(٤) الأبيات لبهلول المجنون في فوات الوفيات، لابن شاکر الكتبي، في ترجمته.

[الرمل]

حسبي الله توكلت عليه من نواصي الخلق طرأ في يديه
ليس للهارب في مهربه بدا من راحة إلا إليه
رُب رام لي بأحجار الأذى لم أجد بُداً من العطف عليه

فقال له رجل: تعطف عليهم وهم يرمونك بالحجارة؟ فقال: اسكت لعل الله
يطلع على غمي ووجعي وشدتي فيفرح هؤلاء ويهب بعضاً لبعض. ومن شعره^(١):
[الخفيف]

أفلح الزاهدون والعابدونا إذ لمولاهم أجاعوا البُطونا
أقرحوا لأعين القريرة شوقاً فمضى ليلهم وهم ساجدون
حيّرتهم مخافة الله حتى زعم الناس أنّ فيهم جنونا

وممن كانت نفسه عن الشبهات مكفوفة

يهلول المعدود من مجانيں الكوفة

قال عبد العزيز المتكلم؛ رأيت بهلولاً يوماً باكراً، فقلت: يا بهلول كيف
أصبحت؟ قال: بخير، أنتظر لقاء من يوجب الأجر، ويحطّ الوزر، ويشدّ الأزر؛
ثم قال لي: يا عبد العزيز أحسن مجاورة النعم بالشكر عند الرّخاء، والصّبر عند
البلاء. ولما دخل الرشيد الكوفة خرج الناس لينظروا إليه، فناداه بهلول: يا هارون
- ثلاثاً - فقال الرشيد: من يجترئ علينا في هذا الموضع؟ ف قيل له: بهلول، فرفع
طرف السجف وقال: أدن، فقال: يا أمير المؤمنين روينا بالإسناد عن قدامة بن
عبد الله العامري، قال: رأيت رسول الله ﷺ رمى جمرة العقبة لا ضرب ولا طرد
ولا قيل بين يديه ولا إليك إليك^(٢)، وتواضعك في شرفك هذا خير من تجبرك
وتكبرك؛ قال: فبكى الرشيد حتى بدت دموعه على الأرض، وقال: أحسنت يا
بهلول زدنا يرحمك الله، قال: روينا عنه ﷺ أنه قال: «أيما رجل آتاه الله مالاً
وسلطاناً وجمالاً فأنفق من ماله، وعفّ في جماله، وعدل في سلطانه، كتب في

(١) الأبيات لم أجدها في المصادر والمراجع التي بين يدي.

(٢) أخرجه الترمذي في الحجج باب ٦٥، والنسائي في المناسك باب ٢٢٠، وابن ماجه في المناسك
باب ٦٦، والدارمي في المناسك باب ٦٠.

ديوان الله من الأبرار»^(١)، قال الرشيد: أحسنت يا بهلول، وأمر له بجائزة، فقال: ارددها على مَنْ أخذتها منه، فلا حاجة لي بها، قال: يا بهلول إن كان عليك دين قضيته عنك، قال: يا أمير المؤمنين إن هؤلاء أهل الرأي بالكوفة أجمعوا على أن قضاء الدين بالدين لا يجوز، قال: فهل لك أن أجري عليك رزقاً يقوم بك ويكفيك؟ فرفع طرفه إلى السماء وقال: يا أمير المؤمنين أنا وأنت عيال الله؛ ثم تركه ومضى، وهذه الحكاية لذوي العقول كافية، وللقلوب من أدواء الذنوب شافية.

ومن مشاهير هذه الطائفة سعدون الطالب للعلا والراغب عن الدون

روى خالد بن عبد الله الطوسي، قال: لما حجَّ هارون الرشيد فُرش له من جوف العراق إلى مكة لبود مرعزية، فمشى عليها لقضاء نذر وجب عليه، فاستند يوماً إلى زميل من تعب ناله، وإذا بسعدون قد عارضه وهو يقول^(٢): [الهج]

هب الدنيا تواتيكا أليس الموت يأتيكا
فما تصنع بالدنيا وظل الميل يكفيكا
ألا يا طالب الدنيا دغ الدنيا لشانيكا
كما أضحكك الدهر كذاك الدهر يُبكيكا

فبكى هارون، وقال: الويل لنا إن لم يغف الله عنا. وقال عيسى بن علي: رأيت سعدوناً والصبيان يرمونه بالحجارة، فصرفتهم عنه، فقال لي بعض الصبيان: إنه يزعم أنه يرى ربه، فقلت له: ما تسمع مقالة الصبيان؟ فقال: يا أخي مُدِّ عرفت الله ما فقدته؛ ثم قال^(٣): [الخفيف]

زعم الناس أنني مجنون كيف أسلو ولي فؤاد مَصُونُ
علق القلب بالبكا في الدِّياجي وهو بالله مُغرم محزونُ

وعن عطاء بن سعيد، قال: كتب سعدون إلى والينا: أما بعد، يا هذا إن لم تَسْتَحِ مِنَ الخلق فاستَحِ مِنَ الخالق، واحذر سهماً من سيهامه، فإنَّ سهامه لا

(١) الحديث لم أجده بهذا اللفظ في كتب الحديث التي بين يدي.

(٢) الأبيات في كتاب عقلاء المجانين، لابن حبيب النيسابوري، ص ١١٦.

(٣) البتآن في كتاب عقلاء المجانين، ص ١٢١.

تُخطيء، ولا يغرّنك حلمه عنك، فإنه إن عاقبك أهلكك وهتكك؛ ثم كتب عنوان: إنَّ السمع والبصر والفؤاد كلَّ أولئك كان عنه مسؤولاً. وقال إسماعيل بن عطاء: مررت بسعدون فلم أسلم عليه، فنظر إليّ وقال^(١): [الكامل]

يا ذا الذي ترك السلام تعمّداً ليس السلام بضائرٍ من سلّمه
إنَّ السلام تحيّة مبرورة ليست تحمّل قائلها مغرماً

ورؤي سعدون يكتب بفحم على جدار^(٢): [الكامل]

ما حال من سكن الثرى ما حاله أمسى وقد رثت هناك حباله
أمسى ولا روح الحياة تُصيبه أبداً ولا لطف الحبيب يناله
أمسى وقد درست محاسن وجهه وتفرقت في قبره أوصاله
واستبدلت منه المحاسن غبرة وتقسّمت من بعده أمواله
ما زالت الأيام تلعب بالفتى والمال يذهب صفوه وحلاله

وكان إذا اشتدَّ به الجوع رمق بطرفه إلى السماء، وقال^(٣): [الوافر]

أتركني وقد آليت حلفاً بأنك لا تضيع من خلقتنا
وأنت ضامنٌ للرزق حتى تؤذي ما ضمننت وما قسمتنا
فإنني واثقٌ بك يا إلهي ولكن القلوب كما علمتنا

ومن محاسن أخبارهم، وأحاسن آثارهم التي هي للقلوب المححلة ربيع، وللصدر الصدئة غيث مريع، ما حُكي أن سمنون قال لرجل يعظه: اجعل قبرك خزانة، واحشها من كل عمل صالح، فإذا وردت على ربك سرّك ما ترى. ومن كلامه: إذا بسط الجليل بساط العفو دخلت ذنوب الأولين والآخرين تحت حواشيه، وإذا بدت ذرة من عين الجود ألحقت المسيئين بالمُحسنين. ومن شعره^(٤): [الوافر]

لئن أمسيت في ثوبي عديمٌ لقد بلياً على حُرّ كريمٍ
فلا يحزنك إن أبصرت حالاً مغيرة عن الحال القديم

(١) البيتان في كتاب عقلاء المجانين، ص ١٠٥. (٢) البيتان في كتاب عقلاء المجانين، ص ١٠٨.

(٣) البيتان في كتاب عقلاء المجانين، ص ١٢٠. (٤) البيتان في كتاب عقلاء المجانين، ص ٢١٩.

وقيل لشقران: مَنْ الحكيم؟ قال: الذي لا يتعرّض للعذاب الأليم، قيل: وما العذاب الأليم؟ قال: البُعد عن الربِّ الكريم. وقال بعضهم: رأيت فليئًا والصَّبيان حوله يُؤذونه ويرمون به بالحجارة، وهو يقول: ولَمَن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور. وقال أبو همام إسرائيل بن محمد القاضي: رأيت سابقًا المعتوه، وهو يكتب على حائطٍ بالفحم هذه الأبيات^(١): [الطويل]

نظرت إلى الدنيا بعينٍ مريضةٍ وفكرة معتوه وتأميل جاهل
فقلت هي الدنيا التي ليس مثلها وناfst منها في غرورٍ وباطل
وضيعت أيامًا طَوَالًا كثيرة بلذات أيام قصار قلائل

وقيل لمجنون: فِيمَ يسعى هذا الخلق؟ قال: في طلب ما لا يكون من الدنيا؛ قيل: فما يطلبون؟ قال: الراحة، وذلك ما لا يجدون.

(١) الأبيات لنقرة المجنون في كتاب عقلاء المجانين، لابن حبيب النيسابوري، ص ٢١٣.

الباب التاسع

في السخاء

وفيه ثلاثة فصول:

الفصل الأول من هذا الباب

في أن التبرّع بالنائل مِنْ أشرف الخلال والشّمائل

قال رسول الله ﷺ: «الجُود من جود الله، فجودوا يَجِد الله عليكم. ألا إنَّ السَّخاء شجرة في الجنة أغصانها مُدلاة في الأرض؛ فمن تعلّق بغصنٍ منها أدخله الجنة. ألا وإن السخاء من الإيمان، والإيمان في الجنة»^(١)، رواه أبو بكر أحمد بن عليّ بن ثابت الخطيب بإسناد متصل في كتاب البخلاء له.

وقال ﷺ: «تجاوزوا عن ذنب السخيّ، فإنّ الله أخذ بيده إذا عثر؛ إنّ السخيّ قريب من الله، قريب من الناس، قريب من الجنة، بعيد من النار، ولجاهلٌ سخيٌّ أحبّ إلى الله من عالمٍ بخيل»^(٢). وقال ﷺ: «الخلق كلهم عيال الله، وأحبّ الخلق إلى الله أنفعهم لعياله»^(٣). ورُوِيَ أنّ رسول الله ﷺ أتى بأسرى من بني العنبر، فأمر بقتلهم وأفرد منهم رجلاً، فقال عليّ رضي الله عنه: يا رسول الله الربّ واحد، والدّين واحد، والذّنْب واحد، فما بال هذا من بينهم؟ فقال عليه الصّلاة والسّلام: «نزل عليّ جبريل ﷺ، فقال: اقتل هؤلاء واترك هذا، فإنّ الله شكر له سخاء فيه»^(٤). وقال ﷺ: «أحبّ العباد إلى الله مَنْ حُبّب إليه المعروف، وإنما سُمّي المعروف معروفاً لأنّ الكرام عرفته فألفقته، والسخاء

(١) أخرجه الزبيدي في إتحاف السادة المتّقين ٨/١٩٥، والمتقي الهندي في كنز العمال ١٦٢١٧.

(٢) أخرجه الزبيدي في إتحاف السادة المتّقين ٨/١٧٤، والمتقي الهندي في كنز العمال ١٢٩٨٣.

(٣) أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد ٨/١٩١، وابن عدي في الكامل في الضعفاء ٧/٢٦١٠، ٢٦١١.

وابن كثير في البداية والنهاية ١٠/٢٧٥.

(٤) أخرجه الزبيدي في إتحاف السادة المتّقين ٨/١٧٥، والمتقي الهندي في كنز العمال ٢٠١١٢.

سخاءً: سخاء نفس الرجل بما في يده يَصُون به عرضه عن ذم اللثام، وتركه ما في أيدي الناس يغلق عنه باب الملام وهوان جمعهما، فقد وهب شرف أخلاق الكرام، وتواطأ على مدحه الخاص والعام^(١). ويقال في مدح مثل هذا: فلان بماله متبرّع، وعن مال غيره متوزّع. ويقال: مراتب العطاء ثلاث: سخاء وجود وإيثار، فالسخاء إعطاء الأقل وإمساك الأكثر، والجود إعطاء الأكثر وإمساك الأقل، والإيثار إعطاء الكل من غير إمساك لشيء وهذه أشرف الرتب وأعلاها، وأحقها بالمدح وأولاها، فإن إيثار المرء غيره على نفسه أفضل من إيثار نفسه على غيره، وكفى بهذه الخلّة شرفاً مدح الله تعالى أهلها في قوله: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شَعْنَهُ نَفْسُهُ قُلُوبُكَ هُمْ الْمُقِلُّونَ﴾ [الحشر: الآية ٩]. وقالوا: الجواد مَنْ لم يكن جوده لدفع الأعداء، وطلب الجزاء؛ كما قال عبد الله بن جعفر: أمطر معروفك، فإن أصاب الكرام كانوا له أهلاً، وإن أصاب اللثام كنت له أهلاً.

فمما ورد عن ذوي الإفضال في الحث على العطاء والتوال ما ذكر عن عبد الملك بن مروان أنه كان يقول لنيه: يا بني أُمِية إن المؤمن الكريم يتقي عرضه بماله، فلا تبخلوا إذا شئتم، فإن خير المال ما أفاد حمداً أو نفى ذمّاً، ولا يقولن أحدكم ابداً بِمَنْ تَعُول، فإنما الناس عيال الله تكفل بأرزاقهم، فمن وسّع وسّع عليه، ومن ضيق ضيق عليه؛ ثم تلا قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الْكَافِرِينَ﴾ [سبأ: الآية ٣٩]، فبالله للعجب ما أشد ما باين قول هذا الخليفة فعله، وخالف سخاؤه بخله، وكيف قسم خليفته بين الإيجاب والسلب، وخصّ لسانه بالمدح وقلبه بالثلب. وقال زهير بن جزيمة لولده: عليكم باصطناع المعروف واكتسابه وتلذذوا بطيب نسيمه ورضابه، وارضوا مودات الرجال من أثمانه، فرُب رجل قد صفر من ماله فعاش هو وعقبه في الذكر الجميل. وقال شاعر في مثل هذا^(٢): [الطويل]

إذا كنت ذا حظٍّ من المال فاكسب به الأجر وارفع ذكر أهل المقابر

(١) أخرجه الزبيدي في إتحاف السادة المتقين ٨/٢٦٣، ٤٤٨.

(٢) البيت لم أجده في المصادر والمراجع التي بين يدي.

الفقيه منصور يرثي^(١) : [الطويل]

سألت رسوم القبر عمَّن ثوى به لا علم ما لاقى فقالت جوانبُه
أتسأل عمَّن عاش بعد وفاته بمعرفه إخوانه وأقاربُه
وقال أبو نصر الميكالي^(٢) : [الكامل]

الجود رأي موفّق ومسدّد والبذل فعل مؤيّد ومعانٍ
والبرّ أكرم ما وعثه حقيبة والشكر أفضل ما حوَّته يدانٍ
وإذا الكريم مضى وولى عمره كفل الثناء له بعُمُر ثانٍ

وقال بعض الأعراب: الدّراهم مياسم تسم حمداً وذمّاً، فمن حبسها كان لها، ومَنْ أنفقها كانت له. أخذ شاعر هذا المعنى، فقال^(٣) : [الطويل]

إذا المرء لم يعتق من المال نفسه تملكه المال الذي هو مالْكُه
ألا إنما مالي الذي أنا منفقٌ وليس لي المال الذي أنا تاركُه

وأوصى قيس بن معديكرب بنيه، فقال: يا بُنَيَّ عليكم بهذا المال، فاطلبوه أجمل الطلب، ثم أخرجوه في أجمل مذهب، فصلُّوا به الأرحام، واصطنعوا به الكرام، واجعلوه جنة لأعراضكم، ووسيلة تصلون بها إلى أغراضكم، تحسن في النار مقالّتكم، فإن بذله تمام الشرف وثبات المروءة، وأنه ليسود غير السيّد، ويقوّي غير الأيّد، حتى يكون في الناس نبيلًا، وفي القلوب مهيبًا جليلًا.

وقال الجاحظ: ليس شيء ألدّ ولا أسرّ ولا أنعم من عزّ الأمر والنهي، ومن الظّفر بالأعداء، ومن تقليد عقود المنن في أعناق الرجال؛ لأنّ هذه الأمور هي نصيب الروح وحظّ الذهن وقسمة النفس، فإن أحببت أن يزداد في الإحسان إليك وأن يثبت لديك ما أنعم الله به عليك، فاقض حاجة مَنْ قصّدك، وابسط له بالبشر وجهك وبالمعروف يدك. وقال الحجاج في بعض خطبه: لا يملن أحدكم المعروف، فإنّ صاحبه يعوّض خيرًا منه إمّا شكرًا في الدنيا، وإمّا ثوابًا في الآخرة. وكان يقال: المعروف كنز لا تأكله النار، وثوب لا يدنسه العار. وقال الأحنف بن

(١) البيتان في ديوان منصور بن إسماعيل الفقيه، وهما بيتان منفردان.

(٢) الأبيات في خزنة الأدب، لعبد القادر البغدادي، ص ٥٩١.

(٣) البيتان لأبي العتاهية في الوافي بالوفيات، لصلاح الدين الصفدي، في ترجمته، وليس في ديوانه.

قيس: ما أدخر الآباء للأبناء، ولا أبقت الأموات للأحياء أفضل من المعروف عند ذوي الأحساب والآداب. وكان يقال: إنما مالك لك أو للحاجة أو للورثة، فلا تكن أعجز الثلاثة. وقال بشار بن بُزْد من قصيدة مدح بها خالد بن برمك^(١):
[الطويل]

أخالد إن المال يبقى لأهله جمالاً ولا يبقى الكنوز مع الحمدِ
فأطعم وكل من عارة مستردة ولا تُبقِها إن العواري للردِّ
المتنبى^(٢): [الطويل]

وأحسنُ شيء في الوري وجه محسن وأئمن كفّ فيهم كفّ مُنعمِ
وأشرفهم من كان أشرف همّة وأعظم إقداماً على كلّ معظِمِ
لمن تطلب الدنيا إذا لم ترد بها سرور محبٍّ أو إساءة مُجرِمِ
بعضهم^(٣): [الطويل]

إذا المال لم ينفع صديقاً ولم يصب قريباً ولم يجبر به حال معدِمِ
فعقباه أن تحتازه كفّ وارث وللباخل الموروث عقبى التندّمِ
محمود الوراق^(٤): [المتقارب]

تمتع بمالك قبل الممات وإلا فلا مال إن أنت مُتّا
شقيت به ثم خلفته لغيرك سحقاً وبعداً ومقتا
يجود عليك برور البكاء وجدت له بالذي قد جمعتا
وأوهبته كل ما في يديك وخلاك رهناً بما قد كسبتا

(١) البيتان في ديوان بشار بن برد، من قصيدة مطلعها:

لعمرى لقد أجدى عليّ ابن برمك وما كل من كان الغنى عنده يجدي
ورواية البيت الأول في الديوان:

أجعفر إن الحمد يبقى لأهله جمالاً ولا تبقى الكنوز على الكدِّ

(٢) الأبيات في ديوان المتنبى، من قصيدة مطلعها:

فراق ومن فارقت غير مذمّم وأمّ ومن يمتت خير ميمّم

(٣) البيتان لم أجدتهما في المصادر والمراجع التي بين يدي.

(٤) الأبيات في ديوان محمود الوراق، وهي أربعة أبيات منفردة.

وينتظم في سلك هذه الآيات ما يُروى من واعظ الحكايات

يُحكى أنَّ هشام بن عبد الملك لما احتضر رأى أهله يبكون عليه، فقال لهم: جاذ لكم هشام بالدنيا وجُذتم له البكاء، وترك لكم ما كسب وتركتم عليه ما اكتسب، يا سوء حال هشام إن لم يغفر الله له. بعضهم^(١): [الكامل]

لا تجبهن بالرد وجه مؤمل فلخير وقتك أن ترى مسؤولاً
واعلم بأنك عن قليل صائر خبراً فكن خبراً يرزق جميلاً
الشريف الرضّي^(٢): [السيط]

أحق من كانت التعماء سابغة عليه من أسبغ التعماء على الأمم
وأجدر الناس أن تعنوا لرقاب له من يسترق رقاب الناس بالنعيم

الحض على انتهاز فرصة الإمكان

في إسداء المرجو من الإحسان لمن كان

قال رسول الله ﷺ: «مَنْ فتح عليه باب من الخير فلينتهزه، فإنه لا يدري متى يُغلق عنه»^(٣). وقال حكيم: الدنيا غرارة، إن بقيت لك لم تبق لها. وقال عبد الله بن شداد لابنه: يا بني عليك باصطناع المعروف، فإن الدهر ذو صروف والأيام ذات نوائب تقضي على الشاهد والغائب، كم من ذي رغبة صار مرغوباً إليه، وكم من طالب صار مطلوباً لديه. شاعر^(٤): [الخفيف]

ليس في كل ساعة وأوان تنهياً صنائع الإحسان
فإذا أمكنت فبادر إليها حذراً من تعذر الإمكان
واغتنمها إذا قدرت عليها حذراً من تغيّر الأزمان
أحزم الناس من إذا أحسن الدهر رتلقي الإحسان بالإحسان

(١) البيتان لابن دريد الأزدي في ديوانه، من ثلاثة أبيات، أولها:

لا تدخلنك ضجر من سائل فلخير دهرك أن ترى مسؤولاً

(٢) البيتان في ديوان الشريف الرضي، والبيت الأول هو مطلع القصيدة.

(٣) أخرجه المتقي الهندي في كنز العمال ٤٣١٣٤، والقرطبي في تفسيره ٣٨٣/٥.

(٤) الأبيات بلا نسبة في التمثيل والمحاضرة، للثعالبي، ص ٥٧٦.

ابن النقيب الكناني^(١): [الكامل]

الحمد أينع ما اجتناه المُجتني والمجد أرفع ما ابتناه المبتني
فإذا وليت وكان أمرك نافذاً فادّخر صنيعاً في الولاية وابتني
من قبل أن يسعى لها فتفوته وتقول عند فواته يا ليتني
ابن هندو^(٢): [الوافر]

إذا هبت رياحك فاغتنيها فإن لكل خافقة سكون
ولا تغفل عن الإحسان فيها فما ندري السكون متى يكون
آخر^(٣): [البسيط]

لا تقطعن عادة الإحسان عن أحدٍ ما دُمت تقدر والأيام تارات
واذكر فضيلة صنع الله إذ جعلت إليك لا لك عند الناس حاجات
ومن أحسن ما قيل من الأبيات في انتهاز الفرصة بالمعروف، وإغاثة
المكروب والملهوف، قول سالم الأنباري^(٤): [الطويل]

تمتّع من الدنيا بساعتك التي ظفرت بها ما لم تُعقك العوائق
فما يومك الماضي عليك بعائد ولا يومك الآتي به أنت واثق

احتجاج المتبجّج بالمعروف على السائل المجهول والمعروف

قال رسول الله ﷺ: «مَنْ عَظُمَتْ نِعْمَةُ اللَّهِ عِنْدَهُ عَظُمَتْ مَوْنةُ النَّاسِ إِلَيْهِ، فَإِنْ لَمْ يَحْمِلْ تِلْكَ فَقَدْ عَرَّضَ تِلْكَ النِّعْمَةَ لِلزَّوَالِ»^(٥). وقيل لعبد الله بن جعفر، وكان جواداً: اقتصد في العطاء، فإن من ذهب ماله ذل؛ فقال: إن الله عودني بالإفضال عليّ وعودته بالإفضال على عباده، فأخاف أن أقطع العادة فيقطع عني المادّة؛ ثم تلا قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا يَقْوِمُ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الزّعد: الآية ١١].

(١) الأبيات لم أجدها في المصادر والمراجع التي بين يدي.

(٢) البيتان بلا نسبة في محاضرات الأدباء، للراغب الأصبهاني، ص ٥٣٧.

(٣) البيتان لم أجدهما في المصادر والمراجع التي بين يدي.

(٤) البيتان بلا نسبة في معاهد التنصيص، لعبد الرحيم العباسي، ص ١٢٨٥.

(٥) أخرجه الزبيدي في إتحاف السادة المتقين ١٧٥/٨، ١٢٥/٩.

وقيل: أحسن الناس عَيْشًا مَنْ حَسَّنَ عِيشَ غَيْرِهِ فِي عَيْشِهِ. وقيل لعبد الله بن طاهر، وكان جَوَادًا: أنفق وأمسك بعض الإمساك؛ قال: إن سمن الكيس ونبل الذَّكر لا يجتمعان أبدًا. نظمه بعض الشعراء، فقال^(١): [المقارب]

أراك تؤمل حسن الثناء ولم يرزق الله ذاك البخيلًا
وكيف يسود أخو فطنة يمن كثيرًا ويعطي قليلًا
آخر^(٢): [السريع]

ما اجتمع المال وحُسن الثنا مُذْ كانت الدنيا لإنسانٍ
وأَيُّ هذين تَخَيَّرْتَهُ ضُئِّبَهُ فَأَلَّهَ عَنِ الثَّانِي
آخر^(٣): [البسيط]

صَوْنُ الْفَتَى عَرْضُهُ عَمَّا يُدْنِسُهُ وصونه ما حواه ليس يجتمعُ
الْمَالُ يُثْلَفُهُ دَهْرًا وَيُرْجَعُهُ إليه والعرض لا يمضي فيرتجعُ
أبو تمام من أبيات^(٤): [الطويل]

ولم يجتمع شرقٌ وغربٌ لقاصِدٍ ولا المجد في كفٍّ امرئٍ والدِّراهمُ
ولم أَرْ كَالْمَعْرُوفِ يَرْعَى حَقُوقَهُ مغارم في الأقوام وهي مغانمُ

وقال ابن عباس: لا يزهْدَنَّكَ فِي الْمَعْرُوفِ كَفْرُ مَنْ كَفَرَهُ، فَإِنَّهُ يَشْكُرُكَ عَلَيْهِ مَنْ لَمْ تَصْطَنِعْهُ إِلَيْهِ. شاعر^(٥): [البسيط]

إني إذا أمكنتني ساعة سعة زينت بالبذل أوصافي وأحوالي
إما شكور فزين لي إعانتة أو الكفور فعرضي صُنْتُ بِالْمَالِ

(١) البيتان بلا نسبة في بهجة المجالس، لابن عبد البر، ص ٨٦٢؛ والإمتاع والمؤانسة، لأبي حيان التوحيدي، ص ٧٠٥.

(٢) البيتان لمنصور المصري في البصائر والذخائر، لأبي حيان التوحيدي، ص ١٧٦٢.

(٣) البيتان لم أجدتهما في المصادر والمراجع التي بين يدي.

(٤) البيتان في ديوان أبي تمام، من قصيدة مطلعها:

ألم يأن أن تروي الظمأ الحوائم وأن ينظم الشمل المشتت ناظمُ
(٥) البيتان لم أجدتهما.

آخر^(١): [الوافر]

يَدُ المعروف غنم حيث كانت تحملها شكور أو كفور
ففي شكر الشكور لها جزاء وعند الله ما جحد الكفور

آخر^(٢): [الوافر]

وأفضل ما دخرت على الليالي صنائع عند مصطنع شكور
ومن المفاخر التي لا نزاع فيها ولا خلاف: بسط الوجه، وبذل القرى
للأضياف.

أول من شرع ستّة قري الأضياف سيّدنا إبراهيم الخليل عليه السلام، كان
إذا لم يجد مَنْ يأكل معه يخرج إلى الطرقات ليأتي بِمَنْ يأكل معه، ثم تبعته
العرب على سنته، وأول مَنْ وضع الموائد على الطرق سيّدنا عبد الله بن عباس،
وكانت نفقته في كل يوم خمسمائة دينار. قال شاعر يمدح مَنْ هذه صفته^(٣):
[الرجز]

أبلج بين حاجبيه نوره إذا تغذّى رُفَعَتْ ستوره

وفي مثله يقول الشاعر في خالد بن برمك^(٤): [الكامل]

تأبى خلائق خالد وفّعاله أن لا يُجيب لكل أمر عائب
وإذا حضرنا الباب عند غذائه أذن الغذاء لنا برغم الحاجب

وقال بعضهم^(٥): [الطويل]

أبيت خميص البطن غرثان طاوياً وأوثر بالزّاد الرفيق على نفسي
وأمنحه فرشني وأفترش الثّرى وأجعل قرّ الليل منّ دونه لبسي
حذار مخازاة الأحاديث في غد إذا ضمّني وحدي إلى صدره رمسي

(١) البيتان لم أجدتهما في المصادر والمراجع التي بين يدي.

(٢) البيت لم أجدّه.

(٣) الرجز بلا نسبة في البصائر والذخائر، لأبي حيان التوحيدي، ص ٦٩٥.

(٤) البيتان لعمارة بن عقيل في ديوانه، وهما بيتان منفردان.

(٥) الأبيات لابن الدمينية في ديوانه، وهي ثلاثة أبيات منفردة.

آخر^(١): [الطويل]

أضاحك ضيفي قبل إنزال رحله ويخصب عندي والزمان جديب
وما الخصب للأضياف أن تُكثر القرى ولكئنا وجه الكريم خصيب

آخر^(٢): [الرجز]

أوقد فإن الليل ليل قر عسى يرى نارك من يمر
والريح ما سرّك ريح صر إن جلبت ضيفاً فانت حر

آخر^(٣): [البسيط]

يسترسل الضيف أنسا في منازلنا فليس يعلم خلق أينا الضيف
والسيف إن قسته يوما بناشبهها لم تذر من عز منا من ذا هو السيف

آخر^(٤): [البسيط]

قالت سليمي لحاك الله من رجل ما تحفظ العهد والميثاق والذمما
وحزمة الضيف ما إن خنت عهدكم وقد حلفت يميناً برة قسما
لو يعلم الضيف عندي قدر منزله لتاة حتى يرى لا يرجع الكلمة
أقول للأهل والقربى وقد حضروا قفوا قليلاً فإن الضيف قد قدما

آخر^(٥): [الطويل]

لحا الله من يُمسي بطيئنا وجاره لفرط الخوى محني الضلوع خميص
لعمرك ما ضيفي عليّ بهتين وإنني على ما سره لحريص

(١) البيتان للخريمي في ديوانه، من قصيدة مطلعها:

أسرّ خليلي شاهداً وأبرزه وأحفظه بالغيب حين يغيب

وهما لعمر بن الأهتم ومسكين الدارمي في ديوانيهما، وهما فيهما بيتان منفردان.

(٢) الرجز لحاتم الطائي في ديوانه، وهو أربعة شطور منفردة.

(٣) البيتان لعلّي بن محمد العلوي في الزهرة، لابن داود الأصبهاني، ص ١١٤٨.

(٤) الأبيات لم أجدها في المصادر والمراجع التي بين يدي.

(٥) البيتان لم أجدهما.

إبراهيم بن هرمة^(١): [الطويل]

يبيتون في المشتى خماصًا وعندهم مِنْ الزَّادِ فضلات تعدّ لمن يقرى
إذا ضلّ عنهم ضيفهم رفعوا له مِنْ النار في الظّلماء ألوية حُمرا

وتبعه ابن المعتزّ، فقال^(٢): [الطويل]

وليلٌ يودّ المُضطلون بناره ولو أنهم حتى الصباح وقودها
رفعت به ناري لمن يبتغي القرى على شرف حتى أتاها وفودها

آخر^(٣): [الطويل]

ومُستنبح بعد الهدوّ برقدة بشقراء مثل البحر بادٍ وقودها
فقلت له أهلاً وسهلاً ومرحباً بوارد نار منجد مَنْ يَرُومُها
فإن شئت أُويناك في الحيّ مكرماً وإن شئت بلغناك أرضاً ترُومُها

آخر^(٤): [الكامل]

لا تبعدنّ قومي وإن كانوا خوى فَلَنِغْمَ مأوى الضّيف والجيرانِ
الضّيف فيهم لا يحول رحله والجار مضمون من الحدثانِ

آخر^(٥): [الكامل]

الضّيف أكرم ما استطعت محلّه وتلقّه بتودّد وتهلّل
واعلم بأنّ الضيف يوماً مخبرٌ بمبيت ليلته وإن لم يُسأل

وصيّة كريم بالسؤدد عليم: قال بعض البلغاء: سؤدد بلا جود، كمُلك بلا جنود. وقالوا: جود الرجل يحبيه إلى أضداده، ويُبخله يُبغضه إلى أولاده؛ وما

(١) البيتان ليسا في ديوان ابن هرمة، وهما لصرد بن صربع في ديوانه، من قصيدة مطلعها:

إذا نشر الناس الهرقلية الصغرا نثرت على عليك الحمد والشكرا

(٢) البيتان في ديوان ابن المعتزّ، من قصيدة مطلعها:

سرى ليلة حتى أداء عمودها وأية سوق شوقها لا يعودها

(٣) الأبيات لم أجدها في المصادر والمراجع التي بين يدي.

(٤) البيتان لم أجدهما في المصادر والمراجع التي بين يدي.

(٥) البيتان لم أجدهما.

أصدق مَنْ قال^(١): [الطويل]

إذا لم يكن للمرء فضلٌ ولم يكن يدافع عن إخوانه لم يسود
وكف يسود القوم مَنْ هو مثلهم بلا مئة منه عليهم ولا يد

وقال بعض الحكماء: ثواب الجود خلف ومكافأة ومحبة. وثواب البخل حرمان وإتلاف ومذمة. وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: إنَّ للنعمة أجنحة، فإن أمسكت بالإحسان قرأت وألّا قرأت. وقال محمد ابن الحنفية رضي الله عنه: إن أفضل المال ما أفاد شكرًا، وأورث ذكرًا، وأوجب أجرًا، ولو رأيتم المعروف لرأيتموه حسنًا جميلًا. وقال المأمون: لأن أخطئ معطيًا أحب إليَّ من أن أصيب مانعًا^(٢): [الكامل]

العُرف زينة ذي النهى وذخيرة يلقى جوائزها بكل مكان
ما ضاع معروفٌ أتيت إلى امرئ فغدا وراح يذيعه بلسان

ذكر الأجواد المعروفين ببذل الأموال والموصوفين بإصلاح فساد الأحوال

أسخاهم وأجودهم سيدنا رسول الله ﷺ، في الحديث الصحيح: أنه ما سُئِلَ شيئًا قطَّ فقال لا، فإن يكن عنده أعطي، وإن لم يكن عنده استدان. أعطى عُيَيْنَةَ بن حصن مائة من الإبل، وأعطى الأقرع بن حابس مثلها، وأعطى أعرابيًا غنمًا بين جبلين، فانطلق الأعرابي وقال لقومه: أسلموا، فإنَّ محمدًا ﷺ يعطي عطاء مَنْ لا يخاف الفقر. وقال أنس بن مالك: أتني رسول الله ﷺ بمالٍ من البحرين لم يؤت قبله بمثله، فوضع في المسجد ثم خرج فصلّى، فلما فرغ من صلاته جلس ثم دعا بالمال، فما رأى أحدًا إلا أعطاه منه، فجاءه عمّه العباس فقال: يا رسول الله إني فاديت نفسي وفاديت عقيلًا، فقال رسول الله ﷺ: «خذ»، فحثا في ثوبه، ثم ذهب ليقوم فلم يستطع، فقال: يا رسول الله مُرْ مَنْ يرفعه عليّ؟ قال: «لا»، قال: فارفعه أنت، قال: «لا»، فنثر منه ثم احتمله على كاهله وذهب، فما زال رسول الله ﷺ

(١) البيتان بلا نسبة في الصداقة والصديق، لأبي حيان التوحيدي، ص ٣٣١؛ وأما ابن الشجري، ص ٥٤٩.

(٢) البيتان لم أجدتهما في المصادر والمراجع التي بين يدي.

يُتَّبِعُهُ بِصَرِّهِ حَتَّى خَفِيَ عَلَيْنَا تَعَجُّبًا مِنْ حِرْصِهِ، وَمَا قَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى فَرَّقَ الْمَالَ جَمِيعَهُ^(١).

وَمَنْ عَمِرَتِ الْوُفُودُ أَرْجَاءَ نَادِيهِ، وَغَمِرَتِ بِالْجُودِ فَوَاضِلُهُ وَأَيَادِيهِ، أَجْوَادُ الْعَرَبِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ الَّذِينَ ضُرِبَ بِهِمُ الْمَثَلُ فِي الْجُودِ ثَلَاثَةً لَا رَابِعَ لَهُمْ، وَهُمْ: كَعْبُ بْنُ مَامَةَ الْإِيَادِي، وَهَرَمُ بْنُ سَنَانَ التَّمَرِي، وَحَاتِمُ الطَّائِي؛ وَقَدْ جَمَعَهُمْ بَعْضُ الشُّعْرَاءِ فِي بَيْتٍ وَاحِدٍ، فَقَالَ مَادِحًا مِنْ أُبَيَّاتٍ^(٢): [البسيط]

لَوْ أَدْرَكَ الْعَصْرُ مِنْ كَعْبٍ وَمِنْ هَرَمٍ وَحَاتِمٍ جُودَ كَفِّهِ لَمَا ذَكَرُوا
وَمِنْ أَجْوَادِ الْعَرَبِ عَمَرُو بْنُ عَبْدِ مَنَافٍ، فَإِنَّهُ أَوَّلُ مَنْ هَشَمَ الثَّرِيدَ وَجَمَعَ قَوْمَهُ عَلَيْهِ، فَسُمِّيَ لِذَلِكَ هَاشِمًا؛ وَفِيهِ يَقُولُ الشَّاعِرُ^(٣): [الكامل]

عَمَرُوا الْعِلَّاهُشَمَ الثَّرِيدَ لِقَوْمِهِ وَرَجَالُ مَكَّةَ مَسْنَتُونَ عِجَافٌ
وَيُقَالُ فِي الْمَثَلِ: مَا أَحَدٌ كَهَاشِمٍ وَإِنْ هَشَمَ، وَلَا كَحَاتِمٍ وَإِنْ حَتَمَ.

وَأَجْوَادُ الْعَرَبِ فِي الْإِسْلَامِ: عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ، وَأَخُوهُ عُبَيْدُ اللَّهِ؛ فَمِنْ الْمَأْثُورِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّ رَجُلًا أَرَادَ مَضَارَتَهُ، فَأَتَى وَجْهَهُ قَرِيشَ وَهُمْ جُلُوسٌ فِي فِضَاءِ الْكَعْبَةِ، وَقَالَ: يَقُولُ لَكُمْ عَبْدُ اللَّهِ: تَغْدُوا عِنْدَهُ الْيَوْمَ، فَأَتَوْهُ وَقَتَ الْغَدَاءِ حَتَّى مَلَأُوا الْبَيْتَ، فَسَأَلَهُمْ عَنْ مَجِيئِهِمْ فَأَخْبَرُوهُ الْخَبَرَ، فَأَمَرَ قَوْمًا بِشِرَاءِ فَاكِهِةٍ، وَأَمَرَ قَوْمًا بِالْخَبْزِ، وَقَوْمًا أَنْ يَطْبَخُوا وَقَدَّمَتِ الْفَاكِهِةَ إِلَيْهِمْ، فَمَا فَرَّغُوا مِنْ أَكْلِهَا حَتَّى قَدَّمَتِ الْمَوَائِدَ فَأَكَلُوا وَانصَرَفُوا، ثُمَّ قَالَ عَبْدُ اللَّهِ لَوَكِيلِهِ: أَيُوجَدُ مِثْلُ هَذَا كُلِّ يَوْمٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: فَلْيَتَغَدَّوْا عِنْدَنَا كُلِّ يَوْمٍ.

وَأَمَّا عُبَيْدُ اللَّهِ، فَإِنَّهُ كَانَ لِفَرَطِ جُودِهِ يَسْمَى مَعْلَمَ الْجُودِ، وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ وَضَعَ الْمَوَائِدَ عَلَى الطَّرِيقِ، وَكَانَتْ نَفَقَتُهُ فِي كُلِّ يَوْمٍ خَمْسَمِائَةِ دِينَارٍ، وَكَانَ إِذَا خَرَجَ مِنْ دُورِهِ طَعَامٌ إِلَى رَحَابِهِ وَمَسَاجِدِهِ لَا يَرُدُّ إِلَيْهَا مِنْهُ شَيْءٌ، فَإِنْ لَمْ يَجِدْ مَنْ يَأْكُلُهُ تَرَكَ مَكَانَهُ، فَرُبَّمَا أَكَلَتْهُ السُّبَاعُ، وَكَانَ هُوَ وَالنَّاسُ فِي مَالِهِ سَوَاءٌ مَنْ سَأَلَهُ أَعْطَاهُ، وَمَنْ

(١) أخرجه البخاري في الصلاة باب ٤٢، والجهاد باب ١٧٢، والجزية باب ٤، والعتق باب ١١.

(٢) البيت بلا نسبة في محاضرات الأدباء، للراغب الأصبهاني، ص ١٨٩٠.

(٣) البيت لعبد الله بن الزبير في ديوانه، من قصيدة مطلعها:

كَانَتْ قَرِيشٌ بَيْضَةٌ فَتَفَلَقَتْ فَالْمَخُ خَالِصُهُ لِعَبْدِ مَنَافٍ

لم يسأله ابتدأه، فلا يرى أنه يفتقر فيقتصر، ولا يرى أنه يحتاج فيدخر. وكان يقال: مَنْ أَرَادَ الْجَمَالَ وَالْفَقْهَ وَالسَّخَاءَ فَلْيَأْتِ دَارَ الْعَبَّاسِ، فَالْجَمَالَ لِلْفَضْلِ، وَالْفَقْهَ لِعَبْدِ اللَّهِ، وَالسَّخَاءَ لِعَبِيدِ اللَّهِ.

وَمِنْ الْأَجْوَادِ: عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ الْأَعْمَشُ: كُنْتُ عِنْدَهُ يَوْمًا فَأَتَى بِاثْنَيْنِ وَعَشْرِينَ أَلْفَ دَرَاهِمَ، فَلَمْ يَقُمْ مِنْ مَجْلِسِهِ حَتَّى فَرَّقَهَا، وَكَانَ إِذَا أَعْجَبَهُ شَيْءٌ مِنْ مَالِهِ تَصَدَّقَ بِهِ، وَكَانَ كَثِيرًا مَا يَتَصَدَّقُ بِالسَّكْرِ، فَقِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ، فَقَالَ: إِنِّي أَحِبُّهُ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِنْ مَّا تُحِبُّونَ﴾ [آلِ عِمْرَانَ: الْآيَةُ ٩٢]، وَأَعْتَقَ أَلْفَ عَبْدٍ، كَانَ إِذَا رَأَى عَبْدًا مِنْ عِبِيدِهِ مُلَازِمًا لِلصَّلَاةِ أَعْتَقَهُ، فَقِيلَ لَهُ: إِنَّهُمْ يَخْدَعُونَكَ؟ فَقَالَ: مَنْ خَدَعَنَا بِاللَّهِ أَنْخَدَعْنَا لَهُ.

وَمِنْ الْأَجْوَادِ: الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، سَمِعَ رَجُلًا يَقُولُ: اللَّهُمَّ اعْطِنِي عَشْرَةَ آلَافِ دَرَاهِمَ، فَأَخَذَ بِيَدِهِ وَانْطَلَقَ بِهِ إِلَى مَنْزِلِهِ فَأَعْطَاهُ عَشْرَةَ آلَافِ دَرَاهِمَ، وَخَرَجَ اللَّهُ مِنْ مَالِهِ مَرَّتَيْنِ، وَقَاسَمَ اللَّهُ مَالَهُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، حَتَّى إِنَّهُ أَعْطَى نَعْلًا وَأَمْسَكَ نَعْلًا.

وَمِنْ أَجْوَادِ الصَّحَابَةِ الْعَشْرَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ: عُثْمَانُ بْنُ عَفَانَ، وَالزُّبَيْرُ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ، وَسَعِيدُ بْنُ الْعَاصِ؛ كَانُوا رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمْ إِذَا رَأَوْا أَمْوَالَهُمْ كَثُرَتْ وَزَادَتْ نَقَصُوهَا بِإِيْلَاءِ الْبِرِّ وَإِسْدَاءِ الْمَعْرُوفِ خَوْفًا مِنْ أَنْ تَحْمِلَهُمْ نَفُوسُهُمْ عَلَى الْبَطَرِ وَالطُّغْيَانِ، وَأَنْ تُلْهِيَهُمْ بِكَثْرَتِهَا عَنِ الْإِسْتِغَالِ بِعِبَادَةِ الرَّحْمَنِ؛ فَمِنْ الْمَأْثُورِ عَنْ عُثْمَانَ بْنِ عَفَانَ: أَنَّهُ اشْتَرَى بَثْرَ رُومِيَّةٍ بِأَرْبَعِينَ أَلْفَ دَرَاهِمَ وَأَوْقَفَهَا عَلَى الْمُسْلِمِينَ، وَأَنْفَقَ فِي جَيْشِ الْعُسْرَةِ عَشْرَةَ آلَافِ دِينَارٍ ذَهَبًا، فَجَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقْلِبُهَا بِيَدِهِ ظَهْرًا لِبَطْنٍ، وَيَقُولُ: «غَفَرَ اللَّهُ لَكَ يَا عُثْمَانُ مَا قَدَّمْتَ وَمَا أَخَّرْتَ، وَمَا أَسْرَرْتَ وَمَا أَعْلَنْتَ، وَلَا تَبَالِي مَا عَمِلَ بَعْدَ الْيَوْمِ»^(١). وَأَصَابَ النَّاسَ قَحْطٌ فِي خِلَافَةِ أَبِي بَكْرٍ الصَّدِيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَلَمَّا اشْتَدَّ بِهِمُ الْأَمْرُ جَاؤُوا إِلَى أَبِي بَكْرٍ، وَقَالُوا: يَا خَلِيفَةُ رَسُولِ اللَّهِ، إِنَّ السَّمَاءَ لَمْ تُمَطَّرْ، وَالْأَرْضُ لَمْ تَنْبِتْ، وَقَدْ تَوَقَّعَ النَّاسُ الْهَلَكَ، فَمَا نَصْنَعُ؟ فَقَالَ لَهُمْ: انْصَرَفُوا وَاصْبِرُوا، فَإِنِّي أَرْجُو أَنَّ اللَّهَ أَنْ لَا تُمَسَّوْا حَتَّى يَفْرَجَ اللَّهُ عَنْكُمْ؛ فَلَمَّا كَانَ آخِرُ النَّهَارِ وَرَدَ الْخَبَرُ بِأَنْ

(١) أَخْرَجَهُ الْمُتَّقِي الْهِنْدِيُّ فِي كَنْزِ الْعَمَالِ ٣٢٨٤٧، ٣٦١٨٩، ٣٦٢٤٥؛ وَابْنُ عَدِي فِي الْكَامِلِ فِي الضَّعْفَاءِ ٢٢٥٣/٦.

عِزًّا لعثمان بن عفان جاءت من الشام وتُصْبِحُ بالمدينة، فلَمَّا جاءت خرج الناس يتلقَّونها، فإذا هي ألف بعير موسوقة برًّا وزبيبا، فأناخت بباب عثمان، فلَمَّا جعلها في داره جاء التجار، فقال لهم: ما تريدون؟ قالوا: إنك لتعلم ما نريد، بَعْنَا من هذا الذي وصل إليك، فإنك تعلم ضرورة الناس إليه؛ قال: حُبًّا وكرامة، كم تُزبِحُونِي على شراي؟ قالوا: الدرهم درهمين، قال: أعطيت زيادة على هذا، قالوا: أربعة، قال: أعطيت زيادة على هذا، قالوا: خمسة، قال: أعطيت أكثر من هذا، قالوا: يا أبا عمر وما بقي في المدينة تجار غيرنا وما سبقنا إليك أحد، فمن ذا الذي أعطاك؟ قال: إِنَّ اللَّهَ أعطاني بكل درهم عشرة، أعندكم زيادة؟ قالوا: لا، قال: فإني أُشهد الله أنني جعلت ما حملت هذه العير صدقة لله على المساكين وفقراء المسلمين.

وَمِنَ المَأْثُورِ عَنِ الزُّبَيْرِ بْنِ العَوَّامِ رضي الله عنه أَنَّهُ كَانَ لَهُ أَلْفُ عَبْدِ يَوْذُونَ إِلَيْهِ الخِرَاجُ كُلَّ يَوْمٍ، فَمَا يَدْخُلُ بَيْتَهُ مِنْهُ دَرَاهِمٌ وَاحِدٌ، بَلْ يَتَصَدَّقُ بِذَلِكَ كُلَّهُ.

وَمِنَ المَأْثُورِ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ أَنَّهُ بَاعَ أَرْضًا مِنْ عُثْمَانَ بْنِ عَفَانَ بِأَرْبَعِينَ أَلْفَ دِينَارٍ، وَقَسَمَ ذَلِكَ فِي بَنِي زَهْرَةَ وَفُقَرَاءَ الْمُسْلِمِينَ وَأَمَهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ، وَبِعَثَ إِلَى عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا مِنْ هَذَا الْمَالِ بِأَرْبَعِينَ أَلْفَ دَرَاهِمٍ، فَقَالَتْ: سَقَى اللَّهُ ابْنَ عَوْفٍ مِنْ سُلْسِيلِ الْجَنَّةِ. وَحَمَلَ مَرَّةً فِي عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَلَى خَمْسَمِائَةِ فَرَسٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، ثُمَّ حَمَلَ مَرَّةً أُخْرَى عَلَى أَلْفٍ وَخَمْسَمِائَةِ رَاحِلَةٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَشَاطَرَ اللَّهُ تَعَالَى مَالَهُ ثَلَاثَ مَرَاتٍ، وَأَمَرَ أَنْ يَتَصَدَّقَ بَعْدَ مَوْتِهِ بِثُلْثِ مَالِهِ فَعُوفِي فَتَصَدَّقَ بِهِ بِنَفْسِهِ، وَجَلَسَ لَيْلَةً فِي بَيْتِهِ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَكَتَبَ جَرِيدَةً بِتَفْرِيقِ جَمِيعِ مَالِهِ عَلَى فُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، حَتَّى كَتَبَ قَمِيصَهُ الَّذِي عَلَى بَدَنِهِ: هَذَا لِفُلَانٍ وَهَذَا لِفُلَانٍ، وَلَمْ يَتْرِكْ شَيْئًا مِنْ مَالِهِ إِلَّا كَتَبَهُ، فَلَمَّا صَلَّى مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الصُّبْحَ نَاولَهُ الْجَرِيدَةَ، فَنَزَلَ جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ يَقُولُ اللَّهُ لَكَ: اقْرَأَ السَّلَامَ مِنِّي عَلَى عَبْدِ الرَّحْمَنِ وَيَأْمُرُكَ أَنْ تَرُدَّ لَهُ جَرِيدَتَهُ، وَقُلْ لَهُ: إِنَّ اللَّهَ قَدْ قَبِلَ صَدَقَتَكَ، وَهُوَ وَكِيلُ اللَّهِ وَوَكِيلُكَ فِيهَا، فَلْيَصْنَعْ فِي مَالِهِ مَا شَاءَ، وَيَتَصَرَّفَ فِيهِ كَمَا كَانَ يَتَصَرَّفُ فِيهِ مِنْ قَبْلِ وَلَا حِسَابَ عَلَيْهِ. وَيُزَوَّى أَنَّهُ أَعْتَقَ ثَلَاثِينَ أَلْفَ عَبْدٍ.

وَمِنَ المَأْثُورِ عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَجُلًا سَأَلَهُ، فَقَالَ لَغُلَامِهِ: أَعْطَهُ خَمْسَمِائَةَ، فَمَضَى الْغُلَامُ ثُمَّ رَجَعَ إِلَيْهِ مُسْتَفْهِمًا أَدِينَارًا أَوْ دَرَاهِمًا؟

فقال: ما كنت أردت إلا دراهم، أما إذ قد رجعت فصيرها دنانير؛ فجعل الرجل يبكي، فقال له: ما يُبكيك؟ قال: أبكي على أن تأكل الأرض مثلك. ويُزَوَّى عنه أنه عزل عن المدينة، فانصرف ليلة من المسجد إلى منزله وحده، فرأى رجلاً يتبعه فقال له: ألك حاجة؟ قال: لا ولكنني رأيتك وحدك فوصلت جناحك، فقال: وصلك الله يا ابن أخي، اطلب لي جلدًا وادع لي مولاي فلانًا، فأتاه به فكتب له صكًا بعشرة آلاف درهم وأشهد عليه مولاه بها، وقال: إذا جاءت غلَّتْنا دفعنا إليك ذلك؛ فمات سعيد في تلك السنة، فجاء الرجل بالصلك إلى ولده عمرو فأمضاه وأعطاه عشرة آلاف درهم. ولما احتضر سعيد قال لبيه: لا يفقد أصحابي بعد موتي غير وجهي، أجروا عليهم ما كنت أُجري، واصنعوا إليهم ما كنت أصنع بهم، واكفؤهم مؤنة الطلب، فإن الرجل إذا طلب الحاجة اضطربت أركانه، وارتعدت فرائضه مخافة أن يردَّ عنها، والله لرجل بات يتمللم على فراشه رآكم موضعًا لحاجته أعظم مِنِّة عليكم منكم بما تعطونه. ويُزَوَّى أيضًا أنه لما احتضر قال لبيه: أيكم يتكفل لي بثلاث؟ فقال ابنه عمرو: أنا، قال: اقض عني ديني، وهو ثمانون ألف دينار والله ما استدنتها إلا لكریم سددت خلته، أو لثيم وقيت عرضي عنه، قال: علي دينك يا أبت، قال: قد بقيت اثنتان، قال: وما هما؟ قال: بناتي لا تزوجهنَّ إلا الأكفاء، ولو تقلقن من خبز الشعير؛ قال: أفعل، قال: وبقيت واحدة هي أشدَّهنَّ عليّ، قال: ما هي؟ قال: إنَّ فقَدَ أصحابي وجهي فلا يفقدون معروفِي، يا بني ثلاث ضقت بهنَّ ذرعًا: رجل اغبرَّ وجهه في التردّد للتسليم عليّ، ورجل ضاق في مجلسي فتزحزح لي، ورجل نزل به مهمٌّ من الأمور فبات متململاً على فراشه يتقلب من أمره ظهرًا لبطن، فلما أصبح رأني موضعًا لحاجته، فلم أكافئه ولو خرجت من جميع ما أملك.

ومن الأجود: طلحة بن عبيد الله التميمي فرّق في يوم واحد مائة ألف درهم. وقال قبيصة بن حاتم: صحبت طلحة بن عبيد الله فما رأيت أعطى لجزيل من غير مسألة منه، وهو أحد مشاهير الطلحات الذين يُضرب بهم المثل في الجود، وكانوا ستّة، ويسمى هذا طلحة الفياض. وطلحة بن عمر بن عبد الله بن معمر التميمي أيضًا، وهو طلحة الجود. وطلحة بن عبد الله بن عوف أخي عبد الرحمن الزهري، ويسمى طلحة النداء. وطلحة بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وهو طلحة الخير. وطلحة بن عبد الرحمن بن أبي بكر

الصديق، ويسمى طلحة الدراهم. وطلحة بن عبد الله بن خلف الخزاعي، وهو طلحة الطلحات، وسُمي بذلك لأنه كان أجودهم، وقيل: سُمي بذلك لأنه وهب في عام واحد ألف جارية، فكانت كل جارية منهن إذا ولدت غلامًا تسميه طلحة على اسم سيدها. وعن الحسن قال: باع طلحة بن عبد الله بن خلف الخزاعي أرضًا بسبعمئة ألف درهم، فبات ذلك المال عنده ليلة، فبات أرقًا مخافة ذلك المال حتى أصبح ففرقه.

ومن أجواد الصحابة معاوية بن أبي سفيان، قال عبد الله بن عمر: ما رأيت أحدًا بعد رسول الله ﷺ أجود من معاوية، وهو أول من أعطى ألف ألف في صلة، وكان يعطيها للحسن والحسين وعبد الله بن جعفر رضي الله تعالى عنهم، ولمّا مات معاوية وولّى ابنه يزيد دخل وفد عبد الله بن جعفر على يزيد، فقال له: يا أمير المؤمنين إن والدك كان يصل رّحمي في كل عام بألف ألف درهم، فقال يزيد: نعم وكرامة أعطوه ألف ألف وألف ألف وألف ألف، فقال له عبد الله: بأبي أنت وأمي يا أمير المؤمنين وما قلتها لأحد غيرك، قال يزيد: لا جرم إنني أضعفها لك، فلك عليها ألف ألف أخرى؛ فخرج عبد الله بأربعة آلاف ألف درهم، فقيل ليزيد: أقطع لرجل واحد أربعة آلاف ألف درهم، فقال للمُنكر: ونحك إنما أعطيتها لأهل المدينة، وما هي في يده إلا عارية، ولم تزل عطيات الخلفاء ألوف الألوف، وكان آخر مَنْ فعلها من الخلفاء المنصور، ومن الوزراء الحسن بن سهل.

ومن غرر حكايات معاوية في العطاء أنه حجّ، فلما انصرف من المدينة قال الحسين بن عليّ لأخيه الحسن: لا تلقه ولا تسلّم عليه، فقال: إن عليّ دَيْنًا ولا بدّ من إتيانه، فركب في أثره حتى لحقه وسلّم عليه وأخبره بدَيْنه، فبينما هما يتحدّثان إذ مرّ بختي قد أغياه حملة وقوم يسوقونه ليلحقوا به الحمول، فقال معاوية: ما شأن هذا البعير؟ فذكروا له أنه أغياه ما عليه من المال، قال: وكم عليه؟ قالوا: ثمانون ألف دينار، فقال: اصرفوها لأبي محمد.

ومن الأجود: عبد الله بن جعفر الطيّار، وكان يسمّى بحر الجود لجوده، ويقال: إنه لم يكن في عصره أجود منه؛ فمن المأثور عنه أنه وقف على بابه يومًا، وكان أرباب الحاجات ينتظرون خروجه فنهضوا إليه، فما طلب أحد حاجة إلا قضاها له، وكان فيمن حضر نصيب الشاعر، فلما نظر إلى ما يسمع عنه تقدّم إليه

وقبل يده، وأنشد^(١): [الطويل]

ألفت نَعَمْ حتى كأنك لم تكن عرفت من الأشياء شيئاً سوى نعم
وعاديت لا حتى كأنك لم تكن سمعت بلا في سالف الدهر والأمن

فقال له عبد الله: ما حاجتك؟ قال: هذه رواحلي تميزني عليها، قال: أنخ، ثم أوسقها له برأ وتمراً وأمر له بعشرة آلاف درهم وثياب، فلما انصرف نصيب قال قائل لعبد الله: يا ابن الطيَّار أعطني هذا العطاء كله لمثل هذا العبد الأسود؟ فقال: إن كان أسود فإن شعره لأبيض، وإن كان عبداً فإن ثناءه لحر، وهل أعطيناه إلا رواحل تمضي، وطعاماً يفنى، وثياباً تُبلى؛ وكان يعتق في غرة كل شهر مائة عبد.

ومن حكاياته: أنه ابتاع حائط نخل من رجل أنصاري بمائة ألف درهم، فرأى ابناً له يبكي، فقال له: ما يبكيك؟ قال: كنت أطلب أنا وأبي أن نموت قبل خروج هذا الحائط من أيدينا، ولقد غرست بعض نخله بيدي، فدعا أباه وردَّ عليه الصكَّ وسوَّغه المال.

ومن الأجواد: عرابة الأوسي، يُحكى عنه أنه اجتمع جماعة بفناء الكعبة، فتذاكروا الأجواد، فقال أحدهم: أجود الناس عبد الله بن جعفر، وقال آخر: أجود الناس قيس بن سعد بن عبادة، وقال آخر: أجود الناس عرابة الأوسي، فقال رجل من الجماعة: ليمض كل واحد منكم لصاحبه يسأله حتى ننظر ما يعطيه ونحكم على العيان؛ فقام صاحب عبد الله فصادفه قد وضع رجله في الركاب يريد سفراً، فقال: يا ابن بنت عم رسول الله ﷺ، ابن سبيل ومنقطع به، فأقام ثني رجله وقال: خذ الناقة بما عليها ولا تخل عن السيف، فإنه من سيوف علي بن أبي طالب قوم علي بألف دينار؛ فجاء بالناقة بما عليها من مطارف خَزَّ وأربعة آلاف دينار وأعظمها السيف. ومضى الآخر إلى قيس بن سعد، فوجده نائماً فقال له غلامه: هو نائم، فما حاجتك؟ قال: ابن سبيل ومنقطع به، قال: حاجتك أيسر من أن أوقظه هذا كيس فيه سبعمائة دينار، والله ما في دار قيس اليوم غيرها، خذها وامض إلى معاطن الإبل بعلامة كذا إلى مَنْ فيها خذ راحلة وعبداً وامض إلى شأنك؛ قيل: إن قيساً لما انتبه أعلمه غلامه بما يصنع فأعتقه، وقال له: هلاً

(١) البيتان ليسا في ديوان نصيب، ولم أجدهما في المصادر والمراجع التي بين يدي.

أيقظتني فكنت أزيد. ومضى صاحب عرابة، فلقبه قد خرج من منزله يريد الصلاة وهو متوكئ على عشرين وقد كُفَّ بصره، فقال: يا عرابة ابن سبيل ومنقطع به، فتخلّى عن الغلامين وصفق بيديه وقال: أوّاه والله ما تركت الحقوق لعرابة مالا خذ العبدین، فقال الرجل: ما كنت بالذي أقصّ جناحيك، قال: إن لم تأخذهما فهما حُرّان، فإن شئت فخذ وإن شئت فأعتق، ورفع يديه عنهما وتركهما وأقبل يلتمس الحائط بيده، فأخذ الرجل الغلامين وجاء بهما إلى أصحابه، فأجمعوا على أن عُرابة أجود الثلاثة؛ لأنه جُهد من مُقلّ، وأن الغير أعطى من سعد، وفي عرابة يقول الشّمّاخ^(١): [الوافر]

رأيت عُرابة الأوسي يسمو إلى العلياء منقطع القرين
إذا ما راية رفعت لمجد تلقّاها عرابة باليمين

ومِنَ الأجواد: عبید الله بن أبي بكرة واسمه نفيع كناه رسول الله ﷺ به، ولإفراطه في الجود كتب عبد الملك بن مروان إلى الحجاج أن لا توليه عملاً، فإنه أريحى. ومن حكاياته: أنه أوسع له رجل في مجلس، فلمّا قام قال للرجل: الحقني إلى منزلي، فالحقه فأمر له بعشرة آلاف درهم. وابتنى داراً بالبصرة أنفق عليها عشرة آلاف دينار، فدخل عليه فيها بعض أصحابه واستحسنها، فقال: هي لك بما فيها من الفُرش والأثاث والرقيق؛ فقال الرجل: يعمرها الله بك ويمتّع بها، فقال: والله لتقبلنّها، فقَبِلَهَا. وولّاه عبد الله بن زياد سجستان وأمره بهدم ما فيها من بيوت الأشراف فهدمها، وأخذ ما فيها من الأموال المُعدّة للنفقة على سَدَنَتِهِ، فكانت أربعة آلاف درهم، فما أتى عليه الحَوْل حتى استدان.

ومِنَ الأجواد أسماء بن خارجة مما يُحكى عنه أنه رجع يوماً إلى داره، فرأى فتىً بالباب جالساً، فقال: ما أجلسك ههنا؟ قال: خير، قال: والله لتخبرني، قال: جئت سائلاً أهل هذه الدار ما آكل، فخرج إليّ منها جارية اختطفت قلبي وسلبت عقلي، فأنا جالسٌ لعلّها تخرج ثانية فأنظر إليها، قال: أفتعرفها إذا رأيتها؟ قال: نعم؛ فدعا بمن في الدار من الجوّاري، وجعل يعرضهنّ عليه واحدة بعد واحدة حتى مرّت الجارية، فقال: هذه، فقال: قف مكانك حتى أخرج إليك، ثم

(١) البيتان في ديوان الشّمّاخ، من قصيدة مطلعها:

ظنون أن مطرُحُ الظنون كلا يومي طوالة وصل أروى

دخل الدار وخرج والجارية معه، وقال للفتى: إنما أبطأت عليك لأنها لم تكن لي وإنما كانت لبعض بناتي، ولم أزل بها حتى ابتعتها منها، خذ بيدها فقد وهبتها لك، وهذه الألف أصلح بها شأنك.

ومن الأجواد: يزيد بن أبي صفرة، وله حكايات شهدت بكرم نجاره، ونكب عن لحاقه فيها كل كريم فلم يُجاره؛ منها أنه دخل عليه الكوثر بن زفر الكلابي حين ولّاه سليمان بن عبد الملك العراق، فقال له - يعني ابن زفر -: أنت أكبر قدرًا من أن يُستعان عليك إلا بك، ولست تصنع من المعروف شيئًا إلا وهو أصغر منك، وليس العجب منك أن تفعل ولكن العجب منك أن لا تفعل، قال: سل حاجتك، قال: تحملت عشر ديات وقد هاضني ذلك، قال: قد أمرت لك بها، فقال الكوثر: أما ما أسألك لوجهي فأقبله منك، وأما الذي بدأتني به فلا حاجة لي به، قال: ولم وقد كفيتك ذل السؤال؟ قال: رأيت الذي رُمته ببذل مسألتني إياك وبذل وجهي لك أكبر من معروفك عندي، فكرهت الفضل لك عليّ، فقال يزيد: فأنا أسألك كما سألتني، أسألك بحقك لما أهلتني له من إنزال الحاجة بي إلا قبلتها؛ ففعل.

وأول من عمل البيمارستانات، وأجرى الصدقات على الزمنى والمجذومين والعُميان والمساكين، واستخدم لهم الخدام الوليد بن عبد الملك؛ وهو أول من تكبر من الخلفاء، وأنف أن يُدعى باسمه كما كان يُدعى من قبله من الخلفاء، ويكفيه منقبة بناؤه جامع دمشق الذي هو أحد عجائب مباني الدنيا.

ومن الأجواد: معن بن زائدة الشيباني، ويكفيه أن يُقال فيه: حدّث عن البحر ولا حرج، وعن معن ولا حرج، وسنورد شيئًا من أخباره في الفصل الثاني من هذا الباب.

ومن الأجواد الذين توارثوا الكرم خلفًا عن سلف بنو برمك، وهم ستة: خالد وولده يحيى وأولاده أربعة، وهم الفضل وجعفر وموسى ومحمد. فأما خالد، فلم يزل يرتضع ثدي الخلافة صبيًا إلى أن بلغ من الكبر عتيًا. من جوده: أنه لم يكن لأحد من أصحابه ولد إلا من جارية قد وهبها له، ولا دار إلا من دور أنفق على بنائها ماله، وكان القصاد يستمون قبل أيامه بالسؤال، فكّر هذه التسمية ورأى أنها نقص فيهم، وقال: إنّ فيهم من له بيت وشرف وعلم وأدب، فسمّاهم

بالزوار، وكانوا يقصدونه في المواسم للهناء بها، فيكتبون أسماءهم وتعرض عليه فيخص كل واحد منهم على جدته، ويسأله بما يمت إليه حتى يعطيه بقدر ماته ومنزلته. وتقدم إليه رجل، فقال له: بماذا تمت؟ فقال: والله ما بي من مائة ولا حُرمة ولا وسيلة، ولكن رغبت إليك بحُسن الظنّ فيك والته بكرمك، وما بلغني من جودك؛ فقال: ما ههنا أحد أولى منك بالعطية؛ فأجزل صلته. ثم سأل آخر فقال: حُرمتي بالأمير أنه جمعني وإياه مسجد بجرجان يوم كذا في شهر كذا، فصلينا فيه، قال: حرمة لا تدفع، وأمر له بصلة، وفيه يقول بشار بن بُرد^(١):
[الطويل]

لعمرك قد أجدى عليّ ابن برمك وما كلّ مَنْ كان الغنى عنده يُجدي
حلبت بشِعري راحتيه فدرتَا عليّ كما درّ السحاب على الرّعد
أخالد إن الحمد يبقّى لأهله جمالاً ولا تبقى الكُنوز مع الكد
فأطعم وكل من عارة مُستردّة ولا تُبقها إن العواري للردّ
ثم كان ابنه يحيى سالكاً في سنته آخذاً في الجود بفرائضه وسُنّته، ففيه يقول سلم الخاسر^(٢): [مجزوء الكامل]

يا أيها الملك الذي أضحى وهمّته المعالي
أنت المنوّه باسمه عند الملمات الثّقالِ
ثم الذي أمواله عند المحامد خير مالِ
لله دزك من فتّى ما فيك من كرم الخلالِ
يحيى بن خالد الذي يعطي الجزيل ولا يبالي
أعطاك قبل سؤاله وكفأك مكروه السّؤالِ
ملكٌ خَلامن ماله ومن المروءة غير خالِ
وإذا رماك بموعد كان النّوال مع المقالِ

(١) الأبيات في ديوان بشار بن برد، والبيت الأول هو مطلع القصيدة.

(٢) الأبيات ليست كلّها في ديوان سلم الخاسر، وفي الديوان:

وفتّى خلا من ماله وإذا وأى لك موعدًا
لله درك من فتّى أعطاك قبل سؤاله
ومن المروءة غير خالِ كان الفِعال مع المقالِ
ما فيك من كرم الخلالِ فكفأك مكروه السّؤالِ

وأولاده سادوا فشادوا ما أسس، وجادوا فزاد المنّ بما غرس، فلهم طارف
السخاء وتليده، وكهل الثناء ووليده، فالفضل في جوده ونزاهته، وجعفر في بلاغته
وفصاحته، وموسى في نجده وشجاته، ومحمد في مروءته وبُعد همته؛ وفيهم
يقول الشاعر^(١): [مجزوء الرجز]

أولاد يحيى أربع كالأربع الطبائع
فهم إذا اختبرتهم طبائع الصنائع

لكن الفضل كان لتلقي العُفاة أبسطهم، وأمضاهم بالصلة عزيمة وأنشطهم،
وأمدّهم بالإنعام يدًا؛ لا سيما إن ترثم شاعر بمدحه أو شدا، وفيه يقول الخياط
المدني^(٢): [الطويل]

لمست بكفي كفه أبتغي الغنى ولم أذر أن الجود من كفه يعدي
فلا أنا مما قد أفاد ذوو الغنى أفدت وأعداني فأتلقت ما عندي

وفيهم يقول سلم الخاسر^(٣): [الطويل]

سأرسل بيتًا قد سمت جبينه يقطع أعناق البيوت الشوارد
أقام الندى والجود في كل بلدة أقام بها الفضل بن يحيى بن خالد

وفيهم قول مروان بن أبي حفصة، وجمعهم على النسق^(٤): [الطويل]

لك الفضل يا فضل بن يحيى بن خالد وما كل من يدعي بفضله الفضل
رأى الله فضلًا منك في الناس شائعًا فسمّاك فضلًا فالتقى الاسم والفعل
وزادك فضلًا أن أهلك في الورى كرام إذا أزرى بذى الشرف الكهل
ولم يَبْقَ فيك الجود للبخل موضعًا فأصبح يستعدي على جودك البخل
إذا كذبت أسماء قوم عليهم فاسمك صديق له شاهد عدل

(١) البيتان لم أجدهما في المصادر والمراجع التي بين يدي.

(٢) البيتان لبشار بن برد في ديوانه، وهما بيتان منفردان، ولدعبل الخزاعي في ديوانه، من ثلاثة أبيات، والبيت الثالث:

فُرْحْتُ وقد أشبهت في الجود حاتمًا فضيعة ما أعطى وأتلقت ما عندي

(٣) البيتان في ديوان سلم الخاسر، وهما بيتان منفردان.

(٤) الأبيات ليست في ديوان مروان بن أبي حفصة، ولم أجدها في المصادر والمراجع التي بين يدي.

وفيه يقول الحسن بن مطير رحمه الله تعالى^(١): [الطويل]

رأى الله للفضل بن يحيى فضيلة
ففضله والله بالناس أعلم
له يوم بؤس فيه للناس أبؤس
ويوم نعيم فيه للناس أنعم
فيمطر يوم الجود من كفه التدي
ويمطر يوم البؤس من كفه الدّم
ولو أن يوم الجود خلى يمينه
على الناس لم يصبح على الأرض مُعْدَم
ولو أن يوم البؤس خلى شماله
على الناس لم يُضْبَح على الأرض مُجْرَم

وممن فاه ببديع مدحه اللسان من ذوي الإنعام والإحسان

وصف أعرابي رجلاً فقال: ذاك رجل اشترى عرضه من الأذى، فهو وإن أعطى الدنيا بأسرها رأى بعد ذلك أن عليه حقوقاً منها. ومدح أعرابي قوماً بالجود، فقال: هم الذين جعلوا أموالهم مناديل أعراضهم، فالحمد فيهم زائد، والجود لهم شاهد، يُغطون أموالهم بطيب أنفس إذا طلبت إليهم، ويباشرون المكروه بإشراق الوجوه إذا بغى عليهم. ومدح آخر رجلاً، فقال: ما رأيت الرزق أبغض أحداً بغضه. وقالوا: فلان دواء الفقر إن سُئِلَ أعطى، وإن لم يُسأل ابتداءً. وقالوا: فلان يبذل ما جلّ، ويجبر ما اعتلّ، ويكثر ما قلّ. ومن كلام الثعالبي: فلان يُحيي القلوب بلفائه قبل أن يميت العدم بعطائه، فلان يوجب الصّلات وجوب الصّلاة، فلان لو أن البحر مدده، والسحاب يده، والجبال ذهبه، لَقَصُرَتْ عَمَّا يهبه. وقالوا: فلان له نفس فيحاء لا تضيق بالبذل، وأذن صماء لا تُضْغِي للعذل. وأما المنظوم في هذا فكثير؛ فمن ذلك قول المهلب بن أبي صفرة^(٢): [الكامل]

قومٌ إذا نزل الغريب بأرضهم ردّوه رُبّ صواهل وقيان

(١) الأبيات في ديوان حسين بن مطير الأسدي، من أربعة أبيات، مطلعها البيت الأول هنا.

(٢) الأبيات لأمية بن أبي الصلت في ديوانه، من قصيدة مطلعها:

قومي ثقيف إن سألت وأسرتي وبهم أَدافع ركن من عاداني =

لا يَنكُتون الأرض عند سؤالهم لتطلب الحاجات بالعيدان
بل يبسطون وجوههم فترى لهم عند السؤال كأحسن الألوان
آخر^(١): [الطويل]

نزلت على آل المهلب شاتياً بعيداً عن الأوطان في زمن محل
فما زال بي إكرامهم وافتقادهم والطافهم حتى حسبتهم أهلي
آخر^(٢): [الكامل]

لو قيل للعباس عم محمد قل لا وأنت مخلد ما قالها
إن المكارم لم تزل معقولة حتى فككت براحتيك عقالها
وإذا الكرام تسايروا في بلدة كانوا كواكبها وأنت هلالها
ما إن أعد من المكارم خصلة إلا وجدتكم عمها وخالها
الحُطينة^(٣): [الطويل]

تزور امرأ يعطي على الحمد ماله ويعلم أن الشخ غير مخلد
كسوب ومتلاف إذا ما لقيته تهلل واهتز اهتزاز المهتد
متى تأتبه تعشو إلى ضوء ناره تجد خير نار عندها خير موقد
أبو العتاهية^(٤): [المتقارب]

وإننا إذا ما تركنا السؤال فلم نَبْغِ نائله يبتدينا
وإن نحن لم نَبْغِ معروفه فمعرفه أبداً مبتغينا

= ولسلم الخاسر في ديوانه، من أربعة بيات، والبيت الرابع:

وإذا دعوتهم ليوم كريهة سدوا شعاع الشمس بالفرسان

والبيت فيه إقواء.

(١) البيتان بلا نسبة في الوافي بالوفيات، لصلاح الدين الصفدي، في ترجمة صريع الدلاء محمد بن عبد الواحد.

(٢) الأبيات لأبي العتاهية في ديواني المعاني، لأبي هلال العسكري، ص ٢٢٤، وليس في ديوانه.

(٣) الأبيات في ديوان الحُطينة، من قصيدة مطلعها:

آثرت إدلاجي على ليل حرّة هيم الحشا حسانة المتجرّد

(٤) البيتان في ديوان أبي العتاهية، وهما بيتان منفردان.

وقال مسلم بن الوليد مادحًا مِنْ أبيات^(١): [الكامل]

قبل أنامله فلَسْن أناملًا لكنهنّ مفاتح الأرزاقِ
واذكر صنائعه فلَسْن صنائعًا لكنهنّ قلائد الأعناقِ
يلقاك منه ثناؤه وعطاؤه بذكاء رائحة وطيب مذاقِ
كالشمس في كبد السماء محلّها وشعاعها قد شاع في الآفاقِ

مروان بن أبي حفصة^(٢): [البسيط]

له سحائبُ جود في أناملها أمطارها الفضة البيضاء والذهبُ
قول في العُسر إن أيسرت ثانية أقصرت عن بعض ما أُعطي وما أهبُ
حتى إذا عُذّن أيام اليسار له رأيت أمواله في الناس تنتهبُ

وما أحسن قول الكميت في خالد بن عبد الله القسري^(٣): [البسيط]

ما أنت في الجود إن عُدّت فضائله وابن مامة إلا البحر والوشلُ
أنسيتنا في التدى أمثال أولنا فأنت للجود فيما بعدنا مثلُ

آخر^(٤): [الكامل]

فضح الغمام نواله أو ما ترى ضحك البروق على الغمام الهاطلِ

وقال عامر بن الظرب العدواني مادحًا لقومه^(٥): [الطويل]

أولئك قوم شَيد الله فخرهم فما فوقه فخرٌ وإن عَظُم الفخرُ
أناس إذا ما الدَّهر أظلم وجهه فأيديهم بيض وأوجههم زَهْرُ
يَصُونون أحسابًا ومجدًا مؤثلاً يبذل أكْفُ دونها المزن والبحرُ
سُمّوا في المعالي رتبة فوق رتبة أحلَّتْهم حيث التَّعائم والنسرُ

(١) الأبيات في ديوان مسلم بن الوليد (صريح الغواني) من أربعة أبيات منفردة.

(٢) الأبيات ليست في ديوان مروان بن أبي حفصة، وهي لمروان بن صرد في الحماسة البصرية، للبصري، ص ٣٦٢.

(٣) البيتان للكميت بن زيد، قالهما لخالد بن عبد الله القسري، في الديباج، لأبي عبيدة، ص ٢٤، وليس في ديوانه.

(٤) البيت لم أجده في المصادر والمراجع التي بين يدي.

(٥) الأبيات في ديوان عامر بن الظرب العدواني، والبيت الأول هو مطلع القصيدة.

أضاءت لهم أحسابهم فتضاءلت
فلو لامس الصخر الأصم أكفهم
شكوت لهم آلاءهم وبلاءهم
ولو كان في الأرض البسيطة منهم
آخر^(١): [الطويل]

يبيتون في المشتا خماصاً وعندهم
إذا ضلّ عنهم ضيفهم رفعوا له
من الزاد فضلات تعدّ لمن يقرى
من النار في الظلّماء ألوية حمراء
آخر^(٢): [الكامل]

سهل الحجاب إذ خلّت ببابه
وإذا رأيت شقيقه وصديقه
طلق اليدين مؤدّب الخدام
لم تذر أيهما أخو الأرحام
وقال محمد بن هانيء الأندلسي^(٣): [الكامل]

أعطى وأكثر واستقلّ هباته
فاسم الغمام لديه وهو كنهور
فاستخيت الأنواء وهي هوامل
آل وأسماء البحار جداول
لم تخلُ أرض من نداه ولا خلا
من شكر ما يولي لسان قائل
آخر^(٤): [الطويل]

له راحة لو أن معشار جودها
إذا ما أتاه السائلون توقدت
على البرّ كان البرّ أندى من البحر
عليه مصابيح الطلاقة والبشر
له في دُرّى المعروف نُعمى كأنها
مواقع ماء المُزن في البلد القفر

(١) البيت الثاني لإبراهيم بن هرمة في ديوانه، وهو بيت منفرد.

(٢) البيتان لإبراهيم بن هرمة في ديوانه، من ثلاثة أبيات، أولها:

الله دَرَكَ من فتى فجعت به يوم البقيع حوادث الأيام

(٣) الأبيات في ديوان ابن هانيء الأندلسي، من قصيدة مطلعها:

هل أجَلُ مما أوَمَل عاجِلُ أرجو زماناً والزمان حلالُ

(٤) الأبيات للعكوك في ديوانه، من قصيدة مطلعها:

ألا ربّ هل يمنع النوم دونه أقام كقبض الراحتين على الجمر

آخر^(١): [السريع]

أصبح أهل الأرض زواره فماله نهب لزواره
كأنما أدر بين الورى مجاري الأرزاق من داره
بكر بن النطاح^(٢): [الطويل]

أقول لمرتاد الندى غير مالك تمسك بجدوى مالك وصلاته
فتى جعل الدنيا وقاء لعرضه وإسداءه المعروف عند عدايته
ولو خذلت أمواله جود كفه لقاسم من يرجو شطر حياته
لو لم يجز في العمر قسماً لطالب وجاز له الإعطاء من حسناته
لجاذبها من غير كُفر لربه وأشركه في صومه وصلاته
آخر^(٣): [الكامل]

يا أيها الملك الذي لنواله ظل تغرس دونه الآمال
أنعمت حتى ليس يقصد قاصد وبذلت حتى قلت السؤال
وجمعت أشتات المكارم والعلا فاهناً وأنت الواهب المفضل
علي بن الجهم في المتوكل^(٤): [مخلع البسيط]

يسرّ مرأٍ إمام عدل تغرق في بحرهِ البحارُ
مؤمل يرتجي ويخشى كأنه جئنة وناز
الملك فيه وفي بنيهِ ما دار بالأنجم المدارُ
لا زال في الملك ذا اغتباط ما طرد الليل والنهارُ
يداه بالجود ضرّتان عليه كلتاها تغارُ
لم تأت منه اليمين شيئاً إلا أتت مثله اليسارُ

(١) البيتان لم أجدهما في المصادر والمراجع التي بين يدي.

(٢) الأبيات في ديوان بكر بن النطاح، من خمسة أبيات هي هذه.

(٣) الأبيات لم أجدها في المصادر والمراجع التي بين يدي.

(٤) الأبيات في ديوان علي بن الجهم، من خمسة أبيات هي هذه، وهي نفسها في ديوان البحري.

المتنبي^(١): [البسيط]

لولا المشقة ساد الناس كلهم الجود يفقر والإقدام قتال
تملك الحمد حتى ما لمفتخر في الحمد حاء ولا ميم ولا دال
ومما ينبغي أن يكون لاحقاً بها ذكرناه وامتماً للغرض الذي أردناه
نوعان لهما في هذا الموضع لمن تأملهما أحسن موقع

النوع الأول

في ذم من أتبع الإحسان بالتعديد والامتنان

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى﴾ [البقرة: الآية ٢٦٤]. وقال عليه الصلاة والسلام: «إياكم والامتنان بالمعروف، فإنه يُبطل الشكر ويمحق الأجر»^(٢). وقالوا: المنة تهدم الصنعة. ويقال: تعداد المنة من ضعف المنة؛ ومنه قول عمر رضي الله عنه في ذم مثنان: شوي أخوك حتى إذا نضج رمد.

شاعر يذم مثنأ^(٣): [البسيط]

أفسدت بالمن ما وليت من حسن ليس الجواد إذا أسدى بمثنان
المن يهدم ما شيدت من كرم هل يرغب الحر في هدم لبنيان
وقالوا: لا خير في المعروف إذا أحصي. وقالوا: ما يعد لا يعتد. ويقال:
أحسن العطاء موقعاً ما لم يشب بمن؛ ويُشَدُّ في مثله^(٤): [مجزوء الرجز].
أحسن من كل حسن في كل وقت وزمن
صنعة مشكورة خالية من المن

(١) البيتان في ديوان المتنبي، من قصيدة مطلعها:

لا خيل عندك تُهدِيها ولا مالٌ فليسعدِ النطقِ إن لم تسعدِ الحال

(٢) أخرجه القرطبي في تفسيره ٣/٣١٢.

(٣) البيتان لم أجدهما في المصادر والمراجع التي بين يدي.

(٤) البيتان بلا نسبة في روضة العقلاء، لابن حبان البستي، ص ٥٤٤.

وَيُنْسَبُ لِلإمام الشافعي رضي الله عنه^(١): [مجزوء الكامل]

لا تحملن لمن يمن من الأنام عليك منه
واختر لنفسك حظها واصبر فإن الصبر جنة
مئن الرجال على القلو ب أشد من وقع الأسنة

وقال بعضهم لأعرابي: إن فلاناً يزعم أنه كساك، فقال: إن المعروف إذا من به كفر، وإذا ضاق قلبه اتسع لسانه. وقال لقمان: من عدد نعمه محق كرمه. وقالوا: إذا طوقت امرأة جوهر إحسانك، فلا تجعل المنة به حظاً لسانك، فينحل معقود نظامه، ويصير بדרه إلى السرار بعد تمامه. وقالوا: خير المعروف ما لم يتقدمه مطل، ولم يتبعه من؛ وقد أحسن قائل هذين البيتين^(٢): [البسيط]

إذا زرعت جميلاً فاسقه غدقاً من مكارم كي ينمو لك الشجر
ولا تبسه بمن فالذي نقلوا من عادة المن أن يؤذى به الثمر

ويقال: عليك حق لمن أجريت عليه المعروف أن تستره ولا تظهره، وتقدمه ولا تؤخره، وتستقلله ولا تستكثره، ولا تتبعه مناً ولا تبطله بأذى. وقال موسى شهبان يمدح حمزة بن عبد الله بن الزبير بترك المن^(٣): [الزمل]

حمزة المبتاع بالمال الثنا ويرى في بيعه أن قد غبن
وإذا أعطى عطاء مفضلاً ذا إخاء لم يكذره بمن

وقال إبراهيم بن العباس الصولي مفتخراً بترك المن^(٤): [الوافر]

أفرق بين معروفني ومئي وأجمع بين مالي والحقوق

وكان يقال: الأيادي ثلاثة: يدٌ بيضاء ويدٌ خضراء ويدٌ سوداء، فاليد البيضاء لابتداء بالمعروف، والخضراء المكافأة عليه، والسوداء المن به.

(١) الأبيات في ديوان الشافعي، وهي ثلاثة أبيات مفردة.

(٢) البيتان لم أجدهما.

(٣) البيتان لموسى شهبان (موسى بن يسار) في معجم الشعراء، للمرزباني، في ترجمته.

(٤) البيت في ديوان إبراهيم بن العباس الصولي، من ثلاثة أبيات، وهي:

أميل مع الزمام على ابن أمي وأقضي للصديق على الشقي
أفرق بين معروفني ومئي وأجمع بين مالي والحقوق
وأما تلفني حراً مطاعاً فأئك واجدي عبد الصديق

شاعر^(١): [المتقارب]

أراك تؤمل حسن الثناء ألم يرزق الله ذاك البخيلًا
وكيف يسود أخافطنة يمن كثيرًا ويعطي قليلًا

ومن أظرف الحكايات ولطف الفكاهات ما يُحكى أنّ الأشعث بن قيس قال
لرجل أسدى إليه معروفًا فلم يشكره عليه: ما شكرت معروف في عندك، فقال
الرجل: إنّ معروفك كان من غير مُحْتَسَب، فوقع عند غير شاكر. وليمّ بعضهم
على منّه بمعروف أسداه، فقال: إذا كفرت النعمة وجبت المنة. وليمّ آخر، فقال:
إذا جُحد الإحسان وجب الامتنان.

النوع الثاني

في أن من تمام المعروف ترك المظل به
وإعانة المستجدي على حصول مطلبه

قال جعفر الصادق: نظرت إلى المعروف فوجدته لا يتم إلا بثلاث: تعجيله
وستره وتصغيره؛ فإنك إذا عجلته هنأته، وإذا سترته تمّمته، وإذا صغّره عظّمته.
مدح بعضهم من هذه خلّته، فقال^(٢): [الرمّل]

زاد معروفك عندي عظمًا أنه عندك مستورٌ حقيّر
تتناساه كأن لم تأتِه وهو عند الناس مشكور كثير
آخر^(٣): [الطويل]

أيمت ذكر معروف تُريد حياته فإحياؤه حقًا إماتة ذكره
وصغره يعظم في النفوس محلّه فتصغيره في الناس تعظيم قدره
وقال عمرو بن العاص: ما استبطأني صاحب حاجة قط؛ لأنّي لا أعدّ شيئًا
قطّ حتى أعدّ له نجازًا، ولا أمنع شيئًا حتى أعدّ له عُذرًا. ويقال: إياك والمظل

(١) البيتان بلا نسبة في الإمتاع والمؤانسة، لأبي حيان التوحيدي، ص ٧٠٤.

(٢) البيتان للخريمي في ديوانه، من قصيدة مطلعها:

لا ينجاني في الندى إلا الندى وإذا همّ به لا يستشير

(٣) البيتان لم أجدهما في المصادر والمراجع التي بين يدي.

بالمعروف، فإنه مفسدة للمروءة، مهذمة للصنيعة، ممحقة الشكر، داعية للذم. شاعر^(١): [السريع]

يا صانع المعروف لا تمطلن يزداد ذو الحاجة في حاجته
فشز بمعروفك ممطوله وخيره ما كان في ساعته
لكل خير يُرتجى آفة ومَطلك المعروف من آفته

وسأل رجل رجلاً فاعتذر إليه وعجل صرفه، فقال: أصبت في الشكر من حيث أخطأت في الرد؛ لأنك صرفتني وفي الزاد بقية، وفي النفس رفق، وفي الوجه بقية ماء الحياة. شاعر^(٢): [البسيط]

جود الكرام إذا ما كان عن عدة وقد تأخر لم يسلم من الكدر
إنَّ السَّحائب لا تجدي بوارقها نفعاً إذا هي لم تمطر على الأثر
وماطل الوعد مذموم وإن سمحت يداه من بعد طول المطل بالبدر
آخر^(٣): [الخفيف]

كم جزيل من النوال أتاني بعد مطل وكان غير جزيل
أي فرق بين الكريم إذا استب طأت معروفه وبين البخيل
آخر^(٤): [الوافر]

رأيت المطل ميداناً طويلاً يروض طباعه فيه البخيل
يراود عن جداه نفس سوء يرى أن الندى حملٌ ثقيل
آخر^(٥): [السريع]

تعجيل جود المزم أكرومة ينشر عنه أطيب الذكر
والجر لا يمطل معروفه ولا يليق المطل بالحر

(١) الأبيات ليزيد بن جبل في الموشى، للوشاء، ص ٨٦.

(٢) الأبيات لابن عسكر الموصلي (إبراهيم بن نصر) في وفيات الأعيان، في ترجمته.

(٣) البيتان لم أجدهما في المصادر والمراجع التي بين يدي.

(٤) البيتان لابن الرومي في ديوانه، من قصيدة مطلعها:

أبا بكر لك المثل المعلى وخذ عدوك الترب الذليل

(٥) البيتان للمأمون في ديوانه، وهما بيتان منفردان، والموشى للوشاء، ص ٨٥.

وقالوا: المنع بالعدر الجميل، خيرٌ من المظل الطويل. وقالوا: المظل مرض المعروف، والإنجاز برؤه، والمنع تلفه. وقالوا: المسؤول حرٌّ حتى يعدّ، ومسترقّ بالوعد حتى ينجز. وقالوا: من مروءة المطلوب إليه أن لا يلجأ إلى الإلحاح عليه. وقالوا: الإسراع بالردّ خيرٌ من الإبطاء بالوعد. أبو تمام^(١): [الطويل]

وخير عداة المرء مختصراتها كما أن خير الليالي قصارها
وإن الليالي الصالحات كبارها إذا وقعت تحت المطال صغارها
وما العرف بالتسويق إلا كخلة تسليّت عنها حين شطّ مزارها
آخر^(٢): [الطويل]

إذا قلت في شيء نَعَمْ فَأَتَمَّهُ فإن نَعَمْ ذَيْنَ عَلَى الْحَرِّ وَاجِبُ
وَلَا فَقُلْ لَا وَاسْتَرْحِ وَأَرْخِ بِهَا لَكَيْلَا يَقُولَ النَّاسُ أَنَّكَ كَاذِبُ
وقالوا: لولا أن إنجاز الوعد فضيلة معدومة في أكثر الناس لما وصف الله سبحانه وتعالى نيته إسماعيل بصدق الوعد. شاعر^(٣): [الكامل]

إنّ الحوائج ربما أودى بها متطلّب يقضي له ممطوّلها
فإذا قصدت لطالب لك حاجة فاعلم بأنّ تمامها تعجيلها

الفصل الثاني من الباب التاسع

في منح الأماجد الأجواد ومُلح الوافدين والقُصّاد

فمّا يجب أن يقدم فيما يَمَنّاه تَلَطّف الراغب لينال ما تمناه

يقال: التلطف في السؤال سبب لتحصيل الثّوال. وقالت الحكماء: لطف الاستماع سبب النجاح. وقال العتّابي: إذا طلبت حاجة إلى ذي سلطان فأجمل في الطلب إليه، وإيّاك والإلحاح عليه؛ فإنّ اللّجاجة تُكَلِّمُ عرضك، وتُريق ماء

(١) الأبيات في ديوان أبي تمام، من قصيدة مطلعها:

رأيت العلا معمورة بك دارها إذا اجتمعت جاشاً وقرّ قرارها

(٢) البيتان لأبي الأسود الدؤلي في ديوانه، من قصيدة مطلعها:

عدّ من الرحمن فضلاً ونعمة عليك إذا ما جاء للخير طالبُ

(٣) البيتان لم أجدتهما.

وجهك، فلا تأخذ عوضًا مما أخذ منك، ولعلّ الإلحاح يجمع عليك أخلاق الوقاح، وحرمان النجاح؛ ولقد أحسن الأدب القائل^(١): [الكامل]

وإذا طلبت إلى كريم حاجة فلقاؤه يكفيك والتسليم
فإذا رأك مسلمًا عرف الذي حملته فكأنه ملزوم
نقض بعضهم هذا بقوله^(٢): [الكامل]

حتّ الجواد على الندى وتقاضه بالوعد واحمله على الإنجاز
ودع الوثوق بطبعه فلربّما نشط الجواد بشوكة المهمّاز
وقال بعضهم مقيمًا عذر من منع^(٣): [الكامل]

وإذا طلبت إلى كريم حاجة فأبى فلا تقعد عليه بحاجب
فربما ضنّ الجواد وما به بخل ولكن سوء حظّ الطالب

فمن أحاسن بدائع ما تلطف به

من استباح من الكلام الخادع لذوي السباح

ما حكى أن زياد ابن أبيه نظر إلى أعرابي يأكل على مائدته أكلاً ذريعاً، وهو من أقبح الناس وجهاً، فقال: يا أعرابي، كم عيالك؟ قال: سبع بنات أنا أجمل منهنّ، وهنّ أكل مني؛ فضحك زياد وقال: لله درك ما ألطف جوابك، افرضوا لكل واحدة منهنّ مائة دينار، وعجلوا لهنّ ذلك؛ وقد روى الأصمعي هذه الحكاية، وذكر أنها جرت لسعيد بن المحسن مع زياد، وأنه لما وصله ووصل أولاده خرج وهو ينشد^(٤): [الطويل]

إذا كنت مرتاد السماحة والندى فبادر زياداً أو أخال زياد
يجبك امرؤ يعطي على الحمد ماله إذا ضنّ بالمعروف كل جواد

(١) البيتان لأبي الأسود الدؤلي في ديوانه، من قصيدة مطلعها:

حسدوا الفتى إذا لم ينالوا سعيه فالحق أعداء له وخصوم

(٢) البيتان للحيص بيص في ديوانه، وهما بيتان منفردان.

(٣) البيتان بلا نسبة في الوافي بالوفيات، لصلاح الدين الصفدي، في ترجمة أبي الوحش الأسدي (سبع بن خلف بن محمد).

(٤) البيتان بلا نسبة في الأوائل، لأبي هلال العسكري، ص ٤٧٠.

وَحُكِّي أُنْ نصيبًا قال لعبد الملك بن مروان: يا أمير المؤمنين إنَّ لي بنات نفضت عليهنَّ من سوادي؛ فضحك منه، وأمر له بصلة. وقال المأمون للعتابي: سَلْنِي، فقال: يداك بالتوال أنطق من لساني بالسؤال. وقصد بعض الشعراء معن بن زائدة الشيباني يستجديه فأذن عليه، فلم يأذن له الحاجب، وكان معن في بستان له، فعمد الشاعر إلى قطعة خشب وكتب عليها^(١):
[الطويل]

أيا جود معن ناج معنًا بحاجتي فما لي إلى معن سواك رسولُ

وأرسلها في ساقية تصل إليه، فلما وصلت إليه وقرأها أذن له، ووصله بعشرة آلاف درهم. وأمر المأمون محمد بن حازم أن يرتجل بيتين من الشعر، فقال^(٢):
[السريع]

أنت سماء ويدي أرضها والأرض قد تأمل غيث السماء
فازرع يدًا عندي محمودة تحصد بها مني حُسن الثناء

فاستحسن ذلك منه، وأعطاه عشرة آلاف درهم. سأل أعرابي عبد الملك بن مروان، فقال له: سَلْ الله تعالى، فقال: قد سألته فأحالني عليك؛ فضحك منه وأعطاه. وقدم على مخلد بن يزيد بن المهلب رجل كان قد ازدراه فأجازه، فقال: ألم تكن قد أتيتنا فأجزناك؟ قال: بلى، قال: فما ردك؟ قال: قول الكميث فيك^(٣): [الوافر]

سألناه الجزيل فما تلكى وأعطى فوق منيَّتنا وزادا
وأحسن ثم أحسن ثم عدنا فأحسن ثم أحسن ثم عادا
مرارًا لا أعود إليه إلا تبسّم ضاحكًا وثنى الوسادا

فأضعف له ما كان أعطاه، وقد نسب ابن عبدوس هذه الأبيات لزياد بن عمرو العتكي في عبد الرحمن بن زياد في كتاب الوزراء له. ودخل أعرابي على

(١) البيت بلا نسبة في إعلام الناس بما وقع للبرامكة، للإتليدي، ص ٥٣٠.

(٢) البيتان في ربيع الأبرار، للزمخشري، ص ١٥١٠.

(٣) البيت الثالث في ديوان الكميث بن زيد الأسدي، وهو بيت منفرد.

خالد بن عبد الله القسري، فقال^(١): [الطويل]

أخالد إنني لم أزرِكَ لحاجة سوى أنني عافٍ وأنت جوادُ
أخالد بين الحمد والأجر حاجتي فأيهما تأتي فأنت عمادُ

فقال له خالد: سَل حاجتك؟ قال: مائة ألف درهم، قال خالد: أسرفت فأخطئنا منها، قال: حططتك أَلَفًا، فقال خالد: ما أعجب ما سألت وما حططت، فقال: لا يعجب الأمير سألته على قدره، وحططته على قدري؛ فضحك منه وأمر له بما طلب. وسأل رجل أسد بن عبد الله فقال: إنني لا أسألك من حاجة، ولكني رأيتك تحب من أعطيت، فأحببت أن تحبني؛ فأعطاه عشرة آلاف درهم. وقصد تمام بن حبيب بن أوس الطائي عبد الله بن طاهر بعد موت أبيه أبي تمام، فاستنشده فأنشده^(٢): [السريع]

حيّاك ربّ الناس حيّاكا إذ بجمال الوجه رؤّاكا
بغداد من نورك قد أشرقت وأورق العود بجدواكا

فأطرق عبد الله ساعة، ثم قال: [السريع]

حيّاك ربّ الناس حيّاكا إنّ الذي أملت أخطاكا
أتيت شخصاً قد خلا كيسه ولو حوى شيئاً لأعطاكا

فقال: أيها الأمير إنّ بيع الشعر بالشعر ربا، فاجعل بينهما فضلاً من المال؛ فضحك منه، وقال: لئن فاتك شعر أبيك، فما فاتك ظرفه، وأمر له بصيلة. وقف رجل لعبد الله بن طاهر في طريقه فناشده أن يقف له حتى ينشده ثلاثة أبيات، فوقف وقال له: قل، فأنشده^(٣): [المتقارب]

إذا قيل أي فتى تعلمون أهشّ إلى البائس والنائل
واضرب للهام يوم الوغى وأطعم في الزّمن الماحل
أشار إليك جمع الأنام إشارة غرقى إلى الساحل

(١) البيتان لبشار بن برد في ديوانه، والبيت الأوّل هو مطلع القصيدة.

(٢) الخبر والأبيات في زهر الآداب، للحصري القيرواني، ص ٧٥٦، وإعلام الناس بما وقع للبرامكة، للإتليدي، ص ٦٤٤.

(٣) الأبيات لإبراهيم بن هرمة في ديوانه، من ثلاثة أبيات.

فأمر له بخمسين ألف درهم. وكتب أحمد بن أبي طاهر إلى إسماعيل بن ببل رقة يذكر فيها اختلال حاله، وفي آخر الرقة^(١): [مجزوء الكامل]

يَا سَيِّدَ الْمَايَزِلْ غِيْثًا لِكُلِّ مُؤْمِلِيهِ
إِنْ كُنْتَ أَمْلَكَ دَرَهْمًا فَكَفَرْتَ بِالْمَنْقُوشِ فِيهِ

فبعث إليه بثلاثة آلاف دينار. حُكِيَ أَنَّ أَعْرَابِيًّا وَفَدَ عَلَى مَعْنِ بْنِ زَائِدَةَ، فَلَمَّا مَثَلَ بَيْنَ يَدَيْهِ، قَالَ: مِمَّنَ الرَّجُلُ؟ قَالَ: رَجُلٌ مِنَ الْعَرَبِ وَهُمْ أَصْلُكَ وَقَوْمُكَ، فَلَا تَشْغَلْنِي بِالسُّؤَالِ عَمَّا هُمْ فِيهِ مِنْ سُوءِ الْحَالِ، قَالَ: فَمَا حَاجَتُكَ؟ قَالَ: نَأْيُ بَلَدِي وَكَثْرَةُ وَلَدِي، وَضَعْفُ جَلْدِي، وَقَلَّةُ ذَاتِ يَدِي، فَاتَيْتُكَ يَا مَغِيْثَ الْهَيْفِ، وَجَابِرَ الضَّعِيفِ أَمَلًا لَجُودِكَ، رَاجِيًّا لَزُودِكَ؛ قَالَ: فَهَلْ مِنْ قَرَابَةٍ تَمَّتْ بِهَا أَوْ يَدٌ تَتَوَسَّلُ بِمِثْلِهَا؟ قَالَ: أَنْتَ أَفْضَلُ مِنْ أَنْ يَبْتَدِئَ مِثْلِي يَدًا إِلَى مِثْلِكَ، أَوْ يَتَوَسَّلَ إِلَيْكَ بِغَيْرِ فَضْلِكَ، أَوْ تَتَمَحَّلَ الْحِجْلُ عَلَيْكَ بِذَلِكَ، وَقَدْ قُلْتَ فِي ذَلِكَ شَعْرًا، قَالَ: هَاتِهِ؛ فَأَنْشَدَ^(٢): [الطويل]

أَيَا جُودَ مَعْنٍ نَاجٍ مَعْنًا بِحَاجَتِي فَمَا لِي إِلَى مَعْنٍ سِوَاكَ شَفِيعُ

قَالَ: إِذَا لَا أَشْفَعُ فَيْكَ، فَقَالَ الْأَعْرَابِيُّ: مَا أَنْتَ بِالْبَخِيلِ، فَأَوْجِهَ الذَّمَّ إِلَيْكَ وَلَا أَوْلَيْتَ مَا يُحْسِنُ ثَنَائِي عَلَيْكَ؛ ثُمَّ انْصَرَفَ وَهُوَ يَقُولُ^(٣): [الوافر]

بِأَيِّ الْخَصْلَتَيْنِ عَلَيْكَ أَثْنِي فَإِنِّي عِنْدَ مَنْصَرَفِي سَوْوُلُ
أَبَالْحَسَنِي وَلَيْسَ لَهَا ضِيَاءُ عَلَيَّ فَمَنْ يَصْدَقُ مَا أَقُولُ
أَمْ الْآخَرَى تَكُونُ فَتْلِكَ عَارَ عَلَى مَنْ دَابَّهَ الْفَعْلُ الْجَمِيلُ

فَرَّقَ لَهُ وَأَجَزَلَ صَلَاتَهُ. وَفَدَ عَلَى أَبِي دَلْفٍ قَاسِمِ بْنِ عَيْسَى الْعَجَلِيِّ مُسْتَجِدِّيًّا، فَأَقَامَ بِبَابِهِ مَدَّةً لَا يَصِلُ إِلَيْهِ، فَكَتَبَ فِي رَقْعَةٍ هَذِهِ الْأَبْيَاتَ^(٤): [الكامل]

مَاذَا أَقُولُ إِذَا أَتَيْتَ مَعَاشِرًا صَفْرًا يَدَيَّ مِنْ عِنْدِ أَرْوَعِ مَفْضَلِ
إِنْ قُلْتَ أَعْطَانِي كَذِبْتَ وَإِنْ أَقْلَ ضَنَّ الْجَوَادُ بِمَالِهِ لَمْ يَجْمَلِ

(١) البيتان لأحمد بن طيفور في ديوانه، وهما بيتان منفردان.

(٢) تقدّم البيت مع تخريجه قبل قليل برواية: «رسول»، بدل «شفيع».

(٣) الأبيات بلا نسبة في حماسة الظرفاء، للعبدلكاني الزوزني، ص ٢٦٢.

(٤) الأبيات في العقد الفريد، لابن عبد ربّه، ص ٤٣٨.

أَمْ مَا أَقُولُ إِذَا سُئِلْتُ وَقِيلَ لِي ماذا أفدت من الأمير المُجْزَلِ
ولأنت أعلم بالمكارم والعُلا مِنْ أَنْ أَقُولُ فَعَلْتُ مَا لَمْ تَفْعَلِ
فَاخْتَرْتُ لِنَفْسِكَ مَا أَقُولُ فَإِنِّي لَا بَدَّ أَعْلَمُهُمْ وَإِنْ لَمْ أَسْأَلِ
ودفعها، فلما وقف عليها أبو دلف أمر له عن كل يوم إقامة ألف درهم،
وكتب خلف الرقعة^(١): [الكامل]

أَعْجَلْتَنَا فَأَتَاكَ عَاجِلُ بَرْنَا نَزَرَا وَلَوْ أَمْهَلْتَنَا لَمْ نَقْلِلِ
فَخَذَ الْقَلِيلَ وَكُنْ كَأَنَّكَ لَمْ تَسَلْ وَنَكُونُ نَحْنُ كَأَنَّا لَمْ نَسْأَلِ
وَيُحْكِي أَنَّ أَبَا دُلَامَةَ دَخَلَ عَلَى الْمَنْصُورِ، فَأَنْشَدَهُ^(٢): [البسيط]

بَاتَتْ تَعَاتِبُنِي مِنْ بَعْدِ رَقْدَتِهَا أُمُّ الدَّلَامَةِ لَمَّا هَاجَهَا الْجَزْعُ
وَقَالَتْ ابْتَغِ لَنَا نَخْلًا وَمَزْدَرَعًا كَمَا لَجِيرَانُنَا نَخْلٌ وَمَزْدَرَعُ
خَادِعٌ خَلِيفَتُنَا عَنْهَا بِمَسْأَلَةٍ إِنَّ الْخَلِيفَةَ لِلتَّسَالِ يَنْخَدِعُ

فأمر أن يقطع ألف جريب عامرة، وألف جريدة غامرة، فقال أبو دلامة؛ أما
العامرة فقد عرفته، فما الغامرة؟ قال: ما لا يدركه الماء ولا يسقى إلا بالكلفة
والمؤنة، فقال أبو دلامة: أشهدك يا أمير المؤمنين ومن حضر أنني أقطعت
عبد الملك بادية بني أسد؛ فضحك المنصور وقال: يا عبد الملك اكتب عامرة،
فقال أبو دلامة للمنصور: ائذن لي في تقبيل يدك، فلم يفعل، فقال: ما منعني
شيئاً هو أهون على عيالي من هذا. وكان المنصور يدخل البصرة في أيام بني أمية
متستراً، فيجلس في حلقة أزهر السمان المحدث، فلما أفضت الخلافة إليه قدم
عليه أزهر الكوفة فرحب به وقرب منزله، وقال له: ما الذي أقدمك علينا؟ قال:
جئت طالباً فأمر له بعشرة آلاف درهم، وقال له: قد قضيت حاجتك، فأخذها
وانصرف ثم عاد إليه في قابل، فلما رآه قال له: ما جاء بك؟ قال: جئت مسلماً،
فأعطاه عشرة آلاف درهم، وقال: لا تأتنا طالباً ولا مسلماً، فأخذها وانصرف ثم
رجع إليه بعد عام، فقال له: ما الذي أقدمك علينا؟ قال: عائداً، فوصله بعشرة

(١) البيتان في خزانة الأدب، لعبد القادر البغدادي، ص ٢١٦٥.

(٢) الأبيات في ديوان أبي دلامة، من قصيدة مطلعها:

إِنَّ الْخَلِيطَ أَجَدَّ الْبَيْنِ فَانْتَجِعُوا يَوْمَ الْوَدَاعِ فَمَا جَاؤُوا وَمَا رَتَعُوا

آلاف درهم، وقال: لا تأتينا طالبًا ولا مسلمًا ولا عائداً، فأخذها وانصرف ثم عاد بعد سنة، فلما رآه قال له: ما الذي أتى بك؟ قال: دعاء كنت سمعته من أمير المؤمنين جئت لأكتسبه؛ فضحك المنصور وقال: إنه غير مُستجاب لأنني دعوت الله به أن لا يريني وجهك، فلم يستجب لي، وقد أمرنا لك بعشرة آلاف درهم، وتعال متى أردت فقد أعطينا فيك الحيلة؛ وكان المنصور مبخلاً جداً، وسنذكر شيئاً من أخباره في باب البخلاء إن شاء الله تعالى. وقصد الحكم بن عبدل الشاعر أسماء بن خارجة، فأنشده^(١): [الكامل]

أغفيت قبل الصبح نوم مسهد في ساعة ما كنت قبل أنامها
فرايت أنك رُغتنِي بوليدة مغناجة حسن لدي قيامها
وببدره حملت إليّ وبغلة شهباء ناجبة تصكّ لجامها
فسألت ربّي أن يُثيبك جنة عوضاً يصيبك بردها وسلامها

فقال له: أصبت كل شيء رأيته عندنا إلا البغلة، فإنها دهماء؛ فقال: أذكرتني أيها الأمير، فإني ما رأيته إلا دهماء؛ فضحك منه أسماء وأمر له بكل ما سأل. وحكى أبو الفرج الأصفهاني أن هذه الحكاية جرت لابن عبدل مع بشر بن مروان أخي عبد الملك، والله أعلم بالصحيح من ذلك. ودخلت امرأة من هوازن على عبيد الله بن أبي بكر، فوقفت بين السماطين وجعلت تلحظه وجهها مرة وتستره أخرى، فلما أبصرها علم أنّ لها حاجة، فقال لجلسائه: ما عليكم أن تقوموا حتى تقول هذه المرأة حاجتها، تقدّمت وقالت: أصلح الله الأمير إني أتيتك من أرض شاسعة، ترفعني رافعة، وتخفضني واضعة، لملمات قد أكلن لحمي، وبرين عظمي، وتركني أغصّ بالجريض، فضاقت بي من البلد العريض، وقد جئت بلداً لا أعرف فيها أحداً، لا قرابة تكنفني ولا عشيرة تعرفني، بعد أن سألت أحياء العرب من المرجوة نائله، المعطى سائله، فأرسلت إليك ودلت عليك، وأنا أصلحك الله امرأة قد هلك عنها الوالد، وذهب عنها الطارف والتّالد، ومثلك يسدّ الخلة ويُزيج الحلة، فأمّا أن تحسن صفدي وتقيم أودي، وإمّا أن تردني إلى بلدي؛

(١) الأبيات في ديوان الحكم بن عبدل، من خمسة أبيات، والبيت الخامس:

ليت المنابر يا بن بشر أصبحت ترقى وأنت خطيبها وإمامها

فقال: بل أجمع لك كل ما ذكرت، ثم أمر لها عشرة آلاف درهم وزاد وكسوة وراحلة.

أصاب الناس مجاعة على عهد هشام بن عبد الملك، فدخل عليه درواس بن حبيب العجليّ مع جماعة من قومه، فقال: يا أمير المؤمنين تتابعت علينا وعلى الناس سنون ثلاثة: أما الأولى فأكلت اللحم، وأما الثانية فأذابت الشحم، وأما الثالثة فمضت العظم، وفي أيديكم فضول أموال، فإن تكن لله فاعطفوا بها على عباده، وإن تكن لهم فعلام تحبسونها عنهم وتنفقونها إسرافاً وبداراً، والله لا يحب المُسرفين، وإن لم تكن لكم فتصدقوا بها عليهم إن الله يجزي المتصدقين، ولا يضيع أجر المحسنين؛ فقال هشام: لله أبوك، ما تركت لنا واحدة من ثلاث؛ وأمر بمائة ألف، فقسمت في الناس، وأمر لدرواس بمائة ألف درهم، فقال: يا أمير المؤمنين لكل واحد من المسلمين مثلها، قال: لا، ولا يقوم بذلك بيت المال، قال: فلا حاجة لي بما يبعث على ذمك، فالزمه بها؛ فلما عاد إلى منزله قسم تسعين ألفاً في أحياء العرب وحبس عشرة آلاف له ولقومه، فبلغ ذلك هشاماً فقال: لله درّه إن الصنيعة عند مثله تبعث على مكارم الأخلاق.

ومثلها ما يُحكى أنّ عبد الملك بن مروان حبس عن الناس العطاء، فدخل عليه أعرابيّ فقال: يا أبا الوليد بلغني أنّ عندك مالاً، فإن كان الله فاقسمه على عباده، وإن يكن لك فتفضل به عليهم، وإن يكن لهم فادفع إليهم أموالهم، وإن يكن بينك وبينهم قد أسأت شركتهم، ثم ولّى؛ فقال عبد الملك: اطلبوا الرجل، فطلبوه فلم يقدر عليه، فأمر للناس بأعطياتهم.

وممن أبرع من القصد في المدح وأجاد

فاستحقّ به الصلة ممن سمح وجاد

دخل النابغة على النعمان بن المنذر بن ماء السماء بن امرئ القيس بن عمرو بن عدّيّ اللّخمي، فحيّاه تحيّة الملوك؛ ثم قال: يفاخرك ذو فائش وأنت سائس العرب، وغرة الحسب واللات لأمسك أيمن من يومه ولعبدك أكرم من قومه، ولقفاك أحسن من وجهه، وليسارك أجود من يمينه، ولظنك أصدق من يقينه، ولوعدك أبلغ من رفته، ولخالك أشرف من جدّه، ولنفسك أمتع من جُنّده،

وليومك أزهر من دهره، ولفترك أبسط من شبره؛ ثم أنشد^(١): [البسيط]

أخلاق مجدك جلّت ما لها خطر في البأس والجود بين الحلم والخفر
متوّج بالمعالي فوق مفرقه وفي الوغى ضيغم في صورة القمر
إذا دجا الخطب جلاه بصارمه كما يجلي زمان المحل بالمطر

فتهلّل وجه النعمان سرورًا، ثم أمر أن يحشى فوه درًا، ويكسى أثواب الرّضا، وهي جباب أطواقها الذهب في قضب الزمرد، ثم قال النعمان: هكذا فلتمدح الملوك؛ وذوفائش المذكور هو سلامة بن يزيد بن سلامة من ولد يحصب بن مالك، وكان النابغة متصلاً به قبل اتصاله بالنعمان، وله فيه مدائح كثيرة مذكورة في ديوانه، وفائش مشتق من المفaiشة وهي المفخرة، قاله الأصمعي في اشتقاقه. ودخل أبو العتاهية إسماعيل بن قاسم بن سويد العنبري العتبيّ على عمرو بن العلاء مولى عمرو بن حريث الذي يقول فيه بشار بن بُرد من أبيات^(٢): [المقارب]

إذا أرقتك جسام الأمور فنّبّه لها عمرًا ثمّ نمّ
فتّى لا يبيت على دمنة ولا يشرب الماء إلّا بدم

فأنشده أبياتًا يقول منها^(٣): [الكامل]

إنّي أمنت من الزّمان ورّيبه لما علقت من الأمير حبالا
لو يستطيع الناس من إحلاله لحذّوا له حرّ الوجوه نعالا
إنّ المطايا تستبكيك لأنها قطعت إليك سباسبًا ورمالا
فإذا أتيت بنا أتيت مخفة وإذا رجعت بنار رجعت ثقلا

فأمر عمرو من حضر مجلسه أن يخلعوا عليه، فخلعوا عليه حتى لم يقدر على النهوض لما عليه من الثياب، فلمّا خرج حسده من كان ببابه من الشعراء،

(١) البيتان الأولان في ديوان النابغة الذبياني، وهما بيتان منفردان، وفي الديوان: «بين العلم والخبر»، بدل: «بين الحلم والخفر».

(٢) البيتان في ديوان بشار بن برد، من قصيدة مطلعها:

ونبئت قومًا بهم جنة يقولون من ذا وكنت العلم

(٣) الأبيات في ديوان أبي العتاهية، من قصيدة مطلعها:

يا صاح قد عظم البلاء وطالا وازددت بعده صبرة وخبالا

فبلغ عمرًا الخبر فقال: عليّ بهم؛ فلما دخلوا عليه ومثلوا بين يديه، قال لهم: ما أحسد بعضكم لبعض يا معشر الشعراء إن أحدكم يريد مدحنا فينسب في قصيدته بخمسين بيتًا، فما يبلغ مدحنا حتى تذهب حلاوة شعره وتعرى طلاوة رونقه، وأبو العتاهية بدأ بذكرنا، وختم بمدحنا؛ ثم أرسل إلى أبي العتاهية: أن أقم حتى أنظر في أمرك، فأقام أيامًا فلم يرَ شيئًا، وكان عمرو ينتظر مالا يجيء إليه من بعض أعماله، فأبطأ عليه، فكتب إليه أبو العتاهية هذه الأبيات^(١): [البسيط]

يا ابن العلا ويا ابن القرم مرداس إني مدحتك في صحبي وجُلّاسي
أثني عليك ولي حال تكذبني فيما أقول فأستحيي من الناس
حتى إذا قيل ما أعطاك من صفد طأطأت من سوء حال عندها رأسي

فقال عمرو لحاجبه: اكفّ عني أيامًا، ففعل، فلما طال على أبي العتاهية الانتظار كتب إليه يستحثّه^(٢): [الطويل]

أصابت علينا جودك العين يا عُمَرُ فنحن لها نبغي الثمائم والنشر
أصابتك عين من سخائك صلبة ويا ربّ عين صلبة تفلق الحجر
سنرقبك بالأشعار حتى تملّها وإن لم تفق منها رقبناك بالسور

فضحك عمرو وقال لصاحب بيت ماله: كم عندك؟ قال: سبعون ألفًا، قال: ادفعها له واعذرني عنده ولا تدخله عليّ، فإني أستحي منه. ولقد أحسن ابن الرومي في مدح مَنْ رأى أنه قصّر في عطائه، فاعتذر منه^(٣): [الكامل]

يعطي عطاء المحسن الخضل الندي عفواً ويعتذر اعتذار المُذنبِ

وما وقفت فيما طالعت من كتب الأدب على أحسن من قول القائل معتذراً
من تقصيره في معروف أسداه^(٤): [الطويل]

لو انبسطت فيما تؤمله يدي لجذت به عفواً ولو أنه الدنيا

(١) الأبيات في ديوان أبي العتاهية، وهي ثلاثة أبيات منفردة.

(٢) انظر الحاشية السابقة.

(٣) البيت ليس في ديوان ابن الرومي، وهو لأبي تمام في ديوانه، من قصيدة مطلعها:

أحسن بأيام العقيق وأطيب والعيش في أطلالهنّ المعجب

(٤) الأبيات لم أجدها في المصادر والمراجع التي بين يدي.

ولكُنْني والله والذي إليه الحجيج يقطعون الفلا سعيًا
طويت همومًا لو أُصيب ببعضها يد الدهر ما استطاعت لا يسرها طيا
خذ العفو واعذر صاحبًا لو بنفسه يبرّ والدنيا غلامك لاستحيا
آخر^(١): [البسيط]

خلّ إذا جِئته يومًا لتسأله أعطاك ما ملكت كفّاه واعتذرا
يخفي صنائعه والله يُظهرها إنّ الجميل إذا أخفيتَه ظهرا

وحكى جحظة البرمكي قال: أنشد مقدس الخلوقي طاهر بن الحسين بن مصعب بن زريق مولى طلحة الطلحات الخزاعي، فمدحه فلم يشبه وتغافل عنه حتى ركب في حراقة فعارضه، وقال له: بحقّ رأس أمير المؤمنين إلّا سمعت من ثلاثة أبيات؛ فأمر بإيقاف الحراقة، وقال: هات الأبيات؛ فأنشده^(٢): [المقارب]

عجبت لحراقة بن الحسيب من كيف تسير ولا تغرق
وبحران من فوقها واحد وآخر من تحتها مطبق
وأعجب من ذاك عيدانها إذا مسّها كف لا تُورق

فأمر له عن كل بيت بألف دينار. وكان طاهر بن الحسين من الأجواد ذُكر أنه جلس في مجلس يومًا فنظر في قصص ورقاع، فوقع عليها بصلات أُحصيت فكانت ألف ألف درهم. ركب الرّشيد في بعض أسفاره ناقة، فطلع عليه أعرابي، فأنشده^(٣): [الهجج]

أغيثًا تحمل الناقة أم تحمل هارونا
أم الشمس أم البدر أم الدنيا أم الدّينا
ألا كل ما قلت ه قد أصبح مأمونا

فأمر له بعشرة آلاف درهم. قام رجل بين يدي خالد بن عبد الله القسري، فقال: أصلح الله الأمير قد قلت فيك بيتين ولست أنشدهما حتى تعطيني قيمتهما،

(١) البيتان بلا نسبة في المحاسن والأضداد، للجاحظ، ص ١٣٣.

(٢) الأبيات لدعبل الخزاعي في ديوانه، وهي ثلاثة أبيات منفردة.

(٣) الأبيات ليوسف بن الحجاج بن يوسف، ابن الصيقل، ويلقب بلقوة، في معجم الأدباء، في ترجمته. ولابن أبي السعلاة في نور القبس، للحافظ اليعموري، ص ٢٧٦.

قال: وكم قيمتهما؟ قال: عشرون ألفاً، قال: أنشدتهما؛ فأنشد^(١): [الكامل]

قد كان آدم قبل حين وفاته أوصاك حين تجود بالحباء
ببنيه أن ترعاهم فرعيتهم فكفيت آدم عيلة الآباء

فأمر له بعشرين ألفاً وأن يُجلد خمسين سوطاً، وأن ينادى عليه: هذا جزاء
مَنْ لا يُحسن قيمة الشعر. وقف أعرابي لمعن بن زائدة في طريقه، فأنشده^(٢):
[مجزوء الكامل]

يا واحد العرب الذي أضحى وليس له نظير
لو كان مثلك في الورى ما كان في الدنيا فقير

فأمر له بألفي درهم. ومن حكاياته: أن رجلاً قال له: إني جعلت فضلك
سبيي إليك، وكرمك وسيلتي عندك، قال: سل، قال: ألف درهم، قال معن: قد
أربحتني أربعة آلاف درهم، وإني حدثت نفسي خمسة آلاف، فقال: أنت أكبر من
أن تربح على مؤمك؛ فأعطاه خمسة آلاف درهم. وأنشد أعرابي^(٣): [الوافر]

كتبت نعم ببابك حين تدعو إليك الناس مسفرة النقاب
وقلت ألا عليك بباب غيري فإنك لن ترى أبداً ببابي

فأعطاه ألف دينار. وحدث بعضهم قال: كنا مع يزيد بن مزيد، فإذا بصائح
في الليل: يا يزيد بن مزيد، قال: عليّ بهذا الصائح؛ فلما جيء به قال له: ما
حملك على أن ناديت بهذا الاسم، فقال: نقت دابتي ونفدت نفقتي، وسمعت
قول الشاعر فتمتيت به، فقال له: وما قال الشاعر؟ فأنشد^(٤): [الطويل]

إذا قيل مَنْ للمجد والجود والتدى فناد بصوت يا يزيد بن مزيد

فلما سمع مقاله هسّ له، وقال له: أتعرف يزيد بن مزيد؟ قال: لا والله،
قال: أنا هو؛ وأمر له فرس أبلق كان مُعجَباً به وبمائه. قام أعرابي بين يدي داود بن
المهلب وقال: إني قد مدحتك فاسمع، قال: على رِسلك، ثم دخل بيته فتقلد

(١) البيتان لم أجدهما في المصادر والمراجع التي بين يدي.

(٢) البيتان لابن المولى يمدح بها يزيد بن حاتم المهلب في وفيات الأعيان، في ترجمة يزيد بن حاتم.

(٣) البيتان لم أجدهما.

(٤) البيت بلا نسبة في وفيات الأعيان، لابن خلكان، في ترجمة يزيد بن مزيد الشيباني.

سيفه وخرج، ثم قال: قُلْ، فإن أحسنت حملناك، وإن أسأت قتلناك؛ فأنشد^(١):
[الطويل]

أمنت بدادود وجود يمينه من الحدث المخشي والبؤس والفقر
وأصبحت لا أخشى بدادود كبوة من الدهر أن شددت به أوزي
له حكم داود وصورة يوسف ومملك سليمان وعدل أبي بكر
فتى تفرق الأموال من جود كف كما يفرق السلطان من ليلة القدر

فقال له: قد حملناك، فإن شئت على قدرنا وإن شئت على قدرك؛ قال: بل على قدري، فأعطاه خمسين، فقال له جلساؤه: هلاً احتكمت على قدر الأمير، قال: لم يكن في ماله ما يفي بقدره، فقال له داود: أنت في هذا أشعر منك في شعرك، وأمر له بمثل ما أعطاه. وفد رجل على بعض الأمراء فسأله حاجة فقضاها، ثم سأله أخرى فقضاها، حتى قضى له سبع حاجات، فلما خرج من عنده قيل له: ما فعل بك؟ قال: ما أدري؛ ثم قال^(٢): [البسيط]

لكن أخبركم عنه بنادرة لم يأتها قبله عرب ولا عجم
قرأ عليه كتاباً منه كاتبه إلى أخ وجبت منه له نعم
حتى إذا ما مضت في رسالته قال استمع ثم يمضي بك الصمم
لا تكتبن بلا فيها إلى أحد شق الكتاب ومز فليكسر القلم

وفد أعرابي على مالك بن طوق، وكان زري الحال رث الهيئة، فمُنِع من الدخول إليه، فأقام بالرحبة أياماً، فخرج مالك ذات يوم يريد التزهة حول الرحبة، فعارضه الأعرابي فمنعه الشرطة ازدراء به، فلم يثن عنه حتى أخذ بعنان فرسه، ثم قال: أيها الأمير أنا عائد بك من شرطك؛ فنهاهم عنه وأبعدهم منه، ثم قال له: هل من حاجة؟ قال: نعم أصلح الله الأمير، قال: وما هي؟ قال: أن تصغي إليّ بسمعك وتنظر إليّ بطرفك وتقبل عليّ بوجهك، قال: نعم؛ فأنشده^(٣): [الطويل]

ببابك دون الناس أنزلت حاجتي وأقبلت أسعى نحوه وأطوف

(١) الخبر والأبيات في المحاسن والمساوي، لإبراهيم البيهقي، ص ٥٢٥.

(٢) الأبيات لم أجدها في المصادر والمراجع التي بين يدي.

(٣) الأبيات لم أجدها.

ويمنعني الحُجَّاب والليل مُسْبِل وأنت بعيد والرجال صفوفُ
يطوفون حولي بالقلوس كأنهم ذئاب جياح بينهنَّ خروفُ
فأما وقد أبصرت وجهك مُقْبِلًا وأصرف عنه أنني لضعيفُ
وما لي من الدنيا سواك وما لمن تركت ورائي مربع ومصيفُ
وقد علم الحيان قيس وخندف ومن هو فيها نازل وحليفُ
تخطيت أعناق الملوك ورحلتي إليك وقد أخنت عليَّ صروفُ
فجئتكَ أبغي الخير منك فهزني ببابك من ضرب العبيد صنوفُ
فلا تجعل لي نحو بابك عودة فقلبي من ضرب العبيد مخوفُ

فاستضحك مالك حتى كاد يسقط عن فرسه، ثم قال لمن حوله: مَنْ يُعْطِيهِ درهمًا بدرهمين وثوبًا بثوبين، فنثرت الدراهم ووقعت الثياب عليه من كلِّ جانب حتى تحير الأعرابي واختلط عقله لكثرة ما أعطي، فقال: هل بقيت لك حاجة يا أعرابي؟ قال: أما إليك فلا، قال: فإلى مَنْ؟ قال: إلى الله أن يبقيك للعرب، فإنها لا تزال بخير ما بَقِيَتْ لها. وحكى أبو بكر المارداني قال: كنت أساير الأمير أبا الجيش خمارويه بن أحمد بن طولون، وكان قد خرج إلى الصيد بدمشق؛ إذ تلقاه أعرابي فأخذ بعنان فرسه، وقال^(١): [البسيط]

إن السَّنان وحدَّ السيف لو نطقا لأخبرا عنك في الهَيْجاء بالعجبِ
أقبلت مالك تعطيه وتنهبه يا آفة الفضة البيضاء والذهبِ

فقال: يا غلام أعطه ما معك، فأعطاه خمسمائة دينار؛ فقال: يا أمير المؤمنين زدني، فقال لِمَنْ معه مِنْ غِلْمانه: اطرحوا له ما معكم من المناطق والسيوف؛ فحصل له منهم ما عجز عن حمله. وقال علقمة بن عبد الرزاق العليمي: قصدت بدرًا الجمالي بمصر، فرأيت أشراف الناس وكبراءهم وشعراءهم قد طال مقامهم على بابه، ولم يُؤْذَن لأحدٍ منهم، فبينما هم جلوس إذ خرج يريد الصيد، فأقمت حتى رجع من صيده، فلما قارب دخول البلد خرجت إليه ووقفت على نشز عالٍ من الأرض وأومأت إليه برقعة فوقف،

(١) البيتان لمروان بن صرد في الحماسة البصرية، للبصري ص ٣٦٢. والحماسة المغربية، للجراوي، ص ١٠٥.

فأنشدته^(١): [الكامل]

نحن الثُّجَّار وهذه أعلاقنا درّ وجود يمينك المبتاع
قلّد وفتّشها بسمعك إنما هي جوهر تختاره الأسماع
كسدت علينا بالشام وكلّما كسد المَتاع تعطل الضُّناع
فأتتك تحملها إليك تجارها ومطيّها الآمال والأطماع
حتى أناخوا نحو بابك والرجا من دونك السمسار والبياع
فبذلت ما لم يعطه في دهره هرم ولا كعب ولا القعقاع
وطلبت هذا الخلق في طلب العُلى والناس بعدك كلّهم أتباع

فلما فرغت من إنشادها سار قليلاً ثم وقف فاستعادها مني، فلما دخل داره واستقرّ به الجلوس استدعاني فأعدتها، فقال لمن كان عنده من خواصّه وعلمانه وأتباعه: مَنْ أَحَبَّنِي فليخلع عليه، فخلع عليّ مائة خلعة ووصلني بعشرة آلاف درهم. وحبس الحجاج بن يوسف يزيد بن المهلب لباق عليه كان بخراسان، وأقسم ليستأديته كل يوم مائة ألف درهم، فبينما هو قد جابها له ذات يوم إذ دخل عليه الأخطل؛ فأنشده^(٢): [الطويل]

أبا خالد ضاقت خراسان بعدكم وقال ذوو الحاجات أين يزيدُ
وما قطرت بالشرق بعدك قطرة ولا اخضرّ بالمرين بعدك عودُ
وما لسرير بعد بُعدك بهجة ولا لجواد بعد جُودك جودُ

فقال: يا غلام أعطه المائة ألف درهم، فإننا نصبر على عذاب الحجاج ولا نخيّب الأخطل؛ فبلغت الحجاج فقال: لله درّ يزيد لو كان تاركاً للسخاء يوماً لتركه اليوم، وهو يتوقع الموت. ومن أخبار يزيد أنّ الفرزدق دخل عليه، وهو محبوس

(١) الأبيات في وفيات الأعيان، لابن خلكان، في ترجمة الأفضل ابن أمير الجيوش بدر الجمالي.

(٢) الأبيات ليست في ديوان الأخطل، وهي لزيد الأعجم في ديوانه، وهي ثلاثة أبيات منفردة، ورواية البيت الثاني في الديوان:

فلا مطر المروان بعدك مطرة ولا اخضرّ بالمردين بعدك عودُ

فلما رآه مقيدًا، قال له^(١): [المنسرح]

أصبح في قيدك السماحة والـ جود وحمل الديات والحسب
لا بطر إن ترادفت نعم وصابر في البلاء محتسب

فقال له يزيد: ويحك ما أردت بمدحتي وأنا على هذه الحالة! فقال
الفرزدق: وجدتك رخيصًا، فأحببت أن أسلفك بضاعتي، فرمى إليه بخاتم كان في
إصبعه قيمته ألف دينار، وقال: هو ربحك أمسكه إلى أن يأتيك رأس المال.
ودخل جعيفران، واسمه جعفر بن علي كركري على أبي دلف، فأنشده^(٢):
[السريع]

يا أكرم الأئمة موجودا ويا أعز الناس مفقودا
لما سألت الناس عن سيد أصبح بين الناس محمودا
قالوا جميعًا أنه قاسم أشبه آباء له صيدا
لو عبد الناس سوى ربهم لكنت في العالم معبودا

فقال له: أحسنت يا غلام، أعطه ألف درهم؛ فقال: أيها الأمير وما أصنع
بها؟ مَزَّ الغلام يأخذها، ويعطيني منها كل يوم عشرة دراهم إلى أن تنفد، فقال أبو
دلف: أعطوه الألف، ومتى جاءكم أعطوه ما سأل؛ فأكتب جعيفران على يده
يقبلها، وقال^(٣): [مخلع البسيط]

يموت هذا الذي أراه وكل شيء له نفاذ
لو أن خلقًا له خلود عمر ذا المفضل الجواد

المختار من غرر نوعي الكلام في استنجاز ما تأخر من صلوات الكرام

يُحْكِي أَنَّ الْأَحْنَفَ بْنَ قَيْسٍ قَدِمَ عَلَى مُعَاوِيَةَ، فَأَقَامَ شَهْرًا لَا يَسْأَلُهُ فِيهَا
جَاءَ، فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِنَّكَ تَرَعِينِي مَرْعَى وَبَيْلًا، وَتَوَرَدُنِي ظَمًا طَوِيلًا،

(١) البيتان ليزيد بن الحكم الثقفي في ديوانه، من ثلاثة أبيات، والبيت الثالث:

برزت سبق الجياد في مهل وقصرت دون سعيك العرب
ورواية البيت الأول في الديوان:

أصبح في قيدك السماحة والـ جود وفضل الصلاح والحسب

(٢) الأبيات في ديوان جعيفران الموسوس، والبيت الأول هو مطلع القصيدة.

(٣) البيتان ليسا في ديوان جعيفران الموسوس، وهما له في طبقات الشعراء، لابن المعتز، ص ٦٦٧.

أفيأس ورواح، أو حبس ونجاح؟ فقضى حاجته. ووقف أعرابي على رجل يستجديه، فقال: إني امتطيت إليك الرجاء وسرت على الأمل، ووفدت بالشكر وتوسلت بحسن الظن؛ فحقق الأمل وأحسن المثوبة وأقم على الأود وعجل السراح.

وقال بعض الشعراء يستنجز^(١): [الوافر]

جعلت فداك قد وجب الزّمام وقد طال التلبّث والمقام
وقد أزف الرحيل إلى بلادي فرأيك لا عدمتك والسلام
المتنبّي^(٢): [البسيط]

لقد نظرتك حتى حان مُرتحلي وذا الوداع فكن أهلاً لما شئت

وكتب آخر يستجدي: بنا إلى معروفك حاجة، ولك على صِلتنا قوّة، فانظر في ذلك بما أنت له أهل ونحن له أهل. وطلب العتابي من صديق له حاجة، فقضى له نصفها ومطله بياقيها، فكتب إليه^(٣): [الطويل]

بسطت لساني ثم أمسكت نصفه فنصف لساني بامتداحك مطلق
فإن أنت لم تنجز عداتي تركتني وباقي لسان الشكر باليأس مطلق

وقال أبو تمام حبيب بن أوس الطائي^(٤): [الكامل]

إنَّ ابتداء المعروف مجدّ باسق والمجد كل المجد في استتمامه
هذا الهلال يروق أبصار الوري حسناً وليس كحسنة لتمايه

وكتب بعضهم يستنجز: حقيق على من أزهق بقول أن يُثمر بفعل، والسلام. وفد بشار بن بُرْد على يحيى بن خالد فامتدحه فوعده خالد ومطله، فتصدى له في

(١) البيتان بلا نسبة في محاضرات الأدباء، للراغب الأصبهاني، ص ١٨٠٨.

(٢) البيت في ديوان المتنبي، من بيتين، أولهما:

انصُر بجودك ألفاظاً تركت بها في الشرق والغرب من عاداك مكبوتاً

(٣) البيتان في المحاسن والأضداد، للجاحظ، ص ٢٨.

(٤) البيتان في ديوان أبي تمام، من قصيدة مطلعها:

لولا أبو يعقوب في إبرامه سبب العلى لا يخلّ ثني ذمائه

طريقه وهو يريد الجامع، وأخذ بعنان بغلته، وأنشد^(١): [الطويل]
 أَظَلَّتْ عَلَيْنَا مِنْكَ يَوْمًا سَحَابَةٌ أَضَاءَ لَهَا بَرْقٌ وَأَبْطَارُ شَاشُهَا
 فَلَا غَنِيمَهَا يَجْلِي فَيَنِيَّاسٌ طَامِعٌ وَلَا غَيْثُهَا يَهْمِي فَتَرْوِي عِطَاشُهَا
 فقال: لن تنصرف السحابة حتى تبلك يا أبا معاذ، وأمر له بعشرة آلاف درهم.

ولبشار أيضًا يستنجز^(٢): [الطويل]
 هَزَزْتُكَ لَا أَنِي وَجَدْتُكَ نَاسِيًا لَا مَرِيءٌ وَلَكِنِّي أَرَدْتُ التَّقَاضِيَا
 وَلَكِنْ رَأَيْتُ السَّيْفَ مِنْ بَعْدِ سَلِّهِ إِلَى الْهَزِّ مُحْتَاجًا وَإِنْ كَانَ مَاضِيَا
 ولبشار أيضًا^(٣): [الخفيف]

فِيكَ لِلْمَجْدِ شَيْمَةٌ قَدْ كَفَّثْنِي مِنْكَ عِنْدَ اللَّقَاءِ بِالْمَتَقَاضِي
 فَإِذَا الْمَجْدُ كَانَ عَوْنِي عَلَى الْمَرِّ تَقَاضِيَّتُهُ بَتَرَكَ التَّقَاضِي
 المفجع البصري يستنجز^(٤): [الرملي]

أَيُّهَا السَّيِّدُ عِشْ فِي غَبْطَةٍ مَا تَغْنَى طَائِرُ الْأَيْكِ الْغُرْدُ
 لِي وَعَدُّ مِنْكَ لَا تُنْكِرْهُ فَاقْضِهِ أَنْجَزَ حَرٍّ مَا وَعَدُ
 أَنْتَ أَخَيِّتَ بِمَبْذُولِ الثَّدْيِ سُنَّ الْجُودِ وَقَدْ كَانَ هَمْدُ
 فَإِذَا صَالَ زَمَانٌ أَوْسَطَا فَعَلَى مِثْلِكَ مِثْلِي يَغْتَمْدُ

أبو الحسن بن أبي البغل^(٤): [المقارب]

وَعَدْتُ فَأَنْجِزْ وَلَا تَبْلُنِي بِكَدِّ التَّقَاضِي وَذَلَّ السُّؤَالُ
 وَصُنْ وَجْهَ حَرٍّ بِرَاهِ الزَّمَانِ بِأَنْيَابِهِ مِثْلَ بَرِي الْخِلَالِ
 فَإِنْ ضَاقَ مَالُكَ عَنْ رَفْدِهِ فَجَاهُكَ أَوْسَعُ مِنْ كُلِّ مَالٍ

(١) البيتان في ديوان بشار بن برد، وهما بيتان منفردان.

(٢) انظر الحاشية السابقة.

(٣) انظر الحاشية ما قبل السابقة.

(٤) الأبيات لم أجدها في المصادر والمراجع التي بين يدي.

ابن الرومي^(١): [البسيط]

يا مَنْ تزيّنت الدنيا بطلعته وأصبحت منه في حلى وفي حللٍ
أوراد بحركم مثلي ومنصرفي في الواردين بلا علّ ولا نهلٍ
وأنت تعلم أنّ الصّبر من صبر فامزجه بالنّجح إنّ النّجح من عسلٍ
قصد أحمد بن الجليل سليمان بن حبيب بن المهلب مستجدياً، فأخّر عنه
مدّة فكتب إليه مستنجزاً^(٢): [الكامل]

ورد العفاة المعطشون فأصدروا ربّاً وطاب لهم لديك المكرُ
وأراك تُنظر جانباً عن جانبٍ وفناء أرضي من سمائك بلقُع
أيحسن منزلتي تؤخّر حاجتي أم ليس عندك لي لخير مطمُع
أبو تمام الطائي^(٣): [الطويل]

سحاب خطاني جوده وهو صيب وبحر عداني سَيْله وهو مفعُم
وبدّر أضواء الأرض شرقاً وغرباً وموضع رجلي منه أسود مظلُم
آخر^(٤): [الكامل]

ما لي ظمِئت وبحر جودك زاخرٌ سهل مشارعه على الوِزادِ
ما كان أجمل بالتجمل ملبسي وأعف في طلب القناعة زادي
لولا زمان أزمّنت حالي له نوب تراوح تارة وتغادي
واری فراخاً ضاق بي أوكارها وكذا البُغاث كثيرة الأولادِ

(١) الأبيات في ديوان ابن الرومي، من قصيدة مطلعها:

لا زلت تبلى أقصى السؤل والأمل ممتع النفس بالسراء والجدل
(٢) الأبيات للخليل بن أحمد الفراهيدي في ديوانه، من أربعة أبيات، والبيت الرابع:
ووردت حوضك ظامئاً متدفقاً فرددت دلوي شنهأ يتقعقعُ
والأبيات أيضاً للطرماع في ديوانه.

(٣) البيتان ليسا في ديوان أبي تمام، وهما للبحري في ديوانه، من قصيدة مطلعها:

على أي أمر مشكل أتلوُم أقيم فأشوى أم أهم فأعزمُ

(٤) الأبيات لأبي سعيد الرستمي في يتيمة الدهر للثعالبي ٣/٣٦٥.

آخر^(١): [الوافر]

أُمِرْتُ بِأَنْ أُقِيمَ عَلَى انْتِظَارِ لِرَأْيِكَ إِنَّهُ الرَّأْيُ الْأَصِيلُ
وَرَأَقِبْتُ الرَّسُولَ وَقُلْتُ إِنِّي سَيَأْتِينِي فَمَا جَاءَ الرَّسُولُ
فَلَيْسَ لغيرِ أَمْرِكَ لِي مَقَامُ وَلَا عَنْ غَيْرِ ذَاتِكَ لِي رَحِيلُ
وَقَدْ أَوْقَفْتُ عِزْمِي وَالْمِطَايَا فَقُلْ شَيْئًا لِأَفْعَلْ مَا تَقُولُ
المَعْرِي^(٢): [الوافر]

عَلَيْكَ مَوْيِدَ الدِّينِ اعْتِمَادِي فَلَا تَحْتَجْ إِلَى كَذِبِ الْأَعَادِي
تِمَادِي الْمِطْلَ وَالْأَمَالَ دَرَعِ وَطَوَّلِ الْإِنْتَظَارَ مِنَ الْحَدَادِ
وَقَدْ أَزَفَ الرَّحِيلَ وَأَنْتَ كَهْفِي وَمِنْ جَدْوَالِكَ رَاحِلَتِي وَزَادِي
زَفَقْتُ إِلَيْكَ أَبْكَارَ الْمَعَانِي فَزَفْ إِلَيَّ أَبْكَارَ الْأَيَادِي
آخر^(٣): [الرجز]

يَا جَابِرَ الْعَظْمِ إِذَا الْعَظْمُ انْكَسَرَ وَنَاعَشَ الْجَدَّ إِذَا الْجَدُّ عَثَرَ
أَنْتَ رَبِيعِي وَالرَّبِيعُ يَنْتَظِرُ وَخَيْرَ أَنْوَاعِ الرَّبِيعِ مَا بَكَرُ
أَبُو تَمَامَ^(٤): [الكامل]

عَمَلِي بِفَضْلِكَ قَادَ نَحْوِكَ حَاجَتِي فَأَتَتْ مُسَيَّأَتِي عُقَيْبُ ثَنَائِي
فَإَمْنُنْ عَلَيَّ بِنَجْحِ مَا أَمَلْتَهُ يَا سَيِّدِي وَمَعُولِي وَرَجَائِي
آخر^(٥): [الوافر]

أَجْرَنِي لَا عَدَمْتُكَ مِنْ مِطَالِكَ وَدَعْنِي مِنْ صَدُودِكَ وَاعْتِلَالِكَ
لَقَدْ كَثُرَتْ عِدَاتُكَ ثُمَّ طَالَتْ فَهَلْ وَعْدُ يَكُونُ لَهَا فَدْلُكَ

(١) الأبيات للبحري في ديوانه، من قصيدة مطلعها:

لَكَ النِّعْمَاءُ وَالْخَطَرُ الْجَلِيلُ وَمَنْكَ الرِّفْدُ وَالنِّيلُ الْجَزِيلُ

(٢) الأبيات ليست في ديوان أبي العلاء المعري، ولم أجدها في المصادر والمراجع التي بين يدي.

(٣) الرجز للعماني الراجز في ديوانه، وهو أربعة أشطار منفردة.

(٤) البيتان ليسا في ديوان أبي تمام، ولم أجدهما في المصادر والمراجع التي بين يدي.

(٥) البيتان لم أجدهما في المصادر والمراجع التي بين يدي.

ابن الرُّومي^(١): [الكامل]

كم ظهر ميت مقفر جاوزته فحللت رُبعا منك ليس بمقفر
جود كجود السَّيْل إلا أن ذا كدر وأن نذاك غير مكدر
الفطر والأضحى قد أنسلخا ولي أمل ببابك صائم لم يفطر
عام ولم ينتج نذاك وإنما تتوقع الحبلى لتسعة أشهر
حس لي ببحر واحد أغرقك في بحر أحيس به بسبعة أبحر

وَمِنْ أَحْسَن مَا اسْتَجْدَى بِهِ الْأَجَوَادُ، وَيُلْغ بِهِ غَايَةَ الْأَمَلِ وَالْمَرَادِ، مَا كَتَبَ بِهِ
كَلْثُومُ بْنُ عَمْرٍو الْعَتَابِيُّ إِلَى صَدِيقٍ لَهُ يَسْتَمْنَحُهُ: أَمَّا بَعْدُ؛ أَطَالَ اللَّهُ بَقَاءَكَ، وَجَعَلَهُ
يُمْتَدُّ بِكَ إِلَى رِضْوَانِهِ وَالْجَنَّةِ، فَإِنَّكَ كُنْتَ عِنْدَنَا رَوْضَةً مِنْ رِيَاضِ الْكَرَمِ تَبْتَهِّجُ
النَّفُوسَ بِهَا، وَتَسْتَرِيحُ الْقُلُوبُ إِلَيْهَا، وَكُنَّا نُعْفِيهَا مِنَ التَّجْعَةِ اسْتِمَامًا لَزَهْرَتِهَا وَشَفَقَةٍ
عَلَى خُضْرَتِهَا وَادِّخَارًا لثَمَرَتِهَا، حَتَّى أَصَابَتْنَا سَنَةٌ كَأَنَّهَا مِنْ سِنِي يُوسُفَ، فَكَذَّبْتَنَا
غَيُومُهَا، وَأَخْلَفْتَنَا بُرُوقَهَا فَانْتَجَعْتَكَ، وَإِنِّي بَانْتِجَاعِي إِيَّاكَ شَدِيدُ الْمَقَّةِ بِكَ عَظِيمُ
الشَّفَقَةِ عَلَيْكَ، مَعَ عِلْمِي بِأَنَّكَ غَايَةُ أَمَلِ الْقَصَادِ، وَأَعَذِبَ مَنَاهِلَ الْوَرَادِ، وَأَقُولُ مَا
قَالَ حَمَادُ عَجْرَدٍ^(٢): [البسيط]

ظَلَّ الْيَسَارَ عَلَى الْعَبَّاسِ مَمْدُود وَحَظَّهُ أَبَدًا بِالسَّعْدِ مَعْقُود
إِنَّ الْكَرِيمَ لِيَخْفِي عَنْكَ عَسْرَتَهُ حَتَّى تَرَاهُ غَنِيًّا وَهُوَ مَجْهُود
وَلِلْبَخِيلِ عَلَى أَمْوَالِهِ عِلَلٌ زُرُقَ الْعَيُونِ عَلَيْهَا أَوْجُهُ سُود
إِذَا تَكَرَّمْتَ عَنْ بَذْلِ الْقَلِيلِ وَلَمْ تَدْرِ عَلَى سِعَةٍ لَمْ يَظْهَرِ الْجُود
بَثَّ النِّوَالِ فَلَا تَمْنَعُكَ قَلَّتُهُ فَكَلَّ مَا سَدَّ فَقْرًا فَهُوَ مَحْمُود

قال: فشاطره ماله حتى إحدى نعليه، ونصف قيمة خاتمه. وكتب آخر:
الوعد أيسر مغارم الجود، وأخف محمول على عاتق الكرم المرفود، والمتقنع به
قد أسلف المظل أماله، وأوسع لخطو الندى محاله، وارتوى ببارق المزن قبل
المطر واكتفى بورق الغصن دون الثمر، فأبى عُذْرُ السَّمَاعِ إِذَا خَرَمَهُ طَالِبُهُ، وَحُمِيَ
عَنْهُ جَانِبُهُ، وَقَدْ وَجَدَ الْمَسْلُوكَ إِلَى الْمَطْلُوبِ سَهْلًا، وَالطَّالِبَ لَمَّا يَتَعَلَّقُ بِهِ الْوَعْدُ

(١) الأبيات في ديوان ابن الرومي، وهي خمسة أبيات منفردة.

(٢) الأبيات في ديوان حماد عجرد، والبيت الأول هو مطلع القصيدة، ورواية العجز فيه:

وقلبه أبدًا بالبخل معقود

أهلاً. شاعر^(١): [الكامل]

لا أقتضيك إلى السماح لأنه لك عادة لكُئماً أنا مُذَكَّرُ
وَكُنَّ السحاب إذا تمسَّك بالحيا رغبوا إليه بالدُّعاء فيمطرُ
أتى عليّ بن الجهم رجل فسَلَّم عليه، وقال له: وعدتني وعدًا إن رأيت أن
تنتجه فافعل، فقال: ما أذكر هذا الوعد، فقال له الرجل: صَدَقْتُ، فأنت لا تذكر؛
لأنَّ مَنْ قصدك مثلي كثير وأنا لا أنسى، لأنَّ مَنْ أسأله مثلك قليل؛ فأعجبه كلامه
وقضى حاجته؛ فأنشد^(٢): [الكامل]

فلقد قصدتك راجيًا في حاجتي ما يَرتجيه الطَّالِب الملهوفُ
فسررتني وبررتني بنجاحها وكذا يكون الجود والمعروفُ
آخر^(٣): [الطويل]

بدأت بتسهيل وثَّيت بالرِّضا وثَلثت بالحُسنى وربَّعت بالكرمِ
وحقَّقت لي ظنِّي وأنجزت موعدي وأبعدت لا عَنِّي وقربت لي نعم
آخر^(٤): [البسيط]

يا من سهرت اللَّيالي في الدُّعاء له حتى انتهى أمره السامي على الأُممِ
انظر إليّ بعين لو نظرت بها إلى اللَّيالي نَجَتْ من قبضة الظلمِ
حتى أقول لصرف الدَّهر كيف ترى تقابل السادة الأحرار بالخدمِ
آخر^(٥): [الكامل الأحذ]

إن أُنْتُ لم تحدث إليَّ يدًا حتى أقوم بشكر ما سلفا
لم أخْطَ منك بنائلٍ أبدًا ورجعت بالحرمان منصرفا

(١) البيتان لابن العودي الشاعر (سالم بن علي بن سلمان) في الوافي بالوفيات، لصلاح الدين الصفدي، في ترجمته.

(٢) البيتان لم أجدهما في المصادر والمراجع التي بين يدي.

(٣) البيتان لدعلب الخزاعي في ديوانه، والبيت الأول هو مطلع القصيدة، ولأحمد بن طيفور في ديوانه.

(٤) الأبيات لم أجدها في المصادر والمراجع التي بين يدي.

(٥) البيتان للناشئ الأكبر في ديوانه، وهما بيتان منفردان.

وفيما ذكرناه من هذه المُلح كفاية؛ إذ المحاسن لا يفضي الباحث عنها إلى غاية، ولو استقصينا ذكر ما أمطرته أكفّ الأجواد من سحائب الجود، لخرجنا مما نَحُوناه عن اغرض المقصود.

ومما يُحسن إلحاقه بهذا الفصل إطلاق اللسان بشكر أهل الإحسان والفضل

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَسْأُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ [البقرة: الآية ٢٣٧]، قال بعض المفسرين: إنه شكر اصطناع المعروف، وفي الحديث المشهور والتبأ المأثور: «من ذَكَرَ معروفًا فقد شكره، ومن ستره فقد كفره»^(١). وقال عليه الصلاة والسلام: «مَنْ كانت عنده نعمة فليُكافئ عليها، فإن لم يقدر فليُثن، فإن لم يفعل فقد كفر النعمة»^(٢). وقال لقمان لابنه: يا بني المعروف غلّ لا يفكّه إلا شكرًا ومكافأة. وقالوا: المعروف رقّ والمكافأة عتق؛ وقال الشاعر^(٣): [الخفيف]

كلّما قلت أعتق الشكر رقي صيرتني لك المكارم عبدا
فائن عمر الزمان حتى أؤدى شكر إحسانك الذي لا يؤدى

ويقال: الشكر وإن قلّ، ثمن كل نوال وإن جلّ. ويقال: الشكر تيممة لتمام النعمة. وقال أبو بكر الخوارزمي: إذا قصرت يدك بالمكافأة فليطل لسانك بالشكر. وقالوا: موقع الشكر من النعمة موقع القري من الضيف؛ إن وجده لم يُرْم، وإن فقدته لم يقم. وما أحسن قول مَنْ قال: الشكر غرس إذا أودع أذن الكريم أثر بالزيادة، وحفظ العادة؛ والسعد إذا أظلّته نعمة لم يלתه بسكرها عن شكرها. وقالوا: لا بقاء للنعمة إذا كُفرت، ولا زوال لها إذا شُكرت. ابن المعتز: شُكرُ نعمة سألقة، يفيض لك نعمة مستأنفة. وقال أبو بكر الخوارزمي: قد أراحني الشيخ ببدرة، لكن أتعبني بشكره، وخفف ظهري من ثقل المحن؛ لا بل أثقله بأعباء المِنَّ، وأحيانى بتحقيق الرجاء؛ لا بل أماتني بقرط الحياء، فأنا له عتيق بل رقيق،

(١) الحديث لم أجده بهذا اللفظ في كتب الحديث التي بين يدي.

(٢) الحديث لم أجده بهذا اللفظ، وفي الحديث: «من أتى إليكم معروفًا فكافؤوه...»، أخرجه بهذا اللفظ أبو داود في الزكاة باب ٣٨، والأدب باب ١٠٨، والنسائي في الزكاة باب ٧٢، وأحمد في المسند ٦٨/٢، ٩٩، ١٢٧.

(٣) البيت الأول بلا نسبة في زهر الأكم، لليوسي، ص ١٥٥٩.

وأسيرٌ بل طليق. ومن كلامه: اللهم ارزقني زمانًا أوسع من زماني، ولسانًا أفصح من لساني، وبنانًا أجري من بناني، حتى أقضي بالشكر حقوق إخواني، فلا بذل إلا بجود، ولا جود إلا من موجود، ولكن الدعاء غاية من ضاق إمكانه ولم يساعده زمانه؛ فكيف يكافئ مَنْ قَلَّتْ بسطته، وعجزت قدرته، وقطعت عن مسافة همته جدته. ولما بلغ الصاحب إسماعيل بن عباد موت أبي بكر الخوارزمي قال^(١): [الطويل]

سألت بريدًا من خراسان مُقْبِلًا أُمات خوارزميكم قال لي نعم
فقلت اكتبوا بالجص من فوق قبره ألا لعن الرحمن من كفر النعم

والذي أوجب قول الصَّاحِبِ لهذين البيتين أنه بلغه أن أبا بكر الخوارزمي قال فيه هذين البيتين^(٢): [البسيط]

لا تمدحَن ابن عباد وإن هطلت كفاه بالجود حتى جاوز الدِّيمَا
فإنَّها خطراتٌ من وساوسه يعطي ويمنع لا بخلاً ولا كرماً
فلما كفر بما أسدى إليه الصاحب بن عباد من المعروف ذكر هذين البيتين بعد موته.

ذكر من تبجَّح بذكر المعروف الذي أسدى إليه
وأقرَّ بعجز لسانه عن شكر المُنعم والثناء عليه

الشعالبي: شكري لا يقع في نعمه الظاهرة موقع النقطة من الدائرة، لأشكرتك ملء القلب واللسان شكر حسان إلى غسان؛ لأشكرتك شكر الأسير لمن أطلقه، والمملوك لمن أعتقه؛ لأشكرتك شكر الرياض للديم، وزهير لهرم. وقال آخر: لو استعرت الدهر لسانًا، والريح تُزجمانًا؛ لأشبع إحسانه حق الإشاعة، لقصرت عنه يد الاستطاعة. قال الأمير أبو الفتيان محمد بن حيوس

(١) البيتان في ديوان الصاحب بن عباد، وهما بيتان منفردان.

(٢) البيتان في معجم الأدياء، لياقوت الحموي، في ترجمة إسماعيل بن عباد (الصاحب). والبيت الثاني لدعلب الخزاعي في ديوانه، من قصيدة مطلعها:

لا تمدحَن حسنًا في الجود إن مطرت كفاه جزلاً ولا تذرته إن رزما

وأحسن كلّ الإحسان^(١): [الطويل]

سأشكر ما دام اللسان يُطيعُني صُنُوفًا أتت من جُودك المتتابع
توالت على من لا يدلّ بخدمة عليك ولا بدّ لي إليك بشافع

وقال إبراهيم بن المهدي مخاطبًا للحسن بن سهل، وقد شفع له عند
المأمون^(٢): [البيسط]

رَدَدْتَ مالي ولم تُضِنِّ عليَّ به وقبل ردك مالي قد حقنت دمي
لئن جحدتك ما أوْلَيْت من حسن إني لفي اللؤم أحظى منك في الكرم

آخر^(٣): [الطويل]

مواهب لو أني تكلفت نسخها لأفلس في أقلامها ومدايها

آخر^(٤): [الطويل]

ولو أنّ لي في كل منبت شعرة لسانًا يبث الشكر كنت مُقَصِّرًا

ابن عمرو^(٥): [الكامل]

طوّقتني منك الجميل فلائدًا وبررتني حتى حسبتك والدا
والله لو حلّ السجود لِمُنْعِمٍ ما كنت إلّا راعيًا لك ساجدا

آخر^(٦): [البيسط]

لو كنت أعرف فوق الشكر منزلة أعلى من الشكر عند الله في الثمن
إذا مَنَحَتْكَها مني مهذّبة حدّوا على حدّوا ما أوْلَيْت من حسن

(١) البيتان في ديوان ابن حيوس، من قصيدة مطلعها:

محل لهم بين النقا والأجارع عدته الغوايدي فاستناب مدامعي

(٢) البيت الثاني في المتنحل، للثعالبي، ص ١٧١.

(٣) البيت لم أجده في المصادر والمراجع التي بين يدي.

(٤) البيت في الوافي بالوفيات، لصلاح الدين الصفدي، في ترجمة محيي الدين بن عبد الظاهر.

(٥) البيتان لم أجدهما في المصادر والمراجع التي بين يدي.

(٦) البيتان للوزير المغربي في ديوانه، وهما بيتان منفردان.

آخر^(١): [الهزج]

لقد أفرطت في برّي وقد قَصُرْتُ في الشُّكرِ
وشكري عند إحسانك كالقطرة في البحرِ

آخر^(٢): [الكامل]

أنظتني أنسى أياديك التي أهدت إليّ من الزَّمان أمانا
لا والذي جعل المحنة محنة وهوى النفوس مذلةً وهوانا

وحبس الرّشيد العتابي على ذنبٍ اقترفه لم يحتمله منه، ولا أغضى له عنه،
فتناساه في الحبس مدّة، فشفع فيه خالد بن يزيد بن مزيد فأطلقه، فكتب العتابي
إليه يشكره^(٣): [البسيط]

ما زلت في غمرات الموت مُطَرِّحًا قد زال عني لطيف الفكر من حيلي
فلم تزل دائمًا تسعى بلطفك لي حتى اختلست حياتي من يدي أجلي
أبو نواس^(٤): [الكامل الأخذ]

قد قلت للعباس معذرةً من ضعف شكره ومعترفا
أنت امرؤ أحللتني نعمةً أوهت قوى شكري فقد ضعفا
لا تسدين إليّ عارفةً حتى أقوم بشكر ما سلفا
آخر^(٥): [البسيط]

يا زينة الناس والدنيا وما جمعت بالأمر والنهي والقرطاس والقلم
بإله أقسم لو ملكت ألسنة تبتثّ شكرك من فرقي إلى قدمي
لما وفيت بما أوليت من مننٍ ولا نهضت بما أسديت من نِعَمٍ

(١) البيتان لم أجدهما.

(٢) البيتان لم أجدهما في المصادر والمراجع التي بين يدي.

(٣) البيتان في فوات الوفيات، لابن شاعر الكتبي، في ترجمة العتابي كلثوم بن عمرو.

(٤) الأبيات في ديوان أبي نواس، من قصيدة مطلعها:

حلّت سعاد وأهلها سرفا قومًا عدى ومحلة قذفا

(٥) الأبيات لخالد الكاتب في ديوانه، من قصيدة مطلعها:

أغيب عنك بغيب غير متهم وصفوذة وشكر غير منصرم

الفصل الثالث من الباب التاسع

في ذم السرف والتبذير إذ ما لهما من سوء التدبير

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُبْذِرْ بَذِيرًا﴾ (٢٦) إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ [الإسراء: الآيتان ٢٦، ٢٧]. وقال ﷺ: «مِنَ السَّرْفِ أَنْ تَأْكُلَ كُلَّ مَا شَتَّ»^(١). وقال ﷺ: «آفةُ الجود السرف»^(٢).

والسرف اسم لما جاوز الجود، وقالوا: السرف هو أن يكون الرجل لا يبالي فيما يشتري أو يبيع أو يُعْبَن أو يُعْبَن، فيبيع بوكس ويشتري بفضل. وهذا كما قيل الحرّ يتغابن في ابتياع الحمد، ولا يتغابن في الشراء والبيع. وقيل لعبد الله بن جعفر: إنك تعطي الكثير إذا سُئِلْتَ، وتضيق في القليل إذا عُوْمِلْتَ؛ فقال: أجود بمالي وأضنّ بعقلي. وقالوا: السخاء خلقٌ مُستحسن ما لم يَنْتَه إلى سرفٍ وتبذير، فإنه مَنْ بذل جميع ما يملكه لا يستحقّه لم يسمّ سخياً، وإنما يسمّى مَبْذِراً مُضْتِيعاً. وقال معاوية: ما رأيت سرفاً قطّ إلّا وإلى جانبه حقٌّ مضتيع. وقالوا: يُوشك مَنْ أنفق سرفاً أن يموت أسفاً. وقالوا: ما وقع تبذير في كثيرٍ إلّا هدمه ودمره، ولا دخل تدبير في قليلٍ إلّا كثره وأثمره. وقال معاوية لولده يزيد: إنك إن أعطيت مالك في حقّ الحقّ يوشك أن يجيء الحق، وليس معك ما تعطي فيه. وقالوا: تطول ولا تطاول. وقال أبو بكر رضي الله عنه: إني لأبغض أهل بيت ينفقون رزق الأيام في اليوم الواحد. وقالوا: السرف في الإنفاق يفسد من النفس بمقدار ما يصلح مِنَ العَيْش. وقال عبد الله بن الزبير في محاوراة جرت بينه وبين ابن عباس: إن السرف من طينة السخاء ولكنه جاوز الحق، وما بعد الحق إلّا الضلال. وكان أبو الأسود الدؤلي يقول: يا بني إذا بسط الله عليك فأبسط، وإذا أمسك عنك أمسك ولا تجاوزه؛ فإنه أكرم منك وأجود. واسم أبي الأسود ظالم بن عمرو يُعَدُّ في التابعين والمحدثين والشعراء والنحويين والبخلاء والعرج والمفالج والبحر. وقالوا: التدبير يُنمي اليسير، والتبذير يدمر الكثير. وليم هشام بن عبد الملك على الإمساك في العطاء، فقال: إنا لا نعطي تبذيراً، ولا نُمْسِكُ تقْتيراً؛ إنما نحن خزان

(١) أخرجه ابن ماجه في الأُطعمة، باب ٥١.

(٢) أخرجه الزبيدي في إتحاف السادة المتقين، ٦/٣٦٤، ٨/٢٦٨.

الله في بلاده، وأمنائه على عباده؛ فإذا شاء أعطينا وإذا كره أبينا، ولو كان كل قائل يصدق، وكل سال يستحق، ما جبهنا قائلًا ولا ردّدنا سائلًا.

وربما عوقب المبذّر بالإفلاس، وصير بالفقر مثلة بين الناس. قال الأصمعيّ: قصد رجل من أهل الشام منزل إبراهيم بن هرمة، فإذا بنت له صغيرة تلعب بالطّين فقال لها: ما فعل أبوك؟ قالت: وفد إلى بعض الأجواد، فما لنا علم من عهد، فقال لها: قولي لأمك تنحر لنا ناقة، فإني وأصحابي أضيافها، فقالت: والله ما نملكها، قال: فشاة؟ قالت: والله ما نجدها، قال: فدجاجة؟ قالت: والله ما هي لنا في منزل، قال: فأعطينا بيضة، قالت: من أين البيضة إذا لم تكن الدجاجة! قال: فباطل ما قال أبوك؛ حيث قال^(١): [المنسرح]

كم ناقة قد وجأت منحرها بمستهلّ الشؤبوب أو جمل
لا أستع العوذ النصال ولا أبتاع إلا قريبة الأجل
لا غنمي في الحياة مدّلها إلى دراك العُلا ولا إبلي

قالت: فذاك الفعل من أبي أصارنا أن ليس عندنا شيء، فتركها ومضى. وكان عبد الله بن جعفر من الأجواد الذين يعمّون بجودهم طوائف العباد، وانتهى به الإفلاس وضيق اليد إلى أن سأله رجل، فقال له: إنّ حالي متغيرة بجفوة السلطان وحوادث الزّمان، ولكنني أعطيك ما أمكنني فأعطاه رداءً كان عليه ثم دخل منزله، وقال: اللهم استرني بالموت، فما أتى بعد دعوته إلّا أيام حتى مرض ومات رضي الله تعالى عنه. وفد أبو الشمقمق على محمد بن مروان بنيسابور يريد محمد بن عبد السلام، فلما دخلها صار إلى منزله فأخبر أنه في دار الخراج مطالب، فقصده ودخل عليه وهو قائم في الشمس وعلى عنقه صخرة عظيمة، فتغيّر له فلمّا رآه محمد قال^(٢): [الكامل]

ولقد قدمت على رجال طال ما قدم الرجال عليهم فتمولوا
أخنى الزّمان عليهم فكأنهم كانوا بأرض أفقرت فتحولوا

(١) الأبيات في ديوان ابن هرمة، من قصيدة مطلعها:

يا دار سعدى بالجزع من مليل حييت من دمنة ومن طليل

(٢) الخبر والأبيات في ثمرات الأوراق، لابن حجة الحموي، ص ٨١٤.

فقال أبو الشمقمق: [الكامل]

الجود فلْسهم وغير حالهم فالיום إن سُئِلوا التَّوال تبخلوا

دخل مالك بن دينار على أبي عون في الحبس، وكان قد ضربه بلال بن أبي بردة بالسَّياط، وإذا في الحبس جماعة من عمال السلطان في الحديد، فلم يلبث أن حضر غداؤهم، فجعل الخدم ينقلون ألوان الأطعمة، ف قيل له: يا أبا يحيى هلم، فقال: لا أريد أن أكل مثل هذا، ولا أن يُوضع في رجلي مثل هذا؛ وأشار إلى القيد. وكان للأعمش صديق متصرف في عمل السلطان، فبقي عليه مال فحبس فيه، فزاره الأعمش منغمساً له، فلما دخل عليه رأى بين يديه سلّة فيها فالودج، وهو يتغذى منها، قال: والله ما لازمت الوثاق إلّا بإسرافك في الإنفاق، فلو قنعت نفسك وعفّت يدك لم يكن مضيق السّجن مقعدك. ولهذا الإفلاس أكثر الناس كلامهم في التحذير، من عواقب التّبذير، وما أحسن قول الفقيه منصور رحمه الله^(١): [المجتث]

ثوب وكسرة وخبز وبیت كنّ وأمن
ألذ من كلّ ملك عُقباه ضرب وسجن

ومما يعدّ من الإسراف في البذل

اصطناع المعروف إلى اللّئيم والنّذل

قالوا: حدّ الجود أن يبذل الرجل ماله حيث يجب البذل، ويحفظه حيث يمكن الحفاظ، ومن بذل مكان الإمساك فهو مبذّر، ومن أمسك مكان البذل فهو بخيل. وقالوا: من الحزم أن تعلم أن مالك لا يسع الناس كلّهم فتوخّ به أهل الحقّ عليك، وأن كرامتك لا تسع المقلّين فاخصص بها أهل الفضل والمروءة ومن تمسّه الحاجة إليك، والإعطاء بعد المنع أجمل من المنع بعد الإنعام. وقال لقمان: المعروف كنز، فانظر من تُودعه. وقال عبد الملك^(٢) بن المقفّع: إنّ مالك لا يسع الناس، فاخصص به ذوي الكرم من أهلك وخاصّتك ودع الأجانب جانباً. وقال

(١) البيتان في ديوان منصور بن إسماعيل الفقيه، وهما بيتان منفردان.

(٢) كذا بالأصل: عبد الملك بن المقفّع، ولعله: عبد الله بن المقفّع.

صالح بن عبد القدوس سامحه الله^(١): [الخفيف]

لا تَجْدُ بالعطاء في غير حقِّ ليس في مَنع غير ذي الحقِّ بُخلُ
إنَّما الجود أن تجود على مَنْ هو للبذل منك والجود أهلُ
آخر^(٢): [السريع]

لا تصنع المعروف في ساقطٍ ذاك صنيع ساقط ضائع
وضَّعه في حُرِّ كريم يَكُنْ عُرفك مسكًا عُزفه ضائع
وقالت الحكماء: أصل كل عداوة اصطناع المعروف إلى اللئام. وقالوا:
الإحسان إلى اللئيم أَضْيَع من الرِّسم على بساط الماء، والخطُّ على بسيط الهواء.
وقالوا: زوال الدُّول باصطناع السُّفل. وقالوا: كُنْ جوادًا في موضع الجود، فإنَّ
أحمد جود الحرِّ الإنفاق في وجه البرِّ. وقال بعضهم: لا حسرة أعظم من نِعمة
أُسديت إلى غير ذي حَسَب ولا مروءة. وقال آخر: لا تصنعوا إلى ثلاثة معروفًا:
اللئيم، فإنه بمنزلة الأرض السَّبخة لا يظهر فيها البذر، وذلك لا يظهر فيه
المعروف؛ والفاحش، فإنه يرى أنَّ الذي صنعت معه إنما هو مخافة فُحشه؛
والأحمق، فإنه لا يدري قدر ما أُسديت إليه ولا يشكره عليه. قال الشاعر^(٣):
[الطويل]

لعمرك ما المعروف في غير أهله وفي أهله إلَّا كبعض الودائع
فمستودع ضاع الذي كان عنده ومستودع ما عنده غير ضائع
وما الناس في كفر الأيادي وشكرها إلى أهلها إلَّا كبعض المزارع
فمزرعة أجدت فأضعف زرعها ومزرعة أكدت على كل زارع
وقالوا: واضع المعروف في غير أهله؛ كالمسرَّج في الشمس، والزَّارع في
السَّبخ. قال الشاعر^(٤): [الطويل]

ومن يصنع المعروف مع غير أهله يلاقي كما لاقي مُجير أم عامر

(١) البيتان في ديوان صالح بن عبد القدوس، والبيت الأول هو مطلع القصيدة.

(٢) البيتان لعلِّي بن أبي طالب في ديوانه، وهما بيتان منفردان.

(٣) الأبيات لعبد الله بن همام السلولي في ديوانه، والبيت الأول هو مطلع القصيدة.

(٤) الأبيات بلا نسبة في المستطرف، للأبشيهي، ص ٩٨٢.

أعدّ لها لما استجارت ببيتته
وأمسكها حتى إذا ما تمكّنت
فقلّ لذوي المعروف هذا جزاء من
آخر^(١): [الطويل]

عليك بذی الأقدار فاكسب ثناءهم
وما مال من أعطى الكرام بناقص
آخر^(٢): [المتقارب]

إذا ما بدأت امرأ جاهلاً
ولم تلقه قابلاً للجميل
قسمه الهوان فإنّ الهوان
دواء لذي الجهل من جهله

وقالوا: العاقل يتخير لمعروفه كما يتخير الباذر ما زكا من الأرض لبذره.
وقالوا: رأس الرذائل اصطناع الأراذل. وقال الشاعر^(٣): [الطويل]

متى تُسدّ معروفاً إلى غير أهله زُرِيت ولم تظفر بحمد ولا أجر

ما احتجّ به سراة الأشراف في تحسين التبذير والإسراف

قد كنّا قدّمنا في أوّل فصل من هذا الباب جملة مما ورد عن الكرماء في
الحض على انتهاء الفرصة بالإنفاق ثقةً بالخلف من الكريم الرزّاق ما فيه كفاية،
فلم يقنعنا ذلك فذكرنا في هذا الموضع ما استدركناه ليتّم لنا الغرض المقصود فيما
نحونا من كلّ مُستحسن بديع لسرّ البراعة بلسان اليراعة يذيع؛ من ذلك قول الله
تعالى وهو أصدق القائلين: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ
الْزَّكَّاتِ﴾ [سَبَأ: الآية ٣٩]، وقول النبي ﷺ: «ينادي مناد كل ليلة: اللَّهُمَّ اجعل
لكل منفق خلفاً، ولكل ممسكاً تلقاً»^(٤)، وقوله ﷺ: «أنفق بلال ولا تخش من ذي

(١) البيتان لم أجدهما في المصادر والمراجع التي بين يدي.

(٢) الأبيات بلا نسبة في كتاب الصداقة والصدق، لأبي حيان التوحيدي، ص ٩٧.

(٣) البيت لم أجده في المصادر والمراجع التي بين يدي.

(٤) أخرجه البخاري في الزكاة باب ٢٧، ومسلم في الزكاة حديث ٥٧، وأحمد في المسند ٣٠٦/٢،

العرش إقلالاً^(١)، ولقد أجاد علي بن ذكوان في قوله^(٢): [البسيط]

أنفق ولا تَخْشَ إقلالاً فقد قسمت بين العباد مع الآجال أرزاق
لا ينفع البخل مع دنيا مولية ولا يضر مع الإقبال إنفاق

وحكي أن علي بن موسى الرضا رضي الله عنه وعن آبائه الكرام فرّق في يوم عرفة - وكان بخراسان - ماله كله، فقال له الفضل بن سهل: ما هذا المغرم؟ قال: بل هو المغنم، لا تعدنّ ما ابتغيت به أجراً أو كرمًا مغرمًا. وكان النبي ﷺ لا يدّخر شيئًا لغد. وقال بعض الحكماء: أنفق في الحقوق ولا تكن خازنًا لغيرك، فإن اغتممت على ما نقص من مالك، فابك على ما نقص من عُمرِكَ، فإنه لم يعمل في ماله وهو موجود عمل في ماله وهو مفقود. وقال بزرجمهر: إذا أقبلت عليك الدنيا فأنفق منها، فإنها لا تفي؛ فإذا أدبرت عنك فأنفق منها، فإنها لا تبقى. طاهر بن الحسين ناظرًا لهذا المعنى^(٣): [البسيط]

لا تبخلنّ بدنيا وهي مُقبلة فليس يُذهبها التبذير والسرف
فإن تولّت فأحرى أن تجود بها فالحمد منها إذا ما أدبرت خلف

ويقال: أنفق وأسرف، فإن الشرف في السرف. وقيل للحسن بن سهل - وكان مغطاً -: لا خير في السرف، فقال: لا سرف في الخير، وهذا من بدیع الكلام؛ وذلك أنه عكس على المُنكر كلامه، فكان جوابًا له وردًا عليه من غير أن يزيد فيه ولا ينقص منه. وقال الراضي بالله يخاطب لائمًا لآمه على السرف^(٤): [الكامل]

لا تكثرنّ عذلي على الإسراف ربح المحامد متجر الإشراف
أجري كبائني الخلائف سابقًا وأشيد ما قد أسست أسلافي
إني من القوم الذين أكفهم مُعتادة الإتلاف والإخلاف

(١) أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد ١٢٦/٣، والطبراني في المعجم الكبير ١٩٢/١٠، وابن كثير في تفسيره ٤٣٩/٧، والزيدي في إتحاف السادة المتقين ١٤٠/٧، وأبو نعيم في حلية الأولياء ٢٨٠/٢.

(٢) البيتان لجحظة البرمكي في ديوانه، وهما بيتان منفردان.

(٣) البيتان لعلي بن أبي طالب في ديوانه، وهما بيتان منفردان.

(٤) الأبيات في أخبار الراضي والمتقي لله، للصولي، ص ٨٩.

آخر^(١): [البسيط]

قامت تَلُوم على بذل التَّوال ولي به ولوُع فقلت اللُّوم في الباقي
لا تَجْزعي أن تري بي فاقة أبدًا فمن خزائن ربِّ العرش إنفاقي

آخر^(٢): [المتقارب]

ألا لا تَلُمني على بذل مالي فصَوْنِي لِعِرضي بمالي جمالي
وصوْنِي لمالي بعرضي فساد لعرضي وديني وجاهي ومالي

الصولي^(٣): [الخفيف]

لا تلومَنني فهمك أن أثـ رى وهمي مكارم الأخلاق
ليس يستطيع حفظ ما ملك ت كفاء مَن ذاق لذة الإنفاق

وقال المأمون لمحمد بن عبّاد: بلغني أنَّ فيك سرقة؟ فقال: يا أمير المؤمنين
منع الجود سوى الظنِّ بالمعبود، فقال المأمون: لا يُحسن السرف إلا بأهل
الشرف.

وقال البحتري يمدح معطاء أسبل الكرم عليه غطاء^(٤): [الكامل]

كرماً دعتك به القبائل مُسرفاً ما مُسرف في المكرمات بمُسرفٍ

وقال آخر يحضُّ على الإسراف في الصنائع^(٥): [الوافر]

ذهاب المال في حمد وأجر ذهابٌ لا يقال له ذهابٌ

(١) البيتان لم أجدهما في المصادر والمراجع التي بين يدي.

(٢) البيتان لم أجدهما.

(٣) البيتان في ديوان إبراهيم بن العباس الصولي، وهما بيتان منفردان.

(٤) البيت في ديوان البحتري، من قصيدة مطلعها:

أترارك تسمع للحمام الهتف شجراً يكون كشجوك المستطرف

(٥) البيت بلا نسبة في البيان والتبيين، للجاحظ، ٢١٢/١؛ وعيون الأخبار ١/٣٢٩.

الباب العاشر

في البخل

وفيه ثلاثة فصول:

الفصل الأول من هذا الباب

في ذم الإمساك والشح وما فيهما من الشين والقبح

فرّقوا بين الشح والبخل، فقالوا: الشح أن تكون النفس كزّة حريصة على المنع؛ كما قال الشاعر^(١): [الطويل]

يُمَارِسُ نَفْسًا بَيْنَ جَنْبِيهِ كَزّة إِذَا هُمْ بِالْمَعْرُوفِ قَالَتْ لَهُ مَهْلًا

وهو اللؤم، وأما البخل فهو المنع نفسه؛ فما جاء في البخل: قول الله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا ءَاتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا يَبْخُلُونَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ [آل عمران: الآية ١٨٠]، وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [٣٤] يَوْمَ يُخْمَلُ عَلَيْهِمْ فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَيُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُودُهُمْ وظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ [التوبة: الآيتان ٣٤، ٣٥]. قال بعض أهل المعاني: إنما خصّ هذه الأعضاء دون غيرها بالذكر لأنّ السائل إذا سأل البخيل زوى عنه وجهه، فإن ألح عليه أزور عنه بشقّ جنبه الذي يليه، فإن ألحف ولأه ظهره. وروى الخطيب أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بإسناده عن ابن عباس: أنّ النبي ﷺ قال: «لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ جَنَّةَ عَدْنٍ، قَالَ لَهَا: تَزِينِي، فَتَزَيَّنَتْ، ثُمَّ قَالَ لَهَا: أَظْهِرِي أَنْفَارَكَ، فَأَظْهَرَتْ عَيْنَ السَّلْسَبِيلِ، وَعَيْنَ الْكَافُورِ، وَعَيْنَ التَّسْنِيمِ، وَنَهْرَ اللَّبَنِ، وَنَهْرَ الْعَسَلِ، وَنَهْرَ الْخَمْرِ؛ ثُمَّ قَالَ لَهَا: أَظْهِرِي حُورَكَ وَحَلِيكَ وَحُلَّكَ وَسُرُوكَ وَحِجَالَكَ، ثُمَّ قَالَ لَهَا: تَكَلَّمِي، فَقَالَتْ: طُوبَى لِمَنْ دَخَلَنِي، فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ

(١) البيت بلا نسبة في محاضرات الأدباء، للراغب الأصبهاني، ص ١٧٩٠.

وجلّ: أنت حرام على كلّ بخيل»^(١)، أورده في كتاب البخلاء له. وقال رسول الله ﷺ لقوم من الأنصار: «مَنْ سَيِّدُكُمْ؟» قالوا: الجدّ بن قيس على بُخْلِ فيه، فقال عليه الصّلاة والسلام: «وَأَيُّ دَاءٍ أَذْوَ مِنْ الْبُخْلِ»^(٢). وقال عليه الصّلاة والسلام: «إِيَّاكُمْ وَالشَّخَّ، فَإِنَّهُ دَعَا مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ فَسَفَكُوا دِمَاءَهُمْ، وَدَعَاهُمْ فَاسْتَحَلُّوا مُحَارِمَهُمْ وَدَعَاهُمْ فَقَطَعُوا أَرْحَامَهُمْ»^(٣). وعنه عليه الصّلاة والسلام قال: «أقسم الله بعزّته وعظمته وجلاله لا يدخل الجنّة شحيح ولا بخيل»^(٤).

وقال عليّ بن أبي طالب: البخيل يتعجّل الفقر لنفسه يعيش في الدنيا عيش الفقراء، ويحاسب في الآخرة حساب الأغنياء.

وقال حكيم: لو أنّ البخل لم يدخل عليهم من ضير بخلهم ومذمة الناس لهم وإطباق القلوب على بغضهم إلّا سوء الظنّ برّهم في الخلف لكان عظيمًا، فإنّ الله تعالى يقول: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾ [سَبَأًا: الآية ٣٩]. وكفى بالبخل معرّة أن يمنع نفسه اكتساب الحسنات مع افتقاره إليها، ويحرمها مباح الشهوات مع اقتداره عليها، وربّما ترك التداوي وإن أحجفت به العلة، وأهمّل دفع المكاره عن نفسه، وقد نيّطت به المذلة لكثرة الإشفاق على الإنفاق، فهو لا يلقى في الدنيا شكورًا، ولا يلقى في الآخرة أجرًا مدخورًا. وقالوا: البخل من سوء الظنّ، وخمول الهمة، وضعف الرّويّة، وسوء الاختيار، والزهد في الخيرات. أو قال الحسن بن عليّ رضي الله عنهما: البُخل جامع المساوىء والعيوب، وقاطع المودات من القلوب. وقال سقراط: الأغنياء البخلاء بمنزلة البغال والحمير تحمل الذهب والفضّة، وتعتلف التبنّ والشّعير.

وحده، قالوا: هو منع المسترفد مع القدرة على رّفده. وكان أبو حنيفة لا يرى قبول شهادة البخيل، ويقول: بُخله يحمله على أن يأخذ فوق حقّه مخافة أن يُغبن، فمن هذه حاله لا يكون مأمونًا. وقال بشر بن الحارث الحافي: لا غيبة لبخيل، ولشرطيّ سخي أحبّ إليّ من عابدٍ بخيل. وقالوا: صديق البخيل من أطمعه وسقاه، وعدوّه من تركه وقلاه. وقيل: التّظر إلى البخيل يُقسي القلوب.

(١) أخرجه بنحوه الزبيدي في إتحاف السادة المتقين، ١٩٧/٨.

(٢) أخرجه البخاري في الخمس باب ١٥، والمغازي باب ٧٣، وأحمد في المسند ٣/٣٠٨.

(٣) أخرجه أحمد في المسند ٢/٤٣١.

(٤) أخرجه بنحوه الزبيدي في إتحاف السادة المتقين، ١٩٧/٨.

وقالوا: البخل يهدم مباني الشرف، ويسوق النفس إلى التلف. وقالوا: اتق الشُّخ، فإنه أَدْنَسُ شعار وأَوْجَشُ دثار. وقالوا: البخل يملأ بطنه والجار جائع، ويحفظ ماله والعرض ضائع. شاعر^(١): [الكامل]

وَمِنْ الْجَهَالَةِ بِالْمَكَارِمِ أَنْ تَرَى جَارًا يَجُوعُ وَجَارَهُ شَبَعَانُ
ويقال: مَنْ جَعَلَ عَرْضَهُ دُونَ مَالِهِ اسْتَهْدَفَ لِلذَّمِّ. وقال الراجز^(٢): [الرجز]
مَنْ يَجْمَعُ الْمَالَ فَلَمْ يَجْذِبْهُ وَيَجْمَعُ الْمَالَ لِعَامٍ جَذِبَهُ
يَهْنُ عَلَى النَّاسِ هَوَانٌ كُلِّهِ
وقال إسحق بن إبراهيم الموصلي^(٣): [الطويل]

أَرَى النَّاسَ خِلَانَ الْجَوَادِ وَلَا أَرَى بَخِيلًا لَهُ فِي الْعَالَمِينَ خَلِيلُ
وَإِنِّي رَأَيْتُ الْبَخِيلَ يُزْرِي بِأَهْلِهِ فَأَكْرَمْتُ نَفْسِي أَنْ يَقَالَ بَخِيلُ
وقالوا: البخل لا يستحق اسم الحرّية، فإنه يملكه ماله. وقالوا أيضًا:
البخل لا مال له، إنما هو لماله. وقال قيس بن معديكرب لبنيه: يَا بُنَيَّ إِنَّا كَمِ
وَالْبَخْلُ، فَإِنَّهُ مَنْ اكْتَسَبَ مَالًا فَلَمْ يَصُنْ بِهِ عَرْضًا بَحَثَ النَّاسُ عَنْ أَصْلِهِ، فَإِنْ كَانَ
مَدْخُولًا هَرَّتْ وَهُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مَدْخُولًا أَلْزَمُوهُ ذَنْبًا رَمَوْهُ بِهِ وَمَقْتُوهُ، وَأَكْسَبُوهُ عَرَقًا
هَجِينًا حَتَّى يَهْجَنُوهُ، وَالْبَخْلُ دَاءٌ، وَنَعْمَ الدَّوَاءُ السَّخَاءُ.

وقال الحسن البصري: لَمْ أَرُ أَشَقَى بِمَالِهِ مِنَ الْبَخِيلِ لِأَنَّهُ فِي الدُّنْيَا مُهْتَمٌّ
بِجَمْعِهِ، وَفِي الْآخِرَةِ مُحَاسِبٌ عَلَى مَنَعِهِ، غَيْرَ آمِنٍ فِي الدُّنْيَا مِنْ هَمِّهِ، وَلَا نَاجٍ فِي
الْآخِرَةِ مِنْ إِثْمِهِ، عَيْشُهُ فِي الدُّنْيَا عَيْشُ الْفُقَرَاءِ، وَحِسَابُهُ فِي الْآخِرَةِ حِسَابُ
الْأَغْنِيَاءِ؛ أَخَذَهُ مِنْ كَلَامِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وَدَخَلَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ
عَلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْأَهْتَمِّ يَعُودُهُ فِي مَرَضِهِ، فَرَأَاهُ يَصْعَدُ بَصْرَهُ وَيَصُوبُهُ إِلَى صَنْدُوقٍ
فِي زَاوِيَةٍ مِنْ بَيْتِهِ، ثُمَّ التَفَتَ إِلَيْهِ وَقَالَ: يَا أَبَا سَعِيدٍ مَا تَقُولُ فِي مِائَةِ أَلْفٍ فِي هَذَا
الصَنْدُوقِ لَمْ أَوْدَ مِنْهَا زَكَاةً، وَلَمْ أَصِلْ مِنْهَا رَحِمًا؟ قَالَ: ثَكَلْتُكَ أَمْكُ، وَلَمْ نَكُنْ

(١) البيت لم أجده في المصادر والمراجع التي بين يدي.

(٢) الرجز بلا نسبة في كتاب البخلاء للجاحظ، ص ٣٥٠.

(٣) البيتان في ديوان إسحق الموصلي، من قصيدة مطلعها:

وامرة بالبخل قلت لها اقصري فذلك شيء ما إليه سبيل

تجمعها؟ قال: لروعة الزَّمان، وجفوة السلطان، ومكاثرة العشيرة؛ ثم مات فشهد الحسن جنازته، فلما فرغ من دفنه ضرب بيده على القبر، ثم قال: انظروا إلى هذا أتاه شيطانه، فخوفه روعة زمانه، وجفوة سلطانه بما استودعه الله إياه، انظروا إليه كيف خرج منها مذموماً مدحوراً؛ ثم التفت إلى وارثه وقال: أيها الواث لا تخذعن كما خُدع صُويحبك بالأمس أذاك هذا المال حلالاً، فلا يكوننَّ عليك وبالاً، أذاك عفواً صفواً ممن كان جموعاً مُتوَعاً من باطل جمعه، ومن حقَّ منعه قطع فيه لُجج البحار ومفاوز القفار، لم تكدح لك فيه يمين، ولم يعرق لك فيه جبين، إنَّ يوم القيامة ذو حسرات، وإنَّ مِنْ أعظم الحسرات غداً أن ترى مالك في ميزان غيرك، فيا لها حسرة لا تُقال، وتوبة لا تُنال.

ما اخترت مِنْ محاسن كلام الفصحاء وتأثَّتهم في ذمِّ اللُّثام الأشخاء

كتب بعض الأدباء إلى صديق له يستشيريه في قصد بعض الرؤساء تأمياً لنائله - وكان معروفاً بالبخل - فأجابه: كتبت إليَّ تسألني عن فلان، وذكرت أنك هَمَمْتَ بزيارته وحدَّثتكَ نفسك بالقُدوم عليه، فلا تفعل أُمْتع الله بك، فإن حُسْنَ الظنِّ به لا يقع إلَّا بخذلان مِنْ الله، وأنَّ الطَّمع فيما عنده لا يخطر على القلب إلَّا من سوء التوكُّل على الله، والرجاء لما في يديه لا يُبْتَغى إلَّا بعد اليأس من روح الله؛ لأنه رجل يرى التقدير الذي نهى الله عنه هو التبذير الذي يُعاقب عليه، وأنَّ الاقتصاد الذي أمر الله به هو الإسراف، وأن بني إسرائيل لم يستبدلوا المَن بالعدس، والسُّلوى بالبصل إلَّا لفضل حلومهم، وقديم علم توارثوه عن آبائهم، وأن الضَّيافة مرفوضة والهبة مكروهة والصدقة منسوخة، وأنَّ التوسُّع ضلالة، والجود فسق وجهالة، والسخاء مِنْ همزات الشياطين؛ كأنه لم يسمع بالمعروف إلَّا في الجاهلية الأولى التي نسخ الله جميل أخبارها، ونهى عن اتباع آثارها، وكأنَّ الرجفة لم تأخذ أهل مدين إلَّا لسخاء نُسب إليهم، ولا أهلكك الرِّيح العقيم عاداً إلَّا لإفضالٍ كان فيهم، وهل يُخشى العقاب إلَّا على الإنفاق، ويرجو العفو لا بالإمساك، ويَعِدُّ نفسه بالفقر ويأمرها بالبخل خيفة أن ينزل به قوارع الظالمين، أو يصيبه ما أصاب الأولين؟ فأقيم رحمك الله بمكانك واصبر على خطب زمانك، وامضْ على عسرتك؛ فعسى أن يبدلك الله خيراً منه زكاةً وأقرب رحماً.

وكان محمد بن يحيى بن خالد مبخلاً بالنسبة لأبيه، وأخويه جعفر والفضل، فسُئِلَ الجمار عن مائدته، فقال: فتر في فتر، وصحافها منقورة من خشب الخشخاش، وبين الرغيف والرغيف مضرب كرة، وبين اللّون واللّون فترة نبيّ، قيل: فمن يحضره؟ قال: خير خلق الله وشَرّهم، قيل: مَنْ هم؟ قال: الملائكة، والذباب؟ قيل له: أنت به خاص وثوبك مخرق، فقال: والله لو ملك بيتاً من بغداد إلى النوبة مملوء إبراً ثم جاءه يعقوب النبيّ ومعه الأنبياء شفعاء والملائكة ضُمناء يسألونه إعاره إبرة يخطط بها قميص يوسف الذي قُدَّ مِنْ دُبُرٍ ما فعل؛ أخذه الشاعر ونظمه في قوله^(١): [الكامل]

لو أن قصرِكَ يا ابن أغلب ممتلئ إبراً يضيق بها رحاب المنزل
وأناكَ يوسف يستعيركَ إبرةً ليخطط قدّ قميصه لم تفعل
آخر يهجو بخيلاً^(٢): [الكامل]

لو أن دارك أمطرت عرصاتِها إبراً يضيق لها رحاب المنزل
وأناكَ يوسف يوم قدّ قميصه يرجو نوالك في إبرة لم تفعل
وقيل لأبي القاسم خمين: تغذيت عند فلان؟ قال: لا، ولكني مررت ببابه وهو يتغذى، قيل له: وقد عرفت ذلك؟ قال: رأيت غلماناً بأيديهم قسيّ البندق يرمون بها الطير في الهواء. وذمّ أعرابيّ قوماً، فقال: لهم بيوت ندخلها حبواً إلى غير نمارق ولا وسائل، فصح الألسن برداً لسائل، جعد الأكفّ عن التائل. وذمّ أعرابيّ قوماً، فقال: ما كانت النعمة فيهم إلّا طيفاً، فلما انتبهوا لها ذهب عنهم؛ فقال شاعر وكأنه ألمّ بهذا المعنى في قوله^(٣): [المقارب]

خنازير ناموا عن المَكْرُمات فأيقظهم قدر لم ينم
فيا قُبْهم في الذي خولوا ويا حُسْنهم في زوال النعم
نزل أعرابيّ برجل، فقال له بعض قومه: لقد نزلت بوادٍ غير ممطور، ورجل بقدومك غير مسرور، فأقم بندم أو ارتحل بَعْدَم. وقال المتوكّل لأبي العيْناء: مَنْ

٤

(١) البيتان بلا نسبة في روضة العقلاء، لابن حبان البستي، ص ٥٠٦؛ وحماسة الظرفاء، للعبدلكاني الزوزني، ص ١٦٢.

(٢) انظر الحاشية السابقة. (٣) البيتان لجرير في ديوانه، وهما بيتان مفردان.

أبخل مَنْ رأيت؟ قال: موسى بن عبد الملك بن صالح، قال: وما رأيت مِنْ بخله؟ قال: رأيتَه يَحْرُمُ القريب كما يَحْرُمُ البعيد، ويعتذر مِنْ الإحسان كما يعتذر مِنْ الإساءة. وقال بشار: مَنْ استضاف فلانًا استغنى عن الكَيْفِ وأمنَ مِنَ الثُّخمة. وذَمَّ آخرَ بخيلًا، فقال: ضنَّ بفلسه وجاد بنفسه. وذَمَّ أعرابيَّ بخيلًا، فقال: جَعَدَ البنان شحيح الكفِّ مقفل اليد لا يسقط من كفِّه الخردل، وإن استولى على أصابعه الجندل. قال الشاعر^(١): [الطويل]

تحلَّى بأسماء الشهور فكفَّه جمادى وما ضمت عليه المحرم

وقالوا: فلان ما هو رطب فيعتصر، ولا يابس فيكسر، مانع للموجود، سبىء الظنِّ بالمعبود؛ فلان منعوت على الجمع والمنع، لا يعدُّ العيش إلَّا ما جمعه، والحزم إلَّا ما منعه؛ فلان بن لبون لا درّ فيحلب، ولا ظهر فيركب. وذَمَّ أعرابيَّ رجلًا بالبخل، فقال: لقد صغر فلانًا في عيني كُبر الدنيا في عينه، وكأنما يرى السائل إذا رآه ملك الموت إذا أتاه. بشار بن بُرْد^(٢): [الطويل]

إذا سلَّم المسكين طار فؤاده مخافة سؤل واعتراه جنون

ومن منظوم نفسات الصدور المحنقة، في ذَمَّ مَنْ سلبه السخاء رونقه، قول منصور بن ربيعة يهجو بخلًا^(٣): [المنسرح]

قوم غدوا والطعام عندهم وزن لجين ووزن ياقوت

إن كان قوتي إليهم وبهم برئت منهم ومنك ياقوتي

الأخطل^(٤): [البسيط]

ما زال فينا رباط الخيل معلمة وفي كليب رباط الخزي والعار

قوم إذا استنبح الأضياف كلبهم قالوا لأثمهم بولي على النار

(١) البيت بلا نسبة في نصرة الشاعر، لصلاح الدين الصفدي، ص ١١١؛ وكتاب الأذكياء، لابن الجوزي، ص ٣١٨.

(٢) البيت في ديوان بشار بن برد، وهو بيت منفرد.

(٣) البيتان لم أجدهما في المصادر والمراجع التي بين يدي.

(٤) البيتان في ديوان الأخطل، والبيت الأول هو مطلع القصيدة.

ولقد أحسن أبو الشمقمق في قوله^(١): [البسيط]

ما كنتُ أحسب أن الخبز فاكهة حتى نزلت على أوفى بن منصور
الحابس الرّوث في أعفاج بغلته خوفاً على الحبّ من لَقَط العصافير
آخر^(٢): [الوافر]

عدّ الأرغفة شنف وقرط وإكـلـان من خرز ودرّ
إذا كُسِر الرغيف بكى عليه بكـا الخنساء إذا فُجِعَتْ بصخر
وجاء بكلّ نائحة عليه كما بكت الرّباب لفقد عمرو
ودون رغيـفه دقّ الثنايا وحرب مثل وقعة يوم بدر

وقال أبو نّواس يهجو سعيد بن سلم بن قتيبة^(٣): [الطويل]

رغيف سعيد عنده عدل نفسه يقلّبه طوراً وطوراً يُداعبه
ويأخذه في حضنه ويشتمه ويلثمـه حيناً وحيناً يُلاعبه
وإن قام مسكينٌ على باب داره إذا ثكـلته أمـه وأقاربه
يصبّ عليه البول من كلّ جانبٍ ويخضـب ساقاه وينتف شاربه

ابن طباطبا^(٤): [المجث]

أجـاع بطـني حتـى شَمَمْتُ ريح المنيّة
وجاءني برغيفٍ قد أدرك الجاهليّة
فقمـت بالفأس حتـى أدقّ منه شظيّة
تثلم الفأس وانصا ع مثل سهم الرميّة
فشجّ رأسي ثلاثاً ودقّ مني الثنيّة

(١) البيتان ليسا في ديوان أبي الشمقمق، وهما لعلّي بن الجهم في ديوانه، وهما بيتان منفردان.

(٢) الأبيات لأبي نواس في ديوانه، والبيت الأول مطلع القصيدة.

(٣) الأبيات في ديوان أبي نواس، والبيت الأول مطلع القصيدة.

(٤) الأبيات في ديوان ابن طباطبا العلوي، والبيت الأول مطلع القصيدة.

آخر^(١): [البسيط]

ورزق ربك بعد الجوع أشبعني ورزق ربك آت غير مدفوع
ولؤ عليك اتكالي في الطعام إذا لكنت أول مدفون من الجوع

آخر^(٢): [المتقارب]

وقائلة ما دهى ناظريك فقلت لأمر به قد مُنيتُ
أكلت دجاجة بعض الملوك فما زلت أصفع حتى عميتُ

آخر^(٣): [الوافر]

نوالك دونه خرط القتاد وخبزك كالثريا في البعاد
ترى الإصلاح صومك لا لأجر وكسرك للرجيف من الفساد
ولو أبصرت ضيقاً في المنام لحرمت المنام إلى التناد
ولم أهجوك أنك كفو شعر ولكني هجوتك للكساد

آخر^(٤): [الكامل]

ودعوتني فأكلت عندك قرصة وشربت شرب من استتم خروفا
وسألتني في إثر ذلك حاجة أودت بمالي تالداً وطريفا
فجعلت أفكر فيك باقي ليلتي ما كنت تسأل لو أكلت رغيفا

آخر^(٥): [الطويل]

أتيت ابن يحيى وهو يأكل فأنثنى إليّ طوباً إذ رأني وهما
وقال لماذا جئت قلت مُسلماً فقال لقد سلّمت فارجع مثل ما

(١) البيت الثاني بلا نسبة في عيون الأخبار، لابن قتيبة، ص ٢٣٣٤.

(٢) البيتان لجحظة البرمكي في ديوانه، وهما بيتان منفردان.

(٣) الأبيات بلا نسبة في المحاسن والمساوي، لإبراهيم البيهقي، ص ٥٥٣.

(٤) الأبيات للحسن الدقاق في تنمة يتيمة الدهر، للثعالبي، ٥٣/٥.

(٥) البيتان لم أجدتهما في المصادر والمراجع التي بين يدي.

وقال ابن الخياط الصقلي^(١): [الخفيف]

لا تكونن مبرماً وعسوقاً سلّه دمه وخلّ عنه الرّغيفاً
أكرم الخبز بالصيانة حتّى جعل الكعك للبنات شنوفاً
آخر يخاطب بخيلاً^(٢): [الخفيف]

لك نفس إذا أضربها الجو ع تلافيتها بشمّ الرّغيف
من يَكُنْ عيشه كعيشك هذا فلتكن داره بغير كنيف
آخر^(٣): [المقارب]

رأيتك عند حضور الخوان قليل النّشاط كثير الصّباح
تلاحظ عيناك كفّ الأكيل وترمقه من جميع النّواحي
فعال امرئ بخلت نفسه بشيء يؤول إلى المُستراح
آخر يهجو بخيلاً^(٤): [المنسرح]

أصبح لا يعرف الجميل ولا يفرّق بين القبيح والحسن
إن الذي يرتجي نداءه كمن يحلب تيساً من عزّة اللبن
آخر^(٥): [البسيط]

يزداد شحاً وبُخلًا كل من كثرت أمواله ثم لا ترجى مواهبه
كالبحر كل مياه الأرض قاطبة تأوي إليه ويظماً فيه راكبه

ومما يكون متمماً لما ذكرناه خلف الشحيح لسانله بما مناه

قالوا: خلف الوعد من خلق الوغد. والمثل المضروب قولهم: أخلف من عُزّوقب، وأخلف من شرب الكمون؛ فإن الكمون يمتني بالسقي ولا يسقي.

(١) البيتان ليحيى بن أحمد، أبي بكر المعروف بابن الخياط الأندلسي، في معجم الأدباء، لياقوت الحموي، في ترجمته.

(٢) البيتان لم أجدتهما.

(٣) الأبيات لإسماعيل بن الغمر في البصائر والذخائر، لأبي حيان التوحيدي، ص ٦٨٨.

(٤) البيتان لم أجدتهما في المصادر والمراجع التي بين يدي.

قال الشاعر^(١): [البسيط]

سَقَيْتُمُونِي كُؤُوسَ الْمِطْلِ مِترعة حتى ثملت والسكران عَزِيدُ
لا تتركوني ككمون بمزرعة إن خانه الغيث أحيته المواعيدُ
وقال بعض كُرماء العرب: لأنَّ أموت عطشاً أحبُّ إليَّ مِنْ أن أخلف موعداً.
وقال بعض البلغاء يذمُّ بخيلاً: فلان ملأ سمعي روحاً وكفّي ريحاً. وقال آخر:
فلان يفتح مواعيده بالأطماع، ويختمها بالخَيبة والامتناع. وقال آخر: فلان سخيٌّ
قولاً، وبخيلٌ فعلاً، وسريعٌ وعَدًا، وبطيءٌ رَفْدًا. وقال آخر: فلان أوّل وعده طمع
وأخره يأس، وما هو إلّا كالسراب يغرّ من رآه، ويخلف مَنْ رجاه. وقال
الشاعر^(٢): [الطويل]

لسانك أخلّى مِنْ جَنَى النحل موعداً وكفّك بالمعروف أضيق مِنْ قُفْلِ
آخر^(٣): [الطويل]

لسانك معسولٌ وقلبك علقم ودون الثريّا من صديقك مالكا
دُعبل^(٤): [الخفيف]

يا جواد اللسان من غير فعلٍ لئيت في راحتك جود اللسانِ
وقالوا: من وعد وأخلف لَزِمَتْه ثلاث مذمات: ذمُّ اللؤم، وذمُّ الخلف، وذمُّ
الكذب. وقال الشاعر^(٥): [الطويل]

ألا إنّما الإنسان غمد لقلبه ولا خير في غمدٍ إذا لم يكن نُضْلُ
ولا خير في وعدٍ إذا كان كاذباً ولا خير في قولٍ إذا لم يكن فعلُ
فإنَّ تَجَمُّعَ الآفات فالبخل شرّها وشرٌّ مِنَ البُخلِ المواعيد والمطلُ

(١) البيتان لابن عبد الودود في خريدة القصر، للعماد الأصبهاني، في ترجمته.

(٢) البيت للبحري في ديوانه، وهو مطلع القصيدة. وانظر أيضًا ديوان صريع الغواني.

(٣) البيت لأبي الأسود الدؤلي في ديوانه، من قصيدة مطلعها:

ألا أبلغنا عني حصيّنًا رسالةً فإنك مردود عليك خلالكا

(٤) البيت في ديوان دعبل الخزاعي، وهو مطلع القصيدة.

(٥) الأبيات لعلي بن أبي طالب في ديوانه، والبيت الثالث مطلع القصيدة. وانظر أيضًا ديوان دعبل
الخزاعي، وديوان الأقيشر الأسدي، وديوان صريع الغواني.

وقال الثعالبي: **أَوَّل مَنْ أَخْلَفَ الْمَوَاعِيدَ وَكَذَّبَهَا وَلَمْ يَفِ بِشَيْءٍ مِنْهَا** إسماعيل بن صبيح كاتب الرشيد، وما كانت الرؤساء قبل ذلك يعرفون المواعيد الكاذبة. وما أحلى قول بعض الشعراء يخاطب مَنْ أَخْلَفَ عِدَّةَ وَعْدِهِ إِيَّاهَا مِنْ أبيات^(١): [الكامل]

ووعدتني عِدَّةَ ظَنَنْتَكَ صَادِقًا فجعلت من طمعي أروح وأذهب
فإذا حضرت أنا وأنت بمجلس قالوا مُسَيِّلِمَةً وهذا أشعب
وقال بعض البلغاء يذم مخلف وعده: فلان وعده في الخلاف كشجر
الخلاف، يُريك نصارة المنظر، ثم لا يُجنيك شيئاً مِنَ الثمر؛ نظمه ابن الرومي،
فقال^(٢): [الخفيف]

ليس من حلّ بالمحل الذي أن ت من سماحة ووفاء
بذل الوعد للأخلاء طوعاً وأبى بعد ذاك بذل العطاء
فغدا كالخلاف يحسن للعي ن ويأبى الإثمار كل الإباء
آخر^(٣): [الوافر]

على الدنيا وما فيها السلام إذا ملكت خزائنها التئام
راضيت من الأمور بكل شيء قضاه الله وانقطع الكلام

الفصل الثاني من الباب العاشر

في ذكر نواذر المبخلين من الأراذل والمبجلين

يجب علينا أن نذكر أولاً ما صدر عن الأمجاد العقلاء في التحذير من سؤال الأجواد والبخلاء، ثقةً بما ضمنه الله من رزقه الدار على سائر خلقه، قالوا: مكتوب في التوراة: ابن آدم لا تسأل الناس، فإن كنت فاعلاً فاسأل معادن الخير ترجع مغبوطاً محسوداً. وفي كتاب كليله ودمنه: ينبغي للعاقل أن يرى أنَّ إدخال

(١) البيتان بلا نسبة في ثمار القلوب، للثعالبي، ص ٣٠٧.

(٢) الأبيات في ديوان ابن الرومي، من قصيدة مطلعها:

يا أخي أين ربع ذاك اللقاء أين ما كان بيننا من صفاء

(٣) البيتان لم أجدهما في المصادر والمراجع التي بين يدي.

يده في فم التّنين وابتلاعه سمّه أهون عليه من سؤال الناس . وقال إبراهيم بن حفصة لابنه: يا بنيّ صنّ شكرك عمّن لا يستحقّه، واطلب المعروف ممّن يُحسن طلبك إليه، واسترّ ماء وجهك بقناع قناعتك، وتسلّ عن الدنيا بتجافئها عن الكرام؛ وأنشد^(١): [البسيط]

هي القناعة فالزمها تَكُنْ ملكاً لو لم يكن لك إلا راحة البدن
وانظر لمن مَلَك الدنيا بأجمَعها هل راحَ منها بغير القُطن والكَفَن

وقال لقمان لابنه: يا بُنيّ لا تخلق وجهك بطلب الحوائج إلى مَنْ هو دونك، فإنّه إن ردّك ساق إليك محنة، وإن قضى حاجتك اتّخذها عليك مِته، واسأل الله فإنّ الله يحبّ مَنْ يسأله، ويَبْغض مَنْ لا يسأله. شاعر^(٢): [الكامل]

الله يغضب إن تركت سؤاله وبينّي آدم حين يُسأل يُغضب

وقد رُوِيَ عن سُفيان الثوري دعاء ككلام لقمان كان يدعو به إذا احتاج يقول: اللَّهُمَّ يا مَنْ يحبّ أن يُسأل، ويغضب على مَنْ لا يسأل، وأحبّ عباده إليه مَنْ سألّه فأكثر سُؤاله، وليس أحد كذلك غيرك يا كريم أعطني كذا، ويسأل حاجته. وقال محمد ابن الحنفية رضي الله عنه: ما كُرِّمت على عبدٍ نفسه إلّا هانت عليه الدنيا. شاعر^(٣): [البسيط]

الحرّ حرٌّ عزيز النفس حيث نوى كالشمس في أيّ بُرج ذات أنوار
آخر^(٤): [الكامل]

ما اعتاض باذل وجهه بسؤاله عَوْضاً ولو نال الغنى بسؤال
وإذا السُّؤال مع الثَّوال وزنته رجح السؤال وخفّ كلّ نوال

(١) البيتان للثعالبي في ديوانه، وهما بيتان منفردان، وبلا نسبة في المستطرف، للأبشيهي، ص ٣٤٥.

(٢) البيت بلا نسبة في الازدهار، للسيوطي، ص ٩٢.

(٣) البيت لأبي الفتح البستي في ديوانه، من بيتين، أولهما:

لئن تنقلت من دارٍ إلى دارٍ وصرت بعد ثواء رهن أسفارٍ

(٤) البيتان لأبي العتاهية في ديوانه، من قصيدة مطلعها:

حيل البلى تأتي على المحتالٍ ومساكن الدنيا فهن بوالٍ

آخر^(١): [البسيط]

لا أَسْتَعِين بِإِخْوَانِي عَلَى الزَّمَنِ وَلَا أَرَى حُسْنَ مَا لَيْسَ بِالْحَسَنِ
 إِنِّي كَلِيلٌ إِذَا اسْتَعْطَفْتَ ذَا ثِقَةٍ بِمَا حَوَتْ كَفَّهُ قَدْ كَانَ أَغْفَلَنِي
 ذَلَّ السُّؤَالُ وَذَلَّ الشُّكْرُ مَا اجْتَمَعَا إِلَّا أَضْرَبَ بِمَاءِ الْوَجْهِ وَالْبَدَنِ
 لَا أَبْتَدِي بِسُؤَالٍ لِي أَخَا أَبَدًا لَوْ شَاءَ قَبْلَ سُؤَالِي مِنْهُ أَكْرَمَنِي
 لَهُ الثَّرَاءُ وَلِي عَرْضٌ أَوْفَرُهُ عَنْهُ وَيَقْنَعْنِي قُوتٌ يَبْلُغْنِي
 مُحَمَّدُ بْنُ حَازِمٍ^(٢): [البسيط]

اضرع إلى الله لا تضرع إلى الناس واقنع بئأس فإن العز في اليأس
 فالرزق عن قدر يجري إلى أجلٍ في كف لا غافل عني ولا ناسي
 فكيف أبتاع فقراً حاضراً يُغني وكيف أطلب حاجاتي من الناس

ولقد أحسن ابن شهيد كل الإحسان في قوله يصف من صان وجهه عن
 السؤال بقناع قناعته، وكف وصبر على مضض الاحتياج بقدر استطاعته، فغف^(٣):
 [البسيط]

إِنَّ الْكَرِيمَ إِذَا نَالَتْهُ مَخْمَصَةٌ أَبْدَى إِلَى النَّاسِ رِيًّا وَهُوَ ظِمَانٌ
 يَطْوِي الضَّلُوعَ عَلَى مِثْلِ اللَّطَى حَرْقًا وَالْوَجْهَ طَلُقَ بِمَاءِ الْبِشْرِ رِيَانٌ
 آخِرُ^(٤): [الطويل]

وكم قد رأينا من فتى متجمل يروح ويغدو ليس يملك درهما
 يبيت يُراعي النجم من سوء حاله ويُصبح يلقي ضاحكاً متبسماً

(١) الأبيات لم أجدها في المصادر والمراجع التي بين يدي.

(٢) الأبيات في ديوان محمد بن حازم الباهلي، والبيت الأول مطلع القصيدة.

(٣) البيتان في ديوان ابن شهيد الأندلسي، من قصيدة مطلعها:

وما ألان قناتني غمز حادثة ولا استخف بحلمي قط إنسان

(٤) البيتان بلا نسبة في بهجة المجالس، لابن عبد البر، ص ٢٠٩.

ذكر مَنْ كان يدين بالبخل من الملوك وأنصف بما لا يحسن بالفقير الصلوك

عبد الله بن الزبير، ويكنى أبا حبيب، وإنما لم يُعَدَّ مِنَ البخلاء لجلالة رُتبته، وأصالة أُبوتِه؛ فمِمَّا يُخكى عنه أنه نظر إلى رجل من جنده قد دَقَّ في صدور أصحاب الحجاج في قتاله على مَكَّة ثلاثة أرماع، فقال له: يا هذا اعتزل عن نصرتنا، فإنَّ بيت المال لا يقوم بهذا. وفي هذه الحرب يقول معاتبًا جُنده: أَكَلْتُم تمرِي، وَعَصَيْتُم أَمْرِي، سلاحكم رث، وكلامكم غث، عيال في الجذب، أعداء في الخضب. وقال لرجل كان يتعاطى التجارة: ما صنعتك؟ قال: أَتَجَر في الرقيق، فقال: ما أَشدَّ إقدامك على الغرر وإضاعة المال، قال: بماذا؟ قال: ببضاعتك الملعونة التي هي ضمان نفس، ومُؤنة ضرس. وأتاه عبد الله بن فضالة مستجدًّا فأخذ يَشكو إليه شدة فاقته، وحفا ناقتة، ووعورة طريقه، وبُعْد مسافته؛ فقال له: اخضفها بهلب، وارقعها بسبت، وانجدها ببرد خفِّها؛ فقال ابن فضالة: إنما جئتكَ مستجدًّا لا مستوصفًا، فلا بقيت ناقة حملتني إليك؛ قال: إن وصاحبها - وقوله إن بمعنى نعم - قال أبو عبيدة معمر بن المثنى: لو تكلف الحارث بن كلدة طبيب العرب من وصف علاج ناقة هذا ما تكلفه هذا الخليفة لَعُسَ عليه. ويقال: إنه كان يأكل في كل سبعة أيام أكلة واحدة، ويقول: إنَّما بطني شبر في شبر، وما عسى يكفيني.

ومن بُخلاء الخلفاء عبد الملك بن مروان، وكان يُسمَّى رشح الحجر ولبن الطير أيضًا لبُخله، وهشام ولده كان ينظر في القليل من المال، ويمنع السائل وإن ألحَف في السؤال، ويبيع ما يُهدى إليه، ويجعل السبَّ صلةً مَنْ يقرظه ويُثني عليه. مِنْ حكاياته أنه وفد عليه محمد بن زيد بن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقال له: ما لك عندي شيء، ثم قال: إِيَّاكَ أن يغرَّكَ أحد فيقول لك: لم يعرفك أمير المؤمنين، أنت فلان ابن فلان، فلا تقيمَنَّ فتنفق ما معك، فليس لك عندي صلة، فبادر والحق بأهلك. وكان معاوية يبخل في طعامه مع كثرة جوده بالمال، قال لرجل واكَّله: ارفق بيدك، فقال له الرجل: وأنت فاغضض مِنْ طَرَفِكَ. وبلغه أنَّ الناس يُبخلونه، فقام على المنبر وقال: إنَّ الله تعالى يقول: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ [الحجر: الآية ٢١]،

فلأَيِّ شيء نُلَام نحن؟ فقام إليه الأَخنف بن قيس وقال: نحن ما نلومك على ما في خزائن الله، ولكن نلومك على ما في خزائنك إذا اغتلتقت بابك دونه.

والمنصور، وكان يُلقَّب أبا الدوانيق، ولُقِّب بذلك لأنه لما بنى بغداد كان ينظر في العمارة بنفسه، فيحاسب الصُّنَّاع والأُجراء، فيقول لهذا: أنت زِمْتَ القائلة، ولهذا: أنت لم تبكِّر إلى عملك، ولهذا: أنت انصرفت لم تُكْمِل اليوم؛ فيُعْطِي كل واحد منهم بحسب ما عمل في يومه، فلا يكاد يعطي أجرة يوم كامل. ويُحْكِي عنه أنه قال لطبَّاخيه: لكم ثلاث وعليكم اثنان: لكم الرؤوس والأكارع والجلود، وعليكم الحطب والتوابل. ومِنْ حكاياته الدالَّة على شِدَّة بُخله أنَّ الربيع بن يونس حاجبه قال له يوماً: يا أمير المؤمنين إنَّ الشعراء ببابك وهم كثيرون وقد طالت أيام إقامتهم ونفدت نفقاتهم، فقال: اخرج إليهم واقرأ عليهم السلام، وقل لهم: مَنْ مدحنا منكم فلا يصفنا بالأسد فإنما هو كلب مِنْ الكلاب، ولا بالحيَّة فإنما هي دُوَيْبَة ميتة تأكل التراب، ولا بالحلي فإنما هو حجر أصم، ولا بالبحر فإنه ذو غطامط؛ فمن ليس في شعره شيء من هذا فليدخل، ومَنْ كان في شعره شيء من هذا فلينصرف، فانصرفوا كلهم إلَّا إبراهيم بن هرمة، فإنه قال: أدخلني، فأدخله فلمَّا مَثُل بين يديه قال: يا ربيع قد علمت أنَّه لا يُجيبك أحد غيره، هات يا إبراهيم؛ فأنشده القصيدة التي أولها^(١):

[الطويل]

سرى نومه عَنِّي الصِّبا المتحامل وأذِنَ بِالْبَيْنِ الحبيب المُزائِلُ

حتى انتهى إلى قوله: [الطويل]

له اللحظات في حفا في سريره إذا كَرَّها فيها عِقَاب ونائلُ

فأمَّ الذي أمنت أمانة الردى وأمَّ الذي خَوَّفت بالشَّكل ثاكلُ

فرفع له السُّر وقبل عليه مُضْغِيًّا إليه حتى فرغ من إنشادها، ثم أمر له بعشرة آلاف درهم، وقال له: يا إبراهيم لا تُتْلِفها طمَعًا في نَيْل مثلها، فما في كلِّ وقتٍ تصل إلينا وتنال مثلها منَّا؛ فقال إبراهيم: ألقاك بها يا أمير المؤمنين يوم العَرَض

(١) البيت في ديوان ابن هرمة، وهو مطلع القصيدة، وفي الديوان: «الخليط المزائِلُ»، بدل: «الحبيب المزائِلُ».

وعليها خاتم الجهبذ. ودخل المؤمل بن أميل على المهدي بالري، وهو إذ ذاك ولي عهد أبيه المنصور، فامتدحه بأبيات يقول فيها^(١): [الوافر]

هو المهدي إلا أن فيه تشابه صورة القمر المنير
تشابه ذا وذا فهما إذا ما أنارا يشكّان على البصير
فهذا في الضياء سراج عدل وهذا في الظلام سراج نور
ولكن فضل الرحمن هذا على ذا بالمنابر والستير
ونقص الشهر يخمد ذا وهذا منير عند نقصان الشهور
ومنها: [الوافر]

فإن سبق الكبير فأهل سبق له فضل الكبير على الصغير
وإن بلغ الصغير مدى كبير فقد خلق الصغير من الكبير

فأعطاه عشرين ألف درهم، فكتب بذلك صاحب البريد إلى المنصور، وهو بمدينة السلام بغداد، فكتب إليه المهدي يلومه على هذا العطاء، ويقول له: إنما كان ينبغي لك أن تُعطي الشاعر إذا أقام ببابك سنة أربعة آلاف درهم، وأمر كاتبه أن يوجه إليه بالشاعر فطلب فلم يوجد، وذكر أنه توجه إلى بغداد، فكتب الكاتب إلى المنصور بذلك، فأمر بعض القواد بإرصاد المؤمل على باب بغداد، فجعل القائد يتصفّح وجوه الناس القادمين عليها ويسألهم عن أسمائهم وأسماء آبائهم حتى وقع على المؤمل، فسأل عن اسمه فأخبره، فقال: أنت بُغية أمير المؤمنين وطلبته، قال المؤمل: فكاد والله قلبي ينصدع خوفاً وفزعاً، ثم أخذ بيدي فسار بي إلى الربيع فأدخلني على المنصور، فقال: يا أمير المؤمنين هذا المؤمل بن أميل قد ظفرت به، فسلمت فردّ السلام فسكن جأشي وزال استيحاشي عند ذلك واطمأن قلبي وزال روعي، ثم قال لي: أتيت غلاماً غراً فخدعته فانخدع، فقلت: يا أمير المؤمنين أتيت ملكاً جواداً كريماً، فمدحته فحمّله كرم أعراقه ومكارم شيمه على صلتني وبري، فأعجبه كلامي ثم قال: أنشدني ما قلت فيه، فأنشدته القصيدة، فقال: والله لقد أحسنت ولكنها لا تساوي عشرين ألفاً يا ربيع، خذ منه المال وأعطه منه أربعة آلاف درهم، ففعل؛ فلما ولي المهدي الخلافة قدم عليه المؤمل

(١) الأبيات في ديوان المؤمل بن أميل المحاربي، والبيت الأول مطلع القصيدة.

فأخبره بما دار بينه وبين المنصور، فضحك وأمر له برد ما أخذ منه، فردّ عليه. وأشرف يوماً على الصيد فرأى صائداً اصطاد سمكة عظيمة، فقال لبعض مواليه: اخرج إلى المتسبّب فمُرّه أن يوكل بالصيد من يدور معه من حيث لا يشعر، فإذا باع السمكة قبض على مشتريها وصار به إلينا؛ ففعل المتسبّب ما أمر به، فلقي الصياد رجلاً نصرانياً فابتاع منه السمكة بثلاثي درهم، فلما صارت السمكة في يد النصرانيّ وذهب بها قبض عليه الأعوان وأتى به المتسبّب وأدخله على المنصور، فقال له: مَنْ أنت؟ قال: رجل نصرانيّ، قال: بكم ابتعت هذه السمكة؟ قال: بثلاثي درهم، قال: وكم عيالك؟ قال: ليس لي عيال، قال: وأنت يمكنك أن تشتري مثل هذه السمكة بمثل هذا الثمن، كم عندك من المال؟ قال: ما عندي شيء، فقال للمتسبّب: خذه إليك، فإن أقرّ بجميع ما عنده، وإلا فمثل به؛ فأقرّ بعشرة آلاف درهم قال: كلاً إنها أكثر، فأقرّ بثلاثين ألف درهم، وأحلّ دمه إن وقف له على أكثر منها، قال له: من أين جمعتها؟ قال: وأنا آمن يا أمير المؤمنين، قال له: وأنت آمن على نفسك إن صدقت، قال: كنت جازاً لأبي أيوب فولّاني جهيزة بعض نواحي الأهواز فأصبت هذا المال، فقال المنصور: الله أكبر هذا ما لنا اختينته، وأمر المتسبّب بحمل المال وإطلاق الرجل. وقد حكى ابن حمدون في تذكرته أنّ المنصور حجّ في بعض السنين، فحدا به سالم الحادي في طريقه يوماً بقول الشاعر^(١): [الرجز]

أبلغ بين حاجبيه نوره إذا تغذّى رُفَعَتْ ستورُه
يزيّنه حياؤه وخيره ومُسْكُه يشوبه كافورُه

فطرب المنصور حتى ضرب برجله المحمل، ثم قال: يا ربيع أعطه عشرة دراهم - وفي رواية: نصف درهم - فقال سالم: لا عيرنا أمير المؤمنين، والله لقد حدّوت لهشام بن عبد الملك فأمر لي بثلاثين ألف درهم، فقال المنصور: ما كان له أن يُعطيك من بيت مال المسلمين ما ذكرت يا ربيع، وكلّ به مَنْ يستخرج منه هذا المال، قال الربيع: فما زلت أسفر بينهما حتى شَرط عليه أن يَخدو به في خروجه وقفوله بغير مُؤنة، وكان سالم هذا المذكور تُورد له الإبل بعد أن تَظمأ السبعة أيام والثمان والتسع والعشر، فيحدو لها فيلهيها بحدوه عن ورود الماء.

(١) الرجز في التذكرة الحمدونية، لابن حمدون، ص ١١٨٥. ورسائل الجاحظ، ص ٥٥٥.

ومن ظريف ما يُحكى عنه أن عبد الله بن زياد بن الحارث كتب إليه رقعة بليغة يستمنحه فيها، فكتب عليها: إنَّ الغنى والبلاغة إذا اجتمعا في بلدٍ أبطراه، وأمير المؤمنين مشفقٌ عليك، فاكْتَفِ بالبلاغة. وكان لسوار القاضي بالبصرة من قبل المنصور كاتبان رزق أحدهما عشرون درهماً، ورزق الآخر أربعون درهماً، فكتب إليه سوار التسوية بينهما، فنقص صاحب الأربعين عشرة وزادها صاحب العشرين، وإنَّما أراد سوار أن يلحق صاحب العشرين بصاحب الأربعين.

من صان درهمه ولم يسمح به للعتاء فكشف عنه اللؤم ما أسبله الكرم من العطاء

مروان بن أبي حفصة، وذلك أنه خرج يُريد المهدي، فقالت امرأة من أهله: ما لي عليك إذا رجعت بالجائزة، قال: إن أعطيت مائة ألف درهم أعطيتك درهماً، فأعطي ستين ألفاً فأعطاهما أربعة دوايق. وسأل رجل خالد بن صفوان، فقال: هب لي دينييراً، فقال خالد: لقد صغرت عظيمًا صغرك الله الدينار عُشر العشرة، والعشرة عُشر المائة، والمائة عُشر الألف، والألف ديتك. وكان بعض البخلاء إذا صار الدرهم في يده خاطبه وناجاه، وقبَّله وفداه، وقال له: بأبي أنت وأمي كم من أرضٍ قطعت، وكيس خرمت، وكم من خاملٍ رفعت وسريّ وضعت، إنَّ لك عندي أن لا تغرى ولا تضحى؛ ثم يُلقيه في الكيس ويقول: اسكن على بركة الله في مكان لا تحول عنه، ولا تخرج منه.

وكان مروان بن أبي حفصة إذا جاءته جائزة يقول للدراهم: كم خامل رفعت، وكم سريّ وضعت، طال ما تغرّبت في البلاد، وأتعبت في طلب تحصيلك العباد، فوالله لأطيلن ضجعتك، ولأديمن صرعتك؛ ثم يضعها في الصندوق ويختم عليها. وكان أبو العميس إذا وقع الدرهم في يده نقره بأصبعه، وقال مخاطباً له: كم من يد وقعت فيها، ومن بلدٍ جُلّت في نواحيها، بأبي أنت وأمي اسكن وقرّ عينا فقد قرّ بك القرار، واستقرّ بك الدار، واطمأنّ بك المنزل؛ ثم يضعه في كيس ويختم عليه، فيكون آخر العهد به. وكان بعض البخلاء إذا وقع الدرهم في كفه قال مخاطباً له: أنت عقلي وديني وصلاتي وصيامي وجامع شملي وقرّة عيني وقوتي وعمادي وعدتي؛ ثم يقول: يا حبيب قلبي وثمره فؤادي قد صرت إلى من يصونك ويعرف حقك ويعظم قدرك ويُسفق عليك، وكيف لا

يكون ذلك وبك تُجلب المسار، وتُدفع المضار، وتُعظم الأقدار، وتعمر الديار، وتفتض الأبكار، ترفع الذكر وتعلي القدر؛ ثم يطرحه في الكيس ويُشَدُّ^(١): [الطويل]

بنفسيّ محبوب عن العين شخصه وليس بخالٍ مِنْ لساني ولا قلبي
ومن ذكره حظي من الناس كلّهم وأول حظي منه في البُعد والقربِ

وممنّ صان درهمه ولم يسمح به فكان لك سبباً لذمّه وثلبه

ما يُحكى أن أعرابياً شرب عند بخيل غبوقاً^(٢)، فلما سكر البخيل وانتشى خلع على الأعرابي قميصاً، فلما صحا انتزعه منه ثم شرب معه صبوحاً^(٣)، فلما سكر وانتشى خلع عليه قميصاً، فلما صحا انتزعه منه، فقال^(٤): [الطويل]

كساني قميصاً مرّتين إذا انتشى وينزعه منّي إذا كان صاحياً
فلي فرحة في شكره وانتشائه وفي الصُّحُوفِ ترحات تشيب التواصيا

وأُتي بعض البخلاء بـغلام ليشتريه، فسيم فيه بأربعين ديناراً، فأعطى فيه عشرين، فقيل له: إنه فراش ونذاف، فقال: لو فرش السماء ونذف الغيم بقوس قزح ما اشتريته بأربعين. وسأوم أشعب بقوس بندق، فقال صاحبه: بدينارين، فقال: والله لو رميت به طائراً فوق مشوياً بين رغيفين ما اشتريته بهذا الثمن؛ وكان أشعب بخيلاً وله حكايات تُذكر فيما بعد إن شاء الله.

وقال الأصمعيّ: قالت امرأة لزوجها: اشتر لنا رطباً، قال لها: وكيف يُباع؟ قالت: كيلجة بدرهم، فقال: والله لو خرج الدجال وعاث في الأرض، وأنت تمخضين بعيسى والناس ينتظرون الفرج على يديه في قتال الدجال، ثم لم تلديه حتى تأكلي الرطب ما اشتريته لك كيلجة بدرهم. مدح شاعرٌ محمد بن عبدوس، فقال له: أما أن أعطيك شيئاً من مالي، فلا؛ ولكن اذهب فأجنّ جناية حتى لا أخذك بها. وقال مروان بن أبي حفصة: ما فرحت بشيء فرحي بمائة ألف درهم وهبها لي أمير المؤمنين المهديّ، فزادت درهماً فاشتريت به لحماً. ودخل أبو

(١) البيتان لم أجدهما في المصادر والمراجع التي بين يدي.

(٢) الغبوق: شرب العشي.

(٣) الصبوح: شرب الصباح.

(٤) البيتان بلا نسبة في كتاب الأشربة، لابن قتيبة الدينوري، ص ٧٢.

صاعد على الغنوي، فأنشده^(١): [البسيط]

رأيت في الثَّوم أني مالِكُ فرسًا ولي وصيفٌ وفي كفي دنائيرُ
فقال قومٌ لهم علم ومعرفة رأيت خيرًا وللأحلام تفسيرُ
أقْصَصْ منامك في بيت الأمير تجد تحقيق ذاك وللفال التباشيرُ
فلما سمع الأمير إنشاده، قال: أضغاث أحلام، وما نحن بتأويل الأحلام
بعالمين.

مَنْ كان بخله على الفقراء بطعامه معربًا عن لُؤْمِه وموجبًا لملامه

الحُطَيْثَةُ، يُحْكِي عنه أن بعض الأعراب مرَّ به وهو يرمى غنمًا له وفي كفه
عصًا، فناده الأعرابي: يا راعي الغنم؛ فأومأ إليه الحُطَيْثَةُ بعصاه، وقال: إنها
عجرا من سلم، فقال الأعرابي: إني ضيف، فقال: وللضيفان أعددتها. ومرَّ
أعرابيُّ بأبي الأسود الدُّؤلي، وهو واقفٌ على باب داره فسَلَّم، فقال له أبو الأسود
كلمة مقولة، قال: أتأذن لي في دخول منزلك؟ قال: وراؤك أوسع لك، قال: هل
عندك شيء يُؤْكَل؟ قال: نعم، قال: فأطعمني، قال: عيالي أحقُّ به منك، قال: ما
رأيت ألام منك، قال: لست ترى نفسك. قال الشاعر^(٢): [مجزوء الكامل]

إيَّاكَ ترغِب في كلامه وارفع يمينك من طعامه
فالموت أهْوَنُ عنده من مضغِ ضيفٍ والتقايمه
سيان كسر رغيْفه أو كسر عظم من عظامه
وإذا مرَّرت ببابه فاحفظ رغيْفك من غلامه

وقال رجل لبعض البخلاء: لِمَ لا تدعوني إلى طعامك؟ قال: لأنك جيّد
المَضْغ، سريع البلع، إذا أكلت لقمة هيأت أخرى؛ فقال: يا أخي أتريد أني إذا
أكلت عندك أن أصلي ركعتين بين كلِّ لقمتين. وقال آخر لبخيل: لِمَ لا تدعوني؟
قال: لأنك تعلق وتشدق وتحقق - أي يحمل واحدة في يده، وأخرى في شدة،
وينظر إلى أخرى بعينه. وعزم بعض إخوان أشعب عليه ليأكل عنده، فقال: إني

(١) الأبيات في كتاب الأذكياء، لابن الجوزي، ص ١٨٧.

(٢) الأبيات لدعبل الخزاعي في ديوانه، من قصيدة مطلعها:

استبق وذ أبي المقفا - تل حين تأكل من طعامي.

أخاف مِنْ ثَقِيلٍ يَأْكُلُ معنا، فقال: ليس معنا ثالث، فمضى معه فبينما هما يأكلان إذا بالباب يُطْرَق، فقال أشعب: ما أَرانا إِلَّا صرنا إلى ما نكره، قال: إنه صديقي وفيه عشر خصال إن كرهت واحدة منهم لَمْ أَذُنْ له، فقال أشعب: هات أولها، قال: إنه لا يأكل ولا يشرب، قال: التسع لك ودعه يدخل، فقال: قد أَمِنّا ما كُنّا نخافه. وكان مروان بن أبي حفصة لا يأكل إِلَّا الرُّؤوس، فقيل له في ذلك، قال: لأنّ الغلام لا يقدر أن يخونني فيه إن أخذ أذنًا أو أخذ عينًا وقفت على ذلك، وأكل منه ألوانا أكل عينه لونًا ودماغه لونًا وأذنيه لونًا، وأكفى مُؤنّة طبخه في البيت، فقد اجتمع لي فيه مرافق شتى.

وحكى دُعْبِل الخزاعي، قال: أتيت سهل بن هارون في حاجة، فأطلت الجلوس عنده، فأخّر غداءه لقيامي، فجلست على عمدٍ حتى كَضَه الجوع، فقال: يا غلام غَدْنَا، فجاء بمائدة وعليها قصعة فيها مرق وديك ليس قبلها ولا بعدها غيرها، فأطلع في القصعة ففقد رأس الدّيك، فقال للغلام: أين الرأس؟ قال: رَمَيْتُ به، قال: وَلِمَ رميت به؟ قال: ظَنَنْتُكَ لا تأكله، قال: فهَلَّا ظَنَنْتُ أَنَّ العيال يأكلونه؟ ثم التفت إليّ وقال: لو لم أكره مما صنع إِلَّا الطّيرة لكان حَسْبِي، فإنّهم يقولون: الرأس للرئيس وفيه الحواس الأربع، ومنه يصيح الدّيك، وفيه عرفه الذي يتبرّك به، وعينه التي يضرب بها المثل في الصفاء، ودماغه موصوف لوجع الكلّيتين، ولم أرَ عظمًا قطّ أَهشَّ تحت ضرسٍ مِنْ دماغٍ ديك، وَبِئْسَ انظر أين رَمَيْتَهُ؟ قال: لا أدري، قال: لكنني أنا أدري أين رميته في بطنك الله حسيبك.

وكان جعفر بن سليمان بخيلًا على الطعام رُفِعَت المائدة مِنْ بين يديه يومًا وعليها دجاجة صحيحة قد أخذ منها بعض بنيه جناحًا، فلمّا أُعيدت عليه بالغداة قال: مَنْ هذا الذي تعاطى فعقر؟ فقيل له: ابنك الصغير، فقطع أرزاق جميع بنيه مِنْ أَجله، فلما طال ذلك منه وأضرَّ بهم الحال جاءه أكبرهم، وقال: يا أبانا أفتهلكنا بما فعل السفهاء منّا، فأعجبه ذلك وأمر برّد أرزاقهم إليهم. وقال بعض الأكياس: دعاني كوفيّ إلى منزله فقدم لي دجاجة، فأكلت من المرققة وجهدت أن أكل من اللّحم فما قدرت لصلابته وبِتَّ عنده، فأعاده من الغد إلى القدر وطرح عليه سَكْرًا فعاد زيرباجًا فقدّمه، وأكلت مِنْ المرق وجهدت أن أكل من اللّحم، فما قدرت لشدّته، فبتَّ عنده الليلة الثانية، لما كان من الغد قال لغلامه: اطرح عن اللّحم المرق ليصير قلية، ففعل ثم قدّمه إليّ فأكلت مِنْ المرق، وجهدت أن أكل

من اللحم لم أقدر لقوته، فأخذت قطعة من اللحم ووضعتها إلى جهة القبلة وقمت لأصلي إليها، فقال: ما هذا الذي تصنع؟ قلت: أشهد أنه لحم ولي من أولياء الله تعالى، فإنه قد أدخل النار ثلاث دفعات فلم تفعل فيه شيئاً، فلما أردت الانصراف إذا ببعض جيرانه يدق الباب، فقال له: أعزني ذلك اللحم لضيف وافاني من الغد لأطبخه له وأرده إليك إن شاء الله تعالى، فناوله إيّاه.

وسأل فقير من دار بخيل شيئاً، فأعطي لقمة صغيرة، فقال: يا أهل هذا المنزل كيف أشرب هذا الدواء؟ وقف سائل على باب دار فيها يحيى بن زياد وحماد بن عجرد وبشار مجتمعين على طعام، فقال: يا إخواني المسلمين، فقال يحيى: فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون، فقال: ارحموني، فقال حماد: نحن إلى رحمتك أخرج منك إلى رحمتنا، فقال: واسمعوا كلامي، فقال بشار^(١): [الوافر]

لقد أسمعت لو ناديت حيّاً

فقال السائل: أما القول فما أوسع به شقاشق أقوالكم، وأما الفعل فما أخيبه قرن الله بالخيبة آمالك. وقال العتيبي: كان الأصمعي يجعل الخبز الحار أدماً للخبز البارد، ولو بذلت له الجنة درهم لاستنقص منه شيئاً. وقال جحظة: دخلت على هارون ابن الخال، وكان بخيلاً بطعامه، وكنت إذ ذاك ناقهاً من علة وقد نصبت مائدة بين يديه، فدعاني إليها وقدمت إليّ صحيفة فيها مضيرة معقودة بعصبان كأنها قضبان فضة، فانهمكت في الأكل فنظر إليّ شزراً، ثم قال: يا جحظة هذه والله معدن ألم المفاصل والفالج والقولنج، وأنت عليل وبدنك نحيل واللبن يستحيل؛ فقلت: والله العظيم الجليل لآتين منها على الكثير والقليل، وحسبنا الله ونعم الوكيل؛ ثم أقبلت على الأكل منها حتى اكتفيت، فلما انصرفت عملت فيه^(٢): [الطويل]

ولي صاحب لا قدس الله روحه بعيد عن الخيرات غير قريب
أكلت عصبياً عنده في مضيرة فيا لك من يوم عليه عصب

(١) عجزه:

ولكن لا حياة لمن تنادي

والبيت في ديوان بشار، وهو بيت منفرد.

(٢) البيتان في ديوان جحظة البرمكي، وهما بيتان منفردان.

وله وأبدع^(١): [الكامل]

لا تعذلوني إن هجرت طعامه خوفاً على نفسي من المأكول
فمتى أكلت قتلته من بخله ومتى قتلت قتلت بالمقتول

وحضر أعرابي مائدة هشام بن عبد الملك فرفع الأعرابي لقمة، فقال له هشام: شعرة في لقمتك يا أعرابي، فقال الأعرابي: فإنك تلاحظني ملاحظة من يرى الشعرة، والله لا أكلت عندك أبداً. وقال بعض البخلاء: إني لا أكل إلا نصف الليل، قيل له: ولم؟ قال: يبرد الماء، وينقمع الذباب، وأمن فجأة الداخل، وصرخة السائل. وطبخ رجل قدراً وجلس مع زوجته يأكلان، فقال: ما أطيب هذا الطعام لولا الزحام، قالت: أي زحام ههنا، إنما هو أنا وأنت! قال: كنت أحب أن أكون أنا والقدر.

وقال بعض البخلاء لغلامه: هات الطعام وأغلق الباب، قال: يا مولاي ليس هذا حزمًا، بل أغلق الباب أولاً وأقدم الطعام ثانياً، فقال له: اذهب فأنت حرٌّ لوجه الله تعالى لعلمك بأسباب الحزم. وأين هذا مما يُحكى أن عدي بن حاتم الطائي عمل مأدبة، فقال لولده وكان صغيراً: أقم على الباب وأذن لمن تعرف وامنع من لا تعرف، فقال: والله لا يكن أول شيء وليته من أمر الدنيا منع أحد عن طعام، فقال عدي: والله يا ولدي أنت أكرم مني وأفطن، افتحوا الباب فمن شاء فليدخل؛ وبهاتين الحكایتين عليم مصداق من أطلع الله من الحكمة من مشرق فيه بقوله: العبد من طينة مولاه، والولد سر أبيه.

شاعر يذم بخلاء وتزوي للأخطل^(٢): [البسيط]

قومٌ إذا أكلوا أخفوا كلامهم واستوثقوا من رتاج الباب والدار
لا يقبس الجار منهم فضل نارهم ولا تكف يد عن حرمة الجار
قومٌ إذا استنبح الأضياف كلبهم قالوا لأثمهم بولي على النار

(١) انظر الحاشية السابقة.

(٢) البيتان الأولان لدعبل الخزاعي في ديوانه، وهما بيتان منفردان، والبيت الثالث للأخطل في ديوانه، من قصيدة مطلعها:

ما زال فينا رباط الخيل معلمةً وفي كليب رباط الذل والعار

آخر^(١): [الوافر]

تراهم خشية الأضياف يومًا يقيمون الصلاة بلا أذان

أبو هلال العسكري يذم بخيلًا^(٢): [الطويل]

تنانيركم للنمل فيها مدارج وفي قدركم للعنكبوت مناسج

وعندكم للضيف حين ينوبكم سؤالات سوء للقري وسفاتج

وأنتم على ما تزعمون أكارم فأيري في إست الأكارم والنج

وقال صعصعة بن صوحان: أكلت عند معاوية لقمة، فقام بها خطيبًا، قيل: وكيف ذاك؟ قال: كنت أكل معه فهيأ لقمة ليأكلها فأغفلها فأخذتها وأكلتها، فسمعتة بعد ذلك يقول: أيها الناس أجمّلوا في الطلب، فرب رافع لقمة إلى فيه سبقه إليها غيره.

ومما يليق بهذا الفصل من التذييل ذكر من عُرف بالطمع والتطفيل

قالوا: الطمع يدنس الثياب ويغير الأذهان. وقالوا: مصارع الألباب تحت ظلال الطمع. وقالوا: الحرّ عبدٌ ما طمع، والعبد حرٌّ إن قنع. وقالوا: أخرج الطمع من فيك، تحلّ القيد من رجلك. وصف بعضهم طعامًا، فقال: لو رأى شيئًا في جحر أفعى لجاأ إليه يسعى، وأدخل يده فيه ليأخذه ويخويه. وقالوا: لو قيل للطمع من أبوك؟ لقال: الشك في المقدور، ولو قيل: ما حرّفتك؟ لقال: اكتساب الذلّ، ولو قيل له: ما غايتك؟ لقال: الحرمان؛ والله درّ من قال^(٣): [الطويل]

وما قطع الأعناق حتى أبانها وقرّرها إلا سيوف المطامع

شاعر يذم الطمع^(٤): [الطويل]

وذو طمع يغدو بقيّة عمره ويُمسي ولم تُجمع يداه له وفرا

(١) البيت للعكوك في ديوانه، من ثلاثة أبيات، أولها:

أقاموا الديدبان على يفاع وقالوا لا تنم للديدبان

(٢) الأبيات لأبي هلال العسكري في ديوانه، وهي ثلاثة أبيات منفردة.

(٣) البيت لم أجده في المصادر والمراجع التي بين يدي.

(٤) الأبيات لم أجدها في المصادر والمراجع التي بين يدي.

يبيت سميرًا المُنَى مَثْرِيًّا بِهَا وَيُضْحَا سَلِيبًا مِنْ مَوَاهِبِهَا صَفْرًا
وَأَكْثَرُ مَا تَلْقَى الْأَمَانِي كَوَاذِبًا فَإِنْ صَدَقَتْ جَازَتْ بِصَاحِبِهَا الْقَدْرَا

فَمَنْ اشتهر بالطمع، وَجَمَعَ فِيهِ بَيْنَ الطَّيْعِ وَالطَّبْعِ أَشْعَبُ، وَبِهِ يَضْرِبُ
الْمَثَلُ، قِيلَ لَهُ: مَنْ طَمَعُكَ؟ قَالَ: مَا رَأَيْتُ عَرُوسًا تُزْفُّ إِلَّا ظَنَنْتُ أَنَّهَا لِي، وَلَا
رَأَيْتُ جَنَازَةً إِلَّا حَسِبْتُ أَنَّ صَاحِبَهَا أَوْصَى لِي بِشَيْءٍ، وَلَا رَأَيْتُ اثْنَيْنِ يَتَنَاجِيَانِ
إِلَّا خُيِّلَ لِي أَنَّهُمَا يَأْمُرَانِ لِي بِمَعْرُوفٍ، وَلَقَدْ طَافَ الصَّبِيَّانِ حَوْلِي يَوْمًا يَتَوَلَّعُونَ
بِي، فَقُلْتُ لَهُمَا لِأَبْعِدْهُمَا عَنِّي: إِنَّ فِي دَارِ فُلَانٍ لَوُزْنِيَجًا يُفَرِّقُ، فَذَهَبُوا يَتَعَادُونَ،
فَلَمَّا ذَهَبُوا عَنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي صَادِقٌ فَتَبِعْتُهُمَا. وَقِيلَ لَهُ: هَلْ رَأَيْتَ أَطْمَعَ مِنْكَ؟
قَالَ: نَعَمْ، نَزَلْتُ بِطَرِيقِ الشَّامِ مَعَ رَفِيقٍ لِي تَحْتَ صَوْمَعَةٍ رَاهِبٍ فَتَنَازَعْنَا فِي
شَيْءٍ، فَقُلْتُ: أَيْرَ الرَّاهِبِ فِي إِسْتِ الْكَاذِبِ، وَإِذَا الرَّاهِبِ قَدْ نَزَلَ وَأَيْرُهُ فِي يَدِهِ،
وَقَدْ أَنْعَظُ، وَهُوَ يَقُولُ: فَذَيْتُكُمَا مَنِ الْكَاذِبِ فَيَكُمَا؟ وَكَانَ يَقُولُ: مَا أَحْسَسْتُ
بِجَارٍ لِي يَطْبَخُ قَدْرًا إِلَّا غَسَلْتُ الْغَضَارَةَ وَوَضَعْتُ الْمَائِدَةَ وَانْتَظَرْتُهُ يَحْمِلُ إِلَيَّ
قَدْرَهُ. جَلَسَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي عَتِيقٍ مَعَ زَوْجَتِهِ فَتَمَنَّى أَنْ يُهْدَى لَهُ مَسْلُوخٌ فَيَتَّخِذُ
مِنْهُ لَوْنًا كَذَا وَلَوْنًا كَذَا، فَسَمِعَتْهُ جَارَةٌ لَهُ، فَظَنَّتْ أَنَّهُ أَمْرٌ بِعَمَلٍ مَا سَمِعَتْ،
فَانْتَظَرْتُهُ إِلَى اللَّيْلِ، ثُمَّ جَاءَتْ وَطَرَقَتْ الْبَابَ وَقَالَتْ: شَمَمْتُ رَائِحَةَ قَدْرِكُمْ
فَجِئْتُ لَتَطْعَمُونِي مِنْهَا، فَقَالَ ابْنُ أَبِي عَتِيقٍ لَامْرَأَتِهِ: أَنْتِ طَالِقٌ إِنْ قَمْنَا فِي دَارٍ
يَتَشَمُّ أَهْلُهَا رِيحَ الْأَمَانِي، وَرَحَلَ عَنْهَا.

بعض المتممين^(١): [المتقارب]

خَلَوْتُ بِنَفْسِي فَمَثَّيْتُهَا أَمَانِي خَابَتْ وَلَمْ تَصْدُقْ
فَهَذَا اقْتِلَاةٌ وَهَذَا اضْرِبَا وَهَذَا احْمَلَاةٌ عَلَى الْأَبْلَقِ

التَّطْفِيلُ: مِنْ أَمْثَالِهِمْ قَوْلُهُمْ: أَطْفَلَ مِنْ ذِبَابٍ، وَأَلْزَمَ مِنْ قِرَادٍ، وَأَنْتُمْ مِنْ لَيْلٍ
عَلَى نَهَارٍ. وَمِنْ أَدَبِ الرَّاجِزِ^(٢): [الرجز]

أَوْغَلَ فِي التَّطْفِيلِ مِنْ ذِبَابٍ عَلَى طَعَامٍ وَعَلَى شَرَابٍ
لَوْ أَبْصَرَ الرَّغْفَانُ فِي السَّحَابِ لَطَارَ فِي الْجَوْعِ الْعِقَابُ

(١) البيتان لم أجدتهما.

(٢) الرجز بلا نسبة في فضّ الخواتم فيما قيل في الولايم، لابن طولون، ص ٩٤.

وقالوا: مَنْ جاء إلى طعام لم يُدْعَ إليه استحقَّ الطُّرد، ولا يُلام عليه. ليم بعض المتطفلين على التطفيل، فقال: والله ما بُيِّت المنازل إلَّا لتُدْخَلَ، ولا قُدِّمَت الأُطعمة إلَّا لتؤْكَلَ، وإني لأجمع في التطفيل خِلالًا أَدْخَلَ مجالسًا وأَقْعَدَ مُسْتَأْنَسًا، وأنْبَسَطَ وإنْ كان ربُّ المجلس عابِسًا، ولا أَتَكَلَّفُ مَغْرَمًا ولا أَنْفَقُ دَرَهْمًا. وقال بنان، وهو كبيرهم: التَّمَكَّنَ على المائدة خَيْرٌ من أربعة ألوان زائدة. ومن دعائه: اللَّهُمَّ ارزُقني صَحَّةَ الجِسم، وكَثْرَةَ الأَكْلِ، ودوام الشَّهْوَةِ، ونقاء المَعْدَةِ. ودخل بعض الطفيليين على قوم، فقالوا: مَنْ أنت؟ قال: أنا الذي لا أَحوجكم إلى رسول؛ ولبعضهم في المعنى^(١): [مجزوء الرمل]

نَحْنُ قَوْمٌ إِنْ جَفَا النَّا س وَصَلْنَا مَنْ جَفَانَا

لَا تُبَالِي صَاحِبُ الدَا رَسِينَا أَمْ دَعَانَا

قصد جماعة من الطفيليين باب بعض الكُبراء وقت غدائه، فمنعهم بوابه، فكتب إليه بعضهم^(٢): [الخفيف]

قَدْ أَتَيْنَاكَ زَائِرِينَ خِفافًا وَعَلِمْنَا بِأَنَّ عِنْدَكَ فَضْلَهُ

وَلَدِينَا مِنَ الْحَدِيثِ هَنَاءَ مُعْجِبَاتِ نَعْدَها لَكَ جَمْلَهُ

إِنْ تَجَدَّنَا كَمَا تَرِيدُ وَإِلَّا فَاحْتَمَلْنَا فَإِنَّمَا هِيَ أَكْلُهُ

فَأَذِنَ لَهُمْ فَدَخَلُوا. البديع الهمداني على لسان طفيلي^(٣): [الخفيف]

نَحْنُ قَوْمٌ نَحْبُ هَدْيَ رَسُولِ اللَّهِ هَدَانَا وَلِلصَّوَابِ أَصَبْنَا

فَاذْعُنَا كُلَّمَا نَشِطْتَ فَإِنَّا لَوُدُّعِينَا إِلَى كِرَاعِ أَجَبْنَا

آخر^(٤): [الوافر]

وَلَمَّا أَنْ كَتَبْتَ وَلَمْ تَجِبْنِي وَلَمْ تَنْظُرْ إِلَيَّ بَعِينِ أَنْسِ

رَأَيْتَ الْحَزْمَ إِنْ أَنْضَى رِكَابِي إِلَيْكَ وَأَنْ أَكُونَ رَسُولَ نَفْسِي

(١) البيتان في نهاية الأرب في فنون الأدب، للنويري.

(٢) الأبيات لأحمد بن سليمان بن وهب الكاتب، في معجم الأديباء، لياقوت الحموي، في ترجمته.

(٣) البيتان لم أجدهما في المصادر والمراجع التي بين يدي.

(٤) البيتان لم أجدهما.

ولم أسمع بأظرف مِنْ قولِ القائل^(١): [الخفيف]

ونديم رقيق حاشية الحيد لمة صافي زجاجة الآداب
شغلته الرِّقاع منه إليه داعيًا نفسه إلى الأصحاب
آخر يصف طفيلًا^(٢): [السريع]

لو طبخت قدر بمطمورة بالشام أو أقصى جميع الثغور
وأنت بالصَّين لوافيتها يا عالم الغيب بما في القدور

الفصل الثالث من الباب العاشر

في مدح القصد في الإنفاق خوف التعيير بالإملاق

قال الله تعالى لنبيه محمد ﷺ ناصحًا بالإشفاق، وأمرًا له بالقصد في الإنفاق، مثبتًا لكمالهِ قوامًا مشكورًا: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [الأنعام: ٢٩]، فنهاه عن التقدير، كما نهاه عن التبذير. وقال تعالى مثنيا على المقتصدين بحسن تقديرهم إكرامًا: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧]. وقال رسول الله ﷺ: «ما عال من اقتصد»^(٣)، أي ما افتقر. وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: إن الله يحب القصد والتقدير، ويكره السرف والتبذير. وقال معاوية رضي الله عنه: حُسن التقدير نصف الكسب، وهو قوام المعيشة. وقال لولده: كُنْ مَقْدَرًا وَلَا تَكُنْ مُقْتَرًا. وأوصى حكيم ولده فقال: يا بني عليك بالتقدير بين الطرفين لا مَنع ولا إسراف، ولا بخل ولا إتلاف، لا تكن رطبًا فتعصر ولا يابسًا فتكسر. وقالوا: حُسن التقدير رأس التدبير.

وقال ذو النون: حُسن التقدير مع الكفاف أكفى من الكثير مع الإسراف. ويقال: لا تسمح لولدك ولا لامراتك ولا لغلامك وخادمك بما فوق الكفاية، فإن طاعتهم لك بقدر حاجتهم إليك.

(١) البيتان لعمر بن عثمان بن إسفنديار الكاتب، في ثمار القلوب، للثعالبي، ص ٤٠١.

(٢) البيتان بلا نسبة في المحاضرات في الأدب واللغة، لليوسي، ص ٦٧٧.

(٣) أخرجه أحمد في المسند ٤٤٧/١.

ومن هذا وهو لائق بالملوك ما حُكي أن أبرويز قال لابنه: لا توسعن على جندك فيشغلوا عنك، ولا تضيقن عليهم فيضجوا منك، وأعطهم عطاء قصداً، وامنعهم منعا جميلاً ووسع لهم في الرّجاء ولا توسع عليهم في العطاء. وفي وصيته لولده: أي بُني قول لا تدفع البلاء، وقول نعم تُزيل النّعم، وسماع الغناء برسام حاد؛ لأنّ الإنسان إذا سمع الغناء شرب، وإذا شرب طرب، وإذا طرب وهب، وإذا وهب عطب، وإذا عطب اغتّل، ثم يموت من غم ذلك، والدّرهم محموم إن حرّكته مات، والدينار محبوس إن أطلقته طار، وكذب من قال اليمين تذر الديار بلاقع، وإنما الإسراف يفعل ذلك والأصدقاء هم الأعداء؛ لأنك إذا احتجت إليهم منعوك، وإن احتاجوا إليك ومنعتهم سبوك، وإذا لم يكن بدّ منهم فكُن معهم كلاعب الشطرنج يحفظ ما معه، ويحتال في أخذ ما مع غيره.

وسأل رجل زياد ابن سميّة فأعطاه درهماً، فقال صاحب العراقيين: أسأله فيعطيني درهماً، فقال من بيده خزائن السموات والأرض ربما رزق أخص عباده عنده وأكرمهم لديه التمرة واللّمة وما يكبر عندي أن أصل رجلاً بمائة ألف درهم، ولا يصغر عندي أن أعطي سائلاً رغيّاً إذا كان ربّ العالمين يفعل ذلك. وقيل: ينبغي للعاقل أن يكسب ببعض ماله المَحْمُدة، ويصون ببعضه وجهه عن المسألة. وقال الأصمعيّ: سمعت بعض الأعراب يقول: من اقتصد في الغنى والفقر فقد استعدّ لنوائب الدهر. ويقال: اقتصد في إنفاق الدّراهم، فإنّها الجراح الفاقة مراهم. وقالوا: إسقاط الفضول في النفقة ربح بضاعة لا تملّ، فإنّ الإسراف ربما كان سبباً في التقير. وقال الثعالبي: من كثرت في دعوته نفقته أسلم ماله ونقصت مروءته. وقال أفلاطون: رأس العقل الاقتصاد في الإنفاق من غير بُخل. ومن الكلام البديع للبديع الهمذاني قوله: مَثَلُ الإحسان في الإنسان مثل الثمار في الأشجار، فحقّه إذا أتى بالحسنة أن يرفه إلى سنه؛ وما أحسن ما قيل في المعنى^(١): [المنسرح]

أنفق بمقدار ما استفدت ولا تُسرف وعِش فيه عِيش مُقتصدٍ
مَنْ كان فيما استفاد مُقتصداً لم يفتقر بعدها إلى أحدٍ

(١) البيتان لم أجدهما في المصادر والمراجع التي بين يدي.

آخر^(١): [الرمل]

كُنْ بِمَا أُوتِيْتَهُ مَغْتَبِطًا تستدِمُ عَيْشَ الْقَنُوعِ الْمُكْتَفِي
إِنَّ فِي نَيْلِ الْمُنَى وَشَكِّ الرَّدَى واجتناب القُضْدِ عَيْنَ السَّرَفِ
كسراج دهنه قوَتْ له فإذا غرَّقته فيه طَفِي

ما قيل إن في صلاح الأموال صلاح ما فسد من الأحوال

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لا يقلّ مع الإصلاح شيء، كما لا
يكثُر مع الإفساد شيء. وقال: من الفساد إضاعة الزّاد. المتلمّس^(٢): [الوافر]

لحفظ المال خيرٌ من فناه وسير في البلاد بغير زاد
قليل المال تُصلّحه فيبقى ولا يبقى الكثير مع الفساد

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أصلّحوا أموالكم التي رزقكم الله، فإنّ
إفلالاً في رفق خيرٌ من إكثارٍ في خرق. وقالوا: إنّ في صلاح الأموال سلامة الدّين
وجمال الوجه وبقاء العزّ وصون العرض. وقالوا: أصلّح مالك تجده لرّوعة
الزّمان، وجفوة السّلطان، ونبوة الإخوان، ودفع الأحزان. وكتب عُثْبَةُ بن أبي
سفيان إلى وكيله يعاهده: صغير مالي يكبر ولا يخفّ كبيره فيصغر، فإنّه ليس
يشغلني كثيرٌ مالي عن إصلاح قليله، ولا يمنعني قليله عن كثير ما ينوبني. وقال
أُخَيْحَةُ بن الحلاج: أصلّحوا أموالكم، فإنّكم لا تزالون ذوي مروءات ما استغنيتُم
عن عَشِيرَتِكُمْ. وقال شبيب بن شيبّة لَبْنِيه: إن كنتم تحبّون المروءة والفتوة أصلّحوا
أموالكم. وقال معاوية: إصلاحك ما في يدك أسلم من طلبك ما في أيدي الناس.
وقال عبد الله بن عباس: اطلبوا الغنى بإصلاح ما في أيديكم، فإنّ الفقر مَجْمَع
العيوب. وقال البُستيّ^(٣): [السريع]

أشفق على الفضة والعين تسلّم من القلّة والدّين
فقوة العين بإنسانها وقوة الإنسان بالعَيْنِ

(١) الأبيات بلا نسبة في الإعجاز والإيجاز، للثعالبي، ص ٣١٤.

(٢) البيتان في ديوان المتلمّس الضبعي، من قصيدة مطلعها:

صبا من بعد سلوته فؤادي وأسمح للقرينة بانقياد

(٣) البيتان في ديوان أبي الفتح البستي، وهما بيتان منفردان.

احتجاج من خمدت يده عن النّوال خوف التعيير بالفقر وذللّ السؤال

قال أبو حنيفة: لا خير فيمن لا يحفظ ماله ليصون به عرضه، ويَصِل به رحمه، ويستغني به عن إثم الناس. وقال الأصمعي: لامت أعرابية أبا لها على إتلاف ماله، فقالت: يا أبت حبس المال يَمْنَع العيال من بذل الوجه للسؤال، أسرفت في النّوال وكثرة التّحال، أمسك فقد أتلفت الطارف والتّلاذ، وبقيت ترقب ما في أيدي العباد، يا أبت مَنْ لم يحفظ ما ينفعه يُوشك أن يقع بالفقر فيما يضرّه. وقال عبد الله بن المعتز^(١): [الطويل]

أعاذل ليس البخل مني سجيّة ولكن وجدت الفقر شرّاً سبيل
لموت الفتى خيرٌ مِنَ البخل للفتى وللبخل خيرٌ مِنْ سؤال بخيل

وقال سفيان الثوري: لأنّ أخلف عشرة آلاف درهم أحاسب عليها أحبّ إليّ مِنْ أن أحتاج إلى الناس. وكان داود بن عليّ يقول: لأنّ يترك الرجل ماله بعده لأعدائه خيرٌ مِنْ الحاجة في حياته لأوليائه. وقال يعقوب الكندي: مَنْ جاد بماله فقد جاد بنفسه؛ لأنّه جاد بما لا قوام لها إلّا به. وقال الشاعر^(٢): [السريع]

يارب جوّد جرّ فقرٍ امرئٍ فقام للناس مقام الدّلِيل
فاشدّد عرى مالك واستبّقهِ فالَموت خيرٌ مِنْ سؤال البَخِيل
آخر^(٣): [مجزوء الكامل]

الموت خيرٌ للفتى مِنْ أن يعيش بغير مالٍ
والموت خيرٌ للكريم مِنْ التضرّع والسؤال

وقال أبو الأسود الدؤلي: لو لم نبخل على السؤال بما يسألونا لكنا أسوأ حالاً منهم. وقالوا: ختم المال حتم. وليم مروان بن أبي حفصة على الإمساك، فأنشد^(٤):

(١) البيتان لعليّ بن الجهم في ديوانه، والبيت الأول مطلع القصيدة.

(٢) البيتان لعبد الله بن المعتز في التمثيل والمحاضرة، للثعالبي، ص ٥٨٩؛ وبلا نسبة في تحسين القبيح، للثعالبي، ص ٢٧.

(٣) البيتان بلا نسبة في المحاسن والمساوي، لإبراهيم البيهقي، ص ٥٩٤.

(٤) البيتان في الوافي بالوفيات، لصلاح الدين الصفدي، في ترجمة ابن القم الحسين بن علي بن محمد.

[الطويل]

يقيم الرجال المُوسرون بأرضهم وترمي التوى بالمقترين المراميا
وما فارقوا أوطانهم عن ملالة ولكن حذارًا من شمات الأعدايا

ومن قولهم في أن الفقر والإقلال مقرونان بالدُّخر والإذلال

قال أمير المؤمنين عليّ كرم الله وجهه: الفقر داء لا دواء له، مَنْ كَتَمَهُ قَتَلَهُ، وَمَنْ أَدَاعَهُ فَضَحَهُ. وقال أيضًا رضي الله عنه: مارست كل شيء فغلبتَه، ومارسني الفقر فغلبنِي، إن سترته أهلكني، وإن أدغته فضحني. وقال لولده محمد ابن الحنفية: يا بُنَيَّ إني أخاف الفقر، فإنه منقصة للذين مذهبة للعقل داعية للمقت. وقالوا: الفاقة هي الموت الأصغر، لا بل هي الموت الأكبر. وذَكَرَ أَنَّ السفاح لما ضَرَبَ أعناق بني أمية قام إليه رجل، فقال: يا أمير المؤمنين هذا والله جهد البلاء، فقال: مَهْ لا أُمُّ لك ما هذا وشرطة حجام إلا سواء، ولكن جهد البلاء فقر مدقع، بعد غنى مُوسع. وقال ابن دأب: لقيت رجلًا كنت أعرفه حَسَنَ الحال، ومن أصحاب الأموال، في حالة رَدِيَّة، كأنما أصابته رَزِيَّة، فسَلَمَ عليّ فقلت: ما الذي غيَّرَ حالَكَ وأذهب مالك؟ فقال: تنقَل الزَّمان، وكَثُرَ الحَدَثان، فآثرت الضَّرْبَ في البلدان والبُعْدَ عن الأوطان، ومفارقة المعارف والإخوان، وعملت بقول الشاعر^(١):

[الطويل]

سأعمل نَضْبَ العَيْسِ حتى يكفني غنى المال يومًا أو غنى الحَدَثانِ
فللموت خيرٌ من حياة يُرى بها على الحرّ ذي الإقلال وسمّ هوانٍ
متى يتكلّم يبلغ حُكْمَ كلامه وإن يقل قالوا عديم بيانٍ

وقوله هذا ينظر إلى قولهم فيما ضربوه من الأمثال: مناقب المُوسِرِ مثالب المُعسر؛ وذلك أنه إذا كان جوادًا قالوا مبذّر، وإن كان لَسِيَنًا قالوا مهذار، وإن كان ذكيًا قالوا بليد، وإن كان شجاعًا قالوا أهوج، وإن كان صموتًا قالوا عيبي، وإن كان وقورًا قالوا متكبر، ومن نزل به الفقر لم يجد بُدًّا مِنْ ترك الحياء، ومن ذهب حياؤه ذهب مروءته، ومن ذهب مروءته مقت، ومن مقت أُوذِي، ومن أُوذِي حزن، ومن حزن ذهب عقله، ومن أصيب بهذا كله كان كلامه كَلًّا عليه لا له.

(١) الأبيات لمحمد بن حازم الباهلي في ديوانه، والبيت الأول مطلع القصيدة.

شاعر^(١): [البسيط]

لَمَّا رَأَيْتَ أَخْلَائِي وَخَالِصَتِي الْكُلَّ مَنْقَبُضَ عَنِي وَمَحْتَشَمِ
أَبْدُوا جَفَاءً وَإِعْرَاضًا فَقُلْتُ لَهُمْ أَذْنِبْتُ ذَنْبًا فَقَالُوا ذَنْبُكَ الْعَدَمُ
آخر^(٢): [الطويل]

يُغْطِي عِيُوبَ الْمَرْءِ كَثْرَةُ مَالِهِ يَصْدَقُ فِيمَا قَالَ وَهُوَ كَذُوبُ
وَيُزْزِي بِعَقْلِ الْمَرْءِ قَلَّةُ مَالِهِ يَحْتَمُّهُ الْأَقْوَامُ وَهُوَ لَبِيبُ
آخر^(٣): [الخفيف]

أَنْطَقْتُكَ الثِّيَابَ لَا الْآدَابَ وَطَوْتَنِي عَنِ الْكَلَامِ الثِّيَابُ
وَالصَّوَابَ الَّذِي أَقُولُ خَطَاءَ وَالْخَطَاءَ الَّذِي تَقُولُ الصَّوَابُ

وقالوا: مَنْ حَسُنَ حاله اسْتُحْسِنَ قاله. وقالوا: الْفَقْرُ يخرس الفطن عن حُجَّتِهِ ويجعله غريبًا في بلدته. وقالوا: إذا افتقر الرجل اتَّهمه مَنْ كان يَأْتَمُنُهُ وأساء به الظَّنَّ مَنْ كان يُحْسِنُهُ، فإذا أذنب غيره نُسِبَ إليه، وَمَنْ كان له صار عليه. وقال إبراهيم بن محمد بن المدير: جهدت جهدي أن أنظر إلى الفقير بالعين التي أنظر بها إلى الغني، فلم يتهَيَّأ لي ذلك. وقال الشاعر^(٤): [الكامل]

يَغْدُو الْفَقِيرُ وَكُلَّ شَيْءٍ ضَدَّهُ وَالْأَرْضُ تَغْلِقُ دُونَهُ أَبْوَابُهَا
وَتَرَاهُ مَمْقُوتًا وَلَيْسَ بِمُذْنِبٍ وَيَرَى الْعَدَاوَةَ لَا يَرَى أَسْبَابُهَا
حَتَّى الْكِلاَبِ إِذَا رَأَتْ ذَا بَرْزَةٍ أَضْعَتْ إِلَيْهِ وَحَرَّكَتْ أَذْنَابُهَا
وَإِذَا رَأَتْ يَوْمًا فَقِيرًا عَارِيًا نَبَحَتْ عَلَيْهِ وَكَشَرَتْ أَثْيَابُهَا

وقالوا: ما أَطْيَبُ الإِفَاقَةَ مِنْ سَمِّ الْفَاقَةِ. وقال عبد الملك بن صالح: الْفَقْرُ جند الله الأكبر يذلُّ به مَنْ طَغَى وَتَجَبَّرَ. ويقال: رُبَّ حَسْبٍ دَفَنَهُ الْفَقْرُ.

(١) البيتان لمنصور بن إسماعيل الفقيه في ديوانه، من قصيدة مطلعها:

الناس أتباع ما دامت له النعم والويل للمرء إن زلَّتْ به القدم

(٢) البيتان لعلي بن أبي طالب في ديوانه، وهما بيتان منفردان.

(٣) البيتان لم أجدهما في المصادر والمراجع التي بين يدي.

(٤) الأبيات لابن الأحنف في المستطرف، للأبشيهي، ص ١٣٣٣.

شاعر^(١): [البسيط]

الفقر يُزري بأقوام ذوي حسبٍ وقد يسود غير السيدِ المالُ
وقال بعضهم: الفقير كُميت في بيتٍ لا يملك غير الجلدة بردة، ولا يلتقي
لحياءه إلا برعدة. شاعر^(٢): [البسيط]

ما أحسن الدين والدنيا إذا اجتمعَا وأقبح القل والإفلاس بالرجلِ
آخر^(٣): [الطويل]

لبست صروف الدهر كهلاً وناشئًا وجزيت حاله على العسر واليسرِ
فلم أر بعد الدين خيرًا من الغنى ولم أر بعد الكفر شرًا من الفقرِ
آخر^(٤): [البسيط]

رُزقت لبًا ولم أرزق مروءته وما المروءة إلا كثرة المالِ
إذا أردت مسامة تقيديني عما يُنوه باسمي رقة الحالِ
آخر^(٥): [الطويل]

كفى حزنًا أن الغنى مُتعذرٌ عليّ وأتي بالمكارم مُغرُمٌ
وما قصرت بي في المطالب همة ولكنتني أسعى إليها فأحرمُ
آخر^(٦): [الطويل]

كفى حزنًا أني أروح وأغتدي ومالي من مالِ أصون به عِرضي
وأكثر ما ألقى صديقي بمرحباً وذلك لا يكفي الصديق ولا يرضي

(١) البيت لمنصور بن إسماعيل الفقيه في ديوانه، وهو بيت منفرد.

(٢) البيت لم أجده.

(٣) البيتان لعلي بن أبي طالب في ديوانه، وهما بيتان منفردان، وانظر أيضًا ديوان صالح بن عبد القدوس، وديوان محمود الوزاق.

(٤) البيتان للخليل بن أحمد الفراهيدي في ديوانه، وهما بيتان منفردان، وانظر أيضًا ديوان محمد بن حازم الباهلي.

(٥) البيتان لبكر بن النطاح في ديوانه، وهما بيتان منفردان، وانظر أيضًا ديوان مجنون ليلى.

(٦) البيتان بلا نسبة في الإشراف في منازل الأشراف، لابن أبي الدنيا، ص ٩٩.

آخر^(١) : [الوافر]

أرى نفسي تَشُوقُ إلى أمورٍ يَقْصُرُ دون مَبْلَغِهِنَّ مالي
فَنفسي لا تُطَاوِعُنِي لِبُخْلِ ولا مالي يُبَلِّغُنِي فِعَالِي

آخر^(٢) : [الطويل]

إذا قَلَّ مال المَرْءِ قَلَّ صَدِيقُهُ ولم يَحُلْ في عَيْنِ الصَّدِيقِ لِقَاؤُهُ
وأَصْبَحَ لا يَدْرِي وإنْ كان حَازِمًا أَقْدَامُهُ خَيْرٌ لَهُ أم وِراؤُهُ
فإنْ مات لم يُفْقَدْ ولم يَحْزَنُوا لَهُ وإنْ عاشَ لم يَفْرَحْ بِهِ أولِياؤُهُ

قيس بن عاصم^(٣) : [الطويل]

يسوّدُ هذا المال غيرَ مسوّدٍ ويحرّمه ليث فيصبح ثعلبًا
وأوّل ما يجفّو الفقير لفقره بنوه ولم يرضوه في فقره أبا
كأنّ فقير القوم في الناس مُذْنِبٌ وإن لم يكن مِنْ قبل ذلك أَذْنِبًا

آخر^(٤) : [الطويل]

لَعَمْرُكَ إنَّ الغِنَى يجعل الفتى سرّيًا وإنّ الفقرَ بالمَرْءِ قد يزري
ولا رَفَعَ النَّفْسَ الدَّنِيئَةَ كالغِنَى ولا وَضَعَ النَّفْسَ التَّفِيسَةَ كالْفَقْرِ

آخر^(٥) : [الطويل]

ألم تَرَ أَنَّ المَرْءَ يَزْدَادُ عِزَّةً على أهله أن يعلموا أنه مُثْرِي
وينحطّ منه القدر إن كان مُعْدِمًا وأَصْبَحَ لا يُزْجَى لنفعٍ ولا ضُرٍّ

(١) البيتان لعبد الله بن معاوية في لباب الآداب، للثعالبي، ص ٣١٢؛ ولإسحق الموصلي في ديوانه، وهما بيتان منفردان.

(٢) في ديوان أبي العتاهية بيت قريب منه، وهو:

إذا قَلَّ مال المَرْءِ قَلَّ صَدِيقُهُ وضاعت به عَمَّا يريد طَرِيقُهُ

(٣) الأبيات لم أجدها في المصادر والمراجع التي بين يدي.

(٤) البيتان بلا نسبة في المستطرف، للأبشيبي، ص ١٣٣٣.

(٥) البيت الأول بلا نسبة في كتاب البخلاء، للجاحظ، ص ٣٤٧؛ وعيون الأخبار، لابن قتيبة، ص

آخر^(١): [الطويل]

أرى ذا الغنى في الناس يسعون حوله وإن قال قولاً تابعه وصدقوا
فذلك دأب الناس ما دام ذا غنى وإن مال عنه المال يوماً تفرقوا

وَمِنَ الْمَنْظُومِ فِي سَلَكِ الرِّشَاقَةِ مَا قِيلَ فِي التَّشْكِيِّ مِنْ ضَرَرِ الْإِقْلَالِ وَالْفَاقَةِ

مجد العرب العامري^(٢): [مخلع البسيط]

هجرت للعدم كلّ خلٍّ وصرت للانقباض خذنا
فلا أهّئى ولا أعزى ولا أعزى ولا أهّئنا

ابن الخياط الدمشقي^(٣): [الكامل]

لم يبقَ عندي ما يُباع بحبّة وكفاك شاهد منظرٍ عن مُخبري
إلا بقيّة ماء وجه صُنّتها عن أن تُباع وأين أين المُشتري

آخر^(٤): [الطويل]

قعدت عن الإخوان من غير ما قلّى وكان صواباً ما أتيت على عمدي
وجُهد الفتى أن يَسْتَر البيت حاله إذا لم يجد حراً يعين على الجهد

آخر^(٥): [المنسرح]

الحمد لله ليس لي نَشَب قد خفّ ظهري وقلّ زوّاري
مَنْ نظرت عينه إليّ فقد أحاط عِلْماً بما قد حَوّت داري

(١) البيتان بلا نسبة في العقد الفريد، لابن عبد البر، ص ١٤٥٥.

(٢) البيتان لمجد العرب مصطفى الدولة أبي فراس علي بن محمد بن غالب العامري في خريدة القصر، للعماد الأصبهاني، في ترجمته.

(٣) البيتان لابن الخياط في الوافي بالوفيات، لصلاح الدين الصفدي، في ترجمة ابن حيوس (محمد بن سلطان).

(٤) البيتان لم أجدتهما في المصادر والمراجع التي بين يدي.

(٥) البيتان للحسن بن هانئ في العقد الفريد، لابن عبد ربّه، وليسا في ديوان أبي نواس.

آخر^(١) : [مجزوء الرمل]

أنا في حال تعالى الله	ما أعظم حالي
ليس لي شيء إذا قيد	ل لمن ذا قلت ذالي
ولقد أفلست حتى	حل أكلي لعيالي
مَنْ رأى شيئاً مُحالاً	فأنا عَيْنُ المُحال
فبلاد الله أرضى	والسموات ظلالى
لو يكن في الناس حرّ	لم أكن في مثل حالي

آخر^(٢) : [الكامل]

جاء الشتاء وليس عندي درهم	وبدون ذلك قد يصاب المسلم
وتقطع الناس الجباب وغيرها	وكأنني بإزاء مَكَّة مُحرّم

آخر : [الرمل]

طشتي الأرض ومنديلي الهوا	وعلى الخبز من الجُوع احتلامي
هل سمعتم أو رأيتم أحدا	أكل الخبز سواي في المَنام

آخر : [الخفيف]

خُلِقَ المال واليسار لِقَوْم	وأراني خُصّضت بالإملاق
أنا فيما أرى بقيّة قوم	خُلِقوا بعد قسمة الأرزاق

آخر : [الطويل]

إذا جُزّت يوماً بالسَّويق يمّسني	لقلة نقدي ذلة وخضوع
فلا قائل للمشتري كيف تشتري	ولا سائل البيّاع كيف تبيع

آخر^(٣) : [المنسرح]

الحمد لله ليس لي فرس	ولا على باب منزلي حرس
----------------------	-----------------------

(١) الأبيات لم أجدها في المصادر والمراجع التي بين يدي.

(٢) البيتان لبحي بن ذي الشامة المعطي في ربيع الأبرار، للزمخشري، ص ١٤٥.

(٣) الأبيات لأبي العيّن في ديوانه، والبيت الأول مطلع القصيدة.

ولا غلامٌ إذا هتفت به بادر نحوي كأنه قَبَسُ
ابني غلامي وزوجتي أمتي ملكتها بالملاك والعرسُ
عُنيت باليأس واعتصمت به عن كلِّ فرد بوجهه عبسُ
فما يراني ببابه أبدًا طَلَقَ المحيًّا سمح ولا شرسُ

وما أحسن قول أبي العبر الهاشمي، ولقد أبان عن شرف وعلو همة، فصار
بما قال في الناس أمة^(١): [المديد]

قنعت نفسي بما رزقت وتمطت في العلا هممي
ولبست الصبر سابغة هي من قرني إلى قدمي
فإذا ما الدهر عاتبني لم يجدني كافر النعم
لا أقول الله يظلمني كيف أشكو غير متهم

وواجب إتباع هذا الفصل بمدح المال

إذ به يُدرك ما شسع من الآمال

قالوا: اليسار علاء، والإقتاء بلاء. وقالوا: الغني سني كبير، والفقير دني
حقير. ويقال: قيمة كل امرئ ما معه. شاعر: [السريع]

ولا يساوي دِزْهَمًا واحدًا مَنْ لم يكن في كَفِّه درهمُ

وقالوا: المرء بدرهميه لا بأصغريه، نظمه بعض الشعراء فقال^(٢): [مخلع]

[البسيط]

قد قال قوم بغير علم ما المَرءُ إلا بأصغريه
وقلت قول امرئٍ عليم ما المَرءُ إلا بدرهميه

وقال بعضهم لولده: لِيَكُنْ معكَ مِنَ العَيْنِ ما تَقَرَّ به العَيْنُ. وقالوا: المال
معشوق الِوَرَى، فمن عُدِمَه نُبِذَ بالعراء منفصم العُرَى. وقيل للحسن: ما بال الناس
يُكْرِمُونَ صاحب المال؟ قال: لأنَّ عنده معشوقهم، فإليه القلوب تُمال. وقالوا:
المال يستعبد الأحرار، ويذلُّ الأشرار. وقال آخر: بقدر ما تُعْطَى مِنَ المال، تُعْطَى

(١) الأبيات في فوات الوفيات، لابن شاعر الكتبي، في ترجمة أبي العبر محمد بن أحمد الهاشمي.

(٢) البيتان لأحمد بن فارس في ديوانه، والبيت الأول مطلع القصيدة.

مِنْ الإِجْلَالِ. سُمِعَ قَيْسُ بْنُ عُبَادَةَ يَقُولُ فِي دَعَائِهِ: اللَّهُمَّ ارْزُقْنِي حَمْدًا وَمَجْدًا، فَإِنَّهُ لَا حَمْدَ إِلَّا بِفِعَالٍ، وَلَا مَجْدَ إِلَّا بِمَالٍ؛ اللَّهُمَّ إِنَّهُ لَا يُضْلِحُنِي الْقَلِيلُ، وَلَا أَصْلَحَ عَلَيْهِ. أَشَارَ فِي هَذَا إِلَى قَوْلِ الشَّاعِرِ^(١): [الطويل]

وَلَا مَجْدَ فِي الدُّنْيَا لِمَنْ قَلَّ مَالُهُ وَلَا مَالٌ فِي الدُّنْيَا لِمَنْ قَلَّ مَجْدُهُ
عُوتِبَ ابْنُ أَبِي لَيْلَى فِي تَعْظِيمِ مُوسِرٍ، فَقَالَ: إِنَّ تَعْظِيمَ ذَوِي الْمَالِ سَرٌّ جَعَلَهُ
اللَّهُ فِي الْقُلُوبِ لَا يُسْتَطَاعُ رَدُّهُ. شَاعِرٌ: [الطويل]

يَعِيرُ الْغَنَى ثَوْبَ الْمَكَارِمِ لِلْفَتَى وَإِنْ كَانَ مِنْ ثَوْبِ الْمَكَارِمِ عَارِيَا
وَمَرَّ مُوسِرٌ بِالشَّعْبِيِّ، فَتَزَحَّجَ لَهُ، فَقِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ، فَقَالَ: رَأَيْتَ ذَا الْمَالِ مَهِيئًا.
شَاعِرٌ: [البيسط]

إِنِّي وَجَدْتُ الْغِنَى زَيْنًا لِمَالِهِ فِي أَهْلِهِ وَفَقِيرِ الْقَوْمِ مَحْقُورُ
إِنَّ الْمُقْلِينَ لَا تُنْسَى ذُنُوبُهُمْ وَذَنْبُ ذِي الْمَالِ عِنْدَ النَّاسِ مَغْفُورُ
وَقَالَ مَعَاوِيَةُ: إِنَّ الشَّرْفَ وَالسُّودَّ لِيَنْتَقِلَانِ مَعَ الْغِنَى، كَمَا يَنْتَقِلُ الضَّلَّ.
شَاعِرٌ: [الكامل]

النَّاسُ مَا اسْتَغْنَيْتَ كُنْتَ صَدِيقَهُمْ وَإِذَا افْتَقَرْتَ إِلَيْهِمْ فَهُمْ الْعِدَى
ذُو الْمَالِ عِنْدَهُمْ يَسُودُ بِمَالِهِ وَيَزُولُ سُودُّهُ إِذَا فَقِدَ الْغِنَى
آخِرُ^(٢): [المنسرح]

كَمْ مِنْ لَتِيمِ الْجَدُودِ سُودَهُ الـ مَالُ أَبَوَيْهِ وَأَمَةِ الْوَرَقِ
وَكَمْ كَرِيمِ الْجَدُودِ لَيْسَ لَهُ غَيْبٌ سِوَى أَنْ ثَوْبَهُ خَلَقُ
آخِرُ^(٣): [المتقارب]

إِذَا كُنْتَ ذَا ثَرَوَةٍ مِنْ غِنَى فَأَنْتَ الْمَسُودُ فِي الْعَالَمِ
وَحَسْبُكَ مِنْ نَسَبِ صُورَةٍ تُخْبِرُ أَنَّكَ مِنْ آدَمِ

(١) البيت للمتنبي في ديوانه، من قصيدة مطلعها:

أَوْدٌ مِنَ الْأَيَّامِ مَا لَا تَوَدُّهُ وَأَشْكُوا إِلَيْهَا بَيْنَنَا وَهِيَ جَنَدُهُ

(٢) البيتان بلا نسبة في عيون الأخبار، لابن قتيبة، ص ٦٣٤.

(٣) البيتان لابن المعتز في ديوانه، وهما بيتان منفردان.

وقال عبد الرحمن بن عوف: حبذا المال أصون به عِزضي، وأصلُ به رحمي، وأتقربُ به إلى ربي، وأبرّ به صديقي، وأكمد به عدوي، وأفضلُ به على عشيرتي. وقال الثعالبي: مَنْ كان كيسه صِفْراً من البيض والصُّفْر، فَلْيَبْشُرْ بجفاء الدَّهر وانقطاع الظَّهر. وكان محمد بن الجَهْم يقول: مَنْ وهب ماله في عمله فهو أحمق، وَمَنْ وهبه بعد العزل فهو مجنون، ومن وهبه من إرثه فهو جاهل، ومن وهبه من مُلكه فهو مخذول، ومن وهبه من كَسْبه وما استفاده من كَدّه بحيلة فهو المطبوع على قلبه، المأخوذ بسمعه وبصره. وقال: من عهده بالإفلاس تقادم محل المال من المنزل محل الشمس في العالم.

وقال بعض عقلاء الفرس: مَنْ زعم أنه لا يُحِبُّ المال، فهو عندي كاذب حتى يثبت صدقه، فإذا ثبت صدقه فهو عندي أحمق. وقال عمرو بن العاص لمعاوية: ما أشدَّ حبَّك للمال، فقال: كيف لا أحبه وقد استعبدت به مثلك، واشتريت به مروءتك ودينك. وقال الحسن بن المنذر: وددت أن لي مثل أحد ذهباً لا أنتفع بشيء منه، قيل له: فما ترجو بذلك؟ قال: أريده لكثرة مَنْ يخدمني عليه ويجلني لأجله. وقالوا: المال يجمع السُّمْل، ويُسْتَر الأهل، ويزيد في العقل. وقالوا: من استغنى عن الناس عَظُمَوه ووقَّروه، ومن احتاج إليهم ازدروه واحتقروه. وقيل لبعض الحكماء: أيما أفضل الأدب أو المال؟ قال: الأدب، قيل له: فما بال الأدباء يأتون أبواب الأغنياء، ولا تأتي الأغنياء أبواب الأدباء؟ قال: ذلك لعلم الأدباء بمقدار فضل المال، وجَهْل الأغنياء بمقدار فضل الأدب. شاعر: [الوافر]

أصون دراهمي وأذب عنها	لعمري أنها درعي وترسي
وأخبؤها إلى أعدى الأعادي	من الوراث حتى أبناء جنسي
ولا سؤلي إلى رجلٍ لئيم	ليقرض درهماً نقداً بخمس
فيعرض وجهه ويصدَّ عني	فتبقى مثل نفس الكلب نفسي
فيا ذلَّ الرِّجال بغير مالٍ	ولو جاؤوا بنسبة آل عبس

ابن الرومي^(١): [السريع]

لا تَلَمْ المَرْءَ على بُخْلِهِ	ولمَّه إن زاد على بَذْلِهِ
حقُّ على كلِّ امرئٍ حازم	يحفظ ما يُكْرَم من أجْلِهِ

(١) البيتان ليسا في ديوان ابن الرومي، ولم أجدهما في المصادر والمراجع التي بين يدي.

ولقد أحسن القائل وأجاد: [الكامل]

مَنْ كَانَ يَمْلِكُ دَرَاهِمِينَ تَعَلَّمْتُ	شَفَتَاهُ أَنْوَاعَ الْكَلَامِ فَقَالَ
وَتَقَدَّمَ الْإِخْوَانُ فَاسْتَمَعُوا لَهُ	وَرَأَيْتَهُ بَيْنَ الْوَرَى مُخْتَلَا
لَوْلَا دَرَاهِمُهُ الَّتِي فِي كَيْسِهِ	لِرَأْيَتِهِ أَسْوَأَ الْبَرِيَّةِ حَالَا
إِنَّ الْغَنِيَّ إِذَا تَكَلَّمَ بِالْخَطَا	قَالُوا صَدَقْتَ وَمَا نَطَقْتَ مُحَالَا
وَإِذَا الْفَقِيرُ أَصَابَ قَالُوا كُلَّهُمْ	أَخْطَأْتُ يَا هَذَا وَقُلْتُ ضَلَالَا
إِنَّ الدَّرَاهِمَ فِي الْمَوَاطِنِ كُلِّهَا	تَكْسُو الرِّجَالَ مَهَابَةً وَجَلَالَا
فَهِيَ اللِّسَانُ لِمَنْ أَرَادَ فَصَاحَةً	وَهِيَ السُّنَانُ لِمَنْ أَرَادَ قِتَالَا

والمُعِين على طلب البغية مِنَ المال طلب المعيشة في الأيام والليالي

قال بعضهم: [الكامل]

لَا تَرْهَبَنَّ الْهَوْلَ خَوْفَ مَنِيَّةٍ	وَاقْذِفْ بِنَفْسِكَ فِي طَلَابِ الدَّرَاهِمِ
وَدَعْ الْمَخَافَ وَالْمَتَافَ إِنَّهَا	نَفْسٌ مُؤَقَّتَةٌ وَرِزْقٌ يُقْسَمُ

آخر: [الوافر]

فَجُبَّ عَرْضُ الْبِلَادِ فَلَسْتُ تَدْرِي	غِنَاكَ بِأَيِّ آفَاقِ الْبِلَادِ
وَلَا تَقْعُدْ عَلَى ظَمَا وَفَقْرٍ	فَذُو الْإِقْتَارِ مِمَّنْوعِ الرِّقَادِ

آخر: [الطويل]

سَأَضْرِبُ فِي الْآفَاقِ أَلْتَمَسَ الْغِنَى	وَأُرْمِي بِنَفْسِي فِي بُحُورِ الْمَطَالِبِ
فَإِنْ أُعْطِيَ مَسْرُورًا فَدَاكَ وَإِنْ أَخْبُ	فَعَلِمِي بِأَنِّي لَسْتُ أَوَّلَ خَائِبِ

آخر^(١): [الطويل]

إِذَا الْمَرْءُ لَمْ يَطْلُبْ مَعَاشًا لِنَفْسِهِ	شَكََا الْفَقْرَ أَوْ لَامَ الصَّدِيقَ فَأَكْثَرَا
وَصَارَ عَلَى الْأَهْلِينَ كَلًّا وَأَوْشَكَتْ	صَلَاتُ ذَوِي الْقُرْبَى بِأَنْ تَتَكَسَّرَا

(١) الأبيات لرابعة الرقي في ديوانه، والبيت الأول مطلع القصيدة.

فَسِرْ فِي بِلَادِ اللَّهِ وَالتَّمَسِ الْغِنَى تَعِشْ ذَا يَسَارٍ أَوْ تَمُوتْ فَتَعْذِرَا
وَلَا تَرْضَ مِنْ عَيْشٍ بَدُونٍ وَلَا تَنْمَ وَكَيْفَ يَنَامُ اللَّيْلُ مَنْ كَانَ مُغْسِرَا
آخر: [البسيط]

لَا يَمْنَعُكَ نَفِيسُ الْعَيْشِ تَطْلِبُهُ نُزُوعَ نَفْسٍ إِلَى أَهْلِ وَأَوْطَانِ
تَلْقَى بِكُلِّ بِلَادٍ إِذْ حَلَلْتَ بِهَا أَهْلًا بِأَهْلٍ وَإِخْوَانًا بِإِخْوَانِ
آخر^(١): [الوافر]

وَمَا طَلَبَ الْمَعِيشَةَ بِالْتِمَتِي وَلَكِنْ أَلْقِ دَلُوكَ فِي الدَّلَاءِ
تَجِيءُ بِمِثْلِهَا يَوْمًا وَيَوْمًا تَجِيءُ بِحَمَاءٍ وَقَلِيلُ مَاءِ
آخر^(٢): [الطويل]

وَمَنْ كَانَ مِثْلِي ذَا عِيَالٍ مُقْتَرَا مِنَ الْمَالِ يَطْرَحُ نَفْسَهُ كُلَّ مَطْرَحِ
لِيَبْلُغَ عَذْرًا أَوْ يَنَالَ غَنِيمَةً وَمَبْلَغَ نَفْسٍ قَصْدَهَا مِثْلُ مَنْجَحِ
آخر^(٣): [البسيط]

الْعَزَّ تَحْتَ ظِلَالِ السَّيْفِ مَعْدَنُهُ فَاطْلُبْ بِسَيْفِكَ عِزًّا آخِرَ الْأَبَدِ
لَا تَرْضَ بِالْذُّونِ مِنْ دُنْيَا بُلِيَّتْ بِهَا قَدْ دُلَّ مَنْ كَانَ مُخْتَاجًا إِلَى أَحَدِ
آخر^(٤): [الكامل]

خَاطِرُ بِنَفْسِكَ كَيْ تُصِيبَ غَنِيمَةً إِنَّ الْجُلُوسَ مَعَ الْعِيَالِ قَبِيحُ
فَالْمَالُ فِيهِ مَجْلَّةٌ وَمَهَابَةٌ وَالْفَقْرُ فِيهِ مَذَلَّةٌ وَفُضُوحُ

(١) البيتان لعلي بن أبي طالب في ديوانه، والبيت الأول مطلع القصيدة، وانظر أيضًا: ديوان أبي الأسود الدؤلي.

(٢) البيتان لعروة بن الورد في ديوانه، من قصيدة مطلعها:

قلت لقوم في الكنيف تروّحوا عشية بتنا عند ماوان رزح

(٣) البيتان بلا نسبة في ثمار القلوب، للثعالبي، ص ١٣٣٩.

(٤) البيتان للنمر بن تولب في ديوانه، وهما بيتان منفردان، ولعروة بن الورد في ديوانه، من قصيدة مطلعها:

قالت تماضر إذ رأت مالي خوى وجفا الأقارب فالفؤاد قريح

آخر^(١): [مخلع البسيط]

أشدّ مِنْ فاقَةِ الزَّمانِ مقامٌ حرٌّ على هوانٍ
فاسترزق الله واستعنه فإنه خَيْرُ مُستعانٍ
وإن نبا منزل بحرٌ فمن مكانٍ إلى مكانٍ

وقال فتى من قيس لغلام له^(٢): [مجزوء الرمل]

اقذف السَّرج على المهـ ر وقزطه اللُجَما
ثمَّ صَبَّ الدَّرْع في رأـ سي وناولني الحُساما
فمتى أطلب إن لم أطلب الرِّزق غُلاما
سأجوب الأرض أبغيـ ه حلالاً أو حراما
فلعلَّ الظَّعن ينفي الـ فقر أو يُذني الحَماما

آخر^(٣): [الطويل]

ألا خلّني أمضي لشأني ولا أكنْ على الأهلِ كَلا إن ذاك شديدٌ
أرى السَّير في البُلدان يُغني معاشراً ولم أرَ من يُجدي عليه قُعودٌ

آخر: [الخفيف]

وقبيحٌ مقام ذي الهِمة الحـ ربّ أرضٍ مرعاه فيها جَدِيبُ
لا عدواً أنكى ولا النَّفس أغنى وهو راضٍ بها أَكولٌ شروبُ
وتراه يَجوب في طلب المـ لِ سهوباً وخلفهنَّ شُهبُ
خلباً قلباً إذا ملَّ أرضاً جدّ منها إلى سواها ركوبُ
ليس في فوت ما يحاوله الطـ لب مِنْ رِزقه عليه عُيوبُ
إنّما العَيْب أن يرى ساقط الهـ مة والرِّزق طالبٌ مطلوبُ

(١) الأبيات لابن أبي حصينة في ديوانه، وهي ثلاثة أبيات مفردة.

(٢) الأبيات لم أجدها في المصادر والمراجع التي بين يدي.

(٣) البيتان بلا نسبة في الأمل والمأمول، للجاحظ، ص ٦٠؛ والحماسة البصرية، للبصري، ص ٢٨٢.

الباب الحادي عشر

في الشجاعة

وفيه ثلاثة فصول:

الفصل الأول من هذا الباب

في مدح الشجاعة والبسالة وما فيها من الرفعة والجلالة

الشجاعة غريزة في الإنسان يمنحها واهب الإحسان؛ كما ورد عن النبي ﷺ أنه قال: «الشجاعة غريزة يضعها الله فيمن شاء من عباده، إن الله يحب الشجاعة ولو على قتل حيّة»^(١).

وحدّثها، قالوا: سعة الصّدر والإقدام على الأمور المتّلفة، وقالوا: الشّجاع مَنْ تَكُنْ شجاعته عند الفرار، وفَقْدُ الأنصار. وسُئِلَ بعضهم عن الشجاعة، فقال: جبلة نفس أبيّة، قيل له: فما التّجدة؟ قال: ثقة النّفس عند استرسالها إلى الموت حتى يُخمد فعلها عند الخوف. وقال بعض أهل التجارب: الرّجال ثلاثة: فارس وشجاع وبطل؛ فالفارس الذي يشدّ إذا شدّوا، والشجاع الدّاعي إلى البراز والمجيب داعيه، والبطل المحامي لظهور القوم إذا ولّوا. وقال يعقوب بن السكّيت في ألفاظه: العرب تجعل الشجاعة أربع طبقات، تقول: رجل شجاع، فإذا كان فوق ذلك قالوا: بطل، فإذا كان فوق ذلك بهمة، فإذا كان فوق ذلك قالوا: أليس.

من عُرِف من الأكابر في قومه بالبأس والنّجدة

وكان لهم عند الهياج معقلاً وشدة

رسول الله ﷺ، قال أنس بن مالك رضي الله عنه: كان ﷺ أجمل الناس وجهًا، وأجود الناس كفاً، وأشجع الناس قلبًا، لقد فرع أهل المدينة ليلة فانطلق

(١) الحديث لم أجده بهذا اللفظ في كتب الحديث التي بين يدي.

الناس ثائرين قبل الصّوت، فتلقّاهم رسول الله ﷺ راجعاً قد سبقهم إلى الصّوت، وسبر الخبر على فرس لأبي طلحة عري والسيف في عنقه، وهو يقول: «لن تُراعوا لن تراعوا». وقال عمران بن الحُصَيْن: ما لقي رسول الله ﷺ كتيبة قطّ إلا كان أوّل مَنْ يضرب؛ ومنّ ذلك ثباته يوم حُين في مركزه لا يتخلخل ولا يتزّيل، ليس معه إلا عمّه العباس آخذاً بلجام دابّته، وابن عمّه أبو سفيان بن الحرث، وكان المسلمون يومئذ اثني عشر ألفاً فأعجبتهم كثرتهم، حتى قال قائلهم: لن تغلب اليوم من قلّة، وزلّ عنهم أنّ الله هو الناصر لا كثرة الجنود ولا العساكر، فانهزموا حتى بلغ أوّلهم مكّة، ثم تدارك الله الملة الإسلامية بنصره، فأنزل ملائكة على خيول بلقي، وتراجع المسلمون فقاتلوا، فلما رأى رسول الله ﷺ كثرة قتالهم قال: «هذا حين حمى الوطيس»^(١)، وهو أوّل مَنْ قال هذه الكلمة، ثم أخذ كفّاً من تراب فرمى به المشركين، وقال: «شاهت الوجوه»^(٢) فانهزموا، قال ابن عباس: فلكتّني أنظر إلى رسول الله ﷺ يركض خلفهم، فناهيك بهذا الثبات شهادة صدق على تناهي شجاعته وبسالته ورباط جأشه، وما هو إلا من آيات النبوة وعلامات الرّسالة.

ومما عُرف فيه لأبي بكر الصّدّيق رضي الله عنه بقوة الجأش وثبات القلب وشجاعة النفس والصّبر في المواطن الكريهة يوم مات رسول الله ﷺ، فإنّ عمر رضي الله عنه كذب بموته، وقال: ما مات وإنّما واعد ربه كما واعد موسى وليرجعه الله فليقطعن أيدي قوم وأرجلهم يسومون النّبّي الموت، مَنْ قال إنّ محمّداً مات علّوته بسيفي هذا؛ واعتراه ذهول حتى صار لا يدري أين يذهب.

وأما عثمان رضي الله عنه، فدُهش فجعل لا يكلم أحداً فيؤخذ بيده فيُقاد. وأما عليّ رضي الله عنه، فقعد في البيت لم يبرّخ منه. وكان أبو بكر رضي الله عنه حينئذ غائباً في ناحية من نواحي المدينة على ميلٍ منها تسمّى السّنح، فلما بلغه الخبر جاء حتى دخل عليه وهو مستجى، فكشف عن وجهه الكريم وأكبّ عليه وقبل بين عينيه، وقال: طُبّت حيّاً وميتاً، وأعول بالبكاء ثم خرج وهو رابط الجأش ثابت القلب مُصيب في القول والناس على خلاف ذلك من الدّهول واختلاط العقل، وهم في أمر مريج قد ضلّت أفئدتهم في تيّه الحزن، وزلّت أقدام صبرهم

(١) أخرجه مسلم في الجهاد حديث ٧٦، وأحمد في المسند ٢٠٧/١.

(٢) أخرجه مسلم في الجهاد حديث ٨١، والدارمي في السير باب ١٥، وأحمد في المسند ٣٠٨/١، ٣٦٨، ٢٨٦/٥، ٣١٠.

في مزالق الشجن، فصعد المنبر وقال بعد حمد الله والثناء عليه في كلام طويل: مَنْ كَانَ يَغْبُدُ مُحَمَّدًا فَإِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ مَاتَ، وَمَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ حَيٌّ لَا يَمُوتُ؛ ثُمَّ تَلَا: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإَيْنَ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْفَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ فَلَنَ يَصَرَ اللَّهُ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ [آل عمران: الآية ١٤٤]، فثاب إلى عمر عقله، وقال: والله لكأني لم أسمع بها قط في كتاب الله قبل ما نزل بنا.

وقالت عائشة رضي الله عنها في خطبتها التي افتخرت فيها: لَمَّا قُبِضَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ طَلَعَ نَجْمُ التَّفَاقِ، وَارْتَدَّتِ الْعَرَبُ، وَصَارَ الْمُسْلِمُونَ كَالْغَنَمِ السَّارِحَةِ فِي اللَّيْلَةِ الْمَاطِرَةِ، فَحَمَلَ أَبِي مِنَ الْأَمْرِ الْفَخْمَ مَا لَوْ حَمَلْتَهُ الْجِبَالُ لَهَاقَهَا، وَمَا يَدْرِي أَيُّمَا أُرْبِطَ جَاشَأًا وَاتَّبَتْ قَلْبًا فِي هَذَا الْأَمْرِ الشَّدِيدِ وَالْمَصَابِ الْعَتِيدِ، أَهُوَ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ أَمْ ابْنَتَاهُ عَائِشَةُ وَأَسْمَاءُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. فَأَمَّا عَائِشَةُ، فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَاتَ بَيْنَ سَخْرِيهَا وَنَخْرِيهَا، وَشَاهَدَتْ ذَلِكَ الْهَوْلَ ثُمَّ احْتَمَلْتَهُ فَأَلْقَتْهُ عَلَى فِرَاشِهِ وَسَجَّتْهُ بَبْرَدَتِهِ وَلَمْ تَدْعُ أَحَدًا مِنْ نِسَائِهِ وَأَهْلِهِ يَعِينُهَا عَلَيْهِ، وَعَمَرَهَا إِذْ ذَاكَ ثَمَانِي عَشْرَةَ سَنَةً، ثُمَّ بَكَتْ بَادِئَةً بِصَوْتٍ لَا يَكَادُ يَعْصِي صَاحِبَهُ، فَلَمَّا سَمِعَ النَّاسُ بَكَاءَهَا وَشَجْنَهَا تَحَقَّقُوا مَوْتَهُ وَلَمْ تَظْهَرْ رِزْيَةً وَلَا عَوِيلًا وَلَمْ تَشَقَّ جَنِينًا وَلَمْ تُخَمَّشْ وَجْهًا وَلَمْ تَدْعُ وَيْلًا، وَإِنَّمَا عَلِمَ النَّاسُ مَوْتَهُ بِبَكَائِهَا.

وأما أسماء، فَإِنَّ وَلَدَهَا عَبْدَ اللَّهِ بْنِ الزَّبِيرِ لَمَّا رَأَى الْعَلْبَةَ دَخَلَ عَلَيْهَا وَشَكَا إِلَيْهَا مَا آَلَ إِلَيْهِ أَمْرُهُ، فَقَالَتْ: إِيَّاكَ أَنْ تَنْكُلَ أَوْ تَفْشَلَ وَمُتْ كَرِيمًا أَحْتَسِبُكَ عِنْدَ اللَّهِ، فَقَالَ لَهَا: مَا أَخَافُ الْمَوْتَ، وَإِنَّمَا أَخَافُ أَنْ يُمَثَّلَ بِي، فَقَالَتْ: إِنَّ الشَّاةَ إِذَا دُبِّحَتْ لَا تَبَالِي بِسَلْخِهَا.

وكان عمر رضي الله عنه من الأشداء من الأقوياء موصوفًا بالشدة موسومًا بالحدة والشجاعة والتجدة، كان يضع يده اليمنى على أذن فرسه اليسرى، ثم يجمع جراميزه ويثبت على فرسه، فكأنما خلق على مثنه.

وكان علي رضي الله عنه شجاعًا بطلاً ذكر عنه أنه قتل في ليلة الهرير من حرب صفين خمسمائة وثلاثًا وعشرين رجلًا، وكان إذا ضرب لا يثني، وقيل له: إنك مطلوب فلو اتخذت طرفًا سابقًا، فقال: إني لا أفر على من كره، ولا أكر على من فر؛ فالبغلة تكفيني. وقيل له في حرب صفين: أتقاتل أهل الشام بالغداة وتظهر

لهم بالعشي بإزار ورداء؟ فقال: أبا الموت أخوف! والله لا أبالي أسقطت على الموت أو سقط علي.

وَمِنْ الشُّجْعَانِ الزُّبَيْرِ بْنِ الْعَوَّامِ، قَالُوا: لَمْ يَكُنْ فِي عَصْرِ النَّبِيِّ ﷺ، فَارَسَ أَشْجَعُ مِنَ الزُّبَيْرِ، وَلَا رَاجِلَ أَشْجَعُ مِنْ عَلِيٍّ. وَفِي الزُّبَيْرِ تَقُولُ زَوْجَتُهُ عَاتِكَةُ بِنْتُ زَيْدِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ نُفَيْلِ الْعَدَوِيِّ تَخَاطَبَ عَمْرٍو بْنُ جَرْمُوزَ لَمَّا قَتَلَهُ غَدْرًا بِوَادِي السَّبَاعِ^(١): [الكامل]

غدر ابن جرموز بفارس بهمة يوم اللقاء وكان غير معرّد
يا عمرو لو نبّهته لوجدته لا طائشاً رعرش الجنان ولا اليد

وَمِنْ الشُّجْعَانِ بَنُو قَيْلَةَ وَهُمْ الْأَنْصَارُ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: مَا سُلِّتِ السُّيُوفُ وَلَا زَحَفَتِ الزُّحُوفُ وَلَا أُقِيمَتِ الصُّفُوفُ حَتَّى أَسْلَمَ أَبْنَاءُ قَيْلَةَ - يَعْنِي الْأَوْسَ وَالْخَزْرَجَ وَهُمْ الْأَنْصَارُ - وَصَفَهُمْ مَادِحٌ فَقَالَ: كَانُوا يُحِبُّونَ الْمَوْتَ كَمَا تُحِبُّونَ الْحَيَاةَ، وَيُرْغَبُونَ فِي الْآخِرَةِ كَمَا تُرْغَبُونَ فِي الدُّنْيَا. وَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنْ كُنْتُمْ تَكْثُرُونَ عِنْدَ الْفَزَعِ وَتَقْلُونَ عِنْدَ الطَّمَعِ»^(٢)، يَرِيدُ أَنْهُمْ يَرِيدُونَ بِقَتَالِهِمْ وَجْهَ اللَّهِ وَالْدَّارَ الْآخِرَةَ، فَلَا تَمِيلُ نَفُوسُهُمْ إِلَى مَا يَقْسِمُ مِنَ الْفَيْءِ وَالْغَنِيمَةِ رَغْبَةً فِيمَا هُمْ بِصُدِّدِهِ مِنْ إِعْلَاءِ كَلِمَةِ الْإِسْلَامِ وَإِخْفَاءِ مَا ظَهَرَ مِنْ شُرْكَ عِبْدَةِ الْأَصْنَامِ، فَهُمْ يَكْثُرُونَ إِذَا دُعُوا لِلْقِتَالِ، وَيَقْلُونَ عِنْدَ قَسَمِ الْأَنْفَالِ. قَالَ كَعْبُ بْنُ زَهِيرٍ يَمْدَحُهُمْ^(٣): [الكامل]

من سرّه كرم الحياة فلا يزل في عصبية من صالح الأنصار
الباذلين نفوسهم لنبيّهم يوم الهياج وصفوة الجبار
يتطهّرون كأنه نسك لهم بدماء من علقوا من الكفار

(١) البيتان لعاتكة بنت زيد في نسب قريش، لمصعب الزبيري، ص ٦٢٧؛ والوافي بالوفيات، لصلاح الدين الصفدي، في ترجمتها؛ والحامسة البصرية، للبصري، ص ٤٩٩.

(٢) الحديث لم أجده بهذا اللفظ في كتب الحديث التي بين يدي.

(٣) الأبيات في ديوان كعب بن زهير، من قصيدة مطلعها:

من سرّه كرم الحياة فلا يزل في مقنب من صالحى الأنصاري

وَمِنْ الشُّجْعَانِ مَعَاذُ بْنُ عَفْرَاءَ قُطِعَ كَفُّهُ يَوْمَ بَدْرٍ، فَبَقِيَ مُعَلَّقًا بِجِلْدَةٍ بَطْنِهِ، فَلَمْ يَزَلْ يُقَاتِلُ يَوْمَهُ أَجْمَعَ، وَهُوَ مُعَلَّقٌ حَتَّى وَجَدَ أَلَمَهُ، فَوَضَعَ رِجْلَهُ عَلَى يَدِهِ وَتَمَطَّى حَتَّى قَطَعَ الْجِلْدَةَ. وَحَمَلَ رَجُلٌ عَلَى حَكِيمِ بْنِ جَبَلَةَ فِي يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِ حَرَّةٍ، وَقَدْ قَطَعَ سَاقَهُ فَأَخَذَهَا فِي يَدِهِ وَضَرَبَ بِهَا مَنْ قَطَعَهَا فَصَرَعَهُ، ثُمَّ أَتَاهُ وَاتَّكَأَ عَلَيْهِ فَقَتَلَهُ، وَقَالَ مَرْتَجِزًا^(١): [الرجز]

يَا سَاقَ لَنْ تَرَاعِي إِنْ مَعِيَ ذِرَاعِي
أَحْمِي بِهِ كِرَاعِي

وَحُكِّي عَنْهُ أَنَّهُ قِيلَ لَهُ: مَنْ قَطَعَ سَاقَكَ؟ قَالَ: وَسَادَتِي.

وَلَمْ يَكُنْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَلَا فِي الْإِسْلَامِ أَشْجَعُ مِنْ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَلَشَجَاعَتُهُ سَمَاءُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ سَيْفُ اللَّهِ؛ وَذَلِكَ أَنَّهُ لَمْ يَنْهَزَمْ فِي جَاهِلِيَّةٍ وَلَا إِسْلَامٍ، وَمَاتَ عَلَى فَرَّاشِهِ، وَيُقَالُ: إِنَّهُ قَالَ عِنْدَ مَوْتِهِ: مَا فِي جَسَدِي مَوْضِعٌ إِلَّا وَفِيهِ ضَرْبَةٌ بِسَيْفٍ أَوْ طَعْنَةٌ بِرُمْحٍ أَوْ جُرْحٌ بِسَهْمٍ، وَهِيَ أَنَا أَمُوتَ عَلَى فَرَّاشِي كَمَا يَمُوتُ الْعَيْرُ، فَلَا نَامَتْ أَعْيُنُ الْجُبْنَاءِ.

وَمِنْ شَجْعَانِ الصَّحَابَةِ الْبَرَاءِ بْنِ مَالِكٍ، قِيلَ عَنْهُ؛ إِنَّهُ قَتَلَ مِائَةَ مَبَارِزٍ سِوَى مَنْ شُورِكَ فِي قَتْلِهِ، وَكَتَبَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ إِلَى عَمَّالِهِ أَنْ لَا يُولَوْهُ جَيْشًا لِلْمُسْلِمِينَ، فَإِنَّهُ يُهْلِكُهُ.

وَمِنْ شَجْعَانِ الصَّحَابَةِ طَلْحَةَ بْنُ عُبَيْدِ اللَّهِ، وَحَارِثَةُ بْنُ حَذِيفَةَ، وَالزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَامِ، وَالْمَقْدَادُ بْنُ الْأَسْوَدِ يُرْوَى أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْعَاصِ بَعَثَ إِلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ وَهُوَ يُحَاصِرُ مِصْرَ يَطْلُبُ مِنْهُ ثَلَاثَةَ آلَافٍ فَارِسٍ، فَبَعَثَ إِلَيْهِ حَارِثَةَ وَالزُّبَيْرَ وَالْمَقْدَادَ لَا غَيْرَ، أَقَامَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ مَقَامَ أَلْفِ فَارِسٍ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ.

وَكَانَ مَصْعَبُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ شَجَاعًا، ذُكِرَ عَنْهُ أَنَّهُ كَانَ يَثْبُثُ ثَلَاثَ وَثَبَاتٍ كُلُّ وَثْبَةٍ ثِنْتَا عَشْرَةَ ذِرَاعًا، حَتَّى يَصِلَ قَرْنَهُ فَيَقْتُلُهُ.

وَمِنْ الْفَرَسَانِ مَالِكُ بْنُ الْحُوَيْرِثِ الْمَعْرُوفُ بِالْأَشْتَرِ النَّخَعِيُّ مِنْ أَصْحَابِ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ أَبُو بَكْرٍ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ: أَعْطَتْ عَائِشَةُ لِلَّذِي بَشَّرَهَا بِحَيَاةِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ مِنَ الْعَوَامِ إِذْ التَّقَى بِالْأَشْتَرِ يَوْمَ الْجَمَلِ أَرْبَعَةَ آلَافٍ دَرَاهِمَ، ذُكِرَ أَنَّ

(١) الرجز في كتاب الأوائل، لأبي هلال العسكري، ص ٣١٠.

رجلاً سبّ الأشر، فقال له رجل من النخع: اسكت، فإنّ حياته هدمت أهل الشام، وموته هدم أهل العراق.

وَمِنْ الشَّجْعَانِ مَصْعَبُ بْنُ الزُّبَيْرِ، سَأَلَ عَبْدَ الْمَلِكِ يَوْمًا جُلَسَاءَهُ: مَنْ أَشْجَعُ النَّاسِ؟ فَعَدُّوا جَمَاعَةً، فَقَالَ: أَشْجَعُ النَّاسِ مِنَ الْعَرَبِ مَنْ وَلِيَ الْعِرَاقَ، فَأَصَابَ أَلْفَ أَلْفٍ وَأَلْفَ أَلْفٍ - وَعَدَّهَا مَرَارًا - وَجَمَعَ بَيْنَ عَائِشَةَ بِنْتِ طَلْحَةَ وَسَكِينَةَ بِنْتِ الْحُسَيْنِ وَأُمِّ كَلْثُومِ بِنْتِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَامِرٍ وَهَنْدَ بِنْتِ رِيَّانٍ سَيِّدَ كَلْبٍ، فَخَذَلَهُ أَهْلُ الْعِرَاقِ فَأَعْطَيْنَاهُ الْأَمَانَ عَلَى مَا شَاءَ، فَقَالَ: إِنَّ مِثْلِي لَا يَنْصَرِفُ إِلَّا غَالِبًا أَوْ مَقْتُولًا، وَقَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ، وَاللَّهِ لَا وَلَدَتْ النِّسَاءُ مِثْلَهُ. وَقَالَ أَخُوهُ عَبْدِ اللَّهِ لَمَّا بَلَغَهُ قَتْلُهُ: إِنَّ يُقْتَلُ فَقَدْ قُتِلَ أَخُوهُ وَأَبُوهُ وَعَمُّهُ وَإِنَّا لَا نَمُوتُ حَتْفًا، وَلَكِنْ نَمُوتُ بَيْنَ أَطْرَافِ الرِّمَاحِ، وَتَحْتَ ظِلَالِ الصِّفَاحِ. وَقَالَ الزُّبَيْرُ بْنُ بَكَارٍ: آلُ الزُّبَيْرِ أَغْرَقَ النَّاسَ فِي الْقَتْلِ، وَلَا يُعْرَفُ فِي الْعَرَبِ وَلَا فِي الْعَجَمِ سِتَّةٌ مَقْتُولُونَ فِي نَسْقٍ إِلَّا مِنْ آلِ الزُّبَيْرِ، وَهُمْ عِمَارَةُ بْنُ حِمْزَةَ بْنِ مَصْعَبِ بْنِ الزُّبَيْرِ بْنِ الْعَوَامِ بْنِ خُوَيْلِدٍ قَتَلَ عِمَارَةَ وَحِمْزَةَ مَعًا فِي حَرْبِ الْإِبَاضِيَّةِ، وَقَتَلَ مَصْعَبٌ بَدِيرَ الْجَائِلِيْقِ، وَقُتِلَ مُحَمَّدٌ أَخُوهُ فِي حَرْبِ الْجَمَلِ، وَقُتِلَ عَبْدِ اللَّهِ بِمَكَّةَ فِي حَرْبِ الْحِجَّاجِ، وَلَمَّا قَتَلَ عَبْدِ اللَّهِ أَمْرَ الْحِجَّاجِ بِشَقِّ صَدْرِهِ فَإِذَا فُؤَادُهُ مِثْلُ فُؤَادِ الْجَمَلِ، فَكَانَ إِذَا ضَرَبَ بِهِ الْأَرْضَ يَنْزُو كَمَا تَنْزُو الْمِثَانَةُ الْمَقْطُوعَةُ، وَقُتِلَ الزُّبَيْرُ بِوَادِي السَّبَاعِ فِي حَرْبِ الْجَمَلِ، وَقُتِلَ الْعَوَامُ فِي الْفَجَارِ قَتَلَهُ بَشْرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ دَهْمَانَ الثَّقَفِيِّ، وَقُتِلَ خُوَيْلِدٌ فِي حَرْبِ خُرَازَةَ. وَقِيلَ لِعَبْدِ الْمَلِكِ: مَنْ أَشْجَعُ النَّاسِ؟ فَقَالَ الْعَبَّاسُ بْنُ مِرْدَاسٍ الَّذِي يَقُولُ فِيهِ الشَّاعِرُ^(١): [الوافر]

أشدّ على الكتيبة لا أبالي أحترفي كان فيها أم سواها

وقيس بن الخطيم، حيث يقول^(٢): [الطويل]

وإني في حرب العوان مُوَكَّل بإقدام نفسي لا أريد بقاءها

(١) البيت في ديوان العباس بن مرداس، من قصيدة مطلعها:

ألا من مبلغ عني خفافاً ألوكاً بيت أهلك منتهاهما

(٢) البيت في ديوان قيس بن الخطيم، من قصيدة مطلعها:

تذكر ليلى حسنهما وصفاءها وبانت فأمسى ما ينال لقاءها

ومن فرسان الخوارج قطري بن الفجاءة، ويكنى أبا نعامه، وخرج زمن مصعب بن الزبير لما كان مصعب والياً على العراق من قِبَل أخيه عبد الله بن الزبير سنة ست وثلاثين، وفي هذه السنة بُويع عبد الله أخوه وعبد الملك بن مروان الشام، فبقي قطري عشرين سنة يقاتل ويسلم عليه بالخلافة. ذُكر عنه أنه مرّ في بعض حروبه على فرسٍ أعْجَفَ ويده عمود خشب، فدعا إلى البراز، فبرز له رجل فحسر له عن وجهه، فلما رآه الرجل ولّى عنه، فقال له قطري: إلى أين؟ قال: لا نستحي أن نفرّ عنك. وكذلك كان عبد الله بن حازم وشبيب الحروري يصيح في جنبات الجيش، فلا يُلوي أحدٌ على أحد، وفيه يقول بعض شعراء الخوارج في الجاهلية^(١): [البسيط]

إِنْ صَاحَ يَوْمًا حَسِبْتَ الصُّخْرَ مُنْهَدِرًا وَالرَّيْحَ عَاصِفَةً وَالْبَحْرَ يَلْتَطُمُ

وَمِنْ شَجْعَانَ الْعَرَبِ وَفَرَسَانَهُم: الفند الزّمانى كان يُقاس بألف، ذُكر أنه حمل على فارس مردوف بأخر فطعنهما، فانتظما في رُمحه. وقال شاعر يمدح شجعان العرب^(٢): [الطويل]

فَوَاحِدَهُم كَالْأَلْفِ بِأَسَا وَنَجْدَةً وَأَلْفَهُمُ لِلْعَرَبِ وَالْعَجَمِ قَاهِرُ

وليس نظم الفند فارسين في طعنة بكبير، فقد فعل مثل هذه الفِعلَة أبو دلف في بعض حروبه، وفيه يقول بكر بن النطاح يذكر طعنته مِنْ أبيات^(٣): [الكامل]

وَإِذَا بَدَا لَكَ قَاسِمٌ يَوْمَ الْوَعَى يَخْتَالُ خِلْتُ أَمَامَهُ قِنْدِيلًا
وَإِذَا تَلَوْذٌ بِالْعَمُودِ وَلَوْنُهُ خِلْتُ الْعَمُودَ بِكَفِّهِ مِنْدِيلًا
وَإِذَا تَنَاوَلَ صَخْرَةً لِيَرْضُهَا عَادَتْ كَثِيبًا فِي يَدَيْهِ مَهِيلًا
قَالُوا أَيْنَ نَظَمَ فَارَسِينَ بِطَعْنَةٍ يَوْمَ الْلَقَاءِ وَلَا تَرَاهُ كَلِيلًا
لَا تَعْجِبُوا لَوْ كَانَ مَدَّ قَنَاتِهِ مِيلًا إِذَا نَظَمَ الْفَوَارِسَ مِيلًا

(١) البيت بلا نسبة في البيان والتبيين، للجاحظ، ١/ ١٢٣.

(٢) البيت بلا نسبة في محاضرات الأدباء، للراغب الأصبهاني.

(٣) الأبيات في ديوان بكر بن النطاح، وهي خمسة أبيات.

ومما يعدّ من شدّة الشّجعان الأبطال رفض الثّواني بالمناجزة ودفع المطال

قالوا: العزم التأهب قبل الأمر، والحزم المضىّ فيه. وقالوا: الحزم انتهاز الفرصة عند تمكّن القدرة، وترك الثّواني فيما يخاف فيه الفؤت. وقال عبد الملك لعمر بن عبد العزيز: ما العزيمة في الأمر؟ قال: إصداره إذا ورد بالحزم. شاعر^(١): [الكامل]

ليست تكون عزيمة ما لم يكن معها من الحزم المشيد رافع

وقالوا: من لم يقدمه عزمه، أخره عجزه. وقالوا: الحازم من اشتدتّ شكيمته وقعدت عزمته. وقالوا: الحرب كالنار إذا تداركت أولها خمد ضرامها، وإن استحكمت أمرها صعب مرامها. ويقال: قبل الإقدام تراش السهام. والعجز عجزان: عجز التقصير وقد أمكن، والجذ في طلبه وقد فات. تمثّل المنصور عند قتله لأبي مسلم الخراساني^(٢): [الطويل]

إذا كنت ذا رأي فكن ذا عزيمة فإنّ فساد الرأى أن تتردّدا
ولا تمهل الأعداء يوماً بقدره وبأدرهم أن يملكوا مثلها غدا

ولآخر^(٣): [البسيط]

ما العزم أن تشتهي شيئاً وتتركه حقيقة العزم منك الجذ والطلب
كم سوفت خدع الآمال ذا أرب حتى انقضى قبل أن ينقضي له الإرب
وقالوا: من تفكّر في العواقب لم يشجّع في النّوائب. وُجد على سيف مكتوب: أيها المقاتل إحمل تغنم، ولا تفكّر في العواقب تندم. شاعر^(٤):

(١) البيت بلا نسبة في محاضرات الأدباء، للراغب الأصبهاني.
(٢) البيتان بلا نسبة في مرآة الجنان، لليافعي، ص ٦٧٩؛ والوافي بالوفيات، لصلاح الدين الصفدي، في ترجمة وزير المأمون محمد بن يزداد.
(٣) البيتان لم أجدهما في المصادر والمراجع التي بين يدي.
(٤) البيت لعلي بن أبي طالب في ديوانه، من بيتين، وروايتهما فيه:
خاطر بنفسك لا تقعد بمعجزة فليس حرّ على عجز بمغذور
إن لم تنل في مقام ما تحاوله فابل عذراً بإدلاج وتهجير

[البسيط]

خاطرُ بنفسك لا تقعد بمعجزة حتى تباشرها منه بتغدير
 لن يبلغ المَرء بالإحجام همَّته
 الرِّياشي^(١): [البسيط]

وعاجز الرُّأي مضياع لفرصته حتى إذا فات أمرٌ عاتب القَدرا
 ويقال: مِفْتاح الدُّعة مِفْتاح البُؤس. أبو دلف العجلي^(٢): [الكامل]
 ليس المروءة أن تبیت مُنعمًا وتظلّ معتكفًا على الأقداح
 ما للرجال وللتنعم إنَّما خلقوا اليوم كريهة وكِفاح
 وقالوا: زُوج العجز التواني، فأنّج بينهما الحرمان. قال المُعافى في مثل
 ذلك^(٣): [الطويل]

وإنَّ التَّواني أنكح العجز بنته وساق إليها حين أنكحها مهرا
 فراشًا وطيثًا ثم قال له أتكي رويدًا كما لا شك أن تلدا فقرا
 وقالت الحُكماء: الحزم طبع الحياة، والعجز طبع الموت، والنفس لا
 تحب أن تموت؛ فكَذلك تحب أن تحيا، وأخذ الشيء لا بالعجز. المتنبي^(٤):
 [الخفيف]

ولو أنَّ الحياة تبقى لحيّ لَوَدَّنا ضلالنا الشَّجعانا
 وإذا لم يكن من الموت بُدٌّ فمن العجز أن تكون جبانًا
 وقالوا: أشعر قلبك الجرأة، فإنَّها سبب الظفر، واحرص على الموت تُوهب
 لك الحياة. وقال أکثم بن صيفي: مِن التَّواني والعجز أنتجت الهُلْكة. وقالوا:
 التفكّر في عواقب الحرب من إمارات العجز، والتهوّر فيه من علامات الجزع.

(١) البيت للخليل بن أحمد الفراهيدي في ديوانه، وهو بيت منفرد.

(٢) البيتان لأبي دلف العجلي في محاضرات الأدباء، للراغب الأصبهاني، ص ١٤٥٠.

(٣) البيتان لأبي المعافى في ديوان المعاني، لأبي هلال العسكري، ص ١٤١٧؛ ولابن المعافى في محاضرات الأدباء، للراغب الأصبهاني، ص ١٤٩.

(٤) البيت في ديوان المتنبي، من قصيدة مطلعها:

وَعَنَاهُمْ مِنْ شَأْنِهِ مَا عَنَانَا
 صَحِبَ النَّاسَ قَبْلَنَا ذَا الزَّمَانَا

أبو عبادة مادحاً^(١): [الخفيف]

صارم الحزم ماضي العزم ساري الـ فكر ثبت الجنان صلب العود
آخر مادحاً: [الطويل]

وَيَلْحَظُ بِالْأَمْرِ الصَّوَابَ كَأَنَّمَا يُلاحِظُهُ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ عَوَاقِبُهُ
وقال حكيم: تجرّع من عدوك الغصة، إلى أن تجد الفرصة، فإذا وجدتها
فانتهزها قبل أن يفوتك الذّرك أو يعينه الفلك، فإنّما الدّنيا دُول تُقَلَّبُهَا الْأَقْدَارُ،
ويهدمها اللّيل والنّهار. ولَمَّا أُحِيطَ بِمُروان بن محمد الجعدي، قال: وَالْهَفَاهُ عَلَى
دَوْلَةٍ مَا نُصِرْتُ، وكَفُّ مَا ظَفَرْتُ، وَنِعْمَةٌ مَا شُكِرْتُ؛ فقال له بعض كmates، وكان
من أشرف الروم فوقع عليه سبي: مَنْ أَغْفَلَ الصَّغِيرَ حَتَّى يَكْبُرَ، وَالْقَلِيلَ حَتَّى
يَكْثُرَ، وَالْخَفِيَّ حَتَّى يَظْهَرَ، أَصَابَهُ هَذَا.

ومن الأبيات في انتهاز الفرصة، وتفريج الغصة قول بعضهم: [الخفيف]

يا ابنة القوم ما تريدني مني صارمي منطقي ووجهي مجني
ما يزور الكرى جفوني إلا جسوة الطائر الذي لا يثني
فعلوى إذا استقل بعزم لم يعرج بليتنى ولو أني
آخر: [الطويل]

حلفت لأن ألقى الشدائد كلّها ومالي بأن ألقى الهوان يدان
تذكرت أني هالك وابن هالك فهائت علي الأرض والثقلان
فدع كل شيء خالف العزم إنّه سيكفيكه جدان معتلجان
وما يدرك الحاجات مثل مثابر ولا عاق عنها النّجح مثل توان

أبو نصر بن أحمد الميكالي^(٢): [السريع]

قالوا تمهل في الذي ترتجي بلوغه من نافع الأمر
قلت التأتني مظفر بالمنى لكنه يجحف بالعمر

(١) البيت في ديوان البحري، من قصيدة مطلعها:

بعض هذا العتاب والتفنيد ليس ذمّ الوفاء بالمحمود

(٢) البيتان في دمية القصر، للباخرزي، ص ٨٦٥، في ترجمة أبي إبراهيم نصر بن أحمد الميكالي.

آخر^(١): [الطويل]

على كلِّ حالٍ فاجعل الحَزْمَ عِدَّةً
لِمَا أَنتَ باغِيهِ وَعَوْنَا على الدَّهْرِ
فإنَّ نِلْتَ أَمْرًا نِلْتَهُ عن عَزِيمَةٍ
وإن قَصُرْتَ عنكَ الحِظُوظُ فعن عُذْرِ

آخر^(٢): [الطويل]

إذا هَمَّ ألقى بين عينيهِ عزمه ونكب عن ذُكْرِ العواقبِ حاجبا
ولم يَسْتَشِيرْ في أمره غير نفسه ولم يَرْضَ إِلَّا قائم السَّيفِ صاحبا
آخر^(٣): [المتقارب]

إذا فرصة أمكنت في العِدَى فلا تَبْدُ فَعْلَكَ إِلَّا بِهَا
فإن لم تَلُجْ بابها مُسْرِعًا أذاك عدوك مِنْ بابها

ومن ممداح من عُرف في قومه بالشجاعة ومدَّ إلى قطف الرؤوس سيفه وباعه

قالوا: فلان أبلغ صولةً من أسد العرين، وأشدَّ منعةً مِنَ الحُصْنِ الحصين.
وصف أعرابيَّ رجلًا بالشجاعة، فقال: هو ابن الحرب أَرَضِعْ بَدْرَهَا، وربي في
حُجْرَهَا. وسُئِلَ أعرابيٌّ عن قومه، فقال: كانوا والله إذا اصطَفَوْا تحت القتام
صَغُرَتْ بينهم السَّهَامُ بشُؤْبِوبِ الحمام، وإذا تصافحوا بالسَّيُوفِ، فغرت أفواهها
الحتوف؛ فَرُبَّ يوم شמוש أحسنت أدبه عزمتهُم، وحربٌ عبوس أضحكتها
أَسْتَتَهُم. ومدح أعرابيٌّ قومه، فقال: قومي والله ليوثٌ حبٌّ، وغيوثٌ جَدْبٌ، ليس
لأسيافهم أَعْمَادٌ غير الهام، ولا رُسُلٌ للمنايا غير السَّهَام. وقالوا: فلان يبادر

(١) البيتان بلا نسبة في المجلس الصالح الكافي، للمعافى بن زكريا، ص ١٣٢٣.

(٢) البيت الثاني لابن نباتة المصري، في ديوانه، من بيتين، هما:

تزوَّج سيف الدين حسناء ناسبت إليه وأَقْصَتْ معشرًا وأقاربًا

ولم تستشر في أمرها غير نفسها ولم ترض إلا قائم السيف صاحبًا

(٣) البيتان لابن المعتز في ديوانه، من قصيدة مطلعها:

ألا من لعين وتسكابها تشكى القذى وبكاها بها

المُهَل، مبادرة الأجل الأمل، أطراف الأسل أحلى عنده من لعق العسل. ابن شرف القيرواني: فلان قلبه يُخرجه عن القلب، وصرامته تقتاده إلى مكان الطعن والضرب، رماحه نجوم ظلام القتام، وسهامه رجوم شياطين الأنام، لا تُردّ حاجته مواضيه، ولا تُمطله المغافر المنية عند تقاضيه. شاعر مادحاً^(١): [الكامل]

يَلْقَى السيف بوجهه وينحره ويُقيم مُهْجته مقام المغفر
ما إن يريد إذا الرّماح تشاجرت ذرعاً سوى سربال طيّب العنصر
وقول للطرف اصطبر لشبا القنا فعقرت ركن المجد إن لم تعقر
أبو الفرج^(٢): [المنسرح]

يسعى إلى الموت والفنا قصد وخيله بالرؤوس تُنتعل
كأنه واثق بأن له عمراً مقيماً وماله أجل
آخر^(٣): [الوافر]

كأن سيوفه صيغت عقوداً تجول على الترائب والتُحور
وسمر رماحه جعلت هموماً فما يخطرن إلا في ضمير
البحترى مادحاً^(٤): [البسيط]

يَلْقَى السيف بوجه منه ليس لها ظهر وهادي جواد ما له كفل
يسعى به البرق إلا أنه فرس في صورة الموت إلا أنه رجل
مسلم بن الوليد^(٥): [الكامل]

لو أن قومًا يخلقون منية من بأسهم كانوا بني جبريلا
قومٌ إذا حمى الوطيس لديهم جعلوا الجماجم للسيوف مقيلا

(١) الأبيات بلا نسبة في الحماسة المغربية، للجراوي، ص ١٣١.

(٢) البيتان لأبي الفرج الببغا في ديوانه، وهما بيتان منفردان.

(٣) البيتان بلا نسبة في نهاية الأرب، للنويري، ص ١٩٦٤.

(٤) البيتان لببغا في ديوان البحترى، وهما لأبي الفرج الببغا في ديوانه، من قصيدة مطلعها:

من كل متسع الأخلاق مبتسم للخطب إن ضاقت الأخلاق والحيل

(٥) البيتان في ديوان مسلم بن الوليد (صريع الغواني)، من قصيدة مطلعها:

هلا بكيت ظعائناً وحمولاً ترك الفؤاد فراقهم مخبولا

ولآخر: [الطويل]

وحامي بلاد الله مِنْ كُلِّ مَارِقٍ له الطَّيْرُ ضَيْفٌ والوَحُوشُ وَفُودُ
مليك له زهر الثُّجُومِ أَسِنَّةٌ إِذَا أُمُّ أَفْقَا والسَّحَابُ بَنُودُ
آخر^(١): [الكامل]

عقبان رَوْعٍ والسروج وكورها وليوث حربٍ والقنا آجامُ
وبدور تَمْ والترائك في الوَغَى هالاتها والسَّائرون غَمَامُ
جادوا بِمَمْنُوحِ التَّلَادِ وجُودوا ضَرْبًا بِحَذِيهِ الطَّلَى والهَامُ
وتجاوبت أسيفهم وجيادهم فالأَرْضُ تُمَطِّرُ والسَّمَاءُ تَغَامُ
البحترى^(٢): [الخفيف]

معشراً أَمَسَكَتْ حُلُومَهُمُ الْأَرْ ضٌ وَكَادَتْ لَوْلَاهُمْ أَنْ تَمِيدَا
فَإِذَا الْجَذْبُ جَاءَ جَادَ وَاغِيوْنَا وَإِذَا النَّقْعُ ثَارَ ثَارُوا أَسُودَا
وَكَأَنَّ الْإِلَهَ قَالَ لَهُمْ فِي الْـ حَرْبٍ كُونُوا حَجَارَةً أَوْ حَدِيدَا
آخر^(٣): [الخفيف]

إِنْ تَرَدَّ خُبْرَ حَالِهِمْ عَنْ يَقِينٍ فَأَتَهُمْ يَوْمَ نَائِلٍ أَوْ نَزَالٍ
تَلَقَّ بَيْضَ الْوُجُوهِ سُودَ مِثَارِ النَّدَى قَعَّ خَضِرُ الْأَكْتَفِ حُمَرَ النَّصَالِ
آخر^(٤): [الكامل]

قَوْمٌ شَرَابِ سَيُوفِهِمْ وَرِمَاحِهِمْ فِي كُلِّ مَعْتَرَكٍ دَمُ الْأَشْرَافِ
رَجَعَتْ إِلَيْهِمْ خَيْلُهُمْ بِمَعَاشِرِ كُلِّ لِكَلٍ جَسِيمٍ أَمْرٍ كَافِي
يَتَحَنَّنُونَ إِلَى لِقَاءِ عَدُوِّهِمْ كَتَحَنَّنَ الْآلَافُ لِلْإِيْلَافِ
وَيَبَاشِرُونَ ظُبَا السِّيُوفِ بِأَسْهُمِ أَمْضَى وَأَقْطَعَ مِنْ مَضَى الْأَسْيَافِ

(١) الأبيات بلا نسبة في نهاية الأرب، للنويري، ص ١٩٥٠.

(٢) الأبيات في ديوان البحترى، من قصيدة مطلعها:

إنما الغي أن يكون رشيداً فانقصا من ملامه أو فزيدا

(٣) البيتان بلا نسبة في سلافة العصر، لابن معصوم، ص ٦١٥.

(٤) الأبيات بلا نسبة في البصائر والذخائر، لأبي حيان التوحيدي، ص ٣٣٦.

جُبِلَتْ عَلَى سَفْكِ الدِّمَاءِ نَفُوسُهُمْ وَأُكْفَهُمْ جُبِلَتْ عَلَى الْإِتْلَافِ
فَإِذَا هُمْ صَدَمُوا الْعَدُوَّ بِصَارِمٍ خَضَبُوا الْأَسِنَّةَ مِنْ دَمِ الْأَطْرَافِ
فَنَفُوسُهُمْ تُفْنِي نَفُوسَ عِدَاتِهِمْ وَعَطَاؤُهُمْ يُغْنِي سَوَالَ الْعَافِي

الفصل الثاني من الباب الحادي عشر

في ذكر ما وقع في الحروب من شدائد الأزمت والكروب

قال بعض الحكماء: جسم الحرب الشجاعة، وقلبها التدبير، ولسانها المكيدة، وجناحها الطاعة، وقائدها الرفق، وسائقها التصبر. وقال عمر بن الخطاب لعمر بن معديكرب رضي الله عنهما: صِفْ لَنَا الْحَرْبَ، فَقَالَ: مَرَّةَ الْمَذَاقِ، صَغْبَةً لَا تُطَاقُ، إِذَا شَمَرْتَ عَنْ سَاقٍ، مَنْ صَبَرَ لَهَا عَرَفَ، وَمَنْ نَكَلَ عَنْهَا تَلَفَ؛ ثُمَّ أَنْشَدَ^(١): [الكامل]

الْحَرْبُ أَوَّلُ مَا تَكُونُ فَتِيَّةٌ تَسْعَى بِزِينَتِهَا لِكُلِّ جَهُولٍ
حَتَّى إِذَا حَمِيَتْ وَشَدَّ ضَرَامُهَا عَادَتْ عَجُوزًا غَيْرَ ذَاتِ حَلِيلٍ
شَمَطَاءَ جَذَتْ رَأْسَهَا وَتَنَكَّرَتْ مَكْرُوهَةً لِلشَّمِّ وَالتَّقْبِيلِ

وقيل لبعضهم: صِفْ لَنَا الْحَرْبَ، فَقَالَ: أَوَّلُهَا شَكْوَى، وَأَوْسَطُهَا نَجْوَى، وَآخِرُهَا بَلْوَى. تَذَاكُرُوا الْحُرُوبَ عِنْدَ مَعَاوِيَةَ، فَقَالَ: بَدْرَ لَعْلِيٍّ، وَأُحُدَ لَطْلَحَةَ، وَالْخَنْدَقَ لِلزُّبَيْرِ، وَحُنَيْنَ لِلْعَبَّاسِ بْنِ مُرْدَاسٍ. وَأَنَا ذَاكِرٌ مِنَ الْحُرُوبِ الْوَاقِعَةِ فِي صَدُورِ الْإِسْلَامِ بَعْدَ مَوْتِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَرْبَعَةً، وَهِيَ الْجَمْلُ وَصَفَيْنِ وَيَوْمَ الْحَرَّةِ وَيَوْمَ كَرْبَلَا؛ إِذْ هَذِهِ الْحُرُوبُ أَشَدُّ الْوَقَائِعِ طَعَانًا وَضَرَابًا، وَأَعْظَمُهَا فِي الدِّينِ فَجِيعَةً وَمَصَابَا، لِمَا قُتِلَ فِيهَا مِنْ كِبَارِ آلِ بَيْتِ النَّبِيِّ ﷺ وَصَحَابَتِهِ، وَعُظْمَاءِ أَهْلِ بَيْتِهِ وَقَرَابَتِهِ.

الجمال

مَبْتَدُوهَا أَنَّ طَلْحَةَ وَالزُّبَيْرَ خَرَجَا مَغَاضِبِينَ لَعْلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بَعْدَ أَنْ بَايَعَاهُ لِمَا هَجَسَ فِي نَفُوسِهِمَا مِنْ أَنَّ عَلِيًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هُوَ الَّذِي أَلْبَّ عَلَى قَتْلِ عَثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حَتَّى قُتِلَ، وَأَنَّ قَتْلَهُ كَانَ عَنْ رِضَا مِنْهُ فَقَدِمَا مَكَّةَ عَلَى عَائِشَةَ رَضِيَ

(١) الأبيات في ديوان عمرو بن معديكرب، وهي ثلاثة أبيات منفردة.

الله عنها، وكانت قد خرجت من المدينة قبل قتل عثمان، فاجتمعا يوماً عند عائشة رضي الله عنها في رجالٍ من بني أمية، فتذاكروا قتل عثمان ورغبوا عائشة في طلب الثأر، فاعتذرت إليهم بقلة ذات يدها، فقال يعلى ابن منية - ومنية اسم أمه، وكان عاملاً لعثمان على اليمن -: عندي أربعمئة ألف درهم مساعدة لكم، وخمسمئة فارس أجهزها؛ وقال عبد الله بن عامر بن كريز - وكان عاملاً لعثمان على البصرة -: عندي ألف ألف درهم ومائة من الإبل؛ وأشار عليهم بالبصرة، ثم نادى مناد بالتحريض على طلب دم عثمان، فاجتمع لهم ألف منهم ستمائة على الشوق وسواهم على الخيل والبغال، ووهب يعلى ابن منية الجمل وكان يُدعى عسكرياً وعمل عليه هودجاً من حديد، ثم إنهم دخلوا طالبيين البصرة، وكان علي رضي الله عنه قد بلغه خبرهم، وهو في المدينة، فخرج منها في تسعمائة فيهم سبعون بدرية، ووصلت عائشة البصرة بمن معها وكانوا زهاء ثلاثة آلاف، فمنعهم عثمان بن حنيف عامل علي من دخولها، فأخذوها منه بعد حرب وقعت بينهم قُتل فيها كل من خرج يطلب قتل عثمان أو أعان عليه إلا رجلاً واحداً يُسمى حرقوص بن وهب، فإن بني سعد منعه وأخذوا عثمان بن حنيف فنتفوا لحيته ورأسه وحاجبيه وأشفار عينيه، فجاء علياً رضي الله عنه وقال: يا أمير المؤمنين بعثني بلحية وجئتكم أمرداً، وكان عثمان بن حنيف من كبار الصحابة وبايع أهل البصرة طلحة والزبير، ووصل علي إلى الكوفة فاستنجدهم فأنجدوه باثني عشر ألف رجل، وسار حتى وصل إلى جانب البصرة، فنزل وأقام تلك الليلة، ثم ناشدهم الله في الدماء، فأبوا إلا القتال، فخرج علي رضي الله عنه وهو راكب بغلة رسول الله ﷺ والتقى الجمعان، فكان أول من قُتل طلحة وانهزم الزبير، فلحقه ثلاثة نفرٍ منهم عمرو بن جرموز السعدي بوادي السباع عدواً فقتله وهو ساجد، وقيل: نائم غيلة، ووادي السباع برقة واسط بين البصرة والكوفة، وفيه يقول جرير بن عطية بن الخطفي عائلاً على بني مجاشع قتل الزبير^(١): [الكامل]

إني تذكرني الزبير حمامة
قالت قريش ما أذل مجاشعاً
لو كنت حراً يا ابن قين مجاشع
تدعو بطن الواديّن هديلاً
جاراً وأكرم ذا القتيل قتيلاً
شيّعت ضيفك فرسخاً أو ميلاً

(١) الأبيات في ديوان جرير، من قصيدة مطلعها:

لم أز مثلك يا إمام خليلاً
أنأى بحاجتنا وأحسن قِيلاً

أفبعد قتلکم خليل محمّد ترجو القيون مع الرّسول سبيلا
أفتى الندى وفتى التّزال غدرتم وفتى الرماح إذا تهب بليلا
لو كنت حين غدرت بين بيوتنا لسمعت من صوت الرّماح صليلا
وحماك كل معاور يوم الوغى ولكان شلو عدوك المأكولا

وقتل محمد بن الزبير، وجرح عبد الله أخوه سبعا وثلاثين جراحة، وأطاف
بنو ضبة والأزد بالجمال، وأقبلوا يرتجزون^(١): [الرجز]

نحن بني ضبة أصحاب الجمل ننزل بالموت إذا الموت نزل
والموت أحلى عندنا من العسل تبغي ابن عفان أطراف الأسن

فقطع على خطام الجمل سبعون يدا من بني ضبة، فلما التحمت الحرب
واستعرت نارها نادى عليّ رضي الله عنه: اعقروا الجمل، فإنه إن عُقِرَ تفرّقوا؛
ففقره عمرو بن دلجة وأخذته السيوف من كلّ جانب حتى وقع وقُتِلَ حوله خلق
كثير ومال الهودج وسمع صارخ يقول: راقبوا الله في حرمة رسول الله ﷺ، فقال
عليّ لابنه الحسن: هلكت، قال: قد نهيتك عن مسيرك، قال: لم أكن أرى أن
الأمر يصير إلى هذا، وجاء أعين بن ضبيعة حتى أطلع في الهودج، فقال: ما أرى
إلا خيرا، قالت: هتك الله سترك وأبدى عورتك، فقتل بعد ذلك بالبصرة وصُلب
وقُطعت يده ورجلاه ورُمي به عريانا في خربة من خراب الأزد. وقيل: إنّ عليّا
لما وقف عليها ضرب الهودج بقضيب، وقال: يا حُمَيَّرُ أرسول الله ﷺ أمرك
بهذا؟ ألم يأمرك أن تقرّي في بيتك؟ والله ما أنصفك الذين أخرجوك إذ صانوا
حلائلهم وأبرزوك؛ فيقال: إنها قالت له: قد ملكت فاسجح، ثم أمرها بالمسير
وأذن لأصحابها أن يسافر معها من أراد السفر، فسافر بعض وبقي بعض. وقال
البلاذري في تاريخه: إنّ عليّا رضي الله عنه أعطاهما حين أشخصها إلى مكة عشرة
آلاف درهم، ورجعت إلى مكة يوم السبت غرة رجب سنة ست وثلاثين وشيئها
عليّ أُميالا وقصدت مكة فأقامت بها إلى الحجّ، ثم خرجت إلى المدينة. وكانت
الوقعة في الموضع المعروف بالحربية لعشر خلّون من جمادى الآخرة، وقيل: في
يوم الجمعة النّصف من جمادى الأولى. وعدة من قُتِلَ يوم الجمل ثمانية آلاف

(١) الرجز للحارث الضبي في الدّرر ١٣/٣، ولالأعرج المعني في شرح ديوان الحماسة للمرزوقي، ص

رجل من أصحاب عائشة، وألف مِنْ أصحاب علي رضي الله عنهم أجمعين، وفي وقعة الجمل يقول عثمان بن حنيف: [المتقارب]

شهدت الحروب فشيبني ولم أَر يوماً كيوم الجمل
أشد على مؤمن فتنة وأقتل منه لحرّ بطل
فلئت الظعينة في بيتها وليتك عسكر لم ترحل

يعني الجمل الذي كانت عليه عائشة، وحكى أبو طالب المكي في القوت أن علياً رضي الله عنه قال لابنه محمد ابن الحنفية، وقد قدّمه أمامه يوم الجمل: أقدم أقدم ومحمد يتأخر، وهو يُكرهه بقائم الرُمح، فالتفت إليه محمد وقال: هذه والله الفتنة المظلمة العَمياء، فوكزه علي رضي الله عنه بالرمح، وقال له: تقدّم لا أم لك، أ تكون فتنة أبوك قائدها وسائقها.

صقيّين

ولما فرغ علي رضي الله عنه مِنْ حرب الجمل وانصرف إلى الكوفة بعث جرير بن عبد الله البجلي إلى معاوية يخيره بين حرب معضلة أو يسلم بجزية، فإن اختار الحرب فانبذ إليه على سواء أن الله لا يحبّ الخائنين، وإن اختار السّلم فخذ بيعته وارجع؛ لما بلغ جرير الرسالة إلى معاوية أرسل إلى عمرو بن العاص، فلما حضره أعلمه بما أتى فيه جرير، فقال له: أما عليّ، فوالله لا تسوى العرب بينك وبينه في شيء، وأنّ له في الحرب لحظاً ما هو لأحد في قريش؛ قال: صدقت، ولكنّا نقاتله على ما بأيدينا ونلزمه قتل عثمان، ثم قال له: مدّ يدك وبإيعني، فقال: والله لا أعطيك شيئاً من ديني حتى آخذ من دُنياك، ويقال: بل أنشده^(١): [الطويل]

معاوي لا أعطيك ديني ولم أنل لديك بدنيا فانظرن كيف تصنع
فإن تُعطيني مصرًا فأربح بصفقة أخذت بها شيخاً يضرّ وينفع

فأعطاه مصر طعمة وكتب له بذلك شروطاً، وأشهد عليه شهوداً، فبايعه عمرو بن العاص وتعاهدوا على الوفاء، وكتب معاوية إلى عليّ بأن لا طاعة له

(١) الأبيات في الحلة السراء، لابن الأبار، ص ٢٠؛ وربع الأبرار، للزمخشري، ص ٥٧٧.

عليه، لما ورد جرير على عليّ بما كتب إليه معاوية أمر الناس بالخروج إلى صفّين لقتال معاوية، فاجتمع له من الخيل تسعون ألفاً فيهم سبعون بدرّياً، ومتمن بايع تحت الشجرة سبعمائة، ومن المهاجرين والأنصار أربعمائة، وذلك لخمسٍ خلّون من شوال سنة ست وثلاثين، وبلغ معاوية خروج عليّ، فجمع من الجنود خمسة وثمانين ألفاً، وقيل: مائة وعشرين ألفاً، وسبق عليّاً إلى صفّين، فنزل على موضع سهل أفّيح معشب قريب من الفرات، ونزل عليّ على مواضع بعيدة من الماء والعشب، فبات وجيشه عطاش قد حيل بينهم وبين الماء، فأشار عمرو على معاوية أن يُمكن عليّاً من ورود الماء، فقال: لا والله أو يموتوا عطشاً كما مات عثمان، فاشتكى أصحاب عليّ العطش، فأمرهم بالمسير وقدم عليهم الأشتر والأشعث بن قيس، فساروا وعليّ من وراء الجيش حتى هجموا على عسكر معاوية، فأزالوهم عن الشريعة وغرق منهم خلق كثير، وارتحل معاوية إلى ناحية من البرّ بعيدة من الماء، وأرسل إلى عليّ يستأذنه في استقاء الماء من طريقه فأذن له وأجابه إلى ذلك، ثم بعث عليّ إلى معاوية يدعوه إلى اجتماع الكلمة وحقن الدماء، وطالت المراسلة بينهما، فاتّفقا على المودعة إلى آخر المحرم من سنة سبع وثلاثين، فلما كان آخر المحرم كتب عليّ إلى أهل الشام يحذّره الوقوع في الهلكة، فأبوا إلا الحرب والقتال حتى يهلك من هلك عن بيّنة ويحيا من حي عن بيّنة، فعبى عليّ جيشه يوم الأربعاء مستهلّ صفر، وقدم عليهم الأشتر وتصافّ أهل الشام والعراق ووقع القتال بينهم، فكان هذا دأبهم في كلّ يوم إلى السابع من صفر، وفيه قُتل عمار بن ياسر من أصحاب عليّ قتله أبو العادية العامليّ، وله من العمر ثلاث وتسعون سنة.

وكان في حرب صفّين خزيمة بن ثابت ذو الشهادتين مع عليّ كافاً سلاحه، فلما قُتل عمار خرج يطلب المبارزة، وهو يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول لعمار: «يا عمار تقتلك الفئة الباغية»^(١)، ثم كانت بينهم حرب أخرى قُتل فيها ذو الكلاع وعبيد الله بن عمار، ثم كانت بعد ذلك ليلة الهُرَيْر قُتل فيها خلق كثير،

(١) روي الحديث بطرق وأسانيد متعدّدة، أخرجه البخاري في الصلاة باب ٦٣، ومسلم في الفتن حديث ٧٠، ٧٢، ٧٣، والترمذي في المناقب باب ٣، وأحمد في المسند ١٦١/٢، ١٦٤، ٢٠٦، ٥/٣، ٢٢، ٢٨، ٩١، ١٩٧/٤، ١٩٩، ٢١٥/٥، ٣٠٦، ٣٠٧، ٢٨٩/٦، ٣٠٠، ٣٠١، ٣١٥.

وكانت ليلة جمعة، فلما رأى معاوية أن قد فشا القتل في أصحابه، قال لعمر بن العاص: هلمّ مخبّأتك، فقد هلكنا؛ وذكره ولاية مصر، فأمر أن تُرفع المصاحف وأن يقال ما فيها حكم بيننا وبينكم يا أهل العراق، فرفعوها وكانت زهاء خمسمائة مصحف، ونادوا: مَنْ لثغور الشام بعد أهل الشام؟ وَمَنْ لثغور العراق بعد أهل العراق؟ مَنْ لجهاد الروم والترك؟ فعند ذلك اختلف أصحاب عليّ؛ فمنهم مَنْ أراد القتال، ومنهم مَنْ أراد الكفّ، فقال عليّ رضي الله عنه: بالأمس كنت أميراً وأصبحت اليوم مأموراً؛ ثم أرسل الأشعث بن قيس إلى معاوية يسأله: لأيّ شيء رفعت المصاحف؟ قال: لترجع نحن وأنتم إلى ما أمر الله به في كتابه تبعثون رجلاً منكم ترضونه ونبعث رجلاً منا نرضاه ليعملا فينا بكتاب الله ونتبع ما اتّفقا عليه، فقال الأشعث: هذا هو الحقّ، وانصرف إلى عليّ وأخبره بما قال معاوية، فقال الناس: رَضِينَا؛ فاختر أهل الشام عمرو بن العاص، واختار أهل العراق أبا موسى الأشعري واسمه عبد الله بن قيس، واختار عليّ عبد الله بن عباس، فقالوا: والله لا نريد إلّا رجلاً هو من معاوية ومنك على السواء، قال: فاصنعوا ما أردتم؛ فجمعوا بين عمرو بن العاص وأبي موسى، وأخذوا عليهما العهد والميثاق أن لا يَخُونَا، وأخذ الحكمان من عليّ ومعاوية والحسين الموائيق أنّهما آمان على أنفسهما، وأن يكون منهم المبايع على ما يرضيانه، ثم خرجا واجتمعا في دُوْمة الجندل في شهر شعبان سنة ثمان وثلاثين، فقال عمرو لأبي موسى: إنّ هذه الفتنة لا تزال قائمة ما دام واحد من هذين الاثنين متولّياً إمرة المسلمين، فقال أبو موسى: فما ترى؟ قال: أرى أن يصعد كل واحد منّا المنبر، ويخلع صاحبه وتدعها شورى بين المسلمين، يولّون أمرهم مَنْ أرادوا؛ فأجابه إلى ذلك، وتقدّم أبو موسى وصعد المنبر وقال: أيّها الناس إنّنا نظرنا في أمر هذه الأُمّة فلم نَرِ أسلم لأمرها ولا ألَمَ لشُعْثها من أمرٍ اجتمع رأيي ورأي عمرو عليه، وهو أن يخلع كلّ واحدٍ منّا صاحبه، ويجعل أمر المسلمين إليهم يُولّون عليهم مَنْ أحبّوا، وإنّي خلعت عليّاً، فاستقبلوا أمرهم وولّوا مَنْ شِئْتُمْ؛ ونزل، ثم صعد عمرو فحمد الله وثنى عليه، ثم قال: قد قال أبو موسى ما سمعتم مِنْ خَلْع صاحبه وإنّي خلعت كما خلعه، وأثبت معاوية كما أثبت حميلة سيفي هذا في عنقي، فإنه وليّ عثمان والطالب بدمه وأحقّ الله بمقامه؛ ثم نزل، فاختلف عند ذلك كلمة الجيشين، فلما رأى عليّ اختلافهما رحل قاصداً الكوفة، ولحق معاوية بدمشق وانصرف عمرو بأهل الشام بعد ذلك

إلى معاوية، فسلموا عليه بالخلافة وبإيعوه، فكان علي رضي الله عنه بالعراق ومعاوية بالشام إلى سنة أربعين.

وفي هذه السنة قُتِل علي رضي الله عنه في رمضان، وهو ابن اثنتين وستين سنة، وكانت مدة خلافته خمس سنين إلا شهرًا واحدًا، ومدة ولاية معاوية أربعين سنة منها أميرًا على الشام لعمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان عشرون سنة، وخليفة عشرون سنة، وتوفي سنة ستين. ولما انفصل أهل الشام وأهل العراق من هذه الحروب رجع ابن عباس وشريح بن هانئ إلى علي رضي الله عنه، وكان علي رضي الله عنه إذا صلى الغداة لعن معاوية وعمراً وأصحابه، فبلغ ذلك معاوية، فكان إذا قنت لعن عليًا وابن عباس وحسناً وحُسَيْنًا والأشتر، ولم يزل الأمر على ذلك بُزْهة من ملك بني أمية إلى أن وُلِّي عمر بن عبد العزيز الخلافة، فمَنع من ذلك وجعل مكان اللعن في الخطبة: ربَّنَا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان، ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا، ربَّنَا إِنَّكَ رؤُوف رحيم.

وقُتِل بصفين من أهل العراق والشام في مدة مائة يوم وعشرة أيام مائة ألف وعشرة آلاف، وقيل: سبعون ألفًا، من أهل الشام خمسة وأربعون، ومن أهل العراق خمسة وعشرون ألفًا، والله أعلم.

وكانت الوقائع تسعين وقعة وعدة من حضر في صفين من أهل الشام مائة وعشرون ألفًا، ومن أهل العراق مائة ألف وعشرة آلاف، فيكون جملة الفريقين مائتي ألف وثلاثين ألفًا.

يوم كربلاء

لَمَّا بُويع يزيد بالخلافة، وذلك في رجب سنة ستين خرج الحُسين كارهًا للبيعة من المدينة إلى مكة، فبلغ أهل الكوفة امتناعه، فكتبوا إليه يُحَرِّضُونَهُ على المسير إليهم ويُعَرِّفُونَهُ بأنهم شيعته وشيعة أهل بيته، وأنهم يُقاتلون عدوّه حتى يقتلوا أنفسهم دونه؛ فَقَدِمَ الكتاب على الحسين لِعَشْرِ خَلَوْنٍ من رمضان سنة ستين، فبعث إليهم مسلم بن عقيل بن أبي طالب للمبايعة له فبايعوه، فكتب بذلك عامل الكوفة من قِبَل يزيد، وهو عبد الله بن مسلم إلى يزيد يُعَلِّمُهُ بذلك، فلَمَّا بلغ يزيد ذلك عقد لعبيد الله بن زياد بولاية الكوفة وأمره بقتل مسلم بن عقيل، فسار حتى

دخل الكوفة على حين غفلةٍ مِنْ أهلها، وهو ملتشم يظنونه الحسين، فجعل لا يمر على ملاٍ مِنَ الناس إلا قالوا: مرحبًا يا ابن بنت رسول الله ﷺ، قَدِمْتَ خير مقدم؛ فلما سمع مقالتهم حسر لهم عن وجهه، فلَمَّا رآوه داخلهم كآبةٌ وحُزنٌ وخاف مسلم على نفسه، فاستجار بهانيء بن عروة. فأرسل إليه عبيد الله يطلبه منه، فقال: لا أُسَلِّمُ إليك مَنْ استجار بي، ظنًا منه أَنَّ قومه سيمنعونه منه، فتوَعَّده وتهَدَّده، فقال: والله لو كان تحت قدمي هاتين ما رفعتهما عنه، فاصنع ما بدا لك؛ فضربه على وجهه فأدماه وهشم أنفه، وأمر به فحُجِسَ، فلَمَّا بلغ مسلم بن عقيل ذلك أمر أن ينادى في أصحابه، وكان قد بايعه ثمانية عشر أَلْفًا، فاجتمع حول داره منهم أربعة آلاف، فجاء الصارخ بذلك إلى عبيد الله، فخرج من المسجد إلى القصر فرعًا مُسرِعًا وأغلق أبوابه وأحاط مسلم بن عقيل به فيمن معه مِنْ كُلِّ ناحية ولم يكن مع عبيد الله في القصر إلا ثلاثون رجلًا مِنَ الشُّرَط، وعشرون مِنَ أشراف الناس، فبينما هم كذلك إذ أقبل كثير بن شهاب فيمن أطاعه من مذحج، فنادى: أيها الناس أَلْحِقُوا بأهاليكم ولا تعرَّضُوا أنفسكم للقتل، فَإِنَّ هذه جيوش أمير المؤمنين يزيد مقبلة، وقد أقسم الأمير عبيد الله لئن لم ترجعوا عن حَرْبه ليأخذنَّ البريء بالسَّقيم، والغائب بالحاضر حتى لا يبقى منكم باقية؛ فتفرَّق الناس وجعل الرجل يخوِّف أخاه بجند الشام، والمرأة تخوِّف ولدها، فأمسى مسلم بن عقيل ومعه ثلاثون أَلْفًا، فخرج متوجِّهًا نحو أبواب كندة، فما بلغ الأبواب ومعه عشرة، ثم خرج مِنَ الأبواب وما معه إنسان، فمضى على وجهه لا يدري أين يذهب، فالتجأ إلى دار امرأة تسمَّى طوعة فمَنعته الجلوس على بابها، ولم تكن تعرفه، فقال لها: افعلي معي معروفًا لعلِّي أَكافئك عليه بعد؛ قالت: وما ذاك؟ قال: أنا مسلم بن عقيل كذبني هؤلاء القوم وغزوني، فرُفِّتَ له وحُنِّتَ عليه وأخذت بيده وأدخلته دارها، وكانت للأشعث بن قيس، فلَمَّا كان الغد صعد عبيد الله بن زياد المنبر، فحمد الله على انتصاره، ثم قال: بَرِئْتُ الذمَّةَ مِمَّنْ وجدنا مسلم بن عقيل في داره وَمَنْ جاء به فله ديتُه؛ فقام محمد بن الأشعث وقال: إِنَّ بلال بن أسيد أخبرني أَنَّ عقيل بن مسلم عند أمِّه؛ فقال: قُمْ وأتني به، فقام ابن الأشعث في ستَّة عشر رجلًا حتى أتوا الدار، فلما سمع مسلم وقع حوافر الخيل نهض إليهم بسيفه، فاقتحموا عليه الدَّار فضربهم حتى أخرجهم وخرج خلفهم مصلِّيًا سيفه ومانعًا عن نفسه، فقال له ابن الأشعث: يا فتى لا تقتل نفسك ولك الأمان، وهو يُدافع عن

نفسه ويقول: [الرجز]

أقسم لا أقتل إلا حُرًّا وإن رأيت الموت شيئاً نَكِراً
كل امرئ يومئذٍ مُلاقٍ شرًّا أخاف أن أكذب أو أغرًّا

فقال ابن الأشعث: لا تكذب ولا تغر أنا زعيمك بالوفاء والذِّمام، فلما ألقى سلاحه تواثبوا عليه وأخذوه وحَمِلَ إلى عبيد الله، فقال له: يا فاسق إنَّ نفسك منَّتْك ما حِيلَ بينك وبينه قتلني الله إن لم أقتلك قتلةً لم يُقتلها أحدٌ قبلك في الإسلام؛ ثم أمر كثير بن حمران الأحمرى أن يصعد به إلى سطح القصر وأن يرمي به، ففعل، فلما فعل به كذلك لم يمت، فأمر بضرب عنقه فضربت ثم ضرب رقبة هانئ بعده وضُليت جثة مسلم، وحَمِلَ رأسه إلى دمشق.

وكان قتل مسلم بالكوفة يوم الثلاثاء لثمان مَضَيْن من ذي الحجة سنة ستين، وفي ذلك اليوم خرج الحسين من مكة قاصداً نحو الكوفة بعدما وصله كتاب مسلم يُخبره فيه أنَّ أهل الكوفة معك، فأقبل حين تقرأ كتابي، فإني قد بايعتهم لك؛ فبينما هو سائر بأصحابه نحو الكوفة إذ مرَّ به رجل من أهلها، فسُئِلَ عمَّا وراءه، فذكر أنه لم يخرج منها حتى قُتل مسلم وهانئ وراهما يجزآن بأرجلهما في السوق، فهَمَّ بالرجوع، فقال له بعض أصحابه: والله ما أنت كمسلم، ولو قدمت الكوفة لكان الناس أسرع إليك من السيل في المكان المنحدر، فسار وإذا طلائع خيل قد أقبلت نحوه، فنزل الحسين وأمر بالأخبية فضربت، وجاء القوم وهم ألف فارس مع الحرّ بن يزيد اليربوعي، وكان نازلاً على القادسية ينتظر قدوم الحسين، فلما اجتمعا قال له الحرّ: ما الذي أقدمك العراق؟ قال له: والله ما خرجت حتى أثنني كتبكم مع رسلكم، فقال له الحرّ: والله ما ندري ما هذه الكتب، وقد أُمِرنا أنَّا إذا لقيناك لا نفارقك حتى نُقدمك الكوفة، فقال: ثكلتك أمك، الموت دون ما قلت، فقال الحرّ: لو غيرك قالها من العرب ما تركت ذكر أمه، وإذا قد أُبَيَّت فخذ طريقاً لا تُدْخلك الكوفة ولا تردك إلى المدينة؛ فأبى وسار والحرّ بن يزيد معه حتى أتوا على قرية، فسأل الحسين عنها، قالوا: العقر، فقال: نعوذ بالله منه - أي من العقر - وهي كربلاء، فنزل فيها، وذلك يوم الخميس الثاني من المحرم سنة إحدى وستين، فلما كان من الغد قدم عليهم عمرو بن سعد بن أبي وقاص من

الكوفة في أربعة آلاف فارس، فلما اجتمعوا كتب عمرو إلى عبيد الله يسعى في صلاح الحال معه وعوده: أنا قد اجتمعنا بالحُسَيْن في كربلاء ونحن ننتظر أمرَك فيه، فكتب إليه: حلّ بين الحسين وبين الماء كما فعل بالزكيّ النقيّ عثمان بن عفان، فمنعوه وأصحابه الماء، ثم أنفذ إليهم الشمر بن ذي الجوشن، وأمره أن يسمع لعمرو بن سعد إن هو قاتل وإن أبى فتقدّم أنت على العسكر، فأقبل شمر على عمرو بن سعد، وبلغه ما قال عبيد الله، فامتعض لذلك، وقال: لا ولا كرامة، ولكن أنا أتولّى ذلك؛ ثم نادى: يا خيل الله اركبي، وذلك عشية الخميس لتسّع خلون من المحرم، ثم تقدّموا نحو الحسين، فأرسل إليهم أخاه العباس يسألهم التأخير لصبيحة غد، فأجابوه إلى ذلك، فلما صلّى الغداة يوم الجمعة، وقيل: يوم السبت وهو يوم عاشوراء خرج عمرو فيمن معه من الناس، وخرج الحسين وأصحابه وكانوا اثنين وثلاثين فارساً وأربعين راجلاً، ثم وقف فيهم على راحلته ونادى: أيها الناس اجمعوا أمركم، ثم لا يكن أمركم عليكم غمّة، ثم اقضوا إليّ ولا تنظروا إنّ وليّ الله الذي نزل الكتاب وهو يتولّى الصالحين؛ فسمعه نساؤه فبكين، ثم قال: انسبوني وانظروا من أنا، هل على وجه الأرض ابن بنت نبيّ غيري؟ فسمعتة أخته زينب فقالت اليوم ماتت فاطمة أمي، وعليّ أبي، والحسن أخي، يا خليفة الماضي وثماناليتامي؛ فقال مجيباً لها: ولو ترك القطا ليلاً لناماً؛ فجاءه الحرّ بن يزيد اليربوعي فقال له: ما جاء بك؟ قال: جئتُك تائباً ممّا كان منّي مواسياً لك بنفسي، أفترى ذلك لي توبة؟ قال: نعم، يتوب الله عليك ويغفر لك، ثم أقبل الحرّ بوجهه على أصحاب ابن زياد، وقال لهم: اتّقوا الله في ابن بنت رسول الله نبيّكم، حلّتم بينه وبين الماء الذي يُلغ فيه الكلب، ويردّه الكافر، وها أصحابه قد صرعهم العطش، فيثسما خلفتم محمداً في أهل بيته؛ فحمل عليه رجال منهم ونشب الحرب بينهم، فجعل الحرّ ينشد يحمل على القوم ويقول: [الرجز]

والله لا تقتل حتى أقتل ولن أصيب اليوم إلا مقتلاً

أضربهم بالسيف ضرباً فيصلا لا ناكلأ عنهم ولا مُهللاً

ولم يزل يُقاتل حتى قُتل، ثم حمل أصحاب عمرو بن سعد على أصحاب الحسين حملة رجل واحد فقتلوهم كلّهم، وكان أوّل مَنْ قُتل من آل بني طالب عليّ بن الحسين الأكبر، وبقي الحسين وحده، وكان الناس قد تَوَقَّعوا قتله، فكان

بعضهم يحيل على بعض، وصاح شمر لعنه الله بأصحابه: أن اقتلوه ثكلتكم أمهاتكم، فحمل عليه من كل جانب فضربه زرعة بن شريك بالسيف فقطع يساره، وطعنه سنان بن أنس النخعي بالرمح فصرعه ونزل إليه فاحتز رأسه من قفاه وأخذها، ووُجد فيه رضي الله تعالى عنه ثلاث وثلاثون جرحاً وثلاثون طعنة، والكل فيما أقبل من وجهه، وقيل: مائة وعشرون جراحة ما بين طعنة برُمح ورشقةٍ بسهم ورمية بحجر وضربة بسيف، وكانت عليه جبة خز دكاء، فصارت كأنها جلد قنفذ من السهام، ثم سلبه إسحق بن جنوة قميصه فبرص، وسلبه يحيى بن كعب سراويله فعُمي، ونادى عمرو بن سعد من ينتدب للحسين فيطؤه بفرسه فانتدب له إسحق بن جنوة وتسعة من أصحابه فواطؤوا ظهره وصدره حتى رضوه رحمة الله تعالى عليه، ولعن قاتله والمُعين له، وأتى سنان بن أنس برأس الحسين إلى عبيد الله بن زياد، فلما دخل عليه قال: [الرجز]

أوقر ركابي فضةً وذهبا أنا قتلت السيد المحجبا
أكرم خلق الله أمّا وأبا وخيرهم إذ ينسبون النسبا

فظفر به المختار بن أبي عبيد فقتله وأحرقه، ثم بعث بالرأس مع محفد بن ثعلبة العائدي إلى يزيد بن معاوية، فلما دخل عليه قال له: جئت بك برأس الأم الناس ما ولدت مخدرة الأم وأوضع، ثم جعل يضرب ثناياه بقضيب خيزران كان في يده، وينشد^(١): [الطويل]

أبى قومنا أن ينصفونا فأنصفت قواضب في أيماننا تقطر الدما
تفلق هاماً من رجال أعزة علينا وهم كانوا أعق وأظلما

أما والله لوددت أني أتيت بك مسلماً، ولو وليتك ما قتلتك؛ ثم قدم إليه علي بن الحسين، والحسن بن الحسن، فقال لعلّي: أنت أبوك قطع رحمي ونازعني سلطاني، فجزاه الله جزاء القطيعة للرحم؛ فقال علي: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا﴾ [الحديد: الآية ٢٢]، فقال يزيد: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُّصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: الآية ٣٠]. ويروى أنه لما قُتل الحسين رضي الله عنه قدم على

(١) البيتان للحسين بن حمام الفزاري، من قصيدة مطلعها:

جزى الله أفناء العشيرة كلّها بداره موضوع عقوقاً ومائماً

يزيد...^(١) المذحجي، فقال له: ما وراءك؟ قال: أبشر يا أمير المؤمنين بفتح الله ونصره، وردّ علينا الحسين بن عليّ في ثمانية عشر رجلاً من أهل بيته وستين رجلاً من شيعته، فسيرنا إليهم فسألناهم أن يستسلموا وينزلوا على حكم الأمير عبيد الله أو القتال، فاختاروا القتال على الاستسلام، فعدّونا عليهم مع شروق الشمس، فاحتطنا بهم من كل ناحية حتى أخذتهم السيوف مأخذها من هؤلاء القوم، وجعلوا يلجؤون إلى غرور ويلوذون منا بالآكام والحُفَر لنادي الحمام من العقر: فوالله يا أمير المؤمنين ما كان إلّا قدر جزر جزور أو نومة قائل حتى أتينا على آخرهم، فهاتيك أجسادهم مجرّدة وثيابهم مُزَمّلة وخدودهم معقّرة تضربهم الشمس وتسفي عليهم الريح وفوقهم العقبان والرخم بقفر سيبس لا مكفّنين ولا موسدين؛ فدمعت عينا يزيد وقال: كنت أرضى منكم ومن طاعتكم بدون قتل الحسين لعن الله ابن سمية، أما والله لو أني بصاحبه لعفوت عنه، فرحم الله الحسين فلم يصله بشيء.

ويُقال: إنّه لما حُمِلَ رأس الحسين إلى يزيد بن معاوية ووضع بين يديه خرجت كف يد من الحائط، فكتبت في جبهته^(٢): [الوافر]

أترجو أمة قتلت حُسينًا شفاعاة جدّه يوم الحساب

وَقُتِلَ رضي الله عنه وله من العمر خمس، وقيل: ست، وقيل: سبع وخمسون سنة، وقُتِلَ معه ثمانية عشر رجلاً من أهل بيته وستون رجلاً من شيعته. ولما وصل خبر مقتله إلى المدينة، وكان واليًا عليها يومئذ عمرو بن سعيد بن العاص المعروف بالأشدق قام منادياً فنادى بقتله، فصاح نساء بني هاشم، وخرجت ابنة عقيل بن أبي طالب حاسرة، وهي تقول^(٣): [البسيط]

ماذا تقولون إن قال النبي لكم ماذا فعلتم وأنتم خيرة الأمم
بعثرتي وبأهلي بعد مفتقدي منهم أسارى ومنهم مُضَرَّج بدم
ما كان هذا جزائي إذ نصحت لكم أن تُخلفوني بسوء في ذوي رحمي

وفي يوم قتله من العام القابل قُتِلَ عبيد الله بن زياد قتله المختار بن أبي عبيدة، وقتل المختار مصعب بن الزبير، وقتل مُضْعَبًا عبد الملك بن مروان، فيالله

(١) بياض بالأصل.

(٢) البيت لأبي الأسود الدؤلي في ديوانه، وهو بيت منفرد.

(٣) الأبيات في أمالي ابن الشجري، ص ٦٨٢؛ وعيون الأخبار، لابن قتيبة، ص ٥٥٧.

العجب كيف وأنى يهدر دماء بني البتول وسيف التّصر على الباغي بيد الزمان
مسلول.

يوم الحرّة

وسببه أنّ جماعة من أشرف المدينة منهم عبد الله بن حنظلة وبنوه ثمانية
والمنذر بن الزبير قَدِمُوا من عند يزيد بن معاوية، وكان قد أكرمهم وحملهم
وكساهم، فأظهروا شتمه وأكثروا سبه وعَيَّبه للناس، وقالوا: قَدِمْنَا من عند رجل
شرّيب فسَيِّق يلعب بالكلاب ويسامر القروود والقيان، وإنّا نشهدكم أنّ قد خلعناه
وتبرأنا منه؛ فكتب عثمان بن حيان والي المدينة من قَبْلِ يزيد إليه يُعلمه بما أجمعوا
عليه، فكتب يزيد إلى أهل المدينة: أمّا بعد؛ فإنّ الله لا يُغَيِّر ما بقوم حتى يُغَيِّرُوا
ما بأنفسهم، وإذا أراد الله بقوم سوءًا فلا مردّ لهم وما لهم مِنْ دونه من والٍ، وإنّي
والله لقد لبستكم فأبليتكم ورقعتكم حتى خرقتكم، وإنّي وضعتكم على رأسي ثم
على صدري ثم على بطني، وإني والله لئن وضعتكم تحت دمي لأطأنكم وطأة أقلّ
بها عددكم وأقلّ بها عددكم وأترككم أحاديث تنسخ أخباركم مع أخبار عادٍ وثمود،
فإن شئتم فلا أفلح من ندم؛ وكتب في آخر الكتاب متمثلاً بقول الشاعر^(١):

[الطويل]

لقد بدّلوا الحلم الذي من سجيّتي فبدّلت قومي غلظة بليانٍ
فلما وصل إليهم الكتاب وقُرئ عليهم أبوا إلّا خلعه وازدادوا عليه تغيطًا
وفيه كراهة، ثم بايعوا عبد الله بن حنظلة ووثبوا على عثمان بن حيان وأخرجوه من
المدينة، وأخرجوا مَنْ كان فيها مِنْ بني أُمَيَّة ومواليهم، وكانوا نحوًا من ألف،
فنزلوا دار مروان بن الحكم، فخرجوا إليهم وحصروهم فيها، فكتب مروان إلى
يزيد يُعلمه بما جرى، فوصل إليه الكتاب ليلاً وعنده الضحاك بن قيس، فقرأه عليه
ثم قال له: ما الرّأي؟ قال: يا أمير المؤمنين قومك وعشيرتك وبلد رسول الله ﷺ
وحرمة، وأرى أن تعفو عنهم وتتعمّد ذنوبهم؛ فقال: اخرج عني، ثم دعا مسلم بن

(١) البيت للمتوكّل الليثي في ديوانه، من قصيدة مطلعها:

خليلي عوجا اليوم وانتظراني فلان الهوى والهَمّ أم أبانٍ
ورواية البيت في الديوان:
هم بطروا الحلم الذي من سجيّتي فبدلت قومي شدة بليانٍ

عقبة المري، قال: فما لبث أن دخل رجل أعور ثائر الرأس كأنما يقلع رجله من وحل إذا مشى، فرمى إليه بالكتاب، فلما قرأه احمرّ وجهه وأزبد شذقه، فقال له يزيد: ما الرأي؟ قال: أرى أن تبعث إليهم جيشاً رجاله غليظة أكتافهم، طويلة رماحهم، فيطؤونهم حتى يكونوا نكالا لمن خلفهم، فقال له يزيد: كنت لها لولا أنك ضعيف، فقال: يا أمير المؤمنين إن كنت تريدني لمصارعتهم فإني ضعيف، وإن كنت تريدني للرأي فإني قوي، فأمره يزيد بالتجهز، فما أصبح إلا وعلى باب يزيد عشرون ألفاً، وفيهم مسلم بن عقبة، فاستدعاه يزيد وقال له: سِرْ، فإن حدث بك أمرٌ فاستخلف الحصين بن نمير، واذعُ أهل المدينة ثلاثاً فإن أجابوك وإلا قاتلهم فإن أطاعوا أمرنا فانصرف عنهم إلى ابن الزبير، فإن قاتلتهم وظفرت بهم فأبخها ثلاثاً، واستوص بعلي بن الحسين خيراً؛ ثم ودّعه وانصرف بمن معه من الجيش، فلما سمع أهل المدينة قدوم الجيش غوروا المياه التي بينهم وبين أهل الشام، فأرسل الله السماء فلم يستقي أصحاب مسلم بدلو حتى قدموا المدينة، وكان أهل المدينة قد أطلقوا بني أمية، فخرجوا قاصدين الشام، فلقوا مسلماً بالجيش فرحب بهم وسألهم عن أهل المدينة فأخبروه بحالهم وشاورهم أين يكون نزوله من نواحي المدينة، فأشار عليه عبد الملك بن مروان أن ينزل بالجيش من قبل الحرّة، فإنها مشرفة على المدينة، وأن أهلها ينظرون من تألق بيضكم وأسنة رماحكم وسيوفكم ما لا يراه أصحابك منهم فنزلها، فلما رآهم أهل المدينة خرجوا في جموع كثيرة وهيئة لم يُر مثلاً، فلما رآهم أهل الشام أكبروهم وكرهوا قتالهم، فكتب مسلم إليهم يحذّرهم سطواته ويُنذّرهم فتكاته، فأبوا قبول ما دعاهم إليه من الانقياد لطاعته، فلما كان اليوم الرابع وهو يوم الجمعة لثلاث بقين من ذي القعدة سنة ثلاث وستين نادى مُناديه: يا أهل المدينة قد مضى الأجل، فما تصنعون أنسالمون أم تُحاربون؟ فقالوا: بل نُحارب، ثم خرجوا وطلبوا البراز، فأمر مسلم أن يعبى الجيش وضرب لهم فسطاطاً ووقع القتال، وجعل مسلم يعدّ قومه ويُمَنّيهم، وعبد الله بن حنظلة الغسيل يحرض قومه ويقدم أولاده واحداً بعد واحد حتى قُتلوا، ثم حُمِل عليه فقتل، وقُتل يومئذ ثمانية من أصحاب رسول الله ﷺ، وقال أهل الشام لبني أمية: الهؤلاء جئتم بنا حتى نقتلهم؟ ثم اشتد القتال وكثر القتل حتى انهزم أهل المدينة فدخلوها وتحصنوا بها، فبيّس منهم مسلم، فدلّه رجل من بني حارثة على طريق سالكة إلى المدينة، فسلكه بمن معه حتى دخلها،

فلَمَّا رأى أهلها الجيش قد صار معهم تفرّقوا فقتلوا في كلّ جهة، وذلك لثلاث من ذي الحجة سنة ثلاث وستين ثم انتهبوا ثلاثاً وأقاموا بها حتى رأوا هلال المحرم، ثم أخذ مسلم البيعة على أهل المدينة أنهم عبيد قيان ليزيد بن معاوية إن شاء أعتق، وإن شاء قتل، ثم ركب مسلم الفاسق - لعنه الله - وخرج إلى الحرّة يطوف في القتلى، ومعه مروان بن الحكم، فمرّ على عبد الله بن حنظلة وهو مادّ أصبعه نحو السماء، فقال: والله لئن نصبتها ميتاً لطالما نصبتها حيّاً داعياً إلى الله. ومرّ على إبراهيم بن نعيم فوجد فرجه مستوراً بيده، فقال: والله لئن حفظته عند الوفاة لقديماً حفظته في حال الحياة. ومرّ على محمد بن عمر بن حزم، وهو واضع جبهته على الأرض، فقال: أمّا والله لئن كنت على جبهتك بعد الموت لطالما فرستها لله ساجداً في طول الحياة، فقال: والله ما هؤلاء إلا من أهل الجنة، ثم إن مسلماً حزّ رؤوس القوم وأرسلها إلى يزيد، فيقال: إنه أنشد لما ألقيت بين يديه بيت ابن الزبيري^(١): [الرمّل]

لَيْتَ أَشْيَاخِي بِبَدْرِ شَهْدُوا جَزَعَ الْخَزْرَجِ مِنْ وَقَعِ الْأَسْلُ

قال الواقدي: قُتِلَ يوم الحرّة سبعمائة من حَمَلَةِ الْقُرْآن، وقيل: قُتِلَ سبعمائة من قریش والأنصار، وقُتِلَ مِمَّنْ لَا يُعْرَفُ عشرة آلاف؛ ثم سار مسلم - لعنه الله - يريد مكة لقتال عبد الله بن الزبير، فلَمَّا كان بقديد مات فدُفِنَ بالمشلل، وقيل: بشنية هرشى. وكان موته لسبع بقين من المحرم سنة أربع وستين، وفي هذه السنة مات يزيد في الرابع عشر من ربيع الأول وله من العمر ثمان وثلاثين سنة، وكانت مدة خلافته ثلاث سنين وتسعة أشهر، ولَمَّا مات مسلم جاءت أم ولد يزيد بن عبد الله بن زمة فنبشته وأحرقته، وقيل: بل أخرجته وصلبته، وفيما ذكرنا من هذه الحروب إقناع يعزّ به المخبر، إذا سَيِّمَ مِنَ الْمَطَاوِلَةِ الْمُسْتَخْبِر.

وأحسن ما لحق بهذا الفصل وتلاه وصف عظم الجيش ومصارع قتلاه

أبلغ ما وُصِفَ به عظم الجيش قول مالك بن الرّيب من أبيات^(٢): [الطويل]

بجيش لهام يشغل الطّير جمعه عن الأرض حتى ما يجدن منازل

(١) البيت في ديوان عبد الله بن الزبيري، من قصيدة مطلعها:

يا غراب البين أسمعت فقلّ إنما تنطق شيئاً قد فُعل

(٢) البيت في ديوان مالك بن الرّيب، وهو بيت مفرد.

السلامي^(١): [الكامل]

والجو ستر بالنسور مطير والأرض فرش بالخيول مخيل
يهفو العقاب على العقاب فيلتقي بين الفوارس أجدل ومجدل
ولا مزيد في الحسن على ما قاله أبو تمام حبيب بن أوس الطائي من أبيات
يمدح بها المعتصم^(٢)، جاء منها قوله^(٣): [الكامل]

لما رأيت الدين يخفق قلبه والكفر فيه تغطرس وعرام^(٤)
أوريت زند عزائم تحت الدجى أسرجن فكرك والبلاد ظلام
فنهضت تسحب ذيل جيش ساقه حسن اليقين وقاده الإقدام
ملا الملا عصبا فكاد أن يرى لا خلف فيه ولا له قدام
بسواهم لحق الأباطل شرب تعليقها الإسراج والإلجام
ومقابلين إذا انتموا لم يخزهم في نضرك الأخوال والأعمام
تخذوا الحديد من الحديد معاقلا سكانها الأرواح والأجسام^(٥)
مُسترسلين إلى الخُتوف كأنما بين الخُتوف وبينهم أرحام
آساد موت مخدرات ما لها إلا الصَّوارم والقنا آجام
حتى نقضت الرُّوم عنك بوقعة شنعاء ليس لنقضها إبرام
في معرك أما الحمام فمفطر في هبوتيه والكمأة صيام
والضُّرب يقعد قرن كل كتيبة شرس الضربة والحتوف قيام
فقصمت عروة جمعهم فيه وقد جعلت تفصم عن غراها الهام

(١) البيتان في ديوان السلامي، من قصيدة مطلعها:

يا سيف دين الله ما رضي العدى
ورواية البيت الأول في الديوان:

فالروض من زهر النجوم مضرج
(٢) في الديوان المأمون. اهـ.

(٣) الأبيات في ديوان أبي تمام، من قصيدة مطلعها:

دمنَ أَلَمَ بها فقال سلامٌ كم حلَّ عقدة صبره الإمام

(٤) قوله: تغطرس في الديوان تغطرف، ومعناها الكبر، وأسقط بعد قوله: فنهضت، الخ. . . . (متعجر
لزوج يرى سلافه) (ويرى بمنخرق الفضاء زحام).

(٥) أسقط بعد قوله: ومقابلين، الخ. . . . (سفع الدؤب وجوهم فكانهم وأبوهم سام أبوهم حام). اهـ.

ابن عبد ربّه صاحب العقد^(١) : [الطويل]

وجيش كظهر اليمّ ينفحه الضبا يعبّ عباباً من قنا وقنابل
ففينزل أولاه وليس بنازلٍ ويرحل أخراه وليس براحلٍ
ومعترك ضنك تعاطت كُماته كؤوس دماء من كلى ومفاصلٍ
يديرها بها راحاً من الرّوح بينهم ببيض رقاق أو بسمر ذوابلٍ
وتسمعهم أمّ المنية وسطها غناء صليل البيض تحت المَناصلِ
أبو الفرج الببغا^(٢) : [الكامل]

فإذا الجياد إلى الجياد عوابساً شعئاً ولولا بأسه لم تنفدِ
في جحفل كالسَّيل أو كاللَّيل أو كالقطر طافح قطر بحر مزبدٍ
متوقّد الجنبات تعتنق القنا فيه اعتناق تواصل وتودّدٍ
متعجّر بضيا الصّوارم مبرقٌ تحت العجاج وبالصّواهل مُزعدٍ
ردّ الظلام على الضّحى واسترجع الأصباح من ليل الغبار الأزبدِ
وكأنّما نُقِشت حوافر خَيْله لثناظرين أهلة في الجلمدِ
وكأنّ طرف الشمس مطروف وقد جعل الغبار لها مكان الإثمِدِ
وله^(٣) : [الخفيف]

في خميس كأنما السمر والأبـ طال فيه غيله حمته أسودُ
سلب الشّمس ضوأها بشموس طالعات أفلاكهنّ جديدُ
عارض كلما تجلّت بروق الـ بيض حثّت على الصّهيل رعودُ
وله^(٤) : [الكامل]

جيش يفوت الطّرف حتى لا يرى ما غاب من أطرافه محدودا
ويجيش حتى لا يظنّ عديده أحد لكثرة جمعه معدودا

(١) الأبيات في ديوان ابن عبد ربّه الأندلسي، والبيت الأول مطلع القصيدة.

(٢) الأبيات في ديوان أبي الفرج الببغا، من قصيدة مطلعها:

سقت العهاد خليط ذاك المعهد ربّاً وحياً البرق برقة ثهمدٍ

(٣) الأبيات في ديوان الببغا، وهي ثلاثة أبيات منفردة.

(٤) الأبيات ليست في ديوان الببغا، وهي للناشئ الأكبر في ديوانه، والبيت الأول مطلع القصيدة.

الأعلام أعلاماً له وينودا	فكأنما جعل الإله روابي
قبل اللقاء تهذّداً ووعيدا	يقضي على الأعداء خيفة بأسه
فتخال فيه بوارقاً ورعودا	وترى وتسمع لمعه وخفوقه
	آخر: [الطويل]
أضياء وأبداه الحديد المسردُ	خميس إذا أخفى سنا الشمس نطقه
وتحمّله الأرض الوقور فيرعدُ	تواجهه هوج الرياح فينثني
	أبو الطيّب المتنبّي ^(١) : [الطويل]
وفي أذن الجوزاء منه زمازمُ	خميس بشرق الأرض والغرب زحفه
فما يفهم الحداث إلا التراجمُ	تجمع فيه كل لسن وأمة
	وله ^(٢) : [الطويل]
بناج ولا الوحش المُثار بسالم	وذو لجب لا ذو الجناح أمامه
تطالعه من بين ريش القشاعم	تمرّ ^(٣) عليه الريح هي ضعيفة
من اللّمع في هاماته والجماجم	ويخفي عليك البرق والرعد فوقه
	ابن المعتزّ ^(٤) : [الطويل]
دخان وأطراف الرّماح شرارُ	وعَم السماء النّقع حتى كائنه
	ابن الساعاتي ^(٥) : [الكامل]
والسّمر غاب والكُماة أسودُ	والنّقع ليل والأسنة أنجم

(١) البيتان في ديوان المتنبّي، من قصيدة مطلعها:

على قدر أهل العزم تأتي العزائم

(٢) الأبيات في ديوان المتنبّي، من قصيدة مطلعها:

أيا لائمي إن كنت وقت اللّوائم

(٣) قوله: الريح في الديوان الشمس، وإسقط بعده: (إذا ضوؤها لأفى من الطير فرجة. تدور فوق البيض مثل الدّراهم).

(٤) البيت في ديوان ابن المعتزّ، من قصيدة مطلعها:

شجّتك لهند دمنة وديارُ

(٥) البيت في ديوان ابن الساعاتي، وهو بيت منفرد.

خلاء كما شاء الفراق قفارُ

وصف النزال والقتلى

وصف أعرابي وقعة، فقال: اصطَفُوا كجناح الطائر، وشَدُّوا شَدَّ الأسد الخادر فما ثنوا أَعِثَّتْهُمْ، ولا صرفوا أَسِثَّتْهُمْ حتى انصرف أعداؤهم. أبو نصر المِكيالي: دارت رحى الحرب بين أعمار تُباح، ودماء تُستباح، وأجسام تُطاح، وأرواح تُسْفى بها الرِّيح؛ فالسيوف للهجمات دامغة، والرِّماح في الأكباد والغة. بعض البلغاء: طلبنا فلاناً في الوغى فوجدناه وجسده بالصفاح منمَّق محبر، وبالرماح معجم ومحرَّر.

ابن عبد ربّه مِنْ أَيْيات^(١): [البسيط]

فكم على النَّهر أوصالٌ مفرّقة تقسّمُها المَنايا فهي أشطارُ
قد فلقت بصفيح الهند هامتهم فهنّ بين حوامي الخيل أعشارُ
وكم بساحتهم من شلوٍ مطرح كأنه فوق ظهر الأرض أجارُ
كأنما رأسه أفلاق حنظلة وساعده على الزُندين جمارُ

أبو بكر الخوارزمي^(٢): [الوافر]

كتبنا في وجوههم سطوراً غرائب حبرهنّ دَمَ هُمُولُ
فترجمها الأعادي للأعادي وقرؤها على الحيّ القتيلُ
فمالك غير جمجمة كتاب ومالك غير صاحبها رسولُ

ابن الرومي^(٣): [الكامل]

كتبت لنا أيدي النزال صحائفًا هجماً مِنَ الإعراب والإفصاح
أطراسها جثث الكُماة وجبرها ممّا أسلّناه دَمَ الأرواح
فالشكل فوق سطورها بصوارم والنّقط تحت حروفها برماح

(١) الأبيات في ديوان ابن عبد ربّه، من قصيدة مطلعها:

كم ألحم السيف في أبناء ملحمة ما منهم فوق ظهر الأرض ديارُ

(٢) الأبيات ليست في ديوان أبي بكر الخوارزمي، ولم أجدها في المصادر والمراجع التي بين يدي.

(٣) الأبيات ليست في ديوان ابن الرومي، ولم أجدها في المصادر والمراجع التي بين يدي.

ابن نباتة^(١): [الطويل]

خلقنا بأطراف القنال ظهورهم عيوناً لها وقع السيوف حواجب
قطع الرؤوس: أحسن ما نُظِمَ فيها قول الشريف البياضي مِنْ أبيات^(٢):
[الوافر]

خطبنا بالقنالمهج الأعادي فزُفَت والرؤوس لها نثارُ
وقول جرير، وإن كان قبله^(٣): [الطويل]

كأن رؤوس القوم فوق رماحنا غداة الوغى تيجان كسرى وقيصرا
وقول الآخر: [الكامل]

وكانما سُمر الرماح معاطفٌ والهامُ فوق صدورهنّ نهودُ

الفصل الثالث من الباب الحادي عشر

في ذم التصدي للهلكة ممن لا يستطيع بها ملكة

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: الآية ١٩٥]، وقال تعالى: ﴿خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ [النساء: الآية ٧١]. وقد روي أن عمر رضي الله عنه حين كره طواعين الشام أراد الرجوع إلى المدينة، فقال له أبو عبيدة بن الجراح: يا أمير المؤمنين أتفر من قدر الله؟ قال: نعم إلى قدر الله، فقال له: أيمنع الحذر القدر؟ قال: لست مما هناك في شيء إن الله لا يأمر بما لا ينفع، ولا ينهى عما لا يضر؛ فإنه يقول: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: الآية ١٩٥]، وقال: ﴿خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ [النساء: الآية ٧١]. وقالوا: الشجاعة تغرير، والتغرير مفتاح الهلكة. وقال يزيد بن المهلب: الإقدام على الهلكة تغرير، والإحجام عن الفرصة جُبْن؛

(١) البيت في ديوان ابن نباتة السعدي، من قصيدة مطلعها:

رضينا وما ترضى السيوف القواضب نجاذب بها عن هامكم وتجادب

(٢) البيت للموسوي في محاضرات الأدباء، للراغب الأصبهاني، ص ٢٩٢١.

(٣) البيت لجرير في الموازنة بين أبي تمام والبحري، للآمدي، ص ١٠٤، وليس في ديوانه.

وأنشدت لطاهر بن الحسين: [البسيط]

ركوبك الأمر ما لم تُبدِ فُرصته جهلٌ ورأيك في الإحجام تغرير
فاعمل صوابًا وخذ بالحزم مأثرة فلن يذم لأهل الحزم تدبير

ويقال: أهوت إلى يزيد بن المهلب حية فلم يتوقها، فقال له أبوه: ضيعت الحزم من حيث حفظت الشجاعة. الشريف الرضي^(١): [البسيط]

العزم في غير وقت العزم مُعجزة والازدياد بغير العقل نقصان

ويقال: مَنْ قاتل بغير نجدة، وخاصم بغير حجة، وصارع بغير قوة، فقد أعظم الخطر وأكبر الغرر. وقال بعض الحكماء: مَنْ أغرض عن الحذر والاحتراس وبنى أمره على غير أساس زال عنه العز، واستولى عليه العجز، فصار من يومه في نحس، ومن غده في لبس. وفي كتاب للهند: الحازم يحذر عدوه على كل حال، يحذر موائبته إن قرب، وغارته إن بُعد، وكمينه إن تبع، ومكره إن انفرد، واستطراده إذا ولّى. وقال أبو بكر الصديق يحذر خالد بن الوليد رضي الله عنهما: إذا دخلت أرض العدو فكن بعيدًا من الحملة، فإنني لا آمن عليك الجولة، واستظهر بالزاد وسر بالإدلال، ولا تُقاتل مجروحًا، فإن بعضه ليس منه، واحترس من الثبات، فإن في القرب غمرة، وأقلل الكلام فإن ما لك إلا ما وعى عنك، واقبل من الناس علانيتهم، وكلهم إلى الله في سريرتهم، وأستودعك الله الذي لا تضيع ودائعه. وقال الشاعر^(٢): [الطويل]

وَمَنْ يَأْمَنُ الْأَعْدَاءَ لَا بَدَأَتْهُ سِيلَقَى بِهِمْ فِي مَوْقِفِ الْمَوْتِ مَضْرَعَا

وقالوا: الإقدام على الهلكة تضييع، كما أن الإحجام عن الفرصة عجز. وقيل لعنترة العبسي: أأنت أشجع العرب وأشدّها؟ قال: لا، قيل: فبِمَ شاع هذا في الناس؟ قال: كنت أقدم إذا كان الإقدام عزمًا، وأحجم إذا كان الإحجام حزمًا،

(١) البيت في ديوان الشريف الرضي، من قصيدة مطلعها:

أسل بدمعك وادي الحي إن بانوا إن الدموع على الأحزان أعوان

(٢) البيت لتأبط شراً في ديوانه، من قصيدة مطلعها:

وقالوا لها لا تنكحيه فإنه لأول نصل أن يلاقني مجمعا

ورواية البيت في الديوان:

ومن يغر بالأبطال لا بد أنه سيلقى بهم من مصرع الموت مصرعا

ولا أدخل موضعاً لا أرى لي فيه مخرجاً. وسُئِلَ بعض الشجعان: هل شيء أضُرَّ مِنْ التَّوَانِي؟ قال: الاجتهاد في غير وقته. وقال جعفر بن ميسرة: مَنْ مَكَّنْ أسباب الهَلَكَةِ مِنْ نَفْسِهِ طَائِعاً لَمْ يَكِدْ يَتَخَلَّصْ مِنْهَا وَإِنْ كَانَ جَاهِداً. وقال بعض الحكماء لصديق له: اعلم أَنَّ الفطنة إظهار الغفلة مع شِدَّةِ الحذر، فبات مبائة الآمن، وتحفُّظٌ منه تحفُّظُ الخائف، ولا تُظْهِرْ له المخافة فيرى أَنَّ قد حذرت فيهنَّ عليه ما يستهوله منك. ويقال: إِذَا أَخَذَ الْمَرْءُ بِالْحَذَرِ وَالِاحْتِرَاسِ فِي مَوْضِعِ الشَّدَّةِ، وَعَمِلَ عَلَى الْجُرْأَةِ وَالْإِقْدَامِ عِنْدَ انْتِهَازِ الْفُرْصَةِ، فَقَدْ أَخَذَ بِالْحِزْمِ فِي شِدَّتِهِ، وَعَمِلَ بِالْحِزْمِ عِنْدَ فُرْصَتِهِ. وقال بعض الفلاسفة: كُنْ حَذِراً كَأَنَّكَ غَرٌّ، فَطَنّاً كَأَنَّكَ غَافِلٌ، وَذَاكِراً كَأَنَّكَ نَاسٍ. وقال بعضهم: [الرجز]

مَنْ أَخَذَ الْحَذَرَ مِنَ الْمَحْذُورِ قَلَّ تَجَنُّبُهُ عَلَى الدُّهُورِ
فَلْيَحْزَمْ الْحَازِمُ فِي الْأُمُورِ فَإِنْ كَبَا فَالْعَذْرُ لِلْمَعْذُورِ
آخر: [الطويل]

عَلَى كُلِّ حَالٍ فَاجْعَلِ الْحِزْمَ عِدَّةً تَدْمِهَا عِنْدَ النَّوَائِبِ فِي الدَّهْرِ
فَإِنْ نِلْتَ حِطّاً نِلْتَهُ بِعِزِّيمَةٍ وَإِنْ قَصَّرْتَ عَنْكَ الْحِظُوظَ فَعَنْ عُذْرِ

ومما يكون عمدة عند لقاء الأبطال التفكر في أعمال الاحتيال وإن طال

قالت الحكماء: الحازم يحتال للأمر الذي يخافه لعله أن لا يقع فيه، فليس من القوة التورط في الهوة، ومن لم يتأمل العواقب بعين عقله لم يقع سيف حيلته إلا على مقاتله. وأنشد لتأبط شراً^(١): [الطويل]

إِذَا الْمَرْءُ لَمْ يَحْتَلْ وَقَدْ جَدَّ جَدُّهُ أَضَاعَ وَقَاسَى الصَّغْبَ وَهُوَ مُقْصَرُ
وَلَكِنْ أَخُو الْحِزْمِ الَّذِي لَيْسَ نَازِلاً بِهِ الْأَمْرُ إِلَّا وَهُوَ لِلْقَصْدِ مُبْصَرُ

(١) البيتان ليسا في ديوان تأبط شراً، وهما للسهروردي المقتول في ديوانه، من ثلاثة أبيات، هي:

إِذَا الْمَرْءُ لَمْ يَحْتَلْ وَقَدْ جَدَّ جَدُّهُ أَضَاعَ وَقَاسَى أَمْرَهُ وَهُوَ مَدْبَرُ
وَلَكِنْ أَخُو الْحِزْمِ الَّذِي لَيْسَ نَازِلاً بِهِ الْأَمْرُ إِلَّا وَهُوَ لِلْقَصْدِ مُبْصَرُ
فَذَاكَ قَرِيعَ الدَّهْرِ مَا عَاشَ حَوْلَهُ إِذَا سَرَّ مِنْهُ مَنْخَرٌ جَاشَ مَنْخَرُ

ويقال: إذا اتسع لك المنهج، فاحذر أن يضيق عليك المخرج. وقال الشاعر: [الكامل]

وإذا هَمَمْتُ ورود أمرٍ فالتَمِسْ مِنْ قَبْلِ مَوْرَدِهِ طَرِيقَ الْمَخْرَجِ
آخر^(١): [الطويل]

وإيَّاكَ والأمر الذي إنْ توسَّعتْ موارده ضاقت عليك المصادِرُ
فما حسن أن يعذر المرء نفسه وليس له مِنْ سائر الناس عاذرُ

ويقال: تفكر قبل أن تعزم، وتدبر قبل أن تهجم؛ فإنه مَنْ لم ينظر في العواقب فقد تعرَّض لحادثات التوائب. ووجد على حجرٍ يَعْدُن أبين مكتوب: أيُّها المحارب احذر تَغْنَم، وتفكر في العواقب تَسْلَم. ويقال: الناس حازمان وعاجز، فأحزم الحازمين من عَرَف بالأمر قبل وقوعه فاختَرَس منه، والحازم بعده مَنْ إذا نزل الأمر تلقاه لبالرأي والحيلة حتى يخرج منه، والعاجز مَنْ تردَّد بين وبين لا ياتمر رشداً ولا يطيع مرشداً حتى تفوته النجاة. ويقال: ترك التقدُّم أحسن من التندُّم. وأوصى عبد الملك بن صالح أميراً قدَّمه على سرية أرسلها إلى قتال عدو له، فقال: كُنْ كالتاجر الكيس إنْ وجد ربحاً تجر، وإلَّا حفظ رأس ماله، ولا تطلب الغنيمة حتى تحمد السلامة، وكُنْ في احتيالك على عدوك أشدَّ حذراً من احتيال عدوك عليك. وقالوا: ما تنفق فيه الأموال والحيل خير مما تنفق فيه الأرواح والنفوس. وأوصت أم الدبال العبيسة ولدها الفتاك - وكان مِنْ أشدَّ العرب - فقالت: يا بني لا تشب في حرب وإنْ وثقت بشدتك حتى تعرف وجه المهرب، فإنَّ النفس أقوى ما تكون إذا وجدت سبيل النجاة مُدْبِرة لها، واختلِس مَنْ تحاربه خلسة الذئب، وطِرْ منه طيران الغراب، فإنَّ الحذر زمام الشجاعة، والتهوُّر عدوَّ الشدة. وقال أبو السرايا - وكان أحد الفتاك -: يا بني كُنْ بحيلتك أوثق منك بشدتك، وبحدرك أوثق منك بشجاعتك؛ فإنَّ الحرب ورطة المتهوِّر، وغنيمة المتفكر. ويقال: لا تصلح الحزامة إلَّا لمن كان له سبع خصال من طبائع البهائم: قلب الأسد، وغارة الذئب، وصبر التسر، وحذر الغراب، وحراسة الكركي، وهداية الحمام، وحماية الزنبور.

(١) البيتان لمضر بن ربيعة الأسدي في ديوانه، وهما بيتان منفردان.

ومما يجب مع التفكير على المحارب مشاورة النُصحاء مِنْ أُولي التجارب

قد كُنَّا قَدَّمْنَا فِي صدر الكتاب ما يجب على العاقل مِنْ مشورة نصحاءه في سائر أنحائه، وأنا ذاكر في هذا الباب ما يجب على الحازم مِنْ مشورة أودائه في كيفية لقاء أعدائه، فَإِنَّهُمْ قالوا: ينبغي لكل ذي لب أن لا يُئْرَمَ أَمْرًا، ولا يمضي عزمًا إِلَّا بمشورة ذي الرأْيِ الناصح، ومطالعة ذي العقل الرَّاجح. وقالوا: الحازم إذا اشتبهت عليه مصادر الأمور جمع مِنْ أهل التجارب وجوه الرأْيِ حتى يخلص له منها الصواب؛ كالعاقل إذا ضَلَّتْ له لؤلؤة، فإنه إذا جمع ما حول مسقطها والتمسها يوشك أن يَجِدْهَا. وقالوا: مِنْ حقِّ العاقل أن يضيف إلى رأيه آراء العلماء، ويجمع إلى عقله عقول الحكماء. وقال بشار بن بُرد: المشاور بين إحدى الحسينين: إمَّا صواب، فيفوز بثمرته، أو خطأ يشارك في مكروهه. وقالوا: الرأْيِ السَّديد خيرٌ مِنَ الأسد السَّديد. وكان يقال: المشورة سلم النجاح وطليلة الفلاح. وقالوا: الرأْيِ في الحرب أنفع من الطَّعن والضَّرب. وقال بعض الأعراب: ما عثرت قطَّ حتى عثر قومي، قيل له: وكيف؟ قال: لا أفعل شيئًا حتى أثاروهم. وقالوا: حقيقٌ أن يُوكَل إلى نفسه مَنْ أعجب برأيه. ولقد أحسن أبو الطيب أحمد بن الحسين المتنبّي في التحريض على مشاورة الإخوان عند مساواة الأقران، بقوله^(١):

[الكامل]

الرأْيِ قبل شجاعة الشَّجعان هو أول وهي المحل الثَّاني
إذا هما اجتمعا لنفس حرّة بلغت مِنَ العُلْياء كلّ مكانٍ
فلربما طعن الفتى أقرانه بالرأْيِ قبل تطاعن الأقران
ولبعضهم^(٢): [البسيط]

الرأْيِ كالسيف يَنْبُو إنْ ضربت به في غَمده وإذا جرّده قطعاً

(١) الأبيات في ديوان المتنبّي، والبيت الأول مطلع القصيدة.

(٢) البيت لمروان بن أبي حفصة في التشبيهات، لابن أبي عون، ص ٥٧٠؛ والتمثيل والمحاضرة، للشعالبي، ص ٣٩٣؛ ومعجم الشعراء، للمرزباني، في ترجمته.

آخر^(١): [الطويل]

أشاور أهل الرأي فيما يُثوبني وإن كان لي رأي أحد صليبُ
ولا أدعي بالغيب علماً لسائل ولا أحسد المسؤول حين يُجيبُ

آخر: [البسيط]

إذا بد لك وجه الرأي فازم به نحو احترام تحاماه المقاديرُ
ولا تقل غرر أخشى عواقبه يوماً فكلّ نجاة القوم تغريرُ

وذكر الحصري في كتابه زهر الآداب وثمر الألباب: أن قوماً من العرب أتوا شيخاً لهم قد أربى على الثمانين وأهدف التسعين، فقالوا: إن عدونا استاق سرحنا، فأشز علينا بما ندرك به الثأر وننفي به العار؟ فقال: إن ضعف قوتي فسخ همّتي، ونقض إبرام عزمي، ولكن شاوروا الشجعان من ذوي العزم والجبّاء من أولي الحزم، فإنّ الجبان لا يألوا برأيه ما وقى مُهَجكم، والشجاع لا يألوا ما يشيد ذكركم؛ ثم اخلصوا من الرأيين نتيجة تبعده عنكم معزة الجبان وتهوّر الشجعان، فإذا نجم الرأي على هذا كان أنفذ على عدوكم من السهم الصائب، والحسام القاضب؛ فلهذه الكلمات لو يجدها الجبان جنة لوقته أو هادياً أرثه مواطن العواقب ووقفته.

وملاك التحيل في بلوغ الأمانى رفض العجلة واستعمال التواني

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: الآية ١١٤]. وقال رسول الله ﷺ: «مَنْ أُعْطِيَ حَظَّهُ مِنَ الرَّفَقِ أُعْطِيَ حَظَّهُ مِنَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَمَنْ حُرِمَ حَظَّهُ مِنَ الرَّفَقِ فَقَدْ حُرِمَ حَظَّهُ مِنَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ»^(٢). وقال عليه الصلاة والسلام لعائشة رضي الله عنها: «عليك بالرفق، فإنّ الرفق لا يُخالط شيئاً إلّا زانه، ولا يُفارق شيئاً إلّا شأنه»^(٣). وقال عمر رضي الله عنه: التؤدة في كل شيء إلّا ما كان من عمل الآخرة. وقال

(١) البيتان للخريمي في ديوانه، من قصيدة مطلعها:

أسرّ خليلي شاهداً وأبرزه وأحفظه بالغيب حين يغيبُ

(٢) أخرجه الترمذي في البرّ باب ٦٧، وأحمد في المسند ١٥٩/٦، ٤٥١.

(٣) أخرجه البخاري في الأدب باب ٣٨، والدعوات باب ٦٣، ومسلم في البرّ حديث ٧٩، وأحمد في المسند ١٩٩/٣.

الشاعر: [الكامل]

الرَّفَق يُمْن والأناة سعادةً ليس النجاح لمن يطيش ويخرقُ

آخر: [البسيط]

وفي الأناة إذا ما جدَّ صاحبها حزمٌ ويعقبها التفريط والخرقُ

وفي التوراة: الرَّفَق رأس الحكمة. وقالوا: فِعل اللَّيْب ثمرته السَّلامة. وُجد على سيفٍ مكتوب: التَّائِي فيما لا يخاف فيه الفوت أفضل من العجلة إلى إدراك الأمل. وقال بعض الحكماء: تَأَنّ تحزم، وإذا استوضحت فاعزم. وقالوا: يَدُ الرَّفَق تجني ثمر السَّلامة، ويد العجلة تغرس شجر التَّدامة.

أبو الفتح البستي^(١): [السريع]

تَأَنّ في الشَّيْء إذا رُمْتَه لتعرف الرّشد من الغيِّ
لا تتبع عن كل دخان ترى فالنار قد تُوقد للكي
وقس على الشَّيْء بأشكاله يدلك الشَّيْء على الشَّيْ

وقال بشر بن مروان لأهله: إذا التبت عليك الخطوب، وغاب عنك المورد، وأشكل عليك المصدر فيه؛ فالأناة الأناة، وليكن أمرك حزمًا، وإذا استبان لك فعزمًا. وقال محمد بن هانيء الأندلسي^(٢): [الطويل]

وكل أناة في المواطن سودد ولا كناة من قدير محكم
وما الرأي إلا بعد طول تثبّت ولا الحزم إلا بعد طول تلوم

القطامي^(٣): [البسيط]

قد يدرك المتأني نجاح حاجته وقد يكون مع المستعجل الرُّلُ

(١) الأبيات في ديوان أبي الفتح البستي، وهي ثلاثة أبيات منفردة.

(٢) البيتان في ديوان ابن هانيء الأندلسي، من قصيدة مطلعها:

أصاحت فقالت وقع أجرد شيطم وشامت فقالت لمع أبيض مخدم

(٣) البيت في ديوان القطامي، من قصيدة مطلعها:

إنا محيوك فاسلم أبها الطلل وإن بليت وطالت بك الطيل

آخر^(١): [البسيط]

وربما فات قومًا جلّ أمرهم من التأني وكان الحزم لو عجلوا
وقالوا: الأناة حصن السلامة، والعجلة مفتاح الندامة. وقالوا: إذا لم يدرك
الظفر بالأناة، فماذا يُدرك؟ وقال المهلب بن أبي صفرة، واسم أبي صفرة ظالم بن
سراق: أناة في عواقبها دَرْكٌ خَيْرٌ مِنْ عجلة في عواقبها فوت.

ومن أمثالهم: اتَّيذُ تُصِبْ أو تَكْد. وقولهم: مَنْ تَأَنَّى أدرك ما تَمَنَّى.
وقولهم: الرِّفْقُ مفتاح التَّجَاح. وقال بعض الحكماء: إِيَّاكَ والعجلة، فإنها تكنى أمّ
الندامة؛ لأنَّ صاحبها يقول قبل أن يَعْلَم، وَيُجِيب قبل أن يفهم، ويعزم قبل أن
يفكر، ويقطع قبل أن يَقْدِر، ويحمد قبل أن يجزّب، ويُدْزِم قبل أن يُخبر، ولن
تصحب هذه الصِّفة أحدًا إلَّا صحب الندامة، وجانب السلامة.

وهذه نبذة يسيرة في الصبر:

فَمِمَّا يُنْسَبُ لِعَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ^(٢): [البسيط]

إني رأيت وفي الأيام تجربة للصَّبر عاقبة محمودة الأثر
وقلَّ مَنْ جَدَّ في أمرٍ يحاوله واستصحب الصَّبر إلَّا فاز بالظَّفَرِ

آخر^(٣): [المنسرح]

ما أحسن الصَّبر في موطنه والصَّبر في كلِّ موطن حسنٌ
حَسْبُكَ مَنْ حُسِّنَ عواقبه عواقب الصبر ما لها ثمنٌ

آخر^(٤): [مخلع البسيط]

الصَّبر مفتاح ما يُرْجَى وكلُّ صعبٍ به يكونُ
فاصبروا وإن طالَّت اللَّيالي فرُبَّما أمكن الحُزُونُ
وربما نِيلَ باصطبار ما قيل هيهات لا يكونُ

(١) البيت للقطامي في ديوانه من القصيدة نفسها المتقدمة في الحاشية السابقة.

(٢) البيتان في ديوان علي بن أبي طالب، من قصيدة مطلعها:

اصبر على مضض الإدلاج في السحر وفي الرواح إلى الحاجات والبكر

(٣) البيتان بلا نسبة في التمثيل والمحاضرة، للثعالبي، ص ٥٥٧.

(٤) الأبيات لعلِّي بن أبي طالب في ديوانه، وهي ثلاثة أبيات منفردة.

ويقال: الصَّبْر مفتاح النَّصر. ويقال: النَّصر في مطاوي الصَّبْر. ويقال: مَنْ
تَصَبَّر تبَصَّر. وقال الصَّابي: حَظَّ الطالبين من الدَّزْك بحسب ما استصحبوه مِنْ
الصبر. وأنشدت لبعض الشعراء: [الطويل]

إذا كنت في أمرٍ ولم ترَ حيلة فصَبْرُكَ إنَّ النَّجْحَ يدرك بالصَّبْرِ
كذاك عُيون الماء تكدرُ مرَّة وتصفو مرارًا هكذا عادة الدَّهْرِ
ابن منقذ^(١): [الكامل]

لا تستكن للهمّ واثن حمامه بعزيمةٍ في الخطب لا تتضعضُ
فإذا أتى ما ليس يدفع فألَّقه بالصَّبْر فهو دواء ما لا يُدفعُ
ومن أحسن ما قيل فيه^(٢): [الطويل]

أما والذي لا خلد إلا لوجهه ومن ليس في العزِّ المَنِيع له كفوُ
لئن كان بدء الصَّبْر مُرًّا مذاقه لقد يجتنى من غبّه الثَّمَر الحلوُ
آخر: [البسيط]

اصبر على مضضِ الأدلاج في السَّحر وفي الرِّواح إلى الحاجات والبكرِ
لا تضجرن ولا يعجزك مطلبها فالنَّجْح يتلف بين الصَّبْر والضجرِ

(١) البيتان لأسماء الشيزري في ديوانه، وهما بيتان منفردان.

(٢) البيتان بلا نسبة في أمالي أبي علي القالي، ص ١٩٢.

الباب الثاني عشر

في الجبن

وفيه ثلاثة فصول:

الفصل الأول من هذا الباب

في أن خلّتي الجبن والفرار مما يشين بني الأحرار

الجبن غريزة كالشجاعة يضعها الله فيمن يشاء من خلقه. قال المتنبي^(١):

[الوافر]

يرى الجبناء أن الجبن حزم وتلك خديعة الطبع اللئيم

وحده بعض المتكلمين في حدود الأشياء، فقال: هو الضنّ بالحياة،
والجزص على النّجاة. وقالت الحكماء في الفراسة: مَنْ كانت فزعته في رأسه فذاك
الذي يفرّ من أبويه. وقالوا: الجبان يُعين على نفسه يفرّ من أمّه وأبيه وصاحبه
وأخيه وفصيلته التي تُؤويه. وقال الشاعر^(٢): [الطويل]

يفرّ الجبان من أبويه وأمّه ويحمي شجاع القوم من لا يناسبه

فمما اخترت من كلام ذوي الإقدام

فيما عيب به الفرار والإحجام

قالت عائشة رضي الله عنها: إنّ الله خلقاً قلوبهم كقلوب الطّير؛ كلّما خفقت
الريح خفقت معها، فأفّ للجبناء. وقال خالد بن الوليد عند موته: لقيت كذا وكذا
زحفاً وما في جسدي موضع إلّا وفيه ضربة بسيف أو طعنة برمح أو رمية بسهم،

(١) البيت في ديوان المتنبي، من قصيدة مطلعها:

إذا غامرت في شرف مرسوم فلا تقنع بما دون النجوم

(٢) البيت بلا نسبة في العقد الفريد، لابن عبد ربّه، ص ٢٢٢.

وها أنا ذا أموت حَتَفَ أنفي كما يموت البعير، فلا نامت أَعْيُنُ الجُبْنَاءِ. شاعر^(١):
[الخفيف]

إن موت الفراش عارٍ وذَلَّ وهو تحت السيوف فضلٌ شريفُ
السَّمَوَالِ^(٢): [الطويل]

وما مات منا سَيِّدٌ حَتَفَ أنفه ولا طَلَّ مِنَّا حيث كان قتيلُ
تَسِيلٍ على حَدِّ الطُّبَاءِ نفوسنا وليست على غير الطُّبَاءِ تَسِيلُ
آخر يفتخر: [الطويل]

محرمة إكفال خَيْلي على القنا ومكلومةٌ أغناقها ونُحُورُها
حرامٌ على أرماحنا طَغَنَ مُذْبِرٍ وتندقُ مِنَّا في الصدور صدورُها

ويقال: أسرع الناس إلى الفتنة أقلهم حياءً مِنَ الفرار. وقال دارا بن دارا
يحرّض جيشه على القتال: قتيلٌ صابر خيرٌ من ناجٍ فارٍّ، يا بني الأحرار صرتم إلى
الذلِّ والصُّغار، ما هذا الجبن والفرار، فلا صبر ولا اعتذار، تطردكم الأشرار كطرد
الليل والنهار، اثبتوا فإنَّ الأجل بمقدار. وقال هانيء الشيباني لقومه يوم ذي قار: يا
بَنِي بكر هالك مغدور خيرٌ مِنْ ناجٍ فرور، المنيّة ولا الدَّنيّة؛ يا بني بكر استقبال
الموت خيرٌ مِنْ استِدْبَارِهِ، الطَّعنُ في ثغور النحور أكرم منه في الأعجاز والظهور؛
يا بني بكر قاتلوا فما لنا من المنايا بدّ، الجبان مُبْغِضٌ حتى لأُمِّه، والشُّجاع
مُحَبَّبٌ حتى لعدوّه. ويقال: الجبن خير أخلاق النساء، وشرُّ أخلاق الرجال. وقال
يعلى بن منية لقومه حين فرّوا من عليّ يوم صفّين: إلى أين؟ قالوا: قد ذهب الناس،
فقال: أفّ لكم فرار واعتذار. ولَمَّا قُوتِلَ أبو الطيّب المتنبّي، ورأى الغلبة عليه فرّ،
فقال له غلامه: أترضى أن يحدث بها الفرار عنك؟ وأنت القائل^(٣): [البسيط]

والخيل والليل والبيداء تعرفني والطَّعن والضُّرب والقرطاس والقلمُ

(١) البيت لبكر بن عبد العزيز في محاضرات الأدباء، للراغب الأصبهاني.

(٢) البيتان في ديوان السموأل بن عادياء، من قصيدة مطلعها:

فكل رداء يرتديه جميلُ

إذا المرء لم يندس من اللؤم عرضه

(٣) البيت في ديوان المتنبّي، من قصيدة مطلعها:

ومن بجسمي وحالي عنده سقمُ

واحزّ قلباه ممن قلبه شبمُ

فَكَرَّ رَاجِعًا فَمَاتَ حَتَّى قُتِلَ، وَاسْتَقْبَحَ أَنْ يُعَيَّرَ بِالْفِرَارِ، وَذَلِكَ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ سَنَةِ أَرْبَعٍ وَخَمْسِينَ وَثَلَاثِمِائَةٍ، وَكَانَ مَوْلَدُهُ بِالْكُوفَةِ سَنَةِ ثَلَاثٍ وَثَلَاثِمِائَةٍ. وَقَالَ الْمَنْصُورُ لِبَعْضِ الْخَوَارِجِ عَلَيْهِ وَقَدْ ظَفَرَ بِهِ وَأَحْضَرَ إِلَيْهِ أَسِيرًا: أَخْبِرْنِي عَنْ أَصْحَابِي أَيُّهُمْ كَانَ أَشَدَّ إِقْدَامًا فِي مَبَارَزَتِكَ؟ فَقَالَ: لَا أَعْرِفُ وَجُوهَهُمْ مُقْبِلِينَ، وَإِنَّمَا أَعْرِفُ أَقْفِيَّتَهُمْ مُذْبِرِينَ، فَقُلْ لَهُمْ يُذْبِرُونَ لِأَعْرَفِكَ أَيُّهُمْ كَانَ أَشَدَّ فِرَارًا؛ نَظِمَ هَذَا الْقَوْلَ عَلَيَّ بَنُ الْعَبَّاسِ بْنِ جَرِيحٍ الْمَعْرُوفُ بِابْنِ الرُّومِيِّ فِي قَوْلِهِ يَهْجُو سَلِيمَانَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ طَاهِرٍ، وَقَدْ هُزِمَ^(١): [المنسرح]

قَرْنَ سَلِيمَانَ قَدْ أَضْرَبَهُ شَوْقٌ إِلَى وَجْهِهِ سَيُثْلَفُهُ
أَغْرَضَ عَنْ قَرْنِهِ وَصَدَّ فَمَا أَصْبَحَ شَيْءٌ عَلَيْهِ يَعْطِفُهُ
كَمْ يَعِدُ الْقَرْنَ بِاللِّقَاءِ وَكَمْ يَكْذِبُ فِي وَعْدِهِ وَيَخْلِفُهُ
لَا يَعْرِفُ الْقَرْنَ وَجْهَهُ وَيَرَى قَفَاهُ مِنْ فَرَسِيخٍ فَيَعْرِفُهُ

وَلَهُ مِنْ أُبْيَاتٍ^(٢): [السريع]

كَأَنَّ بَغْدَادَ لَدُنْ أَبْصَرَتْ طَلَعَتْهُ نَائِحَةٌ تَلْتَدِمُ
مُسْتَقْبِلَ مِنْهُ وَمُسْتَدْبِرَ وَجْهَهُ بِخَيْلٍ وَقَفَا مُنْهَزِمُ

وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزَّبِيرِ لِعَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ يَعْزِضُ بِهِ: مَتَى فَقُتِلَ عَيْنُكَ؟ قَالَ: يَوْمَ طُعِنْتُ فِي إِسْتِكَ وَأَنْتَ مُوَلٌّ - يَعْنِي يَوْمَ الْجَمَلِ - وَقِيلَ: بَلْ قَالَ لَهُ: يَوْمَ قُتِلَ أَبُوكَ وَهَرَبْتَ خَالَتِكَ - يَعْنِي عَائِشَةَ - وَأَنَا لِلْحَقِّ نَاصِرٌ وَأَنْتَ لَهُ خَاذِلٌ.

وَقَالَ شَاعِرٌ يَذْكُرُ فَارًّا^(٣): [السريع]

شَرَّدَهُ الْخَوْفُ فَأَزْرَى بِهِ كَذَاكَ مَنْ يَكْرَهُ حَرَ الْجَلَادِ
مُنْخَرِقَ الْخُفَيْنِ يَشْكُو الْوَحَى لَمْ تَبْكِهِ أَطْرَافُ مَرَوْ حَدَادِ
قَدْ كَانَ فِي الْمَوْتِ لَهُ رَاحَةٌ وَالْمَوْتُ حَقًّا فِي رِقَابِ الْعِبَادِ

(١) الأبيات في ديوان ابن الرومي، والبيت الأول مطلع القصيدة. وفي الديوان: «سيدنفه»، بدل: «سيتلفه».

(٢) البيتان في ديوان ابن الرومي، من قصيدة مطلعها:

جاء سليمان بن طاهر فاجتاح معتز بن معتنصم

(٣) الأبيات بلا نسبة في الروض المعطار، لابن عبد المنعم الحميري، في مادة (الكناسة).

نتف من احتجاج الفرسان عند ملاقاته الأقران

في أنّ دروع الحذر تخرقها سهام القدر

قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ أَلَمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلْفِيكُمْ﴾ [الجمعة: الآية ٨]. وقال علي رضي الله عنه: إذا حلت المقادير حلت التقادير. وقال هانيء بن مسعود الشيباني: إن الحذر لا يُنجي من القدر، وإن الصبر من أسباب الظفر. والمثل المضروب: إن الجبان حتفه من فوقه. وقالوا: السلامة في الإقدام، والحمام في الإحجام؛ وأنشد في الحماسة لقطري بن الفجاءة^(١): [الكامل]

لا تَزْكُنْ أَبَدًا إِلَى الإحجامِ يوم الوغى متخوفًا لحمام
فلقد أراني للرماح دريئة من عن يمين تارة وأمامي
حتى خضبت بما تحذر من دمي أكتاف سرجي أو عنان لجامي
ثم انصرفت وقد أصبت ولم أصب خدع القريحة قارح الإقدام

وقال أبو بكر الصديق لخالد بن الوليد رضي الله عنهما حين أخرجه لقتال أهل الردّة: احرص على الموت تُوهب لك الحياة. وقالوا: إذا انقضت المدة لم تنفع العدة. وقال علي رضي الله عنه: إنّ الموت طالب حثيث لا يعجزه المقيم ولا يفوته الهارب، إن لم تقتلوا تَمُوتُوا، ألا وإنّ أشرف الموت القتل. وقال عبد الله بن رواحة رضي الله عنه^(٢): [الرجز]

يا نفس إن لم تموتي إن تسلمي اليوم فلن تفوتي
أو تبتلي فطالما عُوفيتي

وقيل لبعضهم: لو احترست؟ فقال: كفى بالأجل حارسًا. وقالوا: الشجاع موثق والجبان مُلقى، وذلك أن المقتول مدبرًا أكثر من المقتول مُقبلاً.

وأنشد لبعض الشجعان^(٣): [الطويل]

تأخّرت أستبقي الحياة فلم أجد لنفسي حياةً مثل أن أتقدّمًا

(١) الأبيات في ديوان قطري بن الفجاءة، والبيت الأول مطلع القصيدة.

(٢) الرجز في ديوان عبد الله بن رواحة، من أرجوزة مطلعها:

ما أنت إلا إصبع دميت

(٣) البيت لشبيب بن البرصاء في ديوانه، من قصيدة مطلعها:

آخر^(١): [الوافر]

أقول لها وقد ذهبت شجاعاً لدى الأبطال أنك لن تراعي
فإنك لو سألت بقاء يوم على الأجل الذي لك لن تطاعي
فصبراً في مجال الحرب صبراً فما نيل الخلود بمُستطاع

وهرب رجل من الطاعون إلى النجف، وكان بالكوفة، فكتب إليه شريح القاضي: أما بعد، فإنّ الفرار لن يبعد أجلاً ولن يُكثر رزقاً، وإنّ المقام لن يقرب أجلاً ولن يقلل رزقاً، وإنك والمكان الذي أنت فيه لا يعيبان من لا يعجزه هرب ولا يفوته طلب، وإن المكان الذي خلفته لا يعجل أحداً إلى حمامه، ولا يظلمه شيئاً من أيامه، وإن النجف من ذي قدرة لقريب، وهذا الطاعون هو الجارف وكان في شوال سنة تسع وستين هلك فيه في مدة ثلاثة أيام مائتا ألف وعشرة آلاف. ومات فيه لأنس بن مالك ثلاثة وثمانون ولذا، ولعبد الرحمن بن أبي بكر الصديق أربعون ولذا، وأنشد بعض الشعراء يذكر فاراً أصيب^(٢): [المنسرح]

أبعدت في يومك الفرار فما جاوزت حتى انتهى بك القدر
لو كان ينجي من الردى حذر نجاك مما أصابك الحذر
آخر^(٣): [الكامل]

فإذا خشيت من الأمور مُقدّراً وفررت منه فنحوه تتوجّه
ولما وقع الطاعون بالكوفة فرّ عبد الرحمن بن أبي ليلى على حمارٍ له يطلب
التجاة، فسمع مُشّداً يقول^(٤): [الرجز]

لن يسبق الله على حمارٍ ولا على ذي منعة طيارٍ
أو يأتي الحثف على مقدارٍ قد يصبح الله أمام الساري

= دعائي حصن للفرار فساءني مواطن أن يشني عليّ فاشتما
(١) الأبيات لقطري بن الفجاءة في ديوانه، والبيت الأول مطلع القصيدة، ورواية عجز البيت الأول في الديوان:

من الأبطال ويحك لن تراعي

(٢) البيت لابن كناسة في ديوانه، والبيت الأول مطلع القصيدة.

(٣) البيت لابن الرومي في التذكرة الحمدونية، لابن حمدان، وليس في ديوانه.

(٤) الرجز بلا نسبة في محاضرات الأدباء، للراغب الأصبهاني.

فَكَرَّ رَاجِعًا إِلَى الْكَوْفَةِ. وَمِنْ كَلَامِ الْحُكَمَاءِ: إِذَا كَانَ الْقَدَرُ حَقًّا فَالْحَرَصُ بَاطِلٌ، وَإِذَا كَانَ الْمَوْتُ بِكُلِّ أَحَدٍ نَازِلًا فَالطَّمَأْنِينَةُ إِلَى الدُّنْيَا حُمُقٌ. وَكَانَ مَعَاوِيَةُ بْنُ أَبِي سَفْيَانَ كَثِيرًا مَا يُنْشِدُ فِي حُرُوبِهِ^(١): [المتقارب]

أَكَانَ الْجَبَانَ يَرَى أَنَّهُ يُدَافِعُ عَنْهُ الْفِرَارُ الْأَجَلَ
فَقَدْ تَدْرَكَ الْحَادِثَاتِ الْجَبَانَ وَيَسْلُمُ مِنْهَا الشَّجَاعُ الْبَطْلَ
وَيَقَالُ لِمَنْ حَدَّثَ نَفْسَهُ بِالْبَقَاءِ وَلَمْ يُوْطِنْهَا عَلَى الْمَصَائِبِ، فَهُوَ عَاجِزُ الرَّأْيِ.
وَأَنْشَدَتْ لِأَبِي عَلِيٍّ بْنِ رَشِيقِ الْقَيَّرَوَانِيِّ^(٢): [مخلع البسيط]

الْأَسْرَ خَيْرٌ مِنَ الْفِرَارِ وَالْقَتْلُ خَيْرٌ مِنَ الْأَسَارِ
وَشَرٌّ مَا خَفَتَهُ حَيَاةٌ أَذَتْ إِلَى ذِلَّةٍ وَعَارٍ

ذَمٌّ مَنْ لَزِمَهُ الضَّعْفُ وَالْجَزَعُ وَاسْتَوْلَى عَلَيْهِ الْخَوْفُ وَالْفَزَعُ

قِيلَ لِبِشَارِ بْنِ بُزْدٍ: فَلَانَ يَزْعَمُ أَنَّهُ لَا يَبَالِي أَلْقَى وَاحِدًا أَوْ أَلْفًا، قَالَ: صَدَقَ؛ لِأَنَّهُ يَفِرُّ مِنَ الْوَاحِدِ كَمَا يَفِرُّ مِنَ الْأَلْفِ. وَقَالُوا: فَلَانٌ إِذَا ذُكِرَتْ السِّیُوفُ لِمَنْ رَأَسَهُ هَلْ ذَهَبَ، وَإِذَا ذُكِرَتْ الرِّمَاحُ حَبَسَ صَدْرُهُ هَلْ تُقِبَ؛ كَأَنَّهُ سَلَّمَ كِتَابَ الْجُبْنِ صَبِيًّا وَلَقِّنَ كِتَابَ الْفُشْلِ أَعْجَمِيًّا. وَقَالُوا: فَلَانٌ تَقَلَّصَتْ مِنَ الْفَزَعِ شَفَتَاهُ، وَاضْفَرَّتْ مِنَ الْهَلَعِ وَجَنَّتَاهُ. وَقَالُوا: فَلَانٌ إِذَا نَظَرَتْ إِلَيْهِ شَرًّا أَعْمِيَ عَلَيْهِ شَهْرًا.

وَمِنْ أَمْثَالِهِمْ: أَجَبَنَ كَمَنْ صَافِرٌ وَهُوَ طَائِرٌ يَتَعَلَّقُ بِرَجْلِهِ فِي الشَّجَرِ خَشْيَةً أَنْ يَنَامَ فَيَسْقُطَ، وَقِيلَ غَيْرَ ذَلِكَ: وَأَشْرَدَ مِنْ ظَلِيمٍ، وَهُوَ ذَكَرُ النَّعَامِ. وَيُنْشَدُ لِعَبْدِ الْقَيْسِ بْنِ خَفَافٍ يَهْجُو جَبَانًا^(٣): [الوافر]

وَهُمْ تَرَكَوكَ أَسْلَحَ مِنْ حُبَارَى رَأَتْ صَقْرًا وَأَشْرَدَ مِنْ ظَلِيمٍ
وَمِمَّا هُوَ كِنَايَةٌ عَنِ الْجَبَنِ قَوْلُهُمْ: فَلَانٌ مُشْفِقٌ عَلَى الْحَيَاةِ رَاغِبٌ فِي طَوْلِهَا.
وَذَمُّ بَعْضِهِمْ جَبَانًا، فَقَالَ: لَوْ سَمَّيْتُ لَهُ الْحَرْبَ لَعَافَ لَفْظُهَا قَبْلَ مَعْنَاهَا، وَاسْمُهَا

(١) البيتان بلا نسبة في شرح ديوان الحماسة، للمرزوقي، ص ٣٠٠.

(٢) البيتان في ديوان ابن رشيقي القيرواني، وهما بيتان منفردان.

(٣) البيت لأوس الهجيمي في ديوانه، من قصيدة مطلعها:

جَلَبْنَا الْخَيْلَ مِنْ جَنْبِي أَرِيكَ إِلَى أَجْلِي إِلَى ضَلَعِ الرَّجَامِ

وفي الديوان: «أشرد من نعام»، بدل: «أشرد من ظليم».

قبل مسماها. وذم آخر جبائنا، فقال^(١): [الطويل]

إذا صوّت العصفور طار فؤاده وليث حديد الناب عند الثرائدِ

وذم آخر جبائنا، فقال: فلان يزحف يوم الزحف إلى خلف، ويروعه الواحد وهو في ألف. وذم آخر جبائنا، فقال^(٢): [البسيط]

لو كنت في ألف ألف كلهم بطل مثل المُجفّف داود بن حمدانِ

وتحتكّ الريح تجري حيث تأمرها وفي يمينك سيف غير خوّانِ

لكنت أول فرار إلى عدنٍ إذا تجرّد سيف في خراسانِ

ذكر من لاقى في الحروب الحرب

فطوى بساط الأرض مُجدّاً في الهرب

أبو الطيّب المتنبّي يذكر مهزومين^(٣): [البسيط]

وضاقت الأرض حتى أنّ هاربهم إذا رأى غير شيء ظنّه رجلاً

وقالوا: فلان يفرّ من صرير الباب، وطنين ذباب، فلان ولّى منهزماً قد سدّ الله في وجهه كل طريق؛ فكأنّما خرّ من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق. وقال الحجاج يصف هزيمة: كالإبل الشوارد إلى أوطانها، التّوازع إلى أعطانها، لا يلوي الشيخ على بنيّه، ولا يسأل المرء عن أخيه. وقالوا: فلان أزهّد في الحرب من بني العنبر، وأدهش من مستطعم الماء على المنبر، فإما بنو العنبر فهم الذين يقول قائلهم من أبيات الحماسة^(٤): [البسيط]

لكنّ قومي وإن كانوا ذوي عددٍ ليسوا من الشّرّ في شيء وإنّ هانا

يُجزون من ظلم أهل الظلم مغفرة ومنّ إساءة أهل السوء إحسانا

وكانّ ربك لم يخلق بخشيته سواهم من جميع الناس إنسانا

(١) البيت بلا نسبة في ديوان المعاني، لأبي هلال العسكري، ص ٤٠٤؛ ولمالك بن حرثان في مثالب الوزيرين، لأبي حيان التوحّدي، ص ٣٩٠.

(٢) الأبيات بلا نسبة في التذكرة الحمدونية، ص ١٣٧٠.

(٣) البيت في ديوان المتنبّي، من قصيدة مطلعها:

حيّا وأيسر ما قاسيت ما قتلا والبيّن جارٍ على ضعفي وما عدلا

(٤) الأبيات لقريط بن أنيف في خزانة الأدب ٤٤١/٧، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ص ٣٠.

وأما مستطعم الماء فهو عبد الله بن خالد القسري، وسنذكر أمره في الفصل الآتي إن شاء الله. وأظرف شيء هُجِّي به جبان قول الطرمّاح بن بكر في بني تميم من أبيات^(١): [الطويل]

ولو أنْ بَزْغوثًا على ظهر قملةٍ رَأَتْهُ تَمِيمٌ يومَ حربٍ لَوَلَّتْ
ولو جمعت يومًا تميمَ جموعها على ذرةٍ معقولةٍ لاستقلتْ
ولآخر يهجو قومًا جبناء: [الطويل]

أسودٌ إذا ما كان يومَ وليمةٍ ولكنَّهم عندَ اللقاءِ ثعالِبُ
والمليح المتناهي في الملاحة والإبداع، والأخذ بمجامع القلوب من غير دفاع ولا نزاع، قول جرير في بني حنيفة^(٢): [البسيط]

أبناء نخلٍ وحيطانٍ ومزرعةٍ سُيوفهم خشبٌ فيها مَساحيها
قطع الثمار وسقي النخل عادتهم قدما وما جاوزت هذي مساعيها
لو قيل أين هوادي القوم ما عَلِمُوا قالوا لأعجازها هذي هواديها
أو قيل إنَّ حمام الموت آخذكم أو تُلْجَمُوا فرسًا قامت بواكيها
أبو تمام^(٣): [الطويل]

ولمّا رأى توفيل راياتك التي إذا ما استقامت لا يقاومها القلبُ
تولّى ولم يألُ القنا في اتّباعه كأنَّ الرّدى في قصده هائم صَبُ
غدا خائفًا يستنجد الكتب مُدْعنا عليك فلا رسل ثنتك ولا كتبُ
وما الأسد الضّرغام يومًا بتاركٍ فريسته إنَّ أنْ أو بصبص الكلبُ
قرّ ونار الكَرْب تلفح قلبه وما الرّوع إلّا أنْ يُخامرهُ الكربُ
مضى مُذْبِرًا شطر الدّبور ونفسه على نفسه مِنْ سوء ظنٍّ بها ألبُ
جفا الشرق حتى ظنَّ مَنْ كان جاهلاً يدين التّصارى أنْ قبلته الغربُ

(١) البيتان في ديوان الطرمّاح، من قصيدة مطلعها:

ألا إن سلمى عن هوانا تسلّت

(٢) الأبيات في ديوان جرير، من قصيدة مطلعها:

قد غلبتني رواة الناس كلّهم

(٣) الأبيات في ديوان أبي تمام، من قصيدة مطلعها:

لقد أخذت من دار ماوية الحقب

وبثت قوى ما بيننا وأدلت

إلا حنيفة تفسوا في مناحيها

أنحل المغاني لليلى أم هي تهب

الفصل الثاني من الباب الثاني عشر

في ذكر مَنْ جبن عند اللقاء خوف الموت ورجاء البقاء

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ [آل عمران: الآية ١٥٥]، هذه الآية نزلت فيمن فر من المسلمين يوم أحد، قال ابن إسحاق: خرج رسول الله ﷺ إلى أحد ومعه ألف، فانخزل منهم عبد الله بن أبي ابن سلول، وكان رأس المنافقين، ومعه ثلث الناس ورجع إلى المدينة، وبقي رسول الله ﷺ ومعه سبعمائة رجل، وخرجت قريش في ثلاثة آلاف ومعهم مائتا فارس، فلما التقى الجمعان وتراءى الفريقان، وحميت الحرب، واشتبى الطعن بالضرب، أبلى المسلمون في الكافرين بلاءً عظيمًا، وتوذي يومئذ: لا سيف إلا ذو الفقار ولا فتى إلا علي، وقُتل حمزة بن عبد المطلب عم النبي ﷺ قتله وحشي غلام جبير بن مطعم، وهو يظن أنه رسول الله ﷺ، وقُتل مصعب بن عمير وكان حامل راية رسول الله ﷺ قتله قتيبة بن قميصة، فرجع وهو ينادي: قتلت محمدًا، وصرخ صارخ: ألا إن محمدًا قُتل، والصارخ هو إبليس لعنه الله، أذب العقبة، فانجفل المسلمون وكثر الفشل فيهم وتفرق جمعهم عند الإرجاف بقتل مَنْ كان يحميهم، وهو رسول الله ﷺ، فأصاب العدو منهم نكاية حتى خلاص إلى رسول الله ﷺ، وقذفه المشركون بالحجارة فأصابت رباعيته وشجج جبينه وكلمت شفته ودخلت حلقتان من حلق المغفر في وجنته فانتزعهما أبو عبيدة بن الجراح بفيه قسقطت ثناياه، فسال الدّم على وجه رسول الله ﷺ فمسحه بيده، وقال: «كيف يفلح قوم خضبوا بالدم وجه نبيهم»^(١)، وكان الذي أصابه عتبة بن أبي وقاص، وانهزم المسلمون حتى انتهوا إلى المنقى دون الأعوص، وهم ظئون أن رسول الله ﷺ قُتل، فمرّ كعب بن مالك برسول الله ﷺ فرآه وعيناه تزهرا من تحت المغفر فعرفه، فرفع عقيرته يقول: أيها الناس أبشروا هذا رسول الله ﷺ، فرجعوا، فلما عرفوه تداعوا إليه وجعل بعضهم يبشر بعضًا، ثم نهض المسلمون وقد انشعب صدعهم ونعت بالسلامة بعد الكسر جمعهم، ونهض معهم رسول الله ﷺ إلى الشعب، فأدركهم أبي بن خلف فأخذ رسول الله ﷺ الحربة وطعنه بها في عنقه، فرجع إلى قومه وهو يقول: قتلني

(١) أخرجه ابن ماجه في الفتن باب ٢٣، وأحمد في المسند ١٧٩/٣، ٢٠٦.

محمّد، فمات بسرف وهم قافلون به إلى مكّة، وذبح عن النبي ﷺ طلحة بن عبيد الله ووقاه بيده فشلت أصبعه وجرح أربعاً وعشرين جراحة، وقال رسول الله ﷺ: «أوجب الحقّ طلحة»^(١).

وكان يوم أحد يوم السبت النصف من شوال سنة ثلاث من الهجرة، وفيها وُلِدَ الحسين بن عليّ. واستشهد فيه من المسلمين خمسة وستون رجلاً: أربعة من المهاجرين وما بقي فمن الأنصار، وقُتِلَ من المشركين اثنان وعشرون رجلاً. وذو الفقار كان لسليمان بن داود عليهما السلام أهدته له بلقيس مع ستة أسياف، ثم كان لمنية بن الحجاج فأخذه رسول الله ﷺ لما قُتِلَ يوم بدر.

وفرّ كسرى من ملاقة بهرام جور فاتبعه الجيش، وكان قد أعدّ معه فصوصاً من زجاج مختلفة الألوان والأصباغ ودنانير من صفر مغطاة بالذهب، فلما خاف أن يُدرك نشر تلك الدنانير والفصوص على الأرض فاشتغل الناس بجمعها، فنجا بنفسه.

ومن الجبناء حسان بن ثابت الأنصاري، ذكر ابن قتيبة في كتاب المعارف أنه لم يشهد مع رسول الله ﷺ مشهداً قطّ، قالت صفية بنت المطلب عمّة رسول الله ﷺ: كان معنا حسان في حصن فارع يوم الخندق مع النساء والصبيان، فمرّ بنا في الحصن رجل يهودي فجعل يطيف بالحصن، فقلت: يا حسان أنا والله لا آمن أن يدلّ علينا هذا اليهودي أصحابه، ورسول الله ﷺ قد شغل عنا، فانزل إليه واقتله؛ قال: يغفر الله لك ما أنا بصاحب شجاعة، قالت: فلما قال لي ذلك ولم أرَ عنه شيئاً اعتجرت ثم أخذت عموداً ونزلت إليه فضربتة بالعمود حتى قتلتها، ثم رجعت إلى الحصن، وقلت: يا حسان انزل إليه واسلبه، فإنه لم يمنعني من سلبه إلا أنّه رجل، فقال: ما لي بسلبه من حاجة؛ وكان حسان اقتدى في فعله بهذا الشاعر في قوله^(٢): [البسيط]

باتت تُشجّعني هندٌ وما عَلِمْتُ أنّ الشجاعة مقروءٌ بها العطبُ
لا والذي منع الأبصار رؤيته ما يشتهي الموت عندي من له أربُ

(١) في الحديث: «أوجب طلحة» من دون «الحق»، والحديث أخرجه الترمذي في الجهاد باب ١٧، والمناقب باب ١٧، وأحمد في المسند ١/١٦٥.

(٢) الأبيات لمحمد بن أبي حمزة في الحماسة المغربية، للجراري، ص ٧١٩.

للحرب قومٌ أضلَّ الله سَعْيَهُمْ إذا دَعَتْهُمْ إلى نيرانها وثبوا
ولست منهم ولا أبغي فعالمهم لا القتل يعجبني منهم ولا السلبُ
وعاش حسان مائة وعشرين سنة، ستين في الجاهلية، وستين في الإسلام.
ولأحمد بن أبي فَنَن في هذا المعنى ممَّا نحاه من الاستطراد بالممدوح^(١):
[البيسط]

ما لي وما لك قد كلَّفْتَنِي شَطَطًا حمل السلاح وقول الدارعين قِفِ
أَمِنْ رجال المَنَيا خِلْتَنِي رَجُلًا أُمْسِي وأصبح مُشْتاقًا إلى التَلَفِ
أرى المَنَيا على غيري فأفَرِّقُها فكيف أُمشي إليها بارز الكتفِ
أَخِلْتُ أَنْ سواد اللَّيل غيَرَنِي وَأَنْ قَلْبِي في جَنْبِي أُمْسِي دَلْفِ

أخذ قوله: فكيف أُمشي إليها بارز الكتف، مِنْ قول بعض الأعراب وقد قيل
له: اخرج إلى الغزو، فقال: والله أنا أكره الموت على فراشي، فكيف أُمشي إليه
ركضًا. ولمَّا دخل هذا الشاعر على المعتز، قال له: أنت الشاعر الآدم؟ فقال: يا
أمير المؤمنين لا يضره سواده مع بيض أياديكم عنده. والفرار السلمي، واسمه
حنان بن الحكم بن مالك فرَّ من بني عوف فَعُرفَ في الجاهلية بالفرار، وهو القائل
في فراره^(٢): [الكامل]

وكتيبة لبستها بكتيبة حتى إذا لبست نفضت لها يدي
فتركتهم تقصَّ الرِّماح ظهورهم مِنْ بين منعفَرٍ وآخر مُسْنَدِي
ما كان ينفعني مقال نسائهم وقتلت بين رجالهم لا تبعِدِ

وفرَّ عامر بن الطُّفيل يوم الرِّقَم، وهو يوم كان لبني ذبيان وأحلافهم على بني
عامر. وفرَّ عامر بن زُرارة بن عدي الدارمي يوم اليسار، وكان على بني تميم. وفرَّ
عمرو بن معديكرب بن عباس بن مرداس وأسرت أخته ريحانة. وفرَّ عتبة بن أبي
سفيان، وفرَّ عمرو بن العاص من عليّ يوم صفين، فاتبعه عليّ، فلما خاف عمرو
أن يُذكره كشف عن سوءته فرجع عنه. وفرَّ عبد الله بن مطيع بن الأسود يوم الحرّة
مِنْ جيش مسلم بن عقبة المُرِّي العامري، وهو القائل في قتاله لأهل الشام مع

(١) الأبيات لأحمد بن أبي فنن في ديوانه، من أربعة أبيات منفردة، وانظر أيضًا ديوان المعكوك.

(٢) الأبيات للفرار السلمي في الحماسة البصرية، للبصري، ص ٧١.

عبد الله بن الزبير^(١): [الرجز]

أنا الذي فَرَزْتُ يومَ الحرِّه والْحُرَّ لا يَفِرُّ إلَّا مَرَّه
فاليوم أَجْزَى فِرَّة بَكَرَه لا بأس بالكِرَّة بعد الفِرَّه

وفَزَ أسلم بن رُزعة يوم الأهواز مِنْ أَبِي بلال مرداس بن أدية الخارجي، وكان أسلم في ألفي رجل، وكان أبو بلال في أربعين، فكان أول أمير انهزم في الإسلام وكان إذا ركب بالبصرة صاح به الصبيان في الطريق: أبو بلال خلفك. وفَزَ عبد الله بن عُمَيْر اللَّيْثِي مِنْ قتال النجدية في البحرين، وكان وجهه حمزة بن عبد الله بن الزبير، فكان عُمَيْرُ رَأْسِ الْمُحْتَسِبَةِ في الفتنة، وفيه يقول الفرزدق^(٢):
[الطويل]

تمَنَّيت عبد الله أصحاب نجدة فلَمَّا لقيت القوم وَلَّيْتُ سابقا
تمَنَّيتهم حتى إذا ما لقيتهم تركت لهم قبل الضراب السَّرادقا
فَأَعْطَيْت ما تُعْطَى الحليلة بعلها وكنت حُبَارَى إذا تلاقى البواشقا

فلم يزل مستحيًا مِنَ الركوب حتى فَرَّ أُمِيَّة بن عبد الله بن أسد بن خالد بن أُسَيْد من الخوارج يوم مرداهجر، فوجد به أسوة وظهر. وفَزَ عبد العزيز بن عبد الله بن خالد من الأزارقة، وكان معه امرأتان له إحداهما غريبة من بني لَيْث بن كِنانة، والأخرى أُم حفص بنت المنذر بن الجارود، فجعلت الكنانية تنادي: أين فُرسان الطَّعائن؟ فطعنها رجل من الخوارج فقتلها وسُبَّيت أُم حفص وأُقيمت جارية فيمن يزيد فبلغت مائة ألف درهم، فوثب عمرو بن حديد بن عبد القيس فقتلها أنفة لها، وذلك أَنَّها كانت مِنْ أَجْمَلِ النساء، فَأَتَى بها قطري، فقال له: ما حملك على ما فعلت؟ قال: رأيت كافرة حَقَّت على المسلمين فتنتها؛ فخلَّى سبيله، ثم إن قاتلها بعد ذلك أتى أخاها الحكم، قال له: جزاك الله خيرًا ما غسل عَنَّا العار غيرك، وأمر له بعشرة آلاف درهم.

وفي عبد العزيز يقول كعب الأشقر^(٣): [الكامل]

عبد العزيز فضحت جيشك كلَّهم وتركتهم صَرَعَى بكل سبيل

(١) الرجز في العقد الفريد لابن عبد ربّه، ص ٢٣٧.

(٢) الأبيات في ديوان الفرزدق، وهي ثلاثة أبيات منفردة.

(٣) الأبيات لعبيد الله بن قيس الرقيات في ديوانه، والبيت الأول مطلع القصيدة.

مِنْ بَيْنِ مُتَجَدِّلٍ يَجُودُ بِنَفْسِهِ وَملْحَبٍ بَيْنَ الرُّجَالِ قَتِيلِ
هَلَّا صَبِرْتَ مَعَ الشَّهِيدِ مَقَاتِلًا إِذْ رُخْتُ مِنْهَا هَارِبًا بِأَصِيلِ
سَائِلٌ بِعَرَسِكَ هَلْ تُقَادُ سَبِيَّةً تَشْكُو إِلَيْكَ بِعَبْرَةٍ وَعَوِيلِ

وفّر أخوه خالد بن عبد الله يوم الجفر بالبصرة، وذلك أن المروائتين اغتتموا غفلة مصعب بن الزبير عنهم بالكوفة وكانوا بالبصرة، فثار بهم خالد يدعو إلى عبد الملك بن مروان، فلما بلغ مُضْعَبًا الخبر أقبل من الكوفة إلى البصرة، ففر خالد منه إلى الشام.

وفيه وفي إخوته يقول الفرزدق^(١): [الطويل]

وَكَلَّ بَنِي السُّودَاءِ قَدَ فَرَّ فَرَّةً فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا فَرَّةً فِي إِسْتِ خَالِدِ
فَضَحْتُمْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْتُمْ تَمْدُونُ سُودَانًا غِلَازَ السُّوَاعِدِ

ومِنَ الْجُبْنَاءِ الْحَجَّاجُ بْنُ يَوْسُفَ الثَّقَفِيِّ، دَخَلَ شَيْبِ بْنِ زَيْدٍ الْخَارِجِي الْكُوفَةَ سَحَرًا وَمَعَهُ غَزَالَةٌ زَوْجَتُهُ وَسَتُونَ فَارِسًا وَالْحَجَّاجُ بِهَا فِي قَصْرِهِ مَخْتَفِيًا مِنْهُ، فَحَلَفَتْ غَزَالَةٌ عَلَى شَيْبِ لِيَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْجَامِعَ وَلِيَصْلِيَنَّ فِي مَقَامِ الْحَجَّاجِ، ففعل، ثم خرج منها؛ وفي ذلك يقول عمران بن حطان الخارجي يخاطب الحجاج^(٢):
[الكامل]

أَسَدٌ عَلَيَّ وَفِي الْحُرُوبِ نَعَامَةٌ فَتَخَاءُ تَجْفَلُ مِنْ صَفِيرِ الصَّافِرِ
هَلَّا بَرَزْتَ إِلَى غَزَالَةٍ فِي الْوَعَى بَلْ كَانَ قَلْبُكَ فِي جَنَاحِي طَائِرِ
صَدَعْتَ غَزَالَةَ قَلْبِهِ بِفُؤَارِسٍ تَرَكْتَ مَنَاظِرَهُ كَأَمْسِ الدَّابِرِ

وَمَتَنَ كَانَ يَحْضُرُ الْحُرُوبَ وَلَا يَقَاتِلُ: الْحَجَّاجُ وَأَبُو مُسْلِمٍ. ذَكَرَ الْجَاهِظُ عَمَّنْ حَدَّثَهُ أَنَّ الْحَجَّاجَ كَانَ إِذَا التَقَى الْجَمْعَانِ ذَهَبَ عَنْهُ التَّدْبِيرُ، فَلَا يَدْرِي مَا يَأْتِي وَمَا يَذَرُ، وَكَانَ أَبُو كَعْبٍ مَوْلَاهُ هُوَ الَّذِي يَدَبِّرُ الْجَيْشَ حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا. وَأَمَّا أَبُو مُسْلِمٍ، فَكَانَ يَنْصَبُ لَهُ عِنْدَ مَلَاقَاتِهِ لَعْدُوهُ عَرْشٌ، فَيَجْلِسُ عَلَيْهِ وَيَسَدُّ مِنْ

(١) البيتان ليسا في ديوان الفرزدق، ولم أجدهما في المصادر والمراجع التي بين يدي.

(٢) الأبيات في ديوان عمران بن حطان السدوسي، من أربعة أبيات، والبيت الرابع:

أَلْقِ السِّلَاحَ وَخُذْ وَشَاحِي مَعْصِرٍ وَاعْمِدْ لِمَنْزِلَةِ الْجَبَانِ الْكَافِرِ

آرائه سهامًا أهدافها الصدور والظهور ويُجَرَّد مِنْ أوامره أسيافًا أغمادها الجفون والنحور، وزياذ وابنه عبد الله وأحمد بن طولون.

وَمِنْ أَظْرَفَ مَا يُحْكِي أَنَّ الْبَحْتَرِي شَرِبَ مَعَ أَبِي هَفَانٍ عِنْدَ بَعْضِ الرُّؤَسَاءِ، فَلَمَّا خَرَجَا رَكِبَ الْبَحْتَرِيَّ بَغْلَتَهُ وَأَرْدَفَ أَبَا هَفَانٍ خَلْفَهُ، فَلَمَّا كَانَ بِيَعُضِ الطَّرِيقِ قَالَ أَبُو هَفَانٍ: أَبَا عِبَادَةَ مَنْ الَّذِي يَقُولُ^(١): [المتقارب]

وَيَلْبَسُ لِلْحَرْبِ أَثْوَابَهَا وَقَالَ أَنَا الشَّاعِرُ الْبَحْتَرِي
فَلَمَّا رَأَى الْخَيْلَ قَدْ أَقْبَلَتْ إِذَا هُوَ فِي سَرْجِهِ قَدْ خَرِي

فدفعه البحتري من خلفه، وقال: يَا مَاصَّ بَظَرِ أُمِّهِ تَتَنَادَرُ وَأَنْتَ فَهْدُ، وَالشَّعْرُ لِأَبِي هَفَانٍ ارْتِجَالًا قَالَهُ عَلَى سَبِيلِ الْمُدَاعَبَةِ، وَمِنْ هُنَا أَخَذَ الْمُتَنَبِّي قَوْلَهُ^(٢): [الخفيف]

وَإِذَا مَا خَلَا الْجَبَانَ بِأَرْضِ طَلَبَ الطَّعْنَ وَحَدَّهِ وَالنَّزَالَا

وَمِنْ نَوَادِرِ أَخْبَارِ الْجُبْنَاءِ فِي مَوَاطِنِ الْحُرُوبِ وَالْبَلَاءِ

حُكِّي أَنَّ عَمْرُو بْنَ مَعْدِيكَرِبَ مَرَّ بِحَيٍّ مِنْ أَحْيَاءِ الْعَرَبِ وَإِذَا هُوَ بِفَرَسٍ مَشْدُودٍ وَرَمَحَ مَرْكُوزًا، وَإِذَا صَاحِبُهُمَا فِي وَهْدَةٍ مِنَ الْأَرْضِ يَقْضِي حَاجَتَهُ، قَالَ لَهُ عَمْرُو: خُذْ حَذْرَكَ، فَإِنِّي قَاتِلُكَ لَا مَحَالَةَ؛ فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ وَقَالَ لَهُ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: أَبُو ثَوْرٍ عَمْرُو بْنُ مَعْدِيكَرِبَ، قَالَ: أَنَا أَبُو الْحَارِثِ، وَلَكِنْ مَا أَنْصَفْتَنِي أَنْتَ عَلَى ظَهْرِ فَرَسِكَ وَأَنَا فِي وَهْدَةٍ، فَأَعْطَنِي عَهْدَكَ أَنْ لَا تَقْتُلَنِي حَتَّى أُرْكَبَ فَرَسِي وَأَخْذَ حَذْرِي؛ فَأَعْطَاهُ عَهْدًا عَلَى ذَلِكَ، فَخَرَجَ مِنَ الْوَهْدَةِ الَّتِي كَانَ فِيهَا وَجَلَسَ مُحْتَبِيًا بِحِمَائِلِ سَيْفِهِ، فَقَالَ لَهُ عَمْرُو: مَا هَذَا الْجُلُوسُ؟ قَالَ: مَا أَنَا بِرَاكِبٍ فَرَسِي وَلَا مُقَاتِلُكَ، فَإِنْ كُنْتَ نَكِثْتَ الْعَهْدَ فَأَنْتَ أَعْلَمُ مَا يَلْقَى النَّاكِثُ، فَتَرَكَهُ وَمَضَى وَقَالَ: هَذَا أَجْبَنُ مَنْ رَأَيْتُ. وَقَالَ رَوْحُ بْنُ حَاتِمٍ لِأَبِي دُلَامَةَ: أَخْرَجَ مَعِيَ فِقَاتِلَ وَهْدَةِ عَشْرَةِ آلَافٍ دِرْهَمًا، فَقَالَ^(٣): [البسيط]

إِنِّي أَعُوذُ بِرُوحِ أَنْ يَقْرَبَنِي إِلَى الْحَمَامِ فَيَشْتَفِي بَنُو أَسَدٍ

(١) البيتان في ديوان أبي هفان المهزبي، وهما بيتان منفردان.

(٢) البيت في ديوان المتنبي، من قصيدة مطلعها:

ذِي الْمَعَالِي فَلْيَعْلَوْنَ مِنْ تَعَالَى هَكَذَا وَهَكَذَا وَإِلَّا فَلَا لَا

(٣) الأبيات في ديوان أبي دلامة، والبيت الأول مطلع القصيدة.

إنّ البراز إلى الأقران نعرفه مما يفرّق بين الزوج والجسد
قد خالفتك المَنايا إذ صمدت لها وأصبحت لجميع الناس بالرّصد
إذ المهلّب حبّ الموت أورثكم وما ورثت لحبّ الموت عن أحد
لو أنّ لي مُهْجَة أخرى لجذتُ بها لكنّها خلقت فردًا فلم أجد

وخرج مروان بن محمد لمحاربة الضحّاك الحروري، فلما التقى الجمعان خرج من أصحاب الضحّاك فارس، فدعا إلى البراز، فقال مروان: مَنْ يخرج إليه وله عشرة آلاف درهم؟ فقال أبو دُلّامة: أنا، وخرج طمعًا في الجائزة، فرأى رجلًا عظيم الهامة وعليه فرو قد أصابته السماء فابتلّ ولحقته الشمس فيبس حتى صار كالقَد لا يعمل فيه السيف، فلما رآه الفارس جرى إليه وهو يرتجز^(١): [الرجز]

وخارجٌ أخرجه حُبّ الطمغ فرمى الموت وفي الموت وقع
مَنْ كان يهوى أهله فلا رجع

فخافه أبو دُلّامة، فلوى جواده هربًا واتخذ من خوفه في الأرض نفقًا كما اتخذ الحوت لنجاته في البحر سرّيًا، فقال مروان: مَنْ هذا الفاضح لا أنجاه الله؟ فقال: أبو دُلّامة فرّ ولا أنجاه الله، خيرٌ مِنْ قتلٍ ورحمه الله؛ واسم أبي دُلّامة زند - بالنون - وقيل: زيد - بالباء الموحدة - واسم أمّه الجون.

وقال عمرو بن هُبَيْرَة لأعرابيّ جزع مِنْ الحرب: قاتِل وخذ الرّزق، قال: قدّم لي رزقي، قال: حتى تُقاتل، قال الأعرابي: أرى منيتي معجّلة، ومنيتي مؤجّلة. وقيل لمديني: ألا تغزو الأعداء؟ قال: أنا لا أعرفهم وهم لا يعرفوني، فكيف صرنا أعداء؟ وقيل: وقع في بعض العسكر هيج فوثب خراساني إلى فرسه ليلجمها ويفرّ عليها، فصير اللّجام في الدّنب، وقال يخاطب الفرس: هب جبهتك عرضت ناصيتك، كيف طالت؟ وفرّ أميّة بن عبد الله بن خالد بن أسيد مِنْ أبي فديك، فسار مِنْ البحرين إلى البصرة في ثلاثة أيام، فذكر عنده في بعض الأيام الخيل، فقال: سِرّت مِنْ المهرجان إلى البصرة في ثلاثة أيّام، فقال له ماجنٌ مِنْ جُلّسائه: ولو ركبت النيروز سرت إليها في يومٍ واحدٍ. واجتاز كسرى في بعض

(١) الرجز في الشعر والشعراء، لابن قتيبة، في ترجمة أبي دُلّامة زيد بن الجون، وخاص الخاص، للثعالبي، ص ٥٦.

حروبه بشيخ وقد عُرِّي فرسه ونُزِع سلاحه وهو مستظلّ بشجرة، فقال: يا مقتولاً بيدي أنا في كرب الحرب وأنت على هذه الحالة؟ فقال الشيخ: أيد الله الملك إنما بلغت هذا السنّ باستعمال هذا التوقي. وقال المهلب لحبيب بن عوف، وكان من جنده في قتال الخوارج: كَرَّ على القوم وخذ مائتين صحاحاً، فأوماً إلى رأسه وقال: أخاف أن يذهب رأس المال؛ وأنشد^(١): [الوافر]

يقول لي الأمير بغير نُضح تقدّم حين جدّ بنا المراسُ
فما لي أن أطغتك من حياة ومالي غير هذا الرأس رأسُ
ولبعض الشعراء: [الطويل]

ولو أنّ لي رأسين أذخر واحداً وألقى الأعادي بعد ذاك بواحدٍ
لأقدمتُ في الهَيْجاء إقدامَ باسلٍ ولم أكنْ هَيَّاباً لدفع الشدائدِ
ولكنّ لي رأساً إذا ما فقدته وفارقني يوماً فليس بعائدٍ
ومما يُنسب لأبي دلامة^(٢): [الطويل]

ألا لا تَلُمّني إن فررت وإتني أخاف على فخارتي أن تحطّما
وأيتّم أولاداً وأرقل نسوةً فكيف على هذا ترون التقدّما
ولو كان لي نفسان كُنت مُقاتلاً بإحداهما حتى تموت فأسلما
وحكى ابن حبيب في كتابه المحبر أنّ حبيباً دخل على المهلب بن أبي صفرة، فأشده^(٣): [الوافر]

فقدتك يا مهلب من أميرٍ أما تُدَيّ يمينك للفقيرِ
فقال المهلب: هو جنتي، فوالله إني لأبذل لكم مالي وأقيكم الحروب بنفسي، فقال حبيب: إنا نكره إقحامك بنا المنايا، فقال المهلب: أو ليس قد قال الأول^(٤): [الطويل]

إذا المرء لم يغش الكريهة أو شكت جبال المنايا بالفتى أن تُقطّعا

(١) البيتان للأعور الشني في ديوانه، وهما بيتان منفردان.

(٢) الأبيات في ديوان أبي دلامة، والبيت الأول مطلع القصيدة.

(٣) البيت لأبي حرملة العبدي في الكامل في اللغة، للمبرد، ص ١٧٢٣.

(٤) البيت للأسود بن يعفر في ديوانه، من قصيدة مطلعها:

فأدرك إبقاء العرادة ظلّها وقد جعلتني من حزيمة أصبعا

فقال حبيب: خَفَضَ العَيْشَ والدَّعَةَ والاعتياضَ عن الضَّيِّقِ بالسَّعَةِ؛ ثم أنشده ما قاله حين فرَّ من أبي قُديك يوم مرداهجر^(١): [الطويل]

بذلت لكم يا قوم حَوْلِي وقَوْتِي ونُضْحِي وما حازت يَدَايَ مِنَ التَّبرِ
فلَمَّا تنَاهَى الأمرُ بي وعدَّوكم إلى مُهْجَتِي وَلَيْتَ أعداءكم ظَهري
وطَرْتُ ولم أحفل ملامةً عاجِزٍ يُقيم لأطراف الرُّدِينِيَةِ السُّمْرِ
ولو كان لي رأسان أهملتُ واحدًا لكل رديي وأبيض ذي أثرٍ

فضحك منه، ثم التفت إلى مَنْ حضر مجلسه وقال: بمثل هذا فليقاتل الأعداء. وقيل لإنسان: إذا رأيت سوادًا بالليل فأقدم ولا تفرق منه، فإنه يخافك كما تخافه؛ قال: أخاف أن يكون ذلك السواد سمع هذه المقالة قبلي. وقيل لمطرف بن عبد الله: لا تخرج تقاتل مع علي رضي الله عنه، قال: لو كان لي نفسان قدّمت إحداهما، فإن أصابت الحق أثبعتها الأخرى، ولكنها واحدة. ودخل حميد بن الأرقط على الحجاج فأنشده قصيدة شاعر مُختارة في صفة الحروب، قال الحجاج: أراك تُحسن صفة الحرب، أقاتلت الأبطال، وقابلت الأقيال؟ قال: لا أيها الأمير إلا في النوم، قال: وكيف كانت وقعتك؟ قال: انتبهت وأنا مُنهزم؛ فضحك منه ووصله.

صفات من بدّل ثباته بالإحجام وقيد بالفرق قدمه عند الإقدام

قال الله تعالى: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعُدُوّ﴾ [المنافقون: الآية ٤]، وقال عليه الصّلاة والسّلام: «نصرت بالرُّعب مسيرة شهر»^(٢). وقالوا: فلان من خوفه يحسب كل صيحة عليه وكل يد تُشير بالأخذ إليه. شاعر^(٣): [الكامل]

ما زلت أحسب كل خيلٍ بعدها خيلًا تكرّ عليهم ورجالا

(١) الأبيات في العقد الفريد، لابن عبد ربه، ص ٢٣٩.

(٢) أخرجه البخاري في الصلاة باب ٥٦، والجهاد باب ١٢٢، والتعبير باب ١١، ٢٢، والاعتصام باب ١، ومسلم في المساجد حديث ٣، ٥ - ٧، ٨.

(٣) البيت لجريز في ديوانه، من قصيدة مطلعها:

حيّ الغداة برامة الأطلالا رسمًا تحمّل أهله فأحالا

ورواية البيت في الديوان:

ما زلت تحسب كل شيءٍ بعدهم خيلًا تشدّ عليكم ورجالا

آخر^(١): [الطويل]

كأن بلاد الله وهي عريضة على الخائف المطلوب كفة حایل

المتنبّي^(٢): [البسيط]

وضاقت الأرض حتى صار هاربهم إذا رأى غير شيء ظنه رجلا

آخر^(٣): [الطويل]

كأن بلاد الله في ضيق خاتم عليهم فلا تزداد طولاً ولا عرضاً

وقالوا: فلان تقلصت من الخوف شفتاه، واصفرّت من الهلع وجتته.

ومن أمثالهم: أجبن من المنزوف ضرطاً؛ وذلك أن رجلاً كان يتعشق نساء، وكان يدعي عندهن الشجاعة، فنام عندهن يوماً فأرذن امتحانه، فصحن به: جاءتك الخيل، فانتبه مذعوراً وما زال يضرب حتى مات. قال أبو عبيدة: كان خالد بن عبد الله القسري من أجبن الناس وأخوفهم، فخرج عليه المغيرة بن سعيد، فأخبر بذلك وهو على المنبر بالكوفة، فدهش من شدة الخوف، واصطكت أسنانه وجفت لهاته، فقال: أطعموني ماءً وأدركوني، فقد هلكت عطشاً، ونزل عن المنبر هارباً؛ وفيه يقول يحيى بن نوفل^(٤): [البسيط]

بلّ السراويل من خوفٍ ومن وهلٍ

واستطعم الماء لما جدّ في الهربِ

(١) البيت للطرمّاح في ديوانه من بيتين، هذا أولهما، والثاني:

يؤدي إليه أن كل ثنية يتمها ترمي إليه بقاتلي

(٢) البيت في ديوان المتنبّي، من قصيدة مطلعها:

حيا وأيسر ما قاسيت ما قتلا والبيت جار على ضعفي وما عدلا

(٣) البيت لمجنون ليلي في ديوانه، من قصيدة مطلعها:

ألا أيها الشيخ الذي ما بنا يرضى شقيت ولا أدركت من عيشك الخفضا

ورواية البيت في الديوان:

كان فجاج الأرض في حلقة خاتم عليّ ولا تزداد طولاً ولا عرضاً

(٤) البيت في ديوان يحيى بن نوفل، من بيتين. وثانيهما:

والحن الناس كل الناس قاطبة وكان يولع بالتشديف في الخطبِ

ودخل الحجاف بن حكيم على عبد الملك بن مروان والأخطل عنده، فلما بَصُرَ به الأخطل قال يعرّض به^(١): [الطويل]

ألا بلغ الحجاف هل هو ثائرٌ بقتلى أصيبت من سليم وعامر
فقال الحجاف^(٢): [الطويل]

بلى سوف تُبكيهم بكل مهتدٍ ونبكي عميراً بالرماح الشواجر
ثم قال: يا ابن النصرانية ما ظننتك تجترى عليّ بمثل هذا، ولو كنت
مأسوراً لك؛ فحتم الأخطل خوفاً منه وجزعاً، فقال له عبد الملك: أنا جارك
منه، فقال: يا أمير المؤمنين هبك أجرتني منه في اليقظة، فمن يُجيرني منه في
النوم؟ أخذ هذا المعنى أشجع السلمي فقال من قصيدة يمدح بها الرشيد^(٣):
[الكامل]

وعلى عدوك يا ابن عمّ محمد ضدان ضوء الصبح والإظلام
فإذا تنبّه رَعَثَه وإذا غفا سَلَتْ عليه سيوفك الأحلام

وقالوا: فلان تخوّفه أضغاث أحلام، فكيف مسموع كلام؟ فلان يرى صوت
الرياح قعقة الرماح، فلان إذا خاف طار من خوفه كل مطار، وفرّ فرار الليل من
وضّح النهار.

الفصل الثالث من الباب الثاني عشر

فيمن ليم على الفرار والإحجام فاعتذر بما ينفي عنه الملام

سَمِعَ سليمان بن عبد الملك قارئاً يقرأ: ﴿قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ
الْمَوْتِ أَوْ الْقَتْلِ وَإِذَا لَا تُمْنعُونَ إِلَّا قَلِيلاً﴾ [الأحزاب: الآية ١٦]، فقال: ذلك
القليل تُريد. وقال الوليد بن عُقبة لعثمان بن عفان: يقول لك عبد الرحمن بن

(١) البيت في ديوان الأخطل، وهو مطلع القصيدة.

(٢) الخبر والشعر في بدائع البداهة، لابن ظافر الأزدي، ص ٢٨؛ ونضرة الإغريض في نصرة القريض، للمظفر العلوي، ص ٤٢١.

(٣) البيتان في ديوان أشجع السلمي، من قصيدة مطلعها:
قصرٌ عليه تحية وسلامٌ نثرت عليه جمالها الأيام

عوف: لِمَ جفوتني ولم أفرّ يوم أحد، ولم أتخلف يوم بدر؟ - يعرض به - فقال: أما فراري يوم أحد فلا تعيرني به، فإن الله قد عفا عني فيمن عفا عنه، وأما تخلفي يوم بدر، فإني كنت أمرّض رقية بنت رسول الله ﷺ حتى ماتت، فأخبره عني بذلك. ونظرت امرأة حماس بن قيس البكري المعروف بالهارب له، وقد رآته يشحذ حربته يوم فتح مكّة، وهو يقول^(١): [الرجز]

إن تُقبلوا اليوم فمالي عليه هذا السّلاح كامل وأله
وذو عذار لي سريع السّله

فقلت: ما تصنع بهذه الحزبة؟ فقال: أعددتها لمحمّد وأصحابه، فقلت: إني أرى أنه لا يقوم لك بها شيء، قال: والله إني أرجو أن أخدمك بعضهم؛ ثم خرج، فلما فتح رسول الله ﷺ مكّة وانهزم المشركون يوم الخندمة وفرّ حماس حتى دخل بيته، فقال لامرأته: أغلقي الباب، فقلت له: وأين ما كنت تقول؟ فقال^(٢): [الرجز]

لو أنك شهدت يوم الخندمة إذ فرّ صفوان وفرّ عكرمه
إذ قد لحقنا بالسّيوف المسلمه لهم نشيش حولنا وهمهمه
يقطعن كل ساعد وجمجمه ضرباً فلا نسمع إلّا غمغمه
لم تنطقي في اللوم أدنى كلمه

وذكر أن كسرى أبرويز لما انهزم من بهرام جور واستجار بملك الرّوم، فعثفه على هربه وأمدّه بستين ألفاً منهم شجاع يعدّ بألف، فسار بهم إلى بهرام، فخرج بهرام لمحاربتّه، فلما تلاقى الجيشان برز الشجاع لبهرام فضربه بالسيف ضربة قدّه بها نصفين، فلقه كسرى وأنفذه إلى ملك الرّوم، وقال: إنما فرغت إليك من رجل يضرب مثل هذه الضربة. وذكر الطرطوشي في كتابه سراج الملوك أنّ هذه الضربة لم يُسمع بمثلها في جاهلية ولا إسلام، وأنّ هذه الرّأس كانت مُعلّقة في كنيسة من كنائس الرّوم، وكانوا إذا غيروا بانهزامهم من تلك الوقعة، يقولون: لقينا رجالاً هذا ضربهم.

(١) الرجز بلا نسبة في إصلاح المنطق، لابن السكيت، ص ٤٣٦.

(٢) الخبر والرجز في السيرة النبوية، لابن هشام.

وحُكي أن أبا زُبَيْد الطائي واسمه حرملة بن المنذر دخل على عثمان بن عفان، فلامه على فراره من الأسد لِمَا عُرِف مِنْ شجاعته، فقال: يا أمير المؤمنين لا تَلُمْنِي لقد رأيت منه منظراً وشهدت مخبراً لا يزال ذكره يتجدد في قلبي، وشخصه يتمثل في عيني خرجنا نريد الحارث بن شمر الغساني ملك الشام، فأصابنا قَيْظٌ ذبلت منه الشفاه، وعُصِبَت الأفواه، فأنَحَرْنَا إلى وادٍ أشجاره مغنة، وأطيّاره مَرْنَةٌ، فحططنا رحالنا ثم أخذنا نصف حرّ يومنا ونذكر مطاولته ومماطلته، فبينما نحن كذلك إذ صَوَّبَ أقصى الخيل أذنيه، وفحص الأرض بيديه، ثم ما لبث أن جال محمحمًا ومال مهممًا، فتضعضت الخيل، وتكعكت الإبل، وتقهقرت البغال، فبين نافر بشكاله، وناهض بعقاله، فحدّقنا أبصارنا وإذا سبّع قد أقبل يتطاول في مشيته كأنه محبوب، وينظر بعينين كأنهما جمر مشبوب، له خطيط ولصدره نحيط، ولبلاعيمة غطيط، ولطرفه وميض، ولأرساغه نقيض، كأنه يخطّ هشيماً ويطأ صريماً ذو هامة كالمجنّ، وخدّ كالمسنّ، وساعدٌ مجدول، وعضدٌ مفتول، وكفّ شثنه البراثن، ومخالب كالمحاجن، فضرب بذنبه الأرض فأرهج وكشر فأفرج عن أنياب كالمعاول مصقولة غير مفلولة في فم أشدق كالغار الأخرق، ثم تمطى فأشرع بيديه، وحفز وركيه برجليه، فصار ظلّه مثليه، ثم أفعى فاقشعرّ، ثم مثل فاكفهّر، وزأر ففجرجر، ثم لحظ فروي السماء عرشه فجَلَّتْ البرق يتطاير من تحت جفونه عن شماله ويمينه، فأرعشت الأيدي واصطككت الأضلاع، وارتجّت الأسماع، وجُمِحت العيون، وانحزّت المُتون، ولحقت الظهور بالبطون، وساءت الظنون؛ ثم أنشد^(١): [الطويل]

عبوس شמוש مصلخد خنابس جريء على الأرواح للقرن قاهر
منيع ويحمي كل وادٍ يرومه شديد أصول الماضغين مكابر
براثنه شثن وعيناه في الدجى كجمر الغضا في وجهه الشرّ طائر
يدلّ بأنيابٍ جدادٍ كأنها إذا قلّص الأصدقاء منها خناجر

فقال له عثمان: اكفّف لا أمّ لك لقد أربعت قلوب المسلمين، ولقد وصفته حتى كأنني أنظر إليه يريد موائبتي؛ وكان أبو زيد هذا نصرانياً ومات ولم يُسلم، وقد ذكر علماء الرواة لأخبار العرب وأشعارها هذه الحكاية بأطول مما أثبتناه لكنّا استغنياً باليسير منها عن الكثير لدلالته على الغرض المقصود في ذكره للأسد

(١) الأبيات لأبي زيد الطائي في ديوانه، وهي أربعة أبيات منفردة.

بالوصف الشنيع، والمزأى الفظيع، ليلغ في الاعتذار عن هربه مقتضى ربه، فلما لم يكن بنا لذكرها على التمام حاجة، اقتصرنا على الخلاصة منها لا المجاجة.

وَمِنْ أَحْسَنِ مِنَ الْجُبْنَاءِ فِي اعْتِذَارِهِ لَمَّا قُرِعَ عَلَى انْهِزَامِهِ وَفَرَارِهِ الْحَارِثُ بْنُ هِشَامٍ، وَكَانَ قَدْ شَهِدَ بَدْرًا مُشْرِكًا، فَانْهَزَمَ، فَصَنَعَ حَسَانَ قَصِيدَةٍ اسْتَطْرَدَ بِهِ فِيهَا يَقُولُ مِنْهَا^(١): [الكامل]

إِنْ كُنْتَ كَاذِبَةً الَّذِي حَدَّثْتَنِي فَنَجُوتُ مِنْجَى الْحَرِثِ بْنِ هِشَامٍ
تَرَكَ الْأَجْبَةَ أَنْ تُقَاتِلَ دُونَهُمْ وَنَجَا بِرَأْسِ طَمْرَةٍ وَلِجَامٍ
فَأَجَابَهُ الْحَرِثُ^(٢): [الكامل]

اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَرَكَتُ قِتَالَهُمْ حَتَّى رَمَوْا فَرَسِي بِأَشْقَرِ مُزْبِدٍ
وَعَلِمْتُ أَنِّي إِنْ أَقَاتِلُ وَاحِدًا أَقْتُلُ وَلَا يَضُرُّ عَدُوِّي مُشْهَدِي
وَشَمَمْتُ رِيحَ الْمَوْتِ مِنْ تِلْقَائِهِمْ فِي مَازِقِ وَالْخَيْلِ لَمْ تَتَبَدَّدِ
فَصَدَقْتُ عَنْهُمْ وَالْأَجْبَةَ دُونَهُمْ طَمَعًا لَهُمْ بِعِقَابِ يَوْمِ مَفْسَدِ

وَأُنْشِدُ هَذَا الْاعْتِذَارَ لِبَعْضِ مُلُوكِ الْعَجَمِ، فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ الْعَرَبِ لَقَدْ بَلِغْتُمْ بِلَطَافَةِ أَلْسِنَتِكُمْ وَحُسْنِ احْتِجَاجِكُمْ وَجَمِيلِ أَوْصَافِكُمْ مَبْلَغًا لَمْ يَبْلُغْهُ أَحَدٌ غَيْرَكُمْ حَتَّى اعْتَذَرْتُمْ عَنِ الْفِرَارِ بِعَذْرِ يَسَعُ بَعْدَكُمْ الْاعْتِذَارَ بِهِ لِكُلِّ مِنْهَزِمٍ، وَتَوَفَّى الْحَرِثُ هَذَا سَنَةَ ثَمَانِ عَشْرَةٍ بِالطَّاعُونَ، وَهُوَ طَاعُونَ عَمَّوَّاسِ قَرْيَةِ بِالشَّامِ، وَفِيهَا تَوَفَّى أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ وَمَعَاذُ بْنُ جَبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمْ. وَيَقَالُ: إِنْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَنَقَاءَ الْجَهْمِيِّ لَقِيَهُ بَنُو عَبْسٍ يَسُوقُ بِأَمْرَأَتِهِ أُمَّ الْخَصِينِ فَفَرَّ عَنْهُمْ، فَعَيَّرَتْهُ أَمْرَأَتُهُ، فَقَالَ^(٣): [الطويل]

أَجَاعَلَةُ أُمِّ الْحَصِينِ خِزَايَةً عَلَيَّ فِرَارِي أَنْ لَقِيتُ بَنِي عَبْسٍ
لَقِيتُ أَبَا شَاسٍ وَشَاسًا وَمَالِكًا وَقَيْسًا فَجَاشَتْ مِنْ لِقَائِهِمْ نَفْسِي
جَذِيمَةُ دَعَوَاهُمْ وَعُودُ بْنُ غَالِبٍ أَوْلَتْكَ جَاشَتْ مِنْ لِقَائِهِمْ نَفْسِي
كَأَنَّ جُلُودَ النَّمْرِ صُبَّتْ عَلَيْهِمْ إِذَا جَعَجَعُوا بَيْنَ الْإِبَاحَةِ وَالْحَبْسِ

(١) البيتان في ديوان حسان بن ثابت، من قصيدة مطلعها:

تبلت فؤادك في المنام خريدة تشفي الضجيع ببارد بسام

(٢) الأبيات في الحماسة البصرية، للبصري، ص ٧٢؛ وكتاب الصناعتين، لأبي هلال العسكري، ص

٧٨٢.

(٣) الأبيات لعمر بن معديكرب الزبيدي في ديوانه، والبيت الأول مطلع القصيدة.

أتونا فضتموا جانبينا بصادقٍ مِنْ الطَّعْنِ فعل النار بالحطب اليَبْسِ
نحوت سليمى لم تَمْزَقْ عمامتي ولكنَّهم بالطَّعْنِ قد مَزَقُوا ترسي
وليس الفرار اليوم عارًا على الفتى إذا عُرِفَتْ منه الشجاعة بالأَمْسِ

وقيل لبعضهم: لِمَ انهزمت؟ فقال: إنما لي نفسٌ واحدة وأنا حقيقٌ بالنظر إليها
لئلا يذهب رأس المال. وليمَّ آخر على فراره، فقال: الحرب سِجال، وعثراتها لا
تُقَال. وانهزم بعضهم فأخذه أميره يُوَبِّخُه ويُعْتَقُه على فراره، وقال: أعطيت بيدك ولا
طعنت ولا ضربت؟ فقال: لأن يشتمني الأمير أصلحه الله وأنا حيٌّ خيرٌ مِنْ أن يترحمَ
عليَّ وأنا ميت. وقيل لآخر ولَّى في حربٍ: وَتِلْكَ لا تهرب يغضب الأمير عليك،
قال: غضب الأمير عليَّ وأنا حيٌّ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ رِضاه عني وأنا ميت.

وَمِنْ أغاليط أعاذيرهم المسكتة، وأكاذيب أساطيرهم المبكتة، ما ذكره
صاحب كليله ودُمْنَة من أنَّ الحازم يكره القتال وما وجد بدلًا منه؛ لأن النفقة فيه
مِنْ النفوس، والنفقة في غيره مِنَ المال.

التقى عسكر دُبَيْس بن صدقة وعسكر الراشد، فولَّى دبيس منهزمًا، فعبر
الفرات يريد النجاة، فقصده بعض أحياء العرب، فقالت له عجوز مِنْ عجائزهم:
دبيرًا جئت؟ فقال دبيرٌ مَنْ لم يجيء. وقالوا: مَنْ جبن سليم، ومن تهوّر ندم.
وقال عبد الله بن المقفّع: الشجاعة متلفة، وذلك أن المقتول مقبلًا أكثر مِنْ المقتول
مُذْبِرًا، فمن أراد السلامة فَلْيُؤْثِرِ الجُبْنَ على الشَّجَاعَة. وقيل لجبان: لِمَ لا تقاتل؟
فقال: عند التَّطاح يغلب الكبش الأجم. وقالوا: الحياة أفضل مِنَ المَوْتِ إذا كانت
النجاة إلى حياة صالحة على أَنْ موتًا في عزٍّ خيرٌ مِنْ حياةٍ في ذلٍّ. وقالوا: الفرار
في وقته ظَفَر. وقالوا: الشجاع مُلْقَى، والجبان مُوقَى. وقالوا: السُّلَمُ أَرْكَى للمال،
وَأَبْقَى لأنفس الرُّجَال. وقال شاعرهم وهو البديع الهمداني^(١): [الكامل]

ما ذاق همًّا كالشجاع ولا خلًّا بمسرةٍ كالعاجز المُتواني
وقالوا: الهرب في وقته خيرٌ مِنَ الجُلْد والثَّبات في غير وقته. وقال المتوكل
لأبي العِيناء: إني لأفرق مِنْ لسانك، فقال: يا أمير المؤمنين الكريم ذو فرق
وإحجام، واللَّيْمُ ذو وقاحة وإقدام.

(١) البيت للشريف الرضي في ديوانه، من قصيدة مطلعها:

لون الشبيبة أنصل الألوان والشيب جلُّ عمام الفتيان

الباب الثالث عشر

في العفو

وفيه ثلاثة فصول:

الفصل الأول من هذا الباب

في مدح من اتصف بالعفو عن الذنب المتعمد والسَّهو

قال الله تعالى: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [النور: الآية ٢٢]، وقال تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: الآية ٤٠]، وقال تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: الآية ٦٣]. وقال رسول الله ﷺ: «مَنْ أَقَالَ مُسْلِمًا عَشْرَةَ أَقَالَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(١)، وقال عليه الصلاة والسلام: «إِنَّ الْعَفْوَ لَا يَزِيدُ الْعَبْدَ إِلَّا عَزًّا، فَاعْفُوا يَعْزِّكُمُ اللَّهُ»^(٢)، وَيُرَوَّى عَنْهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنَّهُ قَالَ: «مَا مِنْ إِمَامٍ عَفَا بَعْدَ قُدْرَةٍ إِلَّا قِيلَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: ادْخُلِ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ»^(٣). وقال معاذ بن جبل: لَمَّا بَعَثَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَالَ لِي: «مَا زَالَ جَبْرِيلُ يُوصِينِي بِالْعَفْوِ، فَلَوْلَا عِلْمِي بِاللَّهِ لَظَنَنْتُ أَنَّهُ يُوصِينِي بِتَرْكِ الْحُدُودِ»^(٤). وقيل لأبي الدرداء: مَنْ أَعَزَّ النَّاسَ؟ قَالَ: الَّذِي يَعْفو إِذَا قَدَرَ، وَيَنْصُرُ إِذَا اسْتَنْصَرَ. وقال رسول الله ﷺ: «مَنْ عَفَا عَنْ ظُلْمَةٍ صَغِيرَةٍ أَوْ كَبِيرَةٍ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ، وَمَنْ كَانَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٥).

(١) أخرجه أبو داود في البيوع باب ٥٢، وابن ماجه في التجارات باب ٢٦، وأحمد في المسند ٢/

٢٥٢.

(٢) أخرجه الزبيدي في إتحاف السادة المتقين ٣٩/٨، ٣٥٣، وأخرجه مسلم في البر حديث ٦٩، بلفظ: «ما زاد الله عبداً بعفوٍ إلا عزاً».

(٣) الحديث لم أجده بهذا اللفظ في كتب الحديث التي بين يدي.

(٤) الحديث لم أجده.

(٥) أخرجه بنحوه الطبراني في المعجم الكبير ١٥١/٨.

وحده على ما قاله بعض العلماء، وقد سُئِلَ عنه: هو ترك المكافأة عند القدرة قولاً وفعلاً. وقال آخر: هو السكون عند الأحوال المحركة للانتقام، وهو يَجْمَعُ أشرف الخِلال، وأكرم الخِصال، وأفضل شمائل الجلال، وأعلى مراتب الكمال، وركنٌ متين، وحصنٌ حصين، مَنْ استند إليه واعتمد عليه استنارت له الظلم، وأمينٌ مِنْ عثرات القدم، وعُصِمَ مِنْ مواقع الندم. ويكفي في شرفه أَنْ الإنسان لا يُسَمَّى حليماً حتى يكون عاقلاً عالماً محسناً صبوراً، وحتى يجمع عظم القدر إلى سِعة الصدر. وقالوا: الحليم مَنْ لم يكن حُلْمه لِفَقْدِ النُّصرة وعدم القُدرة، وهو غريزة في الإنسان يمنحها واهب الإحسان، تصدر عن صدرٍ سالمٍ مِنَ الغوائل والأدواء، صافٍ مِنْ شوائب الكدر والأقذاء، لا تُسْتَطاع بتعلُّم وتفكُّر، ولا تُدرَك بتفقه وتبصُّر؛ كما قال أبو الطَّيِّب المتنبِّي^(١): [الخفيف]

وَإِذَا الْحُلْمُ لَمْ يَكُنْ فِي طِبَاعٍ لَمْ يَحْلَمْ تَقَدَّمَ الْمِيلَادُ

فقد يكون طبيعة ويكون مُكتسباً مستفاداً بتمرّن النفس إليه، وتنقاد حباً في المحمّدة إليه. ويعضد هذا ما روي أَنَّ رسول الله ﷺ قال لأشج عبد القيس: «يا أبا المنذر إِنَّ فِيكَ خصلتان يرضاهما الله ورسوله: الحُلْمُ والأناة»، فقال: يا رسول الله أشيء جبَلَنِي الله عليه، أو شيء اخترعته مِنْ قِبَلِ نفسي؟ قال: «بل شيء جبَلَك الله عليه»، فقال: الحمد لله الذي جبَلَنِي على خلقٍ يرضاه الله ورسوله^(٢). وقال المخالفون لهذا المذهب: الحلم بالتحلُّم كما أَنَّ العلم بالتعلُّم، واستدلُّوا لهذا القول بما يُزَوِّى أَنَّ جعفر بن محمد الصادق كان إِذَا أَذْنَبَ لَهُ عَبْدًا عتقه، ففيل له في ذلك، فقال: إِنِّي أريد بفعلِي هذا تعلُّم الحلم. وقيل: كان له عَبْدٌ سَيِّءُ الخلق، ففيل له: ما بقاء مل هذا عندك وَأَنْتَ قادر على أَنْ تستبدل به غيره؟ قال: لَا تَعْلَمُ به الحُلْمُ؛ ومن ذلك قول الأحنف: مَنْ لَمْ يَصْبِرْ عَلَى كَلِمَةٍ سَمِعَ كَلِمَاتٍ، وَأَنْشُد^(٣): [الطويل]

وَلَيْسَ يَتِمُّ الْحُلْمُ لِلْمَرْءِ رَاضِيًا إِذَا هُوَ عِنْدَ السَّخَطِ لَمْ يَتَحَلَّمْ
كَمَا لَا يَتِمُّ الْحُلْمُ لِلْمَرْءِ مُوسِرًا إِذَا هُوَ عِنْدَ الْعُسْرِ لَمْ يَتَحَشَّمْ

(١) البيت في ديوان المتنبِّي، من قصيدة مطلعها:

حسم الصلح ما اشتتهته الأعادي وأذاعته ألسن الحساد

وفي الديوان: «تقدم الميلاد»، بدل: «تقدم الميلاد».

(٢) أخرجه بنحوه ابن ماجه في الزهد، باب ١٨.

(٣) البيتان بلا نسبة في ديوان المعاني، لأبي هلال العسكري، ص ٣٠٠.

وَمِنْ أَحَاسِنِ الْكَلَامِ الصَّادِرِ عَنِ الْحُكَمَاءِ فِي شَرَفِ الْحُلْمِ وَمَنْ تَخَلَّقَ بِهِ مِنَ الْحُلَمَاءِ

قالوا: الحُلْمُ والأناة توأمان نتيجهما علوُ الهِمَّةِ؛ وهذا كما ورد عن عليّ رضي الله عنه أنّه سأل رجلاً مِنْ أَهْلِ فَارِسٍ عَمَّنْ كَانَ أَحْمَدَ مَلُوكِهِمْ سِيرَةً؟ قَالَ: أَنُوشِرَوَانُ، فَقَالَ عَلِيٌّ: أَيُّ أَخْلَاقِهِ كَانَ أَغْلَبَ عَلَيْهِ؟ قَالَ: الْحُلْمُ والأناة، فَقَالَ عَلِيٌّ: هُمَا قِيَامُ الْمَلِكِ نَتِيجَتُهُمَا علوُ الهِمَّةِ. والأناة ترك العجلة بالانتقام عند القدرة، قَالَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ الْعَبَّاسِ الصُّوْلِيُّ^(١): [البسيط]

لَنْ يُدْرِكَ الْمَجْدَ أَقْوَامًا وَإِنْ كَرَمُوا حَتَّى يَذْلُوا وَإِنْ عَزَّوْا لَا أَقْوَامَ
وَيَشْتَمُوا فَتَرَى الْأَلْوَانَ مُسْفِرَةً لَا صَفْحَ ذَلٍّ وَلَكِنْ صَفْحَ إِكْرَامٍ

وقال قابوس بن وشمكير: العفو عن الذَّنْبِ مِنْ واجبات الكرم، وقبول المعذرة مِنْ محاسن الشَّيْمِ. وَمِنْ كَلَامِ النُّبُوَّةِ: كَادَ الْحَلِيمُ أَنْ يَكُونَ نَبِيًّا. ورأى حكيم نزقة من ملك، فقال: أَيُّهَا الْمَلِكُ لَيْسَ التَّاجُ الَّذِي يَفْتَخِرُ بِهِ عِظَمَاءُ الْمُلُوكِ فَضَّةٌ وَلَا ذَهَبًا، وَلَكِنَّهُ الْوَقَارُ الْمَكْلَلُ بِجَوَاهِرِ الْحُلْمِ، وَأَحَقُّ الْمُلُوكِ بِالْبَسْطَةِ مَنْ حَلُمَ عِنْدَ ظَهْوَرِ السَّقَطَةِ. وقال معاوية لابنه يزيد: عَلَيْكَ بِالْحُلْمِ وَالْإِحْتِمَالِ حَتَّى تَمَكِّنَكَ الْفُرْصَةُ، فَإِذَا أَمَكَّنْتَكَ فَعَلَيْكَ بِالصَّفْحِ، فَإِنَّهُ يَدْفَعُ عَنْهُ مَضَلَّاتِ الْأُمُورِ، وَيُوقِيكَ مَصَارِعَ الْمَحْذُورِ. وقال الشاعر^(٢): [الكامل]

لَا تَحْسِبَنَّ الْحُلْمَ مِنْكَ مَذَلَّةً إِنَّ الْحَلِيمَ هُوَ الْأَعَزُّ الْأَمْنَعُ
إِنْ جَرَّعُوكَ الْغَيْظَ فَاجْرِعْ لَهُمْ تُؤْجَرُ وَتُخْمَدُ غَبَّ مَا يَتَجَرَّعُ

آخِرُ^(٣): [البسيط]

إِنَّ التَّحَلُّمَ ذَلٌّ أَنْتَ عَارِفُهُ وَالْحُلْمُ عَنْ قَدَرَةٍ أَفْضَلُ مِنَ الْكِرَمِ
وقال معاوية: أَفْضَلُ مَا أُعْطِيَ الرَّجُلُ الْحُلْمُ، فَإِنَّهُ إِذَا ذُكِرَ ذَكَرَ، وَإِذَا قَدَّرَ عَفَّرَ، وَإِذَا أَسَاءَ اسْتَغْفَرَ. وقالوا: العفو يَزِينُ حَالَاتٍ مِنْ قَدَرٍ، كَمَا يَزِينُ الْحُلَى قَبِيحَاتِ الصُّورِ. وقالوا: الْحُلْمُ مَطِيَّةٌ وَطِيَّةٌ تُبَلِّغُ رَاكِبَهَا قِصْبَةَ الْمَجْدِ، وَتُمَلِّكُهُ نَاصِيَةَ

(١) البيتان في ديوان إبراهيم بن العباس الصولي، وهما بيتان مفردان.

(٢) البيت الأول بلا نسبة في روضة العقلاء، لابن حبان البستي، ص ١٤٥.

(٣) البيت لم أجده في المصادر والمراجع التي بين يدي.

الجد. وقال بعض البلغاء: مَنْ غرس الحلم شجرًا، وسقاه الأناة دُرًّا، جنى العزّ منه ثمرًا، وأثبت المكارم أثرًا. شاعر^(١): [الطويل]

إذا شئت يومًا أن تسود عشيرة فبالحلم سُدْ لا بالتسرع والشتم
فللحلم خيرُ فاعملن مظنة مِنْ الْجَهْلِ إِلَّا أَنْ تَشِينَهُ بِالظَلَمِ
آخر: [الكامل]

اخفض جناحك للقراة وألقهم بتودّد واغضض لهم إن أذنبوا
وصِل الكرام فإن ظفرت بزلّة فالصّفح عنهم والتجاوز قربُ
آخر^(٢): [الطويل]

ألا إن حلم المَرْءِ أَكْرَمُ نَسَبَةٍ تسامى بها عند الفخار كريمُ
فيا رَبِّ هَبْ لي منك حلمًا فإتّني أرى الحلم لم يندم عليه حليمُ
وقالوا: الحلم حجاب الآفات. وقالوا: مَنْ غرس شجر الحلم اجتنى ثمر السّلم. وقال عمر بن عبد العزيز: ما قرن الله شيئًا إلى شيءٍ أَفْضَلَ من علم إلى حلم، ومن عفوٍ إلى قدرة. وقال حكيم: خير الأمور بغية العفو، وخير العفو ما كان عن قدرة. وقال الشاعر: [الكامل]

العفو يعقب راحةً ومحبةً والصّفح عن ذَنْبِ المُسيءِ جميلُ

وقال عمر أيضًا: استدعوا العفو من الله بالعفو عن الناس والرحمة بهم والشفقة عليهم. وقالوا: اعف عمن لم يسلك مِنْ سَخَطِكَ طريقًا حتى يأخذ مِنْ رجائك طريقًا. ويُرْوَى عن عيسى عليه السلام، أَنَّهُ قال: ليس الإحسان أَنْ تُحَسِّنَ إلى مَنْ أَحْسَنَ إِلَيْكَ، إِنَّمَا تِلْكَ مِكَافَأَةٌ؛ وَإِنَّمَا الإحسان أَنْ تُحَسِّنَ إلى مَنْ أَسَاءَ إِلَيْكَ. وقال سعيد بن العاص: ما شَأْنُكُمْ أَحَدًا مُذْ صَرْتُمْ رِجَالًا؛ لِأَنِّي ما أَشَاتَمَ إِلَّا أَحَدَ رَجُلَيْنِ: إمَّا كَرِيمًا فَأَنَا أَحَقُّ أَنْ أُحْتَمَلَهُ، أَوْ لُئِيمًا فَأَنَا أَوْلَى مَنْ رَفَعَ نَفْسَهُ عَنْهُ. وقال عمر بن الخطّاب: اذْرَوْا الحدود بالشُّبُهَاتِ، وَلأنَّ يَخْطِئُ الإمامُ في

(١) البيتان للمرار بن سعيد الفقعسي في ديوانه، والبيت الأوّل مطلع القصيدة.

(٢) البيتان لأبي العتاهية في ديوانه، من قصيدة مطلعها:

أيَا ربِّ يا ذَا العَرْشِ أَنْتَ رَحِيمٌ وَأَنْتَ بِمَا تَخْفِي الصُّدُورَ عَلِيمٌ
وانظر أيضًا ديوان عبد الله بن المبارك.

العفو أحب إليَّ من أن يخطيء في العقوبة؛ فإذا وجدتم مخرجًا للسلم فادروا الحدود. شاعر^(١): [الطويل]

وما بال من أسعى لأجبر عظمه سفاهاً وينوي من سفاهته كسري
أظن خطوب الدهر بيني وبينهم ستحملهم مني على مركبٍ وغرٍ
أعوذ على ذي الجهل والحلم منهم بحلمي ولو عاقبت غرقهم بحري
أناة وحلمًا وانتظارًا بهم غداً وما أنا بألواني ولا الضرع الغمر
ألم تعلموا أنني تخاف عزيمتي وأن قناتي لا تلين على الكسر

من عُرف بالعفو عند خطأ الجاني وصار بالأناة عليه كالآب الحاني

كان رسول الله ﷺ حليماً رحيماً رؤوفاً عطوفاً، يهبُ ويسمح ويعفو ويصفح. وكان كسرى يقول: عفوي عمن أساء إليَّ بعد قدرتي عليه أسرُّ لي مما ملكت. وكان معاوية يقول: ما وجدت لذة ألدُّ عندي من غَيْظٍ أتجرَّعه، ومن سفه بالحلم أقمعه؛ وكان يقول: إني لأكره أن يكون في الأرض جهل لا يشملُه حلمي، وذنبٌ لا يسعه عفوي. وكان المأمون ممن أوتي الحلم طبعاً لا تطبعاً، ومنح العفو خلقاً لا تخلُقاً؛ فكان يقول: إني لأستحلي العفو حتى أخاف أني لا أوجر عليه، ولو علم الناس محبتي في العفو لتقربوا إليَّ بالذنوب؛ فكأنه القائل بلسان كرمه وإفضاله، لا بلسان نطقه ومقاله^(٢): [الطويل]

وجهل ردّذناه بفضل حلومنا ولو أننا شئنا ردّذناه بالجهل
رجحنا وقد خفت حلوم كثيرة وعُدنا على أهل السفاهة بالفضل
عامر العدواني^(٣): [الكامل الأحذ]

إنّي غفرت لظالمي ظلمي وتركت ذاك له على علمي
فرأيته أسدى إليّ يدًا لما أبان بجهله حلمي

(١) الأبيات بلا نسبة في البصائر والذخائر، لأبي حيان التوحيدي، ص ٧٦٨.

(٢) البيت الأول بلا نسبة في المستطرف، للأبشيبي، ص ٩٠٩.

(٣) البيتان لمحمود الوراق في ديوانه، والبيت الأول مطلع القصيدة، ورواية البيت في الديوان:

إنّي شكرت لظالمي ظلمي وغفرت ذاك له على علمي
والبيتان لعامر العدواني في ديوانه، وهما بيتان منفردان.

وكان يقول: ليس في الحلم مؤنة، ووددت أن أهل الجرائم عرفوا رأيي في الحلم حتى يذهب عنهم الخوف، فتصفوا إليّ قلوبهم. وكان يقول: المذنبون ثلاثة: فمنهم مَنْ ذنبه مقرون بعذره قد أماطه عنه، وأخرجه سليماً منه؛ ومنهم مَنْ ذنبه فاضح وعذره غير واضح، وهو فردٌ لا أخ له، وفدٌ لا توأم معه، فالأولى به أن يقال إذا اعترف بالحوية، وأخلص لي التوبة؛ ومنهم المتردد في هفواته، والمتكرر في عثراته، الجارية عادته أن يُكثر التوبة إذا تاب، ويفسخ عقد الإنابة متى أناب، فذاك الذي يُعاقب بالاطراح، ولا يُطمع في شخصه بالفلاح. وكان أسماء بن خارجة يقول: ما أتاني أحد بما أكره إلا أخذت عليه ثلاث خصال، فإن كان فوقي عرفت له فضل التقدم فأتبعته، وإن كان دوني صَفْتُ نفسي عنه، وإن كان مثلي تفضّلت عليه.

نَظَمَ محمود الوراق هذه الكلمات في هذه الثلاثة الأبيات، فقال^(١):
[الطويل]

سألُزِمَ نفسي الصَّفْحَ عن كلِّ مُذْنِبٍ	وإن عَظُمَت منه عليّ الجرائمُ
فما الناس إلا واحدٌ من ثلاثة	شريفٌ ومشروفٌ ومثلي مقاومٌ
فأما الذي فوقي فأعرف فضله	وأتبع فيه الحقَّ والحقَّ لازمٌ
وأما الذي دوني فإن قال مُنْكَرًا	صفحت له عنه وإن لام لائمٌ
وأما الذي مثلي فإن زلَّ أو هفا	تفضّلت إن الفضل بالحلم حاكمٌ

الناشئ في مثل هذا^(٢): [الطويل]

إذا كان دوني مَنْ بُليت بِجَهْلِهِ	أُبَيِّتَ لنفسي أن أقابل بالجهلِ
فإن كنت أدنى منه في العلم والحجى	عرفت له حقَّ التقدُّم بالفضلِ
وإن كان مثلي في محلٍّ مِنَ التُّهَى	أردت لنفسي أن أجَلَ عن المثلِ

وقال المأمون: وجدت المُسيءَ إليّ عبد الله، ولو أساء إليّ عبدٌ لأخ لصفحت عنه إكرامًا له؛ فكيف لا أصفح عن عبدٍ مُسيءٍ هو عبدُ الله تعالى.

(١) الأبيات في ديوان محمود الوراق، والبيت الأول مطلع القصيدة، وهي أيضًا للخليل بن أحمد الفراهيدي في ديوانه.

(٢) الأبيات في ديوان الناشئ الأكبر، وهي ثلاثة أبيات منفردة.

ولأبي فراس الحمداني^(١): [البسيط]

ما كنت مُدَّ كنت إلّا طوع خلّاني ليست مؤاخذه الإخوان مِنْ شاني
يجني الخليل فاستجلي جنايته حتى أدلّ على عفوي وإحساني
يجني عليّ وأحنو دائماً أبداً لا شيء أحسن مِنْ حانٍ على جانٍ

وقال رجل للأحنف في مشاجرة وقعت بينهما: إن قلت كلمة لتسمعن عشر كلمات، فقال الأحنف: لو قلت عشرًا لم تسمع واحدة.

ومن حكاياته الدالة على كرم نجره القاضية له بتضعيف أجره

أن رجلاً جعل له ألف درهم على أن يُغضبه، فوقف الرجل وبالع في سبّه والأحنف يُغرض عنه غير مكترث به، فلما رآه لا ينظر إليه، ولا يرّد عليه، أقبل يعضّ أنامله ويقول: واسوأناه والله ما يمنعه من جوابي إلّا هواني عليه، ولهذا قيل: الحليم من صمت عن سماع الخنى، وأغضت عيناه على مضض القذى.

ما اخترناه وانتقينا من غرر الممادح المقولة

فيمن أغضى عن المُسيء القادح

مدح أعرابي رجلاً بالحلم، فقال: إن أذنبت إليه استغفر، فكأنه المذنب؛ وإن أحسن إليك اعتذر، فكأنه المُسيء. الحسن بن رجاء في المأمون^(٢): [الطويل]

صَفُوحٌ عن الإِجرام حتّى كأنّه مِنْ العَفْو لم يعرف مِنَ الناس مجرماً
وليس يبالي أن يكون به الأذى إذا ما الأذى لم يغش بالكره مُسلماً

وقال آخر: [مجزوء الكامل]

يعفو عن الذنب العظي هم وليس يعجزه انتصاره
صفحاً على الباغي عليه له وقد أحاط به اعتذاره

(١) الأبيات في ديوان أبي فراس الحمداني، من أربعة أبيات، والبيت الرابع:

ويتبع الذنب ذنباً حين يعرفني عمداً وأتبع غفراًنا بغفران

(٢) البيتان للحسن بن رجاء الكاتب في إعتاب الكتاب، لابن الأثير، ص ٦٢، وبلا نسبة في الفرج بعد الشدة، للقاضي التنوخي، ص ٤٢٢.

وقال أبو الحسن مهيار بن مردويه الديلمي من أبيات^(١): [الكامل]

وإذا أباء المَرء قال لك انتقم قالت خلائقك الكرام بل اخلّم
شرع من المَجد تفرّدت بدينه وفضيلة لسواك لم تتقدّم
حتى لقد وذ البريء لو أنّه أدلى إليك بفضل جاه المجرم
ولغيره من أبيات^(٢): [السريع]

فدهره يصفح عن قدرة ويغفر الذّنب على علمه
كأنه يأنف من أن يرى ذنب امرئ أعظم من حلمه

الفصل الثاني من الباب الثالث عشر

فيمن حلم عند الاقتدار وقبل من المُسيء الاعتذار

ولنبداً الآن بما يجب على الأحرار، من الصّفح المتبجح بالأقدار:

قال رسول الله ﷺ: «من لم يقبل عُذراً من معتذر، صادقاً كان أو كاذباً، لم يرد عليّ الحوض»^(٣). وقالوا: الكريم أوسع ما يكون مغفرةً إذا ضاقت بالمُسيء المَعذرة. شاعر: [الوافر]

إذا اعتذر المُسيء إليك يوماً من التّقصير عذر فتى مُقرّر
فصّنه عن عتابك واغف عنه فإنّ العفو شيمة كل حرّ

ويقال: توبة المذنب إقراره، وشفيع المجرم اعتذاره. وقال الشاعر^(٤):

[البسيط]

اقبل معاذير من يأتيك معتذراً إن برّ عندك فيما قال أو فجراً
فقد أطاعك من يرضيك ظاهره وقد أجلك من يعصيك مستتراً

(١) الأبيات في ديوان مهيار الديلمي، من قصيدة مطلعها:

ما المجد إلا بالعزيمة فاعزم من لم يغامر لم يفز بالمغنم

(٢) البيتان بلا نسبة في نهاية الأرب للنويري، ص ٣٧٤٥.

(٣) الحديث لم أجده بهذا اللفظ في كتب الحديث التي بين يدي، وفي مسند أبي حنيفة ١٦٢: «من لم يقبل عذر مسلم يعتذر إليه، فوزره وزر صاحب مكس».

(٤) البيتان لعلي بن أبي طالب في ديوانه، وهما بيتان منفردان، وينسبان أيضاً للإمام الشافعي. انظر ديوانه.

وقالوا: لا يظهر الحُلم إلا مع الانتصار، ولا يبين العفو إلا عند الاقتدار.
شاعر^(١): [الخفيف]

إنَّ للاعتذار حظًا من العفـ ويراه المقرّ بالإنصاف
ولعمري لقد أجلك من قد جامقراً بذلة الاقتراف
آخر^(٢): [الطويل]

إذا ما امرؤ من ذنبه جاء تائبًا إليك ولم تغفر له فلك الذنب
وقالوا: ما أذنب من اعتذر، ولا أساء من استغفر. وقال محمد بن سيرثاذ:
الأصاغر يهفون، والأكابر يعفون. كتب بعضهم إلى رئيس يعتذر إليه من ذنب
اقترفه^(٣): [الخفيف]

اغتفر زلّتي لتحرز فضلي واغف عني ولا يفوتك أجري
لا تكلني إلى التوسّل بالعد رلعلّي أن لا أقوم بعذري
ومن وصاياهم: إياك تكرير العذر، فإنه تذكير بالذنب. وقال الشاعر^(٤):
[الطويل]

إذا كان وجه العذر ليس ببين فإن أطراح العذر خير من العذر
ومن وصاياهم: إياك وما يُعتذر منه. وقولهم: إياك وما يسبق إلى القلوب
إنكاره، وإن كان عندك اعتذاره؛ فما كل من أسمعته نكرًا يطيق أن توسعه منك
عذرًا.

ذكر من قدر من الصدور فعفا وأثلج الصدور بالمنة وشفى

رسول الله ﷺ: وذلك أن أهل مكة كانوا يؤذون رسول الله ﷺ قبل الهجرة
بالقول، فقالوا: كذاب وساحر ومجنون وغير ذلك من السب والشتم، وبعدها

(١) البيتان بلا نسبة في محاضرات الأدباء، للراغب الأصبهاني، ص ٧٢٥.

(٢) البيت بلا نسبة في العقد الفريد، لابن عبد ربّه، ص ٧٥٢.

(٣) البيتان لعبد الله بن طاهر في ديوانه، وهما بيتان منفردان.

(٤) البيت لمحمود الوراق في ديوانه، من قصيدة مطلعها:

أراني إذا ما ازددت مالا وثروة وخيرًا إلى خير تزيدت في الشر

بالفعل ؛ فكانوا يقصدون نكايته في نفسه وأهله ولكثرة إيذائهم له قال : «ما أُوذي أحدٌ مثل ما أُوذيت»^(١)، رموه بالحجارة فشجّوا جبينه، وكسّروا رباعيته، ووضعوا الشوك في طريقه، وشقّوا الكرش على رأسه، وحاربوه وقتلوا أعمامه، وعذبوا أصحابه، وألبّوا عليه، وأخرجوه من أحبّ البقاع إليه، وقتلوا عمّه حمزة وبقروا بطنه ومثّلوا به حتى إذا فتح الله مكّة على يديه ودخلها بغير حَمْدِهِمْ، وظهرت بها كلمته على رغمهم، أخذ بعضادتي باب الكعبة، وقام فيهم خطيباً فحمد الله وأثنى عليه وشكره على ما منحه من الظفر، وقال : «لا إله إلاّ الله وحده، صدق وعده، ونصر عبده، وهزَمَ الأحزاب وحده»، ثم قال : «ما تقولون وما تظنون أني فاعلٌ بكم»؟ فقال سهيل بن عمرو : نقول خيراً ونظنّ خيراً، أخُ كريم وابن أخ كريم، وقد قدرت؛ فقال : «أقول لكم كما قال أخي يوسف : لا تَثريبَ عليكم اليوم يغفر الله لكم، وهو أرحم الراحمين، اذهبوا فأنتم الطلقاء»^(٢).

ولمّا ظفر أنوشروان ببزرجمهر، وكان قد ترك دين المجوس قال : الحمد لله الذي أظفرنني بك، قال : كافيء مَنْ أعطاك ما تحبّ بما يُحبّ، فعفا عنه. وحُكي عن سلم بن نوفل، وكان سيّد قومه أنّ رجلاً ضرب ولده فشجّه فأثي به إليه، فقال له : ما حملك على ما فعلت؟ وما الذي أمّنك من انتقامي منك؟ فقال الرجل : إنما سوّدناك لأنك تحلم وتكظم الغَيظ، وتحتمل جهل الجاهل، فقال له : إني أثرت حلمي وكظمت غيظي واحتملت جهلك، خلّوا عنه؛ فولّى الرجل وهو يقول^(٣) : [الطويل]

تسوّد أقوام وليسوا بسادة بل السيّد المعروف سلم بن نوفل

وحُكي أنّ عبد الملك بن مروان نقم على رجل ذنباً فهرب منه، فلمّا ظفر به همّ بقتله، فقال له الرجل : إنّ الله قد فعل ما أحببت من الظفر، فافعل ما يحبه من العفو، فإنّ الانتقام عدل والتجاوز فضّل، والله يحبّ المُحسنين؛ فعفا عنه. وأساء بعض جُلُسائه عليه الأدب، فاطّرحه وجفاه، ثم دعاه بعد أيّام لأمر عنّ له، فرآه شاحب اللون نحيلًا، فقال له : متى اغتلت؟ فقال : ما مسّني سقم ولكنني جفوت

(١) أخرجه ابن حجر في فتح الباري ١٦٦/٧، والمتقي الهندي في كنز العمال ٣٢٦١، ٥٨١٧، ٣٢١٦٠.

(٢) أخرجه العراقي في المغني عن حمل الأسفار ١٧٩/٣.

(٣) البيت للجعفري في الاشتقاق، لابن دريد، ص ٣٢٠؛ وبلا نسبة في البصائر والذخائر، لأبي حيان التوحيد، ص ٦٨٣.

نفسى منذ جفاني الأمير، فاستحسن ذلك منه وعفا عنه. وقال الأصمعي: أتى المنصور برجلٍ ليعاقبه على شيءٍ بلغه عنه، قال له: أتخصيه؟ فقال: يا أمير المؤمنين الانتقام عدل، والتجاوز فضل، ونحن نُعِيدُ أمير المؤمنين بالله أن يرضى لنفسه بأوكس النصيبين، دون أن يبلغ أرفع الدرجتين؛ فعفا عنه. وقال المنصور لجانٍ عجز عن الاعتذار: ما هذا الوجوم وعهدي بك خطيبًا لَسِنًا؟ فقال: يا أمير المؤمنين ليس هذا موقف مُباهاة، ولكنه موقف توبة، والتوبة تُلَفَى بالاستكانة والخشوع، والذلة والخضوع، فرق له وعفا عنه. وسُعي إلى المنصور برجلٍ من ولد الأشر النخعي، ذُكر عنه الميل إلى بني علي بن أبي طالب والتعصب لهم، فأمر بإحضاره، فلما مثل بين يديه قال: يا أمير المؤمنين ذنبي أعظم من ثَقْمَتِكَ، وعفوك أوسع من ذنبي؛ ثم قال^(١): [الطويل]

فهبني مسيئًا كالذي قلت ظالمًا فعفوا جميلًا كي يكون لك الفضلُ
فإن لم أكن للعفو منك لسوء ما أتيت به أهلاً فأنت له أهلُ

فعفا عنه. وأتى المنصور برجلٍ أذنب، فقال: يا أمير المؤمنين إن الله أمر بالعدل والإحسان، فإن أخذت في غيري بالعدل فخذ فيّ بالإحسان؛ فعفا عنه. وأتى الهادي برجلٍ فعل ما أنكره عليه، فجعل يُقرّعه ويؤيخه ويهدّده ويتوعّده، فقال: يا أمير المؤمنين اعتذاري عما تقرّر عني عليه ردُّ عليك، وإمساكي عن الاعتذار يُوجب ذنبًا لم أجْهِه، ولكني أقول^(٢): [الطويل]

فإن كنت ترجو في القيامة رحمة فلا تزهدن في العفو عني وفي الأجرِ

ولما خرج إبراهيم بن المهدي على عبد الله المأمون عندما عقد لعلي بن موسى الرضا بولاية العهد بعده، وأمر الناس بلباس الخضرة فكره أهل بغداد ذلك وبايعوا إبراهيم ولقبوه بالمبارك، وذلك في سنة اثنتين ومائتين، فأقام سنة وأحد عشر شهرًا وأيامًا يخطب له، ثم دخل المأمون بغداد في صفر سنة أربع ومائتين وهي السنة التي مات فيها الشافعي وعليه الخُضرة، فاختنى إبراهيم ولم يظهر إلى سنة عشر، فلما ظفر به المأمون أوقفه بين يديه وقد اجتمع في مجلسه وجوه دولته

(١) البيتان لإبراهيم بن العباس الصولي في ديوانه، وهما بيتان منفردان.

(٢) البيت بلا نسبة في عيون الأخبار، لابن قتيبة، ص ٢٨٠؛ وبهجة المجالس، لابن عبد البر، ص ٥٠٧.

ووزراؤها وقضاتها وكتّابها وأمرائها وقوادها، فاستشار مَنْ حضر في أمره، فكلُّ أشار بقتله، وكان فيمن حضر أحمد بن أبي خالد ساكتاً لا يتكلّم ولا يفيض معهم في شيءٍ مِنْ ذلك، فقال له المأمون: ما لك لا تنطق؟ فقال: يا أمير المؤمنين كَمْ قتل مثلك مثله، ولم يعف مثلك عن مثله؟ ولأنّ تكون أُوحد في العفو أحبّ إليّ مِنْ أن تكون شريكاً في العقوبة؛ فأعجب المأمون كلامه وعفا عنه. ويروى أنّه لما مثّل بين يديه قال له: ما حملك على اجترام ما أدّاك إلى حتفك؟ قال: القدرة تُذهب الحفيظة، ووليّ الثأر مُخَيّر في القصاص والعفو، والعفو منك أقرب، وقد جعلك الله فوق كل ذي حلم كما جعلني فوق كل ذي ذنب، فإن تَغفُ فبفضلك، وإن تُعاقِب فبِعَذْلِك، وأنه وإن كان ذنبي أعظم مِنْ أن يحيط به عذرٌ فعفو أمير المؤمنين أعظم مِنْ أن يتعاضمه ذنب؛ فقال المأمون: قد رأيت وما توفيقي إلا بالله تحقيق ظنّك في العفو عن خطيئتك، والصّفح عن جليل جرّمك وإقالتك العثرة وأمانك على نفسك؛ وأنشد: [مخلع البسيط]

لَمَّا رَأَيْتِ الذَّنُوبَ جُلَّتْ عَنِ الْمُجَازَاةِ فِي الْعِقَابِ
جَعَلْتَ عَنْهَا الْعِقَابَ عَفْوًا أَمْضَى مِنَ الرِّقَابِ لِلرِّقَابِ

كان أبو نواس قد غلب على قلبه حُبّ الأمين والتهالك فيه والغرام، حتى قال فيه^(١): [المنسرح]

عَذَّبَ قَلْبِي وَلَا أَقُولُ بِمَنْ خَافَهُ لَا أَخَافُ مِنْ أَحَدٍ
إِذَا تَفَكَّرْتُ فِي هَوَايَ لَهُ لَمَسْتُ رَأْسِي هَلْ طَارَ عَن جَسَدِي

فاتّصلت هذه الأبيات بالمأمون، فقال: مَنْ يُقال هذا فيه يصلح أن يكون خليفة للمسلمين؛ فبلغ ذلك الأمين، فأمر بقتل أبي نواس حيث وُجِدَ، فَشُفِعَ فيه، فأمر بحبسه ولا يُمكن من ورقة ولا دواة، فحلق رأس عبْدٍ له وكتب فيها بالفحم^(٢): [مجزوء الكامل]

بِكَ أَسْتَجِيرُ مِنَ الرَّدَى مَتَعَوِّذًا مِنْ سَطَوِ بَاسِكَ

(١) البيتان في ديوان أبي نواس، والبيت الأول مطلع القصيدة، وروايته في الديوان:

إِنِّي لَصَبٌّ وَلَا أَقُولُ بِمَنْ أَخَافُ مَنْ لَا يَخَافُ مِنْ أَحَدٍ

(٢) الأبيات في ديوان أبي نواس، وهي ثلاثة أبيات منفردة، وفي الديوان: «من سطوات باسك»، بدل:

«من سطو باسك».

وحياة رأسك لا أعو دلمثلها وحياة رأسك
مَنْ ذا يكون أبانوا سك إن قتلت أبانوا سك

وكتب تحت الأبيات: إذا قرأ أمير المؤمنين الرُّقعة يخرقها، ثم قال للغلام: سِرْ إلى دار الخلافة فإذا جئتها ناد: نصيحة لأمير المؤمنين، فإذا دخلت على الخليفة اكشف رأسك ليرى ما فيها مكتوباً؛ ففعل الغلام ما أوصاه به، فلما قرأ الأمين الأبيات ضحك، وقال: ما أطفه وأظرفه، وأمر بإطلاقه. وحكى عبد الرحمن اليزيدي قال: حضرت مجلس المأمون وهو على شراب، فدعاني وأكرهني حتى شربت، فكلمني بكلمة في حال السكر فأجبتة عنها جواباً قبيحاً، وأنا لا أعلم لما أخذ الشراب مني وغلبة السكر عليّ، فأعلمت بذلك بعد انصراف المجلس، فكتبت إليه^(١): [الطويل]

أنا المُذنب الخطاء والعفو واسع ولو لم يكن ذنبٌ لما عُرف العفو
ثملت فأبدى مني الكأس بعض ما كرهت وما إن يستوي السكر والصُّحُو
تنصّلت من ذنبي تنصّل ضارع إلى مَنْ إليه يُحسن العفو والسهو
فإن تَعَفَّ عني ألف خطوى واسعاً وإن تكن الأخرى فقد قَصُر الخطو

فلما قرأ المأمون رقعته، قال: قد صفحنا عنك، إن مجلس الشراب يُطوى بما فيه؛ ويقال: بل وقع على الرقعة^(٢): [الخفيف]

إنما مجلس الندامى بساط للمودّات بينهم وضعوه
فلماذا ما انتهى إلى ما أرادوا من حديثٍ ولذة رفعوه

حكاه المربزباني في كتاب طبقات الشعراء، وعُرف باليزيدي لأنه كان يؤدّب ولد يزيد بن منصور الحميري خال المهديّ. وقال الحسن بن سهل للمأمون في رجل مُسيء: هَبْهُ لي، فقال: وكيف أهبه لمن ليس به قدرة عليه، وعفا عنه. وأحضر إليه رجل أذنب، فقال له: أنت الذي فعل كذا وكذا؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين أنا ذاك الذي أسرف على نفسه، وأتكل على عَفوك؛ فعفا عنه.

(١) الأبيات لإبراهيم بن يحيى بن المبارك اليزيدي في الوافي بالوفيات، لصلاح الدين الصفدي، في ترجمته.

(٢) انظر الحاشية السابقة.

وقال الصولي: ما كان في الخلفاء أحلم من الواصل ولا أضبر منه على أذى، وكان يتشبه بالمأمون؛ فمما ذكر عنه أنه كان يعجبه غناء أبي حشيشة الطنبوري، فوجد المسدود المغني من ذلك حسداً، فكتب في رقعة بيتين يهجو بهما الواصل، وكانت الرقعة معه لا تبرح، واتفق أن كتب رقعة يسأل فيها حاجة من الواصل، فغلط وأعطاه الرقعة التي فيها البيتان ففتحها، فإذا فيها^(١): [الهج]

مِنِ الْمَسْدُودِ فِي الْأَنْفِ إِلَى الْمَسْدُودِ فِي الْعَيْنِ
أَنَا طَبْلٌ لَهُ شَوْ فَيَا طَبْلٌ بِشَقَّيْنِ

وكان على إحدى عيني الواصل بياض، وإلى ذلك نحا المسدود، فلما قرأهما علم أنهما فيه، فقال له: قد غلظت في ورقة الحاجة، فاحترس من مثلها؛ وردّها إليه وقضى حاجته، ولم يتغير لها عما كان عليه. ولما ظفر المتوكل بمحمد بن المغيث الربيعي، وكان قد خرج عليه في سنة أربع وثلاثين ومائتين، فلما وقف بين يديه وهو مكبل، قال له: ما حملك على أن خرجت عليّ وأنت لا ذو مال ولا ذو مدد من رجال؟ فقال: الشّوة والجبن يا أمير المؤمنين، وأنت الحبل الممدود بين الله وبين خلقه، وإني بين ظنّين أسبقهما إلى قلبي أولى بك من الآخر؛ ثم أنشد: [الطويل]

أَبَى الْقَوْمَ إِلَّا أَنْكَ الْيَوْمَ قَاتِلِي إِمَامَ الْهُدَى وَالْعَفْوِ فِي اللَّهِ أَجْمَلُ
وَهَلْ أَنَا إِلَّا جَبَلَةٌ مِنْ خَطِيئَةٍ وَعَفْوِكَ مِنْ نَوْرِ الْخِلَافَةِ يُجْبَلُ
تَضَاعَلْ ذَنْبِي عِنْدَ عَفْوِكَ قَلَّةٌ فَمَنْ بَعَفُوْكَ مِنْكَ وَالْعَفْوُ أَفْضَلُ
وَأَنْكَ خَيْرَ السَّابِقِينَ إِلَى التَّقَى وَلَا شَكَّ أَنَّ خَيْرَ الْفِعَالِينَ تَفْعَلُ
وَأَمْرٌ بِفِكَ قِيْدُهُ وَغَلَّةٌ وَخَلْعٌ عَلَيْهِ وَأَمْرٌ لَهُ بِصِلَةٍ.

وهجا الحيص بيص الشاعر المسترشد، فأباح دمه، فهرب إلى دُبَيْس بن صدقة، ثم عاد إلى بغداد مستخفياً وكتب إلى المسترشد يستعطفه: لولا جرائم العبيد لم يظهر حلم الموالي، وقد أتيتك مُسْتَجِيرًا بعفوك من سطوتك، وبِحِلْمِكَ مِنْ نَقْمَتِكَ؛ فوقع على رقعته ليوغر بمسارعة العفو مع عظيم الجرم احتقاراً بالمعفو عنه.

(١) البيتان في التذكرة الحمدونية، لابن حمدون، ص ٧٩٢.

مكرمة لا نظير لها ولم يكتب المؤرخون مثلها

حكوا عن محمد بن حميد الطوسي أنه كان يوماً على غذائه، وإذا بضجة عظيمة على الباب فرفع رأسه، وقال لبعض غلمانه: ما هذه الضجة؟ مَنْ كان عند الباب فليدخل، فخرج الغلام وعاد، وقال: يا مولاي إِنَّ فلاناً أخذ وجيء به موثقاً بالحديد والغلمان والشُّرط ينتظرون أمرك فيه، فرفع يده من الطعام سروراً بأخذه، فقال رجل ممن كان حاضراً عنده: الحمد لله الذي أمكنك من عدوك، فسبيلك أن تسقي الأرض من دمه؛ وقال آخر: بل يُضَلَب حياً ويُعَذَّب حتى يموت؛ وتكلّم كلّ أحد بما وفق له وهو ساكت مطرق، ثم رفع رأسه وقال: يا غلام فكّ عنه وثاقه وأدخله إلينا مُكرّماً، فلما يكن بأسرع ممّا امتثل أمره وأدخل إليه رجل لا دم فيه، فلما رآه هشّ له ورفع مجلسه وأمر بتجديد الطعام وجعل ينسّطه ويلقّمه حتى انتهى الطعام، ثم أمر له بكسوة حسنة وصلة جميلة وأمر برّده إلى أهله مُكرّماً ولم يُعَاتبه بحرفٍ واحد على جانيته، ثم التفت إلى جلسائه وقال لهم: إِنَّ أَفْضَلَ الْأَصْحَابِ مَنْ حَضَّ الصَّاحِبَ عَلَى الْمَكَارِمِ، وَنَهَاهُ عَنِ ارْتِكَابِ الْمَآثِمِ، وَحَسَّنَ لَهُ أَنْ يَجَازِيَ الْإِحْسَانَ بِضَعْفِهِ وَالْإِسَاءَةَ عَمَّنْ أَسَاءَ إِلَيْهِ بِصَفْحِهِ، إِنَّا إِذَا جَازَيْنَا مَنْ أَسَاءَ إِلَيْنَا بِمِثْلِ مَا أَسَاءَ فَأَيْنَ مَوْضِعَ الشُّكْرِ عَمَّا أُتِيحَ مِنَ الظَّفَرِ، إِنَّهُ يَنْبَغِي لِمَنْ يَحْضُرُ مَجَالِسَ الْمُلُوكِ أَنْ يُنْسِكَ إِلَّا عَنْ قَوْلٍ سَدِيدٍ، وَأَمْرٍ رَشِيدٍ، فَإِنَّ ذَلِكَ أَذْوَمُ لِلنِّعْمَةِ، وَأَجْمَعُ لِلْإِلْفَةِ، إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ۖ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [الأحزاب: الآيتان ٧٠، ٧١].

وأحسن منها ما كتب به المعتصم إلى عبد الله بن طاهر: عافانا الله وإياك، قد كانت عليك هناة غفرتها لك لاقتداري عليك، وقد بقيت في قلبي عليك حزازات أخاف عليك منها عند نظري إليك، فإن أتاك مني ألف كتاب أستقدمك فيها لا تقدم، وحسبك ما أنا عليه لك اطلاعي إياك على ما في ضميري، والسلام.

وممن أحسن من الأمثال إلى من أساء إليه

وأسبل عند القدرة ستر المنّ عليه

يزيد بن المهلب، وذلك أنه بلغه أن حمزة بن بيض الشاعر هجاه فأحضره وأمر بتجريدته وضربه، وكان عليه حلة ديباج كان المهلب وهبها له فعسر نزعها فأمر

بتخريقها، فلما عزم على ذلك رآه يزيد يهمهم بشفتيه، فقال له: وَيَحْكُ مَا الَّذِي تَقُولُ؟ قَالَ: قُلْتُ^(١): [الطويل]

لِعَمْرِكَ مَا الدِّيبَاجُ خَرَقَتْ وَحْدَهُ وَلَكُنَّمَا خَرَقَتْ جِلْدَ الْمُهْلَبِ
فَأَطْلَقَهُ وَاعْتَذَرَ إِلَيْهِ وَوَصَلَهُ.

ولما ظفر الحجاج بمحمد بن عبد الرحمن بن الأشعث، وكان قد خرج عليه وخلع عبد الملك بن مروان، فأمر بضرب أعناق الجند الذين ظفر بهم حتى أتى على رجل من بني تميم، فقال: والله أيها الأمير لئن أسأنا في الأدب لما أحسنت في العقوبة، فقال الحجاج: أُوْءُ لِهَذِهِ الْجَيْفِ أَمَا كَانَ فِيهِمْ مَنْ يُخْسَنُ بِمِثْلِ هَذَا؛ وَأَمْرٌ بِإِطْلَاقِ مَنْ بَقِيَ وَعَفَا عَنْهُمْ.

وَمِنْ أَخْبَارِ الْحَجَّاجِ فِي الْعَفْوِ عَنْ عَدُوِّهِ بَعْدَ الظُّفْرِ بِهِ مَا حُكِيَ أَنَّهُ لَمَّا ظَفَرَ بِعَامِرِ بْنِ حَطَّابٍ مَعَ جَمَاعَةٍ مِنَ الْخَوَارِجِ الصَّفَرِيَّةِ، وَكَانَ حَنِقًا عَلَيْهِ لِبَسَالَتِهِ وَشَجَاعَتِهِ وَنَكَايَتِهِ فِي أَصْحَابِهِ، فَقَالَ: يَا غَلَامُ اضْرِبْ عُنُقَ ابْنِ الْفَاعِلَةِ، فَقَالَ عَامِرٌ: يَا حَجَّاجُ يَبْسُ مَا أَذْبَكَ أَهْلَكَ، أَبْعَدَ الْمَوْتَ غَايَةَ اسْتِنْعَاكِ بِهَا مَا يُؤْمِنُكَ؟ لَوْ رَدَدْتُ عَلَيْكَ أَضْعَافَ مَا قُلْتُ؛ فَاسْتَحْيَا الْحَجَّاجُ مِنْهُ، وَقَالَ لَهُ: أَفِيكَ مَوْضِعٌ لِلصَّنِيعَةِ؟ قَالَ: أَجَلٌ؛ فَأَمَرَ لَهُ بِفَرَسٍ وَسَرَجٍ وَسَيْفٍ وَخَلَّى سَبِيلَهُ. وَيُقَالُ: إِنَّهُ لَمَّا صَارَ إِلَى أَصْحَابِهِ قَالُوا لَهُ: عُذْ إِلَى قِتَالِ الْفَاسِقِ فَاللهُ أَطْلَقَكَ، فَقَالَ: هَيْهَاتَ غَلَّ يَدًا مَطْلَقَهَا، وَارْتَهَنَ رِقَبَةً مُعْتَقَهَا. وَقَالَ^(٢): [الكامل]

أَقَاتِلِ الْحَجَّاجَ عَنْ مَلَكُوتِهِ	بِيدَ تَقَرَّبَ أَنْهَا مَوْلَانُهُ
إِنِّي إِذَا لِأَخِي الدَّنَاءَةِ وَالَّذِي	عَفْتُ عَلَى عِرْفَانِهِ جَهْلَاتُهُ
مَاذَا أَقُولُ إِذَا وَقَفْتُ إِزَاءَهُ	فِي الصَّفِّ وَاحْتَجَّجْتُ لَهُ فَعَلَاتُهُ
أَقُولُ جَرْتُ عَلَيَّ إِنِّي عِنْدَ مَا	لَا حَقَّ مَنْ جَارَتْ عَلَيْهِ وَلَاتُهُ
تَاللهِ لَا كَدْتُ الْأَمِيرَ بَالَةً	وَجَوَارِحِي وَسِلَاحَهَا آلَاتُهُ
أَكِيدُهُ وَعَلَيَّ سَخِطَةُ خَالِقِي	وَعَلَيْهِ رَحْمَةُ مَالِكِي وَصَلَاتُهُ
لَأَشَدَّ مِنْ كَفْرِ الْكُفُورِ وَجَحْدِهِ	نَارًا تَسْوَأُ لِلْفَحْهَا حَالَاتُهُ

(١) البيت لزياد الأعجم في ديوانه، وهو بيت منفرد.

(٢) الأبيات لعمران السدوسي في ديوانه، والبيت الأول مطلع القصيدة.

وتحدّث الأكفاء أنّ صنائعاً غرست له فتحفظت نخلاته
أبت الحزامة أن أبیت مُصعراً خذي وخيل الحقّ منتعلاؤه
فإليكم عني فإني مُفلتٌ هيّهاته لا يجرّني إفلاته
نقم طلحة بن جعفر المتوكل المنعوت بالموفق على هارون بن عبد الملك،
فوقف بين يديه وأنشد: [الخفيف]

يا بني هاشم بن عبد مناف لکم حادث العلا والقديم
ليس عندي وإن تغيّرت إلّا طاعة محنة وقلب سليم
وانتظار الرضا فإن رضا السادات عزّ وعتبهم تقويم

فعفا عنه ووصله. وكان المهلب بن شاهين الشاعر عاملاً بنهر فروة ونهر رجا
لعزيز الدين، فظهرت عليه خيانة فأشخصه وتوعّده، فلما مثل بين يديه قال^(١):
[الكامل]

قل للعزيز أدام ربّي عزّه وأناله من خيره مكنونه
إني جنيت ولم تزل تُبل الوري يهبون للخدام ما يجنونه
ولقد جمعت من الجنون فنونه فأجمع من الصّفح الجميل فنونه
من كان يرجو عفو من هو فوقه فليغف عن جرم الذي هو دونه

فعفا عنه وأعاده إلى عمله. وقال أبو الفتح محمد بن أردشير: كنت
بالسيرجان مع الوزير أبي غالب الحسن بن منصور الملقّب بذي السعادتین، فاتّفق
أن شربت عنده يوماً فسكرت سكرًا سقط معه سفتجتي من كمي وفيها رقاع قد
أعطانيها أربابها لأتنجز لهم توقيعاته عليها، ومن جملتها رقتان بخطي قد كتبت في
إحدهما^(٢): [الرمّل]

يا قليل الخير موفور الصلف والذي في البغي قد حاز السرف
كن لئيمًا وتواضع تحتمل وكريمًا يحتمل منك الصلف

(١) الأبيات للمهذب بن شاهين (وليس المهلب) في خريدة القصرة، للعماد الأصبهاني، في ترجمته.

(٢) البيتان لأبي علي الزوزني الكاتب، في يتيمة الدهر، للشعالبي، ٤/١٦٥؛ وبلا نسبة في الوافي
بالوفيات، لصلاح الدين الصفدي، في ترجمة الوزير أبي غالب الحسن بن منصور، ذي
السعادتین.

وفي الأخرى^(١): [الرجز]

يا طارق الباب على عبد الصُّمْد لا تطرق الباب فمائم أحد

فأخذ السِّفْتَجَة وفتحها فوق على الرِّقَاع بجميع ما فيها، ووقع على الرقعة التي فيها البيتان يطلق له ألفا درهم، وعلى الأخرى التي فيها البيت الواحد يوجب له في كل شهر ألف درهم من اتِّصال الشهر الذي نحن فيه، وردَّ الجميع إلى السِّفْتَجَة، وجعلها في كُمِّي وأصبحت مِن الغداة ولا عِلْم عندي بما جرى، فاستدعاني إلى الطعام وقت الظهر، فلم يرَ عندي أثرًا للفعلة التي فعلتها إذا وأنا مِن الضَّالِّين، ولا سمع مِنِّي شكرًا على صنيعه، فقال لي: وقفت على الرِّقَاع؟ قلت: لا أيها الوزير، ثم ذكرت ما كان في الأوراق فتصبَّبت عرقًا واشتغل قلبي لما وجد فيها بخطِّي، فنهضت إلى الرِّقَاع فتأمَّلتها وعدت إليه فشكرته واعتذرت مما وجد، فقال: لا تعتذر فإنَّا نستحقُّه إذا لم نَقْضِ واجبًا، ولم نُراعِ صاحبًا.

وحدَّث محمد بن هلال بن المحسن الصابي في كتاب الهفوات عن الفرج الرمانى الكاتب، قال: قَدِم علينا أبو القاسم المعمر بن الحسين المُدْلَجِي مع الوزير أبي القاسم العلّاء بن الحسين الأهوازي، وكنت إذ ذاك كاتب الإنشاء وخليفة العلّاء، فبعث إليّ المعمر يطلب مني بغلة مسرجة، ولم تكن منزلته عندي منزلة مَنْ أُرَاعِيه، فرددت الرُّقعة مع رسوله ولم أُجِبْه عنها، ثم إنه بعث إليّ الرقعة وعلى ظهرها مكتوب: [الطويل]

عسى سائلٌ ذو حاجة إنْ منعته مِن اليوم سؤالاً أن يكون له غد
فإنك لا تدري إذا جاء سائلٌ أنت بما تعطيه أو هو أسعد

فأعدت إليه الرُّقعة مِن غير جواب كما فعلت أوَّلًا، وضرب الدَّهْر ضرباته فصرف العلّاء ووزير المدلجي، وكنت إذ ذاك متولّيًا أعمالًا كثيرة، فأنفذ إليّ مَنْ أشخصني إلى شيراز، ووردت عليه وأنا لا أشك في قتلي أو القبض عليّ لما تقدم من سوء فِعْلي معه، فقرَّبني وأكرمني وأقمت متردِّدًا إليه أيَّامًا وهو يزيد في برِّي وإكرامي، وأنا مِن فعله متعجِّب وله مستظرف، فلمَّا كان بعد أيام قمت من مجلسه

(١) الخبر والشعر في الوافي بالوفيات، لصلاح الدين الصفدي، في ترجمة الوزير أبي غالب الحسن بن منصور، ذي السعادتين.

منصرفاً فأتبعني الحاجب وقال: الوزير يريد أن يخلو بك، فلم يداخلني ريب في القبض عليّ، فأقمت خائفاً أترقب ما يأمر به فيّ، فلما خلا مجلسه استدعاني وأسرّ إلى بعض خدمه شيئاً فمضى وعاد معه الرقعة بعينها فسلمها إليّ، فلما رأيته وددت أن الأرض ساخت بي، وقرأت بحيث يسمع: ﴿يَلَيْتَنِي مِثُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَّنْسِيًّا﴾ [مریم: الآية ٢٣]، فقال لي: لا ترع أوقفك على سوء فعلك حتى لا تستصغر بعدها أحداً وتطرح مراعاة العواقب، وليكن هذا الفعل لأخلاقك مهذباً؛ ثم خلع عليّ ووصلني وردّني إلى عملي.

وإلى هذا أشار بعض البلغاء الحكماء في التحريض على اصطناع الكرام الخافضة من أقدارهم الأيام في قوله: أحسن إلى كل من له سابقة في الأدب وسابقة في الفضل، ولا يزهّدك فيه سوء الحاجة منه، وإدبار الدولة عنه، فإنك لا تخلو في اصطناعك له وإحسانك إليه من نفس حرّة تملك رقها، أو مكرمة حسنة تُوفي حقها، فإنّ الدّهر يجبر كما يكسر، والدولة تُقبل ثم تُدبر، ومن زرع خيراً حصد أجراً، ومن اصطنع حراً استفاد شكراً؛ وأنشد^(١): [الطويل]

وعدّ من الرّحمن فضلاً ونعمةً عليك إذا ما جاء للخير طالبُ
ولا تمنعن ذا حاجة جاء راغباً فإنك لا تدري متى أنت راغبُ
والجيد في هذا المعنى قول من قال^(٢): [البيسط]

لا تحقرن امرأً قد كان ذا ضِعةٍ فكَم وضيع من الأَقوام قد رأسا
فربّ قوم جفّونا هم فلم نرهم أهلاً لخدمتنا صاروا لنا رؤسا

عُدنا والعود أحمد: دخل أبو الصقر إسماعيل بن بلبل قبل وزارته للمعتمد على صاعد بن مخلد في وزارته، وفي المجلس أبو العباس بن ثوبة، فسأل صاعد عن رجل، فقال أبو الصقر: أنفي يريد نفي، فقال ابن ثوبة: في الخراء؛ فتضاحك الناس وخجل أبو الصقر، فلما ولى أبو الصقر الوزارة دخل عليه ابن ثوبة، وقال: تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين، فقال أبو الصقر: لا تثريب عليك اليوم يا أبا العباس، يغفر الله لك وهو أرحم الراحمين.

(١) البيتان لأبي الأسود الدؤلي في ديوانه، والبيت الأول مطلع القصيدة.

(٢) البيتان لمحمد بن نصر في بهجة المجالس، لابن عبد البر، ص ٤٨٠.

وحدث أبو هريرة الشاعر المصري قال: خرجت يوماً إلى بركة الحبش بمصر متنزّها في أيام الربيع حين أخذت الأرض زخرفها وازيّنت ومعني آنية شراب وكتاب، وكانت تلك عادتي في كلّ سنة، فجعلت أشرب وأنادم كتابي طول يومي، فلما كادت الشمس أن تغرب وتلمح في أجنحة الطّير أخذت في الانصراف إلى منزلي وأنا ثمل، فبينما أنا أمشي وإذا بفارس خرج من مصر ملتثماً لا يبين من وجهه غير عينيه، فسلم وقال: من أين أقبل الشيوخ؟ فقلت في نفسي: أجنّ الرجل ومن يرى معي، فالتفت فإذا خلفي ذود تيوس وراع يسوقه، فقلت: حضرنا ملاك الوالدة أصلحك الله؛ فضحك وانصرف، ولما كان بعد أيام دخلت إلى الأمير تكين في حاجة فقضاها لي وأسرني بألف درهم، وقال: هذه حق حضورك ذاك الملاك؛ فعلمت أنه الذي لقيني فأخذتها وانصرفت.

مُلح مكارم يغتبط بها القلب والسَّمع لدالاتها على كرم النجار والطبع

قتل للأحنف بن قيس ولد، وكان قاتله أخو الأحنف، فأُتي به مكتوفاً ليأخذه به، فلما رآه بكى وأنشد^(١): [البسيط]

أقول للنفس تأنيباً وتسلية إحدى يدي أصابتني ولم ترد

كلاهما خلف من بعد صاحبه هذا أخي حين أدعوه وذا ولدي

ولآخر في معناه وقد قتل قومه أخاه، ولم يقصد أحد بنكاية ولا توخّاه^(٢):

[الكامل الأحذ]

قومي هم قتلوا أميم أخي فإذا رميت يصيبني سهمي

فلئن عفوت لأعفون جَلّلاً ولئن سَطَوْتُ لأوهنن عظمي

وقيل للأحنف بن قيس: ممّن تعلّمت الحُلم؟ قال: من قيس بن عاصم

المنقريّ بينا هو ذات يوم جالس في داره إذ أتته جارية بسفود عليه شواء، فسقط من يدها على ولد له صغير فمات، فذهشت الجارية واختلط عقلها، فلما رأى ذلك منها قال: لا رَوْع عليك، اذهبي فأنت حرّة لله تعالى.

(١) البيتان بلا نسبة في الأشباه والنظائر، للخالدين، ص ٢٠٨؛ وأما علي القالي، ص ٦٥٤.

(٢) البيتان بلا نسبة في الأشباه والنظائر، للخالدين، ص ١٥٠؛ وأما علي القالي، ص ٦٥٣.

خيرٌ منها أو مثلها ما حُكي أن بعض ملوك الفرس، وكان عظيم المملكة سيء الملكة، شريف الهمة شديد التقمة، قَرَّب إليه صاحب مطبخه طعامًا، فوَقعت نقطة من الطعام على المائدة، فزوى لها الملك وجهه وأعرض عنه إعراضًا تحقَّق به الطباخ قتله، فعمد إلى الصحيفة فكفأها على المائدة، فقال له الملك: ما حملك على ما فعلت، وقد علمت أن سقوط النقطة أخطأت بها يدك ولم يُجرِّها تعمِّدك، فما عندك في الثانية؟ قال: استحييت أن يُسمع عن الملك أنه استوجب قتلي واستباح دمي مع قديم خدمتي ولزوم حرمتي في نقطة واحدة أخطأت بها يدي، ولم يُجرِّها تعمِّدي، فأردت أن يعظم ذنبي ليحسن بالملك قتلي، ويُعذر في قتل مَنْ فعل مثل فعلي؛ فقال الملك: إن كان حُسن صنيعك يُنجيك من القتل والتعذيب، فليس مُنجيك من التأديب، اجلدوه مائة، واخلعوا عليه خلع الرضا، وسوِّغوه أنعامًا يؤذن بالعفو عمَّا مضى.

ولنعقب هذا الفصل من لطيف الاعتذار

ما نستعطف به القلوب بعد التفار

جری بین الحسین بن علی و بین أخیه محمد ابن الحنفیة رضي الله عنهما كلام وافترقا متغاضبين، فلما وصل محمد إلى منزله كتب إلى الحسين بعد البسملة: مِنْ مُحَمَّد بن عَلِيٍّ إلى أخيه الحسين بن عليٍّ، أما بعد؛ فإنَّ لك شرفًا لا أبلغه، وفضلًا لا أدركه، فإنَّ أُمِّي امرأة من بني حنيفة، وأُمُّك فاطمة بنت رسول الله ﷺ، ولو كان مِلء الأرض نساء مثل أُمِّي ما وَفَّين بأُمِّك، فإذا قرأت رقعتي هذه فالبس رداءك ونعلينك وِسِرْ إليَّ لترضيَنِي وإياك أن أسبقك إلى هذا الفضل الذي أنت أَوْلَى به مِنِّي، والسلام؛ فلبس الحسين رداءه ونعليه وجا إليه وترضاه.

وكان في قلب الأمين من إسحق الموصلي شيء، فأهدى له جارية فردَّها، فكتب إليه إسحق^(١): [المتقارب]

هتكت الضمير بردَّ اللطف	وكشفت أمرك لي فانكشف
فإن كنت تحقد شيئًا مضى	فهب للخلافة ما قد سلف
وجُد لي بالعفو عن زلتي	فبالفضل تأخذ أهل الشرف

(١) الأبيات في ديوان إسحق الموصلي، وهي ثلاثة أبيات منفردة.

فلم يفعل، فكتب إليه^(١): [المجتث]

أتيت ذنباً عظيماً وأنت أعظم منه
فخذ بحقك أولاً فامسح بصفحك عنه

فعاد إلى الجميل.

وقال أبو بكر الصولي: أحسن رقعة كُتِبَتْ في الاعتذار رقعة كتب بها الرّاضي إلى أخيه المتقي، وكان قد جرى بينهما كلام بحضرة المؤدّب، وكان المتقي قد اعتدى على الرّاضي: أنا مُعترفٌ لك بالعبودية فرضاً، وأنت معترفٌ لي بالأخوة فضلاً، والعبد يُذنب والمولى يعفو ويغفر، وقد قال الشاعر^(٢): [السريع]

يا ذا الذي يغضب في غير شيءٍ عتب فعتباك حبيب إليّ
أنت عليّ أنك لي ظالم أعزّ خلق الله طرّاً عليّ

فلما وقف المتقي على الرقعة هبّت عليه منها رياح الأريحية، فعطفت منه عواطف النفس الأيية، ومضى إليه راضياً، وأكبّ عليه باكياً، وانحسمت بينهما مواد الهجر بقبول صادق العذر، وأزيل مصون الحقد، وانتظم بانتظام الشمل وانتظام العقد.

وقع ذو الرئاستين الفضل بن سهل إلى طاهر بن الحسين: والله يا نصف إنسان لئن أمرت لأنفذن، ولئن أنفذت لأبرمن، ولئن أبرمت لأتلقن؛ فأجابه طاهر: إنما أنا أعزّ الله كالأمة السوداء إن حُمل عليها دمدمت، وإن رقه عنها أمسكت، وإن عُقبت فيما وجب عليها، وإن عُفِيَ عنها فبالإحسان إليها؛ فعفا عنه.

وما ألطف ما كتب به بعض الفضلاء إلى أخيه يستعطفه: أنت سليل نبوة، وشقيق أخوة، أصلها من سوحة وفروعها من دوحة، فنحن لذة أوان، ونشوان زمان، ورضيعا لبان، وركيضا أمومة، وغضنا جرثومة، درجاً من وكر، ومهداً في حجر، فكيف تُوقظ عين الدهر، وتبسط يد الهجر، وتنبّه غافي الرقاد، والحسود لنا بمرصاد. وكتب آخر إلى صديق يستعطفه: أصفيت لك ودي، وأكديت لك عقدي، ومَحَحْتُكَ إخواني ولم أُمَزّق لك صفائي، فقرب الإخاء بالود أنقع للغلة،

(١) البيتان في ديوان إسحق الموصلي، وهما بيتان منفردان.

(٢) البيتان في كتاب الأذكياء، لابن الجوزي، ص ٤١٢.

وأَنْفَعُ لِلْعَلَّةِ، وَأَسْكَنُ لِلرَّوْعَةِ، وَأَشْفَى لِلْوَعَةِ، وَأَطْفَأُ لِلْحَرَقَةِ، وَأَنْسَ لِلْفَرْقَةِ. وَقَالَ أَعْرَابِيٌّ لِأَمِيرِ نَقَمٍ: هَذَا مَقَامٌ مَنْ لَا يَتَّكِلُ عَلَى الْمَعْذَرَةِ، بَلْ يَعْتَمِدُ مِنْكَ عَلَى الْمَغْفِرَةِ. وَقَالَ آخَرُ: لِأَنَّ يُحْسِنَ فِي الْعَفْوِ وَقَدْ أَسَأْنَا فِي الذَّنْبِ أَوْلَى مِنْ أَنْ يُسَيِّءَ بِالْعَقُوبَةِ، وَقَدْ أَحْسَنَّا فِي الْإِعْذَارِ. وَاعْتَذَرَ آخَرُ، فَقَالَ: لَذْتُ بِعَفْوِكَ وَاسْتَجَرْتُ بِصَفْحِكَ، فَأَذِنَنِي حِلَاوَةُ الرِّضَا، وَأَجَزَنِي مِنْ مَرَارَةِ السَّخَطِ فِيمَا مَضَى. وَكَتَبَ آخَرُ: لِكُلِّ ذَنْبٍ عَفْوٌ وَعَقُوبَةٌ، فَذُنُوبُ الْخَاصَّةِ مُسْتَوْرَةٌ، وَسَيِّئَاتُهُمْ مَغْفُورَةٌ، وَذَنْبٌ مِثْلِي مِنَ الْعَامَّةِ لَا يُغْفَرُ، وَكُسْرُهُ لَا يُجْبَرُ؛ وَإِنْ كَانَ وَلَا بَدْ مِنْ الْعَقُوبَةِ، فَعَاقِبَنِي بِإِعْرَاضٍ لَا يُوْذِي إِلَى إِبْعَادٍ، وَلَا يُفْضِي فِي الصَّفْحِ إِلَى مِيعَادٍ؛ وَلِأَن تُحْسِنُوا وَقَدْ أَسَأْنَا خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَسِيؤُوا وَقَدْ أَحْسَنَّا، فَإِنْ كَانَ إِحْسَانٌ مَتَا فَمَا أَحَقَّكُمْ بِمَكَافَأَتِهِ، وَإِنْ كَانَ مِنْكُمْ فَمَا أَحَقَّكُمْ بِاسْتِمَامِهِ. أَبْيَاتٌ فِي الْمَعْنَى^(١):
[الوافر]

أَقْلَ ذَا الْوَدِّ عَشْرَتَهُ وَقَفُّهُ عَلَى سُنَنِ الطَّرِيقِ الْمُسْتَقِيمَةِ
وَلَا تُسْرِعْ بِمَعْتَبَةٍ إِلَيْهِ فَقَدْ يَهْفُو وَبَيْنَهُ سَلِيمَةٌ
آخِرُ^(٢): [الطويل]

أَسَأْتُ وَلَمْ أَحْسَنْ وَجِئْتُكَ هَارِبًا وَأَيْنَ لِعَبْدٍ مِنْ مَوَالِيهِ مَهْرُبُ
يُؤْمَلُ غَفْرَانًا فَإِنْ خَابَ ظَنُّهُ فَمَا أَحَدٌ مِنْهُ عَلَى الْأَرْضِ أَخْبُ
آخِرُ^(٣): [الكامل]

إِنْ كَانَ ذَنْبِي قَدْ أَحَاطَ بِزَلَّتِي فَأَحِطْ بِذَنْبِي عَفْوُكَ الْمَأْمُولَا
فَلَقَدْ رَجَوْتُكَ فِي الَّذِي لَا يُرْتَجَى فِي مِثْلِهِ أَحَدٌ فَنِلْتُ السُّوْلَا
وَضَلَلْتُ عَنْكَ لَمْ يَكُنْ لِي مَذْهَبُ فَوَجَدْتُ حَلْمَكَ لِي عَلَيْكَ دَلِيلَا
آخِرُ: [البسيط]

يَا مَنْ أَسَأْتُ وَبِالْإِحْسَانِ قَابِلَنِي وَجُودُهُ لَجَمِيعِ النَّاسِ مَبْذُولُ
قَدْ جَاءَ عَبْدُكَ يَا مَوْلَايَ مُعْتَذِرًا وَأَنْتَ لِلْعَفْوِ مَرْجُوٌّ وَمَأْمُولُ

(١) البيتان لكشاجم في ديوانه، وهما بيتان منفردان.

(٢) البيتان بلا نسبة في طبقات الأولياء، لابن الملقن، ص ٢٦٧.

(٣) البيت الأول بلا نسبة في إعتاب الكتاب، لابن الأثير، ص ٢٧٨.

آخر: [البسيط]

إِنَّ الْكِرَامَ إِذَا مَا اسْتَعْطَفُوا عَطَفُوا
وَالْعَفْوُ بَعْدَ اقْتِدَارِ فَعْلِهِ كَرَمٌ
عَاقِبٌ بِمَا شِئْتُ غَيْرَ الْهَجْرِ أَرْضَ بِهِ
وَالْحَرَّ يَغْضَى وَيَهْفُو وَهُوَ مُعْتَرِفٌ
وَالْهَجْرُ بَعْدَ اعْتِدَاءِ فِعْلِهِ شَرَفٌ
فَالْهَجْرُ فِيهِ لِأَحْزَانِ الْفَتَى تَلَفٌ

آخر^(١): [البسيط]

هَبْنِي أَسَاءَتٍ فَأَيْنَ الْفَضْلُ وَالْكَرَمُ
يَا خَيْرَ مَنْ مُدَّتْ الْأَيْدِي إِلَيْهِ أَمَّا
بَالِغَتْ فِي السُّخْطِ فَاصْفَحْ صَفْحَ مُقْتَدِرٍ
إِذَا قَادَنِي نَحْوُكَ الْإِذْعَانُ وَالنَّدَمُ
تَرْتِي لِشَيْخٍ نَعَاهُ عِنْدَكَ الْهَرَمُ
إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا مَا اسْتَرْجَمُوا رَحِمُوا

الخيزرزي: [الخفيف]

نَحْنُ قَوْمٌ نَرَى فِرَاقَكَ عَيْنًا
أَنْتَ إِنْ كُنْتَ قَدْ غَضِبْتَ جَعَلْنَا
وَنَرَى الْقُرْبَ مِنْكَ حَثْمًا وَفَرْضًا
لَكَ حَرَّ الْوَجْهِ أَرْضًا لَتَرْضَى

آخر^(٢): [المقارب]

لِيَالِي صَدُودِكَ لَيْسَتْ تَضِي
وَمَا يَأْلَفُ الْقَلْبُ يَا سَيِّدِي
وَعَمْرُ تَجَنُّيْكَ مَا يَنْقُضِي
سَوَى مَا تَحَبَّ وَمَا تَرْضِي

آخر: [السريع]

مَا أَحْسَنَ الْعَفْوَ مِنَ الْقَادِرِ
إِنْ كَانَ لِي ذَنْبٌ وَلَا ذَنْبَ لِي
لَا سِيْمًا مِنْ قَادِرٍ قَاهِرٍ
فَمَا لَهُ غَيْرُكَ مِنْ غَافِرٍ
بِحُزْمَةِ الْوَدِّ الَّذِي بَيْنَنَا
لَا تَفْسُدُ الْأَوَّلَ بِالْآخِرِ

آخر: [الوافر]

أَسَاءَتُ إِلَيْكَ ثُمَّ أَسَاءَتُ عَوْدًا
وَأَيْنَ الْعَفْوُ مِنْ مَوْلَى عَزِيزٍ
فَأَيْنَ عَوَائِدُ الصَّفْحِ الْجَمِيلِ
يَجُودُ بِهِ عَلَى عَبْدٍ ذَلِيلٍ

(١) الأبيات للحاجب المصحفي في ديوانه، وهي ثلاثة أبيات منفردة.

(٢) البيتان في أخبار الرازي بالله والمتقي لله، للصولي، ص ٢٨٥.

آخر: [مجزوء الكامل]

إن كنتُ عبداً مُذنباً فاعطف عليّ بحُسن رأيك
أو كنتُ لستُ بمُذنبٍ فدعِ التَّماذي في جفائك

بعض العرب: [الطويل]

فهلاً أبُيت اللّعن لا تُخزيننا بذنبٍ امرئٍ أمسى من العلم مُعدماً
فما العبدُ بالعبد الذي ليس مُذنباً وما الربُّ بالربِّ الذي ليس مُنعماً
آخر^(١): [الوافر]

وما قابِلْتُ سَخَطَكَ باعتذارٍ ولكنني أقول كما تقولُ
سأطرق باب عفوكَ باعترافٍ ويحكم بيننا الخُلُقُ الجميلُ
آخر^(٢): [البسيط]

هَبْنِي كما زعم الواشون لا رحموا أني أسأت ورّلت مني القَدَمُ
وهَبْكَ جارٍ على ذا العهد في جُزْمٍ لم أجنيه ضاق منك العفو والكرمُ
ما أنصَفْتَنِي في حكم الهوى أَدُنُّ تصغي للؤمي وعن عُذري بها صَمَمُ
آخر^(٣): [الكامل]

أخلاقك الغرّ السجايا ما لها حملت رديّ العنف وهي سُلَافُ
والبشر في مرآة وجهك ما له يخفى وأنت الجوهر الشفّافُ
آخر: [الخفيف]

لَيْتَ شعري وقد تماذى بك الهجـ ر أمئك الجفاء أم كان مني
فلئن جئتُه فعنك عفا الدـ ه وإن كنت جئتُه فاعفُ عني

(١) البيتان بلا نسبة في ديوان الصبابة، لابن بي حجلة، ص ٣٦٣.

(٢) الأبيات لأبي سعد الكاتب الكرمانى، محمد بن علي بن محمد بن المطلب في فوات الوفيات، لابن شاعر الكتبي، في ترجمته؛ ولصدقة بن منصور بن دبّيس الأسدي، سيف الدولة، في خريدة القصر، للعماد الأصفهاني، في ترجمته.

(٣) البيتان لمهيار الديلمي في ديوانه، من قصيدة مطلعها:

سأل اللّوى وسؤاله إلحافٌ لو كان من أهل اللّوى إسعافٌ

وكلّ الناس عيالٌ على النابغة الذبياني في قوله للنعمان بن المنذر مِنْ أبيات جاء منها^(١): [الطويل]

حلفت ولم أترك لنفسك رَبة وليس وراء الله للمرء مذهب
لئن كنت قد بلغت عني جناية لمبلغك الواشي أغش وأكذب
فلا تتركني بالوعيد كأتني إلى الناس مطلي به القار أجرب
فلست بمستبق أخا لا تلمه على شعبٍ أتى الرجال المهذب

أبو نؤاس يستعطف الأمين، وكتب بها إليه من الحبس^(٢): [الطويل]

تذكر أمين الله والعهد يُذكر مقامي وإنشاديك والناس حضر
ونثري عليك الدرّ يا درّ هاشم فمن ذا رأى درّاً على الدرّ يُنثر
مضت لي شهور مُذْ حُبست ثلاثة كأني قد أذنبت ما ليس يُغفر
فإن كنت لم أذنب ففيم حبستني وإن كنت ذا ذنب فعفوك أكبر
إسحق الموصلي^(٣): [البيسط]

لا شيء أعظم من ذنبي سوى أملي لعفوك اليوم عن ذنبي وعن زللي
فإن يكن ذا وذا عندي قد اجتمعا لأنت أعظم من ذنبي ومن أملي

الفصل الثالث من الباب الثالث عشر

في ذمّ العفو عنّ أساء وانتهك حرّمات الرؤساء

قال الله تعالى: ﴿فَمَنْ أَعَدَّى عَلَيْكُمْ فَأَعِدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعَدَّى عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: الآية ١٩٤]، وقال تعالى: ﴿وَلَمَنْ أَنْصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ﴾ [الشورى: الآية ٤١]. وقد ثبت أنّ النبي ﷺ أمر بقتل أبي عزة الشاعر لما كان يعرض به من أذى النبي ﷺ بلسانه، ويحرض عليه قبائل قريش، وفي فعله لنا أسوة، قال ابن إسحق: لما أخذ أبو عزة الشاعر يوم بدر وأتى به إلى رسول الله ﷺ قال: يا

(١) الأبيات في ديوان النابغة الذبياني، من قصيدة مطلعها:

أتاني أبيت اللعن أنك لُمتني وتلك التي أهتمّ منها وأنصب

(٢) الأبيات في ديوان أبي نؤاس، والبيت الأول مطلع القصيدة.

(٣) البيتان في ديوان إسحق الموصلي، وهما بيتان منفردان.

رسول الله تصدق بي على بناتي واغف عني عفا الله عنك، قال: «نعم، على أن لا تُعين عليّ بقول ولا فعل»، فعاهده على ذلك وخلق سبيله، ثم إنه خرج مع أبي سفيان يحرض قريشاً على قتال النبي ﷺ، فأخذ يوم أحد فأتى به رسول الله ﷺ فقال له: «ألم تُعاهدني على أن لا تُعين عليّ بقول ولا فعل؟» فقال: غلبت، فتصدق بي على بناتي واغف عني عفا الله عنك، فقال عليه الصلاة والسلام: «إن العفو لمكرمة ما مثلها مكرمة، ولكن لا يُلدغ مؤمن من جحر مرتين»، ثم أمر بقتله فقتل^(١).

فمما للحكماء من تحريض الحرّ على مقابلة المسيء بالنكال المُرّ

قالوا: تواضع للمُحسن إليك وإن كان عبداً حبشياً، وانتصِف ممّن أساء إليك وإن كان حُرّاً قُرَشِيّاً. وقال عليّ رضي الله عنه وكرّم وجهه: الخير بالخير والبادي أكرم، والشرُّ بالشرِّ والبادي أظلم. وقال الشعبي: يُعجبني الرجل إذا سيمَ هواناً دعتُه الأنفة إلى المُكافأة، وجزاء سيئة سيئة مثلها، فبلغ كلامه الحجاج؛ فقال: لله درّه، أي رجل بين جنبيه؛ وتمثّل: [الطويل]

ولا خير في عِرض امرئٍ لا يَصُونُهُ ولا خَيْر في حلم امرئٍ ذُلَّ جانبُهُ

وقالوا: مَنْ ترك العقوبة أغرَى بالذنب، ولولا السيف كَثُرَ الحَيْف. وقالوا: مَنْ مال معك إلى الحَيْف، فلا تبخلن عليه بالسَّيف. وقالوا: السَّفيه يخالف ولا يُؤالف، ويماري ولا يُداري. وقال أوس بن حسان^(٢): [الطويل]

إذا المِرء أُولاك الهوان فأُولِهِ هواناً وإن كانت قريباً أو آخرُهُ

فإن أنت لم تقدر على أن تُهينَهُ فدَعه إلى اليوم الذي أنت قادرُهُ

وقارب إذا ما لم تكن لك حيلةٌ وصمُّم إذا أيقنت أنك عاقرُهُ

وقيل لأعرابي: أيسرُّك أن تدخل الجنة ولا تُسيء إلى مَنْ أساء إليك؟ قال: لا، بل يسرنِي أن أدرك الثَّار، وأدخل مع فرعون النار. أبو عبادة

(١) أخرجه البخاري في الأدب باب ٨٣، ومسلم في الزهد باب ٦٣، وأبو داود في الأدب باب ٢٩، وابن ماجه في الفتن باب ١٣، وأحمد في المسند ١١٥/٢.

(٢) الأبيات للمغيرة ابن حنبل في ديوانه، من قصيدة مطلعها:

إذا أنت عادت امرأ فاطفر له على عشرة إن أمكنتك عوائره

البحرّي^(١): [الطويل]

تذم الفتاة الرود شيمة بعلها إذا بات دون النار وهو ضجيعها
ويقال: إنما هو مالك وسيفك، فازرع بمالك مَنْ شكرك، واحصد بسيفك
مَنْ كفرك. وقال الشاعر: [الكامل]

قط العدى قط اليراعة وانتهاز بظبا السيوف سوائم الأضغان
إنّ البَيّادق إن توسّع خطُّها أخذت إليك مآخذ الفرزان

وقال المأمون: الحلم يُحسن بالملوك إلّا في ثلاثة أشياء: فادح في ملك،
ومتعزّض بجُرم، ومُذيع لِسِرّ. وقال أعرابي لابن عباس: أتخاف عليّ جناحان إن
ظلمني رجل فظلمته؟ فقال له: العفو أقرب للتقوى، فقال: ولمن انتصر بعد ظلمه
فأولئك ما عليهم من سبيل. وقال الشاعر^(٢): [الطويل]

إذا كان حلم المرء عونَ عدوّه عليه فإنّ الجهل أعفى وأزوح
وفي الحلم صغرٌ والعقوبة هيبة إذا كنت تخشى أيدٍ من عنه تصفح

آخر: [الطويل]

أرى اللين ضعفاً والتشجع هيبة ومَنْ لا يَهَب يُحمل على مركبٍ وعِر
وما كلّ حين ينفع الحلم أهله ولا كلّ حين يدفع الجهل بالصّبر

وقال الجاحظ: مَنْ قابل الإساءة بالإحسان فقد خالف الله في تدبيره، وظنّ
أنّ رحمة الله دون رحمته، فإنّه تعالى يقول: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ﴾ [النساء: الآية
١٢٣]، وقال تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ ﴿٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ
شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾ [الزلزلة: الآيتان ٧، ٨]، فجازى على الخير بالثواب، والشرّ بالعقاب.
وقال أكثم بن صيفي: مَنْ تعمّد الذنب فلا ترحمه دون العقوبة، فإنّ الأدب رفق،
والرفق يُمنّ. وقال أبو الطيّب أحمد بن الحسين المتنبّي^(٣): [الطويل]

مَنْ الحُلم أن يُستعمل الجهل دونه إذا اتّسعت في الحلم طُرُق المظالم

(١) البيت في ديوان البحرّي، من قصيدة مطلعها:

منى النفس في أسماء لو تستطيعها بها وجدها من غادة وولوجها

(٢) البيتان بلا نسبة في بهجة المجالس، لابن بعد البرّ، ص ٨٥١.

(٣) البيت في ديوان المتنبّي، من قصيدة مطلعها:

أيا لاثمي إن كنت وقت اللوائم علمت بما بي بين تلك المعالم

آخر: [مخلع البسيط]

مَنْ أَكْرَمَ النَّاسَ أَكْرَمُوهُ وَوَقَرُوهُ وَبَجَلُوهُ
وَمَنْ يُهِنُّهُمْ يَهُنْ عَلَيْهِمْ فِي حَرِّ أَمْنِهِ يَدْخُلُوهُ

وقال الشافعي: مَنْ اسْتُغْضِبَ فَلَمْ يَغْضَبْ فَهُوَ حِمَارٌ، كَمَا أَنَّ مَنْ اسْتُرْضِيَ فَلَمْ يَرْضَ فَإِنَّمَا هُوَ جَبَّارٌ. وقال رجل لابن سيرين: إني وقعت فيك فاجعلني في حلٍّ، قال: مَا أَحَبُّ أَنْ أُحِلَّ لَكَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْكَ. وقال عليّ كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ: رَدَّ الْحَجَرِ مِنْ حَيْثُ جَاءَ، فَإِنَّ الشَّرَّ لَا يُدْفَعُ إِلَّا بِالشَّرِّ. وقال الشاعر^(١): [الوافر]

أَلَا لَا يَجْهَلُنَّ أَحَدٌ عَلَيْنَا فَنَجْهَلُ فَوْقَ جَهْلِ الْجَاهِلِينَ

احتجاج مَنْ جازى السيئة بمثلها ممن ملك عقد الأمور وحلّها

لَمَّا وَلَّى طَاهِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْحُسَيْنِ خَرَّاسَانَ بَعْدَ مَوْتِ أَبِيهِ اسْتَوْمَرَ فِي رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا ضَعِيفٌ وَالْآخَرُ عَلِيلٌ، فَوَقَعَ فِي أَمْرِهِمَا الضَّعِيفُ يَقْوَى وَالْعَلِيلُ يَبْرَأُ، فَإِنْ يَكُونَا مِمَّنْ لَا يُؤْمَنُ شَرُّهُمَا فَدَعُهُمَا مَكَانَهُمَا، فَإِنَّ مَنْ أَطْلَقَ مِثْلَهُمَا عَلَى النَّاسِ، فَهُوَ شَرٌّ مِنْهُمَا وَشَرِيكُهُمَا فِي أَعْمَالِهِمَا. وَاعْتَذَرَ بَعْضُ بَنِي أُمَيَّةَ إِلَى السَّفَاحِ فَهَمَّ بِالصَّفْحِ عَنْهُمْ، فَقَالَ أَبُو مُسْلِمٍ: إِنَّ الصَّفْحَ مَقْرَبٌ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى مُبْعَدٌ مِنَ النَّارِ إِذَا قَصِدَ طَرِيقُهُ وَأَصِيبَ بِهِ أَهْلُهُ، وَأَمَّا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ تَضَمَّنَتْ قُلُوبُهُمْ غَدْرًا، وَأَوْرَى زَنْدَهُمْ شَرًّا، فَلَمْ تَنْفَدِ ضِغَائِنُهُمْ، وَلَا فَنِيَتْ بَوَائِقُهُمْ، فَالْقَتْلُ لَهُمْ أَشْفَى، وَالرَّاحَةُ مِنْهُمْ أَوْلَى؛ فَأَمَرَ بِقَتْلِهِمْ فَقَتِلُوا. وَدَخَلَ إِسْمَاعِيلُ الْمُلقَّبُ بِسَدِيفٍ عَلَى السَّفَاحِ وَعِنْدَهُ سَلِيمَانُ بْنُ هِشَامٍ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ وَقَدْ أَدْنَاهُ وَأَعْطَاهُ يَدَهُ فَقَبَّلَهَا، فَلَمَّا رَأَى سَدِيفٌ ذَلِكَ قَامَ بَيْنَ يَدَيْ السَّفَاحِ وَأَنْشَدَهُ قَصِيدَةً يَمْدَحُهَا فِيهَا وَيُحَرِّضُهَا عَلَى قَتْلِ مَنْ ظَفَرَ بِهِ مِنْ بَنِي أُمَيَّةَ، جَاءَ مِنْهَا^(٢): [الخفيف]

يَا ابْنَ عَمِّ النَّبِيِّ أَنْتَ ضِيَاءٌ اسْتَبَانَكَ الْيَقِينُ الْجَلِيلَا
يَا وَصِيَّ الشَّهِيدِ أَكْرَمَكَ الدَّ هَ فَقَدْ كُنْتَ لِلشَّهِيدِ وَصِيَّا
لَا يَغْرُتُكَ مَا تَرَى مِنْ خُضُوعٍ إِنَّ تَحْتَ الضُّلُوعِ دَاءَ دَوِيَّا

(١) البيت لعمر بن كلثوم في ديوانه، من قصيدة مطلعها:

أَلَا هَبِي بِصَحْنِكَ فَاصْبَحِينَا وَلَا تَبْقِي خُمُورَ الْأَنْدَرِينَا

(٢) الخبر والأبيات في كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني (خبر سديف مع السفاح).

بطن البغض في القديم فأضحى ثابتًا في قلوبهم مطويًا
 فضع السيف وارفع السوط حتى لا ترى فوق ظهرها أمويًا
 فقام أبو العباس ودخل وإذا المنديل قد ألقى في عنق سليمان، ثم جرَّ
 فذبح.

ومن الإغراء، وإن لم يُعتمد: لما أساءت البرامكة على الرّشيد وأراد الإيقاع
 بهم جعل يتردّد في أعمال الحيلة، فتكلّم الرّشيد يومًا في مجلسه كلمة نزع القوم
 بها، فكلّ يحكي في نوعها أو يُنشد شعرًا في معناها، وكان في المجلس ابن
 عزيز، فأنشد أبياتًا في غير المعنى الذي كانوا بصده كانت سببًا لإمضاء عزيمة
 على قتل البرامكة، يقول فيها^(١): [الرمّل]

لَيْتَ هَذَا أَنْجَزْتَنَا مَا تَعِدُ وَشَفْتَ أَنْفُسَنَا مِمَّا نَجِدُ
 وَاسْتَبَدَّتْ مَرَّةً وَاحِدَةً إِنَّمَا الْعَاجِزُ مَنْ لَا يَسْتَبِدُّ

فاستعاد منه الرّشيد البيتين مرارًا، ثم أوقع الرّشيد بالبرامكة بعد ذلك بثلاثة
 أيام، وسنذكر في الفصل الأوسط من الباب الآتي مِنْ إيقاعه بهم ما فيه للمتأمل
 مُقنع، وللمُستخبر مستمتع إن شاء الله تعالى. ولم أرَ في التحريض أبلغ مِنْ قول
 القائل في قصيدة طويلة ذات معانٍ جَمّة وفوائد جليّة^(٢): [البسيط]

ما كلُّ يوم ينال المرء ما طَلَبَا ولا يسوّغه المقدور ما وَهَبَا
 وأعجب الناس مِنْ أن نال فُرْصَتَهُ لم يجعل السَّبب الموصول مُقْتَضِبَا
 وأنصف الناس في كلِّ المواطنِ مَنْ سقى الأعادي بالكأس الذي شَرِبَا
 فالعفو إلّا على الأعداء مَكْرُومَةً مَنْ قال غير الذي قد قلته كَذِبَا
 قتلت عَمْرًا وتستبقي يزيد لقد رأيت رأيًا يجرّ الويل والحربا
 لا تقطعن ذنب الأفعى وتُرسلها إن كنت شهْمًا فأتبع رأسها الذَّنْبَا
 هم جُرّدوا السِّيف فاجعلهم به جزرًا هم أوقدوا النار فاجعلهم لها حطبَا
 واذكر بمنحاهم مثنوى أبي كرب فيهم وحبس عدى عندهم حقبَا
 وسيف جَدَك لَمّا أن أضربَ بهم جاؤوا به لك في أسلابهم سلبَا

(١) البيتان لعمر بن أبي ربيعة في ديوانه، والبيت الأول مطلع القصيدة.

(٢) الأبيات بلا نسبة في الحماسة البصرية، للبصري، ص ٢٢٤.

لا عفو عن مثْلِهِمْ في مثل ما طلبوا
فمنهم أهل غَسَان ومجدهم
إن تَعَفُّ عنهم يقول الناس كلُّهم
وإن أحسن من ذا العفو لو هزموا
علامَ تَقْبَل منهم فديةٌ وهم
استقِ الكلاب غدٍ مِنْ فتيةٍ دمها
لو لم يسر جاز أن تعفو محاجزه
آخر^(١): [الطويل]

يفيض إليّ الشرّ حتى إذا أتى
وأركب ظهر الشرّ حتى أذله
وأكوى بلا نارٍ أناسًا بظلمهم
ولله درّ مَنْ قال^(٢): [الطويل]

إذا آمن الجُهَال جهلك مرّة
وإن أنت باريت السّفِيه إذا انتمى
فلا تعترض عرض السّفِيه وداره
وغمّ عليه الجهل والحلم والقه
فيرجوك تارات ويخشاك تارة
فإن لم تجد بداً مِنَ الجهل فاستعنْ
ودعْ عنك في كلِّ الأمور عتابه
ومَنْ عاتب الجُهَال لم يشف نفسه
فعرضك للجُهَال غنمٌ مِنَ الغنم
فأنت سفيه مثله غير ذي حُلُم
بحُلُمٍ بأن أغيا عليك فبالصُّرْم
بمنزلة بين العداوة والحلم
وتأخذ فيما بين ذلك بالحزم
عليه بجُهَالٍ فذاك مِنَ العزمِ
فإنك إن عاتبته كان كالخصم
ولكنّه يزداد سقمًا على سقم

(١) الأبيات لابن قيس الرقيات في ديوانه، من قصيدة مطلعها:

رقيةً أمسى حبْلُها قد تقضبا وشطّطت لكي تزداد بعدًا وتذهب

(٢) الأبيات لمروان بن الحكم في بهجة المجالس، لابن عبد البر، ص ٨٥٣؛ وبلا نسبة في روضة
العقلاء، لابن حبان البستي، ص ٤٤٢.

آخر: [الطويل]

حبست لكم نفسي على الحلم والرضا فيأمن ذو خوفٍ ويُدرك طالب
إذا أنت لم تصلح لسيفك ما جنى سفيهك صارت في الصدور معاتب
المتنبى^(١): [الكامل]

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يُراق على جوانبه الدّم

نبذة من أدنى النقض والإبرام في ذم مكافاة اللئيم بالإكرام

قالوا: العفو يفسد من اللئيم، بقدر ما يصلح من الكريم. وقال معاوية بن يزيد بن معاوية لأبيه: هل ذممت عاقبة حلم قط؟ قال: ما حلمت عن لئيم، وإن كان ولياً إلا أعقبني ندماً على ما فعلت. وقال الشاعر: [الوافر]

متى تضع الكرامة في لئيم فإنك قد أسأت إلى الكرامة
وقد ذهبت صنيعته ضياعاً وكان جزاء فاعلها الندامة

وقالوا: جنب كرامتك اللئام، فإنك إن أحسنت إليهم لم يشكروا، وإن أسأؤوا لم يستغفروا. شاعر: [الرملي]

إن ذا اللؤم إذا أكرمته حسب إلا كريم حقاً يلزمك
فأهئته إنه من لؤمه إن تسمه بهوانٍ يُكرِمك

ولآخر^(٢): [مجزوء الرمل]

إن اللئيم إذا رأى ليئناً تزيد في حرانه
لا تخذعنّ فصلاح من جهل الكرامة في هوانه

(١) البيت في ديوان المتنبى، من قصيدة مطلعها:

لهوى النفس سريرة لا تُعلم عرضاً نظرتُ وخلتُ أني أسلم

(٢) البيتان بلا نسبة في المتنخل، للشعالبي، ص ٣٠٦؛ ومحاضرات الأدباء، للأصمغاني، ص ٧٦٦؛ وليحيى بن الطيب اليميني النحوي في معجم الأدباء، لياقوت الحموي، في ترجمته.

ويقال: اللّثام إلى رهبوت أحوج منهم إلى رحموت. المتنبي^(١):
[الطويل]

ووضع الندى في موضع السيف بالعلا

مضرّ كوضع السيف في موضع الندى

وقالوا: الكريم يَضْلُح بالإحسان والكرامة، واللّثيم بالهوان والمّلامة.
المتنبي^(٢): [الطويل]

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته وإن أنت أكرمت اللّثيم تمرّدا

إبراهيم بن المهديّ: [الطويل]

إذا كُنْتُ بين الحُلُم والجهل باقلاً وخيرت أتى شئت فالحُلُم أفضل

ولكن إذا أنصفت مَنْ ليس مُنصفاً ولم يَزِضْ مِنْكَ الحلم فالجهل أنبل

إذا جاءني مَنْ يطلب الجَهْل عامداً فإنس سأعْطيه الذي جاء يسأل

ولم أُعْطِهِ إِيَّاهُ إِلَّا لِأَنَّهُ وإن كان مكروهاً من الذلّ أجمل

وفي الخَيْرِ إبطاء فإن جاء عاجلاً كما تشتهيهِ النفس فالشرّ أعجل

ويُنسب لعلّي رضي الله عنه^(٣): [الطويل]

لئن كنت مُحْتَاجاً إلى الحلم إنني إلى الجَهْل في بعض الأحيان أحوج

ولي فرسٌ للخير بالخير مُلْجَم ولي فرسٌ للشرّ بالشرّ مُسْرَج

فمن شاء تقويمي فأني مقوم ومَنْ شاء تعويجي فإن معوج

وما كنت أرضى الجَهْل جدّاً ولا أباً ولكئنني أرضى به حين أخرج

فإن قال بعض الناس فيه سماجة لقد صدقوا والذلّ بالحرّ أَسْمَجُ

(١) البيت في ديوان المتنبي، من قصيدة مطلعها:

لكل امرئٍ من دهره ما تعودا وعادة سيف الدولة الطعن في العدا

(٢) البيت في ديوان المتنبي، من القصيدة نفسها في الحاشية السابقة.

(٣) الأبيات لمحمد بن حزم الباهلي في ديوانه، والبيت الأول مطلع القصيدة، ولمحمد بن وهيب

الحميري، من قصيدة مطلعها:

هل الهَمُّ إلا كربة تنفرج لها معقب تحرى إليه وتزعج

أبو نؤاس^(١): [مجزوء الكامل]

في الناس إن جرّبتَه مَنْ لا يعزّك أو تذله
فاترك مداراة اللئيم هم فإن فيها العجز كله

(١) البيتان ليسا في ديوان أبي نؤاس، وهما لأبي فراس الحمداني في ديوانه، وهما بيتان منفردان.

الباب الرابع عشر

في الانتقام

وفيه ثلاثة فصول:

الفصل الأول من هذا الباب

في التشفي والانتقام ممن أحضر قسرًا في المقام

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا مَا عَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ [الشورى: الآية ٣٧]، ولم يقل هم يقتلون؛ وفي هذا دليل على أن الانتقام قبيح فعله على الكرام، فإنهم قالوا: الكريم إذا قدر غفر، وإذا عثر بمساءة ستر، واللئيم إذا ظفر عقر، وإذا أمِنَ غدر.

ولنقدم كلامًا شافيًا في ذم الغضب إذ هو الزمام القائد للعطب

جاء في تفسير قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: الآية ٢٠١]، أن الطوائف من الشيطان هو الغضب. ويروى أن رجلًا قال للنبي ﷺ: يا رسول الله قل لي قولًا لا ينفعني الله به وأقلل لعلِّي أعرفه، قال: «لا تغضب»، فأعاد عليه المسألة قال: «لا تغضب»، فأعاد عليه المسألة قال: «لا تغضب»^(١). وقال يحيى بن زكريا لعيسى عليهما السلام: أخبرني بما يقربني من رضا ربي ويُبعدني من سخطه، قال: لا تغضب. وقال رسول الله ﷺ: «ما تعدون الشديد فيكم؟» قالوا: الذي لا يصرعه الرجال، قال: «لا، ولكنه الذي يملك نفسه عند الغضب»^(٢). وذكر أن جعفر بن

(١) أخرجه البخاري في الأدب باب ٧٦، والترمذي في البر باب ٧٣، ومالك في حسن الخلق حديث ١١، وأحمد في المسند ١٧٥/٢، ٣٦٢، ٤٦٦، ٤٨٤/٣، ٣٤/٥، ٣٧٠، ٣٧٢، ٣٧٣.

(٢) أخرجه البخاري في الأدب باب ٧٦، ١٠٢، ومسلم في البر حديث ١٠٧، ١٠٨، وأبو داود في الأدب باب ٣، ومالك في حسن الخلق حديث ١٢، وأحمد في المسند ٣٨٢/١، ٢٣٦/٢، ٢٦٨،

محمد الصادق دخل على المهدي وقد امتلأ غضباً على إنسان، قال: يا أمير المؤمنين إنك لا تغضب إلا لله، فلا تغضب له أكثر من غضبه لنفسه. وقد قال بعض الحكماء: إياكم والغضب فرب غضب استحق به الغضب غضب الله عز وجل عليه. ويقال: إن في التوراة: يا ابن آدم لا تغضب فأغضب عليك، يا ابن آدم اذكرني حين تغضب أذكرك حين أغضب، فلا أمحقك فيمن أمحق. وقالوا: إياك وغرة الغضب، فإنها تقضي بك إلى ذلة الاعتذار. وقالوا: الغضب على من لا تملك لؤم، وعلى من تملك شؤم. وقال بعض الأعراب: الغضب عدو العقل، فإنه يحول بين صاحبه وبين العقل والفهم، فيستولي عليه سلطان الهوى فيصرفه عن الحسن وهو الاحتمال إلى القبيح وهو الغضب، ومن عصى الحق غمره الباطل. وقال ابن المعتز: الغضب يصدى القلب حتى لا يرى صاحبه شيئاً حسناً فيفعله، ولا قبيحاً فيجتنبه. ويقال: ما ترك شيئاً من الأحوال الدميمة، ولا تأخر عن سبب من الأسباب اللثيمة: من أنفذ غضبه، وأساء في الانتقام أدبه، واستطاب فعله واستغذبه. وقالوا: ليس من عادات الكرام سرعة الغضب والانتقام. وقالوا: ثلاثة يُعدون في المجانين، وإن كانوا عقلاء: الغضبان، والسكران، والغيران. وقال عمر بن عبد العزيز: ثلاثة من كن فيه فقد استكمل الإيمان: من إذا غضب لم يُخرجه غضبه إلى الباطل، وإذا رضي لم يخرجه رضاه عن الحق، وإذا قام جدال لا يأخذ ما ليس له. وإذا تمكن منه الغضب على أحد حبسه ثلاثة أيام حتى يسكن غضبه ثم يُحضره، فإن وجب عليه العقوبة عاقبه وإلاً أطلقه.

ما اخترناه من كلام الحكماء وأقوال الكرام الأماجد

في ذم التشفي من العدو والمعاد

قالت عائشة رضي الله عنها: كان رسول الله ﷺ لا ينتقم لنفسه، إلا أن تُنتهك حرمة من حُرّمات الله تعالى، فينتقم لله بها^(١). وقالوا: أقبح المكافأة المكافأة بالإساءة. وقال معاوية: إن أولى الناس بالعتو أقدروهم على العقوبة. وقالوا: الاقتدار يمنع الحر من الانتصار. وقال علي رضي الله عنه: أنا إلى العفو والرحمة أقرب مَنّي إلى العقوبة والثّقة. وقال جعفر الصادق: لأن أندم على العفو

(١) أخرجه البخاري في المناقب باب ٢٣، والأدب باب ٨٠، والحدود باب ١٠، ومسلم في الفضائل

عشرين مرة أحب إليّ من أن أندم على العقوبة مرة واحدة. وحُكي أن رجلاً من قريش كان يطلب رجلاً يدخل في الجاهلية، فلما ظفر به قال: لولا أن القدرة تُذهب الحفيظة لانتقمت منك، وتركه. ولهذا يُقال: كلّ عزيز دخل تحت القدرة، واتّضح بالتّصلّ عذره فهو ذليل حقّه على من قدره بالقدرة. جليل أن يتعمّد إساءته بالإحسان إليه ويفكّ أساره بالامتنان عليه، ويُنزله من إكرامه منزلة المُطيع من خُدّامه، ويُغفیه من عتبه وملامه كما أعفاه من سخطه وانتقامه. وقيل: أقبح أفعال ذوي التمكن والاعتدار عقوبة من التّجأ إلى الاعتذار. شاعر^(١): [الرمّل]

ليست الأحلام في حال الرضا إنما الأحلام في حال الغضب

وقال المنصور في كلام لولده المهديّ: لذّة العفو أطيب من لذّة التشقي، وذلك أنّ لذّة العفو يلحقها حمد العاقبة، ولذّة التشقيّ يلحقها ذمّ الندم. ويحكي عن عنان بن خُرَيم أنه دخل على المنصور، وقد قدّم بين يديه جماعة كانوا قد خرجوا عليه ليقتلهم، فقال أحدهم: يا أمير المؤمنين من انتقم فقد شفى غيظه وأخذ حقّه، ومن شفى غيظه وأخذ حقّه لم يجب شكره، ولم يُحسن في العالمين ذكره، وإنّك إن انتقمت فقد انتصفت، وإذا عفوت فقد تفضّلت على أن إقالتك عثار عباد الله مُوجبة لإقالتة عثرتك، وعفوك عنهم موصول بعفوه عنك؛ فقبل قوله وعفا عنهم. وقال الشاعر: [الخفيف]

لذّة العفو إن نظرت بعين الـ عدل أشفى من لذّة الانتقام
هذه تكسب المحامد والمجـ د وهذه تجيء بالآثام

والعرب تقول: لا سُودد مع الانتقام. وقالوا: سرعة العقوبة من لؤم الظفر. وقيل: ليس من الكرم عقوبة من لا يجد امتناعاً من السّطوة. وأسر عليّ رجلاً من أصحاب عائشة رضي الله عنها يوم وقعة الجمل، فقبل له: ونلك وأنت ممن ألّب علينا؟ فقام الأشتر فقال: دعني أضرب عنقه يا أمير المؤمنين، فقال الرجل: يا أمير المؤمنين لأنّ تلقى الله وقد عفوت عني خير لك من أن تلقاه وقد شفيت غيظك وانتصرت لنفسك، فقال: اذهب حيث شئت. وأشدّ للمأمون: [الكامل]

يخشى عدوي من بعيد سَطوتي فإذا قدرت على العدو عفوت

(١) البيت لمسكين الدارمي في ديوانه، وهو بيت منفرد.

وقال بعض الحكماء: التزيّن بالعتو خيرٌ مِنَ التّقبيح بالانتقام. وقال عليّ رضي الله عنه: ليس شيءٌ بخيرٍ مِنَ الخيرِ إِلَّا ثوابه، وكلّ شيءٍ في الدنيا سماعه أعظمُ مِنْ عِيانه، وكلّ شيءٍ في الآخرة عِيانه أعظمُ مِنْ سماعه. ويقال: التشقي طرف من العجز، وَمَنْ رَضِيَ بِهِ لَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الظّالِمِ إِلَّا سِتْرٌ رقيقٌ وحجابٌ ضعيفٌ، ولأنّ يشي عليك بسعة الصدر خيرٌ مِنْ أَنْ تَذمَّ بضيقه. وقال ابن المعتز: مبالغة المقتدر في العقوبة تقربه من غضب الله، وتبعده من انتساب الكرم إليه. وقال: كفى بالظفر شفيعاً للمذنب إلى القادر. وقال بعض الحكماء: لا يحملنك الحنق على اقتراح إثم يشفي غيظك ويُسقم دينك. ويُقال: لا تشنّ حسن الظفر بقبح الانتقام. وقالوا: عقوبة المقتدر تبدأ به تقبح صورته، وتثلم حسبه، وتعجل ندمه. شاعر^(١): [الطويل]

إذا أنت لم تصبر على الحقد لم تُفزْ بمجدٍ ولم تسعد بتقريظٍ مَادِحِ
آخر^(٢): [الطويل]

رأيتُ انتقام المرء يزري بعقله وإن لم يقع إِلَّا بأهل الجرائمِ
وقال الفضيل بن عياض: لا يكون العبد مِنَ المتّقين حتى يأمن عدوّه بوائقه. وقلت: أذمُّ مُسْرِقاً في الانتقام فلان منزوع الرّحمة من قلبه، مصروف الوجه عن المُعترف بذنبه، يرى العفو مغرماً، والعقوبة مَغْنَمًا، إن ضحكت في وجهه عبس، وإن تخاضعت له شمس لا يرقب في المسيء إِلَّا ولا ذمة، ولو شَفَعَ فيه سواد الأُمّة. ومن رسالة للبديع الهمدانيّ يصف ملكاً عظيم الشأن: يحسبه المتأمل إنساناً وهو شيطان، وفلان سماء إذا تغيّم لم يُرَجَّ صحوه، وإذا تغيّر لم يُشْرَبَ صَفْوُه، وإذا سخط لم ينتظر غيره، ليس بين رضاه والسّخط عِوَجَةٌ كما ليس بين غضبه والسّيف فرجة، وليس من سخطه مجاز، كما ليس بين الموت والحياة معه حجاز

(١) البيت للبحري في ديوانه، من قصيدة مطلعها:

نهيتكم عن صالح فابى بكم لجاجكم إلا اغترأوا بصالحِ
ورواية البيت في الديوان:

إذا أنت لم تضرب عن الحقد لم تفز بذكر ولم تسعد بتقريظٍ مَادِحِ
(٢) البيت لإبراهيم بن العباس الصولي، من بيتين، وروايتها فيه:

إذا المرء أثرى ثم ضَرَّ برفده فدعه صريع اللؤم تحت القوائم
وبعض انتقام المرء يزري بعرضه وإن لم يقع إِلَّا بأهل الجرائمِ

يغضبه الجرم الخفي، ولا يرضيه العذر الجلي، وتكفيه الجناية وهي إرجاف ثم لا يشفيه العقوبة وهي حجاب، حتى أنه يرى الذنب وهو أضيّق من ظلّ الرُمح، ويَغْمَى عن العذر وهو أْبَيّن من عمود الصُّبح، وهو ذو أُذنين يسمع بهذه القول وهو بهتان، ويحجب بهذه العذر وهو برهان، وذو يدين ييسط أحدهما إلى السَّفك والسَّفح، ويقبض الأخرى عن العفو والصفح، وذو عينين يفتح أحدهما إلى الجرم، ويغْمض الأخرى عن الحُلم، فمزحه بين القذّ والقطع، وحده بين السِّيف والتطع، ومراده بين الظهور والكمّون، وأمره بين الكاف والنون، ثم لا يعرف من العقاب إلّا ضرب الرّقاب، ولا من التأديب غير إراقة الدماء، ولا يهتدي إلّا إلى إزالة النعماء، ولا يحلم عن الهفوة - كوزن الهبوة - ولا يغضي عن السّقطة بجرم النقطة، ثم إنّ التّقم بين لفظه وقلمه، والأرض تحت يده وقدمه، فلا يلقاه الولي إلّا يغمه، ولا العدو إلّا يذمه، فالأرواح بين حبسه وإطلاقه، كما أنّ الأجسام بين حلّه ووثاقه.

ومما ينتظم في سلك هذا المقول مدح التراحم الراضي به أرباب العقول

قال رسول الله ﷺ: «الرَّاجِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، أَرْحَمُوا مَنْ فِي الْأَرْضِ يَرْحَمُكَ مَنْ فِي السَّمَاءِ»^(١)، وقال عليه الصّلاة والسّلام: «لَا يَنْزِعُ اللَّهُ الرَّحْمَةَ إِلَّا مِنْ قَلْبٍ شَقِيٍّ»^(٢). وقالوا: مَنْ كَرُمَ أَصْلُهُ لَانَ قَلْبُهُ. وقيل: مِنْ أَمَارَاتِ الْكَرِيمِ الرَّحْمَةِ، وَمِنْ أَمَارَاتِ اللَّئِيمِ الْقَسْوَةِ. وقالوا: مِنْ شُكْرِ الظَّفَرِ الصَّفْحُ عَنِ الذُّنُوبِ، وَالسُّتْرُ لِلْعُيُوبِ. وفي الحديث: «إِنَّ اللَّهَ رَحِيمٌ يَحِبُّ مَنْ عْبَادَهُ الرَّحْمَاءُ»^(٣). وقال الأقرع بن حابس لرسول الله ﷺ، وقد رآه يقبل الحسن: إِنَّ لِي عَشْرَةَ أَوْلَادٍ مَا قَبِلْتُ أَحَدًا مِنْهُمْ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ لَا يَرْحَمُ لَا يُرْحَمُ»^(٤).

(١) أخرجه أبو داود في الأدب باب ٥٨، والترمذي في البرّ باب ١٦.

(٢) روي الحديث بلفظ: «لَا تَنْزِعُ الرَّحْمَةَ إِلَّا مِنْ قَلْبٍ شَقِيٍّ»، أخرجه بهذا اللفظ: أبو داود حديث ٤٩٤٢، والترمذي حديث ١٩٢، وأحمد في المسند ٣٠١/٢، ٤٤٢، ٤٦١، ٥٣٩.

(٣) أخرجه البخاري في الجنائز باب ٣٢، والأيمان باب ٩، والتوحيد باب ٢٥، ومسلم في الجنائز حديث ٩، ١١.

(٤) أخرجه البخاري في الأدب باب ١٨، ٢٧، ومسلم في الفضائل حديث ٦٥، وأبو داود في الأدب باب ١٤٥، والترمذي في البرّ باب ١٢، وأحمد في المسند ٢٢٨/٢، ٢٤١، ٢٦٩، ٥١٤.

وقال مالك بن دينار: ما ضرب الله عبداً بعقوبة أعظم من قسوة القلب، ولا غضب الله على قوم إلا أنزع منهم الرحمة.

وكان أبو بكر الصديق رضي الله عنه أشجع الناس، إذا لقي الناس، وأرحم الناس إذا استحكم الباس، ويقال: أرق الناس قلوباً أقلهم ذنباً. وقال عمر بن عبد العزيز: استدعوا العفو عن الناس والرحمة من الله بالرحمة لهم. وفي بعض الكتب المنزلة قول الله تعالى: إن كنتم تريدون رحمتي فارحموا عبادي. شاعر^(١):
[مجزوء الرمل]

ابغ للناس من الخيـ ر كما تبغي لنفسك
وارحم الناس جميعاً إنهم أبناء جنسك

الفصل الثاني من الباب الرابع عشر

في ذكر من ظفر فعاقب بأشد العقوبة ومن راقب

لما ظفر رسول الله ﷺ بعقبة بن أبي معيط أمر بصلبه إلى شجرة، فقال: يا رسول الله أنا من بين قريش، قال: «نعم»، قال: فمن للصبية؟ قال: «النار» فضلب^(٢)، رواه أبو داود في مراسيله وغيره، وقيل: إنه أول مصلوب ضلب في الإسلام. وكان النضر بن الحرث بن كلة شديد العداوة لرسول الله ﷺ، فلما كان يوم بدر أخذ أسيراً، فأمر رسول الله ﷺ بقتله، فقتله علي رضي الله عنه صبراً، وذكر أن أخته قيلة بنت الحرث تعرضت لرسول الله ﷺ وهو يطوف بالبيت، فاستوقفته فوقف، فأنشدته^(٣): [الكامل]

يا راكباً إن الأثيل مظنة من صبح خامسة وأنت موفق
أبلغ بها ميتاً بأن تحية ما إن تزال بها الركائب تخفق
مئي إليك وعبرة مسفوحة جادت لمانحها وأخرى تحنق

(١) البيتان لأبي العتاهية في ديوانه، من قصيدة مطلعها:

إنما أنت بحسك ومن الناس بأنسك

(٢) أخرجه أبو داود حديث ٢٦٨٦، والبيهقي في السنن الكبرى ٣٢٣/٦.

(٣) الأبيات لقتيلة بنت النضر في ديوانها، والبيت الأول مطلع القصيدة. وللبلى بنت النضر بن الحرث في البيان والتبيين، للجاحظ ٢/٢٨٢.

هل يسمعني النَّضر إن ناديته إن كان يسمع ميت مَنْ ينطقُ
ظَلَّتْ سيوف بني أبيه تُنوشه لله أرحامُ هناك تمزقُ
قسراً يقاد إلى أبيه مُتعباً رسف المقيير وهو عانٍ موثقُ
أمحمد ولأنت نجل كريمة في قومها والفحل فحل معرقُ
ما كان ضرك لو مئنت وربما من الفتى وهو المغيظ المحنقُ
لو كنت قابلُ فدية لفديته بأعز ما يغلوبه من ينفقُ
فالنَّضر أقرب مَنْ قتلت قرابة وأحقهم إن كان عتقاً يُغتقُ

فلما سمع رسول الله ﷺ شعرها رق لها، وقال: «لو كنت سمعت شعرها من قبل ما قتلته». ولما فتح رسول الله ﷺ مكة أمر بقتل ستة نفر وأربع نسوة؛ فأما النفر: فعكرمة بن أبي جهل، وهبار بن الأسود، وعبد الله بن أبي سرح، ومقيس بن صبابه، والحويرث بن نقيد، وهلال بن عبد الله بن خطل؛ فأما عكرمة، فإنه هرب ثم أسلم، وهرب هبار بن الأسود ثم أسلم بعد ذلك، وكذلك عبد الله بن أبي سرح، وأما مقيس بن صبابه فقتله غيلة، وأما الحويرث فهرب فلقيه علي بن أبي طالب فقتله، وأما هلال بن عبد الله بن خطل فقتله عمار بن ياسر بين الركن والمقام. وأما النساء، فهند بنت عتبة، وسارية مولاة عمرو بن هشام، وقينتا هلال بن عبد الله بن خطل كانتا تغنيان بهجاء رسول الله ﷺ؛ فأما هند فأسلمت، وأما سارية فقتلها علي رضي الله عنه، وأما قينتا هلال فقتلت إحداهما وأسلمت الأخرى.

وقدِم أناس من عرينة على رسول الله ﷺ المدينة فأسلموا، وكانوا في الصفة، فقطنوا المدينة، فسقمت أجسادهم، فشكوا ذلك لرسول الله ﷺ، فقال: «ألا تخرجون مع راعينا في إبله فتشربون من ألبانها وأبوالها؟» قالوا: بلى، فخرجوا فشربوا الألبان والأبوال فصحوا، فلما صحوا قتلوا الراعي وارتدوا عن الإسلام واستاقوا الإبل، فجاء الصريخ إلى رسول الله ﷺ فبعث في إثرهم، فما ترحل النهار حتى أتى بهم فقطع أيديهم وأرجلهم وسمل أعينهم وتركهم في الحرّة حتى ماتوا^(١).

(١) أخرجه البخاري في الحدود باب ١٥ (المحاريب باب ١)، ومسلم في القسامة حديث ٩، ١٤.

وكان عمرو بن هند من أشد ملوك العرب بأساً وأسوأهم قدرة وأعظمهم جراءة يُذكر عنه أنّه لما قتلت بنو تميم أخاه سعداً غضب وآلى على نفسه أنه متى ظفر بهم قتل رجالهم وسبى حريمهم، فلما ظفر بهم أحمى لهم الصفا ومشى عليه من رجالهم من بلغ أجله، فأتي بشابّ ليمشي عليه كما فعل أصحابه وأقبلت أمّه معه، فلما رأت الصفا وشدة وهجه قطعت ثدييها ورمّت بهما على الصفا، وقالت: يا بني قِ بثديي قدمك، وأقلل بوطئهما ألك؛ ثم أنشدت: [الكامل]

ابني لو قَبِلَ الفداء لجدت بالـ كبد التي أضحت عليك تقطع
يا ليت حرّ النار باشر مُهْجتي أو لَيت خدي فوق خدك يلدغ

فرّق لها عمرو وأمر بإطلاق ولدها، وإطلاق من بقي من قومها. وروى ابن الكلبي عن أبيه، قال: أول من خرج من الحرم بعض إياد وتغلب، وانتشر في أرض نجد، فبعث إليهم الملك زيد بن برعش فغزاهم فأبلى فيهم وأسر وسبى، فلما قَدِم على الملك عرض الأسرى على السيف، فقرب شاباً من إياد ليقتل، فأقبلت أمّه، وهي تقول: [الكامل]

يا أيها الملك المُغيث القاهرُ الحُلم يلزم حين يعفو القادرُ
هذا عبيدك مسلم بجريرة بادي الضّراعة أو منيق عائرُ
إن تسط تسط محكماً أو تعفونَ فالذُّنب يغفره المليك الغافرُ
لاذوا بعفوك من عقابك بعدما جرّدت لها منظومة وخناجرُ
فاصرف إلى الإبقاء عزمك فيهم طولاً فليس لهم مُجيرٌ ناصرُ

فرّق لها الملك وقال لها: لك ما لائه خمارك منهم، فأقبلت تخطّ خمارها شققاً وتصل بعضها ببعض حتى ضمّ طرفاه مائة رجل أو أكثر، فاستضحك الملك وأمر بإطلاقهم وقتل الباقيين.

ومن الحقد المستبشع والتشفي المستشنع

ما ذكره ابن حمدون في تذكرته عن عبد الله بن الزبير حين ظفر بأخيه عمرو، وكان يشايخ بني أمية وهدم دور قوم بالمدينة في هواهم، فلما ولي أخوه عبد الله الخلافة أخذه وأقامه للناس ليقتصّوا منه، فبالغ كل ذي حقدٍ عليه في الاقتصاص، وكان عبد الله لا يسأل أحداً ادّعى عليه شيئاً بينة ولا حجة، وكان

أرباب الحقوق يدخلون عليه السّجن يضربونه والقّبح ينضح من ظهره على الأرض والحائط، فلما لم يَبْقَ أحد من ذوي الحقوق أمر أن يُرسل عليه الجعلان، فكانت تدبّ عليه فتنقب لحمه، وهو معقول لا يستطيع حركة حتى مات، فدخل الموكل به على عبد الله وفي يده عَسَ لبن يريد أن يسخر به وهو يبكي، قال له: أمات؟ قال: نعم، قال: أبعد، ثم تناول العَسَ فشرب ما فيه، وقال: لا تغسلوه ولا تُكفّنوه وادفنوه في مقابر المشركين، فدُفِنَ بها.

وكان الحجاج شديد الوطأة على الجُناة، ذكر أهل التاريخ أنّه لما مات أحصى مَنْ قتل صبراً سوى مَنْ قُتِلَ في حروبه وسراياه، فوجدوا مائة ألف وعشرين ألفاً ومات في حبسه خمسون ألف رجل وثلاثون ألف امرأة منهنّ ستّ آلاف مخدرات، وكان يحبس الرّجال والنساء في موضع واحد، ولم يكن لحبسه سقف يقيهم الحرّ والبرد، وكان الحراس يحصبونهم إذا استظلّوا من وهج الشمس، وزمهير البرد، ولما أُخرجوا بعد موته كان فيهم أعرابي، فقيل له: كم كان لك في السّجن؟ قال: اثنتا عشرة سنة، قيل له: فما ذنبك؟ قال: بليت في ربض واسط، ولما أُطلق جعل يعدو، وهو يقول: [الطويل]

إذا نحن جاوزنا مدينة واسط خرينا وبلنا لا نخاف عقابا

وذكر أهل التاريخ أيضاً أنه ركب يوم الجمعة يريد الجامع، فسمع ضجّة عظيمة فقال: ما هذا؟ قالوا: أهل السّجن يشكون ما هم فيه، فالتفت إلى ناحيتهم، وقال: اخسؤوا فيها ولا تكلمون، فيقال: إنه مات في تلك الجمعة بواسط سنة خمس وتسعين، وهو ابن أربع وخمسين سنة. وآخر كلام سمع منه: اللّهم اغفر لي، فإنّ عبادك يظنون أنّ لا تفعل. وكانت مدّة إمرته على الناس عشرين سنة، وفي الشهر الذي مات فيه وُلِدَ أبو جعفر المنصور، وولي الخلافة في ذي الحجة أيضاً سنة ستّ وثلاثين ومائة، ومات في الشهر المذكور سنة ثمان وخمسين، فكانت مدّة خلافته اثنتين وعشرين سنة إلا سبعة أيّام.

ولما التقى مصعب بن الزبير بالمختار بن أبي عبيد الثقفي هزمه وأسر من عسكره ستّة آلاف وثمانمائة رجل، فقتلهم صبراً بين يديه في يوم واحد وهو ينظر إليهم، وكانوا ألفاً وثمانمائة من أشراف العرب، وخمسة آلاف من الموالى. وكان أبو مسلم الخراساني ممّن حذاه في الفعل حذو النّعل بالنّعل أحصى مَنْ قتل، فكان

ستمائة ألف نفس، وقد ذكرنا قتله فيما سبق من الكتاب، وفيه يقول أبو جعفر حين قُتِل، وقد وضعت رأسه بين يديه^(١): [السريع]

زعمت أن الدين لا يقتضي دونك فاستوف أبا مجرم
فاشرب بكأس كنت تسقي بها أمر في الحلق من العلقم
ولما أسرف في القتل وجد رقعة على المنبر فقرأها، فإذا فيها: اقتل ما عسى أن تقتل، فلست تقدر أن تقتل قاتلك؛ فكفّ.

وبابك الخرمي قتل في حروبه التي كانت بينه وبين الأمويين مائتي ألف ألف وخمسمائة ألف وخمسة وخمسين ألفاً، وكان ظهوره سنة إحدى ومائتين في خلافة المأمون، واستمرت فتنته إلى أيام المعتصم، فأرسل إليه العساكر، فكانت الحرب بينه وبينهم دُولاً إلى أن كانت الدائرة عليه، فهزم عسكره وأسروه وفُتحت مدينته التي بناها ودخلها المسلمون واستباحوها في أيام المعتصم سنة اثنتين وعشرين ومائتين، وفيها فُتحت عمورية وأحضر بين يدي المعتصم، فأمر بقطع يديه ورجليه، فلما قُطعت لَطَخَ بدمه وجهه حتى لا يرى في وجهه أثر الجزع، ثم أمر به فضربت رقبته وصُلِبَ، وفي قتله يقول أبو عبادة البحرقي من أبيات^(٢): [الكامل]

لم يَبْقَ فيه خوف بأسك مطمعا لظن في إخفا ولا إبداء
أخلّيت منه البید وهي قراره ونصبته علماً بسامراء
فتراه مطرداً على أعواده مثل أطراد كواكب الجوزاء
مستشرقاً للشمس منتصباً لها في أخريات الجذعه كالجزءاء

وكان بشر بن مروان شديداً على الجنة، وكان إذا ظفر بجانٍ أقامه على كرسي وسَمَر كَفَّيه في الحائط، ونزع الكرسي من تحت رجله، فلا يزال يضطرب حتى يموت. وقال الشعبي: ما رأيت في العَمال مثل عبد الله التميمي، كان لا يعاقب إلا في دين الله، وكان إذا أتى برجل نباش حفر له قبراً ودفنه فيه حياً، وإذا

(١) البيتان لأبي جعفر المنصور في البيان والتبيين، للجاحظ، ٢/ ٢٥٠.

(٢) الأبيات في ديوان البحرقي، من قصيدة مطلعها:

زعم الغراب منبئ الأنبياء أن الأحبة آذنوا بستناء

أُتِيَ برجل نقب في قوم جعل منقبته في صدره حتى تخرج مِنْ صدره، وإذا أُتِيَ برجل شهر سلاحًا قطع يده؛ فربّما أقام أربعين لا يؤتى إليه بجانٍ خوفًا من سطواته. ودخل شبل بن عبد الله على عبد الله بن عليّ بن عبد الله بن عباس السّفاح بعدما وَلِيَ الخلافة، ووليها وهو ابن أربع وعشرين سنة في ربيع الآخر سنة اثنين وثلاثين ومائة، وعنده مائتا رجل من بني أمية وهم جلوس معه على المائدة، فقام مولى لبني العباس، فأنشده^(١): [الخفيف]

أصبح الملك ثابتًا في أساس	بالبهاليل من بني العباس
طلبوا وترهاشم فشفوها	بعد ميل من الزّمان وياس
يا كريم المطهرين من الرّج	س ويا رأس كل طود وراس
لا تقيلنّ عبد شمس عثارا	واقطعن كلّ رقلة وغراس
دلّها أظهر التودّد منها	وبها منكم كحزّ المواس
أقصهم أيها الخليفة واقطع	عنك بالسيف شأفة الأرجاس
ولقد غاظني وغاز سوايا	قُربهم من نمارق وكراسي
أنزلوها بحيث أنزلها الدّ	ه بدار الهوان والإتعاس
واذكروا مصرع الحُسَيْن وزيد	وقتيلاً بجانب المهراس
والقتيل الذي بحرّان أضحى	ثاويًا بين غربة وتناسي

وهما حمزة بن عبد المطلب وإبراهيم بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس المنعوت بالإمام، فأمر بهم عبد الله فشدخوا بالعمد وبسطت البُسْط عليهم، وجلس عليها ودعا بالطعام وإنه ليسمع أنينهم وعويلهم، فلما فرغ من طعامه قال: ما أكلت أكلة قطّ هي أنأ ولا أمراً ولا أطيّب في نفسي من هذه؛ ثم أخرج عمّه عبد الصّمد بن عليّ في طلب بني أمية في أقطار الأرض إن وُجد حيّاً قتله، وإن وُجد مقبوراً نبشه وأحرق من فيه حتى أتى دمشق وقتل في جامعها يوم جمعة في شهر رمضان خمسين ألفاً من بني أمية ومواليهم كانوا قد استجاروا بالجامع فلم يُجرهم، ولما وصل إلى الرصافة أخرج هشاماً من قبره فضرب مائة سوط وعشرين سوطاً حتى تناثر لحمه، وقال: إنه ضرب أبي ستين سوطاً ظلماً. وذكر الدّوحي

(١) الأبيات لسديف بن ميمون في طبقات الشعراء، لابن المعتز، ص ٣٦؛ ونضرة الإغريض، للمظفر العلوي، ص ٣١٢.

في كتابه بُلغة الظرفاء في تاريخ الخلفاء سبب ذلك أَنَّ هشامًا اتَّهمه بقتل سليط المنتسب إلى أبيه عبد الله، ففعل به ذلك. وقد رأينا صوابًا أن نذكر مقتل زيد المشار إليه في الأبيات المتقدم ذكرها، فالشيء بالشيء يُذكر، وإن كان غير داخل فيما ترجمنا عليه في هذا الفصل، وكان ظهوره في سنة اثنتين وعشرين ومائة بالكوفة، وأرسل هشام إلى محاربه يوسف بن عمر الثقفي، فلمَّا قامت الحرب بينهم على ساقها انهزم أصحاب زيد وبقي جماعة يسيرة، فقاتل أشدَّ قتال، وهو يقول^(١): [المتقارب]

وَذَلَّ الحَيَاةَ وَذَلَّ المَمَاتَ وَكَلَّا أَرَاهُ طَعَامًا وَبَيْلًا
فَإِنْ كَانَ لَا بَدَّ مِنْ وَاحِدٍ فَسِيرُوا إِلَى المَوْتِ سِيرًا جَمِيلًا

ولم يزل يُقاتل حتى أصابه سهمٌ في جبهته فمات مقتولًا منه فدفنه أصحابه، ثم دلَّ يوسف على قبره فأخرجه وقطع رأسه وأرسله إلى دمشق، فعُلِّقَ وصلب جثته عارية فتدلَّت سرَّته حتى سترت سواته، وذلك في السنة التي ظهر فيها، ولم يزل كذلك إلى أيام الوليد بن يزيد بن عبد الملك، فأمر بها فأحرقت؛ وفيه يقول حكيم بن عياش الكلبي يخاطب آل بني طالب من أبيات^(٢): [الطويل]

صَلَبْنَا لَكُمْ زَيْدًا عَلَى جَذَعِ نَخْلَةٍ وَلَمْ أَرْ مَهْدِيًّا عَلَى الجَذَعِ يُضَلَّبُ
وَقَسَمْتُ بِعَثْمَانَ عَلِيًّا سَفَاهَةً وَعَثْمَانَ خَيْرٌ مِنْ عَلِيٍّ وَأَطْيَبُ

ومات هشام سنة خمس وعشرين ومائة في ربيع الأول، وله من العمر ست وخمسون سنة، وكانت مدة خلافته تسع عشرة سنة وأشهرًا وأيامًا. والقتيل بجانب المِهْرَاس هو حمزة بن عبد المطلب، وإنما نُسِبَ قتله لبني أُمَيَّةَ لأنَّ أبا سفيان قاد الجيوش يوم أحد لقتال المسلمين، والمِهْرَاس ماء بأحد. قال المبرد: وفي الحديث أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ عطش في يوم أحد، فجاءه عليٌّ رضي الله عنه في درقته بماء، فعافه وغسل به الدَّم عن وجهه.

ولمَّا زالت دولة بني أُمَيَّةَ كان آخرهم مروان بن الحكم المكنى بالحمار وهرب، فتبعه صالح بن علي إلى بلاد مصر، فقتله بقرية من قراها تسمَّى بوصير.

(١) البيتان لبشامة بن الغدير المري في ديوانه، من قصيدة مطلعها:

هَجَرْتُ أَمَامَةَ هَجْرًا طَوِيلًا وَحَمَلْتُكَ النَّأْيَ عَبَثًا ثَقِيلًا

(٢) البيتان في ديوان حكيم بن عياش، وهما بيتان منفردان.

وَيُخْكِ أَنَّهُ لَمَّا قُتِلَ قَدَّمَ رَأْسَهُ بَيْنَ يَدَيْ صَالِحٍ، فَنَقَبَ فَمَهُ فَسَقَطَ لِسَانُهُ فَأَخَذَهُ هَرٌّ، فَقَالَ صَالِحٌ: وَاللَّهِ لَوْ لَمْ يَرْنَا الذَّهْرَ مِنْ عَجَائِبِهِ إِلَّا لِسَانَ مَرْوَانَ فِي فَمِ هَرٍّ لَكَفَانَا مَعْتَبَرًا؛ ثُمَّ أَدْخَلَ عَلَيْهِ ابْنَتَانِ لِمَرْوَانَ فَقَالَتْ كُبْرَاهُمَا: السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، قَالَ: لَسْتُ بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، قَالَتْ: السَّلَامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا الْأَمِيرُ، فَقَالَ: وَعَلَيْكَ وَالسَّلَامُ، فَقَالَتْ: لَقَدْ وَسَعْنَا عَدْلَكُمْ، فَقَالَ: إِذَا لَا يَبْقَى عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ مِنْكُمْ أَحَدٌ، إِنَّكُمْ بِدَأْتُمْ بِلَعْنِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عَلَى مَنَابِرِكُمْ فَاسْتَوْجِبْتُمُ اللَّعْنَةَ مِنْ اللَّهِ وَقَتَلْتُمُ الْحُسَيْنَ بْنَ عَلِيٍّ وَسَرْتُمُ بَرَأْسَهُ فِي الْآفَاقِ، وَقَتَلْتُمُ زَيْدَ بْنَ عَلِيٍّ وَنَبَشْتُمُوهُ وَأَحْرَقْتُمُوهُ بِالنَّارِ، وَصَلَبْتُمُ يَحْيَى بْنَ زَيْدٍ وَأَمَرْتُمُ مَنْ بَالَ عَلَى وَجْهِهِ، وَقَتَلْتُمُ إِبْرَاهِيمَ بْنَ مُحَمَّدٍ الْإِمَامَ وَهُوَ أَسِيرٌ فِي أَيْدِيكُمْ ظَلَمًا وَعَدْوَانًا، قَالَتْ: أَيُّهَا الْأَمِيرُ فَلْيَسْعِنَا عَفْوَكُمْ، قَالَ: أَمَّا هَذَا فَنَعَمْ؛ ثُمَّ أَمَرَ فَرَدَّ عَلَيْهَا مَا ذَكَرْتَ أَنَّهُ أَخَذَ لَهَا وَخَلَّى سَبِيلَهَا. وَأَشَدُّ الْمَهْدِيِّ قَوْلَ بَشَارِ بْنِ بُرْدٍ فِيهِ لَمَّا أَنْفَقَ الْأَمْوَالَ الَّتِي جَمَعَهَا الْمَنْصُورُ فِي اللَّذَاتِ وَالشُّرْبِ وَالْغِنَاءِ^(١): [البسيط]

بني أُمِيَّة هَبَّوْا طَالَ نَوْمُكُمْ إِنَّ الْخَلِيفَةَ يَعْقُوبُ بْنُ دَاوُدَ
ضَاعَتْ خِلَافَتُكُمْ يَا قَوْمَ فَالْتَمِسُوا خَلِيفَةَ اللَّهِ بَيْنَ الثَّيِّ وَالْعُودِ

فَخَرَجَ الْمَهْدِيُّ إِلَى الْبَصْرَةِ وَمَا يَرِيدُ غَيْرَهُ، لَمَّا صَارَ بِالْبَطَائِحِ مِنْ هَمْدَانَ مَرَّ بِدَارٍ كَانَ بَشَارٌ عَلَى سَطْحِهَا قَائِمًا فَلَمَّا أَحَسَّ بِمُرُورِ الْمَهْدِيِّ عَلَيْهِ خَافَ أَنْ يَعْرِفَهُ، فَاَنْدَفَعَ بِبَشَارٍ يُوَدِّنُ، فَقَالَ الْمَهْدِيُّ: مَنْ هَذَا الَّذِي يُوَدِّنُ فِي غَيْرِ الْوَقْتِ؟ فَقَالُوا: بَشَارٌ، فَقَالَ: عَلِيٌّ بِهِ؛ فَلَمَّا مَثَلَ بَيْنَ يَدَيْهِ قَالَ لَهُ: يَا زَنْدِيقُ هَذَا مِنْ بَذَائِكَ تُوَدِّنُ فِي غَيْرِ الْوَقْتِ، ثَكَلَتْكَ أَمْكُ، فَلَوْ سَكَتَ لِسَانُكَ مَا عُرِفَ مَكَانُكَ؛ ثُمَّ أَمَرَ بِضَرْبِهِ بِالسَّيَاطِ، فَضُرِبَ حَتَّى مَاتَ فَصَلَبَهُ. وَقَالَ ابْنُ عَبْدِوَسٍ فِي كِتَابِهِ الَّذِي صَنَفَهُ فِي أَخْبَارِ الْوُزَرَاءِ فِي سَبَبِ قَتْلِهِ أَنَّهُ هَجَا يَعْقُوبُ بْنُ دَاوُدَ وَزِيرَ الْمَهْدِيِّ، فَصَنَعَهُ يَعْقُوبُ عَلَى لِسَانِهِ هَجَاءً لِلْمَهْدِيِّ وَدَخَلَ عَلَيْهِ، فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِنَّ هَذَا الْأَعْمَى

(١) البيتان في ديوان بشار بن برد، من قصيدة مطلعها:

لَا يَأْنِسُنَّ فَقِيرٌ مِنْ غَنِيِّ أَبَدًا بَعْدَ الَّذِي نَالَ يَعْقُوبُ بْنُ دَاوُدَ
وَرَوَايَةُ الْبَيْتَيْنِ فِي الدِّيَوَانِ:
يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ ضَاعَتْ خِلَافَتُكُمْ إِنَّ الْخَلِيفَةَ يَعْقُوبُ بْنُ دَاوُدَ
ضَاعَتْ خِلَافَتُكُمْ يَا قَوْمَ فَالْتَمِسُوا خَلِيفَةَ اللَّهِ بَيْنَ الزُّقِّ وَالْعُودِ

المُلحد قد هجأك، قال: وما قال؟ قال: يعفيني أمير المؤمنين مِنْ إنشاد ذلك؛ فلم يزل به حتَّى أنشده^(١): [السريع]

خليفة يزني بعَمَّاته يلعب بالدفِّ وبالصُّولجان
أبدلنا الله به غيره ودسَّ موسى في حرِّ الخيزران

فقال له: وجَّه مَنْ يحمله، فخاف يعقوب من أن يقدم على المهدي فيمدحه فيعفو عنه، فوجَّه إليه مَنْ ألقاه في البطائح، وقيل: بل دسَّ عليه مَنْ قتله في طريقه؛ وقيل: إنما قُتل على الإلحاد، وكان يرى رأي الثنوية، وذلك في سنة ثمان وستين ومائة. وفي المحرَّم سنة تسع ومائتين مات المهدي، وله من العمر اثنان وأربعون سنة وخمسة عشر يومًا، وكانت مدَّة خلافته عشر سنين وشهرًا واحدًا.

وممَّن شفى غيظه من العدوِّ المخالف ولم يفضَّ له عن ذنبه السالف

الحجَّاج: كان أيوب بن القرية قد خرج مع عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث الكندي كاتبًا لما خلع ربة الطاعة وادَّعى الخلافة، فحاربه الحجَّاج دفعات، فكانت الدَّائرة عليه، وأخذ أيوب مع مَنْ كان معه، فلما قدم على الحجَّاج أسيرًا قال له: ما أعددت لهذا الموقف؟ قال: ثلاث حروف، كأنهنَّ ركب صفوف: دنيا وأخرى ومعروف؛ فقال له الحجَّاج: بِئس ما مَنَّتْك به نفسك يا ابن القرية أتراني ممَّن ينخدع بكلامك، والله لأنت أقرب إلى الآخرة منك إلى موضع نعلي هذه، قال: أَقْلني عثرتي واسقني ريقِي، فإنه لا بدَّ للجواد من كَبوة ولالحليم مِنْ هفوة، فقال له: أنت إلى السَّطوة أقرب منك إلى العفو عن الهفوة، ألسنَّ القائل وأنت تحرَّض حزب الشيطان وعدوَّ الرِّحمن: تغدوا بالحجَّاج قبل أن يتعشَّى بكم؛ ثم أمر بضرب عنقه فضُربت، وذلك في سنة أربع وثمانين.

ولما انهزم عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث لحق سعيد بن جبير بمكة، وكان قد خرج معه فأخذه خالد بن عبد الله القسري، فبعث به إلى الحجَّاج، فلما دخل سعيد على الحجَّاج قال له: سعيد؟ قال: نعم، قال: ألم أقدم العراق واتَّهمت إن قام الموالي، فلما بلغني فقهاك وحالك جعلتك إمام قومك ووجدت عطاءك أربعين دينارًا، فبلغت بك سبعين دينارًا؟ قال: بلى، قال: وسهَّلت إذذك؟

(١) البيتان في ديوان بشار، وهما بيتان منفردان.

قال: بلى، واستقصيت أبا بردة من أبا موسى وهو فقيه ابن فقيه فجعلتك وزيره وكتابه وأمرته أن لا يقطع أمراً دونك؟ قال: بلى، قال: وأوفدت وفداً إلى أمير المؤمنين فجعلتك مثلهم ولا يوفد مثلك، فاستعفيتني فأعفيتك - وذلك كله بغير غضب من الحجاج - ثم قال: فما أخرجك علي؟ قال: كانت لابن الأشعث في عنقي بيعة، فاستوى جالساً وقال: يا عدو الله، فبيعة أمير المؤمنين كانت في عنقك قبل بيعة عبد الرحمن، يا حرسى اضرب عنقه؛ فلما ضربت عنقه التبس على الحجاج عقله مكانه، فجعل يقول: قيود يا قيود، فظنوا أنه يطلب القيود التي على سعيد، فقطعوا رجله من أنصاف ساقه وأخذوا القيود، وقد أورد القصاص هذه الحكاية على غير هذا النمط، والصحيح هو هذا، والله أعلم.

إيقاع الرشيد بالبرامكة: لما ولي الرشيد الخلافة، قال ليحيى بن خالد: يا أبت قد قلدتك أمر الرعية وأخرجته من عنقي إليك، فاحكم بما ترى واستعمل من رأيت، وافرض لمن رأيت، واقطع من رأيت، فإني غير ناظر معك في شيء؛ ثم ولي في سنة ست وسبعين ومائة جعفر بن يحيى المغرب كله من الأنبار إلى أقصى بلاد إفريقية، وولى الفضل المشرق كله من النهر وان إلى أقصى بلاد الترك، وكان يحيى يميل إلى الفضل والرشيد يميل إلى جعفر، فكان يقول ليحيى: أنت للفضل وأنا لجعفر، وكان الرشيد يسمي جعفرًا بأخيه ويدخله معه في ثوبه. ولما وقع من جعفر الذنب لم يحتمله الرشيد، ولا قدر على الإغضاء عنه، وجعل يتردد في أعمال الحيلة على البرامكة ولا يرى منهم ذنباً ظاهراً بيناً يقتلهم به حتى لا يتوجه عليه لوم من الناس في قتلهم لما كان بينه وبينهم من اتحاد الود، فتكلم الرشيد يوماً بكلمة نزع فيها جلساؤه كل منزع، منهم من يحكي في نوعها حكاية، ومنهم من يُنشد شعراً؛ فأنشد بعضهم أبياتاً في غير المعنى الذي هم بصده، فكان سبباً لإمضاء عزمه في الإيقاع بهم، يقول فيها^(١): [الرملة]

ليت هذا أنجزتنا ما تعد وشفت أنفسنا مما نعد
واستبدت مرة واحدة إنما الهاجز من لا يستبد

فاستعاد الرشيد الأبيات مرات، فكان ذلك محرّضاً له على الإيقاع بهم. وكان عندما تغير عليهم صرف الفضل عما كان بيده من ولاية الشرق أولاً فأولاً من

(١) تقدم الخبر والبيتان مع تخريجهما قبل قليل.

سنة ثمانين إلى سنة ثلاث وثمانين، ولم يزل جعفر مع الرشيد على الحالة المرضية إلى أن ركب في يوم الجمعة مستهلّ صفر سنة تسع وثمانين إلى الصّيد، وجعفر معه يسايره خاليًا به وانصرف متمسّيًا إلى القصر الذي كان ينزل بالأنبار، فلمّا وصل إليه ضمّه واعتنقه، وقال: لولا أنّي أريد الجلوس الليلة مع النساء لما فارقتك، وسار جعفر إلى منزله، وواصله الرشيد بالألطف إلى وجه السّحر، فبعث إليه مسرور الخادم ومعه سالم وابن عصمة، فهجموا عليه وأخذوه مسرور وضرب عنقه، ولقي الرشيد برأسه، فأنفذ الرشيد جثته إلى بغداد، وقطعت نصفين وصلبا على الجسرين. ولمّا انصرف الرشيد من الرقة سنة تسع وثمانين إلى بغداد مرّ بالجسر، فرأى جثة جعفر، فقال: لئن مضى أترك لقد بقي خبرك، ولئن حطّ قدرك لقد علا ذكرك، ثم أمر بها فأحرقت. ولمّا قتل الرشيد جعفرًا رحل إلى الرقة وحمل معه يحيى وولده الفضل، فحبسهما فيها بعد أن ضرب الفضل مائتي سوط، ولم يجد ليحيى إلا خمسة آلاف دينار وللفضل إلا أربعين ألف درهم، ولم يجد لجعفر ولا لأخيه موسى شيئًا، ووجد لمحمد بن يحيى سبعمائة ألف درهم، ويقال: إنه وجد لجعفر في قصره سرقة فيها أربعة آلاف دينار وزن كل دينار مائة دينار مكتوب على أحد جانبي الدّينار: [المقارب]

وأصفر من ضرب دار الملوك يلوح على وجهه جعفرًا

وعلى الوجه الآخر: [المقارب]

يزيد على مائة واحدًا إذ ناله مُعسريسرا

ولمّا أوقع الرشيد بالبرامكة وقتل جعفرًا، وحبس يحيى أباه، والفضل أخاه كتب يحيى إليه من السّجن: مِنْ عَبْدٍ أَسْلَمْتَهُ ذَنْبُهُ، وَأَوْبَقْتَهُ عَيْبُهُ، وَخَذَلَهُ رَفِيقُهُ، وَرَفَضَهُ صَدِيقُهُ، فَحَلَّ فِي الضِّيقِ بَعْدَ السَّعَةِ، وَعَالَجَ الْبُؤْسَ بَعْدَ الدُّعَةِ، فَسَاعَتُهُ شَهْرٌ وَلَيْلَتُهُ دَهْرٌ، قَدْ عَايَنَ الْمَوْتَ وَقَارِبَ الْفَوْتَ، فَتَذَكَّرَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ كِبَرَ سَنَتِي وَضَعْفَ قُوَّتِي، وَارْحَمَ شَيْئَتِي وَهَبْ لِي رِضَاكَ بَعْفُو ذَنْبَ إِنْ كَانَ فَإِنَّ مِنْ مِثْلِي الزَّلَلُ، وَمِنْ مِثْلِكَ الْإِقَالَةُ، وَلَيْسَ أَعْتَذِرُ إِلَّا بِإِقْرَارِي حَتَّى تَرْضَى عَنِّي، فَإِنْ رَضِيتَ رَجَوْتُ أَنْ يَظْهَرَ لَكَ مِنْ عُذْرِي وَبِرَاءَةِ سَاحَتِي مَا لَا يَتَعَاظَمُكَ مَا مَنَنْتَ بِهِ عَلَيَّ مِنْ رَأْفَتِكَ وَرَحْمَتِكَ، زَادَ اللَّهُ فِي عَمْرِكَ وَجَعَلَ يَوْمِي قَبْلَ يَوْمِكَ.

فردَّ عليه الرشيد مِنْ كتاب: إِنَّ أمير المؤمنين لم يأتِ على ولدك اللعين ومن رأيه ترك الباقيين، ولم يأمر بحبسك وهو يريد بقاء نفسك، إنما أَخْرَكَ وإِيَّاهم لتعالج البؤس بعد التَّعِيم، ثم تصير إلى العذاب الأليم، فأبشر أيها المخادع الزنديق، والمخالف الفسّيق، بما أعدَّ لك أمير المؤمنين من تبديد شملك وخمول ذكرك وإطفاء أمرك، فتوقعه صباحًا ومساءً.

ووقع الرشيد عليه: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَقَهَا اللَّهُ لِسَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: الآية ١١٢]، ثم شاء هو وابنه الفضل في سجن الرقة حتى ماتا فيه، فمات يحيى في المحرم سنة تسعين ومائة فجأة من غير علة وعمره أربع وستون سنة، ومات الفضل في شهر رمضان سنة اثنين وتسعين ومائة، ولما بلغ الرشيد موته قال: أمري قريب من أمره، وكذا كان؛ فإنه توفي بعده بخمسة أشهر في المحرم سنة ثلاث وتسعين وقد بلغ من العمر سبعًا وأربعين سنة، وكانت ولايته ثلاثًا وعشرين سنة وشهرين وأيامًا، فإنه ولي سنة سبعين ومائة. وكان الفضل ترب الرشيد ورضيعه أرضعته أم الفضل، وأرضعت الفضل أم الرشيد. ودُكِرَ أن الرشيد أقام يتردد في قتل جعفر سنين لا تُطَاوَعه نفسه في قتله، قال حسين الخادم: أشهد بالله لقد رأيت الرشيد متعلقًا بأستار الكعبة قائلاً في مناجاته: اللَّهُمَّ إني أستخيرك في قتل جعفر بن يحيى.

ورثاهم بعد موتهم من عامة الشعراء وغيرهم جم غفير، وقد اخترنا أبياتًا مِنْ أحاسن قصائدهم، أردنا أن نبين فيها محاسن مقاصدهم؛ فمن ذلك أبيات لأشجع السلمي^(١): [السريع]

ولى عن الدنيا بنو برمكٍ ولو تولى الخلق ما زادا
كأنما أيامهم كلُّها كانت لأهل الأرض أعيادا

آخر^(٢): [البسيط]

كأن أيامهم من حُسْن بهجتها مواسم الحج والأعياد والجُمع

(١) البيتان في ديوان أشجع السلمي، وهما بيتان منفردان.

(٢) البيت لأشجع السلمي في وفيات الأعيان، لابن خلكان، في ترجمة جعفر البرمكي، وليس في ديوانه.

آخر^(١): [الرمز]

يا بني برمك وأهل كم ولأيامكم الممنتقلة
كانت الدنيا عروساً بكم فهي اليوم ثكول أرملة

وفيهم يقول الصّيف بن إبراهيم من أبيات^(٢): [الطويل]

هَوْتُ أنجم الجدوى وشلت يد الندى وغارت بحور الجود بعد البرامك
هَوْتُ أنجم كانت لأبناء برمك بها يُغرف السّاري وجوه المسالك

وللرقاشي^(٣): [الطويل]

الآن استرحنا واستراحت ركابنا وأمسك من يجدي ومن كان يجتدي
فقل للمطايا قد أرحت من السرى وطى الفيافي فدفداً بعد فدفد
وقل للمنايا قد ظفرت بجعفر ولم تظفري من بعده بمسود
وقل للعطايا بعد فضل تعطلي وقل للزّايا كل يوم تجددي

ويقال: إنّ الذي سعى بهم هو علي بن عيسى بن ماهان، وذكر بعض المؤرخين أنه وجد على باب علي بن عيسى المذكور بعد قتل جعفر هذان البيتان، ولا يعلم من كتبهما ولا من قائلهما: [السريع]

إنّ المساكين بنو برمك صبت عليهم نوب الدّهر
إنّ لنا في أمرهم عبرة فليعتبر صاحب ذا القُصر

وكانت نكبته قريباً من نكبتهم، كان الإيقاع بهم بعد رجوع الرّشيد من الحجّ في المحرم سنة تسع وثمانين ومائة، وعمر جعفر يومئذ خمس وأربعون سنة. وكانت مدّة دولتهم سبع عشرة سنة وسبعة أشهر وأياماً، والله درّ أبي كلثوم بن عمرو العتابي، حيث قال يعرض بالبرامكة، ويذكر عاقبة صحبة السلطان، وأنّ ما للمتعلق بها من غدر الزّمان أمان^(٤): [الطويل]

تلوم على ترك الغنى باهليّة طوى الدّهر عنها كل طرف وتالد

(١) البيتان بلا نسبة في وفيات الأعيان، لابن خلكان، في ترجمة جعفر البرمكي.

(٢) البيتان لسلم الخاسر في ديوانه، وهما بيتان منفردان.

(٣) الأبيات لأشجع السلمي في ديوانه، وهي أربعة أبيات منفردة.

(٤) الأبيات للكاتب العتابي في البديع، لأسامة بن منقذ، ص ١٢٤؛ وكلثوم بن عمرو العتابي في البيان والتبيين، للجاحظ ٢/ ٢٤٠.

رأى حولها النسوان يرفلن في الكسا
أسرك أني نلت ما نال جعفر
وأن أمير المؤمنين أغصني
ذريني تجيني مية مطمئنة
فإن كريمات المعالي مشوبة
وأن الذي يرقى من المجد والعلا
مقلدة أجيادها بالقلائد
من الملك أو ما نال يحيى بن خالد
معصمها بالمرهفات البوارد
ولم تج أهوال بتلك الموارد
بمستودعات من بطون الأساود
مُلقى بأنواع الأذى والمكايد

والله در المأمون إذ قال وكأنه يعتذر عن إيقاع أبيه بالبرامكة، وإن لم يقصده:
لا يستطيع الناس أن يُنصفوا الملوك من وزرائهم ولا يستطيعون أن ينظروا بالعدل
بين ملوكهم وُحَماتهم وكفاتهم؛ وذلك أنهم يرون ظاهر حُرمتهم وخدمتهم
ونصيحتهم، ويرون إيقاع الملوك بهم ظاهراً، ولا يزال الرجل يقول في ذلك ما
أوقع به إلا رغبه فيما لا تجود النفوس به أو الحسد أو الملامة وشهوة الاستبداد،
لا والله ما هو هذا، وإنما هي الجنايات في صلب الملك أو في تعرض الحرم، فلا
يستطيع الملك أن يكشف للعامة موضع العورة ويحتج لتلك العقوبة بما يستحق
ذلك الذنب، فلا يستطيع الملك ترك عقابه لما في ذلك من الفساد مع علمه بأن
عذره غير مبسوط للعامة ولا معروف عند أكثر الخاصة.

ومن التشفي الشنيع ما حكي أن سفيان بن معاوية بن يزيد بن المهلب كان
يطعن على عبد الله بن المقفع أشياء كثيرة، منها أنه كان يهزأ به ويسأله عن الشيء
بعد الشيء تعتثاً، فإذا أجابه قال له: أخطأت، ويضحك منه؛ فلما كثر ذلك عليه
غضب وافتري عليه، فقال له ابن المقفع: يا ابن المغتلمة، والله ما اكتفت أمك
برجال العراق حتى نفذتهم إلى رجال أهل الشام؛ فحقدوا عليه فألقى على نفسه إن
أمكنه الله منه ليقتله شر قتلة، فاتفق أن عيسى بن علي أمر ابن المقفع أن ينطلق
إلى سفيان، وكان إذ ذاك على شرطة بغداد برسالة كان المنصور أمره بها، فقال
له: إني لا آمن سفيان، فقال له: انطلق إليه ولا تخف، فإنه لم يكن ليعرض ذلك
وهو يعلم مكانك متي؛ فلم يجد ابن المقفع بداً من امتثال أمر عيسى، فذهب حتى
أتى باب سفيان، فاستأذن فأذن له وكان في مجلسه العام فعدل به إلى مقصورة، ثم
قام سفيان من مجلسه إلى المقصورة، فلما رأى ابن المقفع قال له: وقعت والله،
فقال له: أنشدك بالله تعالى، فقال: أُمي مغتلمة كما قلت، وإن لم أقتلك قتلة لم

يُقْتَلُ بِهَا أَحَدٌ قَبْلَكَ؛ وَأَمْرٌ بَتُّورٍ فَسُجِّرَ، ثُمَّ أَمْرٌ بِهِ فَقَطَعَ عَضْوًا عَضْوًا وَيُلْقَى فِي التُّتُورِ وَهُوَ يَنْظُرُ حَتَّى لَمْ يَبْقَ مِنْهُ عَضْوٌ مَتَّصِلٌ بَعْضُو، ثُمَّ قَالَ: يَا ابْنَ الزَّنْدِيقَةِ لِأَحْرَقْتُكَ بِنَارِ الدُّنْيَا قَبْلَ نَارِ الْآخِرَةِ، ثُمَّ أَمْرٌ بِهِ فَأَحْرَقَ بَعْدَ ذَلِكَ.

وَكَانَ رَافِعُ بْنُ اللَّيْثِ خَلَعَ هَارُونَ الرَّشِيدَ وَلَبَسَ الْبِيَاضَ وَتَغَلَّبَ عَلَى بِلَادِ مَا وَرَاءَ النَّهْرِ، وَذَلِكَ فِي سَنَةِ تِسْعِينَ وَمِائَةٍ، وَكَانَ عَلِيٌّ بْنُ عَيْسَى إِذْ ذَاكَ عَلَى خِرَاسَانَ، فَحَارَبَهُ فَلَمْ يَقْدِرْ عَلَيْهِ، فَخَرَجَ الرَّشِيدُ إِلَيْهِ مِنْ بَغْدَادِ سَنَةِ ثَلَاثٍ وَتِسْعِينَ، فَلَمَّا بَلَغَ طَوْسَ مَرَضٍ وَاشْتَدَّ بِهِ الْمَرَضُ، فَلَمَّا كَانَ يَوْمَ مَوْتِهِ أَخَذَ الْمَرْأَةَ بِيَدِهِ فَنَظَرَ فِيهَا وَجْهَهُ فَرَأَى عَلَيْهِ غِبْرَةَ الْمَوْتِ، فَقَالَ: إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، فَبَيْنَمَا هُوَ فِي تِلْكَ الْحَالَةِ إِذْ دَخَلَ عَلَيْهِ أَخُو رَافِعِ بْنِ اللَّيْثِ أُسَيْرًا، فَلَمَّا مَثَلَ بَيْنَ يَدَيْهِ قَالَ: إِنِّي لِأَرْجُو إِذْ لَمْ تَفْتَنِي أَنْ لَا يَفُوتَنِي أَخُوكَ، وَاللَّهِ لَوْ لَمْ يَبْقَ مِنْ عَمْرِي إِلَّا أَنْ أُحْرِكَ شَفْتِي بِقَتْلِكَ لَقُلْتُ اقْتُلُوهُ؛ ثُمَّ دَعَا بِقَضَابٍ وَقَالَ لَهُ: لَا تَشْحَذْ مِذْيَتَكَ وَفَصِّلْهُ عَضْوًا عَضْوًا وَعَجِّلْ لئَلَّا يَحْضُرَنِي أَجْلِي وَعَضْوٌ مِنْ أَعْضَائِهِ فِي جَسَدِهِ؛ فَفَصَّلَهُ، ثُمَّ جَعَلَهُ أَشْلَاءً ثُمَّ قَالَ لَهُ: اعْدُدْ مَا فَضَّلْتَ مِنْهُ، فَإِذَا هُوَ أَرْبَعَةُ عَشَرَ عَضْوًا، فَرَفَعَ يَدَيْهِ وَقَالَ: اللَّهُمَّ كَمَا أَمَكَّنْتَنِي مِنْهُ، فَمَكِّنِي مِنْ أَخِيهِ، ثُمَّ مَاتَ مِنْ سَاعَتِهِ.

وَكُتِبَ رَجُلٌ كَانَ فِي حَبْسِ الْمَأْمُونِ إِلَيْهِ لَمَّا طَالَ حَبْسُهُ: أَغْفَلْتَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَمْرِي، وَتَنَاسَيْتَ ذِكْرِي وَلَمْ تَتَأَمَّلْ حُجَّتِي وَعُذْرِي، وَقَدْ مَلَّ مِنْ صَبْرِي الصَّبْرُ، وَمَسَّنِي مِنْ حَبْسِكَ الضَّرُّ؛ فَأَجَابَهُ الْمَأْمُونُ: رَكُوبُكَ مَطِيَّةُ الْجَهْلِ صَيَّرَكَ أَهْلًا لِلْقَتْلِ، وَبَغْيُكَ عَلَيَّ وَعَلَى نَفْسِكَ نَفْلَكَ عَنْ سِعَةِ الدُّنْيَا إِلَى قَبْرِ مَنْ قُبُورِ الْأَحْيَاءِ، وَمَنْ جَهْلُ الشُّكْرِ عَلَى الْمِنَنِ قَلَّ صَبْرُهُ عَلَى الْمِحْنِ، فَاصْبِرْ عَلَى عَوَاقِبِ هَفَوَاتِكَ وَمُؤَبِّقَاتِ زَلَّاتِكَ، عَلَى قَدَرِ صَبْرِكَ عَلَى كَثِيرِ جُنَايَاتِكَ، فَإِنْ حَصَلَ فِي نَفْسِكَ كَفٌّ عَنْ مَعْصِيَتِي وَعِزْمٌ عَلَى طَاعَتِي وَنَدَمٌ عَلَى مَخَالَفَتِي، فَلَنْ تُعْذَمَ مَعَ ذَلِكَ جَمِيلًا مِنْ نَيْتِي.

وَلَمَّا ظَفَرَ أَبُو جَعْفَرٍ الْمَنْصُورُ بَعْدَ اللَّهِ بْنِ حَسَنِ قَيْدَهُ وَحَبْسَهُ فِي دَارِهِ، فَلَمَّا أَرَادَ الْمَنْصُورُ خُرُوجَهُ إِلَى الْجَيْشِ جَلَسَتْ ابْنَةُ لَعْبُدِ اللَّهِ تَسْمَى فَاطِمَةُ عَلَى طَرِيقِهِ، فَلَمَّا بَصُرَتْ بِهِ أَنْشَدَتْ^(١): [الكَامِلُ]

أَرْحَمَ كَبِيرًا سَنَّهُ مَتَهْدَمًا فِي السَّجْنِ بَيْنَ سُلَاسِلٍ وَقِيُودٍ

(١) الأبيات للحسن بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب العلوي في الوافي بالوفيات، لصلاح الدين الصفدي، في ترجمته.

وارحم صغار بني يزيد إنهم نقموا الفقدك لا لفقد يزيد
إن جُذت بالرحم القريبة بيننا ما جدنا من جدكم ببعيد

فلما سمع المنصور أبياتها، قال: أدركتني؛ ثم أمر به فحُدر في المطبق، فكان آخر العهد به. ويزيد المذكور في شعر فاطمة هو أخو عبد الله بن حسن، وأخذ عبد الله لأجل ولديه محمد وإبراهيم، وكانا قد خرجا على المنصور وغلبا على المدينة ومكة والبصرة، فبعث المنصور إليهما عيسى بن موسى، فقتل محمد بالمدينة، وكان قتل إبراهيم ومحمد بين البصرة والكوفة في رمضان سنة خمس وأربعين ومائة. وقال أبو بكر الخطيب: مات عبد الله بحبس الكوفة يوم الأضحى سنة خمس وأربعين ومائة، وهو ابن ست وأربعين سنة. وكان المنصور قلّ ما يظفر بأحد إلا قتله، سواء كان مستوجباً للقتل أو غير مستوجب، وهذا كان في أول خلافته، فقال له عبد الصمد بن عليّ: قد ضحمت في القتل والعقوبة حتى كأنّ لم يسمع بالعفو، فقال: إنّ بني أُمّية لم تَبَلْ رُممهم، وآل أبي طالب لم تُغمد سيوفهم، ونحن قوم رأونا بالأمس سوقة واليوم خلفاء، ولا تتمهد الهَيْبَة في صدورهم إلا باطراح العفو عنهم واستعمال العقوبة فيهم.

ومن عجائب الظفر ما حكاها الصوليّ أنّ المتوكّل قال: ركبت إلى دار الواثق أزوره في مرضه في اليوم الذي مات فيه، ولم أدْرِ بذلك، فدخلت الدار وجلست في الدهليز ليؤذن لي، فسمعت بكاء نادية بناحية تُشعر بموته، فتجست وإذا إيتاخ ومحمد بن عبد الملك الزيات يأتمران فيّ، فقال محمد: نُلقيه في التّور، وقال إيتاخ: بل ندعه في الماء البارد حتى يموت ولا يُرى عليه أثر القتل؛ فبينما هما كذلك إذ جاء أحمد بن أبي دؤاد، وكان القاضي يومئذ، فمنعه الخدّام الدخول، دافعهم حتى دخل، فجعل يحدثهما بما لا أعقله لِمَا داخلني من الخوف وإشغال القلب بإعمال الحيلة في الهرب والخلاص مما ائتمرا به فيّ، فبينما أنا كذلك إذ خرج الغلمان يتعادون إليّ، ويقولون: انهض يا مولانا، فما شككت أني أدخل وأبايع ولد الواثق وينفذ فيّ ما قرّر، فدخلت فلقيني ابن أبي دؤاد فقبّل يدي وأمسكها إلى أن صار بي إلى السرير، وقال: اصعد إلى المكان الذي أهلك الله له، فلما صعدت وجلست سلّم عليّ بالخلافة، وجاء محمد بن عبد الملك الزيات وإيتاخ، فسَلّمَا عليّ أيضًا ثم استدعوا القوّاد فسَلّمُوا عليّ، ثم الناس على طبقاتهم، فلما انقضت المبايعات بقيت متعجبًا مما اتّفق مع ما سمعته منّ كلام ابن الزيات

وإيتاخ، فسألت عن الحال، وكيف جرت؟ فقبل لي: بئنا محمد بن عبد الملك الزيات وإيتاخ في تقرير ما سمعته إذ دخل عليهما ابن أبي دؤاد فسلم عليهما وعزاهما، وقال: أنا رسول المسلمين إليكما وهم يقرؤون السلام عليكم ويقولون لكما: قد بلغنا وفاة إمامنا وعند الله نحتسبه وأنتما المنظور إليكما في هذا الأمر فمن اخترتما لإمامتنا؟ فقالا: ابنه محمد، فقال: بخ بخ ابن أمير المؤمنين إلا أنه صغير لا يصلح للإمامة، فمن غيره؟ قالوا: فلان وفلان، وعددا جماعة إلى أن قالوا: وجعفر بن المعتصم، فقال: رضي المسلمون، اصفقا على يدي فصفقا، ثم أرسل إلى أمير المؤمنين فكان ما رأى. قال المتوكل: فبقي ما قاله إيتاخ وابن الزيات في نفسي فقتلتكما بما احتزما عليه من قتلي، فقتلت ابن الزيات في الثنور، وإيتاخا بالماء البارد. وكان ابن الزيات قد اتخذ الثنور لابن أسباط المصري، وهو صورة خابية مدورة، وجعل لباطن جوانبه مسامير أطرافها إلى داخل، فإذا وقف فيه الواقف لا يستطيع الحركة إلى جهة أخرى من جهاته إلا ضربته المسامير، فلا يزال قائما فيه حتى يموت؛ فلما ألقى فيه ابن الزيات مر به عبادة المخثث، فقال: يا ابن الزيات أردت تخبز في الثنور فخبزت فيه. قال المسعودي: أقام ابن الزيات في الثنور أربعين يوما إلى أن مات، وكانت مدة وزارته للمتوكل أربعين يوما.

وذكر أن الجاحظ كان من خواص ابن الزيات، فلما قبض عليه هرب إلى البصرة، فقبل له: لم هربت؟ قال: خفت أن يقال لي ثاني اثنين إذ هما في الثنور. قُتل ابن الزيات في الرابع من صفر سنة ثلاث وثمانين ومائتين، وكان قد وزر لثلاث خلفاء: المعتصم والواثق والمتوكل، ولما قبض عليه قال: يا نفس ألم يكفك التجارة واليسار والرغد من العيش حتى طلبت الوزارة وتعرضت للسباع في غيلها، ذوقي الآن ما جنيت على نفسك. ومات الواثق بسر من رأى سنة اثنتين وثمانين ومائتين، وله من العمر ستة وثلاثين سنة، وكانت مدة خلافته خمس سنين وتسعة أشهر وأياما. أتى الإسكندر بسارق فأمر بصلبه، فقال: أيها الملك إني فعلت ما فعلت وأنا كاره، قال: وتصلب أيضا وأنت كاره.

من راقب في العقوبة رجاء الخلاص يوم الجزاء بالأعمال والتقصاص

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفْلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾ [إبراهيم: الآية

[٤٢]، قال بعض المفسرين: هذا وعيد للظالم، وتعزية للمظلوم.

كتب عمر بن عبد العزيز إلى عدي بن أرطاة: إذا أمكنتك القدرة على المخلوق فاذكر قدرة الخالق عليك، واعلم أنّ لك عند الله ما لرعيّتك عندك. وقال بعض الحكماء: اذكر عند القدرة قدرة الله عليك، وعند الظلم عدل الله فيك. وفي المثل: كما تُدين تُدان. وقالوا: لا يندمل من المظلوم جراحه، حتى ينكسر من الظالم جناحه. وقال أعرابي لمن جار عليه: لئن هملجت إلى الباطل إنك لعطوف عن الحق. وقال غُبَيْدَة بن أبي لبابة: مَنْ طلب عِزًّا بباطل وجور أورثه الله ذلًّا بإنصافٍ وعدل. وقال الشاعر: [الخفيف]

لا تُعالج ذا الذنب بالانتقام واخترس من تباعة الآثام
فكرام الأنام سيماهم العفـ وقديماً عن الذنوب العظام

أُتي سليمان بن عبد الملك برجل جنى جناية يجب عليه فيها التعزير لا غير، فأمر بقتله، فقال: يا أمير المؤمنين اذكر يوم الأذان، قال: وما يوم الأذان؟ قال: اليوم الذي قال الله فيه: ﴿فَأَذِّنْ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف: الآية ٤٤]، فبكى سليمان وأمر بإطلاقه.

أُتي الرشيد ببعض من خرج عليه، فلما مثل بين يديه، قال: ما تريد أن أصنع بك؟ قال: الذي تريد أن يصنع الله بك إذا وقفت بين يديه أذلّ مني بين يديك؛ فأطرق الرشيد ملياً، ثم رفع رأسه وقال: اذهب حيث شئت، فلما خرج قال بعض من حضر: يا أمير المؤمنين تُفني مالك وتقتل رجالك حتى تظفر بمثل هذا الباغي وتُطلقه بكلمة واحدة، إنّنا لا نأمن من أن تتسلط عليك الأشرار بالإحسان إليهم؛ فأمر برده، فلما مثل بين يديه علم أنه قد أغري به، فقال: يا أمير المؤمنين لا تُطعهم في، فلو أطاع الله فيك خلقه ما استخلفك عليهم ساعة واحدة؛ فأمر بإطلاقه.

أخذ الحجاج محمد ابن الحنفية بعدما قتل عبد الله بن الزبير، فقال: بايع أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان، قال: إذا اجتمع الناس عليه كنت كأحدهم، قال: والله لأقتلك، قال: لعنك لا تدري، قال: ما لي لا أدري؟ قال محمد: حدّثني أبي أنّ رسول الله ﷺ قال: «إنّ لله في كل يوم ثلاثمائة وستين لحظة يقضي في كل لحظة ثلاثمائة وستين قضية»^(١)، فلعنّه أن يكفيك في قضية من قضاياه؛

(١) أخرجه ابن الجوزي في العلل المتناهية ٢/٢٩٧.

فانتفض الحجاج وقال: لقد لحظك الله، فاذهب حيث شئت، وخلى سبيله. وكتب الحجاج بهذا الكلام إلى عبد الملك بن مروان، ووافق ذلك كتاب ملك الروم إلى عبد الملك يتوعده ويهدده، فكتب إليه عبد الملك بهذا الكلام، فكتب ملك الروم إليه: ما أنت بأبي عذرة، هذا الكلام ما هذا إلا كلام من أهل بيت نبوة.

وقال رجل لأمير غضب عليه: أسألك بالذي أنت بين يديه غداً أذل مني بين يديك اليوم، وهو على عقابك أقدر منك على عقابي، إلا نظرت في أمري نظر من يرى برئي أحب إليه من سقمي، وعدله في أولى به من ظلمي؛ فعفا عنه وأطلقه. ولما هجم ابن حمران على مصر في أيام المستنصر بالله وأحرق دار الزيت وتخطف عسكره اجتمع الناس إلى أبي الفضل الجوهري الواعظ فشكوا حالهم إليه، فكتب إلى المستنصر: إن كنت خالقاً فارحم خلقك، وإن كنت مخلوقاً فخف خالقك، والسلام؛ فرفع ذلك عنهم.

غضب محمد بن سليمان على رجل فأمر بطرحه في القصر، فقال له رجل: اتق الله في، فقال: خلوا سبيله، فإني كرهت أن أكون كالذي إذا قيل له: اتق الله أخذته العزة بالإثم، فحسبه جهنم. قدم إلى أحمد بن نصير مجوسي جنى جناية فأمر بضربه، فقال: أيها الأمير اضرب بقدر ما تقوى عليه - يريد بذلك القصاص في الآخرة - فتركه وترك العمل. وأخذ مصعب رجلاً من أصحاب المختار بن أبي عبيدة، فأمر بضرب عنقه، فقال: أيها الأمير ما أقبح بك أن أقوم يوم القيامة إلى صورتك هذه الحسنه، ووجهك الذي يستضاء به وأتعلق بأطرافك، وأقول: رب سل مُضْعَبًا فيم قتلني؟ قال: أطلقوه، فقال: أيها الأمير اجعل ما وهبت من حياتي في خفض عيش، قال: أعطوه مائة ألف درهم، فقال: أيها الأمير أشهد أن لابن قيس الرقيات منها خمسين ألفاً، قال: ولم؟ قال: لقوله فيك^(١): [الخفيف]

إنما مصعب شهاب من الدِّ ه تجلّت عن وجهه الظُّلماء
ملكه ملك رأفة ليس فيه جبروت كلاً ولا كبرياء
يتقي الله في الأمور وقد أف لح من كان همّه الاتقاء

(١) الأبيات في ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات، من قصيدة مطلعها:

أفترت بعد عبد شمس كداء فكدي فالركن فالبطحاء

فَتَبَسَّم مُصْعَب، وَقَالَ: إِنَّ فِيكَ لِمَوْضِعًا لِلصَّنِيعَةِ، وَأَمْرًا بِمَلَاذِمَةِ جَنَابِهِ، فَلَمْ يَزَلْ مَعَهُ حَتَّى قُتِلَ فِي جَمَادَى الْأُولَى سَنَةَ اثْنَتَيْنِ وَتَسْعِينَ، وَقُتِلَ أَخُوهُ عَبْدُ اللَّهِ فِي جَمَادَى الْأُولَى، وَكَانَتْ مَدَّةُ خِلَافَتِهِ تِسْعَ سِنِينَ وَاثْنَيْنِ وَعِشْرِينَ يَوْمًا، وَمَاتَتْ أُمُّهُ أَسْمَاءُ بَعْدَهُ بِخَمْسَةِ أَيَّامٍ لَمْ تَشَبْ وَلَمْ يَقَعْ لَهَا سَنٌّ وَلَهَا مِنَ الْعُمُرِ مِائَةُ سَنَةٍ. وَاسْمُهُ ابْنُ قَيْسِ الرَّقِيَّاتِ عَبْدُ اللَّهِ، وَإِنَّمَا عُرِفَ أَبُوهُ قَيْسُ الرَّقِيَّاتِ لِأَنَّهُ تَشَبَّبَ فِي شَعْرِهِ بِثَلَاثِ نِسْوَةٍ اسْمُ كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ رَقِيَّةٌ، وَقِيلَ: اجْتَمَعَ فِي جَدَّاتِهِ ثَلَاثُ رَقِيَّاتٍ، وَعَلَى الْقَوْلِ الْأَوَّلِ يُقَالُ الرُّقِيَّاتُ - بِالضَّمِّ - عَلَى الصَّفَةِ، وَقَيْسٌ - بِالتَّنْوِينِ - وَعَلَى الثَّانِي يُقَالُ: قَيْسُ الرَّقِيَّاتِ - بِالْكَسْرِ - عَلَى الْجَدَّاتِ، وَأَمَّا الرَّقِيَّاتُ اللَّاتِي شَبَّبَ بِهِنَّ، فَمِنْهُنَّ رَقِيَّةُ بِنْتُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَعْفَرٍ، وَفِيهَا يَقُولُ^(١): [الخفيف]

زَوَّدْتَنَا رَقِيَّةُ الْأَحْزَانَا يَوْمَ حَازَتْ حَمُولَهَا سَكْرَانَا

ورقية بنت عبد الواحد بن قيس، وفيها يقول^(٢): [الكامل الأخذ]

أَمَسْتُ رَقِيَّةً دُونَهَا الْعُمُرُ فَالَرْقَةُ السُّودَاءُ فَالْبَشْرُ

ورقية بنت الحسن، وهي ابنة عم رقية بنت عبد الواحد، وفيها يقول^(٣):

[الوافر]

أَتَكْنِي عَنْ رَقِيَّةٍ أَمْ تَبُوحُ وَمَنْ تَبِعَ الْهَوَى حِينَ فَضُوحُ

الفصل الثالث من الباب الرابع عشر

فِي أَنَّ الْإِنْتِقَامَ بِحُدُودِ اللَّهِ خَيْرُ فَعَلَاتٍ مِنْ حَكْمِهِ اللَّهُ وَوَلَّاهُ

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾

[البقرة: الآية ٢٢٩].

وَرَوَى أَبُو دَاوُدَ فِي مَرَاسِيلِهِ الَّتِي أَخْرَجَهَا فِي سَنَنِهِ عَنْ مَكْحُولٍ عَنْ عُبَادَةَ بْنِ

الصَّامِتِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَقِيمُوا الْحُدُودَ فِي السَّفَرِ وَالْحَضَرِ، عَلَى

(١) البيت في ديوان ابن قيس الرقيات، وهو مطلع القصيدة.

(٢) البيت في ديوان ابن قيس الرقيات، من بيتين، وروايتها فيه:

أَضَحْتُ رَقِيَّةً دُونَهَا الْبَشْرُ فَالَرْقَةُ السُّودَاءُ فَالْغَمْرُ

يَا لَيْتَ شَعْرِي كَيْفَ مَرَّ بِهَا وَبِأَهْلِهَا الْأَيَّامُ وَالْدَمْرُ

(٣) البيت في ديوان ابن قيس الرقيات، وهو مطلع القصيدة.

البعيد والقريب، ولا تُبَالُوا في الله لومة لائم»^(١). وروى أبو هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «حَدُّ يُقَام في الأرض خَيْرٌ لأهلها مِنْ مطر أربعين صباحًا»^(٢). وقال الحسن البصري رحمه الله تعالى: إِنَّ الله تعالى أنزل الحدود ليزجر بها عن الخبائث والفواحش، وأنزل القصاص حياة لعباده، فاقتصوا وحدوا ولا تخافوا في الله لومة لائم، ولا يحلّ لأحد أن يشفع في إسقاط حدٍّ مِنْ حدود الله تعالى، ولا يجوز للمشفوع إليه أن يشفع فيه لما روى عبد الله بن عمر رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مَنْ حَالَتْ شفاعته دون حدٍّ مِنْ حدود الله تعالى فقد ضَادَّ الله تعالى»^(٣)؛ فمما ورد عن ذوي البصائر والأحلام في كنه مشروع الإيقاع والإيلام، قال رسول الله ﷺ: «لا جلد فوق عشر جلدات إِلَّا في حدٍّ مِنْ حدود الله عزَّ وجلَّ»^(٤)، وقال عليه الصَّلَاة والسَّلَام: «ادروا الحدود بالشبهات»^(٥). قال عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه: أوقفوا الحدود ما وجدتم موقفاً؛ ولأن يخطيء الإمام في العفو خيرٌ مِنْ أن يُخطيء في العقوبة، فإذا وجدتم مخرجاً للمسلم فادروا عنه الحدود. وقال بعض الحكماء: رَبُّ ذَنْبٍ مقدار العقوبة فيه إعلام المذنب بما جنى لا يتجاوز حدَّ الارتفاع إلى حدِّ الإيقاع. وقيل لحممة بن رافع الدوسي: مَنْ أعدل الناس؟ قال مَنْ عفا إذا قدر، وأجمل إذا انتصر، ولم يُطْفِئْ غير الظفر. ويُخْكِ أَنْ جعفر بن محمد الصادق قال لأبي جعفر المنصور وقد غضب على رجل فأسرف في عقوبته: أعيذك بالله يا أمير المؤمنين أن تغضب الله سبحانه بأكثر مما غضب به لنفسه، إِنَّ الله تعالى يقول يوم القيامة للمنتقم فوق حقّه: لِمَ عاقبت عبدي بأكثر مما حددته؟ فيقول: يا ربِّ إنما غضبت لك، فيقول الله سبحانه: أكان غضبك أن يكون فوق غضبي. وقال أبو الدرداء لرجل: اسمع كلاماً يا هذا لا تغرقن في سبنا ودع للصالح

(١) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى ١٤٠/٩.

(٢) أخرجه أحمد في المسند ٣٦٢/٢، والبيهقي في السنن الكبرى ١٦٢/٨، والطبراني في المعجم الكبير ٣٣٧/١١، والزبيدي في إتحاف السادة المتقين ٢١٣/٨، والمنذري في الترغيب والترهيب ١٦٧/٣، والمتقي الهندي في كنز العمال ١٤٦٢١.

(٣) أخرجه أبو داود حديث ٣٥٩٧، وأحمد في المسند ٧٠/٢، ٨٢، والبيهقي في السنن الكبرى ٦/٨٢، ٣٣٢/٨، والحاكم في المستدرک ٢٧/٢، ٣٨٣/٤.

(٤) أخرجه أحمد في المسند ٤٦٦/٣.

(٥) أخرجه الزيلعي في نصب الراية ٣٣٣/٣، والعجلوني في كشف الخفاء ٧٣/١، والمتقي الهندي في كنز العمال ١٢٩٥٧، ١٢٩٧٢.

موضعاً، فإننا لا نكافيء مَنْ عصا الله فينا بأكثر مِنْ أن نطيع الله فيه. وقال بعض الحكماء: إِنَّ الْحَقَّ ثَقِيلٌ؛ فَمَنْ قَصَرَ فِيهِ عَجْزٌ، وَمَنْ جَاوَزَهُ ظَلَمٌ، وَمَنْ انْتَهَى إِلَيْهِ اِكْتَفَى. أَتَى الْمَأْمُونُ بِرَجُلٍ وَجِبَ عَلَيْهِ حَدٌّ، فَأَمَرَ بِضَرْبِهِ، فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ قَتَلْتَنِي؟ قَالَ: الْحَقُّ قَتَلَكَ، قَالَ: اِرْحَمْنِي، قَالَ: مَا أَنَا بِأَرْحَمَ مِنَ الَّذِي أَوْجِبَ الْحَدَّ عَلَيْكَ. وَقَالُوا: جَمَاعُ الْخَيْرِ كُلُّهُ فِي الْقِيَامِ بِحُدُودِ اللَّهِ. تَقَدَّمَتْ امْرَأَةٌ إِلَى ابْنِ الزِّيَّاتِ وَكَانَ قَدْ حُبِسَ ابْنُهَا فِي دَمٍ، فَاسْتَغَاثَتْ فَنَهَرَهَا وَزَوَى وَجْهَهَا عَنْهَا، فَقَالَ بَعْضُ مَنْ حَضَرَ: اِرْحَمِهَا أَيُّهَا الْوَزِيرُ، إِنَّهَا أُمُّهُ! قَالَ: أَفَلَا أَرْحَمُ أُمَّ الْمُقْتُولِ. شَاعِرٌ^(١): [السريع]

إِذَا عَفَا لَمْ يَكُ فِي عَفْوِهِ مَنْ بِهِ كَدَّرْ نَعْمَاهُ
وَإِنْ سَطَا عَاقِبَ ذَا زَلَّةٍ بِقَدْرِهِ لَا يَتَعَدَّاهُ

وقال أكثم بن صيفي: لَا تَعَاقِبْ عَلَى الذُّنُوبِ فَوْقَ عَقُوبَتِهَا، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَقْدَرُ مِنْكَ عَلَى عَدْوِكَ. وقال سري السقطي: خَصْلَةٌ مِنْ أَعْلَامِ الْإِسْلَامِ وَقَوَاعِدِ الْإِيمَانِ: مَنْ إِذَا قَدَّرَ لَمْ يَتَنَاوَلْ مَا لَيْسَ لَهُ. وقالوا: الْعَفْوُ احْتِمَالُ الذَّنْبِ الَّذِي لَا يَكُونُ عَنْ عَمْدٍ، وَلَا يُفْضَى إِلَى حَدٍّ، وَلَا يَنْقُضُ سَنَةً وَلَا يُؤَلِّدُ جَرَاءً؛ فَأَمَّا الَّذِي يَرْتَكِبُ عَمْدًا وَيُوجِبُ حَدًّا، فَالاحْتِمَالُ لَهُ تَرْخِيصٌ فِي الذُّنُوبِ، وَالتَّجَاوُزُ عَنْهُ إِبْطَالٌ لِلْحُدُودِ، وَذَلِكَ مَا لَا تَحْتَمِلُهُ السِّيَاسَةُ وَلَا تَطْلُقُهُ الشَّرِيعَةُ؛ فَمَنْ عَفَا عَنْ مَنْ يَسْتَوْجِبُ الْحَدَّ كَانَ كَمَنْ عَاقَبَ مَنْ يَسْتَحِقُّ الْمَثُوبَةَ.

ذكر الحدود التي أوجبها الله تعالى على مَنْ أفرط في ارتكاب الفواحش وتغالي

الحدود وضعها الله سبحانه للردع عن ارتكاب ما حظر، وترك ما أمر؛ فلا تُقام إِلَّا بَعْدَ سَمَاعِ بَيِّنَةٍ أَوْ إِقْرَارٍ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ بَيِّنَةٌ أُحْلَفَ الْخَصْمُ، وَذَلِكَ فِي حَقِّقِ الْأَدْمِيينِ، وَهِيَ نَوْعَانِ: حَدٌّ وَتَعْزِيرٌ، وَالْحَدُّ أَنْوَاعٌ: حَدُّ زِنَا، وَحَدُّ سَكْرِ، وَحَدُّ سَرَقَةٍ، وَحَدُّ قَذْفٍ.

فَحَدُّ الزِّنَا، وَهُوَ أَكْبَرُ الْكِبَائِرِ يَثْبُتُ بِأَحَدٍ أَمْرَيْنِ: إِمَّا بِإِقْرَارٍ أَوْ بَيِّنَةٍ، وَالبَيِّنَةُ أَرْبَعَةُ شُهَدَاءَ يَشْتَرِطُ فِي قَبُولِ شَهَادَتِهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ لِلْمِبَاضَعَةِ، وَفِي جَوَازِ تَعَمُّدِ النَّظَرِ

(١) البيتان للحارثي في محاضرات الأدباء، للراغب الأصبهاني، ص ٧٧٣.

خلاف، وحدّ الرؤية أن يرى مَنْ شهد تغييب البالغ العاقل حشفة ذكره في أحد الفرجين لا عصمة بينهما ولا شبهة.

والزّاني نوعان: بكر ومحصن، ويُجلد الفاعل في البكر إن كان حُرّاً بالغاً عاقلاً عالماً بالتحريم مائة سوط على سائر أعضائه، دون الوجه والرأس والخاصرة وسائر الأعضاء المخوفة ويغزبان كلاهما، وقال مالك بتغريب الرجل دون المرأة، وقال أبو حنيفة: لا يُغزّب، والتغريب عام مسافة القصر، وحدّ الكافر غير الحربيّ والمسلم في الجلد والتغريب سواء، وحدّ العبد على النّصف مِنْ حدّ الحرّ، ويغرب نصف عام في أحد القولين، وقال مالك: لا يغزّب لِمَا في تغريبه من الإضرار بسيّده. فأما المحصن، فهو الذي أصاب وطأ محرماً بعد نكاح وحدّه الرّجَم بالحجارة حتى يموت، ولا يلزم الرّاجم توقّي مقاتله بالرّجَم حتى الموت، وإن رجم بإقراره لم يحفر له وإن هرب لم يتبع، وإذا تاب الزّاني بعد القدرة عليه لم يسقط عنه الحدّ.

حدّ السرقة: والسرقة أخذ مال من حِرْز بلغت قيمته نصاباً إذا سرقه بالغ عاقل مختار لا شُبْهة له في المال ولا حرزه، فحدّه قطع يده اليُمْنَى من مفصل الكوع، والنّصاب ربع دينار أو ما قيمته ربع دينار، وهو عشرة دراهم عند الشافعي وثلاثة دراهم عند مالك، والإحراز يختلف باختلاف الأموال، وإذا قطع السارق والمال باقي ردّ على مالكة، وإن سرقه ثانية قُطِع، وقال أبو حنيفة: لا يُقطع في مالٍ مرّتين، وإن عفا ربّ المال عن القطع لم يبطل، ويستوي في قطع السرقة الرجل والمرأة والحرّ والعبد والمسلم والكافر. وإذا سرق ثانياً قُطِعت رجله اليسرى، فإن سرق ثالثاً قُطِعت يده اليسرى، فإن سرق رابعاً قُطِعت رجله اليُمْنَى، وإن سرق خامساً لم يقتل بل يُعزّر؛ لأنها معصية ليس فيها حدّ ولا كفّارة. وإذا تلف المسروق في يد السارق ضمن بدله وقُطِع؛ لأنّ الضمان يجب بحقّ الأدميّ، والقطع يجب لله، فلا يمنع أحدهما الآخر؛ كالدّية والكفّارة، ولا يقطع صبيّ ولا مجنون ولا عبد سرق مِنْ مال سيّده ولا والد سرق من مال ولده ولا ولد سرق من مال والده أو جدّه؛ لأنّ لكل واحد منهما شبهة في مال الآخر.

حدّ الخمر: كلّ ما أسكر كثيره من خمرٍ أو نبيد حُدّ شاربه، سواء أسكر أو لم يسكر إذا كان مكلفاً. والسكر ما زال معه العقل حتى لا يفرّق بين السماء

والأرض، ولا بين الطول والعرض، هذا قول أبي حنيفة. وقيل: هو أن يجمع بين اضطراب الكلام فهما وإفهاما، وبين اضطراب الحركة مشيا وقياما. ويحكى أنه لما جلس أبو بكر محمد بن أبي داود الأصفهاني الظاهري بعد أبيه يفتي استصغروه فدسوا إليه رجلا، وقالوا له: سلّه متى يكون الشارب سكران؟ فسأله الرجل فقال: إذا عرت عنه الهموم، وباح بسرّه المكتوم؛ فعلم بهذا الجواب موضعه من العلم. وقال آدم بن عبد العزيز في حده: [الطويل]

شربنا الشراب الصّرف حتى كأننا نرى الأرض تمشي والجبال تسيرُ
إذا مرّ كلب قلت قد مرّ فارسٌ وإن مرّ هرّ قلت ذاك بعيرُ
تسايرنا الحيطان من كلّ جانبٍ نرى الشخص كالشخصين وهو صغيرُ

والحدّ في حقّ الحرّ أن يُجلد أربعين بالأيدي أو بأطراف الأكمام أو بالسوط، ويكت بالقول الممض والكلام الرّادع، وحدّ العبد على النصف من حدّ الحرّ، كذا جلد رسول الله ﷺ وأبو بكر وصدرًا من خلافة عمر، فقال للصّحابة: أرى الناس قد انتهكوا في شرب الخمر، فما ترون؟ فقال عليّ رضي الله عنه: أرى أن يُجلد الحرّ ثمانين والعبد أربعين، ففعل ذلك، فلما لم يكن بدّ من اتّباع سيرة رسول الله ﷺ جعل الفقهاء الأربعين الأولى حدّا، والثانية تعزيرًا لأجل الافتراء؛ لأنّ الشارب إذا سكر عريد، وإذا عريد افترى، وإذا افترى استحقّ التعزير، فإن مات في الأربعين كانت نفسه هدرًا، وإنّ مات في الثمانين ففيه قولان، أحدهما: جميع الدية لتجاوزه النصف في حده، وهو الأربعون. والثاني: نصف الدية؛ لأنّ نصف حده نصّ، والآخر مزيد.

وحدّ القذف: ثمانون جلدة إجماعًا، وهو من حقوق الآدميين يستحقّ بالطلب ويسقط بالعفو، ويُعتبر في المقدوف خمس شروط: البلوغ، والحريّة، والعقل، والإسلام، والعِفّة؛ وإنّ كان غير ذلك لا يحدّ قاذفه، بل يُعذر لأجل الأذى. وشرط القاذف أن يكون بالغًا عاقلًا حرًّا، وإنّ كان صغيرًا أو مجنونًا فلا يحدّ ولا يُعزّر، وإنّ كان عبدًا حدّ أربعين لنقصه بالرقّ، ويستوي في الحدّ المسلم والكافر والمرأة، ولا يحدّ القاذف بالسرقة والكفر، بل يُعزّر لأجل الأذى. والقذف بالزّنا ما كان بالتصريح لا بالتعريض، وقيل: بالتصريح والتعريض، وهو مذهب مالك، وقيل: لا حدّ في التعريض، وهو مذهب الشافعي.

والتعزير هو تأديب على ذنوب لم تشرع فيها الحدود ولا يبلغ به أدنى الحد، فلا يبلغ به في الحرّ إلى الأربعين، ولا في العبد إلى العشرين، فالذي لم تشرع فيه الحدود كمباضعة الأجنبية فيما دون الفرج وسرقة ما دون النصاب، والسرقه من غير حرز، والقفد بغير الزنا، أو الجنابة التي لا قصاص فيها. ويجوز أن يكون التعزير بالعصا والسوط، وهو على حسب ما يراه الإمام، ويختلف باختلاف الذنب وحال فاعله؛ كقوله عليه الصلاة والسلام: «أقيلوا ذوي المروءات عثراتهم»^(١)، إلا في الحدود، فيُعزّر مَنْ جُلّ قدره بالإعراض عنه، ويُعزّر مَنْ دونه بالتعنيف، ويُعزّر مَنْ دونه بزواج الكلام، ويُعزّر مَنْ دونه بالضرب؛ وحالهم في الحبس كذلك مَنْ يوم إلى غاية غير مقدورة. ويجوز في التعزير العفو عنه إذا لم يتعلق به حقٌّ لآدمي؛ كالشتم والضرب، وإن عفا المشتوم أو المضروب كان وليّ الأمر مخيّر بين التعزير تقويماً أو العفو صفحاً، وإن تعافوا قبل الترافع إليه كان وليّ الأمر مخيّرًا.

والجنايات هي قود وعقل. والجنايات على النفوس ثلاثة: عمد محض، وخطأ وشبه عمد.

أمّا العمد المحض، فهو أن يتعمّد رجل قتل إنسان بما يقتل غالباً؛ ففيه القود أو الدية. والقود أن يُقتل القاتل بمثل ما قُتل به المقتول، إذا قُتل بالسيف لم يُقتَص منه إلا بالسيف، وإن أحرقه أو أغرقه أو رماه بحجر أو رماه من شاهق أو ضربه بخشبة أو حبسه ومنعه الطعام والشراب فمات، فللولي أن يقتَص بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾ [النحل: الآية ١٢٦].

والدية في هذا القتل مائة من الإبل في مال القاتل حالة، فإن أعوزت الإبل وجب قيمتها بلغت ما بلغت، وقيل: ألف دينار أو اثنا عشر ألف درهم، وأوّل مَنْ سنّ الدية مائة من الإبل عبد المطلب. وحُكم القود فيه أن يفضل القاتل على المقتول بحرية أو إسلام، بحرية أو إسلام، فلا يُقتل حرٌّ بعبد، ولا ذكر بأنثى، ولا مسلم بكافر، وهو مذهب مالك والشافعي؛ فإن قتل حرٌّ عبداً فلا قود، وكذا لو قتل مسلم كافراً، وقال أبو حنيفة: يُقتل المسلم بالكافر والحرّ بالعبد، كما يُقتل العبد بالحرّ والكافر بالمسلم، ويُقاد الرجل بالمرأة والمرأة بالرجل والكبير بالصغير

(١) أخرجه بنحوه أبو داود حديث ٤٣٧٥، وأحمد في المسند ١٨١/٦، والبيهقي في السنن الكبرى ٨/٢٦٧، ٣٣، والدارقطني في سننه ٢٠٧/٣.

والعاقل بالمجنون مراعاةً لقول الله تعالى: ﴿أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾ [المائدة: الآية ٤٥]، وقال المخالف له: هذه الآية واردة بحكاية ما كتب في التوراة على أهلها، والذي خُوطب به المسلمون: «كتب عليكم القصاص في القتلى الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى ولا يقاد والد بولد ويقاد الولد بالوالد والأخ بالأخ».

وأما الخطأ الظاهر، فهو أن ينسب إليه الفعل من غير قصد لإيقاع الفعل بالمقتول؛ كرجل رمى هدفًا فأصاب إنسانًا أو ركب دابة فرمحت بإنسان فمات، فهذا وما أشبهه إذا حدث عنه القتل قيل فيه خطأ محض تجب فيه الدية دون القود على عاقلة الجاني في ماله مؤجلة تؤخذ من حين يموت المقتول في ثلاث سنين أخماسًا عشرون خلفه، وهي التي مضى عليها سنة وخلفت عن أمهاتها، وعشرون بنت مخاض وهي التي مضى لها من العمر ستان، وعشرون بنت لبون، وهي التي مضى لها من العمر ثلاث سنين، وعشرون حقة وهي التي مضى لها من العمر أربع سنين، وسميت حقة لأنها استحققت أن يحمل عليها عشرون جذعة، وهي التي مضى لها من العمر خمس سنين، ولا يتحمل القاتل مع العاقلة شيئًا من الدية ولا يتحملها الأب وإن علا، ولا ابن وإن سفل؛ لأنهما ليسا من العاقلة.

وعلى القاتل خطأ مع الدية عتق رقبة مؤمنة سليمة من العيوب، فإنه لما أخرج نفسًا مؤمنة من جملة الأحياء لزمه أن يدخل نفسًا مثلها في جملة الأحرار؛ لأن إطلاقها من قيد الرق كإحيائها من قتل؛ لأن الرقيق ممنوع من تصرف الأحرار، ومن لم يجد رقبة ولا ما يتوصل به إليها فعليه صيام شهرين متتابعين.

ودية نفس الحر المسلم ألف دينار، وإن كانت ورقًا اثنا عشر ألف درهم، وإن كانت إبلاً بمائة من الإبل، وهي أصل الدية. ودية المرأة على النصف من دية الرجل في النفس والأطراف، ودية اليهودي والنصراني ثلث دية المسلم، وقال مالك: نصفها، ودية المجوسي ثلثا عشر دية المسلم، ودية العبد قيمته وإن زادت على الحر أضعافًا.

وأما شبه العمد، فهو أن يكون عامدًا في الفعل غير قاصد للقتل؛ كمعلم أدب صبيًا فمات أو عزز السلطان رجلًا على ذنب فتلف، فلا قود في القتل وفيه الدية على العاقلة، وهو أن يزداد عليها ثلثها تؤخذ فيها ثلاثون حقة وثلاثون جذعة وأربعون خلفه. والعاقلة هم العصبات الذين يرثون بالنسب والولاء، وإذا اشترك

جماعة في قتل رجل واحد وجب القود على جميعهم، وإن كثروا؛ ولوليّ الدم أن يعفو عمّن شاء منهم ويقتل باقيهم، وإن عفى عن جميعهم فعليهم دية واحدة تقسط عليهم بالسوية، وإن كان بعضهم جارحاً وبعضهم ذابحاً، فالقود في النفس على الذابح الموقى، والجراح مأخوذ بجراحته. وإذا قتل الواحد جماعة قُتِل بالأول ولزمه القود في الباقين، وتؤخذ ديّاتهم مِنْ ماله. والقود في الأطراف كما قال تعالى: ﴿وَكُنْزَنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ [المائدة: الآية ٤٥]، ولا تُقَاد يمينى بيسرى، ولا صحيحة بشلاء، ولا ضرر بسنّ، ولا ثنية برباعية ولا لسان ناطق بلسان أخرس؛ لأنه أكثر من حقّه، ويؤخذ الأخرس بالناطق وما انقسم إلى أعلى وأسفل لم يؤخذ الأعلى بالأسفل، ويقاد الشريف بالذنيء.

ما الدية فيه كاملة من جوارح الإنسان وحواسه

العقل، الأذنان، السمع على حياله، العينان، البصر على حياله، الأجفان، الأهذاب على حيالها، الأنف الشّم على حياله، الشفتان، النطق على حياله، الأسنان، اللسان، الذوق على حياله، اللّحيان، اليدان، الأصابع على حيالها، الصلب، قوة الإماء، الإليتان، الذكر، الأنثيان، إبطال شهوة الجماع على حيالها، الرجلان منفعة المشي، والبطش من غير قطع اليدين، والرجلين سلخ جميع الوجه، نزع لحم الأكتاف، نزع جميع اللحم النابت على الظهر.

ما تختص به المرأة دون الرجل

الثديان - وفي الرجل خلاف - الشفران، الإفضاء. وجب في كلّ جفن ربع الدية، وفي كلّ سنّ خمس من الإبل، وكذلك في الأضراس والرباعيات وفي كلّ أصبع من اليد أو الرجل عشر الدية لا يفضل أصبع على أصبع، وفي كلّ أنملة ثلث عشر الدية ما خلا الإبهام، فإنّ في كلّ أنملة منه نصف العشر. وإذا وجب القود في نفس أو طرف لم يكن لوليه أن ينفرد باستيفائه إلاّ بإذن السلطان، وإنّ صار إلى حقّه مِنْ غير إذن السلطان فلا شيء عليه، وإذا تعذّر وخاف فوات القاتل فالوليّ مُخَيَّر بين أن يعفو أو يقتل أو يأخذ الدية، وذلك مما خصّ الله به هذه الأمة؛ وذلك أنّ الله كتب على أهل التوراة القصاص وحرّم عليهم العفو وأخذ الدية، وأوجب على أهل الإنجيل العفو وحرّم عليهم القصاص وأخذ الدية.

المحاربون، وهو اجتماع جماعة على شهر السلاح وقطع الطريق وأخذ الأموال ومنع السابلة، فالحكم فيها كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ﴾ [المائدة: الآية ٣٣]، وحكم هذه الآية أنها مرتبة باختلاف أفعالهم لا باختلاف صفاتهم؛ فمن قتل وأخذ المال قُتِلَ وصُلب، ومذهب مالك وأبي حنيفة أن يُضَلَّبَ حيًّا ثم يُطْعَنَ بالرمح حتى يموت، ولا بأس أن يطعم ويسقى ولا يجوز العفو عن هذا القتل، وإن عفا ولي الدِّم؛ ومَن قتل ولم يأخذ المال قُتِلَ ولم يُضَلَّبَ، ومَن أخذ المال ولم يقتل قُطِعَت يده اليمنى لسرقة ورجله اليسرى للمجاهرة بإخافة السَّيْلِ، ومَن هَيَّبَ ولم يقتل ولم يأخذ المال عُزِّرَ لا غير وثَّقِيَ.

والثَّقْيُ هو الحبس، وهو قول مالك وأبي حنيفة، وقال الشافعي: هو أن يطلبوا لإقامة الحدود فيبعدوا، فإن تابوا سقطت عنهم الحدود. وقيل: الإمام مخير بين هذه العقوبات في كل قاطع طريق من غير تفصيل. وتوبة المحارب قبل القدرة عليه، فإن لم يكن في منعة وضع عنه الحد الإلهي ولا يسقط عنه حدّ الآدمي، وقال مالك: توبة المحارب قبل القدرة عليه تضع عنه جميع الحدود والحقوق لا الدِّمَاء، والله أعلم.

الباب الخامس عشر في الأخوة

وفيه ثلاث فصول:

الفصل الأول من هذا الباب في مدح اتخاذ الإخوان فإنهم العدد والأعوان

قال الله تعالى حكايةً عن قول الكفار في دركات النار في طلبهم الإغاثة من الصديق على إزالة ما مستهم من عذاب الحريق أو تخفيف ما نالهم من العذاب الأليم، ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ﴾ (١٥٥) وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٥٦﴾ [الشعراء: الآيتان ١٥٥، ١٥٦].

قيل: إنما سُمي الصديق صديقاً لصدقه فيما يدّعيه من المودة، وسُمي العدو عدواً لِعَدُوِّهِ عليك إذا ظفر بك. وقال رسول الله ﷺ: «أكثرُوا من الإخوان، فإنَّ الله حييٌّ كريم يستحي أن يعذب عبده بين إخوانه»^(١).

وقال عليه الصلاة والسلام: «المرء كثير بأخيه»^(٢)، وقال: «عليكم بإخوان الصدق، فإنهم معونة على حوادث الزمان، وشركاء في السراء والضراء»^(٣)، وما أحسن قول مَنْ قال^(٤): [السريع]

مَادَامَتِ النَّفْسُ عَلَى شَهْوَةٍ أَلْذَمَنْ وَدَّ صَدِيقَ أَمِينٍ
مَنْ فَاتَهُ وَدَّ أَخَ صَالِحٍ فَذَلِكَ الْمَقْطُوعُ مِنْهُ الْوَتِينُ

(١) أخرجه الشوكاني في الفوائد المجموعة ٥٥١، بلفظ: «أكثرُوا من الأصدقاء...».

(٢) أخرجه المتقي الهندي في كنز العمال ٢٤٦٨٣، والشوكاني في الفوائد المجموعة ٢٦٠.

(٣) الحديث لم أجده بهذا اللفظ في كتب الحديث التي بين يدي.

(٤) البيهقي لمحمد بن أبي أمية الكاتب في كتاب الديارات، للشاشتي، ص ٣٥؛ وبلا نسبة في بهجة المجالس، لابن عبد البر، ص ٩١١.

وقيل لحكيم: ما أحسن العيش؟ قال: إقبال الزَّمان، وعِشرة السُّلطان، وكثرة الإخوان. [السريع]

ما ضاع مَنْ كان له صاحبٌ يقدر أن يرفع مَنْ شأنه
وإنما الدنيا بسكانها وإنما المرء بإخوانه
ولعليّ كَرَّمَ الله وجهه في معناه^(١): [الطويل]

عليك بإخوان الصفاء فإنهم عماد إذا استنجدتهم وظهورُ
وليس كثير ألف خلٍّ وصاحب وإنَّ عدوًّا واحدًا لكثيرُ
وقال المغيرة بن شعبة: التارك للإخوان متروك. ويقال: الرجل بلا أخ كشمال بلا يمين. وقال الشاعر^(٢): [المتقارب]

وما المرء إلا بإخوانه كما يقبض الكف بالمعصم
ولا خير في الكف مقطوعة ولا خير في الساعد الأجذم

وقالوا: مَنْ لم يرغب في الإخوان، بلي بالعداوة والخذلان. وقالوا: اتَّخاذ الإخوان مسلاةً للأحزان. وقالوا: مثل الصديق كاليد تُوصل باليد، والعين تستعين بالعين. الثعالبي: الحاجة إلى الأخ المعين كالحاجة إلى الماء المَعِين. وقال: الصديق ثاني النفس وثالث العينين. وقال: في لقاء الإخوان روح الجنان، وراحة الجبان. وقال: لا فاكهة طيب مِنْ مفاكهة الإخوان، ولا نسيم أزوح من مناسمة الخلان. وقيل لبعضهم: أيما أعزَّ عليك شقيقك أم صديقك؟ قال: شقيقي إذا كان صديقي. وقالوا: الأخ الصالح خيرٌ لك من نفسك؛ لأنَّ النفس أمارة بالسوء، والأخ الصالح لا يأمرُك إلا بخير. ولم يقل في احتياج الإنسان إلى صديق يزيّنه في المشاهد ويُعينه على بلوغ المقاصد مثل قول الفقيه المنصور^(٣): [مخلع البسيط]

لولا صدود الصديق عني ما نال واشٍ مُنَّاه مُني
ولا أدمت البكاء حتى قرح قَيْض الدُموع جفني
وما جفاه الصديق إلا هجوم خوف عقيب أمني

(١) البيتان في ديوان عليّ بن أبي طالب، وهما بيتان منفردان.

(٢) البيتان بلا نسبة في كتاب الصداقة والصديق، لأبي حيان التوحيدي، ص ٢٩٢.

(٣) الأبيات في ديوان منصور بن إسماعيل الفقيه، وهي ثلاثة أبيات منفردة.

وقالوا: أَصْطَفِ مِنَ الْإِخْوَانِ مَنْ كَانَ ذَا عَقْلٍ مَوْفُورٍ يُهْتَدَى بِهِ إِلَى مَرَاشِدِ الْأُمُورِ، فَإِنَّ الْأَحْمَقَ لَا يَثْبِتُ لَهُ وَصَالٌ، وَلَا يَدُومُ لِمُصَاحِبِهِ عَلَى حَالٍ. وقالوا: اصْطَفِ مِنَ الْإِخْوَانِ ذَا الدِّينِ وَالْحَسَبِ، وَالرَّأْيِ وَالْأَدَبِ، فَإِنَّهُ رِذْءٌ لَكَ عِنْدَ حَاجَتِكَ، وَرَكْنٌ عِنْدَ نَائِبَتِكَ، وَأَنْسٌ عِنْدَ وَحْشَتِكَ، وَزَيْنٌ عِنْدَ عَاقِبَتِكَ.

وقال حسان بن ثابت رضي الله عنه^(١): [الوافر]

أَخْلَاءُ الرِّجَالِ هُمُوكَثِيرٌ وَلَكِنْ فِي الْبَلَاءِ هُمُوكَلِيلٌ
فَلَا يَغْرُوكَ خَلَّةٌ مَنْ تَصَافِي فَمَا لَكَ عِنْدَ نَائِبَةِ خَلِيلٍ
وَكَمْ خَلٌّ يَقُولُ أَنَا وَفِيَّ وَلَكِنْ لَيْسَ يَفْعَلُ مَا يَقُولُ
سِوَى خَلٍّ لَهُ حَسَبٌ وَدِينٌ فَذَاكَ لِمَا يَقُولُ هُوَ الْفَعُولُ
وَقَدْ صَرَّحَ الشَّاعِرُ فِي اعْتِبَارِ الْأَخْلَاقِ وَاخْتِيَارِ الْأَعْرَاقِ، بِقَوْلِهِ: [الكامل]
وَإِذَا جَهِلْتَ مِنْ أَمْرٍ أَعْرَاقَهُ وَذَكَرْتَهَا فَانْظُرْ إِلَى مَا يَصْنَعُ
إِنَّ الثُّبَاتَ إِذَا اسْتَدَامَ بِهِ الثَّرَى مَرَجَ النَّبَاتَ بِهِ فَطَابَ الْمَرْتَعُ
آخِرُ: [الكامل]

صَافِي الْكَرِيمِ فَخِيرٌ مَنْ صَافِيَتَهُ مَنْ كَانَ ذَا شَرَفٍ وَكَانَ عَفِيفًا
إِنَّ الْكَرِيمَ إِذَا تَضَعُضَعَ حَالُهُ فَالْخَلْقُ مِنْهُ لَا يَزَالُ شَرِيفًا
وَقَالَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: الْأَخُّ رَقْعَةٌ فِي ثُوبِكَ، فَانْظُرْ بِمِ تَرْقَعُهُ. وَقَالَ الْعَتَابِيُّ: لَا تَسْتَكْثِرَنَّ مِنَ الْإِخْوَانِ إِلَّا إِنْ كَانُوا أَحْيَارًا، فَإِنَّ الْإِخْوَانَ غَيْرَ الْأَخْيَارِ بِمَنْزِلَةِ النَّارِ قَلِيلُهَا مَتَاعٌ وَكَثِيرُهَا بَوَارٌ؛ وَقَدْ قَالَ الشَّاعِرُ: [البسيط]

لَا تَرْكَنْنَ إِلَى أَهْلِ الزَّمَانِ وَلَا تَأْمَنُ إِلَى أَحَدٍ وَاسْتَشْعِرِ الْحَذَرَا
فَإِنْ شَكَّكَتْ فَجَرَّبَ مَنْ تَعَاشَرَهُ حَتَّى يَقُولَ لَكَ التَّجْرِبُ كَيْفَ تَرَى
آخِرُ^(٢): [الطويل]

تَخَيَّرَ مِنَ الْإِخْوَانِ كُلِّ ابْنِ حَرَّةٍ يَسْرُوكَ عِنْدَ النَّائِبَاتِ بِلَاؤُهُ
وَقَارَنُ إِذَا قَارَنْتَ حَرًّا فَإِنَّمَا يَزِينُ وَيُزْرِي بِالْفَتَى قَرْنَآؤُهُ

(١) الأبيات في ديوان حسان بن ثابت، والبيت الأول مطلع القصيدة.

(٢) البيتان لصالح بن عبد القدوس في ديوانه، والبيت الأول مطلع القصيدة.

عديّ بن زيد^(١): [الطويل]

إذا كنت في قوم فصاحب خيارهم ولا تصحب الأردى فتردى مع الرّدي
عن المرء لا تسأل وسلّ عن قرينه فكلّ قرين بالمقارن يقتدي

آخر: [السريع]

لا تَكُ للجاهل خدناً فقد يُعتبر الصّاحب بالصّاحب
علامة الإنسان في خدنه تبين للشاهد والغائب

ولبعضهم: [الطويل]

إذا اخترت أن يبقى لك الدّهر صاحباً فمن قبل أن يصفو لك الودّ فأغضبه
فإن كان في حال التباغض راضياً وإلا فقد جرّبته فتجنّبهُ

قال ابن مسعود: ما شيء أدلّ على شيء ولا الدخان على النار من الصّاحب
على الصّاحب. وقال حكيم: كلّ إنسان يأنس إلى شكله، كما أنّ كل طير يطير مع
جنسه.

ومن النوادر: أنّ حكيمًا رأى غرابًا مع حمامة، فعجب من تألفهما مع
مبايتهما في الجنس، فأتاهما، فإذا كل منهما مكسور الجناح، فقال: إنما جمع
بينهما العلة. وقالت الحكماء: الأضداد لا تتفق، والأشكال لا تفرق. وقالوا:
على قدر تشاكل الأجناس تتألف قلوب الناس، وأقربهما مشاكلة أحسنهما
مواصلة، وأكثرها تنافراً أطولها تهاجرًا. وحكي أنّ عبد الله بن جعفر جاء مكة
ليلاً فبات خارجها، فلما أصبح دخلها، فقال: يا أهل مكة عرفنا أخباركم من
أشراركم في ليلة واحدة، نزلنا ومعنا أخيار وأشرار، فنزل أخيارنا على أخياركم
وأشرارنا على أشراركم؛ وقد نظم المتنبي هذا القول في بيت واحد، فقال^(٢):
[الوافر]

وشبه الشيء منجذب إليه وأشبهنا بدياننا الطغام

(١) البيت الثاني في ديوان عدي بن زيد، من قصيدة مطلعها:

أتعرف رسم الدار من أمّ معبد نعم وروماك الشوق قبل التجلّد

(٢) البيت في ديوان المتنبي، من قصيدة مطلعها:

فؤاد ما تسلييه المدام وعمرٌ مثل ما تهبّ اللّثام

ولغيره: [الطويل]

لكل امرئ شكل من الناس مثله وأكثرهم شكلاً أقلهم عقلاً
وكل أناس يألّفون لشكلهم وأكثرهم عقلاً أقلهمو شكلاً
لأن كثير العقل ليس بواحد له في فريق كل حين له مثلاً
آخر^(١): [السريع]

وقائل كيف تهاجرتما فقلت قولاً فيه إنصاف
لم يك من شكلي ففارقته والناس أشكال وألأف

وقال الجاحظ: من شأن الأجناس أن تتواصل، ومن عادة الأشكال أن تتقاوم، والشيء يتغلغل إلى معدنه، ويحنّ إلى عنصره، إذا صادف منبته ولاقى عنصره وشج بعروقه وسبق بفروعه، وتمكّن على الإقامة وثبت ثبات الطينة.

وقال حاتم^(٢): [الطويل]

وإني وحيد الفقر مشترك الغنى وتارك شكل لا يوافقه شكلي
وشكلي شكل لا يقوم بمثله من الناس إلا كل ذي ثقة مثلي
ولي ملح في المجد والبذل لم يكن تأتقها فيما مضى أخذ قبلي
وأجعل مالي دون عرضي جنة لنفسي وأستغني بما كان من فضلي

أبو سليمان الخطابي^(٣): [الطويل]

وما غربة الإنسان في شقة النوى ولكنتها والله في عدم الشكل
وإني غريب بين بست وأهلها وإن كان فيها أسرتي وبها أهلي

(١) البيتان لأبي الفتح البستي في ديوانه، وهما بيتان منفردان، ورواية صدر البيت الأول في الديوان:

وقائل كيف بها جزتما

(٢) الأبيات في ديوان حاتم الطائي، والبيت الأول مطلع القصيدة، ورواية صدر البيت الأول في الديوان:

وإني لعف الفقر مشترك الغنى

(٣) البيتان لأبي سليمان الخطابي (أحمد بن محمد بن إبراهيم) في معجم الأدباء، لياقوت الحموي، في ترجمته؛ والوافي بالوفيات، لصلاح الدين الصفدي، في ترجمته.

ويقال: المودة نسبة من غير رحم، وصلة من غير قرابة. شاعر^(١): [الكامل]

ولقد صحبت الناس ثم سبرتهم وبلوت ما وصلوا من الأسباب
فإذا القرابة لا تقرب نائياً وإذا المودة أقرب الأنساب
آخر: [البسيط]

ما القرب إلا لمن صحت مودته ولم يخنك وليس القرب بالنسب
كم من قريب بعيد الود مظعن ومن بعيد سليم الود مقترب

فنون شروط الإخاء

وحقوقه الواجبة على كل أحد لصديقه

والقول الجامع لحقوق الصديق ما روي عن رسول الله ﷺ، أنه قال: «للمسلم على المسلم ست خصال واجبات، فمن ترك واحدة منها فقد ترك حقاً واجباً لأخيه عليه: أن يسلم عليه إذا لقيه، ويشمتة إذا عطس، ويعوده إذا مرض، ويُجيبه إذا دعاه، وينصحه إذا غاب، ويشيعه إذا مات»^(٢). وقال عمر بن الخطاب: ثلاث يصفو بها ود أخيك: تسلم عليه إذا لقيته، وتوسع له في المجلس، وتدعوه بأحب أسمائه إليه. نظم بعض الشعراء هذه الكلمات: [الطويل]

ثلاث بها تصفو بودة أخيك إذا اجتمعت بعد الإخوة فيك
تسلم عليه ضاحكاً متحبباً إليه إذا لاقيته ولقيك
ويوسع له بالود في كل مجلس كما كنت يوماً موسعاً لأبيك
وتدعوه من أسمائه بأحبها إليه تكن بالود منه وشيك
وداوم عليها مع أخيك فإنه من السوء عند النائبات يقيك

وسئل عبد الله بن عمر: ما حق الصديق على صديقه؟ قال: لا تشبع ويجوع، وتلبس ويعرى، وأن تواسيه بالبيضاء والصفراء. نظم شاعر هذه الكلمات

(١) البتان ليحيى بن زياد الحارثي في ديوانه، وهما بيتان منفردان، ورواية البيت الأول في الديوان:

ولقد عرفت القائلين وقولهم وفهمت ما ذكروا من الأسباب

(٢) أخرجه بلفظ: «للمسلم على المسلم ست بالمعروف...»، الترمذي حديث ٢٧٣٩، وابن ماجه حديث ١٤٣٣، وأخرجه بلفظ: «للمسلم على المسلم ست خصال»، الطبراني في المعجم الكبير ٢١٦/٤، والهيتمي في مجمع الزوائد ١٨٤/٨، والمتقي الهندي في كنز العمال ٢٤٨٣٩.

فقال : [الخفيف]

لخيللي عليّ مني ثلاث واجبات أخصّها إخواني
حفظه في المغيب إن غاب عثي ولقياه بالبشر إن لاقاني
ثم بذلي بما حوته يميني مشفقاً في الخطوب إن ما دعاني

فمما يعتمد من شرائط الإخاء والمودة رعاية الأخ أخاه في الرّخاء والشدة

قال عليّ رضي الله عنه : لا يكون الصديق صديقاً حتى يحفظ أخاه في ثلاث : في نكبته وغيبته ووفاته . وقال طاوس اليماني : لا تواخين إلاّ الكريم الأبوة الكامل المروّة ، الذي إن بعدت عنه خلفك ، وإن قرّبت إليه كنفك . وقال الثعالبي : ينبغي أن يكون الصديق لصديقه أسمع من خادم ، وأطوع من حاتم . وقيل لابن السماك ، واسمه محمد بن صبيح : أيّ الإخوان أخلق ببقاء المودة ؟ قال : الوافر دينه ، الوافي عقله ، الذي لا يملك على القرب ، ولا ينسأك عند البُعد ، إن دنوت منه دعاك ، وإن بعدت عنه رعاك ، لا يقبضه عنك يسر ، ولا يقطعه عنك عسر ، إن استعنته عضدك ، وإن احتجت له رفدك ، وتكون مودة فعله أكثر من مودة قوله ، يستقل كثير المعروف من نفسه ، ويستكثر قليل المودة من صديقه . وقال جعفر الصادق رضي الله عنه : للصدّاقة خمس شروط فمن كانت فيه فانسبوه إليها ، ومن لم تكن فيه فلا تنسبوه إلى شيءٍ منها ، وهي أن يكون زين صديقه زينه ، وسريته له كعلايته ، وأن لا يغيّره عليه مال ، وأن يراه أهلاً لجميع مودّته ، ولا يسلمه عند النكبات . وقال أبو بكر بن عبد الله المزني : إذا انقطع شسع نعل أخيك ولم تُواسه في الحفاء ، فقد ملّت إلى جانبٍ من الجفاء . ومن حقّ الصداقة : حفظ العهد ، وبذل المال ، وإخلاص المودة ، ورعاية الغيب ، وتوقير المشهد ، ورفض الوحدة ، وكظم الغيظ ، واستعمال الحلم ، ومجانبة الخلاف ، واحتمال الكلّ ، وطلاقة الوجه ، وصدق اللسان ، والمشاركة في البأساء .

ولقد كرم نجار من قال في معرض الافتخار : البسيط

لم يبق مني على الأيام باقية إلاّ انقضت غير حفظ العهد والذّم
هذان خلقان أيام الحياة معي لا يبرحان على الإكثار والعدم

أبو العتاهية^(١): [الطويل]

أُحِبُّ مِنَ الْإِخْوَانِ كُلِّ مُؤَاتِي وَكُلِّ غَضِيضِ الطَّرْفِ عَنْ عِثْرَاتِي
يُؤَافِقُنِي فِي كُلِّ أَمْرٍ أُرِيدُهُ وَيَحْفَظُنِي حَيًّا وَبَعْدَ مَمَاتِي
وَمَنْ لِي بِهَذَا لَيْتَ أَنِّي وَجَدْتُهُ فَقَاسَمْتُهُ مَا لِي مِنَ الْحَسَنَاتِ

وقالوا: خير الإخوان مَنْ يَسْتَرِ ذَنْبَكَ فَلَمْ يُقَرِّعَكَ بِهِ، وَيُخْفِي مَعْرُوفَهُ عِنْدَكَ
فَلَمْ يَمَنْ بِهِ عَلَيْكَ. وقال أعرابي: اصحب مَنْ يَنْسَى مَعْرُوفَهُ عِنْدَكَ، وَيَذْكُرُ حَقُوقَكَ
عَلَيْهِ. وقال آخر: اصحب مَنْ إِذَا صَحَبْتَهُ زَانِكَ، وَإِنْ خَدَمْتَهُ صَانِكَ، وَإِنْ أَصَابَتْكَ
خِصَاصَةٌ مَانِكَ، وَإِنْ رَأَى مِنْكَ حَسَنَةً عَدَّهَا، إِنْ عَثَرَ عَلَى سَيِّئَةٍ سَدَّهَا، لَا تَخَافُ
بَوَائِقَهُ، وَلَا تَخْتَلِفُ عَلَيْكَ طَرَائِقُهُ. أبو نصر الميكالي: [مجزوء الرجز]

أَخُوكَ مَنْ إِنْ كُنْتَ فِي نَعْمَى وَبُؤْسَى عَادَ لَكَ
وَإِنْ بَدَلَكَ نَقْمَةً الْبَرَّ مِنْهُ عَادَ لَكَ

آخر^(٢): [الخفيف]

خَيْرُ إِخْوَانِكَ الْمَشَارِكُ فِي الْأَمْرِ رَوَّابِينَ الشَّرِيكِ فِي الْأَمْرِ أَيْنَا
الَّذِي إِنْ حَضَرْتَ زَانِكَ فِي الْحَدِّ سَيَّ وَإِنْ غَبْتَ كَانَ أَذْنَا وَعَيْنَا
آخر: [الطويل]

لَعَمْرُكَ مَا زَانَ الْفَتَى فِي أُمُورِهِ وَلَا شَانَهُ إِلَّا طَبَاعَ الْخُلَائِقِ
وَلَا صَاحِبَ الْأَقْوَامِ فِي كُلِّ حَالَةٍ كَحَرِّ كَرِيمٍ أَوْ خَلِيلٍ مُوَافِقِ
يُؤَاسِيكَ فِي الْبَلْوَى وَيَمْنَحُكَ الْهَوَى وَيُصَفِّيكَ وَدًّا مَا خَضَا غَيْرَ مَاذِقِ
يَكُونُ إِذَا نَابَتْكَ يَوْمًا عَظِيمَةً سَنَانًا لَدَى الْهَيْجَاءِ فِي كُلِّ مَارِقِ

آخر^(٣): [الرجز]

إِنْ أَخَاكَ الصَّدَقَ مَنْ كَانَ مَعَكَ وَمَنْ يَضُرُّ نَفْسَهُ لِيَنْفَعَكَ
وَمَنْ إِذَا رَيْبَ الزَّمَانِ صَدَعَكَ شَتَّتَ فِيكَ شَمْلَهُ لِيَجْمَعَكَ

(١) الأبيات في ديوان أبي العتاهية، والبيت الأول مطلع القصيدة.

(٢) البيتان لكثير غزاة في ديوانه، والبيت الأول مطلع القصيدة؛ ولبشار بن برد في ديوانه، والبيت الأول مطلع القصيدة.

(٣) الرجز لعلي بن أبي طالب في ديوانه، والشطر الأول مطلع القصيدة.

وقيل لخالد بن صفوان: أي إخوانك أوجب عليك حقًا؟ قال: الذي يسدّ خلّلي، ويغفر زلّلي، ويقبل علّلي، ويبسط عندي أمني. وقال الثعالبي: صديقك مَنْ يرضى خلّتك ويسدّ خلّتك. وقال الحجاج لابن القرية: ما الكرم؟ قال: صدق الإخاء في الشدة والرّخاء. ويقال: صديقك مَنْ ساعفك في أطوارك، وقَدّم سعيه في قضاء أوطارك. أبو تمام حبيب^(١): [الكامل]

مَنْ لي بإنسانٍ إذا أغضبتَه وجهلت كان الجهل ردّ جوابه
وإذا صبوت إلى المدام شربت من أخلاقه وسكرت مِنْ أدابه
وتراه يصغي للحديث بطرفه وبقلبه ولعله أذرى به

وقال الخليل بن أحمد: يجب على الصديق مع صديقه استعمال أربع خصال: الصفح قبل الاستقالة، وتقديم حُسن الظنّ قبل التُّهمة، والبذل قبل المسألة، ومخرج العذر قبل العتب. وقال رجل لمطيع بن إياس: جئتُك خاطبًا لمودّتك، قال: قد زوّجتُكها على شرط أن تجعل صداقها أن لا تسمع فيّ مقالة الناس. وقالوا: السّر لما عاينت أحسن من إذاعة ما ظننت. شاعر: [الطويل]

إذا شئت أن تُدعى كريماً مهذباً حليماً ظريفاً ماجداً فطناً حُرّاً
فإن ما بدت مِنْ صاحب لك زلةً فكُن أنت محتالاً لزلّته عذراً

وقيل لبعض الأدباء: مَنْ الرفيق؟ قال: مَنْ أحسن شغله، وأوكد فرضه ونفله، فقيل له: مَنْ الشفيق؟ قال: مَنْ إن دهمتكَ محنة قذيت عينه لك، وإن شملتكَ منحة قرّت عينه بك، فقيل له: فَمَنْ الوفيّ؟ قال: مَنْ يحكي بالقصد كمالك ويرعى بلحظه جمالك، قيل له: فَمَنْ الصّاحب؟ قال: الذي مَنْ إذا نأى ذكركَ عند الناس، وإن دنا خدمك في الكناس. وقال بعض البلغاء: إذا جادلَكَ أخوك بماله فقد جادلَكَ بنفسه؛ لأنّه قد بذل لك ما لا قِوام لنفسه إلّا به، وإذا بخل عليك برفده، فلا تصدّقه في ودّه. ولله درّ القائل: [المقارب]

إذا صاح بي صاحبي يا أخي وقد عضّه الدهر لبّيئته
أعلل بالوصل عرس الإخاء ليذكروا كنت ربّيئته
له الصّفو مما حوته يدي وببيتي إذا زارني بيئته

(١) الأبيات لأبي تمام في المستطرف، للأبيشي، ص ٥٧٤، ولم أجدها في ديوانه.

آخر^(١): [الوافر]

أميل مع الصديق على ابن أُمِّي وأخذ للصديق من الشقيق
فإن بصرتني حُرًّا مُطاعًا فإنك واجدي عند الصديق

وقالوا: لتكن معاونتك أخاك بمهجتك عند البلاء أكثر من معاونتك إياه عند الرّخاء. وقالوا: اجعل حسنات أخيك له محسوبة، وسيئاته إلى الزمان منسوبة. وقالوا: من علامة الصديق أن يكون لصديق صديقه صديقًا، ولعدوّ صديقه عدوًّا. وقالوا: ليس من الحب أن تحب ما يبغض حبيبك. السري الرفاء^(٢): [الطويل]

وليس يكون المرء سلم صديقه إذا لم يكن حرب العدو المخالف
آخر^(٣): [الطويل]

صديق عدوّي داخل في عداوتي وإنني لمن ودّ الصديق ودود
آخر^(٤): [الطويل]

تودّ عدوّي ثم تزعم أنني صديقك أن الرأي منك لعازب
آخر من أبيات^(٥): [الوافر]

إذا صافى صديقك من تعادي فقد عاداك وانقطع الكلام
وقالوا: يجب على الصديق أن يحتمل لصديقه ثلاث مظالم: ظلم الغضب، وظلم الدالة، وظلم الهفوة. وقالوا: إذا صحّ الودّ سقطت شروط الأدب. ويقال:

(١) البيتان لعلي بن الجهم في ديوانه، والبيت الأول مطلع القصيدة، ورواية صدر البيت الأول في الديوان:

أميل مع الذمام على ابن أُمِّي

(٢) البيت في ديوان السري الرفاء، من قصيدة مطلعها:

قضى بوقوف الركب حقّ المواقف فرؤى صداها بالدموع الزوارف

(٣) البيت لعلي بن أبي طالب في ديوانه، من بيتين، والبيت الثاني:

فلا تقربا مني وأنت صديقه فإنّ الذي من القلوب بعيد

(٤) البيت للناطقة الشيباني في ديوانه، من بيتين، والبيت الثاني:

وليس أخي من ودّني بلسانه ولكن أخي من ودّني وهو غائب

(٥) البيت بلا نسبة في بهجة المجالس، لابن عبد البر، ص ٩٣٩؛ وسلافة العصر، لابن معصوم، ص ٣٩٢.

إذا صَحَّ الاعتقاد ذهب الانتقاد. وقال المأمون: أَحَبُّ الإخوان إِلَيَّ مَنْ يَكْفِينِي مُؤْنَةُ التَّحْفِظِ.

ومما يجب عليه من حسن الصنيع رفض العتاب واجتناب التفريع

قال عيسى عليه السلام: الصَّبْرُ عَلَى أَخٍ بَعِيبٍ فِيهِ خَيْرٌ مِنْ أَخٍ تَسْتَأْنِفُ مَوَدَّتَهُ. وقيل: مَنْ عَاتَبَ فِي كُلِّ ذَنْبٍ أَخَاهُ، فَحَقِيقٌ أَنْ يَمْلَهُ وَيَقْلَاهُ. وقالوا: قديم الحرمة وحديث التوبة يمحوان ما بينهما مِنَ الإساءة. شاعر: [الكامل]

زَيْنَ أَخَاكَ بِحَسَنِ وَصْفِكَ فَضْلُهُ وَاثْبَتَ لِمَا يَأْتِي مِنَ الْحَسَنَاتِ
وَتَجَافَ مِنْ عَثْرَاتِهِ وَاسَاتِهِ مَنْ ذَا الَّذِي يَنْجُو مِنَ الْعَثَرَاتِ

وقالوا: العفو الذي يقوم مقام العتق ما سلم مِنْ تعداد السَّقَطَاتِ، وَخُلِّصَ مِنْ تَذَكَارِ الْفِرْطَاتِ. وقالوا: لَيْسَ مِنَ الْعَدْلِ سُرْعَةُ الْعَذْلِ. ويقال: الْعِتَابُ دَاعِيَةُ الْاجْتِنَابِ. وقالوا: عِتَابُ الْأَحْبَابِ دَاعِيَةُ الْهَجْرِ وَالسَّبَابِ. وقالوا: الْعِتَابُ أَكْدُ دَوَاعِي الْقَطِيعَةِ بَيْنَ الْأَحْبَابِ. شاعر^(١): [الكامل]

لَوْلَا كِرَاهِيَةُ السَّبَابِ وَإِنِّنِي أَخْشَى الْقَطِيعَةَ إِنْ ذَكَرْتَ عِتَابَا
لَذَكَرْتَ مِنْ عَثْرَاتِكُمْ وَذُنُوبِكُمْ مَا لَوْ يَمُرُّ عَلَى الْفَطِيمِ لَشَابَا

آخر: [الوافر]

تَحْمِلُ مِنْ صَدِيقِكَ كُلِّ ذَنْبٍ وَغَدَّ خَطَاهُ مِنْ نَمَطِ الصُّوَابِ
وَلَا تَعْتَبْ عَلَى ذَنْبِ حَبِيبَا فَكَمْ هَجْرٍ تَوْلَدَ مِنْ عِتَابِ

أحمد بن يوسف: [الوافر]

وَكَمْ قَدْ قَلْتُمْ قَوْلًا لَدِينَا لَهُ لَوْلَا مَهَابَتُكُمْ جَوَابُ
تَرَكْتَ عِتَابَكُمْ وَعَفَوْتَ إِنِّي رَأَيْتَ الْهَجْرَ مَبْدُوءَ الْعِتَابِ

(١) البيتان بلا نسبة في محاضرات الأدباء، للراغب الأصبهاني، ص ٢٨٢.

آخر^(١): [الوافر]

إذا اعتذر الصديق إليك يومًا من التقصير عذر أخٍ مقرر
فصُئنه عن عتابك واعفُ عنه فإن العفو شيمة كل حرٍّ

آخر^(٢): [الكامل]

لا تجفونَ أخًا وإن أبصرته لك جافيًا ولما تحب منافيا
فالغصن يذبل ثم يصبح ناضرًا والما يكدر ثم يرجع صافيا

آخر: [الرملي]

أخلص الودَّ لمن آخيته واغفر العثرة منه إن عثر
وإذا زلتَ به النُّعل فلا تلبس من أجله جلد النُّمر
عُد بحلم منك يطفي جهله إنما الجهل كنار تستعز

آخر^(٣): [الطويل]

إذا أنت عاتبت المملوك فإنما تخط على جارٍ من الماء أحرفا
وهبه ارعوى بعد العتاب ولم تكن مودته طبعًا فصارت تكلفا

آخر^(٤): [الوافر]

وكم من قائلٍ قد قال دعه فلم يكُ وده لك بالسَّليم
فقلت إذا جزيت الغدر غدرا فما فضل الكريم على اللئيم
وأي الألف يعطفني عليه وأين رعاية الحق القديم

ويقال: إذا انبسطت المكاتب انقبضت المصاحبة. وقال أبو بكر الخوارزمي:

لا خير في حبٍّ لا تحتمل أفذاؤه، ولا يشرب على الكدر ماؤه، وإنما العشرة مجاملة، والمجاملة لا تسع الاستقصاء، والكشف لا يحتمل الحساب والضرف.

(١) البيتان بلا نسبة في روضة العقلاء، لابن حبان البستي، ص ٣٧٣.

(٢) البيتان لأبي الفتح البستي في ديوانه، وهما بيتان منفردان.

(٣) البيتان بلا نسبة في الإعجاز والإيجاز، للثعالبي، ص ٢٥٦.

(٤) الأبيات بلا نسبة في المذاكرة في ألقاب الشعراء، للشهابي الإربلي، ص ٢٩٩.

محمود الوراق^(١): [الكامل الأحذ]

إِنَّ التَّجَنِّي قاطع الرِّفْدِ وَالغَيْظُ يخرج كامن الحقدِ
فاقبل أخاك على تغيّره وازع الذي قد كان مِنْ عهدِ
آخر^(٢): [الطويل]

وَمَنْ لم يغمض عينه عن صديقه وعن بعض ما فيه يمتّ وهو عاتبُ
ومن يتبع جاهداً كلَّ عشرة يجدها ولا يسلم له الدَّهر صاحبُ
بشار بن بُرد^(٣): [الطويل]

إذا كنت في كلِّ الأمور مُعَاتِباً خليك لم تلق الذي لا تُعَاتِبُهُ
وإنَّ أنت لم تشرب مراراً على القذى ظَمِئت وأَيُّ الناس تصفو مشاربُهُ
فصُنْ واحداً أو صُنْ أخاك فإنّه مقارفُ ذنب مرّة ومجانِبُهُ
وَمَنْ ذا الذي ترضى سجاياه كلّها كفى المرء نبلاً أن تعدّ معايِبُهُ
آخر^(٤): [المنسرح]

ارْضَ مِنَ المَرْءِ في مودّته بما يودى إليك ظاهره
من يكشف الناس لم يجد أحداً تصحّ منهم له سرائره
يوشك أن لا يتمّ وصل أخ في كلِّ زلّاته تنافره
ابن الرومي^(٥): [الطويل]

هم الناس في الدنيا فلا بدّ من قذى يلمّ بعين أو يكدر مشربا
ومن قلة الإنصاف أنك تبتغي الـ مهذب في الدنيا ولست المهذباً

(١) البيتان في ديوان محمود الوراق، وهما بيتان منفردان.

(٢) البيتان لكثير غزّة في ديوانه، من قصيدة مطلعها:

أشاقك برق آخر الليل واصبّ تضمّنه فرش الجبا فالمسارب

(٣) الأبيات في ديوان بشار بن برد، من قصيدة مطلعها:

جفا و فازور أو ملّ صاحبه وأزرى به أن لا يزال يعاتبه

(٤) الأبيات لمحمد بن حازم الباهلي في ديوانه، والبيت الأول مطلع القصيدة.

(٥) البيتان ليسا في ديوان ابن الرومي، وهما بلا نسبة في الصداقة والصديق، لأبي حيان التوحيدي، ص

العباس بن الأحنف^(١): [الخفيف]

إنّ بعض العتاب يدعو إلى الهجـ ر ويؤذي به المحبّ الحبيبا
وإذا ما القلوب لم تضر الوـ ذ فلن يعطف العتاب القلوبا
وقالوا: الاستقصاء أول الزهد، وآخر الودّ. ومن أمثالهم: ربّ خـطـرة صغيرة
عادت همّة كبيرة. وقال الشاعر^(٢): [البسيط]

هذي مخايل برق خلفها مطر جود ووري زناد خلفه لهب
وأزرق الصبح يبدو قبل أبيضه وأول الغيث قطر ثم ينسكب
نصر بن سيار^(٣): [الوافر]

أرى خلل الرماد وميض جمر ويوشك أن يكون لها ضرام
فإنّ النار بالعودين تذكو وإنّ الحرب أولها كلام
فإن لم يُطفئها عقلاء قوم يكون وقودها جثث وهام
عبد الله بن طاهر^(٤): [الطويل]

إذا ما صديقي ضرني سوء فعله ولم يكّ عمّا ساءني بمفـيق
صبرت على أشياء منه تريبني مخافة أن أبقى بغير صديق
ومنه قول الآخر^(٥): [الوافر]

وكنت إذا الصديق أراد غيظي وأشرفني على حنقٍ بريقي
غفرت ذنوبه وعفوت عنه مخافة أن أعيش بلا صديق

(١) البيتان في ديوان العباس بن الأحنف، من قصيدة مطلعها:

وجد الناس ساطع المسك من دجـ لمة قد أوسع المشارع طيبا

(٢) البيتان للبحري في ديوانه، من قصيدة مطلعها:

نحن الفراء فماخوذ ومرتقب ينوب عنك إذا همت بك النوب

(٣) الأبيات في التذكرة الحمدونية، لابن حمدون، ص ٥٩١، والحماسة البصرية، للبصري، ص ٢٦٨.

(٤) البيتان بلا نسبة في بهجة المجالس، لابن عبد البر، ص ٩١٣.

(٥) البيتان لأبي زيد الطائي في ديوانه، من قصيدة مطلعها:

إذا نلت الوزارة فاسم فيها إلى العلـياء بالحسب الوثيق

ولكثير عزّة في ديوانه، من قصيدة مطلعها:

صديقك حين تستغني كثير وما لك عند فقرك من صديق

ومنهج مَنْ استحسن عتاب الأصحاب قربما كان حصاً على اكتساب المحاب

قالوا: معاتبة الأخ الصديق خيرٌ مِنْ فَقْدِهِ، فلعلّها تكون سبباً إلى صلاحه ورُشده. وقالوا: ترك المعاتبة مِنْ علامات الإهمال، والتواطؤ على منهيات الأعمال. وقالوا: شرّ الأصحاب مَنْ لم ينجع فيه العتاب. وقال عليّ رضي الله عنه: عاتِبٌ أخاك بالإحسان إليه، وازدُدْ شرّه بالإفضال عليه. وقال عليّ بن عبيدة الزنجاني: العتاب حدائق الأحباب، وثمار الوَدِّ ودليل الظفر وحركات الشوق، وراحة الواجد ولسان المُشفق. وقالوا: العتاب يداوي القلوب ويترجم عن خفيات العيوب. وما أحسن قول مَنْ قال^(١): [الوافر]

تواقف عاشقان على ارتعاب	أراد الوصل من بعد اجتناب
فلا هذا يملّ عتاب هذا	ولا هذا يملّ من الجواب
فلا عيش كوصل بعد هجر	ولا شيء ألدّ مِنْ العتاب

آخر^(٢): [الطويل]

أُعَاتِب مَنْ أهواه في كلِّ حالة	ليجتنب الأمر الذي معه الذنب
فإني أرى التأنيب عند حدوثه	بمنزلة الغيث الذي قبله الجذب

ومن مستحسنات المعاتبات قول القائل: [البسيط]

لا عَزُو إن كان مَنْ دوني يسرّكم	وأُنشئ عنكم بالويل والحرب
يدنو الأراك فيمسي وهو ملتئم	ثغر الفتاة ويلقى العود في اللهب

ولبعضهم: [الطويل]

سأنسيك نفسي إن نسيت مودتي	كأنك لم تخطر ببالي ولا وهمي
وأكفيك إذا لم تبغ حمد مذمتي	فتبرأ من حمدي وتبرأ من ذمتي
وأنساك نسيان القرون التي مضت	عليها الليالي من جديس ومن طسم
فإن قيل لي أين الذي كان بينكم	رددت عليه أنه كان في الحلم

(١) الأبيات بلا نسبة في الزهرة، لابن داود الأصبهاني، ص ٢٧٤.

(٢) الأبيات بلا نسبة في التمثيل والمحاضرة، للثعالبي، ص ٣١٨.

جرير^(١): [الوافر]

فإن تَكُ قد مَلَّتْ الآن مَتِي فسوف ترى مجانبتي وبُعدي
وسوف تلوم نفسك إن بقينا وتبلو الناس والإخوان بعدي
فلا والله لا أنساكَ حَتَّى أوسد مضجعي وأزور لحدي
ابن الرومي^(٢): [الطويل]

تخذتكمو حصنًا منيعًا لتدفعوا نبال العدا عَنِّي فكنتم نصالها
إذا كنتم لا تدفعون مَلَمَةً عن النَّفس كونوا لا عليها ولا لَهَا
إبراهيم بن العباس رحمه الله تعالى^(٣): [المتقارب]

وكننت أخِي يا أخِي الزَّمان فلما نبا صرت حرِّبا عوانا
وكننت أعدَّكَ للنَّائبات فها أنا أطلب منك الأمانا
وكننت أذمَّ إِلَيْكَ الزَّمان فها أنا أطلب فيكَ الزَّمانا
وقال بعض الأمويين يعاتب عيسى بن موسى^(٤): [الخفيف]

إن تكَلَّمْتُ لم يكن لكلامي موقع والسكوت ليس بمُجدي
وأراني إذا تَأَمَّلْتُ أمري ناقص الحظُّ في دنوِّي وبُعدي
فأبْزُ لي أكل هذا التَّواني في جميع الإخوان أم لي وحدي
أم ترى ما اصطنعته عند غيري واجبًا أن أعدَّه لك عندي
قد لعمرِي أيسَّتْ منك حياتي ومُحالٌ أني أرجيك بعدي

وينبغي للفطن اللَّبيب أن يُوغل في عتاب الحبيب، فإنَّهم قالوا في كلام بعض الحكماء: بعض المعاتبة حزم، وكلَّها عزم؛ كالخشبة المنصوبة في الشمس تُمال، فيزيد ظلُّها وتفرط في الإمالة فتنقصه. وقالوا: الجواد إذا ضرب في غير وقته كَبَأ، والحُسام إذا اسْتُكِّره نبا. ولهذا قال بعض الأعراب: أقلَّ الناس عقلًا مَنْ أفرط في

(١) الأبيات ليست في ديوان جرير، وهي للوليد بن يزيد في ديوانه، وهي ثلاثة أبيات منفردة.

(٢) البيتان في ديوان ابن الرومي، والبيت الأول مطلع القصيدة، ورواية صدر البيت الأول في الديوان:

تخذتكم درعًا وترسًا لتدفعوا

(٣) الأبيات في ديوان إبراهيم بن العباس الصولي، وهي ثلاثة أبيات منفردة.

(٤) الأبيات بلا نسبة في كتاب مثالب الوزراء، لأبي حيان التوحيدي، ص ٩٢.

اكتساب الإخوان، وأقلّ عقلاً منه مَنْ ضيّع من ظفر به منهم. ويقال: قارب الإخوان، فإنّ المقاربة أقرب الأنساب ولا تنقص عليهم، فإنّ التقضي أقطع الأشياء للأسباب. ويقال: بدقيق العتب على الأحباب تنفر وحشيات الخواطر والألّباب. ويعمل الصاحب في مصاحبة أخيه بقول القائل^(١): [الكامل]

صافِ الصديق وأصفه صفو الصفا واخصّص صديقك بالصدقة تخصص

أو بقول الآخر، وهو أليق بمن حسنت أخلاقه وكُرمَت أعراقه: [البيسط]

خُذْ من صديقك مرأى غير مستمع لا تعدوّن عيان المرء للخبر

إن كنت لا تصطفي ممن ترى أحداً فاخلق لنفسك إخواناً على قدر

وقالوا: كثرة العتاب تحيي مودّات الضغائن، وتثير كوامن الدفائن. شاعر:

[الطويل]

كثر العتاب فقلت إن عاتبته

ورجوت أن تبقي المودة بيننا

وما أظرف مَنْ قال^(٢): [الطويل]

أخ كأيام الحياة إخواؤه

إذا عُبِتْ منه خلة فكرهتها

وكتب يزيد بن معاوية لسالم بن زياد: قليل العتاب يؤكّد أواخي الأسباب،

وكثيره يقطع وصائل الأنساب. [الكامل الأحذ]

لا تكثرن في كل حادثة

هب مشرباً يصفو فتحمده

عتب الصديق فإنه يهفو

أترى المشارب كلّها تصفو

آخر: [الكامل]

لا يؤيسّنك من صديقك نبوة

فلإذا نبا فاستبقه وتأنه

ينبو الفتى وهو الجواد الخضر

حتى يفيء به الطباع الأكرم

(١) البيت بلا نسبة في كتاب الزهرة، لابن داود الأصبهاني، ص ١٣٥٢.

(٢) البيتان للسعدي في رسائل الجاحظ، ص ٧٠٦؛ وبلا نسبة في الصداقة والصديق، لأبي حيان التوحّيدي، ص ٢٣٩.

آخر^(١): [الكامل]

دار الصديق إذا استشاط تغيطًا فالغيط يُخرج كامنَ الأحقادِ
ولربّما كان التغيط باعًا لتناول الآباء والأجدادِ

آخر: [الكامل]

كاف الخليل على الجميل بمثله فإذا ساء فكافه بعتابه
وإذا عتبت على امرئ أخيته فتوق طائر عتبه وسبابه
والئن جناحك ما استلان مودةً وأجب دعاه إذا دعا بجوابه
ومن ذوي الأنفة من أطاع أمر عقله، فكافأ المتكلف للهوى على فعله بمثله؛
كقول الشاعر^(٢): [الوافر]

إذا تاه الصديق عليك كبرًا فتنة كبرًا على ذاك الصديق
وإن سلك الغرام به طريقًا فخذ عرضًا سوى ذاك الطريق
فإيجاب الحقوق بغير راعٍ حقوقك رأس تضييع الحقوق

آخر: [الكامل]

وإذا الصديق نأى بجانب نفعه وحماك صوب غمامه المتدق
وازور عنك بجاهه وبماله وببشره وجنى ولم يتخلق
فاعدده في الموتى فلا معنى له وارمي به الغرض البعيد وحلق
إن ظنني للنار منه شفاعاة يوم القيامة ساء ظنّ الأحمق

الكميت^(٣): [الطويل]

ولست إذا ولى الصديق بوذه بمكتئب أبكي عليه وأنذبُ

(١) البيتان بلا نسبة في بهجة المجالس، لابن عبد البر، ص ٩٤٢؛ ومحاضرات الأدباء، للراغب الأصبهاني، ص ٨٨٨.

(٢) الأبيات بلا نسبة في محاضرات الأدباء، ص ٨٤٣.

(٣) البيت الأول ليس في ديوان الكميت، والبيتان الثاني والثالث في ديوان الكميت بن معروف الأسدي، من ثلاثة أبيات، أولها:

وما أنا بالنكس الذني ولا الذي إذا صد عنه ذو المودة يقربُ

ولكنه إن دام دمت وإن يكن
إلا أن خير الودّ ودّ تطوّعت
أبو العتاهية^(١): [مخلع البسيط]

ما أنا إلا كمن عناني
لست أرى ما ملكت طرّاً
مَن ذا الذي يرتضي الأفاصي
آخر^(٢): [الطويل]

ومِن شيمتي أني إذا المرء ملّني
أطلت له فيما يجب عنانه
فإن عاد في ودي رجعت لودّه
محمد بن حازم^(٣): [الطويل]

تمادى به الهجران واستحسن الغدرا
فوالله ما استسننت بعد مودة
فإن عاد في ودي رجعت لودّه
وإن مال عثي خائباً نحو عذره
أعد لمن أبدى العداوة مثلها
سعيد^(٤): [السريع]

أشكو إلى الله حياء امرئ
كان وصولاً دائماً عهده
ثم ثناه الدّهر عن رأيه
فإن يعد أشكوله وده
ما كان بالجافي ولا بالمَلُون
خير الأخلاء الودود الوصول
فحال والدّهر لنقوم يحون
وإن يطل هجرًا فإنني حُمُون

(١) الأبيات في ديوان أبي العتاهية، والبيت الأول مطلع القصيدة.

(٢) الأبيات بلا نسبة في كتاب الصداقة والصديق، لأبي حيان التوحيدي، ص ٢٦١.

(٣) الأبيات في ديوان محمد بن حازم الباهلي، والبيت الأول مطلع القصيدة.

(٤) الأبيات بلا نسبة في الصداقة والصديق، لأبي حيان التوحيدي، ص ١٤٧؛ ولسعيد بن حميد في
لباب الآداب، لأسامة بن منقذ، ص ٤٩٥.

آخر: [السريع]

في سِعة الأرض وفي أهلها مستبدل بالخلّ والجارِ
فمن دنا منك فأهلاً به ومن تولى فإلى النارِ

مُلح من مدح الأخلاء الأصفياء وصفات مودّات الأصدقاء الأولياء

مدح صاحب بن عباد صديقاً له، فقال: تصفّحت أوطار القلوب فلم أجد أحسن من قربهِ، وتأمّلت أشخاص الخطوب فلم أَرع بأفزع من بغدِهِ، محاسنهُ أنوار لم تحجب بسجوف، ومباسمهُ شמוש لم تتصل بكسوف، وألفاظهُ تذكّرني بالشباب وريعانه، بل بأفنان الصبا وفتيانه. ومدح أعرابي صديقاً له، فقال: مجالستهُ غنيمَةٌ، وصُحبته سليمة، ومؤاخاته كريمة، هو كالمِسك إن بغته نفق، وإن تركته عبق. شاعر يصف أخاً له^(١): [الطويل]

أخّ وأبّ وابنٌ وأمٌّ شفيقة تفرّق في الأحباب ما هو جامعهُ
سلّوت به عن كلّ مَنْ كان قبله وأذهلني عن كلّ ما هو تابعهُ

آخر: [الطويل]

ولي صاحب أصفيه وذِي وإنه لينصفني في ودّه ويزيدُ
أُمنتُ صروف الدّهر بيني وبينه إذا دبّ بين الصّاحبين حسودُ

وصف المأمون ثمامة بن أشرس، فقال: إنه كان يتصرّف في القلوب تصرّف السّحاب مع الجنوب. شاعر، ولقد أحسن في وصفه لصديقه^(٢): [الكامل]

خلّ بلغت برأيه شرف العلّا وأخّ غنيت به عن الإخوانِ
ومتى طلبت عليه طالب حاجة كفلت يداه بذمتي وضماني

(١) البيتان بلا نسبة في محاضرات الأدباء، للراغب الأصفهاني، ص ٢٤٣٤.

(٢) البيتان للبحثري في ديوانه، من قصيدة مطلعها:

ألا شعرت برحلة الأظمان فيكون شأنهم برامة شاني

آخر^(١): [البسيط]

موفق لسبيل الرشد متبّع يزينه كل ما يأتي ويجتنّب
له خلائق بيض لا غيرها صرف الزمان كما لا يصدأ الذهب

ومن كلام الثعالبي يصف صديقاً له: فلان كريم ملء لباسه، موفق مدد
أنفاسه، ذو جدّ كعلو الجدّ، وهدي كحديقة الورد، عشرته الطف من نسيم
الشمال، على صفحات الماء الزلال، وألصق بالقلب من علائق الحب: [الطويل]

فتى قدّ السيف ماناء عوده ولا وهنت أعضاؤه ومفاصله
إذا جدّ عنك الجدّ ألهاك جدّه وذو باطل إن شئت ألهاك باطله

آخر: [الوافر]

أخ لي لم يلد له أبي وأمي تراه الدهر مغموماً لغمي
يشاطرني سروري في ابتهاجي ويأخذ عندهمي شطر همي
يبصّرني عيوبي حين تبدو مخافة كاشح لهج بدمي
ويصفني الودّ منه أهل ودي ويمنع من معاداتي وظلمي
وينفذ حكمه في كلّ مالي كما في ماله يرضى بحكمي
فلو أحد من المحذور يفدي إذا لفدّيته بدمي ولحمي

آخر: [الخفيف]

لي صديق إذا نَبَا بي صديقي نبوة الدهر كان خير صديق
حقّه واجب عليّ مقيم لا يؤدي وقد قضى لي حقوق
صادق الود والإخاء وما كلّ صديق في وده بصدق
فهو كالأم في اللطافة والليّ ن وكالوالد الشفيق الرفيق
والشقيق الوصول والبر إن كا ن بعيداً متي وفوق الشفيق
قد جرى في مفاصل الحبّ منه حت لا يهتدي مجاري العروق
خفّ ثقلي على صديق مُذْ أص بح دون الإخوان وهو صديقي
هو جاري إن جار دهر وإن عتق زمان فماله من عقوق

(١) البيتان لمروان بن أبي حفصة في ديوانه، والبيت الأول مطلع القصيدة.

الفصل الثاني من الباب الخامس عشر

فيما يدين به أهل المحبة من شرائع العوائد المستحبة

اعلم أنّ أوّل ما ينبغي أن نبدأ به ما يجب من الأدب على المجلس في مصاحبة الرئيس؛ فمن واجب أدبه أنّ الداخل على الرئيس أحد رجلين: إمّا خصيص به أو أجنبي عنه، فإن كان أجنبيًا فينبغي له إذا أذن له في الدخول إليه أن يقف حيث يراه، وأن يبدأ بالسلام إذا دخل عليه، وينظر بعين الإكبار إليه، فإن استدناه دنا، وإن أذن له في الجلوس فليجلس حيث انتهى به المجلس حتى يُذنيه إن أراد كرامه، فإنّ في ذلك تبحيلًا لقدره، وتأثيلًا لتحسين ذكره. قال الأحنف بن قيس: لأنّ أدعى من بُعد أحبّ إليّ من أن أبعد من قرب، وإن كان خصيصًا به ممن يجلس إلى جانبه، ويفشي إليه من سرّه ما يكتمه عن غيره، فينبغي له وقت جلوسه أن يكون بينه وبين الرئيس فرجة لاحتمال أن يجيء من يجب عليه إكرامه ويرفع منزلته، فيجلس في تلك الفرجة. ومن أدب الرئيس: قلة الخلاف والمعاملة بالإنصاف، وترك الجواب على فاحش الخطاب وسرّ العيب وحفظ الغيب، وأن يحسن الحديث إذا حدّث، ويحسن الاستماع إذا حدّث، وليكن حرمة مجلسه إذا غاب كحرمة إذا حضر. وقالوا: إذا كلّمك رئيسك فاصغ إليه بسمعك، وأقبل عليه بوجهك، ووكل بشفتيه ناظريك، وأشغل بحديثه خاطرك، وأسمعه سماع مستبشر به مستظرف له، وإن أحكمته علمًا وأتقنته فهمًا، وأن لا تفرط في الدلالة عليه، ربّما ساقط الانقباض إليه. وفي كلام بعض الحكماء: الاستماع بالعين، فإذا رأيت عين من تحدّثه مقبلة على غيرك، فاصرف حديثك إلى غيره. شاعر في بني العباس: [الطويل]

إذا حدّثوا لم يُخش سوء استماعهم وإن حدّثوا أبدوا بخُسن بيان

وما أحسن قول من قال: [الوافر]

إذا ما سيّد أدناك فاعلم بأن عليك عين الانتقاد

فكن عَفّ الجوارح ذا حفاظ فعين الانتقاد بلا رقاد

وقال العباس لولده عبد الله: إنّ هذا الرجل - يعني عمر بن الخطّاب رضي الله عنه -، يستخليك ويستشيرك ويقدمك على الأكابر من الصحابة، وإنّي أوصيك

بـخمس خِلال: لا تُفْشِيَنَّ لَهُ سِرًّا، ولا تَغْتَابَنَّ عِنْدَهُ أَحَدًا، ولا تَجْرِيَنَّ عَلَيْهِ كَذِبًا، ولا تَعْصِيَنَّ لَهُ أَمْرًا، ولا تَطْلُعَنَّ مِنْكَ عَلَى خِيَانَةٍ. وقالوا: مَنْ دَخَلَ عَلَى السُّلْطَانِ، فَعَلِيهِ بِتَخْفِيفِ السَّلَامِ وَتَقْلِيلِ الْكَلَامِ وَتَعْجِيلِ الْقِيَامِ. وَمَنْ أَدْبَهُ أَنْ يَكُونَ مَعَ رَئِيسِهِ كَمَا كَانَ حَارِثَةُ بْنُ بَدْرٍ مَعَ زِيَادٍ. حُكِيَ أَنَّ زِيَادَ أُلِيْمَ عَلَى اسْتِثْنَائِهِ حَارِثَةَ بْنَ بَدْرٍ، فَقَالَ: كَيْفَ أَطْرَحُ رَجُلًا هُوَ يَسِيرُنِي مِنْذُ دَخَلْتُ الْعِرَاقَ لَمْ يَصْصِكَ رُكَابُهُ رُكَابِي وَلَا تَقْدَمْنِي فَنَظَرْتُ إِلَى قَفَاهُ، وَلَا تَأْخُرْ عَنِّي فَلَوِيتُ عُنْقِي إِلَيْهِ، وَلَا أَخْذُ عَلَيَّ الشَّمْسَ فِي شِتَاءٍ وَلَا الرُّوحَ فِي صَيْفٍ، وَلَا سَأَلْتُهُ عَنْ شَيْءٍ مِنَ الْعُلُومِ إِلَّا حَسِبْتُ أَنَّهُ لَا يَحْسُنُ غَيْرَهُ. وقالوا: لَا يَقْدِرُ عَلَى صَحْبَةِ الْمُلُوكِ إِلَّا مَنْ لَا يَسْتَقِلُّ مَا جَمَلُوهُ بِهِ وَلَا يَغْتَرِّبُهُمْ إِذَا رَضُوا عَنْهُ، وَلَا يَتَغَيَّرُ لَهُمْ إِذَا سَخَطُوا عَلَيْهِ، وَلَا يَطْغَى إِذَا سَلَطُوهُ، وَلَا يَبْطِرُ إِذَا أَكْرَمُوهُ، وَلَا يَلْهَفُ إِذَا سَأَلُوهُ. وقالوا: اصْصَبِ الْمُلُوكَ بِالْحَرَمَةِ وَالصَّدِيقَ بِالتَّوَاضُعِ وَالْعَدُوَّ بِالْحِجَّةِ وَالْعَامَّةَ بِحَسَنِ الْخَلْقِ. وقالوا: مَنْ اسْتَخَفَّ بِالْإِخْوَانِ أَفْسَدَ مَرْوَعَتَهُ، وَمَنْ اسْتَخَفَّ بِالْعُلَمَاءِ أَفْسَدَ دِينَهُ، وَمَنْ اسْتَخَفَّ بِالْمُلُوكِ أَفْسَدَ دُنْيَاهُ. وقال عبد الملك بن صالح لعبد الرحمن بن وهب الحمصي مؤدَّب ولده بعد أن استخلصه وأنزله فوق منزلته: يَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ إِنِّي جَعَلْتُكَ جَلِيسًا مَقْرَبًا بَعْدَ أَنْ كُنْتُ تَابِعًا مُبْعَدًا، وَمَنْ لَمْ يَعْرِفْ نَقْصَانَ مَا خَرَجَ مِنْهُ لَمْ يَعْرِفْ رَجْحَانَ مَا دَخَلَ فِيهِ لَا تَطْرِينِي فِي وَجْهِي، فَأَنَا أَعْلَمُ بِنَفْسِي مِنْكَ، وَلَا تُسَاعِدْنِي عَلَى شَيْءٍ يَقْبَحُ وَإِنْ لَجَّ بِي الْغَضَبُ، فَإِنَّ مَرَاةَ الرِّضَا تَرْغَبُنِي عَنْهُ، فَيَنْقُصُ عِنْدِي دِينُكَ بِالمُسَاعَدَةِ عَلَيْهِ، وَكُنْ عَلَى التَّمَاسِ الْحِظَّ بِالسَّكُوتِ أَحْرَصْ مِنْكَ عَلَى التَّمَاسِ بِالْكَلامِ، فَقَدْ قِيلَ إِذَا أَعْجَبَكَ الصَّمْتُ فَتَكَلَّمْ، وَلَا تَرُدَّنْ عَلَيَّ فِي مُحْفَلٍ، وَكَلِّمْنِي بِقَدْرِ مَا اسْتَطَعْتُمْ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْاسْتِمَاعَ أَحْسَنُ مِنَ الْقَوْلِ، وَإِذَا حَدَّثْتُكَ حَدِيثًا فَلَا يَفُوتُكَ مِنْهُ شَيْءٌ، فَإِنَّ قَلَّةَ التَّفَهُّمِ مِنَ الْقَائِلِ وَضَعُ لَهُ، وَأَرْنِي فَهْمَكَ فِي طَرَفِكَ، فَرُبَّ طَرَفٍ أَنْطَقَ مِنْ لِسَانٍ.

ويجب على الرئيس في معاشرة الجليس

الاقتداء برسول الله ﷺ في أدبه

قال أنس بن مالك: ما بسط رسول الله ﷺ ركبتيه بين يدي جليس قط، ولا جلس إليه أحد فقام من عنده حتى يكون الرجل هو الذي يقوم، ولا صافحه أحد قط فأخذ يده منه حتى يكون الرجل هو الذي يأخذ يده، ولا رأيته قام مع أحد

فانصرف عنه حتى يكون الرجل هو الذي ينصرف، وكان يُكرم مَنْ يدخل إليه وربما بسط له ثوبه، ويؤثره بالوسادة التي تحته ويعزم عليه بالجلوس عليها، ويُكنّي أصحابه ويدعوهم بأحبّ أسمائهم إليهم ولا يقطع على أحد حديثه، وكان لا يجلس إليه أحد وهو يصلي إلا خفف من صلاته وسأله عن حاجته.

وقال سعيد بن العاص رضي الله عنه: لجليسي عليّ ثلاث: إذا دنا رُحبت به، وإذا جلس وسّعت له، وإذا حدّث أقبلت عليه. وقال عمر بن الخطّاب رضي الله عنه: ثلاث تثبت لك المحبة في صدر أخيك: أن تبدأه بالسلام، وتوسّع له في المجلس، وتدعوه بأحبّ الأسماء إليه. وقال يحيى بن خالد لولده جعفر: يا بنيّ إذا حدّثك جليسك فأقبل عليه واضع إليه، ولا تقل قد سمعناه، وإن كنت أحفظ له منه حتى كأنك لم تسمعه إلاّ منه، فإنّ ذلك مما يكسبه المحبة والميل إليك، ولا تستخدمه إذا جلس إلى مؤانستك، فقد حُكي أنّ هشام بن عبد الملك كان يعتَم، فقام إليه سعيد بن الوليد المعروف بالأبرش ليسويّ عمامته، فقال له: مُه إنّنا لا نتخذ الإخوان خولاً.

وقام عمر بن عبد العزيز وأصلح السراج لجلسائه، فقال أحدهم: ألا أمرتني يا أمير المؤمنين، فكنت أكفيك إصلاحه؟ فقال: ليس من المروءة أن يستخدم المرء جلسيه، قمت وأنا عمر ورجعت وأنا عمر.

ومما يشني عطف الصديق إلى التآلف زيارته صديقه من غير انقطاع ولا تكلف

قال رسول الله ﷺ: «مَنْ عاد مريضًا أو زار أخًا نادى منادٍ: أَنْ طُبت وطاب ممشاك تبوّأت من الجنّة منزلاً»^(١). وأحسن ما يقال: امشِ ميلاً وعُدْ أخًا، وامشِ ميلين وأصلح بين اثنين، وامشِ ثلاثًا ورُزْ أخًا في الله. وقالوا: المودة جسم روحها الزيارة. وقالوا: المحبة شجرة ثمرتها المقة، وأصلها الزيارة. شاعر^(٢): [الطويل]

رأيت أخا الدنيا وإن بات آمنا على سفر يسعى به وهو لا يدري
تشافلت إلا عن يدٍ أستفيدها وزورة ذي ودٍ أشدّ به أزرى

(١) أخرجه الترمذي حديث ٢٠٠٨، والمنذري في الترغيب والترهيب ٣/٣٦٤، والزيبي في إتحاف السادة المتقين ١٧٦/٦، ٢٩٦.

(٢) البيتان بلا نسبة في كتاب الصداقة والصديق، لأبي حيان التوحيدي، ص ٣٦٤.

وعلى الزائر في الزيارة الإغباب فإنه به يؤمن من تجافي الأحباب

قال عليه الصلاة والسلام: «رُزْ غَبًا تَزِدُّ حُبًّا»^(١). وقالوا: ربما كان التقالي في كثرة التلاقي. وما أحسن قول عبد المنعم بن غلبون المقرئ: [الطويل]

عليك بإغباب الزيارة إنها إذا كُثرت كانت إلى العي مسلكا
ألم تر أن الغيث يسأم دأئما ويسأل بالأيدي إذا هو أمسكا
وقالوا: قلة الزيارة أمان من المَلالة. وقالوا: كثرة التعاهد سبب التباعد.
شاعر^(٢): [الخفيف]

رُزْ قَلِيلًا لِمَنْ يُوَدِّكَ غَبًا فدوام الوصال داعي الملل
اعتذار مَنْ لَمْ يَزِرْ:

أظرف ما كُتِبَ في ذلك قول علي بن الجهم^(٣): [البسيط]
أبلغ أخانا تولى الله صحته إني وإن كنت لا ألقاه ألقاه
وإن طرفي موصول برؤيته وإن تباعد عن مثواي مثواه
الله يعلم أنني لست أذكره وكف يذكره مَنْ ليس ينساه

مكاتبات في استدعاء الزيارة:

كتب بعضهم إلى صديق له: طال العهد بالاجتماع حتى كدنا نتناكر عند التلاقي، وقد جعلك الله للسرور نظامًا، وللأنس تمامًا، فاطلع في فلك عيني شمسًا، وفي سماء قلبي دُرًّا، فإمضاء العزم بالحرز أخرى. وكتب سعيد بن حميد لبعض أصدقائه: قد طلعت الكواكب تنتظر بدرها، فرأيتك في الطلوع قبل غروبها.
شاعر: [الطويل]

ولمّا نزلنا منزلًا جله التدى أنيقًا ويستأنًا من الثور جاليا
أجدّ لنا طيب المكان وحسنه متني فتمنينا فكننت الأمانيا

(١) أخرجه الحاكم في المستدرک ٣/٣٤٧، ٤/٣٣٠، والهيثمی فی مجمع الزوائد ٨/٧٥، والمنذري فی الترغيب والترهيب ٣/٣٦٦، وابن حجر فی فتح الباري ١٠/٤٩٨.

(٢) البيتان بلا نسبة في الصداقة والصديق، لأبي حيان التوحيدى، ص ١٤٤.

(٣) الأبيات في ديوان علي بن الجهم، وهي ثلاثة أبيات مفردة.

آخر: [الخفيف]

لو تفضّلت بالمجيء إلينا لقرّزنا بقرّة العين عينا
وكتب آخر: يومنا أعزّك الله رفيق الحواشي، ليتنّ النواحي، ذو سماء قد
رعدت وبرقت، وأنت موضع السرور ونظام العيش والحبور، فأقبل إلينا تنعم ولا
تتأخر عنا تندم، وإنك بطاعتنا تسعد، وبمخالفتنا لا تُرشد. كتب بعضهم إلى
صديق له يستزيه بأبيات منها: [السريع]

والإلف لا يصبر عن إلفه أكثر من يوم ويومين
وقد صبرنا عنكم جمعة ما هكذا فعل المحبين

وكتب حميد بن مهران إلى أبي أيوب الهاشمي يستدعيه^(١): [المقارب]
أقيك الردى يا بديع الورى ومن حلّ من هاشم في الذرى
ويفديك من وده في المغيب إذا امتحن الودّ واهي العرى
وصالك بعدل صدق الرجا وصفو المدام وطيب الكرى
وقد تاقت النفس من وامق إلى أن تراك فماذا ترى
آخر: [الوافر]

جُعِلَتْ فداك في رأسي خمار وليس دواؤه إلا العشارُ
وعندي من تحبّ فدتك نفسي وأقداح وأكواب تدارُ
فبادِرْ غير مأمور سريعا فإن بنا لموردك انتظارُ

ومن أظرف الاستدعاوات ما كتب به الرشيد هارون إلى جعفر بن يحيى:
[الخفيف]

سَلْ عن الصّارم ابن يحيى تجده راحلاً نحونا من النُّهروانِ
ليصون المدام سهذا ويغشى الـ هجر بين الأصوات والعيدانِ
فأتينا نصطبح ونلتذّ جمعاً لثلاث بقين من شعبانِ

(١) الأبيات في معجم الأدباء، لياقوت الحموي، في ترجمة علي بن جعفر الكاتب.

فقام إليه وقَدَّم بين يديه رقعة مكتوبًا فيها: [الخفيف]

إنَّ يومًا كتبت فيه إلى عبـ ذلك يوم يسود كل زمان
يوم لهو كأنه طلعة الكأ س إذا قابلت خدود القيان
فاضطبح واغتبق فداؤك نفسي من جميع الآلام والحدثان

آخر: [مجزوء الرمل]

عندنا جذي رضيع ودنين غير فارغ
وطفيلي مليح واغل في الكأس والغ
وغزال من بني الديـ لم يحكي البدر بازغ
ماله عندك عيب غير أن ليس ببالغ
والزلال العذب مع بعـ ذلك ملح غير سائغ
فتحشم واركب الهمـ لاج واحضر لا تراوغ

وكتب بعض المجان: [مجزوء الرمل]

عندنا قدر فريك ليس للقدر شريك
ونبيذ في رطيل وغلام مستنيك
فتعالوا نتغذى ثم نشرب وننيك

وما أحسن قول المعتمد بن عباد يستدعي ندماءه من الزهراء إلى قصره
بقرطبة^(١): [الخفيف]

حسد القصر فيكم الزهراء ولعمي وعمركم ما أسأؤوا
قد طلعتم بها شمسًا صباحًا فاطلعوا عندنا بدورًا مساءً
ولآخر: [الطويل]

وماذا عليكم لو مَنَنتم بزورة فأوجبتم فيها علينا التفضلا
فإن لم تكونوا مثلنا في اشتياقنا فكونوا أناسًا تحسنون التجملا

(١) البيتان في ديوان المعتمد بن عباد، وهما بيتان منفردان.

اعتذار مَنْ لم يزر:

أبو إسحق الصابي: [الهمز]

عراني عنك يا مولا ي عذر أئتما عذر
عصوف الرّيح مع مدّ عظيم زاخر يجري
فلم أقدم على الماء ولم أجسر على الجسر
ولم أسمع إلى الآن على ما مدّ من عمري
بريح حجت روخا وبحر صدّ عن بحر

وهو مأخوذ من قول الحسن بن وهب، وقد اعتذر عن تأخره عن زيارة محمد بن عبد الملك الزيات لمطر عاقه عن زيارته^(١): [الخفيف]

أوجب العذر في تراخي اللقاء ما توالى من هذه الأنواء
لست أدري ماذا أذم وأشكو من سماء تعوقني عن سماء
غير أنني أدعو على تلك بالصح و أدعو لهذه بالبقاء
فسلام الإله أهديه مني كل يوم لسيد الوزراء

كتب بعض ظرفاء المحبين إلى محبوبه يستدعيه لزيارته، فلم يُجبه بما أحب:

[الوافر]

كتبت إليك من شوقي بدمعي وحرمة وجهك الحسن الجميل
لقد سهرتني وأطّلت ليلي وأضحكت العواذل من عويلي
فكان جوابه لما قرأه: [الوافر]

لقد أثقلت في عتبٍ طويل وقد أكثرت من قالٍ وقيل
فأما ما ذكرت فقد فهمنا وليس إلى الزيارة من سبيل

ومن أحسن ما أوجبه الوداد وافترض

عيادة الأخ أخاه في حال المرض

قال رسول الله ﷺ: «إنَّ المسلم إذا عاد أخاه المسلم لم يزل في حديقة الجنة حتى يرجع»، قيل: يا رسول الله، وما حديقة الجنة؟ قال:

(١) الأبيات في ديوان الحسن بن وهب، وهي أربعة أبيات منفردة.

«جَنَاتِهَا»^(١). حُكِيَ أَنَّ الْمَسُورَ بْنَ مَخْرَمَةَ اعْتَلَّ، فَجَاءَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ نَصَفَ النَّهَارَ، فَقَالَ لَهُ الْمَسُورُ: يَا ابْنَ عَبَّاسٍ إِنَّ أَحَبَّ السَّاعَاتِ إِلَيَّ سَاعَةٌ أُوَدِّي فِيهَا حَقَّ الصَّدِيقِ. دَخَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى مُحَمَّدٍ الْوَرَّاقِ يَعُودُهُ، فَأَنْشَدَهُ^(٢): [الطويل]

فَإِنَّ تَكُ حُمَى الْغَبِّ شَفَكَ وَرَدَهَا فَعَقْبَاكَ مِنْهَا أَنْ يَطُولَ لَكَ الْعَمْرُ
وَقِينَاكَ لَوْ يَعْطَى الْهَوَى فَيْكَ وَالْمَنَى لَكَانَتْ بِنَا الشُّكُوى وَكَانَ لَكَ الْأَجْرُ

وَكُتِبَ أَبُو تَمَّامٍ حَبِيبُ بْنُ أَوْسٍ الطَّائِي إِلَى الْحَسَنِ بْنِ وَهْبٍ يَتَوَجَّهَ لَهُ مِنْ حُمَى أَصَابَتِهِ^(٣): [الخفيف]

يَا حَلِيفَ التَّدَى وَيَا تَوَّامَ الْجَوِّ دُوبَا خَيْرَ مَنْ حَبَّوْتَ الْقَرِيضَا
لَيْتَ حِمَاكَ لِي وَكَانَ لَكَ الْأَجْرُ رَفَلَا تَشْتَكِي وَكَانَتْ الْمَرِيضَا

وَكُتِبَ أَبُو الْفَتْحِ بْنُ خَاقَانَ يَتَوَجَّعُ لِلْمَتَوَكَّلِ مِنْ رَمِدٍ اعْتَرَاهُ: [البسيط]

عَيْنَايَ أَجْمَلَ مِنْ عَيْنَيْكَ لِلرَّمْدِ فَاسْلَمْ وَقِيَّتَ الرَّدَى فِي آخِرِ الْأَبْدِ
مَنْ ضَنَّ عَنْكَ بَعِينِيهِ وَمُهِجَّتَهُ فَلَا رَأَى الْخَيْرِ فِي مَالٍ وَلَا وَلَدٍ

ويجب على اللطيف الظريف في عيادة المريض الضعيف: تخفيف السلام، وتقليل الكلام، وتعجيل القيام. ويقال: جلسة العيادة خلسة. وقالوا: التخفيف خير عادة في العيادة، فإنَّ حاله كما قال عمرو بن العلاء وقد عاده صديق في مرض ألمَّ به فأبطأ عنده، فقال له: مَا يُبْطِئُكَ؟ قال: أُرِيدُ أَنْ أُسَامِرَكَ، قال: أَنْتَ مُعَافَى وَأَنَا مُبْتَلَى، والعافية لا تدعك تسهر والبلاء لا يدعني أنام، والله أسأل أن يسوق لأهل العافية الشُّكْرَ، وإلى أهل البلاء الصَّبْرَ. وَمِنْ آدَابِهِ: الْإِغْبَابُ؛ فَإِنَّهُ جَاءَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «أَغْبُوا فِي زِيَارَةِ الْمَرِيضِ، وَأَرْبِعُوا إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَغْلُوبًا»^(٤). وَحَكَى سَلْمَةُ قَالَ: دَخَلْتُ عَلَى الْفَرَاءِ أَعُودُهُ فَأَطْلَتُ وَالْحَفْتُ فِي السُّؤَالِ، فَقَالَ

(١) روي الحديث بلفظ: «إِنَّ الْمُسْلِمَ إِذَا عَادَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ لَمْ يَزَلْ فِي مَخْرَفَةِ الْجَنَّةِ حَتَّى يَرْجِعَ»، أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي الْبَرِّ حَدِيثَ ٣٩، وَأَحْمَدُ فِي الْمُسْنَدِ ٢٧٦/٥، ٢٧٩.

(٢) الْبَيْتَانِ فِي دِيْوَانِ مُحَمَّدٍ الْوَرَّاقِ، وَهُمَا بَيْتَانِ مُفْرَدَانِ.

(٣) الْبَيْتَانِ لَيْسَا فِي دِيْوَانِ أَبِي تَمَّامٍ، وَلَمْ أَجِدْهُمَا فِي الْمَصَادِرِ وَالْمَرَاجِعِ الَّتِي بَيْنَ يَدَيَّ.

(٤) أَخْرَجَهُ ابْنُ الْقَيْسَرَانِي فِي تَذَكُّرَةِ الْمَوْضُوعَاتِ ١٢٤.

لي: أَذُنْ، فدنوت فأنشدني^(١): [البسيط]

حق العيادة يومٌ بعد يومين ولحظة مثل لحظ العين بالعين
لا تبرمن مريضاً في مساءلة يكفيك من ذاك تسأل بحرفين
آخر: [الكامل]

أدب العيادة أن تكون مسلماً وتكون في إثر السلام مودعا
فإذا نظرت إلى العليل فلا تكن متخشعاً في اللّمح أو متوجعاً
بل كن إذا بدى الحراك مسكناً منه وعند الخوف منه مشجعاً
واحذر بأن تنعى إليه ميتاً أو أن تكره لميت مصرعاً
وإذا وجدت عليه إشفاقاً فقم من غير أن ترى بذلك مسرعاً
وتوق شرّ العائدين فشرهم من كان منهم موهماً ومروعاً

دخل عليّ بن إبراهيم العلويّ المعروف بالأعرج على عليّ بن عيسى عائداً،
فأنشده^(٢): [المنسرح]

كم لوعة للندى عليك وكم من قلق للمجود من قلقك
ألبسك الله ثوب عافية في نومك المعتري وفي أرقك
ينزع من جسمك السقام كما نزع حبل الملام من عنقك
آخر^(٣): [الوافر]

تلقيت السلامة من مريض توقى كل نائبة تُؤوب
فإنك ما اعتللت بل المعالي وإنك ما مرضت بل القلوب

(١) البيتان للصاحب بن عباد في ديوانه، وهما بيتان مفردان، ورواية البيت الأول في الديوان:

حق العيادة يوم بعد يومين وجلسة مثل رد الطرف بالعين

(٢) الأبيات لأبي تمام في ديوانه، من قصيدة مطلعها:

كانت صروف الزمان من فرقك واكتن أهل الإعلام في ورقك

ورواية الأبيات في الديوان:

كم لوعة للندى وكم قلق للمجد والمكرمات في قلقك

ألبسك الله ثوب عافية في نومك المعتري وفي أرقك

يخرج من جسمك السقام كما أخرج دم الفعال من عنقك

(٣) البيتان لابن الرومي في ديوانه، من قصيدة مطلعها:

وقتك يد الإله أبا علي ولا جنحت بساحتك الخطوب

آخر^(١): [المتقارب]

ولمّا اشتكيت اشتكى كلّ ما على الأرض واعتلّ شرقٌ وغربٌ
لأنك قلب لهذا الزّمان وما صَحَّ جسمٌ إذا اعتلّ قلبٌ
البسامي^(٢): [الطويل]

إذا ما صديق لي تأوّه واشتكى عدمت سروري ما أشتكى ورقادي
وحرمت شرب الرّاح ما دام شاكيًا ولم أخله مِنْ طارفي وتلادي
اعتذار من لم يُعَد^(٣): [الكامل]

إن كنت في ترك العيادة تاركًا حظّي فإني في الدعاء لجاهدُ
فلربّما ترك العيادة مشفقٌ وأتى على غلّ الضمير الحاسدُ
ولآخر^(٤): [الخفيف]

كحلت مقلتي بشوك القتاد لم أذُقْ مُذْ حممت طعم الرقادِ
يا أخي الحافظ الأخوة والنّا زل مِنْ مقلتي مكان السّوادِ
منعتني عليك رقة قلبي مِنْ دخولي عليك في العوّادِ
لو بأذني سمعت منك أنيّا لتفتّت من الأنين فوّادي
ولآخر يعتذر بكونه لم يعلم^(٥): [الخفيف]

دفع الله عنك نائبة السو ء وحاشاك أن تكون عيلا
أشهد الله ما علمت وما ذا لك مِنْ العذر جائزًا مقبولا
ولعمري أن لو علمت لقاسم شك نصفًا وكان ذاك قليلا

= ورواية البيت الأول في الديوان:

ولقيت الإقالة من قريب موّقى كل نائبة تنوب

(١) البيتان لابن مسهر الموصلي (علي بن سعد بن علي) في الوافي بالوفيات، لصالح الدين الصفدي، في ترجمته، ووفيات الأعيان، لابن خلكان، في ترجمته.

(٢) البيتان في ديوان ابن بسام البغدادي، وهما بيتان منفردان.

(٣) البيتان بلا نسبة في بهجة المجالس، لابن عبد البرّ، ص ٣٤٣؛ وحماسة الظرفاء، للعبدلكاني الزوزني، ص ٢٧٦.

(٤) الأبيات بلا نسبة في كتاب الزهرة، لابن داود الأصبهاني، ص ٣٢٧.

(٥) الأبيات لمحمد بن عبد الملك الزيات في ديوانه، والبيت الأول مطلع القصيدة.

فاجعلن لي إلى التعلق بالعذ ر سبيلاً ألم أجد لي سبيلاً
فقديمًا ما جاد ذو الودّ بالو دوما سامح الخليل الخليلاً
الشريف أبو علي بن الهبارية: [الكامل]

العذر في تركي عيادة سيدي أني له فيما اعتراه مقاسم
لا بل نصيبي منه فوق نصيبه وعليه فيما أدّعه مياسم
فلئن تألم جسمه أفديه من داء يخامرہ وقلبي يآلم
وأنا أحقّ بأن أعاد وإنما يدعي لخدمته الصحيح السالم

حكى محمد بن داود الظاهري في كتاب الزهرة: أنّ الرّشيد لما بلغه أنّ
الفضل بن الربيع عليل، كتب إليه معتذراً عن تأخّره عن العيادة^(١): [الكامل]

أعزز عليّ بأن تكون عليلًا أو أن يكون بك السقام نزيلاً
ولئن سئلت أجيب عنك بلوغة إذ قيل أوعك أو أحسّ غليلاً
فوددت أني مالك لسلامتي فأعيرها لك بكرة وأصيلاً
هذا أخ لك يشتكي ما تشتكي وكذا المحبّ إذا أحبّ خليلاً

أنشدني الشيخ الإمام الفقيه المفيد أمين الدين محمد بن عليّ المحلي النحوي
لنفسه يعتذر من تركه لعيادة بعض الرؤساء^(٢): [الكامل]

إن جئت نلت ببابك التّشريف وإن انقطعت فأوثر التّخفيفا
فوحقّ حبّي فيك قدماً أنني عوفيت أكره أن أراك ضعيفاً

ومما يورد كمن المحبة أعذب الموارد هدية

يستعطف بها القلب الشارد

قال رسول الله ﷺ: «تهادوا تحابوا وتذهب الشّحنا»^(٣). وقال عليه الصّلاة
والسّلام: «تهادوا، فإنّ الهدية تذهب وعر الصدور»^(٤). وكان ﷺ يقبل الهدية

(١) الأبيات في كتاب الزهرة، ص ٩٨٠.

(٢) البیتان في ذیل مرآة الزمان، للیونینی، في ترجمة أمين الدين المحلي (محمد بن علي بن موسى).

(٣) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى ١٦٩/٦، والهيتمي في مجمع الزوائد ١٤٦/٤.

(٤) أخرجه الترمذي حديث ٢١٣٠، وأحمد في المسند ٤٠٥/٢.

ويُثيب عليها، وقال: «لو أهدي إليّ ذراع لقبلت، ولو دُعيت إلى كراع لأجبت»^(١). وقالت عائشة رضي الله عنها: اللّطفة عطفة تزرع في القلوب المحبة والإلفة. وفي الأثر: الهدية تجلب إلى المودة القلب والسمع والبصر. شاعر^(٢):
[مجزوء الكامل]

إنّ الهدية حلوة كالسحر تجتلب القلوبا
تُذني البغيض من الهوى حتى تصيره حبيبا
وتعيد مظطغن العدا وة في تباعده قريبا

ومن أمثالهم: إذا قدمت من سفر، فأهذ لأهلك ولو حجر. وقال الجاحظ: ما استعطف السلطان، ولا استرضي الغضبان، ولا أزيلت السخائم، ولا استدفعت المغارم بمثل الهدايا. وقالوا: في نشر المهاداة طيّ المعادة. وقال ضياء الدين بن الأثير في رسالة يذكر فيها الهدية: الهدية رسول يخاطب عن مرسله بغير لسان، ويدخل على القلوب من غير استئذان. وبهدية المرء يُستدلّ على عقله، كما ذكر أنّ رجلاً أهدي إلى قتادة نعلًا رقيقة، فجعل التعمان يرزنها بيده ويقول: يعرف قدر الرجل في سخف هديته، اللهم إلا أن يهدي شيئًا سخيًا حقيرًا فيصيره بالاعتذار عنه شريفًا خطيرًا، كما فعل أبو العتاهية، فإنه أهدي إلى الفضل بن الربيع نعلًا وكتب له معها^(٣): [الكامل الأحذ]

نعلًا بعثت بها لتلبسها قدم تسير بها إلى المجد
لو كان يحسن أن أشركها جلدي جعلت شراكها خدي

وأهدى الأخیطل الأهوازي إلى ابن حجر في يوم نوروز طبقًا فيه وردة وسهم ودينار ودرهم، وكتب معه: [الرجز]

قل لابن حجر ذي السماح الخضرم لا زلت كالورد نضير المبسم
ونافذًا مثل نفاذ الأسهم في عزّ دينار ونحج درهم

(١) أخرجه البخاري في الهبة باب ٢، والنكاح باب ٧٣، ومسلم في النكاح حديث ١٠٤، وأحمد في المسند ٤٢٤/٢، ٤٧٩، ٤٨١، ٥١٢.

(٢) الأبيات بلا نسبة في عيون الأخبار لابن قتيبة، ص ١٨٣٣.

(٣) البيتان في ديوان أبي العتاهية، وهما بيتان منفردان.

وقال بعضهم: مَنْ امتنع مِنْ إهداء القليل لجلالة قدر المهدي إليه انقطعت سبل المودة بينه وبين إخوانه، ولزمه الجفاء مِنْ حيث التمس الأخاء. أبو العتاهية^(١): [الوافر]

هدايا الناس بعضهم لبعض تولد في قلوبهم الوصالا
وتزرع في القلوب هوى وودا وتكسوهما إذا حضروا جمالا
آخر^(٢): [البسيط]

ما من صديق وإن تمت صداقته يوما بأنجح في الحاجات مِنْ طبق
إذا تلثم بالمنديل منطلقا لم يخش نبوة بواب ولا غلق
لا تكذب فإن الناس مذك خلقوا لرغبة يكرمون الناس أو فرق

وبالجملة، إذا كانت من الصغير إلى الكبير فلطفت ودقت كان أبهى وأحسن، وإذا كانت من الكبير إلى الصغير فعظمت وجلت كان أوقع لها وأنجع. أهدى يعقوب الكندي إلى بعض إخوانه سيفا، وكتب معه: الحمد لله الذي خضك بمنافع ما أهدى إليك، فجعلك تهتز للمكارم اهتزاز الصارم، وتمضي في الأمور مضاء المآثور، وتصون عرضك بالإرفاد كما تُصان السيوف في الأغمد، ويظهر دم الحياء في صفحة خذك المشروف، كما يشف الرؤنق في صفحات السيوف، وتصل شرفك بالعطيات، كما تصل متون المشرفيات. وأهدى الصابي دواة ومرفعا وكتب معهما: قد خدمت مجلس مولانا بدواة يداوي بها مرض عفاته، ويروي بها قلوب عداته على مرفع يؤذن بدوام رفعتة، وارتفاع الثواب عن ساحته. وأهدى أيضا إلى بعض الأصحاب فرسا، وكتب معه: قد قدمت إليك فرسا والله تعالى يبارك لك فيه، ويجعل الخير معقودا بنواصيه، والإقبال غرة وجهه ونيل الأمانى طلق شدة، وفتح الفتوح غاية شأوه وإدراك المطالب تحجيل قوائمه، وسلامة العواقب منتهى عنانه، والسلام.

(١) البيتان في ديوان أبي العتاهية، وهما بيتان منفردان.

(٢) الأبيات في المثل السائر، لابن الأثير الكاتب، ص ٦١٢؛ وبهجة المجالس، لابن عبد البر، ص

من أهدى هدية حقيرة واعتذر عنها:

كتب بعضهم مع هدية حقيرة: [المتقارب]

قبول الهدية أكرومة وحاشاك من أن ترد الكرم
فإن الملوك على قدرها لتقبل نشابة أو قلم
ابن التعاويذي^(١): [البسيط]

هدية المرء تنبي عن مروءته وعن حقارة مُهديها وخسسته
وما يحط من المهدّي إليه إذا كانت محقرة عن قدر رتبته
فاغفر جريمة من خست هديته وتلك منه على مدار قدرته
وكتب آخر مع هدية أهداها ليلاً^(٢): [المتقارب]

بعثت عشياً إلى سيّد بما هو من خلقه مقتبس
هدية خلّ صحيح الأخاء جرى منه ذكرك مجرى النفس
فجذ بالقبول وأيقن بأن لفرط الحياء أتت في الغلس
آخر: [مجزوء الكامل]

يا أيها المولى الذي عمت أياديه الجميله
أقبل هدية من يرى في حقك الدنيا قليله
آخر^(٣): [الخفيف]

قد بعثنا إليك أيّدك الدّ به بشيء فكن له ذا قبول
لا تُفسِه إلى ندى كَفَكَ الغم رولا نيلك الكثير الجليل
فاغترف قلة الهدية منّي إن جهد المقلّ غير قليل

ومن ظرائف الهدايا التي هي من أحسن ما يسطر في الصّحف ويذكر ما
يُروى أنّ يحيى بن خالد بن برمك عزم على ختان ولده، فأهدى إليه وجوه الدّولة

(١) الأبيات لسبط ابن التعاويذ في ديوانه، وهي ثلاثة أبيات منفردة.

(٢) الأبيات للقاضي الجليس أبي المعالي عبد العزيز بن الحسين بن الجباب الأغلب، في خريدة القصر، للعماد الأصبهاني، في ترجمته.

(٣) الأبيات لسعيد بن حميد في المنتحل، للثعالبي، ص ٤٤.

كلّ منهم بحسب حاله وقدرته، فصنع بعض المتجملين العاجزين خريطين وملاً أحدهما ملحاً مطيباً وملاً الأخرى سعداً مُعطّراً، وكتب معهما رقعة فيها: لو تمت الإرادة لأسعفت العادة، ولو ساعدت القدرة على بلوغ النعمة لتقدّمت السابقين إلى خدمتك، وأتعبت المجتهدين في كرامتك، لكن قعدت بي القدرة عن مساواة أهل النعمة، وقصّرت بي الجدة عن مُباهاة أهل المكنة، وخشيت أن تُطوى صحيفة البرّ، وليس لي فيها ذكر، فأنفذت المفتتح بيمينه وبركته وهو الملح، والمختتم بطيبه ونظافته وهو السعد، باسطاً يد المعذرة صابراً على ألم التقصير، متجرّعاً قصص الاقتصار على اليسير، والقائم بعُذري في ذلك ليس على الضعفاء ولا على المرضى، ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج، والخدام ضارع في الامتنان عليه بقبول خدمته ومعذرتة، والإحسان إليه بالإعراض عن جراءته، والرأي أسمى؛ ثم دخل دار يحيى ووضع الخريطين والرقعة بين يديه، فلمّا قرأ الرقعة أمر أن تفرغاً وتملاً أحدهما دنائير والأخرى دراهم.

ومن الحكايات المستظرفة ما يُحكى أنّ بعض القيان افتصدت، فأهدى لها محبوبها هدايا، فكان من جملةهم من أهدى ثلاث سلال مخيطة، ففتحت سلّة منها فوجدتها مملوءة ماشاً، وفيها رقعة مكتوب فيها: ماش خير من لاش، وفتحت الأخرى فإذا هي مملوءة عصافير فطاروا، وفيها رقعة مكتوب فيها هذه: أعتقتها لوجه الله تعالى شكراً له على سلامتك من فصدك، وفتحت الأخرى فإذا هي فارغة لا شيء فيها إلا رقعة مكتوب فيها: لو كان لنا شيء لأهديناه؛ فضحك من كان حاضراً ولم تدع القينة شيئاً مما أهدى إليها إلا أعطته منه.

اعتذار من لم يهد شيئاً^(١): [الوافر].

تأتق في الهدية كل قوم إليك غداة شربك للدواء
فلما أن هممت بها مدلاً لموضع حرمتي بك والإخاء
رأيت كثير ما أهدى قليلاً لديكم فاقصرت على الدواء

آخر^(٢): [الكامل الأحذ]

إن أهد نفسي فهو مال كها ولها أصون كرائم الذخير

(١) الأبيات بلا نسبة في حماسة الظرفاء، للعبدلكاني الزوزني، ص ٢٥٣.

(٢) الأبيات بلا نسبة في ديوان المعاني، لأبي هلال العسكري، ص ١٩٨.

أو أهد ما لا فهو واهبه وأنا الحقيق عليه بالشكر
أو أهد شكرًا فهو مرتهن بجميل فعلك آخر الدهر
آخر^(١): [الخفيف]

وافق المهرجان حاشاك مني رفعة الحال وهي داء الكرام
فاقتصرنا على الدعاء وفيه عون صدق على قضاء الزمام
آخر^(٢): [السريع]

هديتي تقصر عن همتي وهمتي تفضل عن مالي
فخالص الود ومخض الولا أحق ما يهديه أمثالي

ومن واجبات شيم الأحرار حفظ ما أودعوه من الأسرار

وبما أن السرّ مما يجب على الإخوان أن يأخذوا أنفسهم ويروّضوا به طباعهم
لما فيه من الفضل وتمام الطبيعة والعقل. يُحكى أن رجلاً أراد صحبة إنسان، فسأل
بعض أصدقائه عنه، فأنشده^(٣): [الطويل]

كريم يميّت السرّ حتى كأنه إذا استنطقته عن حديثك جاهله
ويُبدي لكم حباً شديداً وهينة وللناس أشغال وحبك شاغله

فقال: مثل هذا ينبغي أن يُناط بمحبته القلوب، ويطلع على خفايا السرائر
والغيوب؛ وهذان البيتان لكثير عزة من أبيات. وأسرّ رجل إلى صديقه حديثاً، فلما
فرغ منه قال: حفظته؟ قال: بل نسيت. وقيل لعمر بن ربيعة: كيف كتمانك للسرّ؟
فقال: أجعله عوضاً من قلبي وشعبة من نفسي، فيكون بخروجه خروجها. وقيل
لأعرابي: ما بلغ من حفظك للسرّ؟ قال: أفرقه تحت شغاف قلبي ثم لا أجمعه،
وأنساه كأنني لم أسمع. وقالوا: قلوب العقلاء حصون الأسرار. وقالوا: صدور

(١) البيتان بلا نسبة في ثمار القلوب، للثعالبي، ص ١٤٥٥.

(٢) البيتان لمحمد بن مهدي العكبري، في معجم الشعراء، للمرزباني، في ترجمته.

(٣) البيتان لكثير عزة في ديوانه، من قصيدة مطلعها:

أمن طليل أقوى من الحي مائله تهيج أحزان الطروب منازلُه

الأحرار قبور الأسرار. شاعر^(١): [الكامل]

ولها سرائر في الضمير طويتها ينسى الضمير بأنها في طيِّه
وقيل لبعضهم: كيف كتمانك للسرّ؟ قال: أكتّم الخير، وأحلف للمستخبر؟
وما أحسن قول المرتضى وقد سأله الصابي: كيف كتمانك للسرّ في محاوراة جرت
بينهما: [الطويل]

لسرّ صديقي بين جنبيّ معقل مداه على المستبطنين طويل
إذا لحقت أذني به من لسانه فليس عليها للمخاض سبيل
وكتب إليه أيضًا^(٢): [الطويل]

وللسرّ من بين جنبيّ ممكن خفيّ قصيّ عن مدارج أنفاسي
أضنّ به ضئيّ بموضع حفظه فأحميه عن إحساس غيري وإحساسي
كأنّي من فرط احتفاظي أضغته فبعضي له واع وبعضي له ناسي
آخر^(٣): [البسيط]

لا يكتّم السرّ إلّا من له حسب فالسرّ عند كرام الناس مكتوم
والسرّ عندي في بيت له غلق قد ضاع مفتاحه والبيت مختوم
مجنون ليلي^(٤): [الطويل]

ومستخبر عن سرّ ليلي ردّذته بعمياء من ليلي بغير يقين
يقولون خبرنا فأنّت أمينها وما أنا إن خبرتهم بأمين
يُزوى أنّ عليّاً رضي الله عنه قال لأبي الأسود الدؤلي: أريد رجلاً مخدّناً،
قال: يا أمير المؤمنين أأست كذلك؟ قال: بلى، ولكن أريد رجلاً أستريح منك إليه
ومنه إليك، وليكن كتوماً للسرّ، فإنّ الرجل إذا أنس بالرجل ألقي إليه عجره

(١) البيت بلا نسبة في المستطرف، للأبشيهي، ص ٩٦٦.

(٢) الأبيات للصابي في التذكرة الحمدونية، ص ١٦٩٠.

(٣) البيتان لعلي بن أبي طالب في ديوانه، وهما بيتا منفردان، ورواية البيت الأول في الديوان:

لا تودع السرّ إلا عند ذي كرم والسرّ عند كرام الناس مكتوم

(٤) البيتان ليسا في ديوان مجنون ليلي، والبيت الأول للأخوص الأنصاري في ديوانه، وهو بيت منفرد.

وبجره. وقال الشاعر^(١): [الكامل]

نصل الصديق إذا أراد وصالنا ونعيد بعد صدودنا أحيانا
لا مظهر عند القطيعة سره بل حافظ من ذاك ما استرعانا
آخر^(٢): [البسيط]

إن الكريم الذي تبقى مودته وحفظ السر إن صافى وإن صرما
ليس الكريم الذي إن غاب صاحبه بث الذي كان من أسرار علمنا
سالم الإشكري^(٣): [الطويل]

إذا ما غفرت الذنب يوماً لصاحب فلست معيداً ما حييت له ذكرا
ولست إذا ما حال عن حفظ وده وعندي له سر مديعاً له سراً
ناقضه آخر، فقال^(٤): [الطويل]

ولا أكنتم الأسرار لكن أذيعها ولا أترك الأسرار تغلي على قلبي
فإن سخين العين من بات ليلة تقلبه الأسرار جنباً إلى جنب

ومما يفصم بين غرا المتحايين وغرا المجاورة

التزام ما يجب من حقوق المجاورة

قال الله تعالى: ﴿وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ﴾ [النساء: الآية ٣٦]، فذو القربى الجار الملاصق، والجار الجنب البعيد عن الملاصقة، والصاحب بالجنب الرفيق في السفر. وكان يقال: ليس حسن الجوار كف الأذى، ولكنه الصبر على الأذى. وأدنى حقوق الجار أن لا تؤذيه بقتار قدرك وأن تؤمنه

(١) البيت الثاني لعمر بن أبي ربيعة في ديوانه، من بيتين منفردين، وروايتهما في الديوان:

إن صد عتي كنت أكرم معرض ووجدت عنه مرحلاً ومكاناً

لا مفسباً عند القطيعة سره بل حافظ من ذاك ما استرعانا

(٢) البيتان لأبي بكر بن عياش بن سالم الكوفي الحنات، في الوافي بالوفيات، لصالح الدين الصفدي، في ترجمته.

(٣) البيتان بلا نسبة في المستطرف، للأبشيهي، ص ٩٦٩؛ وحماسة القرشي، ص ١٧٥.

(٤) البيتان بلا نسبة في الجليس الصالح، للمعافى بن زكريا، ص ١٨٩؛ والحماسة المغربية، للجراوي،

من حسدك وشرك. وقال جابر بن عبد الله: الجيران ثلاثة: فجار له حق واحد، وجار له حقان، وجار له ثلاثة حقوق؛ فأما الذي له حق واحد، فجار مشرك لا رحم له فله حق الجوار، وأما الذي له حقان، فجار مسلم لا رحم له، له حق الإسلام وحق الجوار، وأما الذي له ثلاثة حقوق، فجار مسلم ذو رحم له حق الإسلام وحق الرحم وحق الجوار.

وقال رسول الله ﷺ لأبي ذر: «يا أبا ذر إذا طبخت اللحم فأكثر المرق وتعاهد جيرانك»^(١). وكان يُقال: مَنْ نال مِنْ جاره حُرْم بركة داره. وقد ورد عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «مَنْ كان يُؤمن بالله واليوم الآخر فليُكرم ضيفه ولا يؤذي جاره، ولا يخيب مَنْ قصده»^(٢).

وكان عبد الله بن أبي بكرة ينفق على أربعين دارًا مِنْ جيرانه من سائر جهات داره الأربع في كل سنة أربعين ألف دينار، وكان يبعث إليهم الأضياع والكسوة في الأعياد والمواسم. وأعطى أبو الجهم العدوي في داره بالبصرة مائة ألف درهم، فقال لهم: وبكم تشترون مني جوار سعيد بن العاص؟ قالوا: وهل رأيت جوارًا يُشترى قط؟ قال: والله لا بعت دارًا تجاور رجلًا إن غبت عنه سألت عني وحفظني في أهلي، وإن رأني رحت بي وقربني، وإن سألته قضيت حاجتي وحياتي، وإن لم أسأل عنه عطف عليّ وبدائي، والله لو أعطيت فيها مألها ذهبًا ما اخترته عليه ولا نظرت إليه؛ فبلغ ذلك سعيدًا فبعث إليه بمائة ألف درهم. وقال جعفر بن أبي طالب لأبيه: يا أبت إني لا أستحي أن أطعم طعامًا وجيراني لا يقدرון على مثله، فقال له أبوه: إني لأرجو أن يكون فيك خلف مِنْ عبد المطلب. وقال الحسن البصري: ليس حُسن الجوار كفّ الأذى ولكنّه الصبر على الأذى. وقالوا: الإحسان إلى الجار يعمر الديار، ويزيد في الأعمار. شاعر^(٣): [الكامل]

إني لأحسد جاركم بجواركم طوبى لمن أضحى لدارك جارا
يا ليت جارك باعني من داره شبرا فأعطيه بشبر دارا

(١) أخرجه أحمد في المسند ١٤٩/٥، والمتقي الهندي في كنز العمال ٢٤٨٨٩.

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان باب ٧٤، ٧٥، ٧٦، ٧٧، وأبو داود حديث ٣٧٤٨، والترمذي حديث ١٩٦٧، ٢٥٠٠، وأحمد في المسند ٢٠/١، ١٧٤/٢، ٢٦٧.

(٣) البيتان بلا نسبة في المتحل، للثعالبي، ص ٤٦٠.

وقال بعض حكماء العجم: حُسن الجوار خير قرين، وعلى استخلاص
المودة خير مُعين. مسكين الدارمي^(١): [الكامل الأحَد]

ناري ونار الجار واحدة فإليه قبلي ينزل القدرُ
ما ضرَّ جار لي أجاوره أن لا يكون لبابه سترُ
أعمى إذا ما جارتني خرجت حتى يُواري جسمها السُّترُ

آخر: [الطويل]

أجود وأرعى حُرمة الجار إنني كريمٌ بمالي كلَّ عرق مهذبٍ
وأمنع جيرانِي مِنَ الضُّيم والأذى وأركب من إكرامهم كلَّ مركبٍ

ومن النوادر المحكية في إكرام الجار:

ما حُكي أن يهوديًا عطارًا نزل ببيع بعض أحياء العرب يبيع لهم مِنْ بضاعته
العطرية، فمات عندهم، فأتوا شيخًا لهم لم يكن يقطع في الحيِّ أمر دونه،
فأعلموه بخبر اليهودي، فجاء وغسَّله وكفَّنه وتقدَّم وأقام الناس خلفه، وقال: اللَّهُمَّ
إنَّ هذا لنا جار وله علينا ذِمَام، فإذا قضينا ذمامه وصار إليك فلك الخيار أن تفعل
به ما هو له أهل، أو تفعل به ما أنت له أهل، فإنك أهل التقوى وأهل المغفرة.
شاعر: [السريع]

راع حقوق الجار في كلِّ ما حدَّه الله وأوصى بهِ
ورُزَّه في الصُّحة مستبشراً وعِذه في السَّقَم وأوصابهِ
ولا تغيِّرْ له حالة تبدو كشهد القول أوصابهِ

وهذه ظرف تكون لما ذكرناه ختامًا ولنفس المتأمل وقلبه

شركًا وزمائمًا فيما يلزم الأصدقاء من تمازج الأرواح

امتزاج الصَّهباء بالماء القراح

قيل لبعضهم: صِفْ لنا الصديق؟ قال: أنت هو وهو أنت، إلا أنكما جسمان
بينكما روح. وقيل لأسباط الشَّيباني: صِفْ لنا الأخوة وأوجز، فقال: أغصانُ

(١) الأبيات في ديوان مسكين الدارمي، من قصيدة مطلعها:

إن أدع مسكينًا فما قصرت قدري بيوت الحي والجدرُ

تُغرس في القلوب، فتثمر على قدر العقول. وقيل لأفلاطون: ما معنى الصديق؟ قال: هو أنت إلا أنه غيرك. وقيل لبعضهم: ما الأصدقاء؟ قال: نفس واحدة وأجساد متفرقة. وقال ابن المقفع: الأخ نسيب الجسم، والصديق نسيب الروح. وقيل لأرسطوطاليس، وقد سئل عن الصديق ما معناه؟ فقال: قلب تضمّنه جسمان. نظمه بعض الشعراء، فقال: [الطويل]

بنفسي أخ لي في الأمور مساعدٌ فلي وله جسمان والقلبُ واحد
إذا غاب عني لم أجد طعم لذة لأنّ فؤادي شطره متباعد
لآخر^(١): [الرملي]

بأبي مَنْ هو مني في الحشا ليته يوماً على عيني مشى
روحه روعي وروحي روحه إن يشا شئت وإن شئت يشا
ولقد تتبعت ما قاله الناس في الاتحاد، فما رأيت ولا سمعت أحسن مِنْ قول أبي الحسين الحلاج في ذلك^(٢): [الرملي]

أنا مَنْ أهوى وَمَنْ أهوى أنا نحن روحان حَلَلْنَا بَدَنًا
نحن مُذْ كُنَّا على عهد الهوى تضرب الأمثال في الناس بنا
فلإذا أبصرتني أبصرته وإذا أبصرته قلت أنا
وله^(٣): [الرملي]

جبلت روحك مِنْ روعي كما يُجبل العنبر بالمِسْك العبق
فلإذا مَسَّكَ شيءٌ مَسَّنِي فلإذا أنت أنا لا نفترق
وله^(٤): [الرملي]

مزجت روحك مِنْ روعي كما تمزج القهوة بالماء الزُّلال
فلإذا مَسَّكَ شيءٌ مَسَّنِي فلإذا أنت أنا في كلِّ حال

(١) البيتان الثاني والثالث للحلاج في ديوانه، من ثلاثة أبيات، أولها:

يا نسيم الروح قل لي للرشا لم يزدني الورد عطشا

(٢) الأبيات في ديوان الحلاج، والبيت الأول مطلع القصيدة.

(٣) البيتان في ديوان الحلاج، وهما بيتان منفردان.

(٤) انظر الحاشية السابقة.

وهذا غاية ما بلغه علمي، وأدركه فهمي، وتصرف الناس في حُسن الاختيار معدود من المواهب، وللناس فيما يعشقون مذاهب. وقد أحسن الشريف الرضي في قوله يخاطب أبا إسحق الصابي^(١): [البسيط]

أنت الكرى مؤنس طرفي وبعضهم مثل القذى مانع طرفي من الوسن
لقد تمازج قلبانا كأنهما تراضعا بدم الأحشاء لا اللبن

ويقال: كاتب صديقك كما تكاتب حبيبك، فإنّ عدل الصداقة أرقّ من عدل العلاقة، والنفس بالصديق آنس منها بالعشيق. ويقال: إذا كاتبت أخاك فليكن المداد من سواد الفؤاد، والقرطاس من بياض الوداد، فإنّ من كَرُمَت خصاله وجب وصاله.

الفصل الثالث من الباب الخامس عشر

في ذمّ الثقيل والبغيض بما استحسّن من النثر والقريض

قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَسِينَ لِحَدِيثٍ﴾ [الأحزاب: الآية ٥٣]؛ قالت عائشة رضي الله عنها: هذه الآية نزلت في الثقلاء. وكان أبو هريرة رضي الله عنه إذا استثقل رجلاً يقول: اللهم اغفر له وأرخنا منه. وكان الأعمش واسمه سليمان بن مهران إذا رأى ثقيلاً قال: ربنا إكشف عنا العذاب إنا مؤمنون. ورؤي عنه أنّه قال: من فاتته ركعتا الفجر، فليلعن الثقلاء. وقيل له: لِمَ عَمِشْتَ عينك؟ قال: من نظري إلى الثقلاء، فإني ما رأيت ثقيلاً قطّ إلا وأعمشت عيني. وكان يقول: إذا كان عن يسارك ثقل في الصلاة، فتسليمة واحدة تكفيك. وكان بعضهم إذا رأى ثقيلاً قال: استراح العُميان من النّظر. وقيل لأرسطوطاليس: لِمَ صار الثقيل أثقل من الحمل الثقيل؟ قال: لأنّ الحمل تشترك الجوارح في حمله، والثقل ينفرد القلب بثقله. شاعر: [الكامل]

إنّ الثقيل وإن تخفّف جهده كان الثقيل على الفؤاد ثقيلاً

(١) البيتان في ديوان الشريف الرضي، من قصيدة مطلعها:

دع من دموعك بعد البين للدمع غداً لدارهم واليوم للظعن

وقال بعض الملوك لطبيب: جسّ نبضي، فجسّه وقال: مزاجّ معتدل إلاّ أنني أرى فيه تكديراً، فهل جالسك اليوم ثقيل؟ قال: نعم، فقال: هذا منّ ذاك. وقال بختيشوع للمأمون: لا تجالس الثقلاء، فإنّ الفلاسفة قالوا: مجالسة الثقلاء حُمى الروح. وقيل لمحمد بن زكريا الرازي: أيّما أمر: الثقل المبرم أو شرب الدّواء الكريه الرائحة المرّ الطّعم؟ فقال: ليس ما أكسب الدّاء كما أعقب الشّفاء، إنّ مجالسة الثقل تجعلب الأسقام، وتُثحل الأجسام، وتورث الأحزان، وتؤلّم الأبدان، وتهذّ الأركان، وشُرّب الدّواء يجلو الأجسام، ويحلّ الأسقام، ويشحذ الأفهام، ويدفع الأحزان، وينشط الكسلان، ويقوّي الإمكان. وقال أرسطاطاليس للإسكندر: إيّاك ومجالسة الثقل، فإنّ منها ذبول الروح، وذبول العقل، وموت الفزع. وقال الأصمعيّ: ستّة يضنين وربما قتلن: انتظار المائدة، ودمدمة الخادم، والسّراج المظلم، وبكاء الأطفال، وخلاف منّ تحب، ورؤية الثقل.

ومما أثار بطلعته كوامن البغضاء فكشفت عن مساويه ستور الأعضاء

عاد الأعمش أبو حنيفة، فقال له بعدما أبرم في جلوسه: يا أبا محمّد، ما أشدّ شيء مرّ بك في علّتك؟ قال: جلوسك عندي، قال: ما تشتهي؟ قال: أشتهي أن لا أراك. ويُحكى أنه قال له: يا أبا محمد لولا ما أخاف منّ التثقل عليك لأتيتك في كلّ وقت، فقال: إنك لتثقل عليّ وأنت في بيتك، فكيف إذا جئتني. وقال رجل لأبي العيّناء: إن الله لم يأخذ من عبد كريمته إلاّ عوضه الله خيراً منهما، فما الذي عوضك؟ قال: أن لا أرى ثقيلاً مثلك. واعتذر رجل إلى آخر في تقليل زيارته، فقال: ما رأيت إحساناً يُعْتذر منه إلاّ هذا. صلّى إمام بقوم فأطال، فلمّا سلّم لأمه بعض منّ صلّى خلفه من الطّرفاء، فقال: وإنها لكبيرة إلاّ على الخاشعين، فقال: أنا رسول الخاشعين إليك بأنك ثقل، فإنهم لا يطبقون الصبر على احتمال بزدك. وقد نظم أبو الحسن عليّ بن أبي الطيّب الباخري أبيتاً يهجو بها إماماً ثقيلاً ويذكر ما وجد من جوره في تطويله مقيلاً ذكرها في هذا الموضع لائق لِمَا جمعت من المعنى البديع واللفظ الرائق: [الطويل]

وأثقل روحاً منّ عقاب عقنقل أخفّ دماغاً منّ جنوب وشمال
يوّم بنا في القطع قطع خميسة وأمّ بصخر حطّه السّيل منّ عل

يطيل قياماً في المقام كأنه منارة قسّ راهب متبتّل
 ويفحش في القرآن لحناً كأنما يشدّ بأمراسٍ إلى صمّ جندل
 فقلت له لمّا تمطّى بضلّبه وأردف أعجازاً وناءً بگلگل
 وزاد برغمي ركعةً في صلاته ألم يكن التسليم منك بأمثل
 دخل ثقیل على الصّاحب بن عباد، فأطال الجلوس وأبرم في المحادثة،
 فكتب الصّاحب رقعة وأعطاه إيّاها فقرأها فإذا فيها: [البسيط]

إن كنت تزعم أنّ الدار تملكها حتى نقوم فنبغي غيرها دارا
 أو كنت تعلم أنّ الدار أملكها فقم لكي تذهب الأشجان والعارا
 ولما قدم محمّد بن المكرم منّ الجبل قال له أبو العيّن: ما لك لم تهدي لنا
 شيئاً؟ فقال: والله ما جئت إلّا في خفّ، قال: كذبت، لو قدمت في خفّ خلفت
 روحك، يا عجباً منّ جسم كالخيال وروح كالجبال. وقال رجل لبعض المغنّين في
 مشاجرة جرت بينهما: والله ما تعرف الثقیل الأوّل ولا الثقیل الثاني، فقال: كيف
 لا أعرفهما وأنا أعرفك وأعرف أباك. ألمّ بهذا بعض الشعراء، فقال: [الطويل]
 ثقیلاً براه الله وابن ثقیلة أرى الثقل طبعاً في أبيك وفيكا
 أبوك إمام الناس في الثقل كلّهم وأنت وليّ العهد بعد أبيكا
 آخر^(١): [البسيط]

يا من تبرّمت الدنيا بطلعته كما تبرّمت الأجنان بالسُّهد
 يمشي على الأرض مُختالاً فأحسبه منّ بغض طلعه يمشي على كَبدي
 لو أنّ في الناس جزءاً من سماجته لم يقدم الموت إشفاقاً على أحد
 قصد حماد الراوية دار مطيع بن إياس فحُجِب، فكتب إليه يسأله الدخول
 عليه: [الخفيف]

هل لذي حاجةٍ إليك سبيل لا نطيل الجلوس فيمن يطيلُ
 فلما قرأ البيت أجابه: [الخفيف]
 أنت يا صاحب الكتاب ثقیل وكثيرٌ من الثقیل القلیلُ

(١) الأبيات بلا نسبة في معجم الأدباء، لياقوت الحموي، في ترجمة الصّاحب بن عباد.

وقال محمد بن عرفة النحوي المعروف بنفطويه يهجو ثقيلًا^(١):

[الخفيف]

يا ثقيلاً على القلوب إذا عد من فقد أيقنت بطول السُّهادِ
يا قذًى في العيون ما بين ألف يا غريماً أتى على ميعادِ
يا ركوداً في يوم غيم وصيف يا وجوه التجار يوم الكسادِ
خلّ عتافاً كما كنت فينا واو عمرو وكالحديث المزادِ
الناجم يذمّ ثقيلاً^(٢): [الرجز]

يا قوّة الناس ويا ضعف الأمل يا حيرة المملق أغيتّه الحيل
يا زحل الدهر ومزّيح الدول

ومما استجدته من مذامّ الثقلاء الشافية محاسنها أفهام العقلاء

قال بعض البلغاء مُحذراً من مجالسة الثقل: إذا وافاك ثقیلاً فأره من خلقك
التصرّم، ومن طبعك التبرّم، ولا تُوسعه ترحيماً، ولا تحفل به تقريباً، ولا تُقبل
إليه بوجهك، ولا تبخل عليه بنهجك، وأوحشه عند استئناسه، وتهجم له بين
جلّاسه، وأبعدّه ما استطعت، واقطعه فيمن قطعت، فبُعده راحة لنفسك ومُجلبة
لأنسك، فإنك إن أدنيتّه إليك، وأدّلتّه عليك ضنى به جسدك وكبدك وزاد به
نكدك وكمدك.

أبو بكر الخوارزمي: فلان أثقل من موت الخناق، وكتاب الطلاق، وفقد
الحبيب، وطلعة الرقيب، وقدح اللباب في كفّ المريض، وأشدّ من خراج بلا
غلة، ودواء بلا علة، ورؤية الموت عند الكافر، وقد ختم أعماله بالكبائر؛
فلان وخزّ في الأكباد، وسقم في الأجساد. وصف العباس بن الأحنف ثقيلاً،
فقال: والله ما الحمام مع الإصرار، وكثرة الذنوب مع الإقتار، وشدة السقم في
الأسفار بآلم من لقائه. أبو نؤاس الحسن بن هانئ الحكمي يذمّ

(١) الأبيات للبحري في ديوانه، والبيت الأول مطلع القصيدة، وفي الديوان: «بطول الجهاد»، بدل:
«بطول السهاد».

(٢) الرجز للناجم في التشبيهات، لابن أبي عون، ص ٤٧٥.

ثقيلاً^(١): [المتقارب]

ثَقِيلُ يُطَالِعُنَا مِنْ أُمِّمِ إِذَا سَرَّهْ رَغِمَ أَنْفِي أَلَمِ
 لَطَلَعْتَهُ وَخَزَةُ فِي الْفُؤَادِ كَوْخَزِ الْمَشَارِطِ فِي الْمَحْتَجَمِ
 أَقُولُ لَهُ إِذْ أَتَى لَا أَتَى وَلَا نَقَلْتَهُ إِلَيْنَا قَدَمُ
 فَقَدْتَ خِيَالِكَ لَا مِنْ عَمَى وَصَوْتُ كَلَامِكَ لَا مِنْ صَمَمِ

وصف بعضهم ثقيلاً، فقال: لا أدري كيف لم تحمل الأمانة أرض حملته، وكيف احتاجت إلى الجبال بعدما أقلته؟ كأنما قربته فقد الحباب وسوء العواقب، وكأنما وصله عدم الحياة وموت الفجأة. شاعر^(٢): [الوافر]

يَطُولُ بِقَرَبِكَ الْيَوْمَ الْقَصِيرِ وَيَرْحَلُ إِنْ مَرَرْتُ بِنَا السَّرُورِ
 لِقَاؤُكَ لِلْمَبْكَرِ فَالْ سَوْءِ وَوَجْهَكَ أَرْبَعَاءُ لَا تَدُورُ
 آخر^(٣): [الطويل]

إِذَا مَا تَبَدَّى طَالَعًا فَكَأَنَّهُ حُضُورُ غَرِيمٍ أَوْ طُلُوعِ رَقِيبِ
 وَإِنْ جَاءَ نَحْوِي قَاصِدًا فَكَأَنَّهُ كِتَابُ بَعْزَلٍ أَوْ فِرَاقِ حَبِيبِ
 آخر: [الخفيف]

وِثْقِيلُ أَشَدَّ مِنْ غَصَصِ الْمَوِ تَ وَمَنْ كِيدَهُ الْعَذَابُ الْأَلِيمِ
 لَوْ عَصَتْ رَبُّهَا الْجَحِيمُ لَمَا كَا نَ سِوَاهُ عَقُوبَةُ لِلْجَحِيمِ
 حسام الدين البخاري: [الخفيف]

خَلَقَ النَّاسَ مِنْ مَنِيٍّ وَهَذَا الـ وَلَدَ النُّحْسِ مِنْ رَجِيعِ أَبِيهِ
 فَفَشَا لَا فَشَا ثَقِيلًا مَقِيَّتًا لَيْسَ فِيهِ خَيْرٌ لِمَنْ يَرْتَجِيهِ

(١) الأبيات في ديوان أبي نواس، والبيت الأول مطلع القصيدة، والبيتان الأولان لابن بسام البغدادي في ديوانه، وهما بيتان منفردان، وروايتهما في الديوان:

ثَقِيلُ يَطَالِعُنَا مِنْ أُمِّمِ إِذَا سَرَّهْ رَغِمَ أَنْفِي أَلَمِ
 لَنَظَرْتَهُ وَخَزَةُ فِي الْحَشَى كَوْخَزِ الْمَحَاجِمِ فِي الْمَلْتَزِمِ

(٢) البيتان لمحمد بن حازم الباهلي في كتاب الزهرة، لابن داود الأصبهاني، ص ١١٠٣.

(٣) البيتان لعلي بن الرومي في المتحل، للثعالبي، ص ٣١٢، وليس في ديوان ابن الرومي.

لم يكن منهما نكاح ولكن فتحت فرجها فأحدث فيه
 نتهياً لناظري ولقلبي حرجاً كلما نظرت إليه
 نادرة: دخل أعرابي على ثلاثة يشربون واغلاً، فقال أحدهم: [الخفيف]
 أيها الداخل الذي جاء يطوي حين لذ الحديث لي ولصحبي
 فقال الثاني: [الخفيف]

خف عنا فانت أثقل والدّ ه علينا من فرسخي دبر كعب
 وقال الثالث: [الخفيف]

ومنّ الناس من يخف وفيهم كرحى البزر دائر فوق قطب
 فقال الأعرابي: [الخفيف]

لست بالبارح العشية والدّ ه لشتّم ولا لشدة ضرب
 أو تميلوا بالكبر فوراً علينا ثم تعلوا من فوق ذاك بقعب
 فاستظرفوه وخلطوه بهم.

ومما يكون لنفس المتأمل قوتاً ذمّ من كان بغيضاً مقوتاً

سُئِلَ جعفر الصادق رضي الله عنه: هل يكون المؤمن بغيضاً؟ قال: لا، ولا يكون ثقيلاً. وذكر أنوشروان أنه لما أراد أن يصير ولده هرمز وليّ عهده استشار أوليائه في ذلك، فكلّ ذكر عيباً يستحقّ به الملك؛ فمن قائل: لا يصلح للملك لأنه قصير، وذلك مما يذهب بهاء الملك، فقال أنوشروان محتجاً له: إنه لا يكاد يرى إلّا راكباً أو جالساً على سرير، فلا يبين عليه ذلك؛ ومن قائل: إنه ابن رومية والملك إذا كان ابن أمة نقصه ذلك من أعين الناس، فقال أنوشروان محتجاً له: إنّ الأبناء ينتسبون إلى الآباء ولا ينتسبون إلى الأمّهات، فلا يضرّه ما قلت؛ فقال الموبدان: إنّ فيه عيباً وهو أنه مبغض إلى الناس، فقال أنوشروان عند ذلك: هذا هو العيب الذي لا مدح معه ولا عذر عنه، والدّاء الذي لا بُرء له، فقد قيل: إنّ من كان فيه خير ولم يكن ذلك الخير للناس فلا خير فيه. وقالوا: فلان أوحش من ربع تحوّل سكانه، وتحمل أظعانه، وغارت نجومه، وعفّت رسومه. وقالوا: فلان أقذى للعين من ساعة داعية البين بين المحبين. وقالوا: فلان لا تحبّه الناس حتى

تحب الأرض الدم، وذلك أنها تعاف الدم فلا تقبله. شاعر يهجو بغيضاً^(١):
[مجزوء الرمل]

يا بغيضاً زاد في البغـ ض على كل بغيض
أنت عندي قدح اللبـ لاب في كف المريض

وقالوا: فلان أبغض من زوال النعمى، وفوت المني، وطلعة الردى. وقالوا:
مجالسة البغضاء تزيد الهموم، وتجلب الغموم، وتؤلم القلب، وتشد أزر الكرب،
وتكدح في النشاط، وتطوي بساط الانبساط.

(١) البيتان لابن بسام البغدادي في ديوانه، وهما بيتان منفردان.

الباب السادس عشر

في العزلة

وفيه ثلاثة فصول:

الفصل الأول من هذا الباب

في ذم الاستئناس بالناس لتلون الطباع وتنافي الأجناس

قال الله تعالى حكاية عن موسى عليه الصلاة والسلام: ﴿فَفَزَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشُعَرَاء: الآية ٢١]. وقال عليه الصلاة والسلام: «أحبّ العباد إلى الله الأتقياء الأحياء الذين إذا غابوا لم يفتقدوا، وإذا شهدوا لم يقربوا، أولئك أئمة الهدى ومصابيح الظلم»^(١). وقيل لبعض العباد: ما أصبرك على الوحدة؟ قال: أنا جليس الرب إذا شئت أن يناجيني قرأت كتابه، وإذا شئت أن أناجيه صليت له. وقال ذو النون المصري: الأنس بالله نور ساطع، وأنس بالخلق غم قاطع. وقال رسول الله ﷺ: «نعم صومعة المؤمن بيته، يكفّ فيها نفسه وبصره ولسانه وفرجه»^(٢). وقال الجنيد للسريّ السقطي: أوصني، فقال: لا تكن مُصاحباً للأشرار، ولا تشغل بالآلهي عن الأخيار. وفي كتاب كليلة ودمنة: ينبغي لذي المروءة أن يكون إما مع الملوك مُبَجَّلاً أو مع الشُّسَاك مُتَبَتِّلاً؛ كالفيل إما أن يكون مركباً نبيلًا، أو في البرية مهيباً جليلاً. وقال علي رضي الله عنه: مَنْ وجد في نفسه وحشة من الناس، فليعلم أنّ الله أحبّ أن يُؤنسه به. وقالوا: ما استغنى أحدٌ بالله إلّا وافترق الناس إليه. وقال بعض الحكماء: الأنس بالله من حبه لك، فإنّ الله إذا أحبّ عبداً أوحشه من خلقه. وقد قيل: من خلق التوحيد حبّ الوحدة. وقال الجنيد: أطيب ساعاتي خلواتي، وألذّ طاعاتي في

(١) أخرجه الزبيدي في إتحاف السادة المتقين ٣٨٨/٧، وأبو نعيم الأصبهاني في حلية الأولياء ١/

(٢) أخرجه العجلوني في كشف الخفاء ٤٤٦/٢.

مناجاتي. والله درّ مَنْ قال^(١): [السريع]

من حمد الناس ولم يبلهم ثم بلاهم ذمّ مَنْ يحمّد
وصار بالوحدة مستأنساً يوحشه الأقرب والأبعد

فمّا يكون عوناً للكريم على الانقطاع ذمّ ما الناس عليه من لُؤم الطباع

قال سفيان الثوري للحسن البصري: دلّني على مَنْ أجلس إليه، قال: تلك
ضالّة لا تُوجد. وقيل لبعضهم: ما الصديق؟ قال: اسم وضع على غير مسمّى،
وحيوان غير موجود. الناشء^(٢): [الوافر]

سمعنا بالصديق ولا نراه على التحقيق يوجد في الأنام
وأخسبه مُحالاً نَمَقوه على وجه المجاز من الكلام

وقيل لبعضهم: مَنْ أبعد الناس سفرًا؟ قال: مَنْ كان في طلب صديق صدوق
يكون عونًا له على مهمّاته، وغوثًا على ملّمّاته. سمع المأمون أبا العتاهية ينشد^(٣):
[الطويل]

وإني لمحتاج إلى ظلّ صاحب يروق ويصفو إن كدرت عليه

فقال: خذ مني الخلافة وأعطني هذا الصّاحب، وقبل هذا البيت: [الطويل]

عذيري من الإخوان لا مِنْ جَفَوته صفا لي ولا من كنت طُوع يديه

وقال بعضهم: إن كان في مخالطة الناس خير، فإنّ تركهم أسلم. وقال بعض
الرهبان لرجل: إن استطعت أن يكون بينك وبين الناس سور من حديد فافعل، وإن
كان الأئس في الجماعة فإنّ السلامة في العزلة. وقال الشاعر: [مجزوء الرمل]

ليس في الناس وفاء لا ولا في الناس خير

قد بلوت الناس طرّاً فكسير وعوير

(١) البيتان بلا نسبة في الموشى، للشّفاء، ص ٤٢.

(٢) البيتان في ديوان الناشء الأكبر، وهما بيتان منفردان.

(٣) البيتان ليسا في ديوان أبي العتاهية، وهما بلا نسبة في الصداقة والصديق، لأبي حيان التوحّيدي،
ص ٦١.

آخر^(١): [الطويل]

كُنْ لقعمر البيت جلسًا وازضَ بالخلوة أنسا
واغرس الناس بأرض الز هدمهما شئت غرسا
وليكن يأسك دون الط مع الكاذب ترسا
لست بالواحد حزًا أو ترد اليوم أمسا

كتب بعضهم إلى صديق له: أما بعد؛ فإني أحمد الله إلى الناس، وأذم الناس إليه. وقيل لبعضهم: ما تجد في الخلوة؟ قال: الراحة من مداراة الناس، والسلامة من شرهم. وقال الشاعر: [الطويل]

وقالوا لقاء الناس أنسٌ وراحة ولو كنت أَرْضَى الناس ما عشت مفردا
وكتب محمد بن عبد الله بن طاهر إلى أخيه من مدينة السلام، وكان أخوه بخراسان يشكو إليه قلة وفاء الرئيس وتأذبه بحضرة الجليس، فكتب إليه جواباً^(٢):
[مجزوء الرمل]

طَبَّ عن الأمة نفسًا وازضَ بالوحدة أنسا
ما رأينا أحدًا سا وى على الخبرة فلسا
آخر^(٣): [مجزوء الرمل]

قد بلوت الناس طرًا لم أجد في الناس حُرًا
صار أحلى الناس في العي من إذا ما ذيق مُرًا

أبو حامد الغزالي: [الكامل]

لا تَجْزَعَنَّ لوحدة وتفرّد ومن التفرد في زمانك فازدَد
ذهب الإخاء فليس ثم أخوة إلا التملق باللسان وباليد
فإذا كشفت ضمير ما بصدورهم أبصرت ثم نقيع سم الأسود

(١) الأبيات بلا نسبة في الصداقة والصديق، ص ١٣٠.

(٢) البيتان بلا نسبة في الصداقة والصديق، ص ١٣٠.

(٣) البيتان بلا نسبة في بهجة المجالس، لابن عبد البر، ص ٩٣٠.

آخر^(١): [المقارب]

إذا ما طلبت أخاً مخلصاً فهيها منك الذي تطلبُ
فكن بانفرادك ذا غبطةٍ فما في زمانك من تصحبُ

آخر^(٢): [المقارب]

بلوت الأناس وأهل الزمان وكل بهجر ولؤم خليقُ
وأوحشني من عدوي الزمان وأنسني بالعدو الصديقُ

آخر: [الوافر]

بلوت الناس من غربٍ وشرقٍ فلم تظفر يدي بصديق صدق
فقلت مجانباً للخلق طرّاً يبيت منادمي قدحي وزقي
وفي الآداب لي ألف وأنس وفضل الله يأتيني برزقي

آخر: [المنسرح]

ما أعجب الناس في تقلبهم ذا شهد طعمه وذا صبرُ
ترضى على الشخص حين تبصره ويسخط العقل حين يختبرُ

وقال بعض الحكماء: الوحشة من الناس على قدر المعرفة بهم. منه قول علي رضي الله عنه: أخبر تقله. وقال المأمون: لولا أن كلام علي فرع من كلام النبوة لعكسته، وقلت: أقله تخبر. وقال وهيب بن الورد: صحبت الناس منذ خمسين سنة، فما وجدت رجلاً غفر لي زلة، ولا أزاح لي علة، ولا أقالني عثرة، ولا ستر لي عورة. وقال علي رضي الله عنه: إذا كان الغدر طباعاً، فالثقة بكل أحد عجز.

شاعر: [البسيط]

أما الوفاء فشيء قد سمعت به وما وجدت له عيناً ولا أثراً
فمن توهم في الدنيا أخاً ثقةً فإنه بشر لا يعرف البشرأ

(١) البيتان لمحمد بن ولاد، أبي الحسين التميمي النحوي، في معجم الأدباء، لياقوت الحموي، في ترجمته.

(٢) البيتان لإبراهيم بن العباس الصولي في ديوانه، وهما بيتان منفردان.

آخر^(١): [الكامل]

ذهب الوفاء ذهاب أمس الذّاهب فالناس بين مُخاتل ومُوارِب
يفشون بينهم المودة والصفاء وقلوبهم محشوة بعقارب
آخر: [الطويل]

لك الخير فاعلم ليس في الناس مُنصفٌ
وكل وداد فهو منهم تكلف
وكل إذا عاهدته فهو ناقض
لعهدك أو واعدته فهو مخلف
وأبناء هذا الدّهر كالدهر لم يثق
به وبهم إلّا جهول مسوّف
آخر: [مجزوء الكامل]

ذهب الوفاء فلا وفا ء ولا حياء ولا مروءة
إلّا التواصل بالأسا ن من النفوس بلا إخوة
عبد المحسن الصوري^(٢): [الخفيف]

نزع الدّهر خلّتين من النّاس س وفاء الإخا وصدق الصّديق
ويقال: العزلة عن الناس توقّر العرض، وتبقي الجلالة، وتستتر الفاقة، وتدفع
مؤنة المكافأة في الحقوق. لما وقع الاختلاف في المدينة خرج عروة بن الزبير إلى
العقيق واعتزل الناس، فعاتبه بعض إخوانه، فقال: رأيت ألسنتهم لاغية، وقلوبهم
لاغية، وأديانهم واهية، فخفت أن تلحقني معهم الدّاهية. شاعر^(٣): [الوافر]
ألام على التفرد كلّ وقتٍ ولي فيما ألام عليه عذرُ
وكل أذى فمصبورٌ عليه وليس على قرين السوء صبرُ

(١) البيتان لعلي بن أبي طالب في ديوانه، وهما بيتان منفردان.

(٢) البيت في ديوان ابن غلبون الصوري، من قصيدة مطلعها:

سر مع الوجد والأسى في طريق فقليل سلوكها للمشوق

(٣) البيتان بلا نسبة في المحاضرات في الأدب، لليوسي، ص ٤١٠.

آخر^(١) : [الوافر]

وأفردني عن الإخوان علمي بهم فبقيت مهجور النواحي
فكم ذم لهم في جنب مدح وجد بين أثناء المزاح
الإمام الشافعي رضي الله تعالى عنه^(٢) : [الطويل]

إذا لم أجد خلًا تقيًا فوحدتي ألد وأشهى من غوي أعاشرة
وأجلس وحدي للسفاهة آمنًا أقر لعيني من جليس أحاذرة

وقال جعفر الصادق: العزلة أسكن للفؤاد، وأبعد من الفساد، وأعود للمعاد.
الثعالبي: إذا كان الصديق المجانس متعذرًا، وصحيح الإخاء لا يكاد يرى؛ فالثقة
بغير الله منقصمة العرى. وقالوا: إذا أنس اللبيب بالوحدة دون المصاحب ونزه
نفسه بإكرامها عند تغير الأخ والصاحب، وتزين بالدين، وتحلى بحلية المؤمنين،
وألزم نفسه الرياضة بالآداب، وأعتق رقها من أليم العذاب، فقد استراح وأراح
ووجد في كل قطر المطار والمراح. وأنشد لعلّي بن عبد العزيز الجرجاني^(٣):
[الخفيف]

ما تطعمت لذة العيش حتى صرت في وحدتي لكتبي جليسا
ليس شيء ألدّ عندي من نفسي فلم أبتغي سواها أنيسا
إنما الدّل في مداخله النسا س فدعها وعش كريمًا رئيسا

وما أحسن قول بعضهم في المعنى: [المتقارب]

إذا ما خلوت من المؤنسين جعلت المؤانس لي دفتري
فلم أخل من شاعر مُحسن ومن مضحك طيب مندر
ومن حكم بين أثنائها فوائد للنّاظر المفكر
فإن ضاق صدري بأسراره وأودعته السر لم يظهر
فلمست أرى مؤثرًا ما حييت عليه نديمًا إلى المحشر

(١) البيتان لابن المعتز في ديوانه، من قصيدة مطلعها:

لمن دار وربع قد تعفّى بنهر الكرخ مهجور النواحي

(٢) البيتان في ديوان الإمام الشافعي، وهما بيتان منفردان.

(٣) الأبيات في كتاب تحسين القبيح وتقييح الحسن، للثعالبي، ص ٢٤.

ولآخر^(١): [الوافر]

وما ظفرت يدي بصديق صِدِّق أخاف عليه إلا خفت منه
ولم تدع التجارب لي صديقًا أميل إليه إلا ملْتُ عنه
أنست بوحدتي حتى لو أني رأيت الأُنس لاستوحشت منه
أبو فراس^(٢): [الطويل]

بمن يثق الإنسان فيما ينوبه ومن أين للحرّ الكريم صحاب

ومما اخترت من كلام الحكماء الأجلّاء في التحذير من اتخاذ الأصدقاء والأخلاء

قال بعض الزهّاد: لو أنّ الدنيا ملئت سباعًا ما خِفْتُها، ولو بقي واحد من الناس لخِفْتُه. وقالوا: استعذ من شرار الناس وكُنْ من خيارهم على حذر. وقال آخر: ما بقي في الناس إلا حمار رامج، أو كلب نابح، أو أخ فاضح. وقال أبو الدرداء: كان الناس ورقًا لا شوك فيه، فصاروا شوكًا لا ورق فيه. وقال سلمان: الناس أربعة أصناف: آساد وذئاب وثعالب وضأن، فالآساد الملوك، والذئاب التجار، والثعالب القراء المخادعون، والضأن المؤمن ينهشه كل من يراه. شاعر: [البسيط]

الناس أخلاقهم شتى وإن جُبِلُوا على تشابهه أفراد وأزواج

وقال بعض الحكماء: احذروا الناس فما ركبوا سنام بغير إلا أدبروه، ولا ظهر جواد إلا عقروه، ولا قلب مؤمن إلا أخربوه. وقال خالد بن صفوان: الناس أجياف، فمنهم كالكلب لا تراه الذّهر إلا هرازا على الناس، ومنهم كالقرد يضحك من نفسه. وقال عبد الحميد الكاتب: الناس أجياف مختلفون، وأطوار متباينون؛ فمنهم من علق مظنة لا تباع، ومنهم من غلّ مظنة لا تبتاع. وقال جعفر الصادق لبعض إخوانه: أقلل من معرفة الناس وأنكر من عرفت منهم، وإن لك مائة

(١) الأبيات للوزير المغربي في ديوانه، وهي ثلاثة أبيات منفردة. وفي الديوان البيت الثالث هو أول الأبيات.

(٢) البيت في ديوان أبي فراس الحمداني، من قصيدة مطلعها:

أما لجميلٍ عندك ثوابٌ ولا لمسيءٍ عندك متابٌ

صديق، فاطرح منهم تسعة وتسعين، وكُنْ مِنَ الْوَاحِدِ عَلَى حذر. وقال بعض البلغاء: بلوت الناس طرًا فلم أجد إلا مَنْ يرى الحق باطلاً، والباطل حقًا، واللّثيم مرفوعًا، والكريم مُلْقَى، والنّضج غشًا، والغشّ نصحًا، والمدح هجاء، والهجاء مدحًا. العتابي في مثل ذلك^(١): [الوافر]

تساوى أهل دهرك في المساوي فما يستحسنون سوى القبيح
وصار الناس كلّهم غشاء فما يرجون للأمر النجیح
وأضحى الجود عندهم جنونًا فما يستعقلون سوى الشحيح
وكانوا يغضبون من الأهاجي فصاروا يغضبون من المديح

وقال حكيم: مُصاحبة الناس خطر، فمن صبر على صحبتهم فقد بالغ في العذر، إنما هو كراكب بحر إن سلم بدنه من الغرق، لم يسلم قلبه من الفرق. شاعر^(٢): [الطويل]

تجنّب قرين السوء واصرم حباله وإن لم تجد عنه محيطًا فداره
ومن يطلب المعروف في غير أهله تجده وراء البحر أو في قراره

وصف بعض البلغاء أهل زمانه، فقال: أحظى الناس لديهم من أحسن إليهم، فإن قَصُر عنهم رفضوه، وأبغضوه ووتروه، ولم يعذروه، إن حضروا داهنوا، وإن غابوا شاحنوا، ينظّون على الإخن، ولا يرثون للممتحن، غنيهم شحيح، وفقيرهم مجيح، إن رأوا خيرًا دفنوه، وإن ظنّوا شرًا أعلنوه، الواثق منهم على غرر، والمتمسك منهم على خطر، هم بين طاعن ثالب، ومتفول كاذب، وحسود مؤارب، إن اختبرتهم تكشفوا، وإن اعتبرتهم تزيقوا؛ وأنشد^(٣): [البسيط]

إن يسمعوا الخير يخفوه وإن سمعوا شرًا أذيع وإن لم يسموا كذبوا

(١) الأبيات ليست في ديوان العتابي، ولجحظة البرمكي ثلاثة أبيات شبيهة بها، وهي:

تساوى الناس في فعل المساوي فما يستحسنون سوى القبيح
وصار الجود عندهم جنونًا فما يستعقلون سوى الشحيح
وكان يهربون من الأهاجي فصاروا يهربون من المديح

(٢) البيتان لأبي الشمردل وقاص بن مجامع الكندي، في الازدهار فيما عقده الشعراء من الأحاديث والآثار، للسيوطي ص ٦٥.

(٣) البيت بلا نسبة في كتاب الصداقة والصديق، لأبي حيان التوحيدي، ص ١٢٣، ورواية البيت فيه:

إن يعلموا الخير يخفوه وإن علموا شرًا أذاعوا وإن لم يعلموا كذبوا

ولقد أحسن في التحذير مَنْ قال: [البسيط]

إِيَّاكَ أَنْ تَصْطَفِي مَنْ تَرَى أَحَدًا وَلَا تَتَّقِ بِأَمْرِي فِي حَالَةِ أَبَدَا
مَنْ عَاشَ مَنْفَرْدًا لَمْ يَأْتِهِ نَدَمٌ عَلَى اتِّخَاذِ صَدِيقٍ فِي الْأَنَامِ غَدَا

ومما يكون مماثلاً لهذا القول ومعاًلاً

التحذير من صحبة السلطان وإن كان عادلاً

قال الأعمش: صحبة السلطان خطر إن أطعته خاطرت بدينك، وإن أغضبته خاطرت بنفسك، والسلامة منه أن لا تعرفه. وقال ابن مسعود: إن الرجل ليدخل إلى ذي السلطان ومعه دينه، ويخرج وليس معه منه شيء. وقال عبد الله بن عمر: ما ازداد رجل من ذي سلطان قرباً إلا ازداد من الله بُعْداً. وقال الفضيل بن عياض: كنا نتعلم اجتناب السلطان كما نتعلم السورة من القرآن. وقال أيضاً: لأن يدنو الرجل إلى حتفه ومنيته خير له من أن يدنو إلى ذي سلطان. وقال أيضاً: ما أقبح بالعالم أن يقال أين هو؟ فيقال: هو في بيت الأمير، وكتب أبو بكر بن عياش إلى عبد الله بن المبارك: إن كان الفضيل بن موسى لا يجالس السلطان فأقرئه مني السلام. أبو الفتح البستي^(١): [البسيط]

يَا مَنْ يَرَى خِدْمَةَ السُّلْطَانِ عِدَّتَهُ مَا أَرَشَ ذَلِكَ إِلَّا الذَّلَّ وَالنَّدَمُ
فَجَسَمُهُ تَعَبٌ وَالنَّفْسُ خَائِفَةٌ وَعَرَضُهُ غَرَضٌ وَالذِّينُ مَنْتَلَمُ
هَذَا إِذَا شَرَفَتْ أَيَّامُ دَوْلَتِهِ نَعُوذُ بِاللَّهِ إِنْ زَلَّتْ بِهِ الْقَدَمُ

وقال زياد بن أبي سفيان يوماً لجلسائه: مَنْ أُنْعِمَ النَّاسُ عَيْشًا؟ قالوا: أمير المؤمنين - يعني معاوية - قال: فكيف بثغوره وأموره، إن لأعواد المنبر لهيئة، ولقرع لجام البريد لروعة؟ قال: فمن؟ قالوا: فأنت، قال: فكيف بجنودي وخراجي ومدارة الناس؟ قالوا: فمن إذا؟ قال: رجل له دار يسكنها وزوجة صالحة يأوي إليها وخادم وكفاف من العيش لا يعرفنا ولا نعرفه، فإنه إن عرفنا وعرفناه

(١) البيتان الثاني والثالث لأبي الفتح البستي في ديوانه، من ثلاثة أبيات؛ أولها:
إني أرى صاحب السلطان في ظلمٍ ما مثلهن إذا قاسى الفتى ظلم

أفسدنا آخرته ودُّنياه. شاعر: [السريع]

وصاحب السلطان في محنة في آجل الأمر وفي حينه
إن ساءه خاف على نفسه أو سرّه خاف على دينه
آخر: [البسيط]

إنّ الملوك بلاء حيثما رحلوا فلا يَكُنْ لك في أكتافهم ظلّ
ماذا تريد بقوم إنّ هم غضبوا جاروا عليك وإنّ أَرْضَيْتَهُمْ ماتوا
فإن أتيتهم تبغي نوالهم رجعت منقبضاً من دينك الكلّ
فاستغن بالله عن أبوابهم كرماً إنّ الوقوف على أبوابهم ذلّ

الفصل الثاني من الباب السادس عشر

فيما يحضّر على الاعتزال من ذميم الخلاق والخلال

فأهمّ ما نبدأ به منها، ولا يمكننا الإعراض عنها ترفع من سوّغته الأقدار
منصباً أو مالاً على صديق ما برح في ودّه يتغالى. قال بعضهم: [الطويل]

تغيّر عني حين ولّوه منصباً وعهدي به من قبل ذا وهو صاحب
وما هو في الدنيا بأول صاحب وأول رجل غيّرته المناصب
آخر: [البسيط]

إنّ الولاية معيار العقول بها يبين من فيه نقص أو به عور
فكم أصمت سميماً كان ذا أذن قبل التولي وأغمث من له بصر
ويُزوى عن محمد بن إدريس الشافعي أنّه قال: أظلم الناس لنفسه اللّثيم،
فإنه إذا ارتفع جفا أقاربه، وأنكر معارفه، واستخف بالأشراف، وتكبر على ذوي
الفضل. شاعر: [البسيط]

ليس الكريم الذي إنّ نال منزلةً فضلاً وطولاً على إخوانه تاهاً
الحرّ يزاد للإخوان مكرمة إن نال حظاً من السلطان أو جاهاً
أبو بكر الخوارزمي: [الطويل]

كفى حُزناً أن لا صديق ولا أخ يفيد غنى إلا يداخله كِبَرُ

فلا نال فوق القوت مثقال ذرة صديق ولا أوفى على عُشره يسرُ
وما ذاك إلا رغبةً في وصاله والإحذار إن لم يلتم به العذرُ
ولبعضهم يعاتب صديقًا له ولّى حين ولي: [الوافر]

ولما صرّفتك يد الليالي حكّمك الزّمان على بنيهِ
عدلت عن الوداد وكنت قدمًا لدينا تبتغيه وترتضيه
آخر: [الوافر]

دعوت الله أن تعملو محلاً علوّ البدر في أفق السماء
فلما أن علوت علوت عني فكان إذا على نفسي دعائي
آخر: [الكامل]

إنّ الولاية غيّرت أصحابنا فلووا وجوههم عنا وتبدّلوا
فاصبر على جور الليالي منهم واترك عناءهم إلى أن يُغزلوا
آخر: [السريع]

قل لعبيد الله ذاك الذي قد غيّر السلطان أطباعه
ابتاع وذّي وهو ذو عسرة حتى ذال نال الغنى باعه
آخر: [البسيط]

وربّ ذي ثقة قد كان لي سكناً وكنت منه مكان العين في الراس
ولّى وأعرض عني إذ أفاد غنى وخانه سوء بنيان وآساس
حتى إذا ما قضى من ماله وطراً فيما أحبّ من اللذات والكاس
غدا إليّ بوجه ضاحكٍ طلق وعاد في ودّه من بعد إفلاس
آخر: [المنسرح]

تاه علينا وزاد إطرأقه وخاننا عهده وميثاقه
وكلّ من نال فوق رتبته تغيّرت للصديق أخلاقه

وقال عبد الصمد بن بابك يشكو صديقًا مال حين اكتسب المال، وحال
عندما صَلَّحَ منه الحال^(١): [البسيط]

أشكو إليك زمانًا ظلَّ يعركني	عرك الأديم ومَنْ يُفدى مِنَ الزَّمنِ
وصاحبًا لست مغبوطًا بصحبته	دهرًا فغادرني فردًا بلا سكنٍ
هَبَّتْ له ريح إقبال فطار بها	نحو السرور وألجأني إلى الحزنِ
نأى بجانبه عني وصيّرني	مع الأسى ودواعي البَيْنِ في قرنٍ
وباع صفو وداد كنت أقصره	عليه مجتهدًا في السرِّ والعلنِ
وكان غالي به حينًا فأرخصه	يا مَنْ رأى صفو ودَّ بيع بالثمنِ
فليس في الأرض مغبون بصفقته	إن لم يكن ذاك منسوبًا إلى الغبنِ
كأنه كان مطويًا على إحني	ولم يكن من عيون الشعر أنشدني
إن الكرامَ إذا ما أسهلوا ذكروا	مَنْ كان يألفهم في المنزل الخشنِ

وقال آخر يعاتب صديقًا تغيّر عليه، عندما نظر الزَّمان بعين المَقْتِ إليه:
[الطويل]

وكننت أخى أيام عودك يابس	فلما اكتسى واخضرَّ صرت مع التسرِّ
لعمرك لو ذوّقتني ثمر الغنى	أذقْتُك ما يُرضيك من ثمر الشكرِ
فلو نلت ما يُغني بك اليوم أو غدًا	أنلتك ما يبقى إلى آخر الدهرِ
ألم ترَ أن الفقير يُرجى له الغنى	وأن الغني يُخشى عليه مِنَ الكُفرِ

آخر: [المقارب]

ألم ترَ أن ثقات الرجال	إذا الدهر ساعدهم ساعدوا
وإنَّ خانه دهره أسلموه	فلم يبق منهم له واحدٌ
ولو علم الناس أنَّ المريض	يموت لما عاده عائدٌ

آخر^(٢): [البسيط]

كم من صديقٍ لن أيام دولتنا قد كان يمدحنا فصار يهْجُونَا

(١) الأبيات للصاحب بن عباد في ديوانه، والبيت الأول مطلع القصيدة.

(٢) الأبيات بلا نسبة في كتاب الصداقة والصديق، لأبي حيان التوحيدي، ص ٣٥٣.

لم نَذِرْ إذا ما انقضت عتًا إمارتنا مَنْ كان ينصح مَمَّنْ كان يغوينَا
ما إن يلاطفنا مَنْ كان يصحبنا إلَّا ليخدعنا عَمَّا بأيدينا
آخر^(١): [الوافر]

صديقك حين تستغني كثير وما لك عند فقرك من صديق
فلا تغضب على أحدٍ إذا ما طوى عنك المودَّة عند ضيق
آخر^(٢): [الوافر]

أرى قومًا وجوههم حسان إذا كانت حوائجهم إلينا
وإن كانت حوائجنا إليهم تغيّر حسن وجههم علينا
ومنهم مَنْ يمنع ما لديه ويغضب حين نمنع ما لدينا
فإن يك سمجًا وفعلني قبيحًا مثله فقد استوينَا

ومما يدلّ على صغر الهمة والنفس

التلّون على الصديق المصاحب بالأمس

قال بعضهم: لأن أُبتلى بألف جموح لجوج أحب إليّ من أن أُبتلى بمتلّون.
وقال آخر: إذا كان صديقٌ فلا تتمنّ له رفعة، فبقدر ارتفاعه يكون انحطاطك من
عينه، ولا تلتفت إلى قول حبيب بن أوس الطائي^(٣): [البسيط]

إنّ الكرام إذا ما أسهلّو ذكروا مَنْ كان يألفهم في المنزلِ الخُشنِ

فليس كما قال، فإنه بالرتبة يشمخ أنفه بعد الخسّة والضّعة، ويفرد صديقه
بالبؤس، وإن كان من قبل شريكه وقسيمه في الدّعة، ويقابل إقباله في الزّيارة
بالملّالة، ويعدّ معرفته له عثرة لا يُرجى لها إقالة، فإن وقف ببابه حَجَبه، وإن دخل
في غمار الناس ازدراه، ومن تبرّم به أعجبه، وأخذ بما قال الفقيه منصور بن

(١) البيتان بلا نسبة في الصداقة والصديق، ص ٣٨٥.

(٢) الأبيات بلا نسبة في الصداقة والصديق، ص ٥١٤، وهي لأبي العتاهية في ديوانه، الأبيات الثلاثة الأولى فقط.

(٣) البيت ليس في ديوان أبي تمام، وهو لإبراهيم بن العباس الصولي في ديوانه، من بيتين، أولهما:
أولى البرية طرأ أن تواسيه عند السرور الذي واساك في الحزن
والبيتان أيضًا لدعلب الخزاعي في ديوانه، وهما بيتان منفردان.

إسماعيل بن المقرئ^(١): [البسيط]

إذ ما رأيت امرأة في حال عسرتها بادى الصداقة ما في وده غل
فلا تمنّ له حالاً يسرّ بها فإنه بانتقال الحال ينتقل

وكأن منصور ألتَمَ بقول بعض البلغاء: لا تطلبن لأخيك رتبة هي أرفع من رتبته التي هو مساويك فيها، فإنه ينتقل عنك في أحوال ثلاثة يكون صديقك عند حاجته إليك، ومعرفتك عند استغنائه عنك، وعدوك حال احتياجك إليه. وقال بعض الأعراب يذكر صديقاً تلون عليه: صفرت عياب الود بيني وبينه بعد امتلائها، واكفهرت سواف وجوه المسرات وكانت نضرة بمائها، فأدبر ما كان بيني وبينه مُقبلاً، وأقبل ما كان مُدبراً، وصارت مودته متقلّة، كتقلّ الأفياء وأخوته متلونة كتلون الحرباء. وقال بعضهم: المتلون إن ودك لشيء ملك عند انقضائه. ويقال: إياك ومن مودته على قدر حاجته إليك، فعند ذهاب الحاجة ذهاب المودة. وقال بعض الأعراب لولده: يا بني لا تصحب من إذا أيسر من خيرك مال إلى غيرك. وقالوا: إذا انقطع من صديقك رجاؤك، فألحقه بعدوك. وما أحسن قول بعضهم^(٢): [الوافر]

إذا تاه الصديق عليك كبرا فتة زهداً على ذاك الصديق
وإن سلك الغرام به طريقاً فخذ عرضاً سوى ذاك الطريق
فإيجاب الحقوق لغير راع حقوقك رأس تضييع الحقوق
ولبشار بن بُرد^(٣): [الطويل]

إذا كان ذواقاً أخوك من الهوى موجهة في كل أوب ركائبه
فجلّ له وجه الفراق ولا تكن مطية رحال كثير مذهبه

(١) البيتان في ديوان منصور بن إسماعيل الفقيه، وهما بيتان منفردان.

(٢) الأبيات بلا نسبة في محاضرات الأدباء، للراغب الأصبهاني، ص ٨٤٣؛ وربيع الأبرار، للزمخشري، ص ٤٦٥.

(٣) البيتان في ديوان بشار بن برد، من قصيدة مطلعها:

جفا وده فازور أو ملّ صاحبه وأزرى به أن لا يزال يعاتبه

الكميت بن زيد: ولقد أحسن في الأنفة إذا عطس بأنف شامخ، وأبان عن أنف في الكرم راسخ؛ من أبيات يفتخر^(١): [الطويل]

وما أنا بالنكس الدني ولا الذي إذا صد عنه ذو المروءة يقرب
ولكنه إن دام دُمت وإن يكن له مذهب عني فلي عنه مذهب
ألا إن خير الودّة تطوَّعت به النفس لا ودّ أتى وهو مُثعّب

وقيل لبعض الولاة: كم لك من صديق؟ فقال: أما في حال الولاية فكثير؛ ثم أنشد^(٢): [البسيط]

الناس إخوان من دامت له نعمة والويل للحرّ إن زلت به القدم
آخر^(٣): [الطويل]

تلوّنت حتى لست أدري من العمى أريح جنوب أنت أم ريح عاصف
قريب بعيد جاهل متبصّر سخيّ بخيل مستقيم مخالف
صدوق كذوب لست أدري خليله أيجفوه من تلوينه أم يلاطف
ولست بذئ غشّ ولست بناصح وإني من عجبي لشأنك واقف
كذاك لساني شاتم لك مادح كما أن قلبي جاهل بك عارف

كتب بعضهم إلى صديق له تلون عليه: أما بعد؛ فقد عافني الشك في أمرك عن عزيمة الأمر فيك، لأنك بدأتني بلطف من غير جراءة، ثم أعقبتني جفاء من غير جريمة، فأطمعني أولك في إخائك، وآيسني آخرك من وفائك؛ فسبحان من لو شاء لكشف بإيضاح الرأي في أمرك عن ظلمة الشك فيك، فأقمنا على ائتلاف وافترقنا على اختلاف، والسلام. وكتب آخر^(٤): [البسيط]

قل للذي لست أدري من تلونه أناصح أم على غشّ يداجيني
إني لأكثر مما شمتته عجبا يد تشخ وأخرى منك توليني

(١) الأبيات للكميت بن معروف الأسدي (وليس للكميت بن زيد) في ديوانه، وهي ثلاثة أبيات مفردة.

(٢) البيت لمنصور بن إسماعيل الفقيه في ديوانه، وهو مطلع القصيدة.

(٣) البيت الأول بلا نسبة في كتاب المتحلل، للثعالبي، ص ٣٦٧.

(٤) البيتان لصالح بن عبد القدوس في ديوانه، والبيت الأول مطلع القصيدة.

ولمّا نكب عليّ بن عيسى الوزير لم ينظر ببابه أحداً من أصحابه وآله وإخوانه الذين كانوا مُلّازمين له في حال تصرّفه واشتغاله، فلمّا رُدّت إليه الوزارة اجتمعوا إليه وعطفوا عليه، وجعل كل منهم يأخذ في السُّبق لِلقِيّاه، والنظر إلى مُحيّاه، فحين رآهم كذلك أنشد^(١): [البيسط]

ما الناس إلّا مع الدنيا وصاحبها فكيف ما انقلبت يوماً به انقلبوا
يعظّمون أخوا الدنيا فإن وثبت عليه يوماً بما يشتهي وثبوا
لا يحلبون لحَيّ درّ لقحته حتى يكون لهم شطر الذي حلبوا

عادى الزمان بعض الوزراء فنظر بعين المَقْت إليه، وقبض عنه المسار بيد القبض عليه، ثم عاد فألبسه من الإقبال حُللاً أجّره أذيالها، وصرف لخدمته بأزقة الانقياد، فحمله أعباء المَنّ وأثقالها، فقال يعاتب من انقطع عنه في حال خموله، ويُشعره بأن نجم سعدة طلع بعد أفوله: [مخلّع البسيط]

عادانيّ الدهر بعض شهر فأعرض الناس ثم بانوا
يا أيها المعرضون عثي عودوا فقد عاود الزّمان

ومن ذميم فعلات الإخوان الخوّان

اغتيال من غاب من الإخوان

قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ [الحُجرات: الآية ١٢]. وقال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ مِنَ الْمُسْلِمِ دِينَهُ وَعَرَضَهُ وَأَنْ يَظُنَّ بِهِ السُّوءَ»^(٢). وقالوا: الأخ الصادق من أهدى إلى أخيه غيبه وحفظ له غيبه. وقالوا: الغيبة جهد العاجز. وقالوا: إيّاك وصحبة من إذا حضر أثنى ومدح، وإذا غاب عاب وقدح. وقالوا: اللّثيم إذا غاب عاب، وإذا حضر اغتاب. وقالوا: الرّيبة عار، والغّيبة نار. ويُقال: من عُفّ عن الرّيبة كفّ عن الغّيبة. وقال العتابي: شرّ الإخوان من إذا وجد مادحاً مدح، وإن وجد قادحاً

(١) الأبيات لأبي العتاهية في ديوانه، من قصيدة مطلعها:

لكل أمر جرى فيه القضا سببٌ والدهر فيه وفي تصرّيفه عَجَبٌ

(٢) أخرجه بنحوه الزبيدي في إتحاف السادة المتقين ٥٥٢/٧، والقرطبي في تفسيره ٣٣٢/١٦.

قدح، وإن استودع سرًا فضح. الشريف الرضي^(١): [الطويل]

إذا أنت فتشت القلوب وجدتها قلوب أعاد في جسوم الأصادق
ابن المعتز^(٢): [المتقارب]

بلوت أخلاء هذا الزمان وأقللت بالهجر منهم نصيبي
وكلهم إن تصفحتهم صديق العيان عدو المغيب

وقال: مَنْ أكل خبزه بلحوم الناس لم يَصُنْ نفسه مِنَ الأَدْناس. ومرّ عمرو بن العاص على جيفة مُلقاه، فقال لأصحابه: والله لأنْ يأكل أحدكم مِنْ هذه حتى يَمُرَّ به خيرٌ له مِنْ أن يأكل لحم أخيه. وكان أبو الطيّب الظاهري يهجو بني ساسان، فقال له نصر بن أحمد: إلى متى تأكل خبزك بلحوم الناس؟ فحجل ولم يعد. وقيل: أوحى الله إلى موسى عليه السلام مَنْ مات مُصرًّا على الغيبة فهو أوّل مَنْ يدخل النار، وَمَنْ مات تائبًا فهو آخر مَنْ يدخل الجنة. وقال عليّ بن الحسين لرجل: إياك والغيبة، فإنّها أدام كلاب الناس. اغتاب رجل رجلًا عند مسلم بن قتيبة، فقال له: مُهْ، فلقد تلمظت بمضغة طالما عافتها الكرام. ويُحكى عنه أنه ذُكر عنده رجل فتكلّم فيه بعض أهل المجلس، فقال له مسلم: قد أوحشتنا مِنْ نفسك ومودتك ودللتنا على عورتك. وما أشدّ نصيح مَنْ قال: لا يكن لسانك رطبًا بعيوب أصدقائك تزيدهم في أعدائك. أضاف إبراهيم بن أدهم أناسًا، فلما قعدوا للطعام: أخذوا في الغيبة، فقال لهم إبراهيم: إنّ مَنْ قبلنا كانوا يأكلون الخبز قبل اللحم، وأنتم أكلتم اللحم قبل الخبز. أبو تمام^(٣): [الخفيف]

قَبَحَ الله صاحبًا قطف الصحـ بة حرب المغيب سلّم التلاقي

الصاحب بن عباد^(٤): [مجزوء الرمل]

احذر الغيبة فهي الـ فسق لا رخصة فيه
إنما المُغتاب كالآ كل مِنْ لحم أخيه

(١) البيت في ديوان الشريف الرضي، من قصيدة مطلعها:

بوذ الرزايا أنها في السوابق وكم للعلى من طالب غير لاحق

(٢) البيت في ديوان ابن المعتز، وهما بيتان منفردان.

(٣) البيت ليس في ديوان أبي تمام، ولم أجده في المصادر والمراجع التي بين يدي.

(٤) البيت في ديوان الصاحب بن عباد، وهما بيتان منفردان.

الوزير المغربي^(١): [الخفيف]

أَيُّ شَيْءٍ يَكُونُ أَقْبَحَ مَرَأًى مِنْ صَدِيقٍ يَكُونُ ذَا وَجْهِينِ
مِنْ وَرَائِي يَكُونُ مِثْلَ عَدُوِّي وَإِذَا يَلْقَنِي يَقْبَلُ عَيْنِي

ابن المعتز^(٢): [الطويل]

أَخْ لِي يَعْطِينِي الرِّضَا فِي حُضُورِهِ وَيَمْنَعُنِي بَعْضَ الرِّضَا وَهُوَ بَائِنُ
إِذَا مَا التَّقِينَا سَرْنِي مِنْهُ ظَاهِر وَإِنْ غَابَ عَنِّي سَاءَ نِي مِنْهُ بَاطِنُ
عَلَى غَيْرِ ذَنْبٍ غَيْرَ أَنْ مَسَاوِيًّا لَهُ عَلَّمْتَنِي كَيْفَ تَأْتِي الْمَحَاسِنُ
وَلِبَعْضِهِمْ يَهْجُو: [الطويل]

صَدِيقُكَ لَا يُثْنِي عَلَيْكَ بِطَائِلٍ فَمَاذَا بِهِ عَنْكَ الْعَدُوُّ يَقُولُ
وَحَسْبُكَ مِنْ لُؤْمٍ وَخَبْثِ طَوِيَّةٍ بِأَنَّكَ عَنْ غَيْبِ الصَّدِيقِ سَوُولُ
آخِر: [الطويل]

يُضَاحِكُنِي فَوْهَ إِذَا مَا لَقِيْتَهُ وَيُرْشِقُنِي إِنْ غَبَتْ عَنْهُ بِأَسْهَمِ
وَكَمْ مِنْ صَدِيقٍ وَدَّهَ فِي لِسَانِهِ وَفِي قَلْبِهِ إِنْ غَبَتْ صَابَ وَعَلَقَمِ
آخِر: [الكامل]

لِي صَاحِبٌ جَعَلَ الْمَسَاوِيَّ دَابَّهَ تَصْوِيرَ مَعْنَاهَا وَصِيغَةَ لَفْظِهَا
فَكَأَنَّهُ مَلِكُ الشَّمَالِ مُوَكَّلُ أَبَدًا بِكُتُبِ السَّيِّئَاتِ وَحَفْظِهَا
آخِر: [الطويل]

وَمَا صَاحِبِي عِنْدَ الرِّخَاءِ بِصَاحِبٍ إِذَا لَمْ يَكُنْ عِنْدَ الْأُمُورِ الصَّعَائِبِ
إِذَا مَا رَأَى وَجْهِي فَأَهْلًا وَمَرْحَبًا وَيَرْمِي وَرَائِي بِالسَّهَامِ الْقَوَاضِبِ
آخِر^(٣): [الطويل]

إِذَا انْتَقَدَ النَّاسُ الْكِرَامَ رَأَيْتَهُمْ يَطْتُونَا طَنِينَ الزَّيْفِ فِي كَفِّ نَاقِدِ

(١) البيتان في ديوان الوزير المغربي، وهما بيتان منفردان.

(٢) الأبيات ليست في ديوان ابن المعتز، ولم أجدها في المصادر والمراجع التي بين يدي.

(٣) البيت بلا نسبة في الحماسة البصرية، للبصري، ص ٧٨٩.

كُثِيرَ عَزَّةٌ^(١): [الخفيف]

أنت في معشرٍ إذا غبت عنهم بدّلوا كلّ ما يزينك شينا
وإذا ما رأوك قالوا جميعاً أنت من أكرم الرجال علينا
ولله درّ من قال^(٢): [البسيط]

شرّ السّباع الضّواري كونه وزراً والناس شرّهم ما دونه وزر
كم معشر سلّموا لم يؤذهم سبع وما ترى بشراً لم يؤذه بشر

ومما يرغب الوحيد في انفراده
حسد أهل الصّفوة من وداده

الحسد داء دويّ، وخلق رديّ، يدلّ على فساد الدّين، وقلة اليقين، وما زال صاحبه حليف هموم، وأليف غموم، وظالمًا في زيّ مظلوم، وأيّ خيرٍ عند من جُبِلَتْ على الحقد طباعه، وحنيت على الغلّ أضلاعه، وأمر بالاستعاذة بالله من شرّه، وحضّ على الاحتراس من ضرّه. قيل لعبد الله بن عبدة: كيف لزمت البدو وتركت قومك؟ قال: وهل بقي في الناس إلّا من إذا رأى نعمة بهت، وإذا رأى عثرة شمت؛ ثم أنشد: [البسيط]

عينُ الحسود إليك الدّهر ناظرة تُبْدي المساوىء والإحسان تُخفيه
يلقّاك بالبشر يبديه مكاشرة والقلب ملتئم فيه الذي فيه

وقال معاوية بن أبي سفيان: كل الناس قادر أن أرضيه إلّا حاسد نعمة لا يرضيه إلّا زوالها. وقالوا: الحسد داء يفعل في الحاسد أكثر من فعله في المحسود. نظم هذه الكلمات محمود الوزاق، فقال^(٣): [الكامل]

أعطيت كل الناس من نفسي الرّضا إلّا الحسود فإنّه أعياني

(١) البيتان في ديوان كثير عزة، من قصيدة مطلعها:

خير إخوانك المشارك في الأمر بر وأين الشريك في الأمر أيننا

(٢) البيتان لأبي سليمان الخطابي (أحمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب) في معجم الأدباء، لياقوت الحموي، في ترجمته.

(٣) الأبيات في ديوان محمود الوزاق، والبيت الأول مطلع القصيدة.

لا أن لي ذنباً إليه عَلِمْتَهُ إلا تظاهر نعمة الرحمن
يطوي على حسدٍ حشاه لأن يرى من حال مالي أو لفضل بياني
ما إن أرى يرضيه إلا ذلّني وذهب أموالِي وقطع لساني
ونظمه آخر، فقال: [البسيط]

قل للذي بات محسوداً على نعمٍ دَعِ الحسود فقد قطعته قطعاً
لو كنت تملك ما يريد منك لما صنعت معه كمعشار الذي صنعا

وقال بعض البلغاء: الحسد شؤم، واعتباره لؤم، يقضي الأشباح، ويُضْني الأرواح، ويورث الأرق، ويحدث القلق، ويكدر غدران رفاهية العيش، ويُسْعل نيران السّفاهة والطّيش، وأنّ الحسود مجروح في جلده، متألم مظلوم في برده، ظالم معارض لله في مشيئته، معترضٌ عليه في قضيّته، يعيش محروماً وببيت مغموماً، مدفوعٌ في الدنيا إلى الكرب والتلف، وممنوعٌ في العُقبى من القُرْبى والزلف، لا تعمل شُغلة القابس في الحطب اليابس. ما يعملُه الحسد بجسد صاحبه، وبدن راكمه، يشرب دمه، ويأكل لحمه، ويمشمس عظمه، ويجعله معرّضاً للكروب، ومُبْعَضاً إلى القلوب؛ فجدير بالإنسان أن يفرّ من الحسد، فوق فراره من الأسد.

وقالوا: أسد يؤاتيك خيرٌ من حسود يراقبك. وقال بعض السلف: إذا أراد الله أن يسلط على عبده مَنْ لا يرحمه سلط عليه حاسداً يحسده. وقال أردشير: كلّ خلّة رديئة فهي دون الحسد؛ لأنّ الحاسد يسعى بمن أحسن إليه، ويتمنّى الغوائل لمن أنعم عليه. أبو الطيّب المتنبّي^(١): [الطويل]

يريد بك الحساد ما الله دافع وسُمر العوالي والحديد المدرّب

وله^(٢): [الطويل]

وأظلم خلق الله مَنْ كان حاسداً لِمَنْ بات في نعمائه يتقلّب

(١) البيت في ديوان المتنبّي، من قصيدة مطلعها:

أغالب فيك الشوق والشوق أغلب وأعجب من ذا الهجر والوصل أعجب

(٢) البيت في ديوان المتنبّي، من القصيدة نفسها المتقدمة.

وله^(١): [الطويل]

سوى وجع الحساد داوٍ فإنّه إذا حلّ في قلبٍ فليس يحُولُ
فلا تطمعن من حاسدٍ في مودةٍ وإن كنت تبديها له وتهيلُ

وقال ابن المعتز: الحاسد مُغتَاطٌ على مَنْ لا ذنب له، ويبخل بما لا يملكه،
ويطلب ما لا يجده. وقال حكيم: الحسد يُبْدي نقص الحاسد، ويدلّ على كمال
المحسود. وما أحسن قول المعافى بن زكريّا النهرواني^(٢): [المتقارب]

ألا قل لمن كان لي حاسداً أتدري على مَنْ أسأت الأدب
أسأت على الله في فعله لأنك لم تَرْضَ لي ما وهب
فجازاك عنه بأن زادني وسدّ عليك وجوه الطلّب
أبو فراس^(٣): [الطويل]

لمن جاهد الحساد أجر المجاهد وأعجز ما حاولت إرضاء حاسدٍ
ولم أرَ مثل اليوم أكثر حاسداً كأنّ قلوب الناس لي قلب واحدٍ

وقالوا: لا تندمل من الحسود جراحه حتى ينقص من المحسود جناحه.
وقالوا: حَسِبَ الحسود ما يَلْقَى مِنْ صغر الهمة في حزنه لسرور صاحب النعمة.
وقالوا: من عادات الأغبياء مُعاداة الأغنياء. وقال عبد الله بن مسعود: لا تعادوا
نعم الله، قيل له: ومن يُعادي نعم الله؟ قال: الذين يحسدون الناس على ما آتاهم
الله من فضله، يقول الله تعالى في بعض الكتب المنزلة: الحسود عدوّ نعمتي،
ومتسخط لقضائي، غير راضٍ بنعمتي. ولم أسمع بأحسد من حمزة بن بيض في
قوله وقد مرّ بواٍ مملوء بلاً وشاء وزرعاً ورعاء: [الكامل]

الزّارعون وليس لي زرع بها والحالبون وليس لي ما أحلبُ
فلعلّ ذاك الزّرع يُؤذي أهله ولعلّ ذاك الشّاء يوماً تجربُ
ولعلّ طاعوناً يُصيب علوجها ويصيب ساكنها الزّمان فتخربُ

(١) البيتان في ديوان المتنبّي، من قصيدة مطلعها:

لياليّ بعد الظّاعنين شكول طوال وليل العاشقين طويلُ

(٢) البيتان الأول والثاني لمنصور بن إسماعيل الفقيه في ديوانه، وهما بيتان مفردان.

(٣) البيتان في ديوان أبي فراس الحمداني، والبيت الأول مطلع القصيدة.

قال المرزباني صاحب الاتفاق: فلم يكن إلا أيام قلائل حتى أصابهم جميع ما تمنى لهم. وأظرف من هذا ما حكى أن ثلاثة من الحساد اجتمعوا، قال أحدهم لأحد صاحبيه: ما بلغ من حسدك؟ قال: ما اشتيت أن أفعل بأحد خيراً قطً لئلا أرى أثر ذلك عليه، فقال له: أنت رجل صالح لكني ما اشتيت أن يفعل بأحد خيراً قطً لئلا تشير الأصابع بالشكر إليه، فقال الثالث: ما في الأرض خير منكما لكني ما اشتيت أن يفعل بي أحد خيراً قطً، قالاً: ولم؟ قال: لأنني أحسد نفسي على ذلك، فقال له: أنت ألمانا حسداً، وأكثرنا حسداً. وقالوا: الحسود عدوُّ مُهين لا يُذكر وتره إلا بالتمني. شاعر: [الكامل]

إِيَّاكَ وَالْحَسَدَ الَّذِي هُوَ آفَةٌ فَتَوَقَّهْ وَتَوَقَّ غَرَّةَ مَنْ حَسَدَ
إِنَّ الْحَسَدَ وَإِنْ أَرَاكَ مَوْدَّةً بِالْقَوْلِ فَهُوَ لَكَ الْعَدُوُّ الْمَجْتَهَدُ

وقال علي رضي الله عنه: لله در الحسد ما أَعْدَلَهُ، بدأ بصاحبه فقتله. وقيل للعتابي في مرض أصابه: ما تشتهي؟ قال: أكباد الحساد وأعين الرقباء وألسن الوشاة. وقال بعضهم لولده: إِيَّاكَ وَالْحَسَدَ، فإنه يبين عليك ولا يبين على عدوك. وكان يقال: الحريص محروم، والبخيل مذموم، والحاسد مغموم. ذم أبو بكر الخوارزمي حاسداً، فقال: وأما فلان فمعجون من طينة الحسد والمنافسة، ومضروب في قالب الضيق والمناقشة، يحمي من رزق الله مباحاً ويحرم ما ليس فيه جناحاً، ويتحجر من رحمته جماً واسعاً ويغار على البحر ممن يسبح فيه، وعلى البدر ممن يستضيء به وعلى الشمس ممن طلعت عليه وعلى نسيم الهواء ممن وصل إليه لو ملك السماء لنهاها عن الأمطار، ولو أطاعته الأرض لمنعها من تغذية النبات والأشجار، ولو سخرت له الأشجار لحال بينها وبين الأثمار، كأن كل رغيف يعطى من قوته وقوت عياله، وكأن كل درهم يُنفق من ماله ومال أطفاله، على أنه يبخل على نفسه بالهواء، ويُحاسب أعضائه على الغداء والعشاء. وقال شاعر^(١): [السريع]

لَا مَاتَ حُسَادُكَ بَلْ خُلِدُوا حَتَّى يَرَوْا مِنْكَ الَّذِي يَكْمُدُ
وَلَا خَلَكَ الدَّهْرُ مِنْ حَاسِدٍ فَلِإِنَّ خَيْرَ النَّاسِ مَنْ يَحْسَدُ

(١) البيتان بلا نسبة في حماسة الظرفاء، للعبدلكاني الزوزني، ص ٢٣٢.

أبو تمام^(١): [البسيط]

أن يحسدوني فإنني لا ألومهم
فدام لي ولهم ما بي وبهم
وله^(٢): [الكامل]

وإذا أراد الله نشر فضيلة
لولا اشتغال النار فيما جاورت
والمشهور^(٣): [الكامل]

حسدوا الفتى إذ لم ينالوا سغيه
كضرائر الحسناء قلن لوجهها
ابن المعتز^(٤): [الطويل]

ومن عجب الأيام بغى معاشر
يغيظهم فضلي عليهم ونقصهم
آخر: [البسيط]

إني حسدت فزاد الله في حسدي
لا يحسد المرء إلا من فضائله
لا عاش من كان يوماً غير محسود
بالعلم والحلم أو بالفضل والجود

ومما يؤمر الكريم باجتنابه جائز سوء ملاصق لجنابه

عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ كان يقول: «أعوذ بالله من جار سوء في دار مقامه، فإنَّ البادي يتحوّل»^(٥). وكان عمر رضي الله عنه يقول:

(١) البيتان ليسا في ديوان أبي تمام، وهما لبشار بن برد في ديوانه، والبيت الأول مطلع القصيدة، وللكميت بن معروف الأسدي في ديوانه.

(٢) البيتان في ديوان أبي تمام، من قصيدة مطلعها:

أرأيت أي سوافٍ وخدودٍ
غثت لنا بين اللوى فزروِدٍ

(٣) البيتان لأبي الأسود الدؤلي في ديوانه، والبيت الأول مطلع القصيدة.

(٤) البيتان في ديوان ابن المعتز، من قصيدة مطلعها:

ألا عللاني قبل أن يأتي الموتُ
ويُبني لجثمانِي بدار البلى بيتُ

(٥) الحديث لم أجده بهذا اللفظ في كتب الحديث التي بين يدي.

ثلاث كلهن فواقر: صديقٌ إنْ أسديت إليه عارفة لم يشكرها، وإنْ سمع كلمة لم يغفرها، وجارٌ إنْ رأى حسنة أخفاها، وإنْ عثر على سيئة أفشاها، وامرأة إنْ أقمت عندها آذتك، وإنْ غُبْتُ عنها خائنك. وكان يقال: من جهد البلاء جار سوء معك في دار مقامة، يلبس لك من البغضاء لامة، لا ينجع فيه عتب ولا يرعوي لملامة. ومن دعاء الأعمش: اللهم إني أعوذ بك من جار تراني عيناه وترعاني أذناه، إنْ رأى خيراً دفنه، وإنْ سمع شراً أعلنه. وقال لقمان لابنه: يا بني حملت الحجارة والحديد فلم أر شيئاً أثقل من جار سوء في دار مقامة. شاعر، وقد عرض داره للبيع كراهة في جاره: [الوافر]

ألا مَنْ يشتري داراً برخص كراهة بعض جيرتها تُباع
ولآخر^(١): [الطويل]

يلومونني إنْ بعت بالرخص منزلي ولم يعلموا جازاً هناك ينغص
فقلت لهم كفوا الملام فإنما بجيرتها تغلو الديار وترخص

وقال رجل لسعيد بن العاص: والله إني لا أحبك، قال: ولم لا تحبني ولست لي بجارٍ ولا ابن عم! ويقال في التوراة: أحسد الناس للعالم وأبغاهم عليه أقاربه وجيرانه. وقالوا: ألام الناس سعيد لا تسعد به جيرانه، ولا تسلم منه إخوانه. استعرض أبو مسلم الخراساني فرساً أهدي له، فقال لأصحابه: لم يصلح هذا؛ فكلّ قال شيئاً، فبعضهم قال: لأن ينفي به العار بأخذ الوتر والثأر، وآخر يقول: يصلح لمنازلة الأقيال، ومناضلة الأبطال، وآخر يقول: يُصان عن أن يذال بالأحداق ليوم يُحرز به قصب السباق، فقال أبو مسلم: كلّكم أخطأت إسته الحفرة، وزاف نقده عند الامتحان والخبرة، فقالوا: ولماذا يصلح أيها الأمير؟ فقال: لمن يجد في الهرب والفرار من جارٍ سوء يعدم بمساكنته السكون والفرار. وقيل لأبي الأسود الدؤلي: لم يَغْت دارك؟ فقال: ما بعت داري، وإنما بعت جوارِي. أنشدني أفضل الأمثال، وأنبل الأفاضل، وذو العلم والعلم، واللسان والقلم، إنسان عين الأعيان، وزين أرباب البيان، الأمير ناصر الدين حسن، عُرِف بابن التقيب الكناني لنفسه يذم جاراً له: [مجزوء الرمل]

لي جارٌ شخصه إكسير أوصاف المعايب

(١) البيتان بلا نسبة في المحاضرات في الأدب واللغة، لليوسي، ص ٥٢٧.

حسد الجيرة فيه وعداوات الأقارب
ليته لم يعنني لم يكن عون النوائب

الفصل الثالث من الباب السادس عشر

فيما نختم به الكتاب من دعاء نرجو أن يسمع ويُجاب

قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَا يَعْبُؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾ [الفرقان: الآية ٧٧]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: الآية ١٨٦]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: الآية ٦٠]، وقال رسول الله ﷺ: «الدعاء معُ العبادة»^(١)، وقال عليه الصلاة والسلام: «استقبلوا أمواج البلاء بالدعاء»^(٢)، وقال عليه الصلاة والسلام: «إن الدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل، فعليكم عباد الله بالدعاء»^(٣).

ولما كان الدعاء في الفضيلة بهذه المثابة استحب لمن وضع كتاباً أن يختم به كما بدأ بالتحميد كتابه، فاستخرت الله تعالى، وانتخبت من الأدعية التي صدرت عن صدور أهل الإنابة، وروّت نفوس العباد منهل الإجابة، وحذفت خوف التطويل أسانيدها، ليسهل على الراغب فيها أن يُنديها متى أحب ويعيدها.

وأشرف الأوقات التي يتكفل النّجح فيها بإجابة الدّعاوات أوقات اختارها الله لأداء ما افترض من الصلوات، فإذا أراد امرؤ طلبته فليتضرّع عقيب صلواته، وتلو مناجاته لله بالاستكانة والخضوع، ليرجع من توجهه وعرف القبول منه يضوع، وليقل: اللهم ارزقني موجبات رحمتك، وعزائم مغفرتك، والغنيمة من كل برّ والسلامة من كل إثم، والفوز بالجنة والنجاة من النار، اللهم لا تدع لي ذنباً إلا غفرته، ولا عيبتاً إلا سترته، ولا ضرراً إلا كشفته، ولا سقماً إلا شففته، ولا رزقاً إلا بسطته ولا خوفاً إلا أمنت، ولا سوءاً إلا صرفته، ولا حاجة من حوائج الدنيا والآخرة لك فيها رضا، ولي فيها صلاح إلا قضيتها برحمتك يا أرحم الراحمين.

(١) أخرجه الترمذي حديث ٣٣٧١، والزبيدي في إتحاف السادة المتقين ٢/٢٨٤، ٢٩/٥، والمتقي الهندي في كنز العمال ٣١١٤.

(٢) أخرجه المنذري في الترهيب والترهيب ٥٢٠/١.

(٣) أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/١٤٦، وابن حجر في فتح الباري ١١/٩٥، والمتقي الهندي في كنز العمال ٣١٥٢، والعجلوني في كشف الخفاء.

اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ دُنْيَا تَمْنَعُ خَيْرَ الْآخِرَةِ، وَمِنْ عَاجِلٍ يَمْنَعُ خَيْرَ الْآجِلِ،
وَمِنْ حَيَاةٍ تَمْنَعُ خَيْرَ الْمَمَاتِ، وَمِنْ أَمَلٍ يَمْنَعُ خَيْرَ الْعَمَلِ، وَأَسْأَلُكَ الظَّفَرَ وَالسَّلَامَةَ
وَدُخُولَ دَارِ الْمَقَامَةِ.

اللَّهُمَّ لَا تَحْرِمْنِي سَعَةً مَغْفِرَتِكَ وَسَبُوحَ نِعْمَتِكَ وَشُمُولَ عَافِيَتِكَ وَجَزِيلَ
عَطَائِكَ وَمَنْحَ مَوَاهِبِكَ لِسُوءِ مَا عِنْدِي، وَلَا تَخْذِلْنِي بِقَبِيحِ عَمَلِي وَلَا تَصْرِفْ
وَجْهَكَ الْكَرِيمَ عَنِّي.

اللَّهُمَّ لَا تَحْرِمْنِي وَأَنَا أَدْعُوكَ، وَلَا تَخَيِّبْنِي وَأَنَا أَرْجُوكَ. اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَمْحُو مَا
تَشَاءُ وَتُثَبِّتُ، وَعِنْدَكَ أَمُّ الْكِتَابِ. اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ كَتَبْتَنِي عِنْدَكَ فِي أَمِّ الْكِتَابِ شَقِيًّا
مَحْرُومًا مَقْتَرًا عَلَيَّ فِي الرِّزْقِ فَامْحُ مِنْ أَمِّ الْكِتَابِ شِقَائِي وَإِقْتَارَ رِزْقِي، وَأَثْبِتْنِي
عِنْدَكَ سَعِيدًا مَرْزُوقًا، فَإِنَّكَ تَمْحُو مَا تَشَاءُ وَتُثَبِّتُ وَعِنْدَكَ أَمُّ الْكِتَابِ.

اللَّهُمَّ هَذَا مَقَامُ اللَّائِذِ بِجَنَابِكَ، الْعَائِذُ بِكَ مِنَ النَّارِ، يَا فَارِجَ الْهَمِّ، يَا كَاشِفَ
الْغَمِّ، يَا مُجِيبَ دَعْوَةِ الْمُضْطَرِّ يَا رَحْمَنَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَرَحِيمَهُمَا اِرْحَمْنِي رَحْمَةً
تُغْنِيَنِي بِهَا عَمَّنْ سِوَاكَ. اللَّهُمَّ إِنِّي أَدْعُوكَ بِمَا دَعَاكَ بِهِ عَبْدُكَ ذُو الثُّنُونِ إِذْ ذَهَبَ
مَغَاضِبًا، فَظَنَّ أَنَّ لَنْ تَقْدَرَ عَلَيْهِ، فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ
إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ، فَاسْتَجَبْتَ لَهُ وَنَجَّيْتَهُ مِنَ ظُلُمَاتِ ثَلَاثَةِ: ظُلْمَةِ الْخَطِيئَةِ
وِظْلُمَةِ الْبَحْرِ وَظُلْمَةِ بَطْنِ الْحَوْتِ، فَإِنَّهُ دَعَاكَ وَهُوَ عَبْدُكَ وَسَأَلَكَ وَهُوَ عَبْدُكَ، وَأَنَا
أَسْأَلُكَ وَأَنَا عَبْدُكَ وَأَدْعُوكَ وَأَنَا عَبْدُكَ أَنْ تَصَلِّيَ عَلَيَّ سَيِّدَنَا مُحَمَّدَ وَعَلَى آلِ سَيِّدِنَا
مُحَمَّدٍ، وَأَنْ تَسْتَجِيبَ لِي كَمَا اسْتَجَبْتَ لَهُ، وَأَدْعُوكَ بِمَا دَعَاكَ بِهِ عَبْدُكَ أَيُّوبَ إِذْ
قَالَ: مَسَّنِيَ الضَّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ، فَاسْتَجَبْتَ لَهُ وَكَشَفْتَ مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَأَتَيْتَهُ
أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِكَ، فَإِنَّهُ دَعَاكَ وَهُوَ عَبْدُكَ وَسَأَلَكَ وَهُوَ عَبْدُكَ،
وَأَنَا أَسْأَلُكَ وَأَنَا عَبْدُكَ وَأَدْعُوكَ وَأَنَا عَبْدُكَ أَنْ تَصَلِّيَ عَلَيَّ سَيِّدَنَا مُحَمَّدَ وَعَلَى آلِ
سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَأَنْ تَفْرَجَ عَنِّي كَمَا فَرَجْتَ عَنْهُ، وَأَنْ تَسْتَجِيبَ لِي كَمَا اسْتَجَبْتَ لَهُ
إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ.

اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ نَفْسٍ لَا تَشْبَعُ، وَقَلْبٍ لَا يَخْشَعُ، وَعِلْمٍ لَا يَنْفَعُ،
وَدَعَاءٍ لَا يَسْمَعُ، وَعَيْنٍ لَا تَدْمَعُ، وَصَلَاةٍ لَا تُرْفَعُ. اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ فِي صَلَاتِي
وَفِي دُعَائِي بَرَاءَةَ تَطْهِّرُ بَهَا قَلْبِي وَتُؤْمِنُ بَهَا رُوحِي، وَتَكْشِفُ بَهَا كُرْبِي، وَتَفْرَجُ بَهَا
ذَنْبِي، وَتَصْلَحُ بَهَا أَمْرِي، وَتُغْنِي بَهَا فَقْرِي، وَتَذْهَبُ بَهَا ضَرْيِي، وَتَفْرَجُ بَهَا غَمِّي،

وتسلي بها همي، وتشفي بها سقمي، وتقضي بها ديني، وتجلو بها حزني، وتجمع بها شملي، وتبيض بها وجهي، واجعل ما عندك خيراً لي.

اللهم أصبح ظلمي مستجيراً بعفوك، وذنبي مستجيراً بمغفرتك، وخوفي مُستجيراً بأمنك، وفقرتي مستجيراً بغناك، وضعفي مستجيراً بقوتك، وذلي مستجيراً بعزك، ووجهي الفاني البالي مُستجيراً بوجهك الدائم الباقي. اللهم مقلب القلوب والأبصار ثبت قلبي على دينك، ولا تُزغ قلبي بعد إذ هديتني وهب لي من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب.

اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد واجعلني في حفظك وكلاءتك وودائعك التي لا تضيع واحفظني من كل سوء ومن كل ذي شرّ واحرسني من شرّ الشيطان الرجيم والسلطان المليم إنك أشدّ بأساً وأشدّ تنكيلاً.

اللهم إن كنت مُنزلاً بأساً من بأسك أو نعمةً من نعمك على أهل معصيتك بيئاتاً وهم نائمون أو ضحى وهم يلعبون، فصل على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد، واجعلني وأهلي في كنفك ومنعك وحزرك. اللهم إن هذين الليل والنهار خلقان من خلقك، فاعصمني فيهما بحولك وقوتك ولا ترهما مني جراءة على معصيتك، ولا ركوناً إلى مخالفتك، واجعل عملي فيهما مقبولاً وسعيي مشكوراً وسهّل لي ما أخاف عسره، وصعب عليّ أمره واقض لي فيهما الحُسنى وأمني مكرّك، ولا تهتك عني سترك ولا تُنسيني ذكرك. اللهم صلّ وسلّم على سيدنا محمد وآله وافتح مسامع قلبي لذكرك حتى أعبي وحيك وأتبع كتابك وأصدق رسلك وأومن بوعدك وأخاف وعيدك وأوفي بعهدك وأخذ بأمرك ولا أجترئ على نهيك. اللهم إني أستودعك نفسي وديني ومالي وأهلي وكلّ نعمة أنعمت بها عليّ، فاجعلني اللهم في كنفك وأمنك وكفايتك وكلاءتك وحفظك ورعايتك ووديعتك، يا مَنْ لا تضيع ودائعه ولا يخيب سائله ولا ينفد ما عنده.

اللهم إني أدرأ بك في نحور أعدائي وكَيْد مَنْ كادني وبغى عليّ. اللهم إني أسألك رحمةً من عندك تهدي بها قلبي وتجمع بها شتات أمري، وتلمّ بها شعبي، وتحفظ بها غائبي، وتصلح بها شاهدي، وتركّي بها عملي، وتلهمني بها رشدي، وتعصمني بها من كل سوء. اللهم وما قصّرت عنه مسألتني، ولم تبلغه أمنيّتي من خير وعدته أحداً من خلقك، فإني أرغب إليك فيه.

اللَّهُمَّ يا أبصر الناظرين، ويا أسمع السامعين، ويا أسرع الحاسبين أغْنِنِي بالعلم، وزِنِنِي بالحلم، وأكرمني بالتقوى، وجَمِّلْنِي بالعافية. اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ حُسْنَ الظَّنِّ بِكَ، والصَّدَقَ فِي التَّوَكُّلِ عَلَيْكَ، وأَعُوذُ بِكَ أَنْ تَبْتَلِيَنِي بِبِلْيَةِ تَحْمَلْنِي ضرورتها على العبث بمعاصيك، وأَعُوذُ بِكَ أَنْ أَقُولَ قَوْلًا حَقًّا مِنْ طَاعَتِكَ أَلْتَمَسَ به سواك، وأَعُوذُ بِكَ أَنْ تَجْعَلَنِي عِبْرَةً لغيري، وأَعُوذُ بِكَ أَنْ يَكُونَ أَحَدٌ أَسْعَدَ بِمَا آتَيْتَنِي مِنِّي، وأَعُوذُ بِكَ أَنْ أَتَكَلَّفَ طَلَبَ مَا لَمْ تَقْسِمْ لِي وَمَا قَسَمْتَ لِي مِنْ قِسْمٍ أَوْ رَزَقْتَنِي فَأَتْنِي بِهِ فِي يَسَرٍّ وَعَافِيَةٍ حَلَالًا طَيِّبًا، وأَعُوذُ بِكَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ يَزْحِزِحُنِي عَنْ بَابِكَ وَيَبَاعِدُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَوْ يَنْقُصُ حَظِّي عِنْدَكَ أَوْ يَصْرِفَ وَجْهَكَ الْكَرِيمَ عَنِّي.

اللَّهُمَّ دَعَاكَ الدَّاعُونَ ودَعْوَتَكَ، وسَأَلَكَ السَّائِلُونَ وسَأَلَتَكَ، وطلبتك الطالبون وطلبتك. اللَّهُمَّ أَنْتَ الثِّقَةُ والرجاء وإِلَيْكَ مُنْتَهَى الرَّغْبَةِ والدَّعَاءِ والشَّدَّةِ والرَّخَاءِ. اللَّهُمَّ وَصَلْ وَسَلِّمْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، واجْعَلِ الْيَقِينَ فِي قَلْبِي والنَّوْرَ فِي بَصْرِي، والنَّصِيحَةَ فِي صَدْرِي، وَذَكْرَكَ عَلَى لِسَانِي. اللَّهُمَّ أَنْتَ الْعَاصِمُ وَالْمَانِعُ، وَالوَاقِي الدِّافِعُ مِنْ كُلِّ سُوءٍ، أَسْأَلُكَ الرِّفَافِيَةَ فِي مَعِيشَتِي بِمَا أَقْوَى بِهِ عَلَى طَاعَتِكَ، وَأُبْلِغُ بِهِ رِضْوَانَكَ وَأَصِيرُ بِهِ مِنْكَ إِلَى دَارِ السَّلَامِ غَدًا. اللَّهُمَّ لَا تَرْزُقْنِي رِزْقًا يَطْغِينِي وَلَا تَبْتَلِيَنِي بِفَقْرٍ يَضْنِيَنِي، وَأَعْطِنِي فِي الْآخِرَةِ حَظًّا وَافِرًا وَفِي الدُّنْيَا مَعَاشًا وَاسِعًا. اللَّهُمَّ إِلَيْكَ مَدَدَتُ يَدِي، وَفِيْمَا عِنْدَكَ عَظُمَتْ رَغْبَتِي، فَاقْبَلْ تَوْبَتِي، وَارْحَمْ ضَعْفَ قُوَّتِي، وَاغْفِرْ خَطِيئَتِي، واجْعَلْ لِي فِي كُلِّ خَيْرٍ نَصِيبًا، وَإِلَى كُلِّ بُرٍّ سَبِيلًا. اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي كُلَّ مَا سَلَفَ مِنْ ذُنُوبِي وَاعْصِمْنِي فِيمَا بَقِيَ مِنْ عَمْرِي وَارْزُقْ عَلَيَّ أَسْبَابَ طَاعَتِكَ وَاسْتَعْلِمْنِي بِهَا وَاصْرِفْ عَنِّي أَسْبَابَ مَعْصِيَتِكَ وَحِلِّ بَيْنِي وَبَيْنَهَا. اللَّهُمَّ أَنْتَ مُتَعَالِي الشَّأْنِ عَظِيمِ الْجَبْرُوتِ شَدِيدِ الْمُحَالِ ذُو الْكِبْرِيَاءِ قَادِرُ قَاهِرُ قَرِيبُ الرَّحْمَةِ سَامِعُ الصَّوْتِ صَادِقُ الْوَعْدِ، وَفِي الْعَهْدِ، مُجِيبُ الْمَضْطَرِ، قَابِلُ التَّوْبِ، مُخَصِّصُ لِمَا خَلَقْتَ، تُذَكِّرُ مَا طَلَبْتَ، شَكُورُ إِنْ شَكَرْتَ، ذَاكِرُ إِنْ ذَكَرْتَ، أَسْأَلُكَ يَا إِلَهِي مُحْتَاجًا، وَأَرْغِبُ إِلَيْكَ فَقِيرًا، وَأَلْجَأُ إِلَيْكَ خَائِفًا، وَأَرْجُوكَ نَاصِرًا، اللَّهُمَّ ضَعِفَتْ فَلَا قُوَّةَ لِي، اللَّهُمَّ جِئْتُكَ مُسْرِفًا عَلَى نَفْسِي مَقْرًا بِسُوءِ عَمَلِي. اللَّهُمَّ خَلَقْتَنِي وَأَمَرْتَنِي وَنَهَيْتَنِي وَرَغَبْتَنِي فِي ثَوَابٍ مَا بِهِ أَمَرْتَنِي، وَرَهَبْتَنِي عِقَابَ مَا عَنْهُ نَهَيْتَنِي، وَجَعَلْتَ لِي عَدُوًّا يَكِيدُنِي وَسُلْطَةً عَلَيَّ فَأَسْكَنْتَهُ صَدْرِي، وَأَجْرِيته مَجْرَى الدَّمِ مِنِّي، لَا يَغْفُلُ إِنْ غَفَلْتُ، وَلَا يَنْسَى إِنْ نَسِيتَ، يُوْمِنُنِي عِقَابَكَ، وَيَخُوفُنِي غَيْرَكَ، إِنْ هَمَمْتُ بِفَاحِشَةٍ شَجَّعْنِي، وَإِنْ أَرَدْتُ صَلَاحًا ثَبَّطْنِي،

ينصب لي حبال الشهوات، إن وعدني كذبي، وإن اتبعت هواه أضلني، إن لم تصرف عني كَيْدَه يسترلني، وإن لم تفلتنني من حباله يصدني، وإن لم تعصمني منه يضلني، اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد، واقهر سلطانه عني بسلطانك عليه، فأفوز مع المعصومين منه.

اللهم لا هادي لمن أضللت، ولا مضل لمن هديت، ولا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا قابض لما بسطت، ولا باسط لما قبضت، ولا مقدّم لما أخرت، ولا مؤخر لما قدّمت. اللهم أنت العليم فلا يجهل، وأنت الحليم فلا يعجل، وأنت الكريم فلا يبخل، وأنت العزيز فلا يذلّ، وأنت المنيع فلا يُرام، وأنت المُجير فلا يُضام، اغفر لي ما قدّمت، وما أخرت وما أسررت وما أعلنت، وما أنت أعلم به مني، أنت المقدّم وأنت المؤخر، وأنت على كلّ شيء قدير وبالإجابة جدير، لا إله إلا أنت.

قال المقيد لشوارد فوائد ما ذكر من الأضداد والمؤلف من غرائبها بين الأشياء والأنداد، وعندما تمّ كتابنا واتسق قمر محاسنه بعد السّرار، وكاد سنا حسنه يعلّق البصائر دون الأبصار، وتفجّرت من خلال سطره ينابيع الحكم وهمّ عابها أن يفهق فينمّ بما كتم، وسفرت ألفاظه عن معانٍ كأحسن ما ينشّق عنه الكمائم، وقامت نفثات بدائع لصريع الهموم مقام الرقيّ والتمائم، تقاضاني بوعدني إياه عند ابتدائه بأن أطلعه باهر العقول أوليائه وأعدائه، فاستخرت الله تعالى الكريم وأمست من عنان القلم في مضمار الإطناب، وقصرت خطوه لعلمي أن السّامة مقرونة بالإكثار والإسهاب، وجلوته في حُلّ فنونه وفاء بعهده، وإنجازاً لما سبق من وعده، ماداً من صحائفه كفاً يسأل بها التغديق، عن سوء التلفيق، ويدراً بها شبهات من يرى أنّ بيده زمام التوفيق، فهو يتصرّف به على حكم اختياره ومراده ويبلغ غاية أمله بجداد سعيه واجتهاده، وإلى الله أبرأ من الحول والقوّة، وسأله أن يزحزحني عن الوقوع في هذه الهوّة، وأن يجعل هذا الكتاب للنفس يعجب ويروق، ويجريه بالمحبة مجرى الدّم في العروق، وأن يُدخلني جنّات يجلّ وصفها وتفوق، إنه من راجيه قريب، ولداعيه سميع مُجيب، آمين.

الفهارس العامّة

- فهرس الآيات القرآنية
- فهرس الأحاديث النبويّة
- فهرس الآثار عن الصحابة والتّابعين
- فهرس القوافي
- فهرس أنصاف وأجزاء الأبيات
- فهرس الأرجاز
- فهرس المحتويات

فهرس الآيات القرآنية

رقم الآية الآية الصفحة

سورة البقرة

٢٥٨	﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا﴾	١٠٢
٢٦٢	﴿تَسْكِنُهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾	١٣٧
٦٠٧	﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾	١٨٦
٤٩٢	﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾	١٩٤
٤٣٥	﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾	١٩٥
٢٢٣	﴿وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا﴾	٢٢١
٥٢٥	﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾	٢٢٩
٣٥٠	﴿وَلَا تَنسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾	٢٣٧
٣٢٤	﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَبْطُلُوا صَدَقَتَكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ﴾	٢٦٤

سورة آل عمران

٣١٠	﴿لَن نَّالُوا إِلَهَ حَتَّىٰ تُفْعَلُوا مِنَّا نُحِبُّونَ﴾	٩٢
١٩٩	﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٩٩﴾﴾	١٠٢
٤٠٥	﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾	١٤٤
١٩٨	﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾	١٥٥
٤٥٢	﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا مِنكُم يَوْمَ التَّنْقِ الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ﴾	١٥٩
١٢١	﴿وَشَاوَرَهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾	١٥٩

رقم الآية	الآية	الصفحة
-----------	-------	--------

سورة النساء

٣	﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾	٢٨٦
٣٦	﴿وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ﴾	٥٧٢
٧١	﴿خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾	٤٣٥

سورة المائدة

٣٣	﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ﴾	٥٣٣
٣٨	﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾	٢٨٦
١٠١	﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبَدَّ لَكُمْ تَسْأَلُكُمْ﴾	٢٦٣
	﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ﴾	٢٦٣

سورة الأعراف

١٤٦	﴿سَاصِرُونَ عَنْ آيَاتِنَا الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾	٨٨
١٩٩	﴿خُذِ الْعَقْرَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾	٢٣
٢٠١	﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾﴾	٥٠١

سورة الأنفال

٦٠	﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾	١٦٧
----	---	-----

سورة التوبة

٣٥-٣٤	﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَخْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لِبَاكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبُطْلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْفُرُونَ الذَّهَبَ	
-------	---	--

رقم الآية	الآية	الصفحة
-----------	-------	--------

وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُخَمَّى
عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتَكُونُ بِهَا جَانَهُمْ وَجُوهُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا
كَزَبْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾

٣٦١

سورة هود

٧٨ ﴿الَّذِينَ يَنْكُرُونَ رَجُلًا رَشِيدًا﴾ ٢٢٧

سورة يوسف

٥ ﴿يَبْنِي لَا نَقْصُصُ رُءُوكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾ ٢٣٤

٨٠ ﴿فَلَنُأْتِيَ الْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِآبِئٍ أَوْ بَخْتِكُمْ اللَّهُ لِي﴾ ٢٢٦

سورة الرعد

١١ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ ٣٠٣

سورة إبراهيم

١٥ ﴿وَأَسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾﴾ ٨٦

﴿وَأَسْتَفْتَحُوا﴾ ٨٦

٢٨ ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَلُوا يَمَعَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَاحْلَوْا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴿٢٨﴾﴾ ١٩٩

٤٢ ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾ ٥٢٢

سورة الحجر

٢١ ﴿وَأَن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾﴾ ٣٧٤

سورة النحل

٩٠ ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ
وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ﴾ ٥٤

٩٨ ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾﴾ ٢٢٦

رقم الآية	الآية	الصفحة
١٠٥	﴿إِنَّمَا يَقْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ (١٠٥)	٦٩
١١٢	﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ (١١٢)	٥١٧
١٢٦	﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾ (١٢٦)	٥٣٠
سورة الإسراء		
٢٩	﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا﴾ (٢٩)	٣٨٧
سورة مريم		
٢٣	﴿بَلَّغْنِي مِنْ قَبْلِ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنَسِيًّا﴾ (٢٣)	٤٨٥
سورة طه		
١١٤	﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ (١١٤)	٤٤٠
سورة الأنبياء		
٧٩	﴿فَفَهَّمْنَهَا سُلَيْمَنُ وَكَلَّمَ ءَادَّ إِنَّا هُمْ أَكْثَرُ الْعِلْمَاءِ﴾ (٧٩)	٢٥٤
سورة النور		
٢٢	﴿وَلْيَعْلَمُوا وَلِيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ (٢٢)	٤٦٧
٣٢	﴿وَأَلْبِسُوا أَلْبَاسَ مَكْرٍ﴾ (٣٢)	٢٢٦
سورة الفرقان		
٦٣	﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ (٦٣)	٤٦٧
٦٧	﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ (٦٧)	٣٨٧

رقم الآية	الآية	الصفحة
٧٧	﴿قُلْ مَا يَمْشُوا يَكُونُ لَوْ لَا دُعَاؤُكُمْ﴾	٦٠٧
سورة الشعراء		
٢١	﴿فَفَزَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾	٥٨٣
١٣٠	﴿وَإِذَا بَطِشْتُمْ بَطِشْتُمْ جَبَارِينَ﴾	١٤٥
سورة النمل		
٢٠	﴿مَالِكٌ لَا أَرَى الْهَدَىٰ أَمِ كَانَ مِنَ الْأَمَّارِينَ﴾	١٥٦
سورة القصص		
٣-١	﴿طَسَمَ ۖ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝ نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَىٰ وَفَزَعُونَهُ بِالْحَقِّ لَقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾	٢٠١
٣٤	﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا﴾	٢٦٤
سورة الأحزاب		
١٦	﴿قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنِ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذَا لَا تُنْعَمُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾	٤٦٢
سورة سبأ		
٣٩	﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾	٣٥٨, ٢٩٩
٣٦٢	﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾	
سورة ص		
٢٠	﴿وَأَنبِئْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلِ الْخِطَابِ﴾	١٩٦
٣٣	﴿رُدُّوْهَا عَلَيَّ﴾	٢٢٦
سورة غافر		
٦٠	﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾	٦٠٧

رقم الآية

الآية

الصفحة

سورة فُصِّلَتْ

- ﴿وَلَا تَسْتَوِی الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعِ بِالَّتِی هِیَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِی یَنْتَکَ ۖ وَبَیْنَهُ عَدَاوَةٌ کَأَنَّهُ وَلِیٌّ حَمِیمٌ ﴿٣٤﴾﴾ ٣٤

٢١

سورة الشّوری

- ﴿وَمَا أَصْبَحَکُمْ مِنْ مُصِیْبَةٍ فِیْمَا کَسَبَتْ أَیْدِیکُمْ وَیَعْفُوا عَنْ کَثِیرٍ ﴿٣٠﴾﴾ ٣٠
- ﴿وَإِذَا مَا عَضِبُوا هُمْ یَغْفِرُونَ﴾ ٣٧
- ﴿وَلَمَنِ أَنْصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِکَ مَا عَلَیْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ ﴿٤١﴾﴾ ٤١

٤٢٦

٥٠١

٤٩٢

سورة الزّخرف

- ﴿أَوَمَنْ يُنَشِّئُوا فِی الْحَلِیَةِ وَهُوَ فِی الْخِصَامِ غَیْرُ مُبِینٍ ﴿١٨﴾﴾ ١٨
- ﴿أَمْ أَنَا خَیْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِی هُوَ مَهِیْنٌ وَلَا یُکَادُ یُبِینُ ﴿٥٢﴾﴾ ٥٢

٢١٣

٢١٣

سورة الأحقاف

- ﴿فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَیْءٍ﴾ ٢٦

١٧٢

سورة الحُجرات

- ﴿يَٰأَيُّهَا الَّذِینَ ءَامَنُوا لَا یَسْخَرَنَّ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ یَكُونُوا خَیْرًا مِنْهُمْ وَلَا یَسَاءَ ۖ مِنْ نِسَاءٍ عَسَىٰ أَنْ یَكُنَّ خَیْرًا مِنْهُنَّ﴾ ١١
- ﴿وَلَا یَغْتَبِ بَعْضُکُمْ بَعْضًا أَحِبُّ أَحَدُکُمْ أَنْ یَأْکُلَ لَحْمَ أَخِیهِ مِیْتًا فَکَرِهْتُمُوهُ﴾ ١٢

٢٩٢

٥٩٨

سورة ق

- ﴿إِنَّ فِی ذَٰلِکَ لَیْذِکْرٍ لِّمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِیدٌ ﴿٢٧﴾﴾ ٣٧

١٠٨

سورة الرّحمن

- ﴿الرَّحْمَنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿٢﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴿٤﴾﴾ ٤-١

١٨٣

رقم الآية	الآية	الصفحة
	سورة الحديد	
٢٢	﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا﴾	٤٢٦
	سورة الحشر	
٩	﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾	٢٩٩
	سورة الجمعة	
٨	﴿قُلْ إِنْ أَمُوتَ أَلَدَىٰ نَفْرُوتٍ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلْقِيكُمْ﴾	٤٤٧
	سورة المنافقون	
٤	﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعُدُوتُ﴾	٤٦٠
	سورة القلم	
٤	﴿وَلَنْكَ لَعَلَّ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿١﴾﴾	٢٣
١١	﴿هَمَزٌ مَشَامٌ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾﴾	٦٧
	سورة الحاقة	
٢٧	﴿بَلَّغْنَاهَا كَاتِبَ الْقَاضِيَةِ ﴿٢٧﴾﴾	٢٢٢
	سورة الكوثر	
١	﴿إِنَّا أَنْطَقْنَاهُ الْكَوْثَرَ ﴿١﴾﴾	٢٧٢
	سورة الكافرون	
١	﴿قُلْ يَتَّخِذُ الْكَافِرُونَ ﴿١﴾﴾	٢٢٧
	سورة الإخلاص	
١	﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾﴾	٢٢٧

فهرس الأحاديث النبوية

باب الألف

آفة الجود السرف: ٣٥٤.

أبغضكم إليَّ الثنارون المتفهبون: ٢٠٢.

أتني رسول الله ﷺ بمال من البحرين: ٣٠٨.

أحبَّ العباد إلى الله الأتقياء الأحياء: ٥٨٣.

أحبَّ العباد إلى الله من حُبِّ إليه المعروف: ٢٩٨.

أحسنهما عقلًا: ١١٠.

الأحمق أبغض الخلق إلى الله تعالى: ١٥٣.

ادروا الحدود بالشبهاة: ٥٢٦.

إذا جمع الله الأولين والآخرين رُفِعَ لكل غادر لواء، وقيل: هذه غدره فلان: ٧٨.

إذا قلت فأوجز، فإذا بلغت حاجتك فلا تتكلف: ٢٣٠.

أربعة من كُنَّ فيه فهو مُنافق: ٧٢.

استحيوا من الله حقَّ الحياء: ٢٩.

استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان: ٢٣٤.

استقبلوا أمواج البلاء بالدعاء: ٦٠٧.

اضمنوا لي شيئًا أضمن لكم الجنة: ٢٦.

أطلعت على الجنة فرأيت أكثر أهلها البُله: ٢٩٣.

أغتنى الناس على الله، وأبغض الناس إلى الله: ٨١.

أعلى أصحابي وأهلك أعدائي: ٢٧.

أعوذ بالله من جار السوء في دار مقامه، فإن البادي يتحوَّل: ٦٠٥.

أغبتوا في زيارة المريض: ٥٦٢.

أقسم الله بعزته وعظمته وجلاله لا يدخل الجنة شحيح ولا بخيل: ٣٦٢.

أقول لكم كما قال أخي يوسف: لا تشرِبَ عليكم اليوم يغفر الله لكم، وهو أرحم الراحمين، اذهبوا فأنتم الطلقاء: ٤٧٦.

أقبلوا ذري المروءات عثراتهم: ٥٣٠.

أقيموا الحدود في السفر والحضر: ٥٢٥.

أكثرُوا من الإخوان، فإن الله حبيي كريم: ٥٣٤.

ألا أدلكم على خير أخلاق أهل الدنيا: ٢٣.

ألم تعاهدني على أن لا تُعين عليَّ بقول ولا فعل؟: ٤٩٣.

أنا سيّد ولد آدم، ومن دونه تحت لوائي: ٥١.

أنت سألِم ما سكنت، فإذا تكلمت فلك أو عليك: ٢٣٢.

أنفق بلال ولا تخش من ذي العرش إقلالًا: ٣٥٨.

إنَّ الله حرّم من المسلم دينه وعرضه وأن يُظنَّ به السوء: ٥٩٨.

إنَّ الله رحيم يحب من عباده الرّحماء: ٥٠٥.

إنَّ الله لا يسمع دعاء ملحونًا: ٢٢٢.

إنَّ الله لا يقبل عملاً فيه مثقال ذرّة من رياء: ٦٠.

إنكم لتكثرُونَ عند الفزع وتقلُونَ عند الطمع: ٤٠٦.

إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد وأجلس كما يجلس العبد: ٥١.

إنما الزاهد في الدنيا مَنْ يكون بما في يد الله أغنى منك بما في يدك: ١٤١.

أوجب الحق طلحة: ٤٥٣.

إياكم والامتنان بالمعروف، فإنه يُبطل الشكر ويمحق الأجر: ٣٢٤.

إياكم والشُّعْ، فإنه دعا مَنْ كان قبلكم فسفكوا دماءهم...: ٣٦٢.

أيما رجل آتاه الله مالا وسلطانا جمالا...: ٢٩٤.

أيها الناس إن لكم معالم فانتبهوا إلى معالمكم...: ١٩٨.

باب الباء

بُعِثْتُ لأَتُمِّمَ مكارم الأخلاق: ٢٣.

باب التاء

تجاوزوا عن ذنب السُّخِي...: ٢٩٨.

تهادوا تحابوا وتذهب الشُّحْناء: ٥٦٥.

تهادوا فإن الهدية تذهب وَغَر الصدر: ٥٦٥.

باب الجيم

الجنة مائة درجة، تسعة وتسعون منها لأهل العقل، وواحدة لسائر الناس: ١١٠.

الجود من جود الله...: ٢٩٨.

باب الحاء

حبك الشيء يُعِمِّي ويُصِمِّم: ١١٧.

حدُّ يُقام في الأرض خير لأهلها من مطر أربعين صباحا: ٥٢٦.

إنَّ الله يحاسب كل امرئ على مدار عقله: ١٧٢.

إنَّ الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده، ويكره البؤس والتباؤس: ٥٤.

إنَّ حقا على الله أن لا يرفع شيئا من هذه الدنيا إلا وضعه، ولا يضع شيئا إلا رفعه: ١٠٤.

إنَّ الخُلُق السيِّء يُفْسِد العمل كما يُفْسِد الخَلَّ العسل: ٦٥.

إن الدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل، فعليكم عباد الله بالدعاء: ٦٠٧.

إنَّ ذا الوجهين لا يكون عند الله، وجيها: ٥٦.

إنَّ السعادة لتلحظ الحجر فيدعى ربًّا: ١٨١.

إنَّ سوء الخُلُق زمام من عذاب الله في أنف صاحبه...: ٦٥.

إنَّ شعيبا خطيب الأنبياء: ١٩٦.

إنَّ الصدق يهدي إلى البرِّ، والبرُّ يهدي إلى الجنة...: ٦٩.

إنَّ العفو لا يزيد العبد إلا عزًّا...: ٤٦٧.

إنَّ العفو لَمَكْرُمة ما مثلها مَكْرُمة، ولكن لا يُلْدَغ مؤمن من جُحْر مرتين: ٤٩٣.

إنَّ لكل شيء خُلُقًا، وخُلُق هذا الدِّين الحياء: ٢٩.

إنَّ لله في كل يوم ثلاثمائة وستين لحظة يقضي في كل لحظة ثلاثمائة وستين قضية: ٥٢٣.

إن المسلم إذا عاد أخاه المسلم لم يزل في حديقة الجنة حتى يرجع: ٥٦١.

إنَّ مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى: إذا لم تستح فاصنع ما شئت: ٧٥.

إن من البيان لسحرا: ١٨٣.

إنَّ من الشعر لحكما، وإن من البيان لسحرا: ١٩٧.

باب العين

عدل ساعة خير من عبادة ستين سنة : ٤٨.

العقل في القلب يفرق بين الحق والباطل :
١٠٩.

عليك بالحياء والأثقة... : ٢٩.

عليك بالرفق فإن الرفق لا يُخالط شيئاً إلا
زائنه : ٤٤٠.

عليكم بإخوان الصدق، فإنهم مَعونة على
حوادث الزمان... : ٥٣٤.

باب الغين

عَفَرَ الله لك يا عثمان ما قدَّمْتَ وما
أَخَّرْتَ... : ٣١٠.

باب القاف

قد أَجْرْنَا مَنْ أَجْرْتَ... : ٣٧.

قلوا فإن الشياطين لا تقيل : ٢٨٦.

باب الكاف

كان إذا أراد غزاة ورى بغيرها : ٢٣٤.

كان رسول الله ﷺ أشدَّ حياءَ من العذراء في
خدرها : ٢٩.

كان رسول الله ﷺ لا يتقم لنفسه... : ٥٠٢.

كان النبي ﷺ لا يدخر شيئاً لغد : ٣٥٩.

كيف يفلح قوم خَضَبُوا بالدم وجه نبيهم :
٤٥٢.

كان ﷺ يقبل الهدية ويُنِيب عليها : ٥٦٥،
٥٦٦.

باب اللام

لا إله إلا الله وحده، صدق وعده، ونصر
عبده، وهزم الأحزاب وحده : ٤٧٦.

الحياء لا يأتي إلا بخير : ٢٩.

الحياء من الإيمان، والإيمان في الجنة : ٢٩.

باب الخاء

الْخَلْقُ كُلُّهُمْ عِيَالُ الله، وأحبُّ الْخَلْقِ إلى الله
أنفعهم لعياله : ٢٩٨.

خَيْرُ سليمان بين الْمُلْكِ والمال والعلم، فاختار
العلم... : ١١٥.

باب الدال

الدعاء مُخ العادة : ٦٠٧.

باب الرائ

الراحمون يرحمهم الرحمن يوم القيامة... :
٥٠٥.

رأيت رسول الله ﷺ رمى جمرة العقبة لا
ضرب ولا طرد... : ٢٩٤.

رُبَّ أشعث أغبر ذي طمرين لو أقسم على الله
لأبره : ٢٩٢، ٢٩٣.

باب الزاي

زُرْ غَبًا تَزِدَّ حُبًّا : ٥٥٨.

باب الشين

شاهت الوجوه : ٤٠٤.

الشجاعة غريزة يضعها الله فيمن يشاء من
عباده... : ٤٠٣.

شر الناس الذين يُكْرَمُونَ اتقاء لسانهم : ٧٠.

الشوم سوء الخلق : ٦٥.

باب الطاء

طوبى لِمَنْ شَغَلَهُ عَيْبُهُ عن عيوب الناس... :
١٣٣.

باب الظاء

الظلم ظُلُمات يوم القيامة : ٨١.

لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له: ٧٩.

لا تتبعوا عورات المسلمين...: ١٣٤.

لا تزال أمتي بخير ما لم تر الأمانة مغنماً، والصدقة مغزماً: ٧٩.

لا تزوجوا الحمقاء، فإن صحبتها بلاء، وفي ولدها ضياع: ١٥٣.

لا تسترضعوا الحمقاء، فإن لبنها يغير الطباع: ١٥٣.

لا تغضب: ٥٠١.

لا تفضلوني على يونس بن متى...: ٥٠.

لا جلد فوق عشر جلدات إلا في حد من حدود الله عز وجل: ٥٢٦.

لا، ولكنه الذي يملك نفسه عند الغضب: ٥٠١.

لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر: ٨٨.

لا ينزع الله الرحمة إلا من قلب شقي: ٥٠٥.
لديناكم هذه أهون في عيني من عراق جرو في يد مجذوم: ١٣٨.

لكل داء دواء، ودواء القلب العقل...: ١١٠.

لكل شيء وثيقة ومحنة واضحة...: ١١٠.
للعافل عشر خصال يعرف بها...: ١١٣.
للمسلم على المسلم ست خصال...: ٥٣٩.
لما خلق الله جنة عدن، قال لها: تزيني...: ٣٦١.

لن تراعوا، لن تراعوا...: ٤٠٤.

لن يفلح قوم ولّوا عليهم امرأة: ١٥٨.
لو أهدي إلي ذراع لقبلت، ولو دُعيت إلى كراع لأجبت: ٥٦٦.

لو أن طالباً ولد الناس كانوا شجاعاً: ٣٧.
لو دُعيت إلى كراع لأجبت: ٥٠.

لو كان أبوها مسلماً لترحمنا عليه...: ٢٧.

لو كنت سمعت شعرها من قبل ما قتلته: ٥٠٧.

ليس الأعمى من عمى بصره، ولكن الأعمى من عميت بصيرته: ١٠٨.

ليس في الميزان أثقل عند الله من الخلق الحسن...: ٢١.

ليس الملق من أخلاق المؤمنين: ٥٨.

ليس من أحد إلا وفيه حمقه، فيها يعيش: ١٦٢.

باب الميم

ما ازداد الرجل حذقاً في صنعة إلا كان ذلك نقصاً من رزقه: ٢٠٤.

ما أعطي العبد شراً من طلاقة اللسان: ٢٣١.

ما أودى أحد مثل ما أوديت: ٤٧٦.

ما بسط رسول الله ﷺ ركبته بين يدي جليس قط: ٥٥٦.

ما تعدون الشديد فيكم؟: ٥٠١.

ما تقولون وما تظنون أني فاعل بكم؟: ٤٧٦.

ما حازت أستها، وحوته أعنتها...: ٢٧.

ما زال جبريل يوصيني بالعمو...: ٤٦٧.

ما سُئل شيئاً قط فقال لا...: ٣٠٨.

ما عال من اقتصد: ٣٨٧.

ما لقي رسول الله ﷺ كتيبة قط إلا كان أول من يضرب...: ٤٠٤.

ما من إمام عفا بعد قدرة إلا قيل له يوم القيامة: ادخل الجنة بغير حساب: ٤٦٧.

مَنْ قَرَّجَ عَنْ أَخِيهِ كُرْبَةً مِنْ كُرْبِ الدُّنْيَا
فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرْبِ
الْآخِرَةِ... : ٣٩.

مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ
ضَيْفَهُ... : ٥٧٣.

مَنْ كَانَتْ عِنْدَهُ نِعْمَةٌ فَلْيُكَافِئْ عَلَيْهَا... :
٣٥٠.

مَنْ لَا يَرْحَمُ لَا يُرْحَمُ : ٥٠٥.

مَنْ لَأَنْتَ كَلِمَتُهُ، وَجَبَتْ مَحَبَّتُهُ... : ٢١.

مَنْ لَمْ يَقْبَلْ عُذْرًا مِنْ مُعْتَذِرٍ، صَادَقًا كَانَ أَوْ
كَاذِبًا، لَمْ يَرِدْ عَلَيَّ الْحَوْضُ : ٤٧٤.

مَنْ مَرَّحَ اسْتَحَفَّ بِهِ : ٢٣٧.

مَنْ نَظَرَ فِي كِتَابِ أَخِيهِ الْمُؤْمِنِ بِغَيْرِ إِذْنِهِ،
فَكَأَنَّمَا تَطَّلَعَ فِي النَّارِ : ٢٦٣.

باب النون

النَّاسُ كَالْبَلِّ مِائَةِ لَا يَكَادُ يَوْجَدُ فِيهَا رَاجِلَةٌ :
١٠٢.

نَاقِصَاتُ عَقْلِ وَدِينٍ : ١٥٨.

نَزَلَ عَلَيَّ جَبْرِيلُ فَقَالَ : اقْتُلْ هَؤُلَاءِ وَاتْرِكْ
هَذَا... : ٢٩٨.

نُصِرْتُ بِالرَّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ : ٤٦٠.

نَعَمْ صَوْمَعَةُ الْمُؤْمِنِ بَيْتُهُ... : ٥٨٣.

نَعَمْ، عَلَى أَنْ لَا تُعَيِّنَ عَلَيَّ بِقَوْلٍ وَلَا فِعْلٍ :
٤٩٣.

نَعَمْ... النَّارُ : ٥٠٦.

باب الهاء

هَذَا حِينَ حَيِّي الْوَطِيسُ : ٤٠٤.

باب الواو

وَأَيُّ دَاءٍ أَدْوَأُ مِنَ الْبُخْلِ : ٣٦٢.

المرء كثير بأخيه : ٥٣٤.

المشورة حصن من الندامة وأمن من الملامة :
١٢٢.

المُقْسِطُونَ عَلَى مَنَابِرٍ مِنْ لَوْلُؤٍ بَيْنَ يَدَيِ
الرَّحْمَنِ بِمَا أَقْسَطُوا فِي الدُّنْيَا : ٤٨.

مَكَارِمُ الْأَخْلَاقِ عَشْرَةٌ تَكُونُ فِي الرَّجُلِ... :
٢٨.

مَنْ أَبَوَاهَا؟ : ٢٧.

مَنْ أُعْطِيَ حِفْظَهُ مِنَ الرَّفْقِ أُعْطِيَ حِفْظَهُ مِنَ الدُّنْيَا
وَالْآخِرَةِ : ٤٤٠.

مَنْ أَقَالَ مُسْلِمًا غَثْرَتَهُ أَقَالَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ :
٤٦٧.

مِنْ تَقْوَى اللَّهِ اتَّقَاءُ النَّاسِ : ٢٩.

مَنْ حَالَتْ شَفَاعَتُهُ دُونَ حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ فَقَدْ
ضَادَّ اللَّهَ تَعَالَى : ٥٢٦.

مَنْ حَفِظَ الرَّأْسَ وَمَا وَعَى... : ٢٩.

مَنْ ذَكَرَ مَعْرُوفًا فَقَدْ شَكَرَهُ، وَمَنْ سَتَرَهُ فَقَدْ
كَفَرَهُ : ٣٥٠.

مَنْ السَّرَفُ أَنْ تَأْكُلَ كُلَّ مَا شِئْتَ : ٣٥٤.

مَنْ سَيِّدُكُمْ؟ : ٣٦٢.

مَنْ صَحَّ فِيهَا سَقَمٌ، وَمَنْ سَقَمَ فِيهَا بَرَمٌ... :
١٣٨.

مَنْ عَادَ مَرِيضًا أَوْ زَارَ أَخًا نَادَى مُنَادٍ... :
٥٥٧.

مَنْ عَامَلَ النَّاسَ فَلَمْ يَظْلِمْهُمْ وَوَعَدَهُمْ فَلَمْ
يُخْلَفْهُمْ... : ٥٤.

مَنْ عَظُمَتْ نِعْمَةُ اللَّهِ عِنْدَهُ عَظُمَتْ مَوْزَنَةُ النَّاسِ
إِلَيْهِ... : ٣٠٣.

مَنْ عَفَا عَمَّنْ ظَلَمَهُ صَغِيرَةً أَوْ كَبِيرَةً فَأَجْرُهُ عَلَى
اللَّهِ... : ٤٦٧.

مَنْ فُتِحَ عَلَيْهِ بَابُ مِنَ الْخَيْرِ فَلْيَنْتَهِزْهُ... :
٣٠٢.

باب الياء

يا أبا ذر إذا طبخت اللحم فأكثر المرق وتعاهد
جيرانك: ٥٧٣.

يا أبا المنذر إن فيك خصلتان يرضاها الله
ورسوله: الحلم والأناة: ٤٦٨.

يا عائشة إنهما لا يسألان عن عبادتهما، إنما
يسألان عن عقولهما...: ١١٠.

يا علي غلبتك امرأة: ٣٧.

يا عمار تقبلك الفئة الباغية: ٤٢٠.

يحاسب الله الناس على قدر عقولهم: ١٧٢.
يُحشَر المرء على دين خليله، فلينظر أحدكم
مَن يُخالِل: ١١.

يقول الله تعالى: اشتد غضبي على مَن ظلم
مَن لا يجد له ناصراً غيري: ٨١.

ينادي مُناد كل ليلة اللهم اجعل لكل مُنفق
خَلْفاً، ولكل مُمسِك تَلْفاً: ٣٥٨.

فهرس الآثار عن الصحابة والتَّابعين

باب الألف

أبالموت أَخَوْف! والله لا أبالي أَسْقَطْتُ على الموت أو سقط عليّ [علي بن أبي طالب]: ٤٠٦.

أبو العيال أحقّ بحمله [علي بن أبي طالب]: ٥٢.

أحرص على الموت تُوهَب لك الحياة [أبو بكر الصديق]: ٤٤٧.

الأخ رقعة في ثوبك، فانظر بِمَ ترقعه [علي بن أبي طالب]: ٥٣٦.

أخبر نقله [علي بن أبي طالب]: ٥٨٦.

أُخْرُوا عَنِّي نِعَالَكُمْ، فإنها ذلّة للتابع وفتنة للمتبوع... [ابن مسعود]: ٥٣.

ادرؤوا الحدود بالشُّبُهات... [عمر بن الخطاب]: ٤٧٠.

إذا حُلَّت المقادير حُلَّت التقادير [علي بن أبي طالب]: ٤٤٧.

إذا دخلت أرض العدو فكن بعيداً من الحملة... [أبو بكر الصديق]: ٤٣٦.

إذا عَقَلَهُ عَقْلُهُ عَمَّا لا ينبغي [الحسن بن علي]: ١١٧.

إذا كان الغدر طباعاً، فالثقة بكل أحد عجز [علي بن أبي طالب]: ٥٨٦.

إذا كان في الإنسان عشر خصال تسعة منها صالحة وواحدة هي سوء الخُلُق أفسدت هذه الخصلة تلك التسعة [عمر بن الخطاب]: ٦٥.

أربعة لا ينبغي لشريف أن يأنف منهم... [الحسن البصري]: ٥٣.

أصلحوا أحوالكم التي رزقكم الله... [عمر بن الخطاب]: ٣٨٩.

اطلبوا الغنى بإصلاح ما في أيديكم [ابن عباس]: ٣٨٩.

أظلم الناس لنفسه اللثيم إذا ارتفع جَفَا أقاربه... [الإمام الشافعي]: ٨٧.

أفلح مَنْ جعل الله له عقلاً [عائشة]: ١١٠.

أقلل من معرفة الناس وأنكر مَنْ عرفت منهم... [جعفر الصادق]: ٥٨٩.

اللَّهُمَّ اغفر له وأرخنا منه [أبو هريرة]: ٥٧٦.

اللَّهُمَّ اكفنا شمال زياد كما كفيتنا يمينه [ابن عمر]: ٨١.

اللَّهُمَّ أنت أعلم بي من نفسي وأنا أعلم بنفسي منهم... [أبو بكر الصديق]: ٥٢.

اللَّهُمَّ لا تدعني في غمرة، ولا تأخذني على غرّة، ولا تجعلني من الغافلين [عمر بن الخطاب]: ١٩٨.

أما بعد، فإن الدنيا قد آذنت بدواع... [علي بن أبي طالب]: ١٩٨.

إن كان الشؤم في شيء، ففي اللسان [ابن مسعود]: ٢٣٢.

أنا إلى العفو والرحمة أقرب مني إلى العقوبة والنقمة [علي بن أبي طالب]: ٥٠٢.

إني لا أفرّ على مَنْ كَرَّ، ولا أكرّ على مَنْ
فرّ... [علي بن أبي طالب]: ٤٠٥.

إني لأبغض أهل بيت يُنفقون رزق الأيام في
اليوم الواحد [أبو بكر الصديق]: ٣٥٤.

إني لأجالس الأحق ساعة، فأتيّن ذلك في
عقلي [الأحنف بن قيس]: ١٥٤، ١٥٥.

إني لأعجب ممّن رُزق العقل كيف يسأل الله
معه شيئاً آخر [الحسن بن علي]: ١١٠.

إني ولّيتكم ولست بخيركم [أبو بكر الصديق]:
٥١.

أوقفوا الحدود ما وجدتم موقفاً... [عمر بن
الخطاب]: ٥٢٦.

أيها الناس لقد رأيتموني وأنا أرمي على
خالات لي... [عمر بن الخطاب]: ٥٢.

أيها الناس مَنْ كان يعبد محمداً فإن محمداً قد
مات، ومَنْ كان يعبد الله فإن الله حيّ لا
يموت... [أبو بكر الصديق]: ١٩٨.

باب الباء

البخيل يتعجّل الفقر لنفسه... [علي بن أبي
طالب]: ٣٦٢.

باب التاء

التَّارِكُ للإخوان متروك [المنيرة بن شعبة]:
٥٣٥.

تعلّموا العربية فإنها تقوّي العقل، وتزيد في
المروءة [عمر بن الخطاب]: ٢٢١.

التؤدة في كل شيء إلا ما كان من عمل
الآخرة [عمر بن الخطاب]: ٤٤٠.

باب الشاء

ثلاث كلهنّ فواقر... [عمر بن الخطاب]:
٦٠٦.

إنّ الله أنزل الحدود ليزجر بها عن الخبائث
والفواحش [الحسن البصري]: ٥٢٦.

إنّ الله جميل يحبّ الجمال [الحسن بن علي بن
أبي طالب]: ٥٤.

إنّ الله خلقكم فلم ينسكم، ووعظكم فلم
يهملكم [معاوية بن أبي سفيان]: ١٩٩.

إنّ الله عزّ وجلّ لم يأمر نبيّه ﷺ لحاجة
به... [الحسن البصري]: ١٢٢.

إنّ الله يَغضّ السّباب الطّعان المتفحّش [جعفر
الصادق]: ٧١.

إنّ الله يحبّ القصد والتقدير، ويكره السرف
والتبذير [عمر بن الخطاب]: ٣٨٧.

إنّ أولى الناس بالعفو أقدرهم على العقوبة
[معاوية بن أبي سفيان]: ٥٠٢.

إنّ التواضع مع البخل والجهل، أزين بالرجل
من الكبر مع البذل والعقل [معاوية بن أبي
سفيان]: ٨٩.

إنّ الرجل ليدخل إلى ذي السلطان ومعه دينه،
ويخرج وليس معه منه شيء [ابن مسعود]:
٥٩١.

إن السرف من طينة السخاء ولكنه جاوز الحق
[عبد الله بن الزبير]: ٣٥٤.

إنّ الله خلّقاً قلوبهم كقلوب الطير...
[عائشة]: ٤٤٤.

إنّ الموت طالب حثيث لا يُعجزه المُقيم ولا
يفوته الهارب [علي بن أبي طالب]: ٤٤٧.

إنه أتاني وبين يدي خصمان قد فرغت لهما
سمعي وبصري وقلبي... [أبو بكر
الصديق]: ٤٨.

إني لا أضع سيفي حيث يكفيني سوطي، ولا
أضع سوطي حيث يكفيني لساني [معاوية بن
أبي سفيان]: ١٣٢.

باب الزاي

زَلَّة الرجل تُجبر، وزَلَّة اللسان لا تُبقي ولا تَذَر
[عمر بن الخطاب]: ١٤٢.

باب السين

سَعَة الأخلاق منحة من الله [الحسن البصري]:
٢١.

باب الصاد

الصدور خزائن الأسرار، والشِّفاء أقفالها،
والأَلْسُن مفاتيحها... [عمرو بن العاص]:
٢٣٥.

باب العين

عَاتِب أخاك بالإحسان إليه... [علي بن أبي
طالب]: ٥٤٨.
العُزلة أَسْكَن للفؤاد، وأَبْعَد من الفساد، وأَعُود
للمعاد [جعفر الصادق]: ٥٨٨.

باب الفاء

الفقر داء لا دواء له، مَنْ كَتَمه قَتَله، وَمَنْ
أَذاعه فَضَحَه [علي بن أبي طالب]:
٣٩١.

باب القاف

قَصُر إذا قلت، واقتصر إذا طلت... [عمرو بن
العاص]: ٢٣٠.

باب الكاف

كان الناس ورقًا لا شوك فيه، فصاروا شوكًا لا
ورق فيه [أبو الدرداء]: ٥٨٩.
الكلام كاللدواء إن أَقْلَلْت منه نفع...
[عمرو بن العاص]: ٢٣٠.
كن مقدّرًا ولا تكن مُقْتَرًا [معاوية بن أبي
سفيان]: ٣٨٧.

ثلاث يصفو بها وَد أخيك... [عمر بن
الخطاب]: ٥٣٩.

باب الجيم

الجيران ثلاثة: فَجَار له حق واحد، وجار له
حَقَان، وجار له ثلاثة حقوق... [جابر بن
عبد الله]: ٥٧٢.

باب الحاء

حبَّذا المال أهون به عرضي، وأَصِيل به
رحمي... [عبد الرحمن بن عوف]:
٣٩٩.

حُسْن التقدير نصف الكَسْب [معاوية بن أبي
سفيان]: ٣٨٧.

باب الخاء

خذ الحكمة أُنَى أنتك [علي بن أبي طالب]:
١١١.

خلق ابن آدم أحمق، ولولا ذلك لَمَّا هُنْأه
العيش [وهب بن منبه]: ١٦٢.
الخير بالخير والبادي أكرم، والشر بالشر
والبادي أظلم [علي بن أبي طالب]:
٤٩٣.

باب الدال

الدنيا نذلة تميل إلى الأندال [سعيد بن
المسيب]: ٩٢.

الدنيا والآخرة كالمشرق والمغرب... [علي بن
أبي طالب]: ١٣٨.

باب الراء

رأس التواضع أن تبدأ بالسلام مَنْ لَقِيت...
[عبد الله بن مسعود]: ٥٣.
الرجال ثلاثة: رجل ينظر في الأمور قبل أن
تقع... [عمر بن الخطاب]: ١٢٢.

كنا نتعلم اجتناب السلطان كما نتعلم السورة
من القرآن [الفضيل بن عياض]: ٥٩١.

باب اللام

لا تبلغ بهم النفاق، ولا تقصر بهم عن
الاستحقاق [علي بن أبي طالب]: ٥٩.

لا تشاور المعزول، فإن رأيه مغلول
[الأحنف بن قيس]: ١٢٤.

لا تشبع ويَجوع، وتلبي ويعرى... [ابن
عمر]: ٥٣٩.

لا تُعادوا نِعَم الله... [عبد الله بن مسعود]:
٦٠٣.

لا تنظروا إلى خفض عيش الملوك وطيبه،
ولكن انظروا إلى سرعة ظَنَنهم وسوء
مُنْقَلَبهم [مطرف]: ١٠٤.

لا يكون الصديق صديقًا حتى يحفظ أخاه
في ثلاث... [علي بن أبي طالب]:
٥٤٠.

لأن أخلف عشرة آلاف درهم أحاسب عليها
أحب إلي من أن أحتاج الناس [سفيان
الثوري]: ٣٩٠.

لأن أرمي عدوي بسهمي خير له من أن أرميه
بلساني... [سفيان الثوري]: ٢٣١.

لأن أندم على العفو عشرين مرة أحب إلي من
أن أندم على العقوبة مرة واحدة [جعفر
الصادق]: ٥٠٢.

لأن تطلب الدنيا بأقبح ما تطلب... [الحسن
البصري]: ٦٠.

لأن تلقى الله تعالى بسبعين ذنبًا فيما بينك
وبينه... [سفيان الثوري]: ٨١.

لأن يدنو الرجل إلى حتفه ومَنِيَّتَه خير له من
أن يدنو إلى ذي سلطان [الفضيل بن
عياض]: ٥٩١.

لأن يضعني الصدق - وقلما يفعل - أحب إلي
من أن يرفعني الكذب - وقلما يفعل -
[عمر بن الخطاب]: ٦٩.

لسان سيف قاطع يبدأ بك... [ابن مسعود]:
٢٣١.

اللسان قيمة الإنسان، فمن قَوْمُه زادت قيمته
[الأحنف بن قيس]: ٢٣١.

اللطيفة عطفة تزرع في القلوب المحبة والألفة
[عائشة]: ٥٦٦.

لقيت كذا وكذا زحفاً وما في جسدي
موضع إلا وفيه ضربة بسيف أو طعنة
برمح أو رَمِيَّة بسهم... [خالد بن
الوليد]: ٤٤٤.

للصدقة خمس شروط فمن كانت فيه فانسبوه
إليها... [جعفر الصادق]: ٥٤٠.

لله در الحسد ما أعدله، بدأ بصاحبه فقتله
[علي بن أبي طالب]: ٦٠٤.

لم أر أشقى بماله من البخيل... [الحسن
البصري]: ٣٦٣.

لم يقم جنين في بطن حمقاء تسعة أشهر إلا
خرج الولد مائتًا [عمر بن الخطاب]:
١٥٣.

لو ازددت كل يوم مِثقال ذَرَّة من عقل ما
بليت ما فاتني من أنواع التطوُّع [أبو
هريرة]: ١١١.

ليس حُسْن الجوار كَفَّ الأذى ولكنه الصبر
على الأذى [الحسن البصري]: ٥٧٣.

باب الميم

ما ازداد رجل من ذي سلطان قُرْبًا إلا ازداد من الله بُعْدًا [ابن عمر]: ٥٩١.

ما أقيح العالم أن يقال أين هو؟ فيقال: هو في بيت الأمير [الفضيل بن عياض]: ٥٩١.

ما أوتي العبد بعد الإيمان بالله تعالى أفضل من العقل [مطرف]: ١١٠.

ما رأيت بعد رسول الله ﷺ أسود من معاوية [ابن عمر]: ٢٦.

ما رأيت سَرَفًا قط إلا وإلى جانبه حق مضيع [معاوية بن أبي سفيان]: ٣٥٤.

ما قال الناس لشيء طوبى إلا وقد خبأ له الدهر يوم سوء [علي بن أبي طالب]: ١٠٤.

ما وجد أحد في نفسه كِبْرًا إلا لَمَهَانَةٌ يجدها في نفسه [عمر بن الخطاب]: ٨٨.

ما وضت سِرِّي عند أحد وأخشاه فلمته... [عمرو بن العاص]: ٢٣٥.

مارست كل شيء فغلبت، ومارسني الفقر فغلبنى... [علي بن أبي طالب]: ٣٩١.

مُجَامَعَةُ العاقل في الغلّ والوثاق خير من مُجَامَعَةِ الجاهل على السندس والإستبرق [ابن عباس]: ١٥٤.

ملك عادل خير من مطر وإبل [عمرو بن العاص]: ٤٩.

مَنْ امتطى زمام التغافل مَلَكَ زمام المروءة [أبو بكر الصديق]: ١٣٥.

مَنْ تَخَلَّقَ بما ليس من خلقه فهو منافق [عمر بن الخطاب]: ٥٦.

مَنْ كان كلامه لا يوافق فِعْلَهُ فإنما يُوْبِّخُ بذلك نفسه [ابن مسعود]: ٥٦.

مَنْ وجد في نفسه وَحْشَةً من الناس، فليعلم أن الله أَحَبُّ أن يُؤَنَسَ به [علي بن أبي طالب]: ٥٨٣.

باب النون

الناس أربعة أصناف: آساد وذئاب وثعالب وضأن... [سلمان الفارسي]: ٥٨٩.

نظرت إلى المعروف فوجدته لا يتم إلا بثلاث... [جعفر الصادق]: ٣٢٦.

نِعْمَ الحَسْبُ الخُلُقُ الحَسَنُ [علي بن أبي طالب]: ٢١.

نِعْمَ الرجل أنت لو كان هذا في بيتك [أبو أمانة الباهلي]: ٦٢.

نِعْمَ المؤازرة المشورة... [علي بن أبي طالب]: ١٢٢.

باب الهاء

هجران الأحق قُرْبَةً إلى الله تعالى [الحسن بن علي بن أبي طالب]: ١٥٥.

هكذا أُمِرْنَا أن نفعل بأهل بيت نبينا [زيد بن ثابت]: ٥٢.

هكذا أُمِرْنَا أن نفعل بعلمائنا [ابن عباس]: ٥٢.

هلك الإنسان في طول اللسان [أكثم بن صيفي]: ٢٣١.

باب الواو

الوفاء بأهل الغدر غدر، والغدر بأهل الغدر وفاء [علي بن أبي طالب]: ٧٨.

وَكُلَّ الله الجهل بالغنى، والعقل بالحرمان [محمد ابن الحنفية]: ١٧٥.

باب الياء

يا أبتِ إني لأستحي أن أُطعم طعامًا وجيراني
لا يقدرُون على مثله [جعفر بن أبي
طالب]: ٥٧٣.
يا ابن عباس إنَّ أحبَّ الساعات إليَّ ساعة
أؤدِّي فيها حقَّ الصديق [المسور بن
مخرمة]: ٥٦٢.
يا بني إذا بسط الله عليك فأبسط... [أبو
الأسود الدؤلي]: ٣٥٤.

يا بني إني أخاف الفقر، فإنه مَنْقَصَةٌ للدين،
مَذْهَبَةٌ للعقل داعية للمَمْتِ [علي بن أبي
طالب]: ٣٩١.
يجب على الصديق مع صديقه استعمال
أربع خِصال... [الخليل بن أحمد]:
٥٤٢.
يوم المظلوم على الظالم أشدَّ من يوم
الظالم على المظلوم [علي بن أبي
طالب]: ٨١.

فهرس القوافي

القافية	الشاعر	البحر	عدد الأبيات	الصفحة
قافية الألف المقصورة				
العَدَى	-	الكامل	٢	٣٩٨
النَدَى	المتنبى	الطويل	١	٤٩٩ ، ٤٧
الذُّرَى	حميد بن مهران	المتقارب	٤	٥٥٩
يقرى	-	الطويل	٢	٣٢٢
يقرى	ابن هرمة، وصردر	الطويل	٢	٣٠٧
مَسَى	الحلاج	الرَّمَل	٢	٥٧٥
وَسَى	-	الكامل	١	٦٧
يُرْتَضَى	ابن الرومي	السريع	٢	٢١٢
وأحلى	الحمادوني	الخفيف	٢	١٧٦
يتسلى	ماني الموسوس	الخفيف	٣	١٧٠
هموى	-	الطويل	١	١١٩
قافية الهمزة				
الهمزة الساكنة				
السماء	محمد بن حازم	السريع	٢	٣٣٠
الهمزة المفتوحة				
بقاءها	قيس بن الخطيم	الطويل	١	٤٠٨
الهمزة المضمومة				
الفداء	أبو العباس الأعمى	الوافر	٤	١٥١
أسأؤوا	المعتمد بن عباد	الخفيف	٢	٥٦٠
يشاء	علي بن الجهم	الوافر	١	٧١
لقاؤه	-	الطويل	٣	٣٩٤

القافية	الشاعر	البحر	عدد الأبيات	الصفحة
البلاء	ابن زيادة البغدادي	الخفيف	٢	١٠٢
بلاؤة	صالح بن عبد القدوس	الطويل	٢	٥٣٦
الظلماء	ابن قيس الرقيّات	الخفيف	٣	٥٢٤
انطواء	بشار بن برد	الوافر	٢	٣٠
الحياء	علي بن الجهم	الوافر	٢	٣٠

الهمزة المكسورة

بالحوياء	—	الكامل	٢	٣٣٩
إبداء	البحثري	الكامل	٤	٥١٠
ووفاء	ابن الرومي	الخفيف	٣	٣٧١
باعثلائه	الوزير المغربي	المتقارب	٢	١٠٣
الدلاء	علي بن أبي طالب، وأبو الأسود الدؤلي	الوافر	٢	٤٠١
السماء	—	الوافر	٢	٥٩٢
ثنائي	أبو تمام	الكامل	٢	٣٤٧
للدواء	—	الوافر	٣	٥٦٩
الأنواء	الحسن بن وهب	الخفيف	٤	٥٦١

قافية الباء

الباء الساكنة

المثاب	—	مجزوء الكامل	٢	٢٨٨
الأدب	—	السريع	٢	١٨٧
الأدب	ابن الشجري	الكامل	٢	٢٣٨
الأدب	المعافى بن زكريا، ومنصور الفقيه	المتقارب	٣	٦٠٣
الجرب	مسكين الدارمي	الرَّمَل	١	١١
مكتسب	ابن الرومي	الطويل	٤	١٣
الغضب	مسكين الدارمي	الرَّمَل	١	٥٠٣
تعب	البشامي، ومنصور الفقيه	السريع	٣	١٦٠
الطلب	—	السريع	٢	٢٠٦
المعايب	ابن النقيب الكناني	مجزوء الرَّمَل	٣	٦٠٦

القافية	الشاعر	البحر	عدد الأبيات	الصفحة
الباء المفتوحة				
عتابا	—	الكامل	٢	٥٤٤
الكتابة	كشاجم	الخفيف	٢	٢٠٨
حجابا	—	الوافر	٢	٢٣٥
وشابا	الوليد بن عقبة	مجزوء الرَّمَل	١	٨٧
أعابا	الحسين بن مطير	الوافر	٣	٢٤
عقابا	—	الطويل	١	٥٠٩
أبوابها	—	الكامل	٤	٣٩٢
صوابا	الناشيء الأصغر	الكامل	٢	١٦١
حاجبا	—	الطويل	٢	٤١٣
مرحبا	ابن قيس الرُّقَيَّات	الطويل	٣	٤٩٧
مشربا	ابن الرومي	الطويل	٢	٥٤٦
ثعلبا	قيس بن عاصم	الطويل	٣	٣٩٤
وهبا	—	البسيط	١٦	٤٩٦
القلوبا	—	مجزوء الكامل	٣	٥٦٦
الحبيبا	العباس بن الأحنف	الخفيف	٢	٥٤٧
تهذيبا	ابن رشيق	الكامل	٣	٢٠٥
مهيبا	—	الكامل	٢	٢٢١
الباء المضمومة				
ركائبة	بشار بن برد	الطويل	٢	٥٩٦
ولا أب	يزيد بن مفرغ	الطويل	١	٩٧
نوائبة	أبو تمام	الطويل	٣	١٢٧
سحابها	—	الطويل	٢	٤٦
صحاب	أبو فراس الحمداني	الطويل	١	٥٨٩
ذهاب	—	الوافر	١	٣٦٠
أبوابه	—	السريع	٢	١٧٨
جواب	أحمد بن يوسف	الوافر	٢	٥٤٤
الثياب	—	الخفيف	٢	٣٩٢
عاتب	كُثَيِّر عَزَّة	الطويل	٢	٥٤٦

الصفحة	عدد الأبيات	البحر	الشاعر	القافية
٥٤٦	٤	الطويل	بشار بن برد	تعاتبه
١٤٣	٣	الطويل	دعبل الخزاعي	كتب
٣٢٨	٢	الطويل	أبو الأسود الدؤلي	واجب
٤٣٥	١	الطويل	ابن نباتة	حواجب
٥٩٢	٢	الطويل	—	صاحب
١١٦	٤	البسيط	—	ويستخب
١١٤	٢	البسيط	سابق البريري، وصالح بن عبد القدوس	الأدب
٥٥١	٣	الطويل	الكميت	وأندب
٥٩٠	١	البسيط	—	كذبوا
١١٢	٤	الطويل	ابن دريد، والخليل بن أحمد، وعلي بن أبي طالب	يقاربه
٦٠٢	١	الطويل	المتنبى	المدرّب
١٤٥	١	البسيط	ذو الرّمة	ينسرب
٦٧	٣	الطويل	عبد الله بن المعتز	يضرب
٢٩٢	١	البسيط	—	والطرب
٥٦٤	٢	المتقارب	ابن مسهر الموصلي	وغرب
٥٩٧	٣	الطويل	الكميت بن معروف	يقرب
٤٨٩	٢	الطويل	كشاجم	مهرب
٥٤٣	١	الطويل	النابعة الشيباني	لعازب
٤١	٢	الطويل	البحري، ومنصور الفقيه	تناسبه
٤٤٤	١	الطويل	—	يناسبه
٣٤٣	٢	المنسرح	يزيد بن الحكم	والحسب
٢٧٩	٨	الكامل	أبو الحسن الرازي	ويحسب
٩٩	٢	الطويل	الأحمر بن سالم	ينسب
٥٣٧	٢	الطويل	—	فأغضبه
٤٥٣	٤	البسيط	محمد بن أبي حمزة	العطب
١١	٣	مجزوء الوافر	الوزير المغربي	العطب
٣٦٧	٤	الطويل	أبو نواس	يداعبه
١٤١	٢	الطويل	محمد بن وهب	ونلعب
٤١٢	١	الطويل	—	عواقبه

الصفحة	عدد الأبيات	البحر	الشاعر	القافية
٤٩٨	٢	الطويل	-	طالبُ
٤٨٥	٢	الطويل	أبو الأسود الدؤلي	طالبُ
٤٥١	١	الطويل	-	ثعالبُ
٦٠٣	٣	الكامل	حمزة بن بيض	أحلبُ
٥١٢	٢	الطويل	حكيم بن عياش	يصلبُ
٥٨٦	٢	المتقارب	محمد بن ولاد	تطلبُ
٤١٠	٢	البسيط	-	والطلبُ
٤٥١	٧	الطويل	أبو تمام	القلبُ
٦٠٢	١	الطويل	المتنبي	يتقلبُ
٥٩٨	٣	البسيط	أبو العتاهية	انقلبوا
٣٦	٢	الطويل	-	المهلبُ
١٤٠	٤	الطويل	ابن عبد ربّه	جانبُ
٤٩٣	١	الطويل	-	جانبهُ
٣٠٠	٢	الطويل	منصور الفقيه	جوانبهُ
٢٣	٣	البسيط	-	ويجنبُ
٥٥٤	٢	البسيط	مروان بن أبي حفصة	ويجنبُ
٤٧٥	١	الطويل	-	الذنبُ
٥٤٨	٢	الطويل	-	الذنبُ
٤٧٠	٢	الكامل	-	أذنبوا
٣٦٩	٢	البسيط	-	مواهبهُ
١٤٦	١	البسيط	ذو الرّمة	ذهبُ
٣٧١	٢	الكامل	-	وأذهبُ
٤٩٢	٤	الطويل	النابعة الذبياني	مذهبُ
٥٤٧	٢	البسيط	البحثري	لهبُ
٣٩٢	٢	الطويل	علي بن أبي طالب	كذوبُ
٥٥٠	٢	الطويل	السعدي	خطوبُها
١٨٢	٢	الوافر	ابن شرف القيرواني	والخطوبُ
٢٢١	٢	البسيط	-	مسكوبُ
٥٦٣	٢	الوافر	ابن الرومي	تنوبُ
٢٤٥	٤	الوافر	صالح بن عبد القدوس	تنوبُ

القافية	الشاعر	البحر	عدد الأبيات	الصفحة
ريبُ	-	الوافر	٣	٧٦
شبيبُ	معقلة بن هبيرة، وعتبان بن أصيلة	الطويل	١	١٥١
ليبُ	أبو الفضل الميكالي	الخفيف	٤	١٢٠
جديبُ	-	الخفيف	٦	٤٠٢
جديبُ	الخريمي	الطويل	٢	٣٠٦
تثريبُ	-	البيسط	٥	٨٩
قريبُ	مصقلة بن هبيرة	الطويل	٣	١٥٢
لخطيبُ	ثابت قطنة	الطويل	١	٢٢٥
صليبُ	الخريمي	الطويل	٢	٤٤٠

الباء المكسورة

عائبُ	عمارة بن عقيل	الكامل	٢	٣٠٥
الصعائبُ	-	الطويل	٢	٦٠٠
الركائبُ	حاتم الطائي	الطويل	٤	٣٢
بابُ	الخدلجي	الخفيف	٢	٢٠٧
الأسبابُ	يحيى بن زياد الحارثي	الكامل	٢	٥٣٩
بعتابه	-	الكامل	٣	٥٥١
الآدابُ	-	الخفيف	٢	٣٨٧
والآدابُ	أبو العيناء	الكامل	٩	٢٧٩
الحسابُ	أبو الأسود الدؤلي	الوافر	١	٤٢٧
الحسابُ	الوليد بن يزيد	الوافر	٣	٨٦
العقابُ	-	مخلع البسيط	٢	٤٧٨
النقابُ	-	الوافر	٢	٣٣٩
اجتنابُ	-	الوافر	٣	٥٤٨
الوهابُ	-	الكامل	١	٥٦
جوابه	أبو تمام	الكامل	٣	٥٤٢
الصوابُ	-	الوافر	٢	٥٤٤
بحاجبُ	-	الكامل	٢	٣٢٩
العجبُ	-	البيسط	١	٩١
العجبُ	يزيد بن مفرغ	المنسرح	٣	٩٦
بالعجبُ	-	البيسط	٢	٣٤١

القافية	الشاعر	البحر	عدد الأبيات	الصفحة
بالصاحب -		السريع	٢	٥٣٧
ولصحي -		الخفيف	١	٥٨١
أدبه -		المنسرح	٢	١١٢
الأدب -	أبو إسحق الصابي	البيسط	٤	٢٠٦
الكذب -		البيسط	٢	٦٨
مهذب -		الطويل	٢	٥٧٤
المهذب -	عامر بن الطفيل	الطويل	٣	١٢
وموارب -	علي بن أبي طالب	الكامل	٢	٥٨٧
الأجر -	ليبد بن ربيعة	الكامل	١	٢١٠
والحرب -		البيسط	٢	٥٤٨
ضرب -		الخفيف	٢	٥٨١
عربي -		المنسرح	٢	١٨٧
يعرب -	بهاء الدين زهير	الطويل	٢	١٩٠
الهرب -	يحيى بن نوفل	البيسط	١	٤٦١
والحسب -	ابن بسام	البيسط	٢	٢٠٦
النسب -		البيسط	٢	١١١
نسب -		البيسط	٣	١٨٧
النسب -	علي بن أبي طالب	المنسرح	٢	١٨٧
بالنسب -		البيسط	٢	٥٣٩
يغضب -		الكامل	١	٣٧٢
طبه -	المتنبى	السريع	١	١٥٧
والخطب -	ابن نوفل	البيسط	١	٢٢٣
قطب -		الخفيف	١	٥٨١
تعب -		البيسط	٧	١٨٠
كعب -		الخفيف	١	٥٨١
الثاقب -	الحلاج	السريع	٢	٢٦٦
الكواكب -		الطويل	٢	١٨٢
المطالب -		الطويل	٢	٤٠٠
قلبه -	البحترى	الكامل	٣	١٩٠
قلبي -		الطويل	٢	٣٧٩

القافية	الشاعر	البحر	عدد الأبيات	الصفحة
قلبي	-	الطويل	٢	٥٧٢
القلب	-	الطويل	١	٥٩
المهلب	حمزة بن بيض، وزياد الأعجم	الطويل	١	٤٨٢
المذنب	أبو تمام	الكامل	١	٣٣٧
والذهب	مروان بن أبي حفصة	البسيط	٣	٣٢١
للأشهب	-	الكامل	١	٧١
مصلوب	ابن حجاج	المنسرح	١	٧٤
بليب	أبو الأسود الدؤلي، وابن عبد ربّه الأندلسي، وبشار بن برد	الطويل	٢	١٢٦، ١٢٤
الأديب	-	الوافر	١	١٠
لتهدية	-	السريع	٤	١١٤
والتهديب	-	الكامل	٢	١٦
قريب	جحظة البرمكي	الطويل	٢	٣٨٢
بحسب	-	الطويل	٢	١١٢
نصيبي	ابن المعتز	المتقارب	٢	٥٩٩
رقيب	علي بن الرومي	الطويل	٢	٥٨٠

قافية التاء

التاء المفتوحة

شنتا	المتنبى	البسيط	١	٣٤٤
خلقنا	سعدون	الوافر	٣	٢٩٦
منا	محمود الوراق	المتقارب	٤	٣٠١
لئينة	-	المتقارب	٣	٥٤٢

التاء المضمومة

تاراث	-	البسيط	٢	٣٠٣
مولائة	عمران السدوسي	الكامل	١٠	٤٨٢
عفو	المأمون	الكامل	١	٥٠٣
السكو	الشافعي	الوافر	٢	١٣٧
تمو	عمرو بن العاص	الوافر	١	٢٨٢
تمو	معاوية بن أبي سفيان	الوافر	١	٢٨٢

القافية	الشاعر	البحر	عدد الأبيات	الصفحة
جاريث	ابن المعتز	الطويل	٢	٦٠٥
وفيث	السموأل بن عادياء	الوافر	٣	٤٤
ميث	-	الوافر	٢	١٣
منيث	جحظة البرمكي	المتقارب	٢	٣٦٨

الناء المكسورة

عثراتي	أبو العتاهية	الطويل	٣	٥٤١
المشورات	فتيان الشاغوري، والأرجاني	البيسط	٢	١٢٣
وآفاتها	-	السريع	٢	٢٠٧
الحماقات	-	البيسط	١	١٧٩
وصلات	بكر بن النطاح	الطويل	٥	٣٢٣
الحسنات	-	الكامل	٢	٥٤٤
قناتي	البيستي	الخفيف	١	١٠٩
السموات	أبو نواس	البيسط	١	٦٣
المنيات	-	البيسط	٢	١٩٤
رتبته	ابن زياد	البيسط	٣	١٠٥
حاجته	يزيد بن جبل	السريع	٣	٣٢٧
فاستمزت	-	الطويل	٤	١٢
وخسته	سبط ابن التعاويذي	البيسط	٣	٥٦٨
ضلت	الطرماح	الطويل	١	٢٦٠
لولت	الطرماح	الطويل	٢	٤٥١
والجبروت	ابن صابر المنجنيقي	الخفيف	٣	٩٠
ياقوت	منصور بن ربيعة	المنسرح	٢	٣٦٦
السكوت	مكي بن سودة	الخفيف	١	٢١٤

قافية الناء

الناء المكسورة

بني	أبو غالب الواسطي	الوافر	٢	٢١٧
العبث	الخطيب الحصكفي	المديد	٤	١٢٠
حوادث	-	الكامل	٢	٧٨

القافية	الشاعر	البحر	عدد الأبيات	الصفحة
قافية الجيم				
الجيم المضمومة				
مناسج	أبو هلال العسكري	الطويل	٣	٣٨٤
أحوج	علي بن أبي طالب	الطويل	٥	٤٩٩
الجيم المكسورة				
وأزواج	-	البسيط	١	٥٨٩
المخرج	-	الكامل	١	٤٣٨
الفرج	بهلول	البسيط	١	١٦٥
قافية الحاء				
الحاء المفتوحة				
قيحا	ابن الرومي	الخفيف	٢	٢١٢
نجيحا	-	المتقارب	٢	١٢٤
الحاء المضمومة				
الكاشح	-	الكامل	٣	٢٣٣
وأروخ	-	الطويل	٢	٤٩٤
فضوخ	ابن قيس الرقيات	الوافر	١	٥٢٥
قيح	النمر بن تولب، وعروة بن الورد	الكامل	٢	٤٠١
الحاء المكسورة				
الأقداح	أبو دلف العجلي	الكامل	٢	٤١١
راح	جرير	الوافر	١	١٤٧
جراح	أبو جعفر الطبري، والبحثري	المجتث	٢	٢٣٨
والإنصاح	ابن الرومي	الكامل	٣	٤٣٤
الفقاح	ابن الرومي	الخفيف	٢	١٥٨
بالرواح	جرير	الوافر	١	١٤٧
النواحي	ابن المعتز	الوافر	٢	٥٨٨
الصباح	إسماعيل بن الغمر	المتقارب	٣	٣٦٩

الصفحة	عدد الأبيات	البحر	الشاعر	القافية
٥٠٤	١	الطويل	البحثري	مادح
٤٠١	٢	الطويل	عروة بن الورد	مطرح
٢٣٧	٢	الطويل	الbstي	المزح
٥٩٠	٤	الوافر	العتابي، وجحظة البرمكي	القبيح

قافية الدال

الدال الساكنة

٤٤٦	٣	السريع	-	الجلاد
٢٢٧	١	مجزوء الرجز	العباس بن الأحف	سجد
٥١٥	٢	الرَّمَل	-	نجد
٤٩٦	٢	الرَّمَل	عمر بن أبي ربيعة	نجد
٢٢٨	١	مجزوء الرجز	ابن الحطينة	وجد
٢٢٧	١	مجزوء الرجز	أبو نواس	أحد
٣٤٥	٤	الرَّمَل	المفجع البصري	الغرد
٦٠٤	٢	الكامل	-	حَسَد
٢٢٧	١	مجزوء الرجز	صريع الغواني	مسد
٢٢٧	١	مجزوء الرجز	ابن رشيق	خلد
٢٢٧	١	مجزوء الرجز	الخليع	لولد
٨٧	٢	المتقارب	ابن إياس الكناني	يعتمد

الدال المفتوحة

٥١٧	٢	السريع	أشجع السلمي	زادا
٣٣٠	٣	الوافر	الكميت	وزادا
٦٣	٩	الخفيف	أبو نواس	وزهاذة
٥٩١	٢	البسيط	-	أبدا
٣٥٠	٢	الخفيف	-	عبدا
٢٠٥	٣	الطويل	ابن طباطبا	حدّا
٤١٠	٢	الطويل	-	تترددا
٥٨٥	١	الطويل	-	مفردا
٤٩٩	١	الطويل	المتنبي	تمردا
٧٥	٣	الكامل	ابن عروس	الناقدا
٣٥٢	٢	الكامل	ابن عمرو	والدا

الصفحة	عدد الأبيات	البحر	الشاعر	القافية
٤٧	١	الطويل	المتنبي	النذى
٩٣	٢	الكامل	السري الرقاء	معاندا
٢١١	٢	البسيط	دعبل الخزاعي، وعلي بن أبي طالب	فندا
٤٣٢	٥	الكامل	البيغاء، والناشئ الأكبر	محدودا
١٧٨	٢	الخفيف	—	البرودا
٣٤٣	٤	السريع	جعفران الموسوس	مفقودا
٢٠٣	١	الخفيف	—	مصيدا
٤١٥	٣	الخفيف	البحثري	تميدا

الذال المضمومة

٧٢	١	البسيط	الطرماح	بادوا
٦٩	٢	البسيط	—	معتاد
٣٤٣	٢	مخلع البسيط	جعفران الموسوس	نفاذ
٣٣١	٢	الطويل	بشار بن برد	جواد
٣٩	٢	الطويل	شبيب ابن البرصاء	اصطيادها
١٠١	٣	الطويل	أبو دلامة	العبد
١٧١	٤	أخذ الكامل	شمروخ	أجد
٣٩٨	١	الطويل	المتنبي	مجد
١٦٩	٣	الطويل	غورث المجنون	حد
٥٧٥	٢	الطويل	—	واحد
٥٦	٤	البسيط	جدل بن أشمط	قد
٢٣٩	٢	البسيط	جميل	برد
٣١	١	الكامل	ابن المعتز	ويوزد
٤٣٣	٢	الطويل	—	المسرد
٨	١	الطويل	ابن الرومي	تغرد
٦٠٥	٢	البسيط	أبو تمام، وبشار بن برد	حسدوا
٢٣٦	٤	البسيط	—	حشدوا
٩	١	الكامل الأحذ	أبو الشيص الخزاعي	الضد
٥٩٤	٣	المتقارب	—	ساعدوا
٤٨٤	٢	الطويل	—	غد
٧٠	١	البسيط	أبو بكر التميمي	رقدوا

القافية	الشاعر	البحر	عدد الأبيات	الصفحة
يحمّد	-	السريع	٢	٥٨٤
يكمّد	-	السريع	٢	٦٠٤
لجاهد	-	الكامل	٢	٥٦٤
تجوّد	ابن دقيق العيد	الطويل	١	٢٢٤
ودود	عليّ بن أبي طالب	الطويل	١	٥٤٣
أسود	البيضا	الخفيف	٣	٤٣٢
أسود	ابن الساعاتي	الكامل	١	٤٣٣
تعوّد	-	الطويل	٢	٢٥٨
وفود	-	الطويل	٢	٤١٥
معقود	حماد عجرد	البسيط	٥	٣٤٨
وقودها	-	الطويل	٣	٣٠٧
وقودها	ابن المعتز	الطويل	٢	٣٠٧
نهود	-	الكامل	١	٤٣٥
مولود	المتنبي	البسيط	٦	١٥٨
عريّد	ابن عبد الودود	البسيط	٢	٣٧٠
يبيد	غورث المجنون	الوافر	٢	١٦٩
شديد	-	الطويل	٢	٤٠٢
البريد	ابن المعتز	مجزوء الكامل	٢	١٠٥
تريد	-	الوافر	٢	١٠٥
يزيد	الأخطل، وزياذ الأعجم	الطويل	٣	٣٤٢
ويزيد	-	الطويل	٢	٥٥٣
وجليّد	عبد الرحمن بن حسان	الطويل	٢	١٧٩
عنيّد	الوليد بن يزيد	الوافر	٢	٨٦

الذال المكسورة

الشرائد	-	الطويل	١	٤٥٠
ومدادها	-	الطويل	١	٣٥٢
ودادي	أبو نواس	الطويل	٥	١٤٩
بودادّة	ابن طباطبا	الكامل	٢	٢٥٣
الوزاد	أبو سعيد الرستمي	الكامل	٤	٣٤٦
زاد	المتلمس	الوافر	٢	٣٨٩

القافية	الشاعر	البحر	عدد الأبيات	الصفحة
الأعادي	أبو سفيان بن حرب	الوافر	٤	٩٦
الأعادي	المعري	الوافر	٤	٣٤٧
البعاد	—	الوافر	٤	٣٦٨
وغاد	أبو نواس	الطويل	١	١٤٩
الانتقاد	—	الوافر	٢	٥٥٥
الأحقاد	—	الكامل	٢	٥٥١
الرقاد	—	الخفيف	٤	٥٦٤
ورقادي	البسامي	الطويل	٢	٥٦٤
البلاد	—	الوافر	٢	٤٠٠
الميلاد	المتنبي	الخفيف	١	٤٦٨
السهاد	نقطويه	الخفيف	٤	٥٧٩
زياد	—	الوافر	٢	٢٧٨
زياد	مالك بن الخريت	الطويل	٢	٩٨
لزياد	—	الطويل	٢	٣٢٩
كالأعياد	الشافعي	الكامل	٢	٩٢
الأبد	—	البسيط	٢	٤٠١
الأبد	أبو الفتح بن خاقان	البسيط	٣	٥٦٢
كالزبد	ابن نباتة السعدي	المنسرح	١	١٩١
مزبد	الحارث بن هشام	الكامل	٤	٤٦٥
يجتدي	الرقاشي، وأشجع السلمي	الطويل	٤	٥١٨
المجد	أبو العتاهية	الكامل الأحذ	٢	٥٦٦
المجد	محمد بن يزيد الأموي	الطويل	٤	١٠٣
بمجلي	—	الخفيف	٥	٥٤٩
يجدي	بشار بن برد	الطويل	٤	٣١٧
أحد	أبو نواس	المنسرح	٢	٤٧٨
بواحد	—	الطويل	٣	٤٥٩
وحد	—	الكامل الأحذ	٣	١١٩
فازد	الغزالي	الكامل	٣	٥٨٥
الرد	عدي بن زيد	الطويل	٢	٥٣٧
الشوارد	سلم الخاسر	الطويل	٢	٣١٨

القفاهة	الشاعرا	البحر	عدد الأبيات	الصفحة
ترد	الأحنف بن قيس	البسيط	٢	٤٨٦
معرّد	عاتكة بنت زيد	الكامل	٢	٤٠٦
أسد	أبو دلالة	البسيط	٥	٤٥٧
حاسد	أبو فراس الحمداني	الطويل	٢	٦٠٣
مرشد	—	الكامل	٢	١٢٤
مقتصد	—	المنسرح	٢	٣٨٨
بعدي	—	الطويل	١	٩٢
وبعدي	جرير، والوليد بن يزيد	الوافر	٣	٥٤٩
يعدي	الخياط المدني، وبشار بن برد، ودعبل الخزاعي	الطويل	٢	٣١٨
تفد	البغا	الكامل	٧	٤٣٢
ناقد	—	الطويل	١	٦٠٠
الحقد	محمود الوراق	الكامل الأحذ	٢	٥٤٦
وتالد	العتابي	الطويل	٧	٥١٨
خالد	الفرزدق	الطويل	٢	٤٥٦
والجلد	أبو تمام	الطويل	١	١٤
مخلّد	الحطيئة	الطويل	٣	٣٢٠
المحامد	—	الطويل	١	٦٥
الحمد	بشار بن برد	الطويل	٢	٣٠١
عمد	—	الطويل	٢	٣٩٥
والفند	ابن الرومي	البسيط	٢	١٦٢
بزاهد	أبو تمام	الطويل	١	١٤١
مشاهد	محمود الوراق	الكامل	١	٢٨٠
بالسهد	—	البسيط	٣	٥٧٨
العهد	—	الطويل	٢	١٢٥
داود	بشار بن برد	البسيط	٢	٥١٣
الجود	مسلم بن الوليد	البسيط	١	٤١
بالجدود	—	الخفيف	١	١٧٩
بجدودي	المتنبى	الخفيف	١	١٣

الصفحة	عدد الأبيات	البحر	الشاعر	القافية
٦٠٥	٢	الكامل	أبو تمام	حسود
٦٠٥	٢	البيسط	—	محسود
٣٠٨	٢	الطويل	—	يسود
٤١٢	١	الخفيف	البحتري	العود
٥٢٠	٣	الكامل	الحسن بن معاوية	وقيود
٤٥٤	٢	الكامل	الفرار السلمي	يدي
٧١	١	الخفيف	الناجم	حديد
٣٣٩	١	الطويل	—	مزيد
٨٥	٢	الوافر	يزيد بن أبي مساحق	للوليد
١٢٧	٢	الكامل	محمد بن إدريس الطائي	التأييد

قافية الذال

الذال المضمومة

١١٨	٢	المجتث	الوزير المغربي	ملاذ
-----	---	--------	----------------	------

قافية الراء

الراء الساكنة

٥٤٥	٣	الرَّمَل	—	عثر
٢٣٥	٢	المتقارب	ابن نباتة السعدي، وعلي بن أبي طالب، وابن سينا	الحذر
١٠٦	٢	المتقارب	ابن مقلة	يسر
٣٣٧	٣	الطويل	أبو العتاهية	والنشز
٣٨٧	٢	السريع	—	الثغوز

الراء المفتوحة

٢٣٢	٢	الكامل	—	مكثارا
٥٧٣	٢	الكامل	—	جارا
٥٧٨	٢	البيسط	الصاحب بن عباد	دارا
٢٣٦	٢	البيسط	كعب بن زهير	أسرارا
٥٨٦	٢	البيسط	—	أثرا

القافية	الشاعر	البحر	عدد الأبيات	الصفحة
فأكثرًا	ربيعة الرقي	الطويل	٤	٤٠٠
فجرا	علي بن أبي طالب، والشافعي	البسيط	٢	٤٧٤
حرًا	-	الطويل	٢	٥٤٢
حرًا	-	مجزوء الرَّمَل	٢	٥٨٥
القدرا	الرياشي، والخليل بن أحمد	البسيط	١	٤١١
واعتذرا	-	البسيط	٢	٣٣٨
الحذرا	-	البسيط	٢	٥٣٦
مذرة	ابن بسام	المنسرح	٣	٨٩
يسرا	-	المتقارب	١	٥١٦
مقصرا	-	الطويل	١	٣٥٢
وقيصرا	جرير	الطويل	١	٤٣٥
جعفرا	-	المتقارب	١	٥١٦
وفرا	-	الطويل	٣	٣٨٤
ذكرا	سالم الإشكري	الطويل	٢	٥٧٢
مرّة	منصور الفقيه	مجزوء الكامل	٢	٢٣٥
ظاهرة	أبو بكر الكاتب	السريع	٢	١٧٢
ظاهرة	محمد بن حازم الباهلي	المنسرح	٣	٥٤٦
الدهرا	محمد بن حازم الباهلي	الطويل	٥	٥٥٢
مها	المعافى	الطويل	٢	٤١١
ومشاورا	محمود الوزّاق	الكامل	٢	١٢٢
مسرورا	ابن الهبارية	الكامل	٦	١٧٦

الراء المضمومة

العثارُ	-	الوافر	٣	٥٥٩
نثارُ	الموسوي	الوافر	١	٤٣٥
البحارُ	علي بن الجهم، والبحثري	مخلع البسيط	٦	٣٢٣
داروا	محمود الوراق	مجزوء الرَّمَل	٣	٦١
شراؤُ	ابن المعتز	الطويل	١	٤٣٣
انتصاره	-	مجزوء الكامل	٢	٤٧٣
قصارها	أبو تمام	الطويل	٣	٣٢٨
أشطارُ	ابن عبد ربه	البسيط	٤	٤٣٤

الصفحة	عدد الأبيات	البحر	الشاعر	القافية
٢٣	١	الوافر	-	العقارُ
٥٨٦	٢	المنسرح	-	صبرُ
١٢١	١	الطويل	أبو صخر الهذلي	صبرُ
١٠٧	٢	المتقارب	-	وصبرُ
٥٩٢	٣	الطويل	أبو بكر الخوارزمي	كبرُ
٩	١	الطويل	-	والسترُ
١٢٧	٢	البسيط	البحثري	والأثرُ
٣١	٢	البسيط	إبراهيم الصابي	متثرُ
١٧٠	١	الطويل	-	المعاجرُ
٣٢٥	٢	البسيط	-	الشجرُ
٣١	١	الطويل	زرعة بن سنان	بحرُ
٤٩٣	٣	الطويل	أوس بن حسان، والمغيرة ابن حنّاء	أواخرُة
٣٢١	٨	الطويل	عامر بن الظرب	الفخرُ
٤٣٨	٢	الطويل	مضر بن ربيعي الأسدي	المصادرُ
٥٠٨	٥	الكامل	-	القادرُ
١٢٦	٢	البسيط	العتبي	القدرُ
٤٤٨	٢	المنسرح	ابن كناسة	القدرُ
٥٧٤	٣	الكامل الأحذ	مسكين الدارمي	القدرُ
١٤٢	٢	الكامل	-	معادرُ
٥٨٧	٢	الوافر	-	عذرُ
٦٠١	٢	البسيط	أبو سليمان الخطابي	وِزرُ
٥٨٨	٢	الطويل	الشافعي	أعاشرةُ
٥٢٥	١	الكامل الأحذ	ابن قيس الرُّقَيّات	فالبشرُ
١٢١	١	الطويل	أبو صخر الهذلي	الحشرُ
٢٣٠	٢	البسيط	-	الحصرُ
٤٣٧	٢	الطويل	تأبط شراً، والسهروردي	مقصرُ
٣٣	٣	البسيط	مالك بن نويرة	نصرُوا
٤٩٢	٤	الطويل	أبو نواس	خضرُ
١٧٠	١	الطويل	-	ماطرُ
١٢٠	١	الطويل	أبو صخر الهذلي	القطرُ

القافية	الشاعر	البحر	عدد الأبيات	الصفحة
النظرُ	-	البيسط	١	٥٧
المسافرُ	معقر بن حمار البارقي	الطويل	١	٢٥٥
ذكروا	-	البيسط	١	٣٠٩
مذكرُ	ابن العودي	الكامل	٢	٣٤٩
نكرُ	أبو صخر الهذلي	الطويل	٢	٢٢٠
العمرُ	محمود الوراق	الطويل	٢	٥٦٢
ومرُ	-	مجزوء الكامل	٢	١١٨
ظاهرةُ	-	الطويل	١	٤٥
قاهرُ	-	الطويل	١	٤٠٩
قاهرُ	أبو زييد الطائي	الطويل	٤	٤٦٤
الجهُّ	أبو نواس	الطويل	١	٦٣
تسهرُ	-	الطويل	١	١٣٤
شهرُ	الحصين بن حمال	الطويل	١	٧٩
ونحورُها	-	الطويل	٢	٤٤٥
المقدورُ	-	الكامل	٢	١٧٦
السرورُ	محمد بن حازم الباهلي	الوافر	٢	٥٨٠
مسورُ	المسور بن مخزومة	الطويل	١	٨٤
مضورُ	العباس بن مرداس	الوافر	٩	٢٤١
عورُ	-	البيسط	٢	٥٩٢
كفورُ	-	الوافر	٢	٣٠٥
محقورُ	-	البيسط	٢	٣٩٨
الأمورُ	عنان، وأشجع السلمي، وسلم الخاسر، وعلي بن الجهم	الوافر	٢	٢٥٢
نور	ابن عباس	البيسط	٢	٢٤٥
مبهورُ	ابن المعتز، وبشر بن المعتمر	الكامل	١	٢١٦
وظهورُ	علي بن أبي طالب	الطويل	٢	٥٣٥
خيرُ	-	مجزوء الرَّمَل	٢	٥٨٤
المقاديرُ	-	البيسط	٢	٤٤٠
ضريرُ	بشار بن برد	الطويل	٣	٢٤٤
تغريُّ	طاهر بن الحسين	البيسط	٢	٤٣٦

القافية	الشاعر	البحر	عدد الأبيات	الصفحة
تسيرُ	آدم بن عبد العزيز	الطويل	٣	٥٢٩
الخطيرُ	أشجع السلمي، وسلم الخاسر، وعلي بن الجهم	الوافر	٢	١٢٨
نظيرُ	ابن المولى	مجزوء الكامل	٢	٣٣٩
حقيرُ	الخريمي	الرَّمَل	٢	٣٢٦
دنانيرُ	-	البسيط	٣	٣٨٠

الراء المكسورة

والجارِ	-	السريع	٢	٥٥٣
فدارِه	أبو الشمردل الكندي	الطويل	٢	٥٩٠
والدارِ	دعل الخزاعي، والأخطل	البسيط	٣	٣٨٣
جزَّارِ	الأعشى	البسيط	١١	٤٣
الأحرارِ	علي بن الجهم	الخفيف	٢	٢٢٠
أسراري	النمر بن تولب	البسيط	٢	٣٢
الأسارِ	ابن رشيق القيرواني	مخلع البسيط	٢	٤٤٩
الأنصارِ	كعب بن زهير	الكامل	٣	٤٠٦
لا تضاري	-	الوافر	٤	٣٦
والعارِ	الأخطل	البسيط	٢	٣٦٦
أوعارِ	-	السريع	٣	٥٥
أوعارِه	السري الرقاء	الكامل	٢	٢٣
نارِ	ابن وكيع التنيسي	الوافر	٢	٦٨
أو نارِ	أبو نواس	البسيط	١	٦٣
زوّاري	الحسن بن هانيء	المنسرح	٢	٣٩٥
لزوارِه	-	السريع	٢	٣٢٣
أنوارِ	أبو الفتح البستي	البسيط	١	٣٧٢
المقابرِ	-	الطويل	١	٢٩٩
المنايرِ	العتبي	الطويل	١	١٩٧
التبرِ	-	الطويل	٤	٤٦٠
لمعتبرِ	-	البسيط	١	١٥٦
للخبرِ	-	البسيط	٢	٥٥٠

القافية	الشاعر	البحر	عدد الأبيات	الصفحة
مخبري	ابن الخياط الدمشقي	الكامل	٢	٣٩٥
بالصبر	-	الطويل	٢	٤٤٣
مصطبر	-	المنسرح	٣	٤٢
والكبر	-	الطويل	٢	٨٨
البواتر	-	الطويل	٢	٢٩٠
دفترى	-	المتقارب	٥	٥٨٨
الأثر	علي بن أبي طالب	البسيط	٢	٤٤٢
مثرى	-	الطويل	٢	٢٩٤
الكوثر	-	المتقارب	٢	٩٨
أجر	-	الطويل	١	٣٥٨
الأجر	-	الطويل	١	٤٧٧
أجرى	عبد الله بن طاهر	الخفيف	٢	٤٧٥
التهاجر	يحيى بن زياد الحارثي	الطويل	٢	١٣٧
الشواجر	الجحاف بن حكيم	الطويل	١	٤٦٢
البحر	العكوك	الطويل	٣	٣٢٢
الذخر	-	الكامل الأحذ	٣	٥٦٩
بقادر	-	الكامل	٢	٢٢٥
الغدير	-	الطويل	٣	٥٥٢
الكدر	ابن عسكر الموصل	البسيط	٣	٣٢٧
ودر	أبو نواس	الوافر	٤	٣٦٧
يدري	-	الطويل	٢	٥٥٧
يدري	-	الطويل	٣	١٧٧
يدري	محي الدين محمد النحوي	الطويل	٢	٨٨
لا يدري	أبو الغول الطهوي	الطويل	١	١٤
ذر	الحكم بن عبدل	الكامل	٢	١٧٩
الحذر	-	البسيط	٢	٤٨
عذر	أبو إسحق الصابي	الهمزج	٥	٥٦١
العذر	محمود الوراق	الطويل	١	٤٧٥
يزري	-	الطويل	٢	٣٩٤
كسري	-	الطويل	٥	٤٧١

القافية	الشاعر	البحر	عدد الأبيات	الصفحة
النسر	-	الطويل	٤	٥٩٤
واليسر	بشر بن المعتمر	السريع	٤	١١١
واليسر	علي بن أبي طالب، وصالح بن عبد القدوس، ومحمود الوراق	الطويل	٢	٣٩٣
الحضر	-	المتقارب	١	٩٨
الشعر	أبو العلاء المعري	البسيط	١	٢٥٠
للشعر	-	البسيط	٢	٢١٨
وعر	-	الطويل	٢	٤٩٤
الصارف	عمران بن حطان	الكامل	٣	٤٥٦
والخفر	النابعة الذبياني	البسيط	٣	٣٣٦
المغفر	-	الكامل	٣	٤١٤
بمقفر	ابن الرومي	الكامل	٥	٣٤٨
الكفر	-	السريع	١	٢٢٦
والفقر	-	الطويل	٤	٣٤٠
مقر	-	الوافر	٢	٤٧٤
مقر	-	الوافر	٢	٥٤٥
شاكِر	الوليد بن يزيد	السريع	٢	٨٥
والبكر	-	البسيط	٢	٤٤٣
الذكر	المأمون	السريع	٢	٣٢٧
ذكرة	-	الطويل	٢	٣٢٦
الشكر	-	الهمزج	٢	٣٥٣
منكر	-	السريع	٢	٢٤٢
الأمر	أبو نصر الميكالي	السريع	٢	٤١٢
أم عامر	-	الطويل	٤	٣٥٧
وعامر	الأخطل	الطويل	١	٤٦٢
أبا عمرو	-	مجزوء الوافر	١	٢٧٧
قاهر	-	السريع	٣	٤٩٠
الدهر	-	الطويل	٢	٤١٣
الدهر	-	الطويل	٢	٤٣٧
الدهر	-	السريع	٢	٥١٨

القافية	الشاعر	البحر	عدد الأبيات	الصفحة
الجوهر	-	الكامل	٢	١١٦
والنحور	-	الوافر	٢	٤١٤
منصور	أبو الشمقمق، وعلي بن الجهم	البيسط	٢	٣٦٧
شكور	-	الوافر	١	٣٠٥
السري	-	الوافر	١	٢٨٩
بتغري	علي بن أبي طالب	البيسط	١	٤١١
العصير	-	السريع	٢	٦٠
تقصيري	الخليل بن أحمد الفراهيدي	البيسط	١	٢٠٠
البعير	-	الوافر	١	٢٨٩
للفقي	أبو حرمة العبدي	الوافر	١	٤٥٩
الأمير	-	الوافر	٢	٢٨٩
للحمير	ابن الرومي	الخفيف	٣	١٥٦
المنير	المؤمل بن إميل	الوافر	٧	٣٧٦
الأباهير	-	البيسط	٢	١٤٤

قافية الزاي

الزاي المكسورة

الإنجاز	الحيص بيص	الكامل	٢	٣٢٩
---------	-----------	--------	---	-----

قافية السين

السين الساكنة

مقتبس	ابن الحباب	المقارب	٣	٥٦٨
-------	------------	---------	---	-----

السين المفتوحة

رأسا	محمد بن نصر	البيسط	٢	٤٨٥
أنسا	-	الطويل	٤	٥٨٥
أنسا	-	مجزوء الرَّمَل	٢	٥٨٥
جليسا	علي بن عبد العزيز الجرجاني	الخفيف	٣	٥٨٨

السين المضمومة

لباس	-	الكامل	٢	٥٥
------	---	--------	---	----

الصفحة	عدد الأبيات	البحر	الشاعر	القافية
٤٥٩	٢	الوافر	الأعور الشني	المراسُ
٢١٠	٤	مجزوء الرَّمَل	طَلَقَ	ناسُ
٣٩٦	٥	المنسرح	أبو العيناء	حرسُ
٥٥	٢	الطويل	—	الإنسُ

السين المكسورة

٥١١	١٠	الخفيف	سديف بن ميمون	العباسُ
٥٩٣	٤	البسيط	—	الراسُ
١٧٦	٣	الكامل	—	وشراسُ
٥٧١	٣	الطويل	الصابي	أنفاسُ
٥٥	١	الكامل	—	كاسي
٣٣٧	٣	البسيط	أبو العتاهية	وجلاسُ
١٦٨	١	السريع	العباس بن الأحنف	بالتاسُ
٣٧٣	٣	البسيط	محمد بن حازم	الياسُ
٤٦٥	٧	الطويل	عمرو بن معديكرب	عبسُ
١١٥	٥	الكامل	شريح القاضي، وأبو الأسود	الأرجسُ
٣٩٩	٥	الوافر	—	وترسي
١٩٧	٢	الخفيف	أبو العباس الأعمى	خزسُ
٢٣٤	٣	البسيط	الفضل بن الحباب	خرسُ
١٨٥	٢	الكامل	—	الأخرسُ
٣٠٥	٣	الطويل	ابن الدمينه	نفسى
٩٠	٣	الطويل	—	نفسى
٣٨٦	٢	الوافر	—	أنسُ

قافية الشين

الشين المضمومة

٣٤٥	٢	الطويل	بشار بن برد	رشاشُها
-----	---	--------	-------------	---------

قافية الصاد

الصاد المضمومة

٩٣	٢	الطويل	—	مختصُ
----	---	--------	---	-------

القافية	الشاعر	البحر	عدد الأبيات	الصفحة
ينغضُ	-	الطويل	٢	٦٠٦
خميضُ	-	الطويل	٢	٣٠٦
الصاد المكسورة				
تخصيص	-	الكامل	١	٥٥٠
تعصيه	صالح بن عبد القدوس، وطرفة بن العبد، وعبد الله بن معاوية	المقارب	٢	١٢٢
ناقص	الطغرائي	الكامل	٢	١٢٣
قافية الضاد				
الضاد المفتوحة				
عرضا	مجنون ليلي	الطويل	١	٤٦١
وفرضا	الخبزأرزي	الخفيف	٢	٤٩٠
القريضا	أبو تمام	الخفيف	٢	٥٦٢
الضاد المضمومة				
عريضُ	السحيمي	الطويل	٢	٩٢
الضاد المكسورة				
بالمقاضي	بشار بن برد	الخفيف	٢	٣٤٥
عرضي	-	الطويل	٢	٣٩٣
ينقضي	-	المقارب	٢	٤٩٠
ومستغمض	-	المقارب	٢	١٢٣
بغيفض	ابن بسام	مجزوء الرَّمَل	٢	٥٨٢
قافية الطاء				
الطاء المفتوحة				
سقطا	ابن شرف القيرواني	البيسط	٢	٦٨
الطاء المضمومة				
تسخطوا	دعبل الخزاعي	السريع	٤	١٤٣

الصفحة	عدد الأبيات	البحر	الشاعر	القافية
الظاء المكسورة				
٢٠٨	٢	الكامل	-	ساقط
قافية الظاء				
الظاء المضمومة				
١١٦	١	البسيط	-	محفوظ
الظاء المكسورة				
٦٩	٢	الوافر	-	عكاظ
٢٤٢	٢	الكامل	أحمد بن سلامة الكتبي	الجاحظ
قافية العين				
العين الساكنة				
٢٦٩	٤	الهمز	مسيلمة الكذاب	المضجع
٦١	٢	مجزوء الكامل	-	للطمع
العين المفتوحة				
١٧٤	٢	الطويل	ابن الهبارية	ضائعا
٥٩٣	٢	السريع	-	أطباعة
٥٦٣	٦	الكامل	-	مودعا
٤٣٦	١	الطويل	تأبط شراً	مصرعا
٢٩٠	١	مجزوء الكامل	-	الواسعة
٦٠٢	٢	البسيط	-	قطعا
٤٣٩	١	البسيط	مروان بن أبي حفصة	قطعا
٤٥٩	١	الطويل	الأسود بن يعفر	تقطعا
١٠٦	٣	الطويل	-	منفعة
٧٠	١	البسيط	-	واجتمعا
العين المضمومة				
٣٥٨	٢	الطويل	-	ضائع
٣٥٧	٢	السريع	علي بن أبي طالب	ضائع

الصفحة	عدد الأبيات	البحر	الشاعر	القافية
٦٠٦	١	الوافر	-	تباغ
٣٤٢	٧	الكامل	-	المبتاغ
٥٣	٢	الوافر	البحثري	وارتفاع
٢٤٢	٥	الكامل	العطوي	مخادع
٣٥	٢	البسيط	-	شرعوا
٣٤٦	٣	الكامل	الخليل بن أحمد الفراهيدي	المكرع
٣٣٣	٣	البسيط	أبو دلالة	الجزع
٤٤٣	٢	الكامل	ابن منقذ	تتضعض
٤٧٩	٢	الخفيف	إبراهيم اليزيدي	وضعوه
٢٩٠	٣	الطويل	عبد الله بن راحة	ساطع
٥٠٨	٢	الكامل	-	تقطع
١٨١	٢	الطويل	ابن نباتة	رافع
٤١٠	١	الكامل	-	رافع
١٧٢	٢	الكامل	المتنبي	يتوقع
٥٥٣	٢	الطويل	-	جامعة
٣٠٤	٢	البسيط	-	يجتمع
٤١٩	٢	الطويل	-	تصنع
٥٣٦	٢	الكامل	-	يصنع
١٢	١	الكامل	أبو ذؤيب الهذلي	تقع
٤٦٩	٢	الكامل	-	الأمع
٣٩٦	٢	الطويل	-	وخضوع
١٠٩	٣	الهمز	علي بن أبي طالب	ومسموع
٤٩٤	١	الطويل	البحثري	ضجيعها
٥٣	٢	الطويل	نجم الدين الغزي	رفيع
٣٣٢	١	الطويل	-	شفيع
٢٨٧	٢	الطويل	حميد بن ثور	رقيع

العين المكسورة

٣١٨	٢	مجزوء الرجز	-	الطبائع
٣٥٧	٤	الطويل	عبد الله بن همام السلولي	الودائع
٤٤٨	٣	الوافر	قطري بن الفجاءة	تراعي

الصفحة	عدد الأبيات	البحر	الشاعر	القافية
٣٥٢	٢	الطويل	ابن حيوس	المتتابع
٢١٥	١	الطويل	-	الأصابع
١١٩	٣	المتقارب	الخيزأرزي	مستمع
٨٠	٣	الكامل	ابن الدويرة	المودع
١٥	٢	الكامل	ابن مقلّة	المترفّع
٤١	١	الكامل	عمارة بن حمزة	لم ينفع
١٠٦	٢	مخلع البسيط	-	المجامع
٣٨٤	١	الطويل	-	المطامع
٥١٧	١	البسيط	-	والجمع
٣٥	٤	الكامل	أبو العمثيل الأعرابي	واسمع
١٣٦	١	الكامل	-	تسمع
٧٥	١	الطويل	-	فاصنع
٣٦٨	٢	البسيط	-	مدفوع

قافية الغين

الغين الساكنة

٥٦٠	٦	مجزوء الرّمل	-	فارغ
-----	---	--------------	---	------

الغين المكسورة

١٣٠	٢	البسيط	ثمّامة الباهلي	الباغي
٢١٩	١	الطويل	قيس بن ذريح	بليغ

قافية الفاء

الفاء الساكنة

١٧٠	٤	الرّمل	ماني الموسوس	العجف
٤٨٣	٢	الرّمل	أبو علي الزوزني	السرف
٤٨٧	٣	المتقارب	إسحق الموصلي	فانكشف

الفاء المفتوحة

٣٥٣	٣	الكامل الأخذ	أبو نواس	ومعترفا
٥٤٥	٢	الطويل	-	أحرفا

القفاففة	الشاعر	البحر	عدد الأفاء	الصفحة
سلفا	الناشئ الأكبر	الكامل الأحذ	٢	٣٤٩
خروفا	الحسن الدقاق	الكامل	٣	٣٦٨
شرفه	ابن الرومي	الوافر	٣	٩٢
الرغيفا	ابن الخياط	الخفيف	٢	٣٦٩
عقيفا	—	الكامل	٢	٥٣٦
التخفيفا	أمين الدين المحلي	الكامل	٢	٥٦٥

الفاء المضمومة

عجاف	عبد الله بن الزبعرى	الكامل	١	٣٠٩
إنصاف	أبو الفتح البستي	السريع	٢	٥٣٨
وإنصاف	—	السريع	٢	٥٠
أوصافه	أبو إسحق الصابي	الكامل	٣	١٩٠
سلاف	مهار الديلمي	الكامل	٢	٤٩١
معترف	—	البسيط	٣	٤٩٠
والسرف	طاهر بن الحسين، وعلي بن أبي طالب	البسيط	٢	٣٥٩
شرفه	—	المنسرح	١	١٥٠
أعرف	هدبة بن الخشرم	الطويل	١	٢١٢
عاصف	—	الطويل	٥	٥٩٧
سيتلفه	ابن الرومي	المنسرح	٤	٤٤٦
تكلف	—	الطويل	٣	٥٨٧
وأطوف	—	الطويل	٩	٣٤٠
الملهوف	—	الكامل	٢	٣٤٩
شريف	بكر بن عبد العزيز	الخفيف	١	٤٤٥
الضيف	علي بن محمد العلوي	البسيط	٢	٣٠٦

الفاء المكسورة

الأشراف	—	الكامل	٧	٤١٥
الإشراف	الراضي بالله	الكامل	٢	٣٥٩
بالإنصاف	—	الخفيف	٢	٤٧٥
أخلافها	أنس بن أبي شيخ	السريع	٢	١٤٠
المكتفي	—	الرمل	٣	٣٨٩

الصفحة	عدد الأبيات	البحر	الشاعر	القافية
٥٥	٢	البيسط	أبو عفان	السدف
٣٦٠	١	الكامل	البحثري	بمسرف
٤٥٤	٤	البيسط	أحمد بن أبي فتن، والعكوك	قف
٥٤٣	١	الطويل	السري الرقاء	المخالف
١٦٩	٣	الكامل الأحذ	غورث المجنون	التلف
٤١	٢	مجزوء الكامل	—	الصروف
١٧٠	٤	مجزوء الكامل	—	السيوف
٣٦٩	٢	الخفيف	—	الرغيف
٤٦	٩	الوافر	ميسون بنت بحدل	منيف

قافية القاف

القاف الساكنة

٥٧٥	٢	الرَّمَل	الحلاج	العبق
١٠٤	٢	الرَّمَل	ابن الأعرابي	غدق
١٥٥	٤	الرَّمَل	مسكين الدارمي	الخلق

القاف المفتوحة

٢٠٩	٢	الوافر	—	الوراقه
٤٥٥	٣	الطويل	الفرزدق	سابقا
٢٨٤	١	الهجج	—	النبقا
٧٠	٢	الطويل	—	صادقا
٢٨٧	١	مجزوء الرَّمَل	أبو نواس	حمقا
١٧٥	٣	البيسط	الخبزأرزي	ومرموقا
١٢٤	٣	الوافر	أبو الفتح البستي	بالوثيقه
٦٠	٢	مجزوء الكامل	إبراهيم بن العباس	الطريقا

القاف المضمومة

٥٤١	٤	الطويل	—	الخلانق
٣٠٣	٢	الطويل	سالم الأنباري	العوائق
٣٥٩	٢	البيسط	علي بن ذكوان، وجحظة البرمكي	أرزاق
٣٩٥	٢	الطويل	—	وصدقوا

القافية	الشاعر	البحر	عدد الأبيات	الصفحة
والخرقُ	-	البسيط	١	٤٤١
ويخرقُ	-	الكامل	١	٤٤١
تغرقُ	دعبل الخزاعي	المتقارب	٣	٣٣٨
ورقُ	-	البسيط	٣	٧٤
الورقُ	-	المنسرح	٢	٣٩٨
ويرزقُ	ابن الهبارية	الكامل	٤	١٨٠
لاصقُ	-	الطويل	١	١٩١
نطقوا	ابن قيس الرُّقَيَات	المنسرح	١	١٤٨
والملقُ	العرجي	البسيط	٢	٥٩
إذا رمقوا	الشافعي	الطويل	٢	٥٩
ينطقُ	-	الطويل	٢	١٣٦
وينطقُ	ابن خفاجة	الكامل	٢	٢٣٦
موفقُ	قيلة بنت الحارث	الكامل	١٠	٥٠٦
مطلقُ	العتابي	الطويل	٢	٣٤٤
مغلُقُ	ابن منير الطرابلسي، وإبراهيم الغزي	الكامل	٢	٢١٢
طريقُ	-	الطويل	٢	١١٩
أضيقُ	العتبي، وعليّ بن أبي طالب	الطويل	٢	٢٣٥
خليقُ	إبراهيم بن العباس الصولي	المتقارب	٢	٥٨٦

القاف المكسورة

الخلائقُ	الفرزدق	الطويل	١	١٩٥
والخلائقُ	المتنبي	الطويل	١	١٤
الباقي	-	البسيط	٢	٣٦٠
وميثاقه	-	المنسرح	٢	٥٩٣
المذاقُ	ابن دانيال الموصلّي	الخفيف	٢	٢٠٧
الأرزاقُ	صريع الغواني	الكامل	٤	٣٢١
العشاقُ	أبو الشيص الخزاعي	الكامل	٣	٢٤
التلاقي	أبو تمام	الخفيف	١	٥٩٩
التلاقي	الصنوبري	الخفيف	٢	٢٢٠
الخلّاقُ	عدي بن زيد	الخفيف	١	٢٩١
الأخلاقُ	الصولي	الخفيف	٢	٣٦٠

القافية	الشاعر	البحر	عدد الأبيات	الصفحة
بالطلاق	أبو تمام	الوافر	١	٧٢
بالإملاق	-	الخفيف	٢	٣٩٦
طبق	-	البسيط	٣	٥٦٧
المطبق	الباخرزي	المتقارب	٢	٢٥٣
الأصادق	الشريف الرضي	الطويل	١	٥٩٩
صدق	-	الوافر	٣	٥٨٦
تصدق	-	المتقارب	٢	٣٨٥
ومصدق	كشاجم	الكامل	٢	١٣
والخرق	-	السريع	٢	١٧٢
الشرق	أبو الحسن المائق	الهمزج	٦	١٧٨
الممزق	-	الطويل	٣	٨٠
بالنطق	صالح بن عبد القدوس	الكامل	١	٢٢٧
منطقي	إسماعيل بن معمر القراطيسي	السريع	٣	٢٤٢
المنطق	-	الكامل	١	٢٣٣
المنطق	-	المتقارب	١	٢٣٠
بالمنطق	-	الكامل	١	٢٣٣
المتدق	-	الكامل	٤	٥٥١
المدلق	-	الطويل	١	٣٤
مغلقي	الشافعي	الكامل	٨	١٨١
الأحمق	ابن بسام	الكامل	٢	١٥٥
فوق	-	البسيط	٢	٢٠٥
والحقوقي	إبراهيم الصولي	الوافر	١	٣٢٥
سحيق	-	الخفيف	٢	١٤٤
صديق	-	الخفيف	٨	٥٥٤
صديق	-	الوافر	٢	٥٩٥
الصديق	-	الوافر	٣	٥٥١
الصديق	-	الوافر	٣	٥٩٦
الصديق	عبد المحسن الصوري	الخفيف	١	٥٨٧
بريقي	أبو زبيد الطائي	الوافر	٢	٥٤٧
بمفيقي	عبد الله بن طاهر	الطويل	٢	٥٤٧

القافية	الشاعر	البحر	عدد الأبيات	الصفحة
الشقيقي	علي بن الجهم	الوافر	٢	٥٤٣
الطليقي	محمد بن حازم الباهلي	الوافر	١	٢٢

قافية الكاف

الكاف الساكنة

يعجبك	أحمد بن أبي طاهر	المتقارب	٢	١٥
باسك	أبو نواس	مجزوء الكامل	٣	٤٧٨
لنفسك	أبو العتاهية	مجزوء الرَّمَل	٢	٥٠٦
قلقك	أبو تمام	المنسرح	٣	٥٦٣
واعتللك	-	الوافر	٢	٣٤٧
عادلک	أبو نصر الميكالي	مجزوء الرجز	٢	٥٤١
يلزملك	-	الرَّمَل	٢	٤٩٨
رأيك	-	مجزوء الكامل	٢	٤٩١
شريك	-	مجزوء الرَّمَل	٣	٥٦٠

الكاف المفتوحة

أنباکها	أبو الأسود الدؤلي	الكامل	٢	٦٦
أوراکة	ابن أبي الثياب	السريع	٢	٩١
أخطاکا	-	السريع	٢	٣٣١
قفاکا	أبو تمام	الخفيف	١	٢٨٨
استهلاکا	-	الطويل	٢	٥٥٠
رواکا	-	السريع	٢	٣٣١
هواکا	-	الكامل	١	١١٨
عدلتکا	الخليل بن أحمد الفراهيدي	الكامل	٢	٢٥٢
مالکا	أبو الأسود الدؤلي	الطويل	١	٣٧٠
هنالکا	ابن الرومي	الطويل	٢	٤٧
کذلکا	-	الطويل	١	١٦١
مسلکا	ابن غلبون	الطويل	٢	٥٥٨
يأتیکا	سعدون	الهزج	٤	٢٩٥
فيکا	-	الطويل	٥	٥٣٩

القافية	الشاعر	البحر	عدد الأبيات	الصفحة
وفيكَا	—	الطويل	٢	٥٧٨
مساويكا	محمود الوراق	البسيط	٢	١٣٤
الكاف المضمومة				
مالْكُه	أبو العتاهية	الطويل	٢	٣٠٠
سمكُوا	سهل بن هارون	البسيط	٢	١٤
الكاف المكسورة				
أَبْلَاكِ	إسحق الموصلي	الكامل	١	١٤٩
المسكِ	—	الطويل	١	٨
الفلَكِ	—	المنسرح	٢	١٠٤
البرامِكِ	أشجع السلمي	الطويل	٢	٥١٨

قافية اللام

اللام الساكنة

السؤال	ابن أبي البغل	المتقارب	٣	٣٤٥
والكمان	—	السريع	٢	١٥٦
فاضمحل	—	الرَّمَل	٢	١٤٠
الأسل	ابن الزبيرى	الرَّمَل	١	٤٣٠
الجمال	عثمان بن حنيف	المتقارب	٣	٤١٩
بالمولود	سعيد بن حميد	السريع	٤	٥٥٢
ظليل	جحظة البرمكي	الكامل الأخذ	٢	٢١٠

اللام المفتوحة

حبلا	أبو العتاهية	الكامل	٤	٣٣٦
مختالا	—	الكامل	٢	٢١٣
ورجالا	جرير	الكامل	١	٤٦٠
حالا	ابن النقيب	الكامل	٣	٧١
والنزالا	المتنبي	الخفيف	١	٤٥٧

الصفحة	عدد الأبيات	البحر	الشاعر	القافية
٥٤٩	٢	الطويل	ابن الرومي	نصائلها
٥٦٧	٢	الوافر	أبو العتاهية	الوصالا
٣٢٠	٤	الكامل	—	قالها
٤٠٠	٧	الكامل	—	فقالا
٢٨٩	١	البسيط	المتنبي	مثلا
٤٥٠، ٤٦١	١	البسيط	المتنبي	رجلا
١٢٦	٢	الطويل	عيسى بن علي	تتعجلا
٢٥٥	٢	الكامل	أبو الشمقمق	معجلا
٢٤٦	٤	الكامل	السري الرفاء	عادلا
٩٣	٢	الخفيف	—	نزلا
٢٣٧	٢	الطويل	—	النذلا
٤٣٠	١	الطويل	مالك بن الربيع	منازلا
٢٤٨	٦	الكامل	السري الرفاء	مناصلا
١٩١	٢	الطويل	حسان بن ثابت	فصلا
١٥٧	١	الطويل	—	فاضلا
٣٨٦	٣	الخفيف	—	فضله
٥٦٠	٢	الطويل	—	التفضلا
١٥٧	٣	البسيط	—	مشتغلا
٥١٨	٢	الرمل	—	المنتقلة
٥٣٨	٣	الطويل	—	عقلا
٢٥٢	١	الطويل	أبو تمام	مشكلا
٣٦١	١	الطويل	—	مهلا
٣٠٢	٢	الكامل	ابن دريد	مسؤولا
١٩٠	١	الكامل	المتنبي	عقولا
٤٨٩	٣	الكامل	—	المأمولا
٥١٢	٢	المتقارب	بشامة بن الغدير	وببلا
٦٩	٢	معجزه الكامل	محمود بن مروان	حيله
٣٢٦، ٣٠٤	٢	المتقارب	—	البخيلا
٤٠٩	٥	الكامل	بكر بن النطاح	قنديلا
٤١٧	٧	الكامل	جرير	هديلا

القافية	الشاعر	البحر	عدد الأبيات	الصفحة
جبريلا	مسلم بن الوليد	الكامل	٢	٤١٤
نزيلا	هارون الرشيد	الكامل	٤	٥٦٥
ثقيلا	-	الكامل	١	٥٧٦
عليلا	محمد بن عبد الملك الزيات	الخفيف	٥	٥٦٢
الجميلة	-	مجزوء الكامل	٢	٥٦٨

اللام المضمومة

شمائله	البحثري	الطويل	١	٢٣
حبائله	سعدون	الكامل	٥	٢٩٦
قتال	المتنبي	البسيط	٢	٣٢٤
حال	علي بن الجهم	السريع	٥	١٠٤
اشتعالها	زبان بن سيار	الطويل	١	٢١٥
مقال	-	الطويل	١	١١٨
ركال	محمد بن الفضل	الكامل	٥	٢٧٨
المال	منصور الفقيه	البسيط	١	٣٩٣
الآمال	-	الكامل	٣	٣٢٣
الأجل	-	المتقارب	٢	٤٤٩
وبجلوه	-	مخلع البسيط	٢	٤٩٥
عجلوا	القطامي	البسيط	١	٤٤٢
معجل	-	الطويل	١	٢٣١
ثم حل	-	الوافر	٢	٤٩
بُخل	صالح بن عبد القدوس	الخفيف	٢	٣٥٧
تبخلوا	أبو الشمقمق	الكامل	١	٣٥٦
وتبدلوا	-	الكامل	٢	٥٩٣
خردل	-	الطويل	١	١٦١
تذله	أبو نواس، وأبو فراس الحمداني	مجزوء الكامل	٢	٥٠٠
وأجزلوا	مروان بن أبي حفصة	الطويل	٢	٣٣
مغزل	أبو العلاء المعري	الكامل	٢	١٨٠
منزل	مروان بن أبي حفصة	الطويل	١	٣٩
والوشل	الكميت	البسيط	٢	٣٢١
ومفاصله	-	الطويل	٢	٥٥٤

الصفحة	عدد الأبيات	البحر	الشاعر	القافية
٢١٨	١	الطويل	الرمادي	واصلُ
٣٧٠	٣	الطويل	عليّ بن أبي طالب، ودعل الخزاعي، والأقيشر الأسدي، وصرع الغواني	نَصلُ
٤٩٩	٥	الطويل	إبراهيم بن المهدي	أفضلُ
٤٧٧	٢	الطويل	إبراهيم الصولي	الفضلُ
٣١٨	٥	الطويل	مروان بن أبي حفصة	الفضلُ
٨٢	٣	الطويل	الفضل بن مروان	والفضلُ
٥٩٢	٤	البسيط	-	ظلُ
٤١٤	٢	المنسرح	البيغا	تُتعلُ
٥٩	٢	الطويل	صالح بن عبد القدّوس	فعلُهُ
٥٨	١	الطويل	عبد الله بن همام السلولي	الفعلُ
٥٩٦	٢	البسيط	منصور الفقيه	غلُ
٢١٥	١	الطويل	-	محفلُ
٤١٤	٢	البسيط	البحثري، والبيغا	كفلُ
١٤٠	٢	الطويل	الخريمي	عقلُ
١١٨	٢	الطويل	-	ثواكلُهُ
٧٠	١	الكامل	أمية بن أبي الصلت	موكلُ
٢٣٢	٢	الطويل	الخبزأرزي	موكلُ
٤٤١	١	البسيط	القطامي	الزللُ
١٣٦	٢	الطويل	-	فأجاملُهُ
١١٩	١	الطويل	-	كاملُهُ
٣٢٢	٣	الكامل	ابن هانيء	هواملُ
٤٨٠	٤	الطويل	-	أجملُ
١٣٧	٢	الطويل	أوس بن حجر، وزهير بن أبي سلمى، وكعب بن زهير	جاهلُ
١٣٥	٢	الكامل	أبو الفضل الحيري	جاهلُ
٥٧٠	٢	الطويل	كُتير عَزّة	جاهلُهُ
١٧٧	٢	الكامل	-	جهلُهُ
١٧٣	١	الطويل	البحثري	الجهلُ
١٠٣	٢	الكامل	-	الأوّلُ

الصفحة	عدد الأبيات	البحر	الشاعر	القافية
٣٣٢	٣	الوافر	-	سؤؤل
٦٠٣	٢	الطويل	المتنبى	يحول
٤٨٩	٢	البيسط	-	مبذؤل
١٥٠	١	البيسط	-	معزؤل
٣٣٠	١	الطويل	-	رسؤل
٣٢٨	٢	الكامل	-	ممطؤلها
٤٩١	٢	الوافر	-	تقول
١٥٤	١	الخفيف	-	العقول
٦٠٠	٢	الطويل	-	يقول
٣٥٥	٢	الكامل	-	فتمؤلوا
٤٣٤	٣	الوافر	أبو بكر الخوارزمي	همؤل
٣٧٥	٣	الطويل	ابن هرمة	المزائل
٤٤٥	٢	الطويل	السمؤل بن عادياء	قتيل
٣٢٧	٢	الوافر	ابن الرومي	البخيل
٤٣١	٢	الكامل	السلامي	مختيل
٣٤٧	٤	الوافر	البحري	الأصيل
٥٧٨	١	الخفيف	حماد الراوية	يطيل
٧٥	٢	الكامل	دعبل الخزاعي	جليل
٣٦٣	٢	الطويل	إسحق الموصلي	خليل
٢٣٣	٢	الطويل	-	قليل
٣٢	٣	الطويل	بشر الفزاري	قليل
٥٣٦	٤	الوافر	حسان بن ثابت	قليل
١٠٢	٢	الطويل	السمؤل بن عادياء	قليل
٥٧٨	١	الخفيف	مطيع بن إياس	القليل
١٣٤	١	الطويل	-	فكليل
٥٧١	٢	الطويل	الشريف المرتضى	طويل

اللام المكسورة

٣٣١	٣	المقارب	ابن هرمة	والنائل
٣٧٢	٢	الكامل	أبو العتاهية	بسؤل
١٨٠	٢	الكامل	-	والإقبال

القافية	الشاعر	البحر	عدد الأبيات	الصفحة
حالي	-	مجزوء الرَّمَل	٦	٣٩٦
حال	إسحق الموصلي	البسيط	٢	١٠٦
عن حال	ابن المفجع	الكامل	٢	١٠٣
نزالي	-	الخفيف	٢	٤١٥
المعالي	سلم الخاسر	مجزوء الكامل	٨	٣١٧
المقال	-	الوافر	٢	٢٢٠
خلالة	البحري	الطويل	٢	١١٣
الزلال	الرَّمَل	الحلاج	٢	٥٧٥
الملال	-	الخفيف	١	٥٥٨
مال	-	مجزوء الكامل	٢	٣٩٠
مالي	إسحق الموصلي، وعبد الله بن معاوية	الوافر	٢	٣٩٤
مالي	المكبري	السريع	٢	٥٧٠
المال	الخليل بن أحمد، ومحمد بن حازم	البسيط	٢	٣٩٣
جمالي	-	المتقارب	٢	٣٦٠
الجمال	-	الخفيف	١	١٦١
والإجمال	-	الطويل	١	١٣٥
وشمال	الباخري	الطويل	٦	٥٧٧
وأحوالي	-	البسيط	٢	٣٠٤
السموأل	سعيد بن عنين	الطويل	٢	٤٤
الإبل	ماني الموسوس	البسيط	٦	١٧١
وقنابل	ابن عبد ربه	الطويل	٥	٤٣٢
الحبل	-	الطويل	٢	٢٣٧
المستقبل	البحري	الكامل	٢	١٢٥
بالمقبل	عبيد الله بن عروة	الكامل	٢	٢١٢
إلى مثله	-	السريع	٢	١٥
الرَّجُل	علي بن أبي طالب	الطويل	١	١٤٢
بالرجل	-	البسيط	١	٣٩٣
رجلي	المغيرة بن حبياء	الطويل	٣	٣٢
محل	-	الطويل	٢	٣٢٠
المدل	ابن المعتز	الوافر	١	١٠٥

الصفحة	عدد الأبيات	البحر	الشاعر	القافية
٣٩٩	٢	السريع	ابن الرومي	بذله
١٣٢	٢	الطويل	عبد الله بن طاهر	والبذل
٣٦٥	٢	الكامل	—	المنزل
٥٩	٢	البسيط	ابن جبير	العسل
١٣٦	٢	الطويل	ابن كناسة	المواصل
٨٣	٧	الطويل	دعبل الخزاعي	للفضل
٣٣٢	٥	الكامل	—	مفضل
٣٢١	١	الكامل	—	الهاطل
٢٥٨	٢	المنسرح	ابن كناسة	بطل
٢٥	٢	الكامل	أبو تمام	الحنظلي
١٢	١	الطويل	المقنع الكندي	فاجعل
٢٨٠	٦	الطويل	—	من عل
١٥٧	١	الطويل	—	طفل
٣٧٠	١	الطويل	البحثري	قفل
٤٧٦	١	الطويل	الجعفري	نوفل
١٧٨	٢	الطويل	—	عافل
١٧٨	٣	الطويل	—	عقل
١٧٣	١	الخفيف	—	عقلي
٥٣٨	٤	الطويل	حاتم الطائي	شكلي
٥٣٨	٢	الطويل	أبو سليمان الخطابي	الشكل
٣٤٦	٣	البسيط	ابن الرومي	حلل
٤٩٢	٢	البسيط	إسحق الموصلي	زلي
٣٣٣	٢	الكامل	أبو دلف	نقل
٣٠٧	٢	الكامل	—	وتهلل
٣٥٥	٣	المنسرح	ابن هرمة	جمل
٣٥٨	٣	المتقارب	—	حملة
٢٩٧	٣	الطويل	سابق المعتوه	جاهل
٤٧١	٢	الطويل	—	بالجهل
٤٧٢	٣	الطويل	الناشيء الأكبر	بالجهل
٢٥	٢	الطويل	المتنبي	السهل

القافية	الشاعر	البحر	عدد الأبيات	الصفحة
بسؤول	كعب بن سعد الغنوي	الطويل	٢	٢٣٦
قبول	سعيد بن حميد	الخفيف	٣	٥٦٨
العقول	الخليل بن أحمد الفراهيدي	الوافر	٢	١٦٣
المأكول	جحظة البرمكي	الكامل	٢	٣٨٣
جهول	عمرو بن معديكرب	الكامل	٣	٤١٦
الذبول	عمر بن أبي ربيعة	الخفيف	١	٢٩١
حايِل	الطرماح	الطويل	١	٤٦١
سبيل	ابن المعتز، وعلي بن الجهم	الطويل	٢	٣٩٠
سبيل	كعب الأشثري، وابن قيس الرُقَيَات	الكامل	٤	٤٥٥
حيلي	العتابي	البسيط	٢	٣٥٣
جزيل	-	الخفيف	٢	٣٢٧
وقيل	-	الوافر	٢	٥٦١
الخليل	أبو تمام	الوافر	١	٢٨٠
الذليل	ابن المعتز	السريع	٢	٣٩٠
الجميل	-	الوافر	٢	٤٩٠
الجميل	-	الوافر	٢	٥٦١

قافية الميم

الميم الساكنة

ومدام	أبو نواس، وسيف الدين المشدّ	مجزوء الرَّمَل	٢	٨٧
تلتدّم	ابن الرومي	السريع	٢	٤٤٦
الكرم	-	المتقارب	٢	٥٦٨
بالكرم	دعبل الخزاعي، وابن طيفور	الطويل	٢	٣٤٩
نعم	الصاحب بن عباد	الطويل	٢	٣٥١، ٧٨
نعم	نصيب	الطويل	٢	٣١٤
ألم	أبو نواس	المتقارب	٤	٥٨٠
معلّم	-	مجزوء الكامل	٢	١٥٧
القلنم	-	المتقارب	٢	٦٠
نم	بشار بن برد	المتقارب	٢	٣٣٦

القافية	الشاعر	البحر	عدد الأبيات	الصفحة
الميم المفتوحة				
اللعجاء	—	مجزوء الرَّمَل	٥	٤٠٢
الكرامة	—	الوافر	٢	٤٩٨
الدماء	الحصين بن حمام الفزاري	الطويل	٢	٤٢٦
خَدَمَة	الشافعي	المنسرح	٤	١١٧
معدما	—	الطويل	٢	٤٩١
أتقدما	شبيب بن البرصاء	الطويل	١	٤٤٧
تهدما	عبدة بن الطيب	الطويل	١	١٤٦
مجرما	الحسن بن رجاء	الطويل	٢	٤٧٣
صرما	الحناط	البسيط	٢	٥٧٢
مكرما	حاتم الطائي	الطويل	١	٩١
تحطما	أبو دلالة	الطويل	٣	٤٥٩
أبكما	—	الطويل	١	٢١٩
سلما	سعدون	الكامل	٢	٢٩٦
والذمما	—	البسيط	٤	٣٠٦
درهما	—	الطويل	٢	٣٧٣
وهمهما	—	الطويل	٢	٣٦٨
الديما	أبو بكر الخوارزمي	البسيط	٢	٣٥١، ٧٧
المستقيمة	—	الوافر	٢	٤٨٩
سقيما	ليلى الأخيلية	الكامل	٢	٣٠

الميم المضمومة

الجرائم	محمود الوراق، والخليل بن أحمد	الطويل	٥	٤٧٢
قائم	—	الطويل	١	٢٤١
اللائم	—	الوافر	٢	٣٧١
أيتام	الكميت، وأبو العباس الأعمى	الكامل	٣	١٥٠
آجام	—	الكامل	٤	٤١٥
ضرام	نصر بن سيار	الوافر	٣	٥٤٧
وعرام	أبو تمام	الكامل	١٣	٤٣١
الغرام	المتنبي	الوافر	١	٢٥

القافية	الشاعر	البحر	عدد الأبيات	الصفحة
الطغَامُ	المتنبي	الوافر	١	٥٣٧
أشقاَهُمُ	—	مجزوء الكامل	١	١٦٨
والمقامُ	—	الوافر	٢	٣٤٤
الظلامُ	—	الوافر	١	١٠٣
الكلامُ	—	الوافر	١	٥٤٣
أنامُها	الحكم بن عبدل	الكامل	٤	٣٣٤
الخيَامُ	المتنبي	الخفيف	١	٢٨٩
يشتمُ	المؤمل بن إميل	الطويل	١	١٣٧
وتكتُمُ	—	الكامل	٢	٦١
يكتُمُ	بشار بن برد	المقتارب	٣	٢٣٦
عجَمُ	—	البيسط	٤	٣٤٠
الدُمُ	المتنبي	الكامل	١	٤٩٨
وتعدُمُ	أبو تمام	الكامل	١	١٨١
القدُمُ	أبو سعد الكاتب الكرمانى	البيسط	٣	٤٩١
القدُمُ	منصور الفقيه	البيسط	١	٥٩٧
والندُمُ	الحاجب المصحفى	البيسط	٣	٤٩٠
والندُمُ	أبو الفتح البستى	البيسط	٣	٥٩١
يخترُمُ	—	البيسط	١	٣٩
المحرُمُ	—	الطويل	١	٣٦٦
فمحزُمُ	ابن الرومى	الطويل	١	٣٨
الخضرُمُ	—	الكامل	٢	٥٥٠
مغرُمُ	بكر بن النطاح، ومجنون ليلى	الطويل	٢	٣٩٣
زمازُمُ	المتنبي	الطويل	٢	٤٣٣
مقاسُمُ	ابن الهبارية	الكامل	٤	٥٦٥
يبتسمُ	الفرزدق	البيسط	١	٣٠
ومحتشمُ	منصور الفقيه	البيسط	٢	٣٩٢
هضمُ	المرار بن منقذ	البيسط	٣	٥٢
يلتطمُ	—	البيسط	١	٤٠٩
معظمُ	أبو تمام	الكامل	١	٥٣
مفعُمُ	أبو تمام، والبحترى	الطويل	٢	٣٤٦

القفية	الشاعر	البحر	عدد الأبيات	الصفحة
ينعمُ	المتنبي	الكامل	١	١٧٥
عالمُ	أبو تمام	الطويل	٢	١٧٥
والجلمُ	المتنبي	البسيط	٣	١٥٨
حلمُ	-	البسيط	٦	١٣٩
المسلمُ	يحيى بن ذي الشامة	الكامل	٢	٣٩٦
أعلمُ	الحسين بن مطير	الطويل	٥	٣١٩
والقلمُ	المتنبي	البسيط	١	٤٤٥
تراهمُ	-	مجزوء الكامل	٣	١٦٨
والدراهمُ	أبو تمام	الطويل	٢	٣٠٤
درهمُ	-	السريع	١	٣٩٧
يفهمُ	ناصر الدين الأرجاني، وابن البغل	الكامل	٣	٢٠٧
مكتومُ	علي بن أبي طالب	البسيط	٢	٥٧١
شؤم	الخليل بن أحمد الفراهيدي	البسيط	٢	٢٠٥
وشؤمُ	-	الوافر	٢	١٧٨
وخصومُ	أبو الأسود الدؤلي	الكامل	٢	٦٠٥
يلومُها	علي بن أبي طالب	الطويل	٢	١٣٩
محمومُ	أبو تمام	الكامل	١	٢٨٨
خيمُها	كثير عزة	الطويل	١	١١
والقديمُ	-	الخفيف	٣	٤٨٣
كريمُ	أبو العتاهية، وعبد الله بن المبارك	الطويل	٢	٤٧٠
والتسليمُ	أبو الأسود الدؤلي	الكامل	٢	٣٢٩

الميم المكسورة

بدائم	ابن عبد ربه	الطويل	٢	١٤٠
الجرائمِ	إبراهيم الصولي	الطويل	١	٥٠٤
الثامِ	-	الوافر	٢	٩٢
الثامِ	أبو تمام	الوافر	٢	١٣٠
هائمِ	عبد القاهر الجرجاني	مخلع البسيط	٢	١٧٧
الآثامِ	-	الخفيف	٢	٥٢٣
الخدامِ	ابن هرمة	الكامل	٢	٣٢٢
المدامِ	-	الخفيف	١	١٥١

القافية	الشاعر	البحر	عدد الأبيات	الصفحة
بمدا	أبو الوفا الدمياطي	الطويل	٤	١٣١
إحرام	—	الكامل	٢	٢٢٥
الكرام	—	الخفيف	٢	٥٧٠
هشام	—	الخفيف	١	١٥١
هشام	حسان بن ثابت	الكامل	٢	٤٦٥
طعامه	دعبل الخزاعي	معجزوء الكامل	٤	٣٨٠
الانتقام	—	الخفيف	٢	٥٠٣
احتلامي	—	الرَّمَل	٢	٣٩٦
الإسلام	الشريف الرضي	الكامل	٢	١٣٣
بسلام	أبو نواس	معجزوء الرَّمَل	٤	٢٣٢
والإطلام	أشجع السلمي	الكامل	٢	٤٦٢
الأقلام	—	الكامل	٢	١٩٤
التمام	المتنبي	الوافر	١	١٥
استتمامه	أبو تمام	الكامل	٢	٣٤٤
لحمام	قطري بن الفجاءة	الكامل	٤	٤٤٧
الأنام	الناشئ الأكبر	الوافر	٢	٥٨٤
بالهام	—	الكامل	٢	٢٠٢
أقوام	ابن حجاج	الخفيف	٣	٧٤
لأقوام	إبراهيم الصولي	البسيط	٢	٤٦٩
الصيام	الوليد بن يزيد	الوافر	١	٨٥
والشتم	المرار الفقعسي	الطويل	٢	٤٧٠
دمي	إبراهيم بن المهدي	البسيط	٢	٣٥٢
آدم	جعفران الموسوس	السريع	١	١٦٤
معدم	—	الطويل	٢	٣٠١
والدم	الأعور الشني، وزياذ الأعجم	الكامل	١	١٨٥
اللَّهْذَم	—	الكامل	٢	٢٤٠
مجرم	أبو جعفر المنصور	السريع	٢	٥١٠
الكرم	—	البسيط	١	٤٦٩
حازم	بشار بن برد	الطويل	٣	١٢٣
هاشم	جعفران الموسوس	السريع	١	١٦٤

الصفحة	عدد الأبيات	البحر	الشاعر	القافية
٥٣٥	٢	المتقارب	-	بالمعصم
٢٠٨	٣	البسيط	الحمدوي	نعم
٥٥٤	٦	الوافر	-	نعمي
٣٠١	٣	الطويل	المتنبي	منعم
٧٧	٢	مجزوء الرجز	أبو بكر الخوارزمي	فم
٣٢	١	البسيط	ديك الجن الحمصي	حشو فمي
٤٤١	٢	الطويل	ابن هانيء الأندلسي	محكم
٤٣٣	٣	الطويل	المتنبي	بسالم
٤٩٤	١	الطويل	المتنبي	المظالم
٣٩٨	٢	المتقارب	ابن المعتز	العالم
٤٧٤	٣	الكامل	مهيأر الديلمي	احلم
٤٦٨	٢	الطويل	-	يتحلّم
١٣٩	٢	السريع	أبو العتاهية	تسلم
٧٤	١	البسيط	ابن قادوس	بالظلم
٨٤	١	الطويل	زهير بن أبي سلمى	يُظلم
٤٧٤	٢	السريع	-	علمه
٤٧١	٢	الكامل الأخذ	عامر العدواني، ومحمود الوراق	علمي
٥٧	١	الطويل	زهير بن أبي سلمى	تُعلم
٣٥٣	٣	البسيط	خالد الكاتب	والقلم
٢١٩	١	البسيط	الحماني الكوفي	الكلم
٣٤٩	٣	البسيط	-	الأمم
٣٠٢	٢	البسيط	الشريف الرضي	الأمم
٤٢٧	٣	البسيط	بنت عقيل بن أبي طالب	الأمم
٥٤٠	٢	البسيط	-	والذمم
٣٩٧	٤	المديد	أبو العبر الهاشمي	هممي
٤٩٧	٨	الطويل	-	الغنم
٣٦٥	٢	المتقارب	جرير	ينم
٢٥٥	٢	الكامل	-	الهم
٤٠٠	٢	الكامل	-	الدرهم
٤٨٦	٢	الكامل الأخذ	-	سهمي

الصفحة	عدد الأبيات	البحر	الشاعر	القافية
٦٠٠	٢	الطويل	-	بأسهم
٢٧٧	٢	الوافر	-	وفهم
٥٤٨	٤	الطويل	-	وهمي
٦٣	٢	الكامل	-	بثوم
٢٠٨	٢	مجزوء الكامل	-	بالعلوم
٤٤٤	١	الوافر	المتنبي	اللتيم
٢٩٦	٢	الوافر	سعدون	كريم
٥٨٠	٢	الخفيف	-	الاليم
٥٤٥	٣	الوافر	-	بالسليم
٤٤٩	١	الوافر	عبد قيس بن خفاف، وأوس الهجيمي	ظليم

قافية النون

النون الساكنة

٥١٤	٢	السريع	وبالصولجان	بشار بن برد
٣٢٥	٢	الرَّمَل	غبن	موسى شهوان
١٦٣	٣	مجزوء الخفيف	عدن	أبو بكر الشبلي
٢١٠	٢	الوافر	ولكن	فتيان الشاغوري
٣٢٤	٢	مجزوء الرّجز	وزمن	-
٣٠٣	٢	الوافر	سكون	ابن هندو

النون المفتوحة

٢٦٩	٣	البسيط	ذكرانا	قيس بن عاصم المنقري
٥٢٥	١	الخفيف	سكرانا	ابن قيس الرُّقَيَات
٤١١	٢	الخفيف	الشجعانا	المتنبي
٣٨٦	٢	مجزوء الرَّمَل	جفانا	-
٣٥٣	٢	الكامل	أمانا	-
٦١	٢	الوافر	الأمانة	-
٤٥٠	٣	البسيط	هانا	قريط بن أنيف
٥٤٩	٣	المتقارب	عوانا	إبراهيم بن العباس الصولي
٥٧٢	٢	الكامل	أحيانا	عمر بن أبي ربيعة
٣٨٦	٢	الخفيف	أصبنا	البديع الهمذاني

القافية	الشاعر	البحر	عدد الأبيات	الصفحة
بدنا	الحلاج	الرَّمَل	٣	٥٧٥
خذنا	مجد العرب العامري	مخلع البسيط	٢	٣٩٥
أذنا	أبو نواس	الطويل	١	٢٥٣
وزنة	-	المنسرح	٣	٢٦٤
وطنا	عمر بن أبي ربيعة	الكامل	١	١٤٨
بيننا	أبو نواس	الطويل	١	٢٨٨
يهجوننا	-	البسيط	٣	٥٩٤
هارونا	ابن الصيقل، وابن أبي السعلاة	الهزج	٣	٣٣٨
البطونا	بهلول المجنون	الخفيف	٣	٢٩٤
ميمونا	محمد بن مساور	السريع	٢	٢٨٧
ومكنونة	المهلب بن شاهين	الكامل	٤	٤٨٣
أينا	كثير عزة، وبيشار بن برد	الخفيف	٢	٥٤١
يتديننا	أبو العتاهية	المتقارب	٢	٣٢٠
شينا	كثير عزة	الخفيف	٢	٦٠١
عيننا	-	الخفيف	١	٥٥٩
إلينا	أبو العتاهية	الوافر	٤	٥٩٥
الجاهليتنا	عمرو بن كلثوم	الوافر	١	٤٩٥
السنينا	-	الوافر	٢	١٢٥

النون المضمومة

بائن	ابن المعتز	الطويل	٣	٦٠٠
ظمان	ابن شهيد	البسيط	٢	٣٧٣
بانوا	-	مخلع البسيط	٢	٥٩٨
ثعبان	-	الكامل	٢	٢٣٣
ظهرا	ابن الرومي	البسيط	٢	٢٢
لسانة	-	الكامل	١	٢١٩
إنسان	ابن الهبارية	الكامل	٢	٢١٢
تصان	-	الوافر	٢	٧٣
نقصان	الشريف الرضي	البسيط	١	٤٣٦
شبعان	-	الكامل	١	٣٦٣
إيقان	البحترى	البسيط	٣	١٢٧

القافية	الشاعر	البحر	عدد الأبيات	الصفحة
أمانٌ	القاضي الفاضل	الكامل	٢	١٨١
الحرمانُ	ابن صادة، وابن سارة	الكامل	٢	٢٠٨
ضمانٌ	-	الطويل	٢	٨٥
كهانٌ	البحثري	البسيط	٢	١٢٧
ألوانٌ	عامر	المنسرح	٢	١٧٦
البيانُ	-	الوافر	٢	٢١٤
وقيانٌ	المهلب بن أبي صفرة	الكامل	٣	٣١٩
ألحنٌ	أبو عمرو بن العلاء	المتقارب	٢	٢٠٢
خزئوا	أسامة بن منقذ	البسيط	٢	٩٣
حسنٌ	-	المنسرح	٢	٤٤٢
لسنٌ	قيس بن عامر	الكامل الأحذ	١	١٩٧
ملسنٌ	-	السريع	٢	٢٦٤
باطنٌ	السري الرفاء	الطويل	١	٦٧
وأمنٌ	منصور الفقيه	المجتث	٢	٣٥٦
زمنٌ	أبو حاتم الوراق	الكامل الأحذ	٢	٢٠٩
مصونٌ	سعدون	الخفيف	٢	٢٩٥
يكونٌ	علي بن أبي طالب	مخلع البسيط	٣	٤٤٢
جنونٌ	بشار بن برد	الطويل	١	٣٦٦
يهونٌ	أبو العيلاء، وبشار بن برد	مخلع البسيط	٢	٢١١
وحسبها	-	الكامل	٢	١٤٤
يشيئة	أحيحة بن الجلاح	مجزوء الكامل	٢	٢١٤
صينٌ	الشافعي	الطويل	٤	١٣٤
أمينٌ	محمد بن أبي أمية	السريع	٢	٥٣٤

النون المكسورة

كتانٍ	سويد اليشكري	الكامل	٢	٢٤٠
الثاني	المتنبي	الكامل	٣	٤٣٩
الحدثانِ	أبو فراس	الطويل	٣	٤٢
الحدثانِ	محمد بن حازم الباهلي	الطويل	٣	٣٩١
حمدانٍ	-	البسيط	٣	٤٥٠
يدانٍ	-	الطويل	٤	٤١٢
يدانٍ	أبو بكر الخوارزمي	الطويل	٢	٧٧

القافية	الشاعر	البحر	عدد الأبيات	الصفحة
اليدان	يزيد بن مفرغ	الوافر	٤	٩٦
أذان	العكوك	الوافر	١	٣٨٤
حزانة	-	مجزوء الرَّمَل	٢	٤٩٨
يراني	أبو العتاهية	مخلع البسيط	٣	٥٥٢
والجيران	-	الكامل	٢	٣٠٧
الإحسان	-	الخفيف	٤	٣٠٢
لساني	عمر بن أبي ربيعة	الخفيف	٢	٢٢٠
اللسان	دعبل الخزاعي	الخفيف	١	٣٧٠
الإنسان	المتنبى	الكامل	١	١١٠
لإنسان	منصور المصري	السريع	٢	٣٠٤
شأنه	-	السريع	٢	٥٣٥
شاني	أبو فراس الحمداني	البسيط	٣	٤٧٣
تصاني	-	مخلع البسيط	٢	١٣٦
وسلطان	-	البسيط	٣	٨٣
وأوطان	-	البسيط	٢	٤٠١
والصفعان	أبو الربيع الصفار	الخفيف	٢	١٧٧
المعاني	منصور الفقيه	المتقارب	١	٢٣٠
ومعان	أبو نصر الميكالي	الكامل	٣	٣٠٠
الأضغان	-	الكامل	٢	٤٩٤
مكان	-	الكامل	٢	٣٠٨
بالحرمان	ابن الرومي	الكامل	٣	٢١١
زمان	-	الخفيف	٣	٥٦٠
اليمني	يزيد بن مفرغ	الوافر	١	٩٦
بمئان	-	البسيط	٢	٣٢٤
المتواني	البديع الهمداني، والشريف الرضي	الكامل	١	٤٦٦
إخواني	-	الخفيف	٢	٥٤٠
الإخوان	البحثري	الكامل	٢	٥٥٣
دوان	أبو الشيص والراعي النميري	الطويل	١	٣١
لهوان	صالح بن عبد القدوس	الطويل	١	٩١
النهروان	هارون الرشيد	الخفيف	٣	٥٥٩

القافية	الشاعر	البحر	عدد الأبيات	الصفحة
هوان	ابن أبي حصينة	مخلع البسيط	٣	٤٠٢
بيان	-	الطويل	١	٥٥٥
بيان	-	الطويل	٢	١١٦
أعياني	محمود الوراق	الكامل	٤	٦٠١
بليان	المتوكل اللثي	الطويل	١	٤٢٨
المبتي	ابن النقيب الكناني	الكامل	٣	٣٠٣
مجني	-	الخفيف	٣	٤١٢
والإحني	-	البسيط	١	٥٧
والإحني	سديف بن ميمون	البسيط	٣	١٤٣
يلحن	-	الكامل	٥	٢٢١
البدن	الثعالبي	البسيط	٢	٣٧٢
بخازن	-	الطويل	١	٢٣٣
بالحسن	-	البسيط	٥	٣٧٣
والحسن	-	المنسرح	٢	٣٦٩
الوسن	الشريف الرضي	البسيط	٢	٥٧٦
الخشن	أبو تمام، وإبراهيم بن العباس الصولي	البسيط	١	٥٩٥
مئي	-	الخفيف	٢	٤٩١
مئي	منصور الفقيه	مخلع البسيط	٣	٥٣٥
الثنن	الوزير المغربي	البسيط	٢	٣٥٢
الزمن	عبد الصمد بن بابل، والصاحب بن عباد	البسيط	٩	٥٩٤
يحلفوني	ابن حجاج	الوافر	٢	٨٠
والهون	-	البسيط	٢	١٧٤
يواتني	ابن عبدون الكاتب	البسيط	١	٢٢٤
يداجيني	صالح بن عبد القدوس	البسيط	٢	٥٩٧
حينه	-	السريع	٢	٥٩٢
إلى حين	خفاف بن ندبة	البسيط	١	٥٧
ديني	-	المنسرح	٢	١٣٨
إلى الدين	-	البسيط	٢	٥١
والدين	البستي	السريع	٢	٣٨٩
القرين	الشمخ	الوافر	٢	٣١٥
عيني	-	الخفيف	١	٢٥٦

الصفحة	عدد الأبيات	البحر	الشاعر	القافية
٤٨٠	٢	الهمز	-	العين
٥٦٣	٢	البسيط	الصاحب بن عباد	بالعين
٢٥٦	١	الخفيف	-	الخافقين
٥٧١	٢	الطويل	مجنون ليلي، والأحوص الأنصاري	يقين
٥١	٢	البسيط	أبو العتاهية	مسين
٥٥٩	٢	السريع	-	ويومين
٦٠٠	٢	الخفيف	الوزير المغربي	وجمين

قافية الهاء

الهاء الساكنة

٦٦	٣	المتقارب	محمود الوراق	المشتبة
٢٣٥	٢	مجزوء الكامل	منصور الفقيه	مرّة
٢٠٩	٢	الوافر	-	الوراقة
٣٢٥	٣	مجزوء الكامل	الشافعي	مئة

الهاء المفتوحة

٥٩٢	٢	البسيط	-	تاها
٢٢٣	١	المنسرح	ابن هرمة	يرزاها
٤٠٨	١	الوافر	العباس بن مرداس	سواها
٤١٣	٢	المتقارب	ابن المعتز	إلا بها
٦٠٠	٢	الكامل	-	لفظها
١٣٧	٢	الكامل	-	حياكها
٢٥٨	٢	المنسرح	-	وهاشمها
٤٥١	٤	البسيط	جرير	مساحيها
٥٨	٣	البسيط	-	أدريها
١٥٤	١	البسيط	-	يداويها

الهاء المضمومة

٥٥٨	٣	البسيط	علي بن الجهم	ألقاه
٥٢٧	٢	السريع	الحارثي	نعماه
٢٩٣	٢	البسيط	بهلول المجنون	عيناه

القافية	الشاعر	البحر	عدد الأبيات	الصفحة
تتوَجُّه	-	الكامل	١	٤٤٨
منهُ	إسحق الموصلي	المجث	٢	٤٨٨
منهُ	الوزير المغربي	الوافر	٣	٥٨٩
وضَعُوهُ	إبراهيم اليزيدي	الخفيف	٢	٤٧٩
ويَجْلُوهُ	-	مخلع البسيط	٢	٤٩٥

الهاء المكسورة

به	-	السريع	٣	٥٧٤
تته	-	البسيط	٢	٨٨
أبيه	حسام الدين البخاري	الخفيف	٤	٥٨٠
بشيه	جعفران الموسوس	المجث	٤	١٦٣
والتيه	جعفران	السريع	٢	٩١
يديه	بهلول المجنون	الرَّمَل	٣	٢٩٤
يديه	أبو العتاهية	الطويل	١	٥٨٤
بأصغريه	أحمد بن فارس	مخلع البسيط	٢	٣٩٧
فيه	-	الطويل	٢	١٣٥
فيه	الصاحب بن عباد	مجزوء الرَّمَل	٢	٥٩٩
فيه	علي بن أبي طالب	السريع	٣	٧١
عليه	أبو العتاهية	الطويل	١	٥٨٤
مؤمليه	أحمد بن طيفور	مجزوء الكامل	٢	٣٣٢
بنيه	-	الوافر	٢	٥٩٣

قافية الواو

الواو الساكنة

يهفُو	-	الكامل الأحذ	٢	٥٥٠
-------	---	--------------	---	-----

الواو المفتوحة

مرؤة	-	مجزوء الكامل	٢	٥٨٧
------	---	--------------	---	-----

الواو المضمومة

العفُو	إبراهيم اليزيدي	الطويل	٤	٤٧٩
--------	-----------------	--------	---	-----

القافية	الشاعر	البحر	عدد الأبيات	الصفحة
كفو	-	الطويل	٢	٤٤٣

قافية الباء

الباء الساكنة

البحرني	أبو هفان	المتقارب	٢	٤٥٧
مثنى	-	الطويل	٢	٣٩٤
يزري	-	الطويل	٢	٣٩٤

الباء المفتوحة

صاحيا	-	الطويل	٢	٣٧٩
المحيّا	-	الخفيف	٢	٩٣
عاريا	-	الطويل	١	٣٩٨
راضيا	أبو أيوب المورياني	الطويل	٢	١٠٦
التقاضيا	بشار بن برد	الطويل	٢	٣٤٥
مجايفيا	-	الطويل	٣	٤٢
منافيا	أبو الفتح البستي	الكامل	٢	٥٤٥
وماقيا	المتنبي	الطويل	٢	١٥٩
إليّ	-	السريع	٢	٤٨٨
جاليا	-	الطويل	٢	٥٥٨
خياليا	قيس بن ذريح، ومجنون ليلي	الطويل	١	٢٩٢
الجلّيا	سديف	الخفيف	٥	٤٩٥
مقلّيا	أبو بكر الخوارزمي، وأبو هفان المهزمي الهزج	الطويل	٢	٢٠٤
المرايا	مروان بن أبي حفصة	الطويل	٢	٣٩١
أمانيا	المتنبي	الطويل	١	٢٨٨
الدنيا	-	الطويل	٤	٣٣٧
المنية	ابن طباطبا	المجث	٥	٣٦٧

الباء المكسورة

طيّ	-	الكامل	١	٥٧٠
الغيّ	أبو الفتح البستي	السريع	٣	٤٤١

فهرس أنصاف وأجزاء الأبيات

<u>الصفحة</u>	<u>البحر</u>	<u>الشاعر</u>	<u>نصف أو جزء البيت</u>
باب الألف			
٥٢	المنسرح	-	الله فرد وابن زيد عبدُ
٥٢	المنسرح	-	الله فرد وابن زيد فردُ
باب السين			
١٤٧	الطويل	الكميت بن زيد	سحابة صيف عن قليل تقشع
باب العين			
١٤٤	الخفيف	-	عمر الدين فاستبان مليًا
باب اللام			
٣٨٢	الوافر	بشار بن برد	لقد أسمعت لو ناديت خيًّا
٤١١	البسيط	علي بن أبي طالب	لن يبلغ المرء بالإحجام همته
باب الميم			
١٤٦	البسيط	ذو الرمة	ما بال عيني منها الماء ينسكب
باب الواو			
٢٨١	الطويل	جرير	وليس لداء الركبتين دواء

فهرس الأرجاز

الصفحة

الراجز

الرجز

قافية الألف المقصورة

١١٧

ابن دريد

على هواه عقله فقد نجى

قافية الباء

الباء المفتوحة

٤٢٦

سنان بن أنس

أكرم خلق الله أمًا وأبا

٤٢٦

سنان بن أنس

أنا قتلت السيد المحجبا

٤٢٦

سنان بن أنس

وخيرهم إذ ينسبون النسبا

٤٢٦

سنان بن أنس

أوفر ركابي فضة وذهبا

الباء المكسورة

٢٥

علي بن الفضل

ما لقي المحب من أحبابه

٣٨٥

-

أوغل في التطفيل من ذباب

٢٥

علي بن الفضل

إلا وراء الهول من عبابه

٣٨٥

-

لو أبصر الرغفان في السحاب

٣٨٥

-

على طعام وعلى شراب

٢٥

علي بن الفضل

لم تكن التيجان في حسابه

٣٨٥

-

لطار في الجو مع العقاب

٢٥

علي بن الفضل

لو قرب الدر على جلابة

٢٥

علي بن الفضل

ما نجح الغائص في طلايه

٣٦٣

-

ويجمع المال لعام جذبه

٣٦٣

-

من يجمع المال فلم يجد به

٣٤

-

أكذب من فاختة تصيح عند الكرب

٣٤

-

والنخل غير مطلع هذا أوان الرطب

٣٦٣

-

يهن على الناس هوان كلبه

الصفحةالراجزالرجز

قافية التاء

التاء المكسورة

٤٤٧	عبد الله بن رواحة	إنْ تسلمي اليوم فلن تفوتي
٤٤٧	عبد الله بن رواحة	يا نفس إن لم تموتي
٤٤٧	عبد الله بن رواحة	أو تبتي فطالما عوفيتي

قافية الشاء

الشاء المفتوحة

٢٢٩	-	لما حشنا القدح احتشانا
٢٢٩	-	وأم عمرو طالق ثلاثا
٢٢٩	دعبل الخزاعي	لنا لذيد العيش في طهيانا

قافية الجيم

الجيم المفتوحة

١١٧	ابن دريد	على هواه عقله فقد نجا
-----	----------	-----------------------

قافية الدال

الدال الساكنة

٤٨٤	-	لا تطرق الباب فما تَمَّ أخذ
٤٨٤	-	يا طارق الباب على عبد الصمد

قافية الراء

الراء الساكنة

٣٤٧	العماني	وناعش الجد إذا الجد عثر
٢١٧	-	أكثر ما أسمع منها في السحر
٣٤٧	العماني	يا جابر العظم إذا العظم انكسر
٣٤٧	العماني	أنت ربيعي والربيع ينتظر
٣٤٧	العماني	وخير أنواع الربيع ما بكر

الرجز	الراجز	الصفحة
تذكيرها الأنثى وتأنيث الذكّر	—	٢١٧
والسواة السواة في ذكر القمّر	—	٢١٧

الراء المفتوحة

تبّا لربّ المحبّرة	ابن الهبارية	٢٠٩
يا ويله ما أدبره	ابن الهبارية	٢٠٩
ورزقه ما أقتّره	ابن الهبارية	٢٠٩
أقسم لا أقتل إلا حرّاً	مسلم بن عقيل	٤٢٤
أنا الذي فررت يوم الحرّة	عبد الله بن الزبير	٤٥٥
وعيشه ما أكدّره	ابن الهبارية	٢٠٩
كل امرئ يوماً مُلاقٍ شرّاً	مسلم بن عقيل	٤٢٤
أخاف أن أكذب أو أغرّاً	مسلم بن عقيل	٤٢٤
لا بأس بالكثرة بعد الفرّة	عبد الله بن الزبير	٤٥٥
فالיום أجزي فرّة بكثرة	عبد الله بن الزبير	٤٥٥
وإن رأيت الموت شيئاً نكراً	مسلم بن عقيل	٤٢٤
والحرّ لا يفز إلا مرّة	عبد الله بن الزبير	٤٥٥

الراء المضمومة

إذا جلبت ضيفاً فأنّت حرّ	حاتم الطائي	٣٠٦
والريح ما سرّك ريح صرّ	حاتم الطائي	٣٠٦
أوقد فإن الليل ليل قرّ	حاتم الطائي	٣٠٦
عسى يرى نارك من يمرّ	حاتم الطائي	٣٠٦
إذا تغذّى رفعت ستورّه	—	٣٧٧ ، ٣٠٥
ومسكه يشوبه كافرّه	—	٣٧٧
أبلغ بين حاجبيه نورّه	—	٣٧٧ ، ٣٠٥
يزينه حياؤه وخيرّه	—	٣٧٧

الراء المكسورة

أو يأتي الحتف على مقدار	—	٤٤٨
قد يصبح الله أمام الساري	—	٤٤٨

الرجز	الراجز	الصفحة
لن يسبق الله على حمارٍ	-	٤٤٨
ولا على ذي منعة طيارٍ	-	٤٤٨
مَن أخذ الحذر من المحذورِ	-	٤٣٧
فإن كبا فالعذر للمعذورِ	-	٤٣٧
فليحزم الحازم في الأمورِ	-	٤٣٧
قلّ تجنّبه على الدهورِ	-	٤٣٧

قافية العين

العين الساكنة

مَن كان يهوى أهله فلا رجغ	-	٤٥٨
فر من الموت وفي الموت وقع	-	٤٥٨
وخارج أخرج به حبّ الطمغ	-	٤٥٨

العين المكسورة

يا ساق لن تراعي	معاذ بن عفراء	٤٠٧
إنّ معي ذراعي	معاذ بن عفراء	٤٠٧
أحمي بها كراعي	معاذ بن عفراء	٤٠٧

قافية القاف

القاف الساكنة

من طول تحببهم وهم وأرق	أبو الزحف	٢١٦
كأن في فيه لفيفاً إن نطق	أبو الزحف	٢١٦

القاف المكسورة

أدمى البكا عيني والمآقي	-	٢٠٩
وظلت ذا همّ وذا احتراق	-	٢٠٩
يفرح بالحبر والأوراق	-	٢٠٩
أزري ولا أشقى من الوراق	-	٢٠٩
كفرحة الجندي بالأرزاق	-	٢٠٩

الصفحة	الراجز	الرجز
٢٠٩	-	ما إن أرى في الأرض والآفاق
٢٠٩	-	إذا بدا في القمص الأخلاق

قافية الكاف

الكاف الساكنة

٥٤١	علي بن أبي طالب	ومَن إذا ريب الزمان صرَعك
٥٤١	علي بن أبي طالب	ومَن يضِرّ نفسه لينفعك
٥٤١	علي بن أبي طالب	شئت فيك شمله ليجمعك
٥٤١	علي بن أبي طالب	إن أخاك الصدق مَن كان معك

قافية اللام

اللام الساكنة

١٠٤	-	ونازل قيل رحل
٤١٨	-	تنزل بالموت إذا الموت نزل
١٠٤	-	كراحل قيل نزل
٤١٨	-	تبغي ابن عَفان أطراف الأسفل
٤١٨	-	والموت أحلى عندنا من العسل
٢٠٩	ابن الهبارية	إن لم تصدقني فسل
٥٧٩	الناجم	يا قوة الناس ويا ضعف الأمل
٤١٨	-	نحن بنو ضبة أصحاب الجمل
٢٠٩	ابن الهبارية	حي على خير العمل
١٠٤	-	وإنما الدنيا دول
٥٧٩	الناجم	يا زحل الدهر ومزيج الدول
٥٧٩	الناجم	يا حيرة المملق أعيته الحيل

اللام المفتوحة

٤٦٣	حماس بن قيس	هذا السلاح كامل وألّه
٤٢٥	الحر بن يزيد	والله لا تقتل حتى أقتلا
٤٢٥	الحر بن يزيد	ولن أصيب اليوم إلا مقتلا
٤٦٣	حماس بن قيس	وذو عذار لي سريع السلّه
٤٢٥	الحر بن يزيد	أضربهم بالسيف ضربًا فيصلا

الرجز	الراجز	الصفحة
وآفة العقل الهوى فَمَنْ علا	ابن دريد	١١٧
إِنْ تَقْبَلُوا اليوم فما لي عِلَّة	حماس بن قيس	٤٦٣
لا ناكلًا عنهم ولا مهلًا	الحر بن يزيد	٤٢٥

اللام المكسورة

رحلت عيسًا من كرائم بابل	بشار بن برد	١٧٤
فغدوت من عقلي ببعء مراحل	بشار بن برد	١٧٤
الحمد لله الوهوب المجزلي	أبو النجم	١٤٦
والعيش في الدنيا لغير العاقل	بشار بن برد	١٧٤
لما رأيت الحظ حظ الجاهل	بشار بن برد	١٧٤
وهي على الأفق كعين الأحول	أبو النجم	١٤٦

قافية الميم

الميم الساكنة

قد ضاع مَنْ يأمل من أمثالكم	-	١٩٣
فالموت خير من صلاح حالكم	-	١٩٣
جودًا وليس الجود من أفعالكم	-	١٩٣
لا بارك الله لكم في مالكم	-	١٩٣
ولا أزاح السوء عن عيالكم	-	١٩٣

الميم المفتوحة

وعلمته الكر والإقداما	عصام بن شهير	١٣
نفس عصام سؤدت عصاما	عصام بن شهير	١٣
وصيرته ملكًا هماما	عصام بن شهير	١٣
يقطعن كل مساعد وجمجمة	حماس بن قيس	٤٦٣
لو أنك شهدت يوم الخندمة	حماس بن قيس	٤٦٣
إذا فر صفوان وفر عكرمة	حماس بن قيس	٤٦٣
ضربا فلا نسمع إلا غمغمة	حماس بن قيس	٤٦٣
إذ قد لحقنا بالسيوف المسلمة	حماس بن قيس	٤٦٣
لم تنطقي باللوم أدنى كلمة	حماس بن قيس	٤٦٣
لهم نشيش حولنا وهممة	حماس بن قيس	٤٦٣

<u>الرجز</u>	<u>الراجز</u>	<u>الصفحة</u>
	الميم المكسورة	
ليس بفأفاء ولا تمتاز	أبو الزحف	٢١٦
ولا كثير الهجر في الكلام	أبو الزحف	٢١٦
قل لابن حجر ذي السماح الخضرم	الأخيطل الأهوازي	٥٦٦
لا زلت كالورد نصير المبسم	الأخيطل الأهوازي	٥٦٦
في عز دينار ونحج درهم	الأخيطل الأهوازي	٥٦٦
ونافذاً مثل نفاذ الأسهم	الأخيطل الأهوازي	٥٦٦
	قافية النون	
	النون المضمومة	
وجه طليق وكلام لين	-	٢١
بني إن البر شيء هين	-	٢١

فهرس المحتويات

٣	تقديم
٥	ترجمة المؤلف
الباب الأول	
في الكرم	
الفصل الأول من الباب الأول: في وصف الأخلاق الحسان المتخلقة بها	
٢١	نفوس الأعيان
٢٢	وعلى ذكر الحجاب وإن لم يكن من الباب
٢٢	وصف أخلاق أهل الوفاق
٢٣	عيون من مكارم الأخلاق الدالة على طيب الأعراق
٢٦	ومن روائع عادات السادات ووشائع سادات العادات
٣١	جوامع ممدوح الأخلاق والشيم المتخلية بها ذوو الأصالة والكرم
٣٤	شرح ما ذكر من الأمثال الواقعة في هذا المثال
الفصل الثاني من الباب الأول: في ذكر الصنائع والمآثر المفصحة عن	
٣٥	أحساب الأكابر
٣٥	فمن مآثر ذوي الكرم في النجار الذب عن التزليل وحفظ الجار
٣٩	ومن صنيع من زكت في الكرم أرومه صون المضيم بنفسه من عدو يرومه ...
٤٢	ومن أمتن أسباب الحسب والديانة وفاء العهد وأداء الأمانة
٤٧	ومن أحاسن فعلات الأشراف الاتصاف بالعدل والإنصاف
٥٠	ومما اتفق على مدحه الأوائل والأواخر تواضع من حاز الفضائل والمفاخر ...
٥٤	ومما يدل على شرف الأبوة إلزام النفس بأنواع المروءة
الفصل الثالث من الباب الأول: في ذم التخلق بالإحسان إذا لم يوافق القلب	
٥٦	اللسان

- ومما يعاب من خلال الإنسان أن يكون بديع مقال اللسان بعيد مجال الإحسان ٥٨
- ومما يلحق بهذا أن عمل الرياء سالب عن صاحبه جلباب الحياء ٦٠
- ومن ظرف الحكايات وتُحَف الفكاهات عمَّن كان له من الرياء غرّة فاضحة ومن عدم الحياء سِمة لائحة ٦٢

الباب الثاني

في اللوم

- الفصل الأول من هذا الباب: في ذم من ليس له خلاق وما اتصف به من الأخلاق ٦٥
- فمن مساوئ أخلاقهم الذميمة نقل الأقدام بالسعاية والنميمة ٦٦
- والنميمة والكذب رضيعا لبان وفي مشوار الدناءة فرسا رهان ٦٨
- ومن مستقبح خلائق اللوم الصراح اللسان البذيء والوجه الوقاح ٧٠
- جماع ما يتخلق به الأنذال من الشيم والخلال ٧٢
- ومما اخترناه في غدر اللثام من دُرر الأهاجي والمذام ٧٢
- الفصل الثاني من الباب الثاني: في ذكر الفعل والصنيع الدالين على لؤم الوضع ٧٥
- فمن فعلات من خلع في اللؤم الرسن المكافأة بالقبيح عن الفعل الحسن ٧٦
- ومما يستغرب منه ويُستعجب في هذا الباب ويُستعذب ٧٦
- ومما يدل على خبث نجار اللثيم الغدر بمن يركن إليه ويستنيم ٧٨
- ومما ينزع لباس الحسب والضيانة رفول المرء في أطمار الخيانة ٧٩
- ومن الصنيع الدال على لؤم الأصول من كان بسيف جوره على العباد يصول ٨١
- ومن معائب من رغب عن المكارم إلقاء الحشمة في ارتكاب المحارم ٨٤
- ومن خلائق العريق في الوضاعة أخذ النفس بالتكبر والرقاعة ٨٧
- الفصل الثالث من الباب الثاني: في أن من تخلق باللؤم انتفع وعلا على الكرام وارتفع ٩٢
- ذكر من نال المراتب السنية من ذوي الأعراق الدنية ٩٥
- ومنهم كليب ثقيف الحجاج ذو المراء في سفك الدماء واللجاج ٩٧
- ومنهم ذو الأصل الدنيء والنفس الأبية أبو مسلم صاحب الدعوة العباسية ١٠٠

ومما ينبغي أن يلحق بهذا الفصل تسلي من خفضه الزمان من أهل الفضل
بقلة الكرام وكثرة اللثام وتقلب الأحوال على مدى الأيام ١٠٢

الباب الثالث

في العقل

- ١٠٨ الفصل الأول من هذا الباب: في مدح العقل وفضله وشرف مكتسبه ونبله
ما اخترناه من محاسن الكلم وأسناها في أنّ العقل أشرف المواهب
وأسمائها ١١٠
- ١١١ ومن قولهم في أن من وهب الله له عقلاً كُسي من المناقب حلة لا تبلى
١١٣ ما أثبتناه من الكلام الرائع الرائق فيما يمتاز به العاقل من المائق
شوارد مجموعة في احتياج ذوي العقل والحلم إلى اكتساب فضيلتي الأدب
والعلم ١١٤
- ١١٧ الفصل الثاني من الباب الثالث: في ذكر الفعل الرشيد الدالّ على العقل
المشيد
١٢٣ فمن يُعتمد عليه في المشورة من تكون النفس بآرائه مسرورة
١٢٨ والعاقل من نصب من تحيله الحبائل واقتنص بها شوارد المطالب والوسائل ..
١٣١ والحازم من أضاف إلى تاج رئاسته عقوداً من جواهر سياسته
والعاقل من شغله عيبه عن غيب من سواه ولم يطع في جواب السفيه أمير
هواه ١٣٣
- ١٣٥ والعاقل من جعل إغضائه عن المساوي حصناً إليه من ذم اللثام يأوي
١٣٦ وأما ما قيل في التغاضي والاحتمال والكفّ عن جواب قبيح المقال
١٣٨ والعاقل من قنع من الدنيا باليسير وحصل فيها من التقوى زاداً للمسير
الفصل الثالث من الباب الثالث: في أنّ هفوات العقّال لا يُغضى عنها ولا
تُقَال ١٤٢
- ١٤٢ ذكر من أرسل سهماً من فيه فأصاب مقتل ولم يكذ يخطئه
١٤٥ ومن أسقط من العقلاء في كلامه فكان سبباً مؤكّداً للومه وإيلامه
١٤٨ ومن الهفوات الجارية مجرى التطير المؤذن لفظها بالزوال والتغير
١٤٩ ومن قبيح ما وقع لأبي نواس الذي أساء فيه أدبه وخالف به مذهبه
١٥٠ من استدرك هفوة لسانه من العقلاء ورد بالاعتذار عنه ما نزل به من البلاء ...

الباب الرابع في الحمق

الفصل الأول من هذا الباب: في ذم الجهالة والجنون وما اشتملا عليه من

- الفنون ١٥٣
- فمن قولهم في ذم الحمق وإظهار خافيه وأنه داء عُضال لا يمكن تلافيه ١٥٣
- ومما اخترناه من حكم أولي التجارب في ذم التعرف بمن هو للنهي محارب ١٥٤
- ما يستدل به من ذميم الخلّاق على خافي حمق الأهوج والمائق ١٥٦
- وممن شهر بالعقل النافر وعرف بالحمق الوافر ١٥٧
- طرف مما ذم به أهل الجهالة المتمسكون بغيرى الغواية والضلالة ١٦٠
- ومن صفات من عُدِم خلال النهى واعتراه في عقله اختلال فوهى ١٦٢
- الفصل الثاني من الباب الرابع: في ذكر النوادر الصادرة عن مجانيين البادية
والحاضرة فمن شهر منهم بالمُلح وعُرف واستحسن كلامه النادر
واستظرف ١٦٣
- ومن مشاهير مجانيين الكوفة البهلول ذو العقل السقيم والذهن المفلول ١٦٤
- نبذ مما يجلب التسلي لقلب المحزون من الفكاهات المحكيّة عن عليان
المجنون ١٦٦
- طُرف من لطائف أخبارهم الأنيقة وتُنف من لطائف نوادرهم الرشيقة ١٦٦
- ما اختير من شعرهم الرقيق الجزل المنظوم في سلوكه جواهر الجدّ والهزل ... ١٦٩
- الفصل الثالث من الباب الرابع: في احتجاج الأريب المتحامق على أن
الحمق أزكى الخلّاق ١٧٢
- ما قيل في أن لذاذة العيش لا تحصل إلا بالجهالة والطيش ١٧٢
- ومن احتجاج من أطلق نفسه من عقال العقل وألقى عصاه عامدًا في بيداء
الجهل ١٧٣
- ومن أحاسن أقوالهم في أن العقل طريق إلى العنا وسدّ يمنع صاحبه من
الوصول للغنى ١٧٥
- ومن المنظوم في أن من أفعال الزمان إلباس العقلاء أسمال الحرمان ١٧٦
- ومما ذُكر أن الحافظ أجدى لصاحب الحجا وأهدى في طرق مآربه من نجوم
الدجى ١٧٩

الباب الخامس

في الفصاحة

الفصل الأول من هذا الباب: في أن الفصاحة والبيان أزين ما تحلّت بهما	
الأعيان	١٨٣
فما ورد عن جهابذة هذا العقيان مدح موهبتي الفصاحة والبيان	١٨٣
ومما يتميز به نوع الإنسان فصاحة المنطق وذلاقة اللسان	١٨٤
ومما شرف به اللسان من خصائص الإحسان	١٨٥
ومما ينال به الخامل أعلى الرتب التحلي بأنواع جواهر الأدب	١٨٦
ومما ذكر أن التحلي بالآداب يلحق الدنيء بذوي الأحساب	١٨٦
ذكر من دأب في طلب الأدب فنال به أعلى المناصب والرتب	١٨٨
ومن ممداح أهل هذه الصناعة الآخذين بأعنة الفصاحة والبراعة	١٨٩
الفصل الثاني من الباب الخامس: فيما يتحلّى به ألباب الأدباء من بلاغات	
الكتاب والخطباء	١٩١
والعرب سباق حلبة البيان يعترف لهم بذلك فصحاء كل زمان	١٩٢
فمن وشائع ألفاظهم البارعة وبدائع معانيهم الرائعة	١٩٢
ملح من بدائع ألفاظ الكتاب الأفاضل الهادي حلال سحرها بحرام سحر	
بابل	١٩٣
فمن موجز بلاغتهم ومعجز صياغتهم	١٩٤
ولندكر من كلام الخطباء ذوي البراعة واللسن ما كان ذا لفظ بديع ومعنى	
حسن بعد أن نورد في شرف الخطابة والخطباء كلاماً يمتزج بالقلوب	
امتزاج الماء بالصُّهباء	١٩٦
فمن بوارد نوادر المتقعرين وشوارد بوارد المتفیهقين	٢٠٣
الفصل الثالث من الباب الخامس: في أن معرفة حرفة الأدب مانعة من ترقّي	
أعالي الرتب	٢٠٤
والسبب في حرمان الأدباء موهبة الحظ وخمول النجباء	٢٠٦
وربما أعدت حرفة الأدب أهل الوراقة فأظلتهم منها سحائب الحرمان	
والفاقة	٢٠٧
السبب في حرمان ذوي التباهة فقدان أهل الفضل والوجاهة	٢١٠

الباب السادس

في العيِّ

الفصل الأول من هذا الباب: فيما ورد عن ذوي التُّبَاهة في ذمِّ العيِّ

- والفهاة ٢١٣
- فمما يشين حسان الصور العيِّ في البيان والخبر ٢١٤
- ومن علامات العيِّ الواضحة وسمات اللكن الفاضحة ٢١٥
- ومن عيوب اللسان المزيلة للإحسان المؤذية بقدر الإنسان ٢١٦
- وقد يكون البليغ عيِّاً عند سؤال مطلوبه كالعاشق متى رام شكوى حاله
لمحبوبه ٢١٩
- وأما ما يعتري العاشق المشوق من الأفحام عند رؤية المعشوق ٢٢٠
- ومما يشين البليغ بين أترابه عطل بيانه من حلى إعرابه ٢٢١
- وهذه نبذة مستحسنة من التعريف بنوادرهم المستظرفة في التحريف ٢٢٢
- الفصل الثاني من الباب السادس: في ذكر مَنْ قَصُرَ باع لسانه عن ترجمة ما
في جنانه ٢٢٣
- فمن أرتج عليه من خطباء المحافل وفرسان المنابر والجحافل ٢٢٤
- وممن ارتج عليه من الأئمة في محرابه وكان تركه للصلاة خوف الخجل
أحرى به ٢٢٦
- وممن أخذ العيِّ بعنان قلمه وظهر كلف التكلف في صفحات كلمه ٢٢٨
- الفصل الثالث من الباب السادس: في أن اللسن المكنار لا يأمن آفة الزلل
والعثار ٢٣٠
- احتجاج مَنْ أمسك عن الكلام من غير خرس وخاف من الملام فحذر
واحترس ٢٣١
- وما أحسن عذر من غصَّ بالملام على كثرة صمته وقلة الكلام ٢٣٤
- ومما له في هذا الموضع من النفوس حسن مَوْقع حفظ الأسرار أن تدال على
الأحرار والأنذال ٢٣٤
- وأما المزاح وما ورد فيه عمن أباحه ومن يُجافيه ٢٣٧

الباب السابع

في الذكاء

- الفصل الأول من هذا الباب: في مدح الفطن والأذهان المعظمة من قدر
 ٢٣٩ المهان
 وأكثر ما يوجد الذكاء المفرط عند العُميان إنهم عَوْضُوا عن البصر سرعة
 ٢٤٤ الحفظ وبطء النسيان
 من اخترع من الأوانل حِكْمَه بثاقب فكره فكانت سببًا لتتويه قدره وإبقاء ذكره
 ٢٤٥
 ٢٥٢ نادرة:
 ومن بديع فصاحة البلغاء وصنيع بلاغة الفصحاء في وصف ذي الذهن الوقاد
 ٢٥٢ والطبع السليم المنقاد
 الفصل الثاني من الباب السابع: في ذكر بداهة الأذكياء البديعة وأجوبتهم
 ٢٥٤ المفحمة السريعة
 ومن سئل من الأذكياء فأجاب وأتت سرعة بديهته بالشيء العجاب
 ٢٥٥
 ٢٥٨ نادرة:
 ومن رشق من الفهماء بسهام المقال فزبرها بعارضة أحد من النصال
 ٢٥٨
 ومن تهكم في خطابه واعتمد الهزل في جوابه
 ٢٦١
 ومن ليم على قبيح فعاله فسدده بمغالطات مقاله
 ٢٦٣
 الفصل الثالث من الباب السابع: فيمن سبق بذكائه وفطنته إلى ورود حياض
 ٢٦٥ منيته
 ومنهم من ارتقى بادعائه النبوة مرتقى صعبًا فصير جسمه للطير مرعى وللهموم
 ٢٦٨ نهبا
 ومنهم من ادعى أنه الإمام المنتظر فصير عبرة لمن أمعن في العواقب النظر ..
 ٢٧٢ ..

الباب الثامن

في التغفل

- الفصل الأول من هذا الباب: في ذم البلادة والتغفل من ذوي التعالي والتنزل
 ٢٧٦
 وقد اخترت من مدام المتغفلين مما حسن وراق دُرًّا ضميتها أصداف هذه
 ٢٧٧ الأوراق

الفصل الثاني من الباب الخامس: فيمن تأخرت منه المعرفة ونوادر أخبارهم

- ٢٨١ المُستظرفة
- ٢٨٤ ذكر مَنْ أخطأ في سؤال أو جواب وظنَّ أنَّ كلامه عين الصواب
- ٢٨٦ وممن تأخرت معرفته من الحكَّام وتقدَّم جهله في القضايا والأحكام
- ٢٨٧ ومن التغفُّل الواقع من الشعراء في مدائح السادات والكُبراء
- ٢٩٠ ومن شوارد هذا النوع وأفراده ما يفي بغرض المتأمل ومراده
- ٢٩٢ الفصل الثالث من الباب الثامن: في أنَّ أنواع التغفُّل والبَّله ستور على الأولياء مسبله
- ٢٩٣ فمنهم عليان الذي كان قلبه مع الخلق وقلبه مستغرقًا في أسرار الحق
- ٢٩٤ وممن كانت نفسه عن الشبهات مكفوفة بهلول المعدود من مجانين الكوفة
- ٢٩٥ ومن مشاهير هذه الطائفة سعدون الطالب للعلا والراغب عن الدُّون

الباب التاسع

في السخاء

الفصل الأول من هذا الباب: في أنَّ التبرِّع بالنائل مِنْ أشرف الخلال

- ٢٩٨ والشَّمائل
- ٣٠٢ ويتنظم في سلك هذه الأبيات ما يُروى من واعظ الحكايات
- ٣٠٢ الحضَّ على انتهاز فرصة الإمكان في إسداء المرجوِّ من الإحسان لمن كان
- ٣٠٣ احتجاج المتبجِّح بالمعروف على السائل المجهول والمعروف
- ٣٠٨ ذكر الأجواد المعروفين ببذل الأموال والموصوفين بإصلاح فساد الأحوال
- ٣١٩ وممن فاه ببديع مدحه اللسان من ذوي الإنعام والإحسان
- ٣٢٤ ومما ينبغي أن يكون لاحقًا بما ذكرناه وامتَّمًا للغرض الذي أردناه نوعان
- ٣٢٤ لهما في هذا الموضع لمن تأملهما أحسن موقع
- ٣٢٤ النوع الأوَّل في ذمِّ مَنْ اتبع الإحسان بالتعديد والامتتان
- ٣٢٦ النوع الثاني في أنَّ من تمام المعروف تركَّ المطل به وإعانة المستجدي على حصول مطلبه
- ٣٢٨ الفصل الثاني من الباب التاسع: في منح الأماجد الأجواد ومُلح الوافدين
- ٣٢٨ والفُقَّاد فمَّا يجب أن يقدم فيما يَمُنَّاه تَلَطَّف الراغب لينال ما تمناه

٣٢٩	فمن أحاسن بدائع ما تلطف به مَنْ استماح من الكلام الخادع لذوي السماح
٣٣٥	وممّن أبرع من القصاد في المدح وأجاد فاستحقّ به الصلة ممن سمح وجاد
٣٤٣	المختار من غرر نوعي الكلام في استنجاز ما تأخر من صلات الكرام
٣٥٠	وممّا يُحسن إلحاقه بهذا الفصل إطلاق اللسان بشكر أهل الإحسان والفضل
٣٥١	ذكر من تبجّج بذكر المعروف الذي أسدى إليه وأقرّ بعجز لسانه عن شكر المُنعم والثناء عليه
٣٥٤	الفصل الثالث من الباب التاسع: في ذمّ السرف والتبذير إذ ما لهما من سوء التدبير
٣٥٦	وممّا يعدّ من الإسراف في البذل اصطناع المعروف إلى اللّثيم والتذل
٣٥٨	ما احتجّ به سراة الأشراف في تحسين التبذير والإسراف

الباب العاشر

في البخل

٣٦١	الفصل الأول من هذا الباب: في ذمّ الإمساك والشُّح وما فيهما من الشّين والقبح
٣٦٤	ما اخترت من محاسن كلام الفصحاء وتأثّقهم في ذمّ اللّثام الأشحاء
٣٦٩	وممّا يكون متممًا لما ذكرناه خلف الشحيح لسائله بما مناه
٣٧١	الفصل الثاني من الباب العاشر: في ذكر نواذر المبخلين من الأراذل والمبجلين
٣٧٤	ذكر مَنْ كان يدين بالبخل من الملوك وأنصف بما لا يحسن بالفقير الصعلوك
٣٧٨	من صان درهمه ولم يسمح به للعطاء فكشف عنه اللؤم ما أسبله الكرم من الغطاء
٣٧٩	وممّن صان درهمه ولم يسمح به فكان لك سببًا لذمه وثلبه
٣٨٠	مَنْ كان بخله على الفقراء بطعامه معربًا عن لؤمه وموجبًا لملامه
٣٨٤	وممّا يليق بهذا الفصل من التذليل ذكر من عُرف بالطمع والتطفيل

الفصل الثالث من الباب العاشر: في مدح القصد في الإنفاق خوف التعيير

٣٨٧ بالإملاق
٣٨٩ ما قيل إنَّ في صلاح الأموال صلاح ما فسد مِن الأحوال
٣٩٠ احتجاج من خمدت يده عن الثَّوال خوف التعيير بالفقر وذَلَّ السَّؤال
٣٩١ ومن قولهم في أن الفقر والإقلال مقرونان بالدَّخر والإذلال
٣٩٥ ومِن المنظوم في سلك الرشاقة ما قيل في التشكِّي من ضرر الإقلال والفاقة
٣٩٧ وواجب إتباع هذا الفصل بمدح المال إذ به يُدرك ما شسع من الآمال
٤٠٠ والمُعِين على طلب البغية مِن المال طلب المعيشة في الأيام والليالي

الباب الحادي عشر

في الشجاعة

الفصل الأوَّل مِن هذا الباب: في مدح الشجاعة والبسالة وما فيها من الرِّفعة

٤٠٣ والجلالة
.....	من عُرف من الأكابر في قومه بالبأس والنَّجدة وكان لهم عند الهياج معقلاً
٤٠٣ وشدة
٤١٠ ومما يعدّ من شدة الشَّجعان الأبطال رفض التَّواني بالمناجزة ودفع المطال
.....	ومن ممداح من عُرف في قومه بالشجاعة ومذَّ إلى قطف الرُّؤوس سيفه
٤١٣ وباعه

الفصل الثاني من الباب الحادي عشر: في ذكر ما وقع في الحروب من

٤١٦ شدائد الأزمان والكروب
٤١٦ الجمل
٤١٩ صفين
٤٢٢ يوم كربلاء
٤٢٨ يوم الحرّة
٤٣٠ وأحسن ما لحق بهذا الفصل وتلاه وصف عظم الجيش ومصارع قتلاه
٤٣٤ وصف التَّزال والقتلى

الفصل الثالث من الباب الحادي عشر: في ذمّ التصدّي للهلكة من لا

٤٣٥ يستطيع بها ملكة
٤٣٧ ومما يكون عمدة عند لقاء الأبطال التفكّر في أعمال الاحتيال وإن طال

- ومما يجب مع التفكر على المحارب مشاورة النصحاء مِنْ أولي التجارب ٤٣٩
وملاك التحيل في بلوغ الأمانى رفض العجلة واستعمال التواني ٤٤٠
وهذه نبذة يسيرة في الصبر: ٤٤٢

الباب الثاني عشر

في الجبن

- الفصل الأول من هذا الباب: في أَنَّ خَلَّتِي الجبن والفرار مما يشين بني
الأحرار ٤٤٤
فمما اخترت من كلام ذوي الإقدام فيما عيب به الفرار والإحجام ٤٤٤
نتف من احتجاج الفرسان عند ملاقة الأقران في أَنَّ دروع الحذر تخرقها
سِهام القدر ٤٤٧
ذَمَّ مَنْ لزمه الضعف والجزع واستولى عليه الخوف والفزع ٤٤٩
ذكر مَنْ لاقى في الحروب الحرب فطوى بساط الأرض مُجِدًّا في الهرب ٤٥٠
الفصل الثاني من الباب الثاني عشر: في ذكر مَنْ جبن عند اللقاء خوف
الموت ورجاء البقاء ٤٥٢
ومن نوادر أخبار الجُبْناء في مواطن الحروب والبلاء ٤٥٧
صفات من بَدَّل ثباته بالإحجام وقيد بالفرق قدمه عند الإقدام ٤٦٠
الفصل الثالث من الباب الثاني عشر: فيمن لِيَمَّ على الفرار والإحجام فاعتذر
بما ينفي عنه الملام ٤٦٢

الباب الثالث عشر

في العفو

- الفصل الأول من هذا الباب: في مدح مَنْ اتَّصَف بالعفو عن الذَّنْب المتعمَّد
والسَّهْو ٤٦٧
ومِنْ أحاسن الكلام الصادر عن الحكماء في شرف الحلم ومن تخلَّق به من
الحلماء ٤٦٩
مَنْ عُرِف بالعفو عند خطأ الجاني وصار بالأناة عليه كالأب الحاني ٤٧١
ومن حكاياته الدالة على كرم نجره القاضية له بتضعيف أجره ٤٧٣
ما اخترناه وانتقينا من غرر الممادح المقولة فيمن أغضى عن المسيء القادح ٤٧٣

٤٧٤	المُسيء الاعتذار
٤٧٥	ذكر مَنْ قدر من الصدور فعفا وأثلج الصدور بالمِنة وشفى
٤٨١	مكرمة لا نظير لها ولم يكتب المؤرخون مثلها
٤٨١	ومَنْ أحسن من الأمائل إلى من أساء إليه وأسبل عند القدرة ستر المَنْ عليه
٤٨٦	مُلح مكارم يغتبط بها القلب والسَّمع لدلالاتها على كرم النجار والطبع
٤٨٧	ولنعقب هذا الفصل من لطيف الاعتذار ما نستعطف به القلوب بعد التفار
٤٩٢	الفصل الثالث من الباب الثالث عشر: في ذم العفو عمن أساء وانتهك حُرُمات الرؤساء
٤٩٣	فمما للحكماء من تحريض الحرّ على مقابلة المسيء بالنكال المرّ
٤٩٥	احتجاج مَنْ جازى السيئة بمثلها ممن ملك عقد الأمور وحلّها
٤٩٨	نبذة من أدنى النقض والإبرام في ذم مكافأة اللّيم بالإكرام

الباب الرابع عشر

في الانتقام

٥٠١	الفصل الأول من هذا الباب: في التشفّي والانتقام ممن أحضر قسرًا في المقام
٥٠١	ولنقدم كلامًا شافيًا في ذم الغضب إذ هو الزّمام القائد للعطب
٥٠٢	ما اخترناه من كلام الحكماء وأقوال الكرام الأماجد في ذم التشفّي من العدو والمعاند
٥٠٥	ومما ينتظم في سلك هذا المقول مدح التراحم الراضي به أرباب العقول
٥٠٦	الفصل الثاني من الباب الرابع عشر: في ذكر من ظفر فعاقب بأشدّ العقوبة ومَنْ راقب
٥٠٨	ومن الحقد المستبشع والتشفّي المستشنع
٥١٤	وممن شفى غيظه من العدو المخالف ولم يغضّ له عن ذنبه السالف
٥٢٢	مَنْ راقب في العقوبة رجاء الخلاص يوم الجزاء بالأعمال والقصاص

٥٢٥	من حكمه الله وولاه
٥٢٧	ذكر الحدود التي أوجبها الله تعالى على مَنْ أفرط في ارتكاب الفواحش وتغالى
٥٣٢	ما الدية فيه كاملة من جوارح الإنسان وحواسه
٥٣٢	ما تختص به المرأة دون الرجل

الباب الخامس عشر

في الأخوة

٥٣٤	الفصل الأول من هذا الباب: في مدح اتّخاذ الإخوان فإنهم العدد والأعوان
٥٣٩	فنون شروط الإخاء وحقوقه الواجبة على كل أحد لصديقه
٥٤٠	فمما يعتمد من شرائط الإخاء والمودة رعاية الأخ أخاه في الرّخاء والشدة
٥٤٤	ومما يجب عليه من حسن الصنيع رفض العتاب واجتناب التفريع
٥٤٨	ومنهم مَنْ استحسن عتاب الأصحاب فربما كان حُضّاً على اكتساب المحابّ
٥٥٣	مُلح من مدح الأخلاء الأصفياء وصفات مودّات الأصدقاء الأولياء
٥٥٥	الفصل الثاني من الباب الخامس عشر: فيما يدين به أهل المحبة من شرائط العوائد المستحبة
٥٥٦	ويجب على الرئيس في معاشرة المجلس الاقتداء برسول الله ﷺ في أدبه
٥٥٧	ومما يشني عطف الصديق إلى التآلف زيارته صديقه من غير انقطاع ولا تكلف
٥٥٨	وعلى الزائر في الزيارة الإغياب فإنه به يؤمّن من تجافي الأحباب
٥٥٨	اعتذار مَنْ لم يزر
٥٥٨	مكاتبات في استدعاء الزيارة
٥٦١	اعتذار مَنْ لم يزر
٥٦١	ومن أحسن ما أوجبه الوداد وافترض عيادة الأخ أخاه في حال المرض
٥٦٥	ومما يورد كمن المحبة أعذب الموارد هدية يستعطف بها القلب الشارد

- ٥٦٨ من أهدي هدية حقيرة واعتذر عنها
- ٥٧٠ ومن واجبات شيم الأحرار حفظ ما أودعوه من الأسرار
- ومما يفصم بين عُرا المتحابين وعُرا المجاورة التزام ما يجب من حقوق
- ٥٧٢ المجاورة
- ٥٧٤ ومن النوادر المحكية في إكرام الجار
- وهذه ظرف تكون لما ذكرناه ختامًا ولنفس المتأمل وقلبه شركًا وزمامًا فيما
- ٥٧٤ يلزم الأصدقاء من تمازج الأرواح امتزاج الصَّهباء بالماء القراح
- الفصل الثالث من الباب الخامس عشر: في ذمِّ الثقل والبغيض بما استحسّن
- ٥٧٦ من النثر والقريض
- ٥٧٧ ومما أثار بطلته كوامن البغضاء فكشفت عن مساويه ستور الأعضاء
- ٥٧٩ ومما استجدته من مذامِّ الثقل الشافية محاسنها أفهام العقلاء
- ٥٨١ ومما يكون لنفس المتأمل قوتًا ذمِّ مَنْ كان بغيضًا ممقوتًا

الباب السادس عشر

في العزلة

- الفصل الأول من هذا الباب: في ذمِّ الاستئناس بالناس لتلَوْن الطَّبَاع وتنافي
- ٥٨٣ الأجناس
- ٥٨٤ فمما يكون عونًا للكريم على الانقطاع ذمِّ ما الناس عليه من لُؤْم الطَّبَاع
- ومما اخترت من كلام الحكماء الأجلَاء في التحذير من اتخاذ الأصدقاء
- ٥٨٩ والأخلاء
- ومما يكون مماثلًا لهذا القول ومعالًا التحذير من صحبة السلطان وإن كان
- ٥٩١ عادلاً
- الفصل الثاني من الباب السادس عشر: فيما يحضُّ على الاعتزال من ذميم
- ٥٩٢ الخلاق والخلال
- ٥٩٥ ومما يدلُّ على صغر الهمة والنفس التلَوْن على الصديق المصاحب بالأمس
- ٥٩٨ ومن ذميم فعلات الإخوان الخَوَّان اغتيال مَنْ غاب من الإخوان
- ٦٠١ ومما يرغب الوحيد في انفراده حسد أهل الصَّفوة من وداده
- ٦٠٥ ومما يؤمر الكريم باجتنابه جازٍ سوء ملاصق لجنابه

الفصل الثالث من الباب السادس عشر: فيما نختم به الكتاب من دعاء نرجو

٦٠٧ أن يسمع ويُجاب

الفهارس العامة

٦١٥ فهرس الآيات القرآنية

٦٢٢ فهرس الأحاديث النبوية

٦٢٨ فهرس الآثار عن الصحابة والتابعين

٦٣٤ فهرس القوافي

٦٨٨ فهرس أنصاف وأجزاء الآيات

٦٨٩ فهرس الأرجاز

٦٩٧ فهرس المحتويات

ḠURAR AL-ḤAṢĀ'IS AL-WĀDIḤAH
WA'URAR AL-NAQĀ'IS AL-FĀDIḤAH
(A book in letters and wisdom)

by

Jamāluddīn al-Waṭwāṭ

Edited by

Ibrāhīm Šamseddīn

DAR AL-KOTOB AL-ILMIYAH
Beirut-Lebanon